vol 8

المقتبس

مجلة تبحث في التربية والتعليم والاجتماع والاقتصاد والادب والتاريخ والآثار واللغة
وتدبير المنزل والصحة والكتب وحضارة العرب وحضارة الغرب

AL - MOKTABAS

Revue mensuelle paraissant à Damas, Syrie
Pédagogie, sociologie, économie politique, littérature, histoire, archéologie, philologie, ménage. hygiène, bibliographie, civilisation arabe et occidentale.

تصدر في كل شهر عربي بدمشق

لمنشئها

محمد كرد علي

المجلد الثامن

١٣٣٢ — ١٩١٤

قيمة الاشتراك في دمشق والبلاد العثمانية : ثلاثة ريالات مجيدية
وفي مصر وسائر الممالك : ستة عشر فرنكاً تدفع سلفاً

Abonnement 16 Frcs

طبع بمطبعة الترقي بمحلة القيمرية * بدمشق

رب يسر واعن

فاتحة السنة الثامنة

يفتتح المقتبس سنته الثامنة آسفاً لانقطاعه عن قرائه اشهراً طويلة في العام الماضي راجياً ان لا يعود فيضطر الى الاحتجاب عنهم لاسباب محلية او سياسية او شخصية ٠ ولقد كان السبب في تأخر صدور هذه الصحيفة في اوقاتها هـذه السنة ايضاً تغيبنا خلال الثلث الاول منها في ديار الغرب نتنقل في انديتها العلمية ومكاتبها الغنية للبحث عن مادة جديدة نقتبسها واخذ حقائق نخدم بها العلم العربي فوفقنا في هـذه الرحلة الثانية الى اجتناء ثمرات يانعة سيلذ المجتمعين على هـذه المائدة العلمية تناولها وسنعنى بحسب الدواعي لنقدمها تباعاً و بقدر الحاجة معراة من قشورها بارزة في صحاف براقة نقية فينعموا بها و يطيب لهم مجتناها و يحمدوا غب رواحنا وغدونا في خدمتهم وحسبنا في ذلك رضا رجال العلم وطلاب الآداب عما نكتبه و يكتبه موازرونا الباحثون المحققون ونسأله تعالى هدايتنا وستر خطايانا

راعية الخيل لا راعية الجبل

١ً تمهيد

لغتنا قليلة الالفاظ الاصطلاحية بالنسبة الى وقتنا هذا لا بالنسبة الى عصر فشوها وزهوها وغضارتها الا ان الذي وصلنا منها جاءنا مبهماً او ناقص التعريف والتحديد او مصحفاً ومحرفاً · وهنا الطامة الكبرى والبلوى العظمى · ومن هذا القبيل الكلمة التي نريد ان نبحث عن حقيقتها وهي راعية الخيل فقد جاءت في كتبهم مصحفة بصورة راعية الجبل فهل هذا التصحيف مقبول ؟ — قلنا :

٢ً قول اللغويين في هذه الكلمة واسماؤها المختلفة

قال في القاموس : راعية الجبل : طائر · ولم يزد على هذا القدر · وقال في المخصص ٨ : ١٥٥ : الراعية يقال لها : راعية الخيل ، طائرة صفراء صغيرة تراها ابداً تحت بطون الخيل والدواب كأنما خضب جناحاها وعنقها بالزعفران فيها كدرة وسواد وظهرها اصفر وزمكاها لا طويلة ولا قصيرة » · اه · وقال صاحب تاج العروس : راعية الجبل · كذا في النسخ · والصواب : الخيل بالخاء المعجمة والتحتية كما هو نص التكملة : طائر اصفر يكون تحت بطون الدواب · هكذا هو في التكملة · وقال النضر بن شميل : طائرة صغيرة مثل العصفور تقع تحت بطون الخيل والدواب صفراء كأنما خضب عنقها وجناحها بالزعفران وظهرها فيه كدرة وسواد ورأسها اصفر وزمكاها ليست بطويلة ولا قصيرة · انتهى · فانت ترى من هذه النصوص ان صحيح الرواية هو راعية الخيل لا راعية الجبل لانها ترعى هناك أرواثها كما هو مشهور عنها واما في الجبل فلا يمكنها ان ترعى فيه شيئاً اذ لا ترى فيه الا الخضرة ان كانت هناك خضرة والخضرة لا تفيد هذه الطويئرات فائدة ولهذا يظهر لك فساد هذا التصحيف اذ تتضافر روايات اللغويين الكبار مع الدواعي العقلية عَلَى تأييد هذا اللفظ اي راعية الخيل ودفع الرواية المصحفة وهي راعية الجبل ·

وقال التاج في مستدرك ر ع ي : والراعية : طائر · ورعاة الخيل : لغة في راعية الخيل · عن الصاغاني · قلت انا : اما الراعية فهي نفس راعية الخيل كما تقدم نصه من عبارة صاحب المخصص اذ جعل الراعية وراعية الخيل شيئاً واحداً · واما رعاة الخيل

فقد قال اللغوي الانكليزي « لين » صاحب « مد القاموس » : هكذا وردت هذه اللفظة بدون ضبط في تاج العروس . والظاهر ان هذه الكتابة مخطوءة لاننا اذا نظرنا اليها نراها داخلة في عداد اسم الجنس وحينئذٍ يجب ان تضبط هكذا رعاة الجبل . فانظر الى هذا الكلام مع مافيه من الغرابة . والاصح ان تضبط اللفظة « رعاءة الخيل وزان شدادة . فعالة بمعنى فاعلة للمبالغة فكما انه قيل لها راعية الخيل سميت ايضاً رعاءة الخيل لكثرة رعيها . والا فلو كانت جمعاً لراعية لقيل رواعي الخيل لارعاة الخيل كما قال لين اللغوي المذكور .

وسميت هذه الطويئرة ايضاً « الرعوة » فعلة بمعنى فاعلة . قال في مستدرك التاج : الرعوة : هنية تدخل في الشجرة لاتراها الدهر الا مذعورة تهز ذنبها . نقله السيوطي . قلت انا : وهذه صفة راعية الخيل . ولهذا سماها الافرنج هزازة الذنب Hoche - queue كما سموها ايضاً طويئرة الرعاة Bergeronnette

ومن اسمائها ايضاً الذعرة او الزعرة . وسميت كذلك لانهم توهموا فيها الخوف والذعر ظانين ان اهتزاز ذنبها على الدوام هو من شدة ارتعاشها الحاصل من خوفها . قال ابن سيده : الذعرة : هنية تكون في الشجرة تدخل فيها لاتراها الا مذعورة تهز ذنبها . « وقال صاحب التاج : الزعرة كتؤدة طائر في الشجر لا يرى الا مذعوراً خائفاً يهز ذنبه و يدخل في الشجر وهو الذعرة التي تقدمت . » اه .

ومن اسمائها ام عجلان والقوبع والفتاح . قال الدميري : ام عجلان طائر قاله الجوهري . وقال ابن الاثير : طائر اسود يقال له قوبع . وقيل طائر اسود ابيض الذنب يكثر تحريك ذنبه يقال له الفتاح . والقوبع طائر اسود ابيض الذنب يكثر تحريك ذنبه » .

ويقال في الفتاح : الفتاحية بتخفيف الياء الا ان بعض اللغويين ينكرون كون الفتاحية والفتاح شيئاً واحداً . والصحيح انهما واحد المدلول .

ومن اسمائها : الصفرد قال في اللسان : الصفرد طائر اعظم من العصفور ... وهو طائر جبان يفزع من الصعوة وغيرها . وقال الليث : هو طائر يألف البيوت وهو اجبن طائر . » اه .

وهذه الاسماء وان كانت تقع على جنس واحد من هذا الطير الا ان الاسم الواحد لا يقع على المدلول الآخر . فالصفرد كثير الصفرة اسمه بالفرنسية Bergeronnette jaune

و بلغة العلماء Budytes boarula وهو كثير الوجود في العراق يكون فيه طول السنة · واما راعية الخيل او رعاة الخيل او الراعية او الرعوة فاسمها بالفرنسية Bergeronnette printanière وامابلغةالعلم فهو Budytes flava وامالقوبع فهو والذعرة وام عجلان والفتاح والفتاحية والزعرة شيء واحد واسمها بالفرنسية Bergeronnette grise و بلسان العلماء Motacilla alba او Motacilla cinerea ويشملها كلها اسم الذعرة او الزعرة وهو اسم الجنس ·

ومن اسمائها عند العوام « ام صفيدة » ذكرها صاحب محيط المحيط في مادة ذعر · واعاد الكلام في دائرة المعارف في مادة ذعرة · قال : الذعرة طائر يهز ذنبه دائماً · والعامة تقول له ام (١) صفيدة · » — ومن اسمائها العامية ماذكره الدكتور امين المعلوف في معجم الحيوان ٣٦ : ٤٥٨ (من المقتطف) قال : الذعرة طائر صغير يكثر تحريك ذنبه ويسمى ابا فصادة (٢) في مصر وام سكعكع (٣) في الشام » قلت : واسمه زيطة (٤) عند العراق وصفرد او ابو المليح عند الاعراب ·

---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة في محيط المحيط ودائرة المعارف · ولم يذكر المؤلف عمن نقل هذه الرواية · ولا عوام اي بلاد من الديار العربية يقولون ذلك · على اني اظن ان هناك تصحيفاً والاصحّ ان يقال : ام صفيرة للراعية الصفراء المعروفة بالصفرد عند الفصحاء · لان برث Barth يذكر في كتابه في المجلد ١ ص ١٤٤ ان الصفرد يسمى هناك · « أصفير » وهو صفير او صفيرة تصغير « صفرة » لصفرة لونها او لعل الصفيدة مبدلة من الفصيدة كما سماها المصريون ابا فصادة ·

(٢) اظن ان سبب تسميته بابو فصادة من الفصد وذلك ان ضرباً من الراعية وهي التي تعرف بالراعية الصفراء الفاقعة Budytes citreola هي صفراء قمة الرأس وادانيه فالناظر اليها يظن انها قد تلطخت بدم اصفر فصيد · والدم الاصفر عند العوام يكون من اثر الخوف · فكأنهم سموها كذلك كما سماها الفصحاء « الذعرة » اي الخائفة · فابو فصادة هو « ابو دم الخائف » او ذو الدم الاصفر من خوفه ·

(٣) اظن سبب تسمية العوام لهذه الطويئرة بام سكعكع اشتقاقاً من « سكع » متكررة ومعناه مثل صقع وصقع الفرس والطائر وغيره : كان اصقع اي ذا بياض في وسط الرأس وهو صفة الصفرد الاصقع Motacilla alba

(٤) الزيطة مشتقة من « زيعتا » الارمية ومعناها المرتجفة او المرتعدة الخائفة المضطربة

فمع كثرة هذه الاسماء لاترى المعاجم الفرنسوية العربية او الانكليزية العربية تذكر الا القليل منها · او لاتذكر شيئًا · فهذا المعجم الفرنسوي العربي الكبير للاب بلو اليسوعي على ضخامته وتبجح صاحبه في المقدمة اذ يقول : وهناك معاجم مطولة لكنها كثيرة النقص في مايتعلق بالتدقيق والضبط اذ تجتزي في اغلب الاحيان « بما يقرب من المعنى الحقيقي » دون اللفظ الواجب له · · » اه ومع ذلك ترى فيه من النقص في المصطلحات العلمية مايسقط هذا الديوان في عيون الادباء اطلب مثلاً كلمة Bergeronnette تره يقول : « عصيفير ، طيير » ونسي ان طائر الرعاة اي Bergeronnette هو نفس هزاز الذنب اي Hoche-queue الذي يقول في نقلها الى العربية : ذعرة (ام صفيدة) مع انه يقول بالفرنسوية هي و Bergeronnette شيء واحد · و يفسرها بها · — واما بادجر Badger صاحب الكتاب الانكليزي العربي المعجم الكبير فيقول في Wagtail : هزاز الذنب ، ذعرة · ولايزيد على هذا القدر · وقد سبقه الى هذا التعبير بقطر في معجمه الفرنسوي العربي ·

فانت ترى من هذه الشواهد ان معاجمنا العربية ومعاجم اللغات الاجنبية الى اللغة العربية تحتاج الى نظر لتضبط وتصحح و يدقق فيها حتى تجاري دواوين لغات اهل الغرب الذين يبالغون في تهذيبها وتحسينها على الدوام · واما اصحابنا فانهم ينقلون اقوال من تقدمهم بدون تروٍ او تدقيق النظر فيها · ولهذا ترى معاجمنا العربية الحديثة لاتمتاز عن معاجم الاقدمين بشيء يذكر ·

وصف هذه الطويئرة على ماجاء به العلماء

راعية الخيل من الطويئرات القواطع من رتبة العصافير المسننة المنقار الراجعة الى جنس الدقيقات المنقار والى صنف هزازات الاذناب · وتمتاز بمنقار دقيق مستقيم و بمنخرين ملوزين يكونان عند قاعدة المنقار ومغشيان الى نحو منتصفهما بغشاوة جرداء ولها ابهام به ظفر طويل قليل التقوس وتعرف بذنب ليس بالطويل ولا بالقصير دائم الحركة تهزه الطائرة من فوق الى اسفل ·

والطويئرات المسماة بهذا الاسم تشمل صنفين وهما : رواعي الخيل و بالفرنسوية Bergeronnettes و بلسان العلم : Budytes والصفارد و بالفرنسوية Lavandières و بلسان العلماء Motacillæ وكلها من آكلة الحشرات · وتعشش تحت اكوام الحجارة وفي ثقوب الاشجار الكبار وفي نخاريب الاجراف او في المزارع والمروج · واذا

جاء الربيع حسرت (اي سقط ريشها ونبت غيره) واذا جاء وقت الهيج تحلي ذكورها بانخر الريش فتتميز به عن إناثها . وفي غير هذا الاوان يصعب على الرائي ان يميز الذكور من الاناث . والفرق الفارق بين الرواعي والصفارد ان الرواعي تختلف الى المروج والزروع ومجتمعات الخيل والمواشي والغنم وتتبع الرعيان اينما ذهبوا وتتأثر الحراثين لتلتقط مائقع عليه بعد الكراب من ديدان ودوبيات . — واما الصفارد فتجاور المياه والبطائح والغدران والمغتسلات . ولهذا سماها الفرنسويون : الغسالة Lavandières او المغتسلة وهذه اللفظة العربية كالعلمية Motacillæ زنةً ومعنى أو تكاد . وهذا الاسم يعرفه بعض النساء اللواتي يغسلن الثياب على حافة دجلة . فتأتي هذه الطويئرات ويحمن حول هؤلاء النساء سحابة النهار وتدنو منهن بكل انس وتلتقط مايتساقط من الفتات . وهذه الطويئرات تحاكي الغسالات بانها تخطر بذنبها الارض والنساء يقصرن الثياب بضربها بالميجنة .

والرواعي تلتقط طعامها بسرعة البرق الخاطف ان كان من الارض وان كان في الهواء . واما طيرانها فتموج وبخفقاتٍ ونقزاتٍ . واذا طارت الصفارد اسمعت صوتًا حاداً قصيراً تردده كأنها تقول : كِي كِي فتجاوبها التي على الارض بمثل هذا الصوت .

ولكل من الرواعي والصفارد ضروب واشكال تختلف بعضها عن بعض بالنعوت فيقولون الصفرد الارمد والصفرد الاصفر والراعية الرمداء والراعية الصفراء الى آخر ماهناك . وبهذا القدر كفاية للغوي والاديب . ومن اراد الزيادة فليرجع الى كتب الفن وقد يسرت عليه المراجعة بعد معرفة الالفاظ العلمية . والله ولي التيسير .

بغداد : ساتسنا

الافادات والانشادات

وقفت في احدى دور الكتب في النجف على مجلد يوجد درجه عدة كتب نحيفة منها مختصر تاريخ للشام في القرن السابع سقط اوله فلم اعرف مؤلفه ومنها كتاب (الفوائد الوفية بترتيب طبقات الصوفية) تأليف يوسف بن شاهين سبط ابن حجر العسقلاني الشافعي والظاهر ان نسخته هذه نسخة المؤلف ومنها كتاب (الافادات والانشادات) من املاء الشيخ الامام النحوي اللغوي العروضي ابى اسحق ابراهيم بن موسى الشاطبي الاصل الغرناطي من رجال اواسط القرن الثامن في الاندلس وهذا الكتاب مخطوط خطاً مغربياً يصعب هجاؤه وقد شذ آخره وهو ما اردنا ان ننشر شطراً منه نختاره للقراء قال المؤلف :

اما بعد ايها الاخ الصفي الصديق الوفي اعزك الله وسددك فاني جمعت لك في هذه الاوراق جملة من الافادات المشفوعة بالانشادات مما تلقيته عن شيوخنا الاعلام واصحابي ذوي النبل والافهام قصدت بذلك تشويق المتعبد في المعقول والمنقول ومحاضرة المسترشد من نتائج القرائح والعقول والله المستعان وعليه التكلان

افادة

حدثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل الشهير الخطير ابو عبد الله محمد بن محمد بن احمد ابن بكر بن علي المغربي رحمه الله تعالى املاء علينا عن الامام الكبير ابي حيان محمد بن يوسف بن حيان قال ورد كتاب من الاستاذ ابي عبد الله بن شبث الغرناطي الى صاحب له يسمى حمزة وفيه سئل الشيخ (قال ابو حيان يعنيني)

وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخط عتيق ان رجلاً سأل ابن الاخضر بمحضر ابن الابرش عما انتصب قوله

مقالة ان قد قلت سوف اناله

فقال (ولا تصحب الازدي فتردى مع الردي) فقال سألتك عن اعراب كلمة فاجبتني بنصف بيت فقال ابن الابرش قد اجابك لو كنت تفهم قال ابو حيان فوقعت عليه للحين ان هذا الشطر من قول النابغة

اتاني ابيت اللعن انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

مقالة ان قد قلت سوف اناله   وذلك من تلقاء مثلك رائع

يروي (مقالة) بالرفع على انه بدل من (انك لمتني) الفاعل باني و بالفتح على ذلك الا انه بناء لما اضافه الى مبني

انشاده

انشدني الشيخ الفقيه القاضي الاعدل الفاضل ابو بكر محمد بن عمر بن علي القرشي الهاشمي ابقاه الله في السابع والعشرين لذي حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة قال انشدني ابي قال انشدني شرف الدين الدمياطي قال انشدني تاج الدين الارموي قال انشدني الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي لنفسه

نهاية اقدام العقول عقال   واكثر سعي العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجالٍ قد رأينا ودولة   فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها   رجال فماتوا والجبال جبال

افادة

حدثنا الاستاذ الفقيه الجليل الاصولي ابو علي منصور بن علي الزواوي رحمه الله تعالى ان الفخر ابن الخطيب سأل سيف الدين الآمدي رحمه الله تعالى فقال له لم اجاز الشرع ذبح الحيوان في حق الانسان وهو تعذيب له وتعذيب الحيوان على خلاف المعقول فقال له سيف الدين ان اتلاف الخسيس في حق النفيس من مناهج العقول فقال له الفخر لو كان كذلك لجاز ان تذبح انت في حق الرئيس ابن سينا

انشاده

انشدنا الشيخ الاستاذ القاضي ابو عبدالله المغربي لنفسه

انبت عوداً بنعمان بدأت به   فضلاً والبسته بعد اللحا الورقا
فظل مستعراً مستدثراً أرجاً   وبات ذا بهجة يستوقف الحدقا
فلا تشنه بمكروه الجنى فكم   عودته من جميل من لدن خلقا

انشاده

انشدني الاستاذ الكبير ابو سعيد بن لب ابقى الله بركته عشية يوم الاربعاء الثالث لشعبان عام تسعة وخمسين وسبعمائة لنفسه

وهبك وجدت العفو عن كل زلة فاين مقام العفو من مقعد الرضا
وكيف بثوب حالك اللون رمت ان يصير كثوب لم يزل قط ابيضا

افادة

حدثني الشيخ الفقيه الاستاذ الكبير النحوي الشهير ابو عبد الله محمد بن علي الفخار البيري رحمة الله عليه ان بعض الشيوخ كان اذا أُتي باجازة ليشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ اجازة ماوزنه وماتصريفه ؟ قلت ولما حدثنا بذلك سألناه عنها فاملى علينا مانصه : وزن اجازه في الاصل افعاله واصلها اجوازه فاعلت بنقل حركة الواو الى الجيم حملاً على الفعل الماضي لاستسقالاً فتحركت الواو في الاصل وانفتح ماقبلها في اللفظ فانقلبت الفاً فصارت اجازاه فحذفت الالف الثانية عند سيبويه لانها زائدة والزائد اولى بالحذف ووزنها في اللفظ عند سيبويه افعله وعند الاخفش افاله لان العين عنده محذوفة

انشاده

انشدني الفقيه الصوفي المتخلق ابو محمد بن الناظر قال أُنشدت في النوم هذين البيتين

نحن قسمنا الرزق بين الورى فادب النفس ولا تعترض
وسلم الأمر لاحكامنا فكل عبدٍ رزقه قد فرض

افادة

لما توفي شيخنا الاستاذ الكبير العلم الخطير ابو عبدالله بن الفخار سألت الله تعالى ان يرينه في النوم فيوصيني بوصية انتفع بها في الحالة التي انا عليها من طلب العلم فلما نمت في تلك الليلة رأيت كأني أدخل عليه في داره التي كان يسكن فيها فقلت ياسيدي اوصني فقال لي : لا تعترض على احد . ثم سألني بعد ذلك في مسألة من مسائل العربية فاجبته عنها ولا اذكرها الآن

6

انشاده

انشدني الفقيه الاديب ابو جعفر احمد بن عبد العظيم لنفسه

حاذر طباع الصاحب السوء لا   تعدو الى طبعك او تطرق
والمـاء ضـد النار لكـنه   يعود ان جاورها يحرق

افادة

حدثنا الاستاذ ابو عبدالله البلنسي قال حدثنا الاستاذ الخطيب ابو عبد الله محمد ابن مرزوق قال سألت ابي ونحن نطوف بالبيت الحرام زاده الله تشريفًا فقلت له لم كان البيت يجعل في الطواف الى جهة اليسار ولم يجعل الى جهة اليمين وهي اشرف فقال لي سريعًا يابني ان القلب على جهة اليسار فجعل الشق الذي هو محل القلب الى جهة البيت ليكون اقرب موافقة لقوله تعالى (واجعل افئدة من الناس تهوي اليهم) فقلت له ان الطبيعيين واهل التشريح اطبقوا على ان محل القلب الحقيقي هو الوسط لا للجهة اليسرى ولا اليمنى نعم وضع رأسه مائلاً ذات اليمين قليلاً وابرته مائلة ذات اليسار قليلاً ثم وقفت المسألة فانهيتها الى الطبيب العارف ابي عبدالله الشفوري فقال لي ماقلت للاستاذ حق قلت ثم ذكر وجهين لحل الاشكال

انشاده

انشدني الفقيه الاديب ابو جعفر بن عبد العظيم في الرابع لرمضان المعظم سنة تسع وخمسين وسبعمائة قطعة له

تتوق الى الراحات نفسي وانني   لاعصي هواها تارةً والومها
وتأبى سوى ماتشتهي فاطيعها   واعـلم اني في رضاها ظلومها

افادة

كثيراً ما كنت اسمع الاستاذ ابا علي الزواوي يقول قال بعض العقلاء لايسمى العالم بعلم ماعالمًا بذلك العلم على الاطلاق (يريد الاخصاء) حتى تتوفر فيه اربعة شروط احدها ان يكون قد احاط معرفةً باصول ذلك العلم عَلَى الكمال والثاني ان تكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم والثالث ان يكون عارفًا بما يلزم عنه والرابع ان تكون له قدرة عَلَى دفع الاشكالات الواردة عَلى ذلك العلم قلت (المؤلف) وهذه الشروط رأيتها منصوصة لابي نصر بن محمد الفارابي الفيلسوف في بعض كتبه

انشاده

انشدني الفقيه الاديب ابو جعفر بن عبد العظيم لنفسه في العشر الاواسط لربيع الاول عام ستين وسبعمائة

لايخدعنك في امرئ   لبس الحلي والحلل
في الناس من تلقاهم   حمر الوجوه من الخلل

انشاده

انشدني الفقيه القاضي ابو بكر بن القرشي لنفسه في السابع والعشرين لذي حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة

اذا ماتبدى منهج الحق واضحاً   تعامى اناس في الضلالة زاغوا
جلت لهم الدنيا محاسنها التي   يزخرف منها ذروها ويصاغ
فهم نحوها مثل الفراش تساقطت   على النار ماغير الممات بلاغ
وليس صبا الانسان غدراً فكيف اذ   مضى منه شرخ واستحال صباغ
الى الله اشكو امر نفسي فانها   عن الرشد فيها حيرة ومراغ
ويا اسفي للنعمتين اضيعتا   فهل عائد لي صحة وفراغ

افادة

جرى لنا يوماً بين يدي الاستاذ الكبير ابي سعيد بن لب انه حكى ان طعام فرعون كان محاح البيض ليقل برازه فانها قليلة الفضلة فانهيت المسألة الى الفقيه الطبيب ابي عبدالله الشفوري فقال الدليل عَلَى قلة فضلتها ثلاثة اشياء احدها ان فيها سرعة الانفعال للمضغ وهو دليل عام عند الاطباء في الاغذية فانهم يقولون كل ماعسر مضغه عسر هضمه واذا عسر هضمه فضل اكثره وبالضد الثاني ان ابن سينا جعل محاح البيض من ادوية القلب فانها تكثر دم القلب ودم القلب الطف من كل دم يكون في البدن وما كان هكذا حقيق بان لاتكون له فضلة يعتد بها والثالث انه غذاء الطير عند تكوينه من البياض في جوف البيضة مع انك لاترى له فضلة عند خروجه منها فهذا دليل قلة فضلته

انشاده

انشدني الفقيه الفاضل ابو محمد عبدالله بن حذلم قال انشدني الفقيه الاجل الكاتب

ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن الشيخ الاجل الاستاذ العالم المتفنن الشهير ابي عبدالله بن الرقام قال انشدني ابي قال انشدني اخي محمد لنفسه

لم يشتر الشهد شخص ضوءه الكسل فلست اول صب خانه الأمل
لاعتب ان خلفوني في الحضيض لما اشدو به عم صباحاً ايها الطلل
ورافقوا الغير دوني في مسيرهم فربما قصرت بي دونهم علل
كم انجدوا كلما اتهمت وانتهضوا نحو اليفاع وبالعلياء قد نزلوا
يجدوا قرائح منهم عزهم وانا لاناقة لي احدوها ولاجمل
من لي بادراك آثارٍ لابلغهم وكيف ذاك وطرفي طالع عزل

انشاده

جل في البلاد تنل عزاً ومكرمةً في اي ارض تكن تلقى مناك بها
جن الفوائد في الاسفار مكتسب والله قد قال فامشوا في مناكبها

قال لي الفقيه ابو محمد بن حذلم فقلت له اني احفظ للامام الشهير ابي حيان يوسف بن حيان المغربي بهذا المعني والقافية من التزام التجنيس وهي

يانفس مالك تهوين الاقامة في ارضٍ تعذر كل من مناك بها
اما تلوت وعجز المرء منقصةٌ في محكم الذكر فامشوا في مناكبها

قال فقضينا العجب من هذا الاتفاق الغريب قلت ووجدت انا بخط الفقيه الاديب البارع المحدث ابي عبد الله محمد بن الشيخ الاستاذ الشهير ابي القاسم بن جزي قطعة له وهي

ومعسول اللمى عادت عذاباً على قلبي ثناياه العذاب
وقد كتب العذار بعارضيه كتاباً خط قارئه اكتئاب
وقالوا لوسلوت فقلت خيراً واني لي وقد سبق الكتاب

ثم كتب بعدها مامعناه اني عرضتها على شيخنا القاضي ابي القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لي قد نظمت هذا المعنى بالعروض والقافية

واحور زار خديه عذار سبى الالباب منظره العجاب
اقول لهم وقد عابوا غرامي به اذ لج للدمع انسكاب
ابعد كتاب عارضه يرجى خلاص لي وقد سبق الكتاب

وهذا غريب

افادة

حدثنا الاستاذ القاضي ابو عبد الله المقربي قال كان ابو زيد بن الامام يصحف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها فيقول والمفارقات قال ولعله في هذا كما قال ابو عمرو بن العلاء للاصمعي لما قرأ عليه

وغررتني وزعمت انك لابنٌ في الصيف تامر

فقال

وغرزتني وزعمت انك لاتني بالضيف تأمر

فقال انت في تصحيفك اشعر من الحطيئة

انشاده

انشدني الفقيه الفاضل ابو عبدالله بن بقي لنفسه قال ونظمتها ارتجالاً وقد دعيت الى نزهة اثر تشييع جنازة

كم ارى مدمن لهو ودعه لست اخلو ساعة من تبعه
كان لي عذر لدى عهد الصبا وانا آمل في العمر السعة
فدعوني ساعة ابكي على عمر امسيت فيمن ضيعه

انشاده

انشدني الفقيه الفاضل ابو عبدالله بن بقي قال انشدت في النوم مقطوعة منها هذان البيتان .

قم اذا القوم ذكروا وابتكر حين بكروا
ان في كل لحظةٍ نفحاتٍ تكرر

انشاده

انشدني القاضي ابو عبدالله قال انشدني محمد بن ابراهيم بن الحاج البلفيقي قال انشدني محمد بن رشيد الفهري قال انشدني ابو حفص بن الخيمي لنفسه

لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل

افادة

سألنا الشيخ القاضي ابو عبدالله المغربي رحمه الله عن اسم كتاب الجوهري في اللغة

فقلت له من الناس من يقول الصحاح بالكسر ومن الناس من يفتح فقال انما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره في باب صحح قال ويحتمل ان يكون مصدر صح كجنات

انشاده

انشدني الفقيه العدل الفاضل ابو عبدالله الشريشي قال انشدني الشيخ القاضي ابو عبدالله المغربي قال انشدني الحاج ابو عبدالله محمد بن عبدالواحد الرباطي قال انشدني تقي الدين لنفسه

تمنيت ان الشيب عاجل لمتي وقرب مني في صباي مزاره
لآخذ من عصر الشباب نشاطه وآخذ من عصر المشيب وقاره

انشاده

انشدني الفقيه ابو عبدالله بن بقي قال استيقظت من نومة نمتها في القائلة في شهر رجب من عام ستة وخمسين وسبعمائة وانا انشد هذا البيت

ولا يبلغ القصاد كل مرادهم اذا عدموا زاداً من العلم نافعا

افادة

افادني صاحبنا الفقيه الكاتب ابو عبدالله بن زمرك اثر ايابه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد اذكر الآن منها ثلاثاً احدها الفقه في اللغة وهو النظر في مواقع الالفاظ واين استعملتها العرب ومن مثل هذا الوجه قولهم قرم وعام اذا اشتهى لكن لا يستعمل الا مع اللحم ولا يستعمل عام الا مع اللبن فتقول عمت الى اللبن وكذلك قولهم اصفر فاقع واحمر قان ولا يقال بالعكس وهذا كثير والثانية تحري الالفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال فلا يستعمل الحوشي من اللغات ولا المبتذل في السن العامة والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن اصل المعنى او تشوش عليه اذ المقصود الوصول في بيان المعنى الى اقصاه والاتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع واخبرني ان كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ويذمون ماعداها من طرق المولدين وانها خارجة عن الفصاحة وهذه المعاني الثلاثة لا توجد الا فيها

انشاده

انشدني الفقيه ابو عبدالله الشريشي قال انشدني المغربي قال انشدني الرباطي قال انشدني تقي الدين بن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض اخوانه بالحجاز الشريف

يهيم قلبي طربًا عندما استلمح البرق الحجازيا
ويستميل الوجد قلبي وقد اصبح لي ثوب الحجى زيا
ياهل اقضي من منى حاجتي وانحر البزل المهاريا
وارتوي من زمزم فهي لي الذ من ريق المهى ريا

انشاده

انشدني الفقيه الرحالة ابو اسحق بن الحاج قال انشدني الاستاذ الامام ابو حيان يوسف بن حيان لنفسه

عداي لهم فضل علي ومنة فلا اذهب الرحمن عني الاعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

افادة

وقع بيني يومًا وبين من يتعاطى النظر في العلم من اليهود كلام في بعض المسائل الى ان جرى الكلام الى عيسى عليه السلام فاخذ ينكر خلقه من غير اب ويقول وهل يكون شيء من غير مادة ؟ فقلت له فيلزمك اذاً ان يكون العالم مخلوقًا من مادة وانتم معشر يهود لاتقولون بذلك (الظاهر ان القول بخلق العالم ابتداء من غير مادة مسلم عند اهل الاديان الالهية) واحد الامرين لازم اما صحة خلق عيسى من دون اب واما بطلان خلق العالم من غير مادة فبهت

انشاده

انشدنا صاحبنا الفقيه الاديب ابو محمد بن حذلم لنفسه

يقولون خل عنك الاسى ولذ بالسرور فذا يوم عيد
فقلت لهم والاسى غالب ووجدي يحيي وشوقي يزيد
توعد في مالكي بالفراق فكيف اسر وعيدي وعيد

انشاده

انشدني الفقيه الاديب البارع ابو محمد بن حذلم لنفسه

شان المحبين في اشجانهم عجب   وحالتي بينهم في الحب اعجبها
قد كنت ابعث من ريح الصبا رسلا   تأتي فتطفي اشواقي وتذهبها
والآن ارسل دمعي اثرها ديمًا   فتلتظي نار وجدي حين اسكبها
فاعجب لنار اشتياق في الحشا وقعت   والريح تذهبها والماء يلهبها

افادة

كتب لي بخطه شيخنا القاضي الجليل ابو عبدالله المغربي رحمه الله على ظهر التسهيل لابن مالك الذي كتبته بخطي بعد ما كتب لي بخطه روايته فيه عن ابي الحسين بن مزاحم عن بدر الدين بن جماعة عن المؤلف فكتب بعد ذلك مانصه :

قال محمد بن محمد المغربي بدر الدين بن جماعة المذكور يدعى بقاضي القضاة على ماجرت به عوائد اهل المشرق في تسمية مثله وانا اكره هذا الاسم محتجاً بقول النبي صلى الله عليه ان اخنع اسم عند الله يوم القيمة رجل تسمى ملك الملوك لاملك الا الله

انشاده

انشدنا شيخنا الفقيه القاضي المتفنن ابو عبد الله المغربي لنفسه

وجد تسعره الضلوع   وما تبرده المدامع
امل اذا وصل الرجا   اسبابه فالخوف قاطع
بالله ياهذا الهوى   ما انت بالعشاق صانع

النجف : محمد رضا الشبيبي

سيرة صلاح الدين

لو كان تاريخ العرب يدرس في مدارسنا على اصوله لوجب ان تدرس سيرة السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بعد الخليفة المأمون العباسي ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت سيرته في عهده فكان عند المشارقة والمغاربة انموذج الملك الحازم العاقل واحق مايرجع اليه في سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الكاتب احد كتاب ديوانه ثم يؤخذ عمن كان في عصره او قريباً منه امثال ابن الاثير صاحب الكامل وتاج الدين شاهنشاه بن ايوب صاحب حماة او عن صاحب تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين .

اما كتاب النوادر فهو على اسلوب المؤرخ كتب بعبارة مرسلة لاتكلف فيها صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسي فانه راعى فيه السجع من اوله الى آخره حتى يكاد يملُّ قارئه وتشغله الالفاظ والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على ان له من سجعه في الاحيان مايجيء عفو القريحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرنج » فانه ابدع فيه كل الابداع وان كان على مايظهر ركب مركب الغلو في تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد في قلعة تكريت (٥٣٢ هـ) وكان والده ايوب بن شاذي والياً بها الى ان جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى ان انتقل معه الى الشام واعطي بعلبك الى ان اتصل بالملك العادل نورالدين محمود بن زنكي الى ان ذهب مع عمه اسد الدين شيركوه الى مصر الى ان ملك مصر وازال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى ان فتح الشام واستخلص اكثر بلاد الساحل الشامي والقدس من الافرنج الى ان توفاه الله في دمشق بعد جهاد اربع سنين في الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولاشهدنا له الا ماينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهي والحلم الذي دونه حلم احنف ومعاوية ولولا مادسه الفقهاء عليه من تزيين قتل الشهاب السهروردي الفيلسوف لخرجت صحيفة حياته كلها بيضاء

15

نقية قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد امر ولده صاحب حلب الملك الظاهر اعز الله انصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرّف السلطان به فامر بقتله فطلبه اياما فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء اورد هذه القصة في معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ·

الا ان ابن ابي أصيبعة قال في حقيقة قتل الشهاب السهروردي انه لما اتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره احد كثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع مايجري بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقرّبه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع اولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد اي ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه اشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب السهروردي لابد من قتله ولاسبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وايقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار ان يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى ان يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان في اواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة · قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردي صار له شأن عظيم عند الملك الظاهر وبحث مع الفقهاء في المذاهب وعجزهم واستطال على اهل حلب وصار يكلمهم كلام من هو اعلى قدراً منهم فتعصبوا عليه وافتوا في دمه حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين افتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم واهانهم واخذ منهم اموالاً عظيمة ·

هذه الغلطة الوحيدة هي التي أحصيت لصلاح الدين وهي في الحقيقة انتقام المتفقهة من المتفلسفة او النقل من العقل — وهذا الانتقام مابرح على اشده في كل زمان ولاسيما

منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل في بلاد الاسلام كثير من الاعاظم او اضطهدوا وأوذوا من قبل اعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان صلاح الدين لا يلام على قتل احد من الصليبيين لانهم الخشوا هم في اسراه وعاهدوا فخانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية او من قاموا يدعون اليهم بعد ان زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة اليمني الشاعر (المقتبس م ٣ ص ١٦٩) كل ذلك يغتفر له لانه في سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .

ومما ذكره ابن شداد في عدله انه كان رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكاتب ساعة اما في الليل او في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً ابداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته ولقد رأيته واستغاث اليه انسان من اهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن اخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقي الدين من اعز الناس عليه واعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق .

واعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعى عمر الخلاطي وذلك اني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل عليَّ شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال : خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعت انك لا تحابي قلت : وفي اي قضية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي الى ان مات وكان في يده اموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وانا مطالبه بها فقلت له : ياشيخ وما اقعدك الى هذه الغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمي ينطق بانه لم يزل في ملكي الى ان مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل في ملكه الى ان شذ عن يده في سنة كذا وماعرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم

الشرط الى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغي سماع هذا بلاوجود الخصم وانا اعرّفه واعرّفك ماعنده فرضي الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال : كنت نظرت في الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية مايقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولابد ان نسمع دعواه فقال : اقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ماشرح اولاً فاجابه السلطان ان سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى اعتقته وتوفي وخلف ماخلفه لورثته فقال الرجل : لي بينة تشهد بما ادعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحه فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي من يشهد ان سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر واني اشتريته مع ثمانية انفس في تاريخ يتقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل في يدي وملكي الى ان اعتقته ثم استحضر جماعة من اعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يامولاي هذا الرجل مافعل ذلك الا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن ان يرجع خائباً للقصد فقال : هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عني مقدارها قال ابن شداد فانظر الى مافي طيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة اه ·

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ماتجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل استرقت جميع ماملكه من الاموال فملك ماملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من انواع الاملاك وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد (ديار بكر) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطي في وقت

الضيق كما يعطي في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم مهمٌّ لعلمهم بانه متى علم به اخرجه قال ابن شداد : وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب فماسمعته قط يقول : اعطينا لفلان ٠ وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وماسمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم از يد واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني و يدي و كنت اخجل من كثرة مايطلبون ولااخجل منه من كثرة مااطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك وماخدمه احد الا واغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي : قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكد يركب فرساً الا وقد وعد بان يعطيها لاحد طلاب عطاياه ٠ وبالجملة فان ماذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بامر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على اسباب المروءة هو العجب العجاب وقرة عين المسلمين والعرب على مر السنين والاحقاب ٠

يرى الناظر في كتاب العماد الكاتب الاصفهاني انه لم يكد يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية او يشذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن النثر والسجع عن قبول هذه المعاني بجملتها و يعاب على الاصفهاني كثرة تبجحه بكتابته فقد ذكر غير مامرة من كتابه انه كان هو الفرد المقدم في الديوان الصلاحي مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض اورده كما رأيته في معرض الكلام على مناقب صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس في المبالغة سامحه الله

فقال في فتح بيروت : « وكنت يومئذ في مرض قد ازعجني واعجزني ومضض اجفاني ولعيون العواد ابرزني وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب في ديوانه وكل من يمسك قلماً من افاضل الملك واعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه مارتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت اذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني فتسلم بيروت بخطي واصبحوا وانا الآخذ والمعطي وكان الناس قد انسوا بما اسطره واز بره وأنسوا سوى ماأذكره واحبره والفوا الصحة فيه فالفوه ولقوا السقم في غيره فانفوه فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فماافتتح فتح الا بمفتاحه ولارتق فتق الا باصلاحه ولا جلي ظلام الا باصباحه ولاوري زند الا باقتداحه ٠ اه »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق يداوي مزاجه فلما عاد الى الحضرة سألة السلطان : « اين كنت ولم ابطأت وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك والسوءال عن اخبارك وهذا اوان احسانك فاين احسان اوانك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز في ميدانك وما للبشائر (بفتح القدس) الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللفصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ماارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو اقوم به وعناني فلماساءني ناداني واستدناني فصرفت الى امتثال امره عناني وسلم اليّ الكتب التي كتبوها بالالفاظ التي رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه اني اعدل معوجها وابدل مثبجها وافترع المعنى البكر للفتح البكر واوشح ذكر آياته بآيات الذكر فاستجديتها فما استجدتها واستملحتها فما استملحتها وشممتها وبها سهك وكشفتها وستورها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت في افتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الكلم الفصيحة الفسيحة وافتتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت واطلت واطبت وصبت واصبت واعجزت واعجبت واطربت واطربت وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وانست ... اه »

وقال في الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين اربعين كتاباً بالبشارات بابلغ المعاني وابرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة ورأى البشائر شائرة وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعى واجساد فما اعجل ماسلبوا وعروا وفروا وقروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الي الخيام واخذت الكتب التي نمقتها بالبشائر التي حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني وعدم اجابتي لما دعاني فما صبر ولا انتظر ولا ترقبني ان احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بانوار المعاني افقها وابلغ بالبلاغة مداها واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف واروج نقودي عند السلطان واغنيه عن الزيوف فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات ومدوني

الجرائد بالاثبات وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها واحالوا حالها فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقعت عليها وقع ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها وفي تلك الحال التفت السلطان اليّ وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد وعجل بها الانفاذ فقلت على سبيل العتب انتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه واهذبه فقال كأنك كتبت البشائر فهاتها حتى تهدى الى طرقاتها فقلت ٠افات فات وهيهات هيهات واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي انشأتها بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصمت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصي والاداني ٠ اه »

وقال من هذا البحر والقافية « في ذكر لطف من الله في حقي خفيّ » كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابًا بخطي وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي فقلت لاصحابي ماصرف الله قلبي عن عكاء الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعادتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلبي وكلي وعرف شيم مخايل الطافه من شيمي وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري وما اجراه الله الا باجري فالحمد لله الذي صانه وعظم شانه و٠اضيع احسانه وهو للفقه والفتيا ومصالح الدين في الدنيا وماعرف الا بعرف فما صرف الا عن صرف وما سفارته الا في نجح وما اسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يمين الدولة وامينها ومعين الملة بل معينها بمداده يستمد امدادها وبسداده للثغور سدادها ودواته دواء المعضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادي الخطوب وبقطه قط هوادي القطوب وببريه برء الامراض وبدره درء الاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبدراريه ابتسام الاقبال والقبول وبجريه جري الجياد للجهاد وبسعيه سعي الامجاد للانجاد وبحركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجاء فما كان الله ليضيعه في صون مالا يصونه وعون من لا يعينه

نخفت على عكاء من وقوف قلبي عنها وكان قد الهمني الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اه ٠ »

وقال من فصل في وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لافرق بين الدجى والضحى ولااجد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولاصحا وحالت حالي وزال ادلالي وزاد بلبالي وبطل حقي واتسع خرقي وتنازل جاهي وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكرة والمطالع مكفهرة والعيون شاخصة والظلال قالصة والايدي يابسة والوجوه عابسة وعادت ابكار خواطري عانسة ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة وبقي باب كل مرتجى مرتجا ومنهج كل معروف منهجاً وظعن الغنى عني واختلف في حسن الاخلاف بي ظني حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام ابيه وقام بالامر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي دري فكتبت له وحليت من الملك عطله ووشيت الكتب ووشعتها وجليت الرتب ووسعتها وهززت البراعة واغزرت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة ٠ اه »

هذا هو الاعجاب بالنفس بل اعجاب الفرس تراه ماثلاً من اول كتابه الى آخره فقد قال في مقدمته : « واودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب وسميته الفتح القدسي تنبيهاً على جلالة قدره وتنويهاً بدلالة فخره وعرضته على القاضي الاجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه مايعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته اه ٠ »

واظن ان القاضي الفاضل على جلالة شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على ان للعماد من المزايا التي يفاخر بها ماقد يغفر له هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شيء من المزايا ٠ نشأ العماد باصبهان وقدم بغداد في حداثته وتفقه بالمدرسة النظامية واقام بها مدة (ابن خلكان) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفي اقام العماد مدة في عيش منكد وجفن مسهد ثم انتقل الى دمشق (٥٦٢ هـ) وسلطانها يومئذ الملك العادل نورالدين وعرفه والد صلاح الدين فاحسن اليه واكرمه وميزه عن الاعيان والاماثل وعرفه صلاح الدين ومدحه بقصيدة ثم ان القاضي كمال الدين الشهرزوري

نوه بذكره عند السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله واهله لكتابة الانشاء قال العماد فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دراية ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها في الابتداء فلما باشرها هانت عليه واجاد فيها واتى فيها بالغرائب وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية ايضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة اكيدة وامتزاج تام ولما اخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وانشده قصيدة اطال نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عطلته مديدة وهو يغشي مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض بصحبته القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه فصار من جملة الصدور المعدودين والاماثل المشهورين يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم وكان القاضي الفاضل في اكثر اوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلاً على زينة دمية الدهر تأليف ابي المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري والحظيري جعل كتابه ذيلاً على دمية القصر وعصرة اهل العصر للباخرزي والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على يتيمة الدهر للثعالبي والثعالبي جعل كتابه ذيلاً على كتاب البارع لهرون بن علي المنجم

وقد ذكر العماد في خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك احداً الا النادر الخامل واحسن في هذا الكتاب وهو في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وانما سماه البرق الشامي لانه شبه اوقاته في تلك الايام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على الذيل جعله ذيلاً على الذيل لابن السمعاني وهو ذيل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة في اخبار الدولة السلجوقية (مطبوع) وله ديوان رسائل وديوان شعر في اربع مجلدات ونفسه في

قصائده طويل وله ديوان صغير جيعه دو بيت وكان بينه و بين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطائف ٠

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى ان توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختلت احواله وتعطلت اوصاله ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر ٠

اما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ وحفظ بها القرآن الكريم في صغره وتخرج بضياء الدين القرطبي و بابن الشيرجي والطوسي الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراآت والتفسير والحديث والفقه والخلاف والادب واللغة واعاد بالمدرسة النظامية وحج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بيت المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين فانه كان امير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وماز اد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً جمع فيه اذكار البخاري وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصبهاني وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرفنا بذلك فلنا اليك مهم فاجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما اعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الاولى سنة اربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة اولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين ابن صلاح الدين صاحب حلب الى اخيه الملك الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فاجابه الى ذلك فارسله الملك الظاهر الى مصر لاستخلاف

اخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولي قضاءها ووقوفها وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب امورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له اقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث في حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها ٠

وكان بيد القاضي ابو المحاسن بن شداد حل الامور وعقدها لم يكن لاحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز ابو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين ابي سعيد طغرل وهو اتابكه وتولى امور الدولة باشارة القاضي ابي المحاسن لايخرج عنها شيء من الامور وكان للفقهاء في ايامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان و يفطرون في شهر رمضان على سماطه ٠

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ماتقدم تحصيله وكان القاضي ابو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والروءساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر اقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجهز الى الديار المصرية لاحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فسار في اول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي ابو المحاسن وجهاً يرتضيه فلازم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية مافي الباب انه لم يبق له حديث في الدولة وكانوا يراجعونه في الامر فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين واستمر على ذلك حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأ الحكام عند التباس الاحكام يتعلق بالاقضية في مجلدين وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها

15

الاحكام في مجلدين وكتاب الموجز الباهر في الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية ·

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما على ادلالهما عليه فنفقت بضاعتهما في سوقه والدولة سوق يحمل اليها مايروج فيها · ومع ما كانا فيه من السعة لم تلههما الدنيا عن التأليف والتدريس واحياء معالم العلم والادب فاثرا بفضلهما في حياتهما و بعد موتهما كتب العماد السيرة الصلاحية ممزوجة بالادب ومع هذا لم يفته الغرض من التاريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وفرنصت بزاة البيزانية وتقلصت جناة الجنوية وكرثت ادواء الداوية وكثرت اسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت اسقام الافرنسيسية »

مما دل على انه كان يعلم اجناس المحاربين ومما ذكره ايضاً في ذكر ماتجدد للملك الانكتير (انكلترا) من المراسلة والرغبة في المواصلة قال : وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصالحة على المصافاة والمواتاة في الموافاة وموالاة الاستمرار على الموالاة والأخذ بالمهاداة والترك للمعاداة والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل اياما وقصد التئاما وكادت تحدث انتظاما واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير وان يعول عليهما من الجانبين في التدبير على ان يحكم العادل في البلاد ويجري فيها الامر على السداد وتكون المرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في اوجها ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا امان واحسان واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما اخر الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكتير بفصل امر الوصلة وازاحة الجلة وازاحة العلة واعتقدنا ان هذا امر قد تم الى ان قال وبلغ الخبر الى مقدميهم وروءسهم فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فجبهوها بالعذل واللذع ثم رضيت على شرط الموافقة في الدين فانف العادل الى آخر ماذكر ·

بيد ان الصراحة في كلام ابن شداد اكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وانواع البديع المربع فقال في ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة عَلَى الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه اكثر مالاً منه واشهر في الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير ان يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقًا كثيراً وقاتلهم قتالاً شديداً ٠٠٠٠٠ ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد واظهر الافرنج سروراً عظيماً حتى انهم اوقدوا تلك الليلة نيرانًا عظيمة في خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم متوقنون فيما يريدون ان يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدومه فانه ذو رأي في الحرب مجرب واثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ٠٠٠٠

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار ان يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى ان يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما اذن في ذلك تأخر الرسول اياماً عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخري بسبب ماقيل فان زمام قيادي مفوض اليَّ وانا احكم ولايحكم عليَّ غير اني في هذه الايام اعترى مزاجي التياث منعني عن الحركة فهذا كان العذر في التأخير لاغير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا وعندي مايصلح للسلطان وانا استخرج الاذن في ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد اذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضي الرسول بذلك وقال الهدية شيءٌ من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن ان يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد ان يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على ان قال الرسول ما الذي اردتم منا ان

كان لكم حديث فحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ماطلبنا كم انتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصري قد اسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد اهداه الى السلطان فقبله واحسن اليه واعاده مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ماعنده من ذلك ايضاً ·

وقال في مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس : واصل التعاقد ان الملك (الانكتار) قد بذل اخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب اخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد انكروا عليّ وضع اختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها انا اسير اليه رسولاً يعود في ستة اشهر فان اذن فبها ونعمت والا زوجتك ابنة اخي وما احتاج الى اذنه في ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم ·

وقال في عود الرسول من قبل ملك الانكتار : وادي الرسالة وهي ان الملك يسأل ويخضع لك ان تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة واي قدر لها في ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب ان يكون فيه رهبان ولاقسوس الا في القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل مافي ايديهم من الدارون الى انطاكية ولكم مافي ايديكم وينتظم الحال ويروج وان لم ينتظم الصلح فالافرنج لايمكنونه من الرواح ولايمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة اخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطرارة والله الولي في ان يقي المسلمين شره فما بلونا اعظم حيلة واشد اقداماً منه ·

تاريخ السياسة الاوربية الحاضرة

يفرد الغربيون كل العلوم بتآليف خاصة بل يفردون العلم الواحد بفروع كما هو الحال في التاريخ . فقد وضع المسيو شارل سينيوبوس استاذ التاريخ في كلية باريز وصاحب كتاب تاريخ الحضارة الذي عربنا اكثره ونشرناه بين اهل العربية هذا الكتاب في تاريخ السياسة الاوربية الحاضرة : Ch. Seign bos: Histoire politique de l'Europe contemporaine

افاض فيه في نشوء الاحزاب السياسية واشكال الحكومات وتقلبات السياسة في اوربا منذ سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٩٦ اي منذ سقوط نابوليون ايام كان الحاكم المتحكم على كثير من بلاد اوربا يتدخل في شؤونها الداخلية والخارجية ويحكمها حكماً عسكرياً قاسياً بل كان يبسط نفوذه مباشرة او بالواسطة على جميع شعوب اوربا فيحكم الامبراطورية الفرنسوية مباشرة وهي ليست فقط فرنسا القديمة والبلاد المضافة الى الجمهورية (كالبلجيك وولايات الرين) بل اجزاء من سويسرا وثلث ايطاليا وبلاد القاع والولايات الالمانية الواقعة على شواطئ بحر الشمال والولايات الايليرية (الاسبانية) فيحكم هذه البلاد حكماً مطلقاً كما كان يحكم الممالك المجاورة التي ارتبط معها بمعاهدات هجومية ودفاعية مثل ممالك اسبانيا ونابولي وايطاليا وفستفاليا التي ولى عليها اقاربه وممالك المانيا المنضمة تحت لواء اتحاد الرين وسويسرا والدانيمرك . واضطر سنة ١٨١٢ المملكتين الالمانيتين المستقلتين النمسا وبروسيا الى الانضمام اليه ضد روسيا . ولم يبق خارجاً عن سلطانه الا اطراف اوربا مثل انكلترا وروسيا والسويد وصقلية والبرتقال وكان عصاة اسبانيا يناوشونه القتال . وهكذا كانت اوربا باجمعها منقسمة الى معسكرين: نابوليون واعداؤه .

بدأ المؤلف بالكلام على انكلترا وذلك لانها كما قال كانت في القرن التاسع عشر المثال السياسي لاوربا فالشعب الانكليزي هو الذي انشأ الطريقة السياسية التي اتبعتها اوربا المعاصرة والحكم الدستوري والحكم النيابي وضمانات الحرية واقتدت به بقية الامم والاحزاب التي اتصفت بها الحياة السياسية في القرن التاسع عشر (مثل الحزب الدستوري والنيابي والمتطرف والاشتراكي) قد تألفت في انكلترا قبل ان تظهر في الممالك الاخرى ولذا بدأ بانكلترا في الكلام على التاريخ السياسي في اوربا .

تكلم على الحكومة المركزية في انكلترا والسلطات المحلية وطريقة انتخاب النواب والكنائس وتأليف الجمعيات وحالة ايرلاندا وحركة الاصلاح وتحرير الكاثوليك والاصلاح في الانتخابات وذكر البواعث التي حملت اهل ايرلاندا على المطالبة بحقوقهم وكان منها انتشار مرض البطاطا سنة ١٨٤٥ والمجاعة التي حدثت هناك سنة ١٨٤٦ فكان الجياع يقصدون المدن يجمعون نفايات البقول ويأكلون الاعشاب او مسواك القرود والطرق قد بعثرت فيها الجثث فهلك الشعب بكثرته من الشقاء او هاجر الى اميركا فلم تلبث ايرلاندا ان سقطت نفوسها من ٨١٧٠٠٠٠ نسمة الى ٦٥٠٠٠٠٠ نسمة سنة ١٨٥١ واخذ الشعب منذ ذاك الحين يقلُّ فبلغ ٥١٠٠٠٠٠ نسمة سنة ١٨٨١ و٤٧٠٠٠٠٠ سنة ١٨٩١ . وتكلم على الطرق السياسية التي عمد اليها الايرلانديون لمداواة هذه الامراض .

وجوَّد الكلام على انكلترا بين الاصلاحين سنة ١٨٣٢ — ١٨٦٧ وفيه فصول في الاصلاح الاداري وهياج العملة وثورة ايرلاندا وهياج حرية المقايضة والازمة الايرلندية والنشوء الديمقراطي وغير ذلك . وكلام طويل على الاحزاب الانكليزية بعد سنة ١٨٦٨ وما قامت به من جلائل الاعمال وكيف تألف حزب استقلال ايرلاندا الاداري وما اتاه للوصول الى غرضه وكيف تألفت الاحزاب الاشتراكية وما قام به كبار وزراء انكلترا في السياسة الداخلية والخارجية مثل الوزير ديزرائيلي الذي كان يهيج العواطف الوطنية الانكليزية باتخاذ سياسة الحرب والضرب باسم الشرف الانكليزي الذي أُهين بسياسة الحياد التي جرى عليها غلادستون واهاج الشعور الوطني بامرين : المستعمرات الانكليزية والمسألة الشرقية فكان الاحرار يرمون في سياستهم الى الزهد في المستعمرات وارادة انفصالها عن بريطانيا العظمى لانها تكلف نفقات باهظة وصرح الحزب المحافظ بانه يريد سلامة المملكة البريطانية وحاول ان يقوي الصلات بين المستعمرات وانكلترا بوحدة عسكرية وتجارية فنادت الحكومة ببيعة الملكة امبراطورة على الهند وحاولت انشاء وحدة او اتحاد في افريقية الجنوبية انتهى بحرب الترنسفال . وصرح ديزرائيلي في المسألة الشرقية بأنه يود سلامة المملكة العثمانية فاوقفه غلادستون زمناً باهاجة الرأي العام ضد العثمانيين لارتكابهم الفظائع في بلغاريا وعقدت سنة ١٨٧٦ في المدن الكبرى بانكلترا عدة احتجاجات يظهر فيها الشعب الانكليزي سخطه على مرتكبي تلك المظالم فاستحسن

مجلس النواب سياسة التداخل فعمدت انكلترا الى نفس السياسة التي اتخذتها في حرب القريم وهي سياسة العداء وقامت بعمل فعلي في اوربا ٠

وختم المؤلف كلامه على انكلترا بالفصل الآتي تعريبه ٠ وهو في النشوء السياسي في انكلترا : ان انكلترا هي الدولة الاوربية الوحيدة التي اجتازت القرن التاسع عشر بدون ان تقوم بثورة فاحتفظت بدستورها القويم ولم تمسه وكذلك باصول حكومتها وقد نسي الاجانب الثورات التي نشبت في القرن السابع عشر واستنتجوا من ذلك ان الثبات السياسي ملازم للاخلاق الانكليزية ٠ ومع هذا فان تحت هذه الصور الباقية غير المتحولة قد تبدلت الحياة السياسية من حيث العمل تبدلاً مهماً وذلك من ابتداء القرن الى اواخره بحيث خرجت انكلترا من طريقة حكمها القديمة فقد كانت الامة الانكليزية سنة ١٨١٤ خاضعة بعد لطبقة من الاشراف هي القابضة على زمام المجتمع والادارة المحلية والحكومة المركزية فجدد القرن التاسع عشر النظام الاجتماعي بسنه سنة المساواة امام القانون فألغيت القوانين والعادات التي كانت تقضي على الطبقات النازلة وتقول بعدم الكفاءة السياسية في المخالفين في الدين مثل الكاثوليك والاسرائيليين ومثل شقاء الملاحين وسقوط المحاويج المعانين ومنع عقد جمعيات العملة ٠ وسلبت الادارة المحلية من طبقة الاشراف من اهل البلاد وجعلت في يد مجالس ينتخبها السكان ٠ فابقت الحكومة المركزية على مظاهرها ولكن تبديل الجماعات المنتخبة قد اختط لها خطة جديدة فاصبح مجلس العموم بعد ان كان طائفة من المقتنين الاشراف مجلساً يضم نواب الامة واخذ بالتدريج يقضي على الحكومة الملك والنبلاء (اللوردات) حتى كاد يمسي مجلساً ذا سلطة مطلقة وصيرت الوزارة التي يجب ان تكون مجلس الملك جمعية تنفيذية لمجلس النواب وهكذا انتقلت انكلترا من الحكم الدستوري الى الحكم النيابي وطريقة حكمها النيابي تتحول الى طريقة الحكم الشعبي او جمهورية يحكمها مجلس منتخب انتخاباً ديمقراطياً ٠

وكان هذا النشوء في المجتمع والحكومة على قاعدة ديمقراطية مناقضاً مناقضة صريحة للدستور الارستوكراطي في المجتمع الانكليزي الذي لم تحفل به زمناً طويلاً فقد بدئ بتنفيذ هذا الدستور منذ اربعين سنة بحيث ان العالم تبين (سنة ١٨٧٠) لم يتكلم عليه على انه لم يحدث من تحول داخلي في المجتمع الانكليزي بل جاء من الخارج ولم ينشأ الا من كيفية تأليف المملكة الانكليزية المؤلفة من اجزاء متخالفة متباينة ٠

ليست المملكة المتحدة بريطانيا العظمى وايرلاندا التي ندعوها بانكلترا على غير حقيقتها امةً كفرنسا بل هي مجتمع امم قديمة (غاليون وايكوسيون وايرلانديون) خضعت لسلطان امة متغلبة وظلت مباينة لها في نظامها الاجتماعي والديني وربما ساغ ان تدعى امة جديدة ذاك المجتمع الصناعي الذي نشأ منذ اوائل القرن الثامن عشر في الاصقاع المقفرة في الغرب والشمال من انكلترا ·

فانكلترا القديمة اي انكلترا الجنوب والشرق التي نظمت الحكومة والكنيسة كانت ارستوكراطية وانكليكانية ولا تزال كذلك الى اليوم خاضعة لاشرافها وكهنوتها وقد ظلت سياج الحزب المحافظ وحصنه الحصين اما سائر امم المملكة فلم تكن لها صلة بالاشراف ولا بالكنيسة الانكليكانية بل كانت ايكوسيا من الشيعة البرسبتارية ديمقراطية في مناحيها وايرلاندا كاثوليكية معادية لنبلاء الانكليز وبلاد الغال وانكلترا الجديدة الصناعية في الشمال والغرب يسكنها ناس من المخالفين · فكانت هذه المجتمعات الديمقراطية والمخالفة معادية بالطبع للحكم الذي يبعدها من السلطة السياسية ويجعل اديانها غير معتبرة رسمياً وهي التي تألفت منها الاحزاب المعارضة للنبلاء الانكليز والكهنوت الانكليكاني · والايكوسيون والايرلانديون والغاليون وانكليز الشمال والغرب هم الذين ألفوا ويؤلفون بعد سواد الحزب الحر والحزب الراديكالي وهم الذين ادخلوا على انكلترا القديمة تغييراً ديمقراطياً ·

بيد ان انكلترا القديمة التي كان فيها بلاط الملك والحكومة قد انتفعت من ذلك للمحافظة على طريقة الحكم القديمة ومدّ سلطانها على رعايا بريطانيا العظمى وبمقاومتها للتجديد من الحالات حتى ينفد صبر رعاياها قد توصلت الى ان تخفف كثيراً التحول نحو الديمقراطية وهكذا كان التبديل البطيء في الاوضاع الانكليزية على نسبة القوى المائلة التي استخدمها المعارضون (١)

لم يبدأ الحزب الديمقراطي يبث دعوته في مملكة من ممالك اوربا قبل ان يبثها في انكلترا فان هذه سبقت العالم لاول مرة في القرن التاسع عشر وذلك انه بواسطة الراديكاليين سنة ١٨١٩ قد وضعت الخطة السياسية لجميع الاحزاب الديمقراطية في اوربا · وما من حزب ديمقراطي قد استجاش له انصاراً واعواناً اكثر من الراديكاليين

---

(١) ان التحول الى الحكم الديمقراطي قد جرى في جميع المستعمرات الانكليزية وكان فيها اسرع من انكلترا واكثر انطباقاً

والشارتيين والايرلانديين والمتظاهرين من العملة سنة ١٨٦٦ فقد كانت انكلترا بلاد الاضطرابات والتظاهرات الهائلة بيد ان هذه الجماهير الديمقراطية المحترمة بمشروعية مطالبها قد وقفت امام مقاومة الحكومة الارستقراطية التي كانت قابضة على زمام الامر فكبحت جماح مخالفيها من دون عناء بتوقيف المشاكسين وسن قوانين استثنائية والاستكثار من الجند ٠

ونال هؤلاء الجماعات في نصف قرن بماقاموا به من التظاهرات اكثر مما نالته حفنة من الجمهور بين الفرنسويين في يوم واحد وقد عمدت الى القوة بل انها رأت لاكراه الارستقراطيين المحافظين على التنازل عن شيء من حقوقهم انه من اللازم ان يحالفوا الارستقراطيين الاحرار و يندمجوا فيهم واضطروا الى الاكتفاء بالاصلاحات الجزئية التي رضي حلفاؤهم باعطائها وهكذا وضع في صورة تحكيم قانون الانتخاب النصف العام والتعليم الابتدائي النصف الاجباري ونصف المساواة بين الاديان في ايرلاندا والادارة المحلية النصف انتخابية وقانون العملة النصف ديمقراطي ٠

وقد دبر الامر رؤساء الاحرار في هذه الاصلاحات وكان لسواد الديمقراطيين من العملة الايرلانديين بادئ الرأي في هذا الاصلاح يد طولى ثم جرت التظاهرات النهائية باخافة جماعة المحافظين فطلب قدماء الراديكاليين اصلاح الانتخاب من حيث الجملة ونزعوا الاصلاحات الانتخابية الجزئية التي جرت سنة ١٨٣٢ و ١٨٦٧ التي اعقبتها جملة من الاصلاحات الديمقراطية والعامية ٠ وطالب الايرلانديون وحصلوا على المساواة السياسية في المعتقدات الدينية ٠

و بعد ان نال الراديكاليون والايرلانديون جزءاً من السلطة السياسية بواسطة حق الرأي العام في الانتخاب دخلوا تدريجاً في الحزب الحر الانكليزي وانتهى بهم الامر ان عرضوا عليه برنامجهم في الاستقلال الاداري والاصلاح الديمقراطي بحيث اصبح من الصعب التمييز بين الحر والراديكالي او الايرلاندي وقد سرت دعوة الراديكاليين الاتحاديين حتى الى الحزب المحافظ نفسه بحيث اخذ يطالب بمطالب ديمقراطية ٠

وهكذا تداعى بناء الحكم القديم الذي كان يدافع دونه اكثرية الانكليز الممتازة وذلك بضربات سواد المعارضين من غير الانكليز فانهار البناء قطعة قطعة وحل النظام الجديد ايضاً بدون ان تكون له خطة مجموعة بالاحتفاظ بالملكية واللوردات المتوارثين خلفاً عن سلف وكنيسة الحكومة الممتازة ومجانية الوظائف الانتخابية وقيود حق

الانتخاب العام فامتزجت اوضاع الانقاض القديمة بطعم الجديدة في مجموع حوى المتناقضات حيث لايمكن التبوء على التحقيق فيما سيزول او يبقى قائماً وهذا من الصفات المشوشة في الحياة السياسية في انكلترا الحالية ٠

***

تكلم المؤرخ على سياسة الاحزاب بعد اخفاق اعلام نابوليون الاول وتاريخ الانقلابات الفرنسوية اشبه بتاريخ الانقلابات العثمانية ولعلنا نحن المقلدون لها المتشبعون بآراء اهلها ٠ مثال ذلك معاملة حكومة فرنسا للجرائد هناك بعد سنة ١٨١٩ وما اصدرته من القوانين لارهاقها فقد جعلت على الصحف ضمانة باهظة وضربت عليها كما في الصحافة الانكليزية ضريبة وضع طابع بعشرة سنتيمات عن كل نسخة وخمسة سنتيمات اجرة البريد ولم تكن تباع الجرائد اعداداً مفردة بل لم يكن لها سوى مشتركين باسعار غالية اذ انه يقضى على كل نسخة ان تدفع ١٥ سنتيماً ضريبة ٠ وكان الاشتراك من علائم الظرف خاصاً بالكبراء او اهل اليسار وربما اشترك بضعة منهم ليتقاسموا قيمة الاشتراك بينهم وكانت الصحف قليلة جداً ثلاثة او اربعة لكل حزب ومجموع مايطبع منها الى نحو سنة ١٨٣٠ لم يتجاوز الخمسة عشر الفاً ٠ وقد جاء في تقرير سري سنة ١٨٢٤ ان مجموع عدد نسخ الصحف السياسية المعارضة بلغ ٤١ الفاً ومجموع ماتطبعه الصحف الموالية للحكومة ١٥ الفاً ٠ وقد عدوا من علائم النجاح الكبير سنة ١٨٣٠ ان كان عدد مشتركي جريدة الكونستيتوسيونل ٢٣ الفاً وما كانت هذه الصحف تحتوي الاعلى مقالات سياسية وادبية غير موقع عليها عَلَى الطريقة الانكليزية ٠ وقد عدوا انقلاباً شروع جريدة البريس بنشرها سنة ١٨٣٦ مقالات في موضوعات مختلفة وعدّ من العار العظيم مااتته جريدة البريس من نشر اعلانات مأجورة لتغطية نفقاتها وكانت الجرائد عَلَى عهد الحكومة الملكية غالية الثمن فارغة من المادة متشابهة الآل قلما تشبه صحف هذه الايام ومع هذا كان لها بعددها القليل تأثير كبير في مشتركيها واذ كان الفرد لايطالع سوى جريدته كان رأيه رأي جريدته فقط

سن مجلس النواب الفرنسوي سنة ١٨٢٢ قانوناً للصحافة يقضي باستحصال رخصة قبل انشاء الجريدة وان يكون للحكومة الحق بايقافها وان تنظر في دعاويها محاكم عادية مؤلفة من حكام مستقلين عن الحكومة وأُلغيت المراقبة ولكن الوزارة يحق لها ان تعيدها بامر منها ٠ وقد جرى البحث ايضاً لمنع انشاء اي جريدة جديدة وان تبتاع الجرائد

القديمة واحدة بعد اخرى · وبالحقيقة ان الصحافة كانت خاضعة لطريقة غريبة من الدعاوي والاحكام بحيث اصبحت المعارضة مستحيلة تقريباً حتى ان الحكومة اذا لم تجد مادة لمحاكمة الصحيفة تقيم على مديرها دعوى ترميه فيهابهوى في النفس وتحكم عليه بسلسلة مقالات لا سبيل الى الحكم بها مفردة ولكنها اذا وضعت بعضها مع بعض تدل على اهواء مهيجة ·

قال سنيوبوس من فصل في النشوء السياسي في فرنسا خلال القرن التاسع عشر : يظهر التاريخ السياسي في فرنسا منذ قرن لاول وهلة سلسلة غير مرتبطة الاجزاء من الثورات ومن ذلك وقر في صدور العالم خارج فرنسا ان الفرنسيس وحدهم شعب ذو اهواء في السياسة لا يعرفون مايريدون وهذا عين ما كان يقال في الانكليز اواخر القرن التاسع عشر واليك مع هذا نظرة في تلك الثورات المغمضة التي بدت بها في مظهر نشوء مدرك للغاية فقد كانت الامة الفرنساوية في اواخر القرن الثامن عشر ملكية وان كانت اخذت تسير نحو الديمقراطية والعامية ولاسيما في المدن واصقاع الشرق والجنوب حيث المجتمع اقرب الى ان يكون ديمقراطياً والفلاحون اكثر عدداً وكبار المالكين اقل نفوذاً ومن هذا السواد القائل بالملكية والديمقراطية انشق سنة ١٧٩٢ بما قام من شق عصا الطاعة للملك والبلاط الملكي حزب ثوري صغير لم يلبث ان اصبح جمهورياً عَلَى خلاف ارادته الا قليلاً وهو حزب قليل العدد عقد العزم ان يتولى زمام الامر وبالقوة ان اقتضى الحال فاستولى على الحكم من سنة ١٧٩٢ الى ١٨٧٠ اربع مرات وكان توليه له بطريقة واحدة وهو ضرب مركز الحكومة في باريز واذ كان اشياعه قلائل لم يتيسر له ان يستولي كل الاستيلاء بصورة قطعية وذلك لان الاكثرية من الملكيين تعزم في الحال على تأسيس حكومة ملكية فتبدد الجمهوريين وهكذا كان يتبع كل انقلاب جمهوري اعادة الحكم الملكي فيدوم ريثما يقوم جيل جديد يتقوى به رجال الجمهورية ويكثرون سوادهم للقيام بانقلاب جديد ولكن كانت كل ثورة تحمل معها شطراً من اهل الحكم القديم (الملكية) ممن لا يستطيع البقاء باعادة سلطانه وهذا التقلب حدث مرات اربعاً ·

وهكذا افاض المؤلف في الكلام على كل دولة في اوربا فتكلم على بلاد القاع (بلجيكا وهولاندة) وسويسرا وثوراتها السلمية البديعة واسبانيا والبرتقال وايطاليا والمانيا قبل الوحدة الالمانية والنمسا على عهد حكومتها المطلقة ومملكة بروسيا قبل غليوم

الاول وعلى الوحدة الالمانية والامبراطورية الالمانية وكل ذلك بلسان المؤرخ المنصف الذي لاتأخذه العصبية لقومه ماامكن وافاض في النظام الدستوري في النمسا والمجر وذكر بلاد السكنديناف ومملكة بروسيا وبولونيا والمملكة العثمانية والامم النصرانية في البلقان اي رومانيا واليونان والصرب والجبل الاسود والبلغار وعقد فصولاً في آخر سفره البديع في تحول الشروط المادية في الحياة السياسية وفي الكنيسة والاحزاب الكاثوليكية وفي اوربا على عهد حكم مترنيخ من سنة ١٨١٥ — ١٨٣٠ وفي منافسة روسيا لانكلترا ١٨٣٠ — ١٨٥٤ وفي تفوق فرنسا والحروب الاهلية سنة ١٨٥٤— ١٨٧٠ وفي تفوق المانيا والسلام المسلح ٠

ومما قاله في مملكة النمسا والمجر وماقام فيها بشأن مسائل اللغات ان بلاد المجر والنمسا قد اصبحت منذ ١٨٦٧ مملكتين مختلفتين لكل منهما حياته السياسية الداخلية الخاصة ولكن اشتراكهما في الملك والسياسة الخارجية كان موطداً للتضامن بينهما ومؤثراً في سياستهما الداخلية وكان من احتلال النمسا لبلاد البوسنة سنة ١٨٧٨ معدلاً للنشوء الداخلي في البلادين وعلى ذاك العهد كانت بلاد النمسا مزيجاً مختلف الجنس والطبائع من الشعوب وكانت الحياة السياسية بعد سنة ١٨٦٧ مستغرقة في الجهاد بين تلك الشعوب وكانت الاحزاب وطنية فانقسمت الى مركزيين اشياع الحكومة العامة التي يدير دفتها الالمان واتحاديين اشياع الحكومات المحلية التي يتولى اداراتها الصقالبة (السلافيون) اي التشك والبولونيون والسلافيون والخروانيون وينقسم الالمان الى احزاب سياسية حزب الحكم القديم الارستقراطي الكاثوليكي اي المحافظ وحزب الديمقراطيين المحررين اي الاحرار ومما كان يزيد في تعقيد الحياة السياسية ان الامم ليست شعوباً صريحاً تخالفها فما كان العناصر في بلاد النمسا والمجر يمتازون في العمل الا بلغاتهم فتقوم جنسية المرء بلغته التي يستعملها واصبح جزء من الالمان صقالبة جرمانيين ولذلك كانت الامم في كل ولاية (اي الناس الذين يتكلمون بلسان واحد) غير متصلة الاجزاء بعضها بالآخر بل ممزوجة مزجاً ومنضدة تنضيداً فكانت اللغة الالمانية شائعة في معظم البلاد التي يرفرف عليها العنصر الصقلبي اللسان الذي تتخاطب فيه المدن وكبار ارباب الاملاك والطبقة المتعلمة اذ كانت الالمانية لغة التجارة والبلاط الملكي والعلم والادب وكان للغة الايطالية نفس تلك المكانة على شواطئ البحر الادرياتيكي وكان ثمت بلاد المانية برمتها اي مجرمنة لا اثر فيها للمنازعات الوطنية ولكن كان الاختلاف في

اللسان في البلاد الاخرى منشأ عداوات بين السكان من اهل اقليم واحد بل بين اهل المدينة الواحدة وما كان النزاع يقوم فقط في المركز بين النواب في المجلس بشأن السياسة العامة التي تتبعها الحكومة الملكية بل بين مجالس كل ولاية بمناسبة حقوق كل عنصر اي بسبب استعمال اللغات فان القانون الاساسي الذي اعلن مبدأ المساواة في الحقوق بين الامم واللغات في المدرسة والوظائف والحياة السياسية قد وضع مسألة اللغة موضع النظر ولم يحلها فكان يحق لاهل كل لسان ان يكون لهم مدارس ابتدائية تعلم فيها لغاتهم (وذلك بصعوبة في القرى المختلطة اللغات والمدن التي يتكلم فيها ابناء الاسرة الواحدة لغات مختلفة و يعيشون مشتتين) اما التعليم الثانوي فيكون باللسان المحلي بحسب مبدإ المساواة وتعلم الالمانية تعليماً راقياً حباً بمصلحة التلامذة لانها تفسح لهم السبيل الى تلقف العلوم الحديثة وقد نشأت ارتباكات اخرى في تطبيق مبدإ المساواة بين اللغات في الوظائف والحياة السياسية وذلك لان وحدة الحكم تتطلب لغة واحدة للمملكة للقيام بالاعمال العامة فكانت اللغة الالمانية في كل زمن في النمسا لغة الملك والحكومة والجيش بل اللغة الوحيدة التي يتفاهم بها اهل العناصر المختلفة(١) فاقتضى ان يترك لهذا الامتياز و يقلل من المساواة في الادارة المحلية والمحاكم ولكن ذلك مما يصعب تطبيقه بالعمل فلا يكفي انشاء اللوائح والمنشورات بعدة لغات بل اقتضى ان يخول كل ساكن الحق بان يكلم رجال الحكومة و يجيبوه بلسانه وان يقدم المحاضر بلغته و يحاكم بها وليس في الامكان ان يتكلم كل موظف بجميع لغات الولاية بسهولة ولذا كانت مسائل المدارس الابتدائية المختلطة والتعليم الثانوي والعالي واعتماد اللغات في المحاكم والادارة اهم مواضع الخلاف في امبراطورية النمسا والمجر ٠

(١) يؤخذ من الاحصاء الرسمي ان معدل اهل اللغات في بلاد النمسا والمجر كان سنة ١٨٦٩ — ١٨٩٠ على النحو الآتي محسوباً بالملايين

١٨٦٩	١٨٩٠		١٨٦٩	١٨٩٠	
٧،١	٧،٥	المان	١،١٩	١،٢٠	سلوفيون
٤،٧	٥،٥	تشيك	٠،٥٢	٠،٦٥	واتيون
٢،٤٤	٣،٨	بولونيون	٠،٤٨	٠،٦٧	ايطاليون
٢،٥٨	٣،٠١	روتنيون	٠،٢٠	٠،٢٠	رومانيون

في بلاد الغرب

(كتبنا في جريدتي القبس والمقتبس زهاء اربعين رسالة من ديار الغرب وصفنا فيها رحلتنا الاخيرة اليها وما لحظناه من اسباب ارتقائها واقتبسناه من فوائدها وعلومها وقد رأينا ان ننظر في اكثرها ونحذف ما ليس له علاقة بموضوع هذه المجلة وان ننشرها تباعاً عسى ان تكون عليها هنا مسحة غير التي كانت لها في الصحف الطيارة وان يراجعها ويمعن النظر فيها من تهمهم هذه الموضوعات الاجتماعية .)

دواعي الرحيل وجهلنا ببلادنا

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية يدرك لاول وهلة اننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء وانهم اذا قطعوا عنا اقل صادراتهم نعود ادراجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون . وهذا مما يصدق علينا في عامة شؤوننا والعلم هو اول بضاعة يجب علينا ان نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات وبدونه الممات .

وما كنا نظن بعد ان احفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع «خطط الشام» اننا كلما اوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا واننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة الى ان نقصد الى مكاتب اوربا نأخذ منها مافاتنا في ارضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة

اي غضاضة على الشرقي ان يرحل باحث في شؤونه حباً باتقان عمله الى غير اهله وبلده وان يتسقط الفوائد من الغريب والقريب في معزل . بيد ان يوماً طويلاً امتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب تراث اجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب اسلافنا العرب كانت اول مارحل عنا غير آسف اذ لم يعرف لها الاخلاف قيمتها الحقيقية والاسفار في كل الاعصار هي هي مفتاح فتح الامصار والعلة الاولى في سعادة البشر ونقل المدنيات من النظريات الى العمليات .

هاجت الخواطر في النفس خصوصاً عند ماذكرت ان اميراً واحداً من امراء ايطاليا وهو البرنس ليوني كايتاني مؤلف تاريخ الاسلام الكبير هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه فيها كل مايحتاجه باحث في تاريخ

الاسلام والعرب و بلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في اوربا واميركا وآسيا وافريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل ومالم يقدر على نقله أُخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم اجمع واطلع على مافيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب ·

شبهتني وانا اشد الرحال قاصداً الى رومية للبحث في مكتبة الامير الايطالي بطلاب العلم في اوربا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الاسرائيليين يقصدون بلاد الاندلس ليقرأوا على علماء العرب علومهم و يرجعوا من كتب المسلمين ببلة تروي غلة جهلهم فسبحلت وحوقلت قائلاً مااغرب تبدل الامم والبلاد وما اهنأ الغرب بما صار اليه من دواعي المنعة واسباب العلم وماشقانا بما فعل السفهاء منا ·

يشقى رجال و يشقى آخرون بهم   و يسعد الله اقواماً باقوام

وليت شعري ايعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب و يصبح ابناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق و بيروت وحلب و بغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بغرناطة واشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الاندلس وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم واضاعها بعد ذلك جهل ابنائهم وغرورهم ؟

ايظل الشرقي ياترى يعتقد في نفسه الكفاءة والغناء و يقلع عن القول بان الغربي يغمطه حقه باستباحته حماه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر ؟ ام يذهب باحثاً عن جميع علل هذا الارتقاء عندهم والتدلي عندنا و يتعلم ماجهل مع الشكر لكل من يعلمه و ينعشه من سقطته ·

حكوماتنا هي السبب الرئيسي في اظلام العقول واشتغالها بالفضول واهل الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلاً من الناس يقوم اعوجاج حكومات الشرق ونتمتع على الاقل بمعرفتنا بانفسنا ومن عرف نفسه عرف ربه ·

دار الدعوة والارشاد في القاهرة

اغتنمت فرصة مقامي بضعة ايام في القاهرة لقضاء بعض المشاكل اثناء شخوصي الى ايطاليا لازور دار الدعوة والارشاد التي انشأها صديقي السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار في السنة الماضية وكان ينوي انشاءها في الاستانة اولاً لوصادف من القابضين على زمام الامر تنشيطاً على مشروعه وغرضه الاول من انشائها ايجاد هيئة صالحة بالعمل

من رجال الدين يجمعون الى معرفة الدين النقي واسراره وحكمه المطابقة لاحوال الزمن معرفة احوال العصر حتى تحل هذه الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الامة تنزع ثقتها منها ·

انشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف او « جماعة الدعوة والارشاد » وهي جمعية مؤلفة من اهل الفضل والعقل والتدين « لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والارشاد الصحيح وارسالهم الى البلاد الشديدة الحاجة اليهم » و « يرسل الدعاة الى البلاد الوثنية والكتابية التي فيها حرية دينية ولا يرسلون الى بلاد الاسلام الا حيث يدعى المسلمون جهراً الى ترك دينهم والدخول في غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الاسلام ويبينون حقيقته لاهله »

وقد جاء في النظام الاساسي لجماعة الدعوة والارشاد انه « تتكون اموال الجمعية من الاشتراكات الموقوتة والاعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والاوقاف التي توقف عليها او ماتناله من ريع اوقاف اخرى ومن ريع رأس مالها » و « يضاف ربع دخل الجمعية السنوي الى رأس المال للاستغلال وهذا ماعدا المبلغ الاحتياطي » وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الاجواد من العرب وفي مقدمتهم الشيخ قاسم آل ابراهيم من كرماء جزيرة العرب بالفي جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة

في جزيرة الروضة (١) المشهورة الآن بالنيل حيث قام في جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبري) عباس وجسر الملك الصالح او بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والارشاد في احد مصايف ابناء شريف باشا الوزير المثري المشهور وقد ضمت في حجرها الى الآن صنفين عدد طلبتها الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ الى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم اناس من رجال الدين وآخرون اساتذة علوم صرف وطعام الطلبة ونظافتهم ونظامهم في قيامهم ومنامهم مما لم يعهده طلبة العلوم الدينية اللهم الا ان يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعي في مصر لان مؤسس مدرسة الدعوة والارشاد افراد ومؤسس مدرسة القضاء الشرعي الحكومة · والحكومة اقدر على البذل من الافراد ·

«١» هذه الجزيرة هي التي ورد ذكرها كثيراً في شعر المصريين منذ القديم وتغزلوا بمحاسنها وللسيوطي كتاب في تاريخها اسمه « كوكب الروضة » من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية او مجموعة احمد تيمور بك من علماء القاهرة واعيانها

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه انها تدرس العلوم والفنون التي تدرس عادة في الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية تنشأ اقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربي ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الاوربية ويجوز ان تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولاسيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والاوردية والملاوية ٠ ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار طلابه من متخرجي صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين ايضاً وذلك ماعدا السنة التمهيدية الاولى ٠

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجاني والمدرسة تنفق على الطلاب الداخليين فيه وتكفيهم كل مايحتاجون اليه فيها وتعطيهم اعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لاتقل عن ريال مصري في الشهر واما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئاً ٠

ومما يشترط في قبول الطلبة الداخلين ان تثق المدرسة بان طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و ٢٥ وان يكون حافظاً لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه اتمام حفظه قبل اتمام دراسة الصنف الاول وان يكون قد حصل قدراً صالحا من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الاربع من الحساب على الاقل وان يكون صحيح الاملاء حسن الخط في الجملة جيد المطالعة في الكتب العربية ومن اصل قديم في الاسلام وتتحرى المدرسة ان يكون طلابها من الاقطار المختلفة وتمرنهم على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحى داخل المدرسة وخارجها

واذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التي تدرس فيها حق التطبيق يجيء ولاشك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكثلكة والارثوذكسية والبرتستانتية في علمهم واستعدادهم خصوصاً ومن غرض المدرسة في باب تربية الاخلاق ان يعلم الطالب « الفرق بين زماننا وزمان القرون الاولى من المسلمين في الحاجة الى سعة الثروة وتوقف حياة الامة عليها الآن وعدم توقفها في ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لاينافيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لانهما من صفات القلب وفائدتهما ان يجعل الانسان فضل ماله لنفع امته ومجد ملته وانه لاينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة الا لعمل انفع للامة والملة ٠» ويعلمون في باب انتقال الامم والدول من حال الى حال

مثل قوله سبحانه « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم » وقوله « وتلك الايام نداولها بين الناس »

هذا ماامكنني التقاطه مما عساه يفيد واني لارجو لرئيس جماعة الدعوة والارشاد محمود بك سالم احد علماء مصر العاملين وسائر موءازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل ان يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الاستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وان يكون اساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجاً الى معنوياته والسلام ·

في طريق رومية

اول مايلاحظه المسافر من الارض العثمانية الى الديار الاوربية ان كل ما يقع نظره عليه هو غريب عنه ليس له منه الا النظر · فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين ·

ركبت هذه المرة القطار من دمشق الى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم ابحرت من ثغر الشام على باخرة ايطالية (تيفرا) حتى اذا بلغت الاسكندرية واردت الركوب منها الى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة « البرنس هنري » من بواخر شركة نوردتش لويد الالمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوي والايطالي والالماني ولو قصدت وجهة اخرى لكنت في ضيافة الروسي والنمساوي والانكليزي والروماني !

حالة يأسف لها وايم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لانها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنه بنفسه انحطت عن كل عمل · نعم يتألم الفوءاد من هذه الحركة الاقتصادية المباركة لان العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربي يذكرون به ماينهضهم من كبوتهم ولا مضاوءه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا اسبابه المادية التي تبعثهم على تقليد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر

نحن وياللاسف نريد ان نعيش في القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا ان مجدنا القديم يكفي تذكره وحده ليحيينا الى الابد حياة طيبة رشيدة ونتطال الى ان نقنع العالم بل انفسنا باننا شعب راق بمجرد ايراد الشواهد على ايامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف في قوته ومعرفته ومادته وحكومته · هي تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاوءها قارة افريقية

وتوشك ان تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين ·

مدنية اوربا هي التي حملتنافي البحر المتوسط من بيروت الى الاسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الاسكندرية الى نابل في ٧٠ ساعة ومن نابل الى رومية في اربع ساعات على السكة الحديدية · والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الاوربي بل المثال الحي من هذه المدنية الحية التي سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الارض شاء اهلها ام ابوا · فتحيا الامم التي تقوم بما قامت به امم الحضارة الحديثة وتموت لامحالة الامم التي لها من حكومتها او من تقاليدها او من ضعفها مايعوقها عن الانبعاث والحركة ·

تهتز نفس الشرقي واي اهتزاز عندما يدوس ارض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات · هكذا كان حالي يوم ازعجني القدر منذ اربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا انا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان · وليس في هذه الفرصة من جديد فان حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة اجمالاً تكاد تتشابه لانها قائمة بالعمل قوامها انتظام احوال تلك الحكومات وتناغي سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللطف ·

من اجل هذا كانت نابل مثالاً مصغراً من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل عَلَى اصله والكتاب يقرأ من عنوانه · لم يتسع لي الوقت وقد قضيت يوماً في نابل ان ازور معالمها وكليتها وآثار بومبي الرومانية خصوصاً وهي على مقربة منها لانني في صدد البحث عن تاريخ اجدادي وبلادي لاتهمني اولاً الا الغاية التي انا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى اذا كان في الزمن متسع ازور من معاهد هذه الديار ومصانعها مانستفيد منه عبرة لنا ولامتنا وينفعنا في الاخذ بمذاهب الرقي ان صحت نياتنا عليه ·

الى ساعة كتابة هذه السطور لم اتمكن من معرفة شيء من احوال ايطاليا اللهم الا ماهو معروض في الازقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع ان الطبقة الراقية تتكلم باللغة الافرنسية وكذلك تتخاطب مع اهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الاماكن العمومية فانك تجد صعوبة في التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية · هـذا مع تقارب اللغتين الافرنسية والايطالية احداهما من الاخرى واللغات اللاتينية اي الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتقالية متشابهة لانها من اصل واحد كما ان اللغتين الالمانية والانكليزية متشابهتان لانهما من

اصــل سكسوني واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لانها من اصل سلافي ·

ومع ان جليسك تنقبض نفسه منك في العادة اذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لا تجد فيما تسمعه في المحال العامة ودور التمثيل والموسيقى هنا ثقلاً على سمعك من لغة الطليان وان كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتها صماخ أذنك كأنها اوتار موسيقار تتكلم الحانها اكثر من الفاظها · ولا عجب فايطاليا مهـد الصناعات النفيسة بل هي بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ اوائل عهد الاسـلام وباعت على الغرب بل وعلى الشرق من موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهي بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت الى فرنسا واوربا كلها وطليان الجنوب يشبهون السوريين في كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية و يفخم العمران ·

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بان يعرف القارئ ان البلاد الاوربية كلما قربت من سمت الشمال كانت اقرب في الجملة الى الاخذ باسباب الرقي والحضارة · وهذا مشاهد محسوس · فانك تجد شمال ايطاليا ارقى واعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل ان المانيا في جنوبها احط منها في شمالها وهو سر غريب من اسرار هذا الكون ولعل الباحثين في طبائع الاقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لا يعدمون تعليلاً لذلك · اما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لانها معـدودة من اواسط ايطاليا على ما سنذكره

الامير كايتاني

كان الاغنياء والامراء في الغرب قبل ان تتقرر قواعد المدنيـة الحديثة وترسخ اصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وارجحية القدم · اما الآن فان امثال هذه الطبقة ادركت ان كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد الغتها القوانين الدستورية في الامم الحرة النيابية فلم يبق من اسباب الفخر الا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لا تسمع بامثال هؤلاء الناس الا اذا اتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة او يرقيها درجة اخرى

وممن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فعد عصامياً عظامياً الاميرليوني كايتاني من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تاريخها الى زهاء الف سنة ومنها

خرج رجال خدموا امتهم عَلَى اختلاف العصور والمنازع فكان منها البابوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من امراء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب واتقن من اللغات الايطالية والافرنسية والانكليزية والالمانية واللاتينية والفارسية والعربية

ولما احرز حظاً وافراً من العلم والآداب سمت به همته وهو قبيل الخامسة والعشرين اي منذ زهاء عشرين سنة ان يضع لأُمته كتاباً في التاريخ الاسلامي بلغتها يغنيها عن اكثر الكتب ويرفع كثيراً من المشاكل في تاريخ العرب الذي ادهش العالم . فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ واخذ بالتصوير الشمسي كل ما عرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثراً في مكاتب اوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة في الشرق والغرب في موضوع التاريخ الاسلامي خاصة ومن رآها فكأنما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها اكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام وهو يرجو ان يفسح الله في اجله عشرين سنة اخرى ليكمل القرن الاول للاسلام فيقع في خمسة وعشرين مجلداً (١) ولا يطبع من تاريخه اكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية في بلاده وفي الغرب وعلى بعض اصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربي :

كفاف عيش كفاني ذل مسألة   وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

يقول كفاف عيش وثروته وثروة ابيه فيما بلغني تقدر بمئة مليون فرنك دع ثروة حليلته الاميرة وهي غنية ايضاً ولهم المزارع الواسعة في ضواحي رومية اذا استثمرت حق الاستثمار على احدث الطرق تزيد ثروتهم اضعافاً والامير مع هذا تفرغ الى العمل في مزارعه ويتعهدها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف على اتقان عمله الذي

(١) عجيب صبر الايطاليين على تآليفهم فان المستشرق ميشل اماري قد تعلم اللغة العربية واتقنها خاصة ليكتب كتاباً في تاريخ صقلية فكتب مطولاً لم يسبق اليه عند قومه وهو المرجع اليوم في تاريخ هذه الجزيرة الايطالية التي دانت للعرب قرنين ونصفاً وقد نشر اماري جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية في كتب ورسائل كثيرة

صرف شبابه وها هو يصرف الآن فيه سن الكهولة وسيصرف فيه ايضاً سن الشيخوخة بحول الله شطراً ليس بقليل من المال فعنده ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ماعدا ما ينفقه في الكتب وطبع كتابه ولكن كل ما ينفقه في سنة لا يعادل ما ينفقه غني واحد من فساق اغنياء الاميركان او الروس مثلاً في ليلة واحدة في باريز او مونت كارلو فسبحان من اودع في كل قلب ما شغله

طاف الامير كثيراً من بلاد الشرق ولاسيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس احوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فاذا تكلم في تاريخنا صدر عن علم نظري وعملي. ولقد ذهب منذ ست سنين الى بلاد الشام ليرى بعينه المكان الذي كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم في اليرموك. وهذا قلما يتيسر الا لمن اوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب في سبيل تحقيق رغائبه.

ومازال منذ بدأ في التأليف وهو يدأب وراء منضدته في مكتبته كأنه عامل بسيط فانه يبدأ في عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحاً على الغالب ولايزال اكثر النهار يعمل ويطالع لاتعرو همته ملل ولاينظر في سفساف الامور. ولقد كان نائباً في الانتخاب الماضي في مجلس النواب فاضاع في النيابة شيئاً من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لانه توفر بجملته على خدمتها.

وعدم انتخابه ناشئ من ان خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الامير في مسألة فتح ايطاليا لطرابلس وبرقة حجة اثاروا بها الرأي العام حتى لا يعودوا الى انتخابه وذلك ان الامير احب ان يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لامته عن ان يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد ان هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بامة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح في المجلس وكتبه في الصحف الايطالية وغيرها بالتصريح فحنق عليه من حنق واثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالاً كثيراً للنيابة عن امته قيل انه عشرون الف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين الف ليرة ففاز عليه.

والامير على مارزق من الشهرة العلمية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لاول مرة حاملاً اليه من صديقه احمد زكي باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلني للبحث في مكتبته اعتذر عن كونه قابلني بثياب عمله

وقال ان عنده شيئاً من المخطوطات العربية اخذت بالتصوير الشمسي ولايدري ان كان فيها حاجتي على انه تفضل ودلني على مظانها ومابرح اليوم بعد الآخر يشير عليَّ بالرجوع الى كتاب كذا ففيه مادة لكتابي وهو يبش و يقول في الاحايين انه مسرور لعثوري على شذرات تهمني كل هذا وهو لايضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع اسعار الاوقات في الغرب ولاسيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم ارباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلاً ٠

لئن امتازت الخزانة التيمورية في مصر بانها تحوي امهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام في علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها انفس المطبوعات العربية في الغرب فان الخزانة الكايتانية في رومية تحوي على الغالب اهم كتب التاريخ الاسلامي او ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولاسيما العربية مماهو جدير ان يرحل اليه من الصين لامن دمشق ٠

وقديماً كان امراء المسلمين وعلماؤهم يفتحون خزائنهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب والسعة كما فتح منصور بن نوح الساماني خزانة كتبه لابي منصور الثعالبي فألف فقه اللغة وكما فتح علي بن يحيي المنجم من اهل القرن الثالث في قرية له نفيسة بكركر من ضواحي القفص خزانة كتب عظيمة في قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فاخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها و يتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيي وكما وقع من غيرهما كثير اما اليوم فان هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وامراؤه واصبح الشرق بلقعاً حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة الى من احسن تعهده واستثماره سنة الله في خلقه ٠

الهجرة

اربعة احوال تعمل في تكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم · ومحور الهجرة يدور في الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً ايام كانت المجاعات في القرون الاولى والوسطى من اكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى مناطة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة في البر والبحر يحدث مخاوف هائلة و يثير مناوشات وثورات · وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة او متعذرة و يهلك سكان المدن جوعاً · وتحتكر المدن الحبوب في اماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة اما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرّين ولا يجدون غير الهجرة باباً لنجاتهم بارواحهم وارواح ذراريهم وهذا مادعا الى اقفار كثير من الاصقاع في الشرق والغرب لان من ولد من الأسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها (١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق او افريقية وآسيا اعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من ابنائها ليكونوا جنداً في الجيش الروماني ورومية كانت حاكمة على معظم اصقاع اوربا وجزء كبير جداً من آسيا وافريقية وسلطانها فوق كل سلطان وما ملوك تلك الايام الا اقيال يخضعون لصولجان رومية وقد كنت ترى سوريين من بلاد الشام في كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم في جيش جرمانيكوس القائد الروماني عدة كتائب عندما حمل حملته على الرين ·

قال سكريتان : ان القرون الوسطى باقطاعاتها وما كان فيها من اللصوصية والاخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarckie والاشمئزاز من الحياة والتشتت السياسي الذي هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعيني بقلة الرجال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الروماني وظلّ الشعب زمناً على نسق واحد ثم زاد بانشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التي تسهلت اسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدي العاملة التي انشأتها · ومن المدن تنبعث ابداً حركة تنظيم القوة العامة فصاحب الاملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على

Henri - F. Secrétan : La population et les mœurs

(١) كتاب الشعوب والاخلاق : ليف هنري سكريتان

حين تضطر المدن ان تطلب ذلك من التجارة وان تضمن حقوقها في البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة ·

قال وما المصانع العظمى التي قامت في القرن الثالث عشر للميلاد وماتلك البيع والمعابد الا اثر من آثار زيادة السكان في اوربا وان الناس اصبحوا يهتمون لامور اخرى غير حفظ حياتهم مباشرة · والسكان من العوامل الضرورية في التبدلات السياسية وعندنا ان الشعب هو ارض التاريخ الذي تنبت فيه الاوضاع والافكار ولما نمت النفوس منذ القرن الحادي عشر في حمى اسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة امام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسي بقيام المدنية الحديثة وادى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعي اي الافضل والاحسن الى شكل جديد في الحياة وتحسين الاخلاق وتدميثها وكثرة السكان شرط في قيام المدنيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهي التي تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة ·

نعم كثرة السكان شرط في الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدي الى قلة سريعة في المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية · والمدنيات لاتقوم الا في بعض ادوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من اهم العوامل في المدنيات الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تجري في كل مكان اليوم في المانيا وايطاليا وانكلترا وقد كانت فرنسا اول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتها مع ولاداتها مع ان فرنسا كان عدد سكانها في اواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكلترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة والمانيا كلها مع النمسا وتوابعها اثنين وعشرين مليوناً وروسيا في اوربا اثني عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى اميركا في القرون الثلاثة الاخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت اهم واعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة واربعين مليوناً وفرنسا نحو اربعين مليوناً والمانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وايطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فمنها ماتضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين ·

وقد نفى سكريتان ان يكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال ان الروس باقرارهم انفسهم من اعظم الموغلين في المفاسد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياف عندهم والسبب في قلة المواليد هو في الحقيقة ارادة الرفاهية · الولادة لاتشكو من

الفقر ولامن حرية الفكر ولامن حرية الاخلاق وماخرابها آت الا من كثرة الحذر الذي هو ابن الطمع ٠

عرف السوري منذ القديم بحب الهجرة للكسب واحراز المجد والفينيقيون او سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار في سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية في اقصى شمالي اوربا وانشوءا لهم المكاتب التجارية في جنوبي القارة الاوربية وشمالي افريقية وكان من اخلافهم مايشبه هذه الاعمال والهجرات ولاسيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا في مقدمة الفاتحين للاندلس في الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح في الشرق واوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها ٠

وبعدفان فتن التتار والصليبيين اضعفت حال البلاد وقلت سكانها خصوصاً على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة في الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان في اولادها بل تندر النضرة في وجوه اهلها ولم تقصر الحوادث السماوية في انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والاوبئة تحصد اهلها بالالوف ومابقي منهم يهلكه الظلم وقلة العلم ٠

حتى اذا جاء القرن الماضي ونشر خط كلخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية في طور احبت فيه احتذاء مثال الغربيين في ادارتها وضعفت سلطة العمال بعض الشيء وقوي ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التي سهلت وصول الشكاوي الى العاصمة بعض التسهيل واخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة للماضي والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط اهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية في المدن والقرى بعد كل هذا عادت النفوس تنمو خصوصاً في لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع اعلام الامن في ربوعه واصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه ٠

واذ كانت زراعة لبنان ضعيفة تعد بين الزراعات في الدرجة الثالثة او الرابعة لم يقم بمعاش سكانه فاخذوا يهاجرون اولاً الى البلاد القريبة منهم ولما تنوقلت الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم في اميركا سمت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من

سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بافريقية واوربا واميركا بالبواخر فوفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع جانب من المال فاشتهر بين قومهم نجاحهم واخذ يتبعهم في خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان اهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش في الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم ولم تمض بضع سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من ارض سوريه مثل وادي الاردن ووادي العاصي وسهل البقاع وسهل حوران فجارت هذه البقاع جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرمون وجبال عكاء وجبال اللكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر في الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال احقر قرية ٠

واشتهر في الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دوراً على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك واقاموا العقارات واخذوا بحظ من الرفاهية ونسي الناس او لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عتمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع الينا الا وقد اصبح المهاجرون زهاء اربعمائة الف رجل على اقل تقدير من السكان مهما بالغنا في تقديرهم وعددنا في جملتهم بعض البوادي لا يبلغون اكثر من اربعة ملايين وقدّر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين الفاً وغالى بعضهم فقدرهم بزهاء مليون ويمكن ان يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثر الحادث عنه اي باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا في بلادهم مع ازواجهم او تزوج العزب منهم في السن المعينة للزواج في هذه البلاد ٠

خسرت البلاد من وجهين في الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن اوطانهم وعن تعطلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى سورية من النقود والتهذيب الغربي ولكن الخسارة اعظم بدليل ان الثروة هي العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وان التهذيب الذي حملوه ناقص لانه علمهم اموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر ان يقيم في قريته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوساً بين ماشاهد في بلاد غيره وعهد في بلاده ويتأفف من عمله الصغير في الزراعة او الصناعات الضعيفة فلا يلبث ان يعود ادراجه الى اميركا ويختار الموت هناك على البقاء في ارض ذلة وقلة ٠

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور الفخمة التي عمرت بدراهم اميركا في هذه الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرذ والفار ولا من يقطنها لان بناتها عادوا فرحلوا اماطلباً

لثروة غير التي نالوها وصرفوها كلها في انشاء دورهم واما لضيق صدر نالهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل ·

قال قنصل فرنسا في تقريره الاخير على بلاد الجليل ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالاجور التي يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضرون البلاد في ارتقائها الاقتصادي اذ يحرمونها من الايدي العاملة وقد نجحوا بان أسسوا في البلاد التي هاجروا اليها (اميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا وافريقية الجنوبية او مصر) مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لايملكون اجرة المركب الذي يقلهم وهم في الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير في جيوبهم او الاوراق المالية ·

وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وانشأوا يستخدمونها في بيوتهم وهم يبتاعون الاراضي وينشؤون الزراعات الكبرى واكثر العائدين منهم على ما اظن هم اللبنانيون والبقاعيون ·

قال واما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة المعاهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا ينفض غباره الا بالاقلاع عن البلاد وحبًّا بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المغتنين ولجذب البلاد الجديدة لهم · وبينا نرى الوطنيين ولاسيما من سورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولاسيما الى فلسطين (اي الصهيونيين) اه ·

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة باديء بدء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف في الاربع سنين الاخيرة عندما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده في العشرين والخامسة والعشرين فانشأ يرحله اليوم في الخامسة عشرة بل وفي الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية او ليجمع بدله النقدي قبل ان تصيبه القرعة وبعد ان تفاقم شر الهجرة في العهد الاخير ارادت الحكومة ان تمنع الشبان من السفر فكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرت سماسرة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها واخرجوا منها اعزة اهلها وسهلوا لهم سبل المهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقرضه على ان يوفيه من عمله في ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فاصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد · وكلما أمل المؤملون ان تهدأ

احوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد اخبار السوء فتأخر عن العودة اليها ابناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بادنى سبب لنزع هذا الخلل في حياة البلاد من اصوله بل ان النوائب الاخيرة التي صادف وقوعها في عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذ اضطرت الحكومة ان تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة واكثر من ثلاثة ارباع هذه الامة تعيش من ارضها وارتقت اجرة العامل الى اعلى من منسوبها فاصبح في بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام باعمال الزراعة على ماينبغي لصاحب ملك ومزرعة لانه اذا اعطى العامل في اليوم ثلاثة ارباع الريال او الريال لايبقى له في آخر السنة مايوازي نصف ايجار ارضه ولولا ان بعض البلاد التي اعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالحصادة والدراسة والحراثة والذراية والطحانة لامست زراعتها بائرة ولو جرى اهل هذا القطر على سنة اهل اطنة (اذنة) في قيليقية من آسيا الصغرى واكثروا من الادوات الحديثة لتم لهم الغنى وعوضوا مافاتهم من عمل العاملين ولعاد جدبها خصيباً ونالوا من اسباب الثروة حظاً عجيباً .

اذا قدرنا ثروة السوريين في مصر والسودان واميركا وكندا واوستراليا والترنسفال ومدغسكر والسنيغال بمئة مليون جنيه وهو اقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون في مصر فقط وفرضنا ان نصف المهاجرين احبوا العودة الى اصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود وما زكنوه وتعلموه من اساليب الصناعة والزراعة والتجارة تفتح بالطبع موارد اقتصادية جديدة في البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة على توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على ايدي الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الاداري تستميل المهاجرين الى العودة وتحبب اليهم بلادهم التي يؤثرون ان يكون لهم في ربوعها من المغانم نصف مايتمتعون به في ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضع سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها .

المقتبس

مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت

قليل من الناس بل من غلاة الكتب من يعرف من امر هذه الخزانة الغنية الموجودة في المدينة المنورة شيئاً لعدم وجود فهرس مطبوع لها حتى انك لاتجدها في ترجمة حياة صاحبها في كتاب قاموس الاعلام لمؤلفه شمس الدين بك سامي الألباني كأنها ليست من الاعمال التي تجدر بالذكر او ان يكون المترجم عرض بها فرفع قلم المراقبة في عهد السلطان السابق (١) وقد كنا في عداد جاهليها الى ان كتبت مجلة

(١) هذا معرب ترجمة حياته عن قاموس الاعلام ص ٣٠٤١ ٠ هو السيد الحاج عارف حكمت بك احد شيوخ الاسلام في عهد ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان وهو ابن عصمت بك بن رائف اسماعيل باشا من صدور السلطان سليم ٠ ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٠١ وبعد ان اتم درسه عين قاضياً على القدس ١٢٣١ فمصر ١٢٣٦ فالمدينة المنورة ١٢٣٨ ووجهت عليه رتبة استانبول ١٢٤٦ وعين نقيباً على الاشراف ١٢٤٧ ووجهت عليه رتبة الاناضول ١٢٤٨ ثم اقيل من النقابة ١٢٥٠ وظل معتزلاً المناصب الى ١٢٥٤ حيث وجهت عليه رتبة الروم ايلي وعين عضواً في مجلس الاحكام العدلية وعهد اليه بمهمة التفتيش في الروم ايلي ١٢٥٦ وبعد ايابه منها عين عضواً في الشورى العسكرية وبقي بها حتى قلد منصب شيخ الاسلام ١٢٦٢ وادار الفتيا بعدل وحق مدة سبعة اعوام ونصف واقيل منها سنة ١٢٧٠ فانكب على العبادة والمطالعة في داره حتى توفاه الله سنة ١٢٧٥ وقد دفن في المكان المسمى ب « نوح قو يومي » في القسطنطينية ٠ كان المترجم متضلعاً من كثير من العلوم وله اليد الطولى في الشعر والادب في اللغات الثلاث

المقتبس بعض اسماء المخطوطات فيها وفي مكاتب المدينة المنورة نقلاً عن الشيخ جمال الدين القاسمي في الصفحة ٧١٨ من السنة الرابعة ثم عادت فنشرت قائمة اخرى بتوقيع ابراهيم افندي حمدي خربوطلي في صفحة ٣٧٩ من السنة السابعة ٠

والذي زادنا تعريفاً بها هو وصف صديقنا صاحب المقتبس لها في رحلته الى طيبة اذ يقول (١) واحسنها «اي خزائن كتب المدينة المنورة» وربما كانت خير مكتبة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت افندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد او مجلدين وفي هذه المكتبة من التسهيل على المطالعين والعناية براحتهم مالا تكاد تجد مثله في دار الكتب الخديوية بمصر لعهدنا وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم اه

فلما قصدت الى البلد الطيب صيف السنة الفائتة كان غاية مارميت اليه بعد زيارة الحجرة المعطرة زيارة هذه المكتبة فاخذني الدليل من زقاق ضيق عن يسار باب السلام وما كدنا نجتاز منعطفاً هناك حتى كنا امام دار المكتبة وهي ذات طابقين ومبنية من الحرار «الحجر الاسود» خلافاً لأكثر دور المدينة المبنية من اللبن فدخلناها من باب امتلأت حوله اصاصي الرياحين والازهار واجتزناه الى الغرفة الكبرى المختصة بحفظ الكتب فالفينا بعض المطالعين والنساخ يطالعون وينسخون كأن على رؤوسهم الطير الا حركة خفيفة تنبعث مرة بعد اخرى من اهواء المهواة التي بايديهم دفعاً لشدة حرارة القيظ ٠

ولما استتب بنا الجلوس اتى الينا حافظ الكتب بفهارس المكتبة الخطية وطلب الينا معرفة اسمنا فسلمناه بطاقتنا وصرنا نطالع الفهارس المرتبة على انواع العلوم والفنون والمنسقة تنسيقاً جميلاً يدل على ذوق سليم مما يعد عنواناً على نظام هذه المكتبة كما تراه في المثال المحرر ادناه نقلاً عن احد الفهارس

نمرة	١٧٥
اسم الكتاب	تذكرة الشعراء المسماة بجمع الخواص
« المؤلف	الصادق الكيلاني

(١) مجلة المقتبس ص ٧٦٣ جلد ٧

خط	تعليق
سطر	١٩
اوراق	١٠٥
جلد	١
جدول	خالي
ملاحظات	بالتركي

وبعد هنيهة قدم علينا مدير المكتبة عبدالقادر افندي حوار وغدا يرشدنا الى امهات الكتب النفيسة الموجودة في المكتبة فاطلعنا على تفسير الكشاف للزمخشري وبهامشه الكشف على الكشاف وقد كتب التفسير اولاً بمجلد واحد بخط مشرق جميل وجداول مذهبة ثم أضيف اليه الهامش بالصاقه على جوانب المتن الثلاثة الصاقاً يكاد لا يظهر الا على الناقد البصير وقد قيل لنا ان هذا التفسير وحده كلف صاحب المكتبة ثلاث مئة جنيه مما يدل على مبلغ تأنق الرجل في انتقاء كتبه ·

وارونا ايضاً كتاب تقويم الابدان في الطب لابن جزلة البغدادي وقد نسخه ناسخه سنة ٢٩٧ اي منذ نيف والف سنة كما اننا رأينا ديوان شعر بالفارسية اسمه «غزليات شاهي» كتب سنة ٦٥٥ بحروف من ورق قطعت تقطيعاً بديعاً والصقت على صحائف من الورق الملوّن فجاءت غاية في الدقة ·

وقيل لنا ان فيها محاضرات ومحاورات الامام السيوطي «١» بخط يده الا ان الوقت لم يتسع معنا لمطالعته · وترى جميع الكتب مجلدة تجليداً متيناً ومحفوظة ضمن غلافات من جلد ايضاً ومصفوفة في القماطر بنظام معجب ومطرب والمجلد يتعهدها كل يوم ويصلح ما افسد منها اما المكتبة فقد اسست سنة ١٢٦٠ كما هو مؤرخ في سقف قاعتها وهي السنة التي اقيل فيها من المشيخة ولعل لاقالته علاقة بتأسيس المكتبة واوقف عليها من الكتب في اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ٥١٣٥ مجلد وورد اليها بعد تأسيسها الى يوم الناس هذا ٤٠١ فيكون مجموع كتبها اليوم ٥٥٣٦ مجلداً وزهاء الفي رسالة محررة على هوامش هذه الكتب وبينها نزر يسير باللغة الهندية «اردو» وقلة الكتب الواردة عليها التي لا يزيد معدلها السنوي على سبعة كتب تؤيد ما قلناه

«١» الامام جلال الدين السيوطي من رجالات القرن التاسع

آنفاً من ان عارفي مكتبة عارف قلائل جداً (١)

ولقد اقترحنا على المدير ان يطبعوا فهرساً للمكتبة وينشروه بين الناس ويحذوا حذو المكاتب الراقية فيطلبوا من مؤلفي الكتب ومترجميها نسخة من كتبهم لتوضع بالمكتبة وتعم الفائدة لاعتقادنا ان هذه الطبقة المنورة لا تضن على تلك المكتبة ببنات افكارها ونتاج قرائحها · فاستحسن منا هذا الاقتراح ولكنه اعتذر عن تقريره لأنه من خصائص متولي الوقف يحيى افندي قاضي مصر السابق الذي يتوقع منه كل محب للعلم والادب ان يحل هذا الاقتراح محله ويعمل على تعريف الناس بهذه الخزانة النافعة فان عمال المكتبة الكثيرين هم كفوء ويكفون للقيام باعمالها كما ستراه ·

المشاهرة	العدد	العنوان
قرش صحيح		
٧٠٠	١	مدير
٧٠٠	١	حافظ كتب اول
٦٠٠	١	« « ثان
٥٥٠	١	« « ثالث
٥٠٠	١	« « رابع
٥٠٠	١	مجلد
٥٠٠	١	بواب
٥٠٠	١	سقا
٥٠٠	١	كناس
٥٠٥٠ المجموع		

وللمرحوم اوقاف اخرى في المدينة تأتي من عاصمة السلطنة مع مرتبات المكتبة بواسطة الخزانة النبوية اليك بيانها

(١) كانت كتب المكتبة ٥٤٠٤ لما زارها الشيخ جمال الدين القاسمي واذا اعتبرنا ان هذه الزيارة وقعت سنة نشر اسماء الكتب في المقتبس فيكون مضى عليها اربعة اعوام بلغت فيها زيادة الكتب ١٠٢ مما يدل على ان ذلك النشر افاد المكتبة لان المعدل السنوي بلغ الخمسة والعشرين بعد ان كان لا يزيد عن ستة في السنة في المدة التي قبلها ·

المشاهرة قرش صحيح	العدد	الموقوف عليه
٦٠٠	٢	قاريء الشفا في الحرم النبوي
٦٠٠	٢	« دلائل الخيرات «
١٢	١	سقا في الحرم «
٩٠٠	١	امرأة الواقف المقيمة في المدينة (١)
٢١١٢ المجموع		

ومما قاله لنا مدير المكتبة ان المرحوم كان ينوي ابلاغ كتب المكتبة الى عشرة آلاف مجلد كانت تحت يده الا انه لم يتمكن من تحقيق امنيته لانه حين عزم على الحضور الى المدينة المنورة يستصحب بقية كتبه عاجلته المنية في دار الملك فبيعت كتبه فيها مع تركته بابخس الاثمان ومنها كتاب الاغاني الذي بيع بخمسة عشر جنيهاً ثم باعه من اشتراه من آخر بستين جنيهاً وطبع بعد ذلك عن تلك النسخة وانتشر بين القراء ويقولون انه لو تمكن من جلب تلك الكتب واضافتها الى الموجود في المكتبة لكانت اليوم من احفل واغنى مكاتب الشرق على انها الآن تضم بين جدرانها الوفاً من الامهات التي تفتقر الى رجالات علم وعمل ليمثلوها للطبع ويبرزوها من خدرها ·

وبعد ان قضينا بالمكتبة ماتيسر لنا من الوقت عدنا الى الحرم النبوي من طريق آخر لا يبعد بضعة اذرع ودخلناه من باب جبريل ·

حيفا : « فلسطين » عبد الله مخلص

(١) علمنا ان امرأة الواقف لاتزال حية ترزق ومقيمة الآن في الطابق العلوي من المكتبة موقتاً ريثما تترمم دارها وهي من فضليات النساء

في ديار الغرب

نساء الافرنج

الانكليز اعجب امم الحضارة في اخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد الا بشق الانفس ولكنهم اذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم

والغالب ان كل الحاجيات تمت او كادت في هذه المدنية الغربية حتى قامت بعض نساء الامم وطالبت باشراكهن في حقوق المدنية فاصبحن ينتخبن نائبات في المجالس النيابية ويشركن الرجل في اعمال السياسة ومن الفائزات السابقات في هذا السبيل نساء فنلندا واوستراليا وزيلاندة الجديدة والنروج ·

رأى النساء الراقيات من الانكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن — والغيرة من خصائصهن — من اللاتي سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجاً في لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعي وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن

خطبت اذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت انها ازمعت ان لا تدفع الخراج الذي عليها للجابي بحيث تضطره الى ان يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة واملالاً · فضحكت الصحف من هذا القول اذ ذاك ومن الغد ارسل اليها من جميع اطراف انكلترا ابر للخياطة · اشارة الى ان المرأة هذا شأنها ولا يليق بها ان تخرج عن هذا الحد

ولكن المطالبات بهذا الحق ظللن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التي سنت للملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوقة سنة توفر النساء على تربية اولادهن وتدبير منازلهن والقيام على اسراتهن وبيوتهن حتى قالت في مفكرتها ان احسن امرأة هي التي تبدو صالحة لزوجها واولادها ·

ولقد ربت ملكة انكلترا وامبراطورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية حتى ان الاميرة اليس دي هيس درامستاد كتبت الى امها تقول : ها قد صنعت الفساطين

اللازمة لبناتي الصغيرات في الشتاء فعملت منها سبعة ولم اطرزها فقط بل فصلتها وخطتها وعملت ايضاً رداء من الصوف للطفل الذي ننتظر قدومه وانا التي اتولى حسابات الدار ولذلك تريني مستغرقة في العمل · ان اسرتنا الصغيرة تزداد بسرعة وستقضي علينا الحال بعد بضع سنين ان نعيش باقتصاد زائد ·

في مثل هذه الامة التي ملكتها واميراتها على هذا الطرز من حب الانصراف الى الاعمال البيتية يقوم ربات الحجال في اقصى بلاد الشمال ويعمدن الى القسوة في المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجأن كما قالت جريدة الماتين من مقالة افتتاحية الى استعمال القوة في مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الايدي اللطيفة التي يجب ان تكون رباتها ملكية الاخلاق بلا فها ودعتها هي التي تتهمها « التيمس » بانها تشعل الحريق في بعض بلاد الانكليز لتحمل الحكومة على اجابة تلك المطالب وانه قد حرق في شهر تشرين الاول الماضي في بريطانيا من الاملاك مايقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف وثبت بالتحقيق ان للمطالبات بحقوق النساء يداً في نحو عشر حرائق منها وان النساء المتحمسات لهذه الفكرة يطلبن شيئاً من المال فلا يلبث ان يحمل اليهن فقد طلبن مرة مئة الف جنيه واخرى ربع مليون جنيه وكلما طلبن الا يأتيهن عفواً ويقدر ما يصرف النساء الانكليزيات في الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن

هذه هي اعمال النساء الانكليزيات ومعظم البشر لا يرافقونهن على استعمال القوة في مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا اثر لها في الشرق وكيف تكون حال نسائنا مرضية وهن راضيات عن تقهقرهن فرحات بجهلهن · العاقل لا يطلب لنساء الشرق ان يشاركن الرجال كما هن في الغرب فان تقاليدنا واديانا وعاداتنا لاتنطبق مع هذا ولكن كل ما نتقيد به من قديم لا يحول بين نسائنا و بين التعلم · وليت شعري كم مدرسة فتحت لتربية البنات في عهد الدستور في القطر السوري وكم رجل فكر ان يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم في الغرب ·

القشور التي يتلقفها بعض بناتنا في مدارس الاميركان والفرنسيس والالمان ومدارس الحكومة لاترقي امة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه في صدور كبرائها فما بالك بالصغار · ان مايراه السائح في اوربا من مظاهر تربية المرأة ومضاهاتها الرجال في جلائل الاعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الاسلامي الذي تأتيه العبر عن ايمانه وشمائله ولا يعتبر

تسعى ايطاليا اليوم لاعطاء المرأة حقها في التصرف بمالها كما تحب دون ان تكون مقيدة بارادة زوجها او وليها كما كانت حتى الآن وفي الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا في شيء لانهاض المرأة من كبوتها فما ابعد الفرق بين الجنوب والشمال في تربية الرجال وربات الحجال

***

وبعد فانا نشاهد كل آن العجب العجاب في هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة في اعمال الحياة مشاركة هي على غير الطريقة التي جرى عليها الشرق الاقرب الذي جعل المرأة في منزلة يصح ان يقال انها اقصى دركات الانحطاط وهيهات ان تنجح امة نصفها عاطل لا يعمل ولا يفكر ينظر اليه بغير العين التي يجب ان ينظر اليه بها وينزل منازل الجهل والخمول .

قلنا ان العاقل لا يطلب لبلادنا ان تكون المرأة فيها كما هي في الغرب فان هذا اشبه بمريض يحتاج الى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلاً وبذلك تقتله لا محالة . نعم لا نريد لنسائنا الآن ان يكون لهن حق المشاركة في السياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا ان يكنّ منقطعات الى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقي الذي يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة امّ تحسن التوفر على تعهد بنيها وبيتها وتدخل السرور على قلب بعلها ومحارمها وان نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكنّ من الدارسات العلوم العالية بالطبع

قرأت الآن في « الجورنال » مقالة افتتاحية لاحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكري الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين ان فرنسا استاقت الفاً وستمائة معلم في سن القرعة للخدمة العسكرية وانها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب انه ساح في اوقات مختلفة في عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معاً على نحو ما تقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى ان ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فان الرجال لما كان شأنهم ان يعيشوا مع النساء فمن السخف ان يفصل بعضهم عن بعض عشراً وخمس عشرة سنة وان يعود كل جنس ان يعتبر الجنس الآخر دخيلاً وخطراً فان التعليم

المشترك يغرس في الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياءً بدون ان يكشرن عن انيابهن . فانا نجد في البيوت التي يكون للبنات فيها اخوة وللاخوة اخوات يحرزن صفات ليست اصلاً لغيرهم من الاولاد ونحن لا نريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم ازمة التعليم فيها للنساء

المرأة تحب الاولاد وتعرف مراميهم فان فطرة الامومة التي تنتبه في الفتاة تحبب اليها الاولاد وتعرفها بهم ويكون الاولاد في الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت او عجوزاً في حين ان شبان المعلمين لا يتيسر لهم ان يجبروا الاولاد وذلك لان المتزوج رب الاسرة ربما توسع في حبه اولاده فاحب اولاد غيره على ما يوحي اليه العقل ولكن معلماً في العشرين لم يتزوج لا يحب الاطفال بل يضربهم ولا يبالي بهم لانه يعتقد نفسه بانه اشبه بالمرضعة وان درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والاولاد معاً ان يوسد امر التعليم في مدارس الاطفال الى النساء بدون استثناء فان الطفل الذي يبدو شيطاناً امام معلمه يحاول ان يرضي معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربي الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم لا يحسن التصرف مع الاولاد فيعود نظام المدرسة الى احسن مما كان

قال ان للمرأة اسراراً في اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر يجهلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمبتدىء بالتعليم . المرأة تعلم وتفهم الف امر لا يستطيع الرجل ان يفهمها ولا يحرزها . انها رزقت جميع اسباب اللطف التي ترافق الاحسان .

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فمتى تنشأ لنا مدرسة في كل حاضرة من حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات اولاً وان امكن للصبيان ايضاً وريثما تتم هذه الامنية يكتفى اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين او المدارس الطائفية ويوسد اليهن تعليم البنات والبنين .

وما اظن الا القليلات من المتعلمات في بعض المدن العربية والقليل من المتعلمين يفكرون في هذا المطلب الجليل الذي هو اهم الادواء القتالة في جسم مجتمعنا وهيهات ان يحصل على شيء من البرء الا بتعليم البنين والبنات بل انه بدون العناية اولاً بتعليم البنات لا تستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الامور النافعة بحسب ما تقضي به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربي بانهاض شأن المرأة وبدون ذلك لا امل لنا باصلاح بيوتنا

المدنية لاتشفق

احببت ان اخدر افكاري موقتاً عن النظر في اخبار بلادي فاخذت اطالع بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما بار يز منها واعنى عناية خاصة بالحوادث الداخلية مما لا يتيسر للصحافي الشرقي كل حين فاتلو كل يوم مرات اخبار القتل والانتحار والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة جرياً على ماورد في المثل العربي « احرص على الموت توهب لك الحياة »

لا ينكر ان من الحوادث الطارئة هنا مايسوق اليه اختلال الشعور من الاكثار من الخمور وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها مايدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة . و بينا نجد ابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته او فرسه او كيسه او ثو به ترى الغربي ينتحر هو وزوجه او ولده تخلصاً من شقاء الحياة او تفادياً من الوقوع في فضيحة او لسائق غضب او غير ذلك من الاسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة .

قرأت الآن في « البتي جورنال » ان العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض اجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الانسان وظلمه وقسوته وان المجمع العلمي الباريزي قد حصر جلسته الاخيرة في البحث عن اسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التي تكثر في البلاد الحارة وتصاد بلا شفقة ليتزين نساء الغرب بريشها واذا لم ينظر في طريقة تحفظ بها انسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بضع سنين لامحالة فيكون الناس اشبه حالاً بحكاية من قتل الدجاجة اعتقاداً منه ان في بطنها بيضة ذهب .

قال صاحب المقالة : منذ عرف العالم مازال الانسان يظلم و يطمع في القضاء على الحيوانات ويسيء استعمال الاسباب التي جعلتها الفطرة امامه فلاجل نفع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربري يقتل بدون خشية انواعاً من الحيوانات النافعة التي يحدث من فقدها اختلال في ميزانية هذا الوجود . هو يقتل الفيل لان العاج ثمين جداً و يذبح كلب البحر لان جلده يباع بثمن غال و يصيد الجوارح والطيور لان ريشها تزدان به رؤوس النساء المتبرجات الخ

و بينا اتصفح هذا واعجب من رقة شعور القائمين بهذا الامر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة ان يحدث منه خلل في ميزانية عالم الكون والفساد ، اذا بي

ارى في الصفحة الثانية اخباراً من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة ايام في الغرب لان مدنيته لا تشفق بل لا تقوم الا يبذل بعضهم ارواحهم في سبيل اعلاء كلمة العلم

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون في الصحاري والقفار او في القطبين وتجشم اخطار البحار اما اليوم فبعد ان اكتشفوا العالم الارضي اصبحوا يريدون ان يكتشفوا العالم السماوي كانوا بالامس يعملون في البسيطة وهم اليوم يريدون ان يسخروا الجو وما ندري غداً ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التي تباع في تحقيقها الارواح بيع السماح

كنا بالامس نقول اذا تلونا سياحة احد ارباب الرحلات من الغربيين ان كاتب الرحلة في حلم يملي من عالم الخيال ليري انه لقي اهوالاً من سفره ويشتهر بين جيله وقبيله ونرجح ان معظمها اشبه بقصة السندباد البحري وحكاية الف ليلة وليلة بيد ان مانقرأه اليوم بل نشاهده عياناً من اخبار الطيارين في طيارات السماء كاد يدعونا الى تحسين الظن باكثر ما اورده ارباب الرحلات وان هذه المدنية التي نتمتع بها ان هي الا ثمرة الاستهانة بالحياة في سبيل الاغراض الشريفة ·

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الانسان بل تقتل الانسان لفائدة الانسان وهذه التجارب التي خص الغربي بطول الروح عليها هي التي نشأت منها اكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسناتها للبشر اليوم منادية بان الامم التي قام ابناؤها بشيء من هذه الاعمال حرية بان تنال ذروة المجد لان من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لا يعسر عليه ان يسخر الانسان للانسان ·

مدنية الغرب لا ترحم احداً ومتى رحم من لا يرحم نفسه · والغرب لا يحزن لفقد الف او الوف من ابنائه قذفاً من الجو وهم يطيرون لانه موقن بان هذه التجارب تنجلي في النتيجة عن خير لهذا المجموع فمتى نرى اناساً من الشرقيين ينهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب في صالح اعماله فان مما يخجل الشرق ان يعمل الغرب كل هذه الاعمال المدهشة وهو نائم باهت وان يقتل الشرقي اخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه في تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثل

وبعض خلائق الاقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء ان يعطي مناه ويأبى الله الا مايشاء

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها رخاء
ولا يعطى الحريص غنى لحرص وقد ينمى على الجود الثراء
وبعض الداء ملتمس شفاه وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا الى زمن هم في العالم كل شيء لا قول الا قولهم ولا مدنية الا مدنيتهم التي هي خلاصة مدنيات العالم بأسره فيها اندمجت مدنية رومية واثينة وبابل واشور ومصر وفينيقية والاندلس وبغداد وفارس ان هذه المدنية التي تتمثل لنا كل يوم في صور شتى قامت بعقول الرجال واعمال الابطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذي كان عليه المعوّل في نبث المدفون واختراع المعدوم

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرقي انهم على شيء من المبالغة واكثر الامم ايغالاً في ذلك الفرنسيس على ما رأيت فان رجالهم لقوا من التكريم والتنوه به مالا يكاد يراه امثالهم في الامم الغربية نفسها . وان المرء ليعجب كل العجب من تغنيهم حتى اليوم بجان دارك احدي فتيات القرون الوسطى التي بزت الرجال بشجاعتها ودافعت عن وطنها امام جيوش الفاتحين من الانكليز والى اليوم هي المهماز الاعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها في وصف سيرتها .

ولا بدع فان الفرنسيس كما قال برزباين — اشهر رجال الصحافة الاميركية — ورثوا عن اليونان والرومان نبوغاً كانوا به ادلة وموحين بالافكار للعالم منذ عهد شارلمان فقد كانوا الاولين في الحركة العقلية السابقين في شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين في فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة في انشاء السيارات والطيارات وفي عامة الاعمال التي تحتاج الى عقول لاتخاف وتتطلب اقداماً عليها لساعتها .

قرأت امس في « الماتين » مقالة جاء فيها ان الفرنسويين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتية (يوم ١٣ كانون الاول ١٩١٣) وربما يقلُّ في قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته

ليذكروا على الاقل من هو الذي يعاد ذكره بعد ان نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وانشئت الجواد والشوارع بل انشئت قرية باسمه في الجزائر ·

بارمانتية هو مخترع البطاطا في فرنسا او مدخلها اليها على صورة عم استعمالها جميع طبقات الناس لخدمتهم في اقتصادهم و بيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضي · كان هذا الرجل من ابناء العامة سافر من بلده مونتيدية الى باريز ليسابق في وظيفة صيدلي في الجيش فقبل وأُرسل مرات الى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى اعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضو في مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلي اول في الجيش الفرنسوي وفي خلال حرب السبع سنين أُخذ اسيراً وفي اسره تسنى له ان يدرك مافي البطاطا من المواد المغذية وكانت في معظم الاوقات الغذاء الوحيد له ولاصحابه الاسرى ·

حملت البطاطا من اميركا الى اوربا من سنة ١٥٨٠ الى ١٥٨٥ نقلها الاسبانيون اولاً ثم الانكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيراً في فرنسا و ينظر اليها في الجملة نظر ازدراء · ومازال بارمانتية منذ استقر امره في صيدلية « الانفاليد » بباريز يكرر في منشورات منوعة فوائدها و يدفع اعتراض المعترضين بشدة لانهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلاً ان رأي الناس في البطاطا انها غير صالحة لغذاء الانسان ساقط لا يؤبه له وكذلك دعواهم انها تضعف الجسم وتحوي الاخطار وعلى العكس فهي لذة الاغنياء ومعوان للفقراء وسلوى في الشدائد ·

وكان هذا المحسن مدفوعاً الى ذلك بالعامل الذي وضعه بعضهم بقوله : لا يكفي من اراد ان يكون نافعاً لابناء جنسه ان يقول لهم مرة واحدة مارآه وما عمله وما يجب ان يعمل بل يجب عليه ان لا يمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق منوعة اللهم الا القوة فانها لا تستحب · ولا تنفع العلوم الا اذا عمت الطبقات كلها · هكذا كان شأن بارمانتية حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة واصبحت تزرع في ارض تبلغ مساحتها مليوناً وستمائة الف هكتار في وطنه ·

ولم يقتصر بارمانتية عَلَى الدعوة الى البطاطا وتحبيبها الى الناس بل كان له اثر محمود في الخبز والخبازة ودرس الاغذية الرئيسة عند هذه الامة وله العمل المهم في تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية الى غير ذلك من اعماله في تنشيط الاشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم وطبخ الاحسية

الاقتصادية هذا الى جمعيات البيطرة والاحسان والمآوي التي كان عضواً فيها او مديراً لاعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه احد واصفيه السابق الى كل مكان يمكن العمل فيه كثيراً وان يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير و يتأتى لمن يدعوه ان يكون على ثقة من انه باشراكه بارمانتية في العمل يتسلط على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء ٠

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القاريء وكيف وجد من قلبه متسعاً للقيام بكل هذه الاعمال التي تحتاج الى بضعة رجال والجواب ان بارمانتية كان يصحو باكراً ويجلس الى منضدة عمله في الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحاً ٠ قالت (الماتين) وما احق مدارسنا الابتدائية ان تتخذ من هذا الولد ابن الشعب مثالاً يبعث الهمم على العمل فانه قد خرج من مسقط رأسه مستخدماً صغيراً في الصيدلية لا سند له ولا مال بل ولا تعليم الا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ المناصب العالية وجلس في الصف الاول بين المحسنين الى الانسانية ٠

ابعد هذا نلوم الفرنسيس اذا غالوا بحمد رجالهم ؟ وهل نشأ لنا نحن ياترى معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتية منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله حرياً بان نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه في سجلات الازمان

صناعة الفنادق

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل اصبحت الفنادق والانزال صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق في الغرب ولا سيما في البلاد التي يكثر اليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثلاً يهون عليه ان يتصور معنى الفنادق فيرى قصوراً شاهقة ذات حدائق غناء مجهزة باجهزة قصور الملوك او اكثر وفيها من التحف والالطاف وبدائع الصناعات مايلفت عقل البليد دع الحساس الذكي ٠

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل الا لعين من كثرت سياحاته الى الاقطار المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى ادارة كل نزل اشبه بديوان كبير من دواوين الدول او مصرف عظيم او جريدة منتشرة ٠ واتقان تلك الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلما تأصل في الشرق والغرب وكثر الترف والنعيم زاد رواء واتقاناً ٠

ان ماتراه في مصر والشام من اتقان بعض الفنادق ان هو الا جزء مما اوجده العلم في القارة الاوربية والاميركية وفي مقدمة الامم التي استفادت من فنادقها واحسنت القيام عليها الامة السويسرية حتى سمى بعض الفرنسيس اهل سويسرا « الفندقيين » تحقيراً لهم مع ان هذه الصناعة كغيرها مما لا يثلم الشرف ولا يعبث بالمروءة شريفة في ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وعاراً . وكفى السويسريين بان اهم الفنادق في ايطاليا وغيرها هي بايديهم يديرونها ولا يفوقهم احد في هذا الشأن .

ليس الفندق او النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن بعض الشيء فانه قد يوجد في الفنادق الحديثة من اسباب الرفاهية والنعيم مالا يوجد مثله في قصور العظماء . الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة امور يحتاج حسن سيرها الى عناية وملاحظة خذ لك فندقاً متوسط الكبر تجد فيه بحسب طبقته ومساحته اعمال الكهربائية (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة والتهوية وادوات لاستخراج الجليد وحجراً مبردة وافراناً للخبز والحلويات وآلات للتصعيد ومطبعة ومكتباً للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات والسيارات واقبية وقد يساوي مايحويه الفندق من المواد مئات الالوف من الفرنكات تكفي النزل الشهرين والثلاثة ومعملاً للتصليح ومحل نجارة وحدادة الى آخر ماهنالك مما لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه .

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة ادواتهم لنقل الامتعة والاثقال منه واليه على الخيل او السيارات . ورجال ادارته اكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقائمون على اعطاء التعليمات لمن يطلبها ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك

فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم اقساماً قد يختلف عدد القائمين باعماله من ١٠٠ الى ٣٥٠ شخصاً . ومدير الفندق سواء كان مالكه او مديره مسؤول عن كل مافيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله العاملون باشارته او النازلون عنده . والقانون يسأله وحده فقط عن كل مايحدث

ولذا لايكون صاحب الفندق في الغرب رجلاً عادياً يكتفى منه ان يكون حسن البزة عارفاً بالقراءة والكتابة والحساب بشوشاً مؤنساً بل هو رجل متعلم من الدرجة الاولى يحسن ادراك الوف من التفاصيل في ادارة تحتوي غرائب معقدة بحيث يكون اهلاً لان يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطراراً في عمل يحوي في جملته

اعمالاً صناعية وتجارية مختلفة وليست الادوات التي يقوم بها الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلا بدع اذا طلب هنا من صاحب الفندق ان يكون مهندساً نقاشاً سياسياً تاجراً بل طبيباً للارواح والاشباح

عرفت الامم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الاول في حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعية وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذي تتوقف عليه حياة البيوت وسعادتها وغبطتها · ولقد كانت النفس تحدثني وانا اشهد من لذاذة الحياة في فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحذاقة طهاتها ونظافة خدامها وخادماتها من لي بان يأتي اناس من الطبقة المستنيرة المثرية من ابناء بلادي ليروا شاهداً عيانياً محسوساً على ترقي الغرب وتدني الشرق ويفاضلوا اذا رجعوا الى اهلهم بين حالها وحال غيرنا و ينقلوا بعض ما يمكن نقله من اسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمغاسل والحمامات واماكن الاطمئنان وغير ذلك من اساليب الراحة والنعيم الذي لم يظفر ببعض بعضه اغنى الاغنياء فينا اللهم الا بعض عقلاء الكبراء في الحواضر الكبرى وخصوصاً في مصر ·

ولكم كنت اشتهي ان يأتي بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة او النظر في فنادق مصر والشام واختلطوا بالافرنج وعرفوا خصائصهم وتأنقهم في مطعمهم ومنامهم وملبسهم ان يقضوا ولو اشهراً في الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل في سويسرا واظن ان من يفتح فندقاً ويحسن النظر فيه بحيث يضاهي به او يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وامته في اقتصادياتها اكثر من الف موظف في الحكومة متوسط المعارف لا يهمه الا رضا من سبقه في الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب ·

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ في السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لانها عرفت من اين تؤكل الكتف في خدمة الناس وتوفير اسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء ان يكون في الفندق سعيداً كما هو في بيته وزيادة · وان اتهم بعضهم الدماشقة بانهم لا يفكرون في غير الاكل والنوم وان هذه العادة غالبة عليهم ولكن يشفع في ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه

الشؤون الحيوية ايضاً وان يكن الفرق بيننا و بين غيرنا اننا نكثر التفكر في ذلك وهم يجعلون له وقتاً لا يبحثون فيه بغيره والسلام

رجال الكثلكة

يجدر بنا ونحن في مهد انتشار الدين المسيحي وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع اجراسه ان نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتفانيهم في واجبهم .

من يمر في شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمراً زمراً ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم و يلبسون لباساً اسود في الاكثر عَلَى عادتهم في الشرق ويختلف هذا اللباس فالالمان والمجريون منهم يلبسون اردية حمراء فقط والفرنسيس والانكليز يلبسونها سوداً والايكوسيون سوداً مع زنانير زرقاء و ياقات سوداء والبلجيكيون يلبسون سواداً فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغياراً اخضر والبوهميون سواداً وغياراً ممزوجاً بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقة وزنانير حمراء مبقعة بزرقة وقسوس اميركا الجنوبية يلبسون الاسود مع غيار ازرق و بطانة زرقاء والاميركان يلبسون لباساً اسود واسع الاكمام والاردان وغياراً احمر واعضاء الدعوة الى الدين يلبسون اردية سوداء مع غيار و بطانة هما الى الحمرة

هذا هو الشكل الظاهر في طلاب المدارس الاكليريكية الذين يأتون من انحاء العالم الكاثوليكي ليدرسوا و يتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا الى بلادهم او غيرها يعلمون و يرشدون . وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون في مدارسهم و بعد الدرس يذهبون الى منازلهم وقد يعيش بعضهم بين اهله وذوي قرباه فمن هؤلاء لا يطلب الا ان يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم احرار فيما عدا ذلك اما الرهبان فدائرتهم اضيق لانهم يعيشون في مدرسة واحدة مع اقرانهم و يطعمون طعاماً واحداً و يكون في الاكثر طعام تقشف ولا يخرجون الا برخصة أي ان هؤلاء مقيدون كثيراً ولا قيد صغار الطلبة في المدارس الداخلية

والرهبنات اقسام منها الفرنسيسكانيون والدومنيكيون واليسوعيون واللعازريون

وغيرهم ولهم انظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وافادوا النصرانية بنشرها في البلاد التي لم تدخلها ولا سيما في الصين والهند واليابان واواسط افريقية وغيرها من البلاد النائيـة ٠

وكان لليسوعيين يد طولى في هذا الشأن وهم بين الرهبان والقسوس اي انهم يترفهون ويأكلون مايشاؤن لكنهم يأوون الى بيت خاص خلافاً للرهبان الذين يأكلون اكلاً معيناً وخلافاً للقساوسة الذين يأوون الى بيوتهم واليسوعيون اشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة مانالهم من اضطهاد الحكومات في الازمان السالفة

قال الامير بورغزه في كتابه « ايطاليا الحديثة » : ان تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقي فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لادارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وارادته ٠ ويتراءى للناظر في نظامهم ان واضعه جنـدي فان كل شيء فيه يشعر بالنظام ٠ وقال ان نظام هذه الرهبنة ربما جرى في وضعه اغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الاسلامية التي كانت مشـهورة في الاندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لانهاية لها فتوصل بهذه الصورة ان يؤلف جيشاً يتصرف به رؤساؤه تصرفاً مطلقاً وتفني ارادة صغيرهم في كبيرهم

ولمعظم الرهبان والقسوس اعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فاذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم واذا اخذوا بالتأليف قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس في ايطاليا وفي غيرها كثيراً مايفضلون ان يربي اولادهم على ايدي القسوس وان كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم

ترى الرهبان اذا اخذوا بالزراعة والصناعة برعوا بها بسابقة ما من تخرجوا فيها اعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتباً للحبر الاعظم منـذ يوم اخذت حكومة الوحدة الايطالية ازمة الامر بيدها واستولت على اموال الرهبنات وكنائسهم واوقافهم سنة ١٨٧٠ لان جميع مرافق البلاد المهمة كانت بايديهم اذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكناً للجند وغـير ذلك وحظرت على اي جمعية دينية امتلاك ملك الا ان لرئيس الجمعية ان يملك مايشاء وقد عادت الملة النصرانية فاخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحـدة الجديدة

ولذا تراهم يعيشون عيشاً حسناً واديارهم وكنائسهم منظمة وواردانهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع الى المتدينين من اغنياء الكاثوليك في العالم ·

قلنا ان الحكومة الايطالية عينت منذ زهاء اربعين سنة راتباً لامام الاحبار ولكنه لم يقبله بعد ان نزعت منه السلطة الزمنية وكانت بيده هي والسلطة الروحية بيد ان الحكومة وضعت المبلغ تحت امره في المصارف وفي كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقي رأس المال بحاله الذي يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغني (١٨٠) مليون فرنك وحضرة البابا لا يريد ان يتناوله وهكذا عف هو واسلافه وسيتعفف اخلافه عن اخذ مال ممن يرونهم غاصبين حقهم معتدين على سلطتهم

ان انشقاق المانيا وانكلترا وغيرهما عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام امثال جان هوس وكلفن ولوثيروس في اوائل القرون الحديثة وتلك الازمة التي دخل فيها المقام البابوي اذ ذاك لم تؤثر كثيراً في سلطته على الارواح والاشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية في ايطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيراً فبقي مقام حضرته مقدساً وكذلك الكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان وذلك لان عمل هؤلاء الرجال قائم على انظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطوارئ والا زايا ولان هذه السلاسل في مراتب الكهنوت لا يصل اليها المريد الا بالتعلم والتهذيب على الاصول المتبعة وكل ماجعلت التربية والتعلم اساسه يثبت ويعم اثره ويوفق الناهضون به

ولقد لاحظنا ان الفتن الدينية التي اثارها التعصب الديني في القرون الوسطى كانت في ايطاليا اقل مما هي في فرنسا واسبانيا حتى ان الاسرائيليين في اسبانيا لما ذاقوا العذاب الاليم جلوا عن بلادهم فكان من ايطاليا ان قبلتهم وهذا ناشئ من لين اخلاق الشعب هنا ويرجح ان كل ماوقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته

ولو رجعنا الى تراجم اكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء اساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكاً زمنيين وروحيين ويوم امسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ ان البابا ليون العاشر في القرن الثالث عشر للميلاد وهو من اسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبي وكان يبسط جناح حمايته للمصورين والنقاشين والمهندسين والادباء ويفضل عليهم وبالطبع ان من يأتي بعده في الدرجة يحاول ان يقلده في محامده · والله اعلم

العرب والطليان

وصل العرب الى بلاد الامة التي هي وارثة الرومان منذ القدم اوائل عهد فتح افريقية وما برح العرب يطمعون في فتح جزيرة صقلية (١)لقربها من الشاطئ المقابل لافريقية حتى تم لاسد ابن الفرات فتحها سنة ٢١٢ هـ . قال المؤرخون كان ابتداء

(١)وصف ابن جبير الاندلسي في عودته من الشرق ماقاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يغرقون وقال ان قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب ان هذا الملك الرومي المذكور ابصر فقراء المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لان اصحاب الزواريق اغلوا الناس في تخليصهم فسأل عنهم فاعلم بقصتهم فامر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام . ووصف مدينة مسينة فقال ان اسواقها نافقة حفيلة وارزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في امان وان كنت غريب الوجه واليد واللسان وقال ان مرساها امين عجيب لان المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب فيها الى البر خشبة يتصرف عليها . ووصف مدينة برية ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية وما فيها من المساجد وسرقوسة . وقال ان شأن ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم او اكثرهم كاتم لحالته متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله حتى ان الناظر في مطبخه من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم اهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الماشية والخول والاتباع قال وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جداً وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيباً او منجماً اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شأن المتحدث به انه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة ابيه الحمد لله

حصار بلرم عاصمة صقلية في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام الى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالامان وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك

وهذه القلاع مازال بعضها الى اليوم اسماء مدن تبدأ بلفظة « قلتا » اي قلعة فيقولون قلتا جيرونة وقلتا بلونة وقلتا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت اسماؤها

شكراً لانعمه واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن . ومن العجب ماحدثنا به خديمه المذكور وهو يحيي بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك ان الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير امور عجيبة واعلمنا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكيناً لهم واما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فهم مسلمون مامنهم الا من يصوم الاشهر تطوعاً وتأجراً ويتصدق تقرباً الى الله وتزلفاً ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير مااستطاع .

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة في نفوس اهل الجهل . وكانوا يكلموننا بالعربية وقال ان زي النصرانيات في مدينة صقلية زي نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر

ان من يدخل الكنيسة يوماً　　يلق فيها جآزراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي الى اباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه هو اهل التقوى واهل المغفرة اهـ .

كما بقيت اسماء كثيرة عربية في لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلاً « منديللو » للمنديل وغير ذلك مما يشهد بان العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفاً واثرت في اهلها مدنيتهم ولسانهم وعاداتهم كما هي عادتهم في كل ماملكوه

راجت حضارة العرب زمناً في صقلية ومنها تسربت الى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير الى الاقرب فالاقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت ايضاً في جزيرة قورسقة واهلها يتكلمون بالايطالية ايضاً وهم اليوم تحت حكم فرنسا . وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة « المقتبس م ٧ ص ٦١٩ » وكانوا يغزون شطوط اسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك اذا دخلت كلمات عربيه كثيرة في لغات الفرنسيس والطليان والاسبان والبرتقال

ومن يعلم ان تلك الجزائر ما ارتفع عليه علم الاسلام وان اقريطش (كريت) وقبرص ورودس ومالطة كان حظها كذلك يعرف ان العرب كانوا رجالاً في البحر كما هم رجال في البر وانه لاسبيل الى الامن من الداخل اذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والمواني والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلا تلبث ان تبسط سلطانها على الداخل .

كان الادارسة حكام تونس هم المتكفلين بغزو جزيرتي سردانيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب اخذوا على عهدتهم غزو منورقة وميورقة فاستولوا عليها وعامل العرب الايطاليين والاسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الايطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا ان يغيروا شيئاً من مصطلحاتهم حتى ان الملك رجار الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربية وهو الذي افضل كثيراً على الشريف الادريسي الجغرافي الذي وضع كرة ارضية بالفضة كانت من اعاجيب القرون الوسطى دهشت لها اجيال الافرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التي اهداها امير المؤمنين الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا .

قال الادريسي في رجار هو الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكبردة وقلورية امام رومية الناصر للملة الناصرية اذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً

ولقد كان اهل الشرق على صعوبة ركوب البحر في ايامهم يرحلون الى بلاد ايطاليا كما يرحلون الى الاندلس فيكتبون عليها في رحلاتهم ماتقع عليه انظارهم وممن زار بعض

ايطاليا الجغرافي ابن حوقل فقد قال ان مدينة ملف « و يقال لها الآن ملفي » تتصل بارض نابل وهي مدينة صالحة بجال دون ملف في كثير من الاحوال واكثر اموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال انه رأى بها ثياباً لم ير في سائر اقطار الارض لها شبيهاً ولا يستطيعها صانع في جميع طرز الارض وهو ثوب يعمل مائة ذراع في خمسة عشر الى عشرة و يباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعي وزائد وناقص .

ووصف ابن حوقل صقلية فقال ان طولها سبعة ايام في اربعة ايام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع ارضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهي خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينة الكبرى التي تسمى بلرم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم وفيه هيكل عظيم ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور ايضاً من حجارة وليس كالسور الاول يسكنها السلطان واتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان

و بعد ان وصف اسواقها و باعتها استطرد الى كثرة مساجدها وقال ان فيها نيفاً وثلاثمائة مسجد وفي قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم ار مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء و بينها طريق قال وسألت عن ذلك فقيل لي ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يجب كل واحد منهم ان يكون له مسجد مقصور عليه لا يجب ان يشركه فيه غير اهله وحاشيته وربما كان اخوان منهم متلاصقة داراهما متصافية الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد لولد ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم ان يقال مسجد فلان لا غير . قال و بها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطالين والفساق ووصف ابواب بلرمة التسعة وقال ان هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد اخذ من شرقيها الى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من اوله الى آخره بضروب التجارة .

ووصف الشريف الادريسي جزيرة سردانية فقال انها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلاً وعرضها من المغرب الى المشرق مائة وثمانون ميلاً وطولها ماراً من الجنوب الى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن

منها الفيطنة وهي مما يلي جنوبها وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهي رأس المجاز الى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة واهل جزيرة سردانية في الاصل روم افارقة متبربرون متوحشون من اجناس الروم وهم اهل نجدة وحزم لا يفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج الفضة الى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلاً

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبنت برة ومونسة وبونسة واسترنجلو وجزيرة البركان وليبر ودندمة وفيكوذة واركوذة واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال في وصف مدينة بلرم : وبها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهي على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد واقليم وهو في ذاته على ثلاثة اسمطة فالسماط الاول يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما ايضاً قصور سامية ومبان فاخرة عالية

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال انها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهي في شمالي غربي القسطنطينية وبينهما مسيرة خمسين يوماً وهي في يد الفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الامام الذي يكون واجب الطاعة ومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها . ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي ان استدارة رومية اربعون ميلاً في كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب الاول يرى سوق البياطرة ثم يصعد درجاً فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر ان بين يدي السوق سوق آخر على اعمدة نحاس كل عمود منها ثلثون ذراعاً وبين هذه الاعمدة نقير من نحاس في طول السوق من اوله الى آخره فيه لسان من البحر تجري فيه السفن فتجيء السفينة في هذه النقرة وفيه الامتعة حتى تجتاز على السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ما تريد ثم ترجع الى البحر .

وذكر اشياء عجيبة عن كنيستها وقال ان فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير ذلك قالوا انها مائة وعشرون موضعاً قال وقد مثل في الكنيسة صورة كل نبي بعث من وقت

آدم الى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر اليهم يحسبهم احياء وحكى ان اهل رومية يحلقون لحاهم ووسط هاماتهم فسئلوا عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم الى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلما ظهر لهم صدق قولهم ندموا على مافعلوا وحلقوا لحى انفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك

وممن رحل الى ايطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة بحماة وكان اماماً مبرزاً بالعلوم العقلية عارفاً بالمنطق والهندسة والاصول والفقه والهيئة والتاريخ توفي سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولاً الى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذكر انه اقام عنه وفي مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالاندلس من مدينة انبولية واجتمع به مراراً ووجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس قال وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى لوحارة اهلها كلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام

وفي هذا القرن كان الايطاليون هم رجال التجارة والاساطيل في البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من اقليم طوسكانيا تجارات واسعة في الشام وقال ياقوت ان السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزة وجنوة والبندقية هي اكثر البلاد الايطالية في القديم والحديث اختلاطاً بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية امم اوربا غائصة في مفاوز الجهالة ٠

نشر المستشرق ميشل اماري في مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (پيزة) وفلورنته (فلورنسه) او افلورنسا و بين ملوك المسلمين في تونس والغرب الاقصى ومنها عقد من الملك قايتباي للفلورنتيين ذكر في شروط البنادقة ان تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة اصنافاً من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية واولها في منتصف القرن السادس

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على اتمه بين الامتين ولا سيما عندما تضع الحرب اوزارها وكثيراً ماكان رسل ملوك الاسلام يأتون ايطاليا فقد ذكروا ان ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولاً من قبل صاحب تونس وصور الطليان اذ ذاك على الحجر وجاءها في القرن الحادي عشر الامير فخر الدين المعني صاحب لبنان واقام بها عدة سنين ملتجئاً ووصف عمرانها بالضخامة وتفنن اهلها في النقش والرسم والبناء ٠

ولا يتسع المجال هنا الى ذكر كل من زاروا ايطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا الى هذا العصر . ولقد كانت اللغة الايطالية في مصر والشام معروفة اكثر من الافرنسية والانكليزية الى منتصف القرن الماضي ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون الى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم اكثر من ان يحصوا وفي مقدمتهم السمعاني اللبناني المشهور واللبنانيون الموارنة على مايظهر اشد الكاثوليك رغبة في المهاجرة الى رومية وتواريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك .

لذائذ الغربيين

قرأت في الصحف الباريزية ان امبراطور المانيا منع ضباط مملكته من رقص التانغو والوان ستب في الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الانكليز وهما رقصتان قيل انهما من اصل اميركي في اقصى مايكون من الخلاعة خلافاً للرقص الذي اعتاده الاوربيون في حفلاتهم الراقصة خاصة كانت او عامة .

ولعل الآن بعضهم يقول وانت الآن تحدثنا عن الرقص وامامك محيط اوربا وكله مما يستملي القرائح مهما كانت كليلة للكتابة والتأمل . نعم ان البحث في الرقص هو مما يجب البحث فيه ايضاً لشرقي يبحث في مدنية الغربيين

اننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادي ننكر الرقص ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه . يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لا تكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة الا ويعتادون الرقص على انواعه من غير نكير اللهم الا رقص التانغو والوان ستب فان العقلاء انكروه لانه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عما وضع له

والرقص (١) في الغالب يكون على ايقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما

(١) قال طاش كبري في مفتاح السعادة : علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها اصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجري مجرى هؤلاء من اصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجواري الفائقات ليلتذ السمع والبصر معاً بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة

اشفع بغناء . فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات ور بما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتى ولا الفتاة من اهل الظرف بدون الاخذ بحظ وافر منها فكأن الغربيين رجعوا في مدنيتهم الى الفطرة الاولى وذلك لانا نرى سكان البوادي في الشرق ايضاً يرقصون ويغنون ويضربون بطبل او ينفخون بمزمار . امور يأتونها على الفطرة وعلى حالة اولية ولكنها على كل حال تدل على ان سكان غير المدن في شرقنا اقرب الى الفطرة من المتحضرين .

كانت الطبقة العالية من رجالنا ايام رقي العرب في الاندلس ومصر والشام والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستنكف من الضرب بالعود او غيره من ادوات الطرب او ترفع اصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ماتستعيده الامة الناهضة واول ماتفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى الا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى في امة دليل ارتقائها فهما محركان عظيمان لارواح ابنائها ومهمازان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يصرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب .

تصدر هذه العجالة من بلاد هي مهد الرقص والغناء والموسيقى من ارض اين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى من بلد قام فيها من الموسيقيين القدماء امثال روسيني وبلليني ودونيزيتي ومن المحدثين امثال فردي وبوتشيني وماسكانية وليون كافاللو ومن المغنين في المحدثين بونشي ومار كوني وكاروسو وديللوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن اعظمت الامة منزلتهم واحلتهم في منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها

وكل مانراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب « النوتة » بادوار ونقاطيع مخصوصة وهو مالم يتم حتى الآن عند العرب اللهم الا الموسيقى الوترية في مصر ولما يعم استعمالها فاذا اصبحت موسيقانا وغناؤنا ضمن دائرة القانون يكون قد وضع الحجر الاول في اساس نهضة هذه الفنون الجميلة في شرقنا العربي على نحو ماجرى عليه سكان الاستانة وافلحوا فيه من تقليد الاوربيين في موسيقاهم وغنائهم .

والسرور واهل الهند ماهرون في انواع الرقص ولهم فيها يد طولى الا ان هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اه

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد ان تكون نفسه شفافة براقة حساسة ولكل امة غناؤها قد تتبرم به الامة الاخرى وتعده منكراً ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندفة الاسكندري من سياح القرون الوسطى في وصف اهل شلشويق (اي اهل شلزويك هولستاين في شمال المانيا) وقال ان لهم نوعاً من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذي يقوله اليوم ايضاً كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغنائه ومراميهما

اللذائذ الثلاث هما من اول ماتدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار بل تعد من ادوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذي في الموسيقى والغناء حذو الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت او لاصحاب آونة الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء انفع الف مرة من لغو الحديث وانتقاص بعضهم بعضاً والحط من اقدار انفسهم والسلام

التبدل المادي في الحياة السياسية

اوردنا في الجزء الاول نموذجات من كتاب تاريخ السياسة الاوربية الحاضرة وهانحن نشفعه بفصل ضاف عقده في معنى التبدل المادي الذي حدث في الحياة السياسية قال ماترجمته :

الاختراعات المادية — لم يأت زمن في تاريخ البشر تبدلت فيه الاسباب المادية في الحياة بسرعة كما تبدلت فيه في القرن التاسع عشر في اوربا فان الصناعات العملية التي تكملت منذ العهد القديم بما نالها من الارتقاء البطيء في مجموعها قد انقلبت انقلاباً اصلياً ظهراً لبطن بحيث كانت المسافة كبيرة جداً بين الطرق العلمية التي كان الناس يجرون عليها في القرن الثامن عشر والصناعة الحديثة وبين الطرق التي اتخذت في القرن الثامن عشر وصناعات الاقدمين ومنها الصناعة المصرية (١)

(١) يكفي لادراك هذا الفرق الواسع في سرعة هذا النشوء ان يعارض المرء بين صور قبور قدماء المصريين التي كانت تمثل الصنائع وصور دائرة المعارف في القرن الثامن عشر وصور بعض المؤلفات العلمية الشائعة في الاستعمال عند المحدثين

73

وهذا الانقلاب هو نتيجة الاختراعات التي قامت بالتجربة فقط او بتطبيق اساليب العلوم العملية وكثير منها ينتهي الى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر بيد ان نتائجها العملية لم يشعر بها في جمهور الشعوب في اوربا قبل اواخر حرب الامبراطورية الفرنسوية فتغير الحياة المادية لم يبدأ الا بعد سنة ١٨١٤ فهو اعظم حادث عصري بل هو حادث دولي لان تلك الاختراعات اوجدتها عقول العلماء والمخترعين من كل الامم وهي مشتركة بينهم بحيث يتعذر كل حين تمييز من له الحظ الاوفر من الامم في هذه الخدمة فقد انتقلت من امة الى اخرى مفيدة لها كلها على السواء

امتزجت اساليب الحياة المادية الجديدة في عاداتنا بحيث يصعب علينا ان نتمثل كيف كانت اوربا سنة ١٨١٤ على قربها من زمننا واختلاطنا معها في طرز الحياة ولا يخلو من فائدة التذكير بالمخترعات الرئيسة التي جعلت بيننا و بين اجدادنا في ثلاثة ارباع قرن هذا الاختلاف العظيم واني لا احاول ان اقص هنا تاريخ ماحدث فانها قامت كلها في ادوار مختلفة على اساليب مختلفة من التكمل المتواتر مما يصعب به نظمها بحسب السنين بل اريد هنا ان احصيها جامعاً لها على طبقات المعارف التي هي عملياتها في الحقيقة

فان الاختراعات الميكانيكية التي تمت كلها في انكلترا خلال القرن الثامن عشر كانت اولاً ادوات تدار بالايدي مثل ادوات نسج القطن ونسج الصوف وخياطة الصوف وحياكة القطن وحياكة الصوف وخياطة القماشة الصوف وصنع الجوارب (اما آلة الخياطة فلم تحدث الا في القرن التاسع عشر) ثم جرى العمل باستعمال القوى الطبيعية المنبعثة من شلالات الماء لادارة آلات النسج والحياكة (وذلك في انكلترا من سنة ١٧٩٠ الى ١٨١٥) اما البخار فلم يستعمل الا بعد ذلك العهد و يلحق بالميكانيكيات الآلات الزراعية التي جاء استعمالها متأخراً وآلات صنع الورق وقد نشأ من ارتقاء الميكانيكيات انقلاب في طرق المواصلات وذلك باختراع الطرق المحجرة (المكادام) سنة ١٨٢٠ والطرق ذات الانحدار القليل والطنف والافريز التي قامت مقام الطرق المعبدة (الشوسة) بالحجر فقط الباهظة الثمن المشوشة النظام والطرق المستقيمة ذات الانحدار الصعب بانشاء الجسور المعلقة والقناطر وانفاق السكك الحديد

ولقد استفادت الميكانيكيات بتبديل صناعات الاستخراج فاوجدت المواد الضرورية للصناعات الاخرى بكميات وافرة مثل الفحم الحجري والمعادن والبترول (زيت الكاز) و بتغير صناعة المعادن باستعمال الفحم الحجري وانشاء المعامل والمطارق كثر الحديد

والفولاذ والحديد المصبوب فاصبحت المادة الاولى في ادوات الصناعة الحديثة كالآلات والاسلحة والخطوط والادوات والجسور

وباستخراج مناجم الذهب والفضة بالآلات والطرق الكيماوية الحديثة تضاعفت كية النقود · وقد اوجد علم الطبيعيات القوتين الموصفتين في المدنية الحديثة واعني بهما البخار والكهرباء فجرى تطبيق البخار في ثلاث طرق الاولى في الآلة البخارية التي استعملت اولاً في المناجم والتي ترمي الى الاستعاضة عن القوى الحيوانيـة او الطبيعية في جميع الصناعات الكبرى (كمعامل النسج والحياكة) بل والزراعة (مثل اداة درس الحبوب وحصادها) واستعمل البخار في السفن فاكثر من المواصلات في المياه واستعمل البخار ايضاً لتسيير الادوات القاطرة والسكك الحديدية التي زادت زيادة هائلة في قوة المواصلات وسرعتها على الارض · اما الكهربائية فهي احدث عهداً نشأ منها التلغراف الكهربائي الارضي والبحري والتلفون والضوء الكهربائي والفونوغراف والتصفيح ·

ومن الكيمياء تشعبت معظم الاختراعات الثانوية فان الثقاب (عيدان الكبريت) المعمول بالفوسفور قام مقام القداحة البطيئة الصعبة الاستعمال ونشأت الاسمدة الكيماوية التي اخذت تبدل الزراعة من حال الى حال واستخرج السكر من الشمندر واصبح الغاز اعظم واسطة لانارة الاماكن العامة والالوان المستخرجة من الفحم الحجري والبنزين والكريزيوت « مادة مستخرجة من القطران » والتصوير الشمسي والتصوير النوري والمواد المتفجرة الجديدة والادوية الكيماوية والغسيل في الكاور والدباغة والمربيات من المأكولات واستخراج الالمنيوم والورق المعمول من الخشب الخ ·

وتقدمت العلوم الحيوية بعض الشيء فحدثت منهـا المخدرات (مثل الكلوروفوم والاتير) التي سهلت الجراحة والمضادات للتعفن التي غيرت الطب · ويضاف الى ذلك تحسن البذور واجناس الحيوانات الاهلية وهـذا من نتائج التجارب المنبعثة من العلوم الطبيعية

وبعد فان هذه النظرة الموجزة في اهم الاختراعات تكفي في التذكار بعظمة التبدل الذي وقع في الحياة وسنبحث هنا في كيفية هذا التبدل المادي كيف فعل في الحيـاة السياسية في اوربا وذلك مباشرة بتغيير الاساليب العملية في الحكومات وبالواسطة بتحويل تركيب المجتمع

44

اساليب التدمير الحديثة — ظل الاعتماد على المواد المنفجرة القديمة الى منتصف القرن على نحو ما كان عليه في اواخر القرون الوسطى فما كان عند الجيوش سنة ١٨١٤ سوى البارود والبنادق التي تحشى حجارة والمدافع القليلة النظام التي تدك من فوهتها فكانت اسلحة ضعيفة الشأن تدك ببطء وتطلق طلقات رديئة وما كانت تحول دون المتحاربين الا بتأثيرات معنوية ولم تكن تمنع جيشاً منظماً ان يتجمع و يداهم العدو بالحراب وكان يكفي لمن يريد العصيان اذ ذاك ان تكون عنده بندقية صيد وبارود وكرات فكان الفرق في السلاح بين الجندي والعاصي الثائر لا يعتد به بل انه اذا وقع القتال في شارع يكون الثائر في مأمن فيتحصن وتكون له الميزة على الجندي فنشأت للحكومات من المواد الملتهبة الجديدة قوة في التدمير جددت علم قمع الثائرين فكان من الزئبق الملتهب ان اخترع الكابسول ثم اكتشف اكتشاف اهم من المواد الملتهبة من مركبات ماء الفضة فاكتشف اولاً النيروغليسرين (١٨٤٧) الذي يمزج بمواد صلبة فيتكون منه الديناميت (١٨٦٤) وللمواد الملتهبة المحطمة المؤلفة من مركبات ملح البارود التي يحدث منها الانفجار بواسطة ترتيب كيماوي آني قوة في التدمير ارقى من قوة البارود لان التهاب هذا لا يكون الا بالحرارة فهو اكثر بطءاً وقد استعيض عن بارود المناجم بالديناميت (لا في حفر الخنادق للحروب والنسافات البحرية فقط بل في معظم اعمال البناء في الطرق) فان بارود الحرب الذي احتفظ به استعيض عنه بالبنادق تحشى ببارود جديد لا دخان له اخترع سنة ١٨٧٠ في عدة ممالك على حدة واتخذت في المدافع مركبات من حامض ملح البارود او حامض البيكريك (هو حامض يؤلف بعمل حامض ملح البارود على النيلة وعود الند) كمادة الميلنيت الملتهبة ومادة الروبيريت الخ ٠

ولقد حدث في ذاك العهد تبديل في استعمال الاسلحة فاخترعت البنادق ذات الطلق الاوسط تجعل فيها خرطوشة مهيأة تدخل في مؤخر البندقية مما زاد كثيراً في السرعة وقليلاً في تنظيم الرماية وكان اول تطبيق لهذه الطريقة بندقية الابرة (دريس) التي اعتمد عليها المشاة في الجيش الرومي منذ سنة ١٨٤٧ ولم تهب سائر البلاد الى الاقتداء بها وظلت فرنسا مكتفية ببندقية الصيد (لوفوشو) و بعد ان احرز الالمان الظفر سنة ١٨٦٦ تنوعت البندقية التي كانت تحشى من مؤخرها مثل (شاسبوت وماوزر ومارتيني) انواعاً كثيرة واصبحت سلاح اوربا كلها ومثل هذا الارتقاء حدث في المدفعية فبعد المدفع ذي الخطوط الداخلية ظهرت المدافع التي تملأ من مؤخرها

(ارمسترونغ منذ سنة ١٨٥٤) ثم جرى تحسينها في المانيا (معمل كروب) ثم انشئت المدافع من الفولاذ واخذت تلك المرامي تقذف قنابل من الميلنيت وانتظم هذا الانقلاب في الاسلحة بالاكتشافات الكيماوية وكان من اثر البارود بلا دخان ان زاد قوة الالتهاب وخفف من ثقل البندقية وان جعل القذيفة اصغر حجماً واعظم جرماً وهذه البندقية هي التي دعيت بندقية لبل

ولقد حولت هذه الادوات الحديثة في التدمير بما تم لها من الاثر الذي فاق القديم منها اسباب الحروب ففقدت المدن القديمة القوية بضعفها عن المقاومة ما كان لها من الحصانة الحربية في الدفاع عن التخوم ولم يعد المدافعون يعتمدون على ماسوى اقامة المعسكرات المحصنة بالخنادق ومراكز للذخائر تحميها سلاسل من الحصون المنفصلة واصبحت تعبئة الجيش الكثيف متعذرة بالبنادق ذات الطلق السريع والقذائف وحلت محل عمل المدفعين المنفردين الذين يعمدون الى شجون الارض فيتحصنون وراءها

ولقد صعب ان يتمثل الناس نتائج هذا الانقلاب في الفن العسكري حتى ان اهل الصناعة انفسهم لم يتصوروا معنى الحرب بين امتين او بيتين ولكن الصورة التي صنعوها هي من الدهشة بحيث تكفي لمنع جميع الحكومات ان يأخذوا على انفسهم تبعتها وكان من ارتقاء فن الحرب ان اصبحت الحرب مستكرهة للغاية حتى انه لايجسر امرؤ على ايقاد نيرانها وكان من ارتقاء الكيمياء في القذائف ان توطد السلام ٠

فضمت الاسلحة الجديدة للحكومات قوة لاتقاوم في السياسة الداخلية واصبح من المتعذر قيام ثورة بما يتهيأ لها من الاسلحة او بنهب الثائرين اسلحة من باعتها بل انه لا يتيسر القتال بين بنادق الصيد وبنادق الحرب وما من متراس يقاوم المدافع الجديدة ٠ فليس من الاتفاقات البسيطة ان تضع الثورات والانتقاضات اوزارها منذ سنة ١٨٤٨ وكانت من قبل في اوربا مألوفة وما ذلك الا بتبدل الاسلحة وقد علل ببل احد الاشتراكيين الالمان هذا التبدل بقوله سنة ١٨٩٠ : لقد سبقت فقلت ان ماسينشأ من ثورة يقوم بها على الاكثر مائتا الف رجل لاشأن له فاننا في هذا الزمن الذي شاعت فيه البنادق السريعة الطلقات ومدافع مكسيم نضرب بالرصاص ضرب الاذلة ونقتل كما تقتل العصافير ٠

ولم يعد في الامكان قلب حكومة مشروعة ولا الدفاع عن الدستور من القوة الاجرائية واضاع الناس الطريقة الوحيدة الفعالة في مقاومة سوء استعمال الحكومة

للقوة التي تملك زمامها ٠ واستحال الاعتداء الثوري الى القـاء قذائف وابدلت الآلة الجهنمية القديمة التي استعملت ضد لويز فيليب بالقذائف « اورسيني سـنة ١٨٥٨ » والديناميت وآلات الدمار٠ وهذه الطرق المفزعة قد هيأت لبعض الاشخاص المنفردين اسباب اكراه الرأي العام وان تبدو في مظهر حزب فلم تزد في قوة الاحزاب الثورية حقيقة بل ربما انقصتها باثارة الغضب عليهم بالقاء القذائف التي ارتعدت منها الفرائص واصبح الناس متضامنين ٠

اساليب الانتقال الجديدة — ابدل انقلاب طرق المواصلات الحياة السياسية بثلاث طرق مباشرة : التلغراف والسكك الحديدية والصحافة ٠ فان من اصعب الصعوبات التي كانت الحكومة تتعثر باذيالها في كل زمن بطء المواصـلات فلابلاغ امر من السلطة المركزية ولاخذ معلومات من العمال المحليين كان يصرف وقت طويل احياناً في طرق النقل القديمة برداً كانت او سفناً وذلك حباً بايصال الامر في وقته مما كان يدخل البطء على عمل الحكومة المركزية او يجعله مستحيلاً فاقتضـى من ثم ان نترك للعمال المحليين سلطة سيئة التحديد وكذلك للوكلاء السياسيين في البلاد الشاسعة سلطة الحل والعقد الا قليلاً واستدعى ذلك التخلي عن قبول الاستعلامات عن سلوك الوكلاء بسرعة لاجراء المراقبة عليهم مباشرة

وقد عد التلغراف الهوائي من اختراع شوب من الارتقاء العظيم ولكنه لم يكن يستطيع سوى نقل برقيات نادرة في اوقات الصحو ثم وضع التلغراف الكهربائي بعـد سنة ١٨٥٠ فتمكنت به الحكومات من الاستعلام والعمل في الحال في كل الابعاد فشعر العالم في الحال بنتائج ذلك في المخابرات السياسية فاستلمت الحكومات بوقوفها على اقل حادث زمام المسائل الخارجية باجمعها واصبح وكلاؤها في الخارج ادوات نقل ٠ اما في السياسة الداخلية فان التلغراف قد اكثر الصلات بين الحكومة وعمالها وان لم يحذف في الامور الادارية ما بقي من الادوار الماضية للتلغراف في صورة كتابة اصبحت لغواً ونسي المخترعون حذفها. فان التلغراف بتقويته عمل السلطة المركزية زاد المركز قوة٠

اما السكة الحديدية فقد قلبت البريد وهو من الاوضاع القديمة محدود بضعف اسباب السحب وذلك باعدادها قوة للنقل تزيد عدد المرسلات وتنزل قيمتها على نسبة لم تكن تصدق فقد كان في اوربا بحسب احصاء مكتب البريد الدولي سنة ١٨٩٠ — تسعون الف مكتب بريد ارسل منها عشرة مليارات ارسـالية ٠ وعليه فان السكك

الحديدية والطرق والبرد بتسهيلها حركة الناس والرسائل قد نشطت جميع الاعمال العامة والحياة السياسية نشاطاً كثيراً فتيسر بفضلها وضع ادارة بعملها المنظم المتواصل اصابت سكان القرى القاصية واتت على مواطن متوحشة كانت باقية في اوربا وسط البلاد التي هي اكثر عراقة في المدنية · ونظمت الشرطة « البوليس » في كل مكان على مثال الدرك (الجندرمة) الفرنسوي فقضت في اوربا على ارباب الدعارة والشقاوة حتى في الغابات والجبال ·

ودخل جميع السكان في الحياة السياسية بوسائطهم المنظمة مع عمال القضاء والجباية والجندية والادارة · وطرق المواصلات الحديثة قربت بين رجال السلطة العامة وبين المتقاضين والمكلفين (بالخراج) والمرؤوسين وبذلك اصبحت الصلات اشد تأثيراً واقل كلفة وبهذه الوسائط ايضاً اتيح للاحزاب السياسية ان يبثوا دعوتهم ويعقدوا اجتماعاتهم على ايسر سبيل ·

وانقلبت الصحافة ظهراً لبطن بما اخترع من الآلات فان الآلة الطابعة بالبخار اخترعت سنة ١٨١٤ على يد ادارة الجريدة الانكليزية التيمس ثم اخترعت آلة تنضيد الحروف ثم آلة الروتاتيف التي اقتصدت من الوقت اللازم للطبع وقللت من اليد العاملة ومكنت من طبع عدد كبير من النسخ في وقت قصير ونفقة قليلة جداً (١) · فانتشرت الصحف اليومية السياسية بين طبقات الشعب فاخذوا يبتاعونها بالمفرد · وكانت من قبل مقصورة على مشتركين من اهل الطبقة الوسطى وتعد من علائم الظرف والزينة · ولقد حاولت الحكومات ان تحظر على الصحف الانتشار بين جمهور الناس فوضعت ضريبة الطوابع عليها اولاً (وهي الطريقة التي تصورتها انكلترا منذ القرن الثامن عشر) ثم باكراه اصحاب الصحف على وضع ضمان (وهي طريقة حدثت في فرنسا سنة ١٨١٩) او بوضع ضريبة على الورق · دع القضايا التي كانت تقام على الصحف وما ينالها من الالغاء بالطرق الادارية (التي احدثت ضعفاً محسوساً في بياعات الصحف عقيب الارتجاع الذي قام ضد ثورة سنة ١٨٤٨) بيد ان الصحف الرخيصة على الرغم من عداوة الحكومات انتهى امرها بان تدخل دخولاً قطعياً في اخلاق اوربا باسرها(٢)

---

(١) حسب احد الاميركيين انه يطبع اليوم في ساعة ما كان ينبغي لطبعه في القديم مائة يوم (٧٢٠٠٠ ورقة)

(٢) ليس لدينا ارقام تامة لنحسب بالتدقيق هذا الارتقاء على ان عدد النسخ

و بعد فان الجريدة اليومية بقوة انتشارها الذي لا يفوقه انتشار قد اصبحت في المجتمعات الحديثة ادارة للاشتهار لا في التجارة فقط بل في السياسة واستعيض عن الطرق في نشر اعمال الحكومة (كالقوانين والاوامر والاحكام) باذاعتها والاعلان عنها والمناداة بها بنشرها في الصحف وقد جعلت الجرائد من الباطل منع نشر اعمال رجال الدين وكذلك حق كتابة المعاريض التي جعلت قديماً من جملة الحريات الاساسية وللجرائد تأثير في الرأي العام بواسطتين فانها لا تبين فقط اعمال الحكومة بل عمالها وتناقش فيها فهي الذريعة الوحيدة المؤثرة في مراقبة سوء استعمال السلطة وتعرض الآراء وتنشرها وذلك من الشروط الضرورية في انشاء الاحزاب السياسية ·

اتى زمن على الصحف عدت فيه من ادوات الظرف بين الطبقات الموسرة واحتكرت فيه الطبقة الوسطى الحياة السياسية والمراقبة والمعارضة وما كان سائر الشعب يتدخل في الحياة العامة الا بما يقوم به من الثورات والفتن · فادخلت الصحافة الرخيصة الثمن في هذه الطبقة الجامدة تياراً من الدعوة المعارضة بدأ بالتهذيب السياسي في الشعب وبنشوء الحياة السياسية نحو الديمقراطية

يضاف الى ذلك ماحدث من التبدل مباشرة في الحياة السياسية من المنافع الفعلية التي نفعت الامن العام وذلك بانارة الشوارع واخذ صور الاشخاص بالتصوير الشمسي مما هو فيما ارى قائمة تامة من التغيرات في شروط الحياة العامة اما التبدلات التي كانت بالواسطة فهي اكثر عدداً واقل جلاء فليس في الامكان بيان غير الاهم منها واقلها اختلافاً فيه ·

تحول الشعب — احدث ارتقاء علوم الحياة المادية نمواً في وسائط البقاء ساعدت على نمو الشعوب في اوربا كلها نمواً سريعاً وان الاحصائيات التي قامت بها الحكومات في الجملة لتدل على مبلغ ماحدث من هذا القبيل فان سكان اوربا قد قدروا سنة ١٨٠٠ بنحو مئة وثمانين مليوناً فبلغوا اليوم زهاء ٣٥٠ مليوناً (١) « وقد كانت الزيادة على السنوية من الصحف التي كانت تعد بالملايين في البلدان الكبرى اصبحت تعد بمئات الملايين فزاد المطبوع من الجرائد مئة ضعف

« ١ » اليك معدل السكان في الكيلو متر المربع في سنة ١٨٢٠ و ١٨٩٠

المانيا	٥١	٩١

النمسا ٤٧ (النمسا الاصلية ٧٩ المجر ٥٤)

الاكثر في بلاد الشمال » لاجرم ان تزايد عدد السكان لم يعمل بالضرورة بذاته في الحياة السياسية ففي الشرق وربما كان في القرون الوسطى جماهير من الشعوب كثيرة التناسل وكثيرة الجمود وللولايات المتحدة سبعة سكان في الكيلو متر الواحد ولهم حياة سياسية اهم مما للهند الانكليزية بكثرة نفوسها البالغ ٨٠ في المئة وان المكانة السياسية في نمو السكان في القرن التاسع عشر لغريبة في بابها فما كانت المدن سنة ١٨١٤ سوى مراكز للتمدن والادارة يتخذها ارباب الاملاك وفلاحو الناحية مقراً لهذا الشأن ومعظمها عبارة عن جماعات من الموظفين وارباب الصناعات والتجارة يسكنون متباعدين بين شعب يتوفر على زراعة الحقول « وقليل من المدن ما كان يتجاوز نفوسها الخمسين الفاً » وان الصناعات الحديثة بجمعها العملة بالالوف والتنقل بواسطة البخار قد زاد الحركة التجارية الدولية زيادة ضخمة مع جميع انحاء العالم وقد انشأت شعباً جديداً من العملة والمستخدمين في التجارة فاتسعت المدن القديمة اتساعاً سريعاً لم يعهد له نظير «١» وغدت القرى الصناعية مدناً عظمى وبلغ من ازدحام الاقدام في بعض الاصقاع الصناعية (ولا سيما في انكلترا والمانيا والبلجيك) ان عمت البلاد بحيث تكاد تغطي سطحها كله . وزاد معدل سكان المدن بالنسبة لمجموع السكان في فرنسا من ٢٤ في المئة سنة ١٨٤٦ الى ٣٦ في المئة سنة ١٨٨٦ وكانت في انكلترا وهي اول بلاد دخلت في هذا الارتقاء ٥١ في المئة من مجموع سكانها اهل مدن سنة ١٨٥١ فبلغوا سنة ١٨٩٠ ٧٩ في المئة . ويؤخذ من تاريخ القرن التاسع عشر ان المدن الكبرى والاصقاع الصناعية كانت في اوربا باجمعها مراكز للانقلابات ومعارضة للحكومات

البلجيك ١٣٨ « سنة ١٨٤٠ » ٢٠٦

انكلترا وبلاد الغال	٨٠	١٩٢
فرنسا	٥٦	٧١
ايطاليا	٦٤	١٠٧

« ١ » حسبوا نحو سنة ١٨٨٠ انه كان في اوربا اربع مدن يربو سكانها على مليون نسمة وست مدن يبلغ سكانها من مليون الى مليون ونصف و٢٥ مدينة من ٥٠٠،٠٠٠ الى ٢٠٠،٠٠٠ و ٤٠ مدينة من ٢٠٠،٠٠٠ الى ١٠٠،٠٠٠ « وبلغ مجموعها ١٧٨ فوق الخمسين الف نسمة » ومجموع سكان المدن الكبرى التي انافت على النصف مليون ١١ مليوناً فناهزت سنة ١٨٩٠ — ١٤ مليوناً

ورجال الدين وفي هذه المراكز خاصة تجندت الاحزاب السياسية وكانت زيادة سكان المدن احدى الشروط المادية في سير اوربا نحو الديمقراطية

نمو الثروة — كان من الآلات التي جعلت عوناً للصناعة باستخدامها قوى طبيعية لاحد لها ان انتجت كميات اكبر من المصنوعات في وقت اقصر من ذي قبل وان تباع هذه باثمان ارخص (١)

وكان من فوائد المواصلات التجارية ان صارت تجلب المواد الاولية الى اوربا باسعار رخيصة جداً وكذلك الحاصلات الزراعية في العالم اجمع « زاد على ذلك ارتقاء الزراعة في اوربا فانها اصبحت اكثر نماءً بما تهيأ لها من احياء الارض الموات وتقسيمها اقساماً تزرع بالتعاقب والاسمدة الكيماوية والزراعة الراقية » وقد اوقف نمو محصول الذهب والفضة نزول الاسعار زمناً ولكن نمو المحصول ونمو النقد قد ساعدا مساعدة زائدة في المصنوعات النافعة وفي سهولة اقتنائها مما ظهرت طلائعه في حالتين نمو المستهلك وزيادة رأس المال ·

وكان نمو المستهلك على غاية من السرعة فغير العادات بسرعة مما يقتضي لنا ان نجهد قوانا لنتمثل كيف كانت الحياة ساذجة في اوائل القرن فكثرت نعمة الاغنياء واي كثرة وتعدت الى الشعب وانعشته من فاقته وعم الناس ما كان مقصوراً من الاشياء على اهل الرفاهية قديماً وذلك كاستعمال السكر والقهوة والشوكولاتا والثياب واقمشة القطن والحرير والورق المصور والالبسة الجاهزة والاثاث والزجاج وآنية المطبخ والشموع والمصابيح والكتب والصحف والموسيقى والتمثيل والصور ·

وقد ارتقى مع ذلك نظام الصحة فكانت القذارة عامة في القرن الثامن عشر في جماع البلاد وعند جميع الطبقات فاصبحت مما يعد عاراً عند الامم الممدنة ولا اثر لها في اوربا الا في بلاد الجنوب والشرق او بين الطبقات الفقيرة من الشعب واخذت نظافة الجسم والثوب والدار والغذاء من الضروريات الاخلاقية وعم الناس استعمالها بواسطة المدارس

(١) يختلف الاقتصاد في العمل والوقت كثيراً بحسب الصناعات فالذي كان يعمله ستة عملة من الاحذية اصبح يعمله عامل واحد بهذه الآلات وما يصنعه ستة عملة من القبعات يعمله الآن واحد وما يحيكه ثلاثون عاملاً من النسيج يحيكه الآن واحد وما كان يغزله ١١٠٠ عامل يغزله الآن واحد وما كان يطبعه ١٠٠٠ عامل في المطابع يطبعه الآن ا

وتنتشر منها الى القرى ونشأت النظافة العامة من النظافة الخاصة مثل كنس الطرق وكسح المجاري والقمامات وكانت لا تعرف قبل سنة ١٨١٤ غدا كل ذلك اليوم في جميع المدن من الاوضاع الضرورية وانتشر الاحساس العام من الخجل والقرف فاضطر الى قطع المساكن الضيقة الرجسة والازقة القذرة حيث كان يزدحم الشعب الفقير في المدن العظمى ·

وللعامل بيده اليوم كثير من الاساليب المادية كان له كثيراً من اسباب التنعم والتربية العقلية وهو يبالغ بالعناية بهيئته كاهل الطبقة الوسطى عام ١٨١٤ ولذلك تيسر ادخاله في الحياة السياسية بدون ان ينشأ عن ذلك اثر من آثار التوحش الذي كان يظن وقوعه ارباب التجارب وكان يتراءى انه حجة لا تغلب ضد التصويت العام

وان جزءاً مما حدث من السعة بواسطة الصناعة الحديثة قد استهلك وقسماً آخر نفع في الاقتصاد ومن الصعب ان يستدل بالارقام على الوفر الذي تراكم منذ سنة ١٨١٤ حتى في مملكة واحدة (١) ونقدير مستند الى اعتبارات شخصية يختلف اختلافاً كثيراً ·

ومن المحقق انها تمثل رأس مال يبلغ على الاقل ضعف مبلغ رؤوس الاموال التي تركتها القرون الماضية · ومن هذا الرأس المال الجديد استخدم جزء لاحداث الآلات والادوات الجديدة في الصناعة والتجارة فانشئت المعامل والسكك الحديدية واقرض الباقي للحكومات فاستخدمته في الحروب وفي التسليح خاصة ويمثلها واردات الدول · وهذا المجموع الضخم من رؤوس الاموال المجهزة قد غير الاسباب المالية في الحكومات فتهيأ بها زيادة الضرائب والميزانيات والديون على معدل كان لا يسمح بمثله في سالف الايام وسهل المباشرة بحرب بالنسيئة على ان تتحمل نفقاتها الاجيال القادمة وهكذا زادت القوة الاقتصادية في الحكومة وعمل المجالس النيابية الموكل اليها ادارة هذه الميزانية الباهظة ·

تحول الحياة الاقتصادية — احدث انشاء الثروة المنقولة انقلاباً في ادارة الحياة الاقتصادية في الشعوب الممدنة فكان العاملون في القديم قلما ينتجون غير ما يستهلكون او ما يستهلك في السوق المحلي فالفلاحون يبيعون قليلاً ولا يبتاعون كبير امر وارباب الصناعات يعملون لزبن وطنيين فالصناعة بالجملة والتجارة في القاصية انحصرت في مصنوعات الزينة المصنوعة في بعض المعامل وفي نواتج المستعمرات المجلوبة من وراء البحر فانتهت

«١» قدّر احدهم مجموع الوفر في انكلترا منذ سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٨٠ بخمسة وثمانين ملياراً من الفرنكات ومجموع الوفر السنوي في العام بنحو ١٢ ملياراً

الحال بالعاملين بل بالزارعين في القرن التاسع عشر بما نشأ من الانقلاب الذي حدث اولاً في انكلترا بين سنتي ١٧٨٩ — ١٨١٤ ان لا يعملوا مصنوعات لانفسهم ولا لزبنهم المعروفين بل للسوق فقط لا للسوق المحلية بل للسوق العامة

وانتشرت طريقة الشركات المغفلة من الامم ذات الاسهم بسرعة غريبة واستخدمت في المشاريع الصناعية الكبرى على حين كاد يزيد دخل الدول بنمو القروض السريع وهكذا احدثت كميات ضخمة من الاوراق المالية جعلت قيد المضاربات وانتقلت ادارة المحاصيل اذ ذاك الى سلطة جماعات المضاربين الذين يديرون سوق العالم ويحددون الاسعار ويستصنعون مايشاؤن في المعامل ويعينون اسعار الاسهام واوراق الحكومات فاصبحت بورصة التجارة ولاسيما بورصة الاوراق مراكز لادارة الحياة الاقتصادية في الامم ·

فمن ثم غيرت هذه القوة الجديدة في اسباب الحياة السياسية تغييراً محسوساً وتم لطبقة الاشراف الجديدة من اصحاب الغنى المنقول «كالصيارف وكبار الصناع وكبار التجار» ماارادوه من جعل طبقة الاشراف القديمة اصحاب العقارات والاملاك في معزل فجعلت لها مركزاً في السياسة بان وضعت نظام الاحزاب الحرة التي دخل فيها سواد الديمقراطيين من الامة وغدت المشاريع الرابحة في الصناعة والمضاربات الكبرى منوطة مباشرة بالحكومات بما تسنه من قوانين الكمارك وتعقده من القروض وتمنحه من امتيازات في الاعمال العامة وللصحافة يد طولى في ذلك بالعرض بفضل ماتنشره من الفصول · فالطبقة العالية من الماليين قد عملت والحالة هذه على ان تجعل تحت جناحها الحكومة والمجالس والجرائد · اما كيفية الطرق التي بها نجحت في الممالك الاوربية المختلفة فهو من التواريخ التي لم تبرح غامضة فلم احاول سردها بيد ان قوة المضاربة على ادارة سياسة الممالك كانت ولا جرم احدى صفات الحياة السياسية في القرن التاسع عشر اه ·

البلقان وحربها المشؤمة

اذا القى المتأمل نظره على مصوَّر قارة اوربا يجد في الجنوب الشرقي منها قطعة كبرى تحدها من الشمال النمسا وروسيا ومن الشرق البحر الاسود وبحر مرمرة وجزء من البحر الابيض الرومي ومن الجنوب البحر الابيض ومن الغرب البحر الادرياتيكي واذ كانت مجموعة هذه البلاد لا تتصل مع البر الآن الا من جهة واحدة ساغ في عرف الجغرافيين ان يقال لها شبه جزيرة كما يقال ذلك لجزيرة العرب . وهذه بلاد البلقان .

وتشتمل بلاد البلقان ومساحتها خمسمائة وسبعون الف كيلو متر مربع على بلاد اليونان و بلغاريا والروم ايلي الشرقي والبوسنة والهرسك ورومانيا والصرب والجبل الاسود والروم ايلي او الاملاك العثمانيــة في اوربا وكانت سبع ولايات وهي الاستانة وادرنة وسلانيك ومناستر وقوصوة واشقودرة ويانية ولواء چتالجــة المستقل وطول البلاد العثمانية الشرقي ١٥٢٠ كيلو متراً اي من الاستانة الى منتهى البوسنة وعرضها من حدود بلغاريا الى ساحل بلاد اليونان ٩٢٠ كيلومتراً ومساحتها السطحية ٣٢٥،٧٦٦ كيلو متراً مربعاً وسكانها لا يقلون عن سبعة ملايين

وكانت مساحة يونان منها قبل الحرب ٦٥ الف كيلو متر مربع اي نحو ثلثي مساحة ولاية سورية وسكانها نحو ثلاثة ملايين على الاكثر ومساحة رومانيــا ١٣١ الف كيلو متر مربع وسكانها ستة ملايين ومساحة بلغاريا ٩٦،٦٦٠ وسكانها نحو خمسة ملايين ومساحة الصرب ٤٨٣٠٠ كيلو متر مربع وسكانها مليونان ونصف ومســاحة الجبل الاسود ٩٠٨٠ كيلو متراً وسكانها ٢٤٠ الفاً والبوسنة والهرسك ونفوسهما اقل من مليونين ولا تكاد توجد بقعة واحدة من هذه البلاد يتكلم اهلها بلسان واحد و يدينون بمذهب واحـد وغالبية السكان في البلاد المستقلة عن العثمانية هم من اصل صقلبي (سلافي) .

تعد البلقان من البلاد الفقيرة القليلة الساكن وقد كانت منذ اواخر الامبراطورية الرومانية ميداناً للقتل والقتال واخلص العناصر منذ القديم للعثمانية الفلاخيون سكان رومانيا والارناؤود سكان مقدونية ولطالما حاربوا في هذا السبيل وقد احتلت النمسا

البوسنة والهرسك احتلالاً عسكريًا سنة ١٨٧٨ ثم اعلنت ضمها اليها عقيب اعلان الحكم النيابي في السلطنة العثمانية واستقلت الصرب عنا سنه ١٨٧٨—١٨٨٢ والجبل الاسود سنة ١٨٧٨ واستقلت بلغاريا سنة ١٨٧٨ — ٨١ — ٨٥— ٩٨٩؛ واستولت على الروم ايلي الشرقي سنة ١٨٨٦ واستقلت اليونان سنة ١٨٣٠ بعد ان حكمها العثمانيون نحو اربعة قرون وذلك بتدخل فرنسا وانكلترا وروسيا اذ ذاك وبعد تحطيم اسطولنا في وقعة نافارين سنة ١٨٢٧ وفي معاهدة برلين اصلحت التخوم اليونانية من جهة الشمال ·

هذه هي البلاد التي نشبت فيها الحرب البلقانية الاخيرة وبينا كانت انظار العثمانيين متجهة الى افريقية في الخريف الماضي (١٣٣٠ هـ و ١٩١٢ م) ليروا ماذا يكون مصير طرابلس وبرقة او ليبيا التي داهمت ايطاليا سواحلها باساطيلها ورجالها واستولت عليها وارادت ان تتوغل في داخلية البلاد فاخذ العرب من اهلها والنزر القليل من الحامية العثمانية فيها يناوشون العسكر الايطالي القتال والعالم الاسلامي متأثر لهذا الاعتداء والعارفون موقنون بان سهم القضاء نافذ في ذاك الاقليم العظيم لا محالة (المقتبس م ٦ ص ٦٧٢) اعلنت الحكومات البلقانية على العثمانية الحرب في الروم ايلي فقطع الجبل الاسود علائقه مع دولتنا في ٨ تشرين الاول وعملت بلغاريا كذلك في ١٤ منه وفي ١٧ اعلن الحرب علينا كل من حكومتي الصرب واليونان فاصبحت بلاد الروم ايلي محصورة من الشمال والجنوب ومن البر والبحر ولم يبق للحكومة العثمانية صلة بها الا من الشرق فقطع البلغار هذا الطريق ايضًا باستيلائهم على جسر مصطفى باشا وقرق كليسا ولولو برغاس ودده اغاج على ساحل البحر الابيض واضطرت جيوشنا الى التقهقر الى حصون چتالجة من ضواحي الاستانة واستولى اليونان على يانيا وسلانيك والصرب على مناستر وقوصوة والجبل الاسود على ايبك ·

فلما رأى رجال الارناؤد او الالبان هذه الانتصارات ابوا ان يقاتل قومهم ورأوا ان استقلالهم ببلادهم والتزامهم الحياد ريثما تنفرج الازمة اسلم لهم فامتنعوا عن الاشتراك مع العثمانيين في قتال البلقانيين بل ان الجند من ابنائهم الذي كان مع رجال حاميتنا ركن الى الفرار في وقت واحد يحمل اسلحته وذخائره

وكان من اثر ذلك فشل العثمانيين في الروم ايلي فشلاً لم يصابوا بمثله في تاريخهم ولو عاون الالبان جيوش الدولة من الشمال بقتالهم الصرب والجبل الاسود ومن الجنوب

بكف عادية اليونان لما وفق الحلفاء البلقانيون الاربعة الى نزع خمس ولايات من اهم ولايات السلطنة في الروم ايلي ٠

انتهز الالبان هذه الفرصة وكان بعض المنورين من سكان جنوب البانيا يتناغون بالاستقلال سراً حتى ان حكم العثمانيين كان اسمياً على معظم البانيا وارباب الزعامة يتولون امرها في الحقيقة فانه منذ حارب اسكندر بك احد قدماء زعمائهم جيوش الدولة اربعين سنة مابرحت الفتن تنشب بين الالبان والاتراك وآخرها عصيان لهم سببه استئثار علي باشا التپهدلنلي والي يانيا المتوفى سنة ١٨٢٢ ثم حرب سنة ١٨٣٠ فسنة ١٨٤٣ فسنة ١٨٧٩ فسنة ١٨٨٧

يقول احد من شهدوا الوقائع من الضباط انه لما بدأت الحرب كان الارناؤد يحاربون الاعداء باستبسال عظيم في برشتفة ومترويجة وايبك وغوسينة وبلاوة واول معركة نشبت في بلاج وكانت قوة الاعداء هناك مؤلفة من فرقتين صربيتين وخمس بطاريات وقوتنا المقابلة لها طابوران من النظامي وطابوران من رديف الارناؤد وهما من كيلان وبرشوة وبطارية واحدة سريعة الطلق وقد برهن هؤلاء الجنود على شجاعة واستبسال يعليان شرف العثمانية لانهم ثبتوا اياماً امام قوة بلغ عددها اربعة امثال عددهم حتى فني جنود طابوري كيلان وبرشوة عن آخرهم وعسكر الارناؤد الذين يؤلف منهم طابور كيلان كان عددهم الفاً وخمسمائة جندي لم يبق منهم غير خمسة عشر جندياً انقطع عنهم المدد ومع ذلك لم يحولوا وجوههم عن مقابلة الاعداء وحاربوا الصرب الى ان فنوا عن آخرهم وظلوا في يانيا واشقودرة يدافعون عن الراية العثمانية حتى النفس الاخير ٠

كانت حجة البلقانيين في هذه الحرب اصلاح حال اخوانهم في مكدونية وتراكيا من البلغار والصرب واليونان ورفع المظالم والمغارم عنهم

وشعر الكنت برختولد وزير النمسا والمجر بما تم من اتحاد هذه الحكومات الاربع على العثمانية فنصح للدولة قبل الحرب بستة اشهر ان تبادر بمنح اللامركزية الادارية للروم ايلي لئلا تكون حجة لحكومات البلقان وبينا كانت الحكومة العثمانية تفكر في اعطاء مايشبه هذه الصورة في الحكم للولايات العثمانية جمعاء انقض البلقانيون عَلَى بلادنا الروملية واستباحوا حماها واستصفوها وعبثاً قاتل جنودنا في الذب عن ذمارهم حتى ان ادرنة التي قاومت البلغار والصرب اشهراً لمناعة حصونها عادت فسقطت في ايدي البلغاريين وكل محصور مأخوذ ٠

نسي الصربيون واليونان والبلغار ما كان بينهم من الاحقاد القديمة التي يرد عهدها الى زمن الدولة البيزنطية ولطالما كان يلقي الشقاق بينهم وكذلك تفعل النمسا مخافة ان تتحد كلمتهم علينا ومن لا يذكر ان البلغار بين والصربيين تقاتلوا قتالاً شديداً سنة ١٨٨٥ وان الاحقاد والثارات كانت دائمة متبادلة بين البلغار واليونان في مكدونيا والاختلاف بين الصرب والجبل الاسود كل يوم في شأن ولطالما كان البلغاريون والصربيون على الحياد عند مايحارب العثمانيون اليونانيين · من يذكر هذا يستعظم تحالفهم الذي تم على يد فرديناند ملك بلغاريا وباشيش وزير الصرب وفنزيلوس وزير اليونانية وكانت بلغاريا منذ سنة ١٩٠٧ والصرب منذ سنة ١٩٠٨ عام ضمت النمسا ولايتي البوسنة والهرسك نهائياً الى ملكها واليونان منذ سنة ١٩٠٩ تبالغ في ابتياع الاسلحة والبارود والذخائر مبالغة لم تعهد

بينا كان البلقانيون يعدون كل ذلك كانت الحكومة العثمانية مستغرقة بالفتن الداخلية كاليمن والبانيا وحوران والكرك اولاً ومسألة طرابلس الغرب موءخراً وضباط الجيش الا قليلاً يتركون تمرين الاجناد ويصرفون اوقاتهم في الاندية السياسية فصادف ان الطابور المؤلف من ثمانمائة جندي ليس فيه اكثر من خمسة ضباط يقضون اكثر اوقاتهم في غير وظائفهم على حين كان فيه قبل ان تجري الحكومة تقاعد كثير من قدماء ضباط الجيش نحو ثمانية عشر ضابطاً مدرباً في الجملة ومن اسباب الفشل قلة الطعام والبرد القارس وبعد البلاد عنا وانقطاع مواصلاتها باستيلاء العدو على الخطوط الحديدية واهم المراكز الحصينة كما صرح بذلك احد كبار رجال الجندية في الدولة والسبب الرئيسي في الحقيقة وان جندنا في الغالب لا يعرف السبب الذي يقاتل من اجله والجند الصربي والبلغاري واليوناني والجبلي متعلم مستنير يفهم معنى الوطنية في الجملة ومن لم يفهمها منهم يأتيه رجال الدين فيلقون في روعه ذرواً من الحماسة الدينية فيستميت في القتال

نعم كان لدعاة الدين في تراكيا ومكدونيا يد طولى في بث الدعوة السياسية كما ان كهنة الطليان بثوا دعوتهم في بعض الولايات المتاخمة لبلادهم من بلاد الارناؤد وسعى مثل هذا السعي البلغار والصرب فجاؤا من طريق التعليم كما هي عادة الفاتحين من الغربيين اليوم يرسلون المعلمين مبشرين ومنذرين اولاً ثم يبعثون بالبعوث ويكتبون الكتائب · وكان لاستقلال بطريرك اليونان عن بطريرك القسطنطينية

وبطريرك البلغار عنه ايضاً دخل كبير في نشر كلمة الاختلاف وتقوية البغض للدولة العلية ولذا كانت حالة المسلمين في بلاد رومانيا والبوسنة والهرسك اقرب الى الراحة منها في بلاد البلغار واليونان والصرب الذين ينام اهلها ويستيقظون في كراهة العثمانيين منذ القديم ٠

صرفت الدولة نحو خمسين سنة في فتح الروم ايلي وحكمته نحو خمسمائة سنة ومع هذا لم توفق الى نشر لغتها ولا دينها على مايجب وظل الالباني على البانيته والبوشناقي على بوشناقيته والبلغاري على بلغاريته والصربي على صربيته واليوناني على يونانيته والروماني على رومانيته وكل شعب يعتصم في جباله وقيعانه وينازع الحكومة السلطة وهذا هو عين الغلط في الاستيلاء على بلاد والاكتفاء منها بالخضوع الظاهري وعدم السعي في تمدينها وتعليمها التعليم النافع ولطالما كانت بلاد البلقان ميداناً للقتل والقتال تباع فيها الارواح بيع السماح وان سهل قوصوة على حدود بلغاريا والصرب والبوسنة ليجأر الى السماء شاكياً من الدماء التي طلت فيه مرتين بين العثمانيين والبلقانيين ولطالما كانت اسوار بلغراد وفينا واقية لاواسط قارة اوربا من هجمات المهاجمين من العثمانيين

نشبت الحرب بين الجيوش العثمانية وجيوش الحكومات المتحالفة في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ وعقد الصلح في ٢٩ ايلول ١٩١٣ وهلك في الوقائع من الطرفين عشرات الالوف وانفقوا من الاموال مئات الالوف من الدنانير وقدر بعض الاحصائيين ان ما خسرته العثمانية من جيشها يبلغ نحو مئة الف بين قتيل وجريح وانفقت ثمن ذخائر ومعدات وغيرها نحو ثمانين مليون جنيه وان بلغاريا فقدت من جيشها ١٤٠ الفاً بين قتيل وجريح و٩٠ مليوناً من الجنيهات والصرب ٧٠ الفاً من النفوس و ٥٠ مليوناً من الجنيهات واليونان ٣٠ الفاً و ٢٥ مليوناً والجبل الاسود ثمانية آلاف نفس ومليون جنيه ولا يدخل في هذا الاحصاء مافقده السكان في البلاد التي كانت ميدان الوغى حولاً من الزمن وقد قام البلغار بفظائع مع اهل تراكيا ومكدونيا من المسلمين واليونان اشمأزت منها الانسانية والمدنية وذلك عند ما تراجعت صفوفها يوم ارادت عقيب النجاح الباهر الذي صادفته في الحرب الاولى عند ماكانت تحارب العثمانيين من جهة ويحاربهم من اخرى اليونان والصرب والجبل الاسود ولما طمعت في الاستئثار بالغنيمة او باطايبها عادت حليفاتها فاتفقت عليها مع رومانيا واصلتها حرباً عواناً سلبتها به قسماً من البلاد التي كانت لها واستعاد العثمانيون منها مدينة ادرنة وكان باسترجاع

51

العثمانيين لهذه الحاضرة وفرق كليسا ان ربحوا ارضاً واسعة لا يقل عرضها عن ٤٥ كيلو متراً ولا يقل طولها عن ١٢٠ كيلو متراً واهم من ذلك امتلاك الخط الحديدي من ادرنة الى ديموتقة وابعاد الحدود عن العاصمة واستبقاء بعض المواقع الحصينة في يد الدولة ولا يكلفها تحصينها كثيراً ·

ولكن خرج معظم المسلمين في الروم‌ايلي من الحكم العثماني وانتقلوا الى الحكومات الاخرى البلقانية وكان عند الصرب كمية من المسلمين حوالى نيش وعند اليونان حفنة في اقليم تساليا وعند رومانيا في اقليم دوبريجه فاخذت رومانيا من بلغاريا في حربها الاخيرة على ماورد في معاهدة بكرش بين البلقانيين كمية وافرة من المسلمين البلغاريين فاجتمعت لرومانيا كتلة عظيمة من المسلمين في بقعة واحدة

وقسمت بعض الصحف الانكليزية الخطيرة عناصر سكان الولايات الخمس التي خرجت عن الحكم العثماني واديان اهلها كما يلي :

(١) ولاية قوصوة : عدد سكانها ٩٠٨٩١٥ منهم ٨٩٣٥٠ مسلماً تركياً و١٣٦٨٠ مسلماً بلغارياً و ٢٥١٨٠٠ ارثوذكسي بلغاري و ١١٢٨٧٠ ارثوذكسياً صربياً و١٥٠ ارثوذكسياً يونانياً و ٩١٠ ارثوذكس رومان و ٤١٨٢٥٠ مسلماً البانياً و ٢١٩٠٥ لاتينياً ويهودياً

(٢) ولاية اشقودرة : عدد سكانها ٣٢٢٠٠٠ منهم ١٢٠٠٠ مسلماً تركياً و ٨٠٠٠٠ مسلم الباني و ٤٠٠٠٠ مسلم صربي و ١٤٠٠٠٠ كاثوليكي الباني و٣٠٠٠٠ ارثوذكسي صربي و ١٠٠٠٠ ارثوذكسي روماني و ١٠٠٠٠ اسرائيلي ·

(٣) ولاية يانيا : عدد سكانها ٦٤١٠٠٠ منهم ١٨٠٠٠٠ مسلم الباني و١١٠٠٠٠ ارثوذكسي الباني و ٢٠٠٠٠ ارثوذكسي بلغاري و ١١٠٠٠٠ ارثوذكسي يوناني و ١٨٠٠٠٠ ارثوذكسي روماني و ١٠٠٠٠ كاثوليكي الباني و ١٣٠٠٠ يهودي

(٤) ولاية مناستر : عدد سكانها ٨٤٦٠٠٠ منهم ١١١٥٠٠ مسلماً تركياً و ٢٥٩٠٠ مسلم بلغاري و ٢١٨٦٥٠ مسلم الباني و ٣٣٠٨٠٠ ارثوذكسي بلغاري و ٦١٩٣٠ ارثوذكسياً يونانياً و ٦٤٩٦٥ ارثوذكسياً رومانياً و ٢٤٧٠٠ من اديان مختلفة ·

(٥) ولاية سلانيك : عدد سكانها ١١٦٥٣٩٠ منهم ٣٣٣٤٤٠ مسلماً تركياً و ٩٨٥٩٠ مسلماً بلغارياً و ٤٤٦٠٥٠ ارثوذكسياً بلغارياً و ١٦٨٥٠٠ ارثوذكسياً

يونانياً و ٢٤٩٧٠ ارثوذكسياً رومانياً و ٥٥٣٢٠ يهودياً و ٣٨٥٨٠ من اديان منوعة·

وهذا الاحصاء قبل الحرب او في خلالها ولكن الحرب حصدت كثيراً من السكان وشتت شمل الآخر ولا سيما من المسلمين الاتراك ويؤخذ من احدث الاحصائيات التي نشرت عن تصفية حساب حروب البلقان في السنتين الماضيتين ان اليونان نالت النصيب الاكبر من الغنيمة وتلتها في ذلك الصرب فبلغاريا فرومانيا فالجبل الاسود فقد كانت مساحة اليونان قبل الحرب ٦٤٦٥٧ كيلو متر مربعاً وعدد سكانها ٢٧٣٢٩٥٢ نفساً فربحت في التصفية النهائية املاكاً مساحتها ٥٦٦١١ كيلو متراً مربعاً وسكانها ١٦٢٠٠٠٠ نفس فصارت مساحتها كلها الآن ١٢١٢٦٨ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٤٣٥٢٩٥٢ نفساً

وكانت مساحة الصرب قبل الحرب ٤٨٣٠٣ كيلو مترات مربعة وعدد سكانها ٢٩٥٧٢٠٧ انفس فربحت في التصفية النهائية املاكاً مساحتها ٣٩٠٤٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها ١٢١٠٠٠٠ نفس فصارت مساحتها كلها الآن ٨٧٣٥٠ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٤١٦٧٢٠٧

اما بلغاريا فكانت مساحتها قبل الحرب ٩٦٣٤٥ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٤٣٢٩١٠٨ انفس نخسرت في التصفية النهائية املاكاً مساحتها ٧٥٢٥ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٢٨٥٧٥٧ نفساً وربحت املاكاً مساحتها ٢٢٥٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٧٠٩٦٤٦ نفساً فصارت مساحتها كلها الآن ١١٢٠٧٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٤٧٥٢٩٩٧ نفساً

وكانت مساحة رومانيا قبل الحرب ١٣١٣٥٣ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٧٢٤٨٠٦١ نفساً فربحت في التصفية النهائية املاكاً من بلغاريا مساحتها ٧٥٢٥ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٢٨٥٧٥٧ نفساً فصارت مساحتها الآن ١٣٨٨٧٨ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٧٥٣٣٨١٨ نفساً

وكانت مساحة الجبل الاسود قبل الحرب ٩٠٨٠ كيلو متراً مربعاً وسكانه ٢٨٥ الف نفس فربح في التصفية النهائية املاكاً مساحتها ٥٨٧٦ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٢٣٠ الف نفس فصارت مساحته الآن ١٤٩٥٦ كيلو متراً مربعاً وسكانه ٥١٥ الف نفس

وتبلغ مساحة البانيا المستقلة الآن ٣٢ الف كيلو متر مربع وعدد سكانها ٨٨٠ الف نفس

الدولية العلية — كانت مساحة املاك الدولة العلية في اوربا قبل الحرب ١٨٥١٦٠ كيلومترا مربعاً وسكانها ٦٩٩٧٦٤٦ نفساً فبقي لها منها بعد الحرب الاولى بموجب معاهدة لندن ٩١٦٨ كيلومتراً مربعاً سكانها ١٦٢٣٠٠٠ نفس ولكنها عادت فاستردت في الحرب الثانية املاكاً مساحتها ١٦٢٠١ كيلو متر مربع وسكانها ٧٢٥٠٠٠ نفس فصارت مساحتها الآن ٢٥٣٦٩ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٢٣٤٨٠٠٠ الف نفس

وتبلغ مساحة الاراضي الزراعية في الاملاك التي ربحتها كل مملكة من ممالك البلقان كالتالي : ٦٣١٣٦٦ فداناً في بلغاريا و ٦٩١٩٠٨٠ فداناً في اليونان و ٤٩٤٢٢٠ فداناً في الجبل الاسود و ١٥٩٣٨٥٩ فداناً في رومانيا و ٣٧٠٦٦٥٠ فدناً في صربيا و ٣٨٣٥٧٦٠ فداناً في العثمانية

ولكن جملة الاراضي الزراعية التي كانت في بلغاريا الاصلية وما اضيف اليها من الاراضي الزراعية في الاملاك التي ربحتها في الحرب نقصت نحو ٧٦٠ الف فدان عما كانت عليه اولاً وذلك لان الاملاك التي اقتطعتها منها رومانيا كلها اراض زراعية والاملاك التي ربحتها هي في الحرب معظمها اراض بور

على ان عدد السكان في تلك الاملاك لا يثبت على ماذكرناه آنفاً لان كثيرين من البلغاريين في مكدونيا الصربية واليونانية هجروا اوطانهم الى الاملاك البلغارية في تراكيا و بلغاريا نفسها ولا يزالون يهاجرونها الى الآن وسيستمرون على ذلك في المستقبل ايضاً على مايظهر • وكذلك اليونانيون الذين في الاملاك العثمانية في تراكيا فانهم يهجرونها الى الاملاك اليونانية الجديدة • والمسلمون في الاملاك الصربية واليونانية في مكدونيا فانهم يهجرونها الى الاناضول • فلا يلبث والحالة هذه ان يحصل تغيير كبير في عدد سكان تلك الاملاك فينقص في بعضها ويزيد في البعض الآخر • والمظنون ان معظم الزيادة سيقع في الاملاك البلغارية لكثرة البلغاريين الذين يهاجرون اليها من الاملاك الصربية واليونانية في مكدونيا

اما الاموال التي انفقتها بلغاريا على حربها مع الدولة العلية اولاً ومع حليفاتها ثانياً فقد قدرها احد اساتذة جامعة صوفيا كالتالي : ١٢٦٤٠٠٧٠٠٠ جنيه اعتمادات اصلية وستة ملايين جنيه تجهيزات ومليونا جنيه عجز في الايرادات بسبب الحرب وستة ملايين جنيه لاجل مؤن وأجرة نقل و ٧٢٠٠٠٠٠ جنيه لاجل سكك حديد حربية وشؤون اخرى تختص بالتحصين و ١٦ مليون جنيه رأس مال لرواتب الجنود الذين اصيبوا في

الحرب بعاهات اقعدتهم عن العمل وتحصيل رواتبهم و ٦٠ مليون جنيه ثمن الاراضي التي اضطرت بلغاريا ان تتنازل عنها لرومانيا وجملة ذلك ١٠٩،٦٠٠،٠٠٠ جنيه

رأى القارئ مما سلف ان مساحة البلاد التي استقلت وسميت البانيا قد بلغت ٣٢ الف كيلو متر مربع ولا يبلغ سكانها اكثر من ٨٨٠ الفاً ولا تزال الفتن قائمة على ساق وقدم بين الارناؤود واليونان يريد الاولون ان يستخلصوا من مقاطعة ابيروس من بقي من ابناء عنصرهم والى كتابة هذه السطور لم يتم شيء بين الفريقين وغاية ماجرى ان اوربا عينت لالبانيا حاكماً مسيحياً هو الامير فيد من اصل الماني واهم البلدان التي وقعت في حصة البانيا الحديثة هي دراج وايلبصان واشقودرة وتيران واولونية وبرات واركري وكوريجة وياقوة وبرزرين

اما الجزر العثمانية التي استولت عليها ايطاليا واليونان خلال الحرب الطرابلسية والبلقانية فلا يزال امرها مجهولاً والمفاوضة دائرة بشأنها والغالب اننا نستعيد بعضها خصوصاً ما كان بيد ايطاليا فان المعاهدة التي جرت بينها وبين الدولة العثمانية على طرابلس وبرقة تقضي بجلاء الطليان عن هذه الجزر وربما تسترجع البلاد التي اخذتها من الفتن وتستدعي العثمانية آخر من لها من الجند والمقاتلة هناك وكذلك الجزر التي وقعت في قبضة اليونان فانه يرد علينا منها ما كان ضرورياً للدفاع عن شواطئنا ولا سيما عن خليج الاستانة .

هذه بلاد البلقان وسكانها واديانها وحربها والباعث اليها ونتيجتها استندنا في كتابتها على مصادر كثيرة ليرجع اليها عند الحاجة وتفيد في التاريخ الحديث فان حربها المشؤمة الاخيرة من افظع ما عهد من الحروب الحديثة التي تخرب العامر والغامر وتضر بالمغلوب والغالب بما تجلب من الويلات على الاسرات فيتراجع العمران ويقل نسل الانسان .

السيد جمال الدين القاسمي

تلد الولادات كل يوم اولاداً وتطوي الارض اناساً لايحصي عددهم غير خالقهم ولكن من يؤثرون الاثر النافع فيذكرون في حياتهم و بعد مماتهم اقل من القليل واقلُّ منهم في اهل هذا الشرق التعس وفي اهل الاسلام خاصة وذلك لان العلم الاسلامي بعد ان هبت اعاصير الاختلافات في القرون الوسطى وحاربت حكومات تلك الايام رجالات المعقولات واحرار الافكار ضعف مستوى العقول لانها لم يطلق لها العنان وتقاصرت الهمم لانها لم تجد منشطاً فقل جداً النابغون النابهون

وما نفس لانفس ماوقع لشيخ الاسلام بل عالم السنة وامام الائمة ومجدد شباب الحنيفية السمحاء تقي الدين بن تيمية فقد عذب في القرن الثامن سنين كثيرة في سجون القاهرة والاسكندرية ودمشق وناله من اذى ادعياء العلم في عصره حسداً منهم لمكانته ، ابكي تذكره انقل ويهون بعده كل اعتداء على العلماء ينالهم من اهل الحشو والجمود .

ومن قرأ تاريخ رجالنا في القرون الثلاثة التالية اي في القرن الثامن والتاسع والعاشر اوالقرون الثلاثة التي سبقتها اي الخامس والسادس والسابع يعرف ان كثيرين قضوا شهداء افكارهم وعذبوا واوذوا في سبيلها لانهم رأوا غير مارآه العلماء الرسميون ومن مالأهم من ارباب الزعامات في ايامهم .

ومنذ اضطر مثل حجة الاسلام ابي حامد الغزالي في القرن الخامس ان يهجر العراق تخلصاً من حاسديه الذين لايعدمون عند ماتصح اراداتهم حجة للاستعانة بالسلطة الزمنية للنيل ممن اربى عليهم وايقاف تيار افكاره الى عصر ابن تيمية الذي ناله ماناله في مصر والشام حتى قضى في سجن دمشق شهيد الاصلاح الى ان جاء القرن العاشر والذي يليه من القرون وقد اصبحت العلوم رسمية والمدارس صورية والاوقاف المحبوسة على العلماء مأكولة مهضومة — منذ جرى كل هذا والامة لاتكاد تفرح لها بعالم حقيقي يكسر قيود التقليد و يقول بالاخذ من كل علم فندر النبوغ لانه ندر ان يأتي العالم ماينشط عزيمته وكان قصارى من تسمو به الهمة الى اخذ نفسه بمذاهب التعلم والتعليم

ان يقتبس من كتب الفروع مالا يخرج به عن مألوف معاصريه ومن حكم عقله في بعض المسائل كان اتهامه بامانته من ايسر الاشياء وطرده من حظيرة الحظرة لدى العامة ومن سموا انفسهم بالخاصة من الامور المتعارفة اما التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق فهذا لايخلو منه عالم يريد ان يخرج بالناس من الظلمات الى النور ·

ولكن ارادة المولى سبحانه قضت بان لاتحرم هذه الامة من اعلام يصدعون بالحق فيجددون لها امر دينها و يستطيبون الاذى في انارة العقول والرجوع بالشرع الى الحد الذي رسمه الشارع واصحابه والتابعون والائمة الهادون المهديون ومن هؤلاء المجددين نابغة دمشق فقيدنا العزيز السيد جمال الدين القاسمي الذي يعرفه قراءهذهالمجلةبمانشره في سنيها الماضية من آثار علمه وادبه فقد قضى حياة طيبة ولم يعقه عنالاشتغال مالقيه من تثبيط المثبطين في اول امره وتنغيص الحاسدين في اواسط عمره ممن لايخلو منهم مصر ولا عصر خصوصاً في بلاد يستمد منها كل شيء من ولاة امرها ·

نشأ السيد القاسمي من بيت فضل وفضيلة وكان والده وجده من المعروفين بالادب ومكارم الاخلاق وهذا من النوادر في عصر لايكبر رجاله في العيون الا على مقدار عددهم في صفوف اهلالرسم وفي دور قلّ ان ينجب فيهولد لنجيب فصمّ او تصامم منذ اوائل سن التحصيل عن كل مايقف عثرة في سبيل الطالب فكان منذ وعى على نفسه يعمل عَلَى تهذيبها ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة ولم يقيد شاردةفظهرت عليه مخايل النبوغ ولما يبلغ العشرين فما بالك به وقد نيف على الاربعين وقارب ان يتم العقد الخمسين ·

جماع الاسباب التي نجح بها فقيدنا طهارة نفسه من المطامع الاشعبية وشغفه بالعلم للذته ونفعه في انارة القلوب واعتقاد انه منج في الدنيا والآخرة فهو لم يجعل الدين سلما الى الدنيا وجسراً موقتاً يجتاز عليه لحيازة مظهر خلاب والتصدر في المجالس بفاخر الهندام وبراق الثياب بل فرغ قلبه ووقته للعمل النافع فبورك له بساعات عمره القصير وياللاسف · ولو عددنا ماكتبه منمصنفاته وقسناه بالنسبة لهذا العصر الذي اضحت فيه بضاعة العلم مزجاة بائرة لما قلّ عن اللحاق بالمكثرين من التأليف في المتأخرين امثال السيوطي وابن السبكي واضرابهما مع ملاحظة مابين العصور والبيئات من الفوارق ·

تذرع الفقيد بعامة ذرائع النفع لهذه الامة فكان اماماً في تآليفه الوفيرة اماماً في دروسه الكثيرة اماماً في محرابه ومنبره ومصلاه رأساً في مضاء العزيمة رأساً في العفة

وهذه الصفة هي السر الاعظم الذي دار عليه محور نبوغه لانه لو صانع طمعاً في حطام الدنيا لما خرج عن صفوف اهل محيطه ولكان عالماً وسطاً يشتغل بالتافهات و يعيش في تقية و يموت كذلك ·

كان اجزل الله ثوابه اذا لقيه المباحث في احد الجامع عرضاً او غشيه في درسه و بيته ناقداً او ناقماً علمه من حيث لا يشعر وهداه الى المحجة بلين القول فاذا ايقن انه من المكابرين المموهين اعرض عنه وقال سلاماً ولذلك لم يلق مالقيه اشداء العلماء والفلاسفة في العصور الماضية من الارهاق والاعنات امثال ابن حزم الاندلسي والشهاب السهروردي لانه كان يتلطف في المناظرة واقناع المخالف فاذا رأى المناقش بمعزل عن الفهم سكت عنه · نعم كان مثال التلطف في بث الفكر فلم يصك به — كما قيل — معارضه صك الجندل و ينشقه متلقنه انتشاق الخردل ·

قام الاستاذ في دور زهد الناس فيه في العلوم الدينية الا قليلاً فاعاد اليها في هذه الديار بنور عقله شيئاً من بهائها السابق ولقد كان يجتمع به الموافق والمخالف فما كانا يصدران عنه الا معجبين بعقله مقرين بفضله معترفين بقصور كثير حتى من المشاهير عن ادراك شأوه : يخلب الالباب و يستميل العقول فكأنه خلق من معدن اللطف ورقة الشمائل · لم تجد الغلظة سبيلاً الى قلبه ولا الفظاظة اثراً في كلامه وقلما ولا عجب اذا كثر في آخر امره انصاره وعشقته النفوس فاكبرت الخطب فيه · جاء في الاثر لا يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر الا من كان فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه ·

دخل عبد اللطيف البغدادي فيلسوف الاسلام على القاضي الفاضل فقال : رأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة اعضائه · وهذا التعريف يصدق من اكثر وجوهه على الشيخ القاسمي فانه كان نحيل الجسم كبير الروح ولو تهيأ لجمال الدين مثل صلاح الدين لسرت افكاره اكثر مما سرت وراقت ا فاره اكثر مما وفق اليه ولكن اذا عظم المطلوب قل المساعد · وقديماً زكا غرس العلم في الشرق في ظل الملوك والامراء واليوم يزكو في الغرب في حمى الجامعات والمجامع والجمعيات · والعلم مذ كان محتاج الى العلم

برز الفقيد الراحل واي تبريز في علوم الشرع وما اليها ولم يفته النظر في علوم

المدنية فألم بأكثرها الماماً كافياً لتكون له عوناً على فهم اسرار الشريعة اما وقد جمع الفضيلتين فلا تجد لكلامه مسحة من الجمود المعهود لكثيرين ممن يقتصرون على العلم والعلمين و يعدون ماعداهما لغواً . فهو عالم ديني كامل ولكنه كان يقرأ العلوم المدنية و يطالع صحفها ومجلاتها وكتبها الحديثة كما يطالعها المنقطعون الى هذه العلوم وزيادة ولا ينكر شيئاً يقال له علم او فن ولذلك لم يمجه العصريون ولا غيرهم .

ربما قال من لم يعرف ان هذا كلام صديق فجع بصديق تسلسلت الصداقة بين بيتيهما منذ نحو ثمانين عاماً وعين الحب رمداء اما انا فلا احيل المعترض الا على الرجوع الى كتب الشيخ وقراءة بعض ماطبع منها وتحكيم العقل والانصاف وانا الضامن بانه لا يلبث ان يساهمني قولي و يوقن بان المرحوم جود تآليفه التي تنم عن عقله وعلمه اكثر مما جودها كثير من متأخري المؤلفين من بعد عصر السيوطي ممن شهد لهم بالاجادة ولو سمحت له الحال اكثر مما سمحت ومتع بحرية القول والعمل اكثر مما متع لجاء منه اضعاف ماجاء ولكن ضيق العيش وضيق المضطرب لايرجى منهما اكثر مما تم على يد فقيدنا العظيم من الاعمال والآثار وقد اغلقت دونه ابواب الدواعي والبواعث رحمه الله وبارك لنا فيمن خلف من مريديه ومعاصريه ومن ساروا بسيرته حتى لا نقع تحت مضمون الحديث : « ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا . »

ولقد كتبنا في تأبين الشيخ غداة وفاته في جريدة الاصلاح مانصه : لا تحضرني عبارة تشعر بمبلغ الحزن الذي نال دمشق بفقد من كان عالمها الكبير واستاذها العامل النحرير فقد كان احد افراد هذا العصر المعدودين في التحقق باسرار الشريعة . وهو ولا مراء عالم الكتاب والسنة بلا مدافع خلق ليعمل على بث الدين المبين خالياً من حشو المتأخرين الجامدين وتضليل المخرفين والمعطلين

لم يكد فقيدنا العزيز يطرق هذه الموضوعات و يهيب بالناس الى الاخذ بمذاهب السلف و يتلطف في ابلاغها العقول المظلمة في دروسه وتآليفه حتى اخذ بعض اهل الجمود يغتابونه ويحذرون عوامهم بدون برهان من الاخذ عنه ولكن ظلمة تقليدهم مالبثت ان انقشعت بنور اجتهاده وتراجع امر خصومه بعد قليل وقد بهر الناس فضله وعمله وانشأوا بعد ان كانوا يزيفون اقواله في مجامعهم الخاصة والعامة يتبعون اقواله المدعومة

بالسنة الصحيحة ومذاهب الائمة

واكبر دليل على ذلك ماشهدناه يوم مشهده الاخير من اجماع من كانوا خصومه امس على اعظام الخطب فيه والاقرار له بفضائل كانوا في حياته يغمطونه اياها ولكن المعاصرة حرمان

رأيت رجالاً كثيرين من اهل الاسلام وغيرهم وفي مصر والشام خاصة فلم ارهمة تفوق همة صديقي الراحل ولا نفساً طويلاً على العمل ودؤوباً عليه اكثر منه ولاغراماً بالافادة والاستفادة ولا حباً بالعلم للعلم فقد قضى عن ٤٩ عاماً وخلف ماخلف من عشرات من مصنفاته الدينية العصرية النافعة منها تفسيره الذي لم يطبع ومنها مقالاته الممتعة وابحاثه المستوفاة واثر في عقول كثير من الطلبة تخرجوا به واخذوا احكام الحلال والحرام عنه دع دروس وعظه للعامة وحلقات خاصته ومع كل هذا كان حتى الرمق الاخير اشبه بطالب يريد ان يجوز الامتحان لنيل شهادة العالمية . وكلما كان يوغل في طلب المزيد من العلم والتحقيق تراه آسفاً على عدم اشباع ابحاثه حقها احياناً من النظر البليغ

رزق الصديق العلامة صفات اذا جمع بعضها لغيره عد فريع دهره ووحيد عصره فقد كان طلق اللسان طلق المحيا وافر المادة وافر العقل سريع الخاطر سريع الكتابة جميل العهد جميل الود . وكان بلا جدال جمال الدين والدنيا مااجتمع به احد الا وتمنى لو طال بحديثه استمتاعه ليزيد في الاخذ عنه والتشبع بفضائله والاغتراف من بحر علمه

وبينا كنت ترى الاستاذ على قدم السلف الصالح عالماً كبيراً بين الفقهاء والاصوليين والمحدثين والمفسرين اذا هو من الافراد المختصين بالادب ومـا يتعلق به وبينا تراه يؤلف ويطبع اذا بك تراه يواظب على تدريس طلبته ووعظ المستمعين في دروسه وخطبه ومع كل هذه الاعمال التي قد يكون منها انقباض في صدر العامل تراه يهش ويبش كل ساعة ويفسح من وقته شطراً ليغشى مجلسه اوفياؤه واخلاؤه وطلاب الفوائد منه

فهو علامة بين العلماء منوَّر ممدن بين المنورين بنور المدنية الصحيحة ذهب مثال الرجل الصالح عفيف الطعمة لم يسف الى مايسف اليه بعض من يتذوقون قليلاً من المعارف وما انكر الا المنكر ولا امر الا بالمعروف ومن ضيق ذات يده كان يتصدق في السر ولا يخلو ساعة من عبادة وذكر وما فقده جلل على دمشق بل على

الشام بل على اهل الاسلام وشهرته التي نالها في العالم الاسلامي في هذه السن من الكهولة هي مما استحقه او اقل مما يستحقه، لانه حقيقة العالم العامل الذي يحبب الدين حتى لمن لم يتدين حياته فاللهم عوض المسلمين عن هذه الدرة اليتيمة التي اصيبوا بها وارحمه عداد حسناته وارزقنا الصبر عليه وجميع اسرته ومريديه واحبابه الذين فجعوا به

***

قال صديقنا جرجي افندي الحداد في رثاء الامام فقيد الشام والاسلام

اجمل عزاءك فالمصاب جليل والدمع في خطب الامام قليل
جلّ الأسى ياقوم فاصطبروا له صبر العظام على العظيم جميل
قد كنت اول من يذيل دموعه لو كان يشفى بالبكاء غليل

***

جزعت دمشق وقد رأت علم الهدى يلوي به عادي الردى فيميل
والى ظلام القبر يحمل نعشه والفضل في اعواده محمول
واستشعرت ارض العراق كآبة والهند خامرها الاسى والنيل
وبكى افاضلها على رجل قضى في امة فيها الرجال قليل
ومجاهر بالحق ليس يصده قال تردده الوشاة وقيل
اين التقية من صراحة صادق لا الجور يرهبه ولا التنكيل
هو للحقيقة نثرة محبوكة وعلى الضلالة صارم مسلول
لولا مجاهرة الهداة بهديهم في الناس مانفع الانام رسول

***

اودى القضاء بعالم ومحدث يستأسر الالباب حين يقول
بين المحابر والمنابر يومه يفنى ويحيي ليله التحصيل
ملكت قلوب الناس منه شمائل رقت فتحسب انهن شمول
واذا جلست اليه اسفر وجهه وبدت عليه بشاشة وقبول
وجه يصون عن التبذل ماءه فيكاد من فرط الحياء يسيل

***

عز الفضيلة بالامام وآسها فشجونها من بعده ستطول
وافى يشيد صرحها وربوعها لعب الفساد بهن فهي طلول

وتصدرت للعلم غير رجاله فاعتز غر واستطال جهول
قد حكموا اوهامهم وتحكموا فالعقل في ربقاتها مكبول
في كفهم نعم الحياة وبؤسها واليهم التحريم والتحليل
ولو انهم عمدوا الى التحقيق لم يتعارض المعقول والمنقول
جمدوا احتفاظاً بالقديم وليتهم نجحوا فلم يعبث به التبديل
نزعى القديم لو ارتضوه كما اتى في الوحي لما انزل التنزيل

***

والناس من نزغاتهم في ظلمة لم يبد فيها للصباح دليل
ضاقت مذاهبهم وضل صوابهم وعدت عليهم فترة وذهول
ماضيق الدين الحنيف مذاهباً بل ضيق التحريف والتأويل

***

نهض الامام بردعهم عن قومه والقوم منهم عاذر وعذول
بقريحة وقادة وعزيمة تمضي وفي حد الحسام فلول
واختار شأن المصلحين وانه عبء تنوء به الرجال ثقيل

***

نم ياجمال الدين غير مروع ان الزمان بما ابتغيت كفيل
فستعرف الاجيال فضلك في غد ان كان لم يعرفه هذا الجيل

اخبار وافكار

الصناعة المصرية

اصدرت ادارة التعليم الفني والصناعي والتجاري في مصر نشرة تحض فيها على احياء فنون الصناعة المصرية قالت فيها : من اجمل مظاهر هذا العصر في مصر هو مايزدان به من المصنوعات اليدوية على اختلافها . فما صناعة النسيج والصياغة والحفر على الخشب وعمل الاثاث (موبليات المنازل) وصناعة المعادن والزخرف والتطريز الا قليل من

كثير من الصنائع المهمة المنتشرة في امهات المدن بالقطر المصري فيسهل على من يحترف بهذه الفنون الصناعية وكثير مما هم في انحاء البلاد ان يجد مجالاً للعمل في معظم القرى ولئن كانت المصنوعات التي يعملونها جميلة جداً في كثير من الاحوال الا ان القيام باتمامها على درجة من الاتقان والكمال ربما كان في غالب الاحيان بحالة لا يستحسنها الذوق فضلاً عن ان تدرجها في مراقي النجاح سائر سيراً بطيئاً يصعب معه وجود المنافسة والمزاحمة بينها وبين المصنوعات الاوربية · ويظهر ان انواع الصور والاشكال التي تستعمل في كثير من الفنون الصناعية قاصر عَلَى اشكال خاصة يتكرر وضعها طبقاً للنماذج دون ابتكار اي تغيير فيها او تحسين

على ان نتائج الاشغال التي يقوم بها الصانع الجاهل بفن الرسم لا اثر لها سوى الانحطاط التدريجي الذي يذهب برونق الاشكال وجمالها وهذا هو السبب الحقيقي في قصور التنسيق المشاهد في انحاء القطر المصري ورداءته

ولقد انشئ بمدرسة الفنون والصنائع الخديوية ببولاق قسم خاص للفنون الصناعية والزخرف منذ اربع سنوات وذلك رجاء الحصول على الغرض المقصود وهو تحسين الصناعات الوطنية وترقيتها والغرض من هذا القسم تعليم الطالب تعليماً عاماً في فن الرسم والتلوين والتصميم ليحصل على المعلومات العملية الكافية لتعلم صناعة يدوية خاصة ليتسنى له الوقوف على دقائقها وما شاكل ذلك فيستطيع ابتكار الاشكال الاصلية اللازمة اليها ، لذلك يتاتى الطلبة فيه طرائق حسن الاستنباط بحالة افضل وصورة اسرع ولا يستعان بالآلات الاوربية الا حينما تدعو الضرورة فضلاً عن توجيه العناية الى تعليمهم طرق الاشغال المحلية مع الالتفات الى جعل اساس التعليم في الرسم التطبيقي قائماً عَلَى نقل ومحاكاة صور الزخارف العربية والفارسية التي بالمساجد ودور الآثار

ويسوغ لكل طالب حائز للشهادة الدراسية الابتدائية الالتحاق بهذا القسم · اما المصروفات المدرسية فهي ثمانية جنيهات مصرية في السنة عن التلميذ الخارجي و ١٦ عن التلميذ الداخلي

وتشتمل الدراسة التحضيرية على تعليم الاشغال اليدوية في فنون التجارة وعمل الاثاث والحفر على الخشب واشغال التطعيم واشغال صياغة المعادن وترصيعها بالجواهر وزخرفة المنازل والنسيج والصياغة

ومدة التعليم سنتان يتخصص الطالب بعدهما لاتقان فن من تلك الفنون الصناعية مدة سنتين اخريين قبل دخول الامتحان لنيل الدبلوم ·

ولكي يحصل الطالب على المعارف العملية التي تستلزمها الحرفة التي يتخذها لا بد له من ان يمضي سنة اخرى في احد المصانع خارجاً عن المدرسة لاكتساب تلك المعلومات وفاقاً لما تدعو اليه احوال التجارة عادة · ولا تمنح دبلوم المدرسة الا للطالب الذي نجح في الامتحان النهائي وامضى كذلك مدة سنة في التمرين بحالة تدل على الرضا عن عمله من قبل اصحاب المحل الذي اشتغل فيه

وان الطلبة الذين يرغبون الدخول في معترك الحياة التجارية في اي نوع من انواع الصناعات بالقطر المصري ليجدون في هذا القسم من مدرسة الفنون والصنائع الخديوية ميزة خاصة تؤهلهم لادخال التحسينات الصناعية واستنباط المبتكرات الجديدة في صنائعهم · هذا فضلاً عما يجدون في القسم المذكور من الفرصة التي تجعلهم على بصيرة من طرق الصناعة بحيث يتمكنون في النهار من فتح وادارة مصانع خاصة بهم

فالقطر المصري في حاجة شديدة الى قادة في الصناعة والامل وطيد في حرص الشبيبة المصرية على اغتنام الفرصة السانحة لهم بقسم الفنون الصناعية بمدرسة الصنائع ببولاق حيث يرتشفون مناهل التعليم فيه ليأخذوا على عاتقهم القيام بقسط وافر من جلائل الاعمال الشريفة التي ترتقي بها موارد الثروة في الديار المصرية ويعاونون على جعل مركزها الصناعي والمالي قائماً على اساس متين

نعم ان سعادة البلاد تتوقف في الوقت الحاضر على حالتها الزراعية ومن ثم كانت قيمة الواردات السنوية من المصنوعات الاوربية عظيمة جداً · على انه ليس ثمت مايمنع المصريين من القيام بصنع تلك المصنوعات تحت اشراف الماهرين من الصناع · فان النجاح الذي بدأ في الاعمال الصناعية القليلة التي كانت تصنع تحت رقابة المصريين فيما سبق من الزمان لدليل على انهم جديرون باخراج احسن انواع المصنوعات من الاثاث واشغال المعادن وعلى انهم قادرون تماماً على مباراة المصنوعات الاوربية الواردة من الخارج ومنافستها ولذلك فليس هناك سبب يعوقهم عن بلوغ النجاح في الصناعات الاخرى كما نجحوا في غيرها

دين مصر

نشر صندوق الدين العمومي في مصر تقريره عن عام ١٩١٣ ومنه يرى ان الباقي

على مصر من القرض المضمون الى آخر السنة الماضية يبلغ ٧٠١٠٢٩٨٠٠ جنيه انكليزي وما استهلك منه في العام الماضي بواسطة شراء اوراقه ١١٢٦٥٠٠ جنيه انكليزي

وبلغ رصيد الدين الممتاز في آخر السنة الماضية ٣١٠١٢٧٦٧٨٠ جنيه انكليزي . والدين الموحد ٥٥٠٩٧١٩٩٦٠ جنيه انكليزي والجملة ٩٤٦٣٠٢٦٥٤٠ جنيهاً انكليزياً . وقد هبط سعر الدين الموحد في السنة الماضية الى اوطإ مابلغه في الاربع عشرة سنة الماضية فكان اقل مابيع به ٩٦ جنيهاً واعلى مابلغ ١١٠ وربع جنيه في عام ١٩٠٢

الاندية (١)

سادتي الاخوان

هذه اول مرة نحتفل فيها بافتتاح ناد من مثل هذا النوع في قاعدة الشام فشكراً للقائمين به ولا سيما رئيسه المستر ديفي قنصل انكلترا واني لاتوسم الخير والبقاء لنادينا الجديد لان رأسه من امة هي اعرق الامم معرفة بالمنتديات وما ينبغي لها فقد حدثنا تاريخ هذه المعاهد انهم كانوا اسبق العالمين الى تأسيس الاندية منذ زمن طويل ولا تزال كلمة « كلوب » انكليزية نقلتها اكثر امم الحضارة الى لغاتها ويقابلها بالافرنسية على سبيل التجوز « سركل » وعربها العرب بالنادي فالكلوب او النادي هو مجمع من الطراز الاول يختلف اليه اناس متماثلون في طبقاتهم ويكونون في الغالب « في سيرتهم (٢) كما يكون مرآة الناس ادباً ولطف معاملة والكلمة المقابلة في اللغة الانكليزية هي « جنتلمين » ومن الصعب ترجمتها بالفرنسية ويعنى بها من بلغوا غاية الكمال في التربية والتهذيب » يجتمعون للعب والتسلية وتلاوة الصحف والتحدث وغير ذلك من الاغراض .

كانت الاندية عند منشئيها باديء بدء مجتمعات اصحاب متعارفين تضم شملهم ليأكلوا فيها ويشربوا في اوقات مخصوصة ولم تكن اماكنها خاصة بمن يجتمع فيها فانتظمت مع الزمن وانقلبت قصوراً فخمة محترمة ولم يكن النساء يدخلنها لاول امرها وكان لاعضاء النادي فندق خاص بهم يحتوي على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء في ناديه كأنه في بيته الذي يؤويه ثم استخدمت الاندية

(١) خطاب لصاحب المقتبس حالت بعض الموانع دون تلاوته يوم افتتاح النادي الشرقي بدمشق في اوائل حزيران ١٩١٣

(٢) كتاب اميل القرن التاسع عشر

للاحزاب السياسية ثم انقسمت اقساماً بحسب مقاصدها لان الغرب كما تعلمون بلاد الاخصاء والتخصص ولا سيما انكلترا التي هي في مقدمة الامم في التناغي بطبقاتها لا يستطيع فيها اهل طبقة معينة ان يختلطوا بغير طبقتهم

تعددت الاندية بتعدد المقاصد فمنها السياسي والعلمي ومنها اندية الرياضات البدنية Sport والحمامات والصيد واندية اللعب والشرب بل واندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب وهناك نواد خاصة بابناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الاندية تعد بالمئات في بريطانيا العظمى بل في كل الممالك التي دخلت في طور المدنية وكل يوم نسمع باندية تؤسس عندهم فما اسسوه في الولايات المتحدة نادي الامهات يجتمع فيه ربات البيوت ليتداولن في تربية اولادهن وانشأوا في نيويورك مؤخراً نادياً للسجناء يأوي اليه من خرج من الحبس حديثاً فيتوسل له النادي بايجاد عمل ينصرف اليه بعد سجنه . واغرب الاندية نادي المعمرين الذي انشيء حديثاً في طوكيو عاصمة يابان فان اعضاءه اثنا عشر عضواً فقط بلغ كل منهم مئة وعشر سنين من عمره ومع هذا لم يزهد احدهم في الاجتماع مع اقرانه

ولقد كان من اخترعوا هذا النوع من المجالس في الجزائر البريطانية اكثر الامم استمتاعاً بثمرات الاجتماع مع ان المشهور من اخلاق الانكليز كما قال اميل بوتمي انهم اكثر الناس عزوفاً عن الاختلاط بغيرهم او كما قال امير سون فيلسوف الاميركان : « انك تحسب الانكليزي اذا اجتمع مع الاجانب اخرس فهو لا يصافحك ولا يتركك تنظر ما في عينيه في الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة برأسها » فمن ثمرات الاندية عند البريطانيين ان اهل كل حرفة وطبقة يعرفون في انديتهم اقدر الرجال فيهم فاذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكونون لمبرزيهم اعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الامة اي ان اعضاء نادي الاشراف واعضاء نادي الحوذيين والسواقين والسكافين والطباعين والوراقين والغزالين والفحامين بل وكل ما يخطر ببالك من ارباب الصناعات المختلفة يستعينون بالاندية على اختبار مدارك اخوانهم فينيبون عنهم اخطبهم واعقلهم وآمنهم واعلمهم وهكذا كانت الاندية نافعة في الغرب كما نفعت في الاسلام الجوامع والمدارس فكانت اندية يتفاوض فيها اهله في شؤونهم السياسية والاجتماعية ايضاً .

ومن غرائب الاندية في لندرا اليوم نادي السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام

يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادي من المشتركين فيه يكبس زراً كهربائيا ينير قطعة من المكان فيفتح له و بنور الكهربائية ايضاً اصطلحوا على اشارات للتفاهم بينهم و يدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلارد او يتحادثون احاديث صم و يغنون غناء الصم · وفي لندرا نادٍ للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولا يقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة والعشرين وهو دولي عام ولا يؤدي المشترك فيه شيئاً وهو غريب في بابه لانه يضم اناساً من اهل الارض باسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه كثير من ارباب المكانة والشهرة

وهناك نادٍ اسمه نادي العجل الذهبي ونادي القط الاسود ونادينا وهو نادي اعاظم الادباء ونادي ١٠١ ونادي الست ساعات وهو نادٍ اعضاؤه ستة يدخلون اليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب · والنادي الدائم وعدد اعضائه مئة يقسمون ان لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من المخاطر حتى انه حدث يوماً حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة رجال الشرطة · وقد اسس بعض ابناء الاسر في ارلندا سنة ١٧٦٦ نادياً لهم ليختطفوا البنات و يتزوجوا بهن قسراً فانحل هذا النادي سنة ١٨٠٢ عقيب حوادث افاض فيها مجلس النواب الانكليزي · وفي لندرا اندية قلما تقبل فيها النساء وفيها اندية للنساء العازفات عن الزواج · وسيفتح الآن نادٍ غريب اسمه نادي اللوبياء السوداء على مثال نادي نيو يورك وهو مؤلف من اربعين عزباً يجتمعون مرة في السنة و يضع رئيسه في صندوق اربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء و يسحب كل عضو حبة فمن سقطت السوداء في يده حكم عليه قانون النادي بان يتزوج والنادي يقوم بنفقة تزويجه كما يبتاع له اثاث بيته ونفقة سفرة ثلاثة اسابيع مدة شهر العسل · وعندهم اندية لطالبات الزواج على مثال نادي اليابان الذي يتم بواسطته كل اسبوع مئتا قران واكثر المقترنين يتزوجون بالنظر الى صور خطيباتهم الشمسية · وكان في لندرا نادي التقبيل ولكن حدثت منه غوائل لم تفض الا بمعرفة المحاكم

وفي لندرا نادٍ للمنتحرين شعاره « بالموت شفاء الاسقام كلها » ولا يقبل فيه النساء ولا العزاب · ولها نادٍ للارواح يدخله علماء ومحامون وجراحون و باحثون ممن يهتمون بكشف الاسرار عن مخاطبة الارواح · ولها نادٍ لمن لا انوف لهم ورئيسه مصري انفه اقنى للغاية يكاد لا يظهر · ونادي مشوهي الخلقة · ونادي السوداويين يجتمعون

كل اسبوع وهم عبارة عن حوذيين وسواقين وملاحين ليتسابوا و يشاتموا و يظهروا افضل قرائحهم في علم الطعن والقذف ومن قصر من الاعضاء او ابدى لطفاً في الفاظه وحركاته يغرم في المرة الاولى وفي الثانية يطرد من حظيرة اقرانه · وفيها نادي العبوسين يدخله من ساءت اخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم الى ناحية يدخن غليونه بدون ان يتكلم · وعندهم نادي من يقسم الناس اربعة اقسام اي نادي البخلاء المقترين وفيه اناس من كبار ارباب الاملاك واعاظم الماليين ونادي قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على ثلم الشرف ورئيسهم قتل ٢٥ شخصاً في البراز

ولا اعرف فيما اطلعت عليه من كتب العرب في التاريخ والشعر والخطب والمحاضرات انه عهد لبغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق والقيروان ايام عزها معهد يماثل هذه الاندية الحديثة وغاية ماتبين ان المتماثلين كانوا يجتمعون في بيوتهم وحلقاتهم الخاصة فمنهم من يجتمع للمباحثة في العلم كاجتماع اخوان الصفا ومن يروي عنهم التوحيدي في مقابساته وكانوا من نحل مختلفة لم تمنعهم مذاهبهم في تلك العصور من الاجتماع على مقصد واحد وكان الشراب الذي يتعاطونه في الاكثر نبيذ التمر وهو اشبه بالصليبة عندنا او الشيرا يجتمعون لتعاطيه كما يجتمع المحدثون على القهوة والشاي وغيرهما من المشروبات فيغذون باجتماعهم ارواحهم كما يفكهون بما يتعاطونه اجسادهم وما كانت الطبقة العالية من اهل الشرف والعلم والفقه ترى من الغضاضة ان ترفع اصواتها بالغناء او تأخذ بالعزف والايقاع في مجالسها وانديتها لانهم علموا قبل اهل المدنية الحديثة ان المرء قد يستغني عن الكتابة والقراءة ولا يستغني عن رفع صوته ليتغنى فيطرب نفسه وجلاسه وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني مملوء باخبار اهل هذه الطبقة

حكى صاحب اليتيمة انه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي و يجتمعون عنده في الاسبوع ليلتين على التبسط في القصف واللهو ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم وما منهم الا ابيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبي · فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع واخذ الطرب منهم مأخذه وضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من الف مثقال الى مادونها مملوءاً شراباً قطربلياً او عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب اكثره و يرش بها بعضهم على بعض و يرقصون اجمعهم (كذا) وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور و يقولون كلما يكثر شربهم هرهر (والهرهر صوت جري الماء)

قال : فاذا اصبحوا عادوا لعادتهم في الترمث والتوقر والتحفظ بابهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء . والرمث في اللغة الاصلاح والمسح باليد اي مايعرف اليوم بالتوالت وهذه القصة وان كان فيها نظر لما فيها من التبذل المذموم فانها تدل على شيء من الدعابة والظرف

وبعد فان اسفار ائمتنا طافحة باحاديث المترفين وارباب القصف واللهو والانشاد مما ينم عن ذوقهم ومدنيتهم وتفننهم في مذاهب اللذائذ المشروعة في الغالب وتقلبهم في اعطاف الدعة والانس وحسن العشرة وجمال العهد واختلاف كل قوم الى اندية القوم الآخر . روى الصابي في تاريخ الوزراء قال حدث ابو القاسم الزنجي قال : رسم ابو الحسن علي بن محمد بن الفرات في وزارته الثانية ان يدعى ابو الحسن موسى بن خلف وابو علي محمد بن علي بن مقلة وابو الطيب محمد بن احمد الكلوذاني وابو عبد الله محمد بن صالح وابو عبد الله والدي وابو بشر عبد الله بن الفرخان النصراني وابو الحسن سعيد بن ابراهيم التستري النصراني وابو منصور عبد الله بن جبير النصراني وابو عمرو سعيد بن الفرخان النصراني في كل يوم الى طعامه فكانوا يحضرون مجلسه في وقته و يقعدون من جانبيه وبين يديه ويقدم الى كل واحد منهم طبق فيه اصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الاصناف وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل فاذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الاطباق وقدمت الطسوت والاباريق فغسلوا ايديهم واحضرت المائدة مغشاة بدبيقي (١) فوق مكبة خيارز ومن تحتها سفرة ادم فاضلة عليها وحواليها مناديل الغمر (٢) من الثياب المقصور فاذا وضعت رفعت المكبة والاغشية واخذ القوم في الاكل وابو الحسن بن الفرات يحدثهم ويباسطهم ويؤنسهم فلا يزال على ذلك والالوان توضع وترفع اكثر من ساعتين ثم ينهضون الى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه و يغسلون ايديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على ايديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح ايديهم وصبه على وجوههم فمن كانت له من الكتاب حاجة قام اليه وخاطبه فيها وسأله اياها ومن اراد اطلاعه على سر يجب الانفراد معه فيه فعل مثل ذلك اه .

(١) دبيق بلد بمصر كانت تنسب اليها الثياب (٢) الغمر الثياب السابغة

وانتم ترون بهذا الوصف ان القوم لم يكونوا دون الراقين من اهل هذا العصر في مجالسهم ورفاهيتهم ومسلياتهم وتسامحهم فان ارقى قصر من قصور الملوك والامراء في الشرق والغرب لعهدنا ليس فيه من الاستعداد والتأنق في العيش والنظام في الطعام اكثر مما كان لابن الفرات وجماعته ·

فعسانا نقتدي بالنافع من مظاهر اجدادنا في آونات العمل والفراغ كما نأخذ عن الغرب كل ماينفعنا في خلوتنا وجلوتنا وترقية اجتماعنا وشعورنا وشممنا وعقولنا وهذا لا يقوم الا اذا راعينا النظير في الداخلين فقربنا كل مري عرف بحسن السيرة والسريرة ونبذنا كل معربد طائش لم يبلغ بتهذيبه مستوى اقرانه وان كان يحمل ذهباً كثيراً

نعم نبعد السكيرين والمقامرين ليكون النادي لائقاً بان يغشاه النبلاء لاحانة يضم جدرانها السفهاء وبذلك يصبح احسن واسطة لتعارف الشرقي بالغربي فكما ان اهل المذاهب المختلفة لاتقوم لهم وطنية بدون تعارفهم وتعاطفهم هكذا المدنيـة لاتقوم على اصولها الا بمناصرة الشرقي للغربي والغربي للشرقي · مدنية القرن العشرين تقوم بتبادل المنافع والافكار اكثر من قيامها بالتقاطع والشجار فالله اسأل ان يجعلنا من مدنية العرب ومدنية الغرب ماتنبسط له النفس ويطيب له القلب فان سرعة ائتلاف قلوب الابرار — كما قال احد الحكماء — كسرعة اختلاط قطر المطر بماء الانهار وبعد قلوب الفجار من الائتلاف كبعد البهائم من التعاطف نكون على حد قول الشاعر :

احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لاباسطاً اذى ولا مانعاً خيراً ولا ناطقاً هجراً
اذا مااتت من صاحب لك زلة فكن انت محتالاً لزلته عذراً

المرأة في القديم والحديث

خطبت الآنسة «مي» في حفلة النادي الشرقي في القاهرة مساء ٢٣ ابريل ١٤ ١ ومما قالته

طافت المدنية انحاء العالم ، ولكن ماحالنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر وعلومهم وفنونهم واساليبهم وكيفية معيشتهم ، الا ان الشقاء مازال شقاء ! مازلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي والعاهات الاخلاقية على تعدد انواعها · وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها والاوطان تشقى بابنائهــا ،

والعائلات تتعذب بافرادها ، والافراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة ! كلا ! ان المدنية لم تأت بتمام واجبها بعد ولم تصلح من الاحوال الا البعض اليسير او المتوسط · وانتم ايها السادة والسيدات تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة · ذلك الضعف الدائن والنقص الهائل ليس الا تقهقر نصف الانسانية ، هو جهل المرأة !

قال هوجو : ليس الرجل وحده الانسان ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الانسان والانسان هما · كل جنس دون اخيه نصف فقط ولا يصير عدداً كاملاً الا اذا اضيف اليه النصف الآخر · لاصحة للمرء الا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل الا بسعادة المرأة

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لو كان للدهور لسان لانبأتك بما يدمي الفؤاد · المرأة ! لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتياً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكاً للرجل يستعمله كيفما شاء ويهجره اذا اراد ويحطمه اذا خطر له في تحطيمه خاطر · كانت بعد ذلك عبدة شقية واسيرة ذليلة ، ثم ارتقت مع مرور الاجيال الى درجة طفلة قاصرة ، الى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، الى تمثال بهرجة تتراكم عليه الاثواب والجواهر الثمينة · ومن منا يدري بما كانت تستر الاثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر ؟؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل اليم ، ومن اغرب الغرائب انها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً · كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها وليس ذاك بكثير على قوم جاهلين ، تحجرت منهم القلوب وصمت الافهام فهم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرة شخصهم الصغير ، لكنني ارى الامر عجيباً ، بل فظيعاً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة افكار العالم · لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة الا جمال جسدها وليس في قصائدهم مايدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها الشيطان الجميل او ينبوع المسرات السامة · وشعراء اليونان ، اسخيلوس واوريبدس وغيرهما يسمونها — ببساطة كلية ! — « بلية العالم » · اما الفلاسفة فاكتفي بان اذكر منا كبيرهم افلاطون ، افلاطون الالهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر امة باسرها ، افلاطون ذا الاحلام الغامضة والمبادي السامية الذي لم يترك موضوع اصلاح سياسي او ادبي الا عالجه رغبة في اسعاد العالم — افلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة

ولم يهتم في درس اخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية · ماذا اقول ! ان افلاطون هذا قضى حياته آسفًا لانه ابن المرأة وكان يصرح تصريحًا بازدرائه بامه، و يعتقد ان من كان جبانًا من الرجال في هذا العالم فعند ولادته في عالم آخر تتقمص روحه في جسد حيوان او في جسد امرأة ··· وما علم افلاطون ان امرأة ستعلم فلسفته في (مدرسة الاسكندرية) وان تلك المرأة لايمنعها شبابها الغض وجمالها الرائع ان تكون اعلم علماء عصرها · تلك هي الفتاة هيباتيا ابنة ثيونوس الرياضي الشهير التي قتلت رجمًا في شوارع الاسكندرية في اوائل القرن الرابع فذهبت شهيدة علمها واخلاصها ورغبتها في اشهار التعاليم الافلاطونية :

اول من عطف على المرأة واسمعها كلمات الاشفاق والغفران هو يسوع الناصري · وهو اول من سوى بينها و بين الرجل اذ جعل لهما خطة واحدة تفضي الى ثواب واحد، والا فللضالين عقاب واحد · عليَّ ان النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت ومابرح طائفة من اللاهوتيين يعتبرونها قارورة الخطايا والآثام !

ثم جاء نبي الاسلام فرفع شأنها اي رفعة في بلاد العرب اذ حرم وأد الفتيات وسواها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات ، الا في الشهادة والميراث فان امرأتين اثنتين تساويان رجلاً — وفي ماعدا ذلك فهي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية، ويقول العارفون ان لها الحقوق السياسية ايضًا · والمسلمات لهن ان يكن فقيهات وكانت اول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الاسلامية الذي قال لقومه : « خذوا دينكم عنها ! »

وعلي ان اذكر هنا اسمي بلوتارك ودانتي ، وهما اول من تلمس نفس المرأة ، من طغمة الشعراء والمفكرين · لقد جعلا لقصائدهما عرائس شعر تتجلى فيهن ملكات الجمال الادبي : وهما اللذان ترنما للمرة الاولى بذكر المرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقاد ومقدمة عثرات الجنس القوي · من منا لا يعرف لورا و بياتريس ؟ ان هذين الاسمين لا يفترقان عن اسمي بلوتارك ودانتي ، وسيكونان أبدا المثل الاعلى الذي تود كل امرأة ان تكون صورة له · هذا المثل الجميل الذي مر في مخيلة دانتي فصوره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع ثم جاء كبير شعراء العالم شكسبير فجعل ابطال اكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموجات النور في الهواء اقوى واعذب شعائر المحبة باسمى واوجع

عواطف التضحية وكذلك كانت النساء في روايات كورنايل ، وكلكم ذا كر بلاريب بولين وكاميلي وشيمان ... الا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري القرون الوسطى من رأي شكسبير وكورنايل ، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة ساخراً بها ان لم يكن طاعناً فيها . ولقد اختصر بوسويه اسقف موو افكار معاصريه واوردها في جملة واحدة . قال بجديته الحبرية المشهورة : المرأة خلقت من ضلع زائدة في جنب الرجل ، فلهذا السبب هي عقيمة لاذكاء في عقلها ولا ادراك في نفسها . رحمة الله عليك يابوسويه ! انك لم تكن نبيهاً ! اما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا امر لا رأي لي فيه — غير اني افضل ان تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من ان تكون — كوتليتا — مصورة ! واما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فاني لا آخذ على نفسي اثبات هذه الحقيقة التشريحية ... او اللاتشريحية

ايها السادة ! لننس هذه الاقوال العتيقة ولننظر الى احوال الحاضر . ان النهضة النسائية تمتد يومياً في اقاصي المسكونة . انها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبئ بان مدنية الامس العرجاء التي لم تتكئ الا على ذراع جنس من الجنسين هي غير مدنية الغد المتعة بتحقيق اجمل الاماني الجائلة في قلب الانسان . ليست مدنية الغد مدنية الرجل وحده ، بل هي مدنية الانسانية ، لان المرأة آخذة بالصعود الى مركزها الحقيقي بقرب الرجل . ان موجة النور ، نور الارتقاء النسائي تزداد ارتفاعاً واتساعاً مع الايام . في فرنسا وانكلترا واميركا والمانيا وايطاليا تجاهد المرأة جهاد الابطال في سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في اسوج ونروج وفنلندا وزيلاندا الجديدة وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرجل سواء ادبياً ومدنياً وسياسياً ايضاً . وفي كل من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلاً ، وحيث تقلدت المرأة الوظائف العمومية قد قلت الجرائم وخفت وطأة السكر وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى اخلاق الامة وفي حالتها الصحية جميعاً

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل

كم قالوا فيها انها لا تصلح الا للخدمة البيتية والزينة الجسدية وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة ! وكم قالوا انها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كريم يحاول افهام الرجل ان في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة ! وكم قالوا انها كاذبة خبيثة وان

الصدق والاخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب ، وهاهي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في ازمنة العبودية ! وكم قالوا انها مترددة حائرة ذليلة لاتقوى على توليد فكر ولا تحتمل المسؤلية ، وهاهي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة ! وكم قال فولتر ان فكرها سريع العطب وانه يتحطم تحطيماً اذا حاول استفهام ناموس علمي ، غريب ان يقول فولتر هذا القول ، لانه لم يفهم كتابات نيوتن الا بواسطة امرأة هي صديقته مدام دي شاتليه ومعربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية ثم اذكروا مدموازل لابلاس وماري كوالسكي ومدام كوري وملايين من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة والفنون والصنائع والحرف المختلفة · في فرنسا خمسة ملايين من النساء تشتغلن حاملات في قلوبهن التبعة العائلية والهموم الكثيرة · يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والاوجاع داميات القلب ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد · ومثل ذلك في انكلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الاربع مائة الف · · · ويقول الاحصائيون ان في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الاشغال العمومية

وكم قالوا ان المعارف لم تخلق للمرأة وان العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها وانه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها اذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً اكيداً واحتراماً للعائلة واجلالاً للرجل · انها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها واعلاء مداركها وتربية شخصيتها الجميلة واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل مايحيط بها · المرأة الراقية وحدها تعرف ان لها فخراً رئيساً واحداً وهو ان تكون (اماً) وهي وحدها تعرف انها كانت الى اليوم ام الجسد فقط وتحاول ان تصبح ام الروح ايضاً ، ام العواطف وام الافكار ، وام الميول والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى !

وكم قالوا انها لاعقل لها وان حياتها سلسلة اهواء متتابعة وتقلبات صبيانية تافهة وهاانا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد مفرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة ! انظروا الى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال واكثر · روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية ، كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حباً بمصلحة وطنها واشتركت في جمعيات تظن ان في تأييدها خيراً للبلاد

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ولكن انصارها اكثروهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة ، بل هم اسمى واشرف رجال زماننا . انهم يحترمون جهادها و يعترفون بحقوقها و يقرون بماتأتيه من الاصلاحات الباهرة ، و يعجبون باقدامها وثباتها و يرون في نهضتها ايدي جديدة عاملة لخير الانسانية وتخفيف الويلات عنها . اليس فيكتور هوجو هو القائل ان تحرير المرأة يحل اكثر المشاكل المدنية ، وانه ينتظر منها وحدها الغاء الحرب في العالم ؟ ..

وهو القائل ايضاً ان القرن العشرين هو عصر المرأة . ولقد صدق في نبوته ! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في اطراف الشرق الاقصى ، في الصين واليابان ، وفي تركيا . وها اني ارى شرارة الحياة تشتعل في مصر ايضاً حيث الرجال يساعدوننا باقلامهم وبالسنتهم وبملهم ، وجل ما يتمنون هو ان تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم باسرهن . اجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر . في مصر تشتعل شرارة الحياة ...

الآثار العربية في اسبانيا

عهدت حكومة اسبانيا الى مدير مدرسة الهندسة العليا في مدريد بتجديد كنيسة قرطبة الكاتدرائية وكانت من قبل جامعاً على عهد العرب هناك فقام باعمال الحفر في المكان الذي اعتقد انه كان في القديم قصر الزهراء وذلك للبحث عن هندسة جامع قرطبة على ما يجب اذ تبين ان هذا المعهد قد امتزجت فيه الهندسة الاسلامية الصرفة مع الهندسة الاسبانية المسيحية وقد كتب الباحث المشار اليه بحثاً بين فيه حالة الهندسة الاسلامية فقال على ما نقلت عنه مجلة العالم الاسلامي الفرنسوية ان الهندسة الاسلامية لا تختلف فقط بين بلد وبلد و بين عصر وآخر بل يجب ان يلاحظ ان المهندسين المسلمين قد اقتبسوا اموراً جديدة من البلاد التي افتتحها قومهم واضافوها الى هندستهم قال المهندس الاسباني ان من بحثوا في الهندسة الاسلامية لم ينظروا نظراً بليغاً الى المؤثرات الاجنبية في هندستهم فانك ترى مثلاً جامع ابن طولون في القاهرة وهو مما بني في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩م) زيادات ترد اصل هندسة هذا المعهد المشهور الى بين النهرين ومن جهة اخرى كأنه من هندسة المغرب والاندلس وذلك لان فتح الفاطميين لمصر وهم من القيروان قد اثر في الهندسة المصرية لمهدهم . واستند الباحث الاسباني على ما قاله صاحب تاريخ البيان المغرب من الاندلسيين فتبين بعبارته مساحة الجامع

واستخرج منه عدة قطع من احجار وكتابات واوان خزفية ساعدته على تأييد فكره من ان الهندسة الاسلامية الاندلسية قد اقتبست اشياء كثيرة من غيرها واستنتج من بحثه في طرق نحت الاحجار وهي طريقة قديمة جداً استعملها الاشوريون واحتفظ بها المسلمون ان لا اختلاف بين ما يرى منها في الاندلس وما يرى في غيرها واستعمال الكلس والملاط للجمع بين الاحجار المرصوصة في البناء والبلاط والرخام الابيض والاحمر المنوع كل ذلك من اسلوب الهندسة القرطبية الاندلسية . وكانوا يستخدمون من النقوش اشكالاً منها ما هو من اصل بيزنطي رومي ومنها ويزيغوتي ومنها طليطلي ويعدلونها على هواهم . ومن الغريب ان المسلمين في قرطبة وغرناطة وسائر المدن الاندلسية لم يكونوا يحجمون عن تمثيل المخلوقات الحية وهمية كانت او حقيقية فترى في نقوشهم طيوراً ورؤوس اسود وتنانين

وصف المؤلفون من العرب قصر الزهراء احسن وصف وقصور الخلفاء هناك قال العالم الاسباني ان مسجد قرطبة وتلك القصور الزاهرة وما حوت من النقوش المرمر والذهب تفوق ببهائها كل ما يتصوره العقل ولم يبق من آثار تلك القصور سوى عمودين من الرخام وذلك لان قرطبة كانت ميداناً للفتن منذ عصور فذهبت في جملة ما ذهب من عادياتها كنوز خلفاء المغرب ونهبت خرائب قصورهم عدة مرات واستعملت احجارها في اقامة بنايات جديدة . وقد اشار الى ما وجده من الكؤوس والاواني من القيشاني المصور عليها بالحروف الكوفية نباتات او صور انسانية واستدل منهُ ان هذه الصناعة اي صناعة الخزف المزين بالمينا هو من عمل الاندلسيين

تجارة المواني العثمانية

نشرت الصحف الايطالية للملحق التجاري في سفارة الاستانة تقريراً مسهباً عن تجارة السلطنة العثمانية في سنة ١٩١١—١٩١٢ استنتج منه ان التجارة العثمانية لم تخسر بما فقدته السلطنة في الحروب الاخيرة من الاملاك في اوربا وافريقية الا ٢٢ في المئة فقط . وهذه خلاصة التقرير :

الواردات : بلغت قيمة ما استوردته السلطنة من البلاد الخارجية في السنة المذكورة مبلغ ٣٧،٦٠٠،٠٠٠ ليرة دخل منها بطريق الاستانة (مع جمارك استنبول وغلطة وحيدر باشا وازميد وكملك ومودانيا وبندرمه والدردنيل وغليبولي ورودستو وزنجلداك) ٣٤،٧٨ في المئة . وبطريق بيروت (مع سائر المواني السورية) ١٣،٧٩ في المئة .

وبطريق ازمير (مع جمارك ايولي ومدللي وصاقس ورودس وسائر جزر الارخبيل) ١٢٫٨٨ في المئة • وبطريق سلانيك (مع جمارك قوله واسكوب وبربوي والسونا والحدود اليونانية والصربية) ١٢٫٨٥ في المئة • وبطريق طرابزون (مع جمارك قره صند وسمسون واينه بولي وارضروم والحدود الروسية والايرانية) ٦٫١٤ في المئة • وبطريق بغداد ٥٫٢٠ في المئة • وبطريق الاسكندرونة (مع جمارك مرسين واضاليه والمواني المجاورة لها) ٣٫٨٢ في المئة • وبطريق دده اغاج (مع جمارك جسر مصطفى باشا وادرنة وبورتولاغوس والحدود البلغارية والسواحل الاوربية على البحر الاسود) ٣٫٦٧ في المئة • وبطريق بروزة (مع جمارك آولونية وسانتي كوارنتاوسلاهر فوودراج واشقودرة وحدود الجبل الاسود) ٢٫١٩ في المئة • وبطريق جدة ١٫٨٢ في المئة • وبطريق مدينة طرابلس الغرب ١٫٤٦ في المئة • وبطريق الحديدة ١٫٣٠ في المئة •

اما الصادرات فقد بلغت قيمتها كلها ١٩٠٤١٤٠٦٨ ليرة • وقد اصدر منها بطريق ازمير ٢٨٫٧٣ في المئة • وبطريق الاستانة ١٩٫٣٨ في المئة • وبطريق سلانيك ١٢٫٣٨ في المئة • وبطريق طرابزون ١٠٫٤٢ في المئة • وبطريق بيروت ٩٫٢٩ في المئة • وبطريق الاسكندرونة ٦٫٣٩ في المئة • وبطريق بغداد ٤٫١٤ في المئة • وبطريق دده اغاج ٣٫٥٣ في المئة • وبطريق بروزة ٢٫٢٧ في المئة • وبطريق مدينة طرابلس الغرب ١٫٦٧ في المئة • وبطريق الحديدة ١٫٦١ في المئة • وبطريق جدة ٠٫١٩ في المئة

واذا وزعنا مجموع الواردات والصادرات على الاملاك العثمانية في آسيا واوربا وافريقية كان نصيب كل منها كما يلي :

الاستانة وداخليتها : ٣٤٫٧٨ في المئة من الواردات و١٩٫٣٨ في المئة من الصادرات
الولايات الاوربية : ١٨٫٧١ في المئة من الواردات و١٨٫١٨ في المئة من الصادرات
الولايات الآسيوية : ٤٤٫٩٥ في المئة من الواردات و٦٠٫٧٧ في المئة من الصادرات
الولايات الافريقية : ١٫٥٦ في المئة من الواردات و١٫٦٧ في المئة من الصادرات اه

شعر الشهر

تحت هذا العنوان ننشر في كل جزء ما نعثر عليه من شعر الشعراء في مصر والشام والعراق والجزيرة والحجاز واليمن ونجد وتونس وبرقة والجزائر ومراكش ليقف القارئ

64

على اطيب ما قيل وعلى درجة رقي الادب العربي وانا نخص هذا الجزء بنموذج من شعر الحكمة والاجتماع قال ابراهيم منيب افندي الباچه جي

(مجلة لغة العرب البغدادية م٣ ص ٥٣٦)

يحصد الانسان ما قد زرعا   فازرع الخير وكن منتفعا
والى الشر فلا تركن وكن   حذراً في فخه ان تقعا
كم وكم صانع للشر قد   خطفته كف ما قد صنعا
وعظ الناس بما تدري وان   كنت لا تدري فكن متبعا
تبق ما عشت وان مت على   السن الايام ذكراً ارفعا
وعلى الدنيا فلا تعتب اذا   لم تجد من رزقها متسعا
ان في الدنيا اتساعاً للفتى   في طلاب الرزق لو كان وعى
فاسع في دنياك ان رمت المنى   سعي مقدام تجده طيعا
حصة العاجز حرمان وان   ليس للانسان الا ماسعى

وقال محمد افندي الهاشمي في ص٥٠٨ ايضاً

كم من شقي في الحياة   يعد في اهل القبور
الجهل ريح عاصف   ترمي الشعوب بكل بور
وتظل تعبث بالبلا   د وبالعواصم والثغور
مهلاً بني امي فلسـ   ـت على التأخر بالصبور
فلقد نفرت عن العرا   ق واهله كل النفور
فعثرت والادبار قد   يهدي الى الجد العثور
لا تنذروني يا بني   امي بقاصمة الظهور
ما حدت عن قصد الطريـ   ـق ولا جنحت الى فجور

وجاء في جريدة اللاذقية (عدد ٢٨٨) قصيدة تحت عنوان خطرات يعرب بامضاء (ع٠ز) في المعرة منها

اولاد يعرب اين همة جدكم   وخلوصه والصدق في العزمات
اين الحمية والمروءة اين من   كشفوا ظلام الظلم بالصدمات
سكن الخراب دياركم وبلادكم   والخزي طاف بكم بست جهات
ونساؤكم هدم التبرج خدرها   وشبابكم عكفوا على اللذات

وشيوخكم ارسوا سفينة وهمهم — في ابحر التضليل والترهات
ومدارس كانت مصادر حكمة — ومساجد بنيت لفعل صلات
بدلت بحانات ودور فواحش — ومقامر ومراسح القينات
ومنها: والحج يقصده الغني وجاهل — وتردد النغمات للجمعات
وارى المدرس كالمداس ينثني — متسرعاً للخوض في الشبهات
جهل على جهل تركب فانزوى — دين النبي وبات في غمرات
ايضيع شرع الله بين ظهوركم — يا امة خضعت لفتك طغات

وقال احمد افندي نسيم في المؤيد (٧٢٦٧) من قصيدة

لو تعدل الايام في ابنائها — ما كان منهم مسعد وفقير
سواء الزمان فليس فيه منعم — او مطمئن الجانبين قرير
واذا تفكر في الحياة اخو نهى — كره الحياة وساءه التفكير
ما زينة الدنيا وزخرف عيشها — الا متاع زائل وغرور
وكأن احداث الزمان اذا طغت — بحر وآمال النفوس جسور
يمسي الجهول مقدراً ارزاقه — ولدى الاله الرزق والتقدير
ويدبر الدنيا ليسبر غورها — ولربه في امره تدبير
واحب من مثر يجمله الغنى — عاف لآلاء الاله شكور
وتجارة ادنى معارضها التقى — لتجارة في الله ليس تبور
من يتخذ غير الاله وليجة — بعدت طرائقه وساء مصير

***

وقال عبد الحليم افندي حلمي في العدد نفسه من قصيدة:

من يطلب الخلد فليعمل لسيرته — يفنى الوجود ولكن تخلد السير
عقائد الشعب آساس فان ضعفت — هدت ذراه فامسى وهو منعفر
والناس في العيش انصاب محركة — تظل معبودة من حسنها الصور
كأن ارواحهم طير محلقة — على الرؤس متى تسنح لهم زجروا
نظل نذكر موتانا بما صنعوا — ان يذكر الحي موتاً فقد نشروا

***

وقال الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة في الاصلاح

مايفعل الخلق الكريم تحوطه   من لؤم اخلاق الملا آجام
بل مايفيد العلم عند معاشر   مافي رؤوس عظامهم احلام
او ماينال اخو العلى في بيئة   للجهل فيها النقض والابرام ؟
وابو الفضائل روضة حفت بها   جدر السفاه كأنها آكام
يا للرزيئة من بلاد ضيعت   اشبالها فاستأسد الاغنام
لم ترع فيها ذمة لرجالها   والمكرمون بهائم وسوام
مايبتغي راعي العلى من امة   للافن فيها حرمة وذمام ؟
اسف عليّ وطن أسود عرينه   هلكت فحلت ربعه الانعام
تكسى الحقائق فيه ثوب مهانة   وتسود في ارجائه الاوهام
ابناؤه نبذوا الفضيلة جانباً   فحياتهم ابد الزمان اثام
ان ينتدوا للمجد او يتهيأوا   للمة ، فجاهدهم المنام
او يعزموا امراً ، نسوه في غد   فكأن ماقصدوا له احلام
او يدعهم داعي مجانبة العلى   هبوا اليه وطيشهم زحام
يتسابقون الى السفاهة شرعاً   ولهم من الرأي السقيم امام

مخطوطات ومطبوعات

محمد والآخرة

تأليف بول كازانوفا طبع عليّ نفقة بول غوتنر في باريز سنة ١٩١١

Mohammed et la Fin du Monde par Paul Casanova

هو كراسة بالافرنسية وقعت في ٨٣ صفحة زعم فيها مؤلفها ان القرآن الكريم تطالت الى تحريف اشياء منه جماعة من الصحابة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مؤيداً اقواله بزاعم غيره من الاوربيين الذين نظروا الى الاسلام شزراً وتكلموا فيه كلام اهل القرون الوسطى

انتقاد كتب زيدان بك

احسنت ادارة المنار في مصر بطبع هذه الانتقادات على بعض كتب رصيفنا جرجي بك زيدان صاحب الهلال فان النقد مفيد في كل موضوع بكر به تنجلي الحقيقة ويدمث المسلك الوعر والاول من هذه الانتقادات بقلم شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني من اساتذة الهند في كتاب تاريخ التمدن الاسلامي ويليه ثان في انتقاد تاريخ آداب اللغة العربية بقلم الشيخ احمد عمر الاسكندري من اساتذة مصر والثالث في انتقاد تاريخ آداب اللغة العربية ايضاً وكتاب طبقات الامم بقلم الاب لويس شيخو صاحب مجلة المشرق في بيروت والرابع في انتقاد تاريخ العرب قبل الاسلام بقلم الشيخ احمد عمر الاسكندري ايضاً

الحالة الاقتصادية

في اصقاع حيفا وعكا

هو تقرير للمسيو ارتوركي احد رجال المشرقيات عند الفرنسيس وقنصل فرنسا في بغداد الآن وضعه باللغة الافرنسية عن حالة تلك الاصقاع في اقتصادياتها وقد وقع في ١٢٣ صفحة وفيه امور نافعة واحصائيات مدققة في الجملة تدل على مبلغ عناية المؤلف بدرس موضوعه

تلخيص التاريخ العثماني المصور

تعريب شاكر بك الحنبلي طبع على نفقة المكتبة الهاشمية بدمشق في مطبعة الترقي اجاد المعرب في تعريب هذا المختصر عن التركية في تاريخ ملوك العثمانيين والاحداث التي وقعت في ايامهم وقد حلاه بصور الملوك وخرائط منوعة وهو في ١٥٢ صفحة صغيرة

ارشاد الناشئين

لنعمان افندي الاعظمي طبع على نفقة الامير مبدر الفرعون آل فتله في مطبعة الآداب ببغداد

هي دروس دينية علمية ادبية القاها الاستاذ الاعظمي على تلامذته دلت على فضل وادب وقعت في ٦٥ صفحة

خطبة نادي الشرق

في مطبعة سرسم في الموصل ١٣٣١ هـ

هي خطب القاها في الموصل السيد محمد حبيب العبيدي من اساتذة الحدباء إبان

الحرب العثمانية البلقانية وفيهـا مايحرك الاشجان و يثير العواطف بعبارات عذبة تدل على فرط غيرة وطنية وحمية عربية عثمانية

الجغرافية العمومية

تأليف احمد جودت افندي المارديني وعلى نفقة المكتبة الهاشمية بمطبعة الترقي

هي الحلقة الاولى من علم تقويم البلدان جعلت لها اسئلة في آخر كل درس وقد حوت هذه السلسلة ٢٨ شكلاً و ٨ خرائط وقعت في ٧٦ صفحة فعسى ان يوفق المؤلف الى اتمامها لفائدة النشء الجديد

الوقاية الصحية

من الامراض المعدية

هي رسالة صحية للدكتور سليمان الحاج في صور طبعها في مطبعة العرفان لينفق ثمنها في بناء الجامع الجديد في بلده فنال مؤلفها اجرين اجر تعليم واجر عبادة

مجلة العلوم الاجتماعية

يسرنا صدور مثل هذه المجلة النافعة في هذا القطر وهي تبحث في الحقوق والاقتصاد والاجتماع ومعظم ابحاثها جديد وهي لمنشئها توفيق افندي الناطور المحامي ومدير تحريرها الشيخ محمد منيب الناطور وقد عهد بتحريرها لجنة من الحقوقيين والاقتصاديين والاجتماعيين وهي تصدر مرة في الشهر في مدينة بيروت وعدد صفحاتها ٣٢٠ وقد طالعنا في اعدادها الاولى مقالات نافعة وابحاثاً معربة عن الافرنجية تنير الشبهات فنحث على اقتنائها فهي من اجمل الكتب العصرية وما المجلات الا كتب حديثة ممتعة

ارشاد الاريب

الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء او طبقات الادباء لياقوت الرومي طبع بمطبعة هندية بمصر

لصديقنا الاستاذ مرجليوث احد علماء المشرقيات من الانكليز همة لا تكل في نشر آثار سلفنا وقد نشر بواسطة لجنة تذكار حبيب حتى الآن عدة كتب مفيدة ومنها هذا السفر النفيس لصاحب معجم البلدان وقد صدر في العهد الاخير الجزء الخامس والجزء السادس والاول في ٥٢٠ صفحة والثاني في ٥٣١ صفحة الاول في تراجم من يبتدأ اسماؤهم بحرف العين وفيه من المشاهير ترجمة ابن حزم وابن سيده والكسائي والاخفش والاصبهاني والتوحيدي وابن العميد والماوردي وابن القفطي وابن عساكر وفي الثاني وهو في بقية

من اول اسمه عين وغين وفاء وقاف وكاف ولام وميم وفيه من المشاهير ترجمة الجاحظ والقاسم بن سلام والحريري وقدامة بن جعفر والبيروني والشافعي والطبري وامثالهم من الاعلام والكتاب في طبعه وتصحيحه وتعليق حواشيه كسائر الاجزاء السابقة فشكراً للناشر ورحمة لمن وقف المال لاحياء آثار الشرقيين عربهم وفرسهم وتركهم

الادارة في فارس

G. Demorgny: Essai sur l'administration de la Perse

هي دروس بالافرنسية القاها المسيو دمورني في اصول الادارة الفارسية على تلميذه الشاه احمد شاه فارس الحالي وعلى طلاب مدرسة العلوم السياسية في طهران دلت على احكامه لهذا الموضوع وانه في الحقوق مبرز نحرير والكتاب في ٢١٦ ص طبعه ارنست لرو الطابع في باريز سنة ١٩١٣

كتاب الطواسين

ابو المغيث الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي هو من المتكلمين والنظار قتل في بغداد سنة ٣٠٩ بفتوى من بعض علمائها لانه تكلم فيما يقال بما يخالف الشريعة واستهوى الناس وترجمته حافلة في تاريخ ابن الاثير وغيره وقد عثر له المسيو لويز ماسنيون من مستشرقي فرنسا بكتاب الطواسين فنشره بالعربية وترجمه بالفارسية وعلق عليه شروحاً وحواشي ترفع الغامض عن مذهب الحلاج وسهل على عارفي اللغة الافرنسية الوقوف على حقيقة كلام هذا المتكلم ان صح ان كتاب الطواسين من تأليفه. لان العبارات اكثرها الى العجمة لا يفهم لها معنى كبير ولا تنطبق مع شهرة الحلاج ولعل بعض الملاحدة دس عليه هذا الكتاب ولطالما دست الرسائل ونسبت الآراء لاناس من الاعاظم وهم لم يقولوها • معنى طواسين جمع طاسين وقد جعلها اقساماً منها طاسين السراج وطاسين الفهم وطاسين الصفاء وطاسين الدائرة الخ وكلها معميات والفاظها غير منتقاة ومعانيها غير محررة • ويشكر ناشرها ومعلق حواشيها على كل حال وقد طبعت على نفقة الكتبي بول غوتنر في باريز سنة ١٩١٣ في ٢٢٢ صفحة فنشكر للمهدي هديته •

Annual Report of the Smithsonian Institution 1912

تقرير المجمع السميثوني

اعتاد هذا المجمع الاميركي ان يصدر كل سنة تقريراً مستوفى في مئات من الصفحات

حاوية ابحاث الباحثين من العلماء وتقريره عن السنة الماضية قد وقع في ٢٨٠ صفحة وفيه رسوم تنير النصوص

عزة الامس ذلة اليوم

خطاب للميرزا محمد رحيم بالفارسية تعريب الشيخ محمد الكاظمي طبع بمطبعة ولاية بغداد ١٣٣١ ص ٥٣

عدد صاحب هذا الخطاب البلاد والممالك التي دخلها المسلمون وحكموها من سد الصين شرقًا الى البحر الاتلانتيقي غرباً الى نهر السين شمالاً الى بحر عمان وعدن وجزائر مدغسكر جنوباً فاستولوا في البر على مايساوي اكثر من ضعفي اوربا من المعمورة وعدد الدول المعظمة في الاسلام وعدد منها الدولة الاموية الشرقية ، العباسية الاموية الغربية ، الادريسية ، الاغلبية ، الطاهرية ، العلوية ، الصفارية ، الطولونية ، السامانية ، الفاطمية ، المكناسية ، الزيادية ، البويهية ، الاخشيدية ، الادريسية الثانية ، المسافرية ، الكلبية ، الشاهينية ، الحسينية (احداها في كردستان انقرضت والثانية في تونس لاتزال) الغزنوية ، الصنهاجية ، الروانية ، المعزاوية ، الايليكية ، المرابطية ، المزيدية ، الزيرية ، الحمودية ، الهودية ، العامرية ، المرداسية ، العبادية الافطسية ، الجهورية ، ذي النونية ، السلجوقية ، البورية ، الارتقية ، الشاهية ، الموحدية ، الزنكية ، الخوارزمية ، الغورية ، الايوبية ، التاتارية ، الحفصية المرينية ، النصرية ، الزيانية ، المماليكية ، العثمانية ، الوطاسية ، الصفوية ، السعدية الغيلالية ، الفلجائية ، الحسينية ، النادرية ، الابدالية ، الزندية ، القاجارية ، المحمدية العلوية ، الباركزائية ٠

وتكلم على الثروة والمالية فقال انه كان يدخل بيت مال المسلمين زمن المأمون من المال مايساوي ثلثمائة وخمسين مليون فرنك بعد طرح جميع نفقات الدولة في حين نرى انكلترا وهي اغنى دول الارض وعليها من الديون مايقرب من مليار ليرة وروسيا وعليها مثل ما على انكلترا ٠ وتوسع في الكلام على العلماء والعلوم والمكتبات والمساجد وقصور الملوك في الشرق والغرب ومنها ما كانت الملايين من الجنيهات ٠ وألمّ باهتمام السلف في تعمير الاراضي وتوسيع البلاد فقال كانت مساحة مدينة قرطبة في الاصل ٣٣ الف ذراع فاهتموا في توسيعها فبلغت طولاً ٢٤ وعرضاً ستة اميال فصار المجموع ١٤٤ ميلاً مربعاً وهذه مدينة لندن اوسع بلاد العالم تشتمل على مايقرب

من سبعة ملايين من النفوس مساحتها ١١٧ ميلاً مربعاً وكان سكان مدينة بغداد مليوناً ونصفاً وعدد شوارعها ٢٤ الفاً وانهارها ١٥٠ الفاً ودورها ٢٤٠٠٠ الفاً ونفوس بغداد اليوم لا تبلغ ١٥٠ الفاً وكانت انهار البصرة في عهد بلال بن ابي بردة ١٠٠ الف نهرا (؟) تجري فيها السفن الصغار ومن هنا يمكنك ان تقيس عدد نفوسها وبلغت مساحة البصرة ٣٩ ميلاً مربعاً وكان عرض الشارع العام فيها ٦٠ ذراعاً وسائر الشوارع ٢٠ ذراعاً ونفوس البصرة اليوم ٣٠ الفاً وكان عدد رجال مصر بعد الفتح ثمانية ملايين فاذا اضفنا الى ذلك الاطفال والشيوخ والنساء يبلغ عدد نفوسها ثلاثين مليوناً وكانت مساحة ارضها الزراعية في زمان هشام بن عبد الملك ثلاثين مليوناً من الافدنة وقيل انه كانت الفسطاس من الاتساع بحيث اشتملت على ٣٦ الف مسجد وثمانية آلاف شارع عام و ١١٧٠ حماماً وبلغت طبقات دورها سبع طبقات لشدة الازدحام وكان كثير من دورها يشتمل على مائتي نفس وصرفوا على بعض ابنيتها مثل دار الحرم لخمارويه ٣٥٠ الف جنيه

وافاض في المستشفيات ودور العجزة والطب والاطباء والمراصد الفلكية والسفن والموانئ والصناعات وسخاء الامراء والاغنياء بما لا يكاد يصدق لولا ان ذكره ثقات الرواة وقال انهم حيروا العالم بثروتهم الشخصية فبلغت غلة الخيزران ام الرشيد في السنة ١٦٠ مليون فرنك وبلغت غلة يحيى وابنه جعفر في كل سنة ١٠٠ مليون جنيه وكانت تركة المنصور بعد موته ٦٠٠ مليون فرنك من الفضة وسبعة ملايين جنيه من الذهب وكانت تركة يعقوب بن ليث الصفار خمسين مليون فرنك من الفضة ومليوني جنيه من الذهب وقدرت تركة المستكفي بخمسين مليوناً من الجنيهات وكانت تركة ابراهيم الموصلي مغني الرشيد ٢٤ مليون فرنك واوصى الرشيد الى المأمون بالف مليون فرنك وكانت ٦٠٠ بعير تحمل مطبخ عمرو بن ليث الصفار و ٨٠٠ بعير تحمل الماء كل يوم الى طعام عائلة المقتفي العباسي من دجلة وكان لام المستعين فراش صرف عليه ٦٠ مليوناً من الجنيهات عليه نقوش على شكل الحيوانات والطيور ابدانها من الذهب وعيونها من الجوهر (!) وقد فاقت الدولة الاسلامية دول الارض في الثروة وكانوا يظهرون آثار ذلك لسفراء الاجانب وهؤلاء كثيراً ما يستنصرون بدول الاسلام واخذوا الخراج من دول الروم والصين والنمسا والروس ولطالما كانت دول الافرنج تتقرب بارسال الهدايا والتحف الى مقام الخلافة واورد الامثلة التاريخية على كل ذلك . ثم افاض في الذلة التي

68

لحقت الاخلاف فرده الى البطالة والتسامح وقلة عنايتنا بالعلم والدين مما عرفه الخاص والعام

كتاب الشيعة وفنون الاسلام

تأليف السيد حسن الصدر طبع بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣١ ص ١٥٠

مؤلف هذا الكتاب من كبار فقهاء الشيعة في العراق واحد مؤلفيهم ذكر فيه العلوم التي تقدمت الشيعة في وضعها واول من وضع ذلك العلم ومن صنف فيه او اخترع علماً من فروع ذلك العلم وصنف فيه واول من ابتكر معنى اتبع فيه واول من افرد نوعاً من العلم في التصنيف الى غير ذلك مما دل على بعد غور المؤلف وسعة مادته ولطف اسلوبه وانا مع اجلالنا لعمله وتقدير التاريخ للخدم الجليلة التي قام بها علماء مذهبه في خدمة العلم والادب لا نرى بداً من ابداء ملاحظة عساها تقع من المؤلف وغيره في المحل الذي يجب ان توضع فيه وهو ان هذا الكتاب يحوي اماكن لا يقرها التاريخ الصحيح مثل نسبة التشيع الى كثير من علماء الصدر الاول فان كان كل من يحب علياً كرم الله وجهه يعد في نظر المؤلف شيعياً فان جمهور المسلمين شيعة الا قليلاً

كنا نحب ان لا يشار الى ذلك في هذا المكان ولكن المؤلف تحامل ايضاً على عظماء في العلم والحكم كقوله في تقدم الشيعة في فن الجغرافيا في صدر الاسلام (ص ٦٥) ان هشام بن محمد الكلبي صنف فيه عدة كتب ولم يذكر الحموي في معجم البلدان الا كتاباً سماه اشتقاق البلدان فقال ان ياقوتاً اغفل جملة من مصنفات علماء الشيعة في ذلك او تعصب عليهم مع انه يستحيل التعصب على مثل صاحب معجم البلدان وان اتهم بانه من النواصب ومصنفه في الجغرافيا لا في المذهب ولو ظفر ببقية كتب الكلبي ما تأخر ساعة عن الاقتباس منها والتنويه بفضل واضعها

وقد تابع المؤلف مؤرخي الشيعة في اتهام المأمون رضي الله بقتل الفضل بن سهل وعلي بن موسى الرضا رضي الله عنه فقال (ص ٨٥) : ولما نقل المأمون الخلافة الى بني علي كان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الامر والمحسن له ولما رأى المأمون انكار العباسيين ببغداد لذلك حتى خلعوه وبايعوا ابراهيم عمه قام وقعد ودس جماعة على الفضل بن سهل فقتلوه في الحمام ثم قتل الامام الرضا (ع) بالسم وكتب الى بغداد ان الذي انكرتموه من امر علي بن موسى قد زال وكان ذلك سنة ٢٠٤ اه

والعجب ان هذه القصة التي ما زال يرددها بعضهم ليس لها اثر في كتب ثقات المؤرخين بل مؤرخي الامة فكأنها من موضوعات القرون المتأخرة تتناقل لا يغار

الصدور على المأمون ودولته مع انه لم يحسن احد للطالبين احسان الخليفة المأمون ولم تتجرد نفس خليفة من الجمود المذهبي تجرده منه كما ذكر ذلك الثقات الذين يعتد باقوالهم ويكاد يقع الاجماع على تصحيح رواياتهم · وكنا نود لو خلت الكتب العلمية المصرية على الاقل من هذه النزغات لتقريب ما بين القلوب

الوساطة بين المتنبي وخصومه

لابي الحسن علي بن عبد العزيز الشهير بالقاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٦ ﻫ عني بنشره وشرحه الشيخ احمد عارف الزين طبع بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣١ ص ٤١٦

لم يرزق شاعر عربي من الحظوة مانا له ابو الطيب المتنبي بشعره ولم تتناول الاقلام شعر شاعر بالمدح والقدح مثله · وهذا الكتاب هو من الامهات التي كتبت في ذلك العصر وعدل مؤلفها في حكمه على المتنبي وناهيك بمن يحكم له وعليه امثال القاضي الجرجاني « انسان حدقة العلم ودرة تاج الادب وفارس عسكر الشعب » كما قال الثعالبي

ولقد اجاد صديقنا صاحب العرفان بنشر هذا السفر النفيس كل الاجادة فاحياه بالطبع منقولاً عن نسختين احداهما عراقية والثانية مصرية وعلق عليه شروحاً خفيفة تبين بعض الغوامض اللغوية منه واتبعه بفهارس لاسماء الاعلام وللابيات الشعرية وجود طبعه حتى جاء كأنه طبع على يد احد علماء المشرقيات من الغربيين ولم ينقص هذا العمل سوى الشكل فلو كان شكل محل الاشكال لجاء كتاباً تاماً من كل وجه وانتفع به الطلاب كما انتفع الاساتذة ·

الكتاب مجموعة فوائد لغوية وادبية وهو غاية الغايات في تعليم النقد ويكفي في الدلالة على مكانته من الادب ماقاله صاحب اليتيمة : ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في اظهار مساوئ المتنبي عمل القاضي ابو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره فاحسن وابدع واطال واطاب واصاب شاكلة الصواب واستولى على الامد في فصل الخطاب واعرب عن تبحره في الادب وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح وطار في البلاد بغير جناح »

الجزء الثالث | المجلد الثامن

المقتبس

جزاء العلماء والادباء

البشر سائر نحو الديمقراطية اليوم بعد اليوم في جميع مافيه قوام الحياة المادية والمعنوية والعلم اليوم من جملة مايخرج من قيود الارستوقراطية والتيوقراطية والاليغارشية (١) الى ساحة الديمقراطية الفسيحة لانه احق كل الاوضاع بان لايكون عبداً او مستعبداً لاحد .

كانت العرب على عهد حكوماتهم الراقية تحسن الى العلماء والادباء احساناً لايحتاج معه العالم والاديب الى بذل ماء الوجه ليعيش فالوظائف كانت للعلماء وكم من قاض او عامل او وزير خلف وهو في وظيفته مصنفات كثيرة ساعدته السعة على البحث فيها وتوفير المواد النافعة لها ومنهم من لم يحبوا ان يشغلوا اوقاتهم في النظر في شؤون الناس واحبوا الانقطاع الى العلم بتة ومع هذا لم تفتأ الامة تتعهدهم بمايصلح من شأنهم ليتوفروا على الانصراف الى مااخذوا النفس به وما نقرأوه في تضاعيف الكتب من افضال بعض الملوك والامراء والاغنياء على الشعراء ليس الباعث اليه حب المديح فقط بل تشجيع الادب والادباء ولذلك نرى كثيرين وقفوا في ابواب الكبراء ولكن لم نسمع بالعطايا الباهظة تقدم الا للمجيدين في شعرهم المبرزين بادبهم على الاغلب اماالمتوسطون

---

(١) الديمقراطية يمكن ترجمتها بالجمهورية وهي نقيض الارستوقراطية اي حكم الاعيان والتيوقراطية اي الحكم الالهي او من يقول ان سلطته من السماء والاوليغارشية حكم الافراد اصحاب النفوذ من البيوت

من العلماء والادباء فكانوا يرزقون على نسبة عقولهم رجاء ان يكون من صفوفهم نوابغ يخلفون السابقين المبرزين .

اختلفت طرق اكرام العلماء فكان العظيم في دولة بني العباس يعطي العظيم من العلماء مبلغاً قد يستغني به او يمنحه ضيعة او يقوم بجميع نفقته طول عمره ويغنيه عن السؤال من احد او يرزقه من عدة طرق كما وقع للزجاج وقد طلب منه المعتضد شرح كتاب جامع المنطق فعمل البتاني فاستحسنه المعتضد وامر له بثلاثمائة دينار قال ابن النديم وتقدم اليه بتفسيره كله ولم يخرج لما عمله الزجاج نسخة الى احد الا الى خزانة المعتضد وصار للزجاج بهذا السبب منزلة عظيمة وجعل له رزق في الندماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء ثلثمائة دينار . قلنا ومن العلماء من كانوا يرزقون عدة ارزاق لعلمهم ولارادة الملوك ترفيههم وغناهم اي ان يأخذ رزقاً او راتباً في المهندسين ورزقاً مع الفقهاء وآخر مع الاطباء وآخر مع الندماء

ولما انشئت المدرستان النظامية ثم المستنصرية (المقتبس م ١ ص ٢٦٨و٥٧١)في بغداد وكثرت المدارس في مصر والشام على عهد الدولتين الايوبية والجركسية اخذ الواقفون يجعلون على تدريس تلك المدارس طبقة مختارة في الجملة من العلماء

ومن العلماء من كانوا قيمين على المدارس ومنهم القيمون على خزائن الكتب ومنهم على المستشفيات والزوايا والمساجد والاوقاف والضياع السلطانية ومنهم القائمون على الارصاد في المراصد والسفراء الى الملوك المجاورة وكل هؤلاء كان يوسع عليهم في مشاهراتهم وادراراتهم

اما الافرنج في القرون الوسطى فكان المفضل على علمائهم باباواتهم وكرادلتهم وبطارقتهم واساقفتهم وقسوسهم ثم بعض المنورين من ملوكهم واعيانهم فلما جاء الدور الحديث وأُنشئت في الغرب المجامع العلمية والجمعيات المنوعة والكليات والمدارس العليا اصبح العلماء يأملون الرزق من اللحاق ببعض هذه الاوضاع وكثير من جمعياتهم جعلت لها مبلغاً سنوياً خصته بمكافأة المجيد في فنه والواضع فيه كتاباً او المخترع فيه اختراعاً وبعد ان كان اهل الخير في القرون الماضية يحبسون الاموال ويقفون الضياع والعقار على اقامة البيع والكنائس اصبحوا الآن يجعلونها على الجمعيات والنقابات والجامعات وقد كان لاغنياء اميركا الشمالية في ذلك القدح المعلى فانشأوا بثرواتهم الطائلة يفضلون على المعاهد الخيرية لتتعهد هي الافراد المستحقين من العلماء والباحثين المخترعين .

ومعظم العلماء والادباء اليوم في الغرب يتكلون في جلب معاشهم على قوتين ديمقراطيتين التأليف والتمثيل ساعد عليهما قوتان مهمتان انتشار الطباعة وكثرة المسارح · وهاتان القوتان قائمتان ولا شك باقبال الجمهور المتعلم فمن وفق الى ان يصادف كتابه او مقالته او قصيدته او قصته اقبالاً من الناس يشتهر ومتى اشتهر فهناك المجد الاثيل والمال الجزيل ·

وانت ترى ان المجتمع العربي كان محروماً من قوتين الطباعة والتمثيل ولذلك كان المتعلمون فيه اقل مما هم في المجتمع الغربي لعهدنا وكانت قوة الظهر عند العلماء الامراء والاغنياء والنابغة منهم كان على ثقة من انه يحيا بتآليفه في حياته ومماته حياة مادية ومعنوية

قال ميمون بن هارون : قلت للجاحظ الك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما انا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار · اهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك الزيات) فاعطاني خمسة آلاف دينار واهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي دؤاد فاعطاني خمسة آلاف دينار واهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فاعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا الى تسميد

وكان ابو عبيد القاسم بن سلام اذا الف كتاباً حمله الى عبد الله بن طاهر فيعطيه مالاً خطيراً فلما صنف غريب الحديث اهداه اليه فقال: ان عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب لحقيق الا يحوج الى طلب المعاش واجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم · وروي انه قال عملت كتاب غريب المصنف في ثلاثين سنة وجئت به الى عبد الله بن طاهر فامر لي بالف دينار · وسير ابو دلف القاسم بن عيسى الى عبد الله ابن طاهر يستهدي منه ابا عبيد مدة شهرين فانفذه فلما اراد الانصراف وصله ابو دلف بثلاثين الف درهم فلم يقبلها وقال: انا في جنبة رجل لا يحوجني الى غيره فلما عاد امر له ابن طاهر بثلاثين الف دينار فاشترى بها سلاحاً وجعله للثغر

قال ابو العباس احمد بن يحيى قدم طاهر بن عبد الله بن طاهر من خراسان وهو حدث في حياة ابيه يريد الحج فنزل في دار اسحق بن ابراهيم فوجه اسحق الى العلماء فاحضرهم ليراهم طاهر ويقرأ عليهم فحضر اصحاب الحديث والفقه واحضر ابن الاعرابي وابو نصر صاحب الاصمعي ووجه الى ابي عبيد القاسم بن سلام في الحضور فأبى ان يحضر وقال : العلم يقصد فغضب اسحق من قوله ورسالته وكان عبد الله بن طاهر يجري له في الشهر الفي درهم فقطع اسحق عنه الرزق وكتب الى عبد الله بالخبر فكتب

اليه عبد الله قد صدق ابو عبيد في قوله وقد اضعفت له الرزق من اجل فعله فاعطه فائته وادر عليه بعد ذلك ما يستحقه ٠

ولقد نزل ابو الجيش الموفق مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد بن ابي عامر امير الاندلس بعد الفتنة الجزائر التي شرقي الاندلس وهي دانية ومنورقة فغلب عليها وحماها وقصد سردانية وكان من الكرماء على العلماء كما قال ياقوت يبذل لهم الرغائب خصوصاً على القراء حتى صارت دانية معدن القراء بالغرب وهو الذي بذل لابي غالب تمام بن غالب الف دينار ليزيد اسمه في ديباجة كتابه فلم يفعل ٠ قال ياقوت (معجم الادباء) ولتمام كتاب تلقيح العين في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً واكثاراً وله فيه قصة تدل على فضله وذلك ان الامير ابا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري وهو احد المتغلبين على تلك النواحي وجه الى ابي غالب هذا ايام غلبته على مرسية وابو غالب ساكن بها الف دينار اندلسية على ان يزيد في ترجمة هذا الكتاب « مما الفه تمام بن غالب لابي الجيش مجاهد » فرد الدنانير ولم يفعل وقال : والله لو بذل لي ملا الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب فاني لم اجمعه له خاصة لكن لكل طالب عامة ٠ قال الحميدي فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها

قال المقري ان مجاهداً ملك دانية بذل لابي الغالب اللغوي هذا الف دينار ومركوباً وكساء على ان يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك ابو غالب وقال: كتاب الفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له لا افعل ذلك فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن انفته وهمته واضعف له العطاء وقال هو في حل من ان يذكرني فيه لا نصده عن غرضه

وهكذا كنت ترى كثيراً من العلماء يأبون على ضيق ذات يدهم ان يأخذوا شيئاً على تآليفهم كما فعل ابو الريحان البيروني الفيلسوف فانه لما صنف القانون المسعودي اجازه السلطان بحمل فيل من نقده الفضي فرده الى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به ٠ اما الشيخ الرئيس ابن سينا الفيلسوف فما كان يستنكف على جلالة قدره من ان يقدم احد كتبه لاحد امراء عصره بل انه كان من جملة ندماء علاء الدولة صاحب همدان ٠

ومن العلماء من كانت تبلغ بهم العفة درجة الغلو فقد حكى بعضهم عن ابي العباس ابن الرومية النباتي الاندلسي انه كان جالساً في دكانه باشبيلية يبيع الحشائش وينسخ

فاجتاز به الامير ابو عبد الله بن هود سلطـــان الاندلس فسلم عليه فرد عليه السلام واشتغــل بنسخه ولم يرفع اليه رأسه فبقي واقفاً منتظراً ان يرفع اليه رأسه ساعة طويلة فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى. قاله المقري في نفح الطيب

ومثل ذلك ما وقع للفيلسوف الرياضي ابو علي ابن الهيثم فانه وزر في البصرة لاول امره ثم احب التجرد عن الشواغل التي تمنعه من النظر في العلم قال ابن ابي اصيبعة فاظهر خبالاً في عقله وتغيراً في تصوره وبقي كذلك مدة حتى مكن من تبطيل الخدمة وصرف من النظر الذي كان في يده ثم انه سافر الى ديار مصر واقام بالقاهرة في الجامع الازهر بها وكان يكتب في كل سنة اقليدس والمجسطي ويبيعهما ويقتات من ذلك الثمن ولم تزل هذه حاله الى ان توفي · وذكر يوسف الفاسي الاسرائيلي الحكيم بحلب قـال : سمعت ان ابن الهيثم كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن اشتغاله وهي اقليدس والمتوسطات والمجسطي ويستكملها في مدة السنة فاذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه الى مواكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤنة لسنته ·

ولقد كنت تجد في كل صقع من اصقاع العرب ملوكاً واقيالاً وامراء ووزراء احيوا دولة العلم والادب بحسناتهم مثل الوزيرين ابن عباد وابن العميد في بغداد وبني عباد في الاندلس الذين يقول فيهم ابن حزم ان الايام لم تزل بهم كاعياد «وكان لهم من الحنو على الادب مالم يقم به بنو حمدان في حلب وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر مشاركين في فنون العلم وآثارهم مذكورة واخبارهم مشهورة»

نعم تساوت في الرفد للعلماء دولة الشرق العباسية البغدادية ودولة الغرب الاموية الاندلسية · اراد الحكم الربضي ذات يوم في قرطبة ان يقدم شخصاً من الفقهاء يختص به للشهادة فاخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من اعلاء العلماء فقالوا له هو اهل ولكنه شديد الفقر ومن يكون في هذه الحالة لا نؤمنه على حقوق المسلمين لاسيما وانت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في المواريث والوصايا واشباه ذلك ولما شكا الى ولده عبد الرحمن قائلاً الا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم وننوه عند الناس بمكانهم حتى اذا كلفناهم ماليس عليهم فيه شطط بل لا يعيبهم ولا هو مما يرزؤهم صدونا عنه واغلقوا ابواب الشفاعة وذكر له ما كان منهم قال لوالده: يامولاي انت اولى الناس بالانصاف ان هؤلاء ماقدمتهم انت ولا نوهت بهم انما قدمهم ونوه بهم علمهم او كنت

تأخذ قوماً جهالاً فتضعهم في مواضعهم قال : لا قال : فانصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة قال : صدقت · فلم يجد الخليفة بداً من اعطاء ذاك الفقيه قدر مايؤهله لتلك المرتبة من الغنى فنبه قدره بان اعطاه من اصطبله مركوباً وكانت هذه اكرومة لاخفاء بعظمها · يفنى الزمان وما بنته مخلد ·

ولو جئنانعددالمؤلفين الذين اهدوا للعظماء تآليفهم فاجزل هؤلاء لهم العطايالطال بنا نفس الكلام فمنهم محمد بن يوسف الوراق الف للمستنصر في مسالك افريقية وممالكها ديواناً ضخماً ومنهم الشريف الادريسي الذي الف لروجار صاحب صقلية كتابه في الجغرافية ايضاً ومنهم ابن السيد البطليوسي الف باسم عبد السلام الملقب بسحنون · واهدى ابو علي القالي اماليه للحكم عبد الرحمن بن محمد ولي عهد المسلمين في الاندلس واهدى ابن خلدون تاريخه الى ابي الحسن بن مرين من ملوك الاندلس · والف ابو منصور الثعالبي كتاب فقه اللغة باسم ابي الفضل الميكالي واهدى ابو الحسن بن رشيق كتاب العمدة لابي الحسن علي بن ابي الرجال الكاتب

حكى (عن تاريخ الوزراء) محمد بن ناصح الاهوازي قال حدثني النضر بن شميل المازني قال : كنت ادخل على المأمون في سمره فدخلت عليه ذات ليلة وعليّ قميص مرقوع فقال : يانضر ماهذا القشف حتى تدخل على امير المؤمنين في هذه الخلقان فقلت : ياامير المؤمنين انا شيخ ضعيف وحر مرو شديد فاتبرد بهذه الخلقان فقال : ولكنك قشف ثم اجرينا الحديث فاجرى هو ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز فاورده بفتح السين قال فقلت : صدق ياامير المؤمنين هشيم حدثنا عوف بن ابي جميلة عن الحسين عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد (بالكسر) من عوز قال وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال : يانضر كيف قلت سداد قلت : نعم لان السدا : هنا لحن قال : او تلحنني قلت : انما لحن هشيم وكان لحاناً فتبع امير المؤمنين لفظه قال : فما الفرق بينهما قلت : السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة وكلما سددت به شيئاً فهو سداد قال : اتعرف العرب ذلك قلت : نعم هذا العرجي يقول :

اضاعوني واي فتىً اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال له المأمون : قبح الله تعالى من لا ادب له واطرق مليًا ثم قال : مالك يا نضر قلت : اريضة لي بمرو اتصابها واتمززها اي اشرب صبابتها قال : افلا افيدك مالاً معها قلت : اني الى ذلك لمحتاج قال : فاخذ القرطاس وانا لا ادري ما يكتب ثم قال : كيف تقول اذا امرت من ان يترب الكتاب قلت اتربه قال • فهو ما ذا قلت : فهو مترب قال : فمن الطين قلت طنه • قال : فما هو قلت : مطين قال : هذه احسن من الاولى ثم قال : يا غلام اتربه وطنه ثم صلى بنا العشاء وقال : لخادمه تبلغ معه الى الفضل بن سهل قال : فلما قرأ الفضل بن سهل الكتاب قال : يا نضر ان امير المؤمنين قد امر لك بخمسين الف درهم فما كان السبب فاخبرته ولم اكذب فقال : لحنت امير المؤمنين قلت : كلا انما لحن هشيم وكان لحانة فتبع امير المؤمنين لفظه وقد تتبع الفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم امر لي الفضل من خاصته بثلاثين الف درهم فاخذت ثمانين الف درهم بحرف استفيد مني •

قال ابو بريد الوضاحي : امر امير المؤمنين المأمون الفراء ان يؤلف ما يجمع به اصول النحو وما سمع من العرب فامر ان تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جواري وخدمًا للقيام بما يحتاج اليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه الى شيء حتى انهم كانوا يؤذنونه باوقات الصلوات وصير له الوراقين والزمه الامناء والمنفقين فكان الوراقون يكتبون حتى صنف الحدود وامر المأمون بكتبه في الخزائن فبعد ان فرغ من ذلك خرج الى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني وكان وراقيه سلمة وابو نصر قال : فاردنا ان نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء كتاب المعاني فلم تضبط فلما فرغ من املائه خزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا به وقالوا : لا تخرجه الى احد الا لمن اراد ان ننسخه له على ان كل خمس اوراق بدرهم فشكا الناس الى الفراء فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك: فقالوا : نحن انما صحبناك لننتفع بك وكلما صنعته فليس بالناس اليه حاجة ما بهم الى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال : قاربوهم تنفعوا وتنتفعوا فابوا عليه فقال : سأريكم وقال للناس : اني اريد ان املي كتاب معان اتم شرحًا وابسط قولاً من الذي امليت فجلس يملي واملى في الحمد مائة ورقة فجاء الوراقون اليه فقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون فننسخ كل عشر اوراق بدرهم •

ومثل ذلك من اقتراح الملوك على العلماء تآليف يؤلفونها ما وقع لابن الصفار الاندلسي لما اراد الحكم المستنصر غزو الروم سنة ٣٥٢ فتقدم اليه وكان مشهوراً بالعلم

والادب بالكون في صحبته فاعتذر بضعف في جسمه فقال المستنصر لاحمد بن نصر قل له : ان ضمن لي ان يوءلف في اشعار خلفائنا بالمشرق وبالاندلس مثل كتاب الصولي في اشعار خلفاء بني العباس اعفيته من الغزاة فخرج احمد بن نصر اليه بذلك فقال : افعل ذلك يا امير المؤمنين ان شاء الله قال فقال المستنصر : ان شاء ان يكون تأليفه في منزله فذلك اليه وان شاء ان يكون في دار الملك المطلة على النهر فذلك له قال : فسأل ان يكون ذلك في دار الملك وقال : انا رجل مورود في منزلي وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة اقطع لكل شغل فاجيب الى ذلك وكمل الكتاب في مجلد صالح وخرج به احمد بن نصر الى الحكم المستنصر فلقيه بالمجلد بطليطلة فسر الحكم به . والله اعلم كم اعطاه مكافأة عن تعبه

قال ابن المعتز في طبقات الشعراء : اجود ماقاله مروان بن ابي حفصة قصيدته الغراء اللامية وهي التي فضل بها على شعراء زمانه يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني ويقال انه اخذ منه عليها مالاً كثيراً لا يقدر قدره ولم ينل احد من الشعراء الماضين مانال مروان بشعره فما ناله ضربة واحدة ثلثمائة الف درهم من بعض الخلفاء بسبب بيت واحد ويقرب من ذلك مانال ابو الطيب المتنبي من مكارم سيف الدولة بن حمدان فانه اغتنى بشعره ولا اغتناء زولا وروستاند وغيرهما من ادباء الفرنجة لعهدنا

وليس رزق الفتى من فضل حيلته لكن جدود وارزاق باقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

حكى ابن جلجل ان ابا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب صنف لمنصور بن اسحق ابن احمد بن نوح من ولد بهرام جور صاحب كرمان وخراسان كتاباً في اثبات صناعة الكيمياء وقصده به من بغداد (وكان بنو سامان يحبون العلم ويكرمون العلماء) فدفع له الكتاب فاعجبه وشكره عليه وحباه بالف دينار وقال له اردت ان تخرج هذا الذي ذكرته في الكتاب الى الفعل فقال له الرازى : ان ذلك مما يتمون له المؤن ويحتاج الى آلات وعقاقير صحيحة والى احكام صنعة ذلك كله وكل ذلك كلفة فقال له منصور : كل ما احتجت اليه من الآلات ومما يليق بالصناعة احضره لك كاملاً حتى تخرج ما ضمنته كتابك الى العمل فلما حقق عليه ذلك كاع من مباشرة ذلك وعجز عن عمله فقال المنصور : وما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها ويتعبهم فيما لا يعود عليهم من ذلك منفعة ثم قال

له قد كافأناك عَلَى قصدك وتعبك بما صار اليك من الالف دينار ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب فحمل السوط على رأسه ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى ينقطع ثم جهزه وسير به الى بغداد فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيه ٠

هذه امثلة قليلة مما كانت عليه حالة العلماء والادباء في عصور ارتقاء العرب على ان الحال لم تكن تخلو من بائسين ومفلوكين (راجع الفلاكة والمفلوكين للدلجي) من العالمين والمتأدبين اما اليوم فان العالم الحقيقي الذي تعزف نفسه عن الدخول في سلك عمال الحكومة كالوظائف العلمية والادارية والجندية والمالية اما ان يهلك جوعاً او يتكسب بقلمه ما هو سداد من عوز ويرضى بميسور العيش وفي الغالب ان التآليف لا تعول صاحبها ولو مها جودها وانفق السنين في تصنيفها ولا يروج لجهل القوم من المصنفات الا التافه الحقير كبعض القصص والدواوين الشعرية البذيئة وغير ذلك من المعربات فهل يأتي على الامة العربية يوم يا ترى تكون فيها التآليف ديمقراطية صرفة لا تحتاج الا الى اقبال القراء عليها حتى تغني ابا عذرها وتربأ بنفسه عن الاسفاف للدنايا طمعاً في المال والنوال ٠ فانا في عصر لا يصح ان يعيش العلماء والادباء مقتراً عليهم فانهم كلما رزقوا حظاً من الرفاهية المعتدلة تجود تآليفهم وتصوراتهم ويزيد النفع بينات افكارهم ٠

في ديار الغرب

نهضة ايطاليا

ايطاليا القديمة

كنت احب ان اسطر قبل الآن ما اعرفه وعرفته عن النهضة الايطالية الا انني انتظرت ريثما قضيت شهراً في هذه الشبه الجزيرة ورأيتها اجمالاً من جنوبها الى شمالها

وقد اعتمدت فيما اكتب على من وقعت لي معهم صلة تعارف من خاصة الطليان او ماقرأته باقلام الطليان بالافرنسية او ما كتبه الفرنسيس عن الطليان وهو وان لم يكن مجموعاً صحيحاً من كل الوجوه لكنه اقرب الى الصحة من كثير من الاحكام التي يصدرها صاحبها عفو القريحة وبادي الرأي

وكنت اود لو سمح لي الزمان بتعلم مبادئ من لغة الطليان الرقيقة لاخاطب العامة كما اخاطب الخاصة بلغتهم نفسها واسمع تصوراتهم والقي عليهم الاسئلة وادرس احوالهم بالنفس ولكن المدة التي قضيتها لاتكفي لان يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جداً من الافرنسية ولولا الخوف من علماء اصول اللغات لقلت ان الايطالية تحريف الافرنسية او هذه تحريف تلك .

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة الى ايطاليا ان مسألة اللغة من اهم المعضلات الاجتماعية التي يصعب حلها الا بان يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وان العامة ايضاً لاغنية لهم عن تعلم ولو مبادىء طفيفة من لغة راقية منتشرة وان من كان يبيع منا افكاره الصائبة بان الموظف يستطيع ان يحكم في بلد لا يفهم لغة اهله وان التاجر يستطيع بواسطة الترجمان ان ينفق سلعته ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن افكاره ارقى من انفه اذ لم يستند فيها الى تجارب ولا الى تاريخ واجتماع .

وهالآن نتكلم على نهضة ايطاليا فنقول : قضى مركز ايطاليا الجغرافي ان تكون في الازمنة القديمة مركزاً عظيماً من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت

رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الاول واخذوا يدوخون الامم والشعوب لسلطانهم . ولما وضع الشعب اللاتيني اول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن اكبر انهار ايطاليا اصبحت رومية مطمح الانظار وصار هذا الجسر الذي كان بناؤه اقرب الى الفطرة مما يستهوي قلوب شعوب الشمال للاغارة عليه لان به يخلص المرء الى ساحل البحر المتوسط على ايسر سبيل . ولما دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الاتروسكيين واليونان اصبح مقدساً ومن ملكه كان هو الزعيم بلامدافع

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب اساسية للمرء والمجتمع وهي ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الادبية والصعود الى الحياة العقلية بمعنى ان المرء يعيش ويحب ويعرف وان يكون في المجتمع قانون ودين وعلم .

قارب الرومان القدماء هذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت اتم عندهم لانهم محاطون باعداء ان لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لامحالة . وكانت الحياة العقلية في كثير من ادهارهم تامة بالنسبة لتلك الايام. ونظام الاسرة ثابت الدعائم وحب الجندية مغروساً فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية في السادسة عشرة ليعفى منها في السادسة والاربعين وعلى قلة عدد السكان اذ ذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) الف نسمة في رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون في ارض ذرعها ٤٥٠ ميلاً مربعاً كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين الى اربعين الف نسمة يخرجون به من فتح الى فتح .

وكان الرومان اذا فتحوا بلاداً يقبلون في الحال مايتراءى لهم حسناً من عادات اهلها وصناعاتهم واسلحتهم وهذا سر وضع القانون الروماني الذي هو ابن الاوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة أُلف في قرون وتعاورته الايدي بالشرح والتذييل والانقاص حتى اصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الانسانية التي لاتتغير . وكانت تلك الحروب الرومانية من مجددات حياتها وحماستها الوطنية حتى لقد قال ليكورك الخطيب الاثيني ليس احسن عاملاً من الحرب في تقوية الشعب لانها تعلمه احتقار الاخطار والاخلاص لسلامة غيره ولأسرته ووطنه

ولما تخلص الرومان من السيزيليبين كاد القرطاجنيون ان يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيكية وقضت رومية على انيبال القرطاجني الذي جاء وهددها في عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير

من اقطار آسيا ومنها الشام من اكبر دواعي قوتهم فجلبوا به ثروة واعلاقاً نفيسة وكان من اكبر المشوقات للعسكر الذي اخذت رومية تستخدمه بالاجرة ان كان يعطى له شيء من الانفال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم او رب الاسرة

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية اخذت عنها الذوق في الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآثينة اثراً من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تتربى اذواقهم ولم يكتفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثريها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فاصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب « الفوروم » المشهور الباقية الى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون واخذوا يبعثون بفتيانهم الى اثينة يتعلمون على حكماء الوقت اذ ذاك ماينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الآثنيين الى رومية وانشأوا يعلمون كل طالب وبلغت هذه النهضة اشدها على عهد الامبراطور اغسطس وسقطت بعده بقليل شأن اكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم او امير او بضعة حكام ثم يتناسى الامر ويزهد فيه

جاءت ازمان ادخل فيها اليونان على الرومان اموراً اضعفت من سلطة الوالد على اولاده وتركت الحياة الجندية واخذت الشبه والشكوك تسري الى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهية فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الروماني فقضي على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت في النفوس آثار الوثنية واخذ الاضطراب يدخل في نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس من الطبقة الممتازة والاغنياء الى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على انقاض المدنية الرومانية وكان لها من النساء اكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاءً لهم وسلوى . والدين وازع قوي في الدنيا والآخرة

اضطهد القائمون بالدعوة الدينية ايضاً وقام امثال نيرون يظلم ولا يبقي على احد وبينا كان يحرق المتنصرين احياء ليضيء بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى اولئك المتنصرين يذهبون الى الحرق باسمين لاعتقادهم بان في العالم الآخر حياة سامية لا يخيب من قضى في سبيلها . وكلما كانت الشدة تنال اولئك المضطهدين كنت ترى اشياعهم يكثرون

وكان النزاع بين الامبراطورية الرومانية والدين المسيحي من اعظم ما ذكره التاريخ

حتى دان الامبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصاً والدين اخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم

توطد امر ايطاليا بعد ذلك واخذت تقطع اشواطاً في سبيل جمع شملها وتتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت ايطاليا . و بينا الامر على ذلك كان برابرة الشمال يتجمعون ليغزوا ايطاليا للاستفادة من مادياتها وقد اهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة بدفعهم فجاؤا يغشون العالم المتمدن ولكن من اولئك البرابرة من لم يلبثوا ان دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة اليه في القاصية بيد انهم لنقص فيهم حرفوا ما تلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فاتوا مظالم كثيرة حتى اضطر البابوات ان يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا الى القوة علماً منهم بان سلطان الروح لا يؤثر كثيراً ان لم يكن وراءه سلطان القوة . وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصا عليه ثم كثرت البدع والالحاد وقاومها البابوات بالشدة وان جاء من هؤلاء انفسهم من لم تحمد سيرتهم احياناً

ولقد كانت ايطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين البابوية والامبراطورية فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع اليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد سنة الف للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي الى الحماسة الدينية حب الظهور والاتيان بالغرائب ولا سيما في نفوس العامة والزعماء من الامراء . ولكن حرب المسلمين قرنين لاستعادة الارض المقدسة لم ينتج منه الا ان جمهوريات ايطاليا اصبح لها مكاتب تجارية على شواطئ البحر المتوسط وباختلاط ايطاليا بل اوربا بالمدنية الشرقية البديعة عاد الى الغرب شيء من الحياة اصيبت به الصناعة والآداب وكان اثر الحروب الصليبية في ايطاليا أثر تقاليد اليونان المغلوبين على امرهم في مدينة رومية

ايطاليا في القرون الوسطى

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما الى ان تحكم العالم فالاول على عهد عظمة قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني وبلوغ سلطة البابوات حدها . وكان من اثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البيزنطية والمغربية ان تمت لهم مقدمات النهضة الاولى . ثم ان المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من امرها عسراً فاخذت تتنافس في اقامة الابراج وتحب كل

منها ان تكون كنيستها اوسع وا كثر بهجة واغنى وخطيبها اشهر ومتفننها اشهر ٠ وانشأت تبحث عن الرجل الذي يكون اقدر من غيره على التغني بامجادها في اشعاره وتعظيم اعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم ٠ وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الارض الى الاجواء

وانتشر في جميع شبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقي للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التي لم تزل تبهرنا الى اليوم فكان هذا العهد مناسباً لتكوين اعاظم الرجال ليستطيعوا ان يحدثوا اعمالاً غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس توما دي آكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر اثر يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الاولى متشبعة بالفكر الديني الا انها كانت تحوي في مطاويها بذوراً انبتت بعد النهضة الثانية ٠

وقام على الاثر الشاعر دانتي الايطالي واضع اساس اللغة الايطالية الحديثة واخذ ينادي في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية ٠ ينطق في ذلك بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكد يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الاثر ارباب الافكار الحديثة ممن اخذوا ينزعون ربقة الدين بل ينحون على جوهره ٠ وكان في هذا القرن ايضاً اناس من ارباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حباً بالمجد والشرف والمال خصوصاً وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس اذ ذاك تغدق الهبات على ارباب تلك الصنائع ٠ حتى لقد قيل ان رافايل المصور رفض ان يكون بابا وآثر العمل بالتصوير ٠ وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذي كان من اكرم البابارات واكثرهم علماً وعصره كعصر اغسطس قام فيه ارباب الافكار الحديثة واخذوا يشيرون من طرف خفي بتحكيم العقل في المسائل فاصبح اهل العلم والادب مرغوباً فيهم اكثر مما يرغب في الامراء وساعدهم اختراع الطباعة اذ ذاك فاخذوا يبثون افكارهم في روح القوم على صور مختلفة حتى غدا امثال بوج وفيللف واريتن الحاكمين المتحكمين بالافكار في عصرهم يصرفونها كما يشاؤن

في ذاك العهد ايضاً نشأ للطليان امثال المؤلف لورانزو فالا نخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدماً تذكر له على الدهر ومثله جيوردانو برنو الذي احرق لافكاره

الفلسفية وكان عالماً كاتباً مؤثراً وبينا كانت الافكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر ومنشأوها من بيع الغفرانات واستئثار الباباوات بالسلطة المركزية يريدون ان يتم كل شيء في رومية في الامور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة ان ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوي والفلاسفة والادباء يريدون ان يحرروا العقل من قيوده وكما كان المجتمع يدخل في طور الكمال كانت الحالة تستدعي تقسيماً اكبر في العمل وتوجيه المناحي وجهاتها حتى ان اكثر من واحد من المتدينين جداً قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت المانيا وانكلترا عن رومية .

كان العلم في اواخر القرن السادس عشر قليلاً وقام امثال غاليلة الذي قال بدوران الشمس حول الارض فاوذي لما نادى بآرائه العلمية وان التجربة هي الشرط الضروري في تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الاسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها واخذ ماكيافيل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتي يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليلة يثبت بان العالم العلمي يجب ان يكون منفصلاً ومستقلاً عن الاعتقاد الديني وهكذا لم يبرح غاليلة يؤكد مع شدة احترامه للدين ان العلم والدين امران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط . ويرى ان الكنيسة هي الحاكمة في المسائل الدينية وليس لها ادنى سلطة في المسائل العلمية وينبغي لها ان تحاذر من الحكم في مسائل هي غريبة عنها تماماً .

رأت الكنيسة بعد عصر دانتي ان تحافظ على كيانها السياسي بالقوة وارادت بعد غاليلة ان تحافظ على كيانها العلمي بالتعليم خصوصاً بعد ان شاهدت النتائج التي تمت عَلَى ايدي اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين . واتحدت الكنيسة مع الامراء واخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وامن الناس ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الاصلاح الديني بقيام لوثيروس ونزع المانيا وانكلترا يدهما من الكنيسة الكاثوليكية ان الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم واحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لان التعليم كان محدوداً عند هؤلاء الشعوب ومقصوراً على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة ابداً يرغب فيها فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على ان الرفاه المادي كان

مضموناً لاهل ايطاليا بما انشئ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التنبت والتراجع ·

وعلى عهد مثل هذه الادارة ينزل ميزان العقل من كل وجه فقد امست الصناعات والآداب والعلوم لا ترتقي الا ببطء حتى ان الشاعر كيودي المتوفى سنة ١٧١٢ من اعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربري الذي كان يشاهد من خلال اعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون الا بفتح العالم · ومن حسن الحظ ان ايطاليا لم تعدم في ذاك الدور اناساً ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف و ينادون قومهم بان ما هم فيه باطل لا بد له من التجديد وان هذا العالم ليس عالم الاموات · فقام بيترو ميكا بالدفاع عن تور ينو وقام فيليكايا يتغنى باغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الامير اوجين دي سافوا يحمل امجاد الحرب والسياسة الى القاصية واخذ بكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم باعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ما امكن

ايطاليا في القرون الحديثة

بينا كانت ايطاليا غارقة في هذا السبات كانت افكار غليلة قد وصلت الى انكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت الى ايطاليا منعكسة من طريق فرنسا في كتابات الفيلسوف ديدرو واخذت السلطة الدينية تضعف امام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١ــ١٧٧٢) فاحدث حركة في اهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها اهل الطبقة الوسطى من الفرنسيس آملين ان يروا منها سلاحاً يحاربون به رجال الكهنوت والاشراف اما العامة فقد استعملوها واسطة للارهاب · وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي افكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لان فرنسا كانت مستعدة اكثر من كل امة لقبولها لان السلطة كانت فيها على اشد ما تكون ثم ان صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى اكثر من غيرها

فكانت الفاظ « الحرية » « المساواة » « الاخاء » تؤثر في السواد الاعظم من القوم فتدفعهم الى الاعمال الخارقة في باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيس بفتح شبه جزيرة ايطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الافكار في فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها في ايطاليا ففي الاولى مضاء واعتماد على النفس وفي الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الامراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنساوية على صورة بشعة

بل ربما ركبوا عار الفرار قبل ان تحتل بلادهم فلما استحكمت سلطة الفرنسيس في ايطاليا قلبوا كثيراً من اوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنساوي والغوا امتيازات رجال الدين والاشراف بيد ان ما حدث من الاحتلال الفرنساوي لايطاليا في اوائل القرن التاسع عشر قد نبهها من سباتها العميق وحدا بها ان تعقد مع سائر اوربا المتمدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان ما يراد بهم فكانوا يساقون كالانعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الاعمال بعثت هممها حالة الفرنسيس فاخذت تدرك امكان اعادة الوطن وتأليف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الامنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى اثمر جهاد ارباب الافكار تأليف الوحدة الايطالية الحديثة ٠ وحدة قوامها المساواة امام القانون ومنح الحرية السياسية ٠

اعاد رجال السياسة في موءتمر فينا خريطة اوربا الى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد البابوات والملوك والدوجات والامراء الى سابق امجادهم تحميهم الحراب الاجنبية ولكن استحال الرجوع الى الحالة الاصلية لان رجال الشعور الخارق للعادة ومن توءهلهم الجاذبية العقلية الشديدة الى ان يتحرروا بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا في وجهة الافكار وجددوا ميدان آمالهم فكان الشعراء واساتذة الكليات والقسس والاشراف المتعلمون في مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد افهمهم معنى الجمال الذي ينطوي في مدارج القوة ٠ وتراجع الايمان بالحق الالهي وعادت الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت معتقد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية وتحمس الاذكياء وارباب القلوب لفكرة ان وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيماً جميلاً فاخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على اعمالهم ان يحمدهم ويحترمهم

وكثر تجدد طبقات من الشعراء اخذت على عاتقها ان تنبه بلسان الشعر والحانه الرخيمة شعباً متناوماً منذ قرون فتناول الشاعر جيوستي سوط الهجاء الذي سقط من يد باريني واخذ يضرب به وتحمس الشعراء باليكو ومانزوني ونيكوليني حماسة الفيري المفجعة ٠ وساعدت قصائد فوسكولو واغاني برشت الوطنية على هذا النشور

بيد ان الدعوة الادبية لا تستطيع ان تعمل الا في الافكار المستنيرة ولو قليلاً فاخذ الاشراف والطبقة الوسطى من الاحرار يدركون ضرورة نشر هذه الحركة بين العامة فانشأوا يدخلون التعليم الى القرى ٠ وكان تكثير سواد القائلين بفكر التجدد وضم

الشمل في المدن قد تسهلت اسبابه بارتقاء مستوى العقل في الشعب واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة ولطالما اعار بعض الكتبيين مؤخرة حوانيتهم لعقد الاجتماعات ليتهامس فيها المتهامسون بافكارهم وآمالهم واحلامهم في المستقبل ونهضة البلاد

ثلاثة عوامل اعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها قدماء الضباط والموظفين على عهد نابوليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة ومعظمهم كانوا دخلوا في الجمعية الماسونية فتعلموا فيها اساليب الاجتماع وجمع الشمل وحب النظام وبالنظر لحالة البلاد اذ ذاك لم يتأت ان تنعش من سقطتها الا بجمعية سرية وذلك لما عرا الاخلاق من الانحلال والضعف ولقلة عدد ارباب التشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من اجل ذلك في البلاد كلها وكان اشياعها كثاراً اولاً في الكليات ودخل فيها ابناء الطبقة الوسطى وكثير من ابناء الاسر الكبرى وجماع الاسرائيليين وكان اكثر الداخلين مدفوعين الى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون الى جمع شمل الوطن

كان للاسرائيليين في هذه الحركة الكعب المعلى فانهم وان كانوا في ايطاليا اقل حيفًا من حيث مادياتهم خلافًا لما كانوا عليه في سائر اوربا لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول الى المناصب التي يؤهلهم اليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم فكانوا محتقرين وسذجًا في الصورة الظاهرة ويتذكرون احياناً شيئًا من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على ثباتهم وحسابهم للعواقب قد اصبحوا متضامنين بداعي مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون امرهم ويسرون مايجول في قلوبهم وهم قد اثروا اثراء مهماً فكانت منهم قوة لا تعادلها قوة لمقاومة نظام سياسي تكرهه نفوسهم

فلم يكونوا يعتقدون ان في وحدة ايطاليا قلب الاوضاع التي طالما قاسوا منها الامرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من انكلترا المسيحية في رومية البابوات ولذا يمكن ان يقال في ذاك العهد ان جميع الماسون في ايطاليا ان لم يكونوا كلهم اسرائيليين فان جميع الاسرائيليين كانوا ماسوناً واذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الاسرائيليين ماعدا بعض الشواذ مالية اكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل

حتى ان الحكومة الموقتة في ميلان بالنظر لما ادرته عليها الاسرائيليون من المال بعد مبادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على اعاناتهم الكريمة في سبيل الحرية ·

وما كان القديسون غرباء عن هذه الحركة فان اول من صاح « ايطاليا واحدة وحرة » كان قساً فمات في هذا السبيل وآخر من قضى في هذا المقصد هو قسيس ايضاً كان في صحابة اسرائيلي · وكان هذا شأن جميع المستنيرين من عامة طبقات ايطاليا يريدون ان يحيوا وطنهم ولا يبقوه ارض الاموات · وما صادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها اذا علم ان البابا بيوس السابع كتب الى الكونت بورو بمناسبة اعضاء جمعية الكاربوناري الثورية : « انهم يحبون ايطاليا وانا احبها مثلهم » وكذلك كان الاشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم في الحكومة واقصاهم الملوك عن قربهم فانهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة

قلنا الكاربوناري وهي جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية واعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابوليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية في مملكة نابولي اولاً ثم في معظم امارات ايطاليا ولكن قلة عدد اعضائها وفقدان المرددين لاعمالها غادرت حركاتها قاصرة · ولما قام مازيني الكاتب الذي كان يؤثر لانه كان متأثراً يرمي الى انهاض ايطاليا وجد انصاراً واعواناً وان كان العيب الوحيد انه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها · ويضيق المجال اذا اردنا احصاء من دعوا الى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيوبرتي الذي اغضب الكنيسة بعمله فقضى آخر ايام حياته شريداً في باريز لانه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والاخلاق

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد اخرى فيظن ان البلاد عادت الى حالتها من الامن والطمأنينة ثم لا تلبث فوهة البركان ان تقذف حممها وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية واخذت تهتز اعصاب اوربا فتحركت ايطاليا من اقصاها الى اقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائي فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الالب الى صقلية اي من الشمال الى الجنوب وظهر ان الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وان شئت فقل انه كان اكثر من غيره وتنازل الامراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون اولاً طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها

ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت اولاً عطفاً من الباباوغيره فلما تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة واعيدت البلاد الى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب اليها هذا الملك بالامر السهل بل كانت تحتاج الى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل احرار الطليان وتهدئة خواطر الكاثوليك وهم كثار متحمسون في اقليم البيمون واقناع اوربا التي لا تصدق او هي معادية لهذا الفكر واتخاذ انصار من حكومات اوربا ليفتوا في عضد العدو العظيم · كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من احرج المراكز ولحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو «كاڤور»

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع ان يستخدم امثال غاريبالدي ومازيني للقصد الذي يرمي اليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية · ومن دهاء هذا الرجل انه بعث من اقليم البيمون جنداً الى حرب القريم يعاون الدول الاوربية التي عاونت الدولة العلية اذ ذاك فعد العالم عمله خرقاً في الرأي على امة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المفاداة هيأت لايطاليا بل لمملكة البيمون مركزاً بين الدول وصار لها الحق ان تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز · ولا عجب فالاعمال بمقاصدها ونتائجها

اتم هذا النابغة كل ما كان يظن انه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال ايطاليا لولا قيام هذا الرجل · وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية «جيوفاني ايطاليا» لان عملها لم يؤد الا الى فظائع فقام كاڤور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسرة ساڤوا محط رحال الآمال وساعد ان كان الامبراطور نابوليون الثالث الفرنساوي من اعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر الى مساعدة ايطاليا ولما ايقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاضدة الجيش الفرنساوي نهض بالعمل بصورة افخم واعظم واعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عند ما وقع على اعلان الحرب اني سأكون بعد عشرة اشهر ملك ايطاليا او المسيو ساڤوا

ظفرت الجيوش الفرنساوية في مونتبللو وبالسترو وما جنتاوسولفيرينو · وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا للمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويداً رويداً على دوجها الكبير واعلنت انضمامها الى البيمون · ونزل غاريبالدي الى صقلية وتآخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الاخاء من قبل مع جمعية مازيني السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافراً الى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد ايام اعلنت جزيرتا صقلية انضمامها الى الوحدة الايطالية وفي ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البارلمان في تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكاً على ايطاليا وتوفي كاڤور بعد بضعة اسابيع كأنه انتظر حتى اتم عمله المجيد مخلفاً لقومه شعاره « الكنيسة الحرة في المملكة الحرة »

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتحا فقام اخلاف كاڤور وعقدوا محالفة مع بروسيا فاخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنساوية من ايطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الايطالي ان يدخل ظافراً الى رومية مقاتلاً جيش البابا الذي قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته امام هذا التيار العظيم وارادة الامة في نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فحصرت سلطة البابا بعد ذلك في دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية

ايطاليا بعد الوحدة

ها قد القينا نظرة مجملة على ماضي ايطاليا واصول مدنيتها وامجادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر · ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعاً في صورة ايطاليا الحديثة كما اثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية الا على تغيير قليل فيها · ونشأت مؤثرات اخرى نفعت في نهوضها كل النفع وهي سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الامم الاخرى وغير ذلك · وبعد انصرفت ايطاليا كل جهادها الماضي الى سنة ١٨٧٠ في تكوين الوحدة الايطالية والغاء امتيازات الاشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديمقراطية وجب عليها ان تنظم هذه القوة فاختارت القانون الاساسي الذي كان معمولاً به في اقليم البيمون مع بعض تعديل اخذته عن القانون الفرنساوي

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من اهل الطبقة الوسطى وابناء اشراف من الدرجة الثانية والاسرائيليين والماسونيين والبيمونتيين وكل من وجدوا مصلحتهم في

قيام هذه الوحدة ان يرعوها فلم يجدوا امامهم الا العامة يتقوون بهم فانشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعديهم فيها بوعود خلابة اقلها ان الجمهور يعيش بدون ان يعمل · وكل ذلك لمناهضة الاشراف ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الاشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديماً اما رجال الدين فاحتفظوا بمراكزهم وذلك لانهم يمثلون شيئاً لا يبرح حياً في نفوس الشعب ولان لهم قانون يضم شملهم ·

التفتت الحكومة بعد الوحدة الى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقوداً من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد اوائل الوحدة مئة الف نسمة فاصبح الآن خمسمائة الف جندي منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة الف جندي زمن الحرب يدخل فيهم البوليس · وكل ايطالي بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف في الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند باخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك ترى مجلس النواب الايطالي يمنح ميزانية الحربية وهي ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون ان ينظر فيها ثقة منه بانها تصرف في سبيلها على ابناء الامة · ومما يعمل لنفع الجند انهم انشأوا بالقرب من بعض الثكن في البلاد دروساً زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ما ينفعهم مع التعليم العسكري اذا رجعوا الى قراهم من العمليات الزراعية ·

اما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليوناً فيمكن ان يقال على الجملة ان ايطاليا لما تكونت لم يكن فيها اثر للقوة البحرية فاخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون في مدرسة ليفورنة يبدون كل اخلاص في تخريج الجند البحري

وهكذا تعمل ايطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك ان تجد موردا لامتها التي يكثر نسلها وتريد ان تجد لها مرتزقاً في الارض ولاسيما بعد ان طلبت بعض الحكومات التي تكثر مهاجرة الطليان الى ارضها ان يحمى العملة من غير الطليان الحماية الكافية التي تخولهم عدم منافسة العامل الايطالي · وان ايطاليا المضطرة بحكم الطبيعة ان تكون امة بحرية من الدرجة الاولى لان شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كيلو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة

80

وتناسل السكان والخوف من اغلاق ابواب اميركا ذات يوم في وجه المهاجر الايطالي دعا ايطاليا ان تفكر في فتح طرابلس وبرقة حيث يجد ابناؤها ولا سيما في الجنوب مناخاً يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من ارضهم ومساقط رؤوسهم ومما دعاهم الى الغارة على شمالي افريقية ذكرى ان اجدادهم الرومان فتحوا تلك البلاد واستعمروها ايام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك ٠

ربما كان الايطاليون من اكثر الامم الاوربية حباً بالهجرة وذلك لان بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعته ولانك لاتجد في ايطاليا طبقة وسطى على الاغلب فاما فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد في ارضه من الموارد الاقتصادية مايقوم بعيشه او غني كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق امام الطليان غير الهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ اي بعد الوحدة بقليل ٢١ مليوناً وهم اليوم ٣٥ مليوناً بحسب الاحصاء الاخير دع الطليان المتبثين في اقطار العالم ٠ وعدد من يسكنون في كل كيلو متر مربع ١٢٣ ساكناً اي اكثر من معدل السكان في المانيا وفرنسا ولا يفوق ايطاليا في كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الارض من الممالك الاوربية الاالبلجيك وانكلترا وبلاد القاع (هولاندة)

واكثر المهاجرين يهاجرون هجرة موقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل ان من المهاجرين من يقضون الشتاء في اميركا ويأتون في الصيف يحصدون ارضهم ويقطفون ثمرات اشجارهم ولولا النقد الذي يحمله اولئك المهاجرون من اميركا يضعونه في المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة ايطاليا الاقتصادية لان النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الامة ان تجري اكثر معاملاتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب الا نادراً ٠ وقد بلغ من هاجروا ايطاليا من ابنائها في الشهور التسعة الاولى من هذه السنة ٣٣٥،٢٢٥ مهاجراً ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن خمسمائة الف ومنهم من يهاجرون الى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبي فرنسا ومنهم الى اميركا

والعامل الايطالي قنوع للغاية يقتصد جانباً من اجرته ومنهم من يعودون برؤوس اموال الى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الايطالي يقبض دولاراً ونصفاً في الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتى اذا عاد الى قريته تحدثه نفسه ان يبتاع له ارضاً يبني فيها كنه ولذلك ارتفعت اسعار الاراضي في القرى اكثر من ارتفاعها في المدن الكبرى ولا سيما بعد ان انشئت جمعيات ومكاتب للمهاجرين ومنها

مااسسته الحكومة ومنها مااسسه الافراد لتسهيل المهاجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به · وليس لايطاليا من المستعمرات ماعدا طرابلس وبرقة غير الاريترة وبنادر والصومال الايطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وانكلترا · وايطاليا جاءت الى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت اوربا مغانم افريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها

احتاجت ايطاليا بعد وحدتها وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية الى موارد كثيرة فالتفتت فلم تراحسن مورداً من الزراعة وثلث الايطاليين يعملون بها في ارض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنوياً مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وارزاً واربعين مليون هكتولتر من الخمور وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار · دع اعمال الالبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التي تعد في جملة الزراعة ويبلغ مجموع قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد ادهشنامارأيناه من بدائعها في ضواحي فلورنسة وضواحي بولونيا وذلك لان اقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر امجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الالب الى طوسقانة فان ارضها حدائق غناء وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيراًبالامم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين اما سكان الجنوب ولا سيما في صقلية وساردنيا وغيرهما من الاقاليم الجنوبية فان المناخ مؤثر في اخلاق اهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم وسكان الجنوب اشبه بالامم الشرقية النازلة عَلَى شواطيء البحر المتوسط

وصناعة ايطاليا وتجارتها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠ — ٢١٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩ — ١٨٠٠٠ كيلو متر يضاف اليها خمسة آلاف كيلومتر من الترامويات والاتوبوس · وكانت الطرق العادية عَلَى عهد الوحدة ٤٨ الف كيلو متر فتجاوزت اليوم ١٤٠ الفاً وكان لايطاليا سنة ١٨٦٢ — ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠٠٢٢٨ طناًو ٩٣٥٦ سفينة شراعية تحمل ٦٤٣٩٩٦ فاصبح لهاسنة ١٩٠٨ — ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و ٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣٣٢٤ طناً وبلغ عدد السفن الايطالية التي خرجت ودخلت في المواني الطليانية ١٩٠٥٥٥ سنة ١٨٦١ فبلغت في سنة ١٩٠٩ — ٢٤٦٢٤٦ وكان اذ ذاك عدد الداخل والخارج الى المواني الطليانية من بواخر الاجانب ٢٣٨٣٦ فبلغ في العهد الاخير ١٧٤٣٤ واشتركت في ذلك جميع مواني ايطاليا وفي

مقدمتها جنوة ثم تجيء نابل وليفورنة والبندقية وبلرمة · وكان لايطاليا عام ١٨٦٠ — ٨٠٠٠ كيلو متر من الاسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ الف كيلومتر تضاف اليها الاسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع ما لها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشيء الذي يذكر في بعض اصقاع ايطاليا على عهد الوحدة فبلغ وارده في سنة ١٨٨٦ — ١٦ مليوناً وفي سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك

وكانت الصناعة ايام الوحدة غير موجودة الا في اقليم البيمون ولومبارديا فعمت الآن اقاليم ايطاليا كلها ولا سيما في الثلاثين سنة الاخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر في جميع ايطاليا فاصبح لها ٣٢ معملاً وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والاتوموبيلات ارتقاء هائلاً · ووجدت الكهربائية في ايطاليا محيطاً حسناً للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الانهار السريعة في جريتها ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة اجل خدمة وربما اوصلت الكهربائية الى مسافات متنائية ولا تسل عن معامل الاسلحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو في مقاطعة جنوة وغيره كثير · واذا ضم ما يرد ايطاليا من صناعتها الى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ ملياراً من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ·

ويستدل على الرفاهية والغنى مما يودعه الاهلون في صناديق التوفير فقد بلغ ما اودع في الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف اليها ما اودع في صناديق التوفير في البريد وهو ١٦٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس في المصارف وجمعيات التعاون مما يعد جزءاً عظيماً من ثروة الامة · وما كانت البيوت المالية تعرف في ايطاليا الا في اقليم البيمون قبل الوحدة الايطالية وقد كثر عددها اليوم وهي من الدرجة الاولى بين المصارف مثل بنك ايطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ما عدا اموالها الاحتياطية النقدية التي تبلغ ملياراً ونصفاً

وفي ايطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية وشركات تجارية مساهمة وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة · وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك في سنة ١٩١١ في قسم النفقات ومليارين وثلثمائة واربعة ملايين في قسم الواردات

اصيبت ايطاليا بازمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ اثرت في ماليتها كل التأثير فكان

شأن المضاربين على الاراضي للبناء في المدن الكبرى شأنهم في مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم الا قليلاً بسقوط اسعار تلك الاراضي وذلك لان بعض المدن الايطالية ارادت ان تجدد ابنيتها على الطرز الحديث فاخذت طائفة كبيرة من ابناء الاسرات القديمة ومنهم من يعتقد بان له الكفاءة في كل شيء يبتاعون من تلك الاراضي والابنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من ارباب رؤوس الاموال الصغيرة ومن المصارف و بسبب هذه الازمة عرض الوزير كريسبي الايطالي على البرنس بسمارك الالماني ان تكون المانيا وايطاليا يداً واحدة فاحست فرنسا بالامر من الغد فلم تر احسن من اخفاق مسعى ايطاليا واشغالها بقطع الموارد المالية عنها وكانت ايطاليا اذ ذاك لا تعتمد في اقتراضها وتجارتها الا على البيوت المالية والتجارية في باريز فاخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من ايطاليا و يشحون عليها بالمال فحدثت تلك الازمة التي منشأوها في الحقيقة من اناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشؤون المالية بالعمل

وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط ان هيأ آ الاسرائيليين ليعملا اعمالاً عظيمة في ايطاليا وللاسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح الا بالاختصاص . فانهم اخصوا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها وقد بقيت سلطة الاب على اولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة الاجتماعية التي قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية اتم مما هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة واعمالهم ناجحة اكثر مما عداهم لانهم يحسنون الانتفاع من القوى والاشياء اكثر من كل الطوائف ومنشأ ذلك كونهم كانوا مضطهدين فاحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون به . وهذه الصفات هي قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة في اسباب الحياة

وعلاوة على ما للاسرائيليين في ايطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادي قد كان لهم في المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها ما يشفع بها بما قاموا به من معاونة ايطاليا في وحدتها بالمال وما ابدوه من الصفات الحسنة التي ابانوا عنها في تقلدهم ادارة المسائل العامة وطالما كان منهم رؤساء الوزارة والولاة فاظهروا من البراعة في الامور السياسية ما يحق لهم ان يفاخروا به بل ان حاكم رومية نفسها هو اليوم اسرائيلي وكذلك اكثر الولايات التسع والستين الايطالية فان ولاتها من ابناء اسرائيل لا يأتون ما يمس عواطف الاكثرية من الكاثوليك بل كثيراً ما كان نوابهم ووزراؤهم في جانب

المحافظين اذا اريد وضع قوانين واحداث امور جديدة من شأنها اثارة الرأي العام مما دل ان الاسرائيلي في ايطاليا خلافاً لما هو عليه في سائر الممالك ايطالي اولاً ثم اسرائيلي وفي غير هذه الديار اسرائيلي قبل كل شيء وفي المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى ·

ايطاليا وعلومها وفنونها

كان علينا وقد وصل بنا البحث الى هذا الحد ان نتكلم على ما امتازت به ايطاليا من دون سائر بلاد اوربا من التفنن في الفنون الجميلة والتبريز في مضمارها على جميع امم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج الى فصول كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع اذواق اكثر القراء · ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية في العهد الاخير وكيف ارتقت حتى عم اهل القرى اثرها

يعتبر تاريخ اللغة الايطالية الحديثة منذ عهد دانتي الشاعر فانها بعده لم يعد ينقصها شيء من الالفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فاصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافي لا تعرف ،اعند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الالفاظ الحديثة في حين ظلت الايطالية الادبية جامدة تقرأ في المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية اي كأنها لغة ميتة لا حية · ودام الحال على ذلك الى قبل خمسين سنة و بفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التي تقضي بتنقل الجند في البلاد اخذت الايطالية الحديثة تفهم في كل مكان و بقيت اللهجات التي تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفي بمطالب الفكر الحديث واصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة ايطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون ·

في ايطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم اهل هذه لهجة اولئك وافصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت الى رومية · ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيراً وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا واهم اللهجات الايطالية اللهجة البيمونتية واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والكالابرية والصقلية والساردينية

وتعدد اللهجات مما عمت به البلوى لا في اللغة العربية فقط بل في لغات اوربا التي يسعى اهل العلم والسياسة الى توحيدها منذ زمن طويل فمن ذلك ان في سويسرا ثماني لهجات المانية لا يتفاهم اهلها بعضهم مع بعض بها بل ان اهالي المانيا لا يفهمون

لهجات سويسرا مثل اهالي بافيرا وورتمبرغ وهيس وهكذا الحال في فرنسا وغيرها من البلاد التي يظهر ان لها لغة واحدة والحال انها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناءون لغة بعضهم بعضاً

اقتضت وحدة الروح الايطالية ان يكون لايطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب في اوائل القرن التاسع عشر امثال مانزوني وبلليكو وكاردوشي فافادوا على اختلاف في طرق الاداء في بث اللغة الصحيحة في الشعب . ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا في الآفاق دانونسيو وباسكولي وفوكازارودي سانكتيس وفريرو ومن النساء اللاتي نافسن الرجال في صناعة الادب سيرارو واوساني ودللدا ومنهن من تفردن في القصص التمثيلية واخريات في القصص الروائية وغيرهن في الصحافة

كان من توفر اسباب الرفاهية في الشعب الايطالي ان اخذ عدد المختلفين الى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الاميين سنة عن اخرى ان كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لان التمثيل كالصحافة اذا اراد القائمون بها ان يفهموا وجب عليهم ان يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة واذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الاقاليم اقتضى لها ان تعدل من لهجتها في كل محل بحيث تتناولها الاذهان على ايسر سبيل . وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الامم الراقية كالفرنسيس والالمان

اما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك في الصورة والشكل وكل يوم تزيد العناية فيها بالاخبار المنوعة المؤثرة ونقل مادتها من الانتقاد الجدي والموضوعات الادبية . فالصحافيون هنا مثل غيرهم في البلاد الاخرى يبيعون من الجمهور ماينفق عليه ويروج عنده . وليس للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية واعظم صحف ايطاليا واهمها جريدة « كوريره دلاسيرا » اي بريد المساء وهي تصدر في ميلانو من عواصم العلم القديمة او العاصمة الادبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة « التريبونا » اي المنبر وهي نصف رسمية ثم « جورنال ديتاليا » اي جريدة ايطاليا وهاتان تصدران في رومية . ومن خيرة جرائدهم جريدة « ايديا ناسيونالي » اي الفكر الوطني وهي تمثل الفكرة الوطنية الايطالية يريد بها اصحابها ان يبطلوا او يقللوا على

الاقل كل ما يمزق كلمة مواطنيهم وان يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن · وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة في كل مكان على توحيد الفكر واللغة

كان السبب الرئيسي في كل ماتقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الايطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وهاهي الآن تنفق مئة مليون (١) لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا في البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة مع المدارس المتنوعة التي اسستها الجمعيات الدينية او الافراد وزاد عدد الطلاب ضعفي ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ في السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين ومع هذا فايطاليا من اكثر البلاد الاوربية اميين — بعد روسيا — ولا سيما في القرى وان كان التعليم الابتدائي اجبارياً الا انه لا يعمل به كثيراً وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بان المدارس لا تعلم التعليم الديني الا لولد يطلب ابوه ذلك والآباء قلما يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الديني يضمحل من مدارس ايطاليا · وقد تعطي الحكومة احياناً اعانات لمدارس الاخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله صفوف عالية وله الحق بان يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس مايديره اليسوعيون وان الغيت مدارسهم في ايطاليا منذ زمن طويل · ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة اجمالاً لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة

(١) بعد كتابة ماتقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الايطالي وقد جاء فيه ان ايطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الاجباري في البلاد وقد بلغت الحركة الدولية في المقايضات خلال الاحدعشر شهراً من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليوناً اي بزيادة ٤٤ مليوناً عن مثلها من السنة التي قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليوناً وزادت الصادرات ٩٢ مليوناً وزادت السفن التجارية الداخلة الى موانئ ايطاليا فكانت ١٦٤ الفاً كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠ — ١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين في ايطاليا مئة الف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد فبلغ ٣٢٥ مليوناً وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديدية وكثر الانفاق على المصارف واعمال الري والاسباب الصحية كثيراً والحكومة الايطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون ان تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة في الامور المالية

يقسم التعليم الاوسط في ايطاليا الى فرعين مختلفين · الفرع المدرسي وهي دروس المدارس المعروفة بالجمناز والليسه والتعليم العملي وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الاولى على عهد الوحدة ١٢ الفاً فاصبحت في السنة الماضية ٤٤ الفاً والدروس العملية التي يتخرج فيها الشبان الذين يتمحضون لفروع الصناعات الكثيرة قد بلغوا سنة ١٩١١ — ١٠٠،٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة اكثر من ٦٠٠٠ وفي الفرع المدرسي تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفي الفرع العملي تعلم اللغات الحية اما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين الفاً ويؤكد بعضهم ان المدارس التي يعلم فيها الرهبان والقسيسون اكثر نجاحاً من التي يعلم فيها العلمانيون لان فتيان القسس ممتازون بانكار الذات والتشبع بالروح الدينية اكثر من غيرهم من الاساتذة

اما التعليم العالي فان لايطاليا منه سبع عشرة كلية تتنافس فيها بلاد الاقاليم ولكن معظم هذه الكليات لاتخرج رجال عمل بل اكثرهم خياليون من ارباب النظر ويضاف الى هذه الكليات المجامع العلمية العالية الكثيرة لدرس الآداب والعلوم في كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال · والمدارس العليا على كثرة ماتستلزمه من النفقات لاتتناول من مال الامة اكثر من اربعة ملايين فرنك مسانهة مما يستبان منه ان الحكومة توفر العناية بالتعليم الاوسط والابتدائي اكثر مما عداهما · وعدد تلامذة الكليات والمجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين الفاً وكان طلاب المدارس العليا في القرن التاسع عشر يصرفون اوقاتهم في الاعمال الوطنية اكثر من العلم اما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فانهم اخذوا ينصرفون الى ابحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ماالحرزته المانيا وانكلترا وفرنسا في مضمار العلوم والآداب ·

هذا اجمال ما يقال في التعليم اما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء ايطاليا أسوة غيرهم من امم الحضارة الحديثة فقد اكتشف باسي طبيعة الامراض الميكروبية وهي النظرية التي خلصت الجراحة والمداواة من الاوهام التي كانت تعوقها · وكذلك كان شأنها في الكهربائية وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير ارسال الحرارة والنور والاعمال الكيماوية والميكانيكية الى ابعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشنتوفي وماركوني مخترع التلغراف اللاسلكي وغيرهم من الذين شاركوا في الاعمال العلمية فاختلط الامر واصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفي العلماء في

84

اميركا وانكلترا والمانيا وفرنسا والنمسا والبلجيك وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من ممالك المدنية

والنجاح كما قال الامير جيوفاني بورغزة في كتابه ايطاليا (١) الحديثة وعليه اعتمدنا في بعض ما تقدم في هذا البحث اعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للكائنات العليا ان تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها واعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الاعمال الشريفة التي يخولهم اياها مظهرهم · ومن الخطإ العظيم في عصرنا ان تجعل قيمة شعب على نسبة ما احرز من الارتقاء العقلي · ان التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفي الكتابة والقراءة معنى جديد يجعل بيننا و بين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة والتربية الاخلاقية من اخرى لا يتولد منه انشاء رجال تامة ادواتهم في الجملة لتنشأ على ايديهم عظمة مملكة

واذا نظرنا الى ارتقاء ايطاليا نراها دخلت في ثلاثة ادوار هي ادوار النشوء الشخصي فالدور الاول الدور المادي والثاني النفسي والثالث العلمي وكان بدء الدور الاول على اوائل تأسيس رومية وفي سنة ٧٠٠ قبل المسيح اي بعد سبعة قرون كان عصر اغسطس وهو عصر مجدها و بعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية الى القسطنطينية تراجع امر الدور المادي والدور النفسي او الروحي هو دور ظهور النصرانية التي توفر الامبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذلك العهد حتى تنصرت اوربا وتم عمل الدين الى اواخر القرن العاشر للميلاد · وفي الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التي اريد بها تحرير العقل الانساني من قيوده · والدور الثالث هو الذي نحن فيه والقرن الاخير كان ارقى ايامه و به ظهرت ايطاليا في مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعتها سائر الاشياء ولا تستقيم حياة امة بدون ان تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والاخذ بالاساليب التي اتخذها السابقون في مضمار التحضر ·

ومن انعم النظر في هذه النبذة يدرك ان كل نهضة غير متعذره وان امماً بلغت من الشقاء مبلغاً كبيراً وتيسر لها بقوة الارادة واخلاص المستنيرين من الوطنيين ان تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعاً يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى ايطاليا امس

(١) Prince Giovanni Borghèse. L'Italie Moderne

يجوس النمساويون او الفرنسيس خلال ديارها ويستعبدون ابناءها ويرى الطليان اليوم وقد الفوا مجموعاً حياً ودولة قوية وهم في حكومتهم الملكية اكثر حرية من الفرنسيس في حكومتهم الجمهورية على رأي بعضهم — من رأى ذلك لا يقول بان في العالم شيئاً مستحيلاً . وان قوة العقل والثبات على العمل تفعلان اكثر من كل قوة في الارض

في ايطاليا الحديثة عيوب كما في سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي في بلادها ان يدركه ولا يحل له ان يخط فيه حرفاً لانه لا يرى الا الظواهر خصوصاً مع عدم معرفته لغة البلاد فانه يبقى كالاصم الاخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد في معرفة اقدار امة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل ونقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر الا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمناً طويلاً في اصقاعهم المختلفة وحكم العقل والانصاف فيما يكتب بعد درس الاخلاق والعادات والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الاخرى

وغاية ما يستطيع المفكر ان يقول به اذا رأى ايطاليا ان بينها وبين الشرق القريب من الفروق اكثر مما بين مصر او الشام والسنيغال او بلاد نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظاماً وقانوناً من خرج عنه ضل وما اهتدى ويجد نشاط الافراد على اتمه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقي يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة اوفر مما يناقضها بدرجات السرور تقرأوه في الوجوه والبسطة في الغنى والرفاهية تشهده على الاكثر في سكان الاقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الاصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعادياته وآثاره وذاك بحدائقه وانهاره وهذا بتجارته وذاك بصناعته وآخر بزراعته وغيره بسكونه وآخر بحركته

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد . فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانه وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتي وبترارك وبوكاس وغاليلة وميكل آنجلو وليونار دي فنسي وبنفانوتو وسيليني واندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان في الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لاسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فان جمهوريات طوسقانة بينما كانت في القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية في الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأمر الكبرى والذهاب في الجدالات المذهبية مذاهب . ولذلك

كان المجد كله في النهضة (La Renaissance) لمدينة فلورنسة التي هي اليوم احدى الولايات الايطالية

هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال في المدن الساحلية فانك تجد مثلاً للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها مما يستدعي الغريب ويستهويه لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التي لا تدخل في عدّ لكثرتها وقد اتخذت الحكومة الجديدة انواع الراحة لجلب انظار سياح الارض لغشيان بلادها وفي ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة ايطاليا لاحست بفقر شديد وذلك لما يبذره اولئك السياح من الاموال في جميع فروع الانفاق · ولها امثال في تاريخ ايطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف في تجارتها عن طريق البر التي كانت عمل هاته الجمهوريات حتى اذا قام الاصلاح الديني في اوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل الى ايطاليا من الاموال بالطبيعة فافتقرت

ان كل كنيسة من كنائس ايطاليا حرية بان يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لي من الدهشة عند ما رأيت كنيسة « الدوم » في فلورنسة مثل ما وقع لي من الدهشة عندما زرت كنيسة القديس بطرس (١) في رومية مقر البابوية ومهوى افئدة البابويين في الارض ولكل مكان ميزته

امتازت رومية بكثرة كنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وانصابها في كل جادة وساحة مما يستهوي الغريب و يستدعي دهشته كما امتازت جنوة بمقبرتها لتفنن الجنوبين منذ القديم بتصوير الاموات على الرخام وهم بين اهلهم او في آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما ان اكثر الابنية هي الآن في ايطاليا ست طبقات

ويضيق المقام لو اردت فقط الالماع الى ما في رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فانها خصت بكل انواع الملاحة والراحة وهي مجمع الحسان الرومانيات كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع نظرك عليه في هذه المدينة الازلية صاحبة المدنيتين الرومانية والنصرانية تقرأ فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح الا قليلاً

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذي اقام قبتها العظمى

دخلت مرة مع احد اخواني من مستشرقي الطليان (٢) لازور كنيسة البانتيون فدهشت لما رأيت واليك البيان : كنيسة البانتيون هي الكنيسة الوحيدة الباقية من عهد رومية القديمة بنيت معبداً في سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم النصرانية في رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ في مجلس الشيوخ في القرن الثامن للميلاد من جملة ما ينبغي له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون . وكان يدفن بها بعض قديسيهم واعاظم رجال الدين عندهم وما راعني الا وقد رأيت الى جانب اضرحة رافايل (المصور النقاش المهندس المتوفى سنة ١٥٢٠) والمصور انيبال كاراشي (المتوفى سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثاني المدعو ابو الوطن — لانه قام بالوحدة الايطالية وخلف لذريته من بعده التاج الايطالي بعد ان كانت اسرته لا تحكم على غير اقليم البيمون فقط — وضريح ابنه همبرت الاول والد الملك الحالي الذي اغتيل سنة ١٩٠٠

نعم اعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون في مقام التكريم الى جنب القديسين والشهداء وهذا في تلك القرون التي كنا نظن فيها اوربا متوحشه وراقني ان يجيء ملوك ايطاليا اليوم ويحبون ان يدفنوا الى جنب اولئك الصناع النوابغ . ان لحد المهندس والمصور في اقدم كنيسة بل اهمها بعد كنيسة القديس بطرس والقديس بولس هو اكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد ملكين عظيمين الى جنبهم هو ايضاً مما يدل على روح التسامح الحديث وعلى ان رافايل المصور ليس في مكانته في خدمة امته اقل من فيكتور عمانويل الثاني . فان كانت باريز قد اقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء في العلم والسياسة في اوائل القرن الماضي فان رومية تفاخر بانها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ زهاء اربعة قرون . بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفنيلون وكوفية وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابوليون واضرابهم وبانتيون رومية يحوي امثالهم من رجال الطليان . فمتى يا ترى يقوم في الشرق القريب اعاظم من ابناء هذه الاجيال الحديثة يكونون في عقولهم واعمالهم على مستوى اولئك الابطال لتقوم بهم مدنيتنا على احسن الدعائم كما قامت مدنية الطليان في هذه الازمان

(٢) المشتغلون بالمشرقيات في ايطاليا قلائل وسيكثر عددهم بعد استعمار ليبياومن كبرائهم اغناس كويدي وسيكا پارللي ونالينو وسانتيللانا في رومية وغريفيني في ميلانو وبيتي في تورينو وبونانتزيا في نابل وترومبتي في بولونيا وممن عرفتهم من الشبان غابريالي وميكل آنجلو كويدي وليڤي دللافيدا

صبح الاعشى للقلقشندي

الكتب كالاشخاص فيها النافع وفيها الضار وفيها مالا يضر ولا ينفع والنافع قليل على كل حال . ولو تهيأ لمصر منذ طبع اول كتاب عربي في رومة في العقد الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد رجال يعرفون من اين تؤكل الكتف في العلم لطبعوا حتى الآن جميع ما عرف للسلف من الكتب الممتعة ولكان ما طبع في ديار الغرب من نوادر الاسفار العربية متمماً لما طبع في مصر كهف العرب والعربية ولكن مصر لم تنتبه لهذا الامر الا على عهد محمد علي فطبعت في المطبعة الاميرية بعض النوادر وكثرت المطابع في مصر وفي غير مصر فطبع الاجود والجيد والتافه ومجموع ما طبع حتى الآن لا يبلغ نصف ماخلفه السلف من تركتهم الثمينة وبعثره الجهل والخمول او افنته حوادث الايام والليالي .

وآخر ما أُحيي بالطبع من ذخائر العلم كتاب « صبح الاعشى في كتابة الانشا » طبعته دار الكتب الخديوية بالقاهرة في المطبعة الاميرية واخرجت للناس منه الجزئين الاولين وكانت منذ بضع سنين طبعت الجزء الاول منه فاعادت طبعه في المطبعة الاميرية ايضاً لتتمه بحرف طريف ظريف وهو مقصد جميل يضاف لما لهذه الدار من المقاصد الحسنة في نشر الكتب النادرة على نفقتها خصوصاً ماله علاقة بمصر مثل تاريخ مصر لابن اياس والانتصار لابن دقماق في وصف مصر وتاريخ الفيوم وبلاده لابي عثمان النابلسي والتحفة السنية لابن جيعان وغير ذلك مما دل على حسن اختيار وفضل علم وارادة عموم النفع .

وكتاب صبح الاعشى للقلقشندي هذا سيكون في بضعة اجزاء وقد وقع الجزآن الاولان منه في نحو الف صفحة والقلقشندي نسبة لقلقشندة (بفتح فسكون) قال الزبيدي : قد تبدل اللام زاء وهو المشهور بلدة بمصر من اعمال قليوب وفيها ولد الامام الليث بن سعد رضي الله عنه وخرج منها اكابر العلماء والمحدثين منهم العشرة من اصحاب الحافظ ابن حجر وهذه القرية قد وردت عليها مرات ويتولاها امراء الحاج قال ابن خلكان وهي على ثلاثة فراسخ من القاهرة وهي بلدة حسنة المنظر كثيرة البساتين غزيرة الفواكه

هذه القرية هي مسقط رأس مؤلفنا كما قال السخاوي في الضوء اللامع وهو « احمد بن علي بن احمد بن عبدالله الشهاب ابن الجمال ابي اليمن الفزاري

القلقشندي ثم القاهري الشافعي والد النجم ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة واشتغل بالفقه وغيره وسمع على ابن الشيخة ومن في وقته وكان احد الفضلاء وممن برع في الفقه والادب وكتب في الانشاء وناب في الحكم وشرح قطعاً من جامع المختصرات بل شرع في نظمه وعمل صبح الاعشى في قوانين الانشا في اربع مجلدات جمع فيه فاوعى وكان يستحضر اكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوي وكتاباً في انساب العرب (طبع في بغداد موخراً) وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض مع تواضع ومروءة وخيرات في يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وله خمس وستون سنة ذكره شيخنا في معجمه وانبائه والمقريزي والعيني وآخرون وسمى العيني والمقريزي والده عبدالله وهو وهم وقال آخر انه برع في العربية وعرف الفرائض وشارك في الفقه وسمع الحديث ونظم ونثر وارخ اه »

هذا ماقاله السخاوي وانت ترى ان هذه الترجمة المختصرة ادنى الى ان تكون ترجمة فقيه ذكي في الجملة لا ترجمة علامة من جملة كتبه هذا الكتاب صبح الاعشى الذي هو دائرة معارف كبرى حوت اكثر ماعرف من العلوم ذاك الزمن مما فيه فائدة للمنشيء الذي يريد ان ينشيء عن علم وفهم . ومن غريب امر المترجم به ان معظم اجداده واولاده كانوا علماء اجلاء وقريته قلقشندة اخرجت رجالاً عظاماً وهو عربي صرف من اصله . قال في كلامه على بني بدر و بني عمهم بني مازن وان منهم جماعة بالقليوبية من الديار المصرية : وبنو بدر هم قبلتنا التي اليها نعتزي وفيها ننتسب واهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني مازن

اليك طرفاً من حال المؤلف اما تأليفه فكما قال عنه مبسوط يشتمل على اصول كتابة الانشاء وقواعدها و يتكفل بحل رموزها وذكر شواهدها مستوعباً من المصطلح مااشتمل عليه « التعريف » « والتثقيف » موضحاً لما ابهماه بتبيين الامثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف متبرعاً بامور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها متنقلاً من توجيه المقاصد وتبيين الشواهد بما يعرف به فرع كل قضية واصلها آتياً من معالم الكتابة بكل معنى غريب نائلاً الناظر في هذا المصنف عن رتبة ان يسأل فلا يجاب الى رتبة ان يسأل فيجيب منبهاً على مايحتاج اليه الكاتب من الفنون التي يخرج بمعرفتها عن عهدة الكتابة ودركها ذاكراً من احوال الممالك المكاتبة عن هذه المملكة مايعرف به قدر كل مملكة وملكها مبيناً جهة قاعدتها معرفاً الطريق الموصل

اليها براً وبحراً وانقطاعًا واتصالاً ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها اكمالاً للتعريف ضابطًا لاسمائها بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف ·

اما ابواب الكتاب فكثيرة ترجع كلها الى مقدمة وعشر مقالات وهي في فضل الكتابة ومدح فضلاء اهلها وذم حمقاهم وذكر مدلول الكتابة وتفضيل كتابة الانشاء على سائر انواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الانشاء واصل وضعه في الاسلام وتفرقه بعد ذلك في الممالك وقوانين ديوان الانشاء وترتيب احواله وآداب اهله والمقالة الاولى في الامور العلمية التي يحتاج اليها الكاتب وفي الامور العملية من الخط وتوابعه · الثانية في المسالك والممالك والخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم في القديم وما انطوت عليه ممالكهم من الاقطار والديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها والممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الاربع · الثالثة في ذكر امور تشترك فيها انواع المكاتبات والولايات وغيرهما من ذكر الاسماء والكنى والالقاب وكيفية تعيين صاحب ديوان الانشاء القصص والمربعات ونحوها على كتاب الانشاء ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الاقلام ومقادير البياض في اول الدرج وحاشيته وبعد ما بين السطور في الكتابات وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الانشاء من المكاتبات والولايات وغيرها وكتابة الملخصات وبيان الفواتح والخواتم · الرابعة في امور كلية تتعلق بالمكاتبات مثل مصطلح المكاتبات الدائرة بين كتاب الاسلام في كل زمن من الصدر الاول الى زمن المؤلف · الخامسة في الولايات وكيف يكتب لكل منها والبيعات والعهود والولايات الصادرة عن الخلفاء لارباب المناصب من اصحاب السيوف والاقلام وغيرهم · السادسة في الوصايا الدينية والمسامحات والاطلاقات والطرخانيات وتحويل السنين والتذاكر · السابعة في الاقطاعات والمقاطعات · الثامنة في الايمان · التاسعة في عقود الصلح والفسوخ · العاشرة في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها

وفي كل مقالة من هذه المقالات العشر ابواب كلها منسقة احسن تنسيق مثل مؤلفي الفرنسيس في مصنفاتهم لعهدنا مع وفرة مادة الالمان في تآليفهم وتمحيصها وانه اذا وقع للمؤلف شيء قليل في كل مئات من الصفحات مما لا ينطبق مع ذوق العصر الحاضر

او يخالف اصول العلم الحديث فالذنب في ذلك لاعلى المصنف بل على عصره الذي كتب ارقى ماعهد فيه ومحصه تمحيص عاقل حكيم

وهاك انموذجات من الكتاب الاول : من كان فرداً في زمانه بحيث يضرب به المثل في امثاله : كان الاسكندر في طوفان الارض وكسرى انو شروان في العدل وزرقاء اليمامة في حدة النظر وحاتم الطائي في الكرم وكعب بن مامة في الايثار وارسطاطاليس في الحكمة و بقراط في الطب وقس بن ساعدة في الفصاحة وسحبان وائل في البلاغة وعمرو بن الاهتم في البيان وباقل في العي وابو بكر الصديق رضي الله عنه في معرفة الانساب وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوة الهيبة وعثمان بن عفان رضي الله عنه في التلاوة وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه في القضاء ومعاوية في كثرة الاحتمال وابو عبيدة بن الجراح في الامانة وابو ذر في صدق اللهجة وابي بن كعب في القرآن وزيد بن ثابت في الفرائض وابن عباس في تفسير القرآن وعمرو بن العاص في الدهاء وابو موسى الاشعري في سلامة الباطن والحسن البصري في الوعظ والتذكير ووهب بن منبه في القصص وابن سيرين في تعبير الرؤيا ونافع في القراءة وابو حنيفة في القياس في الفقه وابن اسحاق في المغازي ومقاتل في التأويل والكلبي في قصص القرآن وابن الكلبي الصغير في النسب وابو الحسن المدائني في الاخبار ومحمد بن جرير الطبري في علوم الاثر والخليل بن احمد في العروض وفضيل بن عياض في العبادة ومالك بن انس في العلم والشافعي في فقه الحديث وابو عبيدة في الغريب وعلي بن المديني في علل الحديث ويحيى بن معين في رجال الحديث واحمد بن حنبل في السنة والبخاري في نقد الصحيح والجنيد في التصوف ومحمد بن نصر المروزي في الاختلاف وابو علي الجبائي في الاعتزال وابو الحسن الاشعري في علم الكلام وابو القاسم الطبراني في عوالي الحديث وعبد الرزاق في ارتحال الناس اليه وابن مندة في سعة الرحلة وابو بكر الخطيب في سرعة القراءة وابن حزم في مذهب الظاهر وسيبويه في النحو وابو الحسن البكري السيرى في الكذب واياس بن معاوية في الذكاء والتفرس وعبد الحميد في الكتابة والوفاء وابو مسلم الخراساني في علو الهمة والحزم واسحاق الموصلي النديم في الغناء وابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني في المحاضرة وابو معشر في النجوم والرازي في الطب وعمار بن حمزة في التيه والفضل بن يحيى في الجود وجعفر بن يحيى في التوقيع وابن زيدون في سعة العبارة وابن القرية في البلاغة والجاحظ في الادب والبيان والحريري في المقامات

والبديع الهمداني في الحفظ وابو نواس في المجون والخلاعة وابن حجاج الشاعر في سخف الالفاظ والمتنبي في الحكم والامثال شعراً والزمخشري في تعاطي العربية والنسفي في الجدل وجرير الشاعر في الهجاء الخبيث وحماد الراوية في شعر العرب والاحنف ابن قيس في الحلم والمأمون في حب العفو والوليد في شرب الخمر وعطاء السلمي في الخوف من الله تعالى وابن البواب في الكتابة والقاضي الفاضل في الترسل والعماد الكاتب في الجناس واشعب في الطمع وابو نصر الفارابي في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره وحنين بن اسحاق في ترجمة اليوناني الى العربي وابن سينا في الفلسفة وعلوم الاوائل والامام فخر الدين الرازي في الاطلاع على العلوم والجاحظ في سعة العبارة والسيف الآمدي في التحقيق والنصير الطوسي في معرفة المجسطي وابن الهيثم في الرياضي ونجم الدين الكاتبي في المنطق وابن الاعرابي في الاطلاع عَلَى اللغة وابو العيناء في الاجوبة المسكتة ومزيد في البخل والقاضي احمد بن ابي دؤاد في المروءة وحسن التقاضي وابن المعتز في التشبيه وابن الرومي في التطير والصولي في الشطرنج والغزالي في الجمع بين المعقول والمنقول وابو الوليد بن رشد في تلخيص كتب الاقدمين الفلسفية والطبية ومحي الدين بن عربي في علوم التصوف وجابر بن حيان في علم الكيمياء .

وقال من فصل في الحمام : « ثم هو على قسمين احدهما ما ليس له اهتداء في الطيران من المسافة البعيدة والثاني ما له اهتداء ويعرف بالحمام الهدي وهو المراد هنا وقد اعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث واهتم بامره الخلفاء كالمهدي ثالث خلفاء بني العباس والواثق والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق لا سيما بالبصرة فقد ذكر صاحب « الروض المعطار » انهم تنافسوا في اقتنائه ولهجوا بذكره وبالغوا في اثمانه حتى بلغ ثمن الفاره منها سبعمائة دينار ويقال انه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية الف دينار وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً وانه كان عندهم دفاتر بانساب الحمام كانساب العرب وانه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والاخبار عنها والوصف لاثرها والنعت لمشهورها حتى وجه اهل البصرة الى بكار بن قتيبة البكراني قاضي مصر وكان في فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض بحمامات لهم ثقات وكتبوا اليه يسألونه ان يتولى ارسالها بنفسه وكان الحمام عندهم متجراً من المتاجر لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله «في التعريف» ان الحمام اول ما نشأ — يعني في

الديار المصرية والبلاد الشامية — من الموصل وان اول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى افردوا له ديواناً وجرائد بانساب الحمام وقد اعتنى بعض المصنفين بامره حتى صنف فيه ابو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي كتاباً للناصر لدين الله العباسي ذكر فيه اسماء اعضاء الطائر ورياشه والوشوم التي توشم في كل عضو والوان الطيور وما يستحسن من صفاتها وكيفية افراخها وبعض المسافات التي ارسلت منها وذكر شيئ من نوادرها وحكاياتها وما يجري مجرى ذلك . وذكر في « التعريف » ان القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيه كتاباً سماه « تمائم الحمائم »

وقال في مسافة الطيران : ذكر ابن سعيد في كتابه « جنى المحل وجني النحل » ان العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس انه ما رأى القراصية البعلبكية وانه يحب ان يراها وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من الشام فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق ان يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية وترسل ففعل ذلك فلم يمض النهار الا وعنده قدر كثير من القراصية فطلع بها الى العزيز من يومه وذكر ايضاً في كتابه « المغرب في اخبار المغرب » ان الوزير اليازوري المغربي وزير المستنصر الفاطمي وجه الحمام من مدينة تونس من افريقية من بلاد المغرب الى مصر فجاء الى مصر وذكر ابو الحسن القواس في كتابه في الحمام ان حماماً طار من عبادان الى الكوفة وان حماماً طار من الترناوذ الى الابلة ونحو ذلك ..»

وذكر في جملة ماذكره في تجويد الانشاء خلو الفكر عن المشوش وصفاء الزمان وقال في هذا : (١) قال ابو تمام الطائي في وصيته لابي عبادة البحتري مرشداً له للوقت المناسب لذلك : تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة في الاوقات اذا قصد الانسان تأليف شيء او حفظه ان يختار وقت السحر فان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء وصفا الدماغ من اكثر الابخرة والادخنة وسكنت الغماغم ورقت النسائم وتغنت الحمائم . وخالف ابن ابي الاصبع في اختيار وقت السحر وجنح الى اختيار وسط الليل اخذاً من قول ابي تمام في قصيدته البائية :

(١) راجع مبحث تهذيب الكلام المقتبس م٣ ص ٤٤٤

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسود رقعة الجلباب

مفسراً للدجى بوسط الليل محتجاً لذلك بانه حينئذ تكون النفس قد اخذت حظها من الراحة ونالت قسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء فيكون الذهن حينئذ صحيحاً والصدر منشرحاً والبدن نشيطاً والقلب ساكناً بخلاف وقت السحر فانه وان كان فيه يرق النسيم وينهضم الغذاء الا انه يكون قد انتبه فيه اكثر الحيوانات الناطق وغيره ويرتفع معظم الاصوات ويجري الكثير من الحركات وينقشع بعض الظلماء بطلائع اوائل الضوء وربما انهضم عن بعض الناس الغذاء فتحركت الشهوة لاخلاف ما انهضم منه وخرج من فضلاته فكان ذلك داعياً الى شغل الخاطر وباعثاً على انصراف الهم الى تدبير الحدث الحاضر فيتقسم الفكر ويتذبذب القلب ويتفرق جميع الهم بخلاف وسط الليل فانه خال من جميع ذلك ٠

وقال في صفاء المكان : وذلك بان يكون المكان الذي هو فيه خالياً من الاصوات عارياً عن المخوفات والمهولات والطوارق وان يكون مع ذلك مكاناً رائقاً معجباً رقيق الحواشي فسيح الارجاء بسيط الرحاب غير غم ولا كدر فان انضم الى ذلك ما فيه بسط للخاطر من ماء وخضرة واشجار وازهار وطيب رائحة كان ابسط للفكر وانجح للخاطر ٠ وقد ذهب بعضهم الى انه ينبغي خلو المكان من النقوش الغريبة والمرائي المعجبة فانها وان كانت مما ينشط الخاطر فان فيها شغلاً للناظر فيتبعه القلب فيشتت اه٠

ويطول بنا الكلام اذا اردنا ان نقتبس فصولاً من الكتاب لبيان مزيته بين الاسفار الرائقة وقد دل تجويد المؤلف لتأليفه على مبلغه من العلم ووفرة ما كان لديه من كتب الامهات في اوائل القرن التاسع للهجرة في زمن نسميه دور الفتور ولكن مصر لم تخل في عامة ادوارها ايام بؤسها كايام نعيمها من اجلاء حكماء تنبتهم تربة النيل وقد لا يشتهرون الا بعد مماتهم لاتساع القطر او للحسد المأثور عن بعض العلماء احدهم للآخر ولكن العالم الحقيقي تظهر حسناته ولو بعد قرون وكم من مؤلف صنف المئة والمئتين من المجلدات فلم يكتب لها البقاء لانها غير نافعة وفي غيرها عنها كفاية وكم من مؤلف مثل القلقشندي رزق الحظوة في جميع ما كتب كما وقع للمقريزي وياقوت والجاحظ والغزالي والماوردي وابن قتيبة والراغب والمجيدون في تواليفهم من المتأخرين قلائل على كل حال

بقي ان نسدي اطيب الثناء على عمدة دار الكتب الخديوية لتعهدها العلم الحين بعد الآخر باحياء مثل هذه المصنفات التي قد يغني الكتاب منها عن خزانة كتب ويفيد في

بث العلم في الدانية والقاصية ما لا تقوم به الخطب والمحاضرات والمقالات المقصورة على زمان معين وفئة معينة وبلد معين من الارض ونخص بالشكر مديرها ووكيلها وقد احسن الطابعون بجعل فواصل بين الفصول والابواب وانهاء السطر حيث تنتهي الجملة او القطعة ووضع ادوات الفصل الجديدة المعروفة في اللغات الافرنجية وان كانت اداة التعجب لم تجعل بعض الاحيان في اماكنها اما اغلاط الطبع فاندر في هذين الجزئين من الكبريت الاحمر . ورجاؤنا ان تزيد العناية في الاجزاء التالية ويشفع آخر الكتاب بفهرس مستوفى مثل فهرس تاريخ مصر لابن اياس طبع دار الكتب الخديوية اواكثر توسعاً منه حتى نباهي بان مصر فاقت اوربا بمطبوعاتها العربية و يكون لنا هذا القليل الممتع من امهات الكتب العلمية الذي جوّد الطابعون طبعه ووضعه خير عزاء لما يصدر كل اسبوع من مطابع مصر التجارية ونخجل منه امام انفسنا دع غيرنا من علماء الامم الراقية حتى لقد قلت ثقة علماء المشرقيات بمطبوعاتنا اللهم الا النادر الفذ ولم يعولوا في مصنفاتهم ونقولهم الا على ما طبع منها في بلاد الغرب خاصة .

سجع العماد

ذكر لنا احد الفضلاء باننا حملنا على العماد الكاتب في الجزء الاول عند كلامنا على سيرة صلاح الدين والاستطراد الى تبجحه بنثره دون التوسع في حسناته في بلاغته وفصاحته وما كان كلامنا فيه الا من قبيل الاستطراد والا فان سجع العماد مما سار مسير المثل في البلاد ولو كان البحث خاصاً فيه وقصرنا في توفيته حقه لتم هذا الحكم من كل وجوهه . وها نحن اولاء نشفع ذاك النقد بنقل شذرات من سجعه البديع وامامنا من كتبه « الفتح القسي » و « زبدة النصرة » وهما من الكتب التي باكر المستشرقون الى تمثيلها بالطبع منذ زمن للاستفادة من مضامينها

العماد الكاتب الاصبهاني ابو عبدالله محمد بن صفي الدين المعروف بابن اخي العزيز من طلبة المدرسة النظامية في بغداد ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير ابن هبيرة ببغداد فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفي تشتت شمل اتباعه ومنهم العماد الذي اقام مدة

كما روى ابن خلكان في عيش منكد وجفن مسهد ثم انتقل الى دمشق سنة ٥٦٢ فاتصل بصاحبها نور الدين محمود بن زنكي و بصلاح الدين يوسف بن ايوب وأُهل لكتابة الانشاء قال العماد : فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دراية ولقد كانت مواد هذه الصناعة (اي الانشاء) عتيدة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها في الابتداء فلما باشرها هانت عليه واجاد فيها واتى فيها بالغرائب وكان ينشيء الرسائل بالعجمية ايضاً و بعد وفاة نور الدين اتصل بصلاح الدين فنظمه في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه فصار من جملة الصدور المعدودين والاماثل المشهورين يضاهي الوزراء و يجري في مضمارهم وكان القاضي الفاضل هو الواسطة في ذلك بينه و بين صلاح الدين وقال : انا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة وغداً يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم والعماد يفي بذلك ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداره واخذ للعماد خط السلطان بما قرره له من شغل . وكان القاضي الفاضل في اكثر اوقاته ينقطع عن خدمة السلطان و يتوفر على مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم .

قال صاحب وفيات الاعيان وصنف العماد التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلاً على زينة دمية الدهر تأليف الحظيري الذي جعل كتابه ذيلاً على دمية القصر للباخرزي والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على يتيمة الدهر للثعالبي وهذا جعل كتابه ذيلاً على كتاب البارع لهرون بن علي المنجم . وكتاب العماد في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وكتاب الفتح القسي في مجلدين وكتاب السيل على الذيل جعله ذيلاً على الذيل لابن السمعاني وصنف كتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة في اخبار الدولة السلجوقية وله ديوان رسائل وديوان شعر في اربع مجلدات ونفسه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دوبيت وكان بينه و بين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف . توفي سنة ٥٩٧ بدمشق .

وسجع العماد الكاتب وان كتب اليه الوزير ضياء الدين بن الاثير صاحب المثل السائر : « وكيف لا يكون ذلك وقلمها هو البراع الذي نفثت الفصاحة في روعه وكمنت الشجاعة بين ضلوعه، فاذا قال اراك كيف تنسق الفرائد في الاجياد » وان قال ذلك

فهو كلام الاخ لاخيه والسجع كان من مألوفات تلك الايام وابن الاثير كاتب مسجع ايضاً فان كلام العماد لايخلو من تكلف مهما تقدم لما قال القلقشندي في صبح الاعشى فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه : منها ان يكون السجع بريئاً من التكلف خالياً من التعسف محمولاً على مايأتي به الطبع وتبديه الغريزة ويكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى بان يقتصر من اللفظ على مايحتاج اليه في المعنى دون الاتيان بزيادة او نقص تدعو اليه ضرورة السجع حتى لو حصلت زيادة او نقص بسبب السجع دون المعنى خرج السجع عن حيز المدح الى حيز الذم . ومنها ان تكون الالفاظ المسجوعة حلوة حادة لاغثة ولا باردة مونقة المعنى حسنة التركيب غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطوء الفقر فيكون كمن نقش اثواباً من الكرسف او نظم عقداً من الخرز الملون : قال في «المثل السائر» وهذا مقام تزل عنه الاقدام ولا يستطيعه الا الواحد من ارباب هذا الفن بعد الواحد قال ومن اجل ذلك كان اربابه قليلاً ولولا ذلك كان كل اديب سجاعاً اذ ما منهم من احد الا وقد يتيسر عليه تأليف الفاظ مسجوعة في الجملة .

وها قد آن اوان نقل فصول من كلام العماد بياناً لمنزلته في النثر وتجليه في حلبة البيان قال في مقدمة الفتح القسي : هذا كتاب اسهمت فيه بين الادباء الذين يتطلعون الى الغرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون الى السير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر ان يسمع والاديب ان يقول . فان فيه من الالفاظ ماصار معدناً من معادن الجواهر التي نولدها (انظر الى هذه الدعوى التي لاتفوقها الا دعوى الوزير ابن الاثير صاحب المثل السائر) ومن غرائب الوقائع ماصار به لساناً من السنة العجائب التي نوردها وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلث وثمانين وخمسمائة لان التواريخ معتادها اما ان تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الاولى واما مستفتحة بمعقب من الدول الاخرى فلا امة من الامم ذوات الملل . وذوات الدول . الا ولهم تاريخ يرجعون اليه . ويعولون عليه . ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها . تقيد به شوارد الايام وتنصب به معالم الاعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في ايام الاخر ذكر الاول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وانهم نطف في ظلمات الاصلاب طويلة السرى . وان اعمارهم مبتدأة من العهد الذي تقادم لآدم وقد اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ما اراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره وقبل نزول قبره مااستبعده

اهل الطي من حقيقة النشر • وتقبل في واحدة من الاطوار شهادة عشر • فقد قطع عمراً بعد عمر • وسار دهراً بعد دهر • وثوى والنثر في الف قبر • وانما كان من الظهور في ليل الى ان وصل من العيون الى فجر ولولا التاريخ لضاعت مساعي اهل السياسات الفاضلة • ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة • ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها • وجهل ماوراء صعوبة الايام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوبتها فارخ بنو آدم بيومه • وكان اول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه • ثم ارخ الاولون بالطوفان الذي بلل الارض واغرقها • ثم بالعام الذي بلبل الالسن وفرقها • وارخت الفرس اربعة تواريخ لاربع طبقات من ملوكها اولهم كلشاه ومعنى هذا الاسم ملك الطين فاليه ترجع الفرس بانسابها وعليه ينسق عقد حسابها وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج ايوانه واطفأ نور الله بيت نيرانه وارخ اليونان من فيلبس ابي الاسكندر والى قلوبطرة آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون وارخ الروم بالاسكندر لعظم خطره وشهرة اثره وارخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها والازياج التي رصدوها • وارخ اليهود بانبيائهم وخلفائهم وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على مااقتضاه نقل اوائلهم وآبائهم • وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل وكانت غسان تورخ بعام السد حين ارسل الله عرم السيل وارخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه وارخت معه بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ثم ارخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها • وافترقوا عنها • ثم ارخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل وهي حرب البسوس • ثم ارخوا بحرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء وكانت قبل المبعث بستين سنة • ثم ارخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني

فمن يك سائلاً عني فاني من الفتيان في عام الخنان

وارخوا بعدة من مشاهير ايامهم واعوامهم بعام المخانق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار وهي اربع حروب ذكرها المؤرخون واسندها الراوون وادنى ما ارخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع وحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام

وبعده خرجت امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الاقلام واظهر الله على الاديان الدين القيم ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم ...

وقال في مفتتح فصل في ذكر ماجرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس : وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان . في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بارخص الاثمان وباعوا باقل من دينار كل مايساوي اكثر من عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوامن امور لهم منتشرة . وكنسوا كنائسهم واخذ منها نفائسهم ونقلوا منها الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحريريات والمذهبات . من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجميع ما كان في قمامة من الجنسين والنسجين فقلت للسلطان هذه اموال وافرة . واحوال ظاهرة تبلغ مائتي الف دينار . والامان على اموالهم لا اموال الكنائس والاديار . فلا تتركها في ايدي هؤلاء الفجار فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر . وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولا نتركهم يرمون اهل الايمان بنكس الايمان بل يتحدثون بما افضناه من الاحسان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز وخف . ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف . وانتقل معظمهم الى صور . وكتفوا بالديجور الديجور وبقي منهم زهاء خمسة عشر الفًا امتنعوا عن مشروع الحق فاختصوا بشروط الرق فاما الرجال وكانوا في تقدير سبعة آلاف . فانهم الفوا ذلاً لم يكونوا له بألاف فاقتسمتهم ايدي السبي ايدي سبا . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهاد والربا . واحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة . عادت بيننا مقتسمة واصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة ....

وانت ترى انه لو رفعت بعض الاسجاع من هذا الفصل البادي التكلف عليه لاصبحت عبارة العماد من السهل الممتنع ولكنه تشبث باذيال هذه الصناعة وآثر التصنيع الصعب المتادة على الطبع السلس . وقال من فصل آخر : وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهو الذي حين يواري صارمه في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصحبه من فرسان العرب كل فارس معرب ومن شجعان الاكراد كل فاتك محرب ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكديش على

اكديش · وقارح على قارح · وخضم على سابح · وجرى جار جارح · وبهمة وبطل وجبل على جبل وفحل على فحل · وذمر نكل · وورد على ورد · ومرد على جرد · وحلس وحلبس · وباشر بالموت معبس · واهيس اليس · واحمى احمس · وغشمشم همام · وابهم مقدام · وباسل ذي باس · وعاسل عاس · ورئبال على رئبال · ومشتمل على شمال · وبحر على بحر · وصقر على صقر · وركبوا سلاهبهم · وجنبوا جنائبهم · وجروا على الساحل سيولا · وجروا بالذوابل ذيولا · وطارابليس طرابلس بخوافي الخوف · ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجوف · وما سار الا من خف في نهضته · ونهض بخفته · واحسن حصن الاكراد بالاكدار · وصفت عَلَيّ صافيتا بوارق البوار · وقطع عرق عرقا وعقرت · وتعرمت العريمة وتعرقت · ومزعت تلك الاعمال ومزقت · وارهقت وازهقت · ونفرت انفارهـا · وبقرت ابقارها · وملئت بالدوائر ديارها · وسيقت مواشيها وحشيت بالنيران اوساطها وحواشيها ...

وفي كتاب الفتح القسي فصول اشد ايغالاً من هذا التكلف الذي اقتبسنا نموذجاً منه للتعريف باسلوب هذا الكاتب وله ايضاً في زبدة النصرة ونخبة العصرة الذي اختصره الفتح البنداري ونشره الاستاذ هوتسما الهولاندي المستشرق الشهير لاول مرة في الغرب قال في بداية حال السلجقية وهم اتراك : كانت السلجيقة ذوي عُدد وعَدد · وايد ويد لا يدينون لاحد · ولا يدنون من بلد · وميكائيل بن سلجق زعيمهم المبجل · وعظيمهم المفضل · وقد سكنوا من اعمال بخارا موضعاً يقال له نور بخارا · وما زالوا في انصر شيعة · وانضر عيشة · وهم في الرعي يكلأون الكلأ · وفي الريع يملأون الملأ · لا يذعرهم ذاعر ولا يردعهم داعر · والسلاطين يرعونهم للملمات ولا يروعونهم · ويدعونهم للمهات ولا يدعونهم · حتى عبر السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الى بخارا لمساعدة قدرخان فرأى مكيال ميكائيل بحصا الحصافة معيرا وصاع مصاعه ببأس البسالة موفراً · فرغب في استرغابه وانجذب الى اجتذابه · واراد ان يعبر الى خراسان به وباهله ويكنفه اكنافها لذي الحفظ والحفيظة بنبله ونبله وامتنع ميكائيل عليه ومال عنه ولم يمل اليه فغاظ السلطان تمنعه فقبضه واعتقله وعبر به وباصحابه الى خراسان ونقله وقال له ارسلان الحاجب اني ارى في اعين هؤلاء عين الهول · وانهم لمعروفون بالجرأة والقوة والحول · والرأي عندي ان نقطع ابهام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره ولا يخاف شره فما قبل خطابه في هذا الخطب وقال له انك لقاسي القلب

فلما اقاموا بخراسان تقربوا الى عميدها ابي سهل احمد بن الحسن الحمدوني واهدوا اليه ثلثة افراس ختلية وسبعة اجمال بختية وثلثمائة رأس غنم تركية وهداه اقبالهم الى قبول الهدية وكانوا سألوه ان يزجهم في المروج ويسد بمواشيهم مخارم تلك الفروج فعين لهم مروج دنداقان فقربوا بها و بما ناربها وتحاماها من عداهم وجانبها وتوفي محمود بن سبكتكين وهو كاره لامرهم مشفق من وميض جمرهم مستشف ستر القضاء في قضية شرهم و مد ابو سهل الصعب فيهم سهلاً ٠ واتخذهم لارتفاقه بهم صحباً واهلاً ٠ ونفذ مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكراً من غزنة الى خراسان فواقعهم وقتل منهم عدة واسر منهم جماعة حملهم الى غزنة منهم بيغو ارسلان فاستعطفوه فلم يعطف ٠ واستسعفوه فلم يسعف ولما غلق رهنهم ٠ وتوثق سجنهم شربوا كاس اليأس ٠ وابدلوا ايناس الناس بايحاش الحاشية ٠ ومشى شحنة طوس لاستياق ما لهم من الماشية واستلان خشونتهم واستسهل صعوبتهم ٠ ولما ظن انه آب بالغنم والغنيمة ٠ وباء بعز العزيمة ٠ ركبوا اليه صهوات الحنق ٠ وصرفوا نحوه اعنة الخبب والعنق ٠ حتى لقوه فتركوه لقى وتبعوا المنهزمين ودخلوا الى طوس فملكوها وجاسوا خلال ديارها وسلكوها وتشاوروا في ما بينهم وقالوا هذا بحر خضناه وفتح ابتكرناه وطوس مدينتنا التي تؤوينا ٠ وحصننا الذي يحمينا ٠ فلا نفرج عنها ٠ ولا نخرج منها ٠ وشرع ابو سهل الحمدوني في استدراك ما فرط ٠ واستمساك ما انخبط وكادوا يجيبونه بالجميل ويجملون في الجواب ويميلون بمالأته الى صوب الصواب فتسرع شحنة نيسابور وتعسر وجند وعسكر وشن على سرحهم غارة على غرة ونهض للمنعة نهضت بمضرة فركبت السلجقية اليه والى جماعته ارسالاً ونشبوا معهم وشبوا قتالاً وهزموهم وكسروهم وقتلوهم واسروهم وامتدوا الى نيسابور فدخلوها ووجدوا في خلوها فرصة فاهتبلوها وذلك في شهر رمضان سنة ٤٢٩ وعزموا على مد اليد ونهب البلد فمنعهم طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق وهو اميرهم وكبيرهم وقال لهم نحن في شهر حرام لانهتك حرمته ولا ننهك عصمته ولا يحصل من النهب ارب وانما يسوء به السمعة ويشيع الشنعة فنفرت جماعته من مقاله وسخفوا رأيه في تبيين حرام الفعل وحلاله

الى ان قال : واستولوا على خراسان وتجاوزوها الى العراق وطرأوا على ملك الديلم ورموه بالصيلم وغلوا الاملاك وبلغوا الافلاك واقتسموا البلاد وطرفوا طرائفها والتلاد قال وهذه السنة (٤٣٧) هي اول سنة ورد فيها الاتراك (السلجوقيين) الى العراق

وانتشروا منها في الآفاق ثم قال : واجفل الملوك من خوف اقدامهم وتنحوا من طريق ضرامهم فما جاؤا الى بلدة الا ملكوا مالكها وملأوا مسالكها وارعبوا ساكنيها واسكنوها الرعب وغلبوا ولاتها وولوها القلب وازوروا الى الزوراء واشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء

وقال في ظهور الاسماعيلية : فنابت نوائب وظهرت العجائب وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا عَلَى طباعنا وكالوا بصاعنا وكانوا معنا في المكتب واخذوا حظاً وافراً من الفقه والادب وكان منهم رجل من اهل الري وساح في العالم وكانت صناعته الكتابة نخفي امره حتى ظهر وقام فاقام من الفتنة كل قيامة واستولى في مدة قريبة عَلى حصون وقلاع منيعة وبدأ من القتل والفتك بامور شنيعة وخفيت عن الناس احوالهم ودامت حتى استتبت على استتبار بسبب ان لم يكن للدولة اصحاب اخبار وكان الرسم في ايام الديلم ومن قبلهم من الملوك انهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبز وبريد فلم تخف عنهم اخبار الاقاصي والاداني وحال الطائع والعاصي حتى ولي في الدولة السلجقية الب ارسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك في هذا الامر فاجابه انه لا حاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من اصدقاء لنا واعداء فاذا نقل الينا صاحب الخبر وكان له غرض اخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق فاسقط السلطان هذا الرسم لاجل ما وقع لهم من الوهم فلم يشعر الا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم واخافوا السبل واجالوا على الاكابر الاجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتله غيلة ولم يجد احد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة فصار الناس فيهم فريقين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسب الى شركهم في شركهم وكان الناس منهم عَلَى خطر عظيم من الجهتين فاول ما بدأوا بقتل نظام الملك ثم اتسع الخرق وتفاقم الفتق ولما كانوا تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع اصناف الناس التهم ودب الى البري السقم وتوفرت عَلَى التوقي الهمم ....

هذه هي انموذجات من سجع العماد ولعل في ذلك فائدة لمن يحب هذه الطريقة ولكنها صعبة لا تنتج في هذا العصر الذي اصبح ينظر فيه الى المعاني قبل المباني

احمد فتحي باشا زغلول

رزئت مصر بل البلاد العربية برجل نافع في نهضتها العلمية والاجتماعية والقضائية ونعني به المرحوم احمد فتحي باشا زغلول من رجال القضاء في مصر رفعه علمه الى المناصب العالية وكتب له عمله درجة سامية بين العلماء بما الف وعرب توفاه الله عن نحو خمسين عاماً في القاهرة وكان من الرجال العاملين الذين يصرفون فضل اوقاتهم في التعريب والتأليف وجميع ما عربه والفه من الكتب الاجتماعية والحقوقية يدل على بعد غوره وانه لا ينشر للناس الا المفيد فاول كتبه التي نشرها كتاب اصول الشرائع لبنثام الانكليزي عربه عن الافرنسية في مجلدين لطيفين ثم عرب كتاب « خواطر وسوانح في الاسلام » للكونت هنري دي كاستري ثم كتاب « سر تقدم الانكليز السكسونيين » لادمون ديمولان وهذا اشتهر كثيراً واثر واي اثر في نفوس كل من طالعوه وترجم ايضاً « كتاب روح الاجتماع » للفيلسوف كوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب وكتاب « سر تطور الامم » لذاك الفيلسوف ايضاً والف من الكتب « كتاب المحاماة » و « كتاب شرح القانون المدني »

احتفل رجال العلم والقضاء والحكومة في مصر في اوائل شهر حزيران من السنة الفائتة في مقر الجامعة المصرية بالعالم فتحي باشا على اثر نشره كتاب شرح القانون المدني فتليت خطب كثيرة في اعماله وقدمت له نسخة مجلدة تجليداً مذهباً من كل كتاب الفه ورسالة شكر وقع عليها المحتفلون · وفي التاسع من ايار هذه السنة احتفل طائفة من رجال العاصمة المصرية يوم الاربعين من وفاته بتأبينه وتعداد بيض اياديه على العلم والقضاء وذلك في الاوبرا الخديوية بحضور جمهور كبير من العلماء والفضلاء والشعراء والوزراء والوجهاء فتقدم حسين رشدي باشا رئيس النظار ورئيس لجنة الاحتفال الى مكان الخطابة وتلا خطبة ثم قام بعده عبد الخالق باشا ثروت ناظر الحقانية والقى خطبة رنانة ثم تلاهما الشيخ محمد الخضري وكيل مدرسة القضاء الشرعي والقى خطبة بليغة عن بعض ما يعرف عن الفقيد من النبوغ فيما اشتغل معه فيه من الامور الشرعية ثم تلاه محمود بك ابو النصر المحامي نائباً عن المحاماة فصور للناس احمد فتحي زغلول

باشا وحيد زمانه في الخطابة والكتابة والتأليف والتعريب وفضائل النفس وسمو الاخلاق ثم تلاه حسن بك عبد الرازق المحامي نائباً عن الجمعية الخيرية الاسلامية فمثله في بره بالفقراء وعطفه على المعوزين ثم قام على اثره احمد بك لطفي السيد مدير « الجريدة » نائباً عن الصحافة والادب فأتى على تاريخ الفقيد ومر نبوغه واغراضه الكامنة في صدره منذ نعومة اظفاره في المبادئ السياسية والاجتماعية والتشريعية ٠ وبعد ان اتم الخطباء خطبهم تقدم محمود بك نبيه المصري والقى مرثية وتلاه الشيخ عبد الوهاب النجار المدرس بمدرسة البوليس قارئاً لقصيدة الشيخ عبد المحسن الكاظمي شاعر العراق التي اجمل فيها العزاء لكل مصاب بهذا الفقيد سواء في مصر او غيرها ٠ ثم تلاه الشيخ عبد المطلب المدرس بمدرسة القضاء الشرعي فاسترق النفوس بما اودعه في قصيدته من الحقائق عن الفقيد العزيز ثم قام بعده خليل افندي مطران فالقى قصيدة بليغة ٠ وبعد ذلك هم سعد زغلول باشا شقيق الفقيد ومن كبار رجال مصر الى مكان الخطباء ليقدم بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن عائلته الحزينة شكره للامة المصرية على ما جبرت من خاطرهم فخانته قواه وارتج عليه باب القول ففاضت عبراته وقال كلمة متقطعة في ذلك

فما قاله رئيس النظار وهو من نبغاء مصر في العلم والقضاء ايضاً : فان كنتم قد اجتمعتم اليوم مدفوعين بما يمليه عليكم الوجدان بتمجيد ذكراه وتعداد مناقبه ومآثره فانما انتم تدلون بعملكم هذا على ما كان للفقيد من المكانة الرفيعة في نفوسكم وعلى انكم تعرفون اقدار الرجال

اشتغلت انا والفقيد في نظارة الحقانية زماناً طويلاً كان فيه ساعدي اليمين، وكان لي نعم المعين ٠ ويا ليتني كنت افتتح اليوم هذه الحفلة لا لتأبينه بل لتكريمه حيًّا ومستمراً على تأدية خدمه الجليلة لوطنه فانه والحق يقال كان من اكبر مظاهر الرقي العقلي في وادي النيل ٠

وقال ناظر الحقانية وهو من رجال العلم والقضاء ايضاً :

الا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

باطل هذه الدنيا بما فيها واكبر باطل فيها الحياة كالبرق خلاب بشدة السنا فاذا الظلام في عقبه او ادنى ٠ وقلما يفكر الاحياء في هذه الحقائق الوهاجة او يتدبرها الا اذا مضى رجل منهم كبير بعمله كبير بآثاره

لمثل ذلك اجتمع هذا الجمع · اجتمع يذكر رجلاً كبيراً قضى نحبه لاحتف انفه ولكن في جهاد عظيم وقتال كبير وليس لعمري دمه الا ذلك المداد الغزير الذي اجراه سيف القلم على صفحات المصنفات التي افاء الله بها عليه من المعرب والمنشأ اريد المرحوم احمد فتحي زغلول · ليس ادل على ان هذا الرجل نابغة من اعتراف فضلاء الامة له بالفضل ولا تزال واصواتهم ترن في آذاننا لقرب عهدنا باجتماعهم تكريماً له واجلالاً لاعماله

احتفلوا بالامس بفضله واجتمعنا اليوم لتأبينه · لا غرابة فالعواصف لا تصيب الا الاشجار الباسقة والصواعق لا تنقض الا على ما تسامى فوق الناس الى السماء

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الحسان

توفي المرحوم فتحي باشا ولو ان للهمة شفاعة او لو ان العزيمة تقبل عدلاً لكان اول الخالدين ولكن هذا امر الله ولا راد لما قضى

لو اردت ان اوفي الرجل حقه من الوصف لما وسعني وقت ولما استغنيت بقلمي ولساني وحسبه رحمه الله السنة الخلق واقلام الحق فقد وضعوه الموضع الذي هو به جدير

لقد كان في كل ميدان فرس رهان — كان كما يقولون رجلاً جامعاً رجلاً عمومياً نبغ في المعقول والمنقول معاً ومعه الادب الجم تزينه البلاغة ويزنه المنطق الصحيح الى العلم الغزير تثبته الحنكة وتؤيده قوة العارضة الى صفات نادرة في تصريف الامور

كان كاتباً يرقص الارواح بكتابته طرباً وخطيباً لو قام بين وحوش علم الضاريات بر النقاد · كانت له باع طولى وذوق سليم في كل شيء يجمع الى هذا كله شغفاً غريباً بحسن التنسيق والتنظيم

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

ليس من قصدي ان اشرح حياة الرجل كلها فهذا ما ليس لي فيه مطمع وانما اردت ان اذكر ما يحتمله المقام من ذلك · اردت ان يعرض قومه جنوده التي جاهد بها وعدده التي اعتدبها — كما تعرض الجيوش في لحظة ليتعرفوا · لم؟ لان لقوته صلب المعضلات واستقامت لغمزته قناة المشكلات ...

وبعد ان اجمل حياته القضائية حتى اصبح وكيلاً لنظارة الحقانية وكانت هذه آخر عهد له بالوظائف قال : لست ابالغ اذا قلت ان جهاده في عام من اعوامها يقصر دونه

جهاد رجال في اعوام . لم يقصر همته على اعمالها الكثيرة العظيمة بل كنت تجده عاملاً في كل شأن من الشؤون العامة

له في نظارة الحقانية فضل المشاركة والمعاونة في وضع كل القوانين التي وضعت في عهده وهي كثيرة وفي الدرجة الاولى من المكانة واليه وحده يرجع الفضل كله في وضع قوانين المحاكم الشرعية التي يدعم عليها نظامها الحالي ولولا همته التي لا يعتريها الكلال لما كانت الآن تلك المحاكم الا كما كانت عليه قبل نظامها الحالي . كذلك كانت له اليد البيضاء والفضل الاول في النظام الحالي للمعاهد الدينية فان الجناب العالي لما توجهت انظاره الكريمة الى اصلاح تلك المعاهد عهد في وضع نظام جديد لها الى لجنة الفت تحت رئاسة الفقيد ومعه زميلي صدقي باشا ناظر الزراعة ومني . واني لأؤدي ديناً عليّ وعلى زميلي باعترافي الآن على هذا الملأ بان فتحي باشا رحمه الله هو وحده صاحب الفضل في كل ما وضع من النظامات الجارية عليها الآن هذه المعاهد

لم تنته تلك الاعمال الكثيرة والمشاغل الجمة وقد اضنت جسمه واضعفت قوته عما عود عليه امته من خدمتها بالتأليف والتعريب — وكان آخر عهدها نفثات هذا القلم القادر البليغ هذا المصنف الجليل الذي وضعه في شرح القانون المدني

حياة كلها جهاد وعمل لم يؤت فيها عقله وجسمه قسطهما من الراحة مدفوعاً الى ذلك بعوامل فطرية مغالباً نواميس الطبيعة

***

وخطب احمد لطفي بك السيد قال : ان شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الاخلاص تلك الصفات التي ظهرت آثارها على فتحي باشا منذ شبابه الغض راجع معظمها الى التأثير الوراثي من ابويه وعلى الاخص والدته التي أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الاصل على الفرع وبما تعهدت أمره في التربية الاولى وما غرست فيه من المبادئ الصالحة مما جعل لفتحي شخصية ممتازة منذ صباه

لا يأخذكم العجب من قولي فان من أمهاتنا نحن القرويين من هن مع بساطة في المدارك العقلية وبعد عن الغلو والمعارف على جانب عظيم من الذكاء الفطري ورفعة الاخلاق وعزة النفس وذوق سليم في الحكم وطيبة وتقوى في المعاملات . ينقلن هذه الصفات لابنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثي فتكون لهم رأس مال في الحياة العملية ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق وما عانوا من

استبداد طويل · ولكن هذه الصفات الاولية قد قامت في نجاحهم مقام المعارف زمناً طويلاً ولا يزال الاتكال عليها وحدها يؤدي الى الآن نتائجه المتعارفة في بلادنا فاذا جاءت العلوم والمعارف على هذه الصفات الاولية ظهر النبوغ قلة وكثرة تبعاً لقوة الاستعداد أي لقوة تلك الصفات الوراثية فللامهات القرويات أن يقبلن ايضاً شكر الجيل الحاضر وعلينا ان نعترف علناً ومن غير تردد بما للامهات من المكانة العظمى من حيث تور يث البنين والقيام على تربيتهم الاولى · وأمامنا المثل الحسي ان والدة فتحي باشا ينسب اليها الفضل الاكبر في ان اخرجت لمصر نابغين : نابغة نرجو له العمر الطويل · ونابغة فقدناه آسفين · فقدناه ونقدم اليوم للتاريخ منه صورة هي اقوم صور نوابغنا حجة لحسن الاستعداد وعلو الكفاءة العلمية والعملية جميعاً

قال : ان فتحي باشا كان رجل ارتقاء لا رجل ثورة — انه كان يكره الثورة — بعد سن الرجولية بالضرورة — يكرهها بكل مظاهرها حتى الفكرية منها · فكما انه كان يرى ان خير القوانين ليس هو القانون الحسن في ذاته ولكنه القانون الذي يحتمل الشعب تطبيقه · كذلك كان يرى ان خير المبادئ الاجتماعية والسياسية هو ما كان بينه و بين طبائع الشعب وعاداته نسب تكمل مافيها من نقص وتقوم مابها من اعوجاج

كان فتحي يستسر بهذه الآراء الحرة العريقة في الحرية · فاذا لم يكن نشرها ليتفق مع مركزه في الحكومة فلقد نشرها بالتعريب والعقل ليرضي دواعي ضميره وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة من معرفة الحقوق والواجبات · فليس فقيدنا رحمه الله من ارباب المناصب · بل هو على ذلك من ارباب المذاهب · ومن هو كذلك من شأنه ان يكون شقياً بغرضين معذباً ضعفين · يكاد لا يكون له من وقته شيء · فهو مقسم بين الاعمال الرسمية الشاقة وبين خدمة العلم يعمل لها بالتأليف والتعريب شطر الليل واحياناً طول الليل ومدة العطلة · فاذا لامه في ذلك اصدقاؤه هز كتفه هزة فيلسوف لا يبالي مات اليوم او مات غداً · · نعم كان المؤلف فتحي يعتقد ان الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح لا بعدد السنين

يكاد كلامي يلقي في الاذهان من فتحي باشا صورة عالم استغرقته اغراضه وشغلته همومه فزهد في الجمعية وفرط في القيام بالاصلاحات المدنية · كلا · ان فتحي باشا على ذلك كان مترفاً في عيشته متأنقاً في مظاهرها المختلفة · كثير الاختلاط لا تفوته عيادة مريض من اصدقائه ولا رد لزيارة ولا مؤاساة معارفه في احزانهم · كذلك لا ينقبض

عزمه عن شهود حفلة انس · ولا تلوي به همومه ومشاغله عن الاعتناء باقتناء التحف والطرف وتعرف اوضاع الجمال حيث كان رحمه الله على علمه العميق ومنزلته العالية رجلاً غاية في الوداعة والظرف ·

من ذلك يظهر لي ان فتحي باشا كان يعتقد الحياة الفردية كلاً واحداً من حقه ان يكون متعادلاً في جميع مظاهره · وان اعتدال السلوك لا يتم الا بهذا التعادل · فكما يجب على المرء ان يخدم عقله كذلك يجب عليه ان يخدم مشاعره · حتى لا تتعطل ملكة من الملكات تضحية لملكة اخرى · ولا شك في ان خير قاعدة تنتج المثل الاعلى للرجل الكامل بمعنى الكلمة هي قاعدة تنمية ملكات الانسان وقواه بنسبة واحدة

كذلك كان فتحي باشا · · وعلى هذا كنا نراه في شؤونه · غير ان الاستثناء كان يلحق لديه هذه القاعدة ايضاً · فانه يظهر لنا من جهة اخرى انه كان يضحي قواه الجثمانية في سبيل شهوته العلمية · وهذا المثال مع الاسف هو وقلة الحرص على المال كأنهما امران عامان في كثير من ابطال العلم وخدمة الاوطان

عفواً · ايها السادة · ليس فتحي في عداد الموتى الذين يؤبنون بقولة واحدة تردد لكل منهم على السواء : كان وكان · · · وعليه الرحمة والرضوان · ان فتحي ليس ملكاً لاهله واصدقائه بل هو ملك التاريخ · وبهذا العنوان يجب علينا دراسته · انه صورة كبرى من اكبر صور النبوغ المصري بروزاً واولاهم بالعناية والدرس · انه رجل كبير كبير في عقله وفي عواطفه بل في اطماعه ايضاً · وما كان يبين عليه ان اقتناء المال داخل في برنامج اطماعه · اقول وليس هو في هذا المعنى استثناء من عظماء الرجال امثاله · اولئك الذين ماتوا ولا اصفر ولا ابيض كأنهم الانبياء لا يورثون فان لم يتركوا تراثاً فقد تركوا مجداً خالداً

نعم ان اطماع فتحي باشا كانت كبيرة متناسبة مع كفاءته وثقته بنفسه · ولكنها لم تكن من الاطماع الشخصية في شيء انه كان يألم لما نحن فيه ويرجو ان يكون له من السلطة ما يسهل لقومه سبيل التقدم الى الامام — قد تكون هذه العلة هي العذر العام الذي ينتحله كل المغرمين بالمناصب العالية · ولكن فتحي ليس من هؤلاء لانه كان ينفذ الخطة التي رسمها لمشاغله العمومية فاخذ يسهل التقدم بقلمه ومن الطبيعي ان يرجو ان يسهله بعمله ايضاً فيكون بذلك قد جمع بين سببي النفع لا كصديقه روسو الذي قال لو كنت شارعاً او اميراً لاعتضت عن الكتابة في السياسة بتحقيق ما قرز

من المبادئ · على اني يجب عليّ في هذا الموقف ان اشارع الى التصريح بان فتحي لم يقدم بين يدي اطاعه الا كفاءته · اما شخصيته واستقلاله في الرأي فلا دخل لهما في هذه الصفقة · بل ربما كانا حجر عثرة في سبيل ارتقائه

على ان فتحي باشا مهما كان محسود القدرة فانه كان دائماً عمدة الحكومة في كثير من المشروعات الدقيقة التي تحتاج الى مفاوضات بين جهات مختلفة · وموضع الاستشارة من نظارته وغير نظارته في وضع القوانين · كما تشهد به الالسن الرسمية والتقارير الرسمية

ايها السادة — كنا نكرم فتحي باشا في نحو هذا الاوان من العام الماضي ونتوج مؤلفاته · وها نحن اولاء جئنا اليوم نؤبنه ونتأسف عَلَى وفاته · فما اقل هذا الوجود حرصاً على الرجال النافعين !

ايها السادة — ان صورة فتحي باشا الذى اشترك في رسمها جميع خطباء هذه الحفلة الممثلين للمعاني والطبقات المتباينه صورة نذخرها عند الزمان على انها طليعة النهضة العلمية واثر من آثار المجد المصري الفخيم · ولتكون قدوة للنابغين من ابنائنا على مر الزمان ·

وقال الشيخ الخضري بعد مقدمة : اما خلقه فقد منح منه مايحببه الى النفوس و يقربه الى القلوب طلاقة وجه وسعة صدر وتواضع الاشراف · · كنا اذ اخذنا معه في مسألة رأيناه منا قريباً على رفعة شأنه وعلو مقامه وربما بدرت منا الكلمة في تخطئة الرأي فيفسح لها صدره و يلقاها لا تأفف ولا ضجر ،ومن المؤكد انها لم تكن تبقي في نفسه اي اثر ، هذا الى ماجبل عليه من العطف على ذوي الحاج من المستضعفين والمستمنحين وتلك خلال نسأل الله ان يكثر منها في اشرافنا وذوي الاقدار منا

واما اطلاعه على دقائق الفقه واسراره فقد كنا نجلس اليه وقدمحصنا المسألةتمحيص من يريد النزول الى الميدان ومباهاة الاقران الى مايخيل الينا ان الفقه علينا موقوف وعن غيرنا مصروف فلا نلبث ان نرى ذلك السيل الدافق ، قد رجعنا الى اول مرحلة من مراحل البحث بما يعارض به علل الفقهاء وكان لشغفه بالقواعد العامة يستدرك على مايخالفها من جزئيات المسائل فكان رحمه الله يحمل جليسه على البحث والاستقصاء و يعدل الفكر اذا زاغ وكان كما وصف عامر بن الطفيل لا يضل حتى يضل النجم ولا يجبن حتى يجبن السيل

اما ما أشرب به قلبه من حب العمل فقلما زاره زائره الا رآه امام مكتبه يبحث حيناً

و يكتب حيناً لا يكاد يفارقه حتى يناديه الصبح من كثب لا ملل ولا سأم ، تلك لذته وبها غرامه ، لا يزيده عذل العاذلين فيها الا ولوعاً ور بما ادرك سماره الكلال وتشابهت عليهم وجوه الكلام وهو حديد الذهن كبير النفس ماضي العزيمة

ولم يكن سمره ولا عمله الا فيما يرضي ضميره من كتاب يؤلف او يترجم او عمل صالح يقدم للجمهور من امته . وقد ظهر لنا علو كعبه في حب الخير بما قام به في شأن الازهر المعمور تلك المدرسة العظمى التي بصلاحها يصلح عالم كبير من هذه الامة .

الى ان قال : ثم وضع بعد ذلك مشروع القانون الاخير ونماذج التعليم في العلوم المختلفة وقد كان عند وضعه واسع الامل يريد للازهر ان يكون فوق هامة المدارس وان تكون مصر به فوق هامة البلاد الاسلامية كافة كما كان لها ذلك فيما مضى من الازمان . وقد حاز هذا التقرير قبولاً لدى الجناب العالي الخديوي فصدر امره الكريم ان يجرى العمل به

الف مجلس الازهر الاعلى من ستة تعينهم وظائفهم ومن ثلاثة اختيروا ممن خبر امر التعليم ومارس تشريع القوانين وتنفيذها وكان الفقيد احد هؤلاء الثلاثة فسار في امره سيرة رجل ينشد الاصلاح ويحث عليه فكنا نراه مهتماً بانفاذ هذا القانون باذلاً جهده في علو شأن الازهر والازهريين كما يبذل الرجل جهده في تثقيف ولده وتقويم اوده يحب العامل ويثني عليه ويكره الكسول وينفر منه ، يسوس النافر ويستجلب الشارد حتى لان له الابي ورضي عنه الناس بعد ان علموا اخلاصه وتفانيه فيما يصلح شأنهم ويرقي جامعتهم . وقد سار الازهر بتلك الهمة الشماء شوطاً بعيداً في طريق السداد والصلاح

وكما يوجب الوفاء علينا ان نذكر لفقيدنا هذا الاثر الخالد نذكر له مواقفه في اصلاح المحاكم الشرعية فما من قانون او لائحة وضعت لنظام هذه المحاكم وانتشالها من وهدتها الا كانت له اليد الطولى في وضعها وانفاذها ، كان ينظر نظراً دقيقاً الى مالهذه المحاكم من التأثير في حال الاسر المصرية الاسلامية والوصول بها الى شيء مما تطلبه لها من النظام والاستناد على دعامة متينة وكان يرى والحق مايرى ان الامة لا يتم تكونها ولا ترتقي جماعتها الا اذا اطمأنت الأسرة وامن الفريقان اللذان هما عمادها خطر الظلم وامتداد الآجال عند القاضي اذا لم يكن منه بد تأصل هذا في نفسه فكان يرى صلاح هذه المحاكم من اول واجبات المفكرين والعاملين المخلصين فكان ينتهز الفرص السانحة

لادخال كل نظام يسهل على المتقاضين حاجتهم وقد نجح في كثير مما اراد نجاحًا عظيماً وان لم يكن كل ماأراد ، وكانت الرابطة متينة في نفسه بين العملين اصلاح المعاهد الدينية واصلاح المحاكم الشرعية لذلك كان مجهوده العظيم مبذولاً نحو الاصلاحين على السواء

تسمية ابطال العرب

وقاتليهم في الاسلام (١)

الطبقة الاولى الذين ادركوا الجاهلية والاسلام

حمزة بن عبد المطلب — اسد الله قتل في غزاة أُحد رماه وحشيٌ مولى جبير بن مطعم بحربة نذر النبي صلى الله عليه وسلم ان يقتل به سبعين رجلاً من قريش وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة

امير المؤمنين علي عليه السلام — قتله عبد الرحمن بن ملجم الايادي وهو في صلاة الصبح وقيل كان داخلاً الى المسجد بالكوفة

الزبير بن العوام — حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله عمر بن جرموز

خالد بن الوليد — هو صاحب اهل الروم وخالد الذي فتح دمشق واكثر بلاد الشام وله وقائع عظيمة في الروم ووقعة مسيلمة ولم يلق المسلمون مثلها وقتل مسيلمة . مات خالد على فراشه وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا — قولهم كذا وكذا من تعبير المؤرخين — وما في جسدي موضع شبر الا وفيه طعنة او ضربة او رمية وها انا اموت على فراشي فلا نامت عين الجبان ويروى انه وجد بجسده ثمانون مابين ضربة وطعنة فاما السهام فلم تكن تحصى وهو صاحب وقعة اليرموك كان الروم في ثلثمائة الف

عمرو بن معدي كرب — فارس من فرسان الجاهلية ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام

(١) عن كتاب مختصر تذكرة ابن حمدون الوزير البغدادي المتوفى سنة ٥٦٢ من المخطوطات النفيسة التي يقع تعريفها في عدد ثان ولا يخفى ان مالم يسمَّ من ابطال العرب كثير (محمد رضا الشبيبي في النجف)

شهد حروب الفرس وكان له فيها اثر وعمر حتى ضعف وارتعش وهو اشهر الفرسان ذكراً

طليحة الاسدي — من اكبر الشجعان جاهلية واسلاماً ارتد وتنبى وجمع جمعاً عظيماً واغواهم وكان يتكهن ففل الجميع خالد وعاد طليحة الى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح وكانت له فيها آثار ومواقف

المقداد — كان فارساً بطلاً رامياً وهو اول من رمى في سبيل الله ولما تخير عمر من يؤمن على قتال الفرس واستشار فيه قيل له هو الليث عادياً فبعثه حتى فتح العراق ولما قتل عثمان اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف انفه

ابو دجانة الانصاري — الذي اخذ سيف رسول الله لما عرضه على الجماعة وخرج ابو دجانة يتبختر بين الصفين فقال صلى الله عليه وسلم انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموضع

مسعود الثقفي — قاتل الفيل

عمار بن ياسر — صاحب رسول الله قال فيه لا تؤذوني في عمار فعمار جلدة بين عيني واخبر انه تقتله الفئة الباغية قتل بصفين مع علي عليه السلام

هاشم بن عتبة — من اكابر الشجعان صاحب راية علي بصفين وله فتح جلولاء وهي الواقعة المشهورة مع الفرس

مالك النخعي الاشتر — مات مسموماً في شربة من عسل فقال معاوية ان لله جنوداً من جملتها العسل

القعقاع بن عمرو — طاعن الفيل في عشية القادسية

ايام بني امية

الطبقة الثانية

عبد الله بن الزبير بن العوام — قاتل جرجير ملك افريقية قتله الحجاج بعد ان حوصر بمكة واسلمه اصحابه وعشيرته ومثل به

ابو هاشم بن الحنفية — مات حتف انفه

عبد الله بن حازم السلمي — والي خراسان كبش مضر قتله وقيع بن الاسود

وكيع بن ابي سويد — ولي خراسان بعد ابن حازم فلم يضبط الامر لهوج مات حتف انفه

مصعب بن الزبير — جاد بماله و بنفسه عرض عليه الامان وولاية العراقين وقد خذله اصحابه و بقي في نفر فابى وطلب ان يمضي حميداً كريماً قتله عبيد الله بن زياد — هذا غير ابن زياد الدعي — في الحرب التي كانت بينه و بين عبد الملك بن مروان

عمير بن الحباب السلمي — فارس الاسلام قتله بنو تغلب

ابن مليك التغلبي — قتله عمير بن الحباب

ابراهيم بن الاشتر — الآخذ بثار الحسين بن علي لقي عبيد الله بن زياد في اربعة آلاف وعبدالله في سبعين الفاً فقتله بيده وهزم جيشه وحارب مع مصعب حتى لم يبق سواهما و بذل له الامان والولاية على اي بلد شاء فلزم الوفاء لمصعب وقتل امامه

مسلمة بن عبد الملك — فحل بني امية وفارسها ووالي حروبها مات حتف انفه

احمر قريش — شاعر شجاع فاتك كان لا يعطي الامراء طاعة له وقائع عظيمة قتل

جحدر بن ربيعة — لص فاتك شاعر اعيى الحجاج حتى احتال عليه فحصله وحبسه ثم اصطاد سبعاً ضارياً وجعله في حفيرة والقى جحدر عليه مقيداً و بيده سيف فقتل الاسد وقال

ليث وليث في مجال ضنك كلاهما ذو انف ومحك

فاطلقه الحجاج ومات حتف انفه

المهلب بن ابي صفرة واولاده — كلهم انجاد وكان المهلب يجمع الى النجدة الرأي والحزم وله في الحرب مكايد مشهورة ووقائعه في الخوارج ابادتهم مات حتف انفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الاعجم

مات المغيرة بعد طول تعرض للموت بين اسنة وصفاح

القتال الكلابي — جنى جناية فخافها فاقام في جبل عشر سنين يأكل من صيده

ابو بلال (١) — خرج في اربعين فهزم الفين

شبيب الخارجي — الذي غرق في الفرات واصحابه لا يبلغون الفاً نذرت امرأته

(١) هو ابو بلال مرداس من اجلاء الشراة وجه اليه عبيد الله بن زياد اسلم بن زرعة الكلابي في الفين فحمل عليهم ابو بلال في اربعين وهزمهم ففي ذلك يقول عيسى ابن فاتك الخارجي من ابيات

الفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك اربعونا

وخبر ابي بلال ووقائعه وقتله فصل في كامل المبرد (١٥٧ م ٢)

غزالة تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في احداهما (البقرة) وفى الثانية (آل عمران) فعبر بها جسر الفرات وادخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها والحجاج في الكوفة في خمسين الفاً

قطري — قتل في بعض الوقائع مع المهلب وكان رأس الخوارج خاطبوه بامير المؤمنين

الدولة الهاشمية

الطبقة الثالثة

معن بن زائدة الشيباني — قتله الخوارج في ايام المهدي

الوليد بن طريف الشيباني — هكذا في الاصل

عمر بن حفص — اخو المهلب قيل انه كان يتصيد فتبع حمار وحش وما زال يركض الى ان حاذاه فجمع جراميزه ووثب فصار على ظهره وما زال يحز عنقه بسيف او بسكين في يده حتى قتله

ابو دلف القاسم العجلي — فارس بطل شاعر مغن نديم جامع لما تفرق في غيره طعن فارسين رديفين فانفذهما

المعتصم — كان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ويأخذ العمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق وهمته في فتوحه تناسب شدته في جبلته

قوميتنا ولغتنا

مسألة القوميات من مسائل القرن التاسع عشر ولدت فيه ونشأت وترعرعت وربما كان الفرنسيس اسبق غيرهم من الشعوب المتحضرة الى انشاء القومية والتناغي بها منذ قيامهم بثورتهم الاولى وقد قام اليونان في سنة ١٨٢١—١٨٣٠ وخلعوا طاعة العثمانية باسم القومية وقام البلجيكيون وانفصلوا في سنة ١٨٣٠—١٨٣١ عن الهولانديين بهذا الاسم ايضاً وثار البولونيون في سنة ١٨٣٠ —١٨٣١ والمجر في سنة ١٨٤٨ مدفوعين ايضاً بعامل القومية او الجنسية وساعد نابوليون الثالث على انشاء القومية الايطالية او الوحدة الايطالية في سنة ١٨٥٩ وسها عن تأليف الوحدة الالمانية في سنة ١٨٦٦ — ١٨٧٠ وكثير من الدول العظمى تتخذ من تشابه اللغات حجة لتوحيد الجنسيات والقوميات وضم من تراهم اهلاً لذلك مثل الجامعة الجرمانية والجامعة السلافية وفي البلقان تجري اليوم قاعدة الجنسية على اصولها يريد الروماني والبلغاري والصربي والرومي ان ينشئوا لهم من الضعف قوة و يوحدوا السن من ينضمون تحت لوائهم ويجنسوهم بجنسياتهم خلافاً لما جرت عليه الحكومة العثمانية في الروم ايلي مدة خمسة قرون .

وقد انشأ بعض اتراك الاستانة يؤسسون منذ مدة لنشر لغتهم واقامة دعائم قوميتهم اندية كثيرة مثل « ترك يوردي » و « ترك درنكي » و « ترك اوجاغي » وغيرذلك واليك مقالتين لنا في هذا المعنى كنا نشرناهما في جريدة المقتبس (عدد ١٢٣٠ و١٢٤٦ ٢٥ رجب ١٣٣١ و١٣ شعبان ١٣٣١ه حزيران وتموز ١٩١٣) فان فيهما الماعاً كبيراً الى هذا الموضوع الخطير ولعل الطبقة المفكرة العاملة تعاود البحث فيه بحثاً علمياً مجرداً عن الشعوبية والعصبية

ذكر علي كمال بك من كبار ادباء الاتراك في احدى افتتاحياته الاخيرة في اقدام: مبحثاً في ان القومية هي قوة فقط وردّ بالبراهين التاريخية على من قاموا يؤسسون اندية تركية صرفة فقال ان المانيا حاولت بما فيها من قوة منذ ثلاث واربعين سنة وقد استولت على ولايتي الالزاس واللورين من فرنسا ان تجعل اهلها المانا في لغتهم ومناحيهم فنوعت الاساليب بين الشدة والرخاء فلم توفق الى اخراجهم عن فرنسويتهم وان كانت

/٥٥

اصولهم جرمانية في القديم ولكنهم تفرنسوا بعد ونشأ لهم رجال فرنسويون في فروع العلم والادارة والجندية خدموا فرنسا اصدق خدمة وكذلك فعلت المانيا من قبل باستيلائها على مقاطعة شلزويق الدانيمركية فظل اهلها دانيمركيين على الرغم من كل تضييق ومثل هذا يقال عن القسم الذي اقتطعته من ارض بولونيا فان اهله بقوا عَلَى بولونيتهم . ومن طاف اوربا وقضى زمناً في ربوعها يعرف تأثير القومية في الامم الراقية فالالماني لا يحب ان يتخذ عن المانيته بديلاً وكذلك الافرنسي والانكليزي والايطالي وغيرهم من الامم الراقية يتناغى الفرد منهم بجنسيته و يقدسها و يفادي بكل شيء في سبيل الاحتفاظ بها .

قال وانا معاشر الاتراك قد نزلنا هذه الديار منذ ستمائة سنة فانشأنا بقوة فطرتنا وماضينا وتاريخنا دولة وسلطنة وقومية ثم بالرابطة الدينية واشتراك المنافع واتحاد المنازع تجلت القومية العثمانية في مظهر آخر وان الشعوب التي يتألف منها هذا المجموع العثماني مهما ذهبت من المذاهب في امانيها لا ترى بدأً من احترام « العثمانية » ومحبتها فعلينا نحن الاتراك ان نعمل على تأييد هذه الرابطة بقوة الخلافة والسلطنة واللسان وما لنا من الانسال المتفرقة في قسم من قارة آسيا فنجعل العثمانية مستندنا لا التركية وحدها لان هذه اذا اتبعنا في الدعوة اليها خطة الشدة لا تلبث ان تزول وتنطفئ جذوتها .

ولقد اخذنا منذ عصور نقرب الينا الشعوب العثمانية الاخرى ولا سيما من تربطنا بهم جامعة الدين مثل الاكراد والجركس واللاز وغيرهم حتى كاد يظن المرء انهم امتزجوا بنا فكبرت بهم قوميتنا التركية من حيث الكيفية والكمية والمادة والمعنى ولكن اخذ بعضهم آخراً يفرطون في الدعوة الى التركية فكان من اثر ذلك ان اصبح اولئك الشعوب يبتعدون منا فتنبهت فيهم فكرة قوميتهم الاصلية وانشأوا يعملون على اعادة مجدها مما يورث الدولة ضعفاً فيقل عددنا كثيراً من حيث القومية في حين اننا اسسنا هذه السلطنة بالتكاتف يداً واحدة مع هاته الشعوب فاذا افترقنا عنهم نكون قد عبثنا بكياننا . وكم تركي صرف يبقى يا ترى من ازعيل الذي بيض وجوهنا من الاسلاف والمعاصرين الذين اشتهروا بفضلهم وكمالهم وعقلهم . وعجيب كيف لم نعتبر بما اتى علينا من المهالك ونحن نريد ان نقوم اليوم بما يعرض حياتنا للخطر غير معتبرين بما جرى .

***

هذا محصل ما قاله صديقنا وقبيل ان احصله للقراء اطلعت في « طنين » على مقال

بتوقيع « احمد توفيق » ذكر فيه رحلته الى بيروت فقال ان ستين في المئة من سكان الاستانة من اصل تركي ومع هذا نرى ثمانين في المئة من مشاريعها واعمالها غريباً عن التركية والحال ليس كذلك في بيروت فان كل ما انشئ فيها من الاعمال قد تعرب وانت لا تحتاج لمعرفة غير العربية في الرفا والترام والسكة الحديدية والمخازن لان بيروت قد عربت كل ما دخل عليها ولم تبعد من العربية كل ما صدر عنها . فانا نرى العرب الذين تفرقوا في اقطار المعمور مهما طالت غربتهم عن ديارهم لا ينسون قوميتهم فلا نسمع في احياء العرب في نيويورك وبونس ايرس غير اللسان العربي وبواسطتهم دخلت عادات العرب واخلاقهم الى تلك القارات الواسعة ولا مناص لمن ينزل هذه الديار بضعة اشهر من ان يستعرب فيندمج في العرب للحاجة الماسة في حين نرى التركي الذي يقيم بضع سنين في فرنسا ينسى لغته او يتناساها او يصحح على الاقل وهو يمزج في حديثه الفاظاً افرنجية وهذا وان كان من اسباب فقر اللسان لكن السبب الرئيسي فيه فقدان فكر الوطنية من النفوس

وانك لتجد في بيروت حتى المدارس الاميركانية والافرنسية التي تبث الافكار الاجنبية لم يكتب لها البقاء الا عندما تعربت . والكليتان الاميركانية والفرنسوية قد جعلا للعربية مقاماً جليلاً والمعلمون كلهم محيطون باللغة العربية ومنهم المؤلف والاديب والكاتب على حين نرى امثال هذه المدارس في الاستانة لا يكاد يوجد فيها من يتكلم بغير اللسان الافرنجي ومهما افتخر الفرنسيس بكليتهم البيروتية وقالت جريدة الطان عن سورية انها القطر الذي فتحناه بلساننا فان الحقيقة الراهنة ان هذه المدرسة لم تفتح البلاد بلسانها بل ان المملكة قد ارجعتها الى قوميتها الخاصة ولسانها الخاص اي ان العرب لم تأسرهم هذه المدرسة بلغتها بل اسروها بلغتهم

***

اليك زبدة المقالتين والاولى ترمي الى التخفيف من التحمس للتركية لئلا يقل عدد الاتراك الحقيقيين والثانية تدعو قراءها الى التشبه بالعرب في قوميتهم والتحمس لها حتى يبتلعوا غيرهم ولا يبتلعهم غيرهم . وكلا المقالين صحيح فان الشعوب لا تقهر على الاخذ بلسان غيرها مهما كثرت عليها عوامل الضغط والارهاق وحالة التركستان التاتارية وبولونيا الروسية اعظم شاهد من هذا القبيل فان روسيا تسعى بكل ما لديها من قوة حتى تجعل سكانها روساً فلم يتيسر لها ذلك حتى الآن وانما الناس يتكلمون لسان

قوم ويتجنسون بجنسيتهم اذا وجدوا فيهما لهم مصلحة كما وقع لكثير من الروس والطليان والمجر والالمان والبولونيين والتشك والبوهيميين في اميركا الشمالية فان البلاد قد جذبتهم اليها بسائق طلب المعاش اولاً ثم حببت نفسها اليهم بنظامها وعاداتها وغناها فنسوا على التدريج السنتهم بعض الشيء واندمجوا في غيرهم «فتأمركوا» واذ كانت الولايات المتحدة حتى اليوم مجموعة جنسيات ولغات مختلفة لان الهجرة اليها لم تنقطع بعد فان الجيل القادم او الذي بعده يصبح اميركيًا لا محالة بعاداته واخلاقه ولغته

والتعرب ايضًا يقاس على هذا المقياس فقد انتشرت العربية من اقصى الشمال الغربي من افريقية الى اوسطها الى تخوم فارس بقوتين قوة الدين الذي يقضي على من يدين به ان يتعلم اللسان العربي لان صلاته ومناسكه كلها عربية والقوة الثانية قوة المصلحة لان الامم المغلوبة وجدت مصلحتها في الاخذ بلسان الفاتحين ومهما حافظ القليل وسط الكثير على ارثه الطبيعي من حب قوميته ولغته فان هذا الحب يضعف فيه مع الزمن ولذلك لا مناص من تأمرك عرب نيويورك وبونس ايرس مهما طال عليهم الزمن وكذلك الحال في بقايا من العرب المصريين انقطعوا من جيش ابراهيم باشا المصري لما اوغل في صميم آسيا الصغرى فاتحًا فانهم لا يزالون الى اليوم في لواء انطالية من اعمال قونية عربًا ومع هذا فالامل ضعيف جداً في بقائهم على عربيتهم فاما ان يصبحوا اروامًا بلغتهم كما اصبح مسلمو كريت او اتراكاً . والتركية والرومية تتنازعانهم هناك . ومثل ذلك يقال في المهاجرين الجركس والششن والطاغستانيين والاتراك الذين نزلوا ولايات سورية وبيروت وحلب واستوطنوها فانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بقوميتهم ولسانهم اكثر من خمسين سنة واخذنا نرى اولادهم وقد تعربوا مختارين او مضطرين وهذا لما وقر في صدر كل مسلم من وجوب تعلم العربية ومن تنازل عن جنسيته ليتخذ العرب قومه لا يرى غضاضة عليه فيما اتى لانه يكون خرج من شعب ليس له تاريخ مجيد كالعرب ولا لسان فيه كل اسباب المدنية كلسان العرب

العربية مرنة للغاية على الرغم مما يدعي صعوبتها بعض من لا يحبون ان يتعبوا انفسهم ولو اشهراً في تعليمها ولذلك يندمج فيها اهل العناصر الشرقية الاخرى اكثر مما يندمج اهلها في اهل تلك العناصر . وحال مصر في هذا الشأن ادهش واغرب فانك ترى الرومي والايطالي والنمساوي والمجري والاسباني والانكليزي يكلمون المصريين بلهجتهم مع انه ندر في الطبقة المستنيرة من المصريين من لا يحسن التكلم بلغة اوربية مشتركة

ولا سيما الافرنسية والانكليزية كل هذا الان المصلحة تقضي بان يتعلم نزيل المصر بين لسانهم يكلمهم على اختلاف طبقاتهم حتى ان انكلترا وضعت شرطاً على كل من يحب تقلد الوظائف في مصر والسودان من ابنائها ان يحسن اللسان العربي وجعلت جائزة مهمة لمن يكتب له احراز قصبات السبق بين اقرانه وسيتعرب كل من يرى مصلحته من اهل هذه العناصر البقاء في مصر ولو بعد حين مهما حافظ على قوميته ولغته لان الجوار يعدي على نحو مانرى بلاد القوميات المجسمة كالفرنسيس والطليان والالمان مثلا يتكلم سكان الحدود لغتين لغة البلاد التي هم منها ولغة المملكة المجاورة وهذا كثير في الشرق ايضاً فان بعض اهل الجزيرة لمتاخمتهم لبلاد فارس والاكراد يتكلمون مع العربية بالفارسية والكردية واحياناً بالتركية وهكذا سكان تخوم الهند من الافغانيين والايرانيين .

ثم ان العربية تعرب كل مايدخل اليها من الاوضاع لان في العرب خاصية التقليد والاقدام على امور المعاش من مذاهبه الطبيعية ولذا ترى اكثر العمال في السكك الحديد الفرنسوية وشركات الترامواي في بيروت ودمشق عرباً لان تلك الشركات لاتجد في ابناء جنسها من يضاهيهم في عملهم ومعارفهم بمثل الرواتب التي تؤديها اليهم وهكذا قل عن مصر ولكن الاتراك لا يتعلمون مباديء اللغات او العلوم الاليتوظفوا في خدمة الحكومة وهذا هو السر في قلة مثول التركية في المشاريع والشركات في الاستانة مثولها في بلادنا

وهنا سؤال وهو هل تستطيع فرنسا بعد استيلائها على مراكش كما استولت على الجزائر والتونس ان تجعل اهلها فرنسيساً مع الزمن وهل يكون نصيب طرابلس وبرقة مع الطليان ومصر مع الانكليز كذلك اما جزيرة العرب وما تاخمها من الاقطار العربية اللسان فانها تبقى عربية صرفة كمصر لان بعض اجزائها اخذت من الحضارة الغربية حظاً وانشأت تدمجه في لغتها وابدت من المرونة ما قربها من مناحي الممدنين فتعلم بعض اهلها شيئاً من السن الاجانب ولم ينسوا السنتهم اما الجامدون كبعض اهل المغرب الاقصى والاوسط فانهم اذا ظلوا على تعصبهم على اللغة الفرنسوية يضيعون اللغتين معاً خصوصاً وولاة امرهم الفرنسيس اشد الامم تناغياً بحب لغتهم ومناحيهم حتى يقال انهم اقل الامم تعلماً للغات الاخرى في حين عدوا نحو ثلث سكان بريطانيا العظمى يعرف اهله اللغة واللغتين والثلاث الغريبة عنه ومن اراد منا الاحتفاظ بقوميته ولغته على وجه الدهر

فعليه ان لا يحتقر قومية غيره ولا لغته وان يداوي معرفته بتعلم لغة او لغتين من لغات السياسة والتجارة و بذلك تسلم له لغته و يعرف كيف يحتفظ بها

***

في ساعة واحدة تناولت كتابين غريبين في بابهما احدهما من ليبسيك احدى قواعد الامبراطورية الالمانية والثاني من دمشق قاعدة البلاد العربية . الاول كتب باللغة العربية وهو صادر عن اشهر باعة الكتب هناك يريدنا على ان نبتاع منه كمية من المصاحف الشريفة التي جود طبعها في المانيا بمعرفة زمرة من اهـل العلم و بعث الينا بنموذج منها وقد رجانا في آخر كتابه ان نجيبه ان استحسنا باللغة الالمانية او الانكليزية او الافرنسية لانه يحسنها

اما الكتاب الثاني فهو من دمشقي نشأ في دمشق وتخرج في المدارس العليا وتعـلم احدى الصناعات الحرة وله غرض بادارتنا فكتب الينا كتاباً باللغة التركية فلما فضضناه اسفنا جداً ودفعناه لاول نظر الى حامله وقلنا له قل لصاحبك ان يكتب الينا ان احب بلغتنا ولغته فان وقتنا لا يتسع ان نترجم افكار كل من يريد نشر شيء من اللغة الـتي يستحسنها او يحسنها او يزين له عقله التفاصح بها .

وجه الغرابة في الكتابين ظاهر لادنى تأمل وهو ان رجلاً المـانياً يريد ان يبيع نسخاً من الكتاب العزيز من مسلم في بلاد الاسلام فيخاطبه بلغته عَلَى بعد الديار وقـلة من يكتب له بالعربية في بلاده والثاني مسلم عربي يكتب لعربي في صميم بلاد العرب باللغة التركية . فما هذه العناية من الاول وقلتها من الثاني : غربي يستعرب في الغرب وعربي يتترك في بلاد العرب !

من اضحك الاطوار ان تشاهد عربياً يكلم ابن جنسه او يكاتبه بغير لغته لغير داع فكأن المتخاطبين يشيران بلسان الحال الى ان اللسان الذي نتخاطب به ارقى من لساننا وادل على علو كعبنا واستبطاننا اسرار المعارف في حين نرى ابناء المدنية الحديثة مها بلغ من انحطاط اممهم وصغر عددها وقلة شأن تاريخها اذا خلوا بعضهم الى بعضهم لا يتكلمون بغير لغتهم ولا يتكاتبون بسواها .

وكم روى لنا السائحون الى ديار الغرب منا انهم كانوا يكلمون الانكليزي بالافرنسية وهم في غير الديار الانكليزية فاذا ما بلغت بهم السفينة احدى موانيء الجزائر البريطانية لا يعود ذاك الانكليزي ينطق بكلمة بالافرنسية . وقد سئل بعضهم في ذلك فقال نحن

الآن في بريطانيا العظمى فلا يسوغ لنا ان نتكلم بغير لغتها وكذلك الالماني مع اللغة الانكليزية او الافرنسية فان معظم رجال التجارة والعلم في المانيا يحسنون احدى هاتين اللغتين او كليهما معاً فاذا دخلت عليهم في بلادهم يتجاهلونهما ليضطروك الى التفاهم معهم بلغتهم ويحملوك على تعلم الالمانية من حيث تشاء او لا تشاء ·

ولا نزال نعجب بصنيع علماء المشرقيات في هولاندة فانهم طبعوا بضع مئات من كتب العرب في مطبعة ليدن الهولاندية وجعلوا جميع حواشيها ومقدماتها باللغة الهولاندية مع انه قل جداً من يعرف هذه اللغة حتى من اهل اوربا المجاورين لبلاد القاع

هذا والطابعون والناشرون موقنون بان كتبهم لا تباع في هولاندة فقط بل انها تروج في المانيا وايطاليا والنمسا والمجر وانكلترا واميركا وفرنسا وروسيا واسبانيا بل وفي غيرها من بلاد الشرق ولا سيما بلاد العرب فلولا حبهم للسانهم لما رأيت تلك المقدمات والشروح الا باللغة المشتركة بين الامم في الغرب كالافرنسية مثلاً او اللغة العربية التي نشر الكتاب برمته فيها والناشرون لامثال هذه الكتب يكتبون بهاتين اللغتين على التحقيق او باحداهما قطعاً ·

اننا بزهدنا بلغتنا نزهد في قوميتنا وتاريخنا ومن لا ينتسب الى اصله ينكره الفرع الذي يحاول ان يتقرب منه · ان عظمة العرب وعظمة مدنيتهم وحسن بيانهم دع ما هناك من الروابط الدينية مما يدعونا الى التناغي بلساننا والحرص على تعلمه واجادة التخاطب والتكاتب به غير مخلين باصل من اصوله ما امكننا ذلك لان من لا يغار على مشخصاته كان حرياً بان لا يغار على اي عزيز ويستحق احتقار غيره ·

اننا نحبذ كل من يتقن منا لساناً اجنبياً حتى ولو حذق لغة مالطة لما في ذلك من الفائدة فكيف باللسان العثماني وحاجتنا اليه امس · ولكننا نحب ان تكون الميزة للساننا الشريف لان الله جعل له هذا المقام المحمود · ومدنيتنا وتاريخنا ومجدنا اعظم باعث لكل من ضعفت فيهم اعصاب العصبية القومية ان ينزعوا من نفوسهم تلك المؤثرات التي فيها من الصغار والذل ما لا يرضاه من عرف امته ويريد ان يحيا بها

ان في تاريخ لغات الامم المتمدنة لعهدنا اعظم محرض لنا على الاحتفاظ بلغتنا مهما كلفنا ذلك فقد رأينا الفلامندي في البلجيك يتفانى في بث لغته حتى جعل لها ادبيات واقام لها شأناً في جنب اللغة الافرنسية التي يتكلم بها نحو نصف اهالي بلجيكا وكذلك رأينا الهولاندي والدانيمركي والسويدي والفنلاندي من صغار شعوب الشمال في

اوربا يحتفظون بالسنهم ولم تكن منذ مئتين او ثلثمائة سنة بالتي يعرف لها شأن بين اللغات

واعظم معلم لنا في هذا الباب اهل بوهيميا من مملكة النمسا والمجر فان لغتهم وهي لغة التشك كادت تندثر من السن اهلها في القرن السابع عشر بما تغلب عليها من اللسان الجرماني فعاد استاذان من اساتذه كلية براغ الى احيائها بنشرهما مخطوطاً في آدابها زعما انه قديم وقيل انهما هما واضعاه فبعد ان كان البوهيمي يكتب بالالمانية ويؤلف ويخطب بها والالمانية عنده لغة الصنائع والتجارة والادب والتمثيل والصحف عادت فانبثت لغة التشك في نفوس ابنائها حتى اصبح المتكلمون بها في بوهيميا وحدها الآن زهاء تسعة ملايين بوهيمي او تشيكي ومليوني نسمة من المورافيين وزهاء ثلاثة ملايين من السلوفاك في هنغريا واصبحت الآداب التشيكية مما يتنافس فيه كما يتنافس بمدنية البوهيميين وصناعاتهم وصارت كلية براغ اخت كلية برلين وفرنكفورت ومونيخ وفينا من عواصم البلاد الجرمانية وربما فاقت كثيراً من كليات اوربا ·

لغة مجهولة احياها بضعة من اهلها بعد دثورها ونحن نرى بعض المستنيرين منا يضيعون بتهاملهم لساناً كالعربية يفاخر الغربي قبل الشرقي بتلقفه وبعد تحصيل ملكته من النعم · ان البوهيميين اعظم مثال في تناغي الامم باللغتها ولا تنس سكان الالزاس واللورين الفرنسويين ولا سكان شلزويك هولستاين الدانيمركيين مع المانيا ولا البولونيين مع روسيا ولا غيرهم مع غيرها فكلها عبر لنا معاشر العرب

لسان يتكلم به سبعون مليوناً من الناس ويتعبد به زهاء مائتين وخمسين مليوناً من اهل الاسلام واهله لا يهتمون له واللسان العبراني والروماني والبلغاري والارمني على قلة الناطقين بها مثلاً يتخذ اهلها كل ذريعة لنشرها ويستميتون في الاخذ بناصرها فتأمل الفرق بين كثرتنا وقلتهم وغنانا بلغتنا وفقرهم بالسنتهم وانحلالنا في وطنيتنا واستبسالهم في الحرص عليها ·

الحركة العلمية

في البلاد العربية العثمانية

مضت ست سنين على اعادة انتشار القانون الاساسي في المملكة العثمانية ربحت البلاد العربية من نعمته بعض الربح من حيث النور والعلم لانه بفضل الصحف والمجلات والاندية والجمعيات التي أنشئت في العراق والشام وغيرهما من الاقطار انتبهت العقول قليلاً من رقدتها وشعر العرب بان هناك حياة ثانية ارقى مما هم فيه بكثير ولا يتيسر لهم الاستمتاع بها الا بالاخذ بحظ وافر من التعليم والتربية ·

لو لم يكن من فضل حرية القول والاجتماع في العهد الاخير على ما فيهما من القيود الا ادراك الناس لهذه الحقيقة لكفى بها منقبة تؤدي الى احسن مغبة فان كل نهضة لا تقوم على اصولها الا اذا جعلت لها من التعليم العصري اساساً وهذا ما كاد اليوم يشعر به ابن البادية والدساكر دع ابن المدن والحواضر من كل من كثر اختلاطه بالغريب واعتبر بما شاهد من حوادث الايام حتى ان جميع الاقطار التي سقطت في ايدي حكومات الاستعمار كان السبب الرئيسي في استصفائها جهل بنيها الذي فتح الابواب للعدو فاستباح حماها وقبض بعمله على قيادها عفواً صفواً كذا كان شأن جاوة مع هولاندة والهند ومصر مع انكلترا وفارس مع روسيا وانكلترا وطرابلس وبرقة مع ايطاليا وتونس والجزائر مع فرنسا ومراكش مع اسبانيا وفرنسا والروم ايلي مع حكومات البلقان فبالعلم كان قليل العدو كثيراً وبالجهل كان كثير تلك البلاد قليلاً ·

وانا اذا اطلقنا العلم هنا فلا نعني به علوم الآخرة فقط بيد ان هذه اذا درست على اصولها نفعت ايضاً في الدنيا ولكن علوم العالم هي كل ما يعمره ويعرف الامم طبائعه واسرار بقائه وفنائه · نريد بالعلم العلوم التي بها فتحت اوربا العالم واستعمرته فاصبحت كلمتها هي العليا وتراجع امر الشرق الى مانراه عليه من الانحطاط المادي والسياسي والادبي بل السقوط المؤسف في عوامل الحياة الفاضلة السعيدة ·

كان جمهور المسلمين في هذه الديار العربية الى عهد قريب يرون السعادة في اتخاذ

صناعتين تعلم الفقه لتولي مناصب القضاء والافتاء والتدريس او تعلم شيء من العلوم التي تؤهل الطالب الى تولي الاعمال الجندية والادارية والكتابية فالمحور يدور على التماس الشرف من مناصب الحكومة وسبيل ذلك درس فروع قليلة مما يقتضي لهذا الشأن ومنها ماهو قشور لا لباب فيه · وبينا كان اخوانهم المسيحيون والاسرائيليون يتعلمون في مدارسهم الطائفية ومدارس المرسلين الاميركان والانكليز والالمان والفرنسيس والطليان والروس وغيرهم مايؤهلهم الى التجارة والصناعات الحرة في الجملة مثل الطب والهندسة والحقوق كان المسلمون تتلمظ شفاههم بحلواء التوظف والاعتماد على الاوقاف والرواتب جمدوا عليها فتأخروا في ثرواتهم وقل الهناء في بيوتهم وضعف مستوى العقول حتى امسوا وكثيرون يغبطون السارق والمرتشي والمزور من الموظفين والمستخدمين ويعدون عمله مهارة وتوفيقاً لانه اكتسب من الحرام مالاً وتأثل وارتاش واضاع حقوقاً ليملأ كرشه وجيبه · ومن الغريب في نظام هذا الاجتماع ان يحبس من يسرق ديناراً يأكل به وعياله خبزاً ولا يعاقب بل يمدح السارق الكبير الذي يعرق اللحم عن العظم ويخرب قرية او بلدة برمتها ليشتري بما يسرق منها دكاناً او بستاناً او يعمر قصراً وداراً ·

نعم ان الدستور عرّف الناس نقصهم وان كانوا لم يبرحوا في معظم البلدان العربية في دور الاقوال ولكن القول درجة العمل كما ان الشك اول مراتب اليقين · ومن النعم العظمى ان يعرف الانسان محال الضعف منه ومن عرف نفسه عرف ربه · عرفوا نقصهم فاخذوا يفكرون في تعلم الصناعات الحرة التي قوامها الاعتماد على النفس والخروج عن قيود الاتكال الى باحات الاستقلال وقد زاد الاقبال على ذلك في الشام والعراق خاصة لما ايقن الناس بان خزانة الدولة تضيق عن اعاشة كل طلاب الوظائف بعد ان انسلخت ليبيا ومكدونية وتراكيا والبانيا عن جسم المملكة العثمانية

لم تكن قبل هذا الدور تسمع بان من المسلمين في مدارس الغرب طلاب هندسة وزراعة وحقوق وكيمياء وسياسة وفلسفة واليوم تجد منهم عشرات من ابناء الشام والعراق خاصة وهذا العدد وان كان قليلاً بالنسبة لكثرة سوادهم لكن الرجاء معقود بزيادته كلما سدت في وجوه الناس طرق الاستخدام في الوظائف واقتنع القوم بان مذاهب المعاش في العالم ثلاثة الزراعة والصناعة والتجارة وان الاستخدام ليس مذهباً طبيعياً من مذاهب المعاش

التعليم العالي هو الذي يكون امة ولا فائدة بتعلم افراد هذا الضرب من التعليم الا اذا عمت المعارف سواد العامة · وهذا اخذت تتكفل به المدارس الابتدائية والوسطى التي أنشئت مؤخراً مثل المدرستين العليه والعثمانية في دمشق والكلية الاسلامية العثمانية ودار العلوم في بيروت والمدرسة العلمية ومدرسة الاتحاد الوطني في حمص وغير ذلك من الكتاتيب والمدارس التي أُنشئت في صيدا وطرابلس وحلب وحيفا ويافا والقدس ونابلس وكلها قامت بهمم الافراد من اهل الطبقة الوسطى والاغنياء كانوا في الجملة بمعزل عن المعاونة ولو كان جمهور ارباب الاموال والاملاك متعلماً لقامت حتى الآن الوف من المدارس والكتاتيب في الولايات العربية لاتزال تشتد حاجة البلاد اليها ولا سيما في غير المدن بل لانشأ كل قطر من الاقطار العربية مدرسة كلية او جامعة فاصبحنا نقول جامعة الشام وجامعة العراق وجامعة الجزيرة وجامعة اليمن وجامعة الحجاز كما نقول الآن الجامعة المصرية وكلية الاميركان وكلية القديس يوسف

وفي العهد الاخير انشئت جمعيات خيرية تعليمية ولا سيما في بيروت ودمشق وحمص توفر العناية بتعليم ابناء الفقراء وفي دمشق منها الآن خمس جمعيات تعلم زهاء اربعمائة طالب على نفقتها ومنها التي انشأت لها مدارس خاصة مثل جمعية الاسعاف الخيري وجمعية المقاصد الحسنة · والجمعية الخيرية الاسلامية في حمص تعلم نحو الفي فقير · وهذه الجمعيات تقوم بمعاونة المحسنين من اهل الطبقة الوسطى ومن دونهم ايضاً كما ان جمعية المقاصد الخيرية في بيروت والمقاصد الخيرية في صيدا تقومان بريع املاكهما لانهما استنامند زمن ونمتا معه بفضل العقلاء من الوطنيين

كثرت الصحف في السنين الست الاخيرة ولا سيما في حواضر الشام والعراق وانشئت صحف في الموصل ما برحت ضئيلة تغلب عليها العجمة بخلاف الصحف الشامية والعراقية التي اخذت تكتب بلغة سلسة متينة في الجملة ولغة صحف الشام ارقى من لغة صحف العراق وان كانت هذه قطعت شوطاً محموداً في هذه الاعوام القليلة حاشا مجلة لغة العرب البغدادية ومن يؤازر فيها من المنشئين والباحثين فانها عَلَى اسلوب المجلات الافرنجية الاخصائية سدت فراغاً في تاريخ العراق والبحث في آثاره

انشئت مطابع كثيرة على عهد الدستور في بلاد الشام وفي بغداد والبصرة والموصل ولكن مطبوعاتها ما برحت قليلة نادرة لان المؤلفين المجيدين قلائل والناس ما برحوا يقبلون على المطبوعات المصرية لانها صادرة من بلاد هي اعرق الاقطار العربية في

العلم على اختلاف ضروبه واهلها ارقى العرب بل المسلمين ولعله لا يتم هذا العقد من عقود الحرية حتى تبدأ المصنفات العصرية والقديمة تصدر من هذه المطابع فقد انشأ بعض شبان المؤلفين يؤلفون في بيروت ودمشق وبغداد في العلوم الطبيعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية كتباً مدرسية خصوصاً بعد ان رأوا اقبال المدارس الاهلية على التعليم بالعربية وانشأت الحكومة مدرسة سلطانية عربية في بيروت ومثلها في دمشق تعلم العلوم كلها باللغة العربية · وهاتان المدرستان اذا انشئت خمس مثلها في بغداد والبصرة وصنعاء ومكة والموصل توشك ان يكون من اثرهامها كانت درجة تعليمها الرسمي منافع للناس فتفيدهم في تهذيبهم وتكون لكثير من الطلبة مدارس اعدادية تهيئهم للدخول في الجامعات الكبرى واتخاذ الاعمال الاستقلالية ومن هذه الطبقة ينشأ العلماء والمفكرون والباحثون

ثلاثة عوامل انشأت هذه النهضة : المدارس الاهلية وما يلحقها من اقبال ارباب اليسار على تخريج ابنائهم في مدارس الغرب العليا · والجمعيات الخيرية التعليمية وتعددها · والصحف والمجلات والكتب وكثرة انتشارها لرخص اثمانها · ولو ضم اليها عامل رابع آخر وهو ارتقاء فن التمثيل وتسهيل غشيان دوره على جميع طبقات الشعب كافة لتمت الامنية من انهاض هذه الولايات من كبوتها ولما انقضت ثلاثون سنة الا وهي على مستوى مصر برقيها الادبي

وبعد فان ما يبلغنا عن قطري اليمن والحجاز لا يصح ان يكون من مجموعه ما يستدل منه على انه حدث فيهما شيء جديد في العهد الاخير من حيث النهوض العلمي الحديث والغالب ان للفتن والتعصب يداً طولى في هذا التثبت ولعل الحوادث تعلم المستنيرين من اهلها ما يجب عليهم القيام به وتدفعهم الى العمل بالعهد الذي اخذه الله على العلماء في تعليم الجهلاء ·

مخطوطات ومطبوعات

ثلاث مجلات جديدة

الاولى « المرآة » وهي اسبوعية مصورة تصدر الآن مرتين في الشهر لصاحبها ورئيس تحريرها خليل افندي زينية وهو من كتاب الطبقة الاولى وقدماء رجال الصحافة العربية تصدر في مدينة بيروت وفيها مقالات منوعة عصرية فكاهية وادبية وتاريخية وصور منوعة شرقية وغربية وان ماعرف به صاحبها من الخبرة الواسعة في صناعة التحرير والتحبير ليدعونا الى الرجاء بنجاح صحيفته الجديدة وقيمة اشتراكها في الولايات العثمانية عشرون فرنكاً وخارج السلطنة خمسة وعشرون

الثانية « مجلة المنتدى الادبي » تصدر بادارة احمد عزت افندي الاعظمي وعاصم افندي بسيسو في مدينة الاستانة مصورة وسنتها عشرة اشهر في ٤٨ صفحة كل شهر وهي خلف لمجلة « لسان العرب » التي صدرت في السنة الفائتة حولاً كاملاً ويحرر هذه المجلة زمرة من رجال العرب في عاصمة السلطنة وخارجها وفي العدد الاول صور بعض المشاهير ومقالات منوعة في الاجتماعيات والادبيات وغيرها مما يرقي العقول ويهذب النفوس وهذه المجلة هي احدى حسنات المنتدى الادبي الذي هو اجمل اثر قام لطلبة المدارس العليا من ابناء العرب في عاصمة آل عثمان . فنرجو لها النجاح الذي تستحقه وقيمة اشتراكها ثلاثة ريالات في البلاد العثمانية وستة عشر فرنكاً في الخارج وللتلامذة ريال ونصف

الثالثة « المستقبل » مجلة علمية ادبية عمرانية اسبوعية تصدر في القاهرة في عشرين صفحة لصاحبها ومحررها سلامة افندي موسى من افاضل المفكرين في وادي النيل معروف بين المؤلفين والعالمين والمتأدبين بما نشره من مقالاته وتصوراته في المجلات المصرية ولا سيما « المقتطف » وقد تصفحنا الاجزاء الاولى من هذه المجلة فرأيناها توخت اولاً « جمع وتنسيق المعارف العلمية والعمرانية التي يشتغل بها العلماء الاوربيون ونشرها لقراء العالم العربي حتى يعتاد كتبته ومؤلفوه طريقة التفكير العلمي الصحيح ويقلعوا عن التقليد في النظر للمسائل العمرانية فنتحرر بذلك من القيود التي وضعها

106

اسلافنا وننظر لمستقبلنا كصحيفة بيضاء نكتب فيها ماانشاء . وثانياً : توجيه الادب العربي الحديث في الوجهات التي يتجه اليها الادب الاوربي وتسييره على المبادئ التي يرسمها كبار الادباء في اوربا . وذلك اعتقاداً بان الادب الافرنكي قد فات الادب العربي بمسافات بعيدة . وكما ارتقى الافرنج في الصناعة والزراعة والطب والهندسة الخ وتأخرنا نحن عن اللحاق بهم فكذلك ارتقى ادبهم وتأخر ادبنا واصبح من الضروري ان نحتذيهم في طرائقه واساليبه حتى نلحق بهم . »

وفي المجلة شذرات ومقالات وقصص ونوادر في هذا المطلب الذي وضعته وتوخت فيه تقليد المجلات الانكليزية فجاءت هذه الصحيفة باسلوبها وصراحتها في افكارها مثال الصحف المفكرة التي ترمي الى غرض مهما كان الباعث اليه فهو شريف لانه يراد منه انارة العقول وتنقيتها من الشوائب والفضول . فنرجو لهذه المجلة الثبات ليطرد صدورها ويكون من اثرها عموم النفع في العالم العربي . وقيمة اشتراكها في مصر ٣٢ قرشاً صحيحاً وفي الخارج تسعة فرنكات

تاريخ صيدا

تأليف الشيخ احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان طبع في مطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣١ ص ١٧٦

لصديقنا مؤلف هذا الكتاب صاحب مجلة العرفان همة شماء ونظر بعيد في كل ما يعلي شأن الآداب ويؤيد كلمة الحق وآخر ما اصدره من تأليفه هذا التاريخ الذي افرده لمدينة صيدا وحدها مستنداً فيه الى مظان كثيرة عربية وافرنجية وتركية فجاء منسق الاسلوب سلس الانشاء يحوي عمران ذاك الثغر البديع وتاريخه منذ عرف الى وقتنا الحاضر لا يستغني عنه كل من يريد الالمام بحال هذه المدينة وجميع ما يتعلق بها من المعلومات بل ان كل من ينزل صيدا مقيماً كان او ظاعناً لا بد له من الاخذ عن هذا السفر البديع الذى جمع مؤلفه اثابه الله في ورقات ما تفرق في بطون عشرات من المجلدات وفيه فوائد في زراعة البرتقال وبكي دنيا وغير ذلك لا يستغني عنها كل من يحب الاطلاع على هاتين الشجرتين اللتين كانتا سبب غنى صيدا في عهدها الحديث فانعم بهذا العمل ولو كان كل عالم يخدم بلده وشعبه خدمة صديقنا لها لكانت سورية في مقدمة اقطار الشرق في العلم والعمل ولا شك ان كتابه سيصادف الاقبال الذي يستحقه فضله ووطنيته

العراقيات

الجزء الاول لجامعه رضا وظاهر وزين طبع بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣١ ص ٢٠٩

ثلاثة رجال يفاخر بهم جبل عامل لطول صبرهم على خدمة العلم والادب ونعني بهم الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ احمد عارف زين وقد جمعوا في هذا السفر ما تفرق من شعر العراقيين فاتوا في هذا الجزء عَلَى ترجمة عشرة من شعرائهم ولباب اشعارهم وهم السيد محمد سعيد حبوبي والسيد ابراهيم الطباطبائي والسيد حيدر الحلي والشيخ جواد شبيب والشيخ ملا كاظم الازري والشيخ عباس بن ملا علي النجفي والسيد جعفر الحلي والشيخ عبد الباقي الفاروقي والشيخ عبد المحسن الكاظمي والشيخ الاخرس البغدادي وترجموهم ترجمة صورتهم للقارئ احسن تصوير ومنها ما هو بقلم الشيخ محمد رضا الشبيبي النجفي العالم الباحث المشهور وفيها ما هو بقلم جامعي الكتاب الثلاثة . وفي شعر العراقيين روح غريبة لا تكاد تعرف لشعراء الشام بل ولا لشعراء مصر على ارتقاء دولة الشعر في مصر هذا العصر ولذا كان جمعه على هذه الصورة من اكبر المعونات على الادب واخراج درر الشعر النوال على هذا المنوال جزى الله جامعيه افضل ما يجازي الغيور عَلَى ادب العرب المتفاني في خدمة الحق

نقد عين الميزان

تأليف الشيخ محمد بهجت البيطار طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٣١ ص ٥٩

مؤلف هذه الرسالة من ناشئة دمشق الادباء جعل رسالته هذه رداً على الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الذي نقد بعض المواضع من كتـاب الفقيه فقيد العلم الشيخ جمال الدين القاسمي وسماه ميزان الجرح والتعديل الذي بين فيه منشأ النبز بالابتداع ومضاره فعمد الاول الى التطرف في بعض ابحاثه للتكفير او التفسيق فرأى المؤلف ان ينقد النقد متلطفاً فيه مورداً بعض الشواهد على صحة دعواه

وقد قال في صفحة ٣١ رداً على من قام من احداث الاسنان سفهاء الاحلام الذين زعموا انهم مصلحون ممن اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات و « قصروا همتهم على دراسة الكتب الغربية ونسوا ما لسلفنا من العلوم العربية وهم الضاربون باوفر سهم في كل فن وعلم عشقوا الغرب واولعوا بلغته وصبغوا بصبغته ، ففسدت اخلاقهم وساءت آدابهم

وصار التفرنج لهم عادة وذكر اوربا لهم عبادة وليت هؤلاء الخفاف العقول قلدوا الاوربيين بالشيء النافع والعمل الرافع ولكنهم يقلدونهم بالازياء واستحسان تبرج النساء واذا نشر الواحد منهم مقالة في صحيفة توهم نفسه انه صار بها المفرد العلم ٠» واسترسل في بيان مضار هذه الفئة والغالب انه يتكلم في اناس مخصوصين وقال ان الله لا ينصرهم على عدوهم ما لم يقلعوا عن غيهم ويرجعوا الى شريعتهم ويسلكوا سبيل السلف الصالح ويرحم الله القائل لن يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها ٠

وكل هذه الجمل حسنة في بابها لكنها تحتاج الى تفصيل وان لم يكن الكتاب من موضوعها فان التفرنج مضر والاقتداء بالسلف وحده لا ينجينا من شرور هذا التيار الجارف المنهال علينا من مدنية الغرب الحديثة فاننا لو تلونا جميع ما خلفه الاجداد من اسفارهم وعملنا به لا تستقيم لنا حال الا اذا اخذنا منهم ما يفرض اخذه واقتبسنا من معلمينا الغربيين علومهم ولذلك نرى من درسوا في الغرب وكانوا على شيء من ادب النفس اعرف بما ينشل هذه الامة من سقوطها من الذين يخاطبونها الحين بعد الآخر بالجمل الخطابية ويلوبون على طريق النجاة ولا يهتدون ولو كتب لبلادنا ان تكون في اوضاعها الى الجد لما شكا العالم الديني ولا العالم المدني من انحطاط الاخلاق والايغال في المفاسد ولكن هذه الموبقات نراها منتشرة في الفئتين على السواء فئة المجددين وخصومها وبودقة المدنية تمحص وتنفي كما ينفي الكير خبث الحديد اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض

شرح قصيدة ابن عبدون

لما اختلت دعوة بني امية بالاندلس سنة ٤٢٧ وتفرق اهلها شيعاً وتغلب في كل ناحية متغلب وتقسم المتغلبون القاب الخلافة من معتضد ومعتمد ومأمون ومستعين ومقتدر ومعتصم وموفق ومتوكل القاب وصفها الحسن بن رشيق بقوله

مما يزهدني في ارض اندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الاسد

وصار الامر كما قال في المعجب « في غاية الاخلوقة والفضيحة اربعة كلهم يتسمى بامير المؤمنين في رقعة من الارض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها » « فاشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا »

لما جرى كل هذا وقويت شوكة دولة المرابطين اصحاب يوسف بن تاشفين فقتلوا

سنه ٤٨٥ بني المظفر ملوك مغرب الاندلس وكانوا ملجأ للآداب وقبلة آمال العلماء والكتاب نظم ابو محمد عبد المجيد بن عبدون من وزراء الاندلس قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه يد الضراب و بين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي اقال الله عثرتنا من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وان زاغت عن النظر
تسرّ بالشيء لكن كي تغرّ به كالايم ثار الى الجاني من الزهر

والقصيدة في خمس وسبعين بيتاً عدد فيها بعد هذه المقدمة ما لقيه ابناء الزمان و بعض امراء الايام من بوائق الحدثان وقد شرحها شرحاً مستوفى ابن بدرون الاندلسي وطبعت في اوربا في جملة ما طبع من كتب الاندلسيين نشرها دوزي المستشرق الهولاندي

مجموع رسائل

في اصول التفسير واصول الفقه جمعها وعلق حواشيها المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي طبعت بمطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣١ ص ٦٣

هي ثلاث رسائل الاولى في اصول التفسير للامام جلال الدين السيوطي وهي اهمها لانه لم يسبق الى الآن في الايدي متن او رسالة يحوي لباب ما يبحث في التفسير الا هذا الذي انتخبه ناشر الرسائل من نقاية السيوطي · والرسالة الثانية في اصول الفقه لابن حزم والثالثة مجمع الاصول ليوسف بن عبد الهادي وعليها كلها حواش تبين غامضها

تاريخ الجهمية والمعتزلة
تأليف المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي

نشر في مجلة المنار اولاً وطبع بمطبعتها بمصر سنة ١٣٣١ هـ ٠ ق وسنة ١٢٩٢ هـ ٠ ش

هذه رسالة مستوفاة للشيخ القاسمي ايضاً تدل على بعد غوره وتحقيقه لعيون المسائل

التي كان يخوض فيها رحمه الله · والجهمية فرقة من فرق المسلمين انتحلت مذهب الجهم ابن صفوان من اهل خراسان ينسب الى سمرقند وترمذ ومحتده الكوفة وكان مولى لبني راسب من الازد اخذ الكلام عن الجعد بن درهم وكان فصيحاً اتخذه الحرث بن سريج التميمي ايام قيامه بخراسان كاتباً له وكان يقص في بيت الحارث في عسكره وكان يخطب بدعوته وسيرته فيجذب الناس اليه وكان يحمل السلاح و يقاتل معه وكان صاحب مجادلات ومخاصمات في مسائل الكلام التي يدعوا اليها وكان اكثر كلامه في الالهيات قتل سنة ١٢٨ هـ في خراسان · ومرجع فلسفة جهم تأويل آيات الصفات كلها والجنوح الى التنزيه البحت وبه نفى ان يكون لله تعالى صفات غير ذاته وان يكون مرئياً في الآخرة وان يتكلم حقيقة واثبت ان القرآن مخلوق · اما المعتزلة فقد نشرنا مبحثاً فيهم في المجلد الثالث صفحة ١٦٠ من هذه المجلة ففيها حقيقة حال المعتزلة ومذهبهم ورجالهم وتأثيراتهم

قاموس القضاء العثماني

لسليمان افندي مصوبع طبع بمطبعة العرفان في صيدا

صدر الجزء الرابع من هذا المعجم المفيد في القضاء العثماني وفيه كالاجزاء السابقة فوائد لا يستغني عنها كل من يعيش في هذه السلطنة من ابناء العرب الذين لا يعرفون اللغة العثمانية فمساهم يقبلون عليه لتصح عزيمة مؤلفه على اتمامه فان كتب الحقوق الحديثة عزيزة في لغتنا وحاجتنا كل ساعة ماسة اليها

دفع الهجنة

في ارتضاح اللكنة لمعروف افندي الرصافي طبع على نفقة مجلة لسان العرب في الاستانة سنة ١٣٣١ ص ١١١

ألف صديقنا هذه الرسالة منبهاً فيها على الالفاظ التي استعملها الاتراك العثمانيون في غير معناها العربي وعلى مالم يكن عربياً وهم يحسبونه عربياً واخذها العرب منهم فاستعملوها استعمالهم واورد على ذلك الامثلة التي تدل على بعد غوره وتحقيقه في هذه المسألة اللغوية

التحفة الايقاظية

في الرحلة الحجازية لسليمان افندي فيضي الموصلي طبعت في المطبعة المحمودية بالبصرة سنة ١٣٣١ ص ٣١٠

هو كتاب لطيف وصف فيه المؤلف رحلته في ذهابه وايابه من البصرة الى الحجاز ماراً بسورية وازمير وسيسام والاستانة وحلب وبغداد وقد ذكر المشاهد والاحوال وما تأثرت به نفسه ووصلت اليه يده من الايضاحات وكلها نافعة . وقد جعل في مقدمة الكتاب التقاريظ النثرية والشعرية التي كتب له بها بعض ادباء العصر وهي في ٩١ صفحة جعلها مفصولة عن الكتاب ونعما فعل فنشكر للمؤلف الفاضل هذه العناية

تاريخ حرب البلقان

تأليف يوسف افندي البستاني بمصر

اجاد مؤلف هذا الكتاب الذي وقع في ٣٢٧ صفحة فذكر فيه الحرب البلقانية الاولى والثانية وحلاه بنحو ٤٠ رسماً وخريطتين ونقل ماقاله المكاتبون الحربيون وغيرهم في هذه الحرب المشؤمة متحرياً ماامكن التجرد عن الغرض على مايجب على المؤرخ وفي الكتاب من المستندات التاريخية الحقيقية ماتقر به العين ويدل على ادب الكاتب

الهدى الى دين المصطفى

الجزء الاول طبع بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣١ تأليف كاتب الهدى النجفي ص (٣٩٣)

هو كتاب في الجدل الديني الفه مؤلفه جواباً على مقالة في الاسلام لجرجيس صال الانكليزي او سايل وكتاب الهداية في الرد على كتابي اظهار الحق والسيف الحميدي لانه وجدهما «على طريقة ينكرها شرع التحقيق في البحث والادب في الكلام والامانة في البيان ولا يرتضيها خدام المعارف» وذلك بلسان هو الى الادب والحجاج الديني المعتدل وينم عن اطلاع على الدينين السماويين الاسلام والنصرانية فلمؤلفه الشكر على عنايته وانصافه في نقده

حقائق وعبر

تأليف اسكندر افندي الخوري البيتجالي طبع بمطبعة القبر المقدس بالقدس سنة ١٩١٣ ص ١٩٤

هو مختار مانشره المؤلف من الشذرات الاجتماعية والقصص الادبية وزنابق الحقل في بعض الصحف العربية السورية وفيه الملذ اللطيف الا ان الخطابيات تغلب على كلامه مثل فصل الشرقي والغربي والتفاوت بينهما فانه لم يأت فيه باقل من القليل

الذي يجب ان يقال فيهما كأن كلامه اشبه بكلام تلميذ صغير يبتدئ بالكتابة من جديد اما سائر الكتاب ففيه الحسن الجيد

رسائل وكتب مختلفة

دليل لبنان وسورية لمنشئه بولس افندي مسعد الجزء الاول طبع في مصر سنة ١٩١٢—١٩١٣ص ٤٥٢

رجال المعلقات العشر للشيخ مصطفى الغلاييني طبع بالمطبعة الاهلية ببيروت ١٣٣١ في ٣٠٨ صفحات

سحر بابل او ديوان السيد جعفر الحلي النجفي طبع بمطبعة العرفان = في صيدا سنة ١٣٣١ في ٤٦٦ صفحة

الفصول المهمة في تأليف الامة لمؤلفها الشيخ عبد الحسين بن شرف الدين الموسوي العاملي طبعت بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣٠ في ٢٣٨ صفحة

الشبيبة والمرأة او الضجة بين الاديب (ف) والاديبة (ز . ف) على صفحات الصحف الفكاهية لجامعها ابن دمشق طبعت بمطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣١

نوادر وفكاهات من احاديث الحيوانات لمؤلفها الياس بك قدسي هي قصص موزونة على الوزن القرادي المعروف بالمعني باللغة الشامية الدارجة منها ماهو معرب عن لافونتين شاعر الفرنسيس ومنها مبتكر غير مقتبس ولا معرب طبعت في دمشق

رواية شمم العرب هي رواية تمثيلية عربية ذات اربعة فصول من تأليف صديقنا نجيب افندي نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا

« المعلومات المدنية لتلامذة المدارس الابتدائية » لفائز بك الغصين طبعت على نفقة المكتبة الهاشمية بدمشق

« جمال المعاني في الديوان الثاني » للسيد جمال الدين محمد الحسن بك الحموي المكنى بابي العزم طبع بمطبعة حماة سنة ١٣٣٢

اخبار وافكار

بكر الاولاد

كان الناس يذهبون الى اليوم بان بكر الاولاد ارقى عقلاً وصحة ولذلك خصته بعض الامم كالانكليز بامتيازات في المواريث وغيرها ولكن احد علماء منافع الاعضاء في الدانيمرك تبين له خلاف ذلك فانه فحص ٥٩١٥ ولداً بكراً فاستنتج بان الولد الثاني والثالث قد يكونان ارقى من البكر وان القول بمتانة جسمه وكبر عقله حديث خرافة بل تبين ان السل اشد فتكاً في بكر الاولاد من الثاني والثالث

فناء الارض

كثر بحث العلماء في فناء مادة بقاء الكرة الارضية وقد قدم موءخراً احد الرياضيين الفرنسويين الى مجمع العلوم في باريز خلاصة ابحاثه في هذه المسألة جاعلاً ما بقي من عمر الارض مليوني سنة فتضمحل النباتات والحيوانات و يفنى الانسان معها فتقفر الارض اذ تبلغ حرارتها الى درجة يهلك فيها كل حي · وليست هذه النبوءة المشوءمة جديدة بل قد تنبأ بها كثيرون حتى اليوم ولكنها حسبت الآن بحسابات علمية · وقد استند هذا العالم الى نظرية هملوز الذي يقول بان الشمس تبرد بالتدريج فاقدة من قوة حرارتها فان درجة حرارتها الحاضرة آخذة بحسب بعض الآراء بالتناقص · قال واذا نظرنا الى ماضيها يثبت معنا ان قرص الشمس كان منذ مليوني سنة ضعفي ما كان عليه اليوم وكذلك كانت اشعتها اشد حرارة مما هي الآن · و بذلك يجب ان تكون درجة الحرارة في الاصقاع القطبية التي هي في عرض ثمانين — تسعين بميزان سنتغراد وحسب العالم الفرنسوي ايضاً انه ينقضي عشرون الف قرن قبل ان يصغر قرص الشمس نحو العشر وفي خلال ذلك يجمد سطح الكرة بحيث تنزل درجة الحرارة فيه الى الصفر وتدخل الحياة في دور الموت والارجح انه يصير مآل الارض التي نعيش عليها الى الفناء · وعليه فان مجموع عمر الارض هو اربعة ملايين سنة وما نحن الا كما قال شاعر الطليان دانتي في منتصف الطريق

110

الدجاج المسمن

ظهر للباحثين ان ضرر تسمين الحيوانات الخاصة باطعام الانسان اكثر من نفعه وذلك ما خلا الوقت الذي يسبق اوان ذبحها بقليل وما عدا ذلك من الحالات فزيادة الثقل لا تأتي الا بضرر . فان البقر الثقيل جداً يعمل عملاً قليلاً والبقرات المعلوفة كثيراً لا تنتج كثيراً اما الدجاج الذي يطعم اكثر من كفايته ولا سيما في الشتاء فانها تبيض كسلانة او بيضاً رديئاً عند انتهاء الشتاء ولا يكون بيضها على ندرته بنسبة ما صرف عليها من الغذاء خصوصاً وان رياضتها تقل في فصل الشتاء فيقضي عليها ان تعيش مدة في قنها ومن كان كبيراً في السن منها يموت لا محالة وقد شرح الباحثون اشلاء الدجاج الميت على هذه الصورة وظواهر صحته حسنة فتبين لهم ان الانسجة قد كثر شحمها وان الكبد عراه ما اوقف عمله وكذلك القلب والدم لم يعد يجري جريه العادي والرئة اضاعت من نشاطها ولم يتمكن الاوكسيجين (احد مولدي الماء والهواء) من احراق الشحم في تركيب الجسم . قالت المجلة البارزية وهذه الحوادث نادرة ولكن الذي يجب ان لا ينسى انه ينبغي الاقلال من التغذية عندما ينقطع الدجاج عن البيض فلا تعطى عند ما تبيض شيئاً من الحبوب ولا الذرة ولا الشعير ولا الارز لانها تسمنها بل يستعاض عن ذلك بالبقول التي تبعث على القوة ويتقى بها السمن

بحيرات ملح القلي

شرعوا يستثمرون في شرقي افريقية الانكليزية بحيرات الصودا او ملح القلي الطبيعية وهي على مسافة غريبة باتساعها وبصفاء حاصلاتها . وهذه المستودعات من الصودا هي كغيرها مكونة من رواسب تجمعت خلال مئات من القرون فاجتمعت المياه في قيعان لا منفذ لها تاركة بالتبخر الاملاح التي تحتويها وهي عبارة عن كربونات ممزوجة بسولفات وكلورور ويكثر الكاربون في هذه البحيرات التي تعرف ببحيرة ماكادي ويمكن ان يستخرج منه كل سنة مائتا مليون طن وذلك بدون ان يضر بتجارة الصودا الصناعية

اعظم الاكتشافات الحديثة

الاكتشافات الحديثة عشرة : المصباح الكهربائي المتأجج . نقل المجرى الدوري وتبديله . عمل التراكيب الازوتية في الزراعة . تعديل المحركات ذات المحروقات الداخلة . الطيارات . الآلة التي تستخرج منها اشعة «اكس» . طريقة استخراج الرسوم . تحسين طريقة التصوير الشمسي . الفرن الكهربائي . التلغراف اللاسلكي . وهذه كلها

نتيجة علم العلماء و بحث الباحثين من اهل الغرب ٠والشرق لم يكد يعرف منها اسمها دع جسمها ورسمها

الافراط في التغذية

كتب احد الاطباء في احدى المجلات الصحية ان بعض الاطباء رأوا مؤخراً ان يقتصر في تغذية الاطفال عَلَى البقول وذهب آخرون الى ان الطفل في مبدإ نموه يحتاج الى غذاء كاف ولذلك وجب على أمه ان تحمله على الطعام وتحببه اليه بكل ممكن قال وارى ان ذلك من الوهم فان الافراط في تغذية الولد تؤدي به الى الشيخوخة المعجلة وتبتليه بداء المفاصل الى غير ذلك من الامراض فان تعويده الشره يحدث فيه عادات وحاجات جديدة يكون مستعبداً لها طول حياته وتنتهك بها صحته وتضمحل سعادته فان هذا الفكر المغلط طالما حمل الامهات على تحميل اولادهم فوق طاقتهم من المآكل اعتقاداً منهن بان الصحة والقوة هما بنت الغذاء الكثير ولذلك يأخذن اولادهن بالشراهة ٠ وافضل طريقة اتبعها الانكليز في اطعام الاولادان يقدم الطعام الى الاولاد قبل ان يقدم للكبار في الدار وتجعل مواعيده لهم غير مواعيده للكبار ويكون غذاء الاطفال ساذجاً لا يحتوي عَلَى ملح ولا على ابازير من مثل الفلفل والتوابل والخل وغير ذلك من المقبلات التي تصيب حلمات الذوق وتثلم حاسة التأثر فيه فلا يعود يتذوق طعم الاغذية الطبيعية بل يفسد ذوقه و يحتاج الى مشهيات اقوى مما كان يتناوله وينشأ له من ذلك قلة لذة في تناول الطعام ٠ وتهيج الانسجة المخاطية الهاضمة على هذه الصورة يغير عملها العادي و يسبب سوء الهضم وكثيراً من الامراض في الجهاز الهضمي

سقي النبات

ان حسن بقاء النباتات ولا سيما ما يجعل لزينة البيوت منها يرجع الى طريقة سقيها فاذازاد او نقص يحدث ضرراً فى نموها و يؤدي احياناً الى ذبولها وافنائها فان النباتات الكثيرة الجذوع يجب ان يزادفي اروائها اكثر من التي نقل جذوعها ٠ وافضل طريقة يتحقق بها ما يحتاجه النبات من الماء هو ان يلاحظ عند السقي فيما اذا كانت تحدث فقاقيع من الماء على سطح التراب فان ظهورها يدل على ان هناك تبخراً في الرطوبة فاذا تجاوز الساقي هذا الحد اضر بالنبات ٠ وتجربة ذلك سهلة ٠ اما الوقت اللازم انتظاره لاعادة السقيا فهو متى شوهد ان التربة جفت اي قبل ان تتبخر رطوبتها ورطوبة الاوراق تماماً وهذا التبخر تابع لكمية بخار الماء الذي يحمله الهواء وهو ينشأ ايضاً من نمو الجذوع

ولا يمكن وضع قاعدة عامة لذلك بل ينبغي ان يعرف بان الواجب تكرار الارواء اربع مرات اذا كانت الجذوع وافرة والواجب ان يعنى الساقي بان يغمر بالماء جميع التراب بحيث لا يبقى محل فارغ بين النبات والاصيص اي انا النبات واذا لم تتخذ هذه الاحتياطات تكون الظواهر حسنة ولكن النبات ظمآن في الحقيقة فتنقبض العروق الصغيرة وتنفلج المادة المغذية وتحل الاوراق فلا يلبث النبات ان يهلك . فكما انه يجب ان لا يفرط في اظماء النبات ينبغي ان لا يفرط في اروائه ايضاً فانها في الحالة الثانية تبلى جذوعها وتتعفن وكثرة غمرها بالماء يؤدي الى ظهور الحموضة فيها ولذلك فالواجب ارواء النبات ولا سيما في فصل الحر ولكن بدون ان يتبخر الماء تماماً ويغمر كل الغمر فقد يكون سطح التربة ندياً والطبقة السفلى نهاعطشى وبالجملة فانه لا يشرع بارواء النبات ثانية الا بعد ان تكون الرطوبة الناجمة من الاسقاء الاول قد زالت كل الزوال وبذلك تحفظ نباتات المساكن طويلاً خصوصاً اذا غسلت الاوراق الكبرى من النبات مرة في الاسبوع وذلك بان تمسح باسفنجة مغموسة بماء غال فيه قليل من الصابون مسحاً خفيفاً فتظل بذلك مسامها مفتحة وتبعد عنها الحشرات المؤذية ولا سيما الذباب الاخضر ومما ينفع في هذا الباب ايضاً تجديد التربة وان يضاف اليها بعض المخصبات في الاوقات المناسبة وان لا تعرض النباتات الى درجة من الحرارة تقل عن ٥ بالميزان المئوي ولا الى حرارة الشمس ومجاري الهواء .

مرض الجذام

اشتغل المجتمع الطبي الفرنسوي بمرض الجذام وقد طلب منه ان يعطي رأيه في كيفية التوقي منه بعد ان ثبت بان مؤتمر الجذام الذي عقد في برلين سنة ١٨٩٦ اكد انه من الامراض العضالة المعدية على ان هذا الرأي لم يقل به جميع المشتغلين من الاطباء بهذا المرض ومن مشاهيرهم الدكتور زامباكو باشا من مشاهير اطباء الاستانة المتوفى حديثاً فانه نشر كتاباً مهماً ايد فيه رأي الجمهور في عدم سراية هذا الداء وقد قدرت نظريته حق قدرها بين العلماء ولكنه لم يوفق الى اقناع العالم الطبي كله بصحتها . وقد رأى المجمع الباريزي ان يكره الطبيب الذي يداوي مصاباً بالجذام كما تكره أسرة المريض ان يعلنوا ذلك للحكومة وان يخضع المصاب به الى مراقبة خاصة او يجعل منفرداً وان يحظر على المجذومين ان يدخلوا فرنسا وان تتخذ جميع اسباب الوقاية الخ .

وقد عرف العرب الجذام حتى قالوا ان في ماء دمشق خاصية لمنع سرايته وقد جعل

له مستشفى خارج باب شرقي لا يزال يأوي اليه الى اليوم المجذمون كأن العرب تحققوا سرايته قبل ان يتحققه علماء العصر الحاضر كما تحققوا سراية الطاعون والهواء الاصفر والاوبئة والحميات ·

كبريت الكاربون

جرب في مستشفيات مارسيليا هذا الكبريت المعدني وذلك بحقن المصاب بالسرطان به فانتج نتائج حسنة سريعة في ابادة الغدد السرطانية وقد ظهر ان هذا المضاد للفساد اثبت اصل السرطان وسرايته

واردات دور التمثيل والفرج

بلغت واردات دور التمثيل والمشاهد في باريز في السنة الماضية ٦٨٤٥٢٣٩٥ فرنكاً وهو اعظم دخل نالته تلك الدور المنقطعة النظير في عواصم الارض لان باريز كهف العلم كما هي كهف اللذائذ ومعظم هذه الواردات من واردات السينماتوغراف ·

المخازن الكبرى

بلغ مجموع ماباعه مخزن البون مارشه في باريز في السنة الماضية ٢٤٠ مليون فرنك منها ١٦ مليوناً ربحاً وبلغ ماباعه مخزن السامار يتان ١٢٥ مليوناً منها ربح ثمانية ملايين وبلغت مبيعات مخزن اللوفر ١٣٢ مليوناً منها سبعة ملايين من الربح وباع مخزن البرنطان من ١١٥ الى ١٢٠ مليوناً وكان ربحه منها سبعة ملايين وربعاً وباع مخزن لافاييت بما قيمته ١٢٥ مليون فرنك وكان ربحه منها ثمانية ملايين وربع مليون فرنك هذه اكبر مخازن باريز التي يعد مستخدموها بالمئات والحكومة تتقاضى منها رسوم البانتت ولكنها تتساهل مع اكبرها اكثر مما تتساهل مع المخازن الصغيرة

امراض النبات

أحصي ماتحدثه في العالم امراض النباتات مسانهة بخمسة مليارات فرنك على اقل تعديل وقد قرر المؤتمر الذي عقد في رومية مؤخراً بان يعقد عهد دولي يضمن لكل من الاثنين والثلاثين مملكة التي اشتركت بهذا المؤتمر مايقي نباتاتها من المضار

من الرأس الى القاهرة

تعمل الحكومة الانكليزية الآن بما فيها من القوى لانجاز الخط الحديدي الذي يربط رأس الرجاء الصالح في جنوبي افريقية بمدينة القاهرة في شماليها وهو تحقيق الامنية التي طالما حلم بها سيسل رودس المثري الانكليزي الشهير · ولا يكون هذا

الخط كالخطوط العسكريه التي فتحها الرومان ايام عزهم لتنقل عليها الحكومة جندها وذخائرهم واثقالهم بل الغاية من هذا الخط سلمية على مايظهر الآن ينظر فيه الى ترقية المدنية في ذاك الصقع العظيم من افريقية ويستفيد الناس من ذلك في الشؤون الاقتصادية وسينجز هذا الخط الذي شرع فيه منذ سنين في سنة ١٩١٦ وقد ساعد اليوم على انجازه تنازل البلجيك لانكلترا عن شطر من اراضي الكونغو البلجيكية فاصبح الخط يسير في ارض انكليزية على طول ٦٩٤٤ ميلاً او ١١١٠٠ كيلو متر وهذه هي المسافة بين الرأس والقاهرة · او ٧٠٧٤ ميلاً اي ١١٣٣٠ كيلو متراً اذا أريد ابلاغه الى الاسكندرية ويركب المسافر بين ذينك الثغرين في القطار تارة وفي الباخرة اخرى فيكون ركوبه من كابتون الى بوكاما في القطار ومن بوكاما الى كونغولو في الباخرة ومن كونغولو الى خندو في القطار ومن خندو الى بونترثيل في السفينة ومن بونترثيل الى ستانليفيل في القطار ومن ماهاجي الى كوستي في السفينة ومن كوستي الى وادي حلفا على طريق الخرطوم في القطار ومن وادي حلفا الى أسوان في الباخرة ومن اسوان الى القاهرة في القطار ·

وقد قاسى القائمون بهذا المشروع الامرّين من اعتداء السكان وفتكات الحيوان ولا سيما الاسود في رودوسيا الشمالية حيث اضطروا الى ان يقيموا حواجز ليأمن عملة السكة الحديدية من هجماتها

ازمة الخدمة

شعر الناس حتى في البلاد التي لم تبلغ درجة راقية من المدنية كمصر والشام بقلة الخدم والوصيفات والخادمات والمرضعات والمربيات حتى اصبح بعضهم يجلب خادماته وخدامه من الخارج وما دروا ان فرنسا بل والمانيا وانكلترا والولايات المتحدة هي ايضاً في ازمة خدم تشكو قلتهم حتى لقد كان في فرنسا تسعمائة الف خادم وخادمة فاصبحت اليوم وليس فيها سوى ٧٥٠ الفاً واسباب ذلك كثيرة منها قلة المواليد بحيث اصبح الفقراء من الذكور والاناث يجدون في القرى مايعيشون به بدون الاختلاف الى المدن ومنها ان الثروة زادت في الفلاحين ومنها ماحشيت به رؤوسهم هناك من تساوي الناس جميعاً وان لفظ الخادم مرادف للفظ المنحط ومنها انتشار الصنائع والاحتياج الى الايدي العاملة · هذا في الغرب واما في الشرق فليس له من سبب سوى حب البطالة فترى الفتى او الفتاة يؤثر ان يعيش بالشحاذة ولا يمتهن خدمة عند احدهم كأنه يرى

الشحاذة اشرف من الخدمة المشروعة . ولو طبق قانون المتشردين في هذه الديار لبلغ عددهم نصف سكان مملكة من ممالك اوربا الصغرى فحبذا تطبيقه بالفعل ليقل الخاملون و يزيد العاملون و بذلك لا يشكو خادم ولا مخدوم

طريقة جديدة للاستصباح

اخذوا في بلاد البلجيك يستخدمون فحم كوك المعدني لا فحم كوك في معامل الغاز لانارة المدن بثمن ارخص من الغاز المعتاد في الاستصباح وقد تألفت شركة لهذه الغاية وهي تعقد الآن مقاولات مع بلديات كثير من المدن البلجيكية لتنيرها بهذا الضوء الجديد الرخيص الذي لا يكلف متره المكعب سوى خمسة سنتيمات ويمكن ان تنزل قيمته الى النصف بعد سنة ومن المدن ماوفرت بهذه الطريقة مبالغ طائلة فان مدينة انفرس تدفع خمسة عشر سنتيما ثمن المتر المكعب من غازها فكم يكون المبلغ الذي تقتصده غداً اذا ابتاعت كل متر بسنتيمين ونصف

الارضة

الارضة او دود الخشب مما لا يحاذر الناس منه كثيراً في العادة بيد انها بما تحدثه من التلف تعد من جملة مصائب المساكن فهي تسكن في الاثاث والدفوف وكل اعمال الخشب وحملاتها شديدة بحيث يكاد لا يلحظ وجودها ولا انتشارها . وكثيراً ماتدخل هذه الدودة في البيوت التي كانت سالمة منها على غير انتباه والارضة كالقمل والبراغيث والبق اذا سكنت صعب جداً ابادتها فانها كثيرة التناسل وتقاوم كل طريقة لاتلافها ولذلك تقضي الحال بان يحاذر كل الحذر من نقلها الى المساكن وذلك بان لا يستخدم الا الخشب الجديد السالم من الارضة . وكثيراً مايحدث ان البنائين واصحاب الاملاك يستعملون انقاضاً من البيوت تكون اخشابها عتيقة ملوثة بالارضة . ومن الناس من ينتقلون الى بيوت فيهملون تنظيفها وتنظيف امتعتهم التي تكون الدودة الخبيثة قد اتخذت لها فيها مساكن لا ترى وكم من دار أُصيبت بعدوى هذه الحشرة وكانت من قبل سالمة . ولا سبيل الى الخلاص منها الا بأبادة جميع الامتعة التي عششت فيها

العاج النباتي

كان الاوربيون يتنافسون في افتتاح بلاد السودان لانه يخرج منها العاج وريش النعام وغيرهما من حاصلات البلاد المهمة وما كنا نظن ان العاج الذي طالما تنافس فيه المتنافسون يصدر منه كميات وافرة من اميركا الجنوبية من نبات لا من حيوان

وقد نجحت الآن تجارته نجاحاً كلياً بفتح برزخ باناما وشجر هذا العاج يجود في جنوب مملكة باناما وكولومبيا وجمهورية خط الاستواء وشمالي البيرو وفي اودية الآند على ثمانمائة او تسعمائة متر من العلو عن سطح البحر وجذعه عظيم وقصير وهو ينمو ببطء ولا يبلغ طوله في العادة اكثر من ٣ الى ٨ امتار ونادراً ان يكون طوله ١٠ امتار وورقه عظيم يشبه ورق جوز الهند وثمره اشبه برأس ولد زنجي وتحتوي قشرته لوزة يكون شكلها اولاً شكل كيس مملوء من شراب حلو مرطب ثم يجمد بالتدريج ويصلب بحيث تكون صورته كصورة العاج وصدفته تحتوي على ٦٠ الى ٩٠ لوزة كل خمس او ست لوزات وحدها وهي تفتح بذاتها متى آن اوان نضوجها وتلقي على الارض ثمرها الذي يبيض اذا تم نضوجه فيكون كالعاج ولا يعلم كم سنة تمر حتى ينضج ثمر هذا الشجر ولكن الملاحظ انه يتم في ست سنين وان عمر الشجرة مئة واكثر وهذا العاج النباتي يفصل وينشر ويحفر كما يفعل بالعاج الطبيعي تعمل منه ازرار وادوات زينة وقيمته ارخص من قيمة سن الفيل . وقدروا ان جمهورية خط الاستواء وحدها تصدر منه ماقيمته ثلاثة ملايين بيزو (والبيزو ثلاثة فرنكات وخمسة وسبعون سنتيماً) او عشرون الف طن وقد اغتنى به جانوه الذين يبيعونه من التجار وهؤلاء يبعثون به الى المعامل في اميركا الشمالية على الاكثر وهي تخرج منه الرطوبة بواسطة الادوات المستعملة لذلك ثم يجعل في براميل حديد يكون في داخلها مطارق تعريها من غشائها على طريقة ميكانيكية فتكون صلبة كالعظم بيضاء ناصعة

اعمار الموسيقيين

اراد احد الاحصائيين في اوربا ان يتفكه باحصاء معدل اعمار الموسيقيين فبدأ يبحث في الصحف والمجلات منذ سنة ١٨٧٠ الى يوم الناس هذا فظهر له ان مات منذ ذاك العهد ٤١١٣ موسيقياً عرف السن التي قضى فيها ٣٧٣٧ وحسب ان معدل اعمارهم كانت ٦١ سنة وبلغ في هذه المدة « ١٨٧٠ — ١٩١٣ » عدد من تجاوزوا المئة سنة اربعة و ٦٧ موسيقياً منهم مات منتحراً ويكثر عدد المنتحرات من الموسيقيات والمغنيات .

حفظ السمك

كانت الطريقة المتبعة حتى الآن في حفظ الاسماك طريقة غير تامة ونافعة من كل الوجوه ولا سيما طريقة تمليحها وجعلها في الجليد وقد ظل الباحثون يفكرون في طريقة جديدة

تكون اضمن واحسن حتى عثر رجل دانيمركي على محلول يفي بالمطلوب . يستخدم لها آلة واسعة الحجم جداً موءلفة من اناء داخلي من المعدن يدور على محور أُفقي مفتوح من اعلى ومن اسفل . وهذا الاناء الداخلي مملوء بماء مملح « سلامورة » وهناك اناء خارجي يحتوي ماء البحر وتجعل فيه السمكة التي يراد حفظها وتدوّر الآلة تدويراً ميكانيكياً فينفذ الماء المملح من ثقوب الاسطوانة الداخلية يوصل بينها بمجرى دائمي من المحلول المالح ويغطى السمك بطبقة من الجليد بدون ان يشبع بالملح ويحفظ جميع صفاته

عقم الامم

كان بعض الاقتصاديين ذهب الى ان قلة المواليد في الامة يدل على هرمها وان العقم كما هو عند الافراد يكون في الامم حذو القذة بالقذة وكل امة قديمة تهرم فهي عاقرة عقيمة وقد رد احدهم هذه النظرية بقوله ان فكرة ان العناصر تكون عاقرة عقيمة اذا هرمت هو من الخطإ الظاهر بل ان الامم تزيد قوة اذا هي تقدمت في السن . لكل الامم عمر واحد اذا نظر الى حياتها ولا تختلف الا بعمر مدنيتها والعلماء يعيشون اكثر من الجهلاء . فانا نرى الاميرات اكثر اولاداً من نساء الشعب واساتذة المدارس والوعاظ واساتذة الكليات اكثر نسلاً وانحطاط الامم يكون بهجرة الطبقة الراقية من بنيها كما هاجرت الطبقة الذكية من اليونان الى ايطاليا طمعاً في مغانم تصوروها ولم يلحق بهم النساء ويكون الانحطاط بانهاك قوى الارض والامة التي تحسن تسميد تربتها لاتموت او بحروب تأتي على العامر والغامر او بمنافسات شديدة هكذا اضمحلت ترواده وقرطاجنة او بتبدل المناخ كأن ينتقل اهل البلاد الباردة الى الحارة وبالعكس فقد شوهد ان الجنس الجرماني لما توطن في ايطاليا واسبانيا وافريقية في القديم قد اضمحل . فالعمر لايهرم الاجناس بل يجدد شبابها فعقم الامم هو من الامراض الوهمية كغيره من الامراض اعتقدت به القرون الماضية ولكن العلم الحديث قد ناقضه

الاحداث والاعاظم

انشأ اربعة تلامذة من مدرسة جانسون دي سايللي في فرنسا مجلة جديدة سموها « نظرة » واكبرهم سناً لايتجاوز السادسة عشرة وقد احدثت مجلتهم حركة اعجاب من الامة حتى ان رئيس جمهوريتها تنازل وبعث اليها بقصيدة جميلة لم تطبع بعد لتنشرها في احد اجزائها التالية دليل موءازرته وعنوان تشجيعه لمن لقنوا العلم تلقيناً قبل ان يبلغوا الحلم

دور نضوج العلم

كتب احد المفكرين يزيف قول من قال ان احسن الكتب في العالم هو ما كتبه مؤلفوه في عهد الشباب فان هلاك بعض الشعراء والكتاب في سن الشباب لا يقوم دليلاً على هذه القضية وذلك لان الامثلة اكثر من ان تحصى في هذا الباب وتاريخ الادب الحديث طافح بها فان تنسون لم يحرز هذا المقام في الشعر الغنائي الا بما ألفه يوم كان في الحادية والثمانين من عمره وكذلك كان من كبار رجال الارض مثل سقراط وشاتو بريان وفولتير ولافونتين ولامارتين وهوغو وكريم وميشله واميرسون ووتمان وتولستوي وبجورنسون وتوين مما عاشوا كلهم فوق السبعين وكذلك يقال في الشاعر ابسن الدانيمركي من المعاصرين وان كيتي الالماني لم يكتب الجزء الثاني من روايته الفوست الا عند مابلغ الثمانين وبلغ اشيل وسفوكل واوريبيد وهم كبار شعراء اليونان في الفاجعات سن الشيخوخة وهكذا يقال في دانتي شاعر ايطاليا ورونسارد وشكسبير ومن الذين يدخلون في سلك المعمرين الذين جودوا ايضاً تآليفهم في سن عالية ميلتون وبرانجه ولونغول وكانت وتاسيت وكارلايل وموليير ورابلي ومونتين ومرفانتس وبالزاك ·

الاستحمام

ذكرت احدى المجلات الخطيرة ان الواجب ان لا يستحم المرء كيفما اتفق فالحمام بحسب عادة المستحم وكيفية استحمامه ومزاجه وصحته يكون نافعاً او ضاراً · فلا يستحم المستحم بوجه عام بماء بارد تحت درجة ٢٤ بدون استشارة الطبيب فاذا كان الحمام الذي يؤخذ على هذه الصورة يحدث اوجاعاً في الرأس وهبوطاً في الجسم فالاوفق الاستعاضة عنه بالمضخة (الدوش) الباردة · ومن كان جيد الصحة لا يستحم في حمام تتجاوز درجة حرارته ٤٠ والحمامات السخنة هي في العادة قليلة النفع ولا سيما اذا اخذت في المساء لانها تكون مهيجة لا مسكنة وهي بادية الضرر في الضعاف او الضئال · ولا احسن في تسكين اضطرابات الجسم وارائحته مثل الاستحمام في حمام تكون درجة حرارته ٤٠ ويكون تناوله قبل النوم · ومن انواع الاستحمام ما ينبغي اعتباره من المقويات التي ارقى من كل شراب مر ومنها الدلك بفوطة مبللة وهي توافق في الاكثر النساء المتعبات مهما كان نوع تعبهن · والاحسن ان يساعد المستحمة دلاكة فتقف المستحمة على قدمها في حمام حار (٤٠ درجة تقريباً) مغطاة بملحفة مبللة من رجليها الى نقرتها ويصب عليها سطل

ماء بارد من درجة ٢٥ ثم تدلك بقوة بمنشفة ثم تلف في ملحفة ناشفة وتدلك حتى ينشف جلدها تماماً وتجدد هذه العملية كل يوم بخفض درجة حرارة الماء بالتدريج · ويستعمل ضد الارق الماء الفاتر بحسب حرارة الجسم فيتغطى المستحم ليكون بمأمن من الهواء ومدة هذا الحمام عشرون دقيقة فتجعل عصائب مبلولة وتربط حول الرأس ولا حاجة للدلك بعد هذا الحمام

الجراد

الجراد هو الجرح النغار في جسم الزراعة في كل بلد وقد اتخذوا حتى الآن لابادته طرائق كثيرة منها جمعه واحراقه ومنها احراق المحصولات والاشجار التي يعلق عليها ومنها ضربه بالبنادق وسحقه باحجار او حديد وعبثاً حاولت الحكومات انقاذ البلاد من ويلاته وصرفت الاموال الطائلة في سبيل ابادته حتى وفق احداعضاء مجمع باستور العلمي اثناء تجوله في يوكاتان في الشرق الاقصى الى اكتشاف جائحة من الجوائح تسطو على الجراد فتبيده فاخذ منذ سنة ١٩١٠ يربي جراثيمها وتوصل الى اخذ سمها الذي يقتل الجراد لا محالة وكل لترين من مسحوقه مغلياً يطهر هكتاراً من الارض والتطهير يجري خاصة في الاماكن الملوثة بالجراد فتقتله وتقتل بيوضه وقد انشأوا يستعملون هذا الدواء الناجع في جنوبي اميركا مثل كولومبيا وفنزويلا والارجنتين كما استعملته فرنسا في الجزائر وكلفت حكومة انكلترا مخترعه الى استعماله في جراد جزيرة سيلان والحكومة العثمانية الى استعماله في ازمير · وبذلك انحلت مسألة ابادة الجراد التي شغلت الامم سنين طويلة

الخشب الاحمر

في بلاد القوقاز لا سيما في المنحدر الجنوبي من السلسلة الكبرى وعلى المنحدر الشمالي الغربي من السلسلة الصغرى بجبال القافقاس في كولشيد وعلى شواطئ البحر الاسود توجد شجرة ذات اوراق تدوم على مدى الفصول وفيها صمغ وخشبها غير قابل للفساد ويسمونه الخشب الاحمر ويبلغ طول شجرته ٢٥ متراً وقطرها ٧٥ متراً وهو ينمو ببطء الى ما لا نهاية له معرضاً للاهوية الشديدة التي تهب في الجنوب الشرقي ومن اشجاره ما عمره ٣٠٠ او ٤٠٠ سنة وقد بقي قائماً على مر الدهور ثابتاً امام حوادث الايام لم يلحقه عفن ولا سوس ولطالما عرضت من خشبه مصنوعات لطيفة من النجارة البديعة في المعارض فوقعت موقع الاستحسان عند ارباب الذوق والراغبين في البدائع

شهداء الطيران

ابتدأ الطيران سنة ١٩٠٨ وما زال عدد شهدائه يكثرون سنة عن سنة فقضى في السنة الاولى رجل واحد وفي الثانية ٣ وفي سنة ١٩١٠—٢٩ وفي سنة ١٩١١—٧٨ وفي سنة ١٩١٢—١٤٠ وقطع خمسة طيارين في السنة الاولى ١٦٠٠ كيلو متر من حيث المجموع وقطع في سنة ١٩٠٩ خمسون طياراً ٤٤ الف كيلو متر وبلغ عدد الطيارين في السنة التالية ٥٠٠ ومجموع ما اجتازوه —٩٦٠ الف كيلو متر وبلغ عدد الطيارين سنة ١٩١١—١٥٠٠ طيار قطعوا ثلاثة ملايين وسبعمائة الف كيلو متر وفي سنة ١٩١٢ بلغ مجموع الطيارين ٥٨٠٠ قطعوا عشرين مليون كيلو متر فكان مجموع من هلكوا في السنة الاولى واحداً في ١٦٠٠ كيلومتر وفي السنة التالية واحداً في كل ١٥ الف كيلو متر وفي السنة الثالثة واحداً في كل ٣٣ الف كيلومتر وفي الرابعة واحداً في ٤٧ الف كيلو متر وفي الخامسة واحداً في كل ١٤٠ الف كيلو متر وقد حسب الحاسبون ان عدد الطيارين الهالكين آخذ بالنقص نقص الى عشره ويوشك ان يقل اكثر من ذلك كما قل عدد المتهورين من الطيارين وجرى تحسين في آلات الطيران

المطاط

اخذ شجر المطاط «الكاوتشو» تكثر زراعته في سومطرا من مستعمرات هولاندة بفضل تربتها ومناخها ورخص اجور العملة فيها وسينافس قريباً المطاط الذي يستخرج من سيلان وغيرها من البلاد الانكليزية · وفي جزائر هبريد الجديدة شجر ضخم اسمه البانيان لم يكن معروفاً من قبل ولكن تبين الآن انه يستخرج منه المطاط وقد اخذوا مؤخراً يستثمرونه ويمشون به الى قارة اوستراليا ليدخل في الصناعات

سارة برنارد

ما نظن في البشر الراقي انساناً لم يسمع باسم سارة برنارد اعظم ممثلة في الارض لهذا العهد وقد احتفلت الامة الفرنساوية بتكريمها في العهد الاخير كما يحتفل بالملكات او اكثر وقال ناظر المعارف الفرنسوية ان حكومة الجمهورية قلدتها وسام جوقة الشرف لانها كانت ممرضة في المستشفيات العسكرية للجيش الفرنساوي سنة ١٨٧٠ ولانها نشرت اللغة الافرنسية في العالم كله لانها مثلت في جميع الممالك وقد امتدحها كبار الشعراء بشعرهم والادباء بنثرهم وفاضت البلاغة يوم تلك الحفلة التي دعاها فيها احد كبرائهم «امبراطورة المحاضرة» لانها اخذت تحاضر الجمهور وهي الآن في شيخوختها بعد ان مثلت ابدع

القصص نحو نصف قرن وهي في شبابها وكهولتها واغتنت من التمثيل كما يغتني كبار رجال المال والاعمال في الغرب

الخطوط الحديدية في اميركا

قالوا ان طول الخطوط الحديدية التي تشق بلاد الولايات المتحدة الاميركية يبلغ ٢٤١٤١٩٩ ميلاً اي اطول من مجموع خطوط ممالك اوربا كلها ويستخدم فيها ٢٤١٠١٥٥ عاملاً في حين يقتضي لها مليون مستخدم ومتوسط اجرة العامل في السنة ٤٦٠ ريالاً اميركيًا وثمن هذه الخطوط تسعة عشر مليار دولار وكثير من الخطوط يملكها رجل واحد او اسرة واحدة مثل خطوط اسرة فندر بلت الغني الشهير ولا ترق قلوبهم بالعطف على مساكين المستخدمين في حين قد دفعت موءخرًا احدى بنات فندر بلت ثمانية ملايين دولار لتصبح دوقة انكليزية وذهبت مجموعة البدائع التي حواها متحف مورغان الغني الى المتحف العام في اميركا بعد وفاته والمثل يقول عند الغربيين «القمل يعيش على حساب الكلب المضروب»

اعظم نفق

فتح اعظم نفق في العالم في نيو يورك وهو مجرى تحت الارض يسقي مدينة نيو يورك فيملأ كل يوم باثنين وعشرين الفًا وخمسمائة مليون لتر من الماء آتيًا من مكان بعيد عن تلك العاصمة ١٤٥ كيلو مترًا وقد حفر على عمق ١٢٢ مترًا عن سطح الارض ودام العمل في هذا النفق سبع سنين وانفقت عليه بلدية نيو يورك مليار فرنك واستخدمت فيه كل يوم ٢٥ الف عامل وهدمت لاجله سبع قرى فيها ثلاثة آلاف ساكن الى غير ذلك من الاعمال العظيمة التي لا تقوم بها الا الامم ذات المدنيات الراقية

شعر الشهر

قال خليل افندي مطران في الاهرام من قصيدة في الطيران والطيارين

خواض اجواز العنان ممانع ... غير النهى عن اخذه بعنان
يدعو الرياح عصية فتنيله ... اكتافها بالطوع والاذعان
يسمو فتنضع الشوامخ دونه ... حتى تأوب بذلة الغيطان
يطأ السحائب ممعنًا في شوطه ... زجل الفوءاد له ازيز الجان
فترى منائرها هوت وجبالها ... دكت وابحرها عفت في آن
وترى قراها العامرات وروضها ... اقوين من حسن ومن عمران

وترى مناجم تبرها وعقيقها مهدودة مشبوبة النيران
وترى الصفوف الكثر من حيوانها بادت فما كانت من الحيوان
وترى عوالم ليس منها باقياً الا اختلاط اشعة ودخان
حتى اذا ما جال غير مدافع او عام بين النسر والسرطان
الوى يحط فما يقول شهوده الا جلال النسر في الطيران
فاذا دنا خالوه عرش كرامة شدته املاك بلا اشطان
فاذا اسف رأوه مركبة لها عجل تسيرها يدا شيطان
فاذا جرى ثم استوى فوق الثرى ظهرت لهم اعجوبة الانسان

قال احمد بك شوقي في الطيارين اللذين طارا من بيروت الى القاهرة على مانشره الاهرام ·

يا راكب الريح حي النيل والهرما وعظم السفح من سيناء والحرما
وقف على اثر من الزمان به فكان اثبت من اطواده قمما
واخفض جناحك في الارض التي حملت
موسى رضيعاً وعيسى الطهر منفطما
واخرجت حكمة الاجيال خالدة وبينت للعباد السيف والقلما
وشرفت بملوك طالما اتخذوا مطيهم من ملوك الارض والخدما
هذا فضاء تلم الريح خاشعة به ويمشي عليه الدهر محتشما

الى ان قال :

ياصاحبي « ادرميد » حسبها شرفا ان الرياح اليها القت اللجما
وانها جاوزت في القدس منطقة جرى البساط فلم يجتز لها حرما
مشت على افق من البراق به فقبلت اثراً للخف مرتسماً
ومسحت بالمصلى فاكتست شرفاً وبالمغار المعلى فاكتست عظما
وكلما شاقها حاد على افق كانت مزامير داود هي النغما
جشمتها من الاهوال اربعة الرعد والبرق والاعصار والظلما
حتى حوتها سماء النيل فانحدرت كالنسر اعيا فوافى الوكر فاعتصما

قال السيد محمد حبيب العبيدي الموصلي في فتى العرب

امعاتب الايام في تبعاتها منيت نفسك طامعاً بمحال

اوترت للاغراض غير قسيها وارشت عند الرمي غير نبال
انت الزمان وانت رب بلائه ما ذا تريد من الزمان البالي
حملته تبعات نفسك جاهلاً فحملت اثقالاً على اثقال
ان الزمان حديثه وقديمه من بيض ايام وسود ليال
الدهر حرث بنيه في العالم يأتي بما زرعت يد العمال
فلمن اطال النوم لوعة جائع ولمن يغوص البحر عقد لآل
شأن الجبلة ان تنوء بعاجز ويبوء بالآثام رب ضلال
عطل الضعيف فآذنت بشقائه ذكرى السعادة للقوي الحالي
لا حق في هذي الحياة لعاجز مستضعف ولخائر مكسال
تجلى الحقيقة بالدليل فتنثني حقًا فنعوزه قوى الابطال
الحق من دون العناية باطل ولباطل معها فسيح مجال
خير الحياة وشرها في موقف الحكم فيه لصارم وعوال
حتى ضعاف الطير صيد سباعها والظبي قنص حبائل المغتال
ان الحياة هي العناية والردى من دونها حظ الضعيف السالي

قال خير الدين افندي الزركلي في « فتى العرب » من قصيدة

يا امة العرب هلا تنظرين الى ماضي العصور ، لدن حليت تيجانا
ايام سدت بني حواء بانية لهم من العلم والعرفان بنيانا
ايام كنت التي ينمى لصولتها عز الممالك ، من لخم وغسانا
ازمان كنت — وخير القول اصدقه — ام البلاد — الا حيين ازمانا
الا ترين رقي الامس باكية رجالك الغر من انسال عدنانا
اما تنوحين عهد الفاتحين اما تبكين من قد اقاموا قصر غمدانا
ولات يجديك نوح النائحات اذا لم تجعلي للنهوض الجد عنوانا

المقتبس

سماع الالحان

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم · ولقد كان له شأن واي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمرود وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين (١) والمغنين وادوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها · ومزامير داود مشهورة مذكورة ·

(١) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لمحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لغتان احداهما موسيقى بمثناتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والاخرى موسقى بحذف الياء الاولى وعلى كل من اللغتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهملة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالحان وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زاياً والقاف كافاً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذ هم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة ايضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فانهم يعبرون تارة بموسيقى او موسقى على ما تقدم ويعنون علم النغم نفسه وتارة بموسيقار ويعنون الشخص المتصف به وتارة بموسقيري ويعنون الآلة التي يصور بها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسبما يظهر من تتبع كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد فموضوعها الجسم الطبيعي الا الموسقيري فموضوعها الصوت المشتمل على الالحان المخصوصة ولا يخفى عليك ان تعلق الصناعة باليد انما يجري في الآلة فقط اه ·

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقي الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل امة الحان ونغمات يستلذونها و يفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها او بمعرفة مواقع الطرب في اي لحن كان ومن الدليل البين ان لها تأثيراً في النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم واخرى عند الحزن والغم والمصائب والمآتم وطوراً في بيوت العبادات والاعياد وآونة في الاسواق والمنازل وفي الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوقة ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد: ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتعديلها وتقويتها وقبضها ايضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل في الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل في المآتم وبيوت العبادات اخرى

قال افلاطون : من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد منها نورها فاذا سمعت مايطربها اشتعل منها ماخمد . وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم اما من ليس له دراية في ذلك فيعتقد انه ماوضع الا للهو واللعب والترغيب في لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها .

قال الغزالي في الاحياء : لله تعالى سرٌّ في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الاصوات مايفرح ومنها مايحزن ومنها ماينوم ومنها مايضحك و يطرب ومنها مايستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ولا ينبغي ان يظن ان ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الاوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وازهاره والعود واوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة و يستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة و ينبعث فيه من النشاط مايسكره و يولهه فترى الجمال اذا طالت عليها البوادي واعتراها الاعياء والكلال تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادي الحداء تمد اعناقها

وتصغي الى الحادي ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها احمالها ومحاملها وربما تتلف انفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى ابو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي رضي الله عنه قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافني رجل منهم وادخلني خباءه فرأيت في الخباء عبداً اسود مقيداً بقيدورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لي الغلام : انت ضيف ولك حق فتشفع فيّ الى مولاي فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر فعساه يحل القيد عني قال: فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا آكل مالم اشفع في هذا العبد فقال : ان هذا العبد قد افقرني واهلك جميع مالي فقلت : ماذا فعل فقال : ان له صوتاً طيباً واني كنت اعيش من ظهور هذه الجمال فحملها احمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة ايام في ليلة واحدة من طيب نغمته فلما حطت احمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن انت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت ان اسمع صوته فلما اصبحنا امره ان يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت انا على وجهي فما اظن اني سمعت قط صوتاً اطيب منه .

قال الغزالي بعد ايراد ماتقدم : فاذاً تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز ان يحكم فيه مطلقاً باباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم مافي القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي ان يبحث عن افرادها ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب فالوصف الاعم انه صوت طيب ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره والموزون ينقسم الى المفهوم كالاشعار والى غير المفهوم كاصوات الجمادات وسائر الحيوانات اما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغي ان يحرم بل هو حلال بالنص والقياس اما القياس فهو انه يرجع الى تلذذ حاسة السمع بادراك ماهو مخصوص به وللانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك وفي مدركات تلك الحاسة مايستلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة

كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهي في مقابلة مايكره من الالوان الكدرة القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الانتان المستكرهة وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المرارة المستبشعة وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراسة وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها ٠

ونقل الغزالي ايضاً عن ابي طالب المكي اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبدالله بن جعفر وعبدالله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي باحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في افضل ايام السنة وهي الايام المعدودات التي امر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل اهل المدينة مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا ابا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد اعدهن للصوفية قال : وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذوالنون يستمعون فقال : وكيف انكر السماع وقد اجازه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبدالله بن جعفر الطيار يسمع وانا انكر اللهو واللعب في السماع ٠

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع وفوائده ٠ والمحرم منه في الاسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محركاً للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في القديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود في كل حال فانهم لم يقبلوا ان يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ماهو ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسيرون بلا وازع وعلى كل فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة

نحن في عصر اصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالحان ما يناسب الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم ان من النغمات ما يطيب في يوم ولا يطيب

في آخر و بعض الالحان قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها ولا شك ان للحالة النفسية التي يكون عليها المغني والمغنى له دخلاً كبيراً في الطرب فقد وقع لنا ان طربنا مرات بشباب الراعي في الجبال اكثر من سماع الناي والقيثارة وان راقنا الغناء الطبيعي اكثر من المصنع الموقع على الالحان وكثيراً ما يسمع المرء امهر الموسيقار بين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوي في البادية يحدو و يتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعي من الاشياء الخالي من الطلاء الصنعي ٠

قال ابو المنذر هشام بن الكلبي : الغناء على ثلاثة اوجه النصب والسناد والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقينات واما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات واما الهزج فالخفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كان اصل الغناء ومعدنه في امهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع اسواق العرب وكانت العرب تسمي القينة الكرنية والعود الكران والمزهر ايضاً هو العود وهو البربط وكان اول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال ونوءمة الضحى ٠ وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة اضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء موءثر في البهائم فكيف لا يوءثر في الانسان هو يوءثر في الطيور والهوام ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان امام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية وقد اخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغاني ورنات المثالث والمثاني كما يقترب الطروب من الاناسي وشوهد ان الافاعي خرجت من اوكارهـا تستمع لنغمة شاد او ضربة موسيقار بل شوهد ان من الغناء ما تهتز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها ولعل ماقيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع او الوقائع ما يوءيده

الالحان تصفي الارواح وتبعث النشاط في النفوس فبها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى و يكرم الشحيح و يرق الكثيف و يلين القاسي و يقوي الضعيف و يعدل الظالم و يعطف اللئيم ٠ وخير الاغاني والاناشيد ما كانت ملحنة بالحان تناسبها معربة الالفاظ جيدة المعاني وما قيل من انه ليس على المطرب ان يعرب ليس صحيحاً من اكثر وجوهه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لا ينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحي الآداب سقيم الفهم ٠

كان الناس في القديم لا يعرفون غير العود (١) والقانون والمزامير والشبابات والصلاصل والطارات والتغبير والكوبة من آلات الطرب واليوم اتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من ادوات الطرب ولكن جل الاعتماد اليوم عَلَى البيانو لا يكاد يخلو منه بيت ذي نعمة في الغرب يضرب به اولاده وزوجه وضيوفه و يوقعون عليه انواع الاغاني والاناشيد وتعلمه فيما نحسب اسهل من تعلم العود المألوف في هذا الشرق الاقرب·
والتغبير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب وانما سمي تغبيراً لان محدثيه يسمون المغبرة والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربكة في بلادالشام·

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط فقال ليت شعري ماهو فقال له عبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود انا اخبرك ماهوهومحدودب الظهر ارسح البطن له اربعة اوتار اذا حركت لم يسمعها احد الا حرك اعطافه وهز رأسه

وقد وردفي الكتاب والسنه وسيرة اعاظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم في سماعه وهم ولا شك احسن قدوة في هذا الباب· قال القرطبي « من مخطوطات المكتبة الظاهرية » ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك اي عَلَى الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وانتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء · ومن السنة ماخرجه الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغازيه فجاءته جارية سوداء فقالت : يارسول الله اني كنت نذرت ان ردك الله سالماً ان اضرب بين يديك بالدف واتغني فقال لها : ان كنت نذرت فاضربي فدخل ابو بكر وهي تضرب ثم دخل عليٌّ وهي تضرب ثم دخل عمر فالقت الدف تحتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك ياعمر · وفي حديث عائشة ان امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة اما كان معهم لهو فان الانصار يعجبهم اللهو · واللهو هو الغناء ·

« ١ » في الاغاني انابن سريج وهواحد المغنين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والغريض ومعبد هو اول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة وكان عوده على صنعة عيدان الفرس رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فاعجب اهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائي فضرب به فكان احذق الناس

وحكي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال بعض اهل التفسير في قول الله « يزيد في الخلق مايشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابي موسى الاشعري لما اعجبه صوته : لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داود

كان ابو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال احمد بن ابي دؤاد ان كنت لاسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع علي البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاحات يقول بان النحل اطرب الحيوان كله الى الغناء وان افراخها لتستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال في العقد واردف النبي صلى الله عليه وسلم الشريد فاستنشده من شعر امية فانشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحساناً لها فلما اعياهم القدح في الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى ان يؤخذ بلحن حسن واجازوا ذلك في القرآن وفي الآذان فان كانت الالحان مكروهة فالقرآن والآذان احق بالتنزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر احوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين ان ينشد الرجل « اتعرف رسمًا كاطراد المذنب » مرسلاً او ليرفع بها صوته مرتجلاً وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : اهديتم الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغني قالت : لا قال : او ماعلمت ان الانصار قوم يعجبهم الغزل الا بعثتم معها من يقول

اتيناكم اتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبدالله بن اويس بن عم مالك وكان من افضل رجال الزهري قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية بظل قارع وهي تغني

هل عليَّ ويحكم ان لهوت من حرج

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المفضل قاضي المدينة قال حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن مصعب بن عبد الله قال: دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو والي العراق لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية في حجرها عود فلما دخل الشعبي امرها فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للامير ان يستحي من عبده قال : صدقتم ثم قال للجارية هات ماعندك فاخذت العود وغنت

ومما شجاني انها يوم ودعت تولت وماء العين في الجفن حائر

فلما اعادت من بعيد بنظرة الي التفاتاً اسلمته المحاجر

فقال الشعبي : الصغير اكيسهما يريد الزير ثم قال : ياهذه ارخي من بمك وشدي من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : اظن العمل فيهما قال : صدقت ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه ٠

ارق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبدالله (بن جعفر وكان ضيفه انزله في دار عياله بالشام) واخبره بخروجي اليه فذهب فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير في المجلس غير عبد الله فقال : مجلس من هذا قال : مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال من هذا قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوي الآذان ياامير المؤمنين قال له معاوية فان اذني عليلة فمره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديح المغنى فامره ابن جعفر فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو اذني من علتها فتناول العود ثم غنى

امن ام اوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر قال : اريحية اجدها يا امير المؤمنين لو لاقيت عندها لابليت ولئن سئلت عندها لاعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا وكانت عند معاوية جارية اعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديح

وليس عندك شكر للتي جعلت ما ابيض من قادمات الشعر كالحمم

وجددت منك ما قد كان اخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر يا امير المؤمنين

سألتني عن تحريك رأسي فاخبرتك وانا اسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح احــد منكم حتى يأتيه اذني فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجــل منهم بالف دينار وعشرة اثواب ·

روى المبرد في الكامل قال : حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء اعجبه فلما اصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذاً فاخثر له من العطاء · وحدثت ان معــاوية قال لعمرو : امض بنا الى هذا الذي قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته حتى ننعى عليه اي نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فدخلا اليه وعنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبد الله فامر عبد الله بتنحية الجواري لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله : اعد مــا كنت فيه فامر بالكراسي فالقيت واخرج الجواري فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم

ديار التي كادت ونحن على منىً تحل بنا لولا نجاء الركائب

ومثلك قد اصبيت ليست بكنة ولا جارة ولا حليلة صاحب

وردده الجواري عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتئد يا امير المؤمنين فان الذي جئت لتلحاه احسن منك حالاً واقل حركة فقال معاوية : اسكت لا ابالك فان كل كريم طروب ·

وذكر ابن عمــيرة الضبي «١» في ترجمة محمد ابن اسحاق بن السليم قاضي الجمــاعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند اهــل بلاده حالة مذكورة ومنزلة في العلم والفضل معروفة وكان مع هيبته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضي ابو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلاً من اهل المشرق يعرف بالشيباني دخل الاندلس فسكن بقرطبة على شاطئ الوادي بالعيون فخرج قاضي الجماعة ابن السليم يوماً لحاجة فاصابه مطر اضطره الى ان دخل بدابته في دهليز الشيباني فوافقه فيه فرحب بالقاضي وسأله

«١» بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس لاحمد بن يحيى بن عمــيرة الضبي طبع في مدينة مجريط سنة ١٨٨٤ م وهو احــد اجزاء الكتب التاريخية التي طبعت من تواريخ الاندلس وسماها طابعوها من الاسبان المكتبة الاندلسية

النزول فنزل وادخله الي منزله وتفاوضا في الحديث فقال له : اصلح الله القاضي عندي جارية مدنية لم يسمع باطيب من صوتها فان اذنت اسمعتك عشراً من كتاب الله عزّ وجل وابياتاً فقال له : افعل فامر الجارية فقرأت ثم انشدت فاستحسن ذلك القاضي وعجب منه وكان على كمه دنانير فاخرجها وجعلها تحت الفرش الذي جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضي وودعه الشيباني فدعا القاضي له ولجاريته

ولا بأس هنا ان نختم هذا الفصل بابيات في صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى في اماليه قال : اخبرنا المرزباني قال : حدثنا علي بن هارون قال : حدثني ابي قال : من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية قال علي: وما في الدنيا شيء لقديم ولا لمحدث من منثور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الابيات

ورائحة للعين فيها مخيلة　　اذا ابرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم عَلَى الفتى　　خفا برقها في عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يمسها　　وما كنت لولا حبها بحسود
واصفر مثل الزعفران شربته　　على صوت صفراء الترائب رود
كأن اميراً جالساً في ثيابها　　تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح عَلَى اهل ثلة　　سواماً ولم ترفع حداج قعود
تميت به البابنا وقلوبنا　　مراراً وتحييهن بعد همود
اذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى　　صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله　　كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس الا اننا عند اهلنا　　شهود وما البابنا بشهود

الملك الناصر صلاح الدين

اشار الينا احد الاصدقاء ان نزيد القراء من سيرة ابي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب احد افراد الملة الاسلامية واكبر ابطال القرون الغابرة من كان يعلم اعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امبراطور الالمان الحالي وان نتوسع في وقائعه ما امكن لان سيرته الشريفة جديرة بان يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدي بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهي مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما اطال الناظر بصره فيها زاد بصيرة وما ذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً باحياء الامة وخادنه من اسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد لخدم الاسلام والمسلمين بعقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسي وكان في زهده وشدته على قدم علي بن ابي طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين ارقى صفات تلزم الملوك والسلاطين واسمى اخلاق الزاهدين العالمين والكرماء المحسنين وربي تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن ارقي البيوت المالكة لعهدنا في بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والمجامع والجمعيات واسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وانارة العقول

فلاحت على وجهه مخايل السعادة واخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ في كنف ابيه في قلعة تكريت وكان ابوه وعمه بها عمالاً لحاكم تلك الديار وكان اهله من دوين بلدة في آخر عمل اذربيجان من جهة اران وبلاد الكرج وهم اكراد روادية وهي قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وانتقلوا من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين

قال ابن خلكان اخبرني بعض اهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال : سمعت جماعة من اهلنا يقولون انهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال

قلنا تشاءموا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من قلعة

تكريت بامر صاحبها بهروز ليلة ولادته · وذكر في الروضتين ان قد اجتمع مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين في دار الوزارة بمصر وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بار باب الدولتين يوم اراد نور الدين محمود بن زنكي ان تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بني العباس وعند الناس من الفرح والسرور ما قد اذهل العقول فبينا الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يامولاي هذا تأويل مقالتي لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله ثم اخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك انني ليلة رزقت هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر امرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من اخي شيركوه رحمه الله وقتله النصراني وكنت قد الفت القلعة وصارت لي كالوطن فثقل عليّ الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وانا على طيرتي به لا اكاد اذكره ولا اسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاءم به استدعى مني ان آذن له في الكلام فاذنت له فقال لي : يامولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي واي شيء له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل المقدار فعطفني كلامه عليه وها هو قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه ·

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكي دمشق لازم نجم الدين ايوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين · ونور الدين هذا تركي الاصل وهو صاحب الفضل الاول في تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوي على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة · فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من اصل وضيع ولا من اصل رفيع جداً تعلم القدر الذي كان يتعلمه ابناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية واخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن ابيه نجم الدين ايوب بن شاذي وكان عدلاً مرضياً كثير الصلاة

والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ربي في الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه امانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها احسن قيام وضبطها اكرم ضبط واجلى من ارضها المفسدين وقطاع الطريق واهل العيث حتى عمرت ارضها وحسن حال اهلها وأمنت سبلها ثم اضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً في انفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لايرد احدمن اهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لايسمع باحد من اهل الدين في مدينة الا انفذ اليه مايستعين به على صلاح حاله

وكان اسد الدين شيركوه اخو نجم الدين ايوب في قلعة تكريت مع اخيه وكان شجاعاً باسلاً مثل اخيه فاتفق ان اسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم ان النصراني صادف اسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد اسد الدين سيفه وقتل النصراني وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر احد على معارضته في امر النصراني فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ماجرى وحضر عنده من خوفه من جرأة اسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان اخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما امر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من اخيه ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وقعد هو واخوه عماد الدين زنكي بالموصل فاكرمهما واقطعهما الاقطاعات الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكي الى ان ارسل اسد الدين شيركوه الى مصر ومعه ابن اخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في امور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره لذلك فجعله عمه اسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين في السابعة والعشرين من عمره فعرف اسد الدين حال مصر وكشف احوالها والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب الفشل والهرم في البيت العبيدي وصارت خلافتهم العوبة في يد كل ذي قوة

والسبب في دخول اسد الدين ومعه ابن اخيه صلاح الدين الى مصر ان الوزير شاور هرب من مصر واستغاث في الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر لانه قهره

واخذ مكانه في الوزارة « ولما وصل اسد الدين شيركوه وشاور الى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت اموره غدر باسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه وحصروه في بلبيس وكان اسد الدين قد شاهد البلاد وعرف احوالها وانها مملكة بغير رجال تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال » طمع في الاستيلاء عليها فبلغ شاوراً ان نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان اسد الدين لا بد له من قصدها ثانية فكاتب الافرنج « وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال اعدائه فبلغ نور الدين واسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم فخافا على الديار المصرية ان يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز اسد الدين وانفذ نور الدين معه العساكر وصلاح الدين في خدمة عمه اسد الدين شيركوه وكان توجههم من الشام في سنة ٥٦٢ »

استولى اسد الدين على ازمة الوزارة وقتل شاوراً الوزير قبله بامر الخليفة الفاطمي جرياً على عادة اجداده في الوزراء وذلك في ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان صلاح الدين « يباشر الامور مقرراً لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته » ومات اسد الدين بعد شهرين وخمسة ايام من توليه الوزارة للعاضد الفاطمي فتولاها صلاح الدين بعده « وتمهدت القواعد ومشى الحال على احسن الاوضاع وبذل الاموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر واعرض عن اسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد » و « من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد وغشي الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من غير تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب اهل السنة مارس في البلاد اهل الفقه والعلم والتصوف والدين » وهو يكرم كل وافد ولا يخيب احداً قصده ·

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين واصبح فيها الحاكم المتحكم واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من آكد الطرق في بلوغ المقصود وتهيئة اسباب الملك

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان

ولما ثبتت قدم صلاح الدين في مصر وازال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف امر

العاضد ولم يبق من العساكر المصرية احد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وارسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة له فيه واتفق ان العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار امراءه في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من اقدم على المساعدة واشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين فلما كان اول جمعة من المحرم «٥٦٧» خطب للمستضيء بامر الله تعالى العباسي فلم ينكر احد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة امر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بامر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه اهله واصحابه بانقطاع الخطبة باسمه وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان ننغص عليه هذه الايام التي بقيت من اجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل اهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وابناءهم في ايوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم واخرج من كان فيه من العبيد والاماء فاعتق البعض ووهب البعض وباع البعض واخلى القصر من اهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبيدية او الفاطمية بافريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتي سنة وثماني سنين وملك منهم اربعة عشر ملكا آخرهم العاضد واولهم المهدي

ازال صلاح الدين دولة العبيديين على اهون سبب لانها لم تعد صالحة للبقاء وكفى ان امراءها اخذوا يراسلون الافرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة اليمني «المقتبس م٣ ص ٧٧١» واخذوا يراسلون الفرنج في صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحكومة الصلاحية ويعيدوا الدولة العبيدية فشعر بهم صلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف في الاندلس فانشأوا يحتمون بجيرانهم واعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وابناء ملتهم فكان ذلك من اهم الامور في طمع الاسبانيين ببلاد الاندلس واسترجاعها بعد ان حكمها العرب قروناً . عن علي بن عيسى بن الجراح قال:

سألت اولاد بني امية ما سبب زوال دولتكم قال اربع خصال اولها ان وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية ان جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن اوطانهم فخربت بيوت اموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من انصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب اكثر الدول وهذه الخصال كانت ولا شك موجودة في الفاطمية .

قال صاحب الكامل: ولما استولى صلاح الدين على القصر واموالهِ وذخائره اختار منه ما اراد ووهب اهله ما اراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين ومر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف والحبل الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة الف مجلد . وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي بعد ان انقطعت دهراً طويلاً فارسل المستضيء بامر الله خلعة الى نور الدين في الشام واخرى اقل من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك ان الاول طلب الى الثاني ان يجمع العساكر المصرية ويأتي الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد ان صدع بالامر ارسل اليه كتاباً يعتذر فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لامور بلغته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وانه يخاف عليها مع البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد صلاح الدين ان اصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذا لم يمتثل امر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع اهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء واعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده واخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه احد منهم بشيء فقام تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من اهله فشتمهم نجم الدين ايوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأي وفكر وعقل وقال لتقي الدين : اقعد وسبه وقال لصلاح الدين : انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك اتظن ان في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال : لا فقال : والله لو رأيت انا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا ان

نترجل له ونقبل الارض بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد اقامك فيها وان اراد عزلك سمعنا واطعنا والرأي ان تكتب اليه كتاباً وتقول : بلغني انك تريد الحركة لاجل البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك فما ههنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب اكثرهم الى نور الدين بالخبر . ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين قال له : انت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على سرك ومافي نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك اهم الامور واولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك احداً من هذا العسكر وكانوا اسلموك اليه واما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ونكتب انت اليه وترسل اليه في المعنى ونقول اي حاجة الى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ماهو اهم عنده والايام تندرج والله كل وقت في شأن . والله لواراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته انا عليها حتى امنعه او اقتل . ففعل صلاح الدين ما اشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين ايوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من احسن الآراء واجودها .

هذا هو التوفيق الذي حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائد جندها ثم تولى وزارتها فملكها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك باخذه بالحزم في اموره واستشارته العقلاء من اهله ورجاله وكان من طبعه ان لا يبت امراً بدون مشورة هكذا كان منذ ابتدأ شاباً الى ان استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى ان استخلص بيت المقدس من ايدي الافرنج وطردهم من اكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

اذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن برأي لبيب او نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فان الخوافي رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة ابيه

فسار الى حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبي لا يستقل بالامر ولا ينهض باعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالاً جزيلاً وسار الى حلب فنازل حمص واخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفي الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حلب ابن عمه عزالدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى عَلَى حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعد ان ملكه الافرنج نحو مائتي سنة ولم يفشل في وقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا في عكا فاستعادوها منه بعد ان فتحها بواسطة ملك الانكليز اذ ذاك ريشاردس قلب الاسد ٠

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد ادهش الاوربيين في ذاك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون اما هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ما كان بعض خاصته من متعصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على ان يعامل الصليبيين بعملهم في الانتقام من اسراهم عنده كما فعل اولئك وقتلوا مرة مئات من اسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة اللين واللطف حتى استهوى القلوب الشاردة واحبه اعداؤه قبل اوليائه وهذا من اندر النوادر في الملوك وناهيك بعصره الذي كان عصر التعصب الديني في الغرب والشرق ايضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوي ايضاً

قال عبد المنعم الجلياني احد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعلل فيها السبب الذي من اجله احب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى احبوك ساطياً بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ اتى بقلب سليم راحماً للمسالم
فخطوا بارجاء الميا كل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم
يدين لها قس ويرقي بوضعها ويكتبه يشفى به سيف التمائم

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لمايستتب له على مايجب يستطيع

بعقله واخلاصه لامته ووطنه ان يدفع غارات الاوربيين عن ارض الشام ومصر بعد ان رسخت اقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا من جميع امم اوربا العدد الكثير وبذلوا في ذلك من المال والرجال مايقدر بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك والاكراد في موقف القتال مع الفرنسوي والالماني والانكليزي والمجري والايطالي والاسباني والنمساوي والسويسري وغيرهم من امم الافرنج فيبز الاولون الآخرين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لاتؤتى من قلة اكثر مما تؤتى من سوء السياسة وعتو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع كالمهاجم في وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذي كان لصلاح الدين كان يعيش عيش المتوسطين Bourgeoisie وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف (المقتبس م ٨ ص ٢١)فقد كانت قطيعة الصلح بينه وبين الافرنج في القدس مثلاً ان يؤدوا عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل ذكر صغيراو انثى ديناراً واحداً فمن احضر قطيعته نجا بنفسه والا اخذ اسيراً فاقام صلاح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من المال الذي جبي له شيء وكان يقارب مائتي الف دينار وعشرين الف دينار . قال في البرق سمعت الملك العادل (اخو صلاح الدين) يوماً في اثناء حديثه في ناديه وهو يجري ذكر افراط السلطان في اياديه يقول : اني توليت قطيعة القدس فانفذت له ليلة سبعين الف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال : نريد اليوم مانخرجه في الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شيء فنفذت له ثلاثين الف دينار اخرى في الحال . قالوا : وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكله يخرج في الجود والجهاد

وكان يكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل قال العماد وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط يؤثر سماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية وكان من جالسه لايعلم انه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس اخ من الاخوان وكان حليماً مقيلاً للعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفياً صفياً يغضي ولا يغضب مارد سائلاً ولا صد نائلاً ولا اخجل قائلاً ولا خيب آملاً .

اخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ اهل العلم واكابر الفقهاء بحيث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وان لم يكن بعبارة الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعطلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته وصيامه عادلاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس علم يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان في جميع اوقاته قابلاً لما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينهى اليه من المظالم.

كان من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لايهوله امر وصل في ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد الاقوة نفس وكان يعطي دستوراً (اى يسرح عسكره) في اوائل الشتاء ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة اذ كان عدد جيشهم لايقل عن خمسمائة الى ستمائة الف ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة. وكان لابد له من ان يطوف حول العدو كل يوم مرة او مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكوس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير فانحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة الى ان ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم اكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة في الصلح.

ولقد كان يركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دمامل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربان الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عني المها حتى انزل.

ومع كل هذه الصفات التي نعدد منها ولا نعدها لكثرتها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم واحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان اصحابه يستفيدون محاضرة منه .الا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويرددها في مجالسه وكثيراً ماينشد قولهم

وزارني طيف من اهوى على حذر　　من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت اوقظ من حولي به فرحاً　　وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي　　نيل المنى فاستحالت غبطتي اسفا

وكان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب

وما خضب الناس البياض لقبحه　　واقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت　　على الرسم من حزن عليه منازله

وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات احواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه احد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب ان يسمع عن احد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهد مولعاً بشتم قط حسن العهد والوفاء فما احضر بين يديه يتيم الا وترحم عَلَى مخلفه وجبر قلبه واعطاه خبز مخلفه وسلمه الى من يكفله و يعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا و يرق له و يعطيه ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه اسير افرنجي قد اصابه كرب بحيث انه ظهرت عليه امارات الخوف والجزع فقال للترجمان: من اي شيء يخاف فاجرى الله على لسانه ان قال : كنت اخاف قبل ان ارى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه ايقنت اني ما ارى الا الخير فرق له ومن عليه واطلقه . قال ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكي : ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد اتينا بها فامر الترجمان ان يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لي الملوك : السلطان هو ارحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فاخرجوني اليك وما اعرف ابنتي الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وامر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها و يدفع له ثمنها ويحضرها

وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها فخرت الى الارض تعفر وجهها في التراب والناس يبكون عليّ ما نالها وهي ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى اعيدت الى عسكرهم ٠

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين اغلظ ما يمكن ان يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية نفسه وسعة صدره وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسرموزة (بانتوفل) في ناحية فوقعت على رأسه فادار وجهه كأنه لم يحدث شيء وتظاهر بانه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا في عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رؤوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقى حبلهم على غاربهم

لما فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق في ايدي الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التي لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضي الفاضل كتب اليه مشيراً بتبطيله: ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا وثق بعهدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه ان يسيروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا اليه والعياذ بالله ويفرط مديد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ومن العثرات التي لا تقال الى ان يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها اهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دماً ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ٠٠

ملأت اوقاف صلاح الدين مصر والشام وهي غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد افكرت في نفسي من امور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر انه مات صلاح الدين ولم يخلف مالاً

128

عن ٥٧ عاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد ان دخلت في يديه ثروة الفاطميين وجبي اليه خراج البلاد المفتتحة وحاز مغانم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين اربع سنين في فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد » فرأى اولاده الافضل والظاهر والظافر واولاده الصغار واقام في دمشق اياماً يتصيد هو واخوه الملك العادل ابو بكر بن ايوب واولاده « ويتفرجون في اراضي دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع نزهه » وبينا هو على ذلك ونفسه تحدثه بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وادمى الحناجر

مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلاً يعد بعشرات الملايين وكم من الوف لا يساوون واحداً وواحد يساوي الوفاً . مات وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضي الفاضل في ساعة موته الى ولده الملك الظاهر صاحب حلب من بطاقة : لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ان زلزلة الساعة شيء عظيم كتبت الى مولانا السلطان الملك الظاهر احسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده وقد قبلت وجهه عني وعنك واسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وبالباب من الجنود المجندة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب وانا عليك يا يوسف لمحزونون واما الوصايا مما يحتاج اليها والآراء فقد شغلني المصاب عنها واما لائح الامر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة اهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

صفحة منسية

افضنا في السنة الاولى للمقتبس (ص٣٠و٤٠و١١٠) في الكلام على ترجمة الوهراني ونكته وكتابته وهو احد ادباء عصر صلاح الدين وقد ظفرنا في الجزء الثالث عشر من مسالك الابصار لابن فضل الله العمري من مخطوطات دار الكتب الخديوية بمصر على ما يأتي بشأن شكوى الجوامع في دمشق من سوء حالة الاوقاف في ايامه قال: الوهراني اديب اخترع طريقاً ، وافترع عذراء لم تك رحيقاً ، طلعت شمسه من المغرب ولم يغلق للرحمة باب ، ولا كانت من مقدمات النذر للالباب ، وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت ، ويد تصرفها على البلاد قد استولت ، والمجلس الناصري معمود بالاجلاء مأهول بالقاضي الفاضل واقرانه من الفضلاء ، وريح الادب قد هبت ،ووفود الخواطر الى تلك المشاعر قد لبت ، والحظ الفاضل قد اخذ معه حظ كل فاخذ ما للكل ولم يترك لهم الا الفاضل ، وكان يغار على كل بيت فكر ويرى ان لا نصيب لغيره على محياه حذر ، وكان الوهراني لوذعياً تحميه لألاؤه ، والمعيا تريه البصيرة آراؤه ، فخاف نفثات ذلك الصل ، وعبثات ذلك السيف الذي لا يكل ، فمال الى السخف ، اذ كان لا يحسد على تلبيه ولا ينافس في ترديه وتحليه ، وجعل هذا سبباً لاظهار ما عنده من الاحسان ، وتكلم ولم يخف عثرة القلم ولا زلة اللسان ، فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي ، ورق عليه كما يرق غسق البابلي ، وهنيت له نغبة من العيش قدر عليه رزقها وقرر له رفقها ، وولي خطابة المسجد الجامع بداريا ، وقيل له الآن انت وحي ليلى واحر ريا ، وكان الى هذا ليس له من حاظ الدين ما يزعه ، ولا من حاضر العقل ما ينزعه ، فرداه سوء التجري من شاهقه والقاه عدم التحري لتى لبوائقه ، واطلق لسانه فعثر في طلقه ، وكبه في طبقه ، وتخرص المنام الذي اتى فيه بالاكاذيب ، وحسن باطله بحسن الترتيب ، وذكر فيه الملائكة الكرام ، وانهتك عرض السلف الحرام ، وغير ذلك من كباره التي لا تطاق ، ومنكراته التي لا يصبر عليها . وقد ذكرت بعضها هنا وانما ذكرته لئلا اخلي هذا الكتاب منه ، وهو من المسموع بهم والمسئول عنهم ، وانا استغفر الله مما ذكرت من دده ، واوردت من اباطيله ، وعقدت البيان على القلم حين تسطير اضاليله ،

وان كنت لم اوردها الا كالصد(؟) الخالي ، وانا فيه ناقل لاقائل ومن الله العصمة وبه السلامة ·

ومن نثره الرقعة التي له عن جامع دمشق ، لما حكمت يد الضياع ، في مساجد الضياع وارتج باب العدل وغلق ، ونبذ كتاب الله وحلق ، فزعت المساجد الى جلق ، وهو يومئذ اميرها ، وعليه مدار امورها ، فلما دخلوا عليه من بابه ، واجتمعوا تحت قبته ومحرابه كتب لهم جامع النيرب قصة اليه ، وتوصلوا الى من عرضها عليه ، فكانت الرقعة مسطورة على هذه الصورة

المماليك مساجد الكورة يقبلون الارض بين يدي الملك المعظم ، الرفيع المكرم ، كهف الدين جمال الاسلام والمسلمين ، بيت الاتقياء والصالحين ، مدفن الانبياء والمرسلين معبد الملتين ، صاحب الدولتين ، نبيه امير المؤمنين اعلا الله مناره ، وايد انصاره ، وعمر بالتوحيد اقطاره ، وينهون اليه ما يقاسون من جور العمال · وتضييع الاعمال · ونهب الوقوف · وخراب الحيطان والسقوف · قد الفهم الظلمة والظلام · وانكرهم المؤذن والامام · فلا تسمع فيهم الا اذان البوم · وتسبيح الغراب · قد ركعت اركانها · وسجدت سقوفها وحيطانها · تبكي عليها النواقيس · وترثي لها البيع والكنائس · ياويح من يرثي له الشامت · وقد فزعنا ايها الملك الى بابك · واوينا تحت جنابك · فافعل بنا ما هو الاهل بك والسلام

فلما وقف على هذه الحكاية · وفهم مقتضى هذه الشكاية · استوى جالسًا في مقعده وضرب بيده على يده · وقال : وكيف ام للانسان ماتمنى ثم رفع رأسه وغنى

وما شرب العشاق الا بقيتي ولا وردوا في الحب الاعلى وردي

ثم اشرف عليهم من ايوانه · بين حفدته واعوانه · واقبل يقلب طرفه في الجموع ويكفكف اسراب الدموع · لما يرى من اختلالهم وفساد حالهم · فابتدر جامع المزة للمقال · فتقدم بين يدي الملك وقال : الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب · وصير اموالنا كالسراب · وجعلنا مأوى للبوم والغراب · احمده حمد من كان فقيراً فاستغنى · وادرك بمال الوقف ما تمنى · واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة عالم عامل · متحمل لثقل الامانة حامل · واشهد ان محمداً عبده ورسوله الصادق الامين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الطيبين الاكرمين · اما بعد ايها الملك السعيد ثبت الله قواعد اركانك · وشيد ما وهى من بنيانك · فان الخراب قد استولى على المساجد

حتى خلت من الراكع والساجد · فاصبحت جوامع الغوطة غيطان · لا سقوف لها ولا حيطان · ومشاهد البقاع · صفصفاً كالقاع · ومساجد حوران · مخازن وافران · فكم من بنية لعب الجور بار بابها · ونسج العنكبوت وكم من بيوت الله اغلقت دون اصحابها فعشش الحمام في محرابها · ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها · وقد دخل العمال ايها الملك على الوقوف · بحجة العمارة والسقوف · فاتفقت علينا الاهواء · واختلفت فينا الامطار والانواء · فلا يزال ينهار · وتأخذه السيول والامطار · حتى يمحي رسمه · ولا يبقى منه الا اسمه · وانت ايها الملك عمادنا · واليك بعد الله معادنا فالتفت ايها الملك الى مالنا · وانظر في مصالح احوالنا · يصلح الله احوالك و يسدد اقوالك وافعالك والسلام

ثم جلس فقال الملك : هؤلاء المساجد · فما بال المشاهد · فبرز مشهد برزة متوكئاً على مشهد الارزة وهو يصلصل و يصول و يلطم وجهه و يقول :

كلما حاولت اشكو قصتي لا الاقي غير ذي قلب جريح
يتشكى مثل شكواي له يا لقومي ما عليها مستريح

اما بعد ايها الملك السعيد ادام الله جمالك و بلغك في العدو آمالك فان مقام ابراهيم ، اصبح في كل واد يهيم ، ومغارة الدم ، لا تستفيق من الذم ، ومسجد الكهف ، لا يفتر من اللهف ، وقبر شيث ، قد استأصله الخبيث ، وقبر نوح ، يبكي و ينوح ، وقبر جيلة ، مالنا في عمارته حيلة ، وقبر الياس ، قد تعوضنا عنه بالياس ، فامست المشاهد كأربابها ، واصبحت رميماً كاصحابها ، قد محتها الغوادي ، وحدا بها الحادي ،

جرت الرياح على رسوم ديارها فكأنما كانوا على ميعاد

فقال الملك رب طارق على غير وعد ، وفي كل واد بنو سعد ، ثم استفتح المقال بان قال : الحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه ، نصب صراط العدل وسواه ، وامده بعونه وقواه ، فمن اضل ممن اتبع هواه ، واضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، احمده على مارزقني من الاحمال ، واشكره عليّ ذهاب العرض والجاه والمال ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً سيد الاولين والآخرين رسول الله ، اما بعد معشر المتكلمين ، وطائفة المساجد المتظلمين ، فانه والله مايصل اليكم من الجور الا مايفضل عني ، ولا ينتهي اليكم الا مايستعار مني ، ولولا ان اركاني سليمة ، وبنيتي قديمة ، لاصبح جامع بني امية ، يغني عليه يادار مية ، وقد والله شرقت بغصتكم ، وحرت

130

في قصتكم ، ان رفعت امركم الى الملك العادل ، ردكم الى الشيخ العاذل ، فلا يرعى لكم حرمة ، ولا يراقب إلا ولا ذمة ، شكوى الجريح الى الغربان والرخم ، والرأي عندي ان تكتبوا للشيخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم غصة ، وان تجعلوا في الكتاب انواعاً من الكتاب «؟» فان التأم رأيه برأيكم ، والا فالسلطان من ورائكم ، اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، فبادر الغلام بالدواة والاقلام · فقال : استعذ بالله من الشيطان الرجيم واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم من ملك الجوامع بجيرون · الى ابي سعيد ابن ابي عصرون

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

اما بعد يا عدار فقد هجت الالم · وابهمت الظلم · ومن استرعى ظالماً فقد ظلم · كم تغاضينا عن خياناتك · وتغافلنا عن جناياتك · حتى اكتنزت الاموال وبسببه طالت نياحتك · ولاجله كنت تسبح وتصيح · حتى غبطك المسيح · لقد عجبت ايها الشيخ من حالك · في ابتداء حالك · ومن فساد امرك في آخر عمرك · صليت بالمسوح والقيد · حتى ظفرت بانواع الصيد · وقلدت الامور العظام · حتى تقلدت الذنوب العظام · ان كنت في العمل الا كما قيل في المثل

صلى وصام لامر كان يأمله حتى حواه فما صلى ولا صاما

عرفني ايها الشيخ المفتون · والبائع المغبون · لم بعت الباقية بالفانية · والقاصية بالدانية · ان فعلت ذلك الا لعلة · او لتحقيق حلة · اما ان تكون استطبت السكباج واستلينت الديباج · واما ان تصدق اهل الاحقاد · في انك نصري الاعتقاد · لا تقول بالنجعة ولا تصدق بالرجعة · وكلاهما انت فيه ملوم · ومعاقب ومذموم · وحسبك انه قد بلغني ما انت عليه من قلة الوفاء · مع هؤلاء الضعفاء · فاحسم عنهم اذاهم · ولا تمكن منهم عداهم والسلام الخ ·

معجم البلدان

في الكتب مالا يبلى جديده كلما توالى الجديدان ومنها كتب ياقوت الرومي . وكتابه معجم البلدان ان لم يكن افضل كتبه فهو من افضلها على انه لم يطبع له من الكتب حتى الآن غير معجم الادباء والمشترك وضعاً والمختلف صقعاً اما كتابه معجم الشعراء وتاريخه المبدأ والمآل وكتاب الدول ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني والمقتضب في النسب واخبار المتنبي وغيره فهذه لم يبلغنا انها طبعت ولا نعرف ان كانت باقية في احدى خزائن المخطوطات في الشرق والغرب او دثرت مع مادثر من آثار سلفنا وثمرات عقولهم .

أُخذ عبدالله شهاب الدين الرومي اسيراً من الروم وهو صبي فقيل له الرومي اشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي « المقتبس م ! ص ٤٨٩ » فنسب اليه فقيل له ياقوت الحموي ايضاً وقد جعله في الكتاب يتعلم مايستفيد هو منه في ضبط متاجره وقرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالاسفار فكان يتردد الى كيش وعمان وتلك النواحي و يعود الى الشام ثم اعتقه مولاه سنة ٥٩٦ فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد وعاد مولاه فالوى عليه واعطاه شيئاً وسفره الى كيش ولما عاد كان مولاه قد مات فاعطى اولاد مولاه وزوجته ماارضاهم به و بقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً . وبذلك سهل على ياقوت ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ودخل خوارزم وغيرها و بعبارة اخصر كما قال عن نفسه انه جاء البلاد مابين جيحون والنيل .

تعود ياقوت في رحلاته الحالات المختلفة وألف من زمانه كل حالة حتى عده صاحب كتاب الفلاكة والمفلوكين في جملة البائسين ومنذ ذاكر يوماً احدهم في بعض اسواق دمشق وذكر رأيه في امير المؤمنين علي بن ابي طالب « كرم الله وجهه » وكان منحرفاً عنه فيما يقال وثار عليه الناس وكادوا يقتلونه ففر الى حلب ثم الى الموصل واربل ودخل خراسان ومرو وخوارزم فانهزم منها من التتار بنفسه وقاسى شدائد وبلغ الموصل وهو فقير داثر منذ وقع له هذا وما زال يغتني بعض الشيء تارة و يفتقر اخرى وكثيراً مايخرج من

131

بلد كيوم ولدته امه لا مال ولا نوال قال جمال الدين القفطي في تاريخ النحاة انه كتب اليه رسالة من الموصل شرحًا لما تم على خراسان ومنها كان المملوك لما فارق مولاه اراد استعتاب الدهر الجامح واستدرار حلب الزمان الجانح اغترارًا بان الحركة بركة والاغتراب داعية الاكتساب فامتطى غارب الامل الى الغربة وركب ركوب التطواف مع كل صحبة فلم يرث له دهره الخؤون ولا رق له زمانه المفتون

ان الليالي والايام لو سئلت   عن عيب انفسها لم تكتم الخبرا

وهيهات مع حرفة الادب بلوغ وطر او ادراك ارب ومع عبوس الحظ ابتسام الدهر الكظ ولم ازل مع الدهر في تفنيد وعتاب حتى رضيت من الغنيمة بالاياب ...

والقفطي هو وزير حلب الذي يروي عنه ياقوت كثيرًا في كتبه بقوله وحدثني الصاحب الاكرم والغالب انه كان من المحسنين لياقوت ولا يعرف الفضل الا ذووه ولان القفطي كان عالمًا ايضًا وهو صاحب اخبار الحكماء « المقتبس م ٥ ص ٣٣٥ » واحتكاك ياقوت بامثال القفطي من ارباب الدولة هيأ له الاطلاع على مايتعذر على كثير من المشتغلين بالتأليف ان يطلعوا عليه مثل مقدار الجباية في قطر وبعض امور تتعلق بالبلاد وترى من ذلك نموذجًا في مادة « حلب » فان ياقوت جوّد الكلام على هذه المدينة اكثر من تجويده على دمشق في الجملة لان الصاحب الاكرم اطلعه على امور كثيرة ولذلك ترى المؤلف قضى شطرًا من حياته في حلب وما نظنها كانت الا دون دمشق بمكانتها العلمية والاقتصادية ولكن الرجل الواحد قد تكبر به البلد وتعظم في النفوس ومئات الالوف من الناس قد لا يكون فيهم الرجل الرشيد فتزدريهم وتتخطاهم الى غيرهم .

وقد اهدى ياقوت معجم البلدان الى القاضي الاكرم وزير حلب فقال في ذلك : اذ كنت منذ وجدت في حل وترحال ومبارزة للزمان ونزال اسأل منه سلمًا ولا يزيدني الا هضمًا

فلما قضت نفسي من السير ما قضت   على ما بلت من شدة وليان

بعد طول مكابدة حرقة الحرفة وانتظار تبلج ظلام الحظ يومًا من سدفة .

علقت بحبل من حبال ابن يوسف   امنت به من طارق الحدثان

فرد عني صرف الدهر والمحن ورفه خاطري عن معاندة الزمن لما

تغطيت عن دهري بظل جناحه   فعيني ترى دهري وليس يراني

فاصبحت من كنفه في حرز حريز ومن احسانه وتكرمه في موطن عزيز

فلو تسأل الايام عني لما درت   واين مكاني ماعرفن مكاني

اهدى ياقوت كتابه الى صاحبه الذي عرف قدره وهكذا تجده يصرح ولا يجمجم في ممادح البلاد و بالعكس فقد قال في مرو ولولا ماعرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها « فارقها سنة ٦١٦ ه اي قبل وفاته بعشر سنين » الى المات لما في اهلها من الرفد ولين الجانب وحسن المشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة بها قال وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد واكثر فوائد هذا الكتاب « معجم البلدان » وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن .

نقرأ حرية ياقوت في تآليفه وكلامه على البلدان والسكان فاقرأ هذا الفصل وهو صورة من اخلاقه وقل معنا انه لا يقل عن اعتراف الفيلسوف جان جاك روسو ولكنه في غير محرم قال : وكنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا ارى ان الله تعالى خلق احسن منها خلقاً وخلقاً وصادفت من نفسي محلاً كريماً ثم ابطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها فامتنع علي القرار وجانبت المأكول والمشروب حتى اشرفت على البوار فاشار علي بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ماامكن فلم يكن الى ذلك سبيل لان الذي اشتراها كان متمولاً وصادفت من قلبه اضعاف ما صادفت مني وكان لها الي ميل يضاعف ميلي اليها فخاطبت مولاها في ردها علي بما اوجبت به على نفسها عقوبة فقلت في ذلك :

الا هل ليالي الشاذياخ تؤب   فاني اليها ما حييت طروب
بلاد بها تصبي الصبا ويشوقنا الـ   شمال ويقتاد القلوب جنوب
لذاك فؤادي لا يزال مروعاً   ودمعي لفقدان الحبيب سكوب
و يوم فراق لم يرده ملالة   محب ولم يجمع عليه حبيب
ولم يحد حاد بالرحيل ولم يزع   عن الالف حزن او يحول كئيب
أئن ومن اهواه يسمع انتي   و يدعو غرامي وجده فيجيب
وابكي فيبكي مسعداً لي فيلتقي   شهيق وانفاس له ونحيب
على ان دهري لم يزل مذ عرفته   يشتت خلان الصفا و يريب

132

الا يا حبيباً حال دون نهائه على القرب باب محكم ورقيب
فمن يصح من دار الخمار فليس من خمار خمار للمحب طبيب
بنفسي افدي من احب وصاله ويهوى وصالي ميله ويثيب
ونبذل جهدينا لشمل يضمنا ويأبى زماني ان ذا لعجيب
وقد زعموا ان كل من جد واجد وما كل اقوال الرجال تصيب

الكلام على معجم البلدان طويل كطوله ولكنه طول غير مملول وكأن ياقوت شعر بما اتى فقال في مقدمته : ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً فابيت ولم اجد لي على قصر هممهم اولياء ولا انصاراً فما انقدت لهم ولا ارعويت ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ان لا يضيع نصبي ونصب نفسي له وتعبي بتبديد ما جمعت وتشتيت ما لفقت وتفريق ملتئم محاسنه ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه باقتضابه واختصاره وتعطيل جيده من حليه وانواره وغصبه اعلان فضله واسراره فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها وزاهد في نكتة غيره مشغوف بها ينضي الركاب اليها فان اجبتني فقد بررتني جعلك الله من الابرار وان خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار ثم اعلم ان المختصر لكتاب كمن اقدم على خلق سوي فقطع اطرافه فتركه اشل اليدين ابتر الرجلين اعمى العينين اصلم الاذنين او كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً او كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه اعزل راجلاً . وقد حكي عن الجاحظ انه صنف كتاباً وبوبه ابواباً فاخذه بعض اهل عصره فحذف منه اشياء وجعله اشلاء فاحضره وقال له : يا هذا ان المصنف كالمصور واني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما اعمى الله عينيك وكان لها اذنان فصلمتهما صلم الله اذنيك وكان لها يدان فقطعتهما قطع الله يديك حتى عد اعضاء الصورة فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار وتاب اليه عن المعاودة الى مثله اه .

ومع كل هذا التصريح ودعاء ياقوت على من يقدم على اختصار كتابه معجم البلدان مع علمه بتطويله اقدم الجلال السيوطي على اختصاره كما اقدم على تلخيص اللباب في الانساب لابن الاثير وسماه لب اللباب واصل اللباب للسمعاني «راجع باب المخطوطات والمطبوعات من هذا الجزء»

جاء في كشف الظنون ان مختصر معجم البلدان للسيوطي لم يتم كما في الفهرست قال السيوطي في مختصره وبعد فان الغرض من وضع هذا الكتاب انما هو بيان مايدل

على المقصود منه فلا ينبغي ان يخلط به غيره مما يبين في علم آخر لئلا يتشعب الفهم ويطول الكلام فيؤدي الى الاملال وهذه حال معجم البلدان فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والبقاع التي على الربع المسكون من الارض مما ورد به خبر وجاء في شعر وبيان جملة من الارض من اصقاعها فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه وخلط الحموي اشتقاق الاسماء وذلك علم برأسه تشتمل عليه كتب اللغة وكذلك ماذكره من طول البلدان فاكثره لا يصح وكذلك ذكر المنسوبين الى الاماكن وانما موضعه الكتب الموضوعة في معرفة الرجال واستقصاؤه غير ممكن فكتبت منه ما لا بد منه في الاسماء الواردة على الاخبار والآثار وكتب المغازي وقيدت ما اهمله وربما زدته بياناً في بعض المواضع واصلحت ما نبهت عليه فيه من خلل ووجدت النقل من غيره وهو خطأ واظنه كذلك وسميته مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع « طبع في اوربا كما طبع لب اللباب » . قال كاتب چلبي بعد ايراد ما تقدم اقول لكنه اي مراصد الاطلاع لم يتم وللصيمري ولابي عبيد البكري ولابن عساكر ولصفي الدين عبد المؤمن مختصرات من كتاب معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر من كل مكان

بدأ مؤلفنا بوضع كتابه سنة خمس عشرة وستمائة اي قبل وفاته باحدى عشرة سنة وقد نضج علمه وكثرت تجاربه وتجوابه اذ القي في روعه افتقار العالم الى كتاب في هذا الشأن وقد سئل بمرو الشاهجان عن اسم حباشة فاستعصى كشفه في كتب غرائب الاحاديث ودواوين اللغات فاخذ منذ ذلك الحين يأخذ من كتب جغرافيي العرب ولغوييهم قال وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ اهل الادب والمحدثين ومن افواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهدته في اسفاري وحصلته في تطوافي اضعاف ذلك ·

رتب ياقوت كتابه على حروف المعجم ووضعه كما قال وضع اهل اللغة المحكم وابان عن كل حرف من الاسم هل هو ساكن او مفتوح او مضموم او مكسور وذكر اشتقاقه ان كان عربياً وفي اي اقليم هو واي شيء طالعه ومن بناه واي بلد من المشهورات يجاوره وكم المسافة بينهما وبماذا اختص من الخصائص وما قيد من العجائب وبعض من دفن فيه من الاعيان والصالحين والصحابة والتابعين ونبذاً مما قيل فيه من الاشعار في الحنين الى الاوطان وفي اي زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك ومن كان اميره وهل فتح صلحاً اوعنوة

ليعرف حكمه في الفيء والجزية ومن ملكه في ايامه ولا سيما البلدان المشهورة ونقل اشياء تأباها العقول عَلَى علاتها مع انه مرتاب بها كما قال وهو في مثل هذه النقول مقلد اما وصفه للبلاد التي رآها فهو فيه مجتهد ولذلك ترى التحقيق بادياً على كلامه ·

ولقد رأينا بعض الخاصة ينقدون على ياقوت قوله في الاحابين ان الاسم الفلاني اسم جبل في اليمن مع ان بلاد اليمن واسعة الاطراف لا تعد مملكة بل ممالك وكان عليه ان يحدد موقع الجبل و يعينه تعييناً بيد ان هذا مما يفوت طوق المؤلفين لعهدنا فما بالك في القرن السابع للهجرة والعرب واهل الغرب الى اليوم لا يعرفون جغرافية اليمن على ما يجب مع ارتقاء فن الطوبوغرافيا وكثرة المواصلات البحرية والبرية وكثرة الباحثين من الغربيين في مهد الحضارة الحميرية · فطلبنا من ياقوت ان يكون مدققاً في كل ما نقل وروى هو طلب خيالي لا تقوم به الجمعيات الكبرى اليوم فما الحال بالافراد امس وياقوت معذور على كل حال اذا لم يجوّد كلامه الا على البلاد التي رحل اليها او عَلَى الحواضر منها وكفاه ذلك منقبة ومثل ذلك يقال في كتب تقويم البلدان التي وضعها المقدسي والاصطخري وابن حوقل والهمداني وابو الفداوغيرهم من جغرافيي العرب ·

الا ترى الى ما قاله ياقوت في ارم ذات العماد المختلف فيها ومن الناس من قال انها الاسكندرية ومنهم من قال وهم الاكثر انها دمشق واياها عنى البحتري بقوله :

اليك رحلنا العيس من ارض بابل ··· يجور بها سمت الدبور ويهتدي
فكم جزعت من وهدة بعد وهدة ··· وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبنك من ام العراق نوازعاً ··· بنا وقصور الشام منك بمرصد
الى ارم ذات العماد وانها ··· لموضع قصدي موجفاً وتعمدي

وحكى الزمخشري ان ارم بلد منه الاسكندرية وروى آخرون ان ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد بين اليمن وحضرموت وصنعاء من بناء شداد بن عاد وكل مئة رجل من وكلائه وقهارمته تحت يد كل رجل منهم الف من الاعوان وامرهم ان يطلبوا فضاء فلاة من ارض اليمن ويختاروا اطيبها تربة ومكنهم من الاموال ومثل لهم كيف يعملون وكتب الى عماله الثلاثة غانم بن علوان والضحاك بن علوان والوليد بن الريان يأمرهم ان يكتبوا الى عمالهم في آفاق بلدانهم ان يجمعوا جميع ما في ارضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيوجهوا به اليه ثم وجه الى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ثم وجه عماله الثلاثة الى الغواصين

الى البحار فاستخرجوا الجواهر فجموا منها امثال الجبال و ُحمل جميع ذلك الى شداد ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت والزبرجد وسائر الجواهر فاستخرجوامنه امراً عظيماً فامر بالذهب فضرب امثال اللبن ثم بنى بذلك تلك المدينة وامر بالدروالياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففضض به حيطانها وجعل لها غرفاً من فوقها غرف فعمد جميع ذلك باساطين الزبرجد والجزع والياقوت ثم اجرى تحت المدينة وادياً ساقه اليها من تحت الارض اربعين فرسخاً كهيئة القناة العظيمة الخ

وبعد اناورد تتمة هذه القصةفي صفحتين قال ما نصه : « قلت هذه القصة مما قدمنا البراءة من صحتها وظننا انها من اخبار القصاص المنمقة واوضاعها المزوقة ٠»

ومثل ذلك مـا رواه في مدينة النحاس قال : « و يقال لها مدينة الصفر ولهـا قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وانا بريء من عهدتها انما اكتب ما وجدته فيالكتب المشهورة التي دونها العقلاء » ثم اتى على ذكرها القريب في ثلاث صفحات

فكأن ياقوت بما ينقل من هذه الاوهام وغيرها يريد ان لا يخلي كتابه من كل أُطروفة ولو كانت سخيفة فيستفيد منه الجاهل ويتفكه به العالم ويتعلم الاديب ويقتبس الباحث ٠ ومما ذكره في استعمال الفضة قوله في « شنت مرية » في الاندلس قال واظنه يراد به مريم بلغة الافرنج وهو حصن من اعمال شنتبرية وبها كنيسة عظيمة عندهم ذكر ان فيها سواري فضة ولم ير الراؤون مثلها لايحزم الانسان بذراعيه واحدة منهامع طول مفرط

ومن ذلك ايضاً ما ذكره في وصف « قصر بهرام جور وهو احد ملوك همذان بقرية يقال لها جوهستة والقصر كله حجر واحد منقورة بيوته ومجالسه وخزائنه وغرفهوشرفه وسائر حيطانه فان كان مبنياً بحجارة مهندمة قد لوصلك بينها حتى صارت كأنها حجر واحد لا يبين منها مجمع حجرين فانه لعجب وان كان حجراً واحداً فكيف نقرت بيوته وخزائنه وممراته ودهاليزه وشرفاته فهذا اعجب لانه عظيم جداً كثير المجالس والخزائن والغرف وفي مواضع منه كتابة بالفارسية تتضمن شيئاً من اخبار ملوكهم وسيرهم وفي كل ركن من اركانه صورة جارية عليها كتابة ٠»

قلنا وليس حفر هذا القصر على هذه الصورة من الامور المستحيلة بعد أن رأينا خزنة فرعون في وادي موسى (بترا) قطعة واحدة وعبارة ياقوت تبين انه رأى ذلك القصر او نقل عن ثقة ٠ وهذا القصر من اعاجيب الدنيا ولا شك مثل قصر شيرين

وشيرين « بكسر الشين » بالفارسية الحلو وهو اسم حظية كسرى ابرويز وكانت من اجمل خلق الله والفرس يقولون كان لكسرى ابرويز ثلاثة اشياء لم يكن لملك قبله ولا بعده مثلها فرسه شبذير وجاريته شيرين ومغنيه وعواده بلهبذ · وقصر شيرين موضع قريب من قرميسين بين همذان وملوان في طريق بغداد الى همذان وفيه ابنية عظيمة شاهقة يكل الطرف عن تحديدها و يضيق الفكر عن الاحاطة بها وهي ايوانات كثيرة متصلة وخلوات وخزائن وقصور وعقود ومتنزهات ومستشرفات واروقة وميادين ومصايد وحجرات تدل على طول وقوة ····

وقصر اللصوص بناؤه عجيب جداً وذلك انه عَلَى دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الارض نحو عشرين ذراعاً فيه ايوانات وجواسق وخزائن يتحير في بنائه وحسن نقوشه الابصار وكان هذا القصر معقل ابرويز ومسكنه ومتنزهه · وايوان آسك من نواحي الاهواز وهو عال في صحراء على عين غزيرة و بيئة وبازاء الايوان قبة منيفة ينيف سمكها على مائة ذراع بناها للملك قبان والد انو شروان قال مسعر بن مهلهل وما رأيت في جميع ما شاهدت من البلدان قبة احسن بناء منها ولا احكم

والتأنق في القصور ليس خاصاً بالفرس والروم بل هو من شأن العرب في دولتهم الشرقية ودولتهم الغربية ومن تلا سير الاندلسيين يعرف مبلغ حرصهم على تشييد القصور والزهراء والحمراء بعض بقايا تلك الهندسة البديعة والثروة الوسيعة فانظر الآن مثالاً مما قاله ياقوت في قصر عيسى وهو عباسي مشرقي قال : « هو منسوب الى عيسى ابن علي بن عبد الله بن عباس وهو اول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور ببغداد وكان عَلَى شاطئ نهر الرفيل عند مصبه في دجلة وهو اليوم في وسط العمارة من الجانب الغربي وليس للقصر اثر الآن انما هناك محلة كبيرة ذات سوق تسمى قصر عيسى. وقد روي ان المنصور زار عيسى بن علي ومعه اربعة آلاف رجل فتغدى عنده وجميع خاصته ودفع الى كل رجل من الجند زنبيل فيه خبز وربع جدي ودجاجة وفرخان وبيض ولحم بارد وحلاوى فانصرفوا كلهم مسمطين (يقال رأيته مسمطاً لحماً اي يحمله)ذلك فلما اراد المنصور ان ينصرف قال لعيسى : يا ابا العباس لي حاجة قال : ما هي يا امير المؤمنين فامرك طاعة قال : تهب لي هذا القصر قال : ما بي ضن عليك به ولكني اكره ان يقول الناس ان امير المؤمنين زار عمه فاخرجه من قصره وشرده وشرد عياله وبعد فان فيه من حرم امير المؤمنين ومواليه اربعة آلاف نفس فان لم يكن بد من اخذه

فليأمر لي امير المؤمنين بفضاء يسعني و يسعهم اضرب فيه مضارب وخياماً اقلهم اليها الى ان ابني لهم ما يواريهم فقال له المنصور : عمر الله بك منزلك يا عم و بارك لك فيه ثم نهض وانصرف »

ومثل ذلك مارواه في « قنطرة خرزاذ تنسب الى خرزاذ ام اردشير ولها قنطرتان احداهما بالاهواز والاخرى من عجائب الدنيا وهي بين ايذج والرباط وهي مبنية على واد يابس لاماء فيه الا في اوان المدود من الامطار فانه حينئذ يصير بحراً عجاجاً وفتحه على وجه الارض اكثر من الف ذراع وعمقه مائة وخمسون ذراعاً وفتح اسفله في قراره نحو العشرة اذرع وقد ابتديء بعمل هذه القنطرة من اسفلها الى ان بلغ بها وجه الارض بالرصاص والحديد كلما علا البناء ضاق وجعل بين وجهه وجنب الوادي حشو من خبث الحديد وصب عليه الرصاص المذاب حتى صار بينه وبين وجه الارض نحو اربعين ذراعاً فعقدت القنطرة عليه فهي على وجه الارض وحشي مابينها و بين جنبي الوادي بالرصاص المصلب بنحاتة النحاس . وهذه القنطرة طاق واحد عجيب الصنعة محكم العمل وكان المسمعي قطعها فمكثت دهراً لا يتسع احد لبنائها فاضر ذلك بالسابلة ومن كان يجتاز عليها لا سيما في الشتاء وحدود الاودية وكان ربما صار اليها قوم ممن يقرب منها فيحتالون في قلع حشوها من الرصاص بالجهد الشديد فلم تزل على ذلك دهراً حتى اعاد ماانهدم منها وعقدها ابو عبدالله محمد بن احمد القمي المعروف بالشيخ وزير الحسن بن بويه فانه جمع الصناع المهندسين واستفرغ الجهد والوسع في امرها فكان الرجال يحطون اليها بالزبل بالبكرة والحبال فلما استقروا على الاساس اذابوا الرصاص والحديد وصبوا على الحجارة ولم يمكنه عقد الطاق الا بعد سنين فيقال انه لزمه على ذلك سوى اجرة الفعلة فان اكثرهم كانوا مسخرين من الرساتيق التي بين ايذج واصبهان ثلاثمائة الف دينار وخمسون الف دينار وفي مشاهدتها والنظر اليها عبرة لاولي الالباب . »

وسنقتبس في الجزئين التاليين شذوراً من كتاب ياقوت تفيد في تصور العمران على عهده وتدل على مبلغ عناية العرب بكل شيء ولا سيما بفن تقويم البلدان وحالة الانسان على مدى الازمان .

في ديار الغرب

« سويسرا »

أصحيح ان القطار غداً يخترق العقاب والشعاب ، ليخلص من ايطاليا مهد المدنيتين الرومانية والنصرانية ، الى سويسرا جنة اوربا ، بل جنة الدنيا ، ومدرسة العمل العليا ، وابهج مصيف ومشتى ، لملتمس الراحة والسلوى

ايكتب غداً للروح ان تطمئن قليلاً في اشرف ديار ، عرفت في باب حرية الاديان والافكار ، ويشهد الطرف حسناء ضمت الى صدرها شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الارضية والسماوية ، بلاد خص كل شبر منها بمزية عالية غالية ، وتعاورتها الايدي بالتحسين والتزيين والتطرية ، فلم يتصور العقل الآن ارقى من نظامها . ولا ابدع من طرازها وهندامها .

اصحيح ان هذه المدينة الفاضلة ، دهشة الامصار والاقطار ، وزبدة جهاد القرون والاعصار ، المغبوطة من جاراتها بل من اهل الغرب اجمع ، على قانونها المتكامل ، وامنها الشامل ، سيكون للنفس قسط من الراحة في رباعها البهجة شهراً من العمر ، يعد كالف شهر ، فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والانسان . وآخر حسنات العمران في هذه الازمان

سلام عليك يا جمهورية السلام والوئام ، عقمت الايام ان تنشيء مثلك انت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغربية فلم يعد عليك ان جوزت بعد تحضرك قتل النفوس ، لامتلاك النفائس ، ولا ان ظلمت شعباً آمناً لاستصفاء بيته وحقله ، ولا ان هتكت استاراً واعراضاً ، لتغنمي عروضاً واعراضاً ، بل كنت من خير من عطف على مدحور ومظلوم ، واكرم مثوى وافد مقهور مغموم ، وعلم طالب علم وصناعة تعليماً مجرداً من النزعات المذهبية والنزعات السياسية ، ومسلاة كل متعب راغب في التفرغ لنفسه ، لقنت الامم معنى الحكومة الصالحة في الامة الصالحة ، وحققت

بالعمل معنى تضامنك في شعارك « الواحد للكل والكل للواحد » فحكمت نفسك بنفسك حقاً وصدقاً ، لا كذباً ورياءً .

هذه الوجوه النضرة التي تهش للغريب ، كما تهش للقريب ، هي صورة صحيحة من اخلاق هذا الشعب القليل بعدده ، الكثير بفضائله وعدده ، فان كان هنا لا يتجاوز احصاء المكين ، اربعة ملايين ، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو متراً مربعاً ، فلكم كان القليل العالم ، خيراً من الكثير الجاهل وعظمة الامم بعلمها وعملها . لا بوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها : سويسرا تفاخر وحق لها الفخر بانها اليوم لاتعرف الاميين . الا بما نقرأه عنهم في صحف العالمين . فهل عهد مثل هذا النور لامة في القدماء او المحدثين

يخيل للناظر ان هذه البلاد الواقعة بين اربع ممالك راقية . فرنسا والمانيا وايطاليا والنمسا . قد اخذت من هذه المدنيات الاربع اطايبها . ولعله لايخطيء من قال ان هذه الممالك اخذت كثيراً من اطايب ماعند سويسرا . فجاءت هلفسيا او سويسرا مجموعة الابداع . في البقاع والاصقاع . وسلسلة مفرغة في المحاسن لايعرف اين طرفاها . تقاسمت القرى مع المدن . والاودية مع الجبال . آثار الجمال والكمال فعز لها قسيم في استهواء القلوب بين هذه الديارات . بل بين الخمس من القارات وما ظرف عمران الالمانيين والفرنساويين والايطاليين والنمساويين . اذا قيس بظرف بلاد السويسريين الا كالنضارة في خدود فتاة العشرين . في جنب نضارة ابنة الاربعين .

لاجرم ان هذه الجمهورية الرشيدة هي التي وصفها للناس افلاطون وروسو فكانت بما وفقت اليه مما يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان وذكر المجردات لا يقنع بقدر الادلاء بالحجة ولذا نقتصر على طرف مما عرفناه وعرفه غيرنا عنها كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى ان يثمر ذلك فائدة لمستفيد . وعبرة لمعتبر . في شرقنا المتخدر الاعصاب منذ احقاب . الذي كادت تدمع لحاله عيون الاعداء بعد ان ادمى مقل الاحباب

***

سويسرا : الافراد والاسرة

اول مايبده الداخل الى ارض سويسرا : الخضرة والنظافة . فانها كلها اشبه

بحديقة في وسطها مصايف من اجمل مابنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون. الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هي في سويسرا الفرنساوية او منقوشة كما هي في الشمال الشرقي او من الخشب على ماتراها في او برلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين او ثلاثة. والغربيون مولعون بابقاء القصور القديمة مهما لانت ويؤثرونها عَلَى الجديد من نوعها. وداخل البيوت عَلَى مثال خارجها في الحسن حذو القذة بالقذة.

ادخل الى الفنادق الكبرى او الصغرى والى منازل الطبقة العليا او الفلاحين والى قصور الاغنياء او المقترين تجدها كلها متناسقة بنظافتها وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز في الصباح والمساء على السواء. وما انس لا انس تلك النظافة التي شهدتها في المنزل الذي حللت فيه في مدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائها جبال الالب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج الى ان تدخل المنزل وتجلس في غرفتك الى المائدة الى الطعام المنوع المستطاب الى احقر شيء في الدار

ولقد كنت اعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الارض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والاغشية والكراسي والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة في الاصاصي دع التحف والصور والتماثيل الصغيرة ومصابيح الكهرباء وغير ذلك مما لا تخلو منه دار في الجملة. كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هـذا الحال خاصاً بالبيوت والفنادق فقط بل انك تراه في الشوارع والازقة على صورة مكبرة فان الاوساخ الخفيفة لا تلبث ان تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث ان يتساقط ٢٠ سنتمتراً واكثر الا ويرفع من الطرق. وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويغسل بلا امهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب: «النظافة اثر من آثار النظام والعمل.» والشعوب النظيفة هي التي تحب ان ترى كل شيء في مكانه تقاسي ضيقاً حقيقياً بل المًا مبرحاً اذا شاهدت الخلل. ليست النظافة ابنة الكسل لانها تستوجب من الافراد والحكومة عملاً وجهاداً متواصلاً ويستدعي ان تحث عليه الحكومة المحكومين كما هو الحال في سويسرا فان بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة التي تعجب لها ارقى امم الحضارة دع شرقياً لا يكاد يقع نظره في بلاده الا على اقذار في الشوارع والساحات والحارات بل في البيوت والحوانيت وخللاً في كل شأن من شؤون الحياة الراقية

وكان من اثر هذه المفاداة التي فادت بها بلديات سويسرا في متصرفياتها او مديرياتها الاثنين والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح واحسن معلم لبث افكار النظام والوقار والرفاهية ٠

تتبارى الحكومات والمديريات والادارات الخاصة والعامة في مضمار النظافة فتجد اقفاصاً من اسلاك لطيفة موضوعة في المدن في كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور او الاوراق وربما سار الواحد عدة امتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة ٠ ذلك لان كل سويسري لا يحب ان يرى متنزهه وشارعه وحيه الا كما يرى بيته طاهراً نقياً ليس فيه ما ينبو عنه النظر ٠ وكيفما انقلبت في سويسرا في القطارات او المراكب في المحطات والادارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الامة السويسرية ٠ وربما نسي الغريب ان يضع ما استغنى عنه من الورق او غيره فيشير اليه الاهلون الى وضعها في محلها بل ان المفتش في القطار لا يستنكف ان يرفع اوراقاً تتساقط من ركاب قد يكونون في الاكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين في النظافة في كل شيء

ما كانت النظافة في فطرة السويسريين او جنسهم بل هي كسبية وثمرة تربية طويلة ومدنية باهرة ٠ ولا جدال في انهم بنظافتهم ارقى من سكان الجنوب والغرب اي من الطليان والفرنسيس نعم ما كانوا امس كما هم اليوم والدليل على ذلك ان من البلاد السويسرية ما لم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التي لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة القالي والكريزون والرينتال وهي اذا قيست بمقاطعات زوريخ وڤو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ٠ ولا يزال في المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ احياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ٠ ولكن مثل هذه الاحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر باسرع ما يمكن وهي نموذج مما كانت عليه سويسرا قبل خمسين او مئة سنة فاستطاع اهلها بالتربية ان يحرزوا فضيلة النظافة التي اصبحوا فيها قدوة الامم الراقية

تساءل الباحثون في حال هذه الامة فيما اذا كان للدين تأثير في نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره الدوزا في كتابه « سويسرا الحديثة » (١) ان

(١) Albert Dauzat: La Suisse Moderne

الدين اثر بالواسطة لا مباشرة وان للتربية العملية المقام الاول . فالمقاطعات التي سبقت غيرها في مضمار العلم واحب اهلها النظام وتفانوا في المحافظة عليه كالمقاطعات الالمانية في الشمال واهلها برتستانت هي اكثر نظافة من مقاطعات الجنوب اي الثالي والتسين والكريزون واهلها كاثوليك وذلك لان سكان هذه ايطاليون والايطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الالمان وكذلك في التعليم . ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتي القو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوي لا تقلان في النظافة عن مقاطعتي زوريخ وبرن الالمانيتين

ومهما يكن من اصول السويسريين المانًا كانوا اوافرنسيسًا او ايطاليين فان سويسرا اشبه بفسيفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت لا تفرق بينهم الا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فان اهالي مقاطعتي القو وفريبورغ وان كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات الالمانية غالبة عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الالمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية ايضًا منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان

نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرماني بالفكر اللاتيني فاخذ السويسري عن الالماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتيني تقاليد البشاشة والادب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف . والرأي الديني في ابن مقاطعة تسين لا يماثل الرأي الديني في ابن مقاطعة لوسرن وان كان كلاهما يدين بالكثلكة والسويسريون الالمان اشد نظامًا من السويسريين الفرنسويين ويغالي الاولون بالاكثر في توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحرياتهم المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فان هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسري على اختلاف اصوله ولغته افرنسيًا كان او المانيًا قليل الفضول لا يسألك في الفندق ولا في الشارع اذا تعرفت اليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك اسئلة لا تحب ان تجيب عليها على العكس في السويسري الايطالي وهو ساكن في الجنوب طبعًا فانه يملل نزيله وصاحبه باسئلته . ومن ترك الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في ام اوربا واميركا حسن الظن بالسويسريين فاختاروا سويسرا مصيفًا ومشتى

لان من تلك الامم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يحب ان يسمعك صوته فضلاً عن ان يطلعك على عجره و بجره

وهذا الخلق سرى للحكومة وهي وقانونها صورة من صور الشعب · اكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يوماً وانا لم ار سوى ثلاثة او اربعة من رجال الشرطة بالعرض اقامتهم المديرية بداعي الاعياد فقط ولم ار سوى جندي واحد هذا والمدينة لا تقل نفوسها عن سبعين الفاً وفيها على الاقل عشرون الف غريب

هذه هي الجمهورية السعيدة التي اسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الرقي · وان اكثر ما يقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها ارض لا يكون على ما رأيت من انباء الصحف الا من بعض الغرباء واكثرهم من الطليان والاروام فبوركت بلاد هذا حالها

سويسرا : النساء والرجال

السويسري كالايطالي والالماني والانكليزي كثير الولد والذرية واولاده لا يعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني انه ولد لاحدهم من زوجة واحدة ثلاثون ولداً « فقط لا غير » اما الازواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء اكثر من ان يحصوا فاولاد السويسريين كالبيض او البرتقال يعدون بالخمسات والعشرات · وترى الابوين لا يدهشان لكثرة نسلها فانهما في الاغلب يلبسانهم ولا سيما في القرى البسة بسيطة للغاية لا تختلف في الصيف عن الشتاء كثيراً و يطعمانهم ماحضر من الطعام واكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الاسمر وقد لا يطعمانهم اللحم الا قليلاً اما الخمور فهذه لا تكاد تعرف لانها محتكرة للحكومة واثمانها فاحشة لا يصل الفقير اليها وليست كل المقاطعات مما تجود فيها الكرمة

يلعب الاولاد حول امهم وفي الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون الى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى ان ابنة العشرة او الثانية عشرة تعمل اعمالاً من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين او الثلاثين في شرقنا · فتراها من المدرسة الى النزل تخدم في الاوقات المتيسرة لها الى تربية اخيها او اختها وتعهده الى بيت فلان تغسل لهم الاواني او غير ذلك

والحكومة تحول دون الاولاد وما يشتهون احياناً فان اكثر الحدائق العامة لا يستطيع

الاولاد ان يدخلوها اذا كانوا دون الخامسة عشرة الا اذا كانوا مع كبير من اهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض المقاطعات يحرم على الفتى او الفتاة دون الخامسة عشرة ان يخرجا الى الشارع بعد الساعة السابعة ليلاً وفي اخرى لا يحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل ان له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين ·

انتشر فكر الاسرة كثيراً في سويسرا وذلك بتداخل الحكومة ايضًا التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج اعفاء المواريث من كل رسم اذا انتقلت الى وارث حقيقي مباشرة كالابن ونحوه واما اذا كانت تنتقل الى الاباعد فانه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة ·

وبينا ترى الحياة الصناعية في اوربا باسرها قد عاقت كثيراً عن تأليف الاسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بان العامل او العاملة يعمل في داره مايعرفه من انواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك فابن القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعي طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من ابناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها واقفار الارياف فان خلو الدساكر من سكانها هو من اول اسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة الى اميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها الى مدنها والخطب اسهل ·

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ماتحسنه من الصناعات في المعمل او في بيتها بدون ان تنقطع عن محيطها واسرتها وان تتخلى عن تدبير منزلها · والمرأة السويسرية مشتهرة بانها لا تحب الظهور كل ساعة للناس وهي مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتفكر كثيراً بحيث ان السفاسف والزينة لا تشغل من قلبها مكانًا فهي امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتماماً غريبًا وتظهر حبها للنظام حتى في عواطفها

مامن بلد في الارض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشيء ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللائي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حره ١،٥٧٢،٠٠٠ امرأة

هذا في شعب هو اقل من اربعة ملايين فاذا فرضنا ان النساء ١٩٠٠٠٠٠ في سويسرا واخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لا يبقى الا عدد اقل من القليل غير

عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال · وقد احرزن منذ زمن طويل الحق بان يكون منهن الطبيبات والمحاميات اما حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فانها قلما تهمهن ولذلك كان النساء في التجارة والصناعات الحرة اكثر من الرجال · قال لنا رئيس تحرير جريدة «غازت دي لوزان» ان الناس هنا يعملون مهما كانوا اغنياء ولا تكاد ترى عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة اغنيائها وارباب الاملاك فيها

الاخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لان ذلك يستدعي اوقات فراغ والفراغ لا يعرفه السويسريون والسويسريات · ثم ان المناخ لا يساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس مما يحمل على الرغبة في الحياة البيتية · وسويسرا مثل هولاندة اقل البلاد الاوربية التي يولد فيها اولاد غير شرعيين فهي من هذه الوجهة اقل من المانيا ثلاث مرات · وسبب قلة العهر العمل بلا شك لان رأس البطال معمل الشيطان

متى تزوجت المرأة السويسرية تصبح عشيرة الرجل حقًا فهي يوم الاحد تذهب واياه الى الكنيسة وفي المساء الى القهوة · والسويسري يجد في عطلة الاحد احسن فرصة له لانه يتخلى عن عمله فلا يطلب من اسباب السرور الا ان يكون مع اهل بيته · ويقل اختلاط الشبان والشواب في اوقات الفراغ حتى يوم الاحد اللهم الا في الاعياد السنوية النادرة التي تقام فيها مراقص · ويذهب الشبان ايام الآحاد الى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربدون قليلاً ولكنهم يوم الاثنين في الساعة المعينة تقرأ الرزانة في وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه في الحياة الاجتماعية ·

تذهب الاسرات مساء الاحد ولا سيما في سويسرا الالمانية الى احد الفنادق او القهوات فترى الامهات والنساء والاخوات جالسات الى منضدة بالقرب من ابنائهن او اخواتهن او ازواجهن يشربون جعة وقهوة وقليلاً جداً من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن اغاني وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا اغاني هزلية ادبية ولكن لا غرام فيها ولا عشق

المرأة السويسرية قد يعاجلها الهرم في الغالب اكثر من غيرها من النساء المرفهات في اوربا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد في عقلها و يبقى قلبها على نضارته واخلاقها على سذاجتها . والسذاجة خلق من اخلاق السويسريين والسويسريات والسويسري وسط بين حرية الغالي « الفرنساوي » ورصانة الانكليزي . ولئن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لامحل لها من الاعراب في جملة حال السويسري فهو مع ذلك لايخامره ريب في صحة اخلاق بناته وزوجته و يعرف ان اختلاطهن اذا اقتضى الحال بالرجال والخلوة بهم او رؤية التماثيل المعراة في المتاحف وعلى قارعات الطريق مما لايلقي ادنى اضطراب في عفتهن . ومن لم يكن له من نفسه وازع لاتحول الحواجز والاستار بينه وبين ارتكاب الرذائل .

سويسرا : الصفات الاجتماعية

اول ما يبدو المسافر في سويسرا ضبط المواعيد فان السكك الحديدية كما هي في اكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا في اصقاعها كأنها هي ايضاً تحب ان تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الاعمال تسير عجلة في بطء ولا حاجة لان يعجل المرء هنا في المبادرة الى المحطة لان العالم كلهم مدققون في اوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسري وقد كان المشهور ان الفرنسويين اكثر الامم اقتصاداً ولكن ظهر ان السويسريين يفوقونهم فانهم اول امة اوربية تحسن استخدام اموالها و يليها الامم السكاندناوية وقد تجاوز ما وضعه ١،٣٠٠،٠٠٠ من السكان فى صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا مما لا يكاد يكون له نظير : ثلث الامة تقتصد وتجمع المال الذي لا تحتاج اليه !

لا تردد في اخلاق السويسري يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو اما ان يقول نعم او لا . ليتمثل لك ذلك في المشاريع واللوائح التي توضع وتسن مما يقتضي تنفيذه عند غيرهم سنين . اما هنا فاذا اريد القيام بعمل تبدأ الصحف باعداد الافكار له وتلقى المحاضرات فيضع احد النواب او الحكومة مشروع القانون الجديد واذا اقتضى الحال تصدق عليه الامة ويخضع له كل الناس واذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسري يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فان من الخطوط مايمد

في عشرين سنة ولا يكون طوله اكثر من عشرين كيلو متراً ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهي في الآخر

اذا كان السويسريون عنودين فذلك لانهم عمليون لا نظريون في اعمالهم قلما يطيرون وراء الخيالات . وقديماً نبغ في السويسريين فلاسفة امثال جان جاك روسو الذي ولد في جنيف اما اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم اهل عمل اقرب الى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج بخلاف رجال الاعمال رجال الخيال .

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة في بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لا تسير به الحركة الاقتصادية على محورها . فليس فيها فحم حجري ولا معادن للصناعة ولا شواطئ بحرية ولا انهار عظمى للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى اقيمت على التخوم في الجنوب والشرق والشمال وربعها غير صالح للزراعة لانه مألف الثلوج والجليد طول السنة او صخور لا ترتقى وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء يطول ويشتد في بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هي كالخال في عنق ذات الجمال والدلال ولكن الانسان العاقل يغلب الطبيعة او يعرف كيف يستخدمها . فان تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث ان سويسرا بعد ان كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين ايطاليا والمانيا اصبحت الصلة اللازمة بينها فشق القطار جميع الاصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن التركيب الاجتماعي يحمل اليها مائية الحياة الاقتصادية ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجري الاسود بما عندها من الفحم الابيض واحسنت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الاولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بارباح فائقة فان ثلاثة ارباع صادراتها هي من حاصلات بدلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وانواع المطرزات والساعات .

احسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على احدث الطرق الزراعية المنوعة نوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى ان بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ في المئة من البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من اقامة

الفنادق والانزال ليأوي اليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون ان يرجعوا شهراً او شهرين الى الطبيعة فليس في سويسرا حيوانها وجمادها وانسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر في سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك في حياتهم العامة فلا تجد في الممالك مكاتب اشغال تنظر الى الجواهر لا الى العرض مثل مكاتبهم ولا ادارات اقل تشبثاً بالاعمال القرطاسية من اداراتهم · فهم في هذا الباب يصلحون اساتذة للفرنسيس والطليان والالمان · دخلت كثيراً من المصارف والبيوت المالية في مصر والشام وباريز ورومية فلم اشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التي يتلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل الممل الذي يشاهد في مصارف الشرق والغرب على الغالب · وهكذا هم في كل اعمالهم الاشتراكية الاجتماعية · ومن اغرب ما يسمع ان مدينة بال ارتأت ان تستوفي الضرائب من الاهلين في بطاقات بريدية فتم هذا العمل في اسرع ما يمكن ولم ينتظر المكلف في شباك البريد اكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفاً من اجور الجباة وتيسيراً على الناس

اختار السويسريون السهولة حتى في اصول التعليم في مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال اعمال لا رجال آمال وخيال · يخرجون رجل الغد على ماينبغي له في جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والادباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين · يعلمون اموراً تنفع الطالب في الحال ويلقنونه العمليات وحب الاعمال المنتجة · يرى السويسريون الآن في الامة كثيراً من المخترعين المتوسطين والمتفنين الجائعين والكتاب الذين لاقرائح لهم وكلهم لافائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وان كان متوسطاً افيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقي لا ينتفع به في شيء

ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب اقطارها فكلية بال مثلاً يتفنن اساتذتها في تعليم الطلاب حسن استخدام الالوان في كل ابحاثهم الكيماوية لان البلاد صناعية ولكليتي زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان · ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعي في سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح في كل مقاطعة · فالمدارس الزراعية منوعة وهي مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسري تمنحها اعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفي سويسرا مدارس نظرية

وعملية زراعية ومدارس زراعية للشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الالبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات او للبلديات وتقيم شركة التجار السويسرية كثيراً من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التي لا يستطيع فيها المرء بمفرده ان يعمل ما يقاوم الطبيعة التي لا تشفق احس السويسري بضرورة التضامن وشعر بالحاجة الى التساند والعمل يداً واحدة . ترتيب الجهاد على ما يجب . الجبلي قاس وفطري وهو كريم المثوى واقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هي عند الايكوسيين في انكلترا او العرب في بلادهم ولا تزال هذه السنة الى اليوم كما كانت امس ولكن الاجيال الجديدة مالت الى الحقائق اكثر من اجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهي صناعة الفنادق والانزال

وربما يبلغ التضامن عند امة ما بلغه عند السويسريين فان حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات اكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ احقاب . فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الاخويات القديمة حتى اصبح المستخدمون والتجار والصناع والزراع في سويسرا مربوطين بنقابات لا يكون من اثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والاضراب عن العمل بل يكون منها عموم النفع . والشركات المحلية متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا في جماعات العملة والمعلمين . واصحاب الفنادق بل القهاوي متحدة بعضها مع بعض . وما الحكومة السويسرية اذا نظرنا اليها من حيث المجموع الا اتحاد واسع من النقابات السياسية

لا تزال بقايا الملك المشترك الذي كان معروفاً في القرون الوسطى في الغرب ولم يبرح معروفاً بعضه في الشرق قائمة على اتمها ولا سيما في الاصقاع التي بقيت على فطرتها فان السكان الى الآن في وادي انيفرس يحلبون الابقار بالاشتراك ولكل الحق على نسبة ملكه في حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال عشرين سنة سوى شكويين . وكثيراً ما تكون بقرة او بغل او بيت مشاعاً بين عدة مالكين وكثير من المراعي الجبلية هي املاك بعض رؤساء الاسر وفي كل قرية تملك الاسرة بيتاً خاصاً او مشاعاً بين اهلها .

وصناعة الجبن في اكثر بلاد سويسرا تقوم عَلَى ايدي شركات مرتبطة بجماعات المستخرجين للجبن وفي مقاطعة الفالي حيث تقلّ المياه تروى البلاد باقنية جلبت مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو متراً وكل قناة عملت وادبرت على يد جماعة من ارباب الاملاك ينتخب رئيس شركتها اصحاب الاراضي التي هي آخذة بالتقسيم والتجزئة

و بعد فاذا كان الشعور بالتضامن العملي والنظري هو على اتمه في سويسرا فان الفكر الوطني والنظام الاختياري والضمير الافرادي المشاهد في اخلاق الوطني السويسري جدير بالاعجاب من كل وجه · فالسويسري يعرف واجبه نحو المجتمع والحكومة ويخالف في ذلك الشعوب اللاتينية التي تحب الخلاف بفطرتها والشعب الالماني الذي يخنع للسلطة ادارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك باطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لاوامر الامبراطور ولكن الوطني السويسري يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته · والفكر الوطني في سويسرا الالمانية اشدمنه في سويسرا اللاتينية وان كانتا في وطنيتهما في الحقيقة كاسنان المشط في الاستواء · وسويسرا الفرنساوية هي مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف ولوزان وسويسرا الايطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست مديريات اي الاربع عشرة مديرية فهي المانية

السويسري الالماني خصوصاً لا يستنكف من ان يشكو كل من يخالف الامر والنظام لان لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جداً من يشتكي منهم ولذا فليس من العبث ما نقرأه عَلَى المنعطفات وفي مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فان هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعته فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال ان يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجناتهم بل يعملون بما فيه حفظها على ما يستلزمه حبهم لبلادهم واعجابهم بها · ورجال الادارة يجتهدون ان يعلموا الشعب وان يؤهلوه ليخدم نفسه بنفسه بدلاً من ان يعتبروه ولداً يجب على الدوام الاخذ بيده وقيادته ولهذا امثال كثيرة تعد بالعشرات مما لا مثيل له عند الامم الاخرى

وندر جداً في السويسريين من يستحلون اكل مال خزينة الامة اي ان يخفوا عن الحكومة ما يحق لها اخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما في سويسرا الالمانية وان كان بعض ارباب الغايات وهم لا تخلو منهم امة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة احياناً في

سبيل بعض الاعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما ارادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما ارادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالاكثرية وحسنت صحة البلاد ·

لاجرم ان هذا الشعب الذي صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فان من يضرب صفحاً عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادي براحته وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لاجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التي تحيا حياة طيبة · اللهم اني احسد الشعب السويسري حسد غبطة على هذه الاخلاق الفاضلة واطلب اليك ان ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لا يموت بفساد اخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة

سويسرا : قيودها في الحرية

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الالمانية الحالية اي في ارض المانيا وانضموا نحو القرن الاول قبل المسيح الى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة واخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسي الذي سميت سويسرا باسمه « هلفسيا » رضع هذا الخلق مع لبن اجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون · وما كان اشراف القرون الخالية ولا حكومة الرومان التي استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الاساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين في كثير من بلاد اوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون ان يشددوا الوطأة على السويسريين لانهم اشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم اخوان في السراء والضراء ·

من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسري ويرى ان حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيراً ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيتهم فقط او بامطارهم الاحجار من الاعالي او القائهم في البحيرات ارهاباً وما اظن انه سبق في التاريخ ان محارباً يجيء معتدياً على بلد ويحاصرها ثلاثة اشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الاقدار ويفيض نهر فيحمل جسراً عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بانقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور السويسرية فان صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهي مستقلة ثلاثة اشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلاً من ان يغتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فانقذوا منهم

عدداً كثيراً فلما رأى الملك ليو بولد من السلور بين هذه الشهامة تأثر جداً وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر

تعلم الهفاسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم انفسهم بانفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد اراد ان يعقد معه صلحاً فطلب قيصر الى الهلفسيين رهائن فقال ديفيكو . « تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا ان نأخذها لا ان نعطيها وكان على الرومان ان يذكروا ذلك . » ولكنك ترى اليوم هذه الامة مع ما بلغته من الحرية التي لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعاً لبلادها علماً منها بان الحرية المطلقة لا يمكن حصولها في مكان من المجتمع وهي بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة

السويسريون يرون في كل مكان المصلحة العامة و يتركون لها برضاهم صغار مطالبهم النفسية و يطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الاولية فلا يسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة .

السويسري لا يستطيع مع ما نال من الحرية ان يقطع شجرة من غابته الا باذن حكومته ولا ان يضمن داره من الحريق الا عند حكومته لانها هي ضامنة من الحريق ولا ان يلتقي ورقاً ولا غصناً في احدى البحيرات فضلاً عن الاقذار والاوخام فسويسرا التي احتفظت بحقوقها في عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة في مصالحها على ما هي الطريقة المتبعة في ادارة البلاد الجرمانية وذلك بان يكون للحكومة اشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الافراد والمجتمع

حرية الضمير والرأي والعبادة مضمونة في ارض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسري الاساسي ولكن لا بصورة مبهمة بل ان لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر و يطبق بحسن ارتقاء الشعب واخلاقه . وحرية الصحافة لم تنقلب قط الى عداء ومماحكات ومع شدة الانتقاد والجدال في المنازع السياسية فان لها حداً تقف عنده لا تتعداه اعظم الصحف السويسرية ولذلك كانت صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الامم الاخرى وربما كانت هي والصحف الانكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب . اما نشر السفاهات والغراميات والخلاعيات فهذا لو جسر على نشره صحافي لا يجد من الامة من يقرأه فيسقط بطبيعته . ومن الغريب انك تجد في سويسرا كنيسة يصلي فيها اهل مذهبين

من مذاهب النصرانية وجريدة هي لسان حال حزبين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشتراكي فالقاريء يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد

لا جرم ان القرون الخالية وحوادث الايام قد دربت السويسريين طويلاً على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح ازماناً فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحالي الا ثمرة نضجت على مهل بعد ان ذاق اصحابها في انتظارها وتكييفها على هذه الحالة نصباً . حرية العمل وحرية الاشتراك في سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال و بحقوق اعتصابهم ومن تلك نشأ احترام المعتصبين لحق المخالفين لهم في الاضراب عن العمل ومع هذا تجد الاعتصابات اقل مما هي عند الامم الصناعية الاخرى والاجور تزيد بزيادة غلاء الحاجيات وارتفاع اسعار الكماليات لان العملة يتفاهمون ويجتمعون على الدوام مع زعمائهم . وكذلك حق حماية سويسرا للظلومين ولا سيما السياسيين فانه ارقى مما عند الامم الاخرى ولكن سويسرا لا تحمي القاتل وكثيراً ما تعمد بعض مقاطعاتها الى اخراج السفاكين وارباب الدعارة من غير ابنائها الى خارج الحدود .

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطني عند السويسريين منذ عهد المدرسة الابتدائية . وليس في سويسرا على الجملة مدارس داخلية بل ان الطلبة الذين يرحلون من قراهم و بلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الاسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشاً متكلفاً كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له في الحياة ولا يخضع لقوانين جائرة وهو الذي يحتاج في بدء نموه الى الهواء والشمس والانطلاق . ومن علماء التربية هنا من بالغوا في منح اعطاء الطلبة حريتهم وانشأوا لهم مدارس التربية الذاتية او الحكم الذاتي فيتألفون اولاداً من سن الثانية عشرة الى السادسة عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم امرهم والمعلمون لا يعملون الا ان يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الاولاد الاستقلال والحياة العمومية . فالاولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الادارية وامين صندوقهم ويكون اختيارهم حسناً جداً في الاغلب ويجيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم وتصح احكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الامين عليه في الثانية عشرة من عمره تحدثه نفسه ان يبتاع ببعض الدريهمات حلواء اوشكولاتا او ملبساً يأكلها او كرة يلعب بها . فكأن سويسرا خلقت بدون اولاد او ان التربية جعلت اولادها رجالاً ونساءها كذلك .

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحيري محدودة مقيدة في بعض الاوقات وعلى بعض المحال . ورجال الصحة يمنعون كل شيء اذا اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الانسان او الحيوان فيمتنع احد من الدخول الى تلك المحال الموبوءة او الخروج منها ولا ينبس احد ببنت شفة اعتراضاً على ما حصل . وقانون العمل وتحديد اوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على صورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتداخل في حياة الوطنيين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الافراد الذين يقدرونها بانفسهم اولاً وللحكومة الحق ان تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته .

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئاً بتعديه حمى لا ينبغي السير فيه او اتيانه عملاً يعد منكراً في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح واي مباح . مثل منع دوس العشب في المروج عند ما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الالب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الاولاد والرجال مخافة ان تحدث احد الشرهين نفسه بان يقتطف خصلة من الكرم . واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها . ويمنع على بعض الجسور الخشب في بعض المقاطعات ان يدخن المرء او يحمل قداحة و يوقف حيوانات ويجمع اجتماعات . وهكذا تراهم يفرضون فروضاً ربما لا تقع مرة في العمر و يكتبون لها اللوحات و يضعون على من تعدى عليها الغرامات

هذه قيود للحرية وضمانات لها في آن واحد لان الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطيع الغنم لا يخلو من جرباء وفي الاكثر يكون المقصود من هذه القيود الاجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم . عادة البصاق ممنوعة قطعاً في كل مكان ولا سيما في القطارات حتى ان بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ : « احتراماً لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق » ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وللدخنين مركبات خاصة كما ان للسكارى كذلك . واذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار احدهما يريد فتح النافذة والآخر يأباه فالحكم في ذلك لرئيس القطار فهو الذي يحكم بين المختلفين وهذا ايضاً من جملة ماقدروه من الاحتمالات في انواع الحريات

سويسرا ارض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لاتخلو من قيد في كل حال خلافاً لما يتصوره بعض الخياليين

سويسرا : حياتها السياسية

ليست سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة في حجمها ونظامها وافكارها واخلاقها السياسية · فمن مقاطعاتها ماهو صغير ومنها ماهو كبير ومنها ماتدار المدينة فيه بادارة غير ادارة القرى المجاورة لها ومنها ماهو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها او ارباض · ومنها من يدين اهلها بالكثلكة واخرى بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ماينتمي الى الحزب الاكليركي واخرى محافظة متنطعة في مذهبها وغيرها متطرفة في اشتراكيتها ومنها التي تقدم نوافذ للعذراء مثل فريبورغ في حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة

وفي الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقي لاتزال الحكومة المعروفة بحكومة البطارقة على الحالة التي كانت عليها على عهد الالمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال احاطتا علماً بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتحكران بعض الاصناف للحكومة وتختاران طريقة الانتخاب على نسبة العدد · عادات نروفجية قديمة الى جنب الاختراعات السياسية في القرن العشرين !

قطعة من الجبال والاودية والبحيرات لاتبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية ونفوسها لايزيدون عن نفوس بر الشام كله وحكومتها في مديرياتها والاصح ان يقال في ممالكها لان لكل مقاطعة حكومة كأنها مملكة مستقلة انواع منوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على اشدها ويستمتع اهل كل ناحية مهما صغرت بفصل مايرونه الانسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحي التي تختلف ادارتها بحسب الاقليم

في غرب البلاد يسيرون على الطرق الفرنساوية وفي سويسرا الالمانية لكل بلد نظامه والمرجع واحد · هنا تجبي الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وارداتها ان لاتطالب المكلفين بقرش · الاستقلال الاداري الى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف · المركزية في سويسرا الفرنساوية اكثر من غيرها في حين ترى نواحي ايبنزل الالمانية جمهوريات صغرى او جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة الا قليلاً

144

وبهذا التغيير الكثير ساغ للانظمة والاوضاع ان توافق اخلاق كل صقع وضرورياته وحاجات سكانه ورغائبهم التي تختلف باختلاف نوع الحياة . فالتعليم مثلاً اجباري في البلاد كلها يقضى على كل ولد ان يصرف في المدرسة من سن السادسة الى الرابعة عشرة يتعلم فيها اموراً مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بان تنظم مدارسها على طريقتها وهي تطلق للنواحي حريتها ايضاً في بعض الامور مدة التعليم في السنة تسعة اشهر ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر ايلول الى اول كانون الاول وهو الزمن الذي تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى في المروج الى اوائل نزول الثلج تحت ملاحظة اولاد تلك القرى

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها الا كل مكابر . يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحي تنوعها وغرابتها ويبث روح الحياة المحلية والهمم الافرادية ويزيد في ارتباط المرء بوطنه الصغير وهذه احسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه اليه . لكل مديرية وطنيتها فلها اعلام خاصة بها والوان لا تشاركها فيها جارتها ولها اسلحة ولها شارات . وفي جميع الاعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية الى جنب اعلام الاتحاد السويسري مثل دب برن وثور اوري ومفاتيح اونترولد وكواكب ڤالي ومطرقة سان غال . لان كل مديرية هي مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وامجادها فهي ليست مديرية بالمعنى الذي نتصوره في مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعي بل هي عضو حي نام واحد متماسك الاجزاء في الجسم الاجتماعي

وربما قيل ان تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة مما يفرق اجزاء الحياة السياسية فتختلف الاحزاب وتكثر فلا يستطيع مجلس النواب العام ان يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فان ارادة الامة تسري حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل ان هذه اللامركزية المفرطة تشغل اهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لارقى مما يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فانها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعداها ولا سيما في سويسرا الالمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال « دي جنيف » « وغازت دي لوزان » و«البوند» وهي الصحف الجوالة الراقية لكان من يعيش في سويسرا اشبه بمن يعيش في قطر منعزل لان السويسريين لا يهتمون الا لزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفته وعدمها سواء

ولكثرة هذا التغالي في اللامركزية خيف في القرن الماضي من تشتت الكلمة بتعدد النظامات فاتحدت اكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجمرك وسير الاتوموبيلات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها في الشؤون العامة متحدة ٠ وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على ان تحتكر الحكومة كلها الخمور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمعربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشره لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية ! ٠ وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى ماعدا الخطوط الصغرى المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمناً وذلك بدون ان تضرب ضرائب ولا ان تعقد قرضاً او تحتال حيلة فان باجتماع الخطوط تحت ادارة واحدة قلت النفقات وكثر الاقبال فاخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوي مدة ٥٦ سنة يغطى المليار فرنك الذي يدفع ثمناً للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل للضمان من الحوادث والامراض لالطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلاً بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلم وزمن الحرب ٠ ومن الغريب المدهش ان تضمن حكومة ارواح محكوميها من رصاص العدو وقنابله وهذا لامثيل له في المدنية الحديثة ٠ ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلاً لتنفق عليهم ايام عجزهم مااخذته منهم ايام شبابهم وذلك لعلمها بان دور الشيخوخة طبيعي لابد لكل واحد ان يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا سناً معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكسل وللسكر ٠ ولذلك لاترى في سويسرا من لايعمل اما الشحاذة فلا اثر لها ولا اسم ٠ والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لادارة البريد والبرق ولكن للافراد ان يضعوا في محالهم كحدائقهم او منازلهم او فنادقهم مااحبوا من مثلها ٠

السويسريون عريقون في الديمقراطية بكل مافيها من المعاني تأصلت في نفوسهم وتشربتها دماؤهم منذ قرون طويلة ٠ قال لي احد مديري الصحف الكبرى في لوزان انني لااستطيع ان اعامل عمالي والمستخدمين في ادارتي الا معاملة الاكفاء ثم

آمرهم ولكنني احاسبهم في معاملتي كما احاسن رصفائي في التحرير واصدقائي

وما ذلك الا لان الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية اميركا الشمالية التي يرد تاريخها الى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التي بلغت ٤٣ سنة من العمر بالنسبة لجمهوريات الاتحاد السويسري الا بنات واطفال فجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى في السويسري شعوراً طبيعيًا في المساواة وليس في جمهوريته اوسمة ولا القاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على امته ترفعه على رأسها في حياته ومماته · ورئيس الجمهورية السويسرية هو من اهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر ابناء السبيل في شوارع مدينة برن شيء من الابهة والعظمة التي يبدو بها في بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالي والقائد والوزير ولا تجد تشريفات في سراي الاتحاد السويسري التي تضم اليها مجلس الامة ومجلس الاقاليم وينتخب مجلس الاتحاد السويسري كل سنة رئيسًا يتولى رئاسة المجلس ورئاسة جمهوريته هلفسيا السعيدة وليس هو في الحقيقة الا عميد مستشاريه الستة

ولا تشهد في بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة في ايدي المتولين عليها على نحو مايقع في الامم النيابية فان المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الازمات الوزارية التي تسمع بها في الممالك الدستورية واذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية اذا لم يتيسر لهما الاتفاق ويخضع المجلس الاتحادي اي الوزارة لارادة مجلس النواب والاقاليم كما ان هذين المجلسين لا يماحكان ولا يراوغان · فمجلس الامة لا يقلب الحكومة التي ينتخب مستشاروها السبعة او وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لانهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة في العمل · ورئيس مجلس الاتحاد السوري او رئيس الجمهورية ينتخبه رصفاؤه الستة كل سنة ويعمل واياهم باخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الاعوام والرئيس لم يتغير لانه اذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فاعضاء المجلس الاتحادي يتناول احدهم عن كل جلسة عشرين فرنكاً ويمكن ان يبلغ مجموع مايتناوله احدهم في السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط اما نواب الاقاليم فيتناول عضو البلد عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ الى ٢٨٠

فرنكاً في السنة ورواتب مستشاري المملكة ووزراؤها ١٥ الف فرنك لكل واحد مسانهة وراتب رئيسهم اي رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ الف فرنك مسانهة ولذلك قد يضطر المسكين اذا كانت له أسرة كبيرة ان يشتغل احياناً اعمالاً اخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على انه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الاهالي

الاخلاص هو الخلق الجوهري في الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب ان يبقى كذلك · وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر ارادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام · حتى ان بعض الاقاليم لا تزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو تحافظ على الحكومة التي تحكمها مباشرة بمعنى ان مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الاقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التي اعدها المستشارون الذين انتخبوا في السنة الفائتة

في سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الاحرار يتناقشان في مصلحة البلاد ولكن اذا تولت الاكثرية زمام المجالس لا تنحي على الاقلية بل ترى من مصلحتها ان تقبل اعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكي ولكن لا تأثير له لان الامة اشتراكية بطبيعتها · قال لي المسيو جان سبيرو استاذ العربية في كلية لوزان عندنا حزبان وانا من حزب الاحرار ولكنني لا اجد فرقاً بين الحزبين يصح ان يعد فرقاً ولذلك فكلنا حزب واحد في الحقيقة · فبارك الله بامة مهما تعددت مناحيها واصولها واهويتها ودرجة غناها واعمالها لا تختلف في المصلحة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر

آداب العرب (١)

من التطاول على مقام الشعر العربي ان احاول الاحاطة به في محاضرات ثلاث ·
ولكنكم قد رأيتم جميعاً هذه الكتب الصغيرة الموجزة التي يستدل بها المسافرون في سياحاتهم يفتح السائح دليله فيجد المؤلف قد تكفل بان يريه باريس وعجائبها وما حوت من كنوز في خمسة ايام · ومصر ونيلها واهرامها وقبورها ومعابدها ومسلاتها وما ابقت الادهار فيها في اسبوع من الزمان · فيجري وراء دليله الصامت الناطق ويعمل برأيه فيعييه الجري ويتولاه التعب ويقطر العرق من جبينه ولا يكون لديه مجال للتأمل والتفكير فيما يتجلى امامه من العبر وما يقع عليه بصره من عظات القرون ولكنه مع ذلك يرى من المشاهد ما يترك في ذهنه اثراً قديماً وما يكفي لتكوين فكر عام لديه وتتولد عنده رغبة شديدة في العودة في مستقبل الايام ليرى في تلك المشاهد ما كان له في نفسه من الاثر ويطيل الوقوف امامها يسائلها عما مر بها في العصور الخوالي فكأنما سفرته الاولى تمهيد لسفرته الثانية · · ·

فغايتي الآن ان اطير معكم فوق ربوع الشعر العربي · نطير طيراناً مكتفين بالتحليق في سمائه دون ان تطأ ارجلنا ارضه فنمتع النظر معاً بمرآها البهيج ونستنشق هواءها العليل البليل حاملاً اريج بلاد العرب وشذاها العطري · فهل لكم بعد هذا التطواف ان تجوسوا تلك الربوع الفاتنات التي تمر امام عيوننا مسرعة تجري كالريح فلم تروا منها سوى شواهقها وان تشعروا بالحنو عليها والرغبة في التجول فيها لتستريحوا في وديانها وتشربوا من عيونها وغدرانها وتقطفوا من يانع ثمارها وتترنحوا بشذا ازهارها العطرة وقد اسكرتكم محاسنها

واول سؤال يخطر عليّ البال هو : ما هو الشعر العربي ؟ قال بعضهم في تعريفه « انه صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » وفي هذا التعريف من حلاوة التعبير وفي سمو المعاني ما فيه لان الشعر يكون اذ ذاك « مظهراً لصور حاسة وعواطف حقيقية لا تصنع فيها ومجموع حقائق لا اكاذيب »

---

(١) من محاضرة القاها في باريز واصف بك بطرس غالي من نوابغ شبان مصر وهي من جملة محاضراته باللغة الافرنسية التي افاض فيها في آداب العرب

وعرفه غيرهم بصوت احلى من ذلك واليق بالشعر فقال :

« ان الشعر انقى كلام واغلى نظام وابعد مرقى في درجة البلاغة واحسنه ذكراً عند الرواية والخطابة واعلقه بالحفظ مسموعاً وادله على الفضيلة الغريزية مصنوعاً وحقاً لو كان الشعر جوهراً لكان عقياناً ، او من النبات لكان ريحاناً ، ولو امسى نجوماً لزاد ضياؤها او عيوناً لما غار ماؤها فهو الطف من در الطل في اعين الزهر اذا تفتحت عيون الرياض غب المطر وارق من ادمع المستهام ومن الراح رقرق بماء الغمام » (من شرح ديوان المتنبي للواقدي)

فالشعر هو ريحانة النفوس ومزيل الهموم وديوان الحكمة ومصدر الخير والشعاع الساطع الذي يجذب الانظار وتحوم حوله النفوس . بل هو عنوان المجد الخالد ورائد البلاغة وحجة اللغوي ومالك القلوب والدافع الى جلائل الاعمال والمحرك للعزائم والرسول الذي يحمل ادق الرسائل وارق العبارات

وقد عرف ابن خلدون الشعر بأنه « الكلام المبني عَلَى الاستعارة والاوصاف المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقبل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وما بعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة »

وهذا التعريف معول عليه من قديم الازمان ومن واجبات كل شاعر حريص على هذا الفن ان يتحراه في نظمه ويعمل به والا زالت عنه صفة الشاعرية . وعلى ذلك فالشاعر لا يكون جديراً بهذا الاسم الا اذا صاغ عبارة في قالب خيالي وراعى احكام الوزن واتبع فوق ذلك القواعد التي وصفها الاقدمون لتنسيق الشعر واحكامه . فكأنما الحرية والتلاعب والخروج عن المألوف لا مجال لها في هذه المملكة مملكة الشعر التي كلها خيال في خيال والتي يهيج الفكر في ارجائها دون قيد ولا حرج . فان صناعة الشعر خاضعة في شكلها بل وفي موضوعها الى حد ما لقواعد ثابتة لا بد من التقيد بها وليس لدى الشاعر الا قالب واحد او قوالب معينة يصوغ فيها الالفاظ فالشعر العربي يظهر لنا اذن كأنه آلة موسيقية متناسقة الانغام والتواقيع ولكنها خالية من التنويع اما الشعراء فهم كالبلبل المغرد يحلو تغريده ويرق صوته ولكن نغماته هي هي في الصباح وفي المساء . .

وما دام هذا العيب هو العيب الوحيد في شعرنا فالمشهد ان شعراءنا عنوا على الدوام بالالفاظ والعبارات اكثر مما عنوا بالمعاني وهمهم ان يؤدوا المعنى الواحد بعبارات مختلفة

متعددة رنانة بديعة الاسلوب . وقد شبهوا المعنى بالماء — وهل كان لهم ان يشبهوه بالخمر وهي من المحرمات — والشعر بالاناء وقالوا ان الماء ماء على الدوام ولكن العبرة بالاناء فكلما اجاد الصانع اتقان صنع هذا الاناء وحلاه بالنقوش والزخارف وابدع في صناعته وابرزه تحفة تلفت الانظار كان اعظم شأواً في عالم النظم واجود شعراً وارفع مكانة ولهذا ترى الشعراء على الدوام يسعون وراء الالفاظ البديعة و يتنافسون في صوغ العبارات الساحرة النادرة و يتلاعبون بها كما تشاء اهواؤهم وكما توحي اليهم مخيلاتهم وليس في الارض امة بلغت مبلغ العرب في سبك الالفاظ وصياغتها فهم حقيقة صواغ الكلام والسحرة الصادقون الذين كانوا يسحرون الناس بحسن بيانهم وهم ايضاً كانت تسحرهم الحروف التي كانت ترقص امام عيونهم وتتلاعب بهم . ما كانت العرب تقول ما ذا يهمنا من الكأس اذا طاب الشرب ودب دبيب الخمرة الى النفوس بل كانوا من المولعين بفنهم الشغوفين به يسكرهم جمال الشكل و يسحرهم حلو الحديث و يأخذ بمجامع قلوبهم الكلام الجزل والخيال الذي لا تلمسه الايدي .

القى رينان محاضرة شهيرة في سنة ١٨٨٣ عن « الاسلام والعلوم » انتقد فيها بشدة ماقيل عن « المدنية الاسلامية » وقال ان ما اتفق الناس على تسميته « الحضارة الاسلامية » لم يكن في الحقيقة سوى المدنية اليونانية نشرت من رمسها وهذبت تبعاً لما اظهرته الايام بل ولم يكن الفضل في نشرها للعرب وانما كان الفضل في ذلك للسوريين والكلدانيين واهل الهند وفارس والاندلس الذين صاروا عرباً بحكم الفتح واتحاد اللغة

قد يكون قول هذا العالم الكبير صحيحاً من بعض وجوهه وعلى كل حال فان مجال الاخذ والرد فيه فسيح و باب المساجلة واسع ولكن الامر الذي لا مجال فيه للجدل هو ان العرب لم يأخذوا شعرهم من اليونان او الرومان او من اية امة من الامم . فالشعر العربي زهرة نبتت في ارض العرب وتفتحت اكمامها في بلاد العرب واينعت في بلاد العرب دون ان تتلقح بلقاح غريب بل هي عذارى عربية ولدت في الصحاري العربية وشبت وترعرعت في البلاد العربية دون ان يلامسها غريب فيشوه محاسنها ودون ان تضيف الى حسنها البدوي حسناً مستعاراً ما اغناها عنه

ولا حظوا يا سادتي ان العرب نقلوا الى لغتهم كل او جل ما يهمهم من المؤلفات والكتب التي تركتها الامم التي سبقتهم في ميدان المدنية واخذوا عن كل امة احسن واثمن ما اخرجت قرائح ابنائها فاخذوا عن اليونان الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى .

وعن الفرس الفلك وآداب الاجتماع والموسيقى والروايات ، وعن الكلدانيين الزراعة والتنجيم وعن المصريين الجراحة والكيمياء الى غير ذلك مما اخذوه عن غيرهم . ولكنهم ما خطر في بالهم يوماً من الايام ان يقبلوا من امة اخرى بيتاً من الشعر او معنى من معاني الخيال او ان يتحدوا غيرهم في فن النظم . كانوا يعتقدون ان شعرهم ارقى واسمى من شعر جميع الامم فكانوا كلما القوا انظارهم على ما اثمرت قرائح ابناء العرب طربوا ورقصوا اوداخلتهم العزة وحق لهم ان يفخروا وانفوا ان ينقلوا من غيرهم شيئاً في هذا الباب

وفي الواقع فانه لا توجد في العالم امة وصلت آدابها الى ما وصلت اليه آداب اللغة العربية لا في غناها وفي غزارة مادتها ولا في متانة اساليبها ولا في نوع شعرها الحماسي والغزلي وغيرهما من فنون الشعر الخيالي (فالشعر العربي يكاد يكون كله من الشعر الخيالي) ولم ينبغ في امة من الامم عدد من الشعراء يوازي او يناهز عدد شعراء العرب وذلك راجع الى ثلاثة اسباب رئيسة :

السبب الاول — ان العربي حاد الاحساس الى درجة غريبة سريع التأثير كثير التحمس كريم النفس قريب الغضب والرضا على السواء . ومن طبائعه انه مندفع في امره . مفيض بما في خاطره . فلا يمكنه كتمان ما في نفسه . ولذا تأبى طبيعته ان يظل ساكتاً عما حوله من المؤثرات فكان من الطبيعي ان يتغنى بما يشعر به وان يكون غناؤه صدى حقيقياً لعواطفه شبيهاً بها في شدتها وتناسبها وتناسقها فيخرج كلامه مصوراً تصويراً خيالياً موزوناً هو الشعر

السبب الثاني — ان اللغة العربية هي في ذاتها اصلح اللغات للشعر وهيهات ان تقاربها لغة اخرى في غناها وفيها ما لا يحصى من المترادفات المتوافقة لفظاً وكثير منها متحد وزناً وهي وحدها تكفي لتصوير الخيال بدون الاحتياج الى الاستعانة بغيرها فان فيها العشرات بل المئات من الاسماء للدلالة على بعض المسميات سواء كانت من الحيوان كالاسد والثعبان والحمار والناقة والثور والكلب والقط . او من المأكول كاللبن والعسل والتمر او من المشروب كالماء والخمر او من السلاح كالسيف والقوس والسهم والرمح والمجن او من الاوصاف كالطول والقصر والكبر والصغر والشجاعة والجبن والكرم والبخل

فللاسد خمسمائة اسم وللثعبان مائتان وللناقة مائتان وخمسون وللماء مائة وسبعون اما المصائب والارزاء فار بعمائة اسم ولعمري انه عدد لا مبالغة فيه بل ربما كان اقل مما يلزم بالنسبة اليها ...

على ان هذه الكثرة في مادة اللغة لم تمنعها من ان تكون دقيقة في معانيها محكمة في مبانيها فقد خصت كل ليلة من ليالي القمر باسم كما خصت كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وكذلك سميت الريح باسماء مختلفة بحسب اختلاف احوالها فاذا وقعت بين ريحين فهي النكباء واذا وقعت بين الجنوب والصبا فهي الجربياء واذا هبت من جهات مختلفة فهي المتناوحة واذا كانت لينة فهي الريدانة . واذا جاءت بنفس ضعيف فهي النسيم فاذا كان لها حنين كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدأت بشدة فهي الناجمة واذا كانت شديدة فهي العاصف . فاذا كانت شديدة ولها زفزفة فهي الزفزافة الخ . .

وربما كانت هذه الكثرة داعية الى الاستغراب ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . فقد كان العرب في جميع الازمان من اكثر الامم اشتغالاً بلغتهم ثم كانوا فوق ذلك مولعين بفطرتهم بتحليل كل ماتقع عليه ابصارهم ويدرس نزعات النفس واحوالها . فدرسوا من كل شيء جسمه وشكله وروحه واثبتوا اوصافه ومميزاته واصله ومؤثراته وعيوبه وفضائله وخصوا كلاً من هذه الاوصاف والمميزات باسم يدل على الوصف وعلى الحالة التي يكون بها . فالخمر مثلاً سميت خمراً للدلالة على ان اصلها من الاختمار وراحاً للدلالة على ماتحدثه في نفس شاربها من الارتياح وحميا للدلالة على ماتبعثه فيه من الانفعال الخ . . . .

ثم ان الامة العربية كانت مؤلفة من عدة قبائل ولكل قبيلة منها لهجة خاصة ولغة تختلف بعض الاختلاف عن لغة غيرها فلما توحدت هذه القبائل اندمجت الفاظ كل قبيلة وعباراتها في صلب اللغة . وبعد ذلك جاء الفتح الاسلامي واختلط العرب بغيرهم من الامم فرأوا من الاشياء والادوات والحاصلات والعادات والصناعات ما لم يكن لهم به عهد من قبل ، فاضطروا الى ادخال الاسماء الاعجمية الى اللغة العربية بعد ان نحتوها وهذبوها فاصبحت جزءاً منها

ومن ذلك تجد لديكم فكرة عن مقدار غنى لغتنا العربية الذي لا يحيط به حصر ويقصر عن وصفه لسان . اضيفوا الى ذلك تعدد الجناس وتفرقه وهي تفتح السبيل واسعاً للتورية والمجاز وغير ذلك من ضروب البيان التي تأسر اللب فيجد منها الشعراء الفحول والكتاب البلغاء ما يبغون لكي يهيموا في عالم الخيال ما شاؤوا وشاءت لهم مقدرتهم ويكون لهم منها ينبوع للفكاهات والنكات ولما تسمونه انتم معاشر الفرنسيس «كلامبور» وبهذه المناسبة اذكر ان العلامة اللغوي الشهير لتريه زعم ان تاريخها يرجع الى القرن

الثامن عشر للميلاد وانها من وضع شريف اسوجي · ولكنني اميل الى الاعتقاد بانها اعرق من ذلك شرفاً ونسباً وانها مؤلفة من كلمتين عربيتين هما « كلام » و « بور » اي كلام فارغ ...

وللعرب قصائد بتمامها تنتهي كل ابياتها بكلمة واحدة يختلف معناها في كل بيت منها والآخر بسيط لا غرابة فيه فكلمة « عين » مثلاً لها ٣٥ معنى وكلمة عجوز ستون الخ

السبب الثالث = ان العربي فطر على رقة الشعور وسعة الخيال والقناعة والاكتفاء بالنزر اليسير من حاجيات المعاش فساعده ذلك على الانصراف الى التأمل والتفكير والتمتع بهذه الحياة التي ينشط منها الفكر من عقاله و يسرح في مسارح الخيال · فاذا انصرف عن القتال وانتهى من الغزو احاط به السكون من كل جانب وشمله الهدوء ونظر الى السماء فاذا هي زرقاء لامعة في النهار مرصعة بالنجوم في الليل فدعاه السكون الذي حوله وجمال المناظر التي يرسل اليها بصره الى فحص فؤاده وتعرف خبايا قلبه والامعان في مصائب الناس وتصاريف الزمان وتقلبات الايام · فاذا انقطع هذا السكوت فجأة واقبلت القبائل كعادتها تتقاتل وتتطاحن وجد في ضربات السيوف وفي ملاحمة الاقران ما يثير حماسته و يدعوه الى الفخر والتغني بالبأس وشدة المراس · فكان من كل ذلك محرك للنفس العربية ولكل اوتارها ونغماتها

فليس بغريب اذن ان يكثر شعراء العرب وان تكون ثمرات قرائحهم قد بلغت حد الاعجاز مع وفرتها

على اني لا ارسل الكلام على عواهنه ولا اقتصر على ارسال القول مبهماً بل اقول لكم جميعاً افتحوا مؤلفاتنا القديمة والحديثة سواء كانت تبحث في الفلسفة او الطب او الفلك او الكيمياء او الفقه او الرياضيات او الموسيقى او التاريخ · ثم اجيلوا النظر فيها تجدوا فيها حتماً كثيراً من الاشعار · ذلك ان الشعر امتلك لب العربي منذ بزغت شمس تاريخهم وصار له على نفسه السلطان المطلق · فلو تركنا الشعر جانباً وغضضنا الطرف عنه لما استطعنا معرفة تاريخ العرب ولا فهم احوالهم وعاداتهم والادوار التي مروا بها فالشعر هو من عناصر الحياة العربية فهو بالنسبة لها كالهواء بالنسبة للحياة الانسانية بل هو الحياة العربية نفسها بكل قوتها وشدتها ورقتها

وقد كان الشعر فطرة عند العرب يرسلونه على البداهة بلا ادنى صعوبة ولم يكن فقط مظهراً لسانحة تمر او فكر يخطر على البال ثم يمحي · بل كان مظهراً لكل معنى من

المعاني العادية ووسيلة للتعبير عن كل المعارف الانسانية حتى العلمية منها بل للتعبير عن ادق النظريات وابعدها غوراً فتجد بعض المؤلفات النحوية شعراً بل تجد من المؤلفات الخاصة بالتقوى والعبادة او بالطب او الكيمياء او المنطق ما وضع شعراً · بل اني استطيع ان اقول دون ان اتعرض تعرضاً كبيراً للتكذيب ، ان العرب لا بدان يكونوا ضمنوا المعادلات الجبرية والهندسية بعض ابيات من ابياتهم حتى تعلق بالاذهان كما جرت عادتهم · بل انه لا يكون من الاغراق في القول ان اقول بان العرب كانوا يعبرون عن افكارهم في غالب الاحيان وفي جميع الازمان بطريق النظم فيكون الوزن قاعدة تعبيرهم كما كان قاعدة افكارهم وحركاتهم وسكناتهم · ولا غرابة ان يكون ذلك من اقدم الازمان فقد زعم بعضهم ان اول من نطق بالشعر العربي ابونا آدم عليه السلام وقد حفظ لنا التواتر الاشعار التي نطق بها · وما زال بعض المولعين بالمناقشات يتباحثون الى اليوم اذا كان الذي انطقه بالشعر حزنه على موت ابنه هابيل الذي قتله اوحزنه على خروجه من جنة عدن ! وليس لي من سبيل للحكم في هذا الموضوع والفصل بين المتناظرين ولكنني اقول ان الامر الذي لا نزاع فيه هو انه اذا كان آدم شاعراً فان العرب احق الناس بالانتساب اليه واجدرهم به لانهم امراء الشعر وسادة البيان · فاذا كان للملوك اسر فان للشعراء ايضاً اسراً آل اليها المجد ووالله لهؤلاء اكبر شرفاً واحق بالفخر الصحيح والمجد الرفيع من اولئك · واذكر هنا النعمان بن بشير الانصاري فهو شاعر ابن شاعر وحفيد شاعر وقد ورث الشعر عنه ابنه ثم ابن ابنه وقد كانت عمومته وابناء عمومته شعراء ايضاً وكذلك كعب بن مالك والكنيات بن معروف وعبد يغوث · وقد كان ابو سلمى شاعراً وابن شاعر ووالداً للشاعر الكبير زهير وجداً للشاعرين كعب بن زهير وبجير · وهل انسى سلالة حسان بن ثابت التي نبغ فيها عدد عظيم من الشعراء مدة قرون متوالية

وقد كان الحال كذلك بعد الاسلام ايضاً فان الشاعر الكبير فارس كان ابوه وجده من الشعراء ومثلهما ابناؤه واحفاده

وما الفائدة من هذا المقدار واي انسان تبلغ به الدعوى مبلغاً يزعم معه ان في وسعه ان يحصي شعراء العرب وقد كان عددهم يتجاوز على قول احدهم النجوم التي ترصع القبة الزرقاء والازهار التي يفوح عنبرها في الحدائق والمروج

على ان كثيراً من الشعراء نعرف اسماءهم ولكن لم يصلنا شيء من منظوماتهم وبعضهم

لم يصلنا منهم الا ابيات قليلة مع انهم كانوا عَلَى ما اثبت التاريخ من كبار الشعراء · ولا غرابة في ذلك اذا علمنا كيف وصلت الينا اشعار الجاهلية

وكان يلتف حول الشاعر في العادة جماعة من مريديه وتلاميذه فيحفظون ما يلقيه من الاشعار ويتناقلونها عنه وينشدونها امام الامراء او المجاهدين السائرين الى البلاد او بين الجماعات مراعاة لمقتضى الحال متبعاً لما اذا كان الغرض من القصيدة المديح او الفخر او الغزل او الحكمة ثم تلا ذلك عصر كان الحفاظ او الرواة يستظهرون عدة قصائد من فحول الشعراء مدفوعين الى ذلك بعامل الاعجاب والتغني بها والمقارنة بينها · وقد كان هؤلاء الحفاظ هم الوسيلة الوحيدة لبقاء هذه الاشعار وتناقلها بالتواتر من جيل الى جيل · ولكن عدداً عظيماً منهم لقي حتفه في الحروب التي قامت في صدر الاسلام فنزل معهم الى القبر جزء عظيم من الابيات البديعة التي كانت تحويها صدورهم والتي كانت مفخرة العرب فلم يعد احد يتناقلها بعدهم

ولم ينتبه احد الى تدوين قصائد كبار شعراء الجاهلية في بطون الكتب لحفظها من الضياع الا في آخر القرن الاول من الهجرة وعمدوا في هذا السبيل الى جمعها من صدور كبار الرواة الذين كانوا يستظهرون الكثير منها كحماد الذي كان يحفظ سبعة وعشرين الف بيت من اشعار الجاهلية كل الف منها تبدأ بحرف من الحروف الهجائية وكالمفضل الضبي وخلف الاحمر وابو ضمضم الذي كان ينشد اشعاراً لمائة شعر باسم عمرو وكأبي تمام واضع كتاب الحماسة الذي كان يحفظ على ظهر قلبه اربعة عشر الف بيت من الشعر كلها لفحول شعراء الجاهلية

اما الاشعار التي قيلت بعد الاسلام فقد ضاع منها عدد عظيم بسبب الفتن والحروب التي قامت بين المسلمين او بينهم وبين غيرهم من الامم في جميع الازمان وفي جميع البلاد التي خضعت للاسلام ويكفي لمعرفة ما ضاع منها ان نلقي نظرة على مؤلفات بعض اكابر الكتاب التي هي اشبه بالفهارس لالتزامها جانب الايجاز لنتبين منها اسماء الذين عاصروهم من الشعراء وما الف في فنون النظم ثم نتساءل ما الذي بقي من كل ذلك لم يبق الا النزر اليسير الذي لا ينكر ولكن هذا النزر اليسير يكفي لرفع شأن امم عديدة لا لرفع شأن امة واحدة وهو يدل على مقدار نبوغ العرب في حلبة النظم وعلى ما كان لكبراء الشعراء لديهم من المنزلة السامية والمقام الرفيع

ويجرنا هذا الحديث الى البحث في منزلة الشعراء في العالم العربي ثم الى ذكر كلمة في

150

بيان مميزات الشعر العربي في اهم العصور في تاريخ العرب

كان الشاعر في الجاهلية مهيباً موقراً يحيط به الاجلال ويحف به الاكرام · فانه كان عميد القبيلة وحامي ذمارها وراوي تاريخها والحافظ لانسابها والمتغني بذكر مجدها فهو بهذا الاعتبار كان قريب الشبه بالكهنة في التاريخ القديم

فهو الذي كان يفتخر باجداده وبالوقائع والغزوات التي امتازت فيها قبيلته بالبسالة والاقدام وشدة البطش فيحفظ بذلك ذكرها في ابيات من الشعر لان الاشعار هي الاثر الوحيد الباقي في تاريخ العرب والوسيلة الوحيدة لمعرفة احوالهم وتاريخهم · وهو الذي كان يهجو اعداء عشيرته ويدفع السباب بمثله · وكثيراً ما كانت كلمة عذبة حلوة من شاعر مجيد تسكن ثائر العداوات وتطفئ نار الخصومات كما انه كثيراً ما كانت كلمة منه تستفز بغضاء القبائل وتشعل نار الحرب بينها

ومن البديهي ان امة هذه حالها وهذه طبائعها كانت تقابل ظهور شاعر بين ظهرانيها بالفرح والابتهاج وتعتبر شهرته من الحوادث ذات البال · فكانت القبائل الموالية للقبيلة التي نبغ فيها شاعر تقدم اليها زرافات لمشاركتها في اعلان افراحها فتقام الولائم وتنحر الذبائح وتوزع الارزاق وتعلو اصوات النساء ويتسارع الاطفال الى تقبيل طرف ثوب بطل الاحتفال عسى ربة الشعر توحي اليهم في مستقبل الايام ما اوحته اليه

وكان العرب في كل يوم ينصرفون عن القتال وتبطل بينهم الحروب ويتهادنون لايام معدودة ويغدون من كل فج سحيق من امراء وعلماء وتجار وشعراء الى حيث يجتمعون في عكاظ يتفاخرون بالشعر ويتبارون في الابداع فيه · وكان يضرب لذلك فسطاط فخم ويتولى الحكم بين المتسابقين ابعد الشعراء شهرة واعلاهم كعباً فكان يسمع ما يتلى بين يديه من القصائد ثم يبدي حكمه · وتكتب اجمل القصائد على نسيج من الكتان او ورقة من اوراق البردي وتعلق في الكعبة ومن هذا اطلق عليها اسم المعلقات وعددها سبع وهي من امتن الشعر واحسنه بل ان المعلقات — وشعر الجاهلية عامة — هي المثال الذي ما زال الشعراء ينسجون على منواله وينسجون نحوه الى اليوم الا في ما ندر من الاحوال تناقلها الناطقون بالضاد جيلاً بعد جيل وتغنوا بها وحفظوها وحاول شعراؤهم على ممر الازمان ان يتحدوها في معانيها ومبانيها وتصورات واصفيها وخيالاتهم · وما زال الشعراء الى زماننا يتبعون في وضع اشعارهم القواعد والروابط التي وصفها شعراء الجاهلية فترى الشاعر يبدأ على الدوام بنصب المضارب والخيام ومنازل الاحباب كما

كان يفعل شعراء العصر الجاهلي · و يطلب من صديقه او من صديقيه ان يقف معه ليبكيا معا على الطلل البالي والمنزل الذي كان مرتعا للبهجة والانس ثم هجره الصفاء واصبحت ذكراه مصدراً للالم ومثاراً للاشجان · ثم ينتقل الى التغزل بمحاسن المحبوبة والتفاخر بقومه و بشجاعتهم وثباتهم في حومة الوغى ومكارمهم ثم يتخلص من ذلك ببيت يجب ان يكون غاية في الحسن والابداع منتقلاً في تذكارات حبه وغرامه الى الموضوع الذي يرمي اليه في قصيدته · وكأنما الشعراء قد وضعوا نصب عيونهم ان يرجعوا الى المعاني القديمة والتخيلات البديعة التي سبقهم اليها اسلافهم مقتصرين على تغيير المبنى والتلاعب بالالفاظ وحسن السبك

ثم جاء الاسلام فانصرف الناس عن الشعر زمناً ما فان العرب وجدوا في القرآن ماتصبو اليه نفوسهم من جيد القول · وجاءهم الكتاب المنزل بصورة جديدة من صور الكتابة لم يألفوها من قبل فلا هي بنثر ولا هي بنظم بل هي شيء اعلى من ذلك جاءهم بصورة الهية سامية لا يعرف الواصف يصفها جلبت البابهم ولعبت بعقولهم وهم الذين رضعوا الفصاحة من ثدي امهاتهم وتربوا على البلاغة من مهادهم وعرفوا غث الكلام من سمينه فاسكرتهم هذه البلاغة العالية الخالدة وهذه الكلم الجوامع · وذهب المفسرون بعد ذلك الى أن القرآن هو غاية الاعجاز في باب البلاغة والبيان والى ان الملائكة والناس يعجزون عن الاتيان بآية من آياته

وقد نشأ من ذلك ان الشاعر سقط من شاهق مجده ولم تعد له تلك المكانة الرفيعة التي كانت له في سالف الازمان لم يعد ذلك الكاهن القديم والمدافع عن قبيلته وحامي حمى قومه بل تغير رأي الناس فيه وصاروا ينظرون اليه شزراً · وزاد الطين بلة ان بعضهم ذهب ا — ان صواباً وان خطأ — الى ان الرسول يكره الشعر والشعراء واستدلوا على ذلك ببعض كلمات وردت في موضعين او ثلاثة من القرآن يمكن تفسيرها بانها لوم لبعض الشعراء اضف الى ذلك ان الحماسة الدينية بلغت اشدها عند ظهور الاسلام فانصرفت الاذهان عن الاشعار والفنون واشتغلت بطبيعة الحال و بحكم الانقلاب الجديد بالبحث في اصول دينهم واحكامه وتفاسيره و بالغزو والجهاد لنشر الدعوة الى الاسلام · على ان الشعر رغماً من ذلك لم يمت تماماً فان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين اشار على المسلمين بان « يعلموا اولادهم الامثال والشعر » وكان الامام علي ابن ابي طالب رابع الخلفاء من فطاحل الشعراء واعلاهم كعباً في ميدان النظم

ولما امر الخليفة عثمان بن عفان بجمع القرآن من صدور الرجال ولم يكن قد جمع الى عهده وتبين انه يصعب تفسير بعض آياته وكلماته وادخالها في اذهان الامم الاجنبية كأهل مصر والشام وفارس الذين كانوا قد انتحلوا الاسلام وتألفت منهم غالبية اهله منذ القرن الاول للهجرة — رجع شارحوه ومفسروه الى الاشعار القديمة للاستئناس بها والاستعانة بها على فهم ما اغلق عليهم من معاني بعض الالفاظ القرآنية متبعين في ذلك قول ابن عباس « اذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه — فاطلبوه — في اشعار العرب » فكان ذلك مساعداً على نهضة الشعر والعناية بامره بعد اهماله زمناً فبدأت تعود اليه بهجة الازمان الخوالي رويداً رويداً الى ان بلغ اعظم شأو في ايام الامويين وارتفعت منزلته ارتفاعاً كبيراً

وهناك اسباب سياسية دعت الى هذا التغيير فان موت الامام علي اوقع الفتنة في بلاد العرب فانقسموا الى قسمين متناظرين حزب علي وحزب معاوية · وعادت القبائل الى التطاحن والقتال بعد ان كان الاسلام قد جمع بينها ووحد كلمتها ومحا الضغائن التي تأصلت في نفوسها قروناً فبعثت العادة القديمة من الرمس وسار كل شاعر في طليعة قومه يحرضهم على القتال ويبعث الحمية في نفوسهم متوسلاً الى ذلك بتذكيرهم بوقائعهم الباهرة وافعالهم المجيدة · وكان معاوية داهية حصيف الرأي فسعى بجميع الوسائل الى زيادة عدد انصاره فافلح في ضم معظم القبائل الى جانبه بفضل دهائه وحكمته وسخائه وكان من بين الوسائل التي عمد اليها انه اغدق هباته على الشعراء فقابلوا الجميل بمثله والفوا القصائد في مدحه والتحدث بكرمه ومروءته فكان ذلك من اكبر الاسباب في ميل القلوب اليه وتمهيد اسباب النصر له · وسار خلفاء معاوية على نهجه ففتحوا ابوابهم للشعراء لاكتساب مودتهم من جهة ولان بعض الامراء كانوا مولعين بالشعر من جهة اخرى · فازهر عصر الشعر وبلغ درجة لم يبلغها من قبل · ولكن الشعراء نسوا مقامهم القديم ومكانتهم الاولى ولم يدركوا قدر اللآلئ التي كانوا يجودون بها فانحط مقامهم ونزل قدرهم · وبعد ان كان الشاعر في الجاهلية امير قبيلته وسيد قومه اصبح في عهد الامويين رجلاً من اولئك الذين تتألف منهم بطانات الامراء · كل همه ان يستدر هباتهم وان يتزلف اليهم وينال الحظوة لديهم

وفي عام ١٣٢ للهجرة حدث انقلاب جديد في العالم الاسلامي فان ابا العباس ثار على الامويين ونصره في ذلك اهل خراسان وفارس فتغلب عليهم ونزع الملك من بين

ايديهم بعد ان نكل بهم تنكيلاً وقد علا شأن الشعراء في عهد العباسيين من اول عهدهم الى يوم زوال ملكهم حين استولى التتار على بغداد في عام ٦٥٦ للهجرة · فكان الشاعر نديم الامير وسميره وجليسه فان الخلفاء العباسيين قربوهم اليهم واستصفوهم وبالغوا في اكرامهم مراعاة لاسباب سياسية لا طمعاً في استعمالهم وسيلة لكسب قلوب المسلمين بل لان جلهم كانوا من اهل العلم والادب وكانوا لا يأنفون من قول الشعر

وقد بلغ العرب في ايام العباسيين من العزة والسؤدد الى غاية ما وراءها غاية وادركوا الشأو الذي لا يبارى وارتقت العلوم والفنون في عهدهم الى اعلى ذروة · فكان للشعر اكبر نصيب في ميدان التقدم والنجاح · بل ان عهد الدولة العباسية كان العصر الذهبي للشعر وللشعراء ايضاً مدة خمسة قرون متوالية · ولم يعد الشاعر ذلك الكاهن القديم او ذلك المنشد المحدث بمجد قبيلته المتفاخر بها المتغني بفضائلها · اذ لم يكن العرب في ذلك العهد قبائل وشيعاً بل كانوا امة واحدة جمعت كلمتها وتمازجت عشائرها — من الوجهتين الدينية والاجتماعية — بل كان الشاعر صديق الامير ومؤانسه ومشيره ورفيقه في ساعات لهوه واوقات انسه · فعلا شأنه وارتفع قدره ونبه ذكره وانهالت عليه النعم وكان الناس يجلونه ويخشون بأسه وسطوته ويحسدونه على ماهو فيه من نعيم

وكان الشاعر عالماً ان الفضل فيما ناله من الحظوة والخير يرجع الى ابداعه في فنه فكان يطلب المزيد كل يوم في الاجادة ويضرب في الابداع بسهم اوفر حتى رق الشعر وسما وبلغ منزلة رفيعة لم يعرفها من قبل بل صار هيكلاً مقدساً لا تصل اليه الا النفوس العالية والقلوب الرقيقة الحساسة · تدخله خاشعة متهيبة تحاذر الزلل فياله من عصر سعيد تحكم فيه الشعر في النفوس وملك الافئدة ومهد السبيل لصاحبه ليصل الى ارفع درجات المجد واعلى ذرى السؤدد · كان الشعر يغني عن الحسب والنسب ويغني الشاعر عن التفاخر بغيره من الفضائل الحربية او المزايا السياسية · حتى ان شاعراً مدح ابا العباس مؤسس دولة العباسيين فولاه ولاية · بل ان المأمون فعل ذلك مع ابن الجهم جزاءً له على قوله بيتاً من الشعر اعجبه واطربه

بل هل جاءكم نبأ الخليفة هارون الرشيد الذي بلغ من اكرامه للعلم والآداب انه صب الماء لابي معاوية الضرير ليغسل يديه · او ابنيه الامين والمأمون اللذين تنازعا في ايهما يقدم لاستاذه حذائيه ثم اتفقا على ان يقدم له كل منهما واحداً

واذ كر على سبيل الاستطراد ان مسلم بن الوليد عين لوظيفة سامية هي وظيفة صاحب البريد يتقاضى رواتبها دون ان يشتغل فيها وكفى انه كان يغني بابنة الكرم ومكارمها • وان الطغرائي كان وزيراً لسلطان الموصل مسعود بن محمد السلجوقي وان المتنبي كان يعامل معاملة الامراء وتؤدى له التحية التي تؤدى لهم • في تلك الايام السعيدة كانت القصيده تكتب على قطعة من رخام فيجازى قائلها بثقلها ذهباً • وكان البيت الواحد يساوي من الف درهم الى الف دينار • فيالك من زمن مضى وانقضى كان الشعراء فيه ملوكاً والملوك شعراء • نعم لقد كان الملوك شعراء لامبالغة في ذلك ولا مجاز وفي طليعتهم الخليفة هارون الرشيد ومعظم الخلفاء العباسيين واحسنهم وابلغهم عبدالله بن المعتز الذي قضى في الخلافة يوماً وكأنما فيكتور هيجو شاعر الفرنسيس كان قد اخذ عنه حين قال في رواية « روت » مامعناه

« وفتحت روت عينها بين اليقظة والمنام وتساءلت اي اله في هذا الصيف الخالد التي وهو سائر هذا المنجل الذي صيغ من ذهب في الحقل الذي رصعته النجوم »

فان عبدالله بن المعتز قال قبل ذلك بعشرة قرون

انظر الى حسن هلال بدا يهتك من انواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

ولقد اطلت القول عن هذا العصر • اولاً — لانه احسن العصور بالنسبة للشعر العربي حيث تجلى فيه جمال الشعر وابداعه اكثر من كل عصر سواه • وثانياً لان ذلك العصر الزاهر الانور اعقبه ليل بهيم كشف الظلمات مازلنا نتخبط في دياجيره الى اليوم فلاتغيره الا بعض نجوم قليلة تتألق فيه حيناً بعد آخر وبعض بروق تومض احياناً ثم تختفي • اذكر ذلك العهد السعيد لانه منذ زال رحل الشعر معه وانحط شأن الشعراء فالناس تجهل اقدارهم وتغمط افضالهم وهم يتخبطون بين الحياة والموت

وقبل ان اختم كلامي اقول كلمة عن مميزات الشعر العربي في كل عصر من العصور التي اشرت اليها

كان الشعر في العصر الجاهلي مرآة حقيقية تنعكس فيها اخلاق العرب وعاداتهم واحوال معيشتهم • فكان الاعراب في ذلك الحين يضربون في الصحراء لا يستقرون على حال وهم يعيشون من السطو والغزو وقطع الطرقات وشن الغارة على القوافل اما محاصيل الارض فكانت ضعيفة لاتكفي لسد حاجاتهم • فكان شعرهم — وهو مرآة

اخلاقهم — بسيطاً سلسلاً سهلاً عليه ادلة الصدق مع مسحة من الخشونة وهل كان لشعرهم سبيل الى ان يكون غير ذلك ؟ وكانوا يقرون بالخاطر يجول في مخيلتهم و يتجلى لهم المنظر امام عيونهم يدعو الى السرور او الاسى فيرسلونه شعراً للتعبير عما في نفوسهم دون اغراق ولا موار بة . فتجد فيه العبارات العنيفة الوحشية للتغني بالتنكيل والقتال وسفك دماء الاعداء وتجد فيه العبارات اللينة التي تسيل رقة للتعبير عن غرام خالج الفؤاد ولعب بالقلب واذل تلك النفس العاتية . ليس في عباراتهم تكلف بل هي تسيل كالماء الذي يجري من عين صافية دون جهد ولا عناء بل كأن الشعر جاء عفواً دون ان يستكد الشاعر ذهنه . لا يقيد شاعرهم بموضوع ولا بشعر ولا بقافية ولا يحاول ان يأتي في ابياته بانواع التشبيه والمجاز ولا بالغريب في الالفاظ ولا يسعى في تزيين القول بالمعاني الباطلة المصنعة التي لا يشعر لها بأثر في نفسه بل هو يرسل الشعر على البداهة ليكون صورة ما في نفسه وما تكنه جوارحه . فاذا لاقى ما يدخل السرور الى قلبه هتف هتاف الفرح واذا عرض له ما يدعو الى الاسى انَّ وناح . او اذا اراد الفخر عبر عن اعماله واعمال قومه بغاية البساطة والسهولة لا فرق في ذلك بينه وهو في هذه الحالة الفطرية وبين الطير الذي يغرد في الغابات والحراج . فالشعر في العصر الجاهلي جميل وعار لا يحجبه ثوب من الرياء والتصنع فهو كالطبيعة بل هو كالجمال

اما في ايام الامويين فان اللغة بعثت نقشية كما كانت ولكن الشعر لم يعد هذه العذراء الطاهرة التي لم يقربها رياء بل ان الشعراء الذين نزلوا الى مصاف المملقين والمتزلفين شوهوا محاسنها ومزقوا ثوب عفافها . فبينما كان الاقدمون يقولون مع حسان:

وان احسن بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

اصبح المتأخرون يزعمون ان احسن الشعر اكذبه . اضف الى ذلك ان فتوحات الاسلام امتدت فدخل تحت حكم العرب كثير من الامم الغريبة عنهم التي تختلف مشاربها عن مشاربهم وان هذه الامم المغلوبة دانت بدين الفاتحين وتعلمت لغتهم فلم يعد الشعراء من العرب دون سواهم بل كان بينهم المصري والسوري والفارسي والاندلسي ولكل منهم نزعة خاصة قام عليها شعره و يظهر اثرها في قوله . والصفة الغالبة في شعر ذلك العصر ان معظمه كان شعراً غرامياً الغرض منه الغزل والتشبب مع خلاعة ومجون يرجع السبب الاصلي فيهما الى كثرة النساء اللوأتي وقعن في اسر المسلمين في حروبهم وهناك اشعار اشتملت على امور سياسية وعلى مطاعن يعزى السبب فيها طبعاً الى انشقاق

المسلمين الى احزاب والى ما قام من الخلاف بين اسرة معاوية واسرة الامام علي · على انه يمكن القول بوجه الايجاز ان هذا العصر كان زاهراً بالشعر وقد نبغ فيه جماعة من فطاحل الشعراء واعظمهم كالاخطل وجرير والفرزدق ·

وبلغ الشعر اعلى ذروة في عهد العباسيين فان النجاح الذي صادفه العرب والتقدم الذي بلغوه والمدنية التي اصابوها كل ذلك كان له اثر كبير في الروح الشعرية · ثم ان معيشة الخلفاء وترفهم والخمور والحب الخ · حول الشعر من حال الى حال فرق حتى صار نسمة من نسمات الروح وتهذبت الفاظه وحلت مبانيه وخفت روحه · هذا فضلاً عن تقدم العلوم وانتشار المدنية والفلسفة وبلوغ حرية الفكر والقول الى درجة كبرى وسعت دائرة العقل وشحذت القرائح ورفعتها الى الابتكار فوصلت تخيلات الشعراء الى درجة من السمو لم تصل اليها في زمن من الازمان

ويمتاز الشعر في العصر العباسي من جهة شكله بمتانة الوزن والقافية مع السهولة والمرونة بحيث اصبح اسهل تناولاً واطوع للشاعر وبروح جديدة كسرت قيود القوالب القديمة التي تقيد بها الفكر العربي في سالف الازمان · وامتاز من جهة موضوعه بقوة التصور والمناقشات العلمية والخيالية والتأملات الفلسفية التي تضمنها · وبعد ان كانت الاشعار في الماضي « كفة القلوب » فقط اصبحت تتضمن الحكمة والآراء العلمية والابحاث المنطقية · فكان الاطباء يضعون كتباً في الطب شعراً · والفلاسفة يقيدون شوارد افكارهم وخواطرهم شعراً فيما يتعلق بمنشأ الكون والقضاء والقدر وحرية الاختيار وخلود النفس الى غير ذلك من الابحاث العويصة · ولا يزعمن زاعم ان ذلك كان عمل ناظم يرص الكلمات رصاً دون ان يكون في كلامه اثر من آثار الشاعرية الصحيحة بل ان ذلك ما فعله جماعة من فحول الشعراء امثال المتنبي وابي العلاء المعري وابن هاني وغيرهم واشعارهم في هذا الباب تنفذ الى القلوب فهي من احسن الشعر وارقه واكثره تأثيراً في النفوس

اما ما آلت اليه حالة الشعر العربي بعد سقوط بغداد فاني اضرب صفحاً عنها مكتفياً بالكلمة التي قلتها فيما مر

وانما اقول انه منذ القرن الثامن للهجرة (القرن الخامس عشر للميلاد) اصبح الشعر صورة ركيكة فاسدة · وتقليداً سقيماً للاشعار القديمة لا اثر فيها للابتكار على الاطلاق واصبح الشعراء — استغفر الله بل الناظمين — اضحوكة يقلدون من سلفهم تقليداً اعمى

مع جهل مطبق بروح الشعر القديم وباحوال الزمان الحديث على السواء فتراهم كما كان الحال ايام امرئ القيس واصحاب المعلقات يبدأون بذكر المضارب والخيام في الصحاري والقفار ويشكون من الظمإ ويخاطبون الناقة التي اخناها السير وانهكها التعب ويتغزلون بمحاسن المحبوبة بنفس الالفاظ التي كان تغنى بها الشعراء ايام البداوة مع انهم يقيمون في مدائن آهلة بالسكان ومنازل عامرة توفرت لهم فيها اسباب الراحة والرفاه وبجانبهم انهر جارية تروي مياهها ما هم فيه من الظمإ وهم يمتطون صهوات الجياد الصافنات عليها السروج من الخز وقد تحجرت قلوبهم فلا تنبض لهوى ولا تشعر بعاطفة من عواطف الغرام!

ولكن ذلك لا يمنعنا ان نقول كما قال الاستاذ جول لومتر « ان الشعر العربي في مجموعه بما حوى من العواطف الرقيقة انقى شعر عرفه العالم » وقد اضاف الاستاذ الى ذلك وهو النقاد البصير الذي لا يلقي الكلام على عواهنه « انه اقرب الاشعار الى معاني الرجولية والشرف والحياء الصحيح والشهادة » اه

مخطوطات ومطبوعات

تاريخ العرب

للمسيو كليمان هوار جزآن طبع في باريز سنة ١٩١٢—١٩١٣ ص ٨٩٣

Histoire des Arabes par Cl. Huart 2 vol. Librairie Paul Geuthner Paris.

عرف المسيو هوار بين علماء المشرقيات من الفرنسويين بتوفره على العمل ووقوفه على احوال الشرق فهو يعرف عدة لغات شرقية ولا سيما الفارسية والعربية ومن جملة ما نشر كتاب البدء والتاريخ لابي زيد البلخي مع ترجمته الى الافرنسية وتاريخ آداب اللغة الافرنسية ورحلته الى قونية ودراويش المولوية ومفكرات على سياحته في سورية وتاريخ بغداد منذ استيلاء المغول الى مذابح المماليك وكتاب الخطاطين والمذهبين في الشرق الاسلامي الى غير ذلك من الرسائل والابحاث في دائرة المعارف الاسلامية

والمجلة الآسياوية ومجلة العالم الاسلامي وكله من آثار الجد والنشاط وآخر مانشره هذا الكتاب في تاريخ العرب الذين كانوا كما قال دعاة الاسلام ويهتم الغربيون لهم حق الاهتمام ولا سيما في ابتداء هذا القرن العشرين وقد كثر احتكاك الاوربيين بهم

وتاريخ العرب على مـا قال عنه المؤلف عبارة عن تاريخ شبه جزيرة العرب قبل الرسول وعلى عهد خلفائه مباشرة ثم الممالك الاسلامية العربية ولم يتكلم فيه على البلاد العربية التي افتتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ولكنه عني بالامارات التي احتفظت باستقلالها مثل عمان ومراكش

وصف المؤلف جزيرة العرب اولاً وتكلم عَلَى عادات العرب واخلاقهم وعلى تاريخ الجزيرة في القديم و يدخل فيه الكلام على ملوك غسان الذين كانوا عمالاً لامبراطرة الرومان في حوران وارجائها وعلى مكة قبل الرسول والكعبة وبداية امر محمد (عليه الصلاة والسلام) ووقعة ذي قار وعلى الهجرة الى المدينة وعلى نظام المجتمع الاسلامي وخلافة الراشدين ثم الامويين فالعباسيين فالاغالبة في تونس فالطولونيين في مصر فالحمدانيين في حلب فالفاطميين وعلى الاوضاع السياسية والاقتصادية في الاسلام من مثل نظام القضاء والشحنة والتملك والاوقاف والمواريث وميزانيات العباسيين

هذا مضمون فصول الجزء الاول وفي الجزء الثاني تكلم عَلَى الدولة الايوبية والحروب الصليبية والدولة الاتابكية ودولة المماليك البحرية وعلى الصلات السياسية والتجارية مع دول الغرب من مثل البضائع التي كان يجري عليها التقايض بين الشرقيين والغربيين والطرق التجارية وانشاء القنصليات وابتياع الاسرى والعلائق السياسية مع رومية و بحث في اسبانيا والمغرب وفتحهما والحروب الاهلية في اسبانيا والممالك الصغرى فيها وعن دولتي المرابطين والموحدين و يدخل فيه الكلام على قلعة بني حماد وصقلية وهجرة اليونان الى شمالي افريقية وخاتمة استيلاء العرب على اسبانيا ودول مراكش والاشراف الحسنية في سجلماسة واليمن والدولة الرسولية وعمان والخوارج والوهابيين وعرب السودان والمهدي والآداب العربية والعلوم عند العرب

ولم يتوسع المؤلف في بحثه كثيراً بل جعله مختصراً تكون فـائدة المطالع منه على طرف الثمام وتكون عند المطالع من الافرنج فكراً اجماليًا عن تاريخ هذه الامة الجليل والمسيو هوار ليس كسيديليو صاحب تاريخ العرب الذي ترجم بالعربية في غرامه بالعرب وانصافه لهم فهما وان كانا فرنسويين لكن زمنهما مختلف ومشربهما كذلك .

ومما راقنا في كتابه قائمة الكتب التي رجع اليها المؤلف في آخر كل فصل ومعظمها مما نشره الالمان بالالمانية لان علم الشرقيات عند الجرمانيين ارقى منه عند غيرهم · وله فهرس واسع حوى الاسماء التي ورد ذكرها في الكتاب وفي آخر كل دولة من الدول الاسلامية فهرس باسماء ملوكها في آخر الفصل لتسهيل الكشف عنهم وتيسير حفظهم ولعل صاحبنا المسيو هوار يؤلف بعد هذا المختصر مطولاً في تاريخ العرب يطلق فيه العنان لقلمه السيال حتى يكون المرجع الاعظم للباحثين والمسترشدين من الاوربيين والشرقيين خصوصاً مع توفر المواد له بعدة لغات في مدينة كباريز مهد العلوم والآداب فنثني الثناء الاطيب على المؤلف والطابع ونرجو ان تظل هذه العناية على انها عند الفرنسيس بعلوم الشرق وتاريخه كما هي عند الالمان والانكليز وغيرهم من امم المدنية الحديثة

تاريخ حماة

تأليف الشيخ احمد الصابوني طبع بنفقة مكتبة عنوان النجاح في مطبعة حماة سنة ١٣٣٢ (ص ١٦١)

هو مختصر في تاريخ هذه المدينة تكلم فيه مؤلفه احد ادباء حماة على تاريخ الحثيين والاسرائيليين واليونان والرومان والعرب وتوليهم مقاليد الحكم على هذه المدينة ولكن بايجاز يكاد يكون مخلاً وكلام قليل على حماة القديمة وحدودها ونهرها العاصي ونواعيره وارحيته وجسوره ومحلاته وعدد نفوسه ومساكنه والجوامع والمدارس والمارستان والحمامات واحوال حماة الجوية والصناعية والعمرانية وهذا استغرق نحو نصف الكتاب وهو بحجم الربع ثم تراجم مختصرة لبعض مشاهير ملوكها وفقهائها وعلمائها وادبائها استند فيها المؤلف على طبقات السبكي وتاريخ ابن خلكان وتاريخ ابي الفدا والمحبي والمرادي وغيرها من الكتب المتداولة

وافيد ما في هذا الكتاب بعض ما نقش على ابواب المساجد والمدارس والمحال العامة منذ القديم من الكتابات وبيان ما هو معروف منها ومن اوقافها لهذا العهد ولو توسع في ذلك كثيراً لجاء كتابه احسن مرجع في بابه ولكنه اكتفى بما تهيأ له لاول وهلة والنظرة الاولى قد تخطئ وتراجم الرجال لا تشبع غليلاً لان منها ما زاد بايراد شيء من شعر المترجمين ومنه ما لا يفيد لانه خال من نكتة تاريخية وادبية وليس فيه الا ما يورث الترجمة طولاً على غير طائل فاي فائدة مثلاً من نقل ما قيل من المراثي في صاحب حماة ابي الفدا واهمال التوسع في ترجمته وهو ثاني المأمون بخدمته

155

للعلم والآداب لم يشرف حماة بنسبته اليها بل شرف الشام والعالم العربي فمن كان بهذه المثابة جدير بان يتوسع في ترجمته لا ان يكون حظ اديب من العناية اكثر منه وهذا ليس له الا شعر قد يكون ضئيلاً لاجزالة فيه بل اي فائدة من ترجمة اصحاب الكرامات والتنويه بمن كانوا يعبرون الرؤيا ووسمهم بان ذلك من الفنون ومن اصحاب هذه التراجم مالوحظ فيه على مايظهر ارضاء بعض العامة والاعيان والتاريخ لا يكتب على الهوى واذا لم يستطع المرء ان يترجم الاسلاف الا بما يمليه الاخلاف فالاولى به ان يطوي تاريخه لينشر بعده خالياً من اعراض هذه الاغراض · وقد وقعت للمؤلف غلطات منها مطبعية ومنها لغوية وصرفية ومنها جغرافية تاريخية كنا نود ان يعرى منها هذا المختصر مثل تذكيره للبئر « ص ١٥ » وهي مؤنثة وتذكيره للحمام وهو مذكر

ومثل ذلك ما وقع في الرسم واغلاطه والاغلاط النحوية الطفيفة الدالة على تساهل كقوله (ص ٥٩) ثلاث اميال · ثلاث اقضية و (ص ٢٣) ثمانية ساعات والصحيح ثلاثة اميال ثلاثة اقضية وثماني ساعات ومن اغلاطه الجغرافية واللفظية قوله في ترجمة ابن واصل (١٤) ومن تآليفه « الانبروزية في المنطق صنفها للانبراطور ملك العقالبة (ايطاليا) المسمى فريدريك » والصحيح « الانبرورية » بالزاء المعجمة في الثانية لا بالزاي نسبت الى الانبرور او الامبراطور وقوله الصقالبة غلط والصحيح صقلية والصقالبة جيل من السلافيين لم يسكنوا صقلية في جنوبي ايطاليا قط ومنازل العنصر الصقلبي ذكرها جغرافيو العرب والافرنج · وكان مثل ابن واصل حرياً بان يتوسع في ترجمته لانه يعد في الفلاسفة وهو اهم من مائة اديب يعتاش بشعره امثال ابن مليك ومن اغلاطه قوله في ابيات لابن حجة (ص ١٢٩) من قصيدة قالها سنة ٨٢٠ في مدح الخيشمي

هواي بسفح القاسمية والجسر اذا هب ذاك الريح فهو الهوى العذري

قال في الحاشية والقاسمية هي الرحى على جانب جسر باب النهر من بناء قاسم باشا الخطيب · ولم تكن الدولة العثمانية قد دخلت سورية على ذاك العهد بل دخلتها سنة ٩٢٢ ولفظ باشا من مصطلحات الاتراك في التشريف لا من مصطلحات الجراكسة على ان معظم ما اورده صاحب هذا الكتاب من الحواشي مفيد في بابه مزيل للبس فنشكره على تأليفه ونرجو ان يضع هذه الملاحظات محلها من النظر ويضيفها وغيرها الى الطبعة الثانية التي وعد بطبعها من كتابه هذا خدمة للتاريخ والحقيقة ويتوسع في الاعمال الواجب بسطها ويختصر في الاماكن التي لا يجوز فيها الا الايجاز

مدارك الشريعة الاسلامية
وسياستها
طبعت بمطبعة الترقي بدمشق

من علماء الدين رجال اطلعوا على اسرار الشريعة فانشأوا يبثونها في صور مختلفة ويشربونها القلوب بلسان يوافق الاذواق العصرية ومن هذه الفئة الفاضلة السيد محمد الخضر بن الحسين من مدرسي الجامع الاعظم في تونس سابقاً فقد اعتاد هذا الاستاذ ان يلقي محاضرات يبين فيها حكمة الشريعة و ينشرها في كراسات خاصة يبثها بين جميع الطبقات وآخر محاضراته التي القاها في تلك العاصمة رسالة في مدارك الشريعة الاسلامية وسياستها افاض فيها في حكمة التشريع والشرائع وتقسيمها ومنابع الشريعة الاسلامية والاسلام دين وسياسة واختلاف المذاهب وانتشارها وطبقات الفقهاء والفقهاء والامراء كل ذلك بعبارة منسجمة تجمع الى الطلاوة متانة وهاك نموذجاً مما قاله في اختلاف المذاهب :

كره الشارع التفرق في الآراء وندب الامة الى الوفاق بقدر ما يمكنها ولكنه يعلم ان تماسكهم وسيرهم في جميع الاحكام على مذهب واحد غير ميسر لهم فاذن لهم بعد بذلهم الوسع في اتفاق الرأي ان يأخذ كل طائفة بما استقرت عليه افهامهم ولا يضرهم متى تمكنوا في صناعة تقرير الاحكام واستوفوا شروطها ان لا يصيبوا وجه الحق في الواقع قال صلى الله عليه وسلم اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد فاخطأ فله اجر واطلق الشارع للعقول عنانها في الاجتهاد ليفتح لها المجال في النظر و يربيها على مبدأ الاستقلال بالرأي حتى لا يستولي عليها التقليد من جميع جهاتها فيتخللها الجمود ويصبح الفرق بينها و بين العقول المتصرفة كالفرق بين الماء الراكد في حمأة والماء المنهمر على الصفا لا يمازجه كدر .

ومن شعر بهذه الحكمة لا يمكنه الغض من جانب علماء الاسلام حيث افضى بهم الاجتهاد الى الاختلاف بل هذا مما يجر الى الاعتراف بمزيتهم و يبرهن على انهم نشأوا على مبدأ البحث واستقلال الفكر ولو انهم كانوا بعقول خامدة وارادة ميتة لاتبعوا ما يفتي به اول فقيه منهم وتسلموه بتقليد .

و بعد ان ابان الوجوه المتعددة التي تدعو المجتهدين الى الخلاف قال : ولو ان اهل الاسلام استمروا على تأليف الجمعيات العلمية لتحرير احكام الحوادث واستخلاص

156

الحقيقة من الآراء المتلاقية لالتأمت عدة خلافات حقيقية وسقطت اقوال كثيرة من حساب مسائل الخلاف وقد كان للسلف اهتمام بجمع العلماء في المسائل المشكلة فقد نقل الحافظ ابن عبد البر عن المسيب بن رافع انه اذا جاء الشيء من القضاء ليس في الكتاب ولا في السنة رفع الى الامراء فجمعوا له اهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق اه٠

كتاب الانساب للسمعاني

Kitab Al-ansab

Reproduced in facsimile from the Manuscript in the British Museum.

With an introduction by Prof. D. S. Margoliouth,

عرفوا علم انساب بانه علم يتعرف منه انساب الناس وقواعده الكلية والجزئية والغرض منه الاحتراز عن الخطإ في نسب شخص وهو علم عظيم النفع جليل القدر وقد عنيت العرب بضبط انسابها حتى اذا كثر اهل الاسلام واختلطت انسابهم بالاعجام تعذر ضبطها بالآباء فانتسب كل مجهول النسب الى بلده او حرفته او نحو ذلك حتى غلب هذا النوع قال كاتب چلبي وقد صنفوا فيه كتباً كثيرة والذي فتح هذا الباب وضبط علم الانساب هو الامام النسابة هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ فانه صنف فيه خمسة كتب ثم اقتفى اثره جماعة ٠ قلنا ومنهم الامام ابو سعد عبدالكريم ابن محمد المروزي الشافعي الحافظ المتوفى سنة ٥٦٢ وكان ابو سعيد هذا كما قال صاحب وفيات الاعيان واسطة عقد البيت السمعاني وعينهم الناظرة ويدهم الباطشة واليه انتهت رئاستهم وبه كملت سيادتهم رحل في طلب العلم والحديث الى شرق البلاد وغربها وجنوبها وشمالها وسافر الى ماوراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة دفعات والى قومس والري واصبهان وهمدان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ولقي العلماء واخذ منهم وكان عدة شيوخه تزيد على اربعة آلاف شيخ وصنف التصانيف الحسنة الغزيرة منها كتاب الانساب نحو ثمان مجلدات وهو الذي اختصره عزالدين ابو الحسن علي ابن الاثير الجزري واستدرك عليه والمختصر هو الموجود بايدي الناس والاصل قليل الوجود ٠

قال في الكشف ان ابن الاثير سمى كتاب السمعاني اللباب وهو في ثلاث مجلدات ثم لخصه السيوطي وجرده عن المنتسبين وزاد عليه اشياء وسماه لب الالباب في تحرير الانساب ولخصه الخيضري المتوفى سنة ٨٩٤ وكأن الله اخر كتاب السمعاني في

خزانة المتحف البريطاني الى هذا العهد ليقوم احد علماء المشرقيات الاستاذ مرجليوث بنشره على نفقة تذكار حبيب الانكليزي ٠طبع على الحجر (ليتوغرافيا)فجاء مثل الاصل المأخوذ عنه حذو القذة بالقذة وذلك على ورق جيد وقع في زهاء الف ومائتي صفحة من الحجم الكامل واذ كانت النسخة المنقول عنها مختلفة الخطوط جاءت كذلك وفي ظننا ان هذه النسخة لو طبعت بالحروف كما طبع الاستاذ مرجليوث ايضاً معجم الادباء لياقوت لعمت الاستفادة من هذا السفر الجليل وسهل على كل مطالع الاخذ منه لان في هذه الخطوط مايصعب حله الا بعد اعمال النظر واكثره من الخط اللطيف النسخي ويا حبذا لو شفع الناشر هذا الكتاب بمعجم لالفاظ الاعلام الواردة فيه واتبعه بغير ذلك من الفهارس على عادة الاوربيين في طبعهم كتبنا العربية ٠

قال السمعاني في مقدمته : « وكنت في رحلتي اتتبع ذلك واسأل الحفاظ عن الانساب وكيفيتها والى اي شيء نسب كل احد واثبت ما كنت اسمع ولما اتفق الاجتماع مع شيخنا وامامنا ابي شجاع عمر بن الحسين البسطامي ذكر الله بالخير مما وراء النهر فكان يحثني على نظم مجموع في الانساب وكل نسبة الى قبيلة او بطن او ولاء او بلدة او قرية او جد اوحرفة او لقب لبعض اجداده فان الانساب لاتخلو عن واحدة من هذه الاشياء شرعت في جمعه بسمرقند في سنة خمسين وخمسمائة وكنت اكتب الحكايات والجرح والتعديل باسانيدها ثم حذفت الاسانيد لكيلا يطول وملت الى الاختصار ليسهل على الفقهاء حفظها ولا يصعب على الحفاظ ضبطها واوردت النسبة على حروف المعجم وراعيت فيها الحرف الثاني والثالث الى آخر الحروف وابتدأت بالالف الممدودة لانها بمنزلة الالفين وذكرت الآبرى في الالفين وهي قرية من سجستان والابرى بالالف مع الباء الموحدة وهذه النسبة الى عمل الابرة واذكر نسب الرجل الذي اذكره في الترجمة وسيرته وما قال الناس فيه واسناده واذكر شيوخه ومن حدث عنهم ومن روى عنه ومولده ووفاته ان كان بلغني ذلك ٠ »

هذه جملة حال الكتاب والمحور الذي يدور عليه وتراجم الرجال الواردة اسماؤهم فيه مختصرة على الاغلب لان المقصد الاول تعيين نسبته وله شبه كثير بكتاب المشتبه في اسماء الرجال للحافظ الذهبي الا انه مطول اكثر وفيه تراجم يصح ان تعد تراجم ولكن المشتبه عبارة عن معجم لما استعجم من اسماء الرجال ٠ فنشكر الطابع والناشر اطيب الثناء ونتمنى ان يوفق الامناء على تذكار جيب الى طبع امثاله من كتب العلم المبعثرة

في خزائن الكتب في الغرب والشرق لانهم مؤتمنون عليها عارفون باقدارها يعملون بتأن في اخراجها للناس بحسب المناسبات والدواعي وفقهم الله

دروس الجغرافيا

تأليف فوزي بك العظم طبع بمطبعة « جمال » بنفقة المكتبة الاهلية في بيروت سنة ١٣٣٢ — ١٩١٤ ص ١٢٨

هذا هو القسم الثاني الذي وعد به المؤلف في العام الفائت وهو يشتمل على دروس وتمارين في الجغرافيا بعبارة سهلة تترقى بحسب ترقي الطالب وهذا الموجز اوسع من الجزء الذي سلفه، فنشكر مؤلفه ونرجو له التوفيق الى اتمام هذه السلسلة النافعة لتلامذة المدارس وغيرهم .

اخبار وافكار

الموسيقى الاهلي

تألف في القاهرة معهد للموسيقى الاهلي من جماعة من الوطنيين والاجانب ورئاسة حسين باشا واصف من عيون اعيان القاهرة والغرض منه ترقية هذا الفن الشريف وقد جعله الجناب الخديوي تحت حمايته وخصه امراء الاسرة الخديوية برعايتهم ومعونتهم

الجنايات في مصر

بلغ عدد حوادث الجنايات في القطر المصري في العام الماضي ٤٠٩٦ حادثة مقابل ٣٧٨٤ في العام الذي قبله

السفن الراسية في بيروت

بلغ مجموع السفن التجارية والشراعية التي ارست في ثغر بيروت سنة ١٩١٣ — ١٠٢٤ سفينة تجارية منها ٢٣٢ انكليزية و ١٧١ افرنسية و ١٤٧ روسية و ١٤١ نمساوية و ١٣٩ طليانية ومحمولها كلها ١،٧٦٦،٥٤ وجاء الثغر ١٨٢٦ سفينة شراعية محمولها ٣٢،٨٧٣ طناً منها ١٨٢٦ سفينة عثمانية

اكل الثوم

كان بعضهم يذهب الى ان البلغاريين تطول اعمارهم لاكثارهم من تناول اللبن الرائب وقد ذهب احد اطباء باريز اليوم الى ان الاكثار من اكل الثوم مما يطيل الحياة فهو يحرض الناس على مزاولة اكل الثوم ويمدح الحساء المطيبة بالثوم ويعتقد بان من يتناولها يعيش اكثر من ثمانين سنة ويخطيء من يقول بان البلغاريين تطول باللبن اعمارهم وعلل ذلك لكثرة تناولهم في مآكلهم من الثوم ·

الطلبة المصريون

ثبت بالاحصاء ان مجموع الطلبة المصريين الذين يطلبون العلم في اوربا على نفقاتهم نحو ٦١٤ منهم ٣٧٣ طالباً في بلاد الانكليز و ١٣٩ في فرنسا و ٦٤ في سويسرا منهم من يتعلم الحقوق ومنهم الاقتصاد السياسي ومنهم الطب ومنهم الآداب ومنهم الهندسة ومنهم الزراعة ومنهم التجارة ومنهم الفنون الجميلة ومنهم غير ذلك

اهل الاسلام

ذكرت مجلة « العالم الاسلامي » التي تصدر في لندن ان في الدنيا كلها ٢٠١،٢٩٦،٦٩٦ مسلماً منهم ١٥٦٦٩٠١١٠ في آسيا و ٤٢،٠٣٩،٣٤٩ في افريقية و ٢،٣٧٣،٦٧٦ في اوربا و ١٧٤،٠٦١ في اميركا الشمالية والجنوبية و ١٩،٥٠٠ في اوستراليا والجزر التابعة لها · وان ١٦٧،٠٩٣،٨٩١ منهم تحكمهم حكومات مسيحية والباقون وعددهم ٣٤،١٩٢،٨٠٥ لايزالون يتمتعون باستقلالهم

حفلة تكريم

أقيمت في مصر ليل ٤ حزيران ١٩١٤ (١١ رجب سنة ١٣٣٢) حفلة في اوتل شبرد لتكريم واصف بك غالي صاحب المحاضرة المنشورة في هذا الجزء لنقله الى الغرب مزايا لغة العرب وآدابهم ووقوفه موقف الدفاع عنهم وهو ابن بطرس باشا غالي احد رؤساء النظار السابقين ومن كبار رجال النهضة القبطية فاحتفل به جمهور كبير من عظماء مصر وعلمائها وادبائها ورجال صحافتها وسياستها وعددهم ١٠٧ فانتدب الجناب الخديوي عنه عثمان باشا مرتضى رئيس ديوانه وجعلت الحفلة برئاسة اسماعيل باشا صبري ولما تناولوا الطعام هنيئاً طابت نفوسهم الى الكلام فافتتح الكلام اسماعيل صبري باشا بابيات قال في مطلعها

اي صوت حيته بالامس باريس مقر العلوم والعلماء

من ترى ذلك الذي جملته حكمة الشيب في ربيع الفتاء
ذلك الاسمر الذي بهر البيض مطلاً من منبر الخطباء
واماط اللثام عن ادب العرب كرام الآباء والابناء

الى ان قال —

ايه يا ابن الامجاد قمت باعباء كبار والمجد ذو اعباء
واريت الانام برَّ ذوي القربى ورأي الكريم في الكرماء

وقال احمد بك شوقي في قصيدته

انما يقدر الكرام كريم ويقيم الرجال وزن الرجال
واذا عظم البلاد بنوها انزلتهم منازل الاجلال
توجت هامهم كما توجوها بكريم من الثناء وغال
انما (واصف) بناء من الاخلاق في دولة المشارق عال
ونجيب مهذب من نجيب هذبته تجارب الاحوال
واهب المال والشباب لما ينفع لا للهوى ولا للضلال
ومذيق العقول في الغرب مما عصر العرب في السنين الخوالي
في كتاب حوى المحاسن في الشعر واوعى جوائز الامثال
من صفات كالعين صدقاً وسبتاً في اداء الوجوه والاشكال
ونسيب تحاذر الغيد منه شرك الحسن او شباك الدلال
ونظام كأنه فلك الليل اذا لاح وهو بالزهر حال
وبيان كما تجلي على الرسل تجلي على رعاة الضال
ماعلمنا لغيرهم من لسان زال اهلوه وهو في اقبال
بليت هاشم وبادت نزار واللسان المبين ليس ببال
كلما هم مجده بزوال قام فحل فحال دون الزوال
يابني مصر لم اقل امة القبط فهذا تشبث بمحال
واحتيال على خيال من المجد ودعوى من العراض الطوال
انما نحن مسلمين وقبطاً امة وحدت على الاجيال
سبق النيل بالابوة فينا فهو اصل وآدم الجد تال
نحن من طينة الكريم على الله ومن مائه القراح الزلال

مر ما مر من قرون علينا … رسفاً في القيود والاغلال
وانقضى الدهر بين زغردة العر … س وحثو التراب والاعوال
ماتحلى بكم يسوع ولا ك … نا لطه ودينه بجمال
وتضاع البلاد بالنوم عنها … وتضاع الامور بالاهمال
ياشباب الديار مصر اليكم … ولواء العرين بالاشبال
كلما روعت بشبهة يأس … جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بمنف … وكريم الآثار والاطلال
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا … وحياة كبيرة الاشغال
والي الله من مشى بصليب … في يديه ومن مشى بهلال

وقال حافظ بك ابراهيم :

ياصاحب الروضة الغناء هجت بنا … ذكر الاوائل من اهل وجيران
نشرت فضل كرام في مضاجعهم … جرّ الزمان عليهم ذيل نسيان
اني احييك عنهم في جزيرتهم … وفي العراق وفي مصر ولبنان
جلوت للغرب حسن الشرق في حلل … لايستهين بها نساج (هرنان)
ظنوك منهم وقد انشأت تخطبهم … بما عنا لك من سحر وتبيان
مازلت تبهرنا طوراً وتبهرهم … حتى ادعاك وحياك الفريقان
لولا اسمرارك فازوا في ادعائهم … (بواصف) وخسرنا اي خسران

الى ان قال :

امسى كتابك كالسيما بعيد لهم … مرأى الحوادث مرت منذ ازمان
قد شاهدوا فيه تحت النقع عنترة … يصارع الموت عن عبس وذبيان
وشاهدوا اسداً يمشي الى اسدٍ … كلاهما غير هياب ولا واني
هـذا من العرب لايلوي به فزع … وذاك اروع من آساد خفان
لله در يراع انت حامله … لو كان في انملي يوماً لاغناني
وقفت تدفع عن آدابنا تهماً … كادت تقوض منها كل بنيان
فكنت اول مصري اقام لهم … على نبالة مصر الف برهان
مازلت تلقي على اسماعهم حججاً … في كل ناد وتأتيهم بسلطان
حتى انثنيت وما في الغرب مجترئٌ … على البناء ولا زار على الباني

159

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة من البراهين فلت قول (رينان)
انحى على الادب الشرقي مفترياً عليه ماشاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة في الاشعار تنقصنا واللفظ والقصد والتصوير في آن
واننا لم نصل فيها الى مئة عداً وذاك لعي او لنقصان
ولو رأى ابن جريج في قصائده لقال آمنت في سري واعلاني
مالي افاخر بالموتى وبين يدي من شعر احيائنا ماليس بالفاني
في شعر شوقي وصبري مانتيه به على نوابغهم دع شعر مطران
بوركت يا ابن الوزير الحر من رجل لم يختلف فيه او في فضله اثنان
بلغ اذا جئت باريزاً افاضلها عنا التحيات واشفعها بشكران
وخص كاتبهم (جولاً) باطيبها كيما نقابل احساناً باحسان
واجعل لسفرك ذيلاً في شواعرنا وقف لهن هناك الموقف الثاني

وقال احمد افندي نسيم من قصيدة :

وحسب فضلك ان اعليت بينهمو قدر النساء باكبار واجلال
حليتها بالعفاف المحض فابتدرت بالطهر غالية عن كل لآل
لو كان عندي كعوب جئت تمهرها لكان سفرك اقصى مهرها الغالي
احييت فضل الألى بادت اوائلهم من مالكين زمام الدهر اقيال
قوم اذا سئلوا جادوا بباهرة من العوارف لم تخطر على بال
وان همو حاربوا هشت نفوسهمو للحرب من كل كرار ونزال
حتى اذا نهضوا خافت بوادرهم كواسر الوحش من شبل ورئبال
وان احبوا فما في حبهم ريب تؤذي العفاف لغدار ومحتال
وان هم انتسبوا في كل منقبة جاؤوا بكل كريم العم والخال
الصادعين على الاملاك بيضتهم من كل اروع بادي الكبر مختال
لجدد العهد واذكر امة سلفت يامن نخرت بذكرى عصرها الخالي
عز القريض فمن لي بابن هانئه يطريك في حكم غر وامثال
كنت الرسول الى القوم الألى نكروا هذي المآثر عن سهو واغفال
فكنت مثل «يسوع» في مواقفه يهدي نفوس شعوب عنه ضلال

« نايين ١ » حاسدة باريس مذاخذت عنك النهى بين تكبير واهلال
شفيت فيها جهالات مغشية على عقول اناس منذ اجيال
فالعمي مبصرة والصم سامعة والميت قام لما تلقيه من قال

وتكلم ويصا افندي واصف فمما قال عن المحتفل به : انه كتب ما كتبه كشاعر ليجب من يقرأ كتابته في الشعر العربي فاستعمل لغة الشعراء حتى لقد يخيل الى القارئ انه يقرأ شعراً لا نثراً ٠ وفي الحقيقة فان واصف بك ولد شاعراً فغرامه بالشعر العربي سيد الشعر كما يقول هو غرام فطري فعبر عنه بلغة هي لغة الالهة كما يقول القدماء

فكر كثيراً في الشكل الذي يصوغ فيه معانيه فادهش من قرأها من الفرنسويين حتى ان كتابه ولو انه حديث في آداب القوم فقد عنيت الجرائد الكبرى كلها بانتقاده وتقريظه ثم دعي بعد ذلك فالقى محاضرات في الشعر العربي باجمل ماقيل في اللغة الفرنسوية

بين في مقدمة بليغة كيف ان الشعر كان شريفاً عند العرب فجعلوه ديوان علومهم واخبارهم وتواريخهم وحكمهم وحياتهم اليومية كما فعل المصريون على جدران معابدهم وكيف كان ملكته مستحكمة فيهم حتى انهم كانوا ينطقون به ارتجالاً فكانوا كلهم شعراء

ثم سرد لذلك اسباباً عدة : منها شعور العربي وشدة تأثره وانفعالاته النفسانية واتساع مدى خياله ٠ ومنها استيعابه اللغة العربية وما فيها من المترادفات العديدة فكان رؤساء العرب متنافسين في الشعر فرئيس القبيلة كان ناشدها وحامي ذمارها ينشد انتصاراتها ويهجو اعداءها

ثم بين مصادر الشعر وقسمها ستة اقسام اصلية وهي الغزل والحماسة والمدح والذم والوصف والحكم ثم بين كيف كان الشاعر يقصد بالمدح والافتخار بقومه ولم يكن ينتظر اجراً على ذلك ٠ ولكن بعد الفتح الاسلامي جاء خلف لم يكن اللسان لسانهم وتعلموا الشعر صناعة ثم مدحوا امراء العجم باشعارهم طالبين اجراً فصار الغرض من الشعر الاستجداء فترفع اهل المراتب عنه واصبح تعاطيه مذمة ٠ وكذلك الهجو فكان الشاعر يبيع اشعاره كالسلع لمن غالى في شرائها

كل ذلك صاغه المحتفل به بلغة فصيحة شعرية

---

(١) نايين اسم مدينة دخلها السيد المسيح عليه السلام فابرأ فيها العمي والصم ولمس بكفه نعش الميت فاحياه

فعند ماتكلم مثلاً على الغزل امام مجمع السيدات الشريفات في الليسيوم الذي ترأسه الدوقة دوسين انظروا كيف وصف الحسناء العربية منتقياً الفاظ الجمال من كتب العرب فترجمها بالفاظ شعرية من اللغة الفرنسوية حتى اني بعد ماقرأت هذا الوصف سألت نفسي هل هذه الحسناء لم تكن تمثالاً من المرمر صوره خيال الكاتب او هل لم يصف احد هذه التماثيل المعروضة في متحف الوكسمبرج والتي لابد ان يكون قد وقع نظره عليها قبل القاء محاضراته

ثم انظروا كيف وصف الحب عند العرب . قال انه كان طاهراً نقياً بعيداً عن كل بهيمية وكانت المرأة محترمة مساوية للرجل وذكر من اشتهر من النساء في الحروب والشعر والآداب والطب والعلوم

ذكر عمرة ابنة علقمة التي اشتهرت في واقعة احد والخنساء التي حمدت ربها على استشهاد بنيها الاربعة يوم القادسية ورجت منه ان يجمعها معهم في مستقر رحمته وزينب التي مارست فن الطب وجندب زوجة امريء القيس وعائشة بنت طلحة وعمرة بنت هبل اللاتي سبقن مدام دي رمبو ييه في جمع الشعراء والادباء في بيوتهن للسمر والمحادثة في شؤون الآداب

ثم بين ما امتاز به العرب من الصفات كالوفاء بالعهد امثال حنظلة بن ابي عفرة وهو مشهور ومعروف والسموأل ثم احترام المرأة واحترام البنين لآبائهم والكرم وحب الانتقام الخ

ولكن احسن ماكتبه واصف بك هو ما كتبه عن حكم العرب فقال ان هذه الحكم هي نوع من الحماسة والفخر مصدرها الانفة العربية فالشاعر العربي لا يفتخر فقط بانه اشعر الشعراء واشجع الفرسان واكرم الكرماء بل يفتخر ايضاً بانه احكم الحكماء خاض معترك الحياة وذاق حلوها ومرها وعرف اسرارها فمن اتبع نصائحه اهتدى وهذه النصائح يهديها الينا بلا مقابل كرماً منه فهو رجل كامل . ثم لخص بعد ذلك ماجاء في هذه الحكم فقال ان حكماء العرب يفكرون في الموت ويستهينون بالدنيا ويذكرون انها ليست لحي وطناً فيجب اتخاذ صالح الاعمال فيها والاعتصام بالصبر والسكوت ذخيرة .

ومن قرأ هذه الحكم واراد ان يقارنها بنوع من الفلسفة الحديثة لم يجد الا الفلسفة المعروفة بال pessimisme ولكن الشعر العربي له مزية خاصة اذ انه يرفع هذه الحكم ويلبسها ثوباً من الظرف والجدة

وقال احمد حافظ بك عوض من خطبة

ان آداب اللغات سواء كانت فطرية خالصة كما كانت آداب العرب في عهد البداوة او مزركشة عليها مسحة الصناعة والرشاقة كما كانت في اواخر المدنية العربية — هي مرآة صادقة تظهر فيها اخلاق الامة واطوارها ظهوراً لا سبيل فيه الى المراء والمداراة

وقد كانت الدرجة التي تصل اليها آداب اللغة في امة من الامم هي مقياس رقيها في درجات المدنية والكفاءة العقلية حتى ليصح ان يقال ان وحدة القياس للمدنية هي الآداب من شعر ونثر وحكمة

وما على الباحث في تواريخ الامم الغابرة الا ان يكون لديه من سلامة الذوق ودقة النظر ما يمكنه من استجلاء صور هاتيك الامم من قراءة الآداب . واما التاريخ فهو بمعزل عن هذه الروح لانه لا يؤدي الا الى احصاء حوادث قد يقع مثلها في كل امة وفي كل عصر . وربما كان اصدق التواريخ في وصف حالات الامم النفسية والاجتماعية ما كان لمؤلفه يد في الادب ومشاركة فيه ولهذا فان كان مؤرخو العرب قد قصروا في الصناعة التاريخية فانهم كانوا ادباء في تواريخهم ، مؤرخين في ادبهم وبذلك اوقفونا على حالة الامة العربية النفسية والاخلاقية وجعلونا كأننا نعيش معهم

ان اوربا اليوم قد القيت اليها مقاليد السيادة في العالم فجلست على منصة الحكم بين الامم . لا اقول الحكم بالاستعمار والتسلط فقط ولكن الحكم على رقي الامم في مستوى المدنية والآداب ايضاً . فليس من سبيل الى رفع مقدار امة من الامم الشرقية خاصة او اللا اوربية بوجه عام في نظر الامم او الدول الاوربية اقرب واشرف من رفع اللثام عن الحالة النفسية لتلك الامة وعرضها كما هي مصورة في اشعارها وآدابها . وذلك ما صنعه واصف بك بين الامة العربية والامة الفرنسية بل والعالم الاوربي باجمعه . ولهذا نحن نكرمه الليلة

فواصف كان كالمحامي عنا خصه الله بموهبة المعرفة بلغة قضاتنا فوقف امامهم غير هياب ولا وجل يناضل عنا بافصح عبارات لغتهم ويشرح لهم ما لامتنا من الآداب الراقية والحكم الرائقة حتى يحصرهم بفصاحته وحجته فحكموا لنا حكماً يفيدنا في مصالحنا الاجتماعية والادبية بل والاقتصادية والسياسية

الجزء الخامس　　　　　　　　　　　　　　　المجلد الثامن

المقتبس

المجودون من المصنفين

التآليف في الامم كالاشخاص منها العاطل والجيد والاجود · والعاطل يقضى عليه لا يبقى لانه ساقط بطبعه والجيد قد يدوم لفائدة قليلة فيه اما الاجود فباق بقاء الايام وكلما ذكر اسم صاحبه حلا في الافواه وتطالعت نحوه العيون · كان الموجودون من المؤلفين في القرون الاولى للاسلام اكثر من المجودين في القرون الاخيرة لان العلوم كانت ارقى عند العرب ومائدة العلم لا يجرأ على الاخذ منها طفيلي لان الامة تميز والنقد اشد والحرية اوسع

فانا اذا قلبنا صفحات التاريخ نجد في كل عصر العشرين والثلاثين من الرجال المبرزين وهؤلاء يجب ان يشاد بذكرهم كل حين لان تآليفهم وحدها اذا بقيت للامة تتناقلها الجيل بعد الجيل تكفيها في قيام امرها الا قليلاً مما يحدث مع كرور الايام فالعرب مثلاً اذا اقتصروا على تأليف المجودين من المصنفين في علوم اللسان والدين فلا يستغنون عن اخذ سائر العلوم عن احدث الامم حضارة ·

وها نحن اولاء نلم في هذه العجالة باسماء بعض من اشتهروا من المجودين من علماء العرب على اختلاف العصور منذ بدأ التدوين عندهم · فمنهم ابو بكر بن مجاهد العارف بالقراآت وعلوم القرآن وهو آخر من انتهت اليه الرئاسة بمدينة السلام توفي سنة ٣٢٤ ومنهم الخليل بن احمد ١٧٠ وهو اول من استخرج العروض وغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ومنهم صاحبه سيبويه قال ابن النديم وعمل كتابه الذي لم يسبقه الى مثله احد قبله ولم يلحق به بعده قرأت بخط ابي العباس ثعلب اجتمع على

صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والاصول والمسائل للخليل · ومنهم ابو عبيدة (٢١٠) والاصمعي (٢١٠) وابو حاتم السجستاني (٢٥٥) والمبرد (٢٧٩) والزجاج (٣١٠) ومنهم ابن دريد (٣٢١) وابو سعيد السيرافي (٣٦٨) وابو الحسن الرماني وابو علي الفارسي (٣٧٠) والكسائي (١٩٧) والفراء (٢٠٧) والمفضل الضبي وابن الاعرابي (٢٣١) وابو عبيد القاسم بن سلام · وابن السكيت (٢٤٦) وابن قتيبة قال صاحب الفهرست انه كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها وقال ابن خلكان ان كتبه كلها جيدة · وابو حنيفة الدينوري وابن خالويه ٣٧٠ وابن جني ٣٩٢ وابن اسحق صاحب السيرة قال ابن النديم وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه اهل العلم الاول (١٥٠) وهشام الكلبي قال اسحق الموصلي : كنت اذا رأيت ثلاثة يرون ثلاثة يذوبون علويه اذا رأى مخارقاً وابا نواس اذا رأى ابا العتاهية والزهري اذا رأى هشاماً (٢٠٦) والواقدي وهو الذي خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك بيع له كتب بالفي دينار (٢٠٧) والمدائني ٢٢٥ والبلاذري صاحب كتاب البلدان واحد النقلة من الفارسي وابو الفرج الاصفهاني ٣٦٠ وعبد الله بن المقفع قال ابن النديم الكتب المجمع على جودتها ع‍هد ازدشير كليلة ودمنة رسالة عمارة بن حمزة الماهانية اليتيمة لابن المقفع رسالة الحسن لاحمد بن يوسف الكاتب وسهل بن هرون وكان ابو عثمان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته · قدامة بن جعفر والمرزباني ٣٧٨ والصابي والصاحب بن عباد وابو زيد البلخي كان فاضلاً في العلوم القديمة والحديثة تلا في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة الا انه باهل الادب اشبه · واسحق الموصلي وبشار بن برد وابو نواس وابن الرومي والبحتري ومالك ابن انس والشافعي وابو حنيفة وابن حنبل وابو يوسف والمزني وداود بن علي وابو عبد الله البخاري وابن جرير الطبري ويحيى النحوي ويعقوب ابن اسحق الكندي وابو نصر الفارابي ومتى بن يونس ويحيى بن عدي وابن زرعة وبنو موسى بن شاكر وثابت بن قرة وابراهيم بن سنان وعمر بن الفرخان ومحمد بن موسى الخوارزمي قال ابن النديم وكان منقطعاً الى خزانة الحكمة للمأمون وهو من اصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الاول والثاني ويعرفان بالسند هند وبنو الصباح محمد وابراهيم والحسن قال في الفهرست والجميع من حذاق المنجمين بعلوم الهيئة والاحكام والبتاني صاحب الزيج وحنين بن اسحق العبادي والعباد نصارى الحيرة

وقسطا بن لوقا البعلبكي و يوحنا بن ماسو يه واسحق بن حنين وابو بكر الرازي وجابر بن حيان

وابن وحشية وابن السيد البطليوسي قال ابن خلكان وهو مجيد في كل ماصنفه وكمال الدين بن يونس (٦٣٩) قال ابن خلكان تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم مالم يجمعه احد وتفرد بعلم الرياضة وكان اهل الذمة يقرؤن عليه التوراة والانجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لايجدون من يوضحهما لهم مثله وكان في كل فن من الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه . واحمد بن الطيب السرخسي قال ابن ابي أصيبعة : كان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف والتأليف (٢٨٦) وثابت بن قرة قال ابن ابي أصيبعة لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة وله تصانيف مشهورة بالجودة وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومنهم ابو سعيد ابنه سنان وابو الحسن ثابت بن سنان . وابو علي بن زرعة وعلي ابن العباس المجوسي مصنف كتاب الملكي في الطب وابو الفرج بن الطيب وابو الحسن بن بطلان وابن الشبل البغدادي وابن رضوان وسعيد بن هبة الله وابن جزلة وامين الدولة بن التلميذ والبديع الاصطرلابي وابو الخير الحسن بن سوار وابو الفرج بن هندو والرئيس ابن سينا وابو الريحان البيروني قال ابن العبري انه مبجر في فنون الحكمة اليونانية والهندية وتخصص بانواع الرياضيات وصنف فيها الكتب الجليلة ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الاحكام . ابو الفرج بن الطيب . قال القفطي انه احيا من علوم الحكمة والمنطق مادثر وابان منها ماخفي وقد تلمذ له جماعة سادوا وافادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان . قال ابن بطلان : ان شيخنا ابو الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير مابعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كان تلفظ نفسه فيها وهذا يدلك على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه .

وفخر الدين الرازي وابن جلجل والغافقي الاندلسي قال ابن ابي اصيبعة وكتابه في الادوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه . وامية بن الصلت وابن باجة وابو العلاء بن زهر وابن رشد وابن الرومية وابن الهيثم والمبشر بن فاتك وله تصانيف جليلة في المنطق وغيره من اجزاء الحكمة وهي مشهورة فيما بين الحكماء . الخطيب

التبريزي القطب الشيرازي الامام القزويني والجوهري وابن سيده وابن الحاجب ونصير الدين الطوسي والغزالي وابن دقيق العيد والزمخشري وسيف الدين الآمدي والبيضاوي والماوردي وابن حزم وابن البيطار ومحي الدين بن عربي وابن مجلي الموصلي وابن فلوس الماريني وابن مسكويه والمسعودي وابن خلدون وابن الاثير وابو الفدا وابن فضل الله وافضل الدين الخونجي قال ابو الفرج بن العبري وفي هذا الزمان اي في النصف الاول من القرن السابع كان جماعة من تلامذة الامام فخر الدين الرازي سادات فضلاء اصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان وافضل الدين الخونجي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق واثير الدين الابهري بالروم وتاج الدين الارموي وسراج الدين الارموي بقونية ٠ وعبد المنعم الجلياني وابن الصلاح وموفق الدين بن المطران وشرف الدين بن الرحبي وعبد اللطيف البغدادي والصاحب امين الدولة السامري وابن حبان البستي ٠ ابن عبد ربه ٠ بديع الهمداني ٠ الحسن بن رشيق القيرواني ٠ قال ياقوت كان شاعراً اديباً نحوياً لغوياً حاذقاً عروضياً كثير التصنيف حسن التأليف وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومحاقدات وصنف في الرد عليه عدة تصانيف ٠ وابو هلال العسكري وابن جني ذكر الضبي في بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ان ابا علي القالي صاحب الامالي المشهورة لما هاجر من بغداد الى قرطبة في سنة ٣٣٠ كان الامير ابو العاصي الحكم بن عبد الرحمن من احب ملوك الاندلس للعلم واكثرهم اشتغالاً به وحرصاً عليه فتلقاه بالجميل وحظي عنده وقربه وبالغ في اكرامه ويقال انه هو قد كتب اليه ورغبه في الوفود عليه واستوطن قرطبة ونشر علمه بها وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الامور وبعد ان صارت اليه يبعثه على التأليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط في الاكرام

وذكر ايضاً في ترجمة حسان بن ملك بن ابي عبدة الوزير احد ائمة اللغة والآداب ومن اهل بيت جلالة ووزارة نقلاً عن ابن حزم انه عمل على مثال كتاب ابي السري سهل بن ابي غالب الذي الف في ايام الرشيد كتاباً سماه بكتاب ربيعة وعقيل قال ابو محمد ابن حزم وهو من املح ما الف في هذا المعنى وفيه من اشعاره ثلثمائة بيت وكان سبب تأليفه اياه انه دخل على المنصور ابي عامر محمد بن ابي عامر وبين يديه كتاب ابي السري يعجب به فخرج من عنده وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً

وجابه في مثل ذلك اليوم من الجمعة الاخرى وأراه اياه فسر به ووصله عليه ·

وروى ايضاً في ترجمة صاعد بن الحسن الربعي وكان عالماً باللغة والآداب والاخبار انه كان سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً فاكرمه المنصور (ابو عامر الاندلسي في المئة الرابعة) وزاد في الاحسان اليه والافضال عليه وكان مع ذلك محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الاموال طبناً بلطائف الشكر دخل على المنصور ابي عامر يوماً في مجلس انس وقد كان تقدم فاتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي وصلت اليه فيها صلاته ولبسه تحت ثيابه فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما اراد تجرد وبقي في القميص المتخذ من الخرائط فقال له : ما هذا فقال له : هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً وبكى واتبع ذلك من الشكر ما استوفاه فاعجب ذلك المنصور وقال له لك عندي مزيد وكان قد حظي عنده بما الف له من الكتب · علي بن الحسين الاصبهاني · الشريف المرتضى · القاضي الجرجاني · علي بن عبيدة الريحاني · ابو حيان التوحيدي صاحب المقابسات · ابن الجوزي · ابن قيم الجوزية · ابن تيمية · ابن العميد · ابن القفطي القلقشندي · والنويري · وابراهيم بن الحصري صاحب زهر الآداب قال ياقوت وله تآليف جيدة في ملح الشعر والخبر · ابو علي الفارسي · ابو حنيفة الدينوري · ابو العلاء المعري وابن العديم · والجاحظ والحريري · ابن الصائغ · ابو بكر ابن زهر · القاضي ابو الفرج المعافى قال ابن خلكان كان فقيهاً اديباً شاعراً عالماً بكل فن وله عدة تصانيف ممتعة في الادب وغيره وكتاب الجليس الانيس تصنيفه ايضاً (٣٩٠) واصل بن عطاء · ياقوت الحموي · يحيى بن اكثم · ابن السكيت · ابن عبد البر · وابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة · وابن الانباري · عبد القاهر الجرجاني · ابو اسحق الاسفرايني قال ابن خلكان اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور واقر له بالعلم اهل العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة ٤١٨ ابو اسحق الشيرازي قال ابن خلكان انه صنف التصانيف المباركة المفيدة ٤٩٦ ابو حامد الاسفرايني ٤٠٦ وابن زيدون والصلاح الصفدي ابو الفضل الميداني صاحب كتاب الامثال ٥١٨ القاضي الفاضل · الثعالبي صاحب اليتيمة · القاضي عياض قال ابن خلكان صنف التصانيف المفيدة قال وبالجملة فكل تواليفه بديعة · القاضي الباقلاني ابو الحسين البصري له التصانيف النائقة في اصول الفقه وانتفع الناس بكتبه · الحاكم النيسابوري قال ابن خلكان امام اهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي

لم يسبق الى مثلها ٤٠٥ وابن دريد صاحب الجمهرة · وابو بكر الانباري (٣٢٨) ابو عبدالله المرزباني صاحب التصانيف المشهورة ٣٧٨ المسبحي (بالباء لا بالياء) صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات ٤٢٠ لسان الدين بن الخطيب · ابو العباس القرطبي انتفع الناس بكتبه واجاد فيها · عيسى بن دينار الاندلسي صاحب كتاب الهداية الذي يقول فيه ابن حزم انه ارفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم واجمعها للمعاني الفقهية · مالك بن علي الفهري صاحب القصي ·ابو عبد الرحمن بقي بن مخلد صاحب التفسير الذي قال فيه ابن حزم انه الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استثني فيه انه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره وان تآليفه قواعد الاسلام لا نظير لها · ومن الاندلسيين ايضاً القاضي منذر ابن سعيد وابو محمد قاسم بن اصبغ ومحمد بن عبد الملك بن ايمن و يوسف بن عبد البر وابو الوليد الفرضي وابن سعيد المؤرخ والقاضي محمد بن لبابة والقاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق واسماعيل بن القاسم وابن القوطية وابن التياني واحمد بن فرج وابو الحسن الكاتب واحمد بن محمد بن موسى الرازي وحسين بن عاصم واسحق بن سلمة الليثي وابو مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير في اخبار اهل الاندلس نحو عشرة اسفار قال ابن حزم هو اجل كتاب أُلف في هذا المعنى وله كتاب المتين في التاريخ وهو في ستين مجلدة · محمد بن عاصم · قال ابن حزم واما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحق وهي كتب حسان رفيعة وكتب محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وهي كتب رفيعة حسان وكتب التصريف لابي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ولئن قلنا انه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا احسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن · وفي الفلسفة كتب سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار وابي عبدالله محمد بن الحسن المذحجي · وفي الازياج مسلمة وابن السمح واحمد بن نصر · ومحمد بن عطية الغرناطي · الحميدي والباجي وابن بشكوال · ابن بسام صاحب الذخيرة · ابو القاسم صاعد بن احمد الطيطلي · عريب بن سعيد القرطبي ابو محمد عبدالله بن ابراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب في فضائل المغرب لم يصنف في الاندلس مثل كتابه · ابو عبد الله بن ابي الخصال الشقوري صاحب سراج الادب وابو عبيد البكري صاحب كتاب اللآلي وابن السيد البطليوسي وابن عصفور الاشبيلي النحوي · وابن الطراوة والسهيلي وابن خروف وابو عبيد البكري الاونبي صاحب كتابي معجم ما استعجم

والمسالك والممالك . وابو علي الشلوبين وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة . ابو عمر الداني . ابن جبير صاحب الرحلة ابو علي القالي صاحب الامالي قال الضبي وكانت كتبه عَلَى غاية التقيد والضبط والاتقان وقد الف في علم الذي اختص به (اللغة والادب) تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة اشرافه وقالوا لئن كان كتاب ابي العباس المبرد (اي الكامل) اكثر نحواً وخبراً فان كتاب ابي علي (النوادر) اكثر لغة وشعراً ومن كتبه في اللغة البارع كاد يحتوي على لغة العرب وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف في بابه مثله توفي ابو علي سنة ٣٥٦

رومانيا وملكها

رومانيا احدى ممالك البلقان بل رأسها على التحقيق لفتت انظار العالم في العهد الاخير بدهائها وحسن سياستها واستفادتها من مغانم الحلفاء البلقانيين بدون ان تهرق دماً او تصرف وقتاً ومالاً في الاستعداد لاهراقه فهي اليوم مملكة في اوربا الشرقية شمالي شبه جزيرة البلقان تحدها من الشمال بلاد النمسا والمجر وروسيا ومن الشرق روسيا والبحر الاسود ومن الجنوب بلغاريا ومن الغرب صربيا والنمسا وكانت مساحتها قبل الحرب الاخيرة ١٣١٣٥٣ كيلو متراً مربعاً وسكانها ٧٢٤٨٠٦١ نفساً فاصبحت بعد الحرب البلقانية ١٣٨٨٧٨ كيلو متراً وسكانها ٧٥٣٣٨١٨ نفساً (المقتبس م٨ ص ١٠٢)

اصل سكان رومانيا مزيج من عناصر مختلفة وكان يسكنها قبل الفتح الروماني الداسيون والجتيون ولما فتحها الامبراطور تراجان الروماني اقام فيها عدة مستعمرات عسكرية جاء بها من ايطاليا فنزلت بين سكان البلاد الاصليين وتزوجت منهم فانتشرت اللغة اللاتنية بينهم واصبحت لغة البلاد وبعد حين جاءها كثير من المجر والصقالبة فادخلوا فيها لهجاتهم ثم ورد عليها زمر من الشيغان (النور او الغجر) يبلغ عددهم مائتي الف نفس ووافاها اربعمائة الف اسرائيلي هاجروا من روسيا وبولونيا . وذكاء الروماني حاد وله ميل عظيم الى الشعر والموسيقى والفنون والسواد الاعظم من السكان هم روم ارثوذكس ولكن جميع المذاهب حرة

وبلاد رومانيا زراعية واهم مواردها تربية الحيوانات والزراعة راقية في الاودية اكثر من الجبال وهذه للمراعي وتربية البهائم وهي ناجحة في اقليم البغدان اكثر من اقليم الافلاخ واهم محصولاتهم القمح والشعير والذرة والكرم والاشجار المثمرة كالمشمش والخوخ الذي يستخرج منه عرق جيد · ومن مواردها الخشب الذي يقلع من غاباتها الكثيرة ويقل المستخرج من فحمها الحجري والفحم المعدني وغيرهامن الفحوم المعدنية وفيها الكرانيت والبترول والملح · وفيها صنائع لا بأس بهامثل صناعة الزجاج والنساجة والمناشير الميكانيكية في البلاد الجبلية ويعمل في بعض المدن النسيج والجوخ وغير ذلك ولكن رومانيا لما كانت تصدر من حاصلاتها الارضية شيئاً كبيراً على ما سيجيء اضطرت الى ان تستبضع البضائع الثمينة وتبتاع ادواتها وآلاتها من بلاد النمسا والمجر والمانيا وانكلترا

وقد اخذت تجارة هذه البلاد بالارتقاء فتجاوزت وارداتها منذ سنة ١٩٠٠ الى ١٩١١ من ٢١٧ الى ٤١٠ ملايين والصادرات من ٢٨٠ الى ٦٤٠ واصبحت زراعتها بفضل القوانين الزراعية الرشيدة غاية الغايات وزاد المزروع من اراضيها واخذت غلاتها تزيد سنة عن سنة وقد زاد سطح المزروع من اراضيها في الخمس السنين الاخيرة من ٣ ملايين الى ٦ ملايين هكتار ومجموع سطح رومانيا ١٣٠٠٧٢٠٠٠ هكتار وبلغ صافي اسعار الحاصلات سنة ١٩١١—١٩١٢ ملياراً و٣٩٤ مليون فرنك ومع كل هذا فالفلاح الروماني لقلة ما لديه من النقود لم يستطع حتى الآن ان يبتاع الادوات الزراعية الحديثة كالحصادة والدراسة الميكانيكية والسكك الحديدية لغلاء اسعارها ولكن كبار ارباب الاملاك قد ربحوا منها ارباحاً طائلة

وتاريخ الفلاخ او نصف رومانيا اليوم مثل تواريخ الممالك الصغرى لا يعرف عنه الا الشيء القليل وقد ذكروا ان مؤسسها الحقيقي هو ميرتشا (١٣٨٦—١٤٨١) وهو الذي حالف الصرب لقتال العثمانيين الذين كانوا اذ ذاك يهددون اوربا بالهجوم عليها فهزمه السلطان مراد واخذ اسيراً الى بورصة فاضطر فدية عن نفسه ان يعلن بان بلاد الفلاخ خاضعة للدولة العثمانية سنة ١٣٩١ ولما عاد الى بلاده عقد محالفة مع البولونيين والمجريين لصد هجمات العثمانيين ثم انهزم في موقعة نيكوبولي (١٣٩٦) وعاد فظفر في روفينن على جيش السلطان بايزيد وقاتل اخوة هذا السلطان قتالاً شديداً وضم الى بلاده جزءاً من بلغاريا واقليم سلستريا ودوبريجة وكان اول امتياز ناله من الدولة العلية هو انها لا تتدخل في مسائل رومانيا الداخلية ولا في انتخاب امرائها وبعد موته عاد اولاده ففتحوا ابواب

بلادهم للعثمانيين من اجل تاج رومانيا فوقعت بين الغالبين والمغلوبين وقائع كثيرة كانت الحرب فيها سجالاً حتى قبض العثمانيون على قياد البلاد وما برح الامر كذلك حتى تولى الحكم في رومانيا الامير ميشل الشجاع (١٥٩٣–١٦٠١) بطل الفلاق المشهور فقد قاتل جيش السلطان محمد الثالث وظفر باميري ترانسلفانيا والبغدان والجيوش الالمانية فنادى بنفسه اميراً على الافلاق والبغدان وترانسلفانيا ولم يكن خلفاؤه مثله واضاعوا تراثهم فصار نهباً

اما تاريخ مولدفيا او البغدان فهو ايضاً يبدأ من اوائل القرن الرابع عشر للميلاد وكانت تخضع تارة لملوك بولونيا واخرى لملوك المجر تتقاذفها اهواء جيرانها بحسب احوالها الداخلية وعلى نسبة متانة امرائها او أفن آرائهم وضعف نفوسهم حتى اذا ملك امرها اتين الرابع الملقب باتين الكبير ضرب ماتيا كورفين ملك المجر الذي جاز جبال الكاربات الى بلاده وضرب التتار ضربة شديدة في راكوفا وقاتل جيش سليمان باشا الذي كان مؤلفاً من ١٢٠ الفاً وهزم ملك بولونيا سنة ١٤٥٧ شر هزيمة وحاول ان يعقد حلفاً شرقياً ضد العثمانيين فلم يفلح ولما مات اوصى اولاده ان يخضعوا للدولة العلية فصدعوا بالامر حتى زمن الامير باسيل الذئب الذي كان معاصراً لمانيو بازاراب وعمل لامارته كما عمل هذا لامارة الفلاق ومنذ سنة ١٦٥٨ الى سنة ١٦٨٥ تولى زمام هذه الامارة احد عشر اميراً منهم ثمانية اروام فاصبح كل شيء رومياً او بوشك ان يكون كذلك في تلك الامارة بل دام ذلك في الامارتين الى سنة ١٨٢١ ايام ثار الرومانيون وطردوا الامراء اليونان واقاموا امراءهم الاصليين غريغور يوس جيكا في البغدان وجان ساندوستورزا في الفلاخ (١٨٢٢–١٨٢٨)

ولما اعلنت روسيا الحرب على الباب العالي سنة ١٨٢٨ اخذت تحتل الامارتين المذكورتين واقامت فيهما حكومة موقتة وبعد ان عقد الصلح في ادرنة سنة ١٨٢٩ كان من شروطه ان تبقى الافلاق والبغدان في يد روسيا ريثما تستوفي الغرامة الحربية البالغة عشرة ملايين دوكا وظلت روسيا في البلاد ست سنين عملت في خلالها على تنظيم داخليتها وادخلت اليها دستوراً عرف باسم اللائحة الاساسية ودعي كل من الاميرين الموما اليهما الى تطبيق هذا القانون واذ كان من شأنه ان يخنق كل دعوة وطنية رومانية ثار الرومان في ٧ حزيران ١٨٤٨ فكبح جماحهم في البغدان للحال ولكن امتدت ثورتهم في جميع بلاد الفلاخ ونادوا باميرهم رئيساً لعصابات الثورة ضد روسيا

فاضطر الامير ان يجيبهم الى رغائبهم وان يوقع على امر يقضي بالغاء القانون الذي وضعته روسيا ثم غادر البلاد وبعد ذلك وقع الاتفاق بين روسيا والدولة العثمانية على ان يعين للبلاد امير كل سبع سنين يكون له حق تعيين الدواوين والعمال فاضطر الثائرون من الرومانيين ان يهاجروا من بلادهم فاخذوا يطوفون في اوربا ويقنعون رجال سياستها بمراميهم فكثر منهم انصارهم ومن جملتهم نابوليون الثالث امبراطور فرنسا اذ ذاك وكان من معاهدة باريز ١٨٥٦ ان قضت على حماية روسيا لرومانيا وكان من عهدة باريز بعد سنتين ان منعت الباب العالي من التدخل في شؤون رومانيا اي في انتخاب العمال والنظار في الدواوين وفي ذاك العهد تم للافلاق والبغدان ما تريدان من الاتحاد الوطني فانتخب لها امير واحد وهو اسكندر كوزا (١٨٥٩) وبعد سنتين اعلن هذا الامير وحدة الامارتين وان يكون لها مجلس نواب واحد مركزه في بكرش (١٨٦١) وعند ذلك بدأ دور اصلاح في البلاد واهمه الغاء الاستعباد فشق ذلك على طبقة الاشراف اصحاب الاملاك وما برحوا يدسون دسائسهم حتى اضطروا اميرهم الى التخلي عن امارته سنة ١٨٦٧ وجعل شارل هوهنزولرن ملكاً عليهم وكان من نتائج الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ ان اضاعت رومانيا اقليم بسارابيا وتخلت عنه الى روسيا لقاء اقليم دوبريجه ولكن استقلالها تم امره «١٨٧٨»

خلف البرنس شارل هوهنزولرن الامير كوزا امير الافلاق والبغدان في ١٨ ايار ١٨٦٦ عقيب تنازل هذا عن الامارة ودخل بكرش عاصمة رومانيا باحتفال جرى له مثله في جميع البلاد التي اجتازها منذ الحدود وبعد ستة اشهر ذهب الى الاستانة ليأخذ البراءة بتنصيبه على نحو ما كانت عادة السلطنة العثمانية مع امراء الفلاق والبغدان منذ القديم ولكن الامير الجديد ابدى شمماً في مقابلته لحضرة السلطان في قصر طولمه باغچه وحدثته نفسه ان ينزع عن بلاده حماية الدولة (١) وكان اول عمل له استحصال رضا الدولة باقتراض رومانيا مبلغ ثمانية عشر مليون فرنك من باريز ولكن بشرط فاحش قضى عليها به ان تدفع ١٣ في المئة رباً فدفعت في ثلاث وعشرين سنة اثنين وثلاثين مليوناً وكانت اخذتها ثمانية عشر .

وطفق الملك شارل يبذل الصبر والاناة وحسن السياسة وبعد النظر والجرأة

(١) المجلة الاسبوعية الباريزية عدد ١٦ ايار ١٩١٤
La Revue Hebdomadaire

والروية واللين ما كان به للبلاد استقلالها ثم قوتها ثم نفوذها وكم من عراك دخل غماره فاوشك ان يودي فيه هو وما ملكت يداه وقد كاد يتخلى سنة ١٨٧١ عن العرش الروماني زين له ذلك الامير بسمارك الالماني ووالده ولكن من الرجال من تنفعهم المحن وتقوي عزائمهم وتمتن اخلاقهم فلما قنط من حاله لم يبق امامه سوى الثبات الى النهاية فثبت وحلّ المجلس الذي كان يحول دون رغائبه فزال كل اشكال

ولقد كتب في مفكراته الخاصة ان الانواء العظيمة كانت تقذف بسفينتي صعوداً وهبوطاً ولكن الله حماني فلم اسلم النفس للغرق وان البحارة لتريد عن رضا الى اليوم ان تلقي بي من حالق ولكن قسماً منها يدرك بان في استطاعتي ان اقود السفينة الى مرفإ امين . فقد جعلت نصب عيني مسألتين ان اخرج من هذا المأزق واسمي طاهر لم يدنس وان لا اطمع بحال من الاحوال في ان اترك من بعدي الطوفان بدون ذمة ولا قلب .

قاتلت رومانيا في بلاقنا اي في الحرب الروسية العثمانية فظنت انها بذلك تساعدها اوربا على استقلالها بتاتاً ولكن لم يكتب لها ذلك الا سنة ١٨٧٨ على شرط تجنيس الاسرائيليين فيها بالجنسية الرومانية واصلاح بعض مواد من قانونها الاساسي وفي ٢٥ ايار ١٨٨١ نودي بشارل الاول ملكاً عَلَى رومانيا اي صار مستقلاً عن وصاية اية حكومة له ولبلاده فكان اكبر همه ان يحسن موارد بلاده الاقتصادية ويعلم امته ما يخرجها من الظلمات الى النور فنشط التعليم العام ونشر اللغة الرومانية وحرر الكنيسة من الخضوع لغيرها واعترفت لها بطريركية الفنار سنة ١٨٨٥ باستقلالها ثم انشأ الخطوط الحديدية وابتاعتها الحكومة كلها وحسن الصناعة وعني عناية خاصة بترقية الزراعة وحدد الديون العمومية قام بذلك عقيب ان بويع له بالملك وذلك في دور كثرت فيه الاضطرابات والدسائس السياسية وتعدى العمال اطوارهم ولكن نفوذ الملك قد عدل من تكالب الاحزاب فانقلب تطاحنها الى مناقشات لطيفة وتحسنت الاخلاق وتدمثت وكان الموظفون قديماً يبدلون عند كل تغيير في الحكومة فاصبحوا بعدها امناء عَلَى مراكزهم واصبح لهم استقلال وطمأنينة فكان من تثبيت اقدام الموظفين في وظائفهم والمثابرة على الاوضاع على وتيرة واحدة بانقاذها من المؤثرات السياسية اعظم واسطة لاحياء البلاد حياة طيبة باقية

ومملكة هذا حالها وعملها قام بها ملك هو جندي وله اخلاق الجند من فطرته وله جيش قوي من ورائه مالية ناجحة لا تستطيع ان تسكت على ما ناله الحلفاء البلقانيون من

المغانم وافتتحوه من الاراضي فاخذ الشعب يطلب حصته من المغنم في البلقان في حربها الاخيرة وكانت كلمة مليكهم حاجزاً دون التهور فابدت رومانيا طرفاً من التهديد فيما اذا تغيرت خريطة البلقان لان في توسع البلغار في بلادها تهديداً لرومانيا فطلبت رومانيا اقليم سلستريا من البلغار فابدت حكومتهم كبراً وعتواً وصرح رئيس مجلس بلغاريا ان امته لاترضى بالتخلي عن سلستريا فقال له ملك رومانيا لقد وقع لي في مدة حكمي اربعين سنة ان كنت اسير خلافاً للرأي العام احياناً لاني كنت ارى في ذلك مصلحة بلادي فعلى رجال السياسة ان يعرفوا في بعض الاوقات كيف يعزمون عزماً ضرورياً يخالفون فيه شعور السواد الاعظم الذي يكون على غير سداد ٠

وظلت بلغاريا على عتوها سكرى بخمار النصر الذي احرزه جنودها واضاعه سوء تدبير رجالها فلم تقبل بمقترحات الدول عليها بشأن تسليم سلستريا لرومانيا وغير ذلك من التسامح فاضطرت رومانيا لاعلان الحرب عليها يوم ٣ تموز فجندت في عشرة ايام ٤٦٧ الف جندي مما دهش له العالم وتقدم جيشها واجتاز الطونة وحط رحاله امام صوفيا عاصمة البلغار فعقد الصلح في بكرش بعد اسبوعين على صورة كان فيها الحيف على بلغاريا التي تركت من ارضها نحو ثمانية آلاف كيلو متر مربع فيها ٣٠٨ آلاف ساكن وهو نفع مادي قليل لكنه من الوجهة المعنوية كبير جداً واقل مافيه ان رومانيا احرزت لها نفوذاً على حلفائها وسلطة وسعها اعتدالها في مطالبها ٠ ويرجع الفضل في عقد الصلح بسرعة الى ملكها شارل فانه لم يقع بعد انتصاره فيما وقعت فيه بلغاريا عقيب انتصارها من الجبر والاشتطاط والطمع بل ابدى من النصفة والاعتدال وكرم الاخلاق مع المغلوبين البلغار بين ماجعله وهو شيخ ملوك البلقان حكمها الذي لا ينازع ولم تتردد اوربا ان تمنحه هذا اللقب معترفة له بجميله

ولكن الممالك كالاشخاص قد لاتتم لها سعادتها ولا تنتهي اطماعها فان رومانيا مع مااحرزته مؤخراً من المنافع وكسبته من الصيت الحميد بين الدول لاتزال تحلم بان تضم اليها الثلاثة ملايين والنصف مليون من الرومانيين الذين هم في حكم النمسا والمجر وتطالب المجر باستعادة اقليم ترانسلفانيا اليها لان الرومان فيه يؤلفون الاكثرية ونفوسه ١،٤٧٢،٠٠٠ بحسب احصاء المجر و ٢،٥٠٠،٠٠٠ بحسب احصاء الرومان وكان هذا الاقليم ضم الى المجر سنة ١٨٦٧ على الرغم من وعد الامبراطور فرنسيس يوسف بان يترك لرومانيا استقلالها قبل ذلك باربع سنين ٠ ومنذ ذاك العهد والعراك قائم بين

الرومان المستعبدين و بين حكومة المجر فان هذه الحكومة تحاول بقوة عمالها ان « تمجرهم » اي تجعلهم مجراً بلسانهم ومدنيتهم وهم يأبون الا البقاء على لغتهم ومناحيهم . فلا تستطيع رومانيا رسمياً ان تنشط رومان المجر ولكنها بصورة غير رسمية تكتب جرائدها وتعمل جمعياتها اعمالاً من شأنها الوصول بابناء لسانهم المنفصلين عنهم الى ضمهم اليهم او استقلالهم عن هنغاريا . فرومانيا ترمي سراً الى انشاء مملكة رومانية يدخل تحت لوائها كل من يتكلم بلغتها وهذا من خيالاتها التي يحملها عليها شعبها والسياسة تحول دونه باسداد

ومع هذا فان مملكة رومانيا قد ختمت بسنة ١٩١٣ احدى الفصول المملوءة بتاريخها فوسعت ارضها بدون اهراق دماء ووضعت اوزار حرب يمكن ان يحدث من طولها لاوربا عواقب سيئة وكانت بحكمتها وصبرها واعتدالها حكماً بين البلقانيين فالبلقان مدينة لها بالسلام واوربا براحتها . نعم ان صحيفتها حسنة واجمل منها ان تكتب بدون ترميج ولا حذف ويحق لعاهلها الشيخ ان يفاخر فخراً مازجه الاعتدال بنجاح سياسته في بلاطي فينا و برلين

نكتب هذا وقد زار هذا الربيع عشرات من تلامذة دار الفنون اي جامعة الاستانة مدينة بكرش وتعرفوا الى طلبة كليتها وزار هؤلاء ايضاً الاستانة وتعرفوا بطلبتها والحكومتان العثمانية والرومانية تتقاربان وتتعاطفان

عنوان المجد

في تاريخ بغداد والبصرة ونجد

تنافس فطاحل المؤرخين في الكتابة عن بغداد وتاريخها واقسامها ودورها وقصورها ورجالها وفلاسفتها ومدارسها ومعاهدها وذلك لبعد شهرة هذه المدينة الطيبة التي ظلت خمسة قرون مهد الحضارة ومهبط المدنية وكعبة العلم والعرفان ومقر الدولة الاسلامية فبلغ عدد من الفوا في هذا الموضوع المئات والالوف الا انه لم يبق من تصانيفهم غير قسم قليل في دور الكتب العراقية فان اكثرها ذهب ضياعاً واكل عليها الدهر وشرب فمنها ماصار طعمة للنار او القي في الانهار ومنها ما اقتنته الافرنج بوسائل شتى فازدانت بها معاهدهم ومكتباتهم . ولقد رأينا كثيراً من علماء المشرقيات يطوفون هذه الديار قادمين اليها من القاصية للبحث والتنقيب عن آثار الحضارة العربية والاطلاع على مافي دور الكتب من نفائس الكتب ونوادر المخطوطات باذلين في سبيل غايتهم اللجين والنضار . فالنسخة النادرة التي عسر على المستشرق ابتياعها او استنساخها عمد الى اخذ تصويرها الشمسي مهما كلفه ذلك تعباً ونصباً كذلك رأيناهم يعملون في بعض الاعلاق النفيسة التي ضمتها جدران خزائن كتبنا واهملنا العناية بها والانتفاع منها . وهكذا دأب الغربيون في سلب ذخائرنا وكنوزنا وآثارنا للوقوف على سر مدنية بلادنا القديمة فاصبحنا ونحن عالة على المغاربة حتى في الكتابة عن تاريخ بلادنا وحضارتها وعمرانها ورجالها وملوكها

ومن الكتب التي اسهب مؤلفوها في تاريخ بغداد واجادوا في وصف ما كانت عليه من الجلالة والعمارة في الدولة العباسية كتاب « تاريخ بغداد » تأليف الحافظ ابي بكر احمد بن علي بن ثابت البغدادي المعروف بالخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ — ١٠٧٠ م وهو كتاب ضخم في اربعة عشر مجلداً اسهب مؤلفه في تراجم علماء الزوراء وادبائها ومن ورد اليها من الرجال العظام وقد ضم اليه فرائد وخرائد يضيق بنا المقام عن سردها وتبيانها . ومنه الآن نسخة كاملة في خزانة السيد عبد الرحمن افندي نقيب اشراف

بغداد . وخزانةهذا الزعيم من اغنى خزائن الكتب في هذا القطر ففيها نحو خمسة آلاف مجلد نصفها او اكثر من النصف مخطوط وغير مطبوع وكل مافيها نفيس نادر ناهيك انه توارثها عن اسلافه القدماء منذ نحو اكثر من قرنين ونصف قرن . ويقال انه يوجد من هذا التاريخ الكبير نسخة تامة في كل من المتحف البريطاني بلندن والمكتبة الاهلية في باريس . وهناك اجزاء متفرقة مبعثرة توجد اليوم في مكتبة برلين ومكاتب الاستانة العمومية وفي المكتبة الخديوية وبعض خزائن اعيان العراق . وهذا السفر النافع فريد في ابحاثه وحيد في تبويبه وترتيبه . ولم يقصره المؤلف على الشؤون التاريخية وسرد الوقائع والاخبار بل ملأه بكل شاردة وواردة تتعلق بالتاريخ والجغرافيا والتراجم والآثار فهو سفر تاريخي جغرافي اثري يغنيك عن البيان ان مؤلفه ذلك الحبر العلامة الذي طبقت شهرته الخافقين . وقد لخص هذا الكتاب الضخم احد علماء القرن الخامس مسعود بن محمد البخاري بعد ان زاد عليه شيئاً كثيراً من الحوادث والاخبار التي عرفها بنفسه واعتمد فيها على امهات الكتب التاريخية

وهناك عدد كبير من مؤلفات المتقدمين في احوال بغداد عروس البلاد الشرقية كتاريخ بغداد لاحمد بن طيفور البغدادي وهو اقدم تاريخ لدار السلام وكتاب «البيان» تأليف احمد بن محمد بن خالد البرقي الكاتب الكبير وهو حافل بمحاسن دار السلام وذكر اطلالها ودوارسها . وهذا مايدل على مبلغ عناية المتقدمين باحوال هذه العاصمة الكبرى ولو اردنا ان نستقصي كل ماألف في هذا الموضوع لاحتجنا الى مجلد ضخم . ولما دخلت عصور الحروب والكروب والفتن والمصائب اشتغل الناس بحالة البلاد السياسية عن التأليف ومزاولة العلوم حتى قل من كتب عن بغداد في القرن الثامن والتاسع والعاشر او سعى الى تدوين ماتعاقب عليها من الادوار التاريخية . ولولا عناية بعض الأسر الكريمة كأسرة الالوسي والسويدي والحيدري بتاريخ البلاد واحتفاظها بما عثرت عليه من الآثار القديمة ونبوغ ابنائها واشتغالهم بالتأليف والتصنيف لبقي ذكر هذه المدينة خاملاً ولتنوسي تاريخها واضمحلت آثارها وفقدت مكانتها

وقد اشتهر في القرنين الاخيرين جمهور من كبار العلماء المدققين الذين عاهدوا الله على خدمة الامة والدين والوطن بعقولهم ومواهبهم وهم الذين اوجدوا هذه الحركة العلمية المباركة واحيوا ميت الآمال وبعثوا في النفوس الخاملة عوامل السعي والعمل فقام من بينهم المؤلف الفاضل والفيلسوف الكامل والفقيه المحدث والمفسر الكبير

والمتشرع الخطير والكاتب النحرير وكل منهم سار في الطريق التي اختارها لنفسه وحصر اوقاته في اتقان العلم الذي رغب فيه فغصت بتلامذتهم اندية العلم والمدارس وازدهت بهم دار السلام فعاد الى البلاد رونقها وبهاؤها وكان من جملة المصنفين في تاريخ « بغداد » ثلاثة اعلام ١ً السيد ابراهيم فصيح بن صبغة الله الحيدري البغدادي صاحب تاريخ « عنوان المجد في تاريخ بغداد والبصرة ونجد » ويوجد منه الآن اربع نسخ خطية الاولى بخط المؤلف وهي موجودة في المكتبة الخالدية — نسبة الى الشيخ خالد النقشبندي — والثانية في خزانة العلامة السيد محمود شكري الالوسي والثالثة في مكتبة دير مبعث الكرمليين · والرابعة هي النسخة التي بايدينا ونريد ان نتكلم عنها الآن ٢ً الشيخ عبد الرحمن زين الدين بن الشيخ عبدالله السويدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ — ١٧٧٦ م مؤلف كتاب « حديقة الزوراء » وهو تاريخ جليل في ثلاث مجلدات ضخام يدور مافيها حول ماوقع في العراق من وقائع العصور المتأخرة في زمن ندر فيه المؤلفون والكاتبون والمدونون للوقائع التاريخية · ولولا هذا المصنف الجليل لضاع تاريخ هذا القطر الحديث · ولا توجد منه الا نسخة في خزانة السيد عبد الرحمن النقيب ٣ً هو وحيد عصره السيد محمود شكري الالوسي صاحب كتاب « بلوغ الارب في احوال العرب » الذي أُعجب به علماء الفرنجة ايما اعجاب واحرز قصب السبق على سائر المؤلفات في هذا المضمار · وللعلامة المشار اليه تاريخ مفيد عن بغداد دعاه كتاب « اخبار بغداد وما جاورها من القرى والبلاد » جاء في اربعة مجلدات بحث فيه بحث العالم المدقق والمؤرخ المحقق عن تاريخ دار السلام ومدن العراق وما كان لها من القصور الشاهقة والابنية السامية واشبع الكلام على تراجم ادباء الزوراء واكابر اعيانها وزهادها ومدارسها ومعابدها

وكتاب « عنوان المجد في تاريخ بغداد والبصرة ونجد » من الكتب النفيسة النادرة التي قل من نسج على منوالها ، والمؤلف معروف لدى علماء العراق بسعة الاطلاع وطول الباع في المسائل التاريخية · وهو ينتمي الى اسرة شريفة المحتد عريقة في النسب هي « اسرة الحيدرية » ويتصل نسب جده الاعلى بموسى الكاظم ، والى هذه الأسرة تنسب الدولة الصفوية في فارس ، لان جد الحيدرية احمد الاعرابي كان من بادية الحجاز فتحضر في « المدينة » وهاجر بعض من سلالته الى العراق وهم الذين نشأ منهم المؤلف المشار اليه والبعض الآخر الى بلاد ما وراء النهر ومنهم نشأت الدولة الصفوية

واتصال هذه الدولة بالحيدرية يرتقي الى الشيخ صدر الدين ابن القطب الشيخ صفي الدين ابي الفتح اسحق وكان الصفويون على مذهب اجدادهم مذهب السنة والجماعة ثم تشيعوا لغايات سياسية اقتضتها حالة عصرهم ، والشاه اسماعيل اول من حاد عن مذهب اسلافه فانه انتحل المذهب الجعفري ظناً منه انه بذلك يقهر عـدوه السني السلطان سليم خان ، وكان السلطان حسن الايلخاني المعروف في كتب الاتراك التاريخية بـ « ازون حسن » حسن الطويل الذي ملك بغداد وآمد « ديار بكر » وخراسان ونواحيها فرعاً من هذه الشجرة الطيبة .

وكان الشيخ ابراهيم فصيح الحيدري من مشاهير هذه العائلة واكابر اعيان بغداد على عهده وتصدر في المدارس لتدريس علوم الدين وكان مبرزاً في الفقه والتفسير والتاريخ والمنطق توفي سنة ١٢٩٩هـ–١٨٨١م ولم نعثر على سنة ولادته . وله مؤلفات عديدة وكتابه عنوان المجد من اجلها قدراً وابعدها شهرة ، والنسخة التي امامنا قـد بلغت صفحاتها ٤٧٨ كتب في كل صفحة ٢٠ سطراً والسطر مؤلف من تسع كلمات وقد الف كتابه هذا في البصرة الفيحاء قال بعد البسملة والصلاة على رسول الله :

« يقول العبد الفقـير المحتاج الى عفو ربه السيد ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الله الحيدري البغدادي اني قبل هذا سافرت من بلدي مدينة دار السلام الى دار الخلافة « القسطنطينية » حماها من كل سوء رب البرية ومنها الى مصر والحجاز وعدت اليها ثانياً لاستوفي الوقوف على بدائعها بالحقيقة لا بالمجاز ثم خرجت منها الى الديار السورية وبعض البلاد الاناضولية فاطلعت على تلك البلاد ، واحوال العباد ، ثم رجعت الى بلدي مدينة السلام ، ذات الثغر البسام ومكثت فيها بين اهلي واحبابي غير قليل من الاعوام حتى رمتني الاقدار بسهام النيابة الى البصرة المسماة بخزانة العرب وقبة الاسلام فلما وردتها ورأيت ما فيها من عجائب الانهار وغرائب النخيل والاشجار . الممتنعة الحد والحصر ، مع ما فيها من المد والجزر في اليوم مرتين . بحيث تمتلئ الانهار والسواقي وكل عين . وقد آلت الى الخراب فلم يبق منها الا الاسم واندرست آثارها فلم يبق الا الرسم احببت ان اؤلف كتاباً في بيان انهارها ونخيلها واشجارها وبيان بيوتاتها القديمة . من ذوي الثروة العظيمة مع بيان احوال بغداد وان كنت قبل هذا قد الفت في دار الخلافة كتاب « احسن السلام في دار السلام » الا اني اردت ان اجمع احوال البلدتين في هذا الكتاب واحوال اراضي نجد وقبائله وما يليه من البلاد مع تصدير الكتاب ببعض ما

ذكره الحكماء في سياسة الملوك فشرعت في ذلك ورتبته على مقدمة وثلاثة مسالك وخاتمة . . . » وقد تكلم في المقدمة عن سياسة الملوك والسلاطين في رعاياهم وذكر الاحاديث النبوية والآيات الشريفة المنزلة في تدبير الملك وسياسة البلاد والعباد فافاض في هذا الباب احسن افاضة واليك بعض ما قاله :

« . . . العدل من اعظم الاركان التي بها قوام السلطنة والملك ودوام الدولة فانه ميزان الله تعالى في الارض الذي يأخذ به للضعيف من القوي والحق من الباطل قال الله تعالى ان الله يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر يعظكم لعلكم تذكرون . وقد شبهوا الملك بالرجل واعتبروا السلطان رأسه ، والوزير قلبه ، والاعوان يديه ، والرعية رجليه ، والعدل روحه ، وهو موجب لاجتماع الرعية على محبته المفضي الى استقامة امره ونظام ملكه واذا عدل السلطان قرب منه وصلح له وعدة السلطان ثلاثة امور مشاورة النصحاء وثبات الاعوان ، وترويج سوق العدل ، ثم العدل ينقسم الى قسمين قسم الهي جاءت به الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى وهو الشرائع وقسم يشبه العدل وهو السياسة الاصطلاحية ويستحيل ان يدوم بقاء السلطان او تستقل رعية في حالة ايمان او كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للامور ثابت ووافقت حكماء العرب وغيرهم على هذه الكلمات فقالوا : الملك بناء والجند اساسه فاذا قوي الاساس دام البناء فلا سلطان بلا جند ولا جند بلا مال ولا مال الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل فصار العدل اساساً لسائر الاساسات . . . » ثم اشبع الكلام عن الفقهاء والفضلاء والتجار والرعية والخراج ومصالح الدولة ودواوينها مما دل على سعة خبرة وغزارة فضل وبعد غور في الشؤون الاجتماعية ثم اسهب في فضل العلم وحملته وحث الناس على تلقنه وتكلم باختصار عن الكيمياء والهندسة والحساب والجبر والسيمياء والنجوم والموسيقى والفلسفة الى غير ذلك من الابحاث الشائقة الرائقة .

وكتب في المسلك « الفصل » الاول عن فضائل بغداد وبنائها وبانيها وبيان سواد العراق وخراجه وعشره وانهار الزوراء وجسورها وعمائرها واكابرها المعاصرين له وغير ذلك مما يتعلق باحوال بغداد . ومما افاض في ذكره ويعد من جملة حسنات كتابه الكلام على بيوتات بغداد فلقد اجاد في هذا البحث وافاد التاريخ فائدة كبرى فدون اسماء البيوتات القديمة وذكر رجالها ومشاهيرها وتراجمهم وانسابهم وهو بحث جميل قل من تطرق اليه من المصنفين القدماء . ومن فصول هذا الكتاب الممتعة كلامه على

170

عشائر العراق ومشايخها وامرائها ومنازلها وانسابها القديمة ومذاهبها وعدد رجالها وعقب بعد ذلك الكلام على ذكر البيوتات البدوية الرفيعة ثم عقد فصلاً في تراجم العلماء والفضلاء ومشاهير حملة العلم في عصره ومصره وذكر فيه ترجمة جمهور عظيم من اكابر الفضلاء الذين برزوا في صنوف العلوم والفنون ، ومن حسنات هذا الكتاب الكلام في انهار بغداد القديمة والحديثة مع تعيين مواقعها ومصادرها ومصابها ، وبعد ذلك تكلم عن البصرة وبيوتاتها وعلمائها وانهارها والمد والجزر فيها واليك ما قاله عن بساتين البصرة :

«.. والبساتين الموجودة في البصرة ونواحيها ذات النخيل والاشجار والانهار حدها من القرنة الى رأس البحر المسمى بالفاو ويبلغ مقدارها ثلاثين ساعة بسير الفارس واما الماشي فالمسافة بالنسبة اليه اكثر والفرج بين ذلك الخالية عن النخيل يسيرة وهي من البصرة الى الدواسر ومن القرنة الى الكوت الفرنجي ولكنها بالنسبة الى المتصلة لا تعد ولا تعتبر والبساتين الباقية كلها متصلة بعضها ببعض مقدار عشرين ساعة طولاً على طرفي شط العرب واما عرضاً ففي الجنوب يبلغ اكثر من ثلاث ساعات وهي ذات نخيل واشجار وفواكه لا تعد ولا تحد وحد البساتين شرقاً من كتيبان الى سبع القصبات وجنوباً الى الفاو وشمالاً الى العذيري . » ثم افاض في الكلام عن التجار في البصرة والعلماء والبيوتات القديمة هناك

ومما قاله عن انهار البصرة قوله « الباب الثالث في بيان انهار البصرة الموجودة في هذا العصر الكبار المحصورة والصغار التي لا يحصيها عد ويجري فيها الماء من شط يقال له شط العرب وهو مجتمع دجلة والفرات ويحصل لهذا الشط ولجميع الانهار المد والجزر في اليوم والليلة مرتين مرة في الليل واخرى في النهار وتختلف ساعات المد تقديماً وتأخيراً والانهار الكبار لم تزل مملوءة من الماء الا العشار فانه يخلو من الماء حالة الجزر واما الصغار فهي خالية اثناء الجزر فاذا حصل المد امتلأت الصغار وازدادت الكبار التي تجري فيها السفن وجميع الانهار الكبيرة خارجة من شط العرب وبعض الكبار من الصغار فاول الانهار الكبيرة ابتداء من البصرة نهر العشار المشهور الداخل الى البصرة وهو نهر عظيم تجري فيه المراكب والسفن وحوله بساتين كبيرة وبيوت عامرة ..» وقد عد انهراً كثيرة من الانهر التي تمخر فيها السفن ، وقال ان الانهر الصغيرة كثيرة لا يمكن حصرها ، وانتقل بعد ذلك الى الكلام عن الخراج والاعشار والغرائب في عصره

وتكلم بعد ذلك عن المحمرة وعبادان والاهواز وما في هذه الديار من الانهار والاراضي والقبائل ، وجعل الكلام على نجد آخر فصول الكتاب فكتب عن قبائل نجد واشرافها وعلمائها ومذهبها شيئاً فيه الغث والسمين الا ان التحقيق يغلب على اكثر ابحاثه ، وقد قرظ اعمال النجديين واثنى عليهم وعلى النهضة التي قام بها زعماؤهم وامراؤهم واتى في هذا الفصل على ترجمة صاحب الدعوة الوهابية والقائمين بترويجها وتراجم مشاهير الحنابلة وعلماء نجد الذين تصدروا للقضاء والافتاء ومكاتباتهم الى الملوك والامراء المعاصرين لهم ومؤلفات نوابغهم ثم استطرد من هذا البحث الى ذكر الحجاز وتهامة والبحرين والقطيف وما فيها من العجائب والغرائب ووصفها وتمثيلها احسن تمثيل ، وتطرق ايضاً الى البحث عن احوال البلاد العربية الكائنة على ضفاف الخليج الفارسي كمسقط وعمان واماراتها وامرائها وقبائلها ثم ارصد فصلاً ممتعاً في ابعاد الاماكن التي ورد ذكرها في كتابه . ومن حسنات كتابه انه عقد فصلاً في انساب الامراء مع بيان احوالهم واطوارهم ورسوم حكوماتهم ، وعقد فصلاً آخر في تراجم مشاهير علماء المذهب الحنفي والمالكي ومشاهير الحنابلة على عهده

واما الخاتمة فهي تشتمل على مباحث شتى منها « العلم في بلاد العرب » وانواع خراجها ومقاييس مكاييلها وجباية الاموال الاميرية ومعاملاتهم واقطاع البلاد الى غير ذلك مما يطول ذكره والخلاصة ان هذا الكتاب من اجل كتب التاريخ التي تصور لنا حالة العراق وبلاد العرب الزراعية والصناعية والتجارية تصويراً حسناً وما يحتاج اليه المؤلف والمؤرخ والكاتب والاديب ، فانه مما لا يستغني عنه العام والخاص نفعنا الله بعلم مؤلفه واكثر بين ابناء الامة العربية من امثاله المحققين المدققين

بغداد : ابراهيم حلمي العمر

171

في ديار الغرب

سويسرا : الوطنية والجيش

قالت العرب احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من اراد السلم فليكن ابداً على استعداد للحرب . وهاتان القاعدتان جرت عليهما سويسرا فمن يظن ان هذه الامة التي تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تتمرن ليلها ونهارها على الاعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند اول صرخة ان تجهز ١٨٠ الفاً من الجند الذين يحسنون الرماية كأحسن اهلها ويعلمون عما يدافعون ويأتون الى اي مكان من حدودهم في سرعة البخار ثم يستطيعون ان يجهزوا ١٤٠ الفاً من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد في الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لا شائبة فيها كاعمالهم .

قسم السويسريون الخدمة العسكرية الى عدة ادوار حتى لا تثقل عليهم وينقطعوا بتاتاً عن اعمالهم وبيوتهم ويخففوا عن امتهم نفقة اطعامهم وايوائهم فبدلاً من ان يقضي الشاب السويسري سنتين او ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الامم لا يبقون في الخدمة الا اشهراً معدودة في السنة الاولى ولكن المرء يبقى جندياً من العشرين الى الاربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم في مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الاربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها في بيته وحقله ولا يستعملها الا لهذا الغرض . والولد منذ المدرسة الابتدائية الى المدرسة العليا الى الكلية يتعلم التعليم العسكري وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون احياناً للتحقيق عن امره والاشراف على رمايته وفحص سلاحه الذي تعطيه اياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب باشد العقوبات وهيهات ان تجد مخالفاً .

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها اسباب النزاع لان قلة عددها بين امم كبرى لا يجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسري للطوارئ وتمرينه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست الى عداء وحب

فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا كل سنة تعطي منحة لمكتب السلام في برن ولكنها باليد الاخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ماتقدر عليه من القوة وتزيد في ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد ان تعمد الى الطرق العملية كسائر اعمالها في فروع الحياة لان ارضها لاتحمى الا اذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التي تداس بالارجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغانم

سويسرا لاتريد ان تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف في الاغلب ان تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر في الاكثر من الشمال تخاف عادية المانيا وان تضمها هذه ذات يوم بالقوة الى ارضها كما فعلت بمقاطعة شلشويق هولستاين وهانوفر وهيس وفرنكفورت والالزاس واللورين واخوف ماتخاف من عادية ايطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعَلَى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسمبلون . فان كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لانهم يحبونها حباً يمازج اجزاء نفوسهم ولا شيء احسن واضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه .

قال احدهم : ان سويسرا ليست من البلاد التي تبقى لضرورة في بقائها كانكلترا واسبانيا بل انها لم تبق الا لان السويسريين يريدون بقاءها . نعم ان الارادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع القوى فان سويسرا لم تتألف عرضاً او لارادة المتعاقدين المتحدين من ابنائها بل انها اجتمعت لاتفاقها في العواطف والروح وبما لها من التقاليد المتماثلة والماضي والمجد الذي يتجسم كل حين باسم « غليوم تل » بطلها القديم

وغليوم تل هو احد رجال الثورة الذين انقذوا سويسرا من ربقة النمسا سنة ١٣٠٧م وذلك ان عامل الامبراطور النمساوي كان علق قبعة الدوج على رأس خشبة في الساحة العامة في التورف واراد ان يذل السويسريين بان يسلموا على القبعة كلما مروا بها فابى ان يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه الوالي النمساوي ولما عرف انه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء ابائه ان يضرب سهماً على تفاحة وضعها الوالي على رأس ابن غليوم تل فلم يسع هذا الا ان القى سهمه فاصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما سأله الوالي لماذا اعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها

نادى بالثارات سويسرا وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين في اوقات مخائفة كان يكتب فيها النصر للسويسريين لانهم مدافعون لامهاجمون .

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم في بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدي في ايطاليا احيا امته بشجاعته ومن اجل هذا التاريخ المعنعن بالواقع لا ترى السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الالمانية وهم الاكثرية او الافرنسية او الايطالية او الرومانشية تحدثهم نفوسهم ان ينضموا الى ابناء جنسهم بل انك ترى السويسري وابناءه واحفاده واحفاد احفاده تغربوا في ايطاليا والمانيا والنمسا وفرنسا قرناً واكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم وقد عرض مرة على احد علمائهم « ادوار وود » وكان باريزياً في موطنه فقط وسويسرياً بجنسيته ان يتجنس بالجنسية الفرنسوية لينتخب عضواً في المجمع العلمي مجمع الاربعين المخلدين فقال والسذاجة طافحة من كلامه : انني احب فرنسا واسكن باريز ولكنني سويسري مات والدي ووالدتي في سويسرا وانا لا اكون في المجمع العلمي .. هذه هي الوطنية السويسرية متأصلة في شغاف القلوب ولكنها ساذجة لا تتعمد الصياح ولا التظاهر ولا تجد داعياً للتبجح بها كل حين .

وطنية السويسريين في صدورهم مكتومة لها اعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكرهم الساعة بعد الساعة بما بذل اجدادهم من اهراق دمائهم في دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم ان يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر . دع ما ينشره علماؤهم وادباؤهم من المصنفات الممتعة التي كلها ترمي الى تحبيب وطنهم اليهم وتلقن ابناءهم منذ نعومة اظفارهم التعليم الوطني في المدارس وتلامذة مدارسهم يتغنون في كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسية الوطنية التي نظمها الشاعر السويسري جوست اوليفيه ويتلون الفقرة بعد الفقرة ما وصف الشاعر الكاتب اوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها واوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بارضهم .

السويسريون لا يقنعون ان يحبوا بلادهم حباً مجرداً بل يزورونها بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفاً وشتاء ٢٢ في المئة من مجموع السياح القادمين الى سويسرا ينتقلون في جبالها واوديتها وترى العامي منهم اذا اجتاز ارضاً لم يعرفها بعد يقف في القطار مأخوذاً بما يمر به من الاصقاع بحيث لا يفوته منها جميل واذا ذهبت الى القرى اتاك بعض اهلها بدون طلب منك وحدثوك عما تجب زيارته من المحال البديعة في جوارهم . فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم العجب وربما كانوا اكثر الامم

المجاورة في طربهم بما خصت به جبال الالب من المحاسن التي تخلب الالباب ·

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل انهم في مقدمة الرماة في اوربا لان بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها الا مناوشة وكميناً فتري في كل قرية جمعية للرمي وتقام له الاعياد · وكل سويسري في سن العسكرية فلاحاً كان او ساكن المدينة يصرف مع رفقته يوم الاحد ساعات طويلة في التدرب على الرماية وفي كل بيت بندقية او عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن انفسهم وبلادهم كأنهم لايزالون في عهد الاقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه واسرته ولكن هذا شأن الامة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلميه التي لم تكن في القرون الوسطى ·

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربي واكثره عملي في الغالب وهم في الاكثر من ابناء الفلاحين يعاشرون الافراد ويواكلونهم وطعام الجنود من احسن مايعهد لهم مطابخ تنتقل معهم في المناورات فتراهم في كل وقت يتناولون الطعام الصحي الفاخر الذي لايوجد الا في المدن وفي حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيماً في المشاة وفرنكاً في الفرسان وهو احسن راتب يقبضه جندي في جميع امم اوربا لان هذه عجزت عن اطعامهم والباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع ادرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن اهله من الجند الا من دخل في جيش الفرسان فالسويسري سعيد في كل حال من احواله مرتب في حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض في عامة اعماله ولذلك لاتراه يشكو شيئاً على نحو مايشكو ابن البلاد الراقية الاخرى الذي يرزح تحت اثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته ·

قال لي كثيرون نحن سعداء في بلادنا فكنت اقول لهم بارك الله بسعادتكم التي احرزتموها بجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ماانتم فيه انه كريم جواد

سويسرا : المذاهب والقوميات واللغات

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التي تدل على روح شعب وقد كان لهما في الارض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة حرية الغير مشاكل في الماضي ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الاصغر ثم امتزج اهل كل دين واهل كل لسان امتزاجاً في البلاد فلم ينشأ في سويسرا مشاكل تذكر كما نشأ في بعض البلاد التي تنازعتها البرتستانتية والكاثوليكية

او الارثوذكسية والاسرائيلية او مذهب اهل السنة والشيعة في الاسلام ·

المذهبان السائدان في سويسرا هما البرتستانتية والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من ابناء البلاد اخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسمياً واجبارياً وتدعو اليه في ارضها وتحتم على الاهلين حضور الصلاة به وان كان لا ينحل هذا المذهب · وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتي ثم اخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانت اكثر عدداً من الكاثوليك بقليل ·

قال دوزا : اذا كان الدين يؤثر احياناً اثراً ظاهراً في روح امة فان الشعب يكيف الدين على صورته مع توالي الايام والامر الثاني ظاهر في سويسرا وان لم تكن تخلو من الاول ولا جدال بان المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها اكثر انحطاطاً من المقاطعات البرتستانتية والانحاء الاقل نظافة هي كاثوليكية ايضاً والمقاطعات الكاثوليكية هي التي احتفظت بالاكثر بلهجاتها وان فكر حرية البحث الذي دعت اليه البرتستانتية قد اثمر واينع فان التعليم العام في البلاد البرتستانتية اكثر انتشاراً مما هو في غيرها وافكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتي قلما يعنون بالسياسة · وليست هذه الفروق مهمة فان تأثير عقل الامة في المذهبين هو اشد ظهوراً ·

السويسري متدين حق التدين ولكن دينه في قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر ولذلك ناسبت البرتستانتية مزاجه وللقيام بالفروض الدينية منزلة من حياة السويسري المنظمة كما للاعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الاحد الى الكنيسة كما يذهب في المساء الى القهوة بكل رزانة وتماسك او كما يذهب الى عمله خلال ايام الاسبوع · والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسماع القداديس او المواعظ وربما كان النساء اكثر عدداً في الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تغص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ ·

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتي في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك اهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم اساقفة ورؤساء عظام بل ان كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطاً خفيفاً لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في اوربا واميركا وآسيا

وافريقية مثلاً فالسويسريون غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى ان رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباساً يخالف البسة غيرهم في الامم الاخرى . وترى الكل متشابهين متقاربين مما يذكران سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وان وقع لها في القرن التاسع عشر ان نشبت فيها حرب دينية من اجل القانون الذي وافقت عليه الاكثرية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في اوربا حرب دينية في ذاك القرن ومع ذلك تجد جنيف ببرتستانيتها وفريبورغ كذلك في تمسكها بكثلكتها كأنهما رومية بكاثوليكيتها ولم تمض عَلَى هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى اصبحت سويسرا اكثر بلاد اوربا تعلقاً بحرية الوجدان والعبادة عَلَى صورة منظمة حرة لا مثيل لها .

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة ادارة من ادارات الحكومة هذا مع ان الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الاديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركي الذي تنظر فيه السلطة التشريعية وتقرّ عليه او تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسري من مثل حرية الوجدان وحرية التدين وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستانتاً كانوا ام كاثوليكاً تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من اهل هذا المذهب . وللحكومة حق التدخل في مسائل العبادة والطقوس واذا ارادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الامة . وتدخل الكنيسة البرتستانتية في اعمال الحكومة غير محسوس في سويسرا الالمانية البرتستانتية مثل ماهو في سويسرا الكاثوليكية الفرنسوية وغيرها

وبعد حرب سوندربوند اتهم اليسوعيون بانهم اوقدوا الفتنة الدينية في البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول الى سويسرا بيد انهم دخلوا في الحقيقة الى فريبورغ بعد عشر سنين . ومدرسة اللاهوت في هذه المدينة يديرها الدومنيكيون في الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين في الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعي دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكثلكة السويسرية يعلمون ويعظون . ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فاذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانتيتان

هذا اجمال ما يقال في المذاهب في هذه البلاد اما القوميات او الجنسيات او العناصر المتألفة منها فان نصف سويسرا روماني او لاتيني والنصف الآخر جرماني وربما كان العراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر في اوربا منذ اوائل القرون الوسطى واختلط العنصر اللاتيني بالجرماني وعلى العكس اختلاطاً كبيراً ومن السويسريين الفرنسويين من تألمنوا اي اصبحوا المانا بلسانهم على طول الزمن ومن الالمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون اي الفرنسيس والطليان والرومانش في سويسرا مليوناً ومائتي الف وبقية الاربعة ملايين هم المان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة في استعمال السنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الالمان اكثر توسعاً في البلاد وهم الرابحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى اصبح اللسان الفرنساوي خاصاً بغرب البلاد والرومانشي بشرقها والايطالي بجنوبها والالماني بشمالها ويقدرون عدد الالمان المهاجرين الى المقاطعات الفرنساوية بمئة الف وعدد الفرنسيس المهاجرين الى المقاطعات الالمانية بخمسين الفاً .

ولم تعترف الحكومة رسمياً بلغة الرومانش كما اعتبرت الالمانية والافرنسية والايطالية وكتبت معظم الاوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لان المتكلمين بها قلائل ولانها اشبه بلهجة خاصة لا ادبيات لها واهلها يتزوجون بالالمان ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم . وربما كان الرومانشيون مثال مملكة اضاعت لغتها على التدريج بدون ان تضيع استقلالها اضاعت لغتها واندمجت في غيرها على خلاف الطليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء ٢٣٠ الفاً فانهم احتفظوا بعنصريتهم لانهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لان لها آداباً خلافاً للرومانشية

ومسألة الالسن غريبة في سويسرا لا تؤثر في الامور الادارية لان حقوق الاقلية مصونه كحقوق الاكثرية . ومن اعجب الامور ان اللسان في سويسرا وان كان من مواد الوطنية المحلية فليس شارة من شارات الوطنية الجامعة . واختلاف الالسن ليس من العوائق في ادماج السويسريين في قالب الاخلاق المتحدة وليس في اللسان ادنى مادة من مواد الانفصال فالسويسري الفرنساوي في مقاطعتي القوونوشاتل لا يريد ان يصبح فرنسوياً بتابعيته وكذلك السويسري الايطالي لا يحب بوجه من الوجوه ان ينضم الى ايطاليا ومثله الماني مقاطعات شافوز وتوركوفي وسان غال لا يريد ان ينضم الى المانيا

ولولا احوال نادرة لصح ان يقال ان سويسرا في جميع ادوار التاريخ قد نالت اعظم الحرية في استعمال اللغات في جميع الاعمال الخاصة والعامة اما اليوم فان الحرية موجودة مبدئياً ولكن احترام حقوق الاكثرية والاقلية على اسلوب معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر في مسائل اللغات المحلية وانتشارها وتدافع عن حقوق الاكثرية ولا تغمط حقوق الاقلية في كل بلد يسبق غيره في عدد المتكلمين بلغة دون اخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للافهام والتفهيم اما اليوم فانه يراعى بما يكتب حق السواد الاعظم

اللغة الرسمية في كل ناحية هي لغة اكثرية السكان وبهذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والاعمال الادارية التي تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب اسماء الشوارع والمصانع ويدرس في المدارس ويلقى الوعظ او القداس في الكنائس ومن النواحي من اختارت برضاها التساهل مع اهل اللغة الاخرى في بعض هذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة الافرنسية تجعل لسان التدريس في مدرستها او ان سكان مقاطعة رومانشية يقدس لهم بالالمانية . وللمنتخبين في المقاطعات المختلطة ان يتكلموا باحدى اللغتين كما يشاؤن في جميع المداولات وتكتب الاعلانات وغيرها باللغتين واذا بلغت الاقلية العدد الكافي تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها . وفي الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم . وما يسري على الناحية يسري على المديرية حذو القذة بالقذة اي تكون اللغة الرسمية لغة الاكثرية والاقلية لاتحرم من حق التفاهم

ويطلب الى الموظفين في جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الاعلانات واسماء الاماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين في المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون في كل مقاطعة بلغة البلاد في مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلثون اذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث الا الايطالية فانها تنقص من بعض القطارات التي تمر قليلاً في البلاد الايطالية السويسرية وللغتين الالمانية والافرنسية المساواة التامة تكتب جميع اسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة

وفي سويسرا سبع كليات منها مايدرس بالالمانية ومنها بالافرنسية وفي بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التي انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالالمانية وكذلك كلية

زوريخ التي انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التي انشئت سنة ١٨٣٤ اما كلية جنيف التي اسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنة ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التي تمت سنة ١٩٠٩ وكلية فريبورغ التي قامت سنة ١٨٨٩ فانها تدرس بالافرنسية وفي كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين

اعضاء مجلس الاتحاد السويسري سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم المان واثنان فرنسويان وقراراتهم تكتب باللغتين وفي سويسرا ثمانية فيالق اثنان فرنسويان وخمسة المان وواحد ايطالي وورومانشي ولغة التعليم في الفيلق الاخير الالمانية والادارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لارضاء قرائها من ذلك ان نقابة اصحاب الفنادق في سويسرا الالمانية لم ترض ان تغير اسماء قوائم الطعام من الافرنسية الى الالمانية لان معظم الداخلين الى البلاد يفهمون الافرنسية اكثر من الالمانية حتى ان الالمان انفسهم يفضلون ان يروا اسماء الالوان بالافرنسية لاعتقادهم بان المطبخ الفرنساوي هو خير المطابخ والوانهم اجمل المآكل وكذلك ترى اصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين . كل ذلك يدل على جوهر اخلاق السويسريين وان المحافظة على حق او على حرية ينبغي ان يكون على قدم المساواة

سويسرا بابل اللغات لان فيها على صغرها منهن اربعاً وفي النمسا سبع وفي العثمانية سبع امهات الآن ما عدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن الى حلها كذلك . والعرب هم السواد الاعظم وقد امرنا باتباع الاكثرية وللغتهم ميزات ليست لغيرها والامم الدستورية تراعى فيها قبل كل شيء حقوق الاكثرية

سويسرا : كيف تجلب الغريب

كانت بعض البقاع في سويسرا منذ نحو ثلاثين سنة من افقر بلاد اوربا فبفضل ماانشيء فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الاصقاع واصبحت سويسرا وجل اعتمادها على القادمين اليها من اقطار الارض حتى لقبوها « فندق اوربا » ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التي يبذرها فيها الاجانب لم تحصلها عن عبث فان علم جلب الغرباء وامساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية اوفر قد اصبح في سويسرا علماً حقيقياً له اساليبه وقوانينه واحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة . وقد عملت

السويسريين التجارب ان السائح يستمال بست قواعــد من احسن استخدامها اغتنى وافاد واستفاد

القاعدة الاولى : ان يزرع المرء كثيراً ليحصد اكثر · فقــد جعل السويسريون لنشر الاعلانات بالكلام والصور المقام الاول ماعدا اعلانات المحطات والمنشـورات المصورة وغيرها من المقالات التي تدفع عليها الاجور الباهظة احياناً في صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الاعلان · وكل ادارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجاناً وكثيراً ماتكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء اطيبه بحيث تستدعي النظر اليها ولو بعــد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التي تعود منها قد قدرت بثلاثة اضعاف او اربعة

القاعدة الثانية : جميع تراكيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها · وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو ان كل صاحب فندق لاتحدثه نفسه ان يحتكر جميع السـياح بل يهتم لانجاح المدينة اولاً ثم الناحية وارباضها او النجاح العام وهذا لايتم الا بالتضامن بين ابناء هذه الحرفة فيشترك مثلاً جميع ارباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملاً يسـر جمهور النازلين في فنادقهم وانزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على اتمه ايضاً بين الادارات والشركات المختلفة لاتحاسـد بينها ولا تعاير في المصالحة وقد الف معظم ارباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية اولاً ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخراً فاصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك اصبحت بعض القهاوي ومحال السماع ومحال اعطاء التعليمات وشـركات التضامن نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط ان يرضى السائح ويرتاح

القاعدة الثالثة : ان تراعى حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التي يراها (١) وذلك لان سويسرا ادركت ان الرحلات اليوم قد اصبحت ديمقراطية ايضاً

(١) اتمنى لكل عربي يريد ان يصطاف او يشتو او يسيح في اوربا ان يطيل مقامه في البلاد السويسرية اكثر من غيرها من البلدان الاوربية وان يوفر صـلاته مع هذه المملكة الصغرى لانها جمعت آيات المدنية الكبرى ومن الاسف ان عــدد المهاجرين من السويسريين الى البلاد الاخرى يعدل بخمسة آلاف في السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلاً ليشاهد ابناء قومي الفرق بين الاوربيين في اخلاقهم وحسن معاملاتهم · قلت يوماً لرئيس جامعة لوزان اننا مع الاسف لم نشـهد في بلادنا

وان المتوسط غناهم هم اكثر من الاغنياء ارباب اليسار بل هم اخلص واشرف وعلموا بالاحصاء ان واحداً فقط في المئة من السياح الذين يصطافون او يشتون في بلادهم يركب في الدرجة الاولى في السكك الحديدية و ٨٥ في الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة اذا قصدوا كثيراً في مادياتهم لا يعاودون روءية تلك البلاد وفي سويسرا فنادق وانزال على اختلاف اذواق الناس واقتدارهم فمن اراد الرفاهية يدفع ثمنها في قصور هي احسن من قصور الملوك ومن احب التوسط كان له ما اراد وكذلك من احب اقل من التوسط واني لم اسمع بان انساناً يمكن في اوربا ان يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ما اعلن عنه موءخراً احدى البيوت التي تنزل الاضياف عليها في لوزان القاعدة الرابعة : النظر ابداً الى راحة السائح واظهار العناية بامره (١) . فقد عني

سويسرياً منذ جئتم في القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وارسلتم مئات من شبانكم واشرافكم يقاتلوننا مع من يقاتلون قال : نعم ذهبنا اذ ذاك الى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحداً فنحن لا نريد ان نعاود ما سبق لاجدادنا ولو متجرين مستعمرين لا غازين فاتحين . وقلت لاحد اساتذة جامعة جنيف ممن احسن ظنه بالاسلام والمسلمين في كتبه ومحاضراته ان من كتبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الاوربيين قلائل جداً فالعلم يشكركم على اخلاصكم وصدقكم واكدوا ان معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الامم الاخرى وان ظهروا في مظهر علمي يخالفونكم في رأيكم فقال : هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفوق كل ذي علم عليم فتأمل .

«١» منذ وصلت الى مودوسولا على الحدود الايطالية الى ان خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم اشهد نقداً يصح ان يوجه الى احد او الى ادارة سوى اللين واللطف بالغريب . واذكر انني ركبت القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار الى لوزان فاجابني في الساعة الحادية عشرة ليلاً فجلست في المركبة وحدي وكان عدد الركاب قليلاً فبقيت فريداً في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين اولى وثانية كما هي معظم القطارات السريعة في اوربا فلما قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا الى لوزان فقال لقد قطعناها اما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الايطالي فقد قصر في بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لا بأس من ذلك فانك تنزل في فالورب

السويسريون ان يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا اهم اللغات الاوربية الرئيسة يتكلم بها في المحطات والفنادق والمخازن الخ والبريد من اسهل مايمكن وفي زهاء ١٠٧ مدينة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الانسان فيها عما يشاء مجاناً وقد نظمت بمعرفة الشركات المحلية ولا عمل لعمال هذه المكاتب الا ان يجيبوا الناس عما يسألون من الصباح الى المساء . والشعب يبدي العطف على الغريب والعناية بامره فالسويسريون اذا لم يكونوا في رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والاخذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الامتار احياناً لدلالته على طريق او غيره فهم وسط في ذلك فان الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك باوضح عبارة ممكنة واذا شكرته لايرى انه يستحق الشكر

القاعدة الخامسة : ان يعرض كل شيء امام السائح من دون ان يعجز بمطالب مبرمة . وذلك انك تصل الى المحطة فلا تجد حمالاً بل انت تصرخ حمال فيجيبك ولا تجد عاملاً من عمال الفنادق بل تجد لوحة موضوعة في مخرج المحطة فيها اسماء الفنادق في البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوذياً يريد ان يركبك في مركبته ولا سائقاً يريد ان يستاقك في سيارته بل اذا انت طلبت واحداً منهم اتاك مسرعاً بادب . اما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد في ايطاليا فهذا لااثر له لان الشحاذة ممنوعة هنا اكثر من فرنسا ولا تجد احداً يتعرض لك لابتياع شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف انواعها معروضة في الزجاج وقد كتبت عليها اسعارها وهذه اخصر طريقة واشرفها في قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات

وتنام هناك وانت هل كان احد في انتظارك على المحطة في لوزان قلت اللهم لا . قال : اذاً تبيت في فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود الى لوزان وانا لاادفعك اجرة عن المسافة التي ركبتها فوق تذكرتك لان ماجرى ليس من صنعك ثم انزلني من القطار لما وصلنا الى فالورب وحمل لي احد الصندوقين اللذين كانا معي وحملت انا الآخر فابقيناهما في محل الامانات في المحطة وخرج معي ودلني على سمت الفندقين وسمى لي اسمهما وخيرني بين احدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض مايجب فانظر بالله عليك الى هذه الاخلاق التي قلما تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو بمكلف ان يضيع وقته معك على هذه الصورة في مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية

177

والمشروبات يكتب عليها اسعارها ويجلس في المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئاً ·

القاعدة السادسة : ارضاء جميع الاذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب مايكدر واذا وقع خلاف فيراعى ذوق الاكثرية · ولاجل استمالة قلوب السياح عني السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ في نشراتهم التي يستولون بها على عقل الغريب مايشير الى ان في بقعتهم مايرضي جميع المشارب والامزجة من ارباب الصفاء الى طلاب الخلاء الى المولعين بالالعاب الرياضية الى الراغبين في التصعيد في جبال الالب الى من يريدون التسلي الى من يرغبون في التعليم الى من يؤثرون الوحدة الى المصورين والطبيعيين والاثريين وكل واحد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على مايهمه

نعم وفروا الراحة لجميع الاذواق وقاموا بما يرضي الارواح والاشباح فترى اوقات الاطباء معينة مذكوراً الى جانبها اوقات القداديس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن او الواعظ · ولا يأتون ماتشمئز منه نفس السائح حتى ان دفن الموتى لايجري في اوقات الصيف الا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على مار بما تشمئز منه نفسه فيذكر الموت في بلاد لايجب ان يكون فيها الا الصفاء والرخاء

وكثير من هذه الاعمال تقوم بها شركات لان فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الادبي السويسري وهذه عنيت بتربية الادلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الالب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس في اهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى في السنة نحو نصف الثقاسيط وهناك شركات لاتحصى في كل مديرية لتحبيب البلاد الى الامم ونشر ماينبغي عنها من مالهم وربما اعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد او القرية اذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من اثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة ·

والحكومة لم تدخر وسعاً في هذا السبيل فبذلت الاموال عن سعة في المدن والدساكر فتحت الشوارع الجميلة وجملت الارض وعبدت الارصفة الفسيحة وانشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة واقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من احب وادخلت الكهرباء الى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية واقيمت القهاوي

المهمة في جميع المحال التي يلحظ ان المسافر يقصدها

وقد اعد السويسريون جميع الالعاب الرياضية التي يحبها الانكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع ايام الشتاء التزحلق والتدحرج في الثلج (لالوج والسكي والباتناج) . عادات اولع الغربيون بها تقليداً للانكليز وكل سنة يموت في خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم سنة عن اخرى . وبذلك كثر ترداد الناس الى سويسرا في الشتاء ولا سيما الانكليز والاميركان . ويقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليوني نسمة فاذا فرض ان كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع اربعين مليوناً تأخذها سويسرا في اشهر معدودة من السنة من الالماني والانكليزي والروسي والنمساوي والمجري والفرنساوي والايطالي والاسبانيولي والبرتقالي واليوناني والمصري والهولاندي والاميركاني والبلجيكي والسكانديناڤي وغيره وللالمان المقام الاول في كثرة العدد وهم يؤثرون النزول في البيوت لرخص العيش فيها

ويقدرون عدد الفنادق الكبرى بزهاء الفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الاول والثاني اما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه اكثر من ان تعد وما وصلت هذه الصناعة في اقراء الضيوف الى هذا الحد من الارتقاء الا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى اصبح السويسري معلماً للامم في صناعة الفنادق وكثير من مدن اوربا وحماماتها المدنية ومتنزهاتها البحرية بيد اناس من السويسريين . ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين الف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والانزال واستجلاب انظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث افكارها توزعها مجاناً دع المنشورات والكراسات والكتب التي لا تقصر في توزيعها ومما انشأته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليماً على اسلوب معقول وذلك لان ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يوماً بعد آخر ولذلك احدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الاطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للالعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بان ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع انواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وان يذهب الواحد الى غرفته حتى في

النهار بدون ترخيص وان يختلف الى الاماكن العامة واجرة المدرسة او ثمن الاكل فيها فقط ١٢٠ فرنكاً في الشهر لابن سويسرا و ١٥٠ للغريب . ومدة الدراسة ثمانية اشهر ويسأل فيها الطالب في الاكثر في اللغات الحية ويجب ان تكون سنه من ١٦ الى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسوية والانكليزية والالمانية والايطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافيا العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (اصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على اصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات في الخدمة ودروس في التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والالعاب والرقص . وبعد ان ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر ان مدرسة لوزان ارقاها

وانشأت شركة الفنادق تعلم اناساً فن الطبخ وعهدت الى خبراء يمتحنون من يريد الدخول في هذه الصناعة بعد ان ينال شهادة منهم بتقدمه فيها . ويقدرون رؤوس الاموال التي وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مليون فرنك وما برحت على ازدياد وارباحها كذلك في اعتدال لان السويسري يرضى بالربح القليل جرياً على ماتستلزمه القاعدة الاقتصادية . وتختلف اجور الفنادق فمنها مايدفع فيه الواحد في اليوم مائتي فرنك ومنها مايأكل فيه وينام كل يوم باربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين في الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين الفاً معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع اليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلاوين التي تقدر بثلاثة اضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ماتربحه البلاد كلها من السياح والمعروف ان ارباحها من ذلك تجيء بعد ارباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم الا اذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فان ارباح السياح يكون لها المنزلة الاولى وبها اغتنت سويسرا بعد ان كانت فقيرة .

طول الخطوط الحديدية في سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو متر اي ١٢ كيلو متراً في كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ ٩٥ مليوناً عدد من يتنقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة في اعطاء اوراق اشتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكاً يأخذ بها ورقة في الدرجة الثالثة يركب بها اي قطار احب مدة خمسة عشر يوماً ويدفع ٦٥ في الدرجة الثانية و ٩٠ للدرجة الاولى . هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية

والحوافل · ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية في ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح في نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب في السنة وهي دائمًا تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها · والبرد متصلة علائقها مع السكك الحديدية وفيها جميع انواع الراحة للقريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت احدى الصحف مؤخراً ما مثاله : ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة ما يبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فان لكل ٢٣٤ ساكناً فيها صندوق بريد وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ في لوكسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ الـمانياً صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساوياً صندوق ثم تجيء النمسا فانكلترا فالبرتقال اما العثمانية فقد احرزت الدرجة الاخيرة اذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩،٣٠٠ عثماني !

هذا بعض ما عرفته عن سويسرا وما يأتيه الافراد والحكومة لجلب السياح اليها حتى اصبحت فندق اوربا حقًا وصدقًا

سويسرا : تفننها في الاعلانات

لا ترى في مدينة سويسرا نقصاً في فرع من فروعها وعمل من اعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل ادارة وكل معمل وكل شارع وكل حيّ وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل اليه والمعاملة معه بحيث لا يحتاج الانسان ان يسأل احداً وربما اذا ترويت قليلاً بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلما تطلب من يدلك على من تقصده اذا كانت نمرة محله واسم شارعه في جيبك · خاصية غريبة قلما تجد مثلها حتى في كثير من البلدان الراقية · بل قد كتب على الابواب الخاصة والعامة « ادفع » او « اقفل » وكتب على المراحيض « ارفع » او « اخفض » لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب « الرجاء مسح رجليك » وكتب في المدارس « اياك وادخال عصاك او مظلتك الى الداخل » وكتب على الصور والتماثيل « ممنوع مس شيء » وكتب على صناديق البريد « تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا » ولو اردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال و ... القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال

ومن يظن ان في دور البريد صناديق تدفع اليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد اوربا الراقية فينزل اليك فتلصقه على كتابك وفي صناديق البيوت التي تعلق في دهليز

179

الدار وتكون هذه مؤلفة على الاكثر من خمس او ست طبقات كل طبقة شقتان او مسكنان فيجيء الساعي ويضع كتب وجرائد كل منزل في صندوقه حتى اذا وضعها يطن جرس من داخل الصندوق فيسمع اهل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفاً على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصي على العامل ما اباعه في يومه

ذكرنا هذا وان كان بعضه لا يدخل في باب الاعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالاعلان في الغرب حداً من الارتقاء لا يكاد يوصف واظن سويسرا ان لم تكن ارقى الغربيين في التفنن باعلاناتها فهي من ارقاهم بلا جدال وكفاها فخراً انها لولا الاعلان عن بلادها ما استطاعت ان يكون لها هذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال اصقاعها وربما افرطت في ذلك احياناً تقتضي الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجاناً على طالبيها فما رأيت اكثر من مهارتهم في ايجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في ارض سويسرا

وكل شيء هنا بالاعلانات اذا لم تقرأ صحفها لا تهتدي الى ما تريد ابتياعه او عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة اعلانات مقاطعة كذا ومنها ما يطبع الثلاثين والاربعين الفاً في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثماني او عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها اعلانات الا الصفحة الاخيرة او الصفحتان الاخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفي الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الاقل . وكل جريدة مرتبطة مع شركة اعلانات تبتاع منها قدراً معيناً من الصحيفة وهي تفتش لها على اعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها . كنت اناهي في الاحايين بقراءة بعض الاعلانات في الصحف لاعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت استغرب في الضحك عندما اقرأ السذاجة تغلب على اعلاناتهم والتفنن فيها آخذ اخذه من النيقة والعناية

فمنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمن كذا ومنهم من يقول ان عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يجب ان يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأساً من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدته وآخر عن بيع عربته او دراجته او دثاره او صندوقه او ثيابه وآخر عن خنزيره الذي

علفه وغيره عن حذائه الذي ما اتلفه · وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه او محراثه او منكاشه او مجرفته او حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كابه · والصدق يغلب عليهم في اعلانهم عن متاعهم وآنيتهم وادواتهم

اما التفنن في الاعلان عن الاستخدام وطلب عمل في مخزن او حقل او ادارة او منزل ذكوراً كانوا ام اناثاً صغاراً ام كباراً فهذا مما بلغ الغاية التي لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الاجرة التي يريدها باخصر عبارة تستهوي القارئ وتستدعي الراغب فيه الى مفاوضته ومخابرته على اسرع ما يمكن وكل يوم تقرأ اعلانات كثيرة في طلب حالب بقرات تبلغ عدد كذا في محل كذا باجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن ادارة بيت فيه كذا من الانفس وبواب لمحل كذا وسائس باجرة كذا وحوذي وسائق وراع كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة في معمل الى غير ذلك من الاساليب التي لم يسمع بها الشرق وهي من اختراع الغرب لان الاعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد

الاعلان عن الحاجيات والكماليات لطيف ونافع ولكن ما كان يظن ان الغربيين اذا اعلنوا عن بيع كذا وايجار كذا وعمل كذا يتزوجون بالاعلانات ويستمتعون بالاعلانات ايضاً تساوى في طلب ذلك الرجال والنساء لانهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التي لا عيب فيها وغاية الامر انهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة - وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما اظن جريدة « الجورنال » الباريزية ثم تبعتها على الاثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وان كان عدد الطالبين والطالبات اقل من عددهم في باريز

وذلك بان يطلب احدهم خادمة تستخدم لكل شيء باجرة كذا عليَّ ان تقوم بعمل كذا وان يكون عمرها كذا من السنين او ان الخادمة تطلب ذلك ولا تتوقف عن ان تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها · اكتب هذا وامامي صحيفة اعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها ان امرأة اسرائيلية تريد التعرف الى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين وان تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه · ومنها ان عقائل واوانس يردن ان يتعرفن الى خواجات تكون لهم مراكز طيبة ومنها ان شاباً في الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب

حسن في الارياف يريد ان يتعرف الى فتاة في الخامسة والعشرين الى الثلاثين ويؤثر ان تكون مسيحية ومعودة النظام ويقبل بان تكون حاملة شيئاً من النقود وانه رزين لا يفشي سراً واذا أرسلت اليه الصورة الفوتوغرافية يعيدها في الحال والرجاء ان يكتب في ذلك بنمرة كذا لادارة جريدة لوزان

والقوم هنا لا يكتفون بتعليق اعلاناتهم على الحوائط والمركبات في السكك الحديدية والكهربائية وعجلات النقل وفي الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الابواب والنوافذ ورؤوس الابنية بل ان التاجر يعلن عن محله حتى في الورق الذي يصر لك به قميصاً او بدلة او كتاباً او حذاء او منديلاً او ورقاً او اي شيء تبتاعه بل ان الخيط الذي يربط به الاضبارة او الرزمة قد كتب عليه اسم محله ونمرته ومـا فيه وهكذا في جميع ما يخطر ببال

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها انها اذا لم تكثر من الاعلان عنها يتناساها الناس ونقل ارباحها وهذه لوزان لولا ما تفنن اهلها في الاعلان ما اصبحت عاصمة العلم في سويسرا الفرنساوية وبلغ طلبة كليتها الفاً واربعمائة منهم نحو الف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة التي يعيش بالتعلم فيها اناس لا يستقل بعددهم ومنها ما يدرس فن تدبير المنزل وآخر الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الالعاب الرياضية الى آخر ما تفننوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر فيه السائحون للـنزهة وفصل الشتاء يكون خاصاً بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من ذلك اهل البلاد مئات الالوف من الليرات

وبلغ من تفنن القوم بالاعلانات ان احدهم الف كتاباً في فن الطبخ فكسد كساد بضاعة العلم في بلاد العرب ففكر فلم يجد احسن من ان يعلن ان الفتاة التي تراجعه مرسلة اليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها غوائل الدهر وحوادث الايام فكان يبعث لكل مرسلة بالمبلغ المطلوب بنسخة من كتابه ويقول لها تعلمي هذا . فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة . وكتب بعضهم اذا اردت ان تغتني فاعمل عملي وانا لا اعلمك ما عملت الا اذا بعثت بكذا فرنك حوالة . فكان جواب هذا الشاطر لمن طلب اليه النصيحة ان يقول له اعمل عملي فتغتني لا محالة اي اكتب في اعلانك كما كتبت وهناك المال يفيض عليك

ولكن هذه الطرق نادرة جداً والصدق هو الغالب على الاعلانات كما قلنا ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بامرها وأسست لها البيوت والشركات المهمة التي تدخلها فتظن نفسك في مصرف كبير او معمل خطير . والاعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من امهات جرائدها لا تصدر يوماً واحداً لولا الاعلانات لأن ما تأخذه من القراء والمشتركين لا يبلغ ثمن الورق مع انها تطبع بمئات الالوف فتأمل يا تاجر بلادنا

سويسرا : التربية العملية

من اعظم اسرار امتياز الغربي عن الشرقي ان الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الاغلب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جداً فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة واقل منه فتى او فتاة في مقتبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ اسباب الكسب انتظاراً لارث ربما يورثه اياه ابوه او امه او لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل

حالة تدهش في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ماتعهد من عيش الاتكال الذي انقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من حالق مجد وسعة الى دركات ذلة وفاقة . كلما ذكرنا وايم الحق ان في دمشق نحو ثلاثة عشر الف شحاذ اكثرهم اصحاء اقوياء نقضي العجب من حالنا ونسجل باننا سواء وحكومتنا في هذا النوم او التناوم عن السعي في مداواة امراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية

واني آسف وابكي لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتهم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على اهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون انه يليق بهم الا ان يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين ان يموت اولياؤهم ليستولوا على اموالهم وفي الغالب ان يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف اولاداً كثاراً تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءاً قليلاً لا يستطيع انماءه ولا يقوم بتفخله وبذخه هذا اذا لم يكن فاسد الاخلاق ولم يصرف دخل سنة في شهر وهناك بشره بالفقر الى ارذل العمر .

اما الغرب فحاله غير حالنا اذا تعلم الولد التعليم الابتدائي غالبًا يبدأ اهله يقطعون عنه

راتبه و يطالبونه باجرة الدار وثمن الطعام ليلقي بنفسه في معمعان الحياة و يعلم انه فرد مسؤول عن نفسه لا يقوم باعالته غير عمله ولهذا مئات الالوف من الامثلة ولقد قلنا في مقالة سبقت ان ليس في الارض امرأة ضاهت الرجل في عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن في هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنا او فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يوماً بعد آخر وترتقي في كل فرع من فروعها المدنية الحيوية ٠ وحال معظم امم الحضارة كذلك

اكتب هذا وامامي اربع فتيات في النزل الذي اويت اليه في لوزان لا اطلب لوطني الا ان يكون رجاله دع نساءه في درجتهن من التفاني في الحياة العملية والتناغي بحب الاستقلال في الاعمال ٠ الفتاة الاولى انكليزية والثانية المانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية المانية وكلهن سواء في كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال

قالت لي الفرنساوية السويسرية وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعطي دروساً في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا : انه متعهد ابنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكناً نؤجرهما في « شالي » من ضواحي لوزان وشقيقي الواحد صاحب نزل في نيس والآخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك في الشرق يستريح ولا يعرف الا الازياء والرفاهية فقالت ان الناس كلهم في سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل ان اعيش عالة عليَّ والدي او والدتي ولا على احد اشقائي بل اعمل واجمع ثروة لنفسي عملاً بسنة العاملين والعاملات

اما الفتاة الانكليزية وهي في الحادية والعشرين ايضاً فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في احدى البيوت الخاصة التي توفرت على تعليم الفتيات اللائي تخرجن من المدارس العليا في انكلترا والمانيا وروسيا او غيرها واردن ان يتقدمن في معرفة الفرنساوية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الاوربية الراقية التي تليق لترأس المجتمعات العالية والتصدر في الردهات والقاعات ٠ قالت انها تعلم الانكليزية وهي لا تتناول مالاً وانما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الافرنسية بهذه الواسطة ٠ وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة الى الجبال للتزحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فاقفل باب النزل فعرض عليها هي ورفيقتها الفتاة الالمانية ان يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة في النزل الذي نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح ابواب منزلها او مدرستها ٠

اما الفتاة الالمانية رفيقة الانكليزية فهي في الثالثة والعشرين وحالها ايضاً حال رفيقتها تعلم الالمانية وتتعلم الافرنسية وتزيد عليها بان تعطي دروساً خارج المدرسة واهلها اصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الافرنسية وهذه هي الواسطة التي رأت ان تعمد اليها في اتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها في صدرها الى لغة كيتي وشيلر ·

اما الرابعة وهي المانية سويسرية فحالها ادهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لان والدها صاحب مخزنين في لوسرن وانترلاكون لو حسب مايملكه على حساب بلادنا لعد من الاغنياء عندنا على انه لا يعد في المحاويج بل المتوسطين هنا فاراد ان يعلم ابنه وابنته الافرنسية لمسيس الحاجة اليها في تجارته وحتى يكونا عَلَى اتم الاستعداد لتلقي مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو في السابعة عشرة يجعله في نزل في ارباض لوزان خادماً يأكل وينام ويتناول راتباً قليلاً ويتعلم الافرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر في المدرسة

وشقيقة هذا الفتى في التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب ان تتعلم الافرنسية وتدبير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها ابوها خادمة براتب ٢٥ فرنكاً في الشهر في النزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع اعمال المنزل الا ملاحظة الطبخ فان صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلاً تعمل بكد لم ار مثله وتقوم بجميع انواع الخدمة على صورة مدهشة فبينا تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح ادواتها الكثيرة او تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والابواب اذا هي تتعهد المطبخ او تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق او تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة او تجلو الطباق والصحون او غير ذلك مما يكثر عدده في البيوت الاوربية تعمل كل ذلك ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لا تراها الا باسمة في حين حرمت من رفاهيتها في دار ابيها وعند الخادمات والخدمة ·

هذا مثال مما رأيته بالذات من امثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الاوربيين بعد ان عدوا كل عمل شريفاً اللهم الا مايثلم العرض و يعبث بالمروءة وهذا لا تكاد تخلو منه امة مهما ادعت انها امة اخلاق وتدين وشرف ·

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على اهلها بعملها مئة او مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك

182

ايستطيع احد ابناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب ان يقول لابنه اذهب الى بلد كذا واخدم وتعلم فضلاً عن ان يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة والحساب فعليها لمن يعلمك الطبخ وتدبير المنزل والخياطة والتفصيل ·

رأينا في مصر والشام اناساً من المساتير لم يعقهم عن تعليم اولادهم التعليم المطلوب الا ضيق ذات يدهم وكثرة اولادهم لانهم كلهم يريدون ان يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغني صاحب المزارع والعقارات · ورأينا اناساً فادوا بالمال واقتطعوا جانباً من رؤوس اموالهم ليتعلموا به اولادهم على امل ان يعينوهم في ايامهم السود فكان من اولادهم من تعلموا تعليماً ناقصاً ولم يكن منهم الا ان عظمت نفوسهم وظنوا انفسهم شيئاً مذكوراً وشمخت انوفهم عن العمل الا في الاعمال التي يصورها لهم الخيال انها نافعة شريفة وذهب ماصرفه اولياؤهم من الذهب عبثاً

الاولاد اذا ربوا كما يربي السويسري والالماني والانكليزي بناته جاء منهم محنكون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون الى الكبير · يتهمون الالمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد الزائد والانكليز بقسوة القلب والحقيقة ان البشر كله من طينة واحدة يحن الى اولاده ويستميت في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم انهم يلقنون اولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة · ·

ايأتي ياترى على الشرق الاقرب يوم نرى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد او ابناؤنا واحفادنا مثالاً من الامم التي تود البقاء لا الدثور والفناء ام نبقى هكذا يسرق بعضنا بعضاً ونعد عمله مهارة او ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين ام تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعي من بناها الى بلاد اخرى حيث الحياة سهلة والعيش خضال

طف المدينة والمزرعة وادخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والاشراف في سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل · في لوزان سوق تقام مرتين في الاسبوع عَلَى عادة معظم المدن الاوربية مثل سوق الاحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذاك السوق جميع انواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجاً صالحاً من حاصلات البلاد وصناعتها واكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياع بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بانفسهن حاجات

بيوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز و يحملنها الي مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند اكثرهم على مابلغني الخادمات والطباخات والوصيفات قلما يمهدن اليهن بشراء حاجة ولو طفيفة و يذهبن بانفسهن لابتياعها

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد احد من المعيب ان يخدم نفسه وداره واهله وسواء في الشرف من يكسح القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات في النهار ومن يملك مصرفاً كبيراً يعد مايربح كل يوم بمئات من الفرنكات مادام كلاهما يعمل في دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق باحد واول مايسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل ان يسأل عن جمالها ماهي معارفها وما تستطيع عمله . فاللهم علمنا علماً ينفعنا في نهوضنا حتى لانخجل من انحطاطنا في انفسنا ودع خجالتنا امام غيرنا فان الفرق بين بلادنا و بلادهم اصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راءٍ كمن سمعا

معجم البلدان

افضنا في الجزء السالف في الكلام على هذا المعجم الجليل ونقلنا شذرات لطيفة منه بياناً لمنزلته بين المصنفات وها نحن نعاود البحث فيه فنقول : ان معجم ياقوت في البلدان هو من امثل ما طبع ايضاً من كتب الخطط وتاريخ العمران و كوارث البلدان ووصفها تستخرج منه عدة ابحاث ولذلك ساغ ان يقال ان هذا المعجم عبارة عن كتب حواها كتاب او هو دائرة معارف او موسوعات العلوم العمرانية

فمما نقله في عمران البلدان في « الشاذياخ » قال انها مدينة نيسابور ام بلاد خراسان في عصرنا وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين ملاصق مدينة نيسابور فذكر الحاكم ابو عبد الله بن البيع في آخر كتابه في تاريخ نيسابور ان عبدالله بن طاهر لما قدم نيسابور والياً على خراسان ونزل بها ضاقت مساكنها من جنده فنزلوا على الناس في دورهم غصباً فلقي الناس منهم شدة فاتفق ان بعض اجناده نزل في دار رجل ولصاحب الدار زوجة حسنة وكان غيوراً فلزم البيت لا يفارقه غيرةً على زوجته فقال له الجندي

يوماً : اذهب واسق فرسي ماء فلم يجسر على خلافه ولا استطاع مفارقة اهله فقال لزوجته : اذهبي انت واسقي فرسه لاحفظ انا امتعتنا في المنزل فمضت المرأة وكانت وضيئة حسنة . واتفق ركوب عبد الله بن طاهر فرأى المرأة فاستحسنها وعجب من تبذلها فاستدعى بها وقال لها : صورتك وهيئتك لا يليق بهما ان تقودي فرساً وتسقيه فما خبرك فقالت : هذا فعل عبد الله بن طاهر بنا قاتله الله ثم اخبرته الخبر فغضب وحوقل وقال : لقد لقي منك يا عبد الله اهل نيسابور شراً ثم امر العرفاء ان ينادوا في عسكره من بات بنيسابور حل ماله ودمه وسار الى الشاذياخ وبنى فيه داراً له وامر الجند ببناء الدور حوله فعمرت وصارت محلة كبيرة واتصلت بالمدينة فصارت من جملة محالها ثم بنى اهلها بها دوراً وقصوراً . قال ياقوت هذا معنى قول الحاكم فانني كتبته من حفظي اذ لم يحضرني اصله ولذلك قال الشاعر يخاطب عبد الله بن طاهر :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً بالشاذياخ ودع غمدان لليمن
فانت اولى بتاج الملك تلبسه من ابن هوذة يوماً وابن ذي يزن

ثم انقضت دولة آل طاهر وخربت تلك القصور فمر بها بعض الشعراء فقال :

وكان الشاذياخ مناخ ملك فزال الملك عن ذاك المناخ
وكانت دورهم للهو وقفاً فصارت للنوائح والصراخ
فعين الشرق باكية عليهم وعين الغرب تسعد بانتضاح

ومثل ذلك ما ذكره في « التاج » وهو اسم لدار مشهورة جليلة المقدار واسعة الاقطار ببغداد وكانت من دور الخلافه وكان بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك اولاً ليخلو فيه بندمائه وقيانه فلما اوقع الرشيد بالبرامكة وكان القصر الى ذلك الوقت يسمى القصر الجعفري انتقل الى المأمون فكان من احب المواضع اليه واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيزاً لجميع الوحوش (حديقة حيوانات) وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية واجرى فيه نهراً قال ثم نزل القصر الحسن بن سهل والد بوران زوج المأمون ولما طوت العصور ملك المأمون والقصور وصار الحسن بن سهل من اهل القبور بقي القصر لابنته بوران الى ايام المعتمد على الله فاستنزلها المعتمد عنه وامر بتعويضها منه فاستمهلته ريثما تفرغ من شغلها وتنقل مالها واهلها واخذت في اصلاحه وتجديده ورمه واعادت ما دثر منه وفرشته بالفرش المذهبة والنمارق المقصبة وزخرفت ابوابه بالستور وملأت خزائنه بانواع الطرف مما يحسن

موقعه عند الخلفاء ورتبت في خزائنه ما يحتاج اليه من الجواري والخدم الخصيان ثم انتقلت الى غيره وارسلت المعتمد باعتماد امره فاتاه فرأى ما اعجبه وارضاه واستحسنه واشتهاه وصار من احب البقاع اليه وكان يتردد فيما بينه وبين سر من رأى فيقيم هنا تارة وهناك اخرى ثم تولاه المعتضد وابتدأ في بناء التاج وجمع الرجال لحفر الاساسات ثم مات ولما تولى ابنه المكتفي بالله اتم عمارة التاج الذي كان المعتضد وضع اساسه بما نقضه من القصر المعروف بالكامل ومن القصر الابيض الكسروي الذي لم يبق منه الآن بالمدائن سوى الايوان فكان الآجر ينقض من شرف قصر كسرى وحيطانه فيوضع في مسناة التاج وهي طاعنة الى وسط دجلة وفي قرارها ثم حمل ما كان في اساسات قصور كسرى فبنى به اعالي التاج وشرفاته

قال واما صفة التاج فكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين خمسة اذرع ووقعت في ايام المقتفي سنة ٥٤٩ صاعقة فتأججت فيها وفي القبة وفي دارها التي كانت القبة احدى مرافقها وبقيت النار تعمل فيه تسعة ايام ثم اطفئت وقد صيرته كالفحمة وكانت آية عظيمة ثم اعاد المقتفي بناء القبة على الصورة الاولى ولكن بالجص والآجر دون الاساطين الرخام واهمل اتمامه حتى مات وبقي كذلك الى سنة ٥٧٤ فتقدم امير المؤمنين المستضيء بنقضه وابراز المسناة التي بين يديه الى ان تحاذي به مسناة التاج فشق رأسها ووضع البناء فيه على خط مستقيم من مسناة التاج واستعملت انقاض التاج مع ما كان اعد من الآلات من عمل هذه المسناة ووضع موضع الصحن الذي تجلس فيه الائمة للمبايعة وهو الذي يدعى اليوم بالتاج اه

ومن عجائب ما ذكره في القصور العربية « دار الشجرة » قال هي دار بالدار المعظمة الخليفية ببغداد من ابنية المقتدر بالله وكانت داراً فسيحة ذات بساتين مونقة وانما سميت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة امام ايوانها وبين شجر بستانها ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجواهر على شكل الثمار وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفير والهدير وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ومثله عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد ٠

184

وكثيراً ما يتوسع ياقوت في الكلام على تاريخ المدن ولا سيما مدن العرب (المقتبس م ٧ ص ٤٠١) مثل كلامه على واسط قال ورأيت انا واسطاً مراراً فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيلاً يفوت الحصر وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الاشياء ما لا يوصف بحيث اني رأيت فيها كوز زبد بدرهمين واثنتي عشرة دجاجة بدرهم واربعة وعشرين فروجاً بدرهم والسمن اثنا عشر رطلاً بدرهم والخبز اربعون رطلاً بدرهم واللبن مائة وخمسون رطلاً بدرهم والسمك مائة رطل بدرهم وجميع ما فيها بهذه النسبه · وواسط هي التي بناها الحجاج وكانت لرجل من الدهاقين يقال له داوردان فساومه عامل الحجاج فقال له الدهقان : ما يصلح هذا الموضع للامير قال : لمَ فقال : اخبرك عنه بثلاث خصال تخبره بها ثم الامر اليه قال : وما هي قال : هذه بلاد سبخة البناء لا يثبت فيها وهي شديدة الحر والسموم وان الطائر لا يطير في الجو الا ويسقط لشدة الحر ميتاً وهي بلاد اعمار اهلها قليلة قال : فكتب بذلك الى الحجاج فقال هذا رجل يكره مجاورتنا فاعلمه انا سنحفر بها الانهار ونكثر من البناء والغرس فيها ومن الزرع حتى تعذو وتطيب واما قوله انها سبخة وان البناء لا يثبت فيها فسنحكمه ثم نرحل عنه فيصير لغيرنا واما قلة اعمار اهلها فهذا شيء الى الله تعالى لا الينا فاعلمه اننا نحسن مجاورتنا له ونقضي ذمامه باحساننا اليه · قال فابتاع الموضع من الدهقان وابتدأ في البناء في اول سنة ٨٣ واستتمه في سنة ٨٦ الى آخر ما قال وفيه من كبر عقل الحجاج ما لا يقدر على الاجابة باحسن منه اكبر ساسة العصر وارقاهم بعلوم هذه الايام ولا عجب فالعرب كانوا ينظرون في مسائل الصحة نظراً بليغاً · ذكر ياقوت في مادة « حضوة » انه شكا قوم من اهلها الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وباء ارضهم فقال لو تركتموها فقالوا معاشنا ومعاش ابلنا ووطننا فقال عمر للحارث بن كلدة (طبيب العرب) : ما عندك في هذا فقال الحارث البلاد الوبئة ذات الادغال والبعوض وهو عش الوباء ولكن ليخرج اهلها الى ما يقاربها من الارض العذية الى تربيع النجم وليأ كلوا البصل والكراث ويباكروا السمن العربي فليشربوه وليمسكوا الطيب ولا يمشوا حفاة ولا يناموا بالنهار فاني ارجو ان يسلموا فامرهم عمر بذلك اه · ولذلك قال عمر وقد ذكرت له الشام ووباؤها : لبيت بركبة (واد بالطائف) احب الي من عشرة ابيات بالشام قال مالك بن انس يريد لطول البقاء والاعمار وشدة الوباء بالشام ·

وقال في « سيراف » ماملخصه : ذكر الفرس في كتابهم المسمى بالابستاق وهو

عندهم بمثابة التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى ان كيكاوس لما حدث نفسه بصعود السماء صعد فلما غاب عن عيون الناس امر الله الريح بخذلانه فسقط بسيراف فقال اسقوني ماء ولبناً فسقوه ذلك بذلك المكان فسمي بذلك لان شير هو اللبن وآب هو الماء ثم عربت فقلبت الشين الى السين والباء الى الفاء فقيل سيراف وهي على ساحل بحر فارس كانت قديماً فرضة الهندرأيتها وبها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج وهي في لحف جبل عال جداً وليس للمراكب فيها مينا فالمراكب اذا قدمت اليها كانت على خطر الى ان تقرب منها الى نحو فرسخين موضع يسمى نابذ هو خليج ضارب بين جبلين وهو مينا جيد غاية واذا حصلت المراكب فيه امنت من جميع انواع الرياح وبين سيراف والبصرة اذا طاب الهواء سبعة ايام . ووصفها ابو زيد حسب ماكانت في ايامه فقال انها الفرضة العظيمة لفارس وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية حتى يجاوز على نظر عملها وليس بها شيء من مأكول ولا مشروب ولا ملبوس الا ما يحمل اليها من البلدان ولا بها زرع ولا ضرع ومع ذلك فهي اغنى بلاد فارس قلت (اي ياقوت) كذا كانت في ايامه فمنذ عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند واليها منقلب التجار خربت سيراف وغيرها ولقد رأيتها وليس بها قوم الا صعاليك ما اوجب لهم المقام بها الا حب الوطن . ووصفها الاصطخري ان بناءها بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج وابنيتهم طبقات وهي على شفير البحر مشتبكة البناء كثيرة الاهل يبالغون في نفقات الابنية حتى ان الرجل من التجار لينفق على داره زيادة على ثلاثين الف دينار ويعملون فيها بساتين . . . .

وكثيراً مايستطرد ياقوت الى ذكر واردات المدن وصنائعها كما فعل في نشر ميزانية الحكومة في حلب لعهده وكما فعل في وصف صنائع سلجماسة من بلاد السودان قال — ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين ديناراً واكثر كارفع مايكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بانواع الاصباغ . وقال في « كاكدم » مدينة باقصى المغرب جنوبي البحر : وبارضهم حيوان يقال له اللمط من جنس الظباء الا انه اعظم خلقاً ابيض اللون يتخذ من جلده الدرق اللمطية قطر الدرقة منها عشرة اشبار لم يحصن المحاربون قط باوقى منها يكون ثمن الجيد منها بالمغرب ثلاثين ديناراً مؤمنية تدبغ في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام .

وقال في شاطبة في شرقي الاندلس انه يعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها الى

سائر بلاد الاندلس وقال في دمياط : ومن ظريف امر دمياط في قبليها على الخليج مستعمل فيه غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب الشرب فلا تكاد تنجب الا بها فان عمل بها ثوب و بقي منه شبر ونقل الى هذه المعامل علم بذلك السمسار المبتاع للثوب فينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه وقال ابن زولاق يعمل بدمياط القصب البلخي من كل فن والشرب لا يشارك تنيس في شيء من عملها و بينهما مسيرة نصف نهار و يبلغ الثوب الابيض بدمياط وليس فيه ذهب ثلاثمائة دينار ولا يعمل بدمياط مصبوغ ولا بتنيس ابيض وهما حاضرتا البحر و بهما من صيد السمك والطير والحيتان ماليس في بلد · واخبرني بعض وجوه التجار وثقاتهم انه بيع في سنة ٣٩٨ حلتان دمياطيتان بثلاثة آلاف دينار وهذا مما لم يسمع بمثله في بلد · و بها الفرش القلموني من كل لون المعلم والمطرز ومناشف الابدان والارجل وتتحف بها جميع ملوك الارض ·

ومن هذا الصنف البديع تفهم مبالغ الثروات في حكومات عصره وقبله ودرجة تأنقهم ورفاهيتهم من ذلك مارواه في « سامراء » من ان المتوكل انفق سبعمائة الف دينار على نهرين اتقهما من دجلة تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء ولم يبن احد من الخلفاء بسر من رأى من الابنية الجليلة مثل مابناه المتوكل وعدد ياقوت ماانفقه من مئات الالوف من الدنانير والدراهم على القصر المعروف بالعروس والقصر المختار والوحيد والجعفري والغريب والشيدان والبرج والصبح والمليح و بستان الايتاخية والتل والجوسق والمسجد الجامع والغرد والمتوكلية والبهو واللؤلؤة

بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول اعمارها
وللروم ماشيد الاولون وللفرس آثار احرارها

ولا عجب في غنى الخلفاء فقد كان الوزراء ايضاً على هذه النسبة فقد ذكر ياقوت عن السلفي عمن حدثه قال كان لابي غانم القصري اربعمائة غلام يركبون بركوبه وكان يدخل الحمام ليلا فيكون بين يديه شمع معمول من العود والعنبر وانواع الطيب الى ان يخرج ولم يحك عن احد من الوزراء ماحكي عنه من التنعم · وذكر في مادة « دور الراسبي » وكان الراسبي من عظماء العمال وافراد الرجال توفي سنة ٣٠١ في ايام المقتدر ووزارة علي بن عيسى وكان يتقلد من حد واسط الى حد شهرزور و كورتين من كورة الاهواز وكان مبلغ ضمانه الف الف وار بعمائة الف دينار في كل سنة ولم يكن للسلطان

معه عامل غير صاحب البريد فقط لان الحرث والخراج والضياع والشجر وسائر الاعمال كان داخلاً في ضمانه فكان ضابطاً لاعماله شديد الحماية لها من الاكراد والاعراب واللصوص وخلف مالاً عظيماً وحمل من تركته الى بغداد . اهذه نسخته : العين . اربعمائة الف وخمسة واربعون الفاً وخمسمائة وسبعة وسبعون ديناراً . الورق ثلاثمائة الف وعشرون الفاً ومائتان وسبعة وثلاثون درهماً . وزن الاواني الذهبية ثلاثة واربعون الفاً وتسعمائة وسبعون مثقالاً . آنية الفضة الف وتسعمائة وخمسة وسبعون رطلاً . ومما وزن بالشاهين من آنية الفضة ثلاثة عشر الف وستمائة وخمسة وسبعون درهماً . ومن الند المعمول سبعة آلاف واربعمائة مثقال ومن العود المطرا اربعة آلاف واربعمائة وعشرون مثقالاً . ومن العنبر خمسة آلاف وعشرون مثقالاً ومن نوافج المسك ثمانمائة وستون نافجة . ومن المسك المنثور الف وستمائة مثقال ومن السك الفا الف وستة واربعون مثقالاً . ومن البرمكية الف وثلاثمائة وتسعة وتسعون مثقالاً . ومن الغاليه ثلاثمائة وستة وستون مثقالاً ومن الثياب المنسوجة بالذهب ثمانية عشر ثوباً قيمة كل واحد ثلثمائة دينار . ومن السروج ثلاثة عشر سرجاً . ومن الجواهر حجران ياقوت . ومن الخواتيم الياقوتية خمسة عشر خاتماً . خاتم فصه زبرجد . ومن حب اللؤلؤ سبعون حبة وزنها تسعة عشر مثقالاً ونصف ومن الخيل الفحول والاناث مائة وخمسة وسبعون رأساً . ومن الخدم السودان مائة واربعة عشر خادماً ومن الغلمان البيض مائة وثمانية وعشرون غلاماً . ومن خدم الصقالبة والروم تسعة عشر خادماً . ومن الغلمان الاكابر اربعون غلاماً بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم . ومن اصناف الكسوة ماقيمته عشرون الف دينار . ومن اصناف الفرش ماقيمته عشرة آلاف دينار . ومن الدواب المهاري والبغال مائة وثمانية وعشرون رأساً . ومن الجماز والجمازات تسع وتسعون رأساً . ومن الحمير النقالة الكبار تسعون رأساً . ومن قباب الخيام الكبار مائة وخمس وعشرون خيمة . ومن الهوادج والسروج اربعة عشر هودجاً . ومن الغضائر الصيني والزجاج المحكم الفاخر اربعة عشر صندوقاً اه .

قلنا ولا عجب ان يخلف احد العمال مثل هذه الثروة والبلاد عامرة على ذاك العهد اكثر من اليوم ولم تكن الدولة تحتاج كما هي حال الدول اليوم ان تنفق على بحريتها وبريتها هذه النفقات المضنية الفاحشة ذكر ياقوت في مادة « السواد » ان الخليفة الثاني امر بمسح السواد سواد العراق فكان بعد ان اخرج عنه الجبال والاودية والانهار

ومواضع المدن والقرى ستة وثلاثين الف الف جريب فوضع على جريب الحنطة اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى جريب النخل ثمانية دراهم وعلى جريب الكرم والشجر ستة دراهم وختم الجزية على ستمائة الف انسان وجعلها طبقات الطبقة العالية ثمانية واربعون درهماً والوسطى اربعة وعشرون درهماً والسفلي اثنا عشر درهماً فجبى السواد مائة الف وثمانية وعشرين الف الف درهم . قال عمر بن عبد العزيز لعن الله الحجاج فانه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جبى العراق بالعدل والنصفة مائة الف الف وثمانية وعشرين الف الف درهم وجباه زياد مائة الف الف وخمسة وعشرين الف الف درهم وجباه ابن عبيد الله اكثر منه بعشرة آلاف الف درهم ثم جباه الحجاج بعسفه وظلمه وجبروته ثمانية وعشرين الف الف درهم فقط واسلف الفلاحين للعمارة الفي الف فحصل له ستة عشر الف الف قال عمر بن عبد العزيز وها انا قد رجع اليّ على خرابه فجبيته مائة الف الف واربعة وعشرين الف الف درهم بالعدل والنصفة وان عشت له لازيدن على جباية عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وشبيه بهذا مارواه ياقوت في مادة « مصر » عن احمد بن المدبر من انه لو عمرت مصر كلها لوفت بالدنيا وقال : ان مساحة مصر ثمانية وعشرون الف الف فدان وانما يعمل فيها في الف الف فدان . جبى عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اثني عشر الف الف دينار فصرفه وقلدها عبد الله بن ابي سرح فجباها اربعة عشر الف الف فقال عمر لعمرو يا ابا عبد الله اعلمت ان اللقحة بعدك درت فقال : نعم ولكنها اجاعت اولادها . وقال لنا ابو حازم : ان هذا الذي رفعه عمرو بن العاص وابن ابي سرح انما كان عن الجماجم خاصة دون الخراج وغيره ... ولا عجب فان عمران مصر في القديم كعمران العراق او هو اكثر روى ياقوت في مادة « حرجة » قال : حدثني الثقة ان شمس الدولة توران شاه بن ايوب اخا الملك الصالح الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب كان يقول : ما اعرف في الدنيا ارضاً طولها شوط فرس في مثله يستغل ثلاثين الف دينار غير الحرجة .

يفيض ياقوت في كلامه على البلدان بذكر اسماء من خرج منها من الاعيان ولا سيما المحدثون بحيث ربما ادخل الملل على بعض المطالعين لانه يورث الكلام طولاً ولكن منهم من هو المهم في فنه . ويستشهد باقوال الشعراء في البلاد وربما استشهد بالشعر

لجودته او للتنويه بقائله بالمناسبة مثال ذلك ماقاله في طرطوشة في ترجمة ابن ابي رندقة الطرطوشي المتوفى ٥٢٠ وكانت له نفس ابية اخبرت انه كان في بيت المقدس يطبخ في شقف وكان مجانباً للسلطان استدعاه فلم يجبه وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر وله تآليف وشعر فمن شعره في بر الوالدين :

لو كان يدري الابن اية غصة　　يتجرع الابوان عند فراقه
أم تهيج بوجده حيرانة　　واب يسحُّ الدمع من آماقه
يتجرعان لبينه غصص الردى　　ويبوح ما كتماه من اشواقه
لرثى لأُم سلَّ من احشائها　　وبكى لشيخ هام في آفاقه
ولبدل الخلق الابيَّ بعطفه　　وجزاهما بالعذب من اخلاقه

وقال في « صيمرة » ومنها ابو العنبس الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شاعراً اديباً مطبوعاً ذا ترهات وله تصانيف هزلية نحو الثلاثين منها تأخير المعرفة وغير ذلك ومن شعره :

كم مريض قد عاش من بعد يأس　　بعد موت الطبيب والعواد
قد يصاد القطا فينجو سليماً　　ويحلُّ القضاء بالصياد

ومثال الاشعار التي اوردها في البلدان قول أُحيحة بن الجلاح في ارضه الزوراء :

استغن او مت ولا يغررك ذو نسب　　من ابن عم ولا عم ولا خال
يلوون ماعندهم عن حق جارهم　　وعن عشيرتهم والمال بالوالي
فاجمع ولا تحقرن شيئاً تجمعه　　ولا تضيعنه يوماً على حال
اني اقيم على الزوراء اعمرها　　ان الحبيب الى الاخوان ذو المال
بها ثلاث بناء في جوانبها　　فكلها عقب تسقى باقبال
كل النداء اذا ناديت يخذلني　　الا ندائي اذا ناديت يا مالي
ما ان اقول لشيء حين افعله　　لا استطيع ولا ينبو على حال

ومثله ما اورده في مادة « بيمم » بفتح اوله وثانيه وميم ساكنة وباء موحدة اخرى وميم اسم موضع قرب تبالة عند بيشه وترج والتلفظ به عسر لقرب مخارج حروفه قال حميد بن ثور

وما هاج هذا الشوق الا حمامة　　دعت ساق حر ترحة وتأوما
من الورق حماء العلاطين باكرت　　عسيب اشاء مطلع الشمس مبيما

اذا زعزعته الريح او لعبت به ارنت عليه مائلاً ومقوماً
تنادي حمام الجهلتين وترعوي الى ابن ثلاث بين عودين اعجما
مطوق طوق لم يكن عن تميمة ولا ضرب صواغ بكفيه درهما
تقبض عنه غرقيّ البيض واكتسى انابيب من مستعجل الريش اقتما
يمد اليها خشية الموت جيده كمدك بالكف البري المقدما
فلما اكتسى الريش السخام ولم يجد لها معه في باحة العش مجثما
اتيح لها صقر منيف فلم يدع لها ولداً الا رماماً واعظما
فأرقت على غصن ضحياً فلم تدع لباكية في شجوها متلوما
فهاج حمام الجهلتين نواحها كما هيجت ثكلى عَلَى الموت مأتما
اذا شئت غنتني باجزاع بيشة او النخل من تثليث او من يبنبما
عجبت لها انى يكون بكاؤها فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما
فلم ار محزوناً له مثل صوتها احر وانكى في الفؤاد واكلما
ولم ار مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت اعجما

اخبار وافكار

التلغراف اللاسلكي

اخذ هذا السلك يرتقي و يكثر و يقدرون الآن عدد محطاته بمائتين وثلاثين محطة عَلَى سطح الكرة منها ٣٢ في كندا و ٢٥ في انكلترا و ٢٣ في روسيا و ٢٠ في المانيا و ٢٠ في ايطاليا و ١٥ في برازيل و ١١ في الهند و ٩ في اسبانيا و ٨ في فرنسا و يبلغ عدد البواخر التجارية التي تمخر عباب جميع البحار التي ارتبطت بالتلغراف اللاسلكي ١٢٠٠ باخرة منها ٥٩٠ لانكلترا و ١٥٣ لالمانيا و ٩٠ لفرنسا وهذه الطريقة من المواصلات تنمو سنة عن سنة

لغة الاسبرانتو

لغة الاسبرانتو هي اللغة التي اخترعها ضابط روسي وانتشرت بين الامم المتمدنة بعض

الشيء لانها سهلة موءلفة من ابسط الكلمات اللاتينية ويرجو ناشروها اليوم ان تعم العالم كله فتصبح لغة الامم لتزول الخلافات بين الشعوب التي تتقاتل كل يوم ولا تفكر الا في ان ينقض بعضها على الآخر و ينهب احدها ملك الآخر · قال احدهم اذا كان بعضهم يرون ان من الخيال ان تكون اليوم للبشر لغة عامة مشتركة فانه لا يبعد ان تتحق هذه الامنية غداً فان المستقبل للخياليين · واكبر دليل عَلَى ان البشر يستطيعون ان يتعلموا لغتين تكونان لهم بمثابة لغة واحدة ان شعوباً برمتها لهذا العهد تتكلم بلغتين وتعتبرهما لغة واحدة · فان الشعب في اقليم البروفانس يتكلم باللغة البروفانسية ومع هذا يتكلمون بالافرنسية بسهولة وفي بلاد الباسك يتكلمون بالافرنسية وباللغة الباسكية وفي اقليم برتانيا يتكلمون بلغة البروتون وبالافرنسية وفي بلاد الغال بالغالية والانكليزية وفي سويسرا يتكلم نصف مليون من اهلها باللغتين الافرنسية والالمانية واهل فنلندا يتكلمون باللغة الفنلاندية وبالسويدية واهل صقلية والنيمون في ايطاليا يتكلمون باللغة الايطالية ولهم لهجة خاصة مختلفة احداها عن الاخرى تختلف عن الايطالية الحقيقية التي يتكلم بها في فلورنسة ورومية · فاذا صحت عزائم الصناع والعملة والفلاحين على تعلم هذه اللغة لا يضطرون في دراستها الى مدارسة النحو والصرف بل يتعلمونها لاهون بسبب وتنفعهم في جميع ارجاء العالم لسهولتها وهذه اللغة كما قالوا هي اشبه بالاخوة المسيحية لان المتكلمين بها يتكلمون كما يتكلم الاخوة اذ لا اختلاف بينهم · اما الشرقيون فان تعلم لغة الاسبرانتو يقرب في صعوبته عليهم من تعلم لغة من لغات المدنية الحديثة ولذلك كانت الاسبرانتو لغة للغربيين · والشرقيون ولا سيما في تركستان والصين وافغانستان وبلوجستان وايران وجاوه ومعظم اقطار افريقية اقرب الى ان يتفاهموا باللغة العربية لانها سهلة وكثير من خاصتها يحسنونها ولا سيما اهل الاسلام منهم

الطيور اللامعة

كان القدماء يعتقدون بوجود طيور مضيئة وقد اكد ذلك بلين في عصره وقال انه كان في غابة هرسنين الممتدة بين نهري الرين والفستول من هذه الطيور وما زال العلماء بعده يثبتون هذه الدعوى من حين الى آخر حتى اثبتت احدى المجلات العلمية الانكليزية سنة ١٩٠٧ انه ظهر في ضواحي كمبردج طيور من هذا الشكل فاكدت ماطالما ذهب اليه علماء الفرنسيس من وجود طيور بهذه المثابة في جبال البرنية والفوج وقد قتل احد الصيادين موءخراً بومة فيها هذا اللمعان وثبت لهم ان لمعانها من ريشها

188

وان تأنق بعض الطيور اثبته الطبيعيون ونسبوه الى ميكروبات تقوم على اجنحة الطيور والمسألة آخذة شأناً مهماً من البحث بين العلماء

حانات الامم

كان الشائع ان الطليان اكثر الامم اغراقاً في تناول المسكرات ولكن تبين من عدة احصاءات ان الفرنسيس اشد استرسالاً في هذا السبيل فقد ذكرت مجلة الصحة الافرنسية ان اماكن بيع المشروبات الروحية في العالم المتمدن هي كما يلي :

يصيب في فرنسا كل	٨٣	شخصاً	حانة واحدة
« سويسرا	١٤٣	«	«
« ايطاليا	١٧٠	«	«
« هولاندة	٢٠٠	«	«
« انكلترا	٢٣٠	«	«
« المانيا	٢٤٦	«	«
« الولايات المتحدة	٣٨٨	«	«
« البلجيك	٤١٠	«	«
« السويد	٥٥٠٠	«	«
« كندا	٩٠٠٠	«	«
« نروج	٩٥٠٠	«	«

وبهذا الاحصاء تسقط دعوى من يقول ان البلاد الباردة يحتاج ساكنها الى الالكحول اكثر من غيرها فانت ترى السويد ونروج وهما اشد بلاد اوربا برودة اقلها مسكرات فليتأمل الشرق الذي يقلد على العميا في تناول المشروبات الروحية ٠

المرأة في الهند

عقد هذه السنة المؤتمر الاول لتعليم المرأة المسلمة في الهند بحضور مئات من الطبقة الراقية من المتعلمات والقيت فيه خطب ترمي الى تهذيب الفتاة المسلمة وتعليمها التعليم الديني المدني ٠ وقد ذكرت بعض المجلات ان الهند قد بدأت في العشر سنين الاخيرة تستفيد من ارتقاء المرأة فيها بفضل مساعي الهنود والذين استفادوا من التربية الغربية وبمعاونة المرسلين وعمال الحكومة فتحررت المرأة الهندية من جهلها وخرافاتها وقد دلت الاحصاءات الاخيرة ان في كل عشرة آلاف امرأة ١٠٥ متعلمات

و١٠ في العشرة آلاف تعرف اللغة الانكليزية ولا يوجد في شعب يبلغ ٣١٥ مليوناً سوى نحو مليون امرأة متعلمة . والمتعلمات اكثرهن في طائفة البارسيس ومنهن المسيحيات وقد بدأت النهضة من مدينة بومباي وفيها تألفت جمعيات النساء الاولى ونشرت مجلة تحرير المرأة الهندية . وشارك النساء الرجال في جميع الاعمال واثرن في كل شيء حتى في السياسة . وقد اشترك في جمعية كبرى في لندن البارسيسيات والمسلمات والمسيحيات والاوربيات واخذن يتبادلن الافكار ويتعارفن ويترينضن وربما دعون الرجال في الاحايين لمشاركتهن في الالعاب الرياضية وهذه الجمعية خدمت في فك القيود التي مازالت تتقيد بها الطبقات من الشعب هناك وتحول دون النساء من الاختلاط بالرجال . ومن جمعيات النساء مايسعى بتطهير الضواحي وتعلم الامهات حفظ الصحة والنظافة وتمرض المرضى وتقاوم الالكحول والفساد وتقاوم مبدأ تزويج البنات في سن الطفولة وقد اسست مثل هذه الجمعيات في جميع حواضر الهند في بنجاب وبنغال وكلكوتا ومدراس وقد تعدى عملهن الى ماوراء الهند فبلغ جنوبي افريقية حيث هاجر كثير من الهنود مع ازواجهن

حرير الخث

ظهر ان في الخث او نبات الماء الذي يقذف به البحر على شواطئ نورمانديا ونروج وايكوسيا وكندا المعروف باسم « تان » خصائص فنية يصلح معها لعمل حرير صناعي ينافس الحرير المعروف بجنس شاردونه وقد اخذ اناس من ارباب الصناعة من الانكليز يستثمرون هذا النبات ويعلقون عليه آمالاً كبيرة ومتى حول الخث الى نسيج يصبح ذا قيمة صناعية لم تكن له حتى الآن

آثار في الحبشة

جرت حفريات في بلاد الحبشة منذ اربع سنين فاكتشفوا قصر ميروي الملكي والحمامات المعدنية المتصلة به كما عثروا على كنز من الذهب . وقد حفروا في خرائب معبد صغير من الطراز الروماني رأوا فيه امتعة يستدل منها ان الجيش الروماني احتل بلاد الحبشة زمناً وهذا مما يصحح بعض ما أشكل البت فيه على مومسن صاحب تاريخ دولة الرومان . وعلم الآثار منذ كان اعظم مساعد على فهم الحقائق التاريخية القديمة .

فطر ينفجر

اسم هذا الفطر العلمي فيلوبولوس كريستالينوس وهو ينبت وينمو ويموت في اربع

وعشرين ساعة فيبدو لطعاً صفراء اولاً ولا يلبث ان تتكون منه انبوبة صغيرة مذهبة وبعد ثلاث ساعات ينتفخ طرف الانبوب وتغطيه حقة تكون له بمثابة غطاء وفي هذا الانتفاخ توجد التراكيب المنتجة للفطر ثم يفقد لونه ويصبح شفافاً ماعدا الحقة الصغيرة التي تسود وبتأثير الضوء يأخذ السائل الحامض الموجود في الانبوب بالتخمر وتنفجر الحقة ولما كان طول هذا الفطر نحو ثلاثة مليمترات فقط اصبح لا يرى الا بالمجهر

استعمار الجزائر

في «المجلة الاسبوعية» ان النفوس قد تكاثرت في الجزائر بسرعة بالنظر لما فيها من الموارد العظيمة فزاد عدد سكان ذاك القطر في خلال خمس وثلاثين سنة ضعفاً وكان سنة ١٨٧٦ = ٢،٨٠٧،٠٠٠ فاصبح ٥،٥٦٣،٠٠٠ سنة ١٩١١! يدخل في هذا العدد الوطنيون من سكان الاراضي الجنوبية الذين أُخرجوا موءخراً من هذا المجموع لاسباب ادارية وحددت الجزائر على البلاد الساحلية فاصبحت ١٦٦ الف كيلو متر مربع وما كان وراء ذلك من الصحراء والقريب منها جعل ولاية خاصة على ان عدد الجزائر على تحديد رقعتها قد بلغت زهاء خمسة ملايين نسمة في احصاء سنة ١٩١٢ ومنه ٧٦٦ الف اوربي · ولما بدأت فرنسا باحتلال تلك البلاد سهلت السبيل الى المستعمرين (وهم بالطبع من الاوربيين) فاخذت تمنحهم اراضي مجاناً عَلَى شرط ان يسكنوا في البلاد فانشئت قرى جديدة وأُعطيت امتيازات الى بعض المستعمرين المنفردين ولكن هذه الطريقة لم تأت بنتيجة وذلك لان المستعمرين لم يكونوا في الغالب اهل قابلية ولا عندهم الاسباب اللازمة للاعمال الاولية في الزراعة فظلت الاراضي بائرة الا قليلاً ولما رأت ان هذه الطريقة لم تأت بفائدة عمدت الى بيع الاراضي في المزاد كما هي طريقة الاستعمار وبذلك يبتاع الارض غالباً من اعتاد القيام عليها ويتعلق بها لانه يكون قد وضع كمية من النقد لاستثمارها وبذلك تنتخب الحكومة كل سنة اراضي تريد ان تحدث فيها مزارع او قرى تربطها بالمراكز القريبة منها وتقوم بالحاجيات العامة من مثل جر المياه اللازمة لاروائها وانشاء الاماكن العامة الضرورية للحياة المدنية · وهذه الاراضي المقسومة الى عدة قطع تختلف مساحتها بين ١٠٠٦٠ هكتاراً (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) وتعرض للبيع باقل من ثمن مثلها بقليل وتأخذ ثمن الاراضي على تقاسيط ثمانية مدة عشر سنين · اثنان منها عند عقد المقاولة الاولى وواحد بعد ثلاث سنين ثم تستوفي واحداً من الثمانية في السنين الاخيرة وقد قالت

المحلة التي عربنا عنها ماسلف ان نتائج هذه الطريقة قد كانت مما يوجب الرضا كما تبين من احصاء الاراضي التي اخذت تباع على هذه الصورة منذ نهاية سنة ١٩٠٤ فقد بيع ١٠٤٤٣٧ هكتاراً بمعدل ١٢٥ فرنكاً كل هكتار فجاء يستثمرها ويسكن بالقرب منها ٦٦٠١ أسرة مستعمرة مؤلفة من زهاء الفي نسمة على حين ان ٤٢٧٠٧ كانت توزع مجاناً على ٥٣٥ أسرة ولا تأتي بفائدة . قلنا وهذه الطريقة في توزيع الاراضي اذا جربتها الحكومة في الشام والعراق والجزيرة تأتي ولا شك بفوائد مهمة خصوصاً اذا اشترطت ان يفضل فيها الوطني على الاجنبي

الخشب الباقي

الخشب يتغير على الزمن وان صنع بحيث يقاوم تأثير الرطوبات والخشب الطبيعي هو غاية الغايات في هذا الباب وقد وجدت في بعض الجوامع والقصور والقبور نوافذ ومنابر وصناديق منذ القرن الخامس والسادس ومنها نموذجات في دار الآثار العربية في القاهرة كانت وما زالت موضع اعجاب من يحبون بقاء المادة وابقاء الآثار . والغالب ان ارز لبنان الذي بني به هيكل سليمان وكان الفراعنة ينقلونه على سفنهم من شواطئ سورية الى شواطئ مصر كان ولا يزال اعظم خشب لا تبلي الايام جديده هذا مع انه كان في مصر غابات (١) ولا سيما على عهد الخلفاء الفواطم وسلاطين بني ايوب استخدم خشبها لعمل المراكب للاسطول ولا شك في انه عدا هذه الاشجار المعدة للبحرية من زرع شجر آخر نجد خشبه في معروضات دار الآثار الكثيرة ولجفاف هواء مصر صار الخشب يحفظ جيداً في ربوعها ومن ثم اضحى له دخل كبير في ابنيتها الا ترى ان دعائم جامع ابن طولون التي يزيد عمرها على الف سنة لا تزال بها السافات الخشب الاصلية وكذلك اقدم القباب المعمولة من الآجر تحتوي على مجموعة من الخشب اشبه شيء بالقفص او الهيكل الذي اقيمت عليه القبة وهناك افريز نقش عليه القرآن كله بالقلم الكوفي . اما في بلاد الشام فان اقدم خشب عثر عليه فيما نذكر تابوت السلطان صلاح الدين في مدفنه شمالي جامع بني امية فتح في اوائل هذا القرن عندما اريد ترميم القبة ثم اعيد الى ما كان عليه كأنه عمل الساعة لم يلحقه سوس ولا ارضة ولا رطوبة ولا شيء من مفسدات الخشب وفي دار الآثار الاسلامية في الاستانة نموذجات من الخشب القديم ولكنها

(١) فهرس مقتنيات دار الآثار العربية ولمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية في مصر تأليف مكس هرتس بك وتعريب علي بك بهجت

190

غير قديمة كثيراً على ما يظهر . وقد قرأنا في « المجلة » الباريزية ان في غينة الفرنسوية شجراً اسمه المانجروف وهو اشبه بخشب الارز بمتانته ابتاعت احدى شركات السكك الحديدية منه الواحاً سنة ١٩٠٩ لتجعلها عوارض في الخطوط فغمرتها منذ ذاك العهد في بأر جعلت فيها جميع عناصر الافساد للخشب ولا تزال الالواح سليمة بحالها وكثافة هذا الخشب تبلغ ١١٠ في حين ان كثافة البلوط ٧٠ وكثافة الصنوبر ٤٠ وتكثر فيه المادة الدابغة التي تقيه سطوات الحشرات وهو لين صعب قطعه يستعمل عوارض للسكك الحديدية وعمداً للجسور ودعائم في انفاق المناجم ولنجارة السفن وغير ذلك

الحرب والعناصر

اصدر احد الانكليز بحثاً في تأثير الحرب في اجيال الناس وعناصرهم فقال ان تأثيرات الحرب هي منافية لقاعدة الانتخاب الطبيعي وبقاء الانسب فان تقاتل الامم يبيد العناصر الاكثر فتوة والاشد قوة ويترك للضعاف امر تدبير من عاشوا بعد الحرب فقد استطاعت يابان بعد مائتي سنة قضتها في السلام المتواصل ان تجند جيشاً كان برجوليته موضع اعجاب العالم ولا سيما الصين والروس وما ذلك الا لان قاعدة الانتخاب الطبيعي خلال هذه المدة لم يصادمها عائق من العوائق . وهكذا الحال في ايكوسيا من بلاد الانكليز فانها بعثت خلال مائة وخمسين سنة باقوى ابنائها يقاتلون في صفوف الانكليز فلم يبق لها اليوم الا عدد قليل من العنصر القديم والكتائب الايكوسية تشكو من هذه القلة . الحرب يأتي على جذوع الشجرة الوطنية فالثمر لا يناله شيء من بوائقها من حيث كيفيته بل يناله من حيث كميته فانها تقل وبذلك لا يأتي زمن طويل حتى يضعف الجذع نفسه . وهكذا ترى الاقوياء من الرجال بعد حرب طاحنة على ندرة و يتنازل معدل الرجولية

المراقبة بالسينماتوغراف

يعمد ارباب المعامل في العادة الى المعلمين في معاملهم لملاحظة العملة من اضاعة اوقاتهم وتلهيهم عن العمل ولكن هذه المراقبة قد لا تتناول جميع المستخدمين فاخترع اثنان من اهل البحث في الغرب طريقة فعالة في منع العملة من النجاة من المراقبة ومن خديعة المراقب وذلك باستخدام السينماتوغراف فانشأ آلة لها ساعتان دقاقتان لاحداهما وجه مقسم الى مئة جزء متساوٍ تتحرك عليه ابرة تدور عشر دورات في الدقيقة وكل تقسيم يقابل واحداً في الالف من الدقيقة وليس في الساعة الثانية شيء خاص بل هي

تدل فقط على الساعة كالتي ترى في كل مكان فتوضع الساعتان احداهما في مقابل العامل وتأخذ تخرج حركاته في الآن الذي يبدأ بالعمل فابرة الساعة الاولى تدل على الوقت الذي مضى بين كل من هذه الحركات والساعة الثانية تدل على سير الساعة والجهاز الذي ينقل الحركات يتوالى ثلاث مرات في كل الف مرة من الدقيقة وترى وهي تدور ببطء تقيد العامل بما يعمل وهذا الاختراع يفيد في بيان مايلزم لعمل شيء او لادارة آلة فالعامل لا يستطيع بهذه الآلة ان يغش في عمله من حيث الكيفية والكمية وليس في هذا الاختراع من عيب الا غلاء سعره ومتى رخص يعم استعماله وما ندري كم يأتينا العلم من الغرائب بعد ·

اقدم متحف

اقدم متحف في العالم هو في مدينة نارا من اعمال يابان انشيء سنة ٧٥٦م وفيه مجموعة نفيسة من الجوامد والمعادن وانموذجات من الخشب الوطني والوف من الاواني المعمولة من اللك الصيني ومجموعة اعشاب يابسة · ولكن هذا المتحف محظور دخوله فلا تتأتى زيارته الا متى يعهد الى لجنة خاصة كل صيف ان تدخله للتفتيش عليه وفيما خلا ذلك من الاوقات فهو مغلق

غنى العالم

الذهب والفضة اليوم جزء ضئيل من ثروة الارض فاذا شئت ان تعرف مبلغ غنى امة فعليك ان تتمثل اساليبها في عملها وتتدبر قوتها المالية كما تتدبر قوتها العددية والجندية · وعلى كثرة الاحصائيين والماليين والاقتصاديين يصعب اليوم اعطاء حكم صريح في ثروة العالم المنقولة وغاية ماقدره نيمارك الى آخر سنة ١٩١٢ ان مجموع الثروة المنقولة في الارض هي ٨٥٠ مليار فرنك وكان مجموعها سنة ١٩٠٣ ٦٧٧ ملياراً فزادت في عشر سنين ١٧٥ ملياراً اي بزيادة ١٧،٣ ملياراً كل سنة · تزيد حاجات الانسانية العامة بسرعة ويزيد غرام الامم بالقروض · وهذه الارقام لا تمثل القيمة الحقيقية لثروتنا المنقولة فالقول بان ثروة العالم المنقولة او ثروتها من ذهبها ٨٥٠ مليار فرنك موضع نظر بليغ فاول مايجب جعله قيد النظر ان ترد هذه الثروة الى كل مملكة برأسها ويحسب ماذا يصيب الممالك وقد اعتاد الاحصائيون ان يقسموا الثروة في العالم الى خمسة اقسام اساسية : انكلترا ومستعمراتها (ماعدا كندا وممالك افريقية الجنوبية المتحدة) وقارة اوربا وقارة اميركا وقارة آسيا وقارة افريقية ، ثم يقسمون نوع الثروة

١٩١

المنقولة الى ثلاث فصائل القروض العامة (قروض الممالك والبلديات والقروض الداخلية) اسهم المصارف واموال الصناعات مثل ثروة التجار وثروة المعادن · والقسم الاول من ذلك وهو قسم القروض آخذ بالنمو كثيراً فقد كان سنة ١٩٠٧—٥ مليارات فرنك فاصبح سنة ١٩١٠—٩ مليارات ثم نزل معدلها في سنة ١٩١١—١٩١٢—١٩١٣ وذلك بداعي الحروب والازمات واضطرت الحكومات الى اصدار سندات او استلاف اموال من طرق منوعة كما فعلت الدولة العثمانية خلال ذلك ريثما عقد بعد الحرب البلقانية القرض الاخير بسبعمائة مليون فرنك وكما فعلت حكومات البلقان نفسها وذلك لان ميزانيات الحربية آخذة بالازدياد في كل الممالك المتحايدة حتى الصغرى مثل البلجيك والدانيمرك واسوج ونروج وسويسرا فقد زادت ميزانية يابان ٥٧٨ في المئة عن سنة ١٨٩٠ او نحو ستة اضعاف ما كانت عليه منذ ٢٤ سنة وزادت في النمسا ٤١٠ في المئة خلال هذه المدة وزادت ٢٣٨ في المئة في روسيا و ١٤٠ في المانيا و ١١٢ في البلجيك و٤٧ في فرنسا وما قط تحمل نظار المالية مثل هذه التبعة · والقسم الثاني اي اسهم المصارف اقل من الاول بكثير فلم يكن ٢٠ في المئة من مجموع ماصدر من السندات والاسهم اما القسم الثالث فهو اهم الاقسام لانه يدخل فيه جميع المشاريع الانسانية وحدوده واسعة للغاية فاذا اخرجنا منه ٣٠٠ مليار فرنك قيمة الخطوط الحديدية في العالم يبقى المال المستخدم في الصناعات فانه حسب ماهو موجود منها في برلين فقط فكان عشرة مليارات سنة ١٩١٠ والبلجيك آخذة بانماء ثروتها في صناعاتها فقد كانت سنة ١٩١٣— اربعة مليارات ومئة مليون فرنك وهي تزيد السنة بعد السنة زيادة كبرى بفضل معادنها واعمالها الحديدية والكهربائية فقدر بحث من ذلك ارباحاً طائلة ولاسيما من الحديد والكهرباء · بقي هنا ان يقال من يملك ياترى هذه الثروة المنقولة فالجواب ان بريطانيا العظمى هي اغنى الممالك فانها تملك من ١٤٥—١٥٠ ملياراً ثم الولايات المتحدة ولكنها توشك ان تحرز المقام الاول فان ثروتها تقدر الآن بـ١٣٥—١٤٠ ملياراً كلها لها ولامتها وفرنسا هي الثالثة بثروتها بين ممالك العالم فانها تقدر من ١١٠ الى ١١٥ ملياراً وتزيد ثروتها في السنة مليارين ونصفاً ومن ذلك ثروة الفرنسيس انفسهم من ٦٠ الى ٧٥ ملياراً ونحو اربعين ملياراً للاجانب واهم البلاد المقترضة من فرنسا هي روسيا فان لها عندها ١١ ملياراً ثم اميركا اللاتينية ومصر والممالك البلقانية والدولة العلية · والمانيا تكاد تكون مثل فرنسا بثروتها فانها تقدر بـ١١٠ مليارات وكانت سنة ١٩٠٨—٨٥ ملياراً فربحت

في خمس سنين ٢٥ ملياراً فالربح السنوي الذي يزيد في ثروتها بالاقتصاد وغلاء الاسعار يبلغ سنوياً خمسة مليارات اي قيمة الغرامة الحربية التي قبضتها دفعة واحدة من فرنسا في حرب السبعين .

اما الممالك الاخرى فلا يتأتى تشبيهها بتلك الممالك الاربع الكبرى فان اموال روسيا كلها تقدر بخمسة وثلاثين ملياراً والنمسا بخمسة وعشرين وايطاليا بثمانية عشر واليابان بستة عشر ومع هذا فان ثروة هذه الممالك آخذة بالازدياد فروسيا توفي السنة بعد الاخرى ديونها وكذلك ايطاليا واسبانيا وكذلك اليابان وعلى هذا ربما حدث تغيير في ميزانية الدول في المستقبل . هذا بعض ما قرأناه في احدى الصحف المالية الكبرى نقلناه تفكهة للقراء فان الجارية القرعاء تفتخر بشعر جارتها ونحن في الشرق لا نعرف من تنمية الثروة الا ان نقترض ونستلف

التهاب المفصل

من جملة امراض المفاصل الداء المعروف بالالتهاب (ارتريت) المشوه الذي يسميه العامة وجع الشيخوخة وان كان يصيب الصغار كما يصيب الكبار وقد جرت مداواة هذا المرض بادوية كثيرة حتى الآن كالرياضة البدنية وصبغة اليود واخذ الحمامات الكبريتية والمعالجة بالماء البارد ولكن جميع هذه الوصفات لم تثمر الثمرة المطلوبة للمصاب بهذا الداء الذي حسب في جملة الامراض العضالة . وقد اخترع احد اهل الاخصاء من اطباء الالمان دواءً جديداً غريباً لهذا المرض وهو ان يوضع نحل على المحل الموجع فيلذع بحمته الجلد فيحدث فيه احمرار ومن سميته يرتعش جسم المصاب ويحس بوجع رأس وغثيان وضربات قلب اولاً ثم يخف المه ويتبين بعد ذلك فيما اذا كان هذا الوجع حادثاً من التهاب في المفاصل او انه اعراض سل او سيلان مخاطي اوغير ذلك واشترط المخترع في معالجة المبتلى ان يكون الداء في اوله لا مزمناً والعظم سليماً لا مشوهاً

تأثير الهواء

كان العلماء الى اوائل القرن العشرين يرون الهواء عاملاً ثانوياً في تركيب الارض وقد دلت الابحاث الاخيرة في آسيا الوسطى وافريقية الاستوائية والجنوبية وفي الجنوب الغربي من اميركا الشمالية ان ما كان يراه العلم مقرراً من هذا القبيل يحتاج الى تعديل وعلم الآن ان الهواء عامل قوي في انحلال الصخور وتسوية الاراضي واليه ينسب تركيب الاصقاع المقفرة او البوادي . وهذه النظرية من اهم نظريات العلم في السنين العشر

الاخيرة اثبتها لاول مرة سنة ١٩٠٤ الجيولوجي باسارج الالماني وايدتها التجارب التي جربت في منطقة ما وراء بحر الخزر وفي اعالي سهول المكسيك ففسرت الظواهر العديدة التي تلاحظ في الاراضي الحارة تفسيراً معقولاً وكان القدماء يعزونها الى عمل الامطار ومجاري المياه وانها هي العامل الاول في تبديل صورة الارض فظهر اليوم ان هذه النظرية مغلطة وان للهواء اليد الطولى في هذا التبدل فيه تنحل الصخور وتحمل بقاياها الى المحال البعيدة

ورق الرتم

اخذت صناعة الورق تستخدم في حاجياتها النامية مواد اولية من النباتات الغنية بالخلوز ففي اميركا يصنعون الورق من الذرة و « السورغو » وفي الصين من الخيزران والتوت وشمالي افريقية يستخرج من الحلفا وفي جنوبي فرنسا يحاولون اليوم صنع الورق من الرتم (الزان) وهذا النبات غني باليافه ذات النسيج وكثير ينبت بنفسه في الاراضي البائرة ويمكن الحصول عليه بنفقة قليلة ولا يضر به الجليد الشديد ولا القيظ الفاحش ويستخرج هذا النبات من ايطاليا بثمن زهيد وقد جمعوا ما ينفق عليه فكان مهما بلغ نحو نصف اكلاف سائر المواد التي يستخرج منها الورق . والرتم هذا يقوم مقام الخشب الذي يعمل منه الورق ايضاً وقد اخذ بالتناقص واسعاره بالارتفاع

هبة كريمة

وهبت السيدة بهية خانم كريمة المرحوم علي باشا برهان في مصر للجمعية الخيرية الا سلامية في القاهرة سراياً في درب الجماميز ومساحة ما يتبعها من الاراضي ١٧٠٠٠ دونم وقيمة هذه الهبة لا تقل عن خمسين الف جنيه . ورصدت للجمعية غير ما ذكر ٦٠٠ جنيه مسانهة . وللسيدة مبرات كثيرة غير ذلك جزاها الله خيراً

الجامعة المصرية

يستخلص من تقرير مجلس ادارة الجامعة المصرية عن اعمالها في عام ١٩١٣—١٩١٤ ان مجلسها يفكر في انشاء ستة اقسام اخرى غير الاقسام الموجودة الآن كلما مست الحاجة الى احدها وتوفر المال اللازم لانشائه وهي لعلم طبقات الارض او الجيولوجيا وللعلوم الطبيعية وللعلوم الكيماوية وللمعادن والفلزات ولعلم الحيوان وتشريح المقابلة ولعلم النبات مع حديقة خاصة بهذا القسم وقسم لمكتبة الجامعة

اما حالة الجامعة المالية فلا تزال دون ما يقتضيه هذا المشروع العظيم ولكن المجلس

يستبشر خيراً بالهبة العلوية التي نفحتها بها الاميرة فاطمة اسماعيل فانها نهضت بالجامعة نهضة يرجى ان تكون فاتحة عصر تقدم سريع لها وارتقاء مطرد

وقد بلغت ايرادات الجامعة من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٢ لغاية سبتمبر (ايلول) ١٩١٣ نحو ٩٠٩٦ج٠م معظمها مستمد من خمسة ابواب وهي اعانة الاوقاف وقدرها ٥٠٠٠ج٠م واعانة الحكومة المصرية وقدرها ٢٠٠٠ج٠م وفوائد اموال الجامعة وهي ١١٢٤ج٠م وايجار الوقفيات وايرادات متنوعة وكان للجامعة في اول اكتوبر ١٩١٢ من الاموال في البنك الالماني الشرقي وسواه ١٩٨٠٨ج٠م ٠ وبلغت جملة المصروفات في المدة عينها ٨٣٩٤ج٠م فزاد المال الذي للجامعة وصار ٢٠٥١٠ج٠م في آخر سبتمبر ١٩١٣ وتقدر قيمة الاطيان الموقوفة على الجامعة بنحو ١٧٠٠٠ج٠م

ويظهر من مراجعة بيان الدروس المنشور في هذا التقرير ان الجامعة لم تقتصر على تعلم الآداب بل شرعت في تعليم العلوم فقد ادخلت في مواد التدريس العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية وعلم الفلك ٠ وسينضم الى اساتذة العلوم ثلاثة من طلبة الجامعة في اوربا يعودون الى القطر في آخر هذا العام ٠ وقد وافقت نظارة المعارف على تمييز متخرجي قسم الآداب في الجامعة في الراتب واشترطت لذلك ان تمثل في لجنة الامتحان لشهادة العالمية

وكان عدد طلبة الجامعة في العام السابق ٧٥ فبلغ في هذا العام ٣٢١ منهم ٩٤ من طلبة المدارس العالية و٤٨ من طلبة الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم و٣١ من موظفي الحكومة و ٧٠ من طلبة المدارس الثانوية والخصوصية و٩٠ من رجال القضاء والمحاماة والهندسة والطب و٩ من الموظفين في محلات تجارية و١١ من المزارعين اوغير ذوي مهنة وعدد النساء منهم ٣٥ والزيادة مطردة في مكتبة الجامعة فقد صار مجموع ما فيها من المجلدات نحو ١٢ الفاً منها ٦٧٠٠ افرنجية و١٣٠٠ عربية و٢٠٠٠ من مكتبتي شفيق بك منصور ويحيى باشا منصور يكن وقد اهديتا الى الجامعة و ٢٠٠٠ كتاب ايضاً

اموال المهاجرين

يقول قنصل الولايات المتحدة في طرابلس الشام ان المهاجرين السوريين ارسلوا الى اوطانهم في سورية عن يد اصحاب البنوك في طرابلس شام في سنة ١٩١٣ اكثر من ٧٧٥ الف ليرة ٠ وانه يؤخذ من المصادر الصادقة انه وصل الى الموانئ السورية الخمسة في العام الذي انتهى في آخر حزيران سنة ١٩١٣ اكثر من مليون و٧٧٥ الف ليرة من المهاجرين السوريين في انحاء العالم

الاراضي الزراعية في اميركا

تبلغ مساحة الولايات المتحدة ما عدا املاكها ومستعمراتها في الخارج ٢٩٧٣٨٩٠ ميلاً مربعاً ومساحة الاراضي التي توزع منها بحسب احصاء سنة ١٩١٠ نحو ١٣٥٧٢٥٠٠٧٥ فداناً منها ٨٧٨٧٩٨٣٢٥ فداناً مزارع (ابعاديات) قدرت قيمتها بنحو ٤٠٩٩١٤٥٠٠٠٠ ريال و٤٧٨٤٥١٧٥٠ فداناً أراضي معدة للزراعة قدرت قيمتها بنجو ٢١ الف مليون ريال وغلتها السنوية كلها باكثر من خمسة آلاف مليون ريال

ويبلغ عدد السكان الذين يشتغلون في الزراعة ١٠٣٨١٧٦٥ نفس منهم ٩٤٠٤٤٢٩ رجلاً و٩٧٧٣٣٦ امرأة ويملك الاميركيون البيض من المزارع ٤٧٧١٠٦٣ مزرعة والبيض غير الاميركيين (الاجانب) ٦٦٩٥٥٦ مزرعة والزنوج ٩٢٠٨٨٣ مزرعة ويسكن في هذه المزارع ٣٩٤٨٧٢٢ من اصحابها و٥٨١٠٤ من مديريها و٧١٢٢٩٤ من مستأجريها و١٣١٩٩٥٣ من مستأجريها بالشركة و٢٠٨٤٣٦ من مستأجريها بالنقد والشركة والباقون عمال

وبلغ المزروع من الذرة في العام الماضي ١٠٥٨٢٠٠٠٠ فدان محصولها ٢٤٤٦٩٨٨٠٠٠ بشل ومن القمح ٥٠١٨٤٠٠٠ فدان محصولها ٧٦٣٣٨٠٠٠٠ بشل ومن الشوفان ٣٨٣٩٩٠٠٠ فدان محصولها ١١٢١٧٦٨٠٠٠ بشل ومن الجودار ٢٥٥٧٠٠٠ فدان محصولها ٤١٣٨١٠٠٠ بشل ومن الشعير ٧٤٩٩٠٠٠ فدان محصولها ١٧٨١٨٩٠٠٠ بشل ومن البكهويت (نوع من الحنطة) ٨٠٥٠٠٠ فدان محصولها ١٣٨٣٣٠٠٠ بشل ومن بزر الكتان ٢٢٩١٠٠٠ فدان محصولها ١٧٨٥٣٠٠٠ بشل ومن الارز ٨٢٧١٠٠٠ فدان محصولها ٢٥٧٤٤٠٠٠ بشل ومن البطاطس ٣٦٦٨٠٠٠ فدان محصولها ٣٣١٥٢٥٠٠٠ بشل

وبلغت مساحة الاراضي التي زرعت قشاً لعلف المواشي ٤٨٩٥٤٠٠٠ فدان كان محصولها ٦٤١١٦٠٠٠ طن وقيمتها ٧٩٧٠٧٧٠٠٠ ريال

وبلغ محصول القطن ١٣٦٧٧٠٠٠ بالة ومحصول سكر القصب ٦٩٦٦٤٠٠٠٠ رطل وسكر البنجر ٧٢٧ الف طن

وبلغت مساحة الاراضي التي زرعت دخاناً ١٢١٦٨٠٠ فدان محصولها ٩٥٣٧٣٤٠٠٠ رطل

ويستخدم الاميركيون في زراعة اراضيهم الواسعة بحسب التقدير الذي قدرته

الحكومة في اوائل العام الحالي ٢٠٩٩٢٠٠٠ حصان و٤٤٩٠٠٠٠ بغل و٥٦٥٩٢٠٠٠ رأس من البقر على اختلاف انواعها · ويربون فيها الآن ٤٩٧١٩٠٠٠ رأس من الغنم و٥٨٩٣٣٠٠٠ رأس من الخنازير

وبلغت قيمة الابقار ما عدا الحلوبة منها ١١١٦٣٣٣٠٠٠ ريال وقيمة الابقار الحلوبة ١١١٨٤٨٧٠٠٠ ريال وقيمة المواشي التي في المزارع كلها ٦٨٩١٢٢٩٠٠٠ ريال

وبلغت زنة الصوف الذي جز من الغنم ٣١٨٥٤٧٠٠٠ رطل وزنة اللبن الذي حلب من الابقار والاغنام ١٢١٨٣٣٧٥٨٨٥ رطلاً صنعت جبناً وزبدة ولبناً محفوظاً بالعلب فبلغت قيمتها بعد صنعها ١٦٨١٨٢٧٨٩ ريالاً

وبلغت قيمة البقول التي علبت وحفظت في العلب سنة ١٩٠٥ نحو ٤٥ مليون وربع مليون ريال وقيمة الفواكه المسكرة والمحفوظة في العلب ١١٦٤٤٠٤٢ ريالاً وقيمة الفواكه المقددة ١٥٦٦٤٧٨٤ ريالاً

الافرنسية

ذكرت مجلة « مستندات الترقي » الباريزية ان اللغة الافرنسية ما برحت في الدرجة الأولى من المكانة فهي لغة ثانية للمستنيرين من البورتغاليين وتنتشر بين الاسبان اي انتشار وتعد لغة رجال السياسة في رومانيا وقد قلّ استعمالها في روسيا ولم تبرح شائعة في فنلاندة وبولونيا كما انها منتشرة في المملكة العثمانية واليونان وكندا والبرازيل · وفي هولاندة ١١٧٥ مدرسة تعلم الافرنسية وفي طهران ٣٠٠٠ طالب يتعلمها وفي مصر ٢٢،١٧٥ طالباً ، وفات المجلة ان تذكر عدد من يعلمها من الجزائريين والتونسيين فاننا رأينا اناساً من اهلها المتعلمين يتعاصى عليهم التكلم بالعربية ويجدون كل السهولة بالتخاطب والتكاتب بالافرنسية ·

انتشار الالمان

نشرت مجلة الاتحاد الجرماني احصاء في عدد الالمان المقيمين خارج بلادهم فكان عددهم ١،٨٠٠،٠٠٠ في روسيا و٥٠٠،٠٠٠ في فرنسا و١٠٠،٠٠٠ في انكلترا و٥٠،٠٠٠ في الدانيمرك و٥٠،٠٠٠ في رومانيا و٥٠٠٠ في البلاد العثمانية و٥٠،٠٠٠ في جاوة و٤٢٠٠ في الصين و٤٢٠٠ في الهند الصينية و١٢٠٠٠ في مصر و٣٦٠،٠٠٠ في كندا و٢،٦٦٦،٩٩٠ في الولايات المتحدة و٤٠٠،٠٠٠ في برازيل و١٠،٢٢٤ في الشيلي

التشويه

اعتاد الامهات والمرضعات عادة سيئة وهي ان يحملن الطفل مضطجعاً على ذراعه الايسر ممسكات له باليد اليمنى المضمومة اليه وهذه الوضعية اذا تجددت على الولاء مدة طويلة من النهار غير متقطعة الا وقت وضع الطفل في السرير او لتطهيره او ارضاعه تنتج في الغالب عقيب الضغط على الحوض او على الفخذ تحويل سلسلة الفقار ويكون ذلك محسوساً في البنات ويظهر ظهوراً بيناً عند ما يبلغن سن البلوغ . وقد اثبت الدكتور انجلمان من فينا الذي قام بتجارب طويلة مبنية على التشريح ان هذا التشويه يبدو في العادة من جهة اليسار اكثر من اليمين ويكون شديداً جداً اذا كانت المرضعات ضعيفات البنية مستعدات للكسح . ويستدل من الاحصاء الذي قام به اناس من الاختصاصيين ان في كل ٢٣١٤ تلميذاً من تلامذة المدارس الابتدائية ٩١،٤ في المئة كان فيهم تشويه في العمود الفقري مع انحناء الى اليسار . واكد آخر ان في ٦٤ في المئة من المشوهين من يحنون رؤوسهم الى تلك الجهة . ويرى الطبيب النمساوي ان هذه العاهة لا تحدث الا من الطريقة الرديئة في حمل الطفل ولذلك ينصح بالانتباه الى ذلك على الدوام . على ان التشويه القديم غير قابل للشفاء فان المشدات والتمسيد وادوات الجبس كلها من الوسائط التي قلما تؤدي الى تقويم هذا التشويه اذا كان المرض عقاماً وان الاحسن التوقي لا التداوي وتلافي هذا المرض من اصله لا معالجته بطرق اكثرها عقيم .

غرس الاشجار

نشرت نظارة الزراعة المصرية منشوراً في كيفية غرس الاشجار جاء فيه : « يجب ان تفك الاشجار المحزومة حال وصولها وتوضع جذورها في حفرة وتغطي جيداً بالتراب ثم تروى رياً كافياً وتوضع الاشجار منفردة في الحفرة اذ لا فائدة من وضعها حزمة واحدة وتغطية جذورها الخارجية بالتراب . فاذا تأخرت الاشجار العارية الجذور في الطريق وظهر على قشرتها انكماش فالاحسن غمرها ليلة في مجرى ماء ثم تدفن بجذورها واغصانها في الارض مدة ثلاثة ايام وبعد ذلك يمكن استخراجها وغرسها ويجب ان تفحص الجذور بعناية قبل الغرس فتنزع جميع اجزائها الممزقة والمنسلخة والمكسورة . اما اشجار التفاح واللوز والمشمش والتين والخوخ والكمثرى والبرقوق والسفرجل والحمضيات فيجب قطع سوقها على ارتفاع ٦٠ سنتيمتراً من القاعدة واذا وجدت في بقية الساق اغصان صغيرة تقل على بعد ٦ او ٨ سنتمترات من الساق . وقد

يموت عدد عظيم من الاشجار لانها لم تقل وقت النقل ويحسن قبل نقلها الى المغارس ان تغمس جذورها في الطين (الزهريط) فتحفر حفرة عمقها ٤٠ سنتمتراً ويملأ جزء منها بالتراب ثم يخلط التراب بماء كاف حتى يصير مائعاً وتغمس فيه الجذور فيقل الضرر الذي يلحق بالاشجار من تعرضها للشمس اثناء الغرس · واما الاشجار المغلفة الجذور بالطين فيجب غرسها وريها حال وصولها

باشلس الخناق

ثبت ان باشلس الخناق (الدفتريا) لا يعشش في محل واحد من الجسم كما كان يظن الى اليوم بل انه يغشى القلب والرئتين والكبد والطحال والكلية والنخاع واحياناً الدماغ

اشعة اكس

ان اشعة اكس التي استعملت واسطة للبحث قد استخدمت ايضاً عاملاً من عوامل الشفاء فان بها تعرف بعض الامراض في القناة الهاضمة وتشخص امراض الكبد ويبحث عن الاجسام الغريبة في تركيب الجسم وترى بها آفات الهيكل العظمي وتعدل على الآكلة والبثور الصغيرة الجلدية والاكزيما والثآليل والقرع والنواتئ الجلدية والغددوالاورام الليفية · وهذه الطريقة نافعة في الاكثر خصوصاً لانها خالية من الالم

الرياضة البدنية

ان الرياضة البدنية ولا سيما الالعاب الشائعة في الغرب وبعض الشرق مثل التنيس والكريكت والسكتين والفوتبول والتجديف في الزوارق وركوب الدراجات والسباق والقفز هي نافعة للصحة بلا جدال ولكنها تعرض اللاعب للخطر وقد وضع احد اطباء هايدلبرغ احصاء في العوارض التي تحدث منها وهذا الاحصاء في بعض الحالات يعلم اتقاء الوقوع في المخاطر ويدل على طرق الاصلاحات الواجب ادخالها في هذه التمرينات المنتشرة وقد اخذت بعض المدارس في الغرب تضع ملاحظات الطبيب موضع النظر

الهواء السائل

ثبت انه يمكن استعمال الهواء السائل بدون صعوبة ولا خطر بمثابة مادة منفجرة وجرب احدهم مزج الهواء السائل بفحم من الحطب فكانت منه مادة منفجرة سماها اوكسيليكيد ولكن هذا التركيب لا يخلو من خطر ويحتاج الى يد ماهرة جداً في استعماله وقد وضعت حكومة المانيا المقالع الملكية بالقرب من برلين تحت امر رجلين من رجال البحث في هذا الاكتشاف ليركبا تركيباً ينفجر ولكن يكون مضمون النتيجة

الحرب في القرون الاخيرة

احصى العالم «كاستون بودار» الحروب التي جرت منذ سنة ١٦١٨ ؛ حتى ١٩٠٥ فكانت كما يأتي : بمدة ٢٨٧ عاماً حدث ١٠٤٤ ؛وقعة برية و١٢٢ موقعة بحرية و٤٩٠ حصاراً و٤٤ تسليم مدينة · الحرب التي كانت مدتها اطول من كل هذه الحروب هي التي اشتبكت بين البندقية والعثمانية وقد دامت ٥٥ سنة اي من سنة ١٦٤٤ الى سنة ١٦٩٩ واقصر هذه الحروب هي الحرب بين النمسا وايطاليا سنة ١٨٤٩ ودامت ستة ايام

والامة التي حاربت اكثر من غيرها هي الامة الفرنساوية فانها خاضت ١٠٧٩ موقعة و يأتي بعدها بالترتيب النمسا وانكلترا وروسيا و بروسيا واسبانيا حاربت فرنسا ١٥ مملكة وانتصرت ٥٨٤ مرة واندحرت ٤٩٥ مرة · ومعدل انتصارات بروسيا وانكلترا ٦٠ في المائة واندحارهما ٤٠ في المائة · ولتكون لفرنسا هذه النسبة يجب ان تكون انتصاراتها ٦٤٨ واندحارها ٤٣١

انتصرت فرنسا بحروبها مع النمسا ٢٦٢ مرة واندحرت ١٩٦ ومع انكلترا غلبت ١٣٠ مرة وانكسرت ١٥٥ مرة وبحروبها مع اسبانيا ٩١١ انتصاراً و٤٥ اندحاراً ومع هولاندا ٨٠ ضد ٦٣ وبلغ عدد المواقع بين فرنسا والمانيا ٣٠٩ مرات وكان الانتصار للفرنسويين في ١٥٢ معركة

واطول حصار كان حصار جبل طارق فان هذه القلعة قاومت الانكليز مدة ١١٦٧ يوماً اي من سنة ١٧٧٩ الى سنة ١٧٨٢ · وقادس ٩٠٣ ايام ضد جنود الانكليز والاسبان المتحدين و يأتي بعدها حصار فينا بيد العثمانيين في سنة ١٦٨٣ ؛ وحصار سباستوبول دام ٣٤٦ يوماً وبورت ارثور ٢٢١ وكنديا ٢٢٨ وبلافنا ١٤٢ وكانت خسائر موقعة موكدن ١٣٨ الف رجل وفي سيدان ١٢٢ الفاً

الاشربة الروحية

خطب الدكتور حبيب افندي همام في جمعية الاعتدال السورية في الاشربة الروحية فقال : ان في الادمان عليها والافراط فيها اضراراً لايجمل الاغضاء عنها اضراراً يظهر بعضها في القريب العاجل وبعضها في البعيد الآجل وفي اواخر الحياة اذ تتحجر الكبد وتتصلب الشرايين و يلين الدماغ ويحول القلب حؤولاً دهنياً حؤولاً يضعف من قوته و يقلل من نشاطه فينوء بثقل ماتقتضيه مصلحة الجسم و يعجز عن

القيام بما يناط به من العمل فيعيش المرء بذلك زمانًا ضعيف الجسم واهي القوى لا يقوى على عمل ولا يرتاح الى حال تلك عاقبة من يدمن على استعمال الاشربة الروحية وتلك حال من يفرط في استعمالها حال تتشابه اعراضها باعراض الهرم ولذلك يخفى على الناس امرها فاذا شكا ابن الستين من الضعف قالوا هذا من الستين واذا انّ من ضيق النفس قالوا هذا ايضًا من الستين واذا قضى شهيد المسكر قالوا هذا ايضًا من الستين وما كانت (الستين) لتفعل مثل هذا وانما استدرجوا الى هذا الخطأ بما الفوه من روءية مثل هذه الاعراض في مثل هذا العقد من الحياة وقد فاتهم ان للاشربة الروحية والتدخين وغيرهما من العادات الذميمة فعلاً في تقصير مدة الاجل وانفصام حبل الحياة

شاع استعمالها في جميع انحاء المعمور وسرى سمها في عروق الكثيرين من ابناء هذا الجيل فكثرت بها الامراض والادواء وتفاقم منها البلاء والشقاء حتى قيل ان معظم شقاء الانسان صادر عنها وهو قول وان لم يصح على اطلاقه فقد يصدق في كثير من الاحوال ولما كان الجهاز الهضمي هو اول مايصاب منها بالاذى كان من الواجب ان نبدأ فيه اولاً فنقول :

الجهاز الهضمي ويقال له القناة الهضمية ايضًا وهو جهاز لطيف يتم فيه الهضم وينضج فيه الطعام ويراد به الفم والبلعوم والمريء والمعدة والامعاء وغيرها من الاعضاء التي تشترك في عمل الهضم وتتكافل على انضاج الطعام. الغشاء المخاطي ولا نزيده تعريفًا امتداد من الجلد ينعطف الى الداخل فيغشى مافي الجسم من التجاويف التي تتطرق الى الخارج ويبطن مافيها من الغدد التي تستطرق اليها وهو غشاء رقيق النسيج لطيف المادة لين القوام مخملي الملمس تخدشه خطرات النسيم ويدميه لمس الحرير على هـذا الغشاء اللطيف تمر الاشربة الروحية وفي هذه الغدد والتجاويف تستقر الالكحول ولا يخفى ان الكحول هي المبدأ الفعال في الاشربة الروحية فكل مايعزى اليها من نفع او ضرر يرجع الى مافيها من طبيعة الاحراق وخاصة التخدير اما مايراد منها بالاحراق فهو نفس مايراد بالحامض النتريك والبوتاسا الكاوي وغيرهما من الكاويات الكيمية التي تحرق ماتتصل اليه من انسجة الجسم بما فيها من شراهة امتصاص الماء فاذا دخلت القناة الهضمية احرقت ماتتصل به من حويصلات الغشاء المخاطي فاذا كان الغشاء المخاطي بليداً اثرت فيه تأثيراً حسنًا لانها تذهب بما تبلد من نسيجه وشاخ من حويصلاتها فيظهر من تحتها حويصلات اخر اقوى على العمل واقدر على الافراز

فيشعر المرء بالجوع و يستطيب الطعام وربما تناول منه شيئًا كثيراً حتى اذا زالت بلادة الغشاء المخاطي واستمر استعمالها زمنًا طويلاً اثرت فيه تأثيراً سيئًا لانها تفعل عند ذلك في حويصلات جديدة وغشاء جديد يتأكل على كرور الايام و يتقرح على مرور الزمن فيحدث من ذلك عسر الهضم وفقد شهوة الطعام

اما مايراد منها بالتخدير فهو ايضًا نفس مايراد بغيرها من المخدرات كالافيون والبنج وغيرهما من العقاقير الطبية فاذا مرت بالقناة الهضمية خدرت مايتصل به من الالياف العصبية ولا سيما الالياف المحيطة بالاوعية الدموية في توزيع الدم وانتشاره في الجسم انتشاراً يضمن لكل عضو حقه من الغذاء فاذا تخدرت بالكحول او بغيره من انواع المخدرات اضطرب نظام الجهاز الدموي واختل ناموس توزيع الدم فيجري الى حيث تخدرت هذه الالياف العصبية و يتجمع فيما تحيط به الاوعية الدموية التي تتمدد جدرانها وتتسع مساحتها فيحتقن فيها الدم احتقانًا يبعث في القناة الهضمية نشاطًا على العمل فيشعر المرء في الجوع و يستمرئ الطعام وربما تناول منه بها ضعف مايتناوله بدونها الا ان احتقان الدم في القناة الهضمية على النحو الذي تحدثه الاشربة الروحية هو احتقان مرضي حاصل من تخدير الالياف العصبية ولا يخفى بان التخدير هو نوع من الشلل فاذا تكرر مراراً عديدة حصل على الشلل التام والاحتقان الدائم وذلك يفضي الى الزكام الحاد والالتهاب المزمن وكلاهما من اسباب عسر الهضم هذا مايعلل به عما تحدثه الاشربة الروحية في القناة الهضمية من النفع الذي ينقلب الى ضرر وذلك بما فيه من خاصتي التخدير والاحراق اما مايعزى اليها من التنبيه كما يعتقد البعض فليست من الصحة بشيء فانما هي من المخدرات وما يحدث من التنبيه اثر استعمال شيء منها مسبب عن احتقان الدم الحاصل من تخدير الالياف العضبية فالادمان يفضي الى نتيجة واحدة لان التنبيه المستديم يستنزف القوى و ينهك الاعضاء فتعجز عن العمل او تعمل عن عجز

وللاشربة الروحية في القناة الهضمية اضرار أُخر يرجع بعضها الى ماتحدثه من تجميد الزلال و بعضها الى ماتحدثه من ارساب الببسين اما ماتحدثه من تجميد الزلال فواضح مما يشاهد من تصلب المواد الحيوانية اذا حفظت بالكحول فقد تتصلب حتى تصير اشد صلابة من الاديم ومعلوم ان الزلال من اهم اجزاء الطعام وانواع الغذاء وهو على الحالة الطبيعية لين القوام سهل الهضم لطيف المادة فاذا تجمد بالكحول تصلبت

مادته وتعسر هضمه وقل غذاؤه واصبح مما لا تفعل فيه عصارات الهضم ولا تقوى عليه المعد الضعيفة شاهد ما تراه من سهولة هضم البيض البرشت وصعوبة هضم البيض الجامد ثم ان الببسين احد العصارات المعدية وسبب اختمار المواد الازوتية هو مادة زلالية ايضاً يتجمد به غيره من انواع الزلال فاذا تجمد بالكحول ورسب في القناة الهضمية تعذر اتصاله بجميع اجزاء الطعام وامتنع امتزاجه بها امتزاجاً يضمن اختمارها ويكفل هضمها و يتضح ذلك باجلى بيان مما يشاهد في كل يوم من انواع الاختمار فلا يختمر العجين الا اذا اذيبت خميرته في الماء واديفت بالدقيق ولا يروب الحليب الا اذا مرت شيء من اللبن ثم اضيف اليه

وجملة القول ان الاختمار لا يتم الا بامتزاج مايراد اختماره بالخمير امتزاجاً تاماً وذلك يقتضي الاذابة والحل وعلى ذلك كان الكحول وغيره مما يجمد الزلال ويرسب الببسين مضراً في عمل الهضم

فيؤخذ مما تقدم ان الاشربة الروحية تفيد في عمل الهضم ثم تضر به ولذلك يختلف الناس في الكلام عليها اختلافاً عظيماً ويتباينون في الحكم فيها تبايناً جسيماً فمنهم من يقول بنفعها ومنهم من يقول بضررها حتى انك لترى عالماً من علماء منافع الاعضاء يكتب كتاباً في فائدتها وآخر يكتب كتاباً في مضارها وذلك من الغرابة بمكان

وفي كتاب الوحي ماهو اغرب من ذلك فانك تري بعض النبيين ومن اتى بعدهم من الحوار بين هذا يصفها علاجاً في تطبيب النفس وذاك يصفها دواء في عسر الهضم ثم لا تلبث ان ترى غيرهم من رجال الله هذا يحض على تركها وذاك يحذر من شرها الى غير ذلك مما هنالك من الاقوال المتضاربة والآراء المتباينة مما يبعث في الناس ميلاً الى الريبة في العلم والكفر في الدين على ان لا اختلاف في العلم ولا تباين في الدين وانما الخلاف كل الخلاف في اتجاه مطارح النظر فان من ينظر الى مافي الماء من نقع الصدى وارواء الظمإ يصفه علاجاً للصادي ودواء للظمآن

ومن ينظر الى مافيه من الخطر من الغرق يحذر من ركوب البحر واقتحام عباب اليم من ذلك ماجاء عن جند من اجناد العصور الخوالي اثر حرب كتب لهم فيها النصر قيل انهم جلسوا الى الشراب بعد ان سكروا بخمرة النصر فأتوا على ذكر ماوقع لهم مع الاعداء واسترسلوا في الكلام الى وصف درع غنموها في جملة ماغنموه من اسلاب العدو فقال بعض انها سوداء وقال بعض انها حمراء واشتد بينهم

الحجاج حتى افضى الامر الى امتشاق السيوف وتسديد الاسنة فاقبل امير الجند واخمد نار الفتنة ثم امر فأتي بالدرع فاذا هي من الجانب الواحد سوداء ومن الجانب الآخر حمراء فعلم ان كلاً منهم نظر اليها من جهة واحدة وانهم لو نظروا اليها من جانبيها لما اختلفوا فيها ولا اقتتلوا عليها وما اختلاف الناس في الاشربة الروحية الا من هذا القبيل فان من ينظر الى ما تحدثه من النفع يقول بنفعها ومن ينظر الى ما تحدثه من الضرر يقول بضررها ولو نظر كل منهم الى ما ينظر اليه الآخر لما تباينوا فيها ولا اختلفوا عليها ومهما اختلف الناس في الكلام على ما تحدثه الاشربة الروحية في القناة الهضمية فهم لا يختلفون على ما تحدثه في الاعضاء الرئيسة من الضرر

فقد اجمع جمهور المحققين من اطباء وفسيولوجيين ان ما المعنا اليه من تحجر الكبد وتصلب الشرايين ولين الدماغ وحؤول القلب وغير ذلك من الاعراض التي تظهر في اواخر الحياة اعراض مرضية تحدث من الاشربة الروحية تحدث من الجرعات الصغيرة كما تحدث من الجرعات الكبيرة

التنقيبات في الشرقاط

وجه الالمان منذ ربع قرن وجوههم نحو الشرقاط في العراق وما فيها من الآثار الخالدة للتنقيب عنها في باطن الارض وبعد ان عرفوا ما فيها من الآثار المفيدة استحصلوا رخصة من الحكومة باجراء الحفريات في تلك الانحاء فاستخرجوا هناك من الآثار القديمة الخطيرة شيئاً كثيراً . وجاؤا الى بغداد بنحو ٩٠٠ صندوق ملأى بالآثار وقد تبرعت الحكومة بنصف هذه الآثار للمتحف الالماني في برلين

مسألة اللحم

بحث احد اطباء الدانيمرك في اللحم فقال ان الخصائص المغذية والمقوية في اللحم لا تحتاج الى مناقشة ولكن اسعاره الغالية تجعله صنفاً خاصاً بالمترفين بحيث يتأتى حذفه او على الاقل تقليل تناوله بدون ان يلحق ضرر بصحة الجسم وان المواد المغذية الضرورية فيما خلا الماء وبعض الاملاح المعدنية هي المواد الزلالية والادهان والمواد النشاوية والسكرية فالمواد الزلالية ضرورية لاطعام الخلايا البشرية فيجب على كل انسان ان يتناول منها كمية وفي الافراط من اخذها خطر ولا سيما في الصيف بسبب الحرارة التي تحدث في جسمنا متعبة الكليتين وملوثة الدم بسمياتها ويختلف مقدار مايجب تناوله في اليوم من المواد الزلالية من ١٢٠ الى ٦٠ غراماً ويمكن انزاله الى اقل

من ذلك ويظهر ان مايمكن استخراجه من اللحم واللبن والبيض اسهل تحولاً مما يمكن استخراجه من اللوبياء والحمص وغيرهما من الحبوب بسبب مافيها من القلويات الصعبة التحليل فالادهان والمواد النشوية والسكرية تعطي قوة وحرارة وليس من اختلاف بين سرعة هضم الادهان النباتية او الحيوانية ولكن الاولى ارخص . لاجرم ان لتحضير الطعام شأناً مهماً ومن الخرق في الرأي ان تطبخ البقول في كمية كبرى من الماء ثم تطرح فان هذا الماء يذيب املاحاً مغذية فمن الجنون الحرمان منها . اذا حسبنا كمية متساوية في الوزن من اللحم وغيره من المغذيات نجد في اللحم ثلاثين غراماً من المواد الزلالية و٣٤ من اللبن و ٢٧من الارز و ٦٢ من الحبوب و٩٨ من دقيق القمح فالبقول اذاً اكثر رخصاً واللحم الذي هو اقل سعراً بقيمته الغذائية هو سمك الارنكة وليس مرق اللحم غذاء بل مقبلاً يحث العصارة المعدية . ان لمن يعيش من الفلاحين والعملة في الهواء الطلق غذاء معقولاً جداً من البطاطا المعمولة بالدهن ومن الحساء المعمول بالبقول وكذلك من خبزهم الاسمر . ان الاشخاص الملازمين للجلوس الذين تحتاج شهوتهم للطعام تعالج بما يصلحها ويحسن ادوات هضمهم اكثر اذا تناولوا كمية قليلة من اللحم بيد ان الطباخات الماهرات يستطعن ان يجعلن لحساء البقول طعماً كافياً للاستغناء عن هذا المشهي . ولقد ثبت ان من الممكن ان تجود صحة المرء بطعام مقتصر فيه على البطاطا والدهن

الاسلام والاشتراكية

ألف بالانكليزية مشير حسين كيدواي من علماء الهند كتاباً في الاشتراكية الاسلامية وقد كتب عليه المسيو مونته احد اساتذة جامعة جنيف في سويسرا المعروف بالاطلاع على احوال الاسلام والمسلمين فصلاً في جريدة جنيف قال فيه ان المؤلف الهندي قد عني بان لا يبين فقط الصفة الاشتراكية في الاسلام بل بين مايراه الاشتراكية الاسلامية مميزاً بينها وبين مانقصده بالاشتراكية معاشر الغربيين . فقد اورد من تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين اموراً تبين الخلق الديمقراطي الموجود في الاصلاح الاسلامي وابان ان بعض هذه الحوادث هي مظهر من المظاهر الاشتراكية فقد كان الرسول ينطق بما يشف عن حب الجمهورية او عن فكر ديمقراطي وقد علم بهديه جماعته هذا الشعور ولذلك نصب الخليفة الاول بعده بالانتخاب . وما كانت غاية ماوضعه من قوانين الارث الا ان يحول دون تأليف الاملاك الواسعة وجمع الثروات

الطائلة وكان جيشه مجنداً من جماعة من الوطنيين المسلمين وقضى بان يعطى العجزة واليتامى والايامى من بيت المال ثم جعل عمر بعد ذلك قدراً معيناً من المال يعطى للاولاد الذين يستحقون ان ينفق عليهم الى حين بلوغهم سن النمو وهـذه الحوادث وكثير غيرها مما استشهد به المؤلف الهندي تؤيد القضية التي وضعها ومما قاله : اننا معاشر المسلمين نرى ان معنى الاشتراكية هو التعاون المنظم الدائم المنسق بين الافراد في شؤون الحياة الصناعية والاقتصادية الادارية او السياسية الاشتراكية او الدينية لاجل ان تضمن للعالم رفاهيته ونجاحه وكلما عم هذا التعاون كان اخوياً وكلما كان الى التساوي حسن تركيب اجزاء الاشتراكية ٠

قال العالم السويسري واني لاحب ان اذكر جملة ابين فيها الى اي درجة كان للاسلام علاقة بالاشتراكية كما نفهم ذلك في اوربا : لاشك ان في الاسلام فكر الجمهورية (الديمقراطية) وان فيه ميلاً الى المساواة تبدو في صور كثيرة وهـذا الفكر وهذا الميل يظهران في الصلات الراسخة بين الكبراء والصغار فان استعمال الضمير المفرد في المخاطب « انت » الذي هو اصل من اصول التخاطب في اللغة العربية يساعد ولاشك على وضع المتخاطبين على قدم المساواة ويكفي لذلك ان يدخل المرء في العالم الاسلامي ليتمثل لذهنه ان تمايز الطبقات الظاهر على اشده عندنا لا اثر له عند المسلمين فمن مألوف العادات عندهم ان يختلف الصغير الى الكبير باحترام وحشمة ولكن بسهولة ندر مثلها في غير الاندية الاسلامية ويخاطب الكبير الصغير بسذاجة طالما كنا ننظر اليها انها تمس الاحساس بين الناس ٠ وفكر المساواة الاسلامية ظاهر حق الظهور في الطرق الدينية على الرغم من طبقات الناس الذين يؤلفون تلك الجمعيات وانا لنذكر انا كنا في مراكش وكان لنا خادم يذهب يوم المقابلة والذكر ليلتقي باخوانه وفيهم من هو ارقى منه منزلة في المجتمع ٠

الاخاء على اتمه بين المسلمين يقومون به بينهم حق القيام والاسلام هو الدين الذي قضى اكثر من غيره على التمييز في الاصول والعناصر وليس هـذا الاخاء مقصوراً على المسلمين بعضهم مع الآخر بل قد يتعدى به المسلم الى غير ابن نحلته واني لادهش من اطلاق بعض المسلمين علي كثيراً قولهم يا اخانا في الله ٠ وفي الاسلام زيادة على الفكر الجمهوري والمساواة والاخاء ما اسميه فقط الاتصال مع الاشتراكية فقد دهشت كثيراً في مراكش من هذا الامر ولطالما لاحظت في الشعب المراكشي فكر التعاون والاجتماع

متأصلاً للغاية وجميع أعمال الحياة الاجتماعية في مراكش تميل الى وسائط الاشتراك من مثل جماعة الصناع التي تذكر بما كان لاوربا من مثلها في القرون الوسطى وجمعيات الرماية الكثيرة وجمعيات الاحسان والاخويات الدينية الوفيرة · ومن اهم ما يلفت النظر في هذا الشأن الاسباب التي قام عليه الاسلام في الزكاة فقد فرض محمد على المؤمنين اغاثة الفقير فرضاً عيناً وكان هذا الفرض احد اركان الاسلام الخمسة يؤخذ المال من الغني ليعول الفقير وليس هذا واجباً ادبياً او دعوة يراد بها تنبيه العاطفة الدينية بل هو حق مفروض مشروع · الاسلام امة فاذا سألت مسلماً من اي جنسية او امة انت يجيبك اني مسلم وقد حدثت قضايا ذات شأن في اوربا ولا سيما في فرنسا ظهر فيها ظهور الشمس عدم الاتفاق في هذا المعنى بين الشرع الاسلامي والقانون الاوربي ولذلك جاء القرآن بان الانسانية تؤلف امة

مخطوطات ومطبوعات

محنة الاديب

في المكتبة الظاهرية بدمشق في قسم المجاميع تحت نمرة ٩ رسالة محنة الاديب املاء الشيخ الفاضل ابي علي الحسين بن احمد الاسترابادي قال في مقدمتها بعد البسملة والحمدلة والصلوة هذا كتاب يتضمن مسائل من معاني القرآن ونخباً من غريب الحديث وشيئاً من اللغة ·· من النحو وطرفاً من الابنية ونتفاً من الامثال وشعبة من الاشتقاق وذروا من معاني الشعر وصدراً من العروض وفقراً من التصريف ولمعاً من القوافي سميناه محنة الاديب لانه يختبر بما فيه مدعو الادب والمتبذخون (؟) بحفظ الاصول والكتب لتمييز المقدم في العلم من المؤخر ويظهر فضل المبرز فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم نزلوا الناس بمنازلهم فالدعوى لمن رامها ذلول فالبينة الاعلى (ة) وقد قيل

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان

والرسالة في ثماني عشرة ورقة صغيرة مكتوبة بخط يغلب عليه التحريف

وهذا مثال منه : مسألة اذا ضرب غلامك غلام زيد واسم كل واحد من

الغلامين عبد الله كيف تخبر عنهما وتضيف كل واحد من الغلامين الى صاحبه وانت تخاطب زيداً وتذكر الغلامين الجواب ضرب عبد الله صاحبي عبد الله صاحبك ولا يجوز غير ذلك لان المضاف لا يمكن ان يضاف ولكن يؤتى بما يدل عليه

مسألة رجلان اسم كل واحد منهما ماشاء الله نحو قولك جاء الزيدان الجواب جاءا ماشاء الله وجاءوا ماشاء الله ورأيت ذوي ماشاء الله وللجميع رأيت ذوي ماشاء الله وكذلك كل ما سمي بجملة نحو تأبط شراً وذرى حبًّا

التاريخ الكبير

لابي القاسم علي بن عساكر طبع على نفقة مطبعة روضة الشام لصاحبها خالد افندي قارصلي عني بترتيبه وتصحيحه عبد القادر افندي بدران

صدر الجزآن الثالث والرابع من هذا التاريخ الذي شرعت بطبعه مطبعة روضة الشام بدمشق منذ اربع سنين وهذان الجزآن يحتويان معاً على زهاء ٩٢٨ صفحة حذفت من الاصل الاسانيد وقد قدم لها مصححه في كل جزء مقدمة طويلة واضاف اليها بعض تعليقات . بدأ الجزء الاول بباب الهمزة مع السين وختم بحرف الحاء المهملة . وفي الجزء الثاني بقية من يبتدئ اسمه بحرف الحاء وفي هذين المجلدين تراجم كثيرمن رجال دمشق والوافدين عليها من اهل الحديث والفقه والادب والادارة والقضاء وفيه زهاء الف ترجمة وفيهم كثير من المشاهير تسقط في تراجمهم عَلَى اشياء لا يكاد يعثر عليها فيما طبع من كتب التراجم والسير وفيه مع ذلك حكايات وقصص واشعار وآداب جميلة مسلية مفيدة فحبذا لو اقتناه كل متأدب خصوصاً اهل سورية عامة والمشتغلون بالحديث والتاريخ خاصة . فنشكر للطابع همته وفي مأمولنا ان يتم الباقي من الكتاب وهو لا يتجاوز فيما يظن اربعة اجزاء اخرى . وسنفرد مقالاً خاصاً لهذا التاريخ المعتبر عند العلماء

سيرة عمر بن عبد العزيز

تصنيف الحافظ جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي المتوفى سنة ٥٩٧ صححه ووقف على طبعه محب الدين افندي الخطيب وطبع بنفقته ونفقة عارف افندي الحايري في مطبعة المؤيد في القاهرة سنة ١٣٣١ هـ ق ١٢٩١ هـ ش

اجاد صديقنا ناشر هذا الكتاب محب الدين افندي الخطيب في نشر هذا السفر المفيد في سيرة خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رحمه الله فان سيرته الشريفة

جديرة بان يتدارسها جميع اصناف الناس دع الملوك والامراء ومن كتب لهم ان يتولوا ازمة امور الجمهور في هذه العصور التي تدعى بعصور النور وقد عني الناشر بتمثيلها احسن تمثيل ونقل اختلاف النسخ عن المختصر المطبوع في ليبسيك كما عني من قبل بتجويد الكتب والرسائل التي احياها بالطبع فدلت على ذوقه ولطف بحثه وكنا نود لو كتب جملة في مقدمة هذا السفر اشار فيها الى النسخ التي اخذ عنها فقد رأيناه يشير في الحواشي الى نسخة حماة ونسخة مصر ولم يعرفنا بهما · اما الكتاب فقد وقع في ٣٠٥ صفحات من قطع الربع عدا الفهارس التي الحقها في آخره باسماء الاماكن والرجال التي بلغت ٢٤ صفحة فزادت الكتاب رونقاً وقربت على المتناول سيرة رجل كان قدوة لارباب الوَلايات والوِلايات نحري بمدارسنا ان تدرسها لتنطبع في ذاكرة التلامذة منذ الصغر · وقديماً الف بعضهم في سيرة هذا الخليفة العادل العاقل كتباً ومنهم بقي ابن مخلد الاندلسي وقال في كشف الظنون ان لمؤلف هذه السيرة ابي الفرج ابن الجوزي كتاب سيرة العمرين ولعله غير هذا الذي طبع فان المؤلف يقول في مقدمته انه افرد لكل شخص من اعلام كل زمن واخياره كتاباً للاعلام باخباره

كتاب الانتصار

لواسطة عقد الامصار

تأليف ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي الشهير بابن دقماق طبع بالمطبعة الاميرية الكبرى ببولاق مصر سنة ١٨٩٣ افرنجية جزآن في ٢٦٣ ص والفهرس ١١٠ ص

هذا الكتاب هو مما نشرته دار الكتب الخديوية بمصر ونظر فيه [illegible] مديرها الاسبق المسيو ڤولرس ومؤلفه من اهل القرن الثامن للـ[illegible] ره جعله عشرة اجزاء لعشرة امصار والمصر هي المدينة الكبرى الممتا[illegible] ره بخاصية من الخواص كاشتهار البصرة بصناعتها وبغداد برخاوتها والكوفة بفصاحتها والقاهرة بتجارتها · وهذا الجزء او الجزآن وهما الرابع والخامس من كتابه قد خصهما بالكلام على القاهرة والاسكندرية ولم يظفروا بسائر الاجزاء التي تكلم فيها المؤلف على الامصار الكبرى والمؤلف وان كان ثقة في الامهات التي نقل عنها لانه نقل عن كتب مهمة لم يكد يظفر بمثلها حتى المقريزي صاحب الخطط كما قال الناشر الالماني لكتابه الا انه مملوء بالاغلاط النحوية والصرفية التي تركها الناشر على علاتها آملاً بذلك ان يختط خطة جديدة في اللغة العربية كأنه كان يريد عفا الله عنه ان يترك لغتنا بدون قواعد يكتب فيها كل انسان كما يشاء

افاض المؤلف في ذكر كور مصر ومدنها وما بني بالوجه منها وما بها من غريب التحف والطرف قال ويقال ان بالديار المصرية ثمانين كورة كل كورة بها تحف وطرف وعجائب وغرائب وقد اورد في كل كورة مافيها من ذلك . والكتاب اشبه بخطط المقريزي ولكنه مختصر ذكر فيه الدور والقصور والقرى والمزارع والجوامع والكنائس والمدارس والبيوت العامة والمدارس والحمامات واعمال مصر وما الى ذلك من آثار العمران . وفهرست اسماء الاعلام الواردة في هذا الكتاب رتبها السيد محمد علي الببلاوي وكيل دار الكتب الخديوية وهو الذي تولى عمل معظم فهارس الكتب التي نشرتها تلك الدار العامرة مثل فهرس تاريخ مصر لابن اياس وغيره . والكتاب باصله وفرعه، من الكتب التي لا تستغني عنها مكتبة باحث في احوال مصر راغب في الوقوف على تاريخ عمرانها العجيب

سفن الاسطول الاسلامي

هو كراسة في ٣٢ صفحة طبعت بمصر ذكر فيها مؤلفها عبد الفتاح افندي عبادة من فضلاء مصر انواع السفن الحربية الاسلامية ومعداتها واوصافها وما دخل في الفاظها من اللغات الافرنجية وقوانين حروبها البحرية وحركاتها وتاريخها في الاسلام وما نطقت به السن بعض الشعراء المحدثين من مشارقة ومغاربة في وصف الاساطيل والرسالة تنم عن تحقيق وبحث وقد نشرت في مجلة الهلال اولاً وفيها بعض الصور وحبذا لو توسع المؤلف اكثر من ذلك فان في الكتب العربية المطبوعة في الغرب مايصح ان يكون من مادته كتاب متوسط الحجم في هذا الموضوع المفيد

الثورة الايطالية

لابراهيم افندي حلمي العمر طبعت بمطبعة الآداب في بغداد سنة ١٣٣٢ ص ٣٢

لمؤلف هذه الرسالة وطنية يمازجها الاخلاص وقلم يؤيده العلم والغيرة وقراء العربية يعرفونه بما نشره من الفصول البديعة عن النهضة العراقية وبعض المعالم العراقية مما دل على خبرة وفضل ادب وقد بين في هذه الرسالة التي اهداها الى صديقه مزاحم بك آل الباجه جي تاريخ الانقلاب الايطالي الذي ادى الى وحدة ايطاليا قال واظن ان القائلين بقطع الرجاء من نهوض العرب ليعترفون بخطأهم لدى اول نظرة يلقونها الى تاريخ ايطاليا وما كانت عليه من التضعضع والتشتت ثم ما اصبحت فيه اليوم من القوة والعظمة والصولة بفضل جهاد ايطاليا واتفاق كلمة زعمائها وقادة الرأي فيها

فليس اذاً ببعيد على امة كالامة العربية وهي اكثر استعداداً واعلى كلمة وارفع صوتاً واشد قوة من الامة الايطالية ان تصبح بفضل مانراه من بريق الحركة الوطنية القائمة في جميع البلاد العربية امة لها من وسائل الدفاع مايحفظ لها ممالكها ويقي شعوبها وجامعتها من الاضمحلال والزوال .

وقال في الانقلابات العنصرية انها لم تعرف في البلاد الشرقية الا في اوائل القرن العشرين فقد اوجدت التعاليم الاوربية حركة فكرية في عقول المشارقة المفكرين واصبحت كل امة من الامم الشرقية تسعى السعي الحثيث فيما يبث تعاليمها وينشر مبادئها بين طبقاتها وافرادها والامة التركية النجيبة في مقدمة الامم الساعية الى تأسيس جامعة تركية كبرى حتى يرتبط اتراك الاناضول والاستانة باتراك القوقاس وبلاد ماوراء النهر واصقاع شمالي البحر الاسود وفي الامة التركية اليوم رجال من اولي الفضل والنبل اخذوا على عاتقهم نشر هذه المبادئ السامية وانماء الشعور القومي بين الاتراك حتى لايمضي زمن قليل الا ويصبح للجامعة التركية منزلة لاتقل شأناً وخطورة عن الجامعات الالمانية والايطالية والانكليزية قال ومتى تيسر للعرب زعماء وقادة امثال زعماء الامة التركية وقادتها تصبح في مقدمة الامم الناهضة وفي طليعة الشعوب الطامحة في تأسيس جامعة كبرى على نظام ثابت ودعائم راسخة لايقوى العدو على نقضها وتقويضها واذا كان للعرب أمل في نجاح مقاصدهم الجنسية فهو قائم عَلَى مايأتيه رجال العرب في بيروت ومصر واميركا من الحكمة والروية والاعتدال في ادارة دفة هذه الحركة المباركة واذا اتفقت كلمة الزعماء وابطال الامة العربية فقد لانغالي اذا قلنا اننا لانحتاج الى كبير عمل اوكثير تفكير فان الفكر ينتشر بطبيعته مادام لايلقى معارضة من بعض ابنائه الخ .

رسائل وكتب مختلفة

فهرس امالي القالي — الف هذا الفهرس اثنان من مستشرقي الانكليز كرنكو وبوڤن وطبعته مطبعة بريل في ليدن سنة ١٩١٣ ص٨٩ وامالي ابي علي القالي من اهم كتب الادب طبعت في المطبعة الاميرية في مصر سنة ١٣٢٤هـ.

رسالة التوحيد والتثليث — لمؤلف لم يذكر اسمه طبعت بمطبعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣٢ ص ٥٦

المقتبس

المستشرقون ومؤتمرهم

الاستشراق او علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة ودائرته الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التي يتكلم بها في شرقي اوربا اي في آسيا وفي جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم بتجوز على لغات اميركا وافريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها واخلاق سكانها · فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريز كما تدرس لغات الشرق اي العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية والامحرية بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس هناك كما تدرس اللغات الشرقية ·

لم يدخل علم المشرقيات في اسلوب علمي الا في القرن التاسع عشر · وقد كان اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التي كانوا يعرفونها (كالفارسية والفينيقية وغيرهما) لغة البربر ولذا يهملون دراستها · وشاعت في القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام امثال ابن رشد وابن سينا ولذلك انشئ في باريز منذ اواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية

ثم ان المذهب البرتستانتي توخى البحث عن النص الاصلي للتوراة فحمل اشياعه على درس العبرية والكلدانية والسريانية · وانشأ بعد ذلك البابا غريغوريوس الثالث

عشر واوربانوس الثامن دروساً لتعليم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية وفي سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان . وطفق المبشرون منذ ذاك العهد يأتون بالآثار النفيسة لخدمة الدروس الشرقية . ونشر اليسوعيون في القرن الثامن عشر في العالم الغربي مدنية الصين واليابان ولغتيهما . وانشأ الوزير كولبر في فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات قاصداً بها تخريج تراجمة تستخدمهم حكومتهم في الشرق وانشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية وانتشرت القصص والحكايات الشرقية امثال قصة الف ليلة وليلة والرسائل الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات في طور جديد حسن الاساليب وفي الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف انكتيل دو پرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونابرت على مصر « ١٧٩٨ — ١٧٩٩ » ان يدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التي اشتهر بها القرن التاسع عشر وجيء الى اوربا من مدينة رشيد في مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ الوف من السنين كاللغة الاشورية . وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعلم تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقيه الحية في مدرسة خاصة لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً في كوليج دي فرانس « مدرسة فرنسا » وكذلك في مدرسة الدروس العليا وفي الكليات . ومن اعظم العلماء الذين ساعدوا على الاستشراق في القرن التاسع عشر شامپوليون « في الآثار المصرية » واو پرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « في الآثار الاشورية » وبورنوف وجايمس دار مستتر وموللر ولاسن « في الآثار الهندية » وسانيسلاس جولين « في الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين اولاً في تعلم اللغات الشرقية عن باعث ديني فقد قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة اكلمنتس الخامس ان تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ واهل جدل اشداء لتنصير المسلمين واليهود وانشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون من الرهبنات الكبرى في اديارهم دروساً في هذه اللغات فاصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات واخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق

في فهم اسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن اعلم العلماء الربانيين والعربية عن اناس من المسلمين او من السور بين الموارنة امثال بني السمعاني ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الأُول في اللغات القبطية والحبشية والامحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبندقية وجنوة ونابل و پيزا وظلت اللغة العربية مألوفة في عدة اماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالي والشعر والادب

كانت رومية اول مدينة في العالم طبع فيها كتاب عربي عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة في بلاد الطليان بحسب الحكومات وهم الافراد والمقصد الاصلي ديني والعمليات بالعرض . وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفي اواسط القرن الثامن عشر لما اخذت اوربا تتحفز لاستعمار الشرق اخذ علماؤها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) وانشئت منذ ذاك العهد في اوربا واميركا عدة جمعيات للمستشرقين واقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز التي أُسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيس سلفستردي ساسي وهو اعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيس خاصة وربما كان اعظم مستشرق نبغ ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب ص ٧٤) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسياوية وهي خاصة بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة وقد صدر منها الى الآن زهاء ١٨٠ مجلداً ومن حواها فكأنما حوى اعظم مكتبة في هذه الابحاث الجليلة

تخرج في مدرسة اللغات الحية في باريز كثير من مستشرقي الفرنسيس والالمان والطليان والسويسريين وانشأت معظم عواصم اوربا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت اول من اسس جمعية شرقية في باتاڤيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية اقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشارقة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

عشر واوربانوس الثامن دروساً لتعليم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية وفي سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان · وطفق المبشرون منذ ذاك العهد يأتون بالآثار النفيسة لخدمة الدروس الشرقية · ونشر اليسوعيون في القرن الثامن عشر في العالم الغربي مدنية الصين واليابان ولغتيهما· وانشأ الوزير كولبر في فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات قاصداً بها تخريج تراجمة تستخدمهم حكومتهم في الشرق وانشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية وانتشرت القصص والحكايات الشرقية امثال قصة الف ليلة وليلة والرسائل الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات في طور جديد حسن الاساليب وفي الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف انكتيل دوبرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونابرت على مصر « ١٧٩٨ — ١٧٩٩ » ان بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التي اشتهر بها القرن التاسع عشر وجيء الى اوربا من مدينة رشيد في مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ الوف من السنين كاللغة الاشورية · وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعلم تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقيه الحية في مدرسة خاصة لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً في كوليج دي فرانس « مدرسة فرنسا » وكذلك في مدرسة الدروس العليا وفي الكليات · ومن اعظم العلماء الذين ساعدوا على الاستشراق في القرن التاسع عشر شامبوليون « في الآثار المصرية » واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « في الآثار الاشورية » وبورنوف وجايمس دار مستتر وموللر ولاسن « في الآثار الهندية » وسانيسلاس جولين « في الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين اولاً في تعلم اللغات الشرقية عن باعث ديني فقد قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة اكلمنتس الخامس ان تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ واهل جدل اشداء لتنصير المسلمين واليهود وانشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون من الرهبنات الكبرى في اديارهم دروساً في هذه اللغات فاصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات واخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق

في فهم اسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن اعلم العلماء الربانيين والعربية عن اناس من المسلمين او من السور بين الموارنة امثال بني السمعاني ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الأُول في اللغات القبطية والحبشية والامحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبندقية وجنوة ونابلي و بيزا وظلت اللغة العربية مألوفة في عدة اماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالي والشعر والادب

كانت رومية اول مدينة في العالم طبع فيها كتاب عربي عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة في بلاد الطليان بحسب الحكومات وهمم الافراد والمقصد الاصلي ديني والعمليات بالعرض . وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفي اواسط القرن الثامن عشر لما اخذت اوربا تتحفز لاستعمار الشرق اخذ علماؤها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) وانشئت منذ ذاك العهد في اوربا واميركا عدة جمعيات للمستشرقين واقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز التي أُسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيس سلفستردي ساسي وهو اعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيس خاصة وربما كان اعظم مستشرق نبغ ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب ص ٧٤) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسياوية وهي خاصة بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة وقد صدر منها الى الآن زهاء ١٨٠ مجلداً ومن حواها فكأنما حوى اعظم مكتبة في هذه الابحاث الجليلة

تخرج في مدرسة اللغات الحية في باريز كثير من مستشرقي الفرنسيس والالمان والطليان والسويسريين وانشأت معظم عواصم اوربا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت اول من اسس جمعية شرقية في باتاڤيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية اقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشارقة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

انشأ المستشرقون عدة جمعيات في اوربا واسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها الوفًا من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ماطبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التي طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية في اوربا باللغات العربية هي المفخر الذي يحق لمدنية القرن التاسع عشر والعشرين في ديار الغرب ان تباهي به الاعصار والامصار

وما برحت اسماء دي ساسي ووستنفيلد وفلوغل وريسك وبروكهار وكارليل وكاترمير ودي سلان وغوليوس وشولتنس واربنيوس وهيتسما وشيد ودي بومباي ونيبوهر وزوزاريو وكولنبروك وجنستون وستونتن وڤين وهوغتن وهامر ورازموسن وڤلمت وبيير ودي روسي وايفلد وغابلنتس وروديغر وسيديلو وكوسان دي برسڤال وجوبرت وروزنمولر وكلاپروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفربنل ودي لاغرانج ودي ڤرجه وربنوومونك وبرنيه وكمبار يل وپرون ومولهووكازميرسكي وفريتاغ وكسغارتن ووايك وبرنستين وارنلد وتستشتين وڤتزر وڤولف وهار بوكر وپورغستال وجونيبول ووردا وڤايرس وكورتون وتاسيليس وجونس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوڤتش وخانيكوف وكاينگوس وكودرا وموهل وبلن ودي تاسي وسولسي وايڤلد وديمانج وشرموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكي وساڤلياف وغريغورياف وباڤسكي ونڤروتسكي وبرازين وسبنرجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزي ووريخت — مابرحت اسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها ·

هؤلاء بعض ائمة المستشرقين في القرن التاسع عشر من الالمانيين والنمساويين والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين والدانيمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين «١» ولو جئنا نعدد مشاهيرهم في هذا الربع الاول من القرن العشرين لطال بنا المطال ومن مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدي وغولدصهير وهوار وبراون ومرجليوث وڤمبري وهوتسما وباسه وزترستين وسكياپارلي ونالينو وهوداس ودرانبرغ ونيكلسون وموسل وسيبولد وهوروفيتز وبيكر وهرتمن ودي ڤو وموتلنسكي وليتمان ولامنس ومسنيون وهوغروني ودي كوي وآماري

«١» جاء الاميركون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً وآثاراً دلت على فضل ومعرفة بالعربية وآدابها وتاريخها

وكاركمبار يك وڤولرس وشاد وبوير وارنولد وروسكاو ودامس وجيزوبار تولد ومورتمان ولشاتليه وبوڤا وكاباتون وكور وهاليفي وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوڤال ودي منار وبارت ووسينار وليڤي وكازانوڤا وروزن وشوفين وشاڤان ودوسو ومونتيه وسبيرو وشيل وماهني ودلبروك وكولنيون ودي غوبرنانتيس وبزنبرجر ودافيدس وهوبت وكوهن وكايتاني ولامبروز ونافيل واولدنبرغ هؤلاء بعض من اشتهروا بآثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخاطر ساعة كتابة هذه العجالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام الا الذي نشر الآثار النافعة بالعربية او منقولة من العربية او عن احدى اللغات الشرقية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفهارسها مادة الآداب العربية وخدمها بلاده اولاً وهذه اللغة الشريفة ثانياً ومنهم من ينشر الكتاب لقدماء مؤلفي العرب بنصه ويعلق عليه حواشي باللاتينية لغة العلماء او يترجمه الى اللاتينية وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه او يترجمه بلغته كالهولاندية والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسويدية ولمستشرقي كل امة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدمها جمعية باريز وتلتها جمعيات المانيا والاستشراق ارقى مايكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر في نشر اهم كتب اجدادنا في العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم او اخصائهم جاء منهم ائمة قل نبوغ امثالهم في الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جداً ونتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسياوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبحثاً الا محصته وتجيء بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكليز والطليان وغيرهم من امم الحضارة والولوع بالمشرقيات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشرقيات منذ سنة ١٨٧٣ ان يعقدوا مؤتمراً لهم يحضره جلة منهم ويكون مقره في احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها في تلك المؤتمرات فتتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التي تنم عن فضل بحث ودرس في لغات الشرق وعلومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس ائمة هذا الشأن في هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب اناساً يمثلونها في المؤتمرات التي عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء

وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثاني سنة ١٨٧٦ في لندن والثالث سنة ١٨٧٧ في بطرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ في فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ في برلين والسادس سنة ١٨٨٣ في ليدن والسابع سنة ١٨٨٦ في فينا والثامن سنة ١٨٨٩ في استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ في لندرا والعاشر سنة ١٨٩٤ في جنيف والحادي عشر سنة ١٨٩٧ في باريز والثاني عشر سنة ١٨٩٩ في رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ في هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ في الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ في كوبنهاغ والسادس عشر سنة ١٩١٢ في آثينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ في اكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية اكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونل واللجنة العامة مؤلفة من اساتذة اللغات الشرقية او من مدارس الدروس الشرقية في كليات ابردين وبريستول وكمبردج ودوبلين واديمبرغ وغلاسكو وليفربول ولندرا ومنشستر وسانت اندري وبلاد الغال في بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية والجمعية التوراتية الاثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الآسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداولات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهي في ١٨ منه وستكون ابحاثه في علم تعريف الانسان والآثار وفي علم الآثار الاشورية وفي آثار آسيا الوسطى والشرق الاقصى ومصر وافريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفي اللغات السامية والآداب السامية وفي آسيا الغربية وايران وتكون اللغة التي يجوز استخدامها الانكليزية او الافرنسية او الالمانية او الايطالية ومن اراد ان يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه ان يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التي هو احد اعضائها او يريد التكلم فيها وقيمة الاشتراك بالمؤتمر ليرة انكليزية تدفع سلفاً ويفاوض بكل ما يتعلق بشؤون المؤتمر القادم: «Secretary, International Congress of Orientalists, Indian Institute, Oxford» ومن يشترك بالمؤتمر يأخذ كتاباً باعمال رجاله ويحق للاعضاء ان يركبوا البواخر والسكك الحديدية وينزلوا في فنادق معينة باجور متهاودة حقق الله نيات رجال العلم ونفع بهم على اختلاف الغايات واللغات ٠

عبرة الحربين

« ١ »

انتدب القائمون على وقف المحسن كارنجي الاميركي جماعة من اهل النظر والانصاف والعلم من الانكليز والالمان والفرنسيس الى وضع تقرير في الفظائع التي ارتكبت في حرب البلقان الاخيرة بل في الحربين الاخيرتين فقامت اللجنة المؤلفة لهذا الغرض بما كان الواجب على الدول الممدنة ان تقوم به فكانت خدمتها عظيمة جداً لابناء الاجيال المقبلة قاموا بذلك وهم على مثل اليقين بان خدمة الحق المجرد توشك ان تسخط العالم كله . وقد عهد بتأليف هذه اللجنة الى المسيو دستورنل دي كونستان من كبار المفكرين في مجلس الشيوخ الفرنسوي فتوخى ان يكون من تقرير هذه اللجنة فائدة اقتصادية كبرى لتلك الحكومات التي تقاتلت وتطاحنت فتكون واسطة للسلام بين الانام وتسعى الحكومات الى اصلاح خطئها الظاهر ويحقق المتحاربون آمال الرأي العام الاوربي الذي لا يريد ان يبقى جزء من اوربا معطلاً في حين يستطيع ان يشارك حق المشاركة في الارتقاء العام الذي آخذ مجراه في كل مكان وقد طافت هذه اللجنة بلاد البلقان من بلغراد الى سلانيك فآثينة فالاستانة فصوفيا ومن صربيا الى يونان الى مقدونية الى العثمانية الى تراقيا الى بلغاريا

ظهر من مجموع تحقيقات اللجنة ان جميع الحكومات مسؤولة عما اتت من الفظائع حتى ان الجيش الروماني الذي لم يحارب في الحقيقة حرباً تشبه حرب المتحالفين من البلقانيين قد ثبت عليه اتيان المنكرات وجميع المتحاربين خالفوا المبادئ الجوهرية من الحقوق العمومية المتعلقة بالحرب

وقد نشرت لارڤو La Revue الافرنسية فصلاً لدستورنل دي كونستان قال فيه : ماقط جاءت العبرة اصرح ولا افظع مما جاءت هذه المرة فان الشعوب التي طالما اضطهدت في شبه جزيرة البلقان قد اتت باتحادها باعمال لم تستطع اوربا القادرة المنشقة على نفسها ان تتصورها فاستولت في بضعة اشهر على كريت وسلانيك واسكوب واشقودرة وادرنة واوشكت ان تدخل الاستانة وكان ذلك خاتمة المطاف وآخر حل للخلاف .

فلما انحلت رابطتهم قضي عليهم ان يقفوا وضعفت قواهم · فان الحرب الثانية ليست في الواقع حلاً للاشكال بل هي مقدمة لعدة حروب بل حرب كل ساعة وافظع الحروب بل حرب الدين وحرب الانتقام وحرب العناصر وحرب شعب لآخر وانسان لانسان واخ لاخيه وبه يسلب الجار ملك جاره ويأتي على قوميته فينزعها وبقي العثمانيون في اوربا على كل حال · ولم تنتج نتيجة من ضحايا حصار ادرنة وكان من امر مقدونية ان نجت من كونها مقبرة لتصبح جهنماً ومزقت تراقيا اجزاء وجعلت البانيا امارة فكانت وما زالت اتعسهن حظاً واكثرهن هدفاً للمطامع البربرية تكمن لالتقامها كل من النمسا وصربيا والجبل الاسود واليونان وايطاليا · والكنائس والبيع تتخاصم بحيث اصبحت اقل حرية مما كانت على العهد العثماني وستكون الاستانة اكثر مما كانت تفاحة الخلاف الابدي تحت ملاحظة الروس تراقبهم المانيا والنمسا والمجر ورومانيا بل جميع الدول في الحقيقة المتحالف منهن والمتخالف · بل ان اليونان وبلغاريا وصربيا ترقب احوال مضيق الاستانة والجزر تتخاصم عليها العثمانية بل آسيا مع ايطاليا واليونان وانكلترا بل جميع دول اوربا العظمى وقد فتح البحر المتوسط لخصومات جديدة فاصبح ساحة وغى لم يكنها من قبل فالمستقبل مظلم ولكنه يتجلي بالنور اذا احبت ذلك اوربا بل الدول العظمى العسكرية فبيدها حل المعضل اذا لم يعاندن في بقائهن عمياً · وما النزاع الحقيقي في البلقان كما هو في اوربا واميركا نزاع بين ظالم ومظلوم بل هو نزاع بين سياستين سياسة التسلح وسياسة الارتقاء فتقوى سياسة الارتقاء تارة وتتغلب عليها من الغد سياسة التحريض والبغضاء التي تؤدي الى حمل السلاح فالحرب

عناية الشعوب في العالم القديم والجديد بالمنافسة الاقتصادية التي تؤدي الى غلاء اسعار التسلح قد جعل الامم تحنق على هذه الطريقة والافراط في التسلح هو من لوازم ارتقاء الصناعات ولا يربح من هذا السلام المسلح في الحقيقة الا البلاد الصغرى او البلاد الجديدة التي ليس عليها ديون وليس لها ميزانيات ضخمة وقد اتضح للدول ان اغناهن اكثرهن تأثراً بالحرب فاخذ كل من انكلترا والمانيا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها يطلبن السلام وكان العامل الاكبر في حملهن على الرغبة فيه امور كثيرة واخصها ضرورة المنافسة العامة وسرعة المواصلات وعصيان ارباب التكاليف والخوف من الفوضوية ومما تخبأوه الايام في بطونها

ان عدداً عظيماً من الناس ورؤوس اموال طائلة تعمل لصنع السلاح وكل يوم

205

تزيد ادواتها وتتجمع القوى والاموال لتصرف في سبيلها فالاسواق تروج بطلب السلاح والجرائد توقد جذوة الحروب والنقابات المتعهدة بتقديم السلاح تعمل على توسيع كل خرق لتستفيد من ذلك فوائد مادية مهمة · والسياسة الخارجية في التسلح عند امة عظمى ان تستأثر هي قبل كل شيء بطلبية اسلحة والمحور الذي تدور عليه السياسة ان تقوم امة بتقديم بنادق ومدافع ومدرعات وان تصرف اموال القروض في بلاد معينة وقد اصبح الجهاد حروب نفوذ ودسائس والسفراء الذين لم ينظروا الى ذلك نظر يقظة وانتباه يسقطون من مناصبهم فالمانيا سلحت العثمانية بل سلحت المستعمرات والممالك الصغرى الفقيرة وسعى رجال السياسة الى حمل اميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا على التسلح واضطروا كندا — ومستقبلها مناط باعفائها من كل تكليف عسكري — الى ان تستبضع في انكلترا اسطولاً وان تجند من ابنائها بحارة كان في وسعها ان تستغني عن اعالتهم قرناً آخر · وكذلك فعلت اوستراليا وقد حاولت برازيل والارجنتين والشيلي وسائر جمهوريات اميركا اللاتينية ان تعيش بسلام ولكن شياطين الانس من التجار ووكلاء معامل الاسلحة اقنعوهن باستصناع مدرعات ضخمة وحملوا برازيل والارجنتين على الاستغناء عن المدرعات القديمة لبيعها من العثمانية واليونانية وستصبح الاستانة دار صناعة كبرى بل مرفأ حربياً جديراً بتاريخها وتضطر اساطيل اليونان ايطاليا الى ان تزيد اسطولها وتجري على مثال ذلك الممالك الكبرى في اوربا واميركا وهكذا يبلغ السفراء تبليغاتهم السرية الى حكوماتهم مبالغين بقوى غير دولهم ودولتهم تبلغها للصحف التي توقد جذوة الفتن كلما خمدت بحيث صحت نبوءة الاميركان في قولهم : ان الحرب المستقبلة ستعلنها الصحافة

وعندئذ يكون اليونان والعثمانيون والصرب والبلغاريون والجبليون والالبانيون مدججين بالاسلحة ولهم من المدافع والدردنوتات التي لا نعرف كيف نستخدمها فيعودون يقتتلون من جديد و يقودون وراءهم حكومات اوربا الذين يكونون مثلهم فدية الصحافة · والوطنية في الحقيقة وطنية مال و كسب او سياسة التسليح

قلت في خطاب لي في مجلس الشيوخ ان فرنسا انفقت منذ ثلاث وار بعين سنة زهاء مئة مليار فرنك اي زهاء مليار فرنك كل سنة على تسليحها ولم تنتج لها فائدة من هذه النفقة الكبرى · هذا معدل السلام المسلح في مملكة واحدة فضع ولا تخف عدة مئات من المليارات صرفت في خلال نصف قرن في مجموع البلاد · تمثل لذهنك

عظمة هذه القناطير المقنطرة من الذهب الذي صرفته اوربا فيا لو صرفت نصفه على المدنية اما كانت اوربا بل افريقية وآسيا تهذب كلها وتحيا بمواصلاتها ومعارفها وامنها ولعمري كيف كانت هذه الشعوب البلقانية التعسة لو صحت عزائم ممالك اوربا الكبرى الحامية لها على التخلي عن المنافسة بينهن في تسليحهم وحصروا منافستهن في انشاء طرق لتلك الشعوب واعمال صناعية وفنية وسكك حديدية ونهرية ومدارس ومتاحف ومعامل كيماوية ومستشفيات

ليست الشعوب البلقانية هي المجرمة الحقيقية في سلسلة هذه المصائب والقتل والغرق والحريق والذبح والفظائع بل ولا الحكومات الاوربية بل المجرمون الحقيقيون هم الذين يخدعون الرأي العام ويستفيدون من جهله لينادوا بالويل والثبور وعظائم الامور ويحمسوا ويهيجوا ويحملوا بلادهم عَلَى بغض البلاد الاخرى بل كل البلاد على التباغض بعضاً لبعض · المجرمون الحقيقيون هم الذين يعلنون كل يوم مدفوعين بعامل المصلحة او المزاج الحرب التي لامناص منها وتنتهي بهم الحال الى اعلانها بحجة انهم يئسوا من التحذير منها · المجرمون الحقيقيون هم الذين يفادون بالمصلحة العامة لاجل منافعهم الشخصية الذين يتبعون لبلادهم سياسة خرقاء سداها الشاكل ولحمتها الانتقام في حين لا ينفع الصغار كما لا ينفع الكبار الا السلام والوئام وفيهما النجاة والحياة ليس الا

***

هذا ما قرأناه في الصحيفة البارزية وقد رأينا ان نشفعه بما كتبته مجلة « لاروس مانسويل » Larousse Mensuel في اسباب الحرب البلقانية ونتائجها من سنة ١٩١٢—١٩١٤ قالت : ان الحربين الشرقيتين من سنة ١٩١٢—١٩١٣ والأولى بين الدولة العثمانية وممالك البلقان المسيحية المتحالفة والثانية بين هذه الممالك هي افجع الحوادث التي يسطرها تاريخ المسألة الشرقية بعد معاهدة برلين (١٨٧٨) فوفق شعوب البلقان بعد جهاد اربعة قرون كانوا مظلومين في خلالها الى ان خطوا هذه الخطوة الواسعة فلم يبقوا للعثمانية الا الطرف الشرقي من شبه جزيرة البلقان والى توسيع مصورات هذه الممالك المسيحية لتنمية عناصرها وانتشارها · بيد ان غلبة الممالك المسيحية التي تمت بدون معاونة الممالك العظمى واحياناً على الرغم منها يعدل في مسلك هذه الممالك الكبرى في الشرق فيقضي عَلَى اطماعها في امتلاك اراض جديدة منه بل يؤثر تأثيراً كبيراً في اطماعها الاقتصادية ايضاً وثبت ان الدول الست لم تعد تفلح في

حمل شبه جزيرة البلقان على العمل بما تراه لان الشعوب البلقانية ادركت سر قوتها وغناها فعدل الشعوب البلقانية بانفسهم سياسة البلقان وتزعزع المبدأ الذي سارت اوربا عليه في دعوى سلامة المملكة العثمانية فصارت اوربا ترد ان تكون الاستانة حرة وقسمت الاصقاع الجديدة في الارض العثمانية الى مناطق اقتصادية

ان السبب في الحرب العثمانية البلقانية التي نشبت في تشرين الاول ١٩١٣ اشكوى المسيحيين من الادارة في ابيروس والبانيا ولا سيما مقدونية فكانوا ذريعة لتدخل الممالك الصغرى التي تطمح منذ زمن الى ضم الشعوب التي هي من عنصرها الى بلادها ولم تستطع اوربا المختلفة المقاصد ان تحول دون هذا التدخل

ولقد حاولت اوربا ان تقطع شأفة الاضطرابات المقدونية فاخذت حكومتا ڤينا وبطرسبرج من سنة ١٩٠٥ الى ١٩٠٧ تساعدهما لجنة دولية لتنظيم الادارة المالية والقضائية في مقدونية ثم اتفقت روسيا وانكلترا غداة مقابلة رڤال على توسيع المراقبة الاوربية في هذه البلاد ولكن انتشار القانون الاساسي قد وكل الامر الى الباب العالي وكان انقلاب ٢٤ تموز ١٩٠٨ من عمل الوطنيين المسلمين ممن كانوا يكرهون المداخلة الاوربية مثل سائر الوزراء السابقين على عهد السلطان عبد الحميد وقد طرح برنامج الاصلاحات المقدونية جانباً فكان (كذا) حظ المسيحيين المستعبدين في شبه جزيرة البلقان في سنة ١٩١٠ اتعس مما كان عليه ايام المذابح الارمنية . وبدت امارات الضعف في حكومة الاستانة مرات فراحت اوربا تحاول حل المسألة الشرقية وكان من ذلك ضم النمسا لولايتي البوسنة والهرسك (تشرين الاول ١٩٠٨) واعلنت بلغاريا استقلالها ونشبت فتنة في الوقت نفسه في اليمن (١٩١٠) وظل الاضطراب سائداً في ارمينية وكان من الحرب الايطالية العثمانية (١٩١١—١٩١٢) خصوصاً دليل على ضعف العسكرية العثمانية على حين اشتداد الازمة على مسيحيي مقدونية فخاف ملوك البلقان من حنق الرأي العام عليهم في بلادهم ونظروا الى اختلاف اوربا فرأوا في ربيع سنة ١٩١٢ ان ساعة التحالف قد حانت . فاتحدت الممالك البلقانية اتحاداً سياسياً عسكرياً عقيب مفاوضات طويلة فعقدت محالفة اولى بين صربيا وبلغاريا سنة ١٩٠٩ ولم يخف على روسيا ماجرى بينهما فتلقته بالقبول لانها رأت فيه جواباً مناسباً لتضم النمسا للبوسنة والهرسك . وتمت هذه المحالفة سنة ١٩١٢ على ان تكون التخوم بين البلادين صربيا وبلغاريا آخذة من وارنة مجتازة بحيرة اوخريدا الى ان تبلغ البحر الادرياتيكي وفي تموز

١٩١٢ اعقدت محالفة اخرى بين بلغاريا واليونان على ان تترك هذه سلانيك خارج المنطقة التي تريدها ثم عقدت محالفة بين بلغاريا والجبل الاسود يسقط بموجبها الاتفاق الذي كان هذا الجبل عقده والنمسا سنة ١٩١٠ ويضمن هذا الاتفاق الجديد للملك نقولا جزءاً من لواء يكي بازار (نوفي بازار) ومدة هذه المحالفات الى خمس وعشرين سنة وقد ترك البحث في مسألة الاستانة احتياطاً وتفادياً من مس اوربا

وفتحت المشاكل بين العثمانية وممالك البلقان اولاً بان طلبت حكومة چتنة الجبلية الى الباب العالي ان تعين حدود المملكتين اذ كان الجبليون من اهل الجبل الاسود في عراك دائم مع القبائل الارناؤدية فتصامت الاستانة عن هذا الطلب وداهم في اوائل آب رجال الدرك العثمانيين ارض الجبل الاسود على طول تارا واحدثوا مذابح في موا كوفاز وفليكا وبرانه وغيرها · وحدث مثل ذلك في بونشانا من مقدونية بين العثمانيين والبلغاريين فزاد في سخط الرأي العام البلغاري فرأت حكومة صوفيا ان تبادر الى ارسال مذكرة الى الدول مخافة ان تستحق غضب الحزب الوطني وذلك في منتصف آب قائلة فيها انه بالنظر لحرج الحالة في البلقان فان احسن واسطة لمقاومة النزعة الحربية في الشعوب المسيحية في مقدونية وتراقيا ان تمنح الحكومة العثمانية الاصلاحات المطلوبة لذينك القطرين فاجابت الدول داعية حكومة صوفيا الى التزام السكون وحكومة الاستانة الى منح الاصلاحات المنشودة · واكتفى الباب العالي بان يعد المسيحيين بقانون الولايات القديم الذي نشر سنة ١٨٨٢ ودلت التجارب انه لم يطبق فاخذت الحوادث تتكرر وكانت انشأت صربيا وبلغاريا منذ اسابيع تعد جيشهما للقتال بحجة القيام بتمرينات عسكرية كبرى فقلقت العثمانية وجمعت ٢٥٠ الفاً في ولاياتها الاوربية ولا سيما في ارجاء ادرنة وعلى الحدود الشمالية من تراقيا · وفي اليوم الثامن والعشرين من ايلول دعت بلغاريا الدول لتوقيف التجنيد عند العثمانيين · وفي ٣٠ ايلول زاد تجنيد العثمانيين فقررت بلغاريا وصربيا ان تدعو جميع جيشهما الى حمل السلاح وفي ٣ تشرين الاول دفع وزراء الممالك المتحالفة الى حكومة الاستانة بلاغاً مشتركاً تطلب فيه منح الاستقلال الاداري لجزيرة كريت ولصربيا القديمة ولمقدونية ولالبانيا وامهلت الدولة ثلاثة ايام لاعطاء الجواب اذا لم يرسل الجواب بعدها يعمد الحلفاء الى استعمال السلاح وحاولت الدول العظمى ان تدخل في اصلاح ذات البين بين العثمانية والحلفاء فلم تفلح وكان الباب العالي يستند على المانيا

ويفاوض من جهة اخرى لندرا وڤينا وباريز فيضيع الوقت في المفاوضة وفي ٩ تشرين الاول بدأ الجبل الاسود باعلان الحرب على العثمانية وفي ١٣ تشرين الاول عاد الحلفاء البلقانيون فبعثوا بمذكرة الى الباب العالي يمهلونه ثلاثة ايام ويجعلون مطالبهم في احد عشر بنداً : تقسيم الولايات الى ايالات تراعى فيها اجناس النازلين فيها وان يكون النواب في مجلس الامة العثمانية نصفين الاول من المسلمين والآخر من المسيحيين على حد سواء وان يعين لها ولاة مسيحيون بلجيكيون اوسويسريون وان يقبل المسيحيون في جميع الوظائف الادارية في المملكة العثمانية وتعين لجان للمراقبة يعهد اليها الاشراف على تنفيذ الاصلاحات التي يجب ان تتم في ستة اشهر الخ وفي ١٧ تشرين الاول بعد ان بعث الباب العالي بمذكرة فيها شيء من الابهام في توجيه التبعة على من يستحقها اعلنت الحرب بلغاريا وصربيا وفي ذات اليوم قرر مجلس النظار اليوناني ان يعلن الحرب على العثمانية فاجتازت الجنود اليونانية التخوم العثمانية صباح ١٨ منه وبذلك نشبت الحرب على جميع تخوم المملكة العثمانية

يكفي القاء نظرة قليلة على المصوّر الطبيعي لبلاد البلقان لتتمثل للقارئ صعوبة الحركات العسكرية على قواد العثمانيين لدن مداهمة كل من بلغاريا وصربيا واليونان للبلاد العثمانية · فان النجاد من جبل رودوب او دسپوت طاغ التي تصل اسنادها الاخيرة الى القرب من البحر بين سرس واورفاني مطوقة وادي ستروما وتفصل تراقية هي مضطرب الجيوش البلغارية العام عن وادي واردار الغني الفسيح وهو الطريق المستقيم لصربيا نحو سلانيك الذي كان الغاية التي تطمح اليها كل من الصرب واليونان· ومثل ذلك يقال في وادي فيستريزا الاوسط ولا سيما الاراضي الواقعة على البحر اليوناني ووادي فويتوزا وابيروس الجنوبية · فالطرق والاودية والسكك الحديدية كلها في الجملة متجهة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي فنتج من ذلك اذا ادخلت في هذا التقسيم البانيا الشمالية حيث اشقودرة على اربعين كيلومتراً من حدود الجبل الاسود ان البلاد كانت اربع ساحات كبرى للحرب ممكنة ولكن بدون اتصال سهل بينها وبذلك لم يكن العثمانيون على ثقة من مواقع الهجوم عليهم فاضطروا الى توسيع خطوط الدفاع فان العثمانية وان استطاعت في الحال ان تجمع ٤٥٠ الفاً من المشاة و ٢١ الفاً من الفرسان و ١٠٤٨ مدفعاً لكنها لم تعمد الى التزام خطة الدفاع وما كان الامر بالتجنيد يتناول غير فيالق تراقية ومقدونية وجزءاً من الاناضول واقتضى في الاولى ان يلاحظ

ادخال المسيحيين في صفوف المقاتلين في حرب عنصرية دينية وفي الثانية اي في عسكر الاناضول شعر بقلة المواصلات السريعة بين الاستانة وآسيا الصغرى وليس في الاناضول سوى خطوط حديدية ضيقة او ذات خط واحد والجند الاحتياطي الذي ارسل من مراني البحر الاسود اقتضى نقله تلى بواخر الى الاستانة والى رودوستو (تكفورطاغي) او سيلوري لتتجه بعد ذلك صوب البلاد التي تحارب فيها ثم ان الحرب الايطالية العثمانية وفتنة اليمن واضطرابات البانيا قد اقتضت نقل جنود من تلك الاصقاع للحرب ومن هنا نشأ تأخير جديد في التجنيد او تعديل في الحركات العسكرية في بعض الاحوال · ولم يستطع العثمانيون ان يجمعوا في اليوم الخامس عشر في تراقية سوى ١١ فرقة نظامية و ٨ فرق رديف ثم بعد حين التحق بها ١٢ فرقة من رديف آسيا الصغرى والظاهر ان الخطة الاولى التي اعتمدها اركان الحرب من العثمانيين كانت الوقوف في وجه الجيوش البلغارية في تراقية حيث كان معظم قوتها وذلك بحشد الجند الكثير لسد جميع منافذ الدفاع من الشمال الغربي الى الجنوب الغربي والى الجنوب من وادي واردار فان الصعوبة الطبيعية في رسم الارض هناك كانت موافقة للدفاع على مايظهر · فان القوى العثمانية بعد ان الفت حامية قوية لموقع ادرنة وحامية تمسك بافواه مضايق الجبل كانت عبارة عن اربعة فيالق في تراقية كل فيلق مؤلف من ثلاث فرق مقسمة بين معسكر ادرنة المنعزل القوي وقلعة قرق كليسا ويرأسه عبدالله باشا (٢٣٠ الفاً) وكانت قوة العثمانيين في مقدونية مؤلفة من جند تلك الاصقاع اي من الفيالق الخامس والسادس والسابع ومن الفرقة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين المستقلة (٢١٠ آلاف) امدتها بالتدريج ثلاث عشرة فرقة من الرديف وتجمع الفيلق الخامس في سلانيك والسادس في مناستر والسابع في شمالي وشرقي اسكوب عند نقطة اتصال الخطوط الحديدية نحو نيش وسلانيك وسلمت قيادة حدود الجبل الاسود للفرقة الرابعة والعشرين والفرقتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون اخذتا بافواه مضايق تساليا والبند وارجاء قوزانا واواسط فيستريزا ويانيا · وكانت قلة عددهم بالنسبة لجيوش اليونان مادية

وفاق الحلفاء البلقانيون الجيش العثماني بسرعة تجنيدهم وهجومهم فتم تجنيد المشاة والاحتياط في بلغاريا في اليوم الخامس وقلة الخيل أخر تجنيد الفرسان والمدفعين الى اليوم الحادي عشر · فاجتماع تسع فرق من المشاة البلغار وتسعة الوية وفرقة من الفرسان

قد تم من اليوم السابع الى اليوم الرابع عشر وانتهى بتجنيد المهاجمين وكان محورهم الرئيسي متجهاً صوب وادي ماريتزا (وهو ثماني فرق عاملة و٥ الوية من الاحتياطي تحت القيادة العامة للجنرال سافوف يعاونه الجنرال فيتشف رئيس الاركان الحرب البلغاري) وهناك جيش ثانوي بقيادة الجنرال كوتنشف رابط في كوستنديل ماداً يده للجناح الايسر من الجيش الصربي · وبعد ذلك يجيء جيش ثالث بقيادة القائد رادكو ديمتريف منبثاً على طول نهر طونجة من يامبولي الى قزل اغاطاش · اما الجيش الصربي (نحو ١٧٠ الفاً) فكان بقيادة القائد بوتنيك مجنداً في مثل المدة التي تجند بها الجيش البلغاري ولكنه اجتمع في اليوم العشرين مبثوثاً من كوستنديل (الفيلق الثاني) الى رشكا ماراً باعالي نهر موراڤا (الفيلق الاول في جنوبي نيش) وكورشوملي «الفيلق الثالث» اما الجيش اليوناني نحو ١٢٥ الفاً فلم يبق في شمالي ارتا سوى كتيبة حامية «فرقة واحـدة» والفرق الست الاخرى اجتمعت كتلة واحدة في تساليا شمالي لاريسا امـام مضيق الاصونة وكان ولي العهد قسطنطين يقودها بنفسه · والاسطول اليوناني الصغير بأمرة الربان كوندر بوتيس يحارب على الشاطئ على مقربة من سلانيك ويستولي على بعض الجزر في بحر ايجه ولا سيما لمني وبوزجه Ténédos

مرَّ معنا ان الجبل الاسود اعلن الحرب يوم ٨ تشرين الاول اي قبل عشرة ايام من انقطاع المفاوضات رسمياً بين الدولة العثمانية والحلفاء البلقانيين · وقد بدأت الوقائع في الحال واجتهد الجبليون بعد ان كشفوا اشقودرة «كان جيشهم في الجنوب بقيادة القائد مارتينوفتش قد اخذ على نفسه القيام بذلك سائراً نحو حصون ترابوش» ان يبادر الى مد يديه للصربيين بالقرب من لواء يكي پازار · فقاوم العثمانيون على طول التخوم الجبلية ازاء بودغورتسا «٩ تشرين» ومن الغد استولوا على حصون روغام ودتشيش وفي الايام التالية داهم الجبليون بشدة معاقل شبشانيك «١١—١٣ تشرين» فاستولوا عليها ثم حصون وارنة وهليم واتوا بعسكر الى الجنوب من طريق وادي درين نحو وسووسان جان دي موداو ومنذ اليوم السادس عشر من تشرين الاول نجح القائد فوكوفيش في حركاته نحو بلاو وغوسينة وفي اليوم الحادي والعشرين بلغ وادي ليم وفي اليوم السادس والعشرين التحق بالجيوش الصربية نحو سيانتزا واحتلت ابيك يوم ٣١ · ولم يلبث الهواء من هذه الجهة ان تبدو صعوباته فانقطعت الحركات الحربية وحصر الجبليون وكدهم في مداهمة اعالي ترابوش التي كان يتقدم فيها القائد مارتينوفيش وفي

ذاك التاريخ اخذت الوقائع في تلك الحملة تجري في ساحات اخرى

ولقد دخلت القوى المهاجمة اليونانية والصربية والبلغارية في آن واحد تقريباً اي في ١٨ تشرين الاول والنقد من حيث الوجهة العسكرية قليل على الجيشين اليوناني والصربي والعثمانيون لم يضعوا امامهم سوى كتائب متوسطة بقوتها فقد اجتمع معظم الجيش اليوناني في سهل لاريسا من اعمال تساليا وسار على العثمانيين فرقتين فاتجهت الفرقة اليمنى تحت قيادة ولي العهد «١٨ تشرين الاول» مارة بفجاج ملونا على الاصونة فاستولت عليها ووصلت طلائعها يوم ٢١ منه الى سرفيا واقتتلت مع فرقة عثمانية فاضطروها الى التسليم بفضل كثرة عددهم وكثرة مدفعياتهم «٢٢—٢٣ تشرين الاول» وكانت فرقة الشمال خلال هذه المدة تتقدم على خط متوازٍ تلّي كرثنا جاعلة مناستر غاية قصدها فدخل ولي العهد الى قوزانه يوم ٢٦ تشرين الاول وضايق فجاج ترمبوتاموس في جنوب ڤريا وافتتح المدينة بعد حرب عوان ٠ ومن هناك اتجه نحو سلانيك في ثلاث فرق من رجاله في حين بقيت الفرقتان الثانيتان سائرتين على مناستر من طريق بانيجه وفلورينه ٠ وقد التقت طليعته يوم ٥ و ٦ تشرين الثاني مع العثمانيين على شواطئ الواردار في ينكيجه ريثما تنضم اليها المدفعية وتعزز بمعظم الجيش وفي ٧ منه قذفوا بالعثمانيين الى الشاطئ الشمالي من النهر بعد قتال شديد في الجملة فاجتازه ولي العهد على اثرهم ليدخل يوم ٩ منه الى سلانيك فسلمت الحامية العثمانية مع القلعة وصحون المرفإ وكانت مؤلفة من ٢٥ الفاً ٠ وقد فشلت الفرقة اليسرى اليونانية في الغرب فاكتشفت من جناحها لكثرة سير ولي العهد فالتقى بها الجيش العثماني من بانيجه الى قيالر فحملتها خسائر جسيمة مادية ولكن العثمانيين عاد فرسان الصرب فهددوهم من الشمال فلم يستطيعوا مطاردة الجيش اليوناني ٠ وفي ٢١ منه احتل اليونان فلورينة الجديدة واستولت الفرقة اليونانية التي غادرت ارتا في ابيروس على بروزة ثم اجتاز على شدة الفصل وضعف البلاد عن اعالة الجيش مضايق كوستزادس ومضايق بنتو بيكاديا واحتلت هذه المدينة الاخيرة يوم ١٥ منه في حين ان كتيبة سيارة تقصد فالونة من طريق وادي سوشيتزا ٠ وكان الاسطول اليوناني قد قام بوظيفته خير قيام بان اغرق في ميناء سلانيك البارجة العثمانية «فتح بلند» القديمة القائمة على حراسة الساحل وباخراجه جنداً الى جزائر ساموتراس وليمني وبوزجة ونيكاريا ومدللي وصاقز الخ

قام الصرب في مقدونية بأصعب مما قام به اليونان فكانت القوى العثمانية مجتمعة

حول اسكوب فاجتاز الجيش الاول الصربي (٧٥ الفاً) غداة اعلان الحرب بقيادة ولي العهد التخوم بين ر يستوفاتز وز يبفجه و رد مقدمة الصفوف العثمانيه نحو الغرب على طول السكة الحديدية . وفي اليوم نفسه اجتاز الفيلق الثالث (بقيادة زيفكوفيش) مضايق برو بولاز بالقوة اما الفيلق الثاني فقد عضده البلغار فاستولى يوم ٢٢ تشرين الاول والبلغار يون من ورائهم على كرانوفا وكوتشانا . وكانت قومانوه الغاية العامة وهناك نشبت المعركة الفاصلة يوم ٢٣ و ٢٤ تشرين الاول فهوجم الجيش العثماني المؤلف من ستين الفاً بقيادة زكي باشا من ثلاث جهات فاضطر الى ان يتراجع نحو اسكوب ودخل جيش القائد ستپانوفيش من الغد الى اشتب واحتل ولي العهد اسكوب يوم ٢٦ منه فانهزم الجيش العثماني الى مناستر . وكانت كتائب صربية ذهبت مدداً للجيش الجبلي بقيادة فوكوفيتش واخرى نزلت وادي واردار مهددة سلانيك وثالثة (مؤلفة من فرقتين) رجعت الى كوستنديل لتذهب منها في السكة الحديدية لنجدة الجيش البلغاري بقيادة القائد ايفانوف الذي عهد اليه حصار سلانيك . اما معظم الجيش الصربي فقد ظل متابعاً سيره ظافراً نحو مناستر وبعد قتال شديد دام يومين اضطرت المدينة الى التسليم (١٨ تشرين الثاني) . وفي ٢٨ منه اجتازت فرقة البانيا الشمالية ودخلت دراج على البحر الادرياتيكي . وفي تراقية بين العثمانيين والبلغار بين وقعت الوقعة الكبرى فقد تقدم آنفاً كيف قسمت قوى المتحاربين اجمالاً ففي اليوم الثامن عشر من تشرين الاول سار الجيش الاول الى فرقتين فسارت الفرقة الاولى على طول نهر طونجة يدوس الفرسان العثمانيين من جهة ادرنة واخذت الثانية نحو الغرب فاستولت على خاصكوي ومصطفى باشا وفي ٢٠ منه ضربت في جمعة بالا فرقة عثمانية وجاء في ٢٢ منه الجيش البلغاري الثالث لتقوية الجناح الايسر من الجيش الاول سائراً في مسالك صعبة مبرزاً من الشجاعة شيئاً كثيراً آخذاً في سيره على مضايق الجبال ملقياً بالحامية العثمانية الى قرق كليسا حيث كان الجيش بقيادة محمود مختار باشا وعزيز باشا فاستولى الذعر على العثمانيين كأنهم في قتال حمي وطيسه فجلوا عن المدينة يوم ٢٤ منه صباحاً وخاف الجيش كله ان يقطع عليه خط الرجعة مع الاستانة فتأخر الى باباسكي ولوله برغوس والى الشاطئ الايسر من ارجين وقد طورد مطاردة شديدة . ونشبت يوم ٢٧ تشرين الاول تلى نجاد بكار حصار ولوله برغوس اول حرب دموية فنجح القائد كريستوف البلغاري في هذه الوقعة بفضل انتظام مدفعيته وذلك في بكار حصار حيث كانت تتجه معظم القوى

العثمانية في حين ان الفرق الاخرى من الجيش الاول والثاني قد انضمت اليه لتقوية جناحه الايمن واطالة حبل امتداده . وفي ٣٠ تشرين الاول عقيب وقعة جرت من الليل فتح طريق النجاد للبلغار وذلك في وسط المعسكر العثماني و في ٣١ منه مساء اضطر العثمانيون الى الجلاء عن تلك الارض بتاتاً منهزمين الى چورلي ثم الى خطوط الدفاع في چتلجه الواقعة بين البحر الاسود و بحر مرمرة فحالوا دون كل هجوم عليهم اذ قد عززوا خطوط الدفاع على جهة طولها اربعون كيلو متراً معمولة من حصون وفيها مدفعية قوية (مائتا مدفع من العيار الكبير) وعلى هذه الجبهة حاول البلغار التقدم فلم يفلحوا فان عدة وقائع صعبة حدثت في لازاركوي (١٧ تشرين الثاني) والحمودية وغيرهما لم تسمح لمشاة البلغار التي كانت تمزق شملها بالنيران والامراض ان تقاوم العثمانيين والبحر من ورائهم تحميهم المدرعات العثمانية . وفي ٣٠ تشرين الثاني عقدت هدنة قصيرة بين المتحاربين وفي الايام التاليه ظهر الهواء الاصفر في الاستانة ثم في الجيش العثماني في چتلجه ومنها سرى الى المعسكر البلغاري وفي ٢٣ منه اعلن اركان الحرب البلغاري توقف الحرب وكانت انتهت هذه الحرب الهائلة التي دامت على امدها شهراً من الزمن باستنزاف قوى الفريقين المتحاربين فحان الوقت المناسب لاصلاح ذات بينهما .

« تكملته في الآتي »

الترجمة عند العرب

كنت نشرت مقالة في جريدة المقتبس اقترحت فيها على فضلاء السوريين تأليف جمعية تجعل هدفها نقل الكتب اللازمة للمدارس من اللغات الافرنجية الى اللغة العربية ووعدت ان اشفع ذلك الاقتراح بجملة اذكر فيها نشأة الترجمة في عهد الامويين والعباسيين واهتمامهم لهذا الامر الخطير اذ اللغة بالحقيقة لا تنهض وتمد اجنحتها ويأخذ القريب والبعيد بحظ منها ان لم تكن لغة العلوم المادية وما كان الناس يقبلون على الالمانية او الانكليزية او الافرنسية لو لم تكن لغات العلم

بدأت الترجمة على عهد الامويين فهم الذين سنوا تلك السنة الحسنة فان ماسرجويه البصري الطبيب الشهير الذي كان معاصراً لمروان بن الحكم قد نقل من اللغة السريانية كناشاً من افضل الكنانيش (١) تأليف القس اهرون بن اعين فلما تولى الخلافة عمر ابن عبدالعزيز وجد هذا الكتاب مدفوناً في بطون مكاتب الشام فرأى من الحكمة ان لا يدع ثمرة هذا الكتاب تذهب ادراج الرياح فنشره لينتفع به الناس وليشجعهم على نقل الكتب المفيدة ٠

كان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ ﻫ حفيد معاوية الاكبر محباً للعلم والحكمة وكان فاضلاً في نفسه عالي الهمة بعيد النظر راجح العقل ويسمونه حكيم آل مروان قد استقدم من مدرسة الاسكندرية راهباً رومياً اسمه مريانوس ورغب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها امر بنقلها الى العربية نقلها له رجل اسمه اصطفان القديم وكان خالد هذا مولعاً بعلم النجوم فانفق الاموال الطائلة وافرغ جهده في سبيل استحضار آلاته ولعله امر بترجمة شيء من هذا العلم ولم يصل الينا خبره كما امر بترجمة علم الكيمياء وقيل ان خالداً امر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون مدينة مصر وامرهم بنقل كثير من الكتب العلمية من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي وهذا اول نقل في الاسلام ٠

ولا يعلم اذا كان عمرو بن العاص قد امر بنقل شيء من الكتب العلمية ايام ولايته

(١) الكناش ج كنانيش في السريانية وهي مجموعة في الطب خاصة

على مصر لما عرف به من الميل للعلم والعلماء وقد كان في ايامه رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء امره ملاحاً يعبر الناس بسفينته وعلائم الميل الى العلم بادية على وجهه فاذا ركب معه جماعة من اهل العلم اصغى الى مذاكرتهم ولما اشتد به الشوق ولم يستطع صبراً على الجهل ترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن اربعين سنة فبلغ مالم يبلغه الناشئون فيه منذ طفوليتهم وقد احسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته واطبائه ومناطقته ٠

فلما سمع به عمرو بن العاص قربه اليه واحترمه واكرمه لعلمه وفضله وجعل له المكانة الرفيعة ووقعت بينهما محبة عظيمة اشتهر امرها وظهر حالها حتى قال بعض المؤرخين : ان المحبة التي نشأت واستحكمت بينهما ترينا مبلغ مايسمو اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي ولا يبعد ان يكون عمرو بن العاص قد امر بترجمة بعض الكتب لان من كانت هذه سيرته من الميل للعلماء وشغفه باكتساب العلم لابد ان تطمح نفسه لنقل بعض العلوم كالفلسفة والمنطق والطب المفقودة من اللسان العربي

وبما تقدم تسقط دعوى من ينسب احراق مكتبة الاسكندرية لعمرو بن العاص بامر من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لانه قول بعيد عن الحقيقة ولو صح ان عمر امر بحرق تلك المكتبة لكان عمرو بن العاص ابان له وجه خطئه بادلة ناهضة ويكفي ان يورد له بعض الاحاديث الصحيحة التي تأمر المسلم باتخاذ الحكمة من اي وعاء كان وان الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها اينما وجدها وان القرآن حث على طلب العلم حثاً مطلقاً ولم يقيده بعلم معين فقال : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ٠ على ان من يعرف قيمة الشيء ويقدره حق قدره لا يعقل ان يجازف به لا سيما وعمرو يعد تلك المكتبة من انفس خيرات الدنيا واجلها قيمة بدليل احترامه واكرامه ليوحنا النحوي وما اسهل على عمرو اقناع ابن الخطاب بترك هذا الامر المشين بسيرته الطاهرة لما جبل عليه ابن العاص من السياسة والدهاء والمهارة في اقامة الحجة هذا اذا فرضنا صدوره من الخليفة الثاني ٠ ولا يظن ان عمرو بن العاص لامر سياسي قد قرب اليه يوحنا فان هذا كان بعيداً عن ضوضاء السياسة منعزلاً عن قومه لا يعرف الا المطالعة والبحث والتأليف

قال سيديو المؤرخ الشهير : لا يصح ان ننسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمر بن الخطاب المشهود له بوفور العقل لدى جميع الامم ولذا لم يذكرها احد من

المؤرخين المعاصرين له فلو فرض صدور امره باحراقها لما كان الا لمقدار قليل فان معظمها احرق في عهد الملك توديوس اه

ولما انتقلت الخلافة الى بني العباس ورسخت قدمهم شرعوا بتشييد نهضة علمية فكنت ترى دور الخلفاء مجمع الادباء والشعراء والعلماء وذلك لرغبة الخلفاء وميلهم للعلم واجلال اهله وقد بالغوا في اكرام العلماء وقربوهم وجالسوهم وواكلوهم وحادثوهم وعولوا على آرائهم حتى لم يبق ذو علم او ادب او قريحة الا وقصد دار السلام ونال جائزة او هدية او راتباً وكم تجود قريحة العالم عند مايرى نفسه مبجلاً محترماً مقدوراً تعبه حق قدره وافكاره ترتع في رياض الحرية ليس لاحد عليه سلطة يجاهر بكل مايعتقده مادام الدليل حليفه والبرهان مجنه وليس شيء ادعى لقتل الافكار والمعتقدات من التحكم بها وقد اشتهر بنو العباس بانهم حماة الرأي ناصروا العلماء حتى المخالفين لهم في المعتقدات وهي مزية عظيمة بها نضجت ثمار العلم وطاب مذاقه والعلم لا ينضج الا اذا كان تحت عناية امير يتعهد تربيته والناس عَلَى دين ملوكهم ٠

اول من اعتنى بالترجمة من العباسيين ابو جعفر المنصور وكان شديد الكلف بعلم النجوم وقد تقرب اليه كثير من علماء الفرس اذ كانت لهم معرفة زائدة بهذا العلم واشهر من تقرب للمنصور نوبخت المنجم الفارسي ترجم له كتباً كثيره وكان يصحبه حيثما توجه وممن خدم المنصور في النجوم ابراهيم الفزاري وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم وقد قصد المنصور رجل من الهند سنة ١٥٦ھ قيم في حساب السند هند وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية وان يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب اصلاً في حركات الكواكب فتولى هذا الامر ابراهيم الفزاري وعمل كتاباً سماه المنجمون السند هند الكبير وظل اهل هذا الزمن يعملون به الى ايام المأمون ٠ وممن تقرب الى المنصور جورجس وهو اول من ابتدأ بنقل الكتب الطبية الى العربية عندما استدعاه المنصور وكان كثير الاحسان اليه ومنهم البطريق كان ايام المنصور قد نقل بعض كتب قديمة وله نقل جيد الا انه دون نقل حنين بن اسحق وقد نقل كتباً كثيرة في الطب من تأليف ابوقراط وجالينوس وكان اهتمام المنصور بنقل الكتب الطبية لا يقل عن اهتمامه بالنجوم فقد بعث بطلب جورجيس بن بختيشوع السرياني الذي كان ماهراً بالطب ذكياً فطناً ذا هيبة ووقار وذلك على اثر علة اصابت المنصور فلما شفي ورجع الى مزاجه منعه من الرجوع

الى بلده وجعل له مكاناً علياً لما فطر عليه من الصدق والامانة والتدين وكان جورجيس هذا يعرف اللغة اليونانية فضلاً عن السريانية والفارسية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية وقد مال اليه المنصور ميلاً شديداً حتى جعله طبيب اسرته وممن علت منزلته عند المنصور عبدالله المقفع وكان فاضلاً كاملاً وهو اول من اعتنى في الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقية وهو فارسي النسب الفاظه حكيمة وتراكيبه من الخلل سليمة ترجم كتب ارسطوطاليس المنطقية الثلاثة وهي كتاب قاطيغورياس وكتاب باري ارمينياس وكتاب انالوطيقا ترجم كل ذلك بعبارة سهلة سلسة وترجم مع ذلك كتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة والخلاصة ان المنصور كانت جل عنايته مصروفة لايجاد مترجمين توسد اليهم هذه الصناعة الجليلة ولم يأل جهداً في هذا السبيل وترجم في خلافته كثير من كتب الهندسة والطب والنجوم . وفي زمن المنصور عرب كتاب بطليموس في الغناء واللحون الثمانية وايضاً كتاب لارسطو عربه عبد المسيح الحمصي .

ولما انتقلت الخلافة الى هرون الرشيد قام احسن قيام بالنهضة العلمية وكان من افاضل الخلفاء وفصحائهم وكرمائهم وقد انتشر العلم في زمانه انتشاراً هائلاً قال درابر في كتابه تنازع العلم والدين : ان الرشيد قد امر باضافة مدرسة الى كل جامع في جميع ارجاء ملكه . وفي ايامه تقاطر الى بغداد كثير من الاطباء وعلماء السريان والفرس والهند وطفقوا يتعلمون اللغة العربية ليستطيعوا الترجمة ويحكموا اصولها وكان الرشيد مشغوفاً بالعلوم ونقلها الى لسانه فقد بذل الاموال الطائلة وكافأ كل من يأتيه بكتاب قديم واتفق له في اثناء اغارته على بلاد الروم ان عثر في انقرة وعمورية وغيرهما على كتب كثيرة حملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها وقد علت منزلة يوحنا عند الرشيد فقربه اليه حتى وضع جميع المدارس تحت مراقبته وكان فاضلاً طبيباً محترماً عند الملوك خدم الرشيد والمأمون والواثق والمتوكل وعدا عن الكتب التي ترجمها فقد كانت له تآليف عظيمة منها كتاب البرهان وكتاب الحميات والكناش المعروف بالمشجر . وممن تقرب الى الرشيد بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ونقلوا كتباً متعددة . وممن اشتهر بالنقل الحجاج بن مطر نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى ويسمى الهارونية تمييزاً له عن كتاب اقليدس الذي نقل في زمن المأمون ثم اصلح نقله فيما بعد ثابت بن قره الحراني وكان فيلسوفاً عظيماً بلغ درجة لم يدانه بها احد وله

تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وقد قربه المعتضد حتى علت منزلته على الوزراء

والخلاصة ان الرشيد قد افرغ قصارى جهده بنقل الكتب ورفع اعلام العلم وكان يصرف قسماً كبيراً من اوقاته في هذا الشأن حتى ان العلماء والادباء كانوا لا يفارقونه واذا اجتمعوا بداره سما الى مناظرتهم من حيث العلم والتواضع لامن حيث السيادة عليهم وهو بموضعه الجليل من الخلافة وقد بلغ به التواضع ان معاوية الضرير المحدث اذا جلس امامه الى طعامه قام الرشيد من موضعه وصب على يده الماء

على ان الباحث يعلم ان معاوية هذا لم يبلغ درجة من العلم يضارع بها الرشيد وكان جل علمه محصوراً بالحديث فاين هو من الرشيد الذي كان يضرب بكل علم بسهم صائب وانما حمل الرشيد على التواضع لمعاوية امر مهم وهو الترغيب فان الناس اذا رأوا العالم يصل الى هذا المقام من الاحترام حتى من العظماء وتنهال عليه المبرات المادية والمعنوية يتسارعون الى طلب العلم

ولما انتقلت الخلافة الى المأمون نهض لخدمة العلم ايما نهضة واتم مابدأ به سلفه من الترجمة والتأليف وكان مفطوراً على محبة العلم والعلماء بل لم يرَ في اولاد الملوك من تعشق العلوم الحكمية والفلسفية مثله على حداثة سنه وقام بين العلماء قيام الاسد لمناظرتهم في جميع انواع العلوم فمن كانت هذه سيرته في حداثة سنه فما بالك به وقد بلغ مبلغ الرجال واستلم زمام الخلافة وكان مع سعة علمه كثير الميل الى القياس العقلي وطالع اكثر الكتب التي ترجمت الى عهده وقد بلغ مبلغاً من العلم قل من يدانيه به فنقل عنه انه اولم يوماً وليمة لخاصة العلماء المقربين اليه وقد ظن بعض الحاضرين انه وضع اكثر من ثلثمائة لون وكلما وضع لون نظر المأمون اليه وقال هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليتجنب هذا ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ومن احب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا وما زالت تلك حاله حتى رفعت الموائد فقال له يحيى بن اكثم : يا اميرالمؤمنين ان خضنا في الطب فانت جالينوس وفي معرفة النجوم فانت هرمس او ذكرنا السخاء فانت فوق حاتم او في الفقه كنت علياً ابن ابي طالب او ذكرنا صدق الحديث كنت ابا ذر في صدق لهجته . وكان احب اليه من الملاهي لعب الشطرنج يمارسه كأبيه لاستنباط الحيل فيه حتى لم يكن في الناس من يفضله فيه وهو القائل في الشطرنج :

ارض مربعة حمراء من ادم مابين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبهاً من غير ان يسعيا فيها بسفك دم
هـذا يغير على هـذا وذاك على هـذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الحرب قد جاءت بمعركة في عسكرين بلا طبل ولا علم

ويتبين لنا شدة ميل المأمون للعلم واهله من قوله عن العلماء هم صفوة خليقة الله وافضل عباده وانفعهم لانهم ارصدوا حياتهم لتربية مواهبهم الطبيعية وان الذين يعلمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ولولاهم لارتكس الخلق في عماية الجهالة وغياهب البربرية ·

اما عناية المأمون بنقل الكتب فهي في اقصى مايتصوره العقل لاسيما في نقل كتب المنطق والفلسفة وقيل ان المأمون نقل الى بغداد مائة حمل بعير من الكتب وكانت احدى شروط معاهدة الصلح بينه وبين الامبراطور ميشل الثالث ان يعطيه احدى مكاتب القسطنطينية التي كان فيها بين الذخائر كتاب بطليموس في الرياضيات السماوية فامر المأمون بترجمته وسماه المجسطي وقد جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها وكان يحرض الناس عَلَى مطالعة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها وكان مثابراً على حضور اكثر الدروس التي يلقيها المدرسون واقتدى بالمأمون كثير من اهل دولته وجماعة من اهل الوجاهة والثروة في بغداد وتقاطر اليه المترجمون من انحاء الجزيرة والعراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الادب والمناظرة واصبح هم الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون حتى نقلت اهم كتب قدماء اليونان الى العربية ·

وقد تقرب جماعة من المأمون واختصوا بالنقل والترجمة منهم الحجاج بن مطر الشهير وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وممن كانت لهم المنزلة الرفيعة يعقوب ابن اسحق الكندي فيلسوف العرب خدم المأمون والمعتصم وابنه احمد ينتهي نسبه الى الاشعث بن قيس من اصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة في جميع العلوم منها الفلسفة الاولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد ورسالة في انه لاتنال الفلسفة الا بعلم الرياضيات وله كتاب في الحث على تعلم الفلسفة وكتاب في ان

افعال الباري كلها عدل لا جور فيها ورسالة في الاحتراس من خدع السوفسطائية ورسالة في نقض مسائل الملحدين وتزييف اقوالهم ورسالة في صحة النبوات وانها ممكنة عقلاً وممن علت منزلته عند المأمون في الترجمة سهل بن سابور وسابور ابنه وايضاً حنين ابن اسحق العبادي شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤ ه وكان ابوه صيرفياً وانتقل في حداثة سنه الى البصرة فتلقى فيها العربية ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب فلقي في ذلك مشقة لان الاطباء خصوصاً اهل جنديسابور كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار وكان اعمر مجالس الطب يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد نبغاء مارستان جنديسابور فجعل حنين يحضر هذا المجلس ويلازم ماسويه فاتفق له ان سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه فغضب يوحنا وقال : مالأهل الحيرة وصناعة الطب فاذهب الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري بها قفافاً صغاراً بدرهم وزرنيخاً بثلاثة دراهم واشتري بالباقي فلوساً كوفية وفارسية وزرنخ القادسية في تلك القفاف واقعد على الطريق وصح الفلوس الجياد للصدقة والنفقة وبع الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة ثم امره ان يخرج من داره . فخرج حنين باكياً حزين القلب كئيباً وقد بعثه ذلك على زيادة النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية فغاب هذا المسكين عن بغداد سنتين ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس فاصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربية واضحى اطباء بغداد بحاجة اليه لنقل الكتب حتى ان يوحنا بن ماسويه نفسه قد استخدمه لنقل كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية واحتذى فيهما حذو الاسكندر بين وترجم ايضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل والتعظيم فيقول له : يا معلمنا حنين

ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فارشدوه الى حنين لانه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شاباً فوسد المأمون هذا الامر الى جماعة من المترجمين وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ورأس عليهم حنيناً المذكور يهذب كل ما يترجمونه وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلاً بمثل فكان من دهاء حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة على ورق غليظ واسطر متفرقة وذلك لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه وذكر بعضهم ان حنيناً ذهب بايعاز من المأمون بطلب الكتب من بلاد الروم .

كان لحنين ولدان داود واسحق صنف لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس فافلح اسحق وتميز واشتغل بالترجمة مثل ابيه من اليونانية الى العربية وترجم ايضاً بعض كتب الحكمة مثل كتاب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء وممن تقرب الى المأمون حبيش بن الحسن الاعسم الدمشقي احد تلاميذ حنين والناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي وممن برع بالترجمة واشتهر قسطا بن لوقا البعلبكي وهو من نصارى الشام وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً رحل الى بلاد الروم في طلب العلم وكان عالماً بالسريانية واليونانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية وكان جيد النقل اصلح نقولاً كثيرة والف رسائل عديدة وتآليف جليلة تزيد على مائة كتاب قال ابو الفرج الملطي لو قلت حقاً لقلت انه افضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني وتوفي بارمينية عند بعض ملوكها ومن المترجمين موسى بن خالد ويعرف بالترجمان نقل كتباً كثيرة من الستة عشر لجالينوس وهو دون حنين ومنهم ابو عثمان الدمشقي كان من النقلة المجيدين ومنهم ابو بشر متى بن يونس من اهالي دير قنى وممن اشتهر بالنقل من اللغة الهندية منكه الهندي كان مع اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي وابن دهن الهندي كان عالماً بالهندية والعربية وانتهت اليه رئاسة مارستان البرامكة .

وممن عانى صناعة الترجمة يوحنا القس وابو سهل الفضل بن نوبخت وله نقل من الفارسي ومنهم ابن الخمار نقل من السرياني الى العربي ومن نقله كتاب الآثار العلوية ومقالة في الاخلاق ومنهم ماسرجيس وكان من الاطباء ونقل من السرياني الى العربي ومنهم هوينان الطبيب النسطوري ترجم كتباً لارسطو وافلاطون وهيبوكرات وغاليان .

وممن مارس النقل الحسن بن البهلول الاواني الطبرهاني وابو البشر متى والتفليسي ومرلاحي وداريشوع وابراهيم بن بكس وايوب بن قاسم الرقي وابو الريحان البيروني وابن وحشية وسعيد الفيومي وشهدي الكرخي وابن شهدي وابن جلجل وابو عبدالله الصقلي وحبيب بن بهريز مطران الموصل وممن نقل عن السريانية كثيراً ابو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار ويحيي بن عدي اليعقوبي ونقل من اليونانية نظيف القس الرومي .

وكان عبد المسيح بن عبدالله الناعمي الحمصي المعروف بابن ناعمة متوسط النقل وهو

الى الجودة اقرب وفي درجته زوربا بن مانجوه (مانجوه) الناعمي الحمصي وكان هلال بن ابي هلال الحمصي صحيح النقل ولفظه مبتذل وكذلك كان فثيون الترجمان يلحن ولا علم له بالعربية وكان ابو النصر ناري بن ايوب قليل النقل لا يعتد بما نقل و بفوقه بسيل المطران وكان الى الجودة اقرب ومن المتوسطين في نقلهم اسطاث وحيرون بن رابطة وابراهيم ابن الصلت وثابت الناقل و يوسف الناقل ومنصور بن باناس وعبد يشوع بن بهريز وابراهيم بن بكس

هؤلاء التراجمة الذين عرفناهم في الاسلام واكثرهم كانوا يرتزقون من نقلهم ويعملون مدفوعين بتنشيط الملوك والامراء والحريصين على خدمة العلم الا يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب واحد ابناء ملوكها فانه كان ينقل لنفسه ولم يرتزق بما كتب .

وعلى الجملة فان العباسيين عنوا بنقل الكتب وصرفوا الاموال الطائلة في هذا السبيل الشريف وقد شيدوا مدرسة لتربية المترجمين سموها مدرسة الالسن لا يدخلها الا من اراد ان يختص بالنقل والترجمة وكانت تحت نظارة طبيب نسطوري

هذا ملخص تاريخ الترجمة في زمن الامويين والعباسيين ولا سيما المنصور والرشيد والمأمون ولولا اهتمامهم بنقل العلوم لما نهضت اللغة العربية في ذلك الزمن واستبحر العمران واضحت مدنية العرب من ارقى المدنيات يحق لكل عربي ان يفاخر بها ولكن ذكرى السلف لا تجدينا نفعاً اذا لم نسلك طريقهم وننسج على منوالهم فنرفع اعلام العلم ونتربى على ادب النفس والدرس ولا بأس من ذكر ماقاله المؤرخ الشهير سيديو عن التمدن العربي اذ بذلك نذكر الذين يغمطون من قدر العرب ولا يعترفون لهم بمدنية عملية اخلاقية وهو قول من لم يفقه كلمة واحدة من التاريخ الاسلامي قال : ان التمدن العربي قد تمكنت اصوله في آفاق الدنيا اقوى تمكن ولا نزال الى الآن نرى آثاره حين نبحث عن اصل مبادئ مانحن عليه من المعلومات الاوربية فان العرب في غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا باقتناء المعارف حتى اخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفارس ومراكش والرقة واصفهان وسمرقند تفاخر بغداد بنيل العلوم والمعارف وقرىء ماترجم للعربية من كتب اليونانية في المدارس الاسلامية وبذل العرب همتهم في الاشتغال بجميع ماابتكرته الافهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا في غالب البلاد خصوصاً بلاد النصرانية من اوربا بابتكارات

تدل على انهم ائمتنا في المعارف ولنا شاهد اصدق على علو شأنهم الذي تجهله الافرنج من ازمان مديدة الاول ماأثر من تواريخ القرون المتوسطة واخبار الرحل والاشعار ومعاجم ما اشتهر من الامكنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة والثاني ما كان لديهم من الصناعات الفائقة والاكتشافات المهمة في الفنون وما وسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء الصحيحة والفلاحة والعلوم التي مارسوها بغاية النشاط في القرن التاسع الى القرن الخامس عشر من الميلاد

وقال ايضاً وقد حفظت العرب مؤلفات اليونان واستعدت لتجديد المعارف في اوربا فكانوا رابطة بين هذين الزمنين وبذا يثبت فضل العرب على الفرنج الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس في رابعة النهار ويعلم ان لاموقع لافتخار المتأخرين من اهل اوربا بتصورات اكثرها للعرب وسبق لك ما كان لعلماء المدرسة البغدادية من الحكم النافذ في الغرب والشرق اه

وبعد فان الباحث في نهوض الامم يرى ان مبدأ الارتقاء لا يكون الا بنقل الكتب العلمية ولولا اهتمام محمد علي باشا بارسال البعثات العلمية الى بلاد الغرب واعتنائه بترجمة كثير من كتب العلم الى العربية لما رأينا في مصر تلك النهضة التي تنير العالم العربي اجمع ولقد رأينا ان الامويين والعباسيين لم يستطيعوا تشييد مدنية عظيمة الا باعتمادهم عَلَى نقل الكتب والعلوم التي لم تكن معهودة لديهم كما ان الغربيين لما ضاقت صدورهم من الجهل المخيم على بلادهم وارادوا ان يكونوا مدنية علمية بدأوا اولاً بالترجمة وقد انبرى كثير من رجالهم ونقلوا كثيراً من الكتب العربية الى لغتهم فان جيراردي كريمونا كان مؤلفاً ينقل تآليف العرب في فنون الحكمة وقد اتقن العربية فعرب الى اللاتينية مايربو على ستين مؤلفاً جليلاً لمشاهير العلماء كالرازي وابن سينا في الرياضيات والهيئة والطب · وممن تصدى للنقل ميشال سكوت الذي انكب في طليطلة على اتقان العربية ولما رسخت ملكته شرع بالترجمة ونقل عدداً وافراً من اكثر العلوم ومنهم روجار باركول الذي كان نسيج وحده في العلوم الفلسفية والطبيعية فانه افرغ جهده في نشر الدروس الشرقية وعَلَى الاخص الدروس العربية ثم استبحرت تلك النهضة فعمت اكثر اقطار اوربا وتوفر عدد الدارسين للغات الشرقية وحفلت المكاتب بآثار العرب لاسيما خزائن كتب باريس ومجريط وليدن واكسفرد ولندن ونشرت تآليف عربية لاعظم علماء العرب وادبائهم وقد انشأت فرنسا سنة ١٧٩٥ مدرسة لتعليم اللغات

الشرقية الحية ومما زاد الفرنسيس نهوضاً في الآداب الشرقية ان نابوليون لما دخل مصر سنة ١٧٩٨ كان بصحبته كثير من العلماء فانتهزوا تلك الفرصة وتعلموا اللغة العربية من المصريين ولما عادوا الى فرنسا نشروا تلك اللغة في بلادهم وصار هم كثير من العلماء البحث والتنقيب عن كتب العرب

والخلاصة فان شعور الامة بنقل الكتب العلمية الى لغتها دليل على نهضة وخير عظيم وان تلك الكتب تنشئ رجالاً عظاماً يحدثون انقلاباً كبيراً في الافكار . واللغة ميزان الامة ولا نهضة الا بنهضة اللغة ولا يكتب لها النهوض ان لم تكن لغة العلوم المادية والمعنوية فاين علماؤنا الذين يغارون على تلك اللغة الشريفة و يؤلفوا جمعية للنقل والترجمة فعلى العلماء اكثر من غيرهم تنوء التبعة والسلام على العاملين المخلصين

دمشق : عبد الفتاح السكري الركابي

فنلندا وعوامل ارتقائها

فنلندا هي دوجية كبرى من بلاد روسيا في اوربا بين الحدود النروجية من الشمال وفي الشمال الشرقي ولايات بطرسبرج واولونز واركانجل الروسية وفي غربيها بحر البلطيق مساحتها السطحية ٣٧٧٨٥٠ كيلو متراً وسكانها ٢٦٠٠٠٠٠ نسمة جاء في مجلة الحياة La vie البار يزية انقد كانت السويد (اسوج) مدة ستة قرون ونصف هي الحاكمة المتحكمة في الشعب الفنلاندي والقابضة على زمام تربيته التاريخية ونشر الاسوجيون بين الفنلانديين الدين المسيحي وحملوا اليهم المدنية الاوربية . ولقد اتحدت القبائل الفنلاندية عَلَى عهد الاسوجيين والفوا امة آخذين القوانين والاوضاع الاجتماعية التي كانت للاسوجيين الذين كانوا تحضروا قبل ذلك وانشأوا مملكة ومزجوا ذلك بهم ومن حسن حظ الشعب الفنلاندي ان هذه الاوضاع التي نقلت من الخارج قد قامت كلها على حرية الفلاح وان حكومة الاقطاعات التي كانت قد انتشرت في شمال بلاد اوربا لم يكن لها اثر في اسوج ذلك لان الشعب الفنلاندي وان كان غلب على امره بالسلاح قد

توصل الى ان يقبل نفس الحقوق السياسية التي كان يستمتع بها الاسوجيون ومنذ ذاك العهد سار الشعبان في رحلتهما التاريخية يتقاسمان البؤس والنعماء · ولئن كان المجد في الغالب من حظ الاسوجيين والألم من نصيب الفنلانديين فان هؤلاء وجدوا في هذه السياسة منافع لهم لم يكونوا لينالوها بهذه الكثرة وفي مثل هذا الوقت القصير لو ظلوا على انفرادهم بيد ان هذا الشعب الفنلاندي الذي ظهر في ميدان التاريخ متأخراً قد بلغ بالتدريج مستوى بقية الشعوب المتمدنة فدب فيه دبيب الاستقلال وهو يرقى في سلم الاجتماع في الوقت الذي تنبه فيه فكر الوطنية وطلب حالة سياسية مستقلة وبذلك تهيأ الوقت للاستقلال عن اسوج اذ كان ذلك نتيجة لازمة الارتقاء الطبيعي الذي حازته فنلندا ولكن هذا الانفصال لم يكن نتيجة منافسة عدائية بل ان الرابطة الاخوية القديمة بين الشعبين قد انحلت فجأة بتقدير العزيز العليم تاركة وراءها تذكارات تظل عزيزة مقدسة عند الشعب الفنلاندي

كان الشعب الرومي اداة هذا الانفصال وبلغ الارتقاء العقلي في الفنلانديين في ذاك العصر الى مستواه في المدنية الاوربية بحيث لم يلبثوا قليلاً حتى غدوا ولهم المقام المحمود بين امم الشمال فقد استولت روسيا على فنلندا ثلاث مرات مدة قرن من الزمن وما برح فكر الوطنية في الشعب الفنلاندي يتطلب حكومة تخالف حكومة القياصرة باسلوبها وقد اثبتت حوادث الحروب ان الفنلانديين مستعدون كل ساعة للفاداة بحياتهم وسعادتهم لاحراز مجد اوطانهم

وكان نشأ لروسيا الامبراطور اسكندر الاول نشأة حرة وتخرج بالسويسري قيصر لاهارب فجاء منه عاقل يحب الحرية حتى اذا تولى قياد الامبراطورية الروسية اراد ان يعطي دستوراً حراً لامته ولكنه رآها منحطة لا تنهض به فارتأى ان يجرب هذا القانون في فنلندا التي كانت خاضعة له فاصبحت دوجية فنلندا الكبرى مثالاً حسناً للامبراطورية الروسية ثم منحت استقلالها الاداري وتبين للقيصر ان وجود فنلندا حاجزاً حول عاصمة الروس اقوى من وقوف بعض الولايات المحتلة بقوة السلاح

هذا بالاجمال حال فنلندا السياسي اما حالها الادبي الذي ادى بها الى هذا الارتقاء الذي اضطر معه مثل القيصر اسكندر الاول ان يمنحها دستوراً مستقلاً لتكون لامته نموذجاً في الحرية التي نالها مؤخراً مع بعض القيود فقد رأى المفكرون من ابنائها في اوائل القرن الماضي ان يعنوا بتحرير لغتهم لانهم لا يحبون ان يكونوا اسوجيين واللغة

216

الاسوجية كانت مستحكمة فيهم ولا روسيين فلم يبق امامهم الا ان يبقوا فنلانديين وهذا يكون بنشر لسانهم فشرعوا في درس المسائل التاريخية والفنلاندية واللسان الفنلاندي والشعر العامي . وكثيراً مايحدث في حياة الامم ان تكون الكوارث العظمى هي التي ينتبه بعدها شعورها وتبدأ تتماسك وتجمع قواها وتنشط من عقالها سائرة الى عالم جديد متبعة طريقاً مهيعاً فقد كانت فنلندا لاول ذاك العهد في حالة من الابهام والشك حتى اذا نقلت مدرستها الجامعة الى مدينة هلسنفور عاصمتها الجديدة هبت من ارجائها حياة عقلية لم تكن تعهد وكانت اللغة السويدية هي لغة المدنية في فنلندا وقد كتب شاعر فنلندا بل احد عظماء شعراء اوربا واسمه رونبرغ اشعاره باللغة السويدية لا بالفنلاندية وكان القانون الاساسي الذي منحته فنلندا بفضل الامبراطور اسكندر الاول قد عاد في عهد الامبراطور نقولا الاول تتزعزع اركانه فلم ير عقلاء الفنلانديين الا ان يدعوا مجموع الشعب الى مستقبل عام وهذا لا يتم الا اذا اخذت الطبقة الدنيا من الشعب بحظ من المعارف بيد ان هذه المهمة ظهرت متعذرة وذلك لان لسان القسم الاعظم من الشعب كان عبارة عن لهجة جافة بربرية لا تستطيع ان تؤدي الافكار الدقيقة وما كان يخطر بالبال ان اللسان الفنلاندي يصبح اداة للمدنية العالية لولا ان قام احد علمائهم وجمع الاغاني العامية والشعر القصصي وكثر المنشئون والاساتذة بهذه اللغة الفنلاندية واراد بعض ساستهم ان يطرح اللغة الاسوجية بتاتاً وفاته ان جزءاً مهماً من الامة الفنلاندية يتكلم بالسويدية وله الحق ان يربي اولاده بهذه اللغة فكان من ذلك ان البلاد التي تكون اكثريتها من الاسوجيين لا يرخص مجلسها باعطاء اعانات للمدارس العليا التي تكون لغتها فنلاندية فاخذ الفنلانديون يكتتبون بما يقتضي لذلك من المال وبهذه الطريقة ايضاً أُنشيء معهد للتمثيل فنلاندي وكثر الشعراء في الشعر الغنائي والاناشيد والقصصيون وكتاب الحقائق وكثر طلاب المدارس الابتدائية بحيث لا تجد اليوم في فنلندا امياً وحيثما انقلبت من البلاد ترى على شواطيء البحيرات او على قمم الآكام كليات الشعب او مدارس شعبية عالية وهي نوع ينجز فيه الدارسون ما تلقنوه من الدروس الابتدائية يتعلم فيها الذكور والاناث معاً والجنسان لا ينفصلان احدهما عن الآخر في جميع مدارس فنلندا فيتعلمون في تلك الكليات تعليماً آخر ويحضرون دروساً في التاريخ والآداب الوطنية والحساب والبستنة والاقتصاد

وهذه المدارس تقوم باعانات المحسنين من القوم واحياناً بانفاق فرد واحد او انها

تنشئها جمعيات الشبان الذين يجتمعون فيها لسماع المحاضرات وانشاد الاغاني والبحث في المسائل الاجتماعية والمران على الاعمال

وعلى هذه الصورة ينتشر نور العلم في البلاد حتى ان الفلاح الفنلاندي قد بلغ به من حب التعلم ان اخذ يبتاع كتب العلم الراقي مثل دائرة المعارف الفنلاندية التي اخذت تنشر حديثاً فكان الاقبال عليها عظيماً من جميع الطبقات حتى لقد اباع طابعها منها لاول ايام ظهور اجزائها الاولى نحو عشرين الف نسخة هذا وهي تكلف مائتي فرنك كلها فكان يبتاعها حتى سكان الاكواخ الذين ليس لهم مايسد عوزهم من القوت والشراب وترجموا الى لسانهم احسن روايات شكسبير وموليير ودانتي وراسين وفلوبر واناتول فرانس وماترلنك وفرلين

وقد زالت الاختلافات بين العنصرين الاسوجي والفنلاندي وانقلبت الى منافسة سلمية لانهم رأوا ان ايغار الصدور لا يغير شيئاً وهم يريدون ان يقفوا في سبيل عدوهم لا ان ينشقوا على انفسهم و يطمعوا بهم خصومهم وجيرانهم فاصبحوا بفضل المدنية الحديثة كلهم امة واحدة لها نزعة سياسية واحدة وان كانوا مختلفين في عنصرهم ولسانهم . وكانت آداب ذينك العنصرين متأثرة بالمحيط متشابهة كل التشابه حتى لتجد الاختلاف بيناً بين الآداب الاسوجية المكتوبة في فنلندا والآداب الاسوجية الصادرة من اسوج لان آداب كل امة تبعت بيئتها ومحيطها وسياسة بلادها بمعنى ان السويدي الفنلاندي اصبح كالسويسري الالماني والفرنساوي او الايطالي سويسرياً قبل كل شيء لايريد ان يكون المانياً وان كانت لغته المانية ولا فرنسوياً وان كان لسانه الافرنسية ولا ايطالياً وان كانت لغته الايطالية وهكذا ترى الاسوجيين والفنلانديين في دوجية فنلندا متخالفين بعنصريهما ولسانيهما ولكنهما متوافقان بمبدإهما السياسي شأن بلجيكا وسويسرا مما يستدل منه بان في الامكان انشاء مملكة قوية بلسانين رئيسين وتاريخين مختلفين .

معجم البلدان

تكلمنا في الجزئين الماضيين ما ساعدنا نفس الكلام على معجم ياقوت واقتبسنا من فرائد فوائده ما اتسع له المقام وما هذا المعجم في الحقيقة الا منجم واسع فيه صنوف المعادن الثمينة يتكلم عن علل البلدان والسكان والانسان علة فساد الارض وصلاحها قال في «دنيسر» بضم اوله بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم آخر يقال له قوج حصار رأيتها وانا صبيٌّ وقد صارت قرية ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصراً لا نظير لها كبراً وكثرة اهل وعظم اسواق وهذا من العجائب الذي لا مثيل لها ويشبهه حال مدينة شيكاغو في غربي الولايات المتحدة الاميركية فانها كانت منذ خمسين سنة قرية وها هي من اعظم عواصم العالم واضخمها عمراناً ولكن سنة الشرق غير سنة الغرب الا ترى الى ما رواه ياقوت في اصبهان قال ان قد فشا الخراب لعهده وقبله في نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية والحروب المتصلة بين الحزبين فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الاخرى واحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إلٌّ ولا ذمة ومع ذلك فقل ان تدوم بها دولة سلطان او يقيم بها فيصلح فاسدها وكذلك الامر في رساتيقها وقراها التي كل واحدة منها كالمدينة

ومثل ذلك ما رواه في « اغمات » قال : واهلها فرقتان يقال لاحداهما الموسوية من اصحاب ابن ورصند والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقة والفرقة الاخرى مالكية حشوية وبينهما القتال الدائم وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الاخرى كذا ذكر ابن حوقل التاجر الموصلي في كتابه وكان شاهدها قديماً بعد الثلاثمائة من الهجرة ولا ادري الآن كيف هي فقد تداولتهم عدة دول منها دولة الملثمين وكان فيهم جد وصلابة في الدين ثم عبد المؤمن وبنوه ولهم ناموس يلتزمونه وسياسة يقيمونها لا يثبت معها مثل هذه الاخلاط .

وقال في مادة « البريّ » : كان اهل المدينة ثلاث طوائف شافعية وهم الاقل وحنفية وهم الاكثر وشيعية وهم السواد الاعظم لان اهل البلد كان نصفهم شيعة واما اهل الرستاق فليس فيهم الا شيعة وقليل من الحنفيين ولم يكن فيهم من الشافعية احد فوقعت

العصبية بين السنة والشيعة فتظافر عليهم الحنفية والشافعية وتطاولت بينهم الحروب حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف فلما افنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية هذا مع قلة عدد الشافعية الا ان الله نصرهم عليهم وكان اهل الرستاق وهم حنفية يجيئون الى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون اهل نحلتهم فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى افنوهم فهذه المحال الخراب التي ترى هي محال الشيعة والحنفية وبقيت هذه المحلة المعروفة بالشافعية وهي اصغر محال الري ولم يبق من الشيعة والحنفية الا من يخفي مذهبه ووجدت دورهم كلها مبنية تحت الارض ودروبهم التي يسلك بها الى دورهم على غاية الظلمة وصعوبة المسلك فعلوا ذلك لكثرة ما يطرقهم من العساكر بالغارات ولولا ذلك لما بقي فيها احد .

ومثل ذلك مدينة « ساوة » بين الري وهمذان قال وبقربها مدينة يقال لها آوه فساوة سنية شافعية وآوة اهلها شيعة امامية وبينهما نحو فرسخين ولا يزال يقع بينهما عصبية وما زالتا معمورتين الى سنة ٦١٧ فجاءها التتر وخربوها وقتلوا كل من كان فيها ولم يتركوا احداً البتة وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا اعظم منها بلغني انهم احرقوها

وهكذا ذكر بالمناسبة ما احدثه التعصب الديني في خراب البلدان فقد ذكر في ترجمة ابي محمد هياج بن محمد الحطيني الزاهد انه اشتشهد بمكة في وقعة وقعت بين اهل السنة والرافضة فحمله اميرها محمد بن ابي هاشم فضربه ضرباً شديداً على كبر السن ثم حمل الى منزله فعاش بعد الضرب اياماً ثم مات في سنة ٤٧٢ . قلنا والفتن الدينية لم تكد تخلو منها جهة من جهات بلاد الاسلام بضع سنين فقد ذكر المؤرخون في حوادث سنة خمس وسبعين واربعمائة انه كانت فيها ايضاً فتنة ببغداد بين الشافعية والحنفية وكل هذه الفتن كانت تسيل فيها الدماء الى الاباطح وما سببها الا ضعف العمال وانتفاعهم سراً من الاختلاف بين اهل البلد الواحد فهم يفرحون بكل ما يقع اذ كان ينتج لهم بسط سلطانهم باشغال الناس عن النظر في امورهم وكان استعباد الملوك للرعايا يختلف باختلاف رقي البلد والقطر فقد روى ياقوت في مادة « زغاوة » وهم جيل من السودان يعظمون ملكهم ويعبدونه من دون الله تعالى ويتوهمون انه لا يأكل الطعام ولطعامه قومة عليه سراً يدخلونه الى بيوته لا يعلم من اين يجيئون به فان اتفق لاحد من الرعية ان يلقى الابل التي عليها زاده قتل لوقته في موضعه وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة اصحابه وشرابه

218

يعمل من الذرة مقوى بالعسل وزيه لبس سراويلات من صوف رقيق والاتشاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الاسماط والخز السوسي والديباج الرفيع ويده مطلقة في رعاياه ويسترق من شاء منهم امواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل وزروع بلدهم اكثرها الذرة واللوبياء ثم القمح واكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود ومعايشهم من الزروع واقتناء المواشي وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون انهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون .

ومن المسائل التي حققها ياقوت ما قاله في وصف « الرقيم » الذي جاء ذكره في القرآن وان فيه اصحاب الكهف ان هذا الكهف بين عمورية ونيقية وبينه وبين طرطوس عشرة ايام او احد عشر يوماً وكان الواثق قد وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم (الاناضول) للنظر الى اصحاب الكهف والرقيم قال فوصلنا الى بلد الروم فاذا هو جبل صغير قدر اسفله اقل من الف ذراع وله سرب من وجه الارض فتدخل السرب فتمر في خسف من الارض مقدار ثلاثمائة خطوة فيخرجك الى رواق في الجبل على اساطين منقورة فيه عدة ابيات منها بيت مرتفع القبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكل بهم يحفظهم معه خصيان واذا هو يحيدنا عن ان نراهم ونفتشهم ويزعم انه لايأمن من ان يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه يريد التمويه ليدوم كسبه فقلت دعني انظر اليهم وانت بريء فصعدت بمشقة عظيمة غليظة مع غلام من غلماني فنظرت اليهم واذا هم في مسوح شعر تتفتت في اليد واذا اجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها واذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير اني امررت يدي على صدر احدهم فوجدت خشونة شعره وقوة ثيابه ثم احضرنا المتوكل بهم طعاماً وسألنا ان نأكل منه فلما اخذناه منه ذقناه وقد انكرت انفسنا وتهوعنا وكأن الخبيث اراد قتلنا او قتل بعضنا ليصح له ما كان يموه به عند الملك انه فعل بنا هذا الفعل اصحاب الرقيم فقلنا له انا ظننا انهم احياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك فتركناه وانصرفنا .

ومن العجائب التي نقلها في « قومسين » اي كرمان شاه ان فيها الدكان الذي اجتمع عليه ملوك الارض منهم فغفور ملك الصين وخاقان ملك الترك وداهر ملك الهند وقيصر ملك الروم عند كسرى ابرويز وهو دكان مربع مائة ذراع في مثلها من حجارة مهندمة مسمرة بمسامير من حديد لا يبين فيها ما بين الحجرين فلا يشك من رآه انه قطعة واحدة .

ومما ذكره في « كرخ بغداد » ولما ابتنى المنصور مدينة بغداد امر ان تجعل الاسواق في طاقات المدينة ازاء كل باب سوق فلم يزل على ذلك مدة حتى قدم عليه بطريق من بطارقة الروم رسولاً من عند الملك فامر الربيع ان يطوف به في المدينة حتى ينظر اليها و يتأملها و يرى سورها وابوابها وما حولها من العمارة و يصعده السور حتى يمشي من اوله الى آخره و يريه قباب الابواب والطاقات وجميع ذلك ففعل الربيع ما امره به فلما رجع الى المنصور قال له: كيف رأيت مدينتي قال : رأيت بناءً حسناً ومدينة حصينة الا ان اعداءك فيها معك قال : من هم قال : السوقة يوافي الجاسوس من جميع الاطراف فيدخل الجاسوس بعلة التجارة والتجار هم برد الآفاق فيتجسس الاخبار و يعرف ما يريد و ينصرف من غير ان يعلم به احد فسكت المنصور فلما انصرف البطريق امر باخراج السوقة من المدينة وتقدم الى ابراهيم بن حبيش الكوفي وخراش بن المسيب اليماني بذلك وامرهما ان يبنيا ما بين الصراة ونهر عيسى سوقاً وان يجعلاها صفوفاً ورتب كل صنف في موضعه وقال اجعلا سوق القصابين في آخر الاسواق فانهم سفهاء وفي ايديهم الحديد القاطع ....

ولياقوت اقتدار عظيم في وصف اخلاق الشعوب وعاداتهم خصوصاً ما يحققه بنفسه مثل كلامه على اهل « مرباط » فرضة مدينة ظفار قال : واهلها عرب وزيهم زي العرب القديم وفيهم صلاح مع شراسة في خلقهم وزعارة وتعصب وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة وذلك انه في كل ليلة تخرج نساؤهم الى ظاهر مدينتهم و يسامرن الرجال الذين لا حرمة بينهم و يلاعبنهم و يجالسنهم الى ان يذهب اكثر الليل فيجوز الرجل على زوجته واخته وامه وعمته واذا هي تلاعب آخر وتماشيه فيعرض عنها و يمضي على امرأة غيره فيجالسها كما فعل بزوجته وقد اجتمعت بكيش بجماعة كثيرة منهم رجل عاقل اديب يحفظ شيئاً كثيراً وانشدني اشعاراً وكتبتها عنه فلما طال الحديث بيني و بينه قلت له : بلغني عنكم شيء انكرته ولا اعرف صحته فبدرني وقال : لعلك تعني السمر قلت ما اردت غيره فقال : الذي بلغك من ذلك صحيح و بالله اقسم انه لقبيح ولكن عليه نشأنا وله مذ خلقنا الفنا ولو استطعنا ان نزيله لازلناه ولو قدرنا لغيرناه ولكن لا سبيل الى ذلك مع ممر السنين عليه واستمرار العادة به

ومن ذلك ما ذكره في امانة اهل قزدار من نواحي الهند : وفي كتاب ابي علي التنوخي حدثني ابو الحسن علي بن لطيف المتكلم على مذهب ابي هاشم قال: كنت مجتازاً بناحية

قزدار مما يلي سجستان ومكران وكان يسكنها الخليفة من الخوارج وهي بلدهم ودارهم فانتهيت الى قرية لهم وانا عليل فرأيت قراح بطيخ فابتعت واحدة فاكلتها فحممت في الحال ونمت بقية يومي وليلتي في قراح البطيخ ماعرض لي احد بسوء وكنت قبل ذلك دخلت القرية فرأيت خياطاً شيخاً في مسجد فسلمت اليه رزمة ثيابي وقلت : تحفظها لي فقال : دعها في المحراب فتركتها ومضيت الى القراح فلما اتيت من الغد عدت الى المسجد فوجدته مفتوحاً ولم ار الخياط ووجدت الرزمة بشدها في المحراب فقلت : ما اجهل هذا الخياط ترك ثيابي وحدها وخرج ولم اشك في انه حملها بالليل الى بيته وردها من الغد الى المسجد فجلست افتحها واخرج شيئاً شيئاً منها فاذا انا بالخياط فقلت له : كيف خلفت ثيابي فقال : افتقدت منها شيئاً قلت : لا قال : فما سوءالك قلت : احببت ان اعلم فقال : تركتها البارحة في موضعها ومضيت الى بيتي فاقبلت اخاصمه وهو يضحك ثم قال : انتم قد تعودتم اخلاق الاراذل نشأتم في بلاد الكفر التي فيها السرقة والخيانة وهذا لا نعرفه ههنا لو بقيت ثيابك مكانها الى ان تبلى ما اخذها غيرك ولو مضيت الى المشرق والمغرب ثم عدت لوجدتها مكانها فانا لا نعرف لصاً ولا فساداً ولا شيئاً مما عندكم ولكن ربما لحقنا في السنين الكثيرة شيء من هذا فنعلم انه من جهة غريب قد اجتاز بنا فنركب وراءه فلا يفوتنا فندركه ونقتله اما نتأول عليه بكفره وسعيه في الارض بالفساد فنقتله او نقطعه كما نقطع السراق عندنا من المرفق فلا نرى شيئاً من هذا . قال وسألت عن سيرة اهل البلد بعد ذلك فاذا الامر على ما ذكره فاذا هم لا يغلقون ابوابهم بالليل وليس لاكثرهم ابواب وانما شيء يرد الوحوش والكلاب .

وذكر في « باشغرد » قال كان المقتدر بالله قد ارسل احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى امير المؤمنين ثم مولى محمد بن سليمان الى ملك الصقالبة وكان قد اسلم هو واهل بلاده ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاسلامية فحكى جميع ماشاهده منذ خرج من بغداد الى ان عاد وكان انفصاله في صفر سنة ٣٠٩ . وهنا روى عبارة ابن فضلان في الباشغرد او الباشقرد فقال انهم قوم من الاتراك من اشد الناس اقداماً على القتل وهم يحلقون لحاهم وذكر من عاداتهم كل غريب فبعد ان اورد ياقوت كل هذا عَلّى علاته قال : اما انا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كبيرة يقال لهم الباشغردية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقهون عَلَى مذهب ابي حنيفة رضي الله عنه فسألت رجلاً منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم فقال اما بلادنا فمن وراء القسطنطينية

في مملكة امة من الافرنج يقال لهم الهنكر (المجر) ونحن مسلمون رعية لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية كل واحدة تكاد ان تكون بليدة الا ان ملك الهنكر لا يمكننا ان نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من ان نعصي عيسى ونحن في وسط بلاد النصرانية فشمالينا بلاد الصقالبة وقبلينا بلاد البابا يعني رومية والبابا رئيس الافرنج وهو عندهم نائب المسيح كما هو امير المؤمنين عند المسلمين ينفذ امره في جميع مايتعلق بالدين في جميعهم · قال وفي غربينا الاندلس وفي شرقينا بلاد الروم قسطنطينية واعمالها قال ولساننا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونغزو معهم كل طائفة لانهم لا يقاتلون الا مخالفي الاسلام

قال ياقوت : فسألته عن سبب اسلامهم فقال سمعت جماعة من اسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا وارشدونا الى الصواب من دين الاسلام فهدانا الله والحمد لله فاسلمنا جميعاً ونحن نقدم الى هذه البلاد ونتفقه فاذا رجعنا الى بلادنا اكرمنا اهلها وولونا امور دينهم : فسألته لم تحلقون لحاكم كما تفعل الافرنج فقال يحلقها منا المتجندون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج اما غيرهم فلا · قلت فكم مسافة مابيننا وبين بلادكم فقال : من هاهنا الى القسطنطينية نحو شهرين ونصف ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك واما الاصطخري فقد ذكر في كتابه من باشجرد الى بلغار خمس وعشرون مرحلة ومن باشجرد الى البجناك وهم صنف من الاتراك عشرة ايام

ووصف بلاد برغر قال : قال علي بن الحسين المسعودي مدينة البرغر على ساحل بحر مانطس وهو بحر متصل بخليج القسطنطينية وارى انهم في الاقليم السابع وهم نوع من الترك والقوافل متصلة منهم الى بلاد خوارزم وارض خراسان ومن بلاد خوارزم اليهم الا ان ذلك بين بوادي غيرهم من الترك قال وملك البرغر في وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ مسلم اسلم ايام المقتدر بعد العشر والثلثمائة لرؤيا رآها وقد كان حج له ولد فورد بغداد وحمل معه المقتدر لواءً وسواداً ومالاً ولهم جامع وهذا الملك يغزو القسطنطينية في نحو خمسين الف فارس فصاعداً ويشن الغارات حولها الى بلاد رومية والاندلس وارض برجان والجلالقة وافرنجة ومنه الى القسطنطينية نحو شهرين بين عمائر وغمائر · والبرغر امة عظيمة شديدة البأس ينقاد اليها من جاورها من الامم ولا تمتنع القسطنطينية منهم الا باسوار وكذلك ماجاورها من البلدان والليل في بلادهم في غاية القصر في

الصيف حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح . قلت انا (ياقوت) هذه الصفة جميعها صفة بلغار وما اظنهما الا واحداً وانهما لغتان فيه لسانين وليس فيه ماانكرته الا قوله ان البرغر على ساحل بحر مانطس وما اظن بينه وبين ساحل بحر مانطس الا مسافة بعيدة اه .

وهكذا ترى ياقوت يذكر عبارة من سلفه في وصف الشعوب والبلدان ثم يشفعها باختباراته وكثيراً ماينقل مالا يعتقد صحته كما نقل ماقيل في الصين في اثنتي عشرة صفحة مقدماً عليه قوله : وهذا شيء من اخبار الصين الاقصى ذكرته كما وجدته لااضمن صحته فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض وان كان كذباً فتعرف ماتقوله الناس فان هذه بلاد شاسعة مارأينا من مضى اليها فاوغل فيها وانما يقصد التجار اطرافها .

ونقل المؤلف عن الاصطخري في وصف ماوراء النهر قال : ولقد شهدت منزلاً بالصغد قد ضربت الاوتاد على بابه فبلغني ان ذلك الباب لم يغلق منذ زيادة على مائة سنة لا يمنع من نزوله طارق وربما ينزل بالليل بيتاً من غير استعداد المائة والمائتان والاكثر بدوابهم فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ورقادهم من غير ان يتكلف صاحب المنزل بشيء من ذلك لدوام ذلك منهم والغالب على اهل ماوراء النهر صرف نفقاتهم الى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخيرات الا القليل منهم وليس من بلد ولا من منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة الا وبها من الرباطات مايفضل عن نزول من طرقه . قال وبلغني ان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها اذا نزل الناس أقيم لهم علف دوابهم وطعام انفسهم الى ان يرحلوا واما بأسهم وشوكتهم فليس في الاسلام ناحية اكبر حظاً في الجهاد منهم وذلك ان جميع حدود ماوراء النهر دار حرب فمن حدود خوارزم الى اسبيجاب فهم الترك الغزية ومن اسبيجاب الى اقصى فرغانة الترك الخرلخية ثم يطوف بحدود ماوراء النهر من الصغدية وبلد الهند من حد ظهر الختل الى حد الترك في ظهر فرغانة فهم القاهرون لاهل هذه النواحي وستفيض انه ليس للاسلام دار حرب هم اشد شوكة من الترك يمنعونهم من دار الاسلام وجميع ماوراء النهر ثغر يبلغهم نفير العدو ولقد اخبرني من كان مع نصر بن احمد في غزاة اشروسنة انهم كانو يحزرون ثلثمائة الف رجل انقطعوا عن عسكره فضلوا اياماً قبل ان يبلغهم نفير العدو ويتهيأ لهم الرجوع وما كان فيهم من غير اهل ماوراء النهر كبير احد يعرفون باعيانهم . وبلغني ان المعتصم كتب الى عبدالله

ابن طاهر كتاباً يتهدده فيه فانفذ الكتاب الى نوح بن اسد فكتب اليه ان بما وراء النهر ثلاثمائة الف قرية ليس من قرية الا ويخرج منها كذا وكذا فارس وراجل لا يتبين على اهلها فقدهم وبلغني ان بالشاش وفرغانة من الاستعداد مالا يوصف مثله عن ثغر من الثغور حتى ان الرجل الواحد من الرعية عنده ما بين مائة ومائتي دابة وليس بسلطان وهم مع ذلك احسن الناس طاعة لكبرائهم والطفهم خدمة لعظمائهم حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا من ماوراء النهر رجالاً وكانت الاتراك جيوشاً تفضلهم على سائر الاجناس في البأس والجرأة والاقدام وحسن الطاعة فقدم الحضرة منهم جماعة صاروا قواداً وحاشية للخلفاء ونقاباً عندهم مثل الفراغنة الاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة ثم قوي امرهم وتوالدوا وتغيرت طاعتهم حتى غلبوا على الخلفاء مثل الافشين وآل ابي الساج وهم من اشروسنة والاخشيذ من سمرقند ٠٠٠ قلنا وهذا مبدأ دخول الاتراك في خدمة الخلفاء

ومثل ذلك ماقاله في وصف خوارزم قال : ذكروا في سبب تسميتها بهذا الاسم ان احد الملوك القدماء غضب على اربعمائة من اهل مملكته وخاصة حاشيته فامر بنفيهم الى موضع منقطع عن العمارات بحيث يكون بينهم وبين العمائر مائة فرسخ فلم يجدوا على هذه الصفة الا موضع مدينة كانت وهي احدى مدن خوارزم فجاؤا بهم الى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا فلما كان بعد مدة اخرى جرى ذكرهم على بال الملك فامر قوماً بكشف خبرهم فجاؤا فوجدوهم قد بنوا اكواخاً ووجدوهم يصيدون السمك وبه يتقوتون واذا حولهم حطب كثير فقالوا لهم كيف حالكم فقالوا عندنا هذا اللحم واشاروا الى السمك وعندنا هذا الحطب فنحن نشوي هذا بهذا ونتقوت به فرجعوا الى الملك واخبروه بذلك فسمي ذلك الموضع خوارزم لان اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم فصار خوارزم فخفف استثقالاً لتكرير الراء ٠ واقر اولئك الذين نفاهم بذلك المكان واقطعهم اياه وارسل اليهم اربعمائة جارية تركية وامدهم بطعام من الحنطة والشعير وامرهم بالزرع والمقام هناك فلذلك في وجوههم اثر الترك وفي طباعهم اخلاق الترك وفيهم جلد وقوة واحوجهم الى مقتضى القضية للصبر على الشقاء فعمروا هناك دوراً وقصوراً وكثروا وتنافسوا في البقاع فبنوا قرى ومدناً وتسامع بهم من يقاربهم من مدن خراسان فجاؤا وساكنوهم فكثروا وغزوا فصارت ولاية حسنة عامرة

وكنت قد جئتها في سنة ٦١٦ فما رأيت ولاية قط اعمر منها فانها على ماهي عليه

221

من رداءة ارضها وكونها سبخة كثيرة النزوز متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور في صحاريها قل مايقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيه هذا مع كثرة الشجر بها والغالب عليه شجر التوت والخلاف لاحتياجهم اليه لعمائرهم وطعم دود الابريسم ولا فرق بين المار في رساتيقها كلها والمار في الاسواق وما ظننت ان في الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم واكثر من اهلها مع انهم قد مرنوا على ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير واكثر ضياع خوارزم مدن ذات اسواق وخيرات ودكاكين وفي النادر ان يكون قرية لاسوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة ....

قال : والشتاء عندهم شديد جداً بحيث اني رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه . وقد قال في وصف جيحون : وقد شاهدته وركبت فيه ورأيته جامداً وكيفية جموده انه اذا اشتد البرد وقوي كلبه جمد اولاً قطعاً ثم تسري تلك القطع على وجه الماء فكلما ماست واحدة الاخرى التصقت بها ولا يزال يعظم حتى يعود جيحون كله قطعة واحدة ولا يزال ذلك الجامد يثخن حتى يصير ثخنه نحو خمسة اشبار وباقي الماء تحته جار فيحفر اهل خوارزم فيه آباراً بالمعاول حتى يخرقوه الى الماء الجاري ثم يستقوا منه الماء لشربهم ويحملوه في الجرار الى منازلهم فلا يصل الى المنزل الا وقد جمد نصفه في بواطن الجرة فاذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل والعجل بالبقر ولا يبقى بينه وبين الارض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون في البوادي ويبقى على ذلك نحو شهرين فاذا انكسرت سورة البرد تقطع قطعاً كما بدأ في اول امره الى ان يعود الى حالته الاولى وتظل السفن في مدة جماده ناشبة فيه لاحيلة لهم في اقتلاعها منه الى ان يذوب واكثر الناس يبادرون برفعها الى البر قبل الجماد

وبعد فقد علم القارئ من وصف مصنف ياقوت البديع انه خاص ببلاد الشرق والاسلام منه خاصة وما يذكره بالعرض من البلاد القاصية كبلاد الروم فانه يأخذه بتحفظ وقد قال في الروم : « وفي اخبار بلاد الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر في كتابي هذا ومن كان عنده اهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً فقد اذنت له في اصلاحه مأجوراً وقال في « زقاق بن واقف » : وقد تتغير اسماء الاماكن حسب تغير اهلها .

وقال في مادة « عكوتان » : وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب (باليمن) واهلها

باقون على اللغة العربية من الجاهلية الى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم انهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة وهم اهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه

ومؤلفنا لا تفوته شاردة الا ويأتي بنموذج منها قوله في « نقيرة » ، في كتاب ابي حنيفة اسحاق بن بشر بخط العبدري في مسير خالد بن الوليد رضي الله عنه من عين التمر ووجدوا في كنيسته صبياناً يتعلمون الكتابة في قرية من قرى عين التمر يقال لها النقيرة وكان فيهم حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه · وذكر في ترجمة ابي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي شيخ الصوفية ببلاد فارس وواحد الطريقة في وقته انه لما توفي بشيراز سنة ٣٧١ عن نحو مائة واربع سنين خرج مع جنازته المسلمون واليهود والنصارى

وهنا نختم هذا المبحث — الذي طال لانا توخينا نقل عبارات ياقوت برمتها لمتانتها وسلاستها ولان فيها من الفصح مايجدر بطلاب الآداب واللغة ان يقتبسوه — بقصة وقعت لفقيه مع خليفة وفيها عبرة العبر في خراب البلدان وعمرانها بل هي السرُّ الاعظم فيهما · قال : كان ابو خالد عبد الرحمن بن زياد بن انعم الافريقي قاضيها وهو اول مولود ولد في الاسلام بافريقية تكلموا فيه فقدم على ابي جعفر المنصور ببغداد قال : كنت اطلب العلم مع ابي جعفر امير المؤمنين قبل الخلافة فادخلني يوماً منزله فقدم اليَّ طعاماً ومريقة من حبوب ليس فيها لحم ثم قدم اليَّ زبيباً ثم قال : ياجارية عندك حلواء قالت : لا قال ولا التمر قالت : ولا التمر فاستلقى ثم قرأ هذه الآية (عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) قال : فلما ولي المنصور الخلافة ارسل اليَّ فقدمت عليه والربيع قائم على رأسه فاستدناني وقال : ياعبدالرحمن بلغني انك كنت تفد على بني أمية قلت : اجل قال : فكيف رأيت سلطاني من سلطانهم وكيف مامررت به من اعمالنا حتى وصلت الينا قال : فقلت يا امير المؤمنين رأيت اعمالاً سيئة وظلماً فاشياً ووالله ياامير المؤمنين مارأيت في سلطانهم شيئاً من الجور والظلم الا ورأيته في سلطانك وكنت ظننته لبعد البلاد منك فجعلت كلما دنوت كان الامر اعظم اتذكر ياامير المؤمنين يوم ادخلتني منزلك فقدمت اليَّ طعاماً ومريقة من حبوب لم يكن فيها لحم ثم قدمت زبيباً ثم قلت ياجارية عندك حلواء قالت :لا قلت : ولا التمر قالت : ولا التمر فاستلقيت ثم تلوت (عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) فقد والله اهلك عدوك واستخلفك في الارض ماتعمل

قال : فنكس رأسه طويلاً ثم رفع رأسه اليّ وقال : كيف لي بالرجال قلت أليس عمر ابن عبد العزيز كان يقول ان الوالي بمنزلة السوق يجلب اليها ماينفق فيها فان كان براً اتوه ببرهم وان كان فاجراً اتوه بفجورهم : فاطرق طويلاً فاومأ اليّ الربيع ان اخرج فخرجت وما عدت اليه

رحلة الى البصرة وجوارها

– ١ –

في اليوم التاسع والعشرين من شهر المحرم لهذه السنة امتطينا ظهر احدى البواخر العثمانية فاقلعت بنا من بغداد في اليوم الثاني قاصدة البصرة الفيحاء ، وهذه الباخرة حسنة جداً توفرت فيها اسباب الراحة للركاب والسياح وهي بنظامها وترتيبها اشبه بنظام البواخر الكبرى التي تمخر في انهار الغرب وبحاره . مما جعلنا نطري مدحت باشا وهو في رمسه على ما اتاه من ضروب الاصلاح واحدث من المشاريع العمرانية في هذا القطر ومن جملتها انشاؤه هذه الشركة التي احدثت ذلك الانقلاب الاقتصادي والتجاري في مرافق القطر العراقي فقربت المسافة بين بغداد والبصرة بل بين اوربا والعراق . وقد ازيلت بواسطتها كل المشاكل والعوارض التي تقف سداً حائلاً في نمو التجارة الوطنية وانتشارها . وكانت وسائط النقل والمواصلات بين الزوراء والفيحاء في حكم العدم قبل ايام ذلك الوزير وجل ما كان هو السفن الشراعية تقطع المسافة ما بين تينك الحاضرتين في ثلاثين يوماً او اكثر تبعاً لحالة الجو وهبوب الهواء في حين تقطع السفن البخارية ذلك الطريق وطوله نحو ٥٢٠ ميلاً في ثلاثة ايام اذا كان الموسم في الربيع والشتاء وخمسة ايام اذا كان صيفاً او خريفاً دع عنك الراحة التي يجدها المسافر في ذهابه وايابه هذا عدا ما في ذلك من الامن على الارواح والاموال

جلسنا ومن كان معنا من ركاب الدرجة الأولى فوق سطح الباخرة لنمتع الانظار بما كان عن اليمين والشمال من المشاهد الطبيعية التي تأخذ بمجامع القلوب وتسحر

الالباب ، وكانت باخرتنا تسير الهوينا بالرغم من ان شحنها نحو ٢٥٠ طنًا وانها سريعة الجري اذ تقطع في الساعة ١٢ ميلاً بحرياً ، ومنشأ ذلك ضعف جريان دجلة ، ولا ندري هل هذا الضعف الذي انحل جسم الامة وانهك قواها قد سرى الى اشجارها وانهارها حتى كاد يقف دجلة عن السير ، او ان دجلة احس بعجز الامة وحكومة البلاد عن الاصلاح واعمار الاراضي الطيبة وتوزيع مياهه فيها على ما يتطلبه الفن الحديث فاصابه فتور وكان منه ما كان او انه غضب فبخل بمائه النمير — ويحق له البخل — على قوم لا يستحقون هذه النعم التي توفرت لهم او انه ادخر مـا عنده الى الوقت الذي يدب فيه دبيب الحياة في جسم الامة العربية فتنشط من عقالها الى شق الانهار وحفر الجداول وتقسيم مياه دجلة عليها ؟؟ لست ادري ، وغاية ما في الباب ان دجـلة ضعيفة جريته ويعللون لذلك ان وقت الفيض لم يجئ بعد لانه يبتدئ من آذار وينتهي بانتهاء شهر ايار على الحساب الغربي الا ان هناك مؤثرات اوجبت هذه البطاءة في سير دجلة وهو ذهاب المياه في الاهوار ضياعًا من دون ان تنتفع منها التربة ، وقد صادف في طريقنا ظهور جزر كثيرة في وسط دجلة فكان ربان الباخرة وهو من ابناء يعرب المقتدرين يتقي الاخطار بفطنته ودرايته فسار بها على مقتضى الحكمة والخبرة خشية الارتطام باحدى الجزر والجنوح الى الشاطئ وهذا العارض الطبيعي قد يسر لنا مشاهدة ما امامنا من الرياض والغياض والحقول وقد كنا نسمع عن كثب انين النواعير وخرير المياه وحفيف الاشجار وتغريد الاطيار وثغاء الخراف وخوار العجول التي هي اوقع في النفوس من اوتار الموسيقار والذ على القلوب من ضرب البيانو وغناء ربات الجمال . وكان النسيم عليلاً فيهب علينا من جهة الغرب حاملاً بين برديه اريج الازهار وروائح الاثمار فانشدنا قول الشاعر :

ان هذا الربيع شيء عجيب   يضحك الارض من بكاء السماء
ذهب حيثما ذهبنا ودر   حيث درنا وفضة في الفضاء

وأصلت الباخرة بنا السير وهي تشق عباب دجلة الجميل فما وقعت انظارنا الا على ارض ضاحكة مستبشرة قد كستها الطبيعة حلة خضراء تبهج الناظرين وكنا نرى اشجار النخيل الباسقة ممتدة على ضفتي النهر وبينها القصور الشاهقة والمباني السامقة وكانت تحجبها عنها نور الشمس احياناً لارتفاعها وذهابهـا صعداً في الهواء ومررنا بنهر ديالة المشهور في كتب العرب باسم نهر تامرا ومنبع هذا النهر من غربي اسداباد في ديار

العجم عند الدرجة ٣٠ والدقيقة ٤٠ عرضاً شمالياً وطوله ٣٥٠ متراً ومصبه في ساحل دجلة الايسر على بعد بضعة فراسخ من بغداد وهو يمر بخراسان العراق وتتفرع منه بضعة انهر كنهر الخالص و بلدروز وغيرهما ، وكان لهذا النهر شأن خطير في حضارة القطر العراقي ، ويجري فيه من المياه ماينا هز ٣٠٠ متر مكعب في الثانيـة ايام الفيض و ٥٠ متراً مكعباً زمن هبوط المياه بيد انها لا توجد في كل الشهور و يبتدئ موسم فيضه من شهر تشرين الثاني و ينتهي في تموز على الحساب الرومي ، وموقف هذا النهر يساعد على اسقاء ٢٠٠ الف هكتار من اخصب البقاع واكثرها استعداداً لزراعة قصب السكر والقطن على اختلاف انواعه

وقد بلغ عرض دجلة في هذا الموضع نحو ٣٨٠ متراً مكعباً وكمية مايجري فيه من المياه تبلغ ١٢٠٠ متر مكعب في الثانية على انه في فصل الربيع يبلغ نحو ٤٠٠٠ متر مكعب و يظل يتناقص حتى يستقر في شهر كانون الاول والثاني على ٤٥٠ متراً مكعباً في الثانية واذا دخل شهر شباط ابتدأ الفيض تدريجاً حتى يبلغ منتهاه في شهر آذار واكثر ماراً يناه في طريقنا من البساتين والحقول والمزارع يسقى بالكرود والآلات الرافعة للمياه تحرك بالبخار او بالبترول ، وفقر الفلاح وغناه منوطان بقربه من المدينة « بغداد » وبعده عنها فكلما دنا منها كثر ماله وحسنت حاله وازدادت ارباحه لان اكثر نواتج بقاعه من بقول وفاكهة واثمار تجد في اسواقها تجارة نافقة والامر بالعكس مع الفلاح الذي بعدت ارضه عن المدينة ، وقد سرنا ماراً يناه من نشاط الفلاح البغدادي واجتهاده في تربية النخيل واعمار الاراضي الغامرة وحرثها والاستفادة من تربتها وآثار ذلك بادية في حقوله وكرومه وظاهرة في جنائنه ورياضه ولو احكم وسائل السقي واقتفى اثر الفلاح الاوربي في الحرث على الاصول الحديثة وعضدته الحكومة بالمحافظة على زرعه وضرعه وكفلت له السلامة من الغرق لكانت البلاد اليوم في ارفع درجات العمران وفي اوج العلاء والتقدم .

وعلى طول زهاء عشر ساعات امتدت على ضفتي دجلة قصور قوراء توفرت فيها اسباب الرفاهية والنعيم قد شيدها اعيان الزوراء وموسروها على الطرز الاوربي ولم يذخروا وسعاً في اعداد كل ادوات الزينة من الاثاث والرياش الفاخرة مما لا يقل عما في قصور الملوك وعظماء المتمولين في البلاد الاخرى وفيها يقطن الاعيان فصلي الربيع والصيف لقضاء الشهوات والتنعم بلذيذ العيش الذي هو بعرفهم عبارة عن اللهو

والقصف والملبس الجميل والمأكل الفاخر واكثر ما شاهدناه من آثار العمران لاغنياء الاسرائيليين والمسيحيين وما بقي وهو شيء قليل بيد المسلمين . ومع هذا فانك تجد الفرق ظاهراً بين المعيشتين فتري النظام والترتيب وحسن الذوق يغلب على قصور غير المسلمين وبعكسه تجد في دور اغنيائنا على ان ماينفقه المسلم في سبيل انسه وراحته يبلغ اضعاف اضعاف ماينفقه المسيحي و الاسرائيلي ، وما ذلك الا من معرفة هؤلاء طرق الاقتصاد وتفننهم بالادارة المنزلية وعدم المامنا بالمسائل الاقتصادية واهمالنا امر العناية والتدقيق في ادارة بيوتنا وتنظيم شؤون أُسرنا .

وما اقبلنا على طاق كسرى الا واستقبلتنا فلاة مقفرة قاحلة فكنا نمر الساعة والساعتين فلا تقع الانظار الا على خرائب طامسة واطلال دارسة اكل الدهر عليها وشرب ولكن مافيها من نفيس الآثار كالتلال والروابي التي انبثت فيها التصاوير والرسوم ينطق بلسان فصيح بما كان لهذه المواطن من عظيم الشأن ورفيع المقام في قديم الزمان ، ولما لاحت لنا عن كثب بقايا طاق كسرى انوشروان فخر الدولة الساسانية واطلال ايوانه المشهور سكبت منا العبرات وتصاعدت من انفاسنا الزفرات الى السماء حزناً على ما كانت عليه هذه الديار من الحضارة والعمران فتقلبت عليها الازمان ونزلها من لا يصلح لها ولا تصلح له ، وانشدنا قول الشاعر العربي :

امست خلاءً وامسى اهلها ارتحلوا   اخنى عليها الذي اخنى على لبد

لطاق كسرى هذا شأن خطير في تاريخ العراق القديم وهو من الآثار الجليلة التي تمثل للاعصر المتأخرة عظمة الفرس وضخامة تمدنهم وعلو كعب دولتهم في الحضارة والمدنية ، وقد افاض المؤرخون من المتقدمين والمحدثين في وصف هذا الايوان العظيم الذي تصدر فيه كسرى العادل ويعتبر مؤرخو العرب ان له مسيساً بتاريخ عرب المناذرة في الحيرة لاتصالهم بدولة الفرس ، وممن كتب عنه ابن الاثير المؤلف المشهور قال في الكامل : « .. وهو — يعني الايوان — مبني بالآجر وهو على مرتفع من الارض طوله ١٥٠ ذراعاً في عرض مثلها وامامه ميدان طوله ٨٠ ذراعاً في ٢٥ وقيل سعة الايوان من ركنه الى ركنه ٩٠ ذراعاً ... وكان فيه من التماثيل والصور شيء كثير من جملتها صورة كسرى انوشروان وقيصر ملك انطاكية وهو يحاصرها ويحاربها فلما فتحت المدائن سنه ١٦ هجرية على يد سعد بن عبادة ترك ما فيه من التماثيل واتخذه مصلى وصلى فيه صلوة الفتح ثماني ركعات لا يفصل

بينها وقيل ان المسلمين احرقوه بعد ذلك بقليل .»

هذا ما قاله ابن الاثير وهو من رجال القرن السابع للهجرة غير ان ما جاء في كلامه ليس الا وصف الايوان على عهد الفتح الاسلامي ولم يشر الى حالته في عصره وجاء ذكر هذا الايوان عرضاً في مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي قال « المدائن لكثرة ما بنى بها الملوك والاكاسرة واثروا فيها من الآثار .. وتسمى المدينة الشرقية العتيقة وفيها القصر الابيض القديم . وتتصل به المدينة التي كانت الملوك تنزل بها وفيها الإيوان و يعرف باسبانير ...» فالظاهر من كلام الخطيب ان الايوان كان في المدائن عاصمة دولة الفارسيين وهو الصحيح الثابت ويؤيده ما وجدناه من الانقاض والخرائب التي تشير الى وجود المدينة وقد نقب بعض الباحثين في الآثار القديمة فوجد هناك بعض النقوش والكتابات على الآجر المشوي اهتدى بواسطتها الى حدود المدينة وعثر على بعض انقاض سورها الذي ورد ذكره في مقدمة تاريخ بغداد للخطيب ايضاً حيث قال : « وكان الاسكندر .. ينزلها « يعني المدائن » .. وبنى فيها مدينة عظيمة وجعل عليها سوراً اثره باق الى وقتنا هذا موجود الاثر وهي المدينة التي تسمى الروضة في جانب دجلة الشرقي » اه

والايوان في موضع يبعد عن بغداد ست ساعات من طريق البر وعشر ساعات من جهة النهر بينه و بين ساحل دجلة الايسر مسافة ١٥ دقيقة وهو بناء ضخم هائل يبلغ طوله نحو ٤٢ متراً في عرض ٢٥ وارتفاعه يناهز ٣٠ متراً وعرض الباقي من العقد الى اعلاه وثخنه ٨ طاباقات او متران ونصف وهو قوسي الشكل و يبلغ مقدار قوسه ١٤ متراً وعرض حائط الايوان الذي عليه طرف العقد زهاء خمسة امتار وعرض الباب الذي يكون مقابلاً لك اذا وقفت في وجه الايوان ووجهك الى الجنوب الغربي متران و٢٠ سنتيمتراً وارتفاعه خمسة امتار وهو معقود مقوس . وفي جانبي الجدار الذي فيه الباب المذكور من اعلاه روزنتان نافذتان الى الوجه الآخر من الجدار يبلغ ارتفاع كل منهما مترين في عرض متر وارتفاع الجدار المار الذكر يناهز ١٨ متراً وفي حائط الايوان الشرقي مما يلي وجهه باب طوله سبعة امتار ونصف متر وفي عرض متر و٨٧ سنتيمتراً وقد شق عقده الى اعلى الايوان ويزعم اهل العراق ان الشق قد حدث وهلة يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم فتطير من ذلك كسرى ورسخ في ذهنه ان انقضاء حكم الفرس وزوال ملكهم قريب الوقوع ، وفي شرقي الجدار المذكور جدار آخر قائم قد سقط

اعلاه وتداعت بعض اركانه من طرفه الشرقي ولم يبق منه الا ما يناهز طوله نحو ٣١ متراً في عرض سبعة امتار في ارتفاع قرابة ٣٠ متراً وفي وجهه الذي هو تجاه الشمال الشرقي آثار نقوش ومشاك وطوق واعمال هندسية في البناء بديعة الشكل حسنة الوضع وفي اعلاء تجاه الجنوب الغربي اثر عقد يدلنا على انه كان هناك ايوان آخر صغير غير هذا الكبير وقد هدم ، وطوله من الارض الى اثر العقد قرابة ٨ امتار . وفي وسط الجدار المذكور باب معقود طوله ٧ امتار في عرض ٤ امتار و ٢٠ سنتيمتراً وفي ارتفاع متر و ٨٠ سنتيمتراً وبناء الايوان بالجص والطاباق

هذا ما يمكن ان يقال عن الايوان في هذا العهد وانت ترى انه لم يبق منه الا انقاض بالية لولا وجودها لاندرست رسوم هذا الصرح الفخم بيد ان ما بقي منه كاف لاظهار عظمة الفرس القدماء وحسن ذوقهم وطول باعهم في الفنون الهندسية وهذا الصرح الشاهق لا يقل ضخامة وفخامة عما شيده اليونان والرومان في البلاد التي دانت لهم واخضعوا اهلها باسيافهم وبلغت فيها حضارتهم اقصاها ومنتهاها . ولا جرم فالفرس اولو تمدن زاهر ونسب عريق في الحضارة والمدنية ، وقد وقف البحتري الشاعر الشهير على اطلال المدائن ففاه بقصيدة هي احسن قصائده واعذبها وارقها قال بعد ان عاتب زمانه وشرح حالته :

حضرت رحلي الهموم فوجـ ـهت الى ابيض المدائن عنسي
اتسلى عن الحظوظ وآسي لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي
وهم خافضون في ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابه على جبل القبـ ـق الى دارتي خلاط ومكس
حلل لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاباة مني لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدهن عن الجد ة حتى غدون انضاء لبس
فكأن الجرماز من عدم الأ نس واخلاله بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اصـ م فر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه   في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح   ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جد احياء م لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى   تتقراهم يداي بلمس

الى ان قال :

وكأن الايوان من عجب الصنـ م عة جوب في جنب ارعن جلس
يتظنى من الكآبة ان يبـ م دو لعيني مصبح وممسي
مزعجاً بالفراق عن انس الف   عزاً ومرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات المـ م شتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه   كلكل من كلاكل الدهر مرسي
مشمخر تعلو له شرفات   رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبصر منها م الا غلائل برس
ليس يدري اصنع انس لجن   سكنوه ام صنع جن لانس
وكأن اللقاء اول من امس م ووشك الفراق اول امس
عمرت للسرور دهراً فصارت   للتعزي رباعهم والتأسي
فلها ان اعينها بدموع   موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدار داري   باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعي لاهلها عند اهلي   غرسوا من ذكائها خير غرس
ايدوا ملكنا وشدوا قواه   بكماة تحت السنور حمس

ولو اردنا ان نثبت كل ما جاء في وصف هذا البناء الشامخ من منظوم ومنثور لضاق بنا المقام واحتجنا الى مجلد ضخم

لهتلو   بغداد   ابرهيم حلمي العمر

في ديار الغرب

قل سيروا في الارض

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار . واني لاتمنى لكل من ساعدته الحال ان ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة والا فتذبل كالزهرة

قال وليم هازلت من مفكري الانكليز « ان الوقت الذي امضيناه في السياحة الاجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لاسبيل الى وصله ولا وسيلة الى ادماجه والمرء مادام خارج وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى ان المسافر ليودع نفسه فيمن يودع ولله در القائل « خرجت من موطني ومن نفسي » فمن اراد ان ينسى الحزن والشجن فليذهب الى غير بلده من بلاد الله يجد في عجيب المناظر وغريب الاحوال سلوة وروحاً وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات الاسى ولذلك كنت انفق حياتي خارج بلادي لو وجدت من يقرضني حياة اخرى انفقها في وطني حتى اقضي حقوقه اهـ . »

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى اكثر الامم رقياً اكثرها سياحاً والعكس بالعكس . والانكليز والاميركان هم في المقدمة ثم يجيء الالمان والفرنسيس وغيرهم من امم المدنية الحديثة وامتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لانها اعتادت سير القهقرى وانا لو اخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لاتجد لنا الا عدداً يضحك بالنسبة لارباب الرحلات من الامم . اما العرب السوريون ممن يهاجرون الى اميركا فهؤلاء لايقصدون من رحيلهم الا الكسب ولا يعرفون على الاغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علماً وعملاً

نتمنى لامتنا ان يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وارباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق مارأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل . فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من اهل طبقتها في الغرب اذا اخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس

السياحة لاتكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فان العارف

226

قد يستطيع ان يطوف اهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه اكثر من ليرة مرفهاً رفاهية لا تتيسر له في بلده ولو كان من اغنى اغنيائها لان البلاد في الغرب كلها منظمة ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الاخذ باسباب الراحة · والعيش فيما خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو ارخص مما هو في بلادنا فان المصطاف او المشتي في سويسرا قد يستطيع ان يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد اكثر من ١٥٠ فرنكا وهذا قلما تجد له مثيلاً في بلدة اوربية اللهم الا في المدن الصغرى او القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرية بان يتعلم فيها الشرقي سنين لا اياماً ومن رأى مدينة او ثنتين يكون قد رأى نموذجاً صالحاً من هذه المدينة الفاضلة

بيد ان من يسيح في الغرب لا يصح له ان يتخلى عن غشيان العواصم الامهات مقر المدنيات الضخمة كرومية ولندن وباريز و برلين وفينا وهذه العواصم يكتفي منها السائح ببضعة ايام والاولى ان ينظر الى دولاب الحركة في المدن الصغرى اذ يستطيع ان يحيط بها فكره اما العواصم الكبرى فان اهلها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحداً منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلاً كلما غبت عنها اشهراً وعدت اليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد فخمة لم تكن من قبل وكل شيء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالفرع الواحد فيها اذا اراد درسه السائح الشرقي لا يتيسر له في اقل من بضعة اشهر ولكن النظرة الاجمالية يكفي لها خمسة عشر يوماً ومثلها سائر العواصم واصعبها على السائح احاطة لندن مدينة الثمانية ملايين نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين ·

ان مدنية الغرب متشابهة في اكثر الاوضاع فمن رأى نموذجاً منها اكتفى والزيادة على ذلك من النوافل · من زار باريز مثلاً يشهد اعظم نموذج في الحضارة الحديثة · وخير لمن يعرف لغة مملكة في الاكثر ان يذهب اليها · وان كان من يعرف لغة اوربية كبرى مثل الافرنسية او الانكليزية يستطيع ان يسيح بدون عناء في كل مملكة و يتفاهم مع اهلها ولا سيما اهل الطبقة العليا والتجار والعلماء

ثلاث لغات اصول هي التي تفرعت منها لغات القارات الثلاث اوربا وامير كا واوستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلاً لا يشق عليه السياحة في البلقان واكثر النمسا ومن عرف الانكليزية استطاع السياحة في اميركا الشمالية واوستراليا ومن عرف الافرنسية كانت عليه سياحة ايطاليا واسبانيا والبرتقال والبرازيل والارجنتين مثلاً من اسهل الاشياء

اما من لم يكتب له الاخذ بحظ من هذه اللغات واراد الاستفادة من الغرب فليس احسن له من استصحاب ترجمان من بلاده و يكون ممن سبقت له الرحلة الى ديار الغرب واذا اريد الاقتصاد فالاولى ان يجتمع كل ثلاثة او اربعة اشخاص ويرافقهم ترجمان موءتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث . ولقد شاهدنا كثيراً من اغنياء مصر ساحوا اوربا وهم لا يعرفون لغة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا ان يحسنوا التصرف بيد ان الاولى ان يكون المرء نفسه عارفاً باحدي لغاتهم وهناك حدث ماشئت ان تحدث عن استفادته وسروره

وبالجملة فان الخوف من السياحة توهم ليس في محله فلا المال وقلته ولا عدم الاحاطة بلغة افرنجية بل ان المحرك الاعظم في السياحة الارادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وابناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون في اوربا واميركا بدون ان يخشوا ضرراً والفتيات الجميلات يضربن في البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل ان يكون فتيان الغرب وفتياته ارقى منا كعباً واكثر اقداماً مادامت لنا في السياحة فوائد لا يقدرها الخامل في بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما ان المدرسة هي المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علماً نافعاً .

نحن في البلاد الفرنسوية

ليس عجيباً ان ترى العثماني والايراني وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالي من افريقية يطربون في البلاد الفرنسوية و يوءثرونها على غيرها من بلاد الغرب في التجارة والتعلم والنزهة فان معرفة لغة قوم هي مفتاح جميع هذه الاعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الاحوال .

انتهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الاقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعوث وترسل المعلمين مبشرين بمدنيتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا اذ ذاك صاحبة الكلمة الأولى في السياسة الغربية قبل انكلترا والمانيا وروسيا الا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الافرنسية ويأخذون عنها و يوءثرون الفرنسيس على غيرهم لانهم لم يعرفوا غيرهم خصوصاً وان المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيس عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ماعندهم لغيرهم لانهم يرون لغتهم ارقى اللغات الاوربية وامتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لاجل الحرية .

227

ان ميل الفرنسيس[1] للابتكار في كل شيء دعا الى نشر افكارهم واوضاعهم في بلادنا

[1] كتب احدهم مقالة افتتاحية في جريدة الايكودي باري قال فيها : انه مما اثبتته التجارب ان الفرنسوي خلق مخترعاً وقد اتى الفرنسيس امثال لافوازيه وكوڤيه وكلود برنار وبيشا وباستور من الاعمال العلمية ما استحقوا به ان يكونوا موسسين لجميع العلوم الحيانية والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت اهم الاختراعات الغربية في الاربعين سنة الاخيرة على ايدي الفرنسيس فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا اسلاك واوجدوا صناعة الاوتوموبيلات وعملوا مدفعاً من عيار ٧٥ وعثروا على الاسباب الرئيسة التي سمحت بالطيران . وهكذا في السياسة فان الفرنسيس اول من اوجدوا في اوربا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية واول من اسسوا وطناً وهو الوطن الفرنسوي وهم كانوا اول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الافكار الثورية

فالفكر الفرنسوي حاد ينتبه بسرعة للصلات المجهولة في الاشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين اجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه للوضوح . الفرنسوي جريء على مثال لويس الثالث عشر ونابوليون والموت الذي كثيراً ما يكون جزاء المخترع قلما يفزعه بل يبعث همته ويشحذ سيف مضائه . وللفرنسي ميل للحوادث وذوق في اكتشاف المجهول وهذا مما حدا بكثير من الضباط ان يتجشموا الاخطار الى آسيا وافريقية لفتح اراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فيما مضى النورمانديين والبروتونيين الى سلوك البحار التي لم يسلكها احد ليؤسسوا مدائن في الشواطئ البعيدة

هذا هو الوجه الحسن واذا جئنا الى نقيضه نرى الفرنسوي يخترع ولكنه ما قط عرف الانتفاع بثمرة اختراعه ولا يحقق وينظم ما اخترعه . وخفته العقيمة تحمل الى غيره الانتفاع بتطبيق ما اوجده هو . فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الالمان او الايطاليين او الاسبانيين هم الذين يستثمرونها . اختراعاته في العلوم لا يقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين ادواته او حاصلاته فقد اسس مثلاً الكيمياء ولكن المانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيماوية مورداً عظيماً من الثروة اي ملياراً وستمائة الف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وانشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا الف عامل يدفع اليهم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات واجوراً . —

— الفرنسوي يتحرك في الهواء اسرع من الطير · وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه · ولكنه لا يستطيع ان يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظاماً معقولاً واذا سقطت في درجات الاشياء الصغرى ترى الفرنسوي على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام · ويقال في ذلك ان الفرنسوي يكره وهو على هذه الصورة من الحركة ان ينثني الى ضرورة انتباه طويل متساوق ويشعر بانه يخنع اذا لم ير نفسه مائلة الى الاعمال المختلفة التي تحثه واذا وجب عليه ان يعمل عملاً مجهولاً يحتاج الى صبر · اما الالماني فهو على العكس من ذلك له قليل جداً من النبوغ في الاختراع والايجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه ·

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين في المانيا القديمة الذين اخترعوا واوجدوا فان الالماني لا يخترع لان فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الانوار الفجائية التي توحي بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع فهناك حدث ما شئت ان تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذي يحتاج لثبات ولا يستعجل لان الضروري عنده ان لا يعمل بسرعة بل ان يعمل بجودة وان يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزاً لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئاً ·

جاء الالماني بعد الفرنسوي في الطيران ولكنه ادهش العالم بتنظيمه له فلم يخبط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ما ينبغي ان يرى ووفاه حقه · له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث اليها بهم · الالماني لم يخترع التلفون ولكن لالمانيا الآن نحو مائتي الف كيلو متر من الاسلاك التلفونية اي اكثر من فرنسا وعدوا المخابرات التلفونية في بلاده بـ ٨٠٠ مليون لقاء ١٩٠ مليوناً في فرنسا وما من قرية المانية مهما صغرت الا وهي مرتبطة بتلفون تخابر به وادارتها في البريد اول ادارة في العالم · وهي تعترف ان ليس بين كيماوييها الكثار واحد مثل لافوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجربية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية · ان كان الفرنسوي مخترع الاصباغ الصناعية فالالماني بفضل مدارسه ومعامله اتى فيها بالعجائب حتى كاد يختص بتجارة الاصباغ · وما من بلد يعنى فيها بتجديد ادواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على احدث طرز كما يعنى في المانيا · والقاء ادنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك الخ

ثم انتبه الانكليز والاميركان ثم الالمان والطليان للامر ولكن بعد ان رسخ التمدن الفرنساوي في النفوس وكثر انصاره بطبيعة الحال مع انه ربما كان في اوضاع الامم الاخرى ما يماثله او يفوقه · واذ قبلت مصر والعثمانية وايران ان تعلم الافرنسية بصفة اجبارية في مدارسها مثل لغة البلاد كان ذلك من اكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فاتخذناها لغة التخاطب والتكاتب في التجارة والسياسة ·

للبلاد المصرية والعثمانية والايرانية في البلاد الفرنسوية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المنوعة في مدارسها في حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين في مدارس انكلترا واميركا واكثرهم من المصريين والهنود اما في المانيا والنمسا وايطاليا وروسيا فان عددهم يعد على الانامل والايرانيون اكثر الشرقيين اختلافاً الى مدارس روسيا للجوار والسياسة ·

فاذا طربت النفس يوم دخولها ارض فرنسا وسويسرا الفرنسوية وبلجيكا الفرنساوية فذلك لاننا نشعر باننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم اننا نستفيد هنا اضعاف استفادتنا في اي ارض سواها لاننا نجد تقارباً في الافكار والمناحي ولاننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة باوضاعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من الفوارق وتيسر له ان يشاركهم ويشاركوه في كل ما لا يضر بعاداته واخلاقه الخاصة

ان المدنية الاوربية تتسرب كل يوم الى عقولنا في طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والاسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو اردت ان تجردنا مما استفدناه منها منذ عهد محمد علي الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قروناً الى الوراء ظننتنا معها من اهل القرن السابع او الثامن للهجرة على نحو ما تشاهد اليوم الافغانيين او المراكشيين او الجاويين الذين سدلوا دون مدنية الغرب حجاباً كثيفاً فحرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها ·

ان سكان الشرق الاقرب اذا ذكروا الفرنسيس كثيراً فذلك لانهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم وممدنته على نحو ما كانت على عهد نابوليون الاول ففرنسا هي التي وضعت في الحقيقة اساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك في سورية منذ جاء نابوليون عكا طامعاً في فتحها لانها كانت مفتاح سورية حتى اذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في اعطاء لبنان استقلالاً ادارياً

عظمت تلك المنة على اهلها وعمت المدنية الافرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية واجنبية رسمية وغير رسمية ٠

نحن اليوم اذا لجأنا الى فرنسا في معظم حالاتنا فللاثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الاخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجمود فكما ان الفرنسيس انفسهم لا يستنكفون ان يقتبسوا ماعند الامم الاخرى كالانكليز والالمان والاميركان مثلاً مما ليس في اوضاعهم فنحن من مصلحتنا ان لانكون حكرة لامة فنأخذ عن كل قبيل احسن ماعندهم ولا نقول هذا سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر الماني وغيره ايطالي او انكليزي فكلهم ارقى منا مراحل ونحن في حاجة لكل من يعلمنا مدنية تنهض بنا من خمولنا ليساوينا بنفسه بعد ونعد شيئًا مذكوراً في سلسلة المراتب البشرية ٠

رأيت كثيراً من خاصة الطليان والالمان والانكليز يشيرون الى ان السوريين خاصة من بين سكان الشرق الادنى يغالون بحب الفرنسيس وليس حتى في البلاد التي حكمتها فرنسا في اقطار الشرق بلد كسورية يحسن اهلها الظن بالفرنسيس فكنت اقول لهم ان ذلك صحيح ولكن لا على اطلاقه فان القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيس هم الذين احسن هؤلاء اليهم بتعليمهم على اساليبهم وتلقينهم لغتهم العذبة فامكم ايضاً اذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وامجادها يعترف السوريون لها بصنيعها ويصبون زبنها في التجارة ٠ وكيف يحب السوري المانيا مثلاً وهو لا يعرف عنها الا مايقرأه في الجرائد الفرنسوية والكتب الافرنسية والمانيا حتى الآن لم تفتح لها مدرسة راقية في سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها

لا ينال المرء الا بقدر مابذل والامم الانكلوسكسونية هي ارقى الامم باخلاقها وآدابها ولكن انانيتها الكثيرة دعتها الى ان احبت في العهد الاخير الانتفاع من الشرق دون ان تبذل في سبيل رقيه درهماً او تخطو الى اعلاء شأنه قدماً ٠ ولذلك يبقى الشرق الاقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من امم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية ٠ ولا عار علينا اذا صرحنا باننا نطرب في ارض فرنسا لاننا لانعرف غيرها في الواقع ونفس الامر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا امجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق الا مما عنده وعرفان الجميل لاهله طبع الكرام ولا ينسى الايادي التي لك عندهم الا اللئام والسلام

الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد المجر

نسكن بلاد المجر عناصر مختلفة قد يثور بينها ثائر الخلاف احياناً ولذلك كان لمسألة الجنسيات في الارض المجرية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات في الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذي يجب ان يعطى للغة المجرية في التعليم في المقاطعات التي فيها رومان وسلوفاكيون وصربيون . وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابية تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمي حرية الانتخاب وازمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما اطلق بعضهم عياراً نارياً على خصمه اوهدده بالقتل اوضربه بكتاب ودواة كما حدث ولا يزال يحدث

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجري والنصف الآخر من عناصر مختلفة (المان وسلوفاكيون ورومانيون وروتفيون وخرواتيون وصربيون) بلاد اشبه ببرج بابل اختلطت فيها الالسنة وتبلبلت والمجريون يحاولون بكل ممكن ان يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسي والمدني وهذه هي حالة المجر ولولا ان العناصر غير المجرية مؤلفة من اجناس كثيرة ليس بينها اقل صلة وطريق الانتخابات النيابية الجارية في المملكة تحول دون ادنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم .

ولئن حاول الامبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر ان يصلح اسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فان مسائل الجنسيات ما برحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على ان تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وان يكون للمجرية حق التقدم في هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان في مجلس النواب المجري سنة ١٩١١ — ٤٥٣ مبعوثاً : منهم ٣٨٧ مجرياً و ٤٠ خرواسياً و ٢٤ وطنياً وهذه نسبة تستدعي الاستغراب والمجلس الاعلى او مجلس الاعيان مؤلف من اعضاء وراثيين مثل البالغين من الارشيدوقة واعضاء الاسر الشريفة التي تدفع على الاقل ضريبة عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن اعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بانهاء رئيس المجلس ومن ارباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ اسقفاً كاثوليكياً و ٩ اساقفة روم ارثوذكس و ٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة ينتدبهم مجلس نواب خرواسيا . وللمجلس الاعلى ان يرد ما يشاء من المشاريع والقوانين التي يقررها مجلس النواب ولكنه

لا يستعمل هذا الحق الا نادراً لان مجلس النواب موقر في صدره وغاية مــا يستطيع عمله ان يرجئ الاقرار على قرار مجلس الامة

ومن الامراض التي اصيبت بها بلاد المجر كما اصيبت بها فرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذي يزداد استحكاماً اليوم بعد اليوم ففي احصاء رسمي اخير ان في المجر ٣٠١٤٨٠ موظفاً في شعب لا يتجاوز احــد وعشرين مليون نسمة فان الوزارة التي تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦ــ١٩١٠ قد احدثت عملاً لـ ٤٥ الف رجل والوزارة التي خلفتها احدثت في العشرة الاشهر الاولى لتوليها الامر ثلاثين الف وظيفة . وهــذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لانه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد ان كثرة الموظفين في الحكومة لا يفسر بان الاشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل ان الوقت والمال والقوة تضيع في هذا التطويل والقيود . يساعد على ذلك الاهمال المغروس في طبيعة الموظفين على الاغلب ولا سيما في المجريين فمن لم يتابع البحث عن اوراقه و يلحقها من ديوان الى آخر و يوصي صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالي اذا قلنا ان المجر على كثرة تغاليهم في التناغي باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من ابواب التدخل في امرهم حتى في المسائل الخاصة ما يصح معه ان يحكم بان البلاد المجرية اكــثر الممالك التي جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها في كل شأن من شؤونها

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهي لسان حال علم الاجتماع في بودابست عدة احوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الاقدام الخاص والتبعة الشخصية فقالت ان الحكومة تعطي راتباً للكاهن الذي يعمد الوليد وللموظف الذي يقيده في السجل وترزق المعلمين وتوصي الطابعين وصناع الادوات المدرسية وتدفع لمؤلفي الكتب المدرسية ولنقادها ولانشاء دكات للمدارس و يستعمل خشب الحكومة وحديدها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدخان وعمال الدخوليات (اوكتروا) والكتاب والاخباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمي والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون ابرازها الى حيز الوجود ولارباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصنائع الاهلية واستهلاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضاً والصراف مالاً

هذا وحرية الاديان والمساواة لم تتم في المجر الا سنة ١٨٩٥ وكان للكثلكة المقام الاول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكــفي ان يقال ان مساحة بلاد المجر تبلغ ٣٢٤٨٥٠

كيلومتراً مربعاً تملك الاسقفيات والاديار والبيع ١٢ الف كيلومتر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لان من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

اهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانوناً يرد عهد الاول منها الى القرن التاسع اي الى احد عشر قرناً واهمها قانون سنة ١٧٢٣ و١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذي تم الاتفاق بين المجر والنمسا على ان يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم انفسهم و يكونون مستقلين الا في الجيش والبحرية والامور الخارجية فيدفعون قسطاً صالحاً من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الاسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الاملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكاً شرعياً الا اذا اقر على تتويجه مجلس المجر و يقضي القانون الاساسي في البلاد ان يقيم الملك ستة اشهر في فينا وستة اشهر في بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الاغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الامة المجرية الا ان هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التي لا يبرح المجر يذكرونها و يحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائداً مجرياً الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا و يسمونهم الثلاثة عشر شهيداً وترفع الاعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من اعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبته سنة ١٩٠٩ بالغاً حداً دل على مبلغ تعلق هذه الامة برجالها الذين سعوا لاستقلالها ٠

للمجر انشودتان انشودة الملك والجيش وانشودة الامة ولها عيدان وطنيان الاول في ١٥ آذار والثاني في ١١ نيسان فالاول هو عيد المجر الحقيقي يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الامة المجرية اشتراك الاشراف في جميع التكاليف العامة والغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفي ١١ نيسان هو اليوم الذي صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية

لا يحب المجر النمساويين و يريدون ان يخالفوهم في كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما انس لا انس يوم اجتاز بنا القطار من الارض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا في الارض المجرية فان الارض تكاد تلبس حلة غير الحلة الاولى وقال لي

رفاقي في القطار وكانوا مجريين انت الآن في ارض هنغاريا يا مولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا الى مملكة اخرى وان ما بين فرنسا والمانيا من التباين لا يشعر به على الحدود باكثر مما يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين

والمجر يطلبون اشارات خاصة لعسكرهم كما يطلبون ان يكون التعليم العسكري باللسان المجري ولهم مطالب اخرى يسعون اليها لئلا يكون للنمساويين عليهم اقل سلطة وتأثير وان كان لهؤلاء تأثير كبير في الامور الاقتصادية والعلمية كما للالمان هذا مع ان بلاد المجر غنية بصناعتها وزراعتها وعلمائها ويكفي بان ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة املاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة اموالها غير المنقولة ومثلها صناعتها وباثني عشر مليوناً نقودها وبثلاثمائة مليون اموالها في الخارج اي باربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة افقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض او لم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها او زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا ما استطاعت هذه ان تغلب المجريين

ليست الامة المجرية عريقة في المدنية كالامم القديمة في اوربا فقد جاءت حوالى القرن التاسع وانضمت الى اهل اوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئاً من اوضاع القرون الوسطى في نظاماتها الاجتماعية فان تسعة اعشار من يعملون في الحقول المجرية الى اليوم هم من السلافيين « الصقالبة » او الرومانيين المغلوبين على امرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الاراضي وما زالوا يستثمرونها بايدي غيرهم ولم يبرحوا في كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

واذا تأملت ملياً في حال المجري تجده يشبه التركي في كثير من احواله فانه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعاً هكذا شأن الفلاح والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركي فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون ان منا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة اشهر وهذا عيب كبير في مجتمعنا

تقدر مساحة املاك صغار الفلاحين في المجر بعشرة ملايين هكتار اي ان يكون

الواحد يملك ستين هكتاراً والوسط الذي يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ماتملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والاديار بعشرة ملايين هكتار

وقد اصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ سنة ١٩٠٠ الى ١٩١٠ سبعمائة الف رجل فارتفعت اجور العملة وبيعت املاك صغار الفلاحين من اواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم الى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون الى بلادهم يعودون اغنياء وقليل ماهم والعائدون يبتاعون الاراضي بالاثمان الفاحشة

وللاسرائيليين المقام الاول في تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما في بودابست عاصمة البلاد فان ثلث سكان هذه العاصمة من الاسرائيليين اي ثلثمائة الف من اصل تسعمائة الف وبيدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم اكثر الامة تعلماً واقدمهم على الاعمال هذا مع انهم ليسوا قدماء في البلاد بل ان هجرتهم اليها ترد الى العهد الذي طردت فيه اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد القاع الاسرائيليين من بلادها فوجدوا في بلاد المجر صدراً رحباً وخلفوا اليونان في التجارة · وحيث توطدت قدم التاجر الرومي يصعب على التاجر الاسرائيلي ان ترسخ قدمه والرومي كالاسرائيلي بشوش لين العريكة يعرف من اين تؤكل الكتف في التجارة بخلاف المجري

يقدر عدد الاسرائيليين في المجر بثمانمائة واربعين الفاً منهم ستمائة الف «تمجروا» اي اصبحوا مجراً حتى في اسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فان كان ابناء اسرائيل يقبلون على التوطن في هنغاريا فليس لان التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم الى نزولها بل لان جميع الصناعات الحرة مفتحة الابواب امامهم

هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها في يومين اثنين صرفتها في عاصمة بلادهم ازور معاهدها البديعة وبودابست من اجمل عواصم اوربا وهي مدينتان في مدينة اي بودا وبست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان باربعة جسور كبرى بديعة من اجمل ماهندس المهندسون والجسران الجديدان الاخيران هما من صنع مهندسين مجريين اما المدينه فمقسمة شوارع فخمة فسيحة وهي نظيفة لاتقل عن احسن العواصم

واهل المجر يحبون الاتراك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لانهم يرون ان اخواننا اسدوا اليهم جميلاً غير مرة وآخر مرة في ثورة المجر الاخيرة يوم لجأ زعماء الثورة الى الارض

العثمانية فحماهم سلطان العثمانيين « واظنه المرحوم السلطان عبد المجيد » من ان تنالهم يد النمسا التي طلبت بالحاح تسليمهم وآثر ان يشهر حرباً على النمسا او تشهرها عليه على ان يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

اخبار وافكار

الاموال وتعليم الاطفال

خطب احمد شفيق باشا مدير الاوقاف الخصوصية في مصر في الاحتفال السنوي لمدرسة المرحوم خليل اغا امين فقال : التمثيل ظاهره تسلية ولهو وباطنه حكمة وعظة وضع لارشاد الناس وتقويم المعوج من الاخلاق والرواية التي شهدناها تشرح بعض امراضنا الاجتماعية ووسائل علاجها وتبين مجموعة من نقائصنا وعيوب اسرنا وتشرح السبيل الى اصلاحها قد مزجت فيها الحكمة البالغة بالخيال الجميل ولم يزل هذا من طرق الفلاسفة في التعليم والارشاد منذ القدم ولمثله الف كتاب كليلة ودمنة ونحوه من الحكم الممزوجة بالخيال ولعل كتابنا ينهضون الى عمل الروايات النافعة الموافقة لاحوالنا الشرقية المؤثرة في تهذيب العواطف واصلاح النفوس

رأينا في هذه الرواية محسناً عظيماً من سراة المصريين هو محمد بك ابو الذهب جاد بالالوف من الجنيهات لاقامة المعاهد ودور التعليم لابناء بلده من بنين وبنات وظهرت لنا الثمرة الكبرى التي جناها هذا الوالد من ولده اذ علمه التعليم القويم وانشأه النشأة الطيبة رأينا جعفراً وكيف حافظ على آداب قومه ودينه وسافر الى اوربا وتعلم في معاهدها واختلط باهلها فلم تستطع العادات الغربية ان تهدم بناء اخلاقه الشرقية المتينة كما هو مشاهد مع الاسف الشديد في حال كثيرين من المتعلمين في البلاد الاجنبية

رأيناه انتخب اصلح فتاة لزواجه راعى في اختيارها العدل والحكمة غير ناظر الى الفروق التي يراعيها كثير من شباننا وليس من مصلحة الزوج ولا من فائدة البيت . ما اجمل البر وما احلى عمل الخير خصوصاً اذا وضع في موضعه

ان الصنيعة لاتكون صنيعة حتى تصيب بها طريق المصنع

وافضل الخيرات ماخصص للتعليم والتربية فانه ينهض بكثير من الامة بل بالامة كلها فجميع الناس في حاجة الى التعليم واكثرهم يحتاج الى المعونة والمساعدة في سبيله كم نرى في وقفياتنا من مال اوقف ليصرف على قبر يحلى ويزين او على خوص وريحان يبتغى به الثواب وانما الثواب في معونة متعلم او مساعدة محتاج الى حياة طيبة

الثواب في تنمية ذكاء في صدر . لاتحلية احجار على قبر

الثواب في عمل البر والاحسان لافي جمع الخوص والريحان

فجدير ان توقف هذه الاموال على تعليم الفقراء لتساعد على اصلاح الحياة الدنيا وترضي المولى جلا وعلا

واني اذا اردت ان اذكر كبار المحسنين من عظماء الرجال في عصرنا الاخيرلااجد منهم الا القليل وكم من المصريين ممن يستطيع ان يخلد لنفسه الاثر ويكتسب عظيم الاجر اذا خص تعليم الفقراء بشيء من ماله ينفعهم ولا يضره ويزيدهم ولا ينقصه

فاذا ذكر المحسنون فاننا نبدأ باولهم واولاهم بالثناء اكرم الكرماء وناشر العلم والآداب في ربوع مصر الا وهو المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاسبق فانه لم يكتف بماشيده في مدة حكمه من المدارس الابتدائية والثانوية والعالية بل اراد ان يبقي له اثراً مخصوصاً فاوقف ماهو معروف بوقف الشيخ صالح ورصد ايراده الجسيم على الخيرات التي منها مدرسة كبيرة للبنين واخرى للبنات

ثم نذكر مشيد هذا المعهد فهو اثر حي قائم ومأثرة كبرى على الدهر باقية اسداها الى الانسانية رجل اسود ابت روحه البيضاء الناصعة الا ان يكون له نصيب من خلود الذكر وحسن الاثر فرحمة الله عليك ياخليل اغا امين

اذكر كذلك محسناً كبيراً وهو المرحوم احمد باشا المنشاوي فله في طنطا الآثار الخالدة والهبات العظيمة للمتعلمين والفقراء والمحتاجين منها المعهد الديني والملجأ والمستشفى والمسجد الفخيم فضلاً عن مدرسة السنطة الصناعية وما ارصده من المال للجمعيات الخيرية والاعمال النافعة فهكذا يكون البر والاحسان

هؤلاء هم كبار المحسنين فما اقلهم ياللاسف

اما عدد المحسنات من كرائم السيدات فهو اعظم دليل ساطع على ان المشاعر والعواطف فيهن انمى واكبر

فانني اذكر وقف ام عباس باشا الاول الذي هو تحت ادارة ام المحسنين والدة الجناب العالي الخديوي فانا نعلم جميعاً الفوائد العظيمة العائدة على البلاد واهلها من مدارس هذا الوقف

اذكر وقف الاميرة زينب خانم افندي الكبيرة كريمة ساكن الجنان محمد علي باشا فانها ارصدت مايفوق عن الاربعة آلاف فدان للبر والاحسان ومنها التعليم

اذكر وقف المرحومة شويكار خادن افندي للمدرسة الحسينية

اذكر وقف المحسنة الكبيرة الاميرة فاطمة خانم افندي التي ارصدت ٦٦١ فداناً على الجامعة المصرية وربع مائة فدان على الجمعية الخيرية الاسلامية غير ماجادت به من ستة افدنة بجوار سرايها لاقامة الجامعة عليها ومن جواهرها النفيسة لتشييدها فكذلك يكون الاحسان

اختم بذكر الوقف الجليل الذي اتمته اخيراً السيدة المحسنة الجليلة خديجه بهية خانم افندي برهان فانها اوقفت للجمعية الخيرية الاسلامية قصرها الفخم الذي تبلغ مساحته ١٧٠٠٠ متر ومنازل للاستغلال يؤخذ منها مائتا جنيه سنوياً تقريباً ثم مبلغ ستمائة جنيه في كل سنة من ايراد اوقاف اخرى

العميان في مصر

يؤخذ من التقرير الذي قدمه الدكتور محمد علوي باشا الرمدي الشهير الى جمعية تحسين حال العميان في مصر ان قد بلغ عدد عميان القطر المصري زهاء مائة وخمسين الفاً وهو عدد هائل بالنسبة الى عدد سكان القطر . وبعبارة اوضح فنسبة العميان هناك هي ١١٣ من كل عشرة آلاف نسمة مع انها لا تتعدى ٨ في العشرة آلاف من سكان البلاد الاخرى . قال وهي حالة دعتنا سنة ١٩١١ الى عقد المؤتمر الدولي الرابع لتحسين حال العميان المنكودي الحظ وتفضل حينئذ مولانا الخديوي المعظم بوضعه تحت رعايته السامية وساعدتنا على انجاحه الحكومة السنية ادبياً ومادياً واشتركت معنا فيه الدول الاوربية والاميركية وارسلت مندوبيها الى القاهرة لحضوره وانضم الينا عدد ليس بقليل من الاجانب متحملين عناء الاسفار والبعد عن ديارهم للاشتراك معنا في العمل كما اشترك معنا كثير من مواطنينا الافاضل وكان مدار البحث مدة خمسة ايام على اسباب العمى ومناهضته في بلادنا وبعد انفضاضه بسنة رأينا وجوب تأسيس هذه الجمعية لتهذيب عميان بلادنا وتعليمهم ومساعدة المحتاجين منهم على قدر الامكان وفي ذلك فائدتان

233

ادبية واقتصادية . وقد كان اول اجتماع لتلك الجمعية في منتصف يوليو (حزيران) سنة ١٩١٢! تذكرون ان جمعيتنا انشئت في عهد الحروب العثمانية الطليانية ثم البلقانية حين بذل اهالي القطر مالاً كثيراً يقدر بنحو نصف مليون جنيه اعانة للدولة العلية ورحمة لبائسي الانسانية في تلك الحروب الجائرة تحت لواء الهلال الاحمر المصري . وهو عمل شريف جليل لكنه حول الابصار والايدي عن مشروعنا حيناً من الدهر كذلك لم تساعدنا الاحوال من جهة اخرى بالنظر الى شؤون القطر المالية . على ان تلك الاسباب الوقتية وان حالت في السنتين الاولين لتأسيس جمعيتنا دون بلوغ اغراضها فهي لم تثبط عزائمنا عن السعي لدى اولي الفضل والبر لاقامة جمعيتنا على اساس ثابت قبل الشروع في عمل نافع للعميان .

ولقد كان جل اهتمامنا اثناء المدة الماضية منذ تأسيس الجمعية منحصراً في امرين . استمالة الجمهور الينا ودعوته للاشتراك في جمعيتنا وجمع ما امكن جمعه من النقود قبل الشروع في عمل نافع

وبعد ان قال ان مجموع الداخلين في الجمعية مائتا شخص وانه جمع خمسمائة جنيه قال بخمسمائة جنيه وبضعة آلاف لا تكاد تكفي لتحقيق بعض الاماني فعدد عمياننا كثير جداً وان كنا لا نريد فرضاً الا تعليم من يمكن تعليمهم وايواؤهم الى مدارس خصوصية فهم جيش مؤلف من ثلاثين الفاً مختلف اعمارهم بين الخامسة والخامسة والعشرين وهم كلهم غارقون في بحار الظلمات الادبية والمادية والعقلية . ولنأخذ مثالاً لنا في هذا العمل البلاد الراقية التي تعددت فيها مدارس العميان ومصانعهم وملاجئهم فهي تعد بالعشرات على قلة عدد العميان بالنسبة الى بلادنا . ومع ذلك ففي تلك البلاد لا يفتأ الناس كل يوم في تحسين مطرد لحال اخوانهم العميان واكثار عدد معاهدهم وتخفيف حسراتهم . ولا بد انكم اطلعتم على تلغرافين اتتنا بهما من لندرا شركة روتر في ٢٠ و٢٧ مارس (آذار) الماضي جاء في الاول : ان الملك والملكة افتتحا معهداً جديداً للعميان فهتف لهما آلاف من هؤلاء واجاب الملك على خطاب تلي امامه في الاحتفال فاستحث كل المملكة البريطانية على مساعدة المعهد الجديد . وافتتح محافظ لندن اكتتاباً طالباً فيه ١٣٠ الف جنيه رأس مال لذلك المعهد . وجاء في التلغراف الثاني بتاريخ ٢٧ مارس انه سيطلب غداً مساء بالتلغراف اللاسلكي من جميع البواخر الكبرى الماخرة في بحار العالم مساعدة معهد العميان الجديد . وهاتان البرقيتان على اختصارهما

تدلان على اهتمام انكلترا بهذا المعهد الجديد وفي بلادنا اكثر من ٣٠ مدرسة و٥٠ مصنعاً و٢٠ ملجأً و٦٠ جمعية لمساعدة العميان وما ذكرت انكلترا هنا الا اعترافاً بفضلها في سبيل تحسين العميان واملاً بان يصل صدى ندائنا لذلك الجواد الكبير السر ارنست كاسل العضو الشرفي في جمعيتنا هذه وصاحب الايادي البيضاء على هذا القطر فانه كان اول من اجاب نداءنا سنة ١٩٠٢ في المؤتمر الطبي المصري الاول عند ماطلبنا في تقرير واف مناهضة الرمد في ديارنا العزيزة فتبرع اذ ذاك باربعين الف جنيه لذلك الغرض وهي منة يجب ترديد ذكرها على مدى السنين

الآلة الكاتبة

لئن كانت الآلة الكاتبة كالاختزال او السرعة في الاستملاء لم تنتشر في بلاد العرب كما يجب فان استعمال تلك الآلة قد اخترع منذ سنة ١٧١٤ وعيدوا مؤخراً عيد مرور المئتي سنة على اختراعها وكان المخترع الذي نال براءة بذلك رجل انكليزي ثم تعاقب المخترعون من جميع الامم في ادوار مختلفة حتى اذا كانت سنة ١٨٧٥ انبعث هذا الاختراع ثانية في مدينة نيويورك واصبح استعمال الآلة الكاتبة بعد ذلك من الواجبات في البيوت التجارية والدواوين والمصارف والادارات العامة والخاصة حتى ان معظم الصحف والمجلات والمطابع في الغرب اليوم لا تقبل كتابة ان لم تكن مطبوعة على الآلة الكاتبة

السينماتوغراف والتعليم الزراعي

سيعرض المجلس الزراعي في ولاية دوسلدروف الالمانية حيث يقام معرض في سنة ١٩١٥ نوعاً من التعليم يلفت الانظار وهو تطبيق السينماتوغراف على دروس الزراعة وستمر امام عيون الجمهور سلسلة من الصور تمثل الارتقاء الذي تم في زراعة الارض خلال القرون الاخيرة وما تعاورته الايدي من الاعمال الزراعية التي كملت على التدريج باستعمال البخار والكهرباء والقوة الميكانيكية على اختلاف اشكالها ·

ويمثلون ايضاً بهذه الطريقة صورة من الصور الحديثة عن المعلومات الصحيحة في الحرث والزرع والحصاد والدرس على ماهي شائعة في البلدان المختلفة بدون ان ينسى ما كان يدعى سابقاً تدبير الحقول فيتمكن الناظر على هذا الوجه من تصور ماله علاقة باستثمار الارض وينفع في الاستفادة من التربة ومن الادوات الزراعية وفي وضعها واستعمالها على اختلاف ادوار المدنية وفي صور متحولة بحسب الاجيال · وهذه اول مرة جرى فيها استعمال السينماتوغراف للانتفاع في العلم والزراعة وبه تفتح طريق

تتبعها المدارس العملية لا في تلك الارجاء من البلاد الالمانية فقط بل في المانيا وفي خارجها لان القائمين بهذا العمل لا يضنون على الناس ببيع صور منهم

تجديد البطاطا

ثبت ان البطاطا في اوربا قد اخذت تصاب بامراض كثيرة جاءتها مع الزمن منذ انتشرت في تلك القارة قبل اربعمائة سنة وقد اخذ العلماء يجربون تجارب كثيرة في هذا الصدد ومنها الاعتماد على البزر في زرع البطاطا لا على تقسيم الرأس الواحد الى عدة اجزاء وزرعها وذلك بواسطة سماد خاص اتوا به من اميركا مهد هذه الشجرة المباركة ويأمل المخترعون لهذه الطريقة ان يحسن جنس البطاطا تحسيناً كبيراً بواسطة الانتخاب الطبيعي والتزاوج ويكون النفع من الجهتين الغذائية والمادية

الجرذان

الجرذان يخرب الولايات المتحدة الاميركية ولا يرحمها فقد حسبوا ان فيها ٣٠٠ مليون جرذ تخرب من الحنطة ماقيمته ١٠٠ مليون دولار في السنة وهي تفسد الموانئ البحرية بنشرها الطاعون الدملي وما برحت تلك البلاد تكافح هذا الحيوان الا انها لم تفلح في ابادته وقد أُلفت لجان لهذا الغرض وعلى كثرة مالجأت اليه من الذرائع لم تقض على الجرذ ويضاف الى الخطر الناشيء منه في البادية وباء الحيوانات الناشيء من القمل الذي ينتقل في اجسامها ويعشش في جلودها

اختراعات اديسون الجديدة

عرض اديسون المخترع الاميركاني الكبير على مؤتمر الكهربائيين الاخير في فيلادلفيا الاساليب الجديدة التي يهمه اختراعها اليوم فقد ارتأى بان الطيران يحتاج لآلة طيارة تستطيع اجنحتها ان تضرب الهواء مائتي ضربة في الدقيقة ولبلوغ هذه الغاية يجب الاقتراب ماامكن من طيران النحل لا ان يحتذي مثال الفراش في طيرانه وهو يعمل بجد لاستخراج الكهربائية مباشرة من الفحم ويرجو ان ينجح في ذلك قريباً ويصرف جزءاً من وقته في تحسين آلة السينماتوغراف المتكلم الذي سيكون رخيصاً جداً يسهل على كل الناس اقتناؤه

مدينة ليبسيك

تسعد المدن وتشقى بسكانها ومدينة ليبسيك في المانيا احدى عواصم العلم في الغرب قد بلغت منزلة تحسدها عليها كل مدينة فقد كتبت احدى المقائل في وصف هذه

المدينة انها وان ضحك منها لوثيروس المصلح في القديم وكيتي الشاعر بتشبيهه لها بمدينة باريز قد اتسع نطاقها فان كليتها واسواقها جعلت منها مدينة ذات مسحة خاصة مقسومة قسمتين القسم العقلي العلمي والقسم التجاري الاقتصادي فقد أُنشئت جامعتها سنة ١٤٠٩ وكان تلاميذها بادئ بدء ينظرون الى هندام ثيابهم اكثر ما ينظرون الى العلم ومع هذا نشأ منها امثال الفيلسوف ليبنز والعالم توماسيوس وقام فيها في القرن الثامن عشر كتاب وادباء اصلحوا طرق التمثيل وحسنوا ملكة النقد واخذت المدينة تستميل الى نزولها اعاظم الكتاب الذين تشهد الصفائح التذكارية الموضوعة على الدور التي سكنها امثال لسنغ وكيتي وشيلر من العلماء والادباء بما كان لهم من المكانة وقد خربت ليبسيك بحروب نابوليون ونحو سنة ١٨٣٥ عادت مطابعها فاخذت تطبع المطبوعات المدهشة في الموسيقى والآداب والتاريخ ونشأ لها كثير من كبار رجال الموسيقى منهم فاكنير ومن اهم ارباب المطابع بها كارل بدكر الذي نشر دليله المشهور منذ سنة ١٨٢٨ وزادت هذه الادلة التي اصبح لها واحد عن كل مملكة او مملكتين ومنها واحد عن سورية وفلسطين يجدد طبعه كل ثلاث او اربع سنين وواحد عن مصر والسودان بل كل مملكة يلاحظ ان يرحل اليها الغربيون قد جعل لها دليل غريب في تدقيقه ومنها مايطبع بالالمانية فقط واكثرها تطبع بالالمانية والانكليزية والافرنسية وقد توالت على هذا البيت ثلاثة اجيال وما زالت اعماله سائرة على قدم النجاح وتجاوز المباع من هذه الادلة كل سنة مليون نسخة · وقد عددت الكاتبة اسماء بعض الرجال العظام الذين نشأوا من تلك المدينة ونحن نقول ان مدينة ليبسيك قد قام فيها كثار من اعاظم المستشرقين ايضاً فطبعوا كثيراً من كتب العرب احسن طبع وهي اليوم اعظم مدينة تقام فيها سوق للكتب وفيها مئات من المطابع وقد اقيم فيها معرض للكتب في العام الماضي دلّ على تفوق الالمان في صناعة الطباعة والرسم والنقش والتجليد وان ليبسيك لم توفق الى ان تطبع كل سنة ربع مايطبع من الكتب في العالم الا عن استحقاق فقد قالوا ان نصف مايطبع من الكتب يطبع في المانيا والنصف الثاني يوزع على اقطار العالم ونصف مايطبع في المانيا ينشر في مدينة ليبسيك فانعم بمدينة هذا حالها جمعت العلم والعمل وفي ليبسيك ونفوسها لاتتجاوز ٤٥٠ الفاً بورصة الكتب وهو وحيد في نوعه ليس له نظير في العالم

تفوق المرأة

وضع احد الاميركان جائزة بعشرة آلاف دولار لمن يجيد في موضوع القصص الفاجعات فنالت الجائزة المقلية اليس براون محرزة قصب السبق من بين نحو الف رجل دخلوا في هذه المسابقة فعجب الناس لذلك في الغرب وعدوه من اقصى تفوق المرأة

البولونيون

ثبت ان عدد البولونيين المنبثين في اقطار الارض يتجاوزون ٢٥ مليوناً نصفهم في بولونيا الروسية واربعة ملايين ونصف في بولونيا النمساوية واربعة في بروسيا واربعة ملايين في سائر اقطار العالم فهم بكثرة عددهم في الدرجة السادسة من الامم بين ايطاليا واسبانيا وهم اكثر شعوب الارض اولاداً وسيصبح عددهم بعد خمسين سنة ٣٥ مليوناً وعدد الروس ١٢٠ والالمان ١٠٠ والانكليز ٥٥ والفرنسيس ٣٥ مليوناً . وقد قسمت اراضي بولونيا ثلاث قسمات منها ١٢٧ الف كيلو متر مربع ضم الى ارض روسيا و١٠٠ الف كيلومتر الى النمسا و٦٠ الفاً الى بروسيا اي مساحة بولونيا القديمة ثلثمائة الف كيلومتر مربع او بقدر مساحة النمسا بدون المجر او نصف المانيا او نصف مساحة فرنسا او نحو مساحة بر الشام . وقد ذكر احدهم في مجلة الامم ان بولونيا الحية العظمى المجروحة في كبدها المظلومة في حقوقها تتوقع تحريرها من حالتها وجعلها مملكة برأسها مستقلة او تابعة لمملكة اخرى تبعية المجر للنمسا وتدور جميع سياستها حول هذه المسألة وهو هل تكتفي باستقلال اداري مهما كان نوعه او تقاتل للحصول على استقلال سياسي تام كامل وهذه المسألة ما زالت توضع على بساط البحث في بوسنانيا وغاليسيا ومملكة بولونيا ففي بوسنانيا يطالب البولونيون بحرية لغتهم وفي غاليسيا حيث يستمتعون باستقلال يكاد يكون تاماً يميل البولونيون الى حب النمسا وفي بروسيا بالنظر للتيار الديمقراطي الالماني اصبحت اصول ادارة القسم البولوني محتملة مقبولة على العكس في روسيا فان الضغط فيها على البولونيين على اشده والحجة في ذلك ان البولونيين هناك اذا نفس خناقهم يعودون الى شق عصا الطاعة في حين ان فنلندا التي لم تفارق الجماعة يوماً لا تعاملها روسيا معاملة احسن من معاملة بولونيا وبهذا عرفت ان جزءاً من الامة البولونية يفكر في نيل استقلاله او على الاقل يود الانضمام الى النمسا . كل هذا مما يدعو البولونيين الى اهراق دمائهم في سبيل الحصول على حياة سياسية فقدتها ومـا فتئت تدل انها لهـا اهل فقد قيل : اذا سلست حكومة الغريب فان البولونيين يثورون لانهم يستطيعون ذلك واذا اشتدت

حكومتهم يثورون ايضاً لانه يجب عليهم ذلك · ولكن انقسام الاحزاب السياسية في بولونيا يحول دون تحقيق هذه الاماني من جعل مملكة بولونيا مستقلة ولذا ترى هذا الشعب يميل الى وضع يده بيد النمسا لان منازعها الوطنية ليس فيها عنف ولا اكراه والامل في تحقيق هذا الرجاء معقود على ابناء الاجيال المقبلة من بنين وبنات ممن يرحلون في طلب العلم والتربية الى كليات فرنسا وسويسرا وانكلترا والبلجيك يتلقون التعليم الحر ولا ينسون مصير وطنهم

موت المستحمين

تدعو حرارة الصيف بعض الناس الى الاستحمام في الانهار فليس من العبث تنبيههم على الاخطار التي يتعرضون لها وقد يهلك بعضهم فجأة في شهري تموز وآب عقيب اغتسالهم في الماء الجاري وينسب موتهم في العادة الى صرع يصيبهم من كثرة التعب وشدة التحول من الحرارة الى البرودة او الى الدخول في الماء على امتلاء قبل ان يتم الهضم · وهذه الاسباب بعيدة عن الحق قليلاً اذ تبين من تشريح الغرقى انه قل وقوع الاضطراب في القلب ولا سيما في سن الشباب ممن تكون اجسامهم قوية ويحسنون العوم · وقد قال احد اطباء الالمان ان السبب في هلاك بعض المستحمين هو اضطراب يحدث في دهليز الاذن الداخلي بسبب دوران الرأس والرمش التشنجي · وهذه الظواهر تبدو في بعض الاشخاص الذين اصيبوا بآفة في غشاء طبلة الاذن عندما يدخل الماء البارد في آذانهم والموت الفجائي الذي يحدث في الماء ينشأ من تلف دهليز الاذن وكثير من الشبان قد اصيبوا بآفة فيها منذ صغرهم بدون ان يعرفوا ذلك ولذا فان الغطسة الفجائية قد يحدث منها اضطراب في حاسة السمع والماء البارد قد ينشأ منه بانهيال فجائي على تجويف الاذن تأثير سيئ في المعدة والدماغ ولذلك كان من الضرر على الصحة امتلاء معدة المستحم وهو ينغمس في الماء وقد نصح الطبيب الالماني لمن كانت فيهم آفة في غشاء طبلة آذانهم ان يسدوها بسداد من القطن المندوف ·

الغدد

ان الغدد او الاورام التي تحدث في الاعناق تنشأ من تضخم الجسم الدرقي وتكون تارة متفرقة او خلقة وطوراً موضعية او ناشئة عن اسباب محلية · والغدد او السلعات تكثر في الغالب في البلاد الجبلية وقد يصاب المصاب بصمم وخرس ووجع قلب واضطراب في الذهن يكون منها البله او نقص في البنية والفهم · وكانوا في القديم يعزون هذا

المرض الى ماء الشرب ثم اخترعوا له اسباباً اخرى اكثرها تصوري وقد ذكر احد علماء الفرنسيس مؤخراً ان سبب هذه الغدد شجر الجوز وان احدى القرى لما قلعت اشجارها لم يبق اثر للغدد في اهلها الا قليلاً مصابين بها واكد احد اطباء سويسرا وسويسرا بلد الغدد ان لهذا المرض صلة مع التركيب الجيولوجي للبلدان الاراضي من العصر الاولي المركبة تركيبًا بحرياً اكثر استعداداً للغدد من الاراضي التي هي من الدور الثانوي وتكون طباشيرية او من الطبقة الارضية المعروفة بالترياس . وان الماء الذي يجري من الاراضي المركبة تركيبًا بحرياً تحتوي مواد تحدث منها الغدد . وقال طبيب سويسري آخر ان هذه الغدد يصاب بها في الأسرة الواحدة اناس وينجو آخرون وان اخوين توأمين أصيب بها الواحد ونجا الآخر وجربت تجارب كثيرة في سويسرا وفرنسا وانكلترا ونروج في هذا المرض وقد اصيبت قرية برمتها بالغدد في سويسرا فحاولت الحكومة بكل ما لديها من وسائل التطهير ونزع العادات المضرة التي ربما كان منها فشو هذا المرض فلم تفلح وبقي اهلها ذوي غدد وقد الفت لجنة تبحث في المياه التي يستقون منها فتبين انها خالية من كل شائبة وان الغدد في السكان لم تنشأ من تركيب الارض ولا من الينابيع مما لا يحول دون اشتداد المرض ونسبت اللجنة ذلك الى الاسباب الصحية التي جرت عليها اهل تلك المقاطعة وثبت ان الغدد خلقية لا موضعية واكد احد الاطباء انه رأى رجلاً مصاباً بالغدد وله ولدان ابلهان ناقصا البنية كانا يلعبان مع كلبين في الدار يجعلانهما في فراشيهما فاصيب الكلبان بالغدد والكلب الثالث كان اقوى بنية من اخويه أصيب ايضاً بهذا المرض مما دل انه يعدي وهو وبائي . وفي بلاد براز يل مرض يشبه الغدد يصيب صغار الاولاد خاصة .

التلفون والسيناتوغراف

جربوا مؤخراً نقل الاصوات بالتلفون بواسطة السيناتوغراف فنقلوا في ساعة عشرين صورة إلى مسافة طويلة بدت كأنها تمثل امام ناظرك وبذلك تنقل الحوادث التي تحدث في باريز بعد زمن قصير جداً الى برلين بواسطة التلفون

النقرس والمفاصل

أسس في كلية كمبردج من بلاد الانكليز مستشفى خاص بالعناية بالمصابين بامراض النقرس وداء المفاصل وذلك برئاسة اخصائي كبير بطب هذا المرض وهو يبحث بحثاً علميًا وتجريبيًا في اسباب شفاء هذا المرض الذي لم تبرح اسبابه مجهولة وفي هذا المستشفى

معمل للتصوير وآخر لاستعمال اشعة اكس وفيه مجموعة نادرة من العظــام يتصور المرء الصور الشتى التي تشوه الصورة الانسانية والاصل فيها داء المفاصل وفي متحف المستشفى هيا كل عظام عثر عليها مدفونة في مصر وفي مقابر يونان وروميه القديمة يستدل منها ان داء المفاصل كان موجوداً على اختلاف ضروبه منذ الاعصر المتطاولة ويجري مدير المستشفى الآن تجارب كثيرة في الحيوانات لاكتشاف باشلس داء المفاصل والنقرس وتركيب مصل يشفي من آلام هذا المرض العقام ٠

الذباب

يدخل الذباب في معدته جراثيم باثولوجية وتحتفظ بها في حواسها على اشد ما تكون من القوة السمية مدة الشتاء وقد شرح احد الاطباء مئات من الذباب فوجد في معدها جراثيم كثيرة من الكوليرا والحمى التيفوئيدية وبذلك ستصح عزائم بعض حكومــات الغرب على ابادة الذباب حتى لا يدخر الجراثيم في معدته وينقلها من الشتاء الى الصيف

مخطوطات ومطبوعات

التحفة السنية

باسماء البلاد المصرية

جمع الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان طبع بالمطبعة الاهلية بمصر سنة ١٨٩٨

هذا الكتاب هو في ذكر ما باقليم مصر من البلدان وعبرة كل بلد وكم مساحته بالافدنة نشره المسيو موريس مدير دار الكتب الخديوية السابق على نفقة هذه الدار العامرة وقد قال في مقدمته ان مؤرخي العرب لم يذكروا تقويماً في امــلاك مصر Cadastre وهو المعروف بالروك ايضاً على عهد استيلاء دولة المماليك سوى مرتين نظم احدهما بامر حسام الدين لاجين ســنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م والثاني بعد سنين قليلة اي في سنة ٧١٥ هـ ١٣١٥ م امر بعمله الملك الناصر محمد بن قلاوون وهــو صــاحب الآثار الكثيرة في العمران في مصر والشام وهــذان الروكان لم يعرف عنهما شيء ولعــل هذا الروك لابن دقماق الذي عمله سنة ٧٧٧ هـ على عهد السلطان الاشــرف شعبان هو

غير ذينك الروكين اذ لم يجر في كتابه ذكر للروكين السالفين . قال المؤلف ان جملة عدة الاقاليم بالديار المصرية على ما استقر عليه الحال الى آخر شوال سنة سبع وسبعين وسبعمائة وذلك في ايام الاشرف شعبان بن حسين وجملة ذلك تسعة آلاف الف وخمسمائة الف واربعة وثمانون الفاً ومائتان واربعة وستون ديناراً جيشية وعدتها خارجاً عن بلاد الديوان بالجيزية الفان ومائة وثلاث وستون ناحية واصل ما وضعت عبرة البلاد فيما مضى من الزمان ليعرف من عبرة كل بلد قدر متحصلها وبيان ذلك ان الدينار الجيشي كانت قيمته ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم ... وقد وقع الكتاب في ١٩٦ صفحة وفهرست الاعلام الواردة فيه في ٧١ وهي من عمل السيد محمد الببلاوي

تاريخ الفيوم وبلاده

لابي عثمان النابلسي الصفدي طبع بالمطبعة الاهلية

سنة ١٨٩٩ ونشره المسيو موريس ص ٢٠٤

مؤلف هذا الكتاب هو من عمال الملك الصالح ايوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل ابي بكر اخي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب من اهل القرن السابع للهجرة وهو سوري وكل اليه السلطان اصلاح بلاد الفيوم المصرية فكتب كتابه هذا في وصفها ومزاجها وهوائها ومائها وخلجانها وسكانها وبدوها وحضرها وبحرها واسماء بلادها وجوامعها ومساجدها واديارها وكنائسها وغلتها وثروتها وارتفاعها بلداً بلداً وجعل ذلك لسنة ٦٤١ وهي السنة التي امر بالنظر في الفيوم وعقيبها الف هذا الكتاب والغالب ان المؤلف أُصيب بمرض الابّ Nostalgie واخذه الحنين الى نابلسه وصفده ولعلهما كانتا اعمر من الفيوم اذ ذاك فقال في آخر كتابه : اللهم خلد ملك مولانا السلطان وانصره وارزقني عاطفة من عواطفه اعود بها الى وطني واسكن الى سكني الاقي بها سرور النفس وافارق من قارنته من غير الجنس .»

قال المؤلف في مزاج الفيوم وهو قول شف عن كبرياء فيه له ما يماثله من كبرياء العمال في هذا العصر بل وفي كل عصر ومصر وما هو الا دليل ترفعهم عمن كان يجب عليهم الاختلاط بهم من السكان واصلاح ما اختل من احوالهم ان كان بايديهم الرفع والخفض والابرام والنقض : « ولقد رأيت سكان مدينة الفيوم نفسها كأنهم وحش في صورة بني آدم ليس فيهم ولا بهم انس يستوحش الجالس في جمعهم ولا يستأنس

الوافد في ربعهم حتى انني وجدت الوحشة بدخولي اليها والانفراد بمقامي فيها حتى كتبت لبعض الناس من ابيات :

اشتقت فيها الناس حتى لقد   ناديت واشوقي الى الناس

وانشدني بعض الناس لشاعر دخل الى الفيوم بيتين وهما :

يا حبذا بلد الفيوم من بلد   كجنة الخلد انهاراً واشجارا
الله يعلم اني مذ حللت بها   وجدت داراً ولكن لم اجد نارا

فاجبته في الحال بديهاً

ان قال من سكن الفيوم آونة   وجدت داراً ولكن لم اجد جارا
فانني لم اجد مذ جئتها احداً   من الذي قال لا داراً ولا جارا

ولا يتحركون بحركة الا بمحرك مثل البهائم يقيم الواحد المشهور منهم المدة الطويلة في بيته ولا يخرج من داره ولا يعرف ما الناس فيه ورأيت من اقام بها من الغرباء فطالت مدتهم يلحقه ما يلحقهم من حيث لا يشعر والانفراد يوجب الوحشة ويكدر الروح الحيواني ويقتضي تردد العفن في المواضع التي هم بها والرطوبة عليها غالبة فيتراجع العفن اليهم يستنشقونه مع الهواء الذي يجد الحرارة الغريزية والروح الحيواني فيكدره وتقوى السوداء عليهم وتتكاثف الابخرة المتحللة منهم وتبطي وتثقل وتترادف في ابدانهم لعدم الحركة لا يعرف احد منهم بمكرمة ولا شجاعة ولا كرم ولا اريحية ولا ترنح ولا منهم ذو صورة جميلة ولا من له صوت حسن البتة ولا علم من العلوم ولا يعمل من الاعمال الدقيقة ولا من الصنائع الحسنة والافعال المستحسنة قد غلب عليهم الكمد ولعمري لقد اقمت بالفيوم الى حين تأليف هذا الكتاب مدة تزيد على شهرين في موضع عالي البناء رحب الفناء مكشوف من جهاته الاربع للهواء فما سمعت فيها بعرس ولا اجتماع طائفة لانس ولا مر في طريقها احد فترنم او غلبه ترنح فغنى او على مذهب الفقراء زمزم. بزهم في غاية الغلظ والخشونة قليل البقاء عند استعماله موصوف النزل بضعفه وانحلاله بخلاف ما حولهم من البلاد واغنامهم لحومها قحلة رخوة كثيرة العروق عديمة الدهن قد غلب عليها العجف مع كثرة العلف لا يوجد فيها سمين البتة كأنه في المذاق تبن وكأنه في الفم وقت المضغ خرقة يلوكها الانسان او قطعة لبن وضعت فوق اللسان وطعامهم لعدم الالية بشحم الكلى لا بدهن السلي والبانهم لا تنعقد ذلك الانعقاد المعروف وخبزهم رخو الى الغاية لكن اذا بقي يوماً وليلة يبس وصار كالبقسماط لا لذة في طعمه.»

والكتاب ملحق بفهرس من عمل السيد الببلاوي ايضاً كسائر الكتب التي احيتها بالطبع دار الكتب الخديوية العامرة

قاموس القضاء العثماني

الجزء الخامس لمؤلفه سليمان افندي مصوبع

طبع بمطابعة العرفان في صيدا سنة ١٣٣٢ — ١٩١٤

ظهر الجزء الخامس من هذا القاموس اللطيف وهو كالاجزاء السالفة بتبويبه وتنسيقه وحسن تأليفه يفيد كل طالب في علم الحقوق وراغب من العثمانيين في دراسة القانون فلمؤلفه الشكر على نشاطه وقد بلغ عدد ماصدر من صفحات هذا الكتاب الى آخر هذا الجزء ٦٠٠ صفحة ولا يزال في حرف الدال

نهاية الارب

في معرفة انساب العرب

لابي العباس الشيخ شهاب الدين احمد بن عبدالله بن احمد بن عبدالله بن سليمان بن اسماعيل القلقشندي الشهير بابن غدة طبع بمطبعة الرياض ببغداد

على نفقة سليمان افندي الدخيل

سنة ١٣٣٢ ص ٣٧٢

مؤلف هذا الكتاب هو صاحب صبح الاعشى الذي تكلمنا عليه في الجزء الثالث من هذه السنة وكتابه هذا في معرفة قبائل العرب والعلم بانسابها رتبه على حروف المعجم وذكر في مقدمته مايحتاج اليه في علم الانساب ومعرفة القبائل وفيه خمسة فصول الاول في الانساب وفائدته الثاني في بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر انواعهم الثالث في معرفة طبقات الانساب الرابع في مساكن العرب القديمة التي منها درجوا الى سائر الاقطار الخامس في امور يحتاج اليها الناظر في علم الانساب . ثم الحق ذلك بمقصد تكلم فيه على انساب قبائل العرب وفي جملة ذلك ذكر عمود النسب النبوي وما يتفرع عنه من الانساب وذكر تفاصيل القبائل مرتبة مقفاة على حروف المعجم ومايتهيأ ذكره من مساكنهم وفي الخاتمة ذكر اموراً تتعلق باحوال العرب فتكلم على ديانات العرب قبل الاسلام وعلى امور من المفاخرات الواقعة بين قبائلهم وما ينجر الى ذلك وعلى الحروب الواقعة بين العرب في الجاهلية ومبادئ الاسلام وعلى نيران العرب في الجاهلية واسواق العرب المعروفة فيما قبل الاسلام وامور يحتاج اليها في علم الانساب ومعرفة القبائل وقد خدم المؤلف

بكتابه خزانة ابي المحاسن يوسف الاموي القرشي « عزيز المملكة المصرية وسفيرها ومدبر الممالك الاسلامية ومشيرها » وهو المعروف بالمقر الجمالي ومدحه في المقدمة في صفحتين وعاد في ص ٢٨ فمدحه ايضاً في صفحتين نظماً ونثراً وبالغ فيه مبالغة الثعالبي بابي الفتح الميكالي الذي قدم له كتاب فقه اللغة

جمع هذا الكتاب فاوعى من اسماء قبائل العرب ومساكنهم ونقل من ثقات المؤرخين كابن فضل الله وابي الفدا وابن جرير وابن خلدون والحمداني . والحمداني هذا كما قال فيه القلقشندي صفحة ١٧٧ كان مهمنداراً ومن شأنه معرفة العرب الواصلين الى الابواب السلطانية وليس هو الهمداني صاحب صفة جزيرة العرب (المطبوع في ليدن سنة ١٨٨٤) فان هذا من خير من عني بالبحث في قبائل العرب ومنازلهم ولكن يصعب الكشف عنهم في كتابه ويسهل في كتاب القلقشندي لان هذا مرتب على حروف المعجم وذاك يتعرض للقبائل بالعرض او بالمناسبة والقلقشندي اكثر توسعاً لانه قرأ كتب المتقدمين وكتب المتأخرين فانتقى ماوقع عليه اختياره . ولو سلمت هذه الطبعة من التحريف والتصحيف وشفعت بفهرس عام لمطالب الكتاب كله لجاء هذا السفر مستوفياً شروط الجمال من حيث الوضع والطبع لجلالة موضوعه وفيه من اخبار القبائل في مصر والشام والعراق خصوصاً مايفيد في تصور انسابهم وان هؤلاء الاخلاف من اهل البادية هم ابناء اولئك الاسلاف وكثير من القبائل حافظت على اسمائها منذ قرون فنشكر للطابع ونرجو ان يوفق الى احياء امثاله من كتب العرب النافعة

تسريح الابصار
في مايحتوي لبنان من الآثار
للاب هنري لامنس اليسوعي الجزء الاول ص ١٥٩
الجزء الثاني ص ٢٦٤ طبع في بيروت
بالمطبعة الكاثوليكية سنة ١٩١٤

مؤلف هذا الكتاب من علماء المشرقيات اقام في هذه الديار زمناً وخدم تاريخها وآدابها في دائرة معينة ومن احسن ماخطته انامله هذا المبحث الجليل في آثار لبنان استند فيه الى اصح ما كتب في هذا الشأن بعدة لغات وطبق العلم على العمل في المسائل الجغرافية والتاريخية والعادية وكل صفحة من صفحاته تنم عن مادة واسعة وتحقيق دقيق . وقد حلي هذا السفر النافع بعدة رسوم وصور للعاديات فجاء على جبين الدهر من الكتب

الخالدة التي لا يستغني عنها كل من يحب الوقوف عَلَى حالة هذا الجبل الطبيعية ٠ وقد نفذت طبعته الاولى وكان نشر اولاً في عدة سنين من اجزاء مجلة المشرق ٠ ثم اعيد طبعه ثانية هذه المرة مع تنقيح قليل وزيادة فهارس للمواد تسهل الانتفاع به فنحث على اقتنائه لانه من الكتب الممتعة التي كتبت على صقع مهم من اصقاعنا بروية وفضل بحث

تاريخ حوادث الشام ولبنان

من سنة ١١٩٧ الى سنة ١٢٥٧ هجرية

(١٧٨٢ — ١٨٤١ مسيحية)

عني بنشره الاب لويس معلوف اليسوعي في المطبعة الكاثوليكية في بيروت

سنة ١٩١٢ ص ١٢٤

ناشر هذا الاثر التاريخي الاب معلوف صاحب معجم المنجد وغيره هو من العاملين بين الآباء اليسوعيين وقد اجاد في نشر هذا السفر الذي يجلو الغامض كثيراً في بعض المسائل التي حدثت في عصر كان فيه التاريخ صفحتين سوداء وحمراء سوداء بالجهل وحمراء بالفتن واهراق الدماء ٠ والمؤلف على مايظهر ميخائيل الدمشقي كان من موظفي الحكومة والغالب ان هذا الاسم مستعار خاف صاحبه على نفسه فاخفى حقيقته وكتب ماكتب بلسان اقرب الى العامية الدمشقية في عصره ولم يصحح الناشر من نصها الا القليل النادر وابقى جمل الكاتب بحالها وعلق على بعض الالفاظ العامية شرحاً خفيفاً وقد نقل هذا الكتاب من نسخة في مكتبة المتحف البريطاني في لندن فجمع الى الفائدة لذة وفكاهة وهو يتناول كثيراً من الوقائع المهمة كبعض وقائع ابن سعود والوهابيين ووقعة سليم باشا في دمشق والسبب فيها ووقائع احمد باشا الجزار صاحب عكا والامير بشير الكبير صاحب لبنان وحملة نابوليون على عكاء ودخول المصريين الى الشام وغير ذلك مما تلذ تلاوته لصدوره من شاهد العيان فنثني عَلَى الاب معلوف لاتحافه التاريخ العربي بهذه الذخيرة الفريدة

البلغة

في شذور اللغة

لائمة كتبة العرب نشرها الدكتور اوغست هفنر والاب لويس شيخو

طبعة ثانية بالمطبعة الكاثوليكية سنة ١٩١٤ ص ١٧٥

هذا مجموع حوى رسائل لغوية من انفس ماكتبه بعض علماء العربية كالاصمعي

وابي زيد وابي عبيد والنضر بن شميل وفيه كتاب الدارات وكتاب النبات والشجر وكتاب النخل والكرم وهي للاصمعي نشرها الدكتور هفنر وكتاب المطر لابي زيد والرحل والمنزل لابن قتيبة (لابي عبيد) واللباء واللبن لابي زيد وملحق بكتاب اللباء واللبن لابن قتيبة ورسالة في المؤنثات السماعية ورسالة في الحروف العربية للنضر بن شميل وشرح مثلثات قطرب بالرجز وقد علق الناشران عليها حواشي لتسهيل الغامض او اثبات صحة النص وجعلا لكل رسالة فهارس لغوية مرتبة على حروف المعجم وقدما على كل رسالة نبذة وجيزة لتعريف صاحبها ومضمونها والفسخ التي استندا اليها وشكلاها بالشكل الكامل بطبع مشرق تلذ مطالعته . ومعظم هذه الرسائل مما تشتد حاجة المؤلف والكاتب الى مدارسته مثل رسالة المؤنثات السماعية و يظن انها لنور الدين بن نعمة الله الحسيني الجزائري وهي صغيرة وقعت في خمس صفحات . واكثر موضوعات هذه المجموعة ليست مضمومة في شيء مما لدينا من كتب اللغة المطبوعة كالمخصص واللسان والتاج والاساس والمصباح والصحاح وفقه اللغة بل هي في موضوع خاص مثل كتاب الاضداد والمقصور والممدود وادب الكاتب والصاحبي وفقه اللغة وفصيح ثعلب والالفاظ الكتابية وغيرها . فاكرم بهمة ترينا كل يوم اثراً من آثارها وتحيي لنا اثراً نافعاً من آثار اجدادنا

جرجي بك زيدان

فجعت الآداب العربية في العشر الاخير من تموز ١٩١٤ برصيفنا جرجي بك زيدان صاحب مجلة الهلال ومؤلف تاريخ التمدن الاسلامي وصاحب التصانيف والروايات الكثيرة مثل تاريخ الآداب العربية وتاريخ مصر الحديث ومشاهير الشرق والفلسفة اللغوية وتاريخ الماسونية العام وغيرها . توفاه الله في القاهرة فجأة فعز نعيه على الآذان واكبرت النفوس الخطب فيه لجليل خدمته للعرب وتاريخهم ولغتهم وحضارتهم

ولد الفقيد في بيروت يوم ١٤ كانون الاول من شهور سنة ١٨٦١ وتلقى مبادئ

240

العلوم في مدارسها الابتدائية ثم دعته حالة والده المالية الى الاشتغال معه وكان صغيراً ولما بلغ الثانية عشرة وانشأ خلال ذلك يكب على المطالعة و يتعلم الانكليزية و بعض العلوم ودرس الصيدلة ونال شهادتها ثم هبط مصر ليتلقى الطب في القصر العيني فاستطال مدة الدراسة ثم تولى تحرير جريدة الزمان حولاً كاملاً .وفي سنة ١٨٨٤ سار مع الحملة الى السودان لانقاذ غوردون باشا بصفة مترجم بقلم المخابرات وعاد بعد عشرة اشهر الى بيروت وفي صيف سنة ١٨٨٦ زار لندرا وعاد في الشتاء الى مصر فتولى ادارة مجلة المقتطف والمؤازرة فيها حتى سنة ١٨٨٨ وفي سنة ١٨٩٢ اصدر مجلة الهلال وقد اتم بوفاته سنتها الثانية والعشرين وزار في السنة الفائتة بعض بلاد الغرب وكتب عنها ومعظم تآليفه صدرت في العهد الاخير مع اطراد صدور مجلته التي راجت رواجاً لم يعهد لمجلة عربية ومع هذا لم تكن تقوم بنفقته كلها كما كان اكد لنا لولا الروايات التي كان يشفعها بها ثم يخرجها على حدة ومنها ماطبع مرات ومنها ماترجم الى بعض اللغات

راجت كتب الفقيد العالم ومجلته لانه كان له اسلوب خاص قلما يشاركه فيه مشارك من السلاسة وحسن التنسيق فكان يكتب ليفكه القاريء اولاً ثم يعلمه وفي الغالب انه كان يتوخى النوع الاول فجاءت بعض كتبه التاريخية والعلمية كثيرة الاستنباط عليها في بعض الاحيان مسحة من اسلوب القصص والتوسع في الاستنتاج ولكنها مفيدة في تثقيف عقول جمهور كبير من القراء ممن نشرت بينهم المعارف التاريخية ولا سيما تاريخ الاسلام في الجملة وهذه الطبقة من الناس لو لم تأتها الفوائد بالعرض من ايسر السبل لم تحبب اليها المطالعة

ولذلك فان لصاحب الهلال فضلاً كبيراً على الآداب العربية لانه نشر بكتبه ومجلته ابحاثاً كانت مدفونة عن العامة لايتناولها سوى الخاصة من العلماء والمتأدبين و لكثرة ما كان يطلب منه ان يكتب يضطر احياناً الى عدم التوسع في البحث ويكتب من حاضر الوقت بحسب مايجول في خاطره لاول وهلة وقد عيب عليه تحامله في تاريخ التمدن الاسلامي على العرب حتى اتهم بانه من غلاة الشعوبية وتناولته السن الناقدين من العلماء والادباء بالنقد ومنهم من جاوز الحد في غمطه حقه وتحامل عليه في اشياء لايخلو منها كتاب ومنهم من كان يطلب منه ان يكون مسلماً في بحثه وكان من قومه من يرمونه بالميل للاسلام والافراط في ذكر مآثر العرب

صرف فقيدنا العزيز معظم حياته في خدمة التاريخ فهو المادة الاولى في مجلته وكتبه

كلها ينوع اساليبه و يقرب من الاذهان بعيده وكان لبسط العبارات الساذجة يتناول ماقاله المؤرخون و يقتضب من كلامهم او يكتبه باسلوبه المعتادفيضيع احياناً بعض جمل ربما كانت هي روح تلك الفقرات وكثيراً ما كان يتغاضى عن ذكر السنداو ينقل مايدور على الافواه و يأخذ بالمتعارف لعامة القراء الملذلهم المفرح

وقد تعلم في آخرامره مبادي الالمانية والافرنسية فكان يقتبس في كتبة العلمية بعض ما كتبه علماء المشرقيات منهم على الآداب العربية والتاريخ الاسلامي وحاز شهرة في الاندية العلمية في الغرب وعين عضواً في بعض جمعياته ونال بعض الالقاب والاوسمة

وكان اجزل الله ثوابه عاملاً مجداً مرتب العمل انتظمت حاله برواج مطبوعاته بواسطة الهلال ومكتبته ومطبعته وله شهرة في العالم العربي نالها عن استحقاق و بسهر الليالي والمطالعة والمراجعة . كان عصامياً فصار بدرسه و بحثه واجتهاده من افراد الناس بين من يعانون صناعة التأليف في الشرق العربي ووصل به جده واجتهاده الى مصاف العلماء على حين لم يدرس في الكليات العظمى ولا نال شهاداتها واجازاتها الطنانة الضخمة وكم من اناس اسعدهم الحظ بقضاء سنين طويلة في المدارس الجامعة ودرسوا علومها واحرزوا شهاداتها ولم يكتب لهم ان يبلغوا جزءاً صغيراً مما بلغه صاحب الهلال بثباته ومثابرته ودرسه وعنايته مما دلّ ان العبرة بالدارس لا بالمدارس و بقوة العقل في الرجال لا بمجد الآباء و كثرة الاموال

ولذا كان فقد المترجم به في سن الكهولة شديد الألم على كل عارفيه واصدقائه ومن انتفعوا بآثاره وراقهم تلطفه في الاداء وخدمته امزجة الجمهور من القراء وسيكون اسمه على جبين الدهر خالداً ما دامت العربية و تبقى بعض ما خطته يمينه يتداول حتى يقوم في الامة من يكتب لها باسلوب آخر ومعلومات اوفر و بحث اوسع وامتع . عوض الله الامة العربية عنه وجازاه جزاء العاملين

المقتبس

المقتبس بعد حولين

تصدر هذه المجلة بعد انقطاعها عن قرائها حولين كاملين بسبب الحرب العامة التي انقطعت بها الصلات بين الامم واصبح القول قول المدفع والحسام لا قول الصحائف والاقلام و بلي البشر بمحنة لم يكد يبتلى بمثلها في العصور الغابرة فاضطررنا الى التوقف لنفاد الورق وندرة المواد التي كنا نستقي منها كثيراً من موضوعات هذه الصحيفة بداعي وقوف حركة الاندية والمجامع والمعاهد العلمية و بينا كنا نقول يسعنا ما يسع غيرنا من مجلات الغرب والشرق في الانقطاع عن الصدور قيض الله لهذه المجلة رجلاً تفرد بمزية الاقدام على العظائم والاخذ بايدي المشاريع العمرانية والعلمية ونعني به بطل العثمانيين ناظر البحرية احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع فارادنا على معاودة الصدور مسهلاً لنا الصعاب من الاسباب وحجته ادام الله توفيقه انه لا يليق بالبلاد ان تخلو من مجلة تدون العلوم والآداب وتبث الافكار الصحيحة وتدعو الى مكارم الاخلاق فصدعنا بامره ونحن عاجزون عن اداء شكره ولا غرو فهذا اقل مايسجل في صحائفه البيض من المآثر في هذا القطر فنسأله تعالى ان يوفقنا الى احسان العمل واتمام ما بدأنا به منه وان يعيد الينا نشاطنا السابق في التأليف والتعريب والاقتباس على وجه يجمع بين مصلحة الامة ومصلحة طلاب الحقائق وعشاق الآداب انه كريم جواد

الحرب العامة

بدأت في صيف سنة ١٩١٤ (١٣٣٢) سلسلة من اشأم سلاسل المصائب البشرية لم يعهد لها نظير في تاريخ الامم السالفة وربما لا يكون لها مثيل في تاريخ الامم الخالفة ونعني بها نشوب حرب عامة سالت فيها الدماء انهاراً وعد فيها القتلى بمئات الالوف بل بالملايين وما كان الناظرون في محور حركة السياسة الاوربية يظنون ان الحال تؤدي الى اشهار هذه الحرب الضروس وتطيش بالنفوس الى حد يتقاتل المتماثلون والمتجاورون والاقرباء الادنون ولكن هي المصلحة السياسية المادية تعلو فوق المصالح وتنسى في جانبها القرابة والنسب واللسان والمذهب ٠

السبب الرئيسي في هذه الحرب ان امبراطورية النمسا والمجر كانت على ما جاء في الكتاب الابيض الالماني تحاذر من الدعوة التي كانت تنتشر لسلخ الاقسام الجنوبية الشرقية من املاكها وهي السياسة التي عاضدتها الصرب وجاهرت بها متكلة على معاضدة روسيا لها وهذه كانت تسعى بكل قواها لتحقيق هذه الآمال بعقد التحالف البلقاني وذلك بان الصرب المجاورة لمملكة النمسا والمجر كانت تتقوى الحين بعد الآخر خصوصاً بعد الحرب البلقانية وقد زاد سكانها واتسعت رقعة ممالكها واخذ الصربيون من سكان النمسا والمجر يتحفزون للوثبة وروسيا ممثلة العنصر الصقلبي العظمى تضمر خلاف ما تظهر فرأت النمسا حياتها صائرة الى خطر خصوصاً بعد ان اثبت التحقيق ان مقتل ولي عهد النمسا والمجر الارشيدوق فرنزفرديناند في مدينة بوسنه سراي بينا كان ينوب عن عمه الامبراطور فرنسيس يوسف في حضور المناورات كان بيد جمعية سرية صربية فهلك وقرينته على صورة اشمأز منها العقلاء وذلك لان الصرب كانت تعد هذا الامير عائقاً عن بلوغ آمالها فلم يسع النمسا وقد رأت هذا العمل الفظيع الذي هاجت له اعصاب سكانها الا ان شهرت الحرب على الصرب يوم ٢٨ تموز فتقدمت الجيوش النمسوية في اراضي الصرب واخذت تذيقهم الهلاك الواناً ٠

فشق ذلك على روسيا وامرت بتعبئة جيشها عَلَى الحدود النمساوية والالمانية فلما رأت المانيا ان حليفتها النمسا فتحت بينها و بين روسيا الحرب انذرت روسيا وهددتها

فلم يصادف انذارها وتهديدها تأثيراً في دوائر حكومة القيصر وكان جوابها لالمانيا ان على النمسا ان تسلم بالتوسط بينها و بين الصرب واذا رفضت فلا مناص من اعلان الحرب وقد ابرق قيصر روسيا يوم ٢٩ تموز الى قيصر المانيا يرجوه بان يساعده على منع حليفته النمسا من التوغل في المسألة الصربية منعاً لنشوب حرب اوربية طاحنة فبادر الامبراطور غليوم الى التوسط و بينا المسألة في اخذ ورد مع الحكومات ذات الشأن وانكلترا تعضد المانيا حباً بعدم نشوب حرب عامة صدر امر عام بتعبئة الجيش الروسي كله واعداد الاساطيل فرأت المانيا سلامتها مهددة فبادرت هي ايضاً الى تعبئة جيشها دفاعاً عن حليفتها النمسا ولو اتيح (الكتاب الابيض الالماني) للصرب ان تتحرش في المستقبل بحكومة النمسا لكانت العاقبة تضعضع اركان هذه السلطنة و يلي ذلك خضوع جميع العناصر الصقلبية (السلافية) لصولجان روسياوهذاممايؤدي الى هدم اركان العنصر الجرماني في وسط اوربا

وفي ٣ آب شهرت المانيا الحرب على روسيا وشهرت فرنسا الحرب على المانيا على اثر اشهار المانيا الحرب على روسيا بالنظر لتحالف روسيا وفرنسا ثم شهرت حكومة الجبل الاسود الحرب عَلَى النمسا ايضاً وفي ٤ آب اعلنت انكلترا دخولها الحرب براً و بحراً وعلل ذلك سفيرها في الاستانة ان الاسباب التي حملت دولته على الاشتراك في الحرب الاوربية هي ان ملك بريطانيا العظمى مرتبط بمعاهدة للدفاع عن الاغارة على مملكة البلجيك الواقعة قبالة الشواطئ الانكليزية و بين فرنسا والمانيا · ولما هاجمت المانيا البلجيك حاذرت انكلترا ان تخترق المانيا اراضي بلجيكا لتهاجم فرنسا التي لها حدود غير محصنة بينها و بين البلجيك فاعلنت الحرب · قال المستر اسكويث من ساسة الانكليز في خطابه الذي القاه في مجلس النواب الانكليزي : اذا سئلنا لماذا نحارب فاجيب بعبارتين : اولاً — للقيام بامور دولية مقدسة لو فرض وعقدت بين شخصين في امور الحياة الاعتيادية لعدت لاشرعية فقط بل واجبات شرف ايضاً لا يسع اي انسان يحترم نفسه ان يخل بها ثانياً انا نحارب في وقت تعتبر فيه القوة المادية العامل عَلَى المبدإ القائل بان الامم الصغيرة لا يجوز ان تسحق باغارة دولة كبرى تدعي انها تحافظ على حقوقها وعلى النظام الدولي ·

وقال احد كتاب الانكليز ان بذور هذه الحرب زرعت سنة ١٨٨٤ ايام عزمت المانيا ان تصير من دول الاستعمار لما رأت من تغلب بلجيكا على بلاد الكنغو و بسط

انكلترا لسيادتها البحرية على بلاد النيجر وعمل فرنسا في غرب افريقية ومدغسكر حاسبة انها ان لم تستول هي على جانب كبير من بلدان الامم لتتناول منها المواد التي تستعمل في الصناعة وتبيع فيها مصنوعاتها صارت صناعتها مستعبدة ذليلة لاميركا وانكلترا وفرنسا فاستولت في افريقية وجزائر البحر على بلاد مساحتها ١١٣٥٠٠٠ ميل مربع ثم قصدت ان تصير من الدول البحرية الكبرى وتبسط نفوذها على البحر الشمالي وبحر البلطيق من الشمال والغرب وبحر الادرياتيك من الجنوب والشرق وبلغت الادرياتيك باتفاقها مع النمسا حتى صار اتصالها بها اشد من اتصالها ببقاريا احدى ممالكها ثم اذا وصلت النمسا الى بحر الارخبيل وامتد سلطانها الى كورفو سهل على المانيا الوصول الى بر الاناضول والعراق ثم رأى امبراطور المانيا ان بسط دولته نفوذها في افريقية وما يتوقع ان يستولي عليه من الاملاك العثمانية (؟) لا يغنيانه عن الاستيلاء على اسوج والدانيمرك وهولندا وبلجيكا فتمتد سلطته حينئذ من اسوج شمالاً الى تريستا فكورفو فسلانيك فالاستانة فبغداد فخليج العجم جنوباً ويبقى الهند الى ان تحين الفرص لتدويخها وبدأ الآن في العمل بما ينوي به فهاجم بلجيكا وفرنسا واضطر انكلترا الى الدفاع عنها اه.

وقال كارل هلفريش الالماني في اسباب الحرب العامة ان روسيا اوقدت جذوة الحرب باعلانها النفير العام الذي امرت به يوم ٣١ حزيران ١٩١٤ بحيث كان رجال السياسة الروسية يرون ويسمعون بان عملهم يضطر المانيا الى الدخول في الحرب لا محالة وكل ما نشرته الحكومة الروسية بشأن اعلان النفير العام في بلادها لا اصل له فلا الاسباب العسكرية التي اتخذتها النمسا ولا الاسباب التي تعزى الى المانيا تكفي لتبرير روسيا من اعلانها النفير العام ثم ان روسيا امرت بالتجنيد العام عقيب ان رضيت النمسا بطريقة حل الاشكال بينها وبين الصرب بحيث تتصالح الحكومتان النمساوية والصربية فاثارت روسيا الحرب في وقت ارتضت فيه النمسا بالحل السلمي بينها وبين جارتها ودخلت روسيا في الحرب بعد ان تأكدت اشتراك فرنسا معها وفرنسا في الغالب لم تعد بمعاونتها لروسيا الا بعد ان تأكدت مساعدة انكلترا لها وكان رجال السياسة الانكليزية مربوطين مع فرنسا رباطاً ادبياً بحيث اذا دخلت فرنسا فلا يسع انكلترا الا السير معها أو انه وقع الاتفاق بينهما في هذا الشأن في اسبوع تلك الازمة ورأت انكلترا ان مسألة مقتل ولي عهد النمسا ومسألة الصرب

لا تبرر القيام بحرب فاختلقت حجة امام امتها وهي مسألة خرق حياد البلجيك

هذا وامثاله من البراهين الثابتة في المنشورات الرسمية التي اعلنتها حكومات الوفاق ترد كل الرد امام محكمة التاريخ ما يقال من ان المانيا ارادت الحرب واوقدت شعلتها فقد كانت روسيا مسببة الحريق وشد يكتاها في عملها فرنسا وانكلترا . اوقدت روسيا نار الحرب لانها طامعة في ان يكون لها السلطان الاكبر في الشرق بعد ان تراجع امرها بعد هزيمتها مع اليابان وعزمها على التغلب على كل مقاومة تبدو من دول اوربا الوسطى اما فرنسا فانها اندفعت في هذا السبيل بما كان يغلي في صدرها من مراجل الحقد والاخذ بالثأر من الالمان ممزوجاً بالخوف منهم وذلك ما دعاها لان تحالف كل امة تعادي المانيا اما انكلترا فان الحسد الذي فطر عليه تجارها الذين لا يحبون ان يروا لهم منافساً جديداً وما عرف عن هذه الدولة الانكليزية من الظهور بمظهر العداء امام كل دولة قوية في التجارة الاوربية وما اشتهر في تقاليدها من ان الواجب عليها ان تضرب على ايدي كل امة تريد ان تتوسع في بحر يتهاهو الذي ادي الى ما ادى

ولما ارادت المانيا اختراق حدود البلجيك ابت هذه عليها ذلك وشهرت عليها الحرب وارسلت انكلترا في الحال الى بلجيكا عدداً من جنودها ورجالها واعلنت كل من ايطاليا والعثمانية حيادهما الا انهما اعلنا النفير العام فباتت اوربا وقد انقطعت مواصلاتها البرية والبحرية كأنها كلها ثكنة كبرى تتدفق بالجنود والاسلحة وقد قدروا عدد الجنود المتحاربة بنحو خمسة عشر مليوناً .

وفي يوم ٦ آب اغلقت انكلترا مضيقي بادوكالة وجبل طارق كما كانت العثمانية امرت باغلاق مضيقي البوسفور والدردنيل وحدثت اول حرب عظيمة بين الاساطيل الالمانية والروسية في البحر البلطيكي فكان الفوز في جانب الاسطول الالماني الذي اغرق بقنابله طراداً روسياً واحتل جزر الاند التابعة لحكومة فنلندا الروسية وعددها ثلاثمائة جزيرة .

واحتل النمساويون ساباك على الشاطئ الايمن من الساف و بلغراد عاصمة الصرب و يساروفجة وسمندر وصيوط من اعمال الصرب واحتلت الخيالة المجرية اوشتيزا وتقدم الجيش الالماني تقدماً سريعاً في الحدود الافرنسية واحتل جميع المراكز الحربية ودخلت العساكر الالمانية حدود روسيا وهدمت المراكز العسكرية وهاجمت الخيالة الالمانية طلائع الجيوش الفرنسوية واحتلت المانيا جزر

الاتلانتيك كافة ومنها جزر ايزلاندا وفي ٨ آب اعلنت اسوج ونروج والدانيمرك حيادها رسمياً كما ان اليونان والبلغار ورومانيا وسويسرا دعت جيوشها الى حمل السلاح وفي ٩ آب احتلت الجيوش الالمانية مدينتي ليج و بروكسل بعد معركة شـديدة واحتل الالمان عدة استحكامات روسية وحدثت معركة بحرية بين قسم من الاسطول الالماني والاسطولين الفرنسوي والانكليزي اسفرت عن غرق ست قطع المانية وثلاث قطع افرنسية وقطعتين انكليزيتين واخرج الجيش الالماني الروس الذين كانوا اجتـازوا الحدود الالمانية واباد ثلاثة الايات من خيالتهم بالقرب من سولدو كما اهلك فرقة عن بكرة ابيها بجوار ايدستر بورج واستولى الالمان على كازايستوكوفا وكاليسـز وفيلون وكيسارني و بلاداً اخرى على الحدود الروسية وسقطت مدينة ليج في ايدي الالمان بعد اطلاق القنابل عليها ٣٦ ساعة وفي ٩ آب اعلن مستشار الامبراطورية الالمانية بان احتلال الجيش الالماني لمقاطعة بولونيا الروسية قد احدث سروراً عظيماً في جميع انحاء المانيا وان الحكومة الالمانية ستمنح هذه المقاطعة استقلالاً وتضـم اليها بولونيا الالمانية و بولونيا النمسوية و بذلك يـتم تأليف دولة بولونية مستقلة وفي ١٢ آب ابتاعت الحكومة العثمانية من المانيا السوبر دردنوط غوبن والمدرعة برسلو الالمانيتين بار بعين مليون مارك فسمت الاولى ياوز سلطان سليم والثانية مدللي وذلك لتستعيض عن الدارعتين رشادية والسلطان عثمان اللتين اصطنعتهما العثمانية في معامل انكلترا فضبطتهما هذه اوائل الحرب بينا هي على عزم تسليمهما وفي ١٣ منه شـهرت فرنسا الحرب على النمسا وحصر الاسطول النمساوي جميع سواحل الجبل الاسود بعد ان كان ضرب انتيفاري مرفأ الجبل ودمرها وشهر الجبل الاسود الحرب على المانيا . وانتصر الجيش الالماني في موهوز ولاغارد على الجيوش الفرنسوية بعد معركة دموية هائلة .

وهكذا كان النصر حليف المانيا في معظم الوقائع التي جرت بينها و بين خصيماتهـا والحرب سجال حتى استولت على انفرس ولوفان و بروكسل وليج ونامور وهاتان الاخيرتان من اعظم حصون العالم وذلك على ماثبت بواسـطة المدفع الذي اخترعته وكان مكتوماً سره من كل احد حتى ظهر بظهور الحرب الاخيرة وقطره من عيار ٤٢ سنتمتراً وهو يدك الحصون مهما عظمت ولم طريقة في نقـله الى الاباعد تدل على تفنن الالمان في الحرب تفننهم في ضروب العلم والصناعات .

اما الروس فقد ضربوا جزءاً من بروسيا الشرقية ولكنهم ردوا عنها مرات واستولوا

على بعض غاليسيا من النمسا ولا سيما عاصمتها لمبرج وتوغلوا في جبال الكاربات ورجعت النمسا عن البلاد التي احتلتها من الصرب لحكمة مجهولة ولما استصفت المانيا معظم بلاد البلجيك تقدمت في الاراضي الافرنسية من الشمال والشمال الشرقي فذعر الفرنسيس لانهم رأوا طلائع فرسان الالمان على بعد ثلاثين كيلومتراً من باريز فنقلوا عاصمتهم الى بوردو في الجنوب الغربي مخافة ان يستولي عدوهم على العاصمة فتضعف شوكتهم و يختل امرهم وقد ساعدت انكلترا بجندها فارسلت بعض كتائبها الى البلجيك والبعض الآخر الى فرنسا تقاتل مع حليفتها فرنسا كتفاً الى كتف والتقى الاسطول الالماني بالاسطول الانكليزي في بحر الشمال مرة وفي بحر الشيلي مرة اخرى فكانت الحرب سجالاً فقد من الجانبين مدرعات وطرادات واستولت اليابان حليفة انكلترا على المستعمرة الالمانية في الشرق الاقصى كما ان جنود الاتفاق الثلاثي استولت على المستعمرات الالمانية في افريقية . وهكذا كانت الوقائع تجري بين الاتفاق والائتلاف الثلاثي الذي اصبح رباعياً باعلان ايطاليا الحرب على النمسا و بين الاتحاد الثلاثي والنصر اكثره في جانب الالمان الذين ادهشوا العالم حتى اعترف لهم خصومهم ايضاً بتفوق جيوشهم على جميع الجيوش وثبت ان جيشهم اعظم جيش في الارض وان سلاحهم امضى سلاح وان قوادهم لامثيل لهم بين ابطال القرون الماضية وكاد لا يكون لهم قرين بين ابطال القرون الحديثة .

***

نادت الحكومة العثمانية بالنفير العام منذ اعلنت اوربا الحرب العامة واخذت بتنظيم فيالقها واعلنت الاحكام العرفية في السلطنة على النحو الذي جرت عليه دول اوربا المتمدنة وفي ١٩ تشرين الاول غربي ١٩١٤ صدرت الارادة السنية السلطانية بالغاء الامتيازات الاجنبية وفي يوم ٢٩ منه هاجم الاسطول الروسي جزءاً من الاسطول العثماني في البحر الاسود بينما كان يقوم بعمر ينات فغرقت الروس سفينة لوضع الالغام وسفينة نسافة وفي ٣٠ منه طارد الاسطول العثماني الاسطول الروسي فضرب سڤاستابول ونوفوروسيسك من الموانىء الروسية وعندها غادر سفراء روسيا وفرنسا وانكلترا عاصمة السلطنة العثمانية واعلنت الحرب فدخلت الدولة مع حليفتيها المانيا والنمسا والمجر وفي ٢ تشرين الثاني هاجم الروس الجند العثماني المرابط على حدود القافقاس فاعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية يوم ٢ تشرين الثاني وفرنسا على العثمانية يوم ٥ تشرين

الثاني وانكلترا على العثمانية يوم ٥ تشرين الثاني والبلجيك على العثمانية يوم ٧ تشرين الثاني والصرب على العثمانية يوم ٧ تشرين الثاني و يوم ١٢ تشرين الثاني صدرت الارادة السنية قائلة بان المملكة العثمانية دخلت في الحرب ضد انكلترا وفرنسا وروسيا وفي ١٤ منه دعا الخليفة الاعظم العالم الاسلامي الى الجهاد ضد دول الائتلاف لان الانكليز والفرنسيس والروس اخذوا باساطيلهم وجيوشهم يحاصرون دار السلطنة يريدون الاستيلاء عليها . وهذا الحلم اي الاستيلاء على الاستانة حلم قديم تحلمه روسيا وان كان مخالفاً لرغائب انكلترا ولكن اتفاقها معها ومع فرنسا هذه المرة ضد المانيا والنمسا قد دعاها الى الرضا بذلك حتى يفتح المضيقان البوسفور والدردنيل لاساطيل دول الاتفاق فتتخذ عامة الاسباب للقضاء على المانيا والنمسا والمجر

رأت العثمانية مصلحتها بالتحالف مع المانيا اذ ايقنت (١) ان لاحياة لها الا بالحرب فوفقت الى عقد المحالفة المطلوبة بفضل حسن نية الطرفين واشتراك مصالحهما لأن انكلترا جاهرت بانها تريد ان تكون العراق مسرحاً خاصاً لمتاجرها وملكاً مستقبلاً لامتها وساستهم طالما جهروا بان انكلترا لاترى بعين الرضا وجود دولة الخلافة قوية تشرئب اليها اعناق المسلمين وتعلق بها آمالهم بل تريد ان تقضي على آمال رعاياها وتدخل اليأس على قلوبهم حتى يبقوا عبيداً ارقاء لا امل لهم في حياة مستقلة . وروسيا كثيراً ما ضربت على احداوتار المسألة الشرقية فحركت المسألة الارمنية واخذت تبث رسلها في البلاد العثمانية تثير كوامن التعصب مثل اثارة الأكراد على الارمن وبالعكس . وفرنسا ظهرت نياتها مع الدولة العلية ولاسيما في سورية اذ كانت المعاهدة السرية المعقودة بين الائتلافيين تقضي على العثمانية باعطاء الاستانة لروسيا وان تترك العراق لانكلترا وتقسم البلاد السورية بين فرنسا وانكلترا

ولكن حسن التدبير اذا اقترن بحسن التوفيق فعل اكثر من كثرة العدد فان الانتصارات كانت خلال السنتين الاولى والثانية حليفة لنا ولحلفائنا وذلك لاننا اذا القينا على ختام عام ١٩١٤ نظراً دقيقاً وسبرنا غور حوادثه يتجلى امامنا ان ماغبر كان من كل الوجوه مناسباً لموقف المانيا وحلفائها ومساعداً لهم . ففي الساحة الغربية افضى فوز الجيوش الالمانية السريع الى ايجاد حرب المتاريس والحصون وامتدت هذه

(١) راجع خطاب القائد العام احمد جمال باشا ناظر البحرية في النادي الشرقي بدمشق مساء ١٢ صفر ١٣٣٣ و٢٨ كانون الثاني ١٩١٥

245

الحرب من البحر الشمالي حتى تخوم جمهور يةسو يسرا وما برحت الآن تثبت وتستمر شديدة

وقد حاول الفرنسو يون والانكليز والبلجيكيون عند حلول عام ١٩١٥ ان يخترقوا خطوط الالمان حتى ينهوا امد هذه الحرب التي صح القول بانها حرب قلاع وحصون ابدية القرار و بذل اعداؤنا هذه المساعي في اقليم فلاندر وارتواز (في الجنوب الغربي من ليل) وفي شمبانيا وما بين نهري الموز والموزل وحتى الآن مابرح هؤلاء يندحرون دون ان يصيبوا مغنماً امام بسالة الالمان

وكان العدو في خلال اشهر عديدة استطاع ان يعزز مواقفه وان يأتي اليها بجنود كثيرة العدد والعدد وان يزيد حصونه قوة . كل ذلك استعداداً لهجوم على الالمان ولكنه لم يصب مغنماً لان جيش ولي العهد الالماني قد تقوى عَلَى العدو في ساحة شمبانيا واحرز سلسلة باهرة من الانتصارات وعجز الفرنسو يون رغم تكاثف قوامهم عن حفظ بعض كيلو مترات احتلوها من الاراضي الالمانية في الفوسج . و يقال على وجه الاجمال ان الساحة الالمانية في الغرب بقيت دون ان يطرأ عليهـا تبدل في عام ١٩١٥ وظلت اراضي العدو التي افتتحتها جنود حلفائنا الظافرة عند هجومها الاول منيعة لا تؤخذ وفوق ذلك فانها عززت حتى صارت في حالة لا يقوى العدو معها على ان يصيبها باذى

اما الحوادث في الساحة الشـرقية فانها اوسع نطاقاً . وكان الروس في ختام عام ١٩١٤ قد اغاروا بقوام الجرارة على ولايات بروسيا الشرقية حتى ان جنودهم اطلت على بوزن فانتهت حركاتهم باندحارهم وعقيب ذلك اصبحت الحروب حروب متاريس في بولونيا الروسية وفي القرب من خط الفيستول ونار يف و بوهر وفي القسم الشرقي من بروسيا الشرقية وفي غاليسيا الغربية والبست لباساً مماثلاً للسـاحة الغربية ورجع الروس الى قلب مراكزهم محاولين التقدم عَلَى الجناحين غير ان هذه المحاولة ما لبثت ان تحطمت امام مقاومة الجيوش النمسوية الالمانية في الكار بات وسقوط قلعة برزميشل وفي خلال ذلك كانت انتصارات جيش هندنبورغ في الشرق من بحيرة مازور يان من الاسباب التي افضت الى انقـاذ بروسيا الشرقية بصورة نهائية والحقيقة ان الاحتلال الروسي في تلك الار باض والاصقاع كان فصل انتقام شديد الهول . لكن الروس عوقبوا عليه باجتياح الالمانيين لولايات البلطيك الروسية

وعند بزوغ شمس ايار كان اختراق الخطوط الروسية على دبانتز وفي غاليسيا الغربية مقدمة لتقدم هجوم الدول الوسطى في السـاحة الشرقية ذلك الهجوم الذي كله فوز

ونجاح . وتطهرت بيكوفينا واعالي الكار بات وسفوحه و بقاع غالبسيا ولم يبق هنالك عدو بل اكره هذا على ان يخلي خطوط الفستول -- نارف — بوهن المحصنة واجلي عن فارسوفيا عاصمة بولونيا وكذلك اضاع الخط الثاني من خطوط دفاعه في الغرب مع قلاع برست ليتوسك وغرودنو و كوفنو واجبرت مطاردة الجيوش النمسوية والالمانية الظافرة العدو على الالتجاء الى الداخلية متخلياً للغالبين عن كل منطقة الدفاع الغربية مع الحصنين العظيمين ليزك ور بنيو في ايالة ولهينا

ولما عين القيصر قائداً عاماً للجيوش الروسية بدلاً من الغراندوق نقولا تذرع الروس بهجوم احدثوه في نقاط متعددة من شرق و يلنا و بصورة خصوصية في ايالة و بلهينا فبقيت مساعيهم المدخرة لدحر جيوش الدول الوسطى بلا طائل و بالعكس فان هؤلاء قد ظلوا محتلين للمراكز التي اخذوها من العدو والتي تمتد من تخوم رومانيا حتى مسزرنوفيتزا وتضم اليها ابسبايلا مع قناة اوزنسكي ومسرفتش ونيامن وفيليا مع البحيرات الواقعة في الجنوب من دونابورغ — ديتا حتى خليج ر يغا واصبح الجنود في مراكزهم التي توفرت فيها كل الاستعدادات لهجوم بثار في البرد القارص يستطيعون به ان يضعوا امام هجمات الروس العنيفة سداً حائلاً يرجعهم القهقرى اذلاء صاغرين حتى ينسلخ فصل الشتاء فيعود هؤلاء الجنود الى استعادة هجومهم المكلل بالفوز . وقد حولت الدولة العثمانية وجهتها في عام ١٩١٥ الى النظر في معارك شبه جزيرة كليبولي التي كان يحتلها الجنود الاتفاقيون بقصد اخضاع الدردنيل والوصول الى العاصمة العثمانية فلم تثمر هجماتهم ومحاولاتهم على الرغم من كثافة قواهم وكثرة معداتهم وعظمة اساطيلهم وكل ماقاموا به من المهاجمات أبطل امام شدة الجيش العثماني وصلابته ورأينا الانكليز في نواديهم يجهرون بهذه الخسائر التي المت بهم في انافرطه واري بروني وسد البحر رأيناهم ينتقدون انفسهم واخيراً رأيناهم ينزحون عن مرابع الدردنيل فكانت هذه الكسرة ضربة قاضية على ما للاتفاق من النفوذ الممتد في بلاد المحايدين وتلاشت كل سلطة ونفوذ لهم في بلاد المسلمين. اما في القفقاس فلم يحدث في عام ١٩١٥ حادث خاص فقد حصر العثمانيون اهتمامهم في الدفاع عن مناطق الحدود ضد اغارة يقوم بها الروس و بعكس ذلك فقد كان للساحة العثمانية الثالثة وهي الساحة العراقية شأن خاص وقد قامت الجيوش العثمانية هنالك باعمال خارقة في تاريخ الحرب الحاضرة فالانكليز بعد ان اصبحت الدولة العلية في عداد المتحاربين قد ابحروا بجنودهم الى الخليج الفارسي

246

فاستولوا على البصرة وامتدت سلطتهم حتى اتصلت بدجلة وكادت تشرف على بغداد ومع ذلك فهذه الاعمال ظلت عقيمة لافائدة عسكرية منها للانكليز وكان هؤلاء يعلقون املاً سياسياً يتوصلون اليه لدى قبائل العرب

وقد تقدم هجومهم في عام ٩١٥ وكادوا يحدقون ببغداد ولكن العثمانيين الذين تلقوا نجدات مهمة ردوهم على اعقابهم وطردوهم من كوت الامارة طردعزيز مقتدر كما اوقعوا بهم في سلمان باك ضروب التقهقر والفشل واتسعت مناطق الحرب امام نهر دجلة وكانت الحوادث العسكرية التي تجري هنالك سلسلة انتصارات كللت مفارق الجيوش العثمانية باكاليل الظفر

اما حوادث الساحة العثمانية الرابعة ونريد بها قناة السويس فلم يحدث في عام ١٩١٥ فيها مايدعو الى الذكر غير كشف تعرضي بسيط ومع ذلك فيمكن القول ان في الزوايا خبايا يرتاع لها الانكليز ومن مقدماتها وقعة القاطية الاخيرة

ولننظر الآن في ساحة الحرب الايطالية التي خضبتها ايطاليا بالنجيع الاحمر ففي ٢٣ ايار سنة ١٩١٥ اعلنت ايطاليا الحرب على النمسا وفي ٨ حزيران حدثت المعارك الاولى امام ايزنزو واكتست هـذه الحوادث في تلك السنة لباساً خطراً وعقب ذلك قيام العدو بهجوم شديد على جبهة حليفتنا وفي ذات الوقت كانت المعارك الصغيرة التي لاشأن لها تجري في ساحة التيرول وكارنتي وقصارى القول فان العدو مع توفر استعداده لم يبلغ من النمسو بين منالاً وظلت اعماله مجدبة لاثمرة منها وكان من جيوش النمسا والمجر ان تقدمت كثيراً في تلك الاصقاع وتوشك ونحن نكتب هذا ان تطل على ارض البندقية من عمل ايطاليا وتقسم الجيش الايطالي شطرين

وعند نهاية عام ١٩١٥ اصبح للساحة البلقانية مركز عظيم وقد كان المقصد منها بادئ بدء ازال العقاب بصربيا التي سببت هذا الحريق العالمي ثم الاتصال بالقسطنطينية واعادة الاملاك المقدونية المفقودة الى بلغاريا التي خسرتها فتم كل حادث في مدة عشرة اسابيع . ففي اليوم السادس من شهر تشرين الاول شرعت في الهجوم على صربيا بالاستيلاء على الساف والطونه وفي اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور دخلت الجيوش البلغارية الى اراضي مقدونيه الصربية واسترجعتها قوة واقتداراً وتطهرت صربيا واقطاع الجبل الاسود الشمالية من آثار العدو ودحر البلغار يون الفرنسيس والانكليز من وادي الوردار حتى اضطر هؤلاء الى الاعتصام بسلانيك وفتحت طريق السكة الحديدية بين برلين والاستانة وكانت مسدودة من قبل

ومن الكوائن دخول البرتغال في الحرب مع الاتفاقيين نجدة لهم في العهد الاخير واهم الوقائع الاخيرة التي كتب النصر فيها لاعلامنا سقوط كوت الامارة في العراق بايدي الجيش العثماني وقد اسرنا من الانكليز ١٣٨٥٦ رجلاً منهم خمسة قواد و٢٧٧ ضابطاً انكليزياً و٢٧٤ ضابطاً هندياً و١٣٣٠٠ جندي ووقوع معركة بحرية هائلة حدثت بين الاسطول الالماني والاسطول الانكليزي في ضواحي مضيق اسكاجراك في بحر الشمال كان الفوز فيها للانكليز وذلك في ٣١ ايار سنة ١٩١٦ فغرق للانكليز عدة دربدنوطات وطرادات ونسافات عظيمة بلغت ست عشرة قطعة وغرق فيها سبعة آلاف انكليزي ولم يغرق للالمان سوى طرادة وبعض نسافات وشفع هذه الوقعة البحرية الكبرى التي نزلت على انكلترا كالصاعقة غرق اللورد كتشنر ناظر الحربية الانكليزية مع اركان حربه بينا كان ذاهباً من انكلترا على سفينة حربية قاصداً الى روسيا في البحر الشمالي · ومما ساعد الالمان على الابلاغ في نكاية الاتفاقيين في البحر اختراعهم غواصات غريبة كانت تطوف بحار العدو وتوقع باساطيله البلاء والرهبة وطيارات الالمان التي فعلت في البر مع اعدائنا افعالاً تذكر فتشكر · وقد استولت المانيا حتى الآن على بلاد البلجيك الا قليلاً وعلى بضع ولايات من شمالي فرنسا وعلى بولونيا الروسية وكثير من الولايات الروسية المتاخمة لها بحيث بلغت مساحة ما استولت عليه حتى الآن نحو ٤٥٠ الف كيلو متر مربع لا يقل سكانها عن ٣٠ مليوناً واستولت النمسا على الصرب وعلى جزء من البانيا الشمالية وارجعت النمسا الروسيين عن بلادها اما حالة الحرب العامة عند كتابة هذه الرسالة فشتدة في جميع الساحات ولا سيما في الساحات الاوربية بين النمسا وايطاليا وبين النمسا وروسيا وبين المانيا وفرنسا وانكلترا ولكن النصر حليف الحلفاء وربما لا ينتهي هذا الصيف الا وقد حدث تبدل كبير في حالة الحرب العامة

وفي ٢٣ ايلول ١٩١٥ اعلنت بلغاريا النفير العام وعادت رومانيا واليونان فاعلنتا حيادهما وفي شهر تشرين الاول من تلك السنة قطعت بلغاريا صلاتها مع دول الاتفاق ودخلت مع دول التحالف اي مع العثمانية والمانيا والنمسا والمجر فهاجمت بجيوشها العساكر الصربية من الشرق كما هاجمتها العساكر الالمانية والنمساوية من الشمال وقضي على الصرب فاستولت بلغاريا على مقدونية القديمة كما استولت النمسا على البلاد الشمالية المتاخمة واخذت اراضي الجبل الاسود الذي تفرق شمل حكومته كما تفرق شمل البلجيك والصرب نسأل الله حقن الدماء ورفع البلاء ·

آلام وآمال

« نظمت في مبتدأ سنة ١٩١٥ م »

اري سنة تمضي وعاماً بنا يجري يضيق من آجالنا فسحة العمر
وردنا على هـذا الوجود أجنةً تسير بنا الايام في السهل والوعر
فيوم على صـفو نؤمل عوده وآخر في البأسـاء عد من الهدر
لنا أمل في كل عام مجـدد نرجي به صفو الحياة وما ندري
ولولا امـاني الفتى ورجاؤه لأيقن ان العيش ضرب من الاسر
مضى عامنا الأدنى بذنب فعله يجيء الذي يتلو المغادر بالعـذر
سلكنا به ظلماء حالكة الدجى فلما انقضى حانت لنا رقبة الفجر
الا ايها العام الذي كان مَنُّه على الكون شؤبوباً من الدم لا القطر
تحجب فيه الغيث حتى اذا انجلي لنا الامر كان الغيث من دمنا يجري
افاض علينا في النعيم ابتداؤه وجادت بني الغبراء عقباه بالشر
لقد هاجني من جانب الشرق صائح ينوح و باك حيث مستـقر البدر
وذو صخب خوف الردى في شمالها يردد انات الجنوب من الذعر
تورد وجـه البحر حتى حسبته من الجثث الملقـاة ملتهب الجمـر
وشاب قذال الافق من رهج الوغى واقفر رحب الـبر من زمر البر
فلا الارض بالارض التي تعهدونها ولا البحر بحر المد والجزر بالبحر
تغير شكل الارض في بعض حقبة واسلمت الاهلون للشر في شهر
وكنا نرجي السلم لولا مطـامع من البعض ادت للضغينة والهجر
كوامن احقـاد أثيرت فهيجت نفوساً لتطلاب القديم من الثأر
فغودرت الاقطار بعد ازدهارها خرائب والبلدان اوحش من قفر
فيا ايها الحول الذي هلَّ شهره بعل منا النفس بالصفو والبشر
لعلك حول الحول والقوة التي تطأمن من كبر العتاة ذوي الكبر
تعزز مهضوماً وتجلو غضاضة وتمحو عن الاقوام سطراً من الضر

تسكن روع الخائفين فيزدهي — بك الوجل المذعور مبتهج الصدر
يحيى بك العلم الملمّ باهله — واسفاره خوفُ المذلة والفقر
ينال بك العلياء من يستحقها — وتشرق شمس السلم باسمة الثغر
هنالك يحلولي البراع فأختلي — بقيثارتي ألهو ببيت من الشعر
ارجّع الحان السواجع شادياً — تحن اليّ الشاديات من الطير
سيسكن جأش الكون بعد اضطرابه — و يرفل بالنعماء حيناً من الدهر

دمشق «خير الدين الزركلي»

في ديار الغرب (١)

«حياتنا والحياة الاوربية (٢)»

سادتي الاعزة : تقاضاني بعض الاحباب ديناً لم ار بداً من قضائه على حين اشتداد الازمة بل الازمات في بلادنا . ارادوني ان احاضركم بشيءٍ مما جنيته في هذه الرحلة الثانية الى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعني الا اجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وان كان البحث في نهوض القوم او في فرع من فروع ارتقائهم يحتاج الى درس عميق وبحث دقيق ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله فاذا اتيتكم بامور تعرفونها او اكثرها فذاك لاني احببت المبادرة الى امتثال الامر مع علمي باني لا آتي بجديد على انه لاجديد تحت الشمس !

كانت السياحة في سالف الازمان ضرباً من شاق الاعمال ولكنها اصبحت في هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة اليها اكثر من غيرهم و يدخل في الخاصة ارباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل بهدي قديمه ولم يهتد الى وجه الصواب في حديثه

---

(١) تتمة رحلتنا الى الغرب الواردة في الاجزاء الخمسة الاولى من المجلد الثامن

(٢) محاضرة لنا القيناها في الاستانة يوم ٢٤ ربيع الاول ١٣٣٢ و ٢٠ شباط ١٩١٤

كان اجدادنا يطوون الاميال والفراسخ اياماً وشهوراً لينتقلوا من قطر الى آخر ونحن اليوم نسيح من شرق الارض الى غربها في ايام يسيرة ونقطع بضعة الوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا ترى السائحين منا الى الآن اقل من السائحين في العصور الماضية هذا اذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر اسباب الراحة في عصرنا وفقدانها في اعصار اجدادنا ايام كان يقول ابن زريق البغدادي وقد رحل من بغداد الى الاندلس

ما آب من سفر الا وازعجه رأي الى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه

اننا اذا رحلنا اليوم الى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها ونقوي حواسنا بعد انثلام حدها وندخل في طور نتعلم فيه ونعتبر ونتعود عادات حسن اكثرها وجدير بنا ان نقتبسها عمن سبقونا مراحل واشواطاً لانها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل فكل ماتراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت واجيال علمت فعملت :

واحب آفاق البلاد الى الفتى ارض ينال بها كريم المطلب

تكثر الخواطر على السائح منا في ربوع ام الحضارة الحديثة فلا يلبث ان يذكر بلاده ويقابل بين حالها ومايشاهده هناك من السير نحو الكمال بخطامير يعة في حين يرى امته تسير سير السلاحف

ان القباع سار سيراً نكراً يسير يوماً ويقيم شهراً

نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء ونحن مازلنا نسير بسير الجمال والبغال والحمير وشتان بين نظام السيرين

مر اين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقاً واحداً في الاستمتاع بنعم الجمال والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازاً في امور تنفرد بها ولا فرق في اصل المادة بين الشرق والغرب : سهول واودية وجبال وانهار وبحيرات وبحار ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر اذاً في السكان لا في المكان

سحت هذه المرة في ايطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها الا قليلاً متشابهة في راحتها ونعيمها وعمرانها وعلمها وآدابها وصناعاتها : الناس كلهم يتفننون فيما يعلمون ويسيرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ما هذه الروح التي تجرد

منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب واعصابه وشرايينه فاتى اهله بالعظائم ونحن بقينا خامدين مبهوتين منحلين متضائلين

لا تغبط المجدب في علمه وان رأيت الخصب في حاله
ان الذي ضيع من نفسه فوق الذي ثمر من ماله

مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها لان اهلها احسنوا الانتفاع من كل قوة في الوجود ونحن اضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع هذا شأنهم في كل شيء فكأن الغرب حلف ان لايحالف الشرق والشرق آلى ان يخالف الغرب على كثرة حاجته اليه واضطراره الى الاخذ عنه

رأيت اولاداً وبنات دون العاشرة يسيحون في الغرب من قطر الى آخر وحدهم بدون ادنى رهبة وارتباك ولم اشهد كثيراً من رجالنا يستطيعون السياحة في اوربا واميركا على مايجب وبهذا تعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بان صبيانهم اقوى من رجالنا وفتياتهم اعقل من نسائنا فاذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم اطول واجزل

اننا في درس المدنية الغربية نأخذ ماتهيأ لنا وتمثل لانظارنا بادئ الرأي ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا ان نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنهم فما بالك بالمملكة او الممالك . ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقي الغرب وكلما تأملنا معاهده وحللنا مادة قواه نبكي لضعفنا وقوتهم وجهلنا وعلمهم ونكاد ندخل في اليأس المميت من تحسين حالنا لولا ان اليأس محرم وان التاريخ يحدثنا ان اممًا كانت احط منا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنيها على انهاضها والامم لاتموت الا اذا اسلمها بنوها العارفون للموت

مواد هذه المدنية التي تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن اهمها تقدم الغربيين في بيوتهم عنا ورقي الاسرة هنالك وانحطاطها هنا والمملكة التي تتألف من بيوت راقية هي التي تحرز شوطاً أبعد من غيرها وما الممالك الراقية الا مجموعة بيوت راقية والكليات تتألف من الجزئيات ومن تماسكت اجزاء مادته كانت اسبابه اقرب الى القوة بالطبيعة

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصراً في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفندق والمسرح والقهوة والاماكن

العامة يسجل في مذكرته امثـلة لا يكاد يحصيها من رقي الاسرة الاوربية تجسمت في جميع حالاتهم اي تجسيم وحامل المسك لايخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب في مطاويها حسنات وسيئات ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التي بزت الفضائل والرذيلة التي تربو على مجموع الرذائل ولكن المليح يغطي وجه القبيح فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء في كل شيء والجمع بين المتناقضات اما الشرق فهو وسط او دون الوسط والوسط والدون لا يكادان يعملان عملاً محموداً في هذا الوجود

اذكر لكم امثلة ثلاثة من عشرات من الامثلة وقعت العين عليها في باب ارتقـاء الأسرة الغربية تمثل ادوار الاعمار وادوار البيوت . المثال الاول أسـرة فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من اهـل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطب احد اولادها ونزلت في المنزل الذي اقمت فيه فلاحظت امرها مدة اربعة اسابيع انظر عناية الابوين بتربية اولادهما فكان الوالد يوقظ اولاده في الساعة السادسة ونصف ويأخذ في الباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الابنتين وتمشطهما فاذا تناولوا طعـام الصباح يرافق الثلاثـة من اولاده الى المدرسة لانه وضعهم في المكتب مع ان مدة مقامه في تلك المدينة لا تتجاوز شهرين ثم يعود الى الدار ويحمل ابنه الى الطبيب ويعود به بعد سـاعتين فيجيء الاولاد في وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية الى المدرسة وربمـا عاد اليهم في المساء ليستصحبهم او اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة . عناية فائقة من هذين الوالدين اللذين لا يعرفان غـير تعهد صحة اولادهما وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين

هذه الاسرة من أسر الارياف او الفلاحين من اهل الطبقة المتوسطة التي تكون على شيء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما باولادهما وقلت لهما ان الاسرة الفرنسوية لو كانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحنان الفتان لاستحت فرنسا ان تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية في بعض عواصمها ولهذه الاسرة مئات الالوف من الامثلة ومثل ذلك يقال في جميع ديار الغرب

والمثال الثاني الذي رأيته يمثل درجة اخرى من درجات الأسرة رأيته في ايطاليا في قصر من اعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد واعني به منزل

صديقي الامير ليوني كايتاني الذي صرفت اياماً في الاشتغال في مكتبته ابحث عن تاريخ بلادي واجدادي فان هذا الرجل الشريف في امته الغني بعلمه وماله لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه ارسله الى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذه الشفقة عليه وآثر ان لا يراه وان يربى تربية راقية صحية على ان يكون في داره القوراء بين والديه واهله وقبيله

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فان العلامة غولدصهير شيخ المشرقيات في هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلما زوجه اخرجه من بيته على عادة الافرنج في اخراج اولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا اسرة برأسهم و يعيشوا مستقلين عن ابويهم فلا يقع نفور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده والراحة في الاستقلال في كل شيء

هذه امثلة ثلاثة من اطوار الاسرة الاوربية تمثل اطوار تلك الامم اما تحليل اجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كيماوي كبير يحشر اليه علماء التربية من اجدادنا والمحدثين من اهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الاوربية النامية والعبرة بالكيفية لا بالكمية

دعاني الاستاذ غولدصهير لتناول طعام العشاء في بيته وقال لي انه سيكون معنا ابنه الاستاذ غولدصهير المهندس وكنته ولما قدمني اليهما قال لي : ان كنتي وهي تعرف خمس لغات فقط تكتب بها وتتكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية Egyptologue فقلت لها : بارك الله فيك ايتها العقيلة المحترمة : مجرية في مقتبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر بارزنا واهلها ارقى شعب اسلامي ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة احمد كمال بك وكيل المتحف المصري هذا الرجل الفرد في وادي النيل يتوفر على البحث في عاديات مصره على الاصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه مايعلم ليخلفه على الاقل في منصبه لانه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد في ثلاثة عشر مليون مصري من يقبل على تعلم ما افنى حياته في تحصيله وألف فيه ونوع الاساليب في نشره في الكتب والمحاضرات والمقالات . انا اعلم ايتها العقيلة النبيلة ان في اوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لي ببال ان ارى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال في علمهم وتساهمهم في فن

يحتاج الى نظر دقيق ومادة منوعة في العلم فان كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب اذا كان من رجالهم العجب العجاب

الى اليوم لم نفكر في هذا الشرق الاقرب في تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الاول الا بنهوض النصف الثاني فان كانت كنة غولد صهير استاذ تفسير القرآن والاصول والحديث والملل والنحل في جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية فكم عالمة بل عالم عندكم معاشر العرب بآثار البتراء و بعلبك وجرش وتدمر و بابل واشور وحمير والحيرة؟

انا مع الأسف على كثرة بحثي في تراجم الناس وايامهم لا اقدر ان آتيكم بواحد يكون على النمط الاوربي في بحثه ودرسه كما لا اجد في امتي المهندس الذي ار يده ولا الكيماوي ولا الطبيعي ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللائي شاركن الرجل في معظم حياته المادية والمعنوية في الغرب وعما قريب يشاركنه في الحياة السياسية ·

كل ماتعلمناه الى يوم الناس هذا وقلدنا فيه الامم الراقية لم يخرجنا من الظلمات الى النور فلم نبرح عيالاً على الغرب في معظم شؤوننا ومرافقنا وقيام امرنا فما دمنا نريد التحرير السياسي وليس لنا من اسباب التحرير العلمي قليل ولا كثير هيهات ان تقوم لنا قائمة ·

كيف نعمر بلادنا ونستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربي في حياته السعيدة وليس عندنا مصوّر ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيماوي ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من اعظم الويلات

لم نعمل حتى الآن احصاء بعدد الأميين في بلادنا ولكن المفهوم ان عدد الاميين هو ٩٥ في المئة في بلاد العرب في حين اصبح عدد المتعلمين في اكثر مدن الغرب مئة في المئة تساوى في الاخذ من العلم بالحظ اللازم النساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائي ارقى من المتعلم منا التعليم الراقي وكل شيء نسبي

قالت لي فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم في جامعة جنيف على احد مشاهير هذا العلم وهي عارفة ببضع لغات اوربية وقد سألتها عما تقصده من تعلم هذا العلم : اريد ان أُاسس مدرسة في بلدي لان الواجب على المرء ان يكون شيئاً في هذا الوجود · فقلت لها : جزاك الله عن هذا السعي لامتك خيراً ولكن نساءنا في الشرق لايردن ولا يريد اولياؤهن مثل ما تريدين اكتفين بان

يكن لا شيء في هذا العالم ولذلك لا تجد بين الوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والالمانيات والايطاليات والرومانيات والبلغاريات والصربيات واليونانيات والاسبانيات والبرتقاليات والبرازيليات والارجنتينيات طالبة عربية اللهم الا واحدة مصرية فيما اعلم تساهم بنات جنسها وتزاحمهن على دكات الجامعات في سويسرا وفرنسا وانكلترا والمانيا فتأملوا حال امتكم وانظروا الى اي درجة بلغ بين اظهركم انحطاط عقول بنات حواء

كلما نظرت مليًا في سعادة الحياة في الغرب وشقائها في هذا الشرق يتجلى لي سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وانها هي التي اوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحب والجمال والعواطف والرغبة في الكمالات تمت للبيت الغربي سعادته ومن سعد في بيته او توقع السعادة فيه كان حرياً بان يعمل الاعمال العظيمة خارجه اذ يجد له في منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء

رأيت كثيراً من شباننا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ماعندنا من الفتيات المتعلمات اللائي يلقن للزواج الذي تكون منه سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب العصرية والفضيلة والمعارف ولكنني لم ار شاباً من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من عني بتعليم اخته او ابنته التعليم الراقي ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادئ تنفعهن حقيقة في تأليف البيوت التي يرفرف عليها طير السعد والرغد . النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم نسلك طريقها ويا للأسف حتى الآن . اوربا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء ايقضى باترى على مدنيتك البديعة وتنجل بما حوت ديارك من جمال الوجوه وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل مابدأت به او يمزقه تمزيق الاخرق الاحمق كثروة ورثها ولم يعرف قيمتها ام تسلم لك هذه الحياة السعيدة ونقل مؤلماتها ومو بقاتها ويعم الشرق اثرها فيشاركك في كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد الراقية من ربوعك ويتحرر من اسره السياسي واسره الاقتصادي واسره العلمي ويتخلص من التبعية لك في كل مايدل على ضعفه وتراجع امره

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحمأة وطوراً بقليل ماء فهل نرزق التوفيق باترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته ام نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه .

ان مالدينا اليوم من اسباب القوة لا يقوم في وجه ذاك التيار لانها ضئيلة لا كفاء لها بالمقاومة ولعمري ان الف أُمي وأُمية لا يوازي عقلهم عقل متعلم او متعلمة واحدة ·

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضاً · وكلما كانت الافكار منصرفة الى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك المجتمعات تغتبط وتفرح ولطالما قال بعض من احسنت الامة ظنها بهم قروناً واستولوا على عقلها وقلبها وتصرفوا بعجرها وبجرها اذا قيل لهم ان العلم الفلاني مفيد ينبغي ان يكون في الامة افراد يعرفونه : ان هذا العلم لا تنفع معرفته ولا يضر جهله

بيد ان الايام اثبتت اننا في اشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربي العثماني لا يقوم حق القيام الا متى عمد افرادنا الى الاخذ من كل مطلب من مطالب الحياة كما هي سنة من سبقونا ومن الاسف اننا لم نبرح في مجتمعنا نشاهد ناشئتنا الكريمة على الاغلب تميل الى المذاهب الانكالية واكثرها يؤثر التوظف في فروع الادارة والجندية ولو كانت هذه غير رابحة في الجملة

ان جعل وظائف الحكومة هدفاً لنا في تعلمنا هو الذي افقر هذه المملكة وجعلها في مؤخرة الممالك في عمرانها وثروتها وراحتها · والمال اساس الاعمال ولا يأتي به الا المتعلمون من الرجال

فهل لكم يا رجال الامة ان تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من اقبال المتعلمين من امثالكم على الوظائف والزهد في الصناعات الحرة واني لا اخجل اذا قلت ان صانع الخزف والفخار والقرميد انفع لهذه الامة من وزير متوسط القريحة ضعيف مادة العلم لا يحسن عمله وقد وصل الى منصبه بالمصانعة والشفاعات وان دباغ الجلود او صباغ الحرير والقطن اشرف من فقيه تعلم بعض فروع المعاملات ليتولى بعض الاعمال القضائية والشرعية

وبعد فرجائي اليكم يا شبان هذه الامة وبغيركم لا تجدد شبابها ان تجعلوا نصب اعينكم الاعمال الاستقلالية ويكفي بعضكم ان يتولى الاعمال الادارية وغيرها في المملكة فان الكل لا تتسع خزينة هذه الامة لاعاشته خصوصاً وانتم تعلمون ضائقة الموظفين وان جيوبهم في الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لانها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة اقبال وادبار والادبار في الاكثر هو الغالب

من لي بان يعمل كل واحد من شبان هذه الامة الواجب عليه اولاً و يتوفر على دراسة الفرع الذي يمتّ به فان سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي ان يعمل فيها ما يجب عمله في غيرها ومتى اتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه اذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب في المسائل العامة يجب ان تكون في سن الدراسة الى حد محدود و بعد ذلك فهو في حلّ من الاشتغال بما اراد

انا احب ان اشهد من ابناء امتي وقرة عينها رجالاً يفكرون في ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والاخذ بايدي اخوانهم اكثر مما احب ان اراهم يفكرون في المسائل الاجتماعية الكبرى التي يضيع بها الوقت على غير طائل بالنسبة اليهم وان كان الواجب على كل وطني ان يصرف من فكره ووقته شطراً ولو قليلاً للنظر في المسائل العمومية تلامذة الكليات في المانيا هم الذين هيأوا الوحدة الالمانية ووضعوا اساسها في القرن الماضي ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتي يوم على هذه الامة البائسة ياترى تشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد ان يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون في الخير العام لامتهم خصوصاً متى اتموا سني الدراسة واصبحوا احراراً في اعمالهم واراداتهم

نعم ايها الاخوان ان الشفيق بسوء ظن مولع وان مايتمثل للانظار من مدنية اوربا مهما كان ظاهره فيه الرحمة فرحمته لاهله لا لنا ونحن لا رحمة لنا الا اذا اتتنا على ايدي رجال لنا امثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام الا اذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الاساليب الغربية نعم نحن لا حياة لنا الا اذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووحدنا المقاصد في التربية والتعليم

ان القليل المتعلم منا لا يؤلف اقل امة صغيرة وهذه الزهرات التي اراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ما هناك من عوسج و بلان فلا سبيل الى وقايتها الا بتنقية هذا الشوك ما امكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة الغرب التي سلكها في الترقي على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الاقليم والعادة

ان ناديكم هذا مثال من امثلة التضامن ولكن امتنا لا تعد مرتقية الا متى كان في كل مدينة بل في كل قصبة من مدنها وقصباتها اندية تنسج على منواله في التعارف والتعاطف وتوقد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس الى طلب العلم و يأخذ القوي بيد الضعيف حتى يساويه في المنزلة و يتدبر الكل في مستقبل مجيد

للامة يخرج بها الى حالة احسن من حالتها الآن و يتعلم ابن الفلاح الصغير كما يتعلم ابن الغنى الكبير واذا لم تقم جميع اعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء

واجباتكم ايها الاعزة كثيرة جداً والاولى البداءه بالجزئيات ولكن على شرط ان نبدأ ونجعل تاريخ الامم التي نهضت قدوتنا وجهازنا على العمل يجب ان تكون مدنية الغرب اذا اردنا ان نحيا حياته مصدرنا وموردنا و بدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله او الاندماج في جسم الامم الغربية التي تبسط ايديها علينا اليوم بعد اليوم ·

اننا لا نحيا الا بقوميتنا على نحو ما كان اجدادنا امس وحال امم الحضارة الحديثة اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل – لفظ القومية — لا يطابق معناه مبناه الا باتحاد جميع اسبابه على نحو مايعمل المجر والبولونيون والايطاليون وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامنديين في البلجيك والالمانيين والفرنسويين في سويسرا

ومن دواعي الحسرة ان من رحلوا من ابناء العرب الى ديار الغرب يدرسون في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول اقل عدداً من اكثر عناصر هذ الدولة · نعم هم اقل من الاتراك والروم والارمن هذا مع اننا اكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة و بلادنا اغني من بلاد تلك العناصر التي اخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم ابنائها وقامت بسد العجز من اموالها الخاصة

بلغني ان في نية الحكومة السنية ارسال ستين طالباً من ابناء العرب الى مدارس اوربا العليا فان صح النبأ عد من اعظم الاصلاحات · وان كان هذا العدد دون الواجب ايضاً وذلك بأنا اذا خمنا عدد طلابنا الآن بستين طالباً بلغ من قابل مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الايرانيين في مدارس اوربا مع ان العرب العثمانيين اكثر سواداً من الايرانيين بالتحقيق ·

هذه عدتنا وهذا ما اعددناه هذه ادواؤنا وتلك ادويتنا و بايديكم وايدي امثالكم خلاصنا فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة · العبء ثقيل عليكم و بتضامنكم وتماسككم يهون كل عسير على شرط اطراد العمل واتقانه ومضاعفة الافعال اكثر من الاقوال وصرف المسعى الى المنتج النافع والزهد في التافه العبث والله يتولاكم ويسدد مراميكم و يقر عيون اوطانكم بنجاحكم و يجعل منكم اعضاء عاملة في جسم مجتمعنا واصواتاً داعية الى كل نافع ورافع انه سميع الدعاء اه

ارض يونان

اغتنمت فرصة ارساء الباخرة الرومانية التي ركبتها من الاستانة الى الاسكندرية في ميناء بيرا لازور آثينة مدينة ارسطو وسقراط والمسافة بين بيرا وآثينة تسعة كيلومترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية في خمس عشرة دقيقة . رأيت آثينة مدينة وسطى لاتزيد نفوسها عن مائتي الف وهي في منبسط من الارض وعلى مقربة منها اكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة في الجملة مبلطة ارصفتها بحجر ابيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وابنيتها الحديثة من الرخام ايضاً واهم مالفت نظري فيها معاهدها التي قامت بعطايا المحسنين من ابنائها مثل الستاد او الملعب العجيب الذي انشئ بمال افيروف ونصب تمثاله امامه وافيروف هو الذي خلف ملايين من الفرنكات اعطاها لامته ومنها انشأت قسماً من الدارعة «١» اليونانية المنسوبة لاسمه

ثم في آثينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية وخارجية انشأها ارساكي من ماله وترى مكتبة الامة اسسها فاليانوس وترى لافيروف حبوس النساء والاودولسينا المجمع العلمي ولسيكنروس حبوس الرجال وقد انشأ على نفقته من آثينة الى فاليرطريقاً معبدة وطولها ٩ كيلومترات . وانشأ فارفاكيس مدرسة عالية للاولاد وجاباس قصر المعرض وهو مؤسس مدرسة البنات العليا للروم في الاستانة

وهكذا تجد فلاناً من اغنياء اليونان انشأ مدرسة صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية وليلية للفتيان والفتيات فتجد اليوناني مع انه اكثر الامم هجرة لبلاده — لان نصف اليونان هاجروا الى مصر والسودان واميركا وشواطئ البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد — اكثرهم تعلقاً بحبها وتفكراً في انهاضها يغتني احدهم من مصر او من اميركا و يجود بالالوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وان كان المشهور عنهم كزازة الايدي

نهضت يونان في المدة الاخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف صنوفه بين ابنائها وهو الدواء الشافي لكل مرض اجتماعي . التعليم في يونان مجاني اجباري وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور منها ١١٩٧ من الدرجة الاولى و ١٣٤ من الصنف الثاني و ٢٩ من الصنف الثالث و ٥٤ من الصنف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة

«١» اخذ من مال افيروف ثلاثة ملايين فرنك ونصف والباقي وهو سبعة عشر مليوناً جمع من حسنات المتبرعين من اليونانيين

للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الاولى وفي القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والاناث على السواء وعندهم مدرسة عليا لتخريج المعلمات وقد انشأت جمعية آثينة الادبية عدة مدارس مسائية يتعلم فيها مئات من الفتيان المضطرين ان يعملوا في نهارهم وليس لهم من الوقت غير الليل

في يونان ١٨٧٨ استاذاً و ٦١٠ معلمات و ٧٦٨ معلماً في مدارس الاولاد في الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم الى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم و يخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الاولى والقسم الآخر يعلم الصناعات النفيسة اي النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية · وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها اساتذة اشتهروا باعمالهم العلمية حتى في اوربا

هذا مع ان لليونان في الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فان لهم في الاستانة وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلماً يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالباً دع مالهم في البلاد التي ضمت الى بلادهم حديثاً وكل المدارس التي هي خارج علمهم لا تنال شيئاً من الرواتب من الحكومة بل ان يونان هناك يقومون بنفقاتها

ربما لم تصب بلاد بمصائب الهجرة اكثر من اليونان فان الداخل منهم الى نيويورك وحدها كل سنة يقدر بار بعين الفاً فما بالك في الاقطار الاخرى فاذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك و يانيا التي انضمت اليهم نحو ثلاثة ملايين فان المقدّر ان مثل هذا العدد منهم موزع في اقطار العالم وهم يحافظون عليَ لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الاسكندرية ومصر والاستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغي بها

ومع كثرة المدارس في اليونان نرى طلبتهم في جامعات الغرب كثاراً جداً ولا سيما في باريز ولندن · واليونان ان لم يكونوا اكثر الامم اقبالاً على تلاوة الصحف والتشوق للاخبار السياسية فهم في جملة الامم المتقدمة في هذا الشأن فلا تكاد تجد واحداً لا يتلو جريدة او كتاباً او مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تروج جرائدهم كثيراً فان لهم في اثينة (١١) جريدة يومية واذ كان العدد الواحد ينتقل من يد الى اخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في ايدي قرائها الذين لا يحبون ان يشتركوا ولا ان يبتاعوها اقتصاداً بارداً منهم صعب على جرائدهم ان ترقى

ولليونان جرائد كثيرة في الاستانة والقاهرة والاسكندرية وجرائد اسبوعية في بعض عواصم اوربا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها افكارهم و يأثروا في الاسواق المالية والمجالس السياسية

هكذا ماامكن الالماع اليه من حالة رقي المعارف في يونان وارضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ الف كيلومتر مربع وهي غير مخصبة في الجملة بل اكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى ان سواحلها تبلغ بمساحتها سبع مرات مساحة سواحل انكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم و يصرفون فيها اموالهم وقسماً عظيماً من ميزانيتهم وقد كان لبواخرهم التجارية يد طولى في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ

واختلف العلماء في اصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الارض فتوحاً وفلسفة وصناعات نفيسة والارجح عند الباحثين في اصول الشعوب انهم اخلاط من الناس جاؤا منذ قرون الى هذه الارض واستعمروها بعد ان فرغت من سكانها الاصليين اما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج و يحاولون بالطبع ان ينتسبوا لافلاطون وارسطو وسقراط وديوجنس وهوميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين بيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم

آثينة تشبه المدن الاوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها اكثر من جميع اوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة (١) ان اسعار العيش في يونان يزيد ٥٠ في المئة عما هو عليه في انكلترا ونحو ٢٥ في المئة عما هو في الولايات المتحدة

المدنية الرومية الحديثة منقول اكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيراً ولذلك حفظوا لها جميلها وما برحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى ان معلمي جيشهم الى الآن هم ضباط من الفرنسيس وفي الحرب الالمانية الفرنسوية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا في صفوف الجيوش الفرنسوية فقتل بعضهم و بيضوا وجوههم مع من اسدى اليهم جميلاً ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الامزجة المختلفة والميل الى النافع له ماامكن بكل وسيلة

ان مافي آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذي يلفت نظر السائح اللهم

1 Percy F. Martin :La Grèce nouvelle

254

الا اذا احب ان يزورها ليتذكر ماضيها · واين عظمة رومية من عظمة آثينا ولا نغالي اذا قلنا ان بقايا عادياتنا في جرش ووادي موسى و بعلبك وتدمر افخم واعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التي لم تقو على عاديات الايام

في العاصمتين

رأيت هذه المرة في العاصمتين عاصمة العثمانيين الاستانة وعاصمة المصريين القاهرة ماطالما شكا منه الاجتماعيون من الاتكال المجسم والغلو في حب التوظف والاستخدام رأيت ابن الاستانة لا يفكر ولا يريد ان يفكر في غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصري كذلك كلاهما يستميتان في طلب الوظائف وقد زهدا في الاعمال الحرة فلا تكاد ترى في الاستانة متعلماً الا وهو يرغب ان يبيع استقلاله من غيره و يكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها ومن الاسف ان هذا الخلق استحكم حتى لاتشهد سوى اسباب الرزق الضئيلة بيد الاتراك اما التجارات الواسعة والصناعات الرابحة فهي للرومي والارمني والالماني والافرنسي وغيرهم من الشعوب والامم وكذلك المصري المتعلم لم يتعلم الا للخدمة في الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومي والايطالي وغيرهما

داء استحكمت حلقاته حتى افقرنا · يسلب الغريب منا اموالنا ليحملها الى بلاده ولا يزال آخذاً بالانتشار والعبر في القطرين تتلو العبر داعية القومين الى اطراح المذاهب الاتكالية وان ابواب الاستخدام اذا فتحت اليوم قليلاً فغداً تقفل حتى في وجوه الاكفاء من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدراً عن انفاق مايلزم من المال على العمال والمستقل في عمله انفع لنفسه ولقومه من المتعلق باذيال غيره الذي يعيش عالة على السوى ·

كنت في القاهرة في زيارة صديق لي من اهل العلم والمكانة في الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت اليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة مانالها من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة في المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العيني وطالبة اليه ان يساعدها لارجاعها الى مركزها

فقال لها صاحبي ان مصلحة الصحة قد اسدت اليك معروفاً يجب عليك ان تشكريها عليه وهو انه فتحت امامك باب الاستقلال في عملك ومصر في حاجة الى طبيبة مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من امثالك وانت تكتبين العربية والانكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فانصح لك ان تعمدي الى نشر اعلانات عن محل تتخذينه

وتشتهر ين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة ان تدفعي هذا القدر من المرتب الذي تعدينه شيئاً لمحرض الذي تستخدمينه فانك ستربحين العشرات من الجنيهات في شهرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك

فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطبيبة واخذت تورد الحجج على صحة ماتريده وانه لاقبل لها الا بالاستخدام ولا رزق لها الا فيه وانها اذا نالت الخمسة جنيهات فقد حيزت لها الدنيا واخذت بحظ من السعادة لها ولأسرتها لان هذه انفقت ما كانت تملكه في تعليمها فلم يعد في وسعها ان تزيد على ذلك

وهكذا بقي صاحبي وانا نورد البراهين القاطعة التي تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الامر الى ان يكلم في امرها احد اصحاب الشأن ليرجعوها الى وظيفتها التي اخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها الا فيها .

هذا مثال رأيته بالأمس في مصر وكل يوم يقع مثله عشرات في الاستانة . وان المرء ليأسف جد الاسف على عقول تضيع من غير فائدة واعمال وكفاآت تذهب هباء . اناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم ان يبرزوا في كل عمل تصح ارادتهم على اتخاذه، وان يغتنوا ويتأثلوا ويعيشوا احراراً لا مقيدين مستعبدين

في الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض مايمكن الانتفاع به من موجوده لايحسن استخدامه والمتعلم من اهله يعتقد ان الراحة والبطالة في الاعتماد على خدمة يخدمها وما درى ان تعبه في هذه الراحة وانه لاراحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس في طباع الانكليز والاميركان والالمان والفرنسيس وغيرهم من امم المدنية الحديثة كما غرس في طباع سكان هذه الديار ماقامت هذه الحضارة التي تدهشنا ولما استقام نظام الأسرة على صورة تبهرنا آثارها .

اليس من الاسف ان نكون حتى في بلادنا غرباء فاذا اراد احدنا ان يترفه بعض الرفاهية لايجد نزلاً ولا مطعماً ولا قهوة ولا مسرحاً لوطني بل كلها للافرنج . والتركي والعربي باهتان شاخصان لايعرفان من اين تؤكل الكتف لانهما يجهلان اصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخفخ والفخفخة وضخامة الالقاب

ولطالما رأينا من نعدهم من كبرائنا يطأطئون رؤوسهم ذلة لتاجر صغير في مظهره

في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لانه جمع مالاً وعدّده ارادة ان يقرضه مايستعين به على تمشية اموره او يتبلغ به يسيراً ربما تصرف له مشاهرته وهذه الحال تراها على اشدها في القطر المصري لان ابن مصر منفاق على الاكثر لا يفكر في ان يوازي غالباً بين دخله وخرجه ولذا انتقلت الاملاك او جزء كبير منها من ايدي المصريين الى الغرباء والرومي في المقدمة والحال في الاستانة ادهى وامر

و بعد فحيث اشتد العراك بين الامم و بعبارة اخرى في العواصم الشرقية التي تكون فيها المنافسة على اتمها تجد الوطني يتضاءل و يضعف امام الغربي بل ينهزم شر هزيمة وتتجلى للناظر صورة مجسمة من صور الاتكال والاستقلال بل صورة من العلم النظري الذي هو القشور وصورة العلم العملي الذي هو اللباب

اشتدت في فرنسا على عهدها الاخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فاحس القوم بهذه الآفة التي تهدد كيانهم فأنشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولي الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة او كاد في البحث عن الاكفاء اذ لم يقبل عليها الا المتوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس لا انس وزيراً تعارفت اليه في باريز ترك الخدمة وتولى ادارة مصرف صغير وكم في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فابى وآثر ان يكون تاجراً او صرافاً او صاحب معمل او مدير شركة او محرر جريدة او استاذاً في مدرسة على ان يكون وزيراً كبيراً يقدم و يؤخر في مصالح امته و يحل و يعقد في اقدارها . والامثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين .

هي النفس

هي النفس هـذّبها بما تستطيعه فليس سواها بين جنبيك من نفس
وصبح بها الاخلاق فهي غنائم فانك لا تدري أتصبح ام تمسي
وجدّد من الذكر الجميل مراسماً لنفسك واترك داثر الشرف المنسي
فانك حي ما نسبت لها الابا وانك ميت ما انتسبت الى الرمس
يغالي الفتى في سومه المجد غالياً ويرخص من باع الحمية بالبخس
وانت ابن هذا اليوم فاعمل لوقته فلم تملك الآتي ولم تغن بالأمس
وليس يفيد الدرس ما لم تضف له خلائق تغني عن مطالعة الدرس
وخذ بعيان الامر لا بخياله فشتان مـا بين التصور والحس
قل الفصل تملك سرة الفضل منزلاً وتمتاز في فصل الخطاب على الجنس
فما الفضل بالكرسي تجلس فوقـه ولكن اعمال الفتى ذروة الكرسي

* * *

كأن حياة الخلق في الارض بقعة تخالفن نبتاً والفضيلة للغرس
تروحني الاخلاق التى نسيمها كأن به روحاً يهب من القدس
ابنتكم يا خاملون وأنما (يبين هباء الذر في الق الشمس)
فلا قلبي باكٍ برمم صنيعكم ولا ضاحك في نعت اخلاقكم طرسي
كم اعتضت عنكم ناطقين خواطئاً بما جاء منسوباً لافلامي الخرس
فوائد قس فيها الكواكب او فقل فصول خطابٍ لابن ساعدةٍ قس

* * *

وما انست نفسي بلهوٍ وانما رقيك يا ارض العراق به انسي
لأ لبست اقطار البلاد معارفاً فهل حسنٌ أني لك الفضل اسكتسي
يسرك ان الاجنبي قطاره يسير وان البـاخرات له ترسي
سافديك في اغلا من المال غيرة وان باعك الاغيار في ثمن بخس

النجف محمد باقر الشبيبي

المذكر والموءنث لابن جني

« نشرها الدكتور اوسكاور يشر الالماني »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله رب العالمين وصلوته على محمد وآله اجمعين الموءنث الذي لا يجوز تذكيره عن ابن جني العين الاذن الكبد الكرش الفحث الفخذ الساق العقب العضد الخنصر البراجم الرواجب الضلع القدم اليد الرجل الضرب السلطان الضحي الحرب البغل القوس الفهر النار الملح السلم العروض الحدور الكوءود الصبوب النحل الكأس الفأس الموسى الفرمى الذءود السرى الغول العناق الرخل الضبغ المعز الضأن الابل الخيل الغنم الناب المسنة من الابل السن العصا العقاب القلت موضع يجتمع فيه الماء القتب من المرط البئر الدلو الدرع اللبوس سقر لظى الطس الشمس الشمال الجنوب الصبا الدبور اليمين الشمال النوى البعد المنجنون المنجنيق والافعي والجزور والسمر والبسر والشعير وحضار والعواء وكحل والازيب النشاط وذكاء من اسماء الشمس والسراج والخنذريس وجميع نعوت الخمر وامام وقدام ووراء وخود وسرح وضناك وحروف المعجم يوءنث ويذكر وما لا يجوز تأنيثه الاشاجع البطن الضحى الالف من العدد النعم الناب من الاسنان الضرس النجار القليب درع المرأة القميص الرداء اللبوس من اللباس الجحيم شمس قلادة الخرز ذكر الارانب الزيخ ذكر الضباع العقربان ذكر العقارب الافعوان ذكر الافعي العشي الزند الاعلى من الزناد والشهور كلها مذكرة الا جمادى العراق واسط دابق الزبعرى الجمل الشديد والعبني منه والجلعي مثله والصلخدى مثله وفوق السهم والسور ونحال النخل وما لا ينون في النكرة ولا يدخل عليه علامة التأنيث فاقض بان الفه للتأنيث نحو بشرى وشعرى وان كان ينون او تدخل عليه علامة التأنيث فالفه لغير التأنيث نحو ارطى ومعزي واما الهمزة التي للتأنيث فلا تكون الا زائدة بعد لام الفعل نحو حمراء وصفراء فوزنها فعلاء ولام الفعل هي الراء ولا يجوز دخول علامة التأنيث عليها الا ترى انك لا تقول حمراءة وصفراءة كما تقول صلاءة وعباءة وكل اسم

رأيت في آخره همزة زائدة بعد الف لم يجز دخول هاء التأنيث عليه ولم يكن على وزن فعلاء نحو حرباء وعلباء او فعلاء نحو قوباء وخششاء فاقض بان همزته للتأنيث ومما يعلم ان همزته للتأنيث ما كان على فعلاء نحو الرخصاء والنفساء والكرماء والظرفاء او فعلاء نحو السيراء والعنباء او فعلاء نحو قدماء وجنفاء او افعلاء نحو اربعاء واصدقاء او فاعلاء نحو القاصعاء والراهطاء او فاعولاء نحو عاشوراء

باب الهمزة : — **الاضحى** مؤنثة و يجوز التذكير يذهب بها الى اليوم الالف من العدد مذكر فان انث فانها يذهب بها الى الدراهم الانف مذكر الاشجع واحد الاشاجع وهو عصب على ظهر الكف مذكر الابط يذكر و يؤنث وتذكيره الوجه الابهام مؤنث وتذكيره لغة لبعض بني اسد الاصبع مؤنثة الانعام جمع نعم مؤنثة الاذن انثى الافعى انثى والمذكر افعوان الارنب انثى وذكرها الخزز الابل انثى والآل الذي يشبه السراب مذكر وتأنيثه لغة امام بمعنى قدام مؤنث الازيب النشاط مؤنثة الارض مونثة .

باب الباء : — البسر يذكر و يؤنث البراجم اناث جمع برجمة وهي ملتقى رؤوس السلاميات الباز مذكر و يقال بأز و باز اخبرني ابو علي انه يقال باز وجمعه بواز و بزاة وبأز وثلثة ابواز فاذا كثرت فهي البيزان الباع مؤنثة بطن الانسان مذكر واذا اريد بالبطن القبيلة جاز تأنيثه البئر مؤنثة

باب التاء : — التمر يذكر و يؤنث التوى الهلاك مذكر التولج الكناس مذكر التوت مذكر التولب ولد الحمار مذكر التجفاف واحد التجافيف مذكر الترس مذكر وجمعه اتراس

باب الثاء : — الثعبان الحية العظيمة يقع على الذكر والانثى والثعلبان مذكر لا غير الثدى مذكر الثمر جمع ثمرة يذكر و يؤنث الثمار نبت يذكر و يؤنث الثجير عصارة الشيء مذكر

باب الجيم : — الجزور مؤنثة جرجان وكل اسم بلد في آخره الف ونون زائدتان مذكر فان انث فانما يذهب به الى المدينة الجراد جمع جرادة يذكر و يؤنث وقد يقع الجراد على الواحد الذكر فيقال رأيت جراداً على جراد . الجحيم من بين اسماء جهنم مذكر وسائر اسمائها مؤنث الجبين ذكر . الجام مؤنثة الجفن ذكر جمادى مؤنثة

باب الحاء : — حضار اسم نجم مبني على الكسر والحضار الابل البيض مؤنث

الحشا واحد الاحشاء مذكر الحرور الريح الحارة بالليل انثى الحرب مؤنث الحدور انثى وهو موضع يتحدر فيه الحجاز مذكر الحانوت انثى فان ذكرت قصد بها البيت حوران اسم موضع مذكر الحال يذكر و يؤنث الحمام جمع حمامة يذكر و يؤنث

باب الخاء :— الخمر انثى وكذلك جميع اسمائها نحو القرقف والشمول والمدام الخصر مذكر الخرنق ولد الارنب الغالب عليه التذكير الخد مذكر

باب الدال :— درع الحديد انثى ودرع المرأة ذكر دابق اسم موضع بطريق الشام مذكر الدار انثى والدلاء جمع دلاة والدلاة والدلو انثى و يجوز تذكير الدلو

باب الذال :— الذنوب الدلو الكبير مذكر وهو ايضاً الحظ والنصيب مذكر الذود من الابل من ثلث الى عشر من النوق انثي ذكاء اسم للشمس مؤنثة الذهب مؤنثة ور بما ذكرت الذراع مؤنثة ور بما ذكرت

باب الراء :— الريح مؤنثة وكذلك جميع اسمائها نحو الجنوب والشمال الرخل مؤنثة وهي انثي من ولد الضأن الرسغ مذكر الرحلى انثي الرجل انثى الروح مذكر فان انث فانما يعنى به النفس

باب الزاي :— الزوج مذكر وهو يقع على الذكر والانثى عند اهل الحجاز واهل نجد يقولون زوجة الزند من اليد مذكر الزقر لغة في الصقر ذكر الزرنب ضرب من الطيب ذكر

باب السين :— السراويل مؤنثة السلم ذكر ور بما انث السلم الصلح مؤنثة ور بما ذكر والسلم الاستسلام مذكر السري سير الليل مؤنث السبيل يذكر و يؤنث الساعد مذكر الساق مؤنثة السلطان يذكر و يؤنث السكين يذكر و يؤنث السن واحد الاسنان مؤنثة السلاح يذكر و يؤنث السوق مؤنثة ور بما ذكر

باب الشين :— الشخص مذكر عنيت به ذكراً او انثى الشهر مذكر الشام مذكر الشمال خلاف اليمين مؤنثة الشفر واحد الاشفار مذكر الشعير يذكر و يؤنث الشمس الطالعة مؤنثة والشمس الذي في القلادة ذكر

باب الصاد :— الصعود من الارض مؤنثة الصبوب مؤنثة مثلها الصاع يذكر و يؤنث صليف العنق صفحتها يذكر و يؤنث

باب الضاد :— الضرب العسل الابيض مؤنثة الضبع وسط العضد مذكر والضبع مؤنثة الضأن مؤنثة الضحى مؤنثة الضحا بمعناها مذكر الضلع مؤنثة الضرس مذكر

باب الطاء :— الطريق يذكر و يؤنث الطس والطسة والطست مؤنثات طباع الرجل مؤنثة ور بما ذكرت الطوي البئر ذكر فان رأيته مؤنثا فانما يعني به البئر الطير جماعة طائر مؤنثة الطاعون يذكر و يؤنث الطاس مؤنثة

باب الظاء :— الظهر من الصلوة مؤنثة الظهر مذكر الظفر مذكر الظئر الداية مؤنثة وجمعها ظؤار الظبى جمع ظبة مؤنثة

باب العين :— العصا مؤنثة العضد مؤنثة العشاء مؤنثة عروض الشعر وغيره مؤنثة العرس مؤنثة العراق مذكر العجز العجيزة مؤنثة ور بما ذكرت العاتق يذكر و يؤنث العقرب اسم للذكر والانثي العقب مؤنثة العناق مؤنثة العقاب مؤنثة العلباء العصبة في العنق مذكر العنق بضم النون مؤنثة فان سكنت النون ذكر العنز انثي العنكبوت يذكر و يؤنث العين مؤنثة

باب الغين :— الغنم مؤنثة الغول مؤنثة الغميصاء مؤنثة غبراسم يقع على الذكر والمؤنث

باب الفاء :— الفرج مذكر الفردوس مذكر الفخذ مؤنثة الفأس مؤنثة الفرس يقع على الذكر والانثى الفهر الحجر الصغير مؤنثة الفلك يذكر و يؤنث فرسن البقرة والجؤذر مؤنثة

باب القاف :— القلت مؤنثة وهي حفرة تكون في الصفا تمسك الماء والقليب من اسماء البئر يذكر و يؤنث القميص مذكر القوس انثى القفا يذكر و يؤنث القدوم انثي القدم انثى وقدام انثى وتصغير (ها) بالهاء القتب من الامعاء انثى

باب الكاف :— الكف انثي الكؤود من الارض مؤنثة الكرش انثي الكراع انثى وقد يذكر الكتف والكبد والكأس مؤنثات

باب اللام :— الليث مجرى القرط في العنق مذكر اللسان لهذا العضو مذكر فان عني به القصيدة او الرسالة فهو مؤنث

باب الميم :— محجر العين مذكر المسك مذكر المطر مذكر ور بما انث اذا ار يد به الزراعة المعى مذكر ور بما انث المعز مؤنثة المتن مذكر ور بما انث ور بما دخلت عليه الهاء فقالوا متنة المؤق والمأق مذكران وهما زوايتا العين اللتان تليان الانف مثل يقع على الذكر والانثي من يقع للمذكر والمؤنث الملح مؤنثة المنجنون و يقال المنجنين وهي الثالثة ؟ مؤنثة المنخر ذكر المنجنيق مؤنثة موسي الحجام مؤنثة

باب النون :— النجار مذكر ومعناه الطباع السمك مؤنثة الناب من الاسنان

ذكر والناب الناقة المسنة مؤنثة نحن يقع على المذكر والمؤنث النحل يذكر و يؤنث النعل مؤنثة النوى البعد مؤنثة النوى جمع نواة يذكر و يؤنث النفس انثى النعم يذكر و يؤنث النور خلاف الظلمة مذكر

باب الواو :— وراء بمعنى خلف مؤنثة وتصغيرها ورية بوزن وريعة الوحش انثى الورك انثى واسط ذكر الوعاء ذكر

باب الهاء :— الهدى مذكر وقد يؤنث الهبوط من الارض انثى الهردى نبت مؤنثة الهجنع ذكر النعام

باب الياء :— اليمين اليد واليمين من الحلف كلاهما مؤنث اليسار اليد اليسرى مؤنثة واليد مؤنث اليأفوخ مذكر وكل اسم مؤنث هو على ثلاثة احرف تصغيره بالهاء نحو قدر وقديرة ودار ودويرة الا احرفاً شذت وهي قوس وذود وحرب وعرس لانها كثرت في كلامهم فاستخفوا بطرح الهاء من التصغير فان كان المؤنث على اربعة احرف فصاعداً كان تصغيره بلا هاء نحو عقرب تقول عقيرب وعقاب عقيب واتان اتين الا انهم صغروا اماماً ووراء وقداماً (بالهاء) فقالوا وريئة وقديديمة واميمة لان جميع الظروف مذكرة وهذه الثلاثة مؤنثة فلو صغروها بطرح الهاء اوهم انها مذكرة كسائر الظروف فان كان في الاسم المجاوز للثلاثة هاء في التكبير ثبت في التصغير تقول في سفرجلة سفيرجة وفي سلسلة سليسلة

تم الكتاب بحمد الله وجميل صنعه وصلى الله على محمد وآله اجمعين

قواعد العمران

« من بين آيات القرآن »

اذا تجرد الانسان هنيهة من جلباب التقاليد · وترك التصديق والاذعان جانباً · ونظر الى القرآن ككتاب غامض خبره · مجهول مصدره · واراد ان يقرأ فيه · ثم يحكم عليه · و يأخذ عبرة منه · فماذا يرى ؟ و بماذا يحكم ؟

اخذ ذلك الانسان القرآن وما هو الا ان وقع نظره على اوائل سورة الاسراء فرأى عجباً : رأى من ضروب الوعظ والتذكير · وافانين التربية والتعليم · واصول الآداب وقواعد الاجتماع · مفرغاً ذلك كله في اساليب عالية · وحلل بالفصاحة والبلاغة زاهية — ماجعله يكبر الامر · و يتساءل ماذا عساه يكون السر

كتاب وجد منذ اربعة عشر قرناً في بلد منقطع عن العمران · محجوب عن اشعة العلم والعرفان · بين قوم اميين · قساة جاهليين · ثم هو يتضمن ماأشرنا اليه الجدير بالعجب منه · حقيق بالتفكير فيه

تضمنت اوائل سورة الاسراء ماتضمنت وهي ست صفحات فقط · فماذا تتضمن اذن بقية صفحات ذلك الكتاب وهي زهاء (٨٧٠) صفحة

نحن لانحيل القارئ الكريم الى امر بعيد عن القياس · ولا الى غيب لا يدخل تحت متناول الحواس · وانما نحيله الى عيان ومشاهدة واختبار

« الاسراء والمعراج »

(من مزايا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم)

يصح نعت القرآن بانه اقدس رسالة · اتت من اقدس مقام · بواسطة اقدس انسان · وهو محمد بن عبد الله الرسول في تبليغ تلك الرسالة الى الخلق

وقد افتتح مرسل تلك الرسالة احدى سورها اعني سورة الاسراء — ببيان منزلة ذلك الرسول · ليزداد الناس ثقة به · وحباً له · وحرصاً على تلقي الرسالة عنه · فقال :

« سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا »

اطلاع الله لذلك الرسول على آيات الكون واسرار الخليقة هي المنزلة الرفيعة التي امتاز بها عن سائر بني البشر . فالقصد من الآية اثبات تلك المنزلة له

اما ان رحلة « الرسول » في الاطلاع على تلك الآيات كان بروحه الشريفة او جسده المبارك ؟ فهذا لا نكلف الايمان القطعي به مادامت الآية ليست دلالتها على معناها بقطعيته . ولذلك اختلف العلماء بل الصحابة في الاسراء والمعراج :

اسري بروحه او بجسده . وكيف كانت كيفيته . وعلى اية حالة وقعت غدوته وروحته هذا من عالم الغيب لا نكلف به تفصيلاً مادمنا موءمنين بالغرض منه اجمالاً : الا وهو الايمان بان الله اطلع نبيه على عالم الملكوت . ولنضرب لذلك مثلاً :

نسمع ان اهل طرابلس الغرب قاموا اليوم لمناجزة ايطاليا . ونعلم ان حكومتنا العثمانية ذات الدهاء والقوة هي التي امدتهم بالضباط والسلاح والذخائر فتمكنوا بذلك من القيام ضدها

فيقول قوم : وكيف اوصلت حكومتنا تلك الامدادات اليهم : بالبر عن طريق مصر ؟ او بالبحر على ظهر السفن . او بالهواء على متون الطيارات ؟

ولكن هل من المعقول ان نوسع مسافة الخلاف بيننا في هذه المسألة ونكثر من اللغط فيها . وليس في ذلك من فائدة لنا . وانما الفائدة هي في ان نثق بحكومتنا وفي ان لديها من الوسائط ما يكفل ايصال القوات الى اخواننا السنوسيين بطريقة حكيمة مأمونة

يستبعد قوم ان يكون الاسراء حصل بجسده الشريف ولكن اقول انه ربما كان هو الواقع كما يستبعد قوم ان يكون امداد السنوسيين بطريق البحر مع انه ربما كان هو الواقع ايضاً بل ربما كان بواسطة الغواصات التي تنساب تحت مياه البحار

كيف أسري بجسده صلى الله عليه وسلم من مكة الى بيت المقدس ؟ وكيف يتصور هذا ؟ ولكن قل لي — ولنفرض انفسنا عائشين منذ مئات من السنين — كيف يمكن ان يطير الانسان مسافة ايام بساعة من الزمن ؟ لو قلنا ذلك لاهل القرون الاولى اما كانوا يستبعدونه و يعدونه من المحالات العقلية ؟

وكذلك إسراء النبي اذا استبعده العقل وعجز عن تصوره ينبغي له ان لا ينكره ولا يحيل وقوعه

« الاعتبار بالامم الغابرة »

عرفنا منزلة « الرسول » حامل الرسالة . ولنقرأ الآن الرسالة نفسها او بعض آيات منها اعني اوائل سورة الاسراء

اول مافعلته هذه الآيات انها حولت نظرنا الى امة تقدمتنا كان لها في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية شأن عظيم وقد ذاقت حلو الزمان ومره بحيث اصبحت اجدر الامم القديمة بان يتعظ بها . و يعتبر باحوالها . الا وهي الامة اليهودية :

«وآتينا موسى الكتاب . وجعلناه هدى لبني اسرائيل . الا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح . انه كان عبداً شكوراً . وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين . ولتعلن علواً كبيراً : فاذا جاء وعد أُولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم . وامددناكم باموال و بنين وجعلناكم اكثر نفيراً . ان احسنتم احسنتم لانفسكم . وان أسأتم فلها . فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً . عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا »

قصت علينا هذه الآيات من خبر اليهود مافيه مزدجر وتحذير لنا ان يصيبنا مثلما اصابهم : فقالت ان الله اعطاهم التوراة فيها هدى وحذرهم مخالفة اوامره واستدبار سننه واكد لهم ان هذه المخالفة تؤدي الى غلبة عدوهم عليهم . واكتساحه بلادهم . فاليهود غفلوا عن سنن الكون . وتناسوا امر الله . فسلط عليهم بختنصر «نبوخذنصر» ملك الاشوريين . فانزل بهم البلاء . ثم كشف ذلك عنهم على أمل ان يكونوا تابوا وانابوا ، فيعودوا للعمل بالتوراة . ومراعاة سنن الوجود والاتعاظ بما كان من اذلال عدوهم في المرة الاولى لهم — فلم يفعلوا شيئاً من ذلك وعادوا لما نهوا عنه . فجاءهم الرومانيون . واوقعوا بهم واضطهدوهم واذلوهم . كما قال لهم ربهم « وان عدتم عدنا » اي وان عدتم للمخالفة عدنا لتسليط عدوكم عليكم

هذا ما كان من امر اليهود في سابق عهدهم . فوعظنا الله نحن المسلمين بهم . وحذرنا ان نخالف اوامره الالهية ونداير سننه الكونية . فيصيبنا مثلما اصابهم

ولا ريب ان القدوة عامل من اقوى عوامل التربية . وهي في تربية الامم مثلها في تربية الافراد . فان احسن طريقة يتخذها المربي في تربية الناشئ هي ان يصف له

260

اعمال رجال الفضيلة فيقتدي بهم . واعمال رجال الرذيلة فيتجنب عملهم . وهكذا الامم في طور تكونها : يجب ان تستفيد من امم التاريخ فتقتدي بهذه . وتحيد عن عمل تلك

سلك القرآن الكريم في تربيتنا معشر المسلمين هذا الطريق من التربية : فترونه يقص علينا اخبار الامم السالفة وما جرى لها لنستفيد من ذلك عظة وعبرة .

اليهود في عهد البعثة المحمدية كانوا مضرباً للامثال . وموضعاً للشفقة عليهم . والتعوذ الى الله من المصير الى مثل حالهم . ولكنهم اليوم عادوا فلموا شعثهم . ورأبوا صدوعهم . واخذوا يستفيدون من تجارب الامم غيرهم . ومن عبر التاريخ التي تستنتج من حوادث من تقدمهم .

انظروا اليهم تجدوهم في علو منزلة ورفعة شأن . على انه لا حكومة لهم ولا سلطان لماذا انقلب حالهم وغير الله ما بهم ؟

ذلك لانهم غيروا ما بانفسهم .

سلكوا الى الفوز في هذه الحياة من طريقه الطبيعي الذي طالما تنكبوه في سالف عهدهم سلكوا سبيل الحياة الاجتماعية وهم مسلحون بثلاث امور :

(١) تقوية روح التضامن بينهم

(٢) اصلاح التربية العائلية والمدرسية

(٣) توفير الثروة من طريق علم الاقتصاد

هذه القوى الثلاث هي عماد الامم . واكبر العوامل في نهوضها . فيجب علينا معشر المسلمين اليوم ان نقتدي بهم في توفير هذه القوى الثلاث : لان الحكمة ضالتنا كما قال نبينا . والا كان امرنا الى خسار . وسعينا الى تبار .

وا أسفاه : كنا نرثي لليهود . ونشفق عليهم . ونتعظ بالمثلات من احوالهم . فعدنا اليوم نعجب من امرهم . ونباهي باعمالهم . ونحض انفسنا على الاقتداء بهم . والسير في الحياة الاجتماعية على اثرهم .

(لا تحقرن امرءاً قد كان ذا ضعة فكم وضيعٍ من الاقوام قد رأسا)

(فرب قوم جفوناهم ولم نرهم اهلاً لخدمتنا صاروا لنا رؤسا)

وهذا مصداق الآية الكريمة « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

غير ان القرآن الذي اعطانا نحن المسلمين هذا الاصل في نهوض الامم وسقوطها — وهو ان التغير الاجتماعي ناشئٌ عن التغير الاخلاقي — اعطانا اصلاً آخر في هذا

المعنى وهو « ترك اليأس » مذ قال : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »
هذه اسباب النهوض حوالينا ، وطرق العزة والغلبة ممهدة امامنا . فلنسلك هذه الطرق بصبر وثبات ورجاء كما امر الله . فلا جرم ان نكون بعد ذلك من الفائزين

« التربية النفسية »

بعد ان فهمنا من آيات اليهود لزوم الاتعاظ بما جرى للامم قبلنا نرجع الى بقية الآيات الاوائل من سورة الاسراء فنجد فيها مواعظ وحكماً وآداباً اجتماعية اخرى .
« من ذلك التربية النفسية : »

الاصل الاول في هذه التربية ان يعتقد المرء بان كل ما يصدر عنه — من قول او عمل او فكر — له تأثير في اخلاقه وسعادته ومستقبل حياته : ان حسناً فحياته سعيدة . وان سيئاً فحياته شقية . واذا علم المرء هذا كان جديراً ان لا يقول الا حسناً . ولا يعمل الا حسناً . ولا يفكر الا حسناً :

قال تعالى في آيات سورة الاسراء « ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها »
— ثم قال — « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها »

والاصل الثاني في التربية النفسية « حياة الضمير وصحة الوجدان في نفس المرء » : فمن كان ذا ضمير حي . ووجدان صحيح كان على نصيب وافر من صحة الحكم والقصد في الاعمال . وسعادة الحياة . وهذا مغزى قوله تعالى في آيات سورة الاسراء : « وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » طائر الانسان عمله الذي صدر عنه فهو منوط به مقصور عليه « كما مر في آية ان احسنتم .. وآية ومن اهتدى .. » فاعمالك التي تصدر عنك ايها الانسان يكفي في تمحيصها ومعرفة صوابها من خطأها ان ترجع الى نفسك « اي ضميرك او وجدانك كما يقولون اليوم » ثم تقرأ ما انطوى فيها من الهواجس والخواطر والاميال والاعتقادات . فاذا قرأت ذلك كله فهمت كيف صدرت عنك الاعمال حسنة او قبيحة ؟ وكيف اصبحت بسببها سعيداً او شقياً .

نفسك وحدها هي نعم الحكم فيما اذا عرضت الاعمال . ونصب الميزان للفصل بين الحق والضلال .

فالواجب علينا في تربيتنا النفسية اذن ان نقوي فينا الضمير والوجدان الذي يسمى القرآن

« النفس » او « النفس اللوامة » تقوي فينا ذلك لنعرف كيف نقول الصدق · ونحكم بالحق

والاصل الثالث في التربية النفسية « الصبر والثبات والتجلد » وهو ما يسمونه اليوم « قوة الارادة والشجاعة الادبية » وقد نهانا الله في آيات الاسراء المذكورة عن اليأس والقنوط فقال « و يدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً » اي يا عجبا للانسان! كيف يعجل بالسخط على نفسه والبراءة منها وتمني الشر لها اذا لم تفز في بعض المواطن · او لم تنجح عند ممارسة عمل من الاعمال — كلا لا ينبغي ان يسخط ولا ان يدعو على نفسه بالشر والهلاك كأنه يدعو لها بالخير بل عليه ان يصبر و يتجلد · و يقوّي ارادته فيعيد الكرة على العمل الذي لم ينجح فيه · فيتم له الفوز والغلبة ·

فبالله قولوا اذا لم يكن هذا معنى الآية فما هو معناها؟ واذا لم تكن قوة الارادة والصبر اساس السعادة في هذه الحياة فما هو الاساس؟

الاصل الرابع في التربية النفيسة « كبر النفس وعلو الهمة » كما قال صلى الله عليه وسلم « علو الهمة من الايمان » فلا يرضى المؤمن لنفسه بالدون من شؤون هذه الحياة · بل يقتحم المصاعب في نيل المناصب · و يكابد العظائم · في اكتساب المغانم ·

واي مناصب ومغانم؟ هي ان تكون امته سعيدة فيكون سعيداً بها ومعها — هي الفضائل والكمالات والاخلاق العالية والمظاهر السامية فيكون المرء بها رجلاً عظيماً ونابغة كبيراً

اذا كثر الافراد من هذا القبيل في امة من الامم ارتقت وعزت · وان قلوا او فقدوا تدهورت وذلت · والله سبحانه وتعالى يعطي المرء من هذه المظاهر العالية على حسب سعيه وما طلبه بلسان حاله (وان ليس للانسان الا ماسعى) وقد امره ان يسعى في نيل الكمال الانساني بابلغ اسلوب في آيات سورة الاسراء فقال :

« من كان يريد العاجلة « الخطة التي يسهل تناولها والمنزلة الناقصة » عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد · ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحوراً » : اي تكون عاقبة ما أراد التعجيل به من خطة الدون البلاء والشقاء الابدي ومن اراد الآخرة « وهي الحياة الكاملة والسعادة الشاملة » وسعى لها سعيها وهو مؤمن « واثق بالظفر » فاولئك كان سعيهم مشكوراً

الأصل الخامس : من اصول التربية النفسية التي علمنا اياها الله في آيات الاسراء « إعمال العقل في مايعرض عليه من المسائل العلمية والكونية » فلا يجوز للمرء تعطيل

عقله ومشاعره وتصديق كل وهم يلقى عليه : فقال تعالى في آيات سورة الاسراء — و ياما اسمى حكمته فيما قال — « ولا تقف ماليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولاً » اي لا تتبع الظن فتصدق ما لا يلتحم مع العلم اليقيني بل استعمل عقلك وسمعك و بصرك : فاذا اهملتها وعطلت العمل بها سئلت عنها كلها يوم القيامة : فاذا قال لك ربك يومئذ لماذا اعتقدت كذا او كنت تذهب من المذاهب والآراء الى كذا فقلت له : يارب قيل لي كذا وقالوا لي كذا فتابعتهم . فيقول لك واين عقلك وسمعك و بصرك التي قد وهبتها لك ؟ ولماذا لم تستعملها وتستهد بها ؟ هل اعطيتك اياها لتهملها ؟ اهكذا حق النعمة وشكرها ؟

لاجرم ان تقوم اذ ذاك الحجة على هذا المقلد فيقذف به في هوة الشقاء . انقذنا الله منها بفضله وكرمه

« التربية العائلية »

الامة تتألف من العائلات كما ان الجدار يتألف من الاحجار : فاذا كانت الاحجار متينة قوية محكمة الوضع كان الجدار ثابتاً حسن الوضع والعكس بالعكس . كذلك الامة اذا تألفت من عائلات راقية في نظامها وترتيبها ونظافتها وآدابها واخلاق افرادها كانت الامة في اعلا درجات الرقي والعكس بالعكس

والعائلة تتألف في اول اطوار تكونها من اب وام وابن

والابن الاول هو حجر الزاوية في اساس البيت : فاذا كانت اخلاقه حسنة وآدابه راقية و باراً بوالديه تبعه اخوته واخواته وانتظم حال العائلة . والا فسدت الحالة واختل النظام

على ان الابن اذا كان عاقاً لوالديه . يسيء عشرتهما . و يوصل الاذى اليهما كان جديراً ان يفعل ذلك مع خلطائه ومعاشريه الآخرين . وهذا كاف في سقوطه وتعاسته . قال تعالى في آيات الاسراء : « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه و بالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » ومعنى هذه الآيات ظاهر لا يحتاج الى تبيان

ومن التربية العائلية التي جاءت في آيات الاسراء « رحمة الوالدين وعطفهما على

ابنهما » : فلا يقسوان عليه · ولا ينظران اليه كأنه متاع لا قيمة له في الوجود · وانما هو حر مستقل في نفسه · يكلف ابوه بالانفاق عليه و بتربيته حتى يبلغ اشده · ثم يسرحه في هذا العالم ليسعى لنفسه ولعائلته ولوطنه

وقد نعى الله على الآباء القساة صنيعهم فقال في آيات الاسراء : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقكم واياهم ان قتلهم كان خطئاً كبيراً »

فهذه القسوة او اليأس من حصول الغنا هو من اسباب خراب العائلات وتنغيص عيشها

ونحن اليوم لا نقتل اولادنا قتلاً حقيقياً وانما نقتلهم قتلاً معنوياً : نهمل الانفاق عَلَى تربيتهم وتعليمهم فيكونوا على حالة من الجهل والشقاء الموت الحقيقي خير منها

فتربية الاولاد والرأفة بهم وعدم قتلهم قتلاً حقيقياً او ادبياً هو مما امرنا الله به وحضنا عليه في آيات الاسراء

ومن التربية العائلية « استحكام ملكة الاقتصاد في نفوس افرادها » : الآيتان السابقتان آية بر الوالدين وآية عدم قتل الاولاد تحضاننا عَلَى استكمال الروح الادبي في العائلة · اما آيات الاقتصاد التي تضمنتها آيات الاسراء فهي تحضنا على استكمال الامر المادي اي على توفير الثروة · والاهتداء الى احسن الطرق في استثمارها وتحصيلها · والعائلة التي لا تعرف كيف تستثمر ثروتها · او تزيد فيها · او لا تعرف كيف تنفق هذا المال في طرقه القانونية · وتقابل الصرف بالخرج على اصول « البودجة » يوشك ان تنفق اموالها وتضيعها بالتدريج · او تخزنها في صناديق دون ان تستفيد منها و يكون شأنها شأن من اعطاه الله عينين ليبصر بهما فهو قد اغمضهما او وضع عليهما عصابة فلم يعد يرى ولا يبصر ·

فمثل هذا الرجل كيف يمكنه ان يعيش ؟ وذلك البخيل الذي يقتر على عياله كيف تطيب له الحياة · قال تعالى في آيات الاسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »

« الحياة الاجتماعية »

آيات الاسراء على قلتها حافلة بالقواعد العمرانية · والاصول المدنية · التي يتوقف عليها هناء الجماعات البشرية

فالبشر ما داموا مدنيين بالطبع · وما داموا في حاجة الى ان يعيشوا عيشة اجتماعية

— كانوا محتاجين الى هذه الاحكام والاصول التي جاءت في آيات الاسراء · وها نحن نسرد تلك الآيات سرداً من دون شرح ولا تعليق · خوف التطويل والتضييق

« ١ » واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً :

« وهذا خطاب للاغنياء والعظماء في الامم »

« ٢ » ولا تزر وازرة وزر اخرى

« وهذا خطاب للحكام والزعماء فيأخذون كل مذنب بذنبه »

« ٣ » وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل · ثم في آية بعدها · ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده

« خطاب لكل فرد من افراد الامة وتنبيه حكام الشرع لحمل الناس على ايفاء الحقوق »

« ٤ » ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً

« خطاب لكل فرد من افراد الامة فلا يتلوثوا بهذه الفاحشة · و يصح ان نعد هذه الآية من آيات « التربية العائلية » لان الزنا يهدم بناءها »

« ٥ » ولا تمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً

« خطاب لكل فرد من الامة بان يكونوا ودعاء متواضعين فيتحابوا فيكونوا اقوياء والا تخاذلوا وضعفوا · وتصلح هذه الآية مثالاً « للتربية النفسية » لان التواضع وعدم الغرور اساس تلك التربية »

« ٦ » ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً

« خطاب لكل فرد او للحكام في حفظ الدماء والحكم بالحق وترك الشطط والاسراف »

« ٧ » واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً

« خطاب لكل فرد او للحكام مع الدول الاخرى فيكون من قبيل التربية السياسية · وتصلح هذه الآية ان تدمج في آيات التربية النفسية »

« ٨ » واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم

« خطاب عام وتنبيه للحكام »

هذه الآيات كلها مما جاء في اول سورة الاسراء · ولم تستغرق ست الصفحات وهي كما يرى القارئ اللبيب جماع الاصول العمرانية وكفاف القواعد الاجتماعية

و يتخللها آيات في مقاصد اخرى كآية « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب »

وهذه الآية تصلح شاهداً للتربية الاقتصادية لان فيها حضاً على السعي والكسب والاحتفاظ بالوقت فنعرف اقسامه ، ولا ندع جزءاً منه يفلت منا سدى ، أو يضيع علينا بددا

هذه نموذجات من آيات اوائل سورة الاسراء . كما ان هذه الآيات نفسها نموذج من مجموع ما في القرآن الكريم من الحكم والعبر ، والمبتدأ والخبر ، فرسالة هذا شأنها ، والله مرسلها ، ومحمد رسولها وواسطتها — هل يليق بنا ان نتغافل عند تلاوتها ، او ندع العمل بمضمون آياتها

دمشق : « المغربي »

امارة مكة المكرمة

يبشرنا البرقيات بصدور الارادة السلطانية بتعيين حضرة الشريف علي حيدر باشا اميراً لمكة المكرمة مع توجيه رتبة الوزارة السامية الى عهدة دولته فكان لهذا التوجيه رنة سرور وابتهاج في اندية الشام يقدرها من عرف صاحب الدولة الشريف علي حيدر باشا في شمائله الزكية واخلاقه الملائكية وفرط صداقته للدولة العلية وشدة استمساكه بعروة الخلافة العثمانية فضلاً عن مكانه الشريف من بنوة النبوة وسلالة البيت الذي نزلت بتطهيره الآيات المتلوة ولا يخفى ان هذه الامارة منذ ايام الحسن ابن ابي نمي اي منذ نحو ثلاثمائة سنة كانت قد انحصرت في هذا البيت الكريم المعروفين بذوي زيد يتوارثونها خلفاً عن سلف وكابراً عن كابر ولا ينازعهم فيها منازع ولا يكابرهم في الحجاز مكابر الى ان حصلت الفتنة النجدية واتسع فتق ابن عبد الوهاب وقام بدعوته ابن سعود واستولى على نجد وجانب من اليمن فارسل النجديون بعض علمائهم الى الحرمين فناظرهم علماء الحرمين واقاموا عليهم البرهان وكتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع في مكة تتضمن الحكم عليهم فامر بحبسهم امير مكة وكان الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومائة والف

فوصل الخبر الى ابن سعود فازدادت العداوة وصار النجديون يغيرون على بعض القبائل الداخلة تحت طاعة امير مكة وفي سنة خمس بعد المائتين والالف انتشبت الحرب بينهم و بين امير مكة وكان الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وقتل من الفريقين خلق كثير

وما زال النجديون يتقدمون حتى دان لهم اكثر العربان الذين في طاعة امير مكة وفي سنة سبع عشرة بعد المائتين والالف هجموا على الطائف بجموع كثيرة واخذوه وقتلوا اهله رجالاً ونساءً ولما انصرف الحجيج تلك السنة قصدوا مكة ورأى الشريف غالب انهم سيملكونها فسار الى جدة فقصدوه فضربهم من هناك بالمدافع وهزمهم وعضدته الدولة العلية بعسكر مع والي جدة شريف باشا فساروا واخرجوهم من مكة « سنة ١٢١٨ » واستقر الشريف غالب في الامارة ثم اعادوا الهجوم بجيوش كثيرة واطاعتهم العربان التي حول مكة المكرمة وحصروا البلد الامين من كل الجهات وقطعوا عنه الميرة فاشتد باهله الجوع واضطر الشريف غالب الى الصلح معهم على ان يبقى اميراً بمكة ورضي بذلك مصانعة لهم ورفقاً بالاهالي الذين بلوا منهم بالداهية العظمى ودخل عصاة النجديين مكة « ١٢٢٠ » واستولوا على المدينة المنورة ولبثوا في الحرمين سبع سنين والدولة مشغولة عنهم بالحروب مع دول اوربا الى سنة ١٢٢٦ فصدر الامر السلطاني الى محمد علي باشا والي مصر بقتالهم فسير ولده طوسون باشا بجيش ملك الينبع وحاول ان يتقدم فاجتمعت عليه العرب وهزموه ولم يرجع من جيش مصر الا القليل ولم يكن المصريون هذه المرة قد راسلوا الشريف غالب في امر عربان الحجاز وقتلت ارض جاهلها فلما بلغ ذلك محمد علي سير جيشاً آخر سنة « ١٢٢٧ » ومعه عدة مدافع وراسلوا الشريف غالب سراً فاشار عليهم بما يجب ان يفعلوه من سياسة العرب فاستمالوا مشايخ حرب بالمال واستولوا على المدينة وعلى جدة ثم على مكة ثم على الطائف وكان اكثر ذلك بحسن تدبير الشريف غالب ووصلت البشائر باسترداد الحجاز الى الاستانة ومصر فتزينت دار الخلافة ومصر وسائر البلاد فرحاً وسروراً

وفي سنة ١٢٢٨ سار محمد علي بنفسه الى مكة واخذ يرتب الامور و يبعث بالزحوف الى بلاد عسير وغامد وزهران لقطع دابر السعوديين فاخمد جمرتهم واماط من هناك معرتهم واغرس نعرتهم لكنه عزل الشريف غالباً واقام مكانه ابن اخيه الشريف يحيى بن سرور بن مساعد وتوجه الشريف غالب الى دار السعادة وتوفي في سلانيك

سنة ١٢٣١ وكان مدة اقامته هناك معززاً مكرماً وآلت اخيراً امارة مكة الى محمد بن عون من الاشراف الحسنية لكنه ليس من بيت الامارة المتسلسلة فيهم وانما انهى له بها محمد علي باشا وجاءه التقليد من دار الخلافة ومن ثمه صارت امارة مكة مراوحة بين هذين البيتين الكريمين ذوي زيد وذوي عون تارة يتولاها احد ابناء الشريف محمد بن عون وطوراً تعود الى اصلها في ذوي زيد و يستقر الامر في نصابه الى ان كانت امارة الشريف عبد المطلب جد الشريف حيدر باشا الامير الجديد فتولاها ثم عزل عنها وآخر مرة جرت بحقه دسائس لم يأخذ منها حذره فعزل وخلفه الشريف عون الرفيق باشا من ذوي عون فبقي فيها مدة طويلة الى ان توفاه الله فخلفه اخوه المرحوم الشريف عبد الاله باشا ولكن ما كاد يبلغ الارادة السنية بتقليده امارة مكة حتى توفي واسندت الامارة الى ابن اخيه الشريف علي باشا فلما حصل الانقلاب الدستوري اقتضى انقلاب الشريف المشار اليه عن كرسي الامارة فذهب واقام بمصر وتولى مكانه ابن عمه الشريف حسين باشا وهو فيها منذ بضع سنين

والامير الجديد هو الرئيس الثاني لمجلس الاعيان وقد كان تولى نظارة الاوقاف وهو من اركان الدولة الذين عليهم المعول ولهم المقام الاول وهو رئيس مجلس ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية التي هي تحت حماية سمو ولي عهد السلطنة نسأل الله تبارك وتعالى ان يجعل كل ايام الحجاز في ايامه مواسم كما جعل ثغور الاهلين بتوليته بواسم وان يذلل لديه الصعاب و يمهد امامه العقاب ويجعل التوفيق رفيقه في حله وشده و يمكنه من ناصية كل عاص حتى ان ابى ان يقف عند حده اغمد فيه سيف جده

دمشق : شكيب ارسلان

الشيخ ابراهيم الحوراني

رزئت الآداب العربية بفقد هذا العالم المشهور بسعة معارفه ودقة ابحاثه واعتداله بمبادئه الادبية فاقتطفت ترجمته هذه من كتابي (مغاوص الدرر في اعيان القرن التاسع عشر) لتنشر في مجلة المقتبس وهاك مااقطفته :

١ أسرته

لا يخفى ان معظم الأُسر المسيحية الشرقية المذهب حورانية الاصل من بقايا اليمنيين الذين قدموا حوران وما اليها حتى العراق في حادث سيل العرم الشهير في التاريخ . وكان منهم الغساسنة الذين نسبوا الى ماء غسان حيث نزلوا وهو اليوم نبع عري في حوران وكانوا عمال الرومان بعد تنصرهم ثم تفرقوا في انحاء حوران وغيرها فنشأت منهم قبيلة في اذرع المشهورة باذرعات ومنها تسلسلت اسر كثيرة باسماء مختلفة اهمها بنو فرح او الحاج فرح وابناء عمهم بنو قنديل الذين تعادوا ثم تصالحوا ثم تعادوا وتفرقوا في انحاء سورية ولبنان . وكان بنو فرح قد قدم بعضهم في اثناء الفتح العثماني الى ضواحي حمص مع بعض بني قنديل انسبائهم متصالحين ثم عادت المشاحنة ففرقتهم فنزل الفرحيون في تلك الجهات والآخرون هجروها مبتعدين عنهم عداء وكان ممن نزل حمص وحماة من الفرحيين من لقب بالقاب مختلفة مثل بني الحوراني اسرة المترجم الآن و بني اسيسه و بني ابي عريضة و بني نسيم وانسبائهم اما بنو الحوراني فينتسبون الى جدهم شدود الحوراني ونشأ منهم سليمان جد جد المترجم فبني قرية في حصن الاكراد باسم « معمورة الحوراني » ثم خربت ونزح منها سكانها الذين كانوا كلهم من هذه الاسرة فعرفت الى اليوم « بخربة الحوراني » . وعادوا الى حمص وحماه وضواحيهما

فنشأ ممن في حمص ابو يحيي يعقوب بن سليمان بن يعقوب بن سليمان بن فرح وهو جد والد المترجم كان شاعراً بليغاً وصاحب مكتبة احترقت ومما يحفظ من شعره قوله من ابيات :

لا تعجبي من امرئ العاني فاعظمه   منذ العصور الخوالي حظ يعقوب

وله كثير غير هذا من بليغ الشعر

ثم نشأ من انسبائه ابراهيم الاول وهو ووالد المترجم حفيدا اخوين و كان عالماً درس

عَلَى الخوري عيسى الحامض والد الدكتور سليمان الخوري الحمصي واشتهر بطلاقة لسانه وسعة معارفه في التاريخ والطب وكان واعظاً بليغاً توفي نحو سنة ١٨٧٠ م عن نحو ستين سنة . وله اولاد وحفدة في حمص . الى غير ذلك مما يدل على ان العلم في هذه الأسرة موروث والشعر متسلسل . واعظم علمائهم المترجم

٢ً نشأة المترجم

هو الشيخ ابراهيم بن عيسى بن يحيى (او يوحنا) بن يعقوب بن سليمان بن فرح الغساني الحوراني . ذهب والده عيسى الى حلب نحو سنة ١٨٣٨ للاتجار بالمنسوجات وتدبرها الى ان ولد له فيها المترجم في مساء ١٤ ايلول سنة ١٨٤٤ (رومية) فعاد به ابوه و باخيه الاكبر الى موطنه حمص والمترجم ابن سنة فترعرع فيها وتعلم مبادئ الحساب عند حائك بارع بالقواعد الاربع ومبادئ الصرف والنحو في الاجرومية على يد القس ايلا والخوري بطرس الارقش و بعض العلوم على الخوري عيسى الحامض اديب حمص في عهده . وكان يجمع اترابه و يدرسهم مادرسه . وولع بالزجل والمواليا من فنون الشعر العامي فنظمها وهو في الحادية عشرة فتناقل المنشدون قدوده يتغنون بها منها في البغدادي :

ياسا كن البان صبري من بعادك بان	يبكي دماً كلما غنى حمام البان
سرك كتمته ولكن من دموعي بان	والدمع فضاح ارباب الهوى في الصبا
ياروح عطفاً على العاني اسير الصبا	مولاي شكواي الطف من نسيم الصبا

وان كان يتهز عطفك باغصين البان

ونظم الشعر الموزون في سن الثانية عشرة من العمر كما سترى في شعره

وسنة ١٨٦٠ نزح بيتهم الى دمشق فتعرفوا فيها الى الدكتور مخايل مشاقة فاعجب بذكاء المترجم واقنع والده بادخاله الى مدرسة عبية الاميركية فدخلها سنة ١٨٦١ و بقي فيها الى سنة ١٨٦٤ فاحكم بعض العلوم وعاد الى دمشق فاتمها على بعض علمائها فدرس الرياضيات والفلك والمنطق على الدكتور مخايل مشاقه والطبيعيات والكيمياء على الدكتور يوسف دمر ومبادئ الانكليزية على السيدة كروفرد . ولكنه كان يعلم نفسه بالبحث والاستقراء والتدبير والمطالعة كما قال في مقالة انشأها بعنوان « انا معلمي » سنة ١٩١٣ وهو : « وما زلت منذ ذلك الوقت « اي زمن الصبوة » اطالع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » ودرس

في بعض المدارس البسيطة في ضواحي دمشق · وحذق علم الجبر والهندسة والمنطق والجغرافية السماوية و بعض احوال السيارات ومبادئ علم الفلك وعلم قياس المثلثات والانساب والفلسفة الطبيعية والكيمياء والنبات والحيوان · واشتهر بسعة معارفه ودقة مداركه فاستقدمته المدرسة الكلية للاميركان في بيروت سنة ١٨٧٠ استاذاً فدرس فيها البلاغة والمنطق والرياضيات وانفتح له باب جديد للتعمق في العلوم والتبحر في اتقانها وابتكار كثير من القواعد الرياضية التي كان يمليها على تلامذته العديدين من اطباء وعلماء وادباء وهم معظم نوابغ السور بين في القطرين و بقي فيها نحو عشر سنوات وقفها للبحث والتأليف والتعريب والتصحيح من سنة ١٨٧١ — ١٨٨٠م ودرس في مدرسة البنات وفي المدرسة البطريركية بضع سنوات وكان يدرس في مدرسة اللاهوت الانجيلية بعض العلوم الى آخر حياته · واتصل بالعلامة الدكتور كارنيليوس فانديك الاميركي المشهور ورصد معه الكواكب ثم صار يرصدها بمنظاره في بيته ويحقق شؤونها و يكتب فيها المقالات الضافية

وتولى كتابة النشرة الاسبوعية منذ سنة ١٨٨٠ فدبجها بفوائد علمية وادبية رائقة · وكان مصححاً لمطبوعات المطبعة الاميركية ومعرباتها مشتغلاً بالتأليف والكتابة منصرفاً الى اتقان العلم وتوسيع المدارك · فكتب مئات من المقالات العلمية والادبية · وابتكر قواعد وضوابط للعلوم مشهورة بين الادباء · والقى الخطب البليغة في الحفلات والمجتمعات الادبية مما ارقص اعطاف المنابر · وعلى الجملة فانه ملأ الآداب العربية بمباحثه المفيدة · وزين المجلات والجرائد بنفثات اقلامه · واغنى اللغة باوضاعه ومعرباته واساليبه العصرية · وكانت مزايا كتاباته ومنظوماته الجمع بين آراء المتقدمين والمتأخرين مع دقة نظر وصحة بحث

وما زال يدأب في عمله الى ان اقعده داء عقام فلازم الفراش ولم يكن مع اشتداد وطأته عليه يمتنع عن العمل فاخترمته المنية بعد عام وذلك في ٢ شباط سنة ١٩١٦ في بيروت · فاقيمت له حفلة حزن مؤثرة رثاه فيها الدكتوران هسكنس و بلس والقسان هاردن وجسب والاستاذان قربان وكروفرد في الكنيسة اما على الضريح فتناوب تأبينه الادباء ضو بط و بهنا ومصور وحمية و باز · واقيمت له حفلة تذكارية ابنه فيها الاديبان خوري وغبريل · ورثاه كثير من الادباء بمراث مؤثرة

وكان طويل القامة ممتلئ الجبهة حنطي اللون روماني الانف اجش الصوت وخطه

الشيب في آخر حياته ومن اخلاقه انه كان حاد الطبع سريع الرضى كثير الجلد على العمل لا يكاد يمل ولا يكل من البحث والمراجعة . واذا نظم ترنم بالوزن سريع الخاطر حاضر الذهن دقيق البحث في الوضع واللغة والترتيب واسع الاطلاع يسير بالقارئ بين حزون المباحث وسهولها . ترجم والف وصحح اكثر من ٢٥ كتاباً . فكان جبار علوم ومقدام اعمال متحلياً باجمل الصفات الادبية مع ترو وتثبت وتحقيق وتدقيق محباً للآداب والادباء غيوراً على اللغة وابنائها . فهو من اهم اركان النهضة العصرية بلا مراء

٣ً شعره

كانت مزية شعر الحوراني علمية الاسلوب والنزعة رشيقة التعبير متينة القوافي بليغة المعاني فصيحة الالفاظ دقيقة الخيال جامعة بين جزالة القدماء وافكار المعاصرين . وله ارتجال بليغ ومعربات شعرية اجاد في نقلها مظهراً بلاغتها الاصلية . كيف لا وقد ورث الشاعرية عن اسلافه كما مر ونظم في سن الثانية عشرة موزوناً وفي الحادية عشرة نظم الازجال والمواليا وغيرها ولكنه كان قليل الحرص على حفظها فتشتت حتى قيل : انها لو جمعت كلها لكانت خمسة امثال شعر المتنبي او تزيد . وقال بعضهم : انه لا يلام الا على اهماله جمع منظومه فمرثيته للشيخ ناصيف اليازجي وغيره من المشاهير فقدت من بين اوراقه . وقد اعتنى الاستاذ داود افندي قربان بجمع ديوانه مما وعته حافظته المشهورة ومما رآه عند اصحابه ونشر بعضها بعنوان (الدقيق الحوراني) في (مجلة المورد الصافي) البيروتية . وسعى في حياة المترجم بجمع ديوانه فاطلع عليه قبل وفاته واثبت ما صحت روايته منه . وكان يقول عن الاستاذ قربان : انه راويته وذاكرته كما كان لقدماء الشعراء رواة يحفظون منظومهم . و بعض اشعاره بدأ بنشرها في مجلة الرئيس التي تولى تحريرها . ثم في جريدة النشرة الاسبوعية وغيرها مما تناقله الادباء

فمن اول اشعاره صباه مورياً بابواب حمص :

و يونانيــة في (باب هود) سبت بالحسن غادات العريب
فتحت لوصلها ابواب قلــبي فاوصدهجرها (باب الدريب)

ومنه وقد سمع من ابيه نظم جده وحثه على تحديه فقال مضمناً ذلك :

يقول ابي : بني الشعر فخر لمن بمقاله الغاوين يهــدي
فزاول نظــمه وانشر علينا ذكي النشر من ورد ورند
فجدك كان ذا شــعر نفيس فقلت : انشر لنا نفحات جدي

فقال : اليك مانقلت حداة به كانت مطي الشوق تحدي
«الا دع مااستطعت حديث نجد فني ذاك الحديث قديم وجد»
«فجز تلك الربوع فان فيها لقتلي غادة ربوات لحد»
فقلت: طربت من ذا الجد جداً سأبذل في نظام الشعر جهدي

واول مااعلنه من شعره قوله وفيه صحة مذهبه الشعري :

هذب كلامك في نظامك قبل نقد العالم
فالشعر كالمرآة ير سم فيه عقل الناظم

وقال من ابيات :

وعذاب ارباب الفضائل لذة وكفى الافاضل ان غدوا ابرارا
ان كان موتي في الفضيلة رفعة فليقض ربي ان اموت مراراً

ومن ارتجالياته قوله :

جميع الناس في تيهٍ على طرق الردى باتوا
فلولا الجهل ماتاهوا ولولا التيه ما ماتوا

ومما كتبه تحت رسمه :

رسم يشخصني لمقلة من به ولهي وروحي في حماه تقيم
يعقوب اشواق اليه مهجتي وانا بدين الحب ابراهيم

ومن حكمياته قوله من ابيات :

لا يخدعنك عاقل متفقه شرح الحقائق للعفاف مجاف
حملاً يمثله المقال وفعله ابداً يقول الذئب بين خرافي
لاخير في عقل ولا علم ولا دين ولا مال بغير عفاف

وقوله في واعظ مراء :

خلقت شجاعاً ولكنني جبنت لبأساء لا اتقي
اخاف وكم خفت من واعظ كثير الصلاة قليل التقى

وقوله مما يدل على تواضعه وحكمته :

اني لا علم انني لا اعلم وكفى بذا علماً لمن يتفهم
ان الجهول الغر يحسب انه ادري من الشيخ الحكيم واعلم

وقوله من مرثية :

يانفس لست بمدرك كل الذي تبغينه فدعي عناءك واقصري
ان الذي في دفتر الاقدار لا يأتي على وفق الذي في دفتري
ولقد دخلت الارض غير مخير وسأترك الغبراء غير مخير

وقوله ينصح الفتاة التي ترغب في مال خطيبها لا في كماله :

ما كل ذي مال شريف فاطلبي من شرّفته في الورى اخلاقه
كم من غني مجده امواله كالزهر كل جماله اوراقه

وقوله في كأس الخمر :

في هذه الكأس الهلاك فلا تذق حلب العصير صديد اهل جهنم
عكست لظى لألائها من نارها وحبابها نفث الحباب الارقم

وقوله في الباخرة من قصيدة :

حملتك جارية المحيط كأنها برق سرى ليل النوى بهجوعي
جرت السفينة بالبخار ونارها جمر الحشى وعاء لج دموعي
فظننت ان اضالعي الواحها ونسيت اني قد فقدت ضلوعي

وقوله في الكهرباء :

كأني في الهوى العذري عصف وليلي في المحاسن كهرباء
دنت مني ومستني لهذا علقت بها كما حكم القضاء

وقوله في صدر خطاب :

لاذنب لي قد قلت للقوم اطلبوا غيري فاني لست من اهل الخطب
ان الخطابة لا تليق بغير من الفاظه درر ومعناها ذهب
أو ناسج طرفًا سداها حكمة ووشيعها علم ولحمتها ادب
قالوا أر العذر المليح ولا تر البـ ـخل القبيح ولا تفر من الطلب
فاجبت مضطراً فلا تتعجبوا من جرأتي هذي فقد عرف السبب

وقال من قصيدة :

ماسواد الشعر عندي حسنًا كبياض الشعر في بعض الرؤوس
ان تاج الشيب يا آل النهى عندنا اجمل من تاج العروس
ان ذاك التاج نور ساطع من شعاع العقل في رأس الرئيس

ومما يروى انه كان سائراً مع صديقه المعلم سليم كساب رحمهما الله من بيروت الى

دمشق راكبين فنظم في طريقه، قصيدته المشهورة :

حمل النسيم لنا عبير شذاكا ظبي الخيام فرحت من اسراكا

ومنها :

مغنى توهمت السماء رحابه لما رأيت اهيله املاكا
وظننت سكان المضارب انجماً لما رأيت خيامه افلاكا

الى ان قال وقد قدحت سنابك خيلها شراراً في فحمة الليل :

ركب الظلام وسار يخترق الفلا نحو الربوع وغادر الادراكا
وتسنمت عصف الرياح جياده تجري كدمع الصب يوم نواكا
ترمي سنابكها الشرار كأنها وقدت اضالعها بنار هواكا

وهي طويلة بليغة كلها من هذا الطراز الرائع

ومما ارتجله مشيراً الى اسم اسرته في صغره :

بدوية لاموا العميد بحبها فاجبتهم والدمع احمر قاني
ما شان فيها انها بدوية ترمي السهام بمهجة الحوراني

وله من قصيدة طويلة في صباه

من كل غرثى الوشاح مادنت ورنت الا رمت بسهام الطرف مضناها
تظل نيران ابراهيم موقدة منها كليم الحشى في طور سيناها
هيفاء ترفل في برد السنا وانا اختال في حلل مايشكوه جفناها
بالوصل ابخل غادات الورى خلقت وعند سفك دم العشاق اسخاها

وله اخري في صباه متفنناً :

في وجنتيه لكل شمس مطلع و بمقلتيه لكل نفس مصرع
قمر له في كل صدغ عقرب من فرعه ومن البروج البرقع

الى ان قال واجاد بالتوجيه النحوي والعروضي :

خلفتموني مفرداً متمكناً في حبكم فلما بكم لا اجمع
وخفضتموني قد نصبت لنبلكم هدفاً فحتى م الجفا لا يرفع
ملتم الى الواشي باشعار الشا فصرفتموني والموانع اربع
اعجام صبري وازدياد تولهي وصفاتكم وجموع عذل تلذع
بين المحب وطيف ظبي كناسكم لم يبق للتمييز عندي موضع

طال النوى بعد بدوافر هجركم   والقرب يبطئ والمدامع تسرع

ومن قديم فلكياته قوله من قصيدة بليغة في مدح السيد عبد القادر الجزائري :

نظمت من الشهب القلائد مثلما   حوت الاهلة في مقام اساور
وتقنعت بغياهب وتبرقعت   بكواكب وتمنطقت بنواظر

وقوله موجهاً بخرافة الخسوف وقد جلست عجوز ثقيلة بين عروسين في عرس فسكت المغنون :

ترنموا ايها الشادون وابتدروا   الى المزاهر والنايات والوتر
وخلصوا البدر من حوت الخسوف اما   رأيتم الارض بين الشمس والقمر

وقوله من قصيدة :

اني رصدت كواكب العادات في   افلاكها من قبل نبت عذاري
وعرفت مشرقها ومغربها وما   في امرها من غامض الاسرار
فهويت عن خبر وما يرضى الهوى   في اهله احداً من الاغرار
وعشقت اجمل غادة كلفي بها   كلف البخيل برنة الدينار
لا تعجبوا من صبوتي شيخاً ففي   ثلج المشيب شبيبة من نار

وقوله من قصيدة في مدح خالد بك والي بيروت :

مغاني اللوى للنيرات مراصد   مضار بها الافلاك والصب راصد
فكم امها العشاق والشوق سائق   مطايا السرى والوجد للركب قائد
رقبنا بها الاقمار والدمع سائل   بليل به نهر المجرة راكد

ومنها :

حكت مهجتي المريخ لما نوت كما   نوى عن مدار الفرقدين عطارد
فبت وحادي النجم اعيت قلوصه   وسرحان فجري للغزالة طارد

وقال من مرثية لاستاذه مخايل مشاقة المتوفى سنة ١٨٨٨ م :

لم يبق بعد غروبكم من مطلع   في شرقنا لسوى نجوم الادمع

الى ان قال :

يا رمس ميخائيل لو درت العلى   امسيت محسود المحل الارفع
اقليدس الصوري فيك وذو النهى   اسحاق اهل الغرب فاعرف من تعي
بقراط والشيخ الرئيس وغيره   من كل ذي زكن حصيف المعي

ما للرياضيات بعد مشاقة ما دامت الافلاك غير تفجع
ودوائر العرفان لم يعرف لها من مركز في القطر او من موضع
شقت عليك جيوبها وصدورها و بغير شق قلوبها لم تقنع
والصبر عز على الجميع كأنه تربيع دائرة ورسم مسبع

وقال من قصيدة في تهنئة الدكتور كارنيليوس فانديك بيوبيله الخمسيني سنة ١٨٩٠ :

من لي بنظم كواكب الجوزاء عقداً فريدته الضحى لذكائي
ليس الجمان اذا احاط بجيدها الا هباءً حول حبل ضياء
شمس عنت كل الشموس لوجهها وغدت به كضرائر الحسناء
واولو الصبابة حولها سيارة متحيرات من سنى وسناء
واسيرها اسد الهيام فلم يخف في الخافقين ملامة العواء

الى ان قال :

ورصدتها ليل النوى في مرصد ما فيه غير مراقب الرقباء
فكأنني والعين ترقب خدها فانديك يرقب نير العذراء
فلك النهى قطب العلوم بعينها ومحيط دائرة الهدى للرائي
دع ذكر هرمس وابن حيان وخذ عنه بيان صناعة الحكماء
وانسخ به الفلك القديم وخل ما ابداه بطليموس في الاخفاء
وانظر مبادئه الصحيحة تلقها في غيرها كالدر في الحصباء
واعدل عن الشيخ الرئيس فشيخنا شيخ الرئيس وعمدة الرؤساء
لو كان بقراط الحكيم مريده في الطب احيا ميت الاحياء
او شام جالينوس برق سحابه ما مات ميتة سائم للشاء
هذا الذي ما جس نبض اخي ضنى الا تبدل سقمه بشفاء
يشفي العليل بحكمة كشفت له سر الدواء ومضمرات الداء
هذا الذي جعلت رياضياته امد الدراري من خطى الغيداء
فلو استبان الدرو من اشكاله اقليدس استولى ذرى العلياء

وقوله من ابيات ارتجلها في تأبين الياس صالح البيروتي المتوفى سنة ١٨٩٥ في شرخ شبابه :

يامعشر الصحب هذه درة نثرت من عقدكم فاجتبت ترب البلاصدفا

ذا غصن علم نمت ازهاره وزهت قبل اكتهال وزاد الحمل فانقصفت

وقال من قصيدة يرثي فيها صديقه الشيخ ابراهيم اليازجي اثابهما الله :

دفنوا حجاب النفس في جوف الثرى والنفس حلت بالمحل الارفع
قالوا الممات من الحياة وما دروا ان الحياة من الممات المفجع
فالحب ينبت بعد ما يبلى اما للحي بعد ذهابه من مرجع
ان الخلود حقيقة ازلية نفي النفاة لها هباءة زعزع
لم ينفها العلم الحديث واثبتت في مجمع العلم القديم المجمع

ومن معرباته البليغة قوله نافلاً معنى لشكسبير الشاعر المشهور :

شاب رأسي ولم ازل في مرامي واقتداري كأنني في الشباب
سر هذا كرهي الخلاعة دهري واعتزالي لمسكرات الشراب

وقوله معرباً نظم امبراطور المانيا غليوم الثاني :

الله اعلن ذاته في وحيه ترساً لدرء الشر عنا والعنا
ولدفع ابليس الرجيم فويل من يبغون عن سنن المهيمن دفعنا
(الله معنا) تاجنا لجميعنا نسمو به وهو المؤيد جمعنا

وعرب قول « جونلو » يصف ضوء البدر في المشرق على الغصون :

و بدر الافق فوق الطود يهدي الى الجنات ضوء المقلتين
اشعته على الاغصان تبدو كاسلاك غزلن من اللجين

وقال في كريستوفورس كولمبوس مكتشف اميركا وقد طبع في كتابه الذي جمع له بلغات العالم كلها بخطوط اصحابها :

اكرستوفير الفرد نصف الناس لا تنكر علي ولا تكن بالناسي
من كان نصف الارض من مكشوفه افلا اثمنه بنصف الناس

ومن نوادره الشعرية قوله موجهاً في الفلك بتار يخ زفاف ومن غرائب الاتفاق ان الشمس كانت في ذلك الوقت ببرج الاسد :

تقول « الدراري » بتار يخه لقد « حلت الشمس برج الاسد »

الى غير ذلك مما جمع بين سلاسة البحتري ومعاني المعري وامثالها

« له صلة »

مشاهد برلين (١)

« مرافق الحياة »

يتوسط الشوارع الكبيرة في برلين رياض تسايرها طولاً وتفتح فيها سبلاً للراجلين خاصة فيكون الشارع مفصلاً الى رصيفين وجادتين بينهما ممر يكتنفه عمارتان من نبات تطرزه الرياحين بالوان مختلفة ولا يشاهد الانسان في ديارها ولو في الارباض بناء بالياً او جداراً متداعياً والذي ساعد على تنسيق مبانيها ومتانتها ان عناصر الطين بمقربة من تلك المدينة وان الحجارة والخشب يجلبان اليها على نهر شبري بسهولة وقيم زهيدة

وكثير من المباني قائمة من الحجارة الرملية ويستعملون « البرفير » زينة في داخل البيوت وهو ضرب من حجارة الكرانيت المرادف له في العربية كلمة صوان وتفرش بعض المحلات مثل دهاليز المدارس ببلاط استك وهو قطع دقيقة من الرخام تخلط بعجين الكلس ·

في كل منزل حمام يتخذ من الزنك يسخن ماؤه في قصبة تنصب بازائه مثل الاسطوانة ويتصل بحافته مجرى للماء الحار وآخر للماء البارد ومن فوقه الناضحة المثقبة ولكل واحد من المجاري الثلاثة مفتاح يتميز بكتابة على جانبه

ومن تلك الحمامات ما يتدفق اليه الماء الحار من معمل تشترك فيه منازل كثيرة فيتيسر للانسان ان يتطهر منها في اي دقيقة حضرت ، ويقل لهذا ترددهم على الحمامات العامة ولا يقصدونها في الغالب الا لداعية زائدة على النظافة اذ يوجد فيها من يقوم بعمل الدلك على قاعدة صحية ·

ومن المنازل مايتوسل لدفئه ايام البرد بايقاد الفحم في القصبات القائمة بزاوية من زوايا المنزل على الطريقة المعروفة · ومنها مايدفأ بوسيلة ماء حار يمر في بعض نواحيه على اسلوب منتظم · وملخص ترتيبه ان ينصب في الطبقة السفلى مرجل توقد تحته النار بتناسب ويتصل بالمرجل قصبة يصعد فيها الماء الى اناء فتح عند سقف الطبقة العليا ثم

(١) نشر السيد محمد الخضر من اساتذة الجامع الاعظم في تونس ونزيل دمشق سلسلة مقالات في جريدة المقتبس اقتبسنا منها هنا ماله علاقة بموضوع هذه المجلة

ينسكب نازلاً الى مواضع التسخين في سائر الطبقات وحجراتها حتى يعود الى المرجل مرة اخرى و يتركب موقع التسخين في الغالب من خمس عشرة الى عشرين اسطوانة خشبية متلاصقة وحيث يجري الماء في مجال مستدير وسطح غير ضيق يحصل الدفأ الكافي

وذكرت عند هذا الصنيع ان جبرئيل بن بختيشوع المتوفى سنة ٣٥٦ كان يضع من وراء الحجرة التي يجلس فيها موافد تبعث من وهجها مايكسر سورة البرد . دخل عليه احد الفضلاء على ماقصه موفق الدين في طبقات الاطباء فاحس بدفء وقد اصبح البرد شديداً فكشف له بختيشوع عن جوانب المقعد فاذا موضع له شبابيك خشب بعد شبابيك من حديد و كوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق مثلما يصنع الحدادون .

و يفتحون في النوادي الكبيرة مراوح ذات آلات تجلب اليها الهواء النقي او النسيم البارد بادارة كهربائية . فمن محال القهوة مايسع اكثر من الف نسمة فتجد الجالسين صفوفاً مرصوصة ولا يحس الداخل بكدر في الهواء مع مايقع من التدخين . وهذا ايضاً ذكرني ان بختيشوع الذي دبر طريقة تسخين الحجرات اذا دبت عقارب البرد قد فكر في وجه استخلاص النسيم البارد اذا رمت الظهيرة بجمراتها فكان يعد من خلف القبة التي يتبوءها مواضع مرصف فيها قطع من الثلج و يأخذ الغلمان مراوح يستثيرون بها من ذلك الثلج نسيماً بارداً فيهب الى القبة في طريقة متجددة

وكانوا يستوقدون الشمع و بعض اصحاب البيوت يصنعونه من شحم البقر بايديهم الى قريب من سنة ١٨٤٠ فظهر بينهم زيت الغاز المعدني اكتشفوه في اربع ولايات من المانيا ولكن منابعها ليست بغزيرة وقد تهللت اليوم بالضرورة مسارج الكهرباء والغاز البخاري في كل محلة . اما القصور القيصرية فكانت تنار بالشمع المستخلص من عمل النحل ثم انبجست فيها انوار الكهرباء سنة ١٨٨٨

لا تخلو ابواب البيوت ودواخل الحجرات من اجراس يستند تنظيمها بين الضغط على ازرارها ورنة مطرقتها الى مجرى كهربائي تستمده من معمل تشترك فيه محلات متعددة . و يصنعون في كل حجرة من الفنادق الشهيرة ثلاثة اجراس يدعو النزيل باحدها من تكاف بتنظيم الحجرة و بثانيها من يعين لمناولة مايحتاج اليه من مثل طعام او شراب و بثالثها من يختص بحمل الامتعة

ترتبط المنازل باسلاك حاكي الصدي « التلفون » وقد ربحوا بوسيلته قسطاً عظيماً

من اوقاتهم فيكون الانسان في غني عن ان يبدد قطعة من الوقت الذي هو سلك عمره في مسافة الذهاب الى مكان آخر والاياب عنه بابلاغ كلمة والانصات الى مثلها · وقد اصبح من المعتاد عندهم ان الانسان لا يضرب بخطوة الى زيارة احد حتى يعلم بهذه الوسيلة انه حاضر في منزله و يفهم من خطابه انه لم يكن في حال يقتضي تأخير اللقاء الى دفعة اخرى ·

وتسلم ادارته لكل من عقد في محله فرعاً منه مجلداً يحتوي على اسماء المشتركين فيه مرتبة عَلَى احرف الهجاء مع بيان الاعداد التي جعلت علماً على فروعهم · فمن اراد ليخابر آخر خاطب الموظف في مركز دائرته اولاً واعلمه بالعدد الذي جعل على الفرع الواقع في منزل صاحبه فيهيئ له طريقة المخابرة معه · واختاروا ان يكون الموظفون في هذه الدوائر نساء وقالوا في علة ذلك ان التجربة كشفت على ان كلام المرأة في هذه الآلة اوضح من كلام الرجل وامكن في السمع

ولا داعي الى رفع الصوت عند المخابرة فيه فان المتكلم يلقي بكلامه في مكرو تلفون « آلة تقوية الصوت الضعيف » بل ربما ادى الجهر بالقول فوق العادة الى فوات بعض الاحرف او عدم تمكنها من سمع المخاطب

يضعون في المطابخ موازين تسمى ميزان المطبخ يزنون بها مايشترون من لوازم الطبخ ونحوه لكي يتيقنوا نصح البائع او خيانته · وعلم الباعة بمثل هذا مما يحملهم على استقامة وحذر من التطفيف بالوزن · و يتخذون الريش حشواً لالحفة الفراش التي تكون من كتان غالباً فيجمعون في صنعهم هذا بين دفئها وخفة وقعها و يستعملون للطبخ بارشاد من نظارة الصحة العمومية القيصرية قدوراً من الالومنيوم « معدن ابيض كالفضة » لان من خواص هذا المعدن انه لا يفسده حامض ماء البارود ولا يتضرر من حامض الكبريت الا اذا مسه مراراً متعددة ثم ان مايجتمع من مائه لا يسري الى جسم الانسان بضرر ذي بال والقدور والاواني التي تصاحب العساكر انما تؤخذ من هـذا المعدن لخفة حمله وقلة اذيته ·

وفي الفنادق الشهيرة ماعدا الساعات المنبهة المتداولة آلة تلصق في الجدران المحاذية للسرر بحيث تنالها يد المضطجع فيستعملها للافاقة من النوم في وقت معين فتصدح في الوقت نفسه بصوت رخيم يستمر امداً طويلاً ولا ينقطع الا اذا اسكتتها يده بنحو بل وضعها

« الديانة »

ينتحل معظم الشعوب الالمانية مذهب البرتستانت . واول من اطلق لذلك الشعوب في العقائد ولم يأخذ عليها في تقاليدها فردريك الكبير فخففت ولايته فتناً كانت التعصبات الاعتقادية تنفخ في جمراتها

وصرح بعض اساتيذهم بمزية القرآن في الدعوة الى التوحيد الخالص وفهمت عنه ان لدلائله واساليبها اذ اصبحت ترجمته تسعى بين ايديهم اثراً في تأييد الاعتقاد بوحدة الاله . ومما اخذوه في شعار الديانة ان رسموا في منطقة كل عسكري جملة نعر بها الله معنا . و يغلب على فلاسفتهم التمسك بما يدينون ولا يمرقون الى الالحاد مثل كثير من فلاسفة اوربا الغربية . فاشهر فلاسفة الالمان « كنت » المتوفى في اوائل القرن التاسع عشر وقد تعرض في تأليفه المسمى « انتقاد العقل الخاص » للاستدلال على وجود الخالق وهذا التأليف اعظم كتاب يعتمد عليه فلاسفتهم

« الجد والعمل »

يعمل الالمان في حياتهم على شاكلة سياسيهم الكبير بسمارك القائل ان استراح صدأ فاذا رأيتهم لا سيما في غرة النهار وهم ينتشرون في الارض بخطأ سريعة ونشاط يتمثل لك الجد في اوسع مظهره و ينكشف لك الفرق مابين العامل والقاعد في اجلى صوره

وفي بعض احصائيات ليست ببعيدة ان « ٥٢ » في المئة من السكان يرتزقون من الصنائع وان المعامل المنشأة في شمال المدينة وشرقها تحتوي على اكثر من ثلاثمائة الف عامل

لا يلاقي المتجول في انحاء المدينة على سعة منطقتها طائفة تتسول او يسمع لها نغماً وتخطر لي ذكرى اني لم القى من السائلين في اشهر الاقامة هناك اكثر من عدد انامل الكف الواحدة وهم اما رجل قطع جناحه او عجوز بلغت من الكبر عتياً . ولا عجب اذا لم نشاهد كثيراً من العجزة يتكففون فان في الباب التاسع عشر من قوانينهم المدنية ان تقوم الحكومة بعيش من قعد به العجز عن الاكتساب بنفسه

« المعاهد العلمية »

تأسست في برلين كلية يعمرها « ٢٥٠ » استاذاً و « ٦٠٠٠ » تلميذ ومن شعبها مدرسة الالسن الشرقية المنشأة في سنة نيف ١٨٨٠ و يتعلم في هذه الشعبة نحو (٥٠٠) تلميذ

والمدارس من غير هذه الكلية لم احط بها حساباً وانما عرفت منها مدرسة للصنائع بها نحو (٣٠٠٠) تلميذ ومدرسة للزراعة بها (١٠٠٠) تلميذ ومدرسة لطب الحيوان بها « ٥٠٠ » تلميذ ومدرسة للمهندسين بها « ٤٠٠٠ » تلميذ · وانشأوا منذ خمس سنوات داراً في « دالم » على جانب من برلين وجلبوا اليها كل مايفتقر اليه علماء الطبيعة من ادوات التجربة والوسائل المساعدة على البراعة الفائقة في هذا العلم والمقدرة الواسعة في استنباط نتائجه وقد اصبحت هذه المحلة دار اقامة لكثير من علماء الطبيعة

وشرع فردريك الاول الذي نصب ملكاً على بروسيا في اوائل المائة الثامنة عشرة بانشاء دار كتب يقدر ما في خزائنها من المجلدات بمليون ونصف · ومن بينها قسم للكتب التركية وآخر للكتب العربية · طفت بعض خزائن هذا القسم فكنت اتناول كتاباً بعد آخر فاجدهما مختلفين في فنيهما اختلافاً بعيداً ثم طالعت الفهرس فالفيته مرتباً على حروف المعجم بحيث تسرد فيه الكتب التي تشترك باوائل اسمائها في حرف من حروف الهجاء على نسق واحد وان تفرقت في موضوعات فنونها فقرأت في حرف الهمزة مثلاً احكام القرآن لابن العربي · اسعاف المبطي · الاعلام بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ · انفاذ الاوامر الالهية بنصرة العساكر العثمانية وانقاذ الجزيرة العربية · وخصوا قسماً منها بالخرائط الجغرافية العتيقة والحديثة وبها معرض نضدوا فيه آثار الخطوط العتيقة وما سبق لحروفها من الاشكال الغريبة · وفتحوا في طبقتها الاولى للمطالعة محلاً سمكوا بناءه في شكل مثمن فسيح وصففوا فيه مكاتب وكراسي في دائرة كبيرة ومن فوق كل مكتبة مسرجة من الكهرباء · واعدوا قبالة هذا المحل بهواً في شكل مربع مستطيل لمطالعة الجرائد والمجلات خاصة ويماثله في طبقة عالية محل لمطالعة الكتب العربية والتركية او النسخ منها

ولا يمكن احد من كتاب الا اذا كانت بيده ورقة الاذن في المطالعة فاذا احرز ورقة الاذن ممن له النظر في اعطائها واراد المطالعة او النسخ لم يسلم اليه الحافظ الكتاب الا بعد ان يثبت في ورقة رسمية اسم الكتاب وعدده ويبين هل خط بالقلم او بالمطبعة ثم ينهيها باسمه وصناعته ومحل سكناه

يسمح قانونها باعارة الكتب المطبوعة دون ماخط بالقلم لانها قد تصاب بضياع فيصعب ايجاد مثلها وجعله بمكانه ولا سيما ما يكون له اثر تاريخي كالكتب المخطوطة باقلام مؤلفيها او غيرهم من مشاهير اهل العلم

« نظامات علمية »

تنقسم المدارس الى ابتدائية واعدادية وجامعة « كلية » فيستمر التلميذ من السنة السادسة الى الرابعة عشرة في القسم الابتدائي ثم يتمادى في الاعدادي ست سنين فينفصل عنها الى الجامعة و يبقى بها ثلاث سنين فان كان من طلبة علم الطب فسحوا له في الامد الى منتهى خمس سنين

والتعليم الابتدائي منتشر في جميع الطبقات عَلَى طريقة جبرية فيتحتم على الولد الاستمرار في دورته الى اقصى غاية · وعلى وليه ان لا يمنعه بعد هذه الدورة من الاختلاف الى المدارس الاعدادية مقدار ثلاثة اعوام ولم تشرع الحكومة قسماً ليلياً للتلاميذ الذين هم من نفس المدينة واختاروا ان يبقى للتلميذ اختلاف الى اوليائه وانسة بهم ليراقبوا حالته و يرشحوه بشيء من آدابهم

يتعلم البنات في مدارسهن كل فن الا علم الالهيات اذ لا يليق بالمرأة عندهم ان تكون واعظة · ومن امثالهم المضروبة « المرأة في الكنيسة تسكت » تولى المرأة وظيفة التعليم على شرط ان تكون ايما فان اصبحت ذات زوج انفصلت عن خطتها

جرى القانون اولاً عَلَى منع المعلم من مجازاة التلميذ بعقوبة الضرب ثم الغاه ناظر المعارف وقال عندي ثقة بان لمعلمي مدارسنا حناناً على التلاميذ وعواطف تأبى لهم ان يبلغوا بالضرب الى ما فيه اساءة · لا يسوغ للتلميذ ان يتعاطى المسكرات ولو دخل في دور التعليم بالجامعة وقد قال لي احد اساتذتهم عند الحديث في هذا القانون ان تلاميذنا مثل المسلمين · كان التلاميذ يترنمون بقصائد في اللسان اللاتيني فابطلها القيصر وقال لا فائدة لهم في ذلك فاصبحت اناشيدهم الوطنية المانية محضة · يدرب التلميذ في المدارس الاعدادية على صناعة الخطابة و يطالبونه بان يحرر في كل شهر رسالة يبحث فيها عن بعض الموضوعات العلمية ·

اجر التعليم السنوي في المدارس الاعدادية (١٥٠) ماركاً وفي الجامعة (٥٠٠) مارك و يوازن المارك من نقودنا على وجه التقريب القطعة الفضية ذات الخمسة القروش · يتعين مدير الجامعة في كل سنة بانتخاب من اساتيذها ثم تقرر ولايته بتسمية من صاحب الدولة ·

ترسل الدولة في كل سنة وفداً من طلاب العلوم الى اميركا ليستطلعوا مدارسها

ويستكشفوا عماعساه ان يتجدد من اساليب العلم ونتائجه . يتلقى ابناء العائلة القيصرية تعاليمهم في مدرسة خاصة لا يغشاها الا من نشأ في مهد الملك او كان من اسرة راقية و يقال ان والد القيصر الحالي كان يود لهم لو انهم يتعلمون بالمدارس العامة حتى يلاقوا سائر الطبقات و يكونوا على خبرة محققة من احوالها

« مشروعات خيرية »

من مساعيهم النافعة ان الفوا جمعية تبحث عن البائسين من طرق خفية وتوجه اليهم في البريد صدقات من غير ان يشعروا بمصدرها . وقص علي بعض اساتيذهم ان احدى البائسات كانت ترتزق بصنعة الخياطه فوافاها ذات يوم صاحب البريد بـ ٥٠٠ مارك وناولها اياها فدهشت فرحًا واندفعت تسأل عن باعثها بالحاح . فابى ان يكشف لها عن الحقيقة . وترى هذه الجمعية ان التبرع بقسط عظيم على مستحق واحد انفع من توزيعه على طائفة ينال كل واحد منها حصة يسيرة

ومن الجمعيات عندهم جمعية (تخفيف المصائب) ومن اعمالها الحسنة ان تساعد من تنوبه مصيبة في جسده مساعدة ابتدائية ففتحت في اقسام العاصمة محالاً عينت لها اطباء ليسارعوا الى علاج كل من يطرأ عليه حادث او يفاجأه مرض في اثناء الطريق مجاناً

« ترجمتهم للقرآن »

ترجم القرآن المستشرق ركرت المتوفى اواسط المائة الماضية ولكن انصرم حبل اجله من قبل ان يتم ترجمته ثم ترجمه المستشرق « هنينك » وهو يعيش في مدينة « فرانكفورت » ترجمة تامة الا ان الاول يراعي في الترجمة بلاغة اللسان الالماني فلا يبالي بالتقديم والتأخير والتعبير عن الحقيقة بالمجاز مثلاً . والثاني يحافظ على ترتيب الآية وحقيقتها في الغالب . وقد تتبعته في كثير من السور بالمقدار الذي وقفت عليه من هذه اللغة مع الاستعانة بالكتب اللغوية الالمانية العربية فوجدته ينظر الى المعنى الاصلي و يتحرى في ادائه جهد استطاعته . ووضع غير هذين الرجلين ترجمة ثالثة لم اتتبعها ولكن قال بعض العارفين باللغتين انها بعيدة عن المطابقة وليست في القرب من الصحة مثل ترجمة « هنينك » . ونبأني الاستاذ « هردر » ان احدى الجمعيات راسلته بان تراجم القرآن التامة قد يضيق الوقت عن مطالعتها واقترحوا عليه ان يترجم لهم آيات من سور متفرقة فاقتبس لهم مما ترجمه المستشرق « ركرت » آيات كثيرة في التوحيد والاخلاق والاحكام فطبعوها مجموعة وظهرت بينهم في مثال التراجم الاخرى

« عنايتهم بالعربية »

توصلوا الى العربية بتعليم لسانها ثم خدموا مؤلفاتها بالطبع واقتبسوا من حكمتها بالترجمة . الف الاستاذ (هردر) كتاباً في قواعد العربية فكان الكتاب المتداول عندهم في التدريس وقد توالى عليه الطلب هذه المدة باعادة طبعه . والف كتاباً يفسر فيه المفردات الالمانية بما يرادفها من العربية وانجز طبعه في مجلد ضخم ثم وضع كتاباً آخر اقتصر فيه على الكلمات المألوفة في الاستعمال

ترجم المستشرق الاستاذ (منفوخ) كتاب علاج العيون لعمار الموصلي وفصل علاج العيون من كتاب علي بن عيسى في صناعة الطب وفصل علاج العيون لابن سينا وكتاب وقائع العرب لابي عبيدة بن المثنى الكبير والصغير ونقل الى الالمانية ايضاً ترجمة حمزة الاصفهاني وترجمة ابن سعد مؤلف كتاب الطبقات . وترجم الشاعر ركرت احد المترجمين للقرآن ديوان الحماسة في شعر الماني . وترجم المستشرق (ريشر) قصائد ابي الاسود الدؤلي ومقامات الهمداني واطباق الذهب لعبد المؤمن الاصفهاني ومقامات الزمخشري والادب الصغير لابن المقفع وكتاب احسن ماسمعت للثعالبي وانجز طبعها ثم ترجم كتباً لم تبرز في عالم الطباعة مثل الادب الكبير لابن المقفع ومقدار الربع من معجم البلدان للبلاذري . وربما طبع الكتاب والرسالة بلسانها العربي وعلق عليها بعض بيانات بلسانه الالماني مثل شرح ابن الانباري لمعلقة زهير وشرحه لمعلقة عنترة ورسالة المذكر والمؤنث لابن جني ورسالة في بقايا الاشياء لابي هلال العسكري وكان هذا الاديب يحاورني في كثير من معاني الابيات او الحكم المنثورة وربما تعاطى الترجمة في اثناء قيامه بالوظيفة العسكرية وبمثل هذه التراجم القديمة والحديثة كان للسان العربي كما قال احد اساتيذهم اثر في رقي آداب اللغة الالمانية . ويشهد بصحة ماقاله ذلك الاستاذ ان اشهر شعرائهم (كيتي) المتوفى سنة ١٨٣٢ نظم قصيدة ابراهيم عليه السلام في اسلوب فلسفي وصرح انه اقتبسها من القرآن الكريم . والمعروف عندهم من هذا الشاعر المستشرق انه كان يحترم الاسلام ويعترف بحكمته

« عنايتهم باللسان العثماني »

ليست عنايتهم بالعربية لهذا العهد باوسع من وجهتهم المصروفة في اللسان العثماني فقد نبأني احد المعلمين في مدرسة الالسنة الشرقية ان المتلقين للسان العثماني هذه الآونة

يناهز عددهم ٢٠٠ بعد ان كانوا في السنين الماضية لا يتجاوزون نصف العشر من هذا المقدار ولبعض العثمانيين دروس خاصة يتلقاها عنهم في ادارة الاخبار الشرقية ملأً من الالمان · وصرف رئيس المستشرقين الاستاذ هرتمان همته الى هذه اللغة ولفت نظره الى تتبع آدابها بطلب حثيث من عصابة المستشرقين فنهض يحرر المقالة تارة و يلقي المحاضرة تارة اخرى · وانعقدت منذ اشهر لجنة توالي جلساتها في دار الكتب العامة وتنظر في القسم المؤلف بلهجة عثمانية

« اخلاق وآداب »

يعرف الالماني بمتانة العزم وقلة الانقياد لخواطر اليأس وكنت طالعت مقالات لبعض اعدائهم الذين لا يشبعون لهم الذكاء الفائق وسرعة الوصول الى الدقائق فرأيتهم يسلمون لهم طبيعة احتمال الشدائد والثبات على الاعمال الى ان يحرزوا فيها نتيجة حتى جعلوا مقدرتهم العلمية او مايظهر على ايديهم من المخترعات انما هو ناشيء عن التجلد والمثابرة على السعي والتجربة

ورسوخهم في خلق الصبر هو الاساس الذي قام عليه تبريزهم في القوة العسكرية ، ولطالما طفت غابات وعرصات حول الثكنات فرأيت الجندي نائماً بملابسه الجديدة ووسامه الشرف على فراش من تراب ولا وسادة له غير ذراعه او قطعة من جلود ، وما برح ملوكهم يحافظون على مايقوي هذه الخصلة في نفوسهم حتى بالغ فريدريك و يلهلم الاول في الحط من قدر المعارف زاعماً انها مدعاة الفشل واضعاف مزية الشجاعة وكان من اثر زعمه هذا انه لم يعين لتنمية دار الكتب التي انشأها ابوه سوى ستة ماركات في السنة · ولما استقلها اهل العلم حينئذ قال لهم : اليس في خزائنها كثير من الكتب المكررة فيمكن ان تباع و يستبدل بها كتب مستحدثة

استحكمت بينهم روابط الوفاق والمسالمة حتى اني اقمت ستة اشهر في برلين وثلاثة اشهر في قرية في ضواحيها ولم الحظ مشاجرة او اسمع صخباً ولو بين صبيين او امرأتين · فعدم ملاحظة الغريب لمثل هذا في مدة واسعة يشعر بقلة المنازعات العدوانية فيما بينهم · ومن نتائج هذه التربية التي يعاضدها اتساع طرق الاكتساب ان الامة اصبحت في قرار مكين من الامن فلا يوجس السائر في سواد الليل بضواحي المدينة خيفة سوء فما الحال بين جدرانها · ولقد كنت اخرج من محل الامري عند منتصف الليل

منفرداً واعود الى القرية ماراً على غابة ليس فيها انيس غير اشجارها المتعانقة وظلامها المتراكم ولا الاقي في الطريق وحشة او قلقاً ٠ وازداد اعجاباً بهذه الراحة الشاملة اذا تذكرت صعاليك ايطاليا وامثالهم كيف ينتشرون داخل مدينة تونس او الجزائر و يقطعون السبيل على سكانها بنهب الاموال وسفك الدماء حتى لا يمر الرجل في الطرقات المنحرفة عن الجادة بعد العتمة الا وهو يتوقع خطراً

يمنحون الغريب في بلادهم صدراً رحباً فيقف الرجل اذا استوضحته امراً او استخبرته عن مكان ولا يتسال عنك الا ان تستوفي منه بياناً كافياً وربما تفرس منك الحيرة في الطريق فيفاتحك بالسؤال عن الوجهة التي تريدها و يهديك اليها بالقول المفصل او بالمرافقة اذا لم تكن المسافة بعيدة ٠ اشتبه علي الطريق الى محطة القطار في بعض الايام فاستكشفت عنها احد المارين في السبيل فاخذ يصفها بالاشارة والامارة ولما لم يقنع بان عبارته وقعت مني موقع الفهم البين قفل راجعاً يسايرني بمقدار عشرين دقيقة حتى بلغت المحطة نفسها

يلاقي التجار والعملة عندهم الوارد بجباه منطلقة والسنة رطبة و يعرضون عليه ما عندهم من صنوف الاشياء التي يطلبها من غير تقاعس ولا سآمة ٠ ولهذا الاسلوب الادبي الاقتصادي اثر عظيم في رواج البضائع والسباق في مضمار التجارة ٠ فان من الناس من يقصر معاملته على محل او يبتاع منه البضاعة ولو شطت قيمتها رعاية لما يتجمل به صاحبها من سعة الصدر ورقة الخطاب

يغلب عليهم خلق الرصانة والتؤدة ولا سيما في المشاهد العامة والنوادي الجامعة ٠ امتطيت ذات يوم قطار المدينة فاتفق ان كان امامي رجل اظهر في مغازلته لامرأة طيشاً وسفهاً فوقع في خاطري انه اجنبي عن هذه الحاضرة ثم انه جاذبني عند انصرافي محادثة عرفني بها انه من احد الشعوب البلقانية

ومن آثار التعليم العام ان اصبحت الامة بمحل الثقة في نظر الحكومة فالقطار الكهربائي ذو درجتين متفاضلتين وتقطع اوراق الركوب بها من طاقات في اوائل محطاتها ولا اذكر يوماً ان مفتشاً دخل عربات الدرجة العليا ونظر في اوراقها بل فوضوا ذلك الى وجدان الشعب وامانته ٠ اما القطار البخاري الذي يسافر من العاصمة الى قرى تبعد بمسيرة ساعتين او اكثر فيتردد عليه مفتش الاوراق في الشهر مرة

« له صلة »

مخطوطات ومطبوعات

« معلقة عنترة »

(وعليها شرح ابن الانباري)

نشرها الدكتور اوسكار ريشر الالماني

لعلماء المشرقيات في الغرب ولا سيما في جرمانيا غرام شديد باحياء آثار العرب وآدابهم وتاريخهم ومن جملة الناشئين في هذا الفن ناشر هذا الشرح على معلقة عنترة نشره اولاً في مجلة الدروس الشرقية التي تصدر بالايطالية في رومية ثم اخرجه للناس على حدة فجاء في ٩٧ صفحة بطبع مشرق وعلق عليه حواشي تدل على اختلاف النسخ التي نقل عنها وهي نسخة مدرسة بكي جامع ونسخة مدرسة نور عثمانية في دار السلطنة العثمانية وقد رجع ايضاً الى نسخة مكتبة اسعد افندي في الاستانة ايضاً مما دل على تحقيق وتدقيق

« المعجم في بقايا الاسماء »

(لابي هلال العسكري)

هي رسالة نشرها الدكتور ريشر المشار اليه وقد قال المؤلف في مقدمتها « وقد عرفت حاجتك اطال الله بقاءك الى ذلك بادمانك صنعة الكلام ونظمه ونثره فعملت لك كتباً متوسطة تشحذ ذهن البليد فضلاً عن اللقن الذكي بحسنها وبراعتها وقرب مأخذها مع بعد غورها وكتباً دون ذلك لطافاً حسنة مختارة رغبت الزاهد ونشطت الفاتر مثل كتابي هذا وهو وان صغر حجمه فقد كبر نفعه لغريب ما تضمنه من اسماء بقايا الاشياء وبديع طريقته في الدلالة على سعة لغة العرب وفضلها على جميع اللغات وقد نظمت ما ضمنته اياه منها على نسق حروف المعجم

« شرح معلقة زهير »

(لابي بكر محمد بن القاسم الانباري)

وهذا الشرح على معلقة زهير بن ابي سلمى هو مما احياه بالطبع ايضاً الدكتور ريشر نقلا عن مخطوط في احدى خزائن كتب دار الخلافة كتب في سنة اربع وعشرين وخمسمائة بخط اسمعيل بن محمد بن الحسين الخطاط الجرباذقاني

« كتاب المذكر والمؤنث »

(لابن جني)

هي رسالة صغيرة في هذا الموضوع الجميل نشرها الدكتور ريشر المنوه به آنفا واقتبسناها برمتها في غير مكان من هذا الجزء · وقد نشرها اولاً في مجلة العالم الشرقي التي تصدر في مدينة او بسال من بلاد السويد بست لغات وهي لغات السكانديناڤيا : السويدية والدانيمركية والنيروجية ولغات العلم وهي الالمانية والافرنسية والانكليزية · وللمشتغلين بمثل هذه الابحاث طريقة عملية في النشر وهو انهم اذا لم يجدوا كتبياً او ناشراً يتولىّ عنهم طبع هذه الرسائل ينشرونها في مجلات المشرقيات ثم يخرجون منها نسخاً قليلة على حدة فتحفظ في المجلات و ينتفع بها في النشر مستقلة وهو مقصد حسن يثاب عليه المشتغلون باحياء آثار سلفنا

« النصرانية وآدابها »

(بين عرب الجاهلية)

للاب لويس شيخو اليسوعي القسم الاول

ص ١٤٩ طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩١٢

لصديقنا الاب شيخو همة لا تكل في نشر المقالات والرسائل والكتب التي تنهض بطائفته خاصة وتخدم الآداب العربية عامة وآخر مانشره في مجلة المشرق هذا المبحث في النصرانية في بلاد العرب والقسم الاول منه في تاريخ النصرانية وقبائلها في عهد الجاهلية يدور على محور ان جميع سكان البلاد قبل الاسلام كان اهلها نصارى من قبيل الدعوى التي بسطها حضرته في كتابه شعراء النصرانية (المقتبس م ٢ص ٦١و ١٣٢) وقام الخلاف بينه و بين بعض علماء التاريخ والبحث في هذا الشأن هو يثبت وهم ينفون ولا يعدم كل فريق جملاً يستقر بها او يستنبطها لتأييد دعواه وهذا المبحث وان كنا لا نوافق على بعض ما اورده في مطاويه مثل كلامه على نصرانية غسان فاننا نعجب بما وفق اليه من استكثار المادة من العربية والافرنسية والالمانية · ولو كتبت هذه المباحث من العلم المحض كما يبحث بعض علماء المشرقيات لعدت احسن مرجع جامع يستقي منه طلاب الحقائق ·

« ديوان السيد محمد سعيد حبوبي »
عني بتصحيحه وتذييله الشيخ عبد العزيز الجواهري ونشره
ولد صاحب الديوان السيد علي وطبع بنفقة الحاج
عبد المحسن شلاش في المطبعة الاهلية
في بيروت سنة ١٣٣١ ص ٣٢٠

صاحب هذا الديوان من شعراء النجف في العراق اشتهر بما نشر له في بعض المجلات الادبية من القصائد وشعره على اسلوب شعراء القرن التاسع والعاشر فيه جزالة ولكن قل فيه وصف الطبيعة والاجتماعيات وهو يدور على الموشحات والمراسلات والنسيب والمديح والتخميسات والمراثي وقد قال مصحح ديوانه فيه مانصه : « لا اجازف في الحكم لو قلت انه اشعر شعراء الشرق في فطرته الادبية فان جل شعراء العرب من جاهليين ومخضرمين ومحدثين ومولدين وان ابدعوا في اساليب الشعر وافانينه ان من جهة اللفظ وان من جهة المعنى الا انك لا ترى بينهم الجامع للجهتين الآخذ بزمام الشعر الحقيقي فالنابغة وجرير والكميت وزهير وابو نواس والابيوردي وحبيب والمتنبي والمعري والصنوبري والصفدي وغيرهم من فحول الشعراء وان تحركت روح الشعر في اناشيدهم واهازيجهم الا انهم بين مبتذل في اللفظ ومتعمل في المعنى كامرئ القيس والحطيئة وابو تمام والمتنبي وابو العلاء وبين قانع بزبرج اللفظ وزخرف المعنى كابن زريق وابن الانباري والصفدي والقيراطي فهؤلاء وان كانوا ائمة الشعراء ما ان تقلبت ادوار الشعر النار يخية الا انهم اشاحوا بوجه الشعر الحقيقي في اغلب اناشيدهم وخرجوا به عن دائرة الفطرة الطبيعية و يمتاز شعر من نترجم اليوم برجوعه الى الشعر الحقيقي ان من جهة اللفظ وان من جهة المعنى اما الالفاظ فانها السلسة الجامعة بين الطراوة والجزالة واما المعاني فكلها وصف وتصوير لمناظر الطبيعة ونعت لمشاهد الكون وتجسيم للخواطر تحوز الى فخامة التركيب جمال الاسلوب و بداعة الديباجة واستفزاز الشعور فها انت تسمع من اوزانه العروضية تسبيح الراهب وتهليل العاشق ولحن المدمن وحشرجة روح الحب والجمال وكأن شعره المرآة تعكس فوقها الارواح الشاعرة لا بل هو المجهر يريك صور الشعراء تتحرك بين اعاريضه وفواعيله فتارة يريك مسلماً يعزف عند قينته واخرى يطلك على ابي نواس يطرب حول باطيته وطوراً يجيئك بحبيب ثاكلاً بفقيده وطوراً يأتيك

بالوليد هازجاً جنب ممدوحه و يشرفك على كشاجم في جوقه والصنوبري في حقله ولو خلعت القريحة على شعره حلة الاسلوب العصري لبزّ شوقي وحافظ والزناتي وصبري وكان السابق المجلي في حلبتهم وهم كانوا مصلين عَلَيّ ان العارف يري فوق شعره مسحة من الذوق العصري اذ كله وصف وتصوير ونعت لمشاهدة الكائنات و يرى من ابياته من الحكم الرائعة والامثال السائرة مايكذب نبوة المتنبي كقوله من موشح :

واذا نبت البطاح اختلفا غلب الشوك على الورد الجني

وقوله : سل عن المسجد مني صيرفاً انني ادرى بما في معدني

وقوله : سماء اليوم مثل سماء امس وما نقصت سمواً او ارتفاعاً

فها انت ترى في هذه الابيات من الفلسفة الادبية مايحط دونها فكر ابي العلاء وقد سلك في شعره طريقة ابن الفارض

و بعد ان اورد الناشر ابياتاً من هذا القبيل ليس فيها الا كلام هو دون كلام الشعراء المبرزين بمراحل و بالغ هذه المبالغة الشرقية التي هي اشبه بالهزل منها بالجد قال : « وقد كانت تعنو لسماع شعره شيوخ ادباء العراق وتتهافت عليه ولا تهافت الفراش على ذبالة السراج حتى اذا جفت حديقة الادب والتوت عيدانها بين اناس تطلس من آثارهم عنوان الادب والنبوغ دعاه ذلك الى الاضراب عنه والانعكاف على الفقه والاصول

ولذلك صدر الديوان بوصف صاحبه بانه « اشعر شعراء الشرق وا كبر علمائه اليوم » وما كنا نظن المبالغة تبلغ هذه الدرجة بعد ان اشتهرت بالطبع دواوين المتأخرين والمتقدمين وربما كانت هذه الدعوى تجوز في بلد معين واهل اقليم خاص ولكن هذا التعميم لا يصح على اطلاقه فلا نقول مثلا ان شوقي او حافظاً او البارودي اشعر الشعراء ولا ان عبده وشميل والجزائري اعلم العلماء بل نذكر لكل واحد ميزته التي يمتاز بها على اقرانه و بها يثبت نبوغه بين معاصريه ومن سبقوه والافان الرجل الواحد لا يستجمع هذه الصفات كلها فيكون اشعر شعراء الشرق اليوم وا كبر علمائه اليوم

بيد ان لصاحب الديوان قصائد رقيقة تحسب من الجيد العصري كقوله :

ما لقلبي تهزه الاشواق خبرينا اهكذا العشاق

كل يوم لنا فؤاد مذاب ودموع على الطلول تراق

عجب كيف تدعي الورق وجدي ولدمعي بجيدها اطواق

كم لنا بالحمى معاهد انس والصبا يانع الجنا رقراق

عهد لهوي به الليالي ترامت ... مالها عرست به الاحداق
يالظعن به النياق تهادي ... نهنهي السير ساعة يا نياق
فباحداجك استقلت ظباء ... آنسات بيض الخدود رقاق
فارحمي يا أميم لوعة صب ... شفه الوجه بعدكم والفراق
كاد يقضي من الصبابة لولا ... ان تحاماه في الوداع العناق

وقوله: ضممتها فتثنت وهي قائلة ... بالغنج رفقاً لقد فصمت اطواقي
رقت محاسنها حتى لو اتخذت ... عرشاً بناظرتي لم تدر آماقي
و بت اسقي و باتت وهي ساقيتي ... نحسو الكؤس ونسقي الارض بالباقي
في مربع نسجت ايدي الربيع له ... مطارف الزهر من رند واطباق
تشدو العنادل في ارجائه طرباً ... والغصن يسحب فيه ذيل اوراق
كأنما النرجس الغض الجني به ... نواظر خلقت من غير احداق
والنهر مطرد والزهر منعكس ... والناي مابين تقييد واطلاق

« صبح الاعشى »

نشرت دار الكتب الخديوية بمصر كتاب « صبح الاعشى في كتابة الانشا » تأليف الشيخ ابي العباس احمد القلقشندي المصري المتوفى سنة ٨٢١ هـ ٠ وقد طبعت اولاً الجزئين الاولين منه ثم طبعت جزئين آخرين الثالث والرابع بطبع مشرق بديع وورق صقيل قل جداً في الكتب العربية ماطبع على مثاله الرائق

وهذا الكتاب (ص ١٧١ ج ٨ من المقتبس) هو دائرة معارف مكبرة لطالب الانشاء فيه جميع ما يحتاج اليه مما هو مبعثر في كتب مبعثرة « يذكر فيه مايشق طلبه من كتب متفرقة وتصانيف متعددة او يكون في المصنف الواحد منه النبذة غير الكافية ولا يجتمع منه المطلوب الا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة » او هو كما وصفه «مبسوط يشتمل على اصول كتابة الانشاء وقواعدها و يتكفل بحل رموزها وذكر شواهدها مستوعباً من المصطلح ما اشتمل عليه « التعريف » و « التثقيف » موضحاً لما ابهماه بتبيين الامثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف متبرعاً بامور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها متنقلاً من توجيه المقاصد وتبيين الشواهد بما يعرف به فرع كل قضية واصلها آتياً من معالم الكتابة بكل معنى غريب نائلاً الناظر في هذا المصنف عن

277

رتبة ان يسأل فلا يجاب الى رتبة ان يسأل فيجيب منبهاً على ما يحتاج اليه الكاتب من الفنون التي يخرج بمعرفتها عن عهدة الكتابة ودركها ذاكراً من احوال الممالك المكاتبة عن هذه المملكة مايعرف به قدر كل مملكة وملكها مبيناً جهة قاعدتها معرفاً الطريق الموصل اليها براً و بحراً وانقطاعاً واتصالاً ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها اكمالاً للتعريف ضابطاً لاسمائها بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف

هذا اجمال لما يحوي الكتاب اما التفصيل فلا يقف عليه الناظر الا بتصفحه من اوله الى آخره لانه حوى كل مايلزم المتعلم لا المنشئ فقط فيخرج منه مثلاً مختصر في البيان ومختصر في اللغة وآخر في الشعر وآخر في الحيوان وآخر في النبات وغيره في علم الفلك وسابع في الجغرافيا وثامن في التاريخ وتاسع في مصطلحات الدول في رسمياتهم وادارتهم الى آخر مافيه مما يوسع دائرة التصور و يسقط فيه الكاتب على كل مايلزمه من المواد ليكتب عن علم وفهم ·

وفي هذين الجزئين الاخيرين الثالث والرابع مطول من علم الخط بالاشكال والرسوم اللازمة بحيث لم يترك بعده مجالاً لقائل وقد استغرق هذا المبحث ٢٣٦ صفحة اي نحو زهاء ثلث المجلد الثالث ولكنه شفى الصدر وكان مأخذاً في هذا الباب على حين قلت المواد التي يعتمد عليها في هذا المبحث وقد اجادت المطبعة بان طبعت على الحجر مع طبع الحروف جميع الصور بالخطوط التي اوردها المؤلف فكانت كأن الانسان يرى النسخة الاصلية

وفي هذا الجزء كلام جليل على المسالك والممالك ذكر فيه الارض والاقاليم والبحار والابعاد والخلافة ومقراتها وترتيبها في كل عصر ومصطلحات الدول الاسلامية وافاض في مملكة الديار المصرية وخططها ونيلها وخلجانها وامهات مدنها وزروعها ومواشيها وحدودها واقاليمها وتاريخها القديم وكورها القديمة وملوكها جاهلية واسلاماً الى عصره وترتيب احوالها وجسورها واموالها ومكوسها ومصطلحات دواوينها وموظفيها وجندها واعيانها والجزء الاول ٥٣٢ صفحة وفي الجزء الرابع تتمة هذه المباحث في المصطلحات المصرية وفيه كلام مستوفى على المملكة الشامية وما يتصل بها من بلاد الارمن والروم و بلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة مما هو مضاف الى هذه المملكة وقد توسع في الكلام على الشام لانه كان تابعاً لحكومة مصر اذ ذاك وتكلم فيه عن ذوق وتتبع شأنه في كل الابحاث التي طرقها في كتابه بحيث يصور الاشياء كأنك تراها عياناً وفي الجزء الرابع

مقالات في الممالك الحجازية واعمالها وملوكها ومصطلحاتها وتكلم على الممالك الصائرة الى بيت جنكزخان وهي ايران والجزيرة الفراتية والعراق وخوزستان والاهواز وفارس وكرمان وسجستان والرخج وارمينية واذربيجان وايران والجبل وخراسان وزابلستان وتوران وغيرها وفي كل ذلك اعتمد النقل عن الثقات بذوق وحسن اختبار كأن المؤلف ساح هذه البلاد وعرف مصطلحاتها بنفسه وهو يعزو لمن يأخذ عنهم من المصنفين والسائحين والكتب كانت في عهده مبذولة محفوظة اكثر من الآن وعندنا المطابع ووسائط النشر الموفورة . وقد وقع الجزء الرابع في ٤٨٧ ص

احسن ناشرو الكتاب بالتعليق والتحشية عليه مما دل اكثر الاحيان على تحقيق وتتبع لاثبات الرواية الصحيحة ووضع الروايات المختلفة اما الاغلاط المطبعية فهي اقل من كل كتاب نشر في مصر اللهم الا المخصص لابن سيدة وقد احسنت دار الكتب الخديوية بان ارخصت ثمنه بالنسبة لا كلافه بحيث يتيسر لكل طالب علم ان يقتنيه ويزين به خزانته فيستغني به عن كثير من الكتب التي لا توجد الآن واذا وجدت فاثمانها فاحشة لا يتيسر لكل انسان اقتناؤها فنحث كل عارف باللغة العربية على اقتنائه ونشكر للناشرين والطابعين والمصححين عنايتهم باحياء آثار السلف على هذا النموذج الرائق .

جريدة الشرق

صدرت هذه الجريدة منذ نحو ثلاثة اشهر في مدينة دمشق وهي اعظم جريدة عربية بحجم واسع ومادة غزيرة مصورة في الاحايين وقد ارصد لها رأس مال كبير وعهد بانشائها الى جلة من العلماء المفكرين فجاءت بعد اتخاذ اسباب النجاح كلها نافعة للامة العربية عامة وللمسلمين خاصة تستطيع خدمة الخلافة العثمانية والجامعة الاسلامية على ما يجب . ويسجل صدور مثل هذه الصحيفة الراقية في باب ارتقاء الافكار والآداب العربية في هذه الديار حقق الله رجاءها الى نيل الغاية التي ترمي اليها من خدمة الافكار الصحيحة والسياسة الرجيحة وبث العلوم والدعوة الى الاصلاح الحقيقي من طريق العقل والنقل

اخبار وافكار

الطلاب والطالبات في السلطنة

نشرت نظارة المعارف في مجموعة الاحصاء ان عدد الطلاب الذكور في المدارس الابتدائية العامة في الممالك العثمانية ٣٠٠٧٧٦ طالباً وعدد الاناث ٤١٢٩٣ وعدد الذكور في المدارس الخصوصية ١٢٦٢٨٤ وعدد الطالبات ٦١٥٧١ وعلى هذا فيكون مجموع الطلبة في السلطنة العثمانية ٤٢٩٩٢٤ بينهم ١٠٢٨٦٤ من البنات و يوجد في المدارس الابتدائية غير المسلمة ١٥٢٧٤٤ طالباً ومقدار الطلاب في باقي المدارس كما يلي : (١٥١٨) في دور المعلمين و (١٠١٠) في المدارس التالية و (٦٦٨٨) في المدارس العالية و يداوم في بيلهجك وازمير وادرنة وچتالجة على المدارس (٥٠) في الالف او اكثر والبلاد التي يختلف فيها الطلاب الى المدارس اقل ما يمكن هي الموصل واورفه وديار بكر وتوقاد فهنا يداوم من ١—١٠ في الالف

اما البلاد التي تداوم فيها البنات على المدارس اكثر من غيرها فهي قرق كليسا وچتالجة فانه يداوم من الطالبات على المدارس من ٣١—٥٠ على عكس اورفة وكركوك وتوقاد وقسطموني فانه يداوم على المدارس طالبة واحدة في الالف اما البلاد التي لا تكاد تجد فيها طالبات تختلف الى المدارس فهي الوية السليمانية وحكاري وحوران مما يذكر بقول الشاعر التركي توفيق فكرت بك القائل قلبك بحسرة الامة التي لا تعلم بناتها لانها تحكم على ابنائها باليتم المعنوي

الزراعة في سورية

نشر داو يد تريتش من الالمانيين الاخصائيين في الزراعة مقالة في احدى المجلات الالمانية اليك ترجمة ماقال فيها : من المعلوم ان الزراعة في الممالك العثمانية هي الاساس الوحيد الذي يبنى عليه الاقتصاد الوطني وقد جرى البحث كثيراً في احتمال ترقي العثمانية في ميدان الصنائع ومن رأي بعض الاخصائيين في العلوم الاقتصادية انه يمكن ارتقاء الصنائع في البلاد العثمانية قبل الزراعة في وقت القصر من المخمن لها اذا صلحت

اصول الزراعة في المالك العثمانية ومما لا ريب فيه ان التراب يمنح الاهلين ثروة ورفاهية لان غلات المالك العثمانية الى الآن لاتقبل القياس مع المقدار الذي يمكن ان تعطيه

ومما هو طبيعي ان الاراضي التي تظل السنين الطوال خالية لاتعود اليها قوتها الانباتية في بضع سنوات الا انه من المحقق ان قوتها الانباتية هذه تعود اليها . نحن الغربيون اذا بحثنا في البوادي في المالك العثمانية تمر على خاطرنا في الحال الاراضي المملوءة بالاكوام من الرمال مع ان هذه الصحاري ليست من الاراضي التي لاتزرع بل انها اراض خالية منذ سنين طوال وعليه فان البوادي التي هي من هذا القبيل في البلاد العثمانية يمكن اعمارها والاستفادة منها حتى ان كثيراً من هذه البوادي هي من الاراضي الاكثر انباتاً وهي بقليل من العمل تكتسب قوة انباتية تضمن لصاحبها الثروة

صادف القرن الثامن عشر دور تناقص النفوس في آسيا الغربية وفي ذاك الحين اضحت الاراضي بحالة البادية بسبب عدم زرعها ومما لا شك فيه ان الاراضي الرملية المتروكة التي شاهدناها في سورية منبتة وتعطي محصولاً اكثر من الاراضي الاكثر انباتاً وفي السبعين سنة الاخيرة بدأت تتزايد النفوس بدرجة محسوسة وهذا الازدياد في النفوس حدث في بعض المالك العثمانية بصورة لم يشعر بها ظاهراً و برقي ذلك اتسعت بعض المدن وتأسست قرى جديدة وفي كل نقطة من البلاد العثمانية كثرت فيها النفوس زادت القوة الانباتية مثال ذلك ان قصبة غزه كان عدد نفوسها سنة ١٨٤٠ : (٢٠٠٠) فصار ١٦٠٠٠ في سنة ١٨٨٠ واليوم يبلغ عدد نفوسها ٤٥٠٠٠ و بفضل كثرة النفوس عمرت وزرعت الاراضي التي تحيط بغزة واصبحت بلاداً زراعية تغل كثيراً من المحصولات التي تصدر الى الخارج فتحسن فيها صنف القطن في الآونة الاخيرة تحسناً ظاهراً ولا يمكن للمسافر في هاتيك الجهة ان يقطع مزارع الليمون الكبيرة باقل من شهر واحد . هذا عدا عن حقول الحنطة والشعير التي تمتد مسافات شاسعة في جنوبي وشرقي غزة وقد فحص احد المتخصصين الحنطة التي تنبت في غزة وحكم انها محصولات صحراء . وعدا الحبوب اصناف اللوز والزيتون والاثمار اللذيذة ولعدم اعتناء سكان البلاد بالزرع على الاصول الحديثة فالايراد قليل بالنسبة الى جودة التربة المهملة

وحيث ان الماء قليل الغور في اكثر تلك الجهات فري الاراضي على الطراز الحديد سهل جداً وكيفية ري الاراضي بسيط ايضاً لا يحتاج لاستعمال الآلات الزراعية

الميكانيكية ونظراً لقلة غور المياه كما ذكرنا يكتفى بتخطيط المجاري تخطيطاً بسيطاً ووضع المضخات بالمراكز الضرورية لتوزيع المياه وتشعيبها في جميع الخطوط وهي وسائل بسيطة لاتكلف المزارعين الاثمان الباهظة اذ ان الاراضي التي يشتغل فيها المزارع بيده لاتنتج المحصولات التي يؤمل الاستفادة منها

ولا اقصد بهذا الشرح بيان الحالة عن اراضي غزة وما حواليها فقط فان الوصف الذي قدمته شامل لسواحل سورية وشبه جزيرة سينا ايضاً وما كانت بيروت و يافا الا مدناً صغيرة منذ زمن غير بعيد كانت نفوس يافا ٦٠٠٠ في سنة ١٨٥٤ فاضحت اليوم ٦٠٠٠٠ وكانت نفوس بيروت في سنة ١٧٨٢ (٦٠٠٠) فصارت (٢٥٠٠٠) في سنة ١٨٦٥ وارتقت الى (١٠٠٠٠٠) في سنة ١٨٨٥ وهي اليوم (٢٠٠٠٠٠) وعَلَى هذا قس باقي المدن

ومع ذلك فان المدن التي يراد اعمارها ورقيها لا يتم لها ذلك ما لم تزرع الاراضي التي تحيط بها وجميع مدن سورية محاطة باراضٍ منبتة للغاية وان بعض الجهات من هذه الاراضي وان تكن مستورة بالرمل فانها لم تفقد قوتها الانباتية والقسم الساحلي من هذه البلاد منبت للغاية وما عدا ذلك فان اقليم البحر المتوسط اللطيف يساعد على انتاج المحاصيل والبلاد الساحلية من الممالك العثمانية تخرج زيتوناً جيداً قل نظيره و يمكن قياس هذا الزيتون فقط بالزيتون الموجود في افريقية الشمالية وكاليفورينا وافريقية الجنوبية والجنوبية الشرقية واستراليا وتنتج السواحل العثمانية الزبيب والتين واللوز والمشمش والخوخ والدراق والرمان والبطيخ الاخضر والاصفر والفوم والبصل والقطن والتبغ وغير ذلك من الزروع وتكثر فيها البساتين و يمكن ان تكون هذه ذات مكانة اهم من مكانتها الحاضرة وعليه فان هذه الاراضي المنبتة ذات الهواء اللطيف اذا اعطيت لها رؤوس اموال صغيرة وجلب لها قليل من الادوات فما لاشك فيه ان اهاليها يعيشون بالرفاهة والسعادة و بالطبع فان العثمانية التي هي مملكة زراعية يقتني اهلوها برقي الزراعة وتمتلي صناديق الحكومة

وان المانيا بعد الحرب لتتدارك حاجتها الزراعية من الممالك العثمانية وعليه فان هذه البلاد تعد القسم الاعظم من لوازم النسج لالمانيا باصول الالمانيين الفني وآلاتهم ورؤوس اموالهم وان المواد التي تجلبها المانيا من البلاد العثمانية هي القطن والصوف والزيت والزبيب والعنب وجميع انواع الفواكه والتبغ والنباتات الليفية ومواد السروج واذا

استفيد حق الاستفادة من هذه البلاد فان رأس المال الذي يطرح يضمن منفعة تعادل عشرة امثاله ·

دائرة المعارف

اول دائرة معارف مشهورة في اوربا كتبها في القرن العاشر للمسيح الفيلسوف الفارابي في بغداد ولا تزال محفوظة في مكتبة قصر الاسكوريال الاسباني · وقيل ان ابا الفرج كتب دائرة وطبع اول مجلد منها منذ ٦٧٢ سنة · اما اول من فكر بتأليف دائرة معارف فالصينيون · وقد اشتغل منهم بهذا المشروع العلمي العظيم الفان من العلماء · واسم دائرة معارفهم (ينك لوتانيان) وهي مقسومة الى ٢٣ الف جزء في ١١ الف مجلد مجموعها ٩١٧ الفاً و ٤٨٠ صفحة · واذا وضعنا الكتب صفاً بعضها فوق بعض يبلغ علوها ١٥٩ يرداً · وبالطبع لا يوجد في الصين نفسها الا نسخات قليلة كاملة من هذا الكتاب الهائل · اما اول دائرة معارف انكليزية فطبعت عام ١٦٢٠ والفرنسوية الفها ديدرو ودالمبر اللذان قربت كتاباتهما عهد الثورة الكبرى في فرنسا · اما الدائرة العربية فقام بها مرة واحدة بطرس البستاني وطبع منها هو واسرته ١١ جزءاً فقط ولم تكمل

جراحات الحرب

كان الجراحون في حرب السبعين بين المانيا وفرنسا منذ ٤٥ سنة يعمدون لمن اصابته شظية من قنبلة او رصاصة فيبترون العضو المؤوف او المصاب ولكن وسائط الجراحة على ترقيها في هذه الايام قد اورثتها الحرب البلقانية تجارب نافعة في البقاء على اعضاء من اصيبوا بشظايا او رصاصات فاصبح من يصاب في هذه الحرب بضرب في جسمه بمأمن من بتر العضو المصاب بل ان وسائط الجراحة قد خففت الويلات واكثر من يصابون الى سلامة

شجرة المطاط

على تخوم بوليفيا في اميركا الجنوبية شجرة مطاط استدارتها من اساسها ٨ امتار و ٣٥ سنتمتراً وتغل من المطاط مدة ١٢٠ يوماً من السنة ١٠ كيلوغرامات تساوي الآن ٢٧٠ الف فرنك بمعنى ان الشجرة تساوي ثلثمائة الف فرنك وهي لاسرة وطنية تعيش من ريعها مؤلفة من سبعة انفس

280

مادة جديدة

اكتشف احد اساتذة الفرنسيس مادة الفلوور Le fluor وهو زجاج يشبه الاحجار الثمينة واثبت انه موجود في جميع المعادن على كميات مختلفة بعد ان لم يكن معروفاً انه موجود الا في بعض المعادن النادرة فقال ان في كل ١٠٠ غرام من الاسنان ١٨٠ ميلغراماً وفي كمية من مثل ذلك من العظم ٥٦ ميلغراماً و ١٧ ميلغراماً من البشرة وميلغرامان من الدم و ١،٥٠ في اللبن الحليب وقال ان في الجنين من هذه المادة اكثر مما في البالغ وفي البيض اكثر من الدجاجة او الجلد او الشعر او الاظافر وهذه المادة هي التي تورث الاجسام صلابة كالملاط لاحجار البناء

الاجانب في سويسرا

احب بلاد المدنية الحديثة بلاد سويسرا الصغيرة الجميلة يزورها كل سنة ملايين من السياح ولا تزال الهجرة اليها متصلة حتى بلغ عدد الغرباء المقيمين بها سنة ١٩١٠ — ٥٢٠،٠١١ نفساً في حين كانوا سنة ١٨٥٠ — ٧١،٥٧٠ نفساً اي انه كان فيها على ذاك العهد غريب واحد لقاء ٣٢ سويسرياً واليوم واحد في كل عشرة من سكانها ومن مديرياتها ما فيه غريب واحد لقاء اربعة من السكان وزهاء ثلث هؤلاء السكان من الالمان فان عددهم ٢١٩،٥٣٠ وعدد الطليان ٢٠٢٨٠٩ والفرنسيس ٦٣٦٩٥ وعدد الروس ٨٤٥٧ ومعظمهم طلبة ففي كلية لوزان وحدها ٤٥٨ روسياً و ٣٠٠ سويسري وعلى كثرة مداهمة الاجانب لهذه البلاد خاف اهلها على سلامتهم ووطنهم وعاداتهم وتقاليدهم فاخذ ارباب الافكار فيها يفكرون في عدة طرق للنظر في مداواة هذا النقص المحتمل وقوعه كما هم يفكرون ان صناعة الفنادق التي طالما جلبت الغريب اليها قد قللت في البلاد من الايدي العاملة فصار الفلاحات يعملن في الفنادق بدل ان يعلمن في الحقول واحتاجت هذه في استثمارها وانباتها الى ايدي الغرباء

نوادي الشبيبة

القى الميرألاي فون هوف بك الذي عهدت اليه الحكومة تأسيس نوادي الشبيبة في البلاد العثمانية محاضرة في الاستانة قال فيها ما يلي :

« ان نوادي الشبيبة تشمل جميع العثمانيين الذين هم من سن الثانية عشرة الى الحادية والعشرين والغاية من تأسيس هذه النوادي هي تربية جميع الفتيان العثمانيين

وعلى الاخص في المحال التي لا يوجد فيها مدارس بدناً وروحاً واخلاقاً وترقية مداركهم وهذه النوادي تربي بلا استثناء الفتيان من سن الثانية عشرة الى سن الحادية والعشرين بلا مقابل وهي نوع من المدارس الذين حرموا منها تعلمهم ماهي حياتهم وكيف يمكنهم اكتسابها و يحمل كل فتى على الدخول الى هذه المدرسة والتحصيل فيها ولا يستثنى فرد واحد من ذلك والغاية من تأسيس اندية الفتيان عالية وهي تنمية القوة البدنية في الاولاد والفتيان بصورة متناسبة مع سنهم وتلقينهم ما يلزم لدوام صحتهم والمحافظة عليها وتمرينهم على احتمال المشاق وتعليمهم ادارة انفسهم وحركاتهم وان يكونوا اصحاب فكرة انتظام وان لا يبقوا في هذا السبيل في طور النظر بل يدخلون في طور العمل وان يربى فيهم الميل والمحبة للاستقامة والشرف حتى في اصغر الاعمال التي لا شأن لها وان يقدروا الاجتهاد متحدين لاجل المنافع العامة والمحافظة على الوطن وان يبدوا المعونة لوطنهم و بلادهم اوان التهلكة وان يدربوا على جرأة تزيل منهم التردد والخوف في هذا الصدد وان يتعودوا الاجتهاد بعزم لا يتزعزع وان يميزوا الحسن من القبيح والتمييز بالنظام والانتظام الى غير ذلك من المقاصد الشريفة ·

الجراد

انتشر الجراد في ربيع السنة الماضية في سورية جاءها من جزيرة العرب فاضر اضراراً كثيرة بالاشجار والزروع الصيفية حتى ان بعض الاشجار لم تبرح الى هذه السنة متأثرة من سطواته فلم تأت بثمر

الامراض

سرى الهواء الاصفر او الكوليرا الى مدينتي حلب ودمشق وما اليهما في ربيع هذه السنة جاءها من العراق وهذه اتاها من الهند واذ كان من المقرر ان عدواه تنتقل في الماء تيسر توقيف سريانه حتى لم يكد يصب به احد في دمشق لجودة الماء واتخاذ اسباب الصحة · وقد تفشت في المدن ضروب من الحميات اهمها الحمى النمشية واذ لم يهتد العلم بعد الى اسباب سرايتها فتكت بعض الشيء في سورية ولا سيما في البلاد التي تزدحم فيها اقدام الناس ثم انتقل الى القرى والبلدان الصغيرة

المقتبس

الكلية الصلاحية

ان امتنا الاسلامية العظيمة بعد ان سارت في ميدان الحضارة شوطاً قصياً . وتبوأت من منازل المجد مكاناً علياً . سقطت عن تلك المنزلة . وفقدت ما كان لها من العز والسطوة وليس العار في هذا السقوط مادمنا نراه يكاد يكون ناموساً عاماً في سائر الامم ذات المجد القديم كالرومان واليونان . وانما العار كل العار في ان تبقى الامة الاسلامية وحدها ساقطة في حفرتها متمادية في غفلتها فلا تنهض وتنشط وترمم ماتداعى من بنيانها كما اخذ يفعل غيرها من الامم القديمة . وقد قال بعض الحكماء : ليس الشرف في ان لاتقع بل الشرف انك اذا وقعت لاتلبث ان تنهض فلا يراك احد الا واقفاً

ولما حصل الاحتكاك بين العالم الاسلامي والعالم المتمدن الغربي في اواسط القرن الماضي اي بعد حرب القريم انتبه نفر من علماء الاسلام ورجاله العظام الى حالة المسلمين وما هم عليه من الانحطاط والخمول . وجعلوا يقلبون وجوه الرأي في تشخيص مرضهم وماذا عساه يكون علاجه الناجع . وحكموا جميعاً بان المسلمين اذا لم يعملوا على التخلص من هذا المرض بجد واهتمام قضى عليهم . واستأصل شأفتهم . وجعلهم طعمة لغيرهم . وكانوا يذكرون اسباباً جمة لهذا المرض . ولكنهم لم يكونوا يختلفون في ان معظم السبب فيه يرجع الى (عدم فهم الاسلام فهماً صحيحاً) او (عدم العمل بقواعد الدين المبين) حتى اصبح هذا الدين كالعضو الاشل واصبحت رجاله كأنهم لا وظيفة

لهم في هذا الوجود · مع ان الاسلام وتعاليمه الطاهرة هي السبب في السعادتين الدنيوية والاخروية ورجال الدين الاسلامي يجب ان يكونوا هداة الامة الى مناهج مجدها · والممسكين بيدها في كل موطن من مواطن حياتها وكل شأن من شؤون اجتماعها ·

من للقرآن والحديث واقوال السلف الصالح يستخرج منها الاحكام التي تقتضيها حالة العصر الحاضر غير رجال الدين ؟ من لوضع التآليف في العلوم الاسلامية ونشر الرسائل في الموضوعات الادبية والاخلاقية والحياة الاسلامية غير رجال الدين ؟ من لمنابر الخطابة ايام الجمع يعظ و يرشد و يحذر و يبشر غير رجال الدين ؟ من لمنصات الحكم في المحاكم الشرعية والحقوقية يقيم العدل و يصون المصالح غير رجال الدين ؟ من للدفاع عن الحقوق العامة والخاصة على صفحات الجرائد وفي ساحات المحاكم غير رجال الدين ؟ من للخطابة في النوادي والساحات العمومية بنشر الآداب والاخلاق والفضائل بين العامة غير رجال الدين ؟ من لتعليم النشء الاسلامي وتربيته تربية دينية فاضلة واجتماعية صحيحة غير رجال الدين ؟ و بالجملة من لوراثة الانبياء في هداية الشعوب غير رجال الدين ؟

ان في اصلاح رجال الدين اصلاحاً للدين والدنيا · اصلاحاً للمساجد · اصلاحاً للمحاكم · اصلاحاً للمدارس · اصلاحاً للعائلة · اصلاحاً للجيش

ان تقصير رجال الدين في فهم علوم الدين فهماً منطبقاً على حالة الحياة التي استجدت لهم في هذا العصر ادى الى تشويه وجه العدل في المحاكم · وخنق روح العبادة في المساجد · وتوهين رابطة الالفة في العائلة · وتلويث النفس بالجبن في ميادين الحروب

ولا يمكن ان يفهم رجال الدين تعاليم الاسلام فهماً صحيحاً منطبقاً على مصالحهم الحاضرة وملائماً لحالة عمرانهم الجديد ما لم يقرنوا بفهمها والاشتغال بها — الفهم والاشتغال بعلوم التمدن الحديث · ولا نرانا في حاجة الى الاستدلال على هذه القضية فقد حفيت اقلام علماء الاسلام وكلت السنة كبار رجاله في بيانها وايضاحها منذ خمسين سنة الى اليوم

فمصطفى رشيد باشا العثماني · وخير الدين باشا التونسي · والشيخ جمال الدين الافغاني · والسيد احمد خان الهندي · والشيخ محمد عبدة المصري · والشيخ عبد الرحمن الكواكبي السوري · واسماعيل بك غصبرنسكي التاتاري · والبرنس ميلكم

خان الايراني . — كل هؤلاء اشتغلوا في هذه المسألة و برهنوا على هذه القضية بما لا يحتمل الرد . ولا مساغ معه للجدال والنقض

وان تأسيس الخلدونية بتونس . وانشاء كلية عليكرة في الهند . وادخال العلوم الحديثة على الازهر وتأسيس دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي في مصر . كل ذلك يرمي الى الغرض الذي ذكرناه من جعل علماء الدين الاسلامي قادرين على القيام بوظائفهم في خدمة ابناء ملتهم من حيث جمعهم بين فهم تعاليم الاسلام فهماً صحيحاً . وتدبر طبيعة العمران الحديث تدبراً رجيحاً

ولم تأل دولتنا العثمانية (ايدها الله) جهداً في تحقيق هذه الأمنية وتنفيذ هذه الرغيبة فسعى خيري بك شيخ الاسلام في تأسيس (مدارس دار الخلافة) في عاصمة السلطنة . وانشاء (كلية المدينة) في مدينة سيدنا الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم

ولم يكن حضرة القائد الكبير احمد جمال باشا لتشغله مهام العسكرية عن خدمة هذه الفكرة الشريفة فانه امر بتأسيس كلية صلاح الدين الايوبي في القدس الشريف لتكون حلقة منضمة الى اخواتها من حلقات المعاهد الدينية الاسلامية التي أسست في العالم الاسلامي لتخريج علماء فضلاء مقتدرين على خدمة الاسلام . والاستفادة من تعاليمه الطاهرة في جميع المصالح والاحكام

و بعد فليست هذه الكلية سوى اثر من آثار عناية حكومتنا بالعلوم الاسلامية وحرصها على ترقية المسلمين ولمّ شعثهم من طريق الدين . والرجوع الى العمل باحكامه على ما يحب القائد الكبير احمد جمال باشا ان يقف علماء الاسلام على احوال هذا العصر واطوار عمرانه كما وقفوا على اسرار الفقه الاسلامي وتفاصيل احكامه — وهو يحب ايضاً السلطان صلاح الدين الايوبي و يعجب بشجاعته وفرط غيرته على الاسلام والمسلمين

فلما وقف على امر المدرسة الصلاحية وقيل له ان السلطان صلاح الدين كان أسسها في القدس باسم اتباع الامام الشافعي رضي الله عنه « كما هو مسطور ومقروء على عتبة بابها الى اليوم » و بلغه انها قد تغيرت معالمها . وتحولت اوضاعها الى غير ما اراده واقفها رحمه الله — وجد الفرصة اذ ذاك سانحة لاظهار آثار حبه للامرين معاً : حبه لعلماء الاسلام فيعيد اليهم هذه المدرسة باسم الكلية الصلاحية يتعلمون فيها ويتخرجون

بواسطتها في مختلف العلوم والفنون — وحبه للسلطان صلاح الدين فيعيد مدرسته ويحيي ذكره · وما اجمل الابطال يحيون ذكر الابطال

مرّ على الكلية الصلاحية سنة ونصف وكان طلابها في السنة الماضيـة ٣٣٣ نحو مئة طالب · واذ كان مشروعهـا في بدء امره تكرر التغيير والتبديل في بروغرامها وطرق التعليم فيها · اما في هذه السنة ٣٣٤ التي انتهت فكان عدد طلابها (١٥٠) وكان بروغرامها اثبت · وطرق التدريس فيها اقصد واضمن

وللكلية هيئة ادارة وهيئة معلمين وكلهم يبلغون نحو بضعة عشر فاضلاً · وبقية مأموريها وخدمتها يبلغون الثلاثين وهي مرتبطـة مباشرة بمقام المشيخة الاسلامية الجليلة وبنظارة الاوقاف

وطلابها اليوم ما بين الاثنتي عشرة والخامسة والعشرين من اعمارهم ومعظم هؤلاء الكبار تركوها في المدة الاخيرة وتجندوا في الخدمة المقصورة والكلية تقبل من الطلاب كل سنة مئة طالب موزعين في قبول الكلية لهم — على ولايات السلطنة العثمانية والبلاد الاسلامية الاخرى بنسبة مقررة في تعليمات الكلية · وكلهم مجبرون على التزيي بلباس العلماء المعروف : عمامة بيضاء وجبة سوداء منطبقة على الكمين : ويتلقون في الكلية العلوم الشرعية والحقوقية والفنون المختلفة والالسنة المتنوعة · وينـامون في الكلية ويأكلون فيها ويلبسون عَلَى حسابها · ولا يكلفون شيئاً سوى الاجتهاد في دروسهم · والعمل بدينهم · والاخلاص لدولتهم ووطنهم · والاطـاعة لقانون كليتهم · ومدة التحصيل فيها عشر سنوات : سبعة منها للتعليم التالي (سلطاني) وثلاث للتعليم العالي · وليس فيها تعليم ابتدائي

وطلابها يكلفون — وراء تحصيل العلوم والفنون — دراسة القرآن الكريم واستظهار طائفة من سوره · وتلاوته بالترتيل ورفع الصوت في اجتماعات خاصة بهذا الشـأن · ويمرنون عَلَى التربية البدنية · والالعاب الرياضية · ويدربون على آداب السـلوك والمعاشرة ومراعاة النظام · في غرف الطعام وقاعات الحفل العام ولهم قاعة خطـابة يتمرنون فيها على القاء الخطب والمحاضرات وقصائد الشعر — سواء كان ذلك من مقولهم او مقول غيرهم · كما يلقي الاساتـذة شيئاً من ذلك على مرأى ومسمع منهم فيزيدهم ذلك خبرة وحذقاً · ويخرجون في الاحايين الى ضواحي القـدس وقراها ومشهور اماكنها مشياً على الاقدام ثلاث ساعات او اكثر · ويحملون في ذلك الهواء

الطلق على الوثب والقفز والجري وتلوية الشوي (اطراف الجسم) وتليين العضل وتقوية مجموع الجسم · وقد نصبت لهم في باحة الكلية ادوات العاب (جمناستيك) خاصة بذلك · لقد شهدتهم مرة في ضاحية القدس يتسابقون تحت نظر مديرهم الفاضل واساتذتهم في قطع واد من احدى عدوتيه الى العدوة الاخرى فكانوا يعدون عدو النعام من منحدر العدوة حتى يصلوا الى اسفل الوادي ثم يشتدون الى العدوة القصوى ولا يزالون مصعدين في سند الجبل حتى يصلوا الى نقطة معينة منه وقد تكررت هذه المسابقة بينهم في وقت واحد فكانت جامعة بين الفكاهة والفائدة والتعب الشديد · وهكذا الامم التي تريد ان تحيا في راحة يجب عليها ان تقضي شطراً من حياتها في تعب

و يدرب ذو القابلية من طلاب الكلية على ممارسة الالحان والقاء الاناشيد بتغن وتطريب فيحدث ذلك في نفوس الطلاب راحة ونشاطاً يعوض ما تكون خسرته اجسامهم بفرط الدرس والبحث وعناء القيام بالوظائف المدرسية المختلفة · و يكلف طلاب الكلية جميعهم كبارهم وصغارهم القيام سحراً لصلاة الصبح · ولم يكن يحول بينهم و بين اداء هذه الفريضة اليوم المطير · ولا برد الزمهرير · وكأني انظر الى صغارهم يتوضأون في السحرة القرة والدم يسيل من اشاجعهم و براجمهم وسلامياتهم (١) وهم يتضاحكون و يتحملون ذلك بتجلد وصبر ومباهاة · وكنا نشجعهم على تحمل هذا الامر وننبههم الى فائدته من الوجهتين الروحية والجسمية · وانا لندعو لهذا المعهد بالتقدم والارتقاء · فان في ارتقائه ارتقاء للامة الى ذروة العز القعساء «المغربي»

منشئ هذه الرسالة هو الشيخ عبد القادر المغربي كان من اساتذة كلية صلاح الدين فهو حجة فيما يصف و يقول و يؤخذ من تعليمات هذه الكلية الاسلامية ان هذا المعهد ربط مباشرة بمقام المشيخة الاسلامية و بنظارة الاوقاف والغرض من الكلية تدريس العلوم الشرعية والحقوقية والفنون المختلفة والالسنة المتنوعة وتخريج رجال اخصائيين في هذه العلوم يقتدرون على الدفاع عن التعاليم الدينية و يصلحون لمباشرة الوظائف الشرعية والعلمية · ومدة التحصيل في الكلية عشر سنوات سبع منها (قسم تالي) وثلاث (قسم عالي) ولسان التعليم فيها اللغة العربية وتقبل كل سنة مئة طالب في

(١) الاشاجع مواصل الاصابع بالكف · والبراجم رؤوس العظيمات التي تنتأ عند قبض الكف · والسلاميات العظيمات الصغيرة في الكف

الصنف الاول موزعة على الصورة الآتية : عشرة من لواء القدس وخمسون من سائر الولايات والالوية العثمانية والاربعون من اقطار العالم الاسلامي · والخمسون طالباً الذين يؤخذون من العثمانيين يكونون بالمناوبة اما الطلاب الاربعون الذين يؤخذون من اطراف العالم الاسلامي فامرهم بحسب مايلي : اربعة من مصر واثنان من السودان والحبش واثنان من طرابلس الغرب و بنغازي ومن كل من تونس والجزائر وفاس وجنوبي افريقية واحد واحد وثلاثة من جاوة وفيليبين وثلاثة من الصين وكاشغر وخمسة من الهند واثنان من الافغان وواحد من بلوجستان واثنان من ايران وستة من تركستان (اي بخارى وخيوه وطشقند وسمرقند وما يلي ذلك) وستة من قفقاسيا واسترخان وقازان والقريم و بولونيا ·

و يفرض اثناء التعليم في كل ساعة من ساعات التدريس في الكلية من عشرين الى خمسين غرشاً و يجوز للاساتذة ان يأكلوا و يناموا في الكلية ولا يؤخذ من الطلاب اجرة التعليم وهم فوق ذلك يأكلون و يكتسون على نفقة الكلية ولكن اذا ترك احد الطلاب العثمانيين الكلية من غير عذر شرعي ضمن ليرة ونصف ليرة عثمانية لقاء كل شهر لازم فيه الكلية · وليس للكلية قسم نهاري بل كل الطلبة داخليون

وعلى الاساتذة ان يؤلفوا كتباً في العلوم التي يدرسونها ولا يوجد فيها مؤلفات وافية بالحاجة وان يلقوا محاضرات على الطلاب في الفنون المختلفة وتدعو الادارة من شاءت لالقاء محاضرات في العلوم التي اخصوا فيها وتمرن الطلاب على القاء الخطب و يدعى الى القدس في كل سنة احد مشهوري العلماء في العالم الاسلامي فيلقي محاضرات في مسائل العلم المتخصص به و يعقد لهذه المحاضرات مجالس في المسجد الاقصى يشهدها طلاب الكلية وتستغرق شهراً من الزمن و يخصص للاستاذ الذي يدعى على هذه الصورة من الثلاثين الى المائة والخمسين ليرة عثمانية لقاء نفقات و ينزل ضيفاً على الكلية وتقام سياحات للطلاب تحت رئاسة هيئة الادارة خلال اشهر العطلة بقصد البحث والتقصي في المسائل العالية والفنية · ولغة التدريس في الكلية هي اللغة العربية ومع هذا فيجوز ان يدرس مثل التاريخ العثماني ومجلة الاحكام العدلية وحقوق الدول والتاريخ السياسي باللغة التركية او لغة اجنبية وكل انسان اجنبي يدرس في الكلية يلقن بلغة اهله وتحصيل اللغات الشرقية والغربية في الكلية اختياري و يكون تدريسها بلغات اهلها على طريقة سهلة قريبة التناول

اما العلوم التي تدرس في الصفوف العشرة في الكلية فهي التفسير والحديث ومصطلح الحديث والفقه العبادات والمعاملات وتاريخ علم الفقه واصول الفقه وعلم الكلام وتاريخ علم الكلام وعلم التصوف وعلم التربية وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الاخلاق وتاريخ الفلسفة وعلم ماوراء الطبيعة والعلوم الحقوقية كالحقوق الاساسية والادارية وحقوق الدول وقانون الجزاء واصول الجزابة ومجلة الاحكام العدلية واحكام الاوقاف وقانون الاراضي والتجارة البحرية والتجارة البرية وعلم الاقتصاد وعلم المالية واللسان العربي (الصرف والنحو واللغة واصول الالقاء والمنطق والبلاغة وآداب اللغة) واللسان التركي (صرف ونحو وقراءة وكتابة وادبيات) والتاريخ والسيرة النبوية والتاريخ العام وتاريخ العرب والاسلام وتاريخ الترك والعثمانيين والتاريخ السياسي للعصر الحاضر وتاريخ الاديان السماوية والجغرافيا العمومية والجغرافيا الاسلامية والعثمانية والفلك ومن العلوم الرياضية (الحساب العملي والهندسة والجبر واصول مسك الدفاتر والحساب النظري والمثلثات والميكانيك) ومن العلوم الطبيعية (الزراعة المحلية والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات والمعادن وطبقات الارض وحفظ الصحة والتداوي الابتدائي) وفن الخط والرسم ومن الالسنة الشرقية الفارسي والاردو والتاتاري ومن الالسنة الغربية الالماني والافرنسي والانكليزي والروسي

ويشترط في الطلاب الذين يقبلون في الصنف الاول ان تكون سن الطالب لا اقل من اثني عشرة سنة ولا اكثر من خمس عشرة سنة سالماً من العاهات والامراض غير محكوم بجنحة ولا جناية ولا معروف بسوء الاحوال وبيده شهادة من المكاتب الابتدائية ذات الخمسة او الستة صفوف او يكون تحصيله بهذه الدرجة ويثبت ذلك بالامتحان وان يودع لدى ادارة الكلية سنداً مصدقاً من وليه او من جمعية او جماعة اسلامية او معهد علمي يتضمن كفالة مالية يمكن بواسطتها تحصيل ما انفق عليه في الكلية اذا اراد تركها من دون عذر شرعي . وعلى طالب الدخول ان تكون بيده تذكرة نفوس او تذكرة جواز « باسابورط » وشهادة المكتب الذي تخرج فيه وشهادة تلقيح الجدري وسند الكفالة المذكور وشهادة بحسن حاله تتضمن عدم الحكم عليه بجنحة او جناية وعدم اشتهاره بسوء الحال وتكون مصدقة من مجلس ادارة بلده او من احد معتمدي الدولة العثمانية او من جمعية او جماعة اسلامية او معهد علمي مشهور . ومن لم يكن معه شهادة واراد الامتحان للدخول في الكلية يمتحن في القرآن الكريم والمبادئ

الدينية واللغة العربية (قراءة وتكلماً وترجمة) والحساب والتاريخ والجغرافيا والخط .
ومن اراد الدخول من طلاب القسم التالي من مدارس دار الخلافة العلية او من مدرسة اخرى بدرجتها يقبل في الصنف الذي تكون دروسه معادلة للدروس التي تلقاها في صنفه بشرط ان يكون بيده تصديق من مدرسة وعلى الذين بيدهم تصديق من المكاتب السلطانية او الاعدادية ان يعطوا امتحاناً في الدروس التي لم يكونوا تلقوها في مكاتبهم والتي تدرس في الصنف الادنى من الصنف الذي يريدون الدخول فيه فيمتحنون باللغة العربية ومن يريدون الدخول في الكلية وهم محصلون في مدارس معادلة لمدارس السلطانية عليهم ان يعطوا امتحاناً في جميع دروس الصنف الادنى من الصنف الذي يريدون الدخول فيه ومن كان من طلاب الكلية الصلاحية و بيده شهادة من قسمها التالي او كان من طلاب مدارس دار الخلافة او مدرسة بدرجتها ذات ثمانية صفوف و بيده شهادة من شعبتها الثانية في قسمها التالي جاز له ان يدخل في الصنف الثامن اي في اول صفوف التعليم العالي من الكلية الصلاحية اما متخرجو المكاتب السلطانية فيقبلون في الكلية بشرط ان يكونوا واقفين على اللغة العربية وان يؤدوا امتحاناً في جميع المواد التي لم تدرس في مكاتبهم والذين هم في المعلومات بدرجة هؤلاء المتخرجين يقبلون ايضاً بشرط ان يفحصوا في جميع المواد التي تدرس في القسم التالي من الكلية . وتبدأ مدة قيد الطلاب وقبولهم من اواسط آب الى انتهاء اول اسبوع من ايلول وامتحانات الدخول تجري في اول اسبوع من شهر ايلول

وعلى الطلاب ان يعتقدوا ان العلوم والمعارف لاتجديهم نفعاً ما لم تكن مستندة على تربية حسنة واخلاق كريمة وان يتخذوا الامور الآتية دستوراً للعمل :

(ا) عليهم ان يعتنوا بتربية قواهم البدنية والفكرية والاخلاقية ليصبحوا فيما بعد رجالاً ذوي ابدان قوية وافكار سليمة واخلاق متينة وان يمثلوا رجلاً مدنياً في عزيمته و بعد همته وحسن مسعاه . وان يتوخوا في جميع اعمالهم مراعاة تعاليم الدين المبين و يتواصوا بالصبر على خدمة الحقيقة وترقية شأن الانسانية و يتباعدوا جهدهم عن ارتكاب نقيصة او رذيلة و يكون همهم الفذ حب الخير وممارسة الفضيلة

(ب) ان لايجعلوا الله عرضة لايمانهم وان يجتنبوا الحيلة والدسيسة والكذب و يكونوا امناء موثوقين وارباب شرف وانفة في جميع الطوارىء .

(ج) ان يثابروا على دروسهم وان يحترموا و يطيعوا رؤساءهم واساتذتهم وآباءهم واقرباءهم وان تبقى نفوسهم مشبعة بعاطفة الحنان والشفقة نحو رفاقهم

(د) يجب عليهم ان يحافظوا داخل الكلية وخارجها على القيافة الخاصة بهم وان يجتنبوا في اعمالهم كل ما يخل بمسلكهم العلمي المحترم و بكرامة المعهد الاسلامي الذي ينتسبون اليه وان يجتهدوا في ان يكونوا مثالاً حسناً وقدوة صالحة لغيرهم

(ه) ان يهتموا بالنهوض من النوم باكراً و يحافظوا على الصلوات الخمس في اوقاتها عند اسباغ الوضوء و يواظبوا على تلاوة القرآن ومدارسته جهرة بعد صلاتي الفجر والعشاء وخاصة صلاة الجمعة فيسعون اليها وهم على اكمل سمت واحسن زي

هذه شذرة من تعاليم الكلية الصلاحية وهي نافعة جداً في تخريج اكمل مثال من رجال الدين الاسلامي على ماتقتضيه حالة العصر والله الملهم والموفق

معرفة العرب ناموس الجاذبية

لايخفى ان الناس في عالم العلم ينسبون تحقيق جاذبية الارض الى الفيلسوف الانكليزي اسحق نيوطن و يجعلونه من اجل ذلك في صف اعاظم رجال الدنيا وقل من شدا شيئاً في الفلك او الجغرافية او القوسموغرافية الا وهو يحفظ اسم نيوطن

والحال ان نسبة هذا الاكتشاف الى الفيلسوف المشار اليه هو من قلة الاطلاع على كتب العرب وعدم الاحاطة بمبالغ علومهم وهذه المسألة هي اشبه بمسألة دوران الارض التي توهم الاوربيون انها ايضاً من تحقيقاتهم ووفروا فيها فضل الاكتشاف لكوبرنيك والحال انها ايضاً من المسائل التي انتبه اليها العرب كما تقدم لنا في فصل مختصر في علماء الهيئة من العرب نشرناه في جريدة « الشرق »

والنجم تستصغر الابصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وهاك مااطلعنا عليه في القسم الاول من رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا مما يتعلق بالكرة الارضية :

« واما سبب وقوف الارض في وسط الهواء ففيه اربعة اقوال منهـا ما قيل هو جذب الهواء لها من جميع جهاتها بالسوية فوقفت في الوسط لما تساوى قوة الجذب من جميع الجهات ومنها ماقيل لدفع الفلك اياها فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوى قوة الدفع من جميع الجهات وقيل هو جذب المركز لجميع اجزائها من جميع الجهات الى الوسط لانه لما كان مركز الارض مركز الفلك ايضاً وهو مغنيطس الافلاك اعني مركز الارض واجزاء الارض لما كانت ثقيلة انجذبت الى المركز وسبق جزء واحد وحصل المركز ووقف باقي الاجزاء حولها يعني حول النقطة وطلب كل جزء منهـا المركز فصارت الارض بجميع اجزائها كرة واحدة بذلك السبب ولما كان الماء اجزاؤه اخف من اجزاء الارض وقف الماء فوق الارض ولما كانت اجزاء الهواء اخف من اجزاء الماء صارت فوق الماء ولما كانت النار اجزاؤها اخف من اجزاء الهواء صارت في العلو مما يلي فلك القمر وقيل هي خصوصية الوضع اللائق به وذلك ان الباري تعالى اسمه جعل لكل جسم من الاجسام الكائنات من النار والهواء والماء والارض موضعاً مخصوصاً هو اليق به وهكذا فلك القمر وعطارد وبقية الكواكب لكل واحد موضعاً مخصوصاً في فلكه فهو ثابت فيه الفلك يديره معه وهذه العلة اشبه الاقاو يل بالحق انتهى

وقد جاء في اول الرسالة من رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا التي فيها هذا الفصل ما يأتي بعد البسملة :

« من اجل ان اخواننا ايدهم الله مذهبهم النظر في جميع الموجودات والبحث عن مباديها وعن علة وجدانها وعن غرائب نظامها والكشف عن كيفية ارتباط معلولاتها بعللها باذن باريها جل ثناؤه احتجنا ان نذكر الارض وكيفية صورتها ووقوفها في مركز العالم وما نسبته وذلك ان المعرفة بحالها وكيفية وقوفها في الهواء هو من العلوم الشريفة لان وقوف اجسامها عليها حكم جليلة ومنها بد[1] الخ يشيرون الى السبب الذي حداهم على البحث في مسألة وقوف الارض في وسط الفضاء في رسائلهم المتعلقة بتهذيب النفس واصلاح الاخلاق

لقد اطلعنا على هـذا الكلام في نسخة من رسائل اخوان الصفا جاء في آخرها هذه الجملة :

« تمت الرسالة بحمد الله وعونه في الرابع عشر من شهر الله المحرم الحرام سنة

(١) البد النصيب من كل شيء

تسع وثمانين وثمانمائة وتاريخ النسخة التي نسخت منها سنة اربع وخمسمائة وكتبها محمد ابن علي بن ندى بن الحسن انتهى

وربما التمس بعض القراء ذكر مجمل خبر اخوان الصفا ومواضيع رسائلهم فان هذا الاسم يطرق مسامع كثير من الناشئة وربما من الشيخة ولا يفهمون عنه قليلاً ولا كثيراً ولا يعلمون منه قبيلاً ولا دبيراً فقصدنا ان نأتيهم من ذلك بما يزيح العلة ويشفي الغلة فنقول :

قال الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ في كتابه (إخبار العلماء باخبار الحكماء)

« اخوان الصفا وخلان الوفا » هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في انواع الحكمة الاولى ورتبوه مقالات عدتها احدى وخمسون مقالة خمسون منها في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حاوية وخمسون جامعة لانواع المقالات على طريق الاختصار والايجاز وهي مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الادلة والاحتجاج وكأنها للتنبيه والايماء الى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من انواع الحكمة

ولما كتم مصنفوها اسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين فقوم قالوا هي من كلام بعض الائمة من نسل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه واختلفوا في اسم الامام الواضع لها اختلافاً لا يثبت له حقيقة وقال آخرون هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الاول ولم ازل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها حتى وقفت على كلام لابي حيان التوحيدي جاء في جواب له عن أمر سأله وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة في حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وصورته :

قال ابو حيان حاكياً عن الوزير المذكور حدثني عن شيء هو اهم من هذا اليَّ واخطر على بالي اني لا ازال اسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ومذهباً لا عهد لي به وكناية عما لا احقه [٢] واشارة الى ما لا يتوضح شيء منه يذكر الحروف ويذكر النقط ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنتين الا لعلة والالف لم تعجم الا لغرض واشباه هذا واشهد منه في عرض ذلك دعوى يتعاظم بها ويتنفخ بذكرها فما حديثه وما شأنه وما دخلته فقد بلغني يا ابا حيان انك

(٢) حقَّ الشيءَ اثبتهُ

تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده ولك معه نوادر معجبة ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته وامكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافي مذهبه : فقلت ايها الوزير انت الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام وله منك الامرة القديمة والنسبة المعروفة فقال : دع هذا وصفه لي فقلت : هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع في قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ ايام الناس وسماع المقالات وتبصر في الآراء والديانات وتصرف في كل فن اما بالشدو (٣) الموهم واما بالتوسط المفهم واما بالتناهي المفحم قال : فعلى هذا مامذهبه قلت : لا ينسب الى شيء ولا يعرف برهط لجيشانه بكل شيء وغليانه بكل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه وقد اقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة لاصناف العلم وانواع الصناعة منهم ابو سليمان محمد بن معشر البيستي و يعرف بالمقدسي وابو الحسن علي ابن هارون الزنجاني وابو احمد المهرجاني والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله وذلك انهم قالوا ان الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علميها وعمليها وافردوا لها فهرساً وسموه رسائل اخوان الصفا وكتموا فيه اسماءهم »

الى ان قال :

« قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل قلت : قد رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية وفيها خرافات وكنايات وحملت عدة منها الى شيخنا ابي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها اياماً وتبحرها طويلاً ثم ردها علي وقال : تعبوا وما اغنوا ونصبوا وما اجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا فما اطربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ظنوا انه يمكنهم انهم يدسون الفلسفة التي هي علم النجوم والافلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة والموسيقى الذي هو معرفة النغم والايقاعات والنقرات والاوزان

(٣) الشدو الاخذ بحظ قليل من العلم

والمنطق الذي هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في الشريعة وان يربطوا الشريعة بالفلسفة وهذا مرام دونه حدد [٤] وقد تورك [٥] على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا احد انياباً واحضر اسباباً واعظم اقداراً وارفع اخطاراً واوسع قوى واوثق عرى فلم يتم لهم ما ارادوه ولا بلغوا منه ماأملوه الى آخر ماقال و برهن عليه

وهو من قبيل مايذهب اليه بعضهم اليوم من كون الشريعة ينبغي ان تمشي في طريق والعلم في طريق خلافاً لرأي القائلين بتطبيق الشريعة على القواعد العلمية او رد العلوم الى اصول الشرع حتى لاتقع الشبهة في العقيدة وهذا بحث ليس من مقامنا اليوم وانما جرنا اليه الاستطراد في التعريف برسائل اخوان الصفا وواضعيها ومدار الكلام اليوم على كون حكماء العرب عرفوا الجاذبية قبل اسحق نيوطن واستشهدنا على هذه الحقيقة بما ورد في رسائل اخوان الصفا واليك نبذة ثانية ايضاً نأثرها عن ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ وهو كلامه في مقدمة كتابه معجم البلدان

« وقال قوم ان الذي يرى من دوران الكواكب انما هو دور الارض لا دور الفلك . وقال آخرون ان بعض الارض يمسك بعضاً وكثير منهم يزعم ان دوران الفلك عليها يمسكها في المركز من جميع نواحيها

وقال : والذي يعتمد عليه جماهيرهم ان الارض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك وبنية الخلق على الارض ان النسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل لان الارض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجتذب الحديد وما فيها من الحيوان وغيره بمنزلة الحديد وقال آخرون من اعيانهم الارض في وسط الفلك يحيط بها الفرجار [٦] في الوسط على مقدار واحد من فوق واسفل ومن كل جانب واجزاء الفلك تجذبها من كل وجه فلذلك لا تميل الى ناحية من الفلك دون ناحية لان قوة الاجزاء متكافئة ومثال ذلك حجر المغناطيس الذي يجتذب الحديد لان في طبع الفلك ان يجتذب الارض الى آخر ماقال.

وقال المقدسي فاما الارض فانها كالكرة موضوعة جوف الفلك كالمحة جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك و بنية الخلق على الارض ان النسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من

(٤) الحدد الممتنع الباطل (٥) تورك اعتمد (٦) الفرجار البركار

الثقل لان الارض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد ومثلوا الفلك بخراط يدير شيئاً مجوفاً وسطه جوزة فاذا ادار ذلك الشيء وقفت الجوزة وسطه . انتهى ومما يدل على معرفتهم حركة الارض قول القزويني في عجائب المخلوقات وهو : ومن القدماء من اصحاب فيثاغورس من قال ان الارض متحركة دائماً على الاستدارة والذي يرى من دوران الكواكب انما هو دور الارض لا دور الكواكب

فلا يكون حكماء العرب بقوا اجانب عن معرفة ناموس الجاذبية ولا عن حركة الارض مما يتبجح الافرنج بكونه من تحقيقاتهم وان كان نيوطن قد عرف الجاذبية بدون اطلاع على كلامهم فيكون من باب توارد الخواطر

دمشق : شكيب ارسلان

القدس وتواريخها العربية

اشتهرت مدينة القدس الشريف بآثارها الدينية وموقعها وقلّ من عرف عناية المؤلفين بتواريخها ولا سيما مؤلفو العرب فلذلك وضعت فذلكة في مختصر تسميتها واسماء المؤلفين في شؤونها منهم تذكرة للمطالع الكريم فاقول :

عرف قدماء العرب هذه المدينة لما اتصلوا بحوران وعجلون وتلك الضواحي فذكرها الاعشى شاعرهم باسم اورشليم في قوله :

وقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فاور يشلم

فحرف الاسم لضرورة الوزن . اما الفرزدق بعده فذكرها باسم ايلياء في قوله :

وبيتان بيت الله نحنُ ولاته وقصر باعلى ايلياء مشرف

وتابعه اعرابي فقال :

فلو ان طيراً كلفت مثل سيره الى واسط من ايلياء لكلت

سما بالمهاري من فلسطين بعدما دنا الفيء من شمس النهار فولت

وذكرها مروان باسم (بيت المقدس) بالتخفيف فقال :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ان كنت تارك ما امرتك فاجلس

ودع المدينة انها محذورة والحق بمكة او ببيت المقدس

وذكرها ابن حجر العسقلاني باسم (البيت المقدّس) بالتشديد في قوله مورياً ومتفنناً :

الى البيت المقدس جئت ارجو جنان الخلد نزلاً من كريم
قطعنا في مسافته عقاباً وما بعد العقاب سوى النعيم

واما اسم القدس فلم تعرف به الا في العصور المتأخرة ولعل اقدم من ذكرها به المطران سليمان الغزي اسقف غزة الشام في نحو القرن الرابع عشر للميلاد في قوله :

أيدعوك للقدس الخيال الذي يسري فهل لك في ترك الزيارة من عذر

هذا ما ذكره الشعراء في اسماء هذه المدينة الشهيرة في التاريخ منذ عهد بعيد وفيها الى اليوم من الآثار الدينية والتاريخية ما يحتاج في وصفه الى مجلدات حتى كثرت عناية المؤلفين بها من مشارقة ومغاربة واعراب واعجام . عَلَى اننا افردنا الآن بالذكر من الف فيها من العرب . مما هو مشهور في المكاتب والاسفار

ذكر العرب القدس في كتبهم الكثيرة في الفتوح والتواريخ والمعاجم الجغرافية والرحلات واشاروا الى تواريخها وما تقلب عليها من الحوادث وما جرى فيها من الوقائع وما عرفت به من الشؤون المختلفة وذلك في اثناء ابحاثهم وفي تضاعيف كتبهم وثنايا تواريخهم .

اما الذين افردوا لها المؤلفات الخاصة فكثيرون ومعظم كتبهم بل جميعها الا قليلاً منها لايزال مخطوطاً في زوايا المكاتب ومخادع الجوامع فرأينا الاشارة اليها واستقراء ماامكن معرفته منها ليكون ذلك دليلاً للباحث عن شؤونها . ومرشداً للضال في بيداء التاريخ الوطني . فيجد فيها ضالته المنشودة . و يعثر على فائدته المقصودة من اقدمهم الحافظ ابن عساكر الدمشقي صاحب التاريخ المشهور المتوفى سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) في مؤلفه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الاقصى » ومنه نسخة في المكتبة التيمورية بالقاهرة * والقاضي امين الدين احمد بن هبة الله الشافعي من اهل القرن السابع للهجرة في كتابه « الانس في فضائل القدس » متعمداً على (الجامع المستقصى) الآنف ذكره لابن عمه . وقد رأى الامام السيوطي نسخة في جامع دمشق مقروءة على مؤلفها بتاريخ سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) * وذكر السيوطي ايضاً كتاب « باعث النفوس الى زيارة القدس المحروس » للشيخ برهان الدين ابراهيم بن اسحق بن تاج الدين ابي عبد الله عبد الرحمن بن درهم الشافعي الفزاري المعروف بابن

قاضي الصلت وهو في ثلاثة عشر فصلاً ضمنها فضائل بيت المقدس وقبر الخليل انتخبها من كتاب « الجامع المستقصى » لابن عساكر . و بعضهم من كتاب ابي المعالي المشرف بن المرجى المقدسي . ونسخته في المكتبة التيمورية بالقاهرة * ومنهم عماد الدين الكاتب الاصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) في كتابه « الفتح القسي في الفتح القدسي » و يسمي ايضاً « قدح القسي » وقيل ان المؤلف عرضه على القاضي الفاضل فقال له سمه « الفيح القسي » وقد طبع في ليدن (هولندا) وفي مصر * وابن سعد عبدالله بن الحسن بن عساكر المولود سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) في كتابه « فضل بيت المقدس » * وشهاب الدين ابو محمود احمد بن محمد بن ابراهيم هلال بن تميم بن سرور المقدسي الشافعي المتوفى سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) في كتابه (مثير الغرام الى زيارة القدس والشام) فرغ منه في شعبان سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) وكسره على قسمين « الاول » في فضائل الشام و بيان حدوده وفيه ابواب وفصول « والثاني » في فضائل المسجد الاقصى و يشتمل على ابواب وفصول ايضاً [1] * والامام ابو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي في كتابه « فضائل القدس » ذكره السيوطي المومأ اليه . ولم يشر اليه الحاج خليفة في « كشف الظنون » * والشيخ عبد الرحمن محمد بن احمد المنهاجي السيوطي الذي دخل القدس يوم السبت في ٢٨ رمضان سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) في كتابه « اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى [2] » * والشريف عز الدين حمزة بن احمد الحسيني الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) في كتابه « فضائل بيت المقدس » ومحمد بن محمود بن اسحق القدسي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) في كتابه « تاريخ القدس » * وكمال الدين محمد بن محمد بن ابي شريف الشافعي المصري المتوفى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) في كتابه « اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى » ألفه في

(١) ونسخته المخطوطة في المكتبة الخالدية بالقدس الشريف

(٢) وقد رأيت نسخة من هذا الكتاب في خزانة صديقي مراد بك البارودي في بيروت الغنية بنوادر المخطوطات كتبت سنة ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م) بخط علي بن الملم المقدسي الحنفي تقع في نحو مائتي صفحة بقطع صغير متوسط وقد ذكر الكتب التي نقل عنها مما كان في (خزائن الجامع الاقصي) في القدس الشريف وهو بعض ما في هذه المقالة مع زيادة في وصف الكتب ومؤلفيها وازمانهم . ومنه نسخة في الخزانة التيمورية بالقاهرة

مجاورته بالقدس سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) ورتبه على سبعة عشر باباً معتمداً في نقله على (الروض المغرس) لثقة مؤلفه فصار عمدة ما فيه * والقاضي مجير الدين ابو اليمن عبدالرحمن العليمي الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) في كتابه « الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل » جمع فيه خلاصة تواريخ القدس واضاف اليه نبذة من الحوادث والوفيات انجزه باربعة اشهر مبتدئاً فيه من ذي الحجة سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ م) . وهذا الكتاب طبع في القاهرة سنة ١٨٦٦ م وترجمه بالافرنسية هنري سوفار وطبعه في اوربا * والشيخ احمد الخالدي الصفدي [1] المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) في كتاب « رحلته الى البيت المقدس نظماً » * والشريف عز الدين حمزة بن احمد الحسيني الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) في كتاب « فضائل البيت المقدس » * وابو حذيفة اسحق بن بشر في كتاب « فتوح بيت المقدس » * والشيخ اسحق ابن ابراهيم بن احمد بن محمد بن كامل التدمري الشافعي الخطيب والامام بذلك المقام في كتابه « مثير الغرام في زيارة الخليل عليه السلام » وهو مختصر على سبعة وعشرين فصلاً وهو من معاصري السيوطي الآنف الذكر . رأى كتابه هذا في المسجد الخليلي * والشيخ تاج الدين ابو النصر عبد الوهاب الحسيني الدمشقي الشافعي في كتاب « الروض المغرس في فضائل بيت المقدس » ذكره صاحب « اتحاف الاخصا » * والامام ابو المعالي المشرف المقدسي في كتاب « فضائل القدس والشام » وهو في مائة وخمسة عشر باباً والتمرتاشي في كتاب « الخبر التام في حدود الارض المقدسة وفلسطين والشام » الفه سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م) ونسخته في المكتبة التيمورية بالقاهرة * والشيخ عبدالغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) في رحلته « الحضرة الانسية في الرحلة القدسية) وهي جزء من رحلته الكبرى [2] * والشيخ عبد الله الطرابلسي المتوفى سنة

(١) راجع ترجمته في مجلة الآثار ١ : ٣٧٢

(٢) الرحلة الكبرى للنابلسي لا تزال مخطوطة وقد رأيت مسودتها الاصلية بخط مؤلفها و بعض علماء عصره في خزانة مصطفى افندي السباعي الحمصي الاصل نزيل دمشق . وتبييضها في الخزانة البطريركية الارثوذكسية الخاصة في دمشق . وعندي نخبة من هذه الرحلة الكثيرة الفوائد عن شؤون بلادنا في تضاعيف القرن الثامن عشر . وسمعت ان بعض انسباء المؤلف ينوون طبع رحلته الكبرى . اما رحلته الى القدس الشريف فطبعت في مصر منذ سنوات

١١٥٤هـ (١٧٤١ م) في رحلته « المنحة القدسية في الرحلة القدسية » * والشيخ مصطفى البكري المتوفى سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) في كتاب « رحلة القدس » * والياس الغضبان الحلبي في كتابه « زيارة الاماكن المقدسة » وهو اخبار رحلته الى القدس في ٣ نيسان سنة ١٧٥٥ م وقد كتب فيها كل ماراَه يوميًا بزيارته ونسخته في المكتبة الشرقية التي جمعها الآباء اليسوعيون في بيروت مخطوطة * والشيخ مصطفى الشافعي اللقيمي المتوفى سنة ١١٧٨ هـ ١٧٦٤ م في كتاب « موانح الانس بالرحلة الى وادي القدس »

الى غير ذلك مما في كتب الفتوح والتواريخ والمعاجم الجغرافية والرحلات ووصف المساجد ككتاب « معجم البلدان » لياقوت الرومي * وكتاب «اعلام الساجد باحكام المساجد » للشيخ بدر الدين الزركشي الشافعي المتوفى سنة ٧٩٤هـ ١٣٩١م *«وتسهيل المقاصد لزوار المساجد » للشيخ شهاب الدين احمد بن العماد بن يوسف الافقسي الشافعي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ١٤٠٥ م · وقد رآهما السيوطي · والثاني بخط مؤلفه * و « منتخب في فضائل بيت المقدس » رتب على ثلاثة عشر فصلاً اتم تأليفه سنة ١١٧٢ هـ ١٧٥٨ م ذكر في برنامج الكتب العربية في المكتبة الخديوية في مصر ٧ — ٢ : ٥٧٤ * و « حسن الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الاقصى » من مجاميع المكتبة الخالدية في القدس الشريف عدد ١٩ * و « سؤال وجواب عن بيت المقدس » في مجموع آخر فيها عدد ٤٧ * و « الزهر العاطر لانشراح الخاطر » وهو شرح زيارات الاماكن الاورشليمية المقدسة تأليف شكر الله بن بطرس حوا الماروني الحلبي من اهل القرن الثامن عشر للميلاد · الى غير ذلك مما فقد او لن يزال في مكاتب الخاصة او المكاتب الاوربية محجوباً عن المطالعين

وللعاصرين شيء من ذلك مثل « ارشاد الطالبين الى الآثار المقدسة في فلسطين » لحنا الخوري سكسك القدسي وهو مخطوط ضخم في نحو ١٨٠٠ صفحة كثير الفوائد وهو اليوم في مكتبة ولده جرجي افندي وفي مكتبتي نخبة منه * و « تاريخ القدس » للخوري ميخائيل برامكي القدسي [1] ولا يزال مخطوطاً في القدس وفيه فوائد تاريخية جمة * و « تاريخ اورشليم » لخليل افندي سركيس صاحب المطبعة الادبية في بيروت

« ١ » راجع ترجمته ووصف كتابه في مجلة النعمة الدمشقية ٣ : ٣٦٦ بقلم كاتب هذه المقالة وفي مكتبته نخبة من هذا المخطوط غير ما نشر منه في النعمة

ومفشي جريدة « لسان الحال » و « ارشاد لطيف لزائر القدس الشريف » لموسى افندي مينا طبع في مصر مصوراً و « دليل الزوار للاماكن المقدسة » لالياس فرج باسيل اللبناني طبع في القدس . وعليه انتقاد لحنا الخوري سكسك الآنف ذكره لا يزال مخطوطاً عندي نخبة منه

واشباه ذلك مما لا يقع تحت حصر وفي القليل غنىً عن الكثير في وصف مدينة القدس وما يجاورها من البقعة الفلسطينية المترامية في القدم والمشهورة في التاريخ

زحلة « لبنان » عيسى اسكندر المعلوف

كتاب نادر

« في اصول التدريس »

في خزانة كتب جامع الحيدرخانة كتب قيمة مخطوطة ومطبوعة هي من احسن ماخلفه السلف للخلف واثمن ما احتوت عليه مكتبات العراق ، ولامراء فان الذي وقف هذه الخزانة هو داود باشا والي العراق وهو خير وال تربع على اريكة الحكم في هذا القطر المحبوب تولى سنة ١٢٣٢ هـ ١٨١٦ م وكان عالماً فاضلاً انشأ المدارس العظيمة ودور الخير والاحسان جالس العلماء والفضلاء والزهاد واكرم وفادتهم واحسن اليهم ما استطاع الى الاحسان سبيلاً وفي ايامه اخذت روح العلم تدب في ابناء العراق فقامت نهضة علمية كبرى تحت حماية هذا الوزير لاتزال آثارها باقية الى الآن فكثر المؤلفون في زمانه وراج سوق الادب رواجاً عظيماً حتى وقفت على ابوابه الشعراء وكان يجيزهم على حسب كفاءتهم ومقدرتهم . وقد اوتي من التوفيق ومسالمة الدهر مالم يؤت احد قبله من ولاة العراق فان الامور انقادت اليه بطبيعتها واطاعه جميع قطان العراق حاضره وباديه عربه وعجمه وكان محباً للعمران فتاقت نفسه الى تقليد المدن الاوربية في طرز البناء وشق الجواد وتعزيز الصناعة بجلب الصناع من الاوربيين واخذ في اسباب التمدن والعمران وامر بصنع المدافع والبنادق على الطرز الجديد

حينئذ ونظم جيوشاً ضخمة على آخر نظام في زمانه حتى بلغت جنوده اكثر من مائة الف فطمع في الاستيلاء على ديار العجم واكتسح عدة ولايات منها وطمحت نفسه الى الاستيلاء على آسيا الصغرى والاستقلال بالعراق العربي اقتداء بمعاصره محمدعلي باشا الكبير امير مصر وجد الأسرة الخديوية وقد داخل الدولة الرعب والخوف من اتساع الخرق عليها فارسل عليه السلطان محمود الثاني جيشاً عدده عشرون الفاً وناط قيادته باحد الوزراء وهو علي باشا اللاظ وصادف لحسن حظ هذا القائد ان دهم العراق وباء وبيل افنى اكثر جيش الوزير داود وهذا ما جعله يسلم نفسه الى علي باشا بعد حدوث عدة معارك خسر فيها جيش العراق عدداً غير يسير من الجنود فذهب الى الاستانة وظل فيها الى سنة ١٢٦٠ هـ ١٢٤٤ م بعد ان مكث فيها ثلاث سنوات لاقى في خلالها حفاوة واكراماً من السلطان محمود وابنه السلطان عبد المجيد وكان يلبس ايام الاعياد حلة رسمية كتب على صدرها « شيخ الوزراء » بالطراز المذهب ثم ان عبد المجيد خان ارسله شيخاً على الحرم النبوي سنة ١٢٦٠ هـ ١٨٤٤ م وبقي في المدينة مشتغلاً بالعلم والتدريس ونفع اهل ذلك القطر بفضله وكان عاقداً العزم على فتح مدرسة لتنوير افكار الحجازيين ولكن اخترمته المنية سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥٠ م ولم يتم ما اراده ودفن في البقيع تجاه قبة سيدنا عثمان بن عفان

فرجل هذه منزلته في العلم والسياسة والادارة لا ينتخب لخزانته الا كل نفيس نادر وهكذا كان فان خزانته لاترى في زواياها غير ما تميل اليه النفس ويصبو اليه القلب من غرائب المصنفات وعجائب المؤلفات . وبينما كنا على عادتنا نجيل الطرف في طرفها ونملأ العين والفؤاد من محاسن كتبها اذ اهدانا السيد محمود شكري الالوسي من علماء العراق الى كتاب نفيس نادر الوجود ويعد من انفس ما ألف في القرون المتأخرة ذلك هو كتاب « تحفة الجنان » في اصول التدريس والتعليم لمؤلفه حياتي افندي احد قضاة دار السلام فتصفحناه ملياً وطالعنا معظم فصوله وابوابه فاذا هو آية من الآيات وقل من نسج على منواله في الترتيب والتبويب وبديع الافكار والذي يطلع عليه ويقرأ بعض مطالبه يخيل اليه انه يقرأ كتابات رجل راق بافكاره وآدابه تلقى العلم في اكبر معهد علمي في هذا العصر ولم نقف على كتاب في هذا الفن من الكتب الحديثة ما يصح ان يقاس بهذا السفر المفيد وبالجملة فانه من كتب اصول التدريس على اختلاف اجناسها وازمانها

وكثيراً مااجتهدنا في الوقوف على ترجمة حياة المصنف ومنشأه وتآليفه فلم نوفق الى ذلك لضياع الاسانيد في المحكمة الشرعية واندثار آثارها التي تنبئنا عن احواله واعماله وهذا الكتاب سيخلد ذكره ابد الدهر ويذكره في زمرة الاعلام المبرزين في كل الفنون . وقد عرفنا من لهجته في كتابه انه ينتمي الى عنصر غير عربي او انه عربي ولكنه قضى العقود الاولى من حياته في بلاد غير عربية فان اسلوب انشائه يدل على ذلك بدليل ميله الشديد الى السجع في الانشاء وتكليف نفسه فوق طاقتها فيأتي كلامه احياناً معقداً تظهر عليه آثار التكلف وهي خلة قل بين كتاب العرب من يميل اليها اللهم الا ماجاء طبيعياً وارسلته النفس ارسالاً فذلك لاعيب اذ يجيء عفواً خالصاً من كل شائبة تفسد معناه وتخل بجوهر الكلام . وجل ما وقفنا عليه من ترجمة هذا الرجل ما كتب على ظهر الكتاب حين وقفه واليك نصه :

« الحمد لله الذي اوقف جناته على اوليائه واكرمهم بمزيد نعمه وآلائه والصلوة والسلام على سيدنا محمد صفوة انبيائه وعلى آله واصحابه وازواجه وذريته واحبائه وبعد فقد اوقف هذا الكتاب المسمى « بتحفة الجنان » تأليف حياتي افندي القاضي بمدينة بغداد دار السلام الوزير الاكرم والدستور المكرم . صاحب الخيرات والمبرات . والي بغداد والبصرة وشهرزور حضرة داود باشا يسر الله له من الخير ما يحب ويرضى ويشا على مدرسته المسماة الداودية الواقعة في الجانب الشرقي من محلة الحيدرخانة من محلات بغداد دار السلام وقفاً صحيحاً شرعياً وحبساً مؤبداً مرعياً وشرط ان لا يخرج من المدرسة المذكورة ولا يباع ولا يوهب ولا يرهن ولا يبدل فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم وكان ذلك سنة ثلاث وثلاثين ومائتين والف هجرية على صاحبها افضل الصلاة واكمل التحية اه

يقع الكتاب في ٢٠٠ صفحة في كل صفحة ١٧ سطراً وكل سطر مؤلف من نحو ١٦ كلمة وخطه بديع جداً كتب سنة ١٢٢٦ هـ ١٨١١ م كما يفهم من كتابة في آخر النسخة وهي : لقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة يوم الاثنين لخمس عشرة خلت من رجب الفرد عَلَى يد افقر العباد واحوجهم الى رحمة ربه الغني عبد الرحيم نجل الشيخ اسماعيل المولوي غفر الله له ولوالديه سنة ست وعشرين ومائتين والف اه والظاهر ان الناسخ كان من مشاهير الخطاطين في عصره وانه نسخ الكتاب على نسخة المؤلف لقرب عهده به ومعاصرته له ووجوده معه في حاضرة واحدة وهي بغداد

وهو مؤلف من متن وشرح وكلاهما للمؤلف وقد علمنا بعد ان اكثرنا من تصفحه انه مشتمل على مقدمة ومقالتين وخاتمة اما المقدمة ففي حد علم التدريس وموضوعه وفائدته وغايته والمقالة الاولى فهي في احوال التدريس وفيها سبعة فصول فالفصل الاول في بيان اقسام الدرس ذاتاً لا وصفاً والفصل الثاني في بيان اقسام الدرس وصفاً والفصل الثالث في الاسباب اي اسباب التمام والوفاء والنقصان والفصل الرابع في الدوران اي دوران الدرس بين التمام والوفاء والفصل الخامس في الحذف والترك والفصل السادس في فن الدرس وما يناسبه الفصل السابع في بيان ما للدرس من الشروط واما المقالة الثانية ففيها موقفان الموقف الاول وفيه تسعة فصول : الفصل الاول في بيان متن الدرس والفصل الثاني في بيان اصل الدرس والفصل الثالث في بيان شرح الدرس والفصل الرابع في فرع الدرس وهو مايجري فيه من جزئياته والفصل الخامس في كمال الدرس وهو تقرير النكت المعينة للمعنى المقصود والفصل السادس في فيض الدرس وهو تقرير النكت الغير المعينة للمعنى المقصود والفصل السابع في زيادة الدرس والفصل الثامن في فضول الدرس وهو تقرير كلام اجنبي العبارة مطلقاً والفصل التاسع في ربط الدرس اما الموقف الثاني فهو فيما يناسب التقرير وفيه ثلاثة مطالب المطلب الاول في طريق التقرير والمطلب الثاني في اداء الدرس والمطلب الثالث في طريقة استخراج الدرس من غيره واما الخاتمة فهي تشتمل على تحرير الاجراء وهذه آخر فصول الكتاب

وقد افتتح المؤلف كتابه بعبارة بليغة لولا ان التسجيع يغلب عليها فاخل بمعانيها خللاً بيناً وهو انه اهدى مصنفه الى السلطان سليم خان الثالث بعد ان امتدح اعماله وصفاته في خطبة الكتاب واليك نصها بالحرف قال :

« الحمد لله الذي علم الانسان ما لم يعلم والصلوة والسلام على صاحب اللوح والقلم وعلى آله وصحبه الذين نطقوا بالمبادئ والحكم اما بعد فلما كانت الحكم العلية من بسط الوجود في البرية هي المعرفة والطاعة بحسب مراتب الوسع في البضاعة . وكانت هذه فائدة الارسال والانزال وعليها دور الغدو والآصال فاستدعى تحقيقها تشعب علوم مدونة ليرى نقطة العلم المتكثر مبينة فالعلماء لتدوينها ملهمون وفي احاطة مزاياها مستقصون والى ترتيب قواعدها موفقون وانها لكتب يشهدها المقربون فكأنهم لم يتركوا شيئاً مما يطلبون الا انهم عن علم الاجراء ساكتون فعطفنا العنان الى جمعه

وتدوينه فلما وفقنا اليه بالطف تكوينه هدانا فيه الى متن متين ثم ارشدنا الى شرحه المبين ولقد الهمنا في اثناء جمعه عرضه الى حضرة السلطان الاعظم والخاقان المعظم مولى ملوك العرب والعجم وهاب جلائل النعم والدقائق فياض سجال النوال على الخلائق الفائز بالحكمة العلمية والعملية الجامع للرياستين الدينية والدنيوية

كسا به الله دهراً حلةً نسجت بالعدل والقسط والانصاف والهمم
سداؤه الشرع والاحسان لحمته طرازها من حرير اللطف والكرم

بابه كعبة الحاجات يطوي اليه من كل فج عميق وتستقبل اليه وجوه الآمال من كل بلد سحيق الباسط جوده فراش العنوان الفائض لطفه زلال الامان

وما قيل فيه غير ان ضيوفه تلام بنسيان الاحبة والوطن

رافع رايات الشرع القويم المتين خافض الكفرة والعجزة والمشركين :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم لمن فلول من قراع الكتائب

قاهر الاكاسرة والفغافرة [1] مبيد الفراعنة والجبابرة ، صاحب السلطنة العظمى ووارث الوكالة الكبرى :

فليخضع السادات دون سريره كخضوع وجه الارض دون سمائه

وبالجملة لو شبهته بذي المحاسن كلها لما اصبت في الجميع دقها وجلها ولعمري ان لساني كليل في فضائله وفواضله ومعارفه وعوارفه وعواطفه ولطائفه :

لا يدرك الواصف المطري خصائصه وان يكن سابقاً في كل ما وصفا

الا وهو السلطان بن السلطان السلطان سليم خان الثالث بن السلطان مصطفى خان الثالث بن السلطان احمد خان الثالث لازال لواء مجده منشوراً وطالع سعده منصوراً . حائزاً في سلطنته مكاناً وتمكيناً . ومظهراً لقوله انا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ومصداقاً لقوله و ينصرك الله نصراً عزيزاً ومشمولاً بقوله والله يؤيد بنصره من يشاء :

من قال آمين ابقى الله مهجته فان هذا دعاء يشمل البشرا

لكن نسبة هذه التحفة الى بابه كرجل جرادة من نمل على بابه فوالله لم اتحف هذا الا لكون الهدية على قدر مهديها ولكون هذا وان كان في ذاته شيئاً قليلاً لكنه لندرته بل لعدم امثاله يكون لدى حضرته امراً مقبولاً ولان نقل علم بقي في القوة الى الآن براعة استهلال ظهور الفتوحات في هذا الزمان و بالجملة فكل ما هو عظيم بالذات

---

(١) الفغافرة جمع فغفور وهو علم جنس لملوك الصين ككسري لملوك الفرس

والصفات فهو بالنظر الى عتبته العلياء بضاعة مزجاة فتوسلنا بهذا الى بابه حتى نتوصل الى نيل آمالنا لدى اعتابه اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً قريباً واجعل بابه محط رحال الافاضل وملاذ ارباب الفضائل وعون الاسلام والمسلمين وغوث الانام والمؤمنين . وسلمه في كل حالة باسمه السلام واعانه في مهام اموره بالالهام واسعده في الدارين كل الاسعاد وفسح في عمره بالنصر والامداد ورحب اسلافه يوم المعاد وهو الموفق للسداد والرشاد « اه ومن هنا شرع في بيان مقدمة الكتاب الى آخر فصوله

ولو اردنا ان نستقصي كل ماجاء فيه من سديد الآراء والافكار ومحاسن الابحاث ونفائس الموضوعات لضاق بنا المجال ولكن يكفي للاستدلال على انه ذخيرة نادرة من آثار السلف كون موشي بردها هو من اعظم قضاة الشرع في الزوراء وكون مقتنيها ذلك الرجل العظيم داود باشا كبير وزراء الدولة على عهده وكونه مهدى الى ملك هو من اجل ملوك آل عثمان قدراً وارفعهم مقاماً واسماهم ذكراً نعني به السلطان سليم الثالث ولكي يقف القراء على درر محتوياته وجواهر مضامينه ومقالاته استخلصنا نبذة صغيرة من متن الكتاب تاركين الشرح خشية الاسهاب والاطناب . وهو مثال من امثلة جلالة قدر هذا السفر قال في حد الدرس والتدريس : انه علم تعرف به احوال الدرس والتدريس اجمالاً لتعصم مراعاته عن الخطأ فيه والدرس هو العبارة الصالحة للتدريس فيها من كتاب او رسالة او غيرها والتدريس ملكة يقتدر بها على تقرير مافهم من العبارة مع القدرة على افادة كل ما لها وما عليها ومن الجرح والتعديل وهو لا يتحقق الا بعد الكمال العرفي بل الحقيقي فالدرس لا يصح اطلاقه الا على من له وقوف تام على القواعد بشراشرها مقتدراً على اجرائها في كل مجاريها اذا اهتم كما ان الفقيه لا يصح اطلاقه الا على من له ملكة الاستنباط في كل مسألة وان الحكيم لا يقال الا على من له اطلاق تام بحقائق الاشياء كافة بحسب الطاقة البشرية وبالجملة ان اهل كل فن من الفنون المدونة لا يصح اطلاقه عليه حقيقة الا اذا بلغ درجة لوعرض عليه أية مسألة واية شبهة يقتدر ان يجيب عنها بجواب صحيح وكثيراً مايطلق التدريس على التقرير مطلقاً

وقال في تعريف موضوع هذا العلم : الدرس والتدريس المشاركان في الانتساب الى الافادة او في التعقل لانهما متضايفان على ان الدرس جزء من التدريس بل في جميع الاعراض الذاتيه وذلك لان مايلحق الشيء لجزئه الاعم وان كان عرضاً غريباً

عند الاقدمين الا انه عرض ذاتي عند الآخرين ، واما احوال التدريس فمساواته التدريس في الوجود والغرض معرفة الاحوال الجزئية الاجمالية للدرس والتدريس وفائدته العصمة عن الخطأ في الاحوال الجزئية . وافاض في فصل اقسام الدرس اذ قال : ان الدرس اما بسيط وهو ما لا خلاف فيه حقيقة او حكماً واما مركب وهو بخلافه وكل منهما اما منكور (؟) فالبسيط منه ما يحتاج الى تكرار الفكر كقول المتنبي :

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتبه

والمركب مايفتقر الى تحرير محل النزاع كقول الاصوليين : التكليف بما لا يطاق غير جائز عند الحنفية وقد يبلغ المنكور الى درجة الاجبار والاشكال كما سيجيء بيانهما واما ميسور وهو ضد المنكور ثم ان المنكور ان ظهر المراد منه بعد ادارة الفكر فهو معلوم كقوله :

ولو ان مابي من جوى وصبابة على جمل لم يبق في النار كافر

وكالالغاز والمعميات المقطوعة اسرارها كلغزي القلم ولغز العروة والذرة وكمعمى رحيم والا فان قبل التوجيه الوجيه فمنكور موؤل كقوله :

عينان عينان لم يأخذهما رمد في كل عين من العينين نونان

نونان نونان لم يكتبهما قلم في كل نون من النونين عينان

والا فمنكور مجهول . وقال في اقسام الدرس من حيث الوصف : ان الدرس اما تام وهو العبارة الآخذة حقها ومستحقها واما واف وهو العبارة الآخذة حقها واما ناقص وهو العبارة الناقصة عن حقها وان حق الدرس هو ما لابد له من المنطوق وضعاً ودلالة واستعمالاً ووقوفاً ومن المفهوم المعتبر بل من القياس ومن الادلة الاخرى عند قائلها و بهذا الاعتبار يوصف بانه فصيح و بليغ وقوي ومفيد ونحو ذلك وان مستحقه ما زاد على الحق بعد وجوده وهذا انما يحصل بكونه افصح وابلغ وافيد واقوى . ومشتملاً على ما يندفع به وما ترتفع الاسئلة وعلى الصنائع البديعية كالجناس واللغز اللطيف فالمدرس اذا قرر الدرس مطلقاً على ما هو عليه فهو معدل واذا قرر الوافي تاماً بزيادة مستحقة على حقه فهو مدبر واذا قرر الناقص وافياً بزيادة حقه فقط او بابداله اليه فهو متمم او تاماً بالزيادتين او الابدال فهو محدد واذا قرر التام والوافي كالناقص فان كان مما يحذف و يفهم بالقرائن فهو معلق كما صدر من حذاق الاساتذة والا فهو مقصر كما وقع من

القاصرين وكل هذه الاسماء على صيغة الفاعل واذا اطلق على المدرس يصير على اسم المفعول ·

ومن لطائف ماذكره عرضاً في اختصاص بعض المشاهير قوله : قال السيوطي في تاريخ الخلفاء رأيت بخط الحافظ الذهبي من كان فرد زمانه في فنه ابو بكر الصديق في الانساب وعمر بن الخطاب في القيام بامر الله وعثمان بن عفان في الحياء وعلي ابن ابي طالب في القضاء وابي بن كعب في القراءة وزيد بن ثابت في الفرائض وابو عبيدة ابن الجراح في الامامة وابن عباس في التفسير وابو ذر في صدق اللهجة وخالد بن الوليد في الشجاعة وحسن البصري في التذكير ووهب بن منبه في القصص وابن سيرين في التعبير ونافع في القراءة والاداء وابو حنيفة في الفقه وابو اسحق في المغازي ومقاتل في التأويل والكلبي في قصص القرآن والخليل في العروض وفضيل بن عياض في العبادة وسيبويه في النحو ومالك في العلم والشافعي في فقه الحديث وابو عبيدة في الغريب وعلي بن المدني في العلل ويحيى بن معين في الرجال وابو تمام في الشعر واحمد ابن حنبل في السنة والبخاري في نقد الحديث والجنيد في التصوف ومحمد بن نصر المروزي في الاختلاف والجبائي في الاعتزال والاشعري في الكلام ومحمد بن زكريا في الطب وابو معشر في النجوم وابو فرج الاصبهاني في المحاضرة وابو القاسم الطبري في العوالي وابن حزم في الظاهر وابو الحسن البكري في الكذب والحريري في المقامات والمتنبي في الفصاحة والموصلي في الغنا والصولي في الشطرنج والخطيب البغدادي في سرعة القراءة وعلي بن الهلال في الخط وعطا بن السليمي في الخوف والقاضي الفاضل في الانشاء والاصمعي في النوادر واشعب في الطمع وابن سينا في الفلسفة

وقال في اختصاص الحيوان : صهيل الفرس · شحيج البغل · نهيق الحمار · رغاء البعير · حفس الفيل · خوار الثور · جؤار البقرة · يعار المعز · نبيب التيس · زئير الاسد · عواء الذئب · نباح الكلب · ضباع الثعلب · قباع الخنزير · ضغاء الهرة · ضحك القرد · بغام الظبي · ضغيب الارنب · عرار النعام · صرصرة البازي · قعقعة الصقر · صفير النسر · هدير الحمام · سجع القمري · تغريد العندليب · صقاع الديك · قوقاة الدجاجة · ثؤاج الخروف · نقيق الضفدع · صرير الجرادة · طنين الذباب · دوي النحل · نعيب الغراب اه وقال في اختصاص ما سوى الحيوان : خرير الماء · بقبقة الجرة · نشنشة المقلى · هزيم الريح · هزير الرعد · عزيف الجن

حفيف الشجر · وسواس الحلي · جعجعة الرحى · صرير الباب والقلم · خفق النعل صليل السلاح · رنين القوس · اطيط المحمل · قلقلة القفل والمفتاح

وقد اسهب اسهاباً غريباً عند كلامه على المباحث التي ذكرنا اشتمال الكتاب عليها مما يعجب المطالع و يلذ لكل من يود الاطلاع على براعة السلف في علم التدريس ورغبتهم في اعلاء شأنه ورفع منارة ووضع الاصول والقواعد له ليكون مبنياً على اسس متينة وقواعد رصينة و يا حبذا لو استفزت الغيرة افاضل العراق لطبع هذا السفر النافع فانه من اجل ما طبع وسيطبع من الكتب العربية

ومما استوقف نظرنا ماجاء في خاتمة الكتاب قوله : وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين جرى ذلك في السبع الرابع « اي يوم الاربعاء لانه رابع الاسبوع » وهو العشر الثالث « اي اليوم الثالث » من الثلث الثالث « اي العشر الآخر لان كل شهر يعتبر في ثلاث عشرات » من السدس الخامس من النصف الثاني « يعني يعتبر كل سنة عربية نصفين وكل نصف ستة اشهر فالسدس الخامس من النصف الثاني هو ذو القعدة » من العشر الثاني « اي من السنة الثانية » من العقد « يقال لكل من العشرين والثلاثين الى التسعين عقد لكن المراد منه هنا كل عشر من مائة ففي كل مائة عشر عشرات فيكون في كل مئة عشر عقود » الثاني « يعني العشرة الثانية وهي من احد عشر الى عشرين » من العشر الثالث « وهي المائة الثالثة لان في الف عشر مئات فكل منها عشر الالف » من الالف الثاني « وهو معلوم من الهجرة النبوية على آله افضل التحية » ·

قلنا ومعنى ماتقدم من هذه الالغاز انه فرغ من تصنيفه يوم الاربعاء في اليوم الثالث والعشرين من سنة بضع عشرة ومائتين والف للهجرة النبوية وفي الكتاب غير هذه التعابير الغريبة التي يحل الغازها و يفسر غوامضها في الشرح وكل ماتقدم شواهد لا تحتمل النقد والتزييف تدل على فضل المؤلف وسعة علومه ومعارفه وانه امام في هذا الفن البديع غفر الله له بغداد : ا · ح العمر

فوائد الحرب (١)

مهما ارتقت المدنية ودعا دعاة الفلسفة فالحرب ما برحت العامل الرئيسي في اشغال الامم · و بعيد ان يقال ان اكتشافات العلم تقلل الحروب بل من المحقق انها بالمدنية اصبحت اشد فتكاً وتدميراً · واننا لو رجعنا الى عهد كبار السفاحين عهد جنكيز واتيلا لانشهد في ساحات الوغى ارواحاً تزهق بقدر مانري في عصر الكهرباء والبخار · والقول بإبطال الحروب هو قول من يقول بابطال الشيخوخة والموت من العالم · فان الجهاد بين الشعوب كان مصدر اهم الترقي ولا يرى كيف استطاع البشر الاول بدون حرب ان يخرج من دور التوحش و يؤسس هذه الممالك الفخمة التي نشأت فيها الفنون والعلوم والصناعات و بعد فأي حضارة كبرى لم تكن حربية بلحمتها وسداها ؟ واي شعب جنح الى السلم والسكينة فكان له شأن في التاريخ ؟

غرس في فطرة الحيوان ان يأكل قويه ضعيفه · لاجرم ان المدنية تقلل من هذه القاعدة ولكنها لاتستطيع ان تضعف النفرة المستحكمة بين العناصر الناشئة من اختلاف التركيب العقلي بينها وهي اختلافات تحمل كل عنصر ان يعيش عيشاً يخالف الآخر فيضطر الى ان يسلك مسلكاً يخالف غيره فيه · وقد نشأ معظم التنازع بين البشر من هذا الاختلاف وكل حروب البشرية كحروب الفتوح والحروب لتولي الزعامة والملك والحروب الدينية والحروب لاعلاء كلمة دين ومذهب كانت على الغالب حروباً عنصرية فقد كان الخلاف بين الفرس والاشور بين وهو الذي نقل لاول مرة السلطة على العالم من ايدي الساميين الى ايدي الآر بين حرباً بين عنصرين وكذلك كان من امر النزاع بين اليونان والآسياو بين و بين الرومان والبرابرة و بين اليابان والروس بل ان الحروب الدينية في القرون الوسطى كانت حرباً عنصرية يريد فريق ان يفكر كما يريد و يريد الآخر ان ينحله نحلته و يقول بقوله و يخضع لسلطان

(١) محتذاة من بحث للدكتور غستاف لو بون في كتابه البسيكولوجيا السياسية والدفاع الوطني

Dr Gustave Le Bon . La Psychologie Politique et la défense sociale .

الدين الجديد وما فيه من قيود متخلياً عن مشخصاته اما اعتبار هذه الحروب حروب ملوك بعضهم مع بعض فليس من التحقيق في شيء فان الملوك الذين لم تتجسد فيهم مرامي شعوبهم واهوائهم واحلامهم كانوا لا يلبثون على سرر الملك الا عشية او ضحاها مهما تعددت صلات الام وحذقت بعضها لغات الاخرى فاختلافهم في عقولهم ومناحيهم لا يزال على اتمه ولا سبيل الى جمع الشمل بين عناصر متخالفة بالفطرة ولا التفاهم لان لكل واحد نظراً والمنازع متخالفة في مسائل كثيرة اذاً فمهما وفقت المصلحة بين الشعوب فارواحهم تباعد بينهم فبدلاً من ان يسيروا نحو اخاء اعظم يسيرون الى نفور يزداد كل يوم تأصلاً · ولهذه الكراهة عدة اسباب سياسية واجتماعية · بعد ان تقارب الابعاد باختراع البخار والكهرباء اصبحت الام تستكثر من التسليح وتضع عقبات كركية تقطع الاتصال بين الممالك وسيكون من امرها بعد ان تطوق كل مملكة بطوق كسد الصين ان لا ترى الام هذا السد كافياً للحيلولة بينها و بين غيرها حتى لقد اخذت الحكومات حرة دستورية كانت او مطلقة الهية تقول بالابتعاد عن الاجانب فبعد ان اقرت اميركا كما اقرت اوستراليا على نفي الصينيين من بلادها اخذت تحظر دخول السفن الحاملة مهاجرين فقراء · وحزب العملة في انكلترا ينادي بطرد العملة من غير الانكليز والحكومة الروسية عملت بارادة العامة من شعبها وربما كانت هذه الارادة اقوى من سلطة اعظم المستبدين من القياصرة فقضت بطرد الاسرائيليين من المدن الكبرى والحكومة البروسية تطرد البولونيين والطليان الذين يعملون في سككها الحديدية وسويسرا بعد ان رفضت سنة ١٨٩٤ القانون القاضي بعدم اعطاء عمل للعملة الاجانب انشأت تطلب في تعهداتها مع المتعهدين للوازم الحربية ان لا يكون صناعها الا من السويسريين وكذلك جرت فرنسا في عامة احوالها

كل هذا مما دل ان القرن العشرين لم يقو على بث مبادئ الاخاء العام بين البشر وانه لا سبيل الى احكام اواصره بين العناصر المختلفة الا اذا جهل بعضهم ما عليه صاحبه فانت اذا قربت بين الشعوب بتقريبك بين المسافات الشاسعة وسهلت ارتياد البلاد على كل مرتاد تحكم عليهم ان يعرفوا بعضهم معرفة تامة فينتج من ذلك ان يضيقوا ذرعاً اكثر من الاول عن تحمل بعضهم بعضاً · ذلك لان تزايد نفوذ الغريب في بلد هو من مقوضات حياة الممالك فالنفوذ الاجنبي يسلب من الام اعز ما عندها ونعني به روحها فان الدخيل لما كثر في مملكة الرومان انحلت وتأذن الله بفنائها

الاجنبي في بلاد غيره لا يخضع لقانون التجنيد و يدفع او قد لا يدفع قليلاً من الضرائب و يعمل عملاً اسهل باجر اكثر مما في مسقط رأسه وتوارد الاجانب على مملكة يحاذر منه لان العناصر المنحطة التي لا تقدر على القيام باودها في بلادها هي التي تهاجر . ومهما ذهب من الانفس في ساحات الحروب لا يكون تأثير ذلك في الامم بقدر ما يكون من غارة الغريب والدخيل على بلد ليس هو منها في العير ولا في النفير . كان القدماء يخافون الغريب من فطرتهم و يعرفون حق المعرفة ان قيمة الممالك لا تقدر بعدد سكانها بل بعدد الوطنيين فيها . وكل دولة كانت ذريعة الى السلم العام الدائم تقضي على كل ارتقاء وتعود بالناس الى اقصى التوحش . قال فوكو يه : ان ضمانة السلم تولد قبل ان يأتي نصف قرن فساداً وانحطاطاً افعل في تقويم دعائم الانسانية من عوامل الحروب . لا شك ان الحروب لا تخلو من محاذير وكثيراً ما تكون ذات بال ولكن اذا قورنت بغيرها تبين الكفة الراجحة من الكفة الشائلة

في الحروب محاذير ترد الى اصول ثلاثة : فقد المال وفقد الرجال وضعف العنصر . ففقد المال لا شأن له اذ دلنا التاريخ ان الشعوب الكثيرة الغنى كانت ابداً تضمحل امام الشعوب الفقيرة . وما افقار امة من المضر بها كل الضرر فقد قال الاخصائيون ان المانيا انفقت حتى الآن كثيراً من المليارات للاحتفاظ بولايتي الالزاس واللورين وان جميع اوربا تفادي كل سنة بمليارات كثيرة في سبيل تسليح شعوبها ولا جدال في ان بعض الامم ذاهبة نحو الافلاس وعلاج هذا الداء فيها ان تحرض على العمل وتعلم الاقتصاد و يجب ان تعتبر هذه المبالغ المصروفة في سبيل التجنيد ضرباً من ضروب المكافأة الضامنة ان يدفعها شر الغارة عليه فالامة الاوربية التي تبقى يوماً واحداً بدون جيش تضم حالاً الى دولة قوية فتستصفيها وترهقها بما تضعه عليها من الضرائب الباهظة وهي اشد من كل ضريبة تؤديها في سبيل التسليح ولذلك ترى الامم تتنافس في انفاق الملايين على جيوشها وربما يضرب بعضها بعضاً بالقنابر . والاصل الآخر الذي يحاذر منه في الحروب قلة الرجال وهذا ليس من العظم بالقدر الذي يجعل له خصوصاً عند الامم التي يكثر توالدها فان نابوليون اضاع في حروبه ثلاثة ملايين من الانفس ولكنه خلف بها مجداً لعنصره

من فوائد الحروب انها تؤلف روحاً وطنية و بالحروب فقط تتولد هذه الروح وتتأصل في جسم الامة و بدون روح وطنية يصعب ان تقوم لشعب مدنية وحضارة .

فالروح الوطنية تقويها الحروب عند الظفر وتنمو قوتهــا كل النمو عند الانكسار · يقولون ان وقعة اينا كانت مصيبة على المانيا والحقيقة انها لم تكن كذلك اذ بدون هذه المصيبة الموهومة كانت وحدة المانيا وقوتهــا تأخرت بضعة قرون وانا اذا لم ننظر الى الحوادث الا باعتبار نتائجها البعيدة يسوغ لنا ان نقول ان وقعة اينا كانت وبالاً على فرنسا الظافرة اذ ذاك لا على المانيا المغلوبة في تلك الوقعة

نشأ من الحروب الاخيرة في اوربا قانون التجنيد العام فانه وان اضر بالامم الاوربية من حيث الماديات ولكنه نفعها من وجوه ولولاه لانتشرت الفوضى وسادت الاشتراكية وتقدمت جميع مخربات ابنية المدنية الحديثة · فان الأسس الدينية القديمة التي كانت تقوم عليها المجتمعات الحديثة في الغرب قد خربت فلم تجد اوربا شيئاً تستعيض به عنها · فالقانون العسكري كان المهيمن الذي لقن اهل الغرب قليلاً من الصبر والثبات واشرب قلوبهم فكر المفاداة واورثهم الميل نحو الكمال موقتاً وبه قضي على الانانية والترف الذي يستولي على الشعوب فينهك قواها · ضريبة الخدمة العسكرية ثقيلة تذكر باشق ادوار العبودية القديمة ولكنها لا يتأتى لمجتمع القيام بدونها ومن زهد فيها اندغم في غيره او اغارت عليه الامم المتوحشة فلا يجد الى دفعها سبيلا

قال المشير مولتكه في مفكراته : لا يخضع الشبان الا زمناً قصيراً في الجملة لنفوذ المدرسة النافع ومن حسن الحظ عندنا معاشر الالمان ان التربية الحقيقية تبدأ حالما تنتهي التربية الشخصية وما من امة احرز مجموعها تربية تشبه تربيتنا التي جاءتنا من طريق الخدمة العسكرية · قالوا ان معلم المدرسة هو الذي كتب النصر لاعلامنا ولكن العلم وحده لا يكفي في تربية الانسان والاخذ بيده الى مستوى من الاخلاق يستعد به لاهراق دمه في سبيل تأييد فكر والقيام بواجب وفي طريق الشرف والوطن والى هذا كله ترمي تربية الانسان · فليس معلم المدرسة هو سبب النصر بل السبب هو المربي الحقيقي : الحكومة العسكرية هي التي انتصرت فربت في الناس مدة ست عشرة سنة متوالية القوة الجسدية والعقلية وعلمتهم النظام والتدقيق والاستقامة والخضوع وحب الوطن والمضاء اه

ان نفع القانون العسكري لا يقتصر على تعليم الامم الشمم والاهابة باخلاقها الى السمو بل اليه يرجع الفضل في النجاح العظيم الذي احرزته الصناعة الحديثة ولا سيما في اعمال المعادن وذلك لان البحث الذي وقع لاستجادة السلاح قد كان من اثره

ادخال الصناعة في طور علمي دقيق وفي سرعة لم تكن تعرف منذ خمسين سنة على نحو ما كانت الضرورات الحربية مؤدية الى انتشار الخطوط الحديدية فكانت الاصل في معظم الكمال الذي بلغته الملاحة في البحر

فالحروب بل والخوف منها هي من اقوى العوامل الاخلاقية والمادية في الشعوب ومن الفكرة العسكرية يتألف آخر عماد بدعم المجتمعات الحديثة و بذلك كان على الشعوب التي لم ترض عن الجندية ان تعترف لها بالجميل . وعلينا ان لا نشكو كثيراً من النفرة المتبادلة بين الشعوب اذ بدونها يزول كل خشية من الحرب و بذلك تضمحل المدنية فتغدو رباعها بلقعاً

مثال الامم التي اضر بها السلام اهل الهند فانهم يعيشون منذ زهاء قرن في سلام دائم و بلادهم اوسع البلاد واكثرها سكاناً حتى قدرت الزيادة فيهم مدة عشرين سنة باكثر من ثلاثين مليوناً و يسكن الكيلومتر الواحد من الناس في الارض القابلة للسكن ضعفا ما يسكن في الممالك المتمدنة في اوربا ومع هذا نشأت خطوب كثيرة منها مجاعات ذهبت بارواح مئات الالوف من السكان في ادوار متعددة فلم تنفع السكك الحديدية والاسلاك البرقية وهلك في ولاية اوريسا وحدها سنة ١٨٦٦ من الجوع فقط مليون انسان كما هلك ١٢٠٠٠٠٠ سنة ١٨٦٨ في اقليم بنجاب وفي سنة ١٨٧٤ هلك مليون وربع من الهنود في مملكة الدكن . فهل كانت الحروب تحصد اكثر من هذا القدر من الناس وهلا كان الهلاك في الحرب اشرف واعظم في حسن الاحدوثة؟

و بعد فان خير الطرق لاعداد النفوس الى ماعساه يطرأ على الامم هو ان تبث فيها روح وعواطف يقال لمجموعها الفكرة الجندية وهذا هو اقوى دعامة في الجيش و بدونه لا امل لشعب في احراز مظهر في الوجود بل يشبه حملاً ضعيفاً ليس له حول ولا طول . من اجل هذا وجب على كل من يحب وطنه ان يربي اولاده تربية جندية و يبث هذه الروح في الجنود الذين لم تمكنهم احوالهم فيما مضى من تلقف هذه الروح حتى لا يكون حال الامة التي تطالب بالسلام حال البيزنطيين في الاستانة ايام جاءها محمد الفاتح يتجادلون في المسائل اللاهوتية والفاتح يحط رحاله على اسوار القسطنطينية

يتوقف الانتصار في الحروب على معنويات الجيوش لا على كثرة عددها فهي التي تغلب وتقطف ثمرات الحرب الاخيرة . وقد افادتنا الحرب العامة ان دول الاتحاد (المانيا والنمسا والمجر والبلغار والعثمانية) أقل جنداً ونفوساً من الاتفاقيين (روسيا

وانكلترا وفرنسا وايطاليا والبلجيك والبرتقال والصرب والجبل الاسود واليابان ومع هذا رأينا الغلبة للاتحاديين على الوفاقيين وعلمنا ان لاتحاد الفكر بين الضباط والقواد العامل الاقوى في الغلبة فاحلافنا لم يختلفوا ساعة على المصلحة على حين ترى اعداءنا كل يوم في شأن من اجل القيادة والمحور الذي يدور عليه العمل للوصول الى الغاية

هذا بعض ما تجر الحروب من الفوائد التي اقرها علماء الاجتماع وايدتها الشواهد التاريخية الكثيرة فان الصين عَلَى كثرة عديدها ونفوسها لا تقل عن اربعمائة مليون لما تغلبت عليها فلسفة السلم واخلدت الى الراحة تنقصتها الامم الغربية من اطرافها و يابان التي لا تبلغ بعدد نفوسها سدسها ضربت روسيا التي هي ثلاثة اضعافها ضربة افقدتها منذ سنين خسها فضربت بهذه الضربة جميع ممالك اوربا واميركا عن الطمع في بلادها واصبحت يابان اذا ذكرت طأطأت لها الجباه اجلالاً واصبح الغربيون يتفاخرون في الاخذ عن مدنيتها والهند لما نزعت منها الاخلاق الحربية رئمت للذلة وخضعت لسلطان القوة فاصبح اهلها وهم خمس الارض بعددهم لا يساوون الهولانديين وهم ثلاثة ملايين فكأن مائة مليون هندي اقل مكانة من مليون هولاندي

الحرب والتاريخ

نشر المسيو هنري مار كزالي من اساتذة كلية بودابست مجثاً في الحرب العامة في نظر التاريخ في مجلة المجر Revue de Hongrie التي تصدر بالافرنسية قال فيها ما نعرب به بما يأتي : قال القائد كلوزفيتز احد اساتذة فن الحرب الحديث : الحرب هي السياسة بالسلاح . ونحن هنا نبحث في سياسة الممالك المتحاربة الى يوم نشوب الحرب ونبين ما بين الامم المختلفة من المصالح والاهواء التي دعت الى هذه الحرب واطالت مدتها . وقد رأينا الجماعات هذه المرة قد قضت بالحرب لا الافراد مهما بلغ سلطانهم وعظمتهم . و بعد فلا يخفى ان الحرب نشبت رغم ارادة القيصر اكبر ملك يدعي ان سلطنه من الله ولقد تنبأ مولتكه بان الامم هي التي ترغب في الحرب لا الوزارات وما حدث فانه نتيجة نشوء تاريخي وسلسلة كوائن واول هذه الحوادث حرب فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠ – ١٨٧١

وهي الحرب التي اضاعت فيها فرنسا مقاطعتي الالزاس واللورين اللتين كانت افتتحتهما بالسيف وقلبت كيانهما وفرنست سكانهما ودفعت فرنسا فوق ذلك غرامة باهظة ولم تعد اول مملكة اوربية كما كانت وظل جرحها دامياً وما برحت العداوة الافرنسية الالمانية العامل الدائم في الحالة الاوربية · وقد حاول الالمان ان يسلوا تلك السخائم والعداوات من صدور الفرنسيس وحاول اناس من رجال السياسة ومن اشهرهم غامبتا الفرنساوي ان يعيدوا الألفة بين الشعبين ولكن اخفقت جميع مساعيهم لان ابرة هذا الانتقام ظلت متأصلة في الجروح ·

خرجت روسيا بعد الحرب الفرنساوية الالمانية من قيود الاحتياط التي علمتها اياها حرب القريم ولم تبصر امامها اوربا كما كانت حالها من قبل واخذت تحمي الدولة العثمانية وكانت هذه ضعفت واختل نظامها على عهد السلطان عبد العزيز واعلنت روسيا انها لا تعترف بمعاهدة باريز (١٨٥٦) التي كانت تحظر عليها انشاء اسطول حربي في البحر الاسود وعادت تبعث آمالها القديمة من مرقدها لامتلاك المضيقين والعبث بالاملاك العثمانية وكانت انكلترا والنمسا والمجر في مؤتمر لندرا تقاومان هذه الدعوى وحدهما ولئن وصف الملك غليوم عمل القيصر بانه الضربة القاضية فان المحالفة الروسية كانت اساس السياسة البروسية فاخذت روسيا تنشئ اسطولاً حربياً في البحر الاسود · ثم جددت همتها وتوسعت في ميولها لتقوبض دعائم المملكة العثمانية واستعملت لذلك طريقتين فكان الكونت اغناتيف سفير روسيا يسيطر على السلطان الذي كان يبدي ضعفاً وقلة خبرة ويوهمه بانه هو الصديق الحقيقي له ولسلطانه وانه وحده يحول دون اوربا وما تشتهيه من وضع حد لسلطة السلاطين المطلقة بمحاولتهم ادخال الاصلاحات على المملكة العثمانية ولطالما قدم هذا السفير المال الى السلطان والمقربين منه · وهكذا كانت تعمل روسيا الرسمية ولكنها كانت من جهة اخرى توقد جذوة الاضطراب وتدس الدسائس في جميع الولايات العثمانية · فكانت اموال الروس ونفوذهم تشتغل في بلغاريا والبوسنة والبانيا والجبل الاسود والصرب ورومانيا ·

واذ ايقنت روسيا الرسمية ان طريق الاستانة يمر من فينا وبودابست صرفت وكدها كله لتقلب رأساً على عقب بوكوفينا وغاليسيا وبوهيميا وهنغاريا روسيا · وكانت تجاهر بان غايتها الوحيدة تحرير جميع الشعوب الصقلبية وضم شملهم تحت سلطان روسيا الاكبر وتدبر هذه الحركة جمعية الاتحاد السلافي في موسكو وهي وان لم تكن رسمية ولكن

كان يعضدها الفراندوقات والقواد ولما تخمرت الثورة و بلغت روسيا الغاية من انتقاض البوسنة والهرسك والقاء الاضطراب في بلغاريا ثم فزعت الصرب والجبل الاسود الى حمل السلاح دخلت روسيا الى ذاك الميدان علناً وكانت من السرعة في العمل بحيث قام الوطنيون من العثمانيين وانزلوا عبدالعزيز عن عرشه لاعتقادهم بوخامة الحالة ولم تنل الصرب من روسيا معاونة مالية فقط بل بعثت اليها بالمتطوعة وحالوا دون العثمانية وزحفها ظافرة على بلغراد . ولم تتدخل امبراطورية النمسا والمجر في الامر وحالت عداوة غلادستون للعثمانية دون انكلترا وعمل شيء وفتحت رومانيا طريقاً للجيش الروسي طوعاً او كرهاً وعضدت روسيا في حملة ١٨٧٧—٧٨ التي انتهت بهزيمة العثمانيين فاملى الجيش الروسي شروط الصلح على ابواب الاستانة في سان ستيفانو وانتجت هذه الحرب تأسيس مملكة بلغاريا الكبرى وتوسيع املاك مملكتي الجبل الاسود واليونان ولم تحظ الصرب وكانت متعلقة باهداب النمسا والمجر بقسم كبير من هذه الغنيمة وكانت رومانيا اعلنت استقلالها من قبل

واذ كانت جميع هذه الممالك بنات روسيا وهي القائمة على نموها واتساع رقاعها اصبح من الامور الطبيعية ان تكون ادوات لسياسة الاتحاد السلافي . اما رومانيا واليونان فانهما وان لم تكونا صقالبة من حيث العنصر فقد انضمتا الى لواء القيصر بجامعة الدين الواحد .

حالت انكلترا والنمسا والمجر دون تحقيق هذا الحلم الذي طالما حلم به اهله فحدد مؤتمر برلين (من ١٣ حزيران الى ١٢ تموز ١٨٧٨) تخوم بلغاريا واقترح مندوب الانكليز ان تفوض للنمسا والمجر ادارة مقاطعتي البوسنة والهرسك واحتلال بكي بازار . وحازت روسيا املاكاً في اوربا فاستصفت من حليفتها رومانيا مقاطعة بسارابيا شمالي مصاب نهر الطونة وروسيا نفسها هي التي قدمت البوسنة للنمسا والمجر ولولا ذلك لحال جيش هذه دون دخول الروس الى الروم ايلي . وقد عمل بسمارك في مؤتمر برلين عمل السمسار الشريف بيد ان توسطه لم يقنع روسيا المعتادة ان تجد ليناً اكثر عند الحكومة البروسية . فاخفقت المشاريع السلافية واصبح قواد الروس منذ ذاك العهد ينظرون الى المانيا نظر الخصم الحقيقي واخذوا يبصرون ان طريق الاستانة يمر ببرلين

دلت التجارب ان روسيا الرسمية المالية لم تعد تستطيع ان تقاوم الجامعة السلافية كثيراً واضطر بسمارك ان يعقد مع النمسا والمجر محالفة كانت تعد موادها منذ زمن

طو يل على الشروط التي وضعها الوزير اندراسي · وهـذه المحالفة تنظر خاصة الى السياسة العدائية التي سارت عليها روسيا وقد حياها سلسبوري باسم انكلترا بانها نعمة جزيلة لاوربا باسرها (٧ تشرين الاول ١٨٧٩) · رأت انكلترا بعين الاستحسان هذه المحالفة التي كانت المفردة في اوربا فاصبحت روسيا بمعزل وما كان لفرنسا اذ ذاك سوى ميل من الحزب غير الراديكالي الايطالي الذي كانت الحكومة بيده وسرعان ماتبدل الرأي العام الايطالي عند ماوضعت فرنسا يدها على تونس (١٨٨١—٨٣) وهكذا تألفت المحالفة الثلاثية التي قامت مقام تحالف الامبراطرة الثلاثة الموجود سنة ١٨٧٣ وكانت اواخيها قد انحلت انحلالاً كبيراً فتحققت امنية بسمارك في ضمان السلم لمملكة المانيا والمحافظة على المكانة التي بلغتها بحروب شعواء وما كان يفكر الا في توسيع روابط تلك المحالفة وان يدخل فيها ماامكن من الممالك حتى بلغت به الحال ان يعقد عهدة مع روسيا

هذا والمملكة العثمانية تسير في طريق التجزؤ فاحتلت انكلترا سنة ١٨٨٢ مصر معترفة بسيادة الباب العالي عليها وعلى قبرص وذلك بان تؤدي اليه الجزية وتحتفظ بالادارة الخديوية وفي سنة ١٨٨٥ اعلن الروم ايلي الشرقي وكان انفصل عن بلغاريا في مؤتمر برلين انضمامه الى هـذه الامارة واصبحت الثورة دائمة في كريت واذ كان عمل روسيا محسوساً في كل هذه الشؤون ولا سيما في اسقاط الشجاع الكساندر دي باتنبرغ من عرشه على صورة وحشية لم تجوز النمسا والمجر ان تصبح شبه جزيرة البلقان تحت نفوذ روسيا ولذا كادت الحرب تنشب من اجل ذلك نحو اواخر سنة ١٨٨٦ فبعث كالنوكي اذ ذاك بلاغاً الى بطرسبرج فاضطرت روسيا الى الاذعان وفي ذاك التاريخ نشرت عهدة التحالف المعقود بين المانيا والنمسا والمجر (٧ شباط ١٨٨٧) والقى بسمارك خطابه المشهور ضد روسيا الذي قال في خاتمته نحن الالمان نخاف الله ولا نخشى سواه

فاضطرت روسيا ان تحجم مرة اخرى عما تريد وذلك لان حركة العدميين (النيهيلست) كانت تهدد اليوم بعد اليوم حياة القيصر وادوات ظلمه ومع هـذا لم ترجع عما عقدت العزم عليه وانحلت المحالفة المقدسة بين ممالك الشمال الشرقي انحلالاً ابدياً وكان امتلاك الاستانة على الدوام تفاحة النزاع على نحو ما كانت الحال في اوائل القرن عند ما أريد ان يعرف من يكون صاحب المضايق فانحلت بذلك معاهدة نابوليون واسكندر الاول · ان روسيا لا تحلم باحتلال القسطنطينية مدفوعة الى ذلك بعوامل

299

تقاليدها القديمة بل ان مصالحها التجارية والسياسية تسوقها الى الاستيلاء على عاصمة البيزنطيين لان هذه العاصمة تستطيع ان تسد الطريق على سفنها الحربية كل حين وتحول دونها ودون ماتشتهيه من نقل حبوبها الى مرافئ البحر المتوسط وهي احسن واقدم المصارف لتجارتها

بقيت فرنسا وحدها فاصبح من الطبيعي تحالفها مع روسيا وكان الاعتقاد الراسخ منذ سنة ١٨٧٥ ان تدخل روسيا هو الذي انقذ فرنسا من غارة الالمان ثانية عليها ليقصدوا فرنسا قصدة تصمي دمها . فعقدت المحالفة بين فرنسا وروسيا سنة ١٨٩٣ ووقفت هذه المحالفة الثنائية امام المحالفة الثلاثية واخذت اموال الفرنسيس تتسرب الى روسيا التي لم تتعب من الاقراض (١٥ مليار فرنك في ٢٠ سنة) و بذلك تبين ان الموازنة الاوربية عادت فاستقامت

ولما تخلى عن الدولة العلية حاميها القديم وجهت وجهتها بالطبيعة نحو المحالفة الثلاثية واستدل على هذا الانقلاب بسياحة الامبراطور غليوم الى الاستانة وفلسطين (١٨٩٨) ونالت الصناعة الالمانية والاموال الالمانية امتياز سكك حديدية في آسيا الصغرى و بين النهرين وهي مشاريع تبشر بمستقبل زاهر . وحاربت العثمانية يونان حرباً خرجت منها ظافرة . لا جرم ان الخوف كان مستولياً على مكدونية فكانت عصابات يونانية و بلغارية تعد للمستقبل عدته ولكن اتفاق حكومتي فينا و بطرسبرج بشأن ادخال الاصلاحات كان ضماناً للحالة الحاضرة ولبقاء الحكم العثماني عليها (١٨٩٧)

ولم يجر الوفاق بين النمسا والمجر و بين روسيا على قاعدة التساوي وكان من الحزب الروسي في بلغاريا ان استلم زمام الحكم فيها بعد مقتل ستامبولوف « ١٨٩٥ » وعلى العكس في الصرب المدينة لسياستنا بتوسيع بلادها سنة ١٨٧٨ ! ولبقاء استقلالها مصوناً من عبث البلغار سنة ١٨٨٥ فان سلالة او برنوفيتش قد علقت بقاءها ومستقبلها على طالع بلادنا . ومقتل ملك الصرب الذي كان داعياً الى صعود أسرة قره جيورجيوفيتش على عرش صربيا الملوث بالدماء لم يكن فيه سقوط بيت ملوكي فقط بل تداعى معه النفوذ النمساوي في البلقان « ١٩٠٣ » وعلى العهد الاخير وعقيب اتفاقنا مع روسيا اضطررنا الى التخلي عن مركزنا فاصبحت بلغراد للحال بؤرة اضطرابات مفرطة لا تطمح الى الاستيلاء على مكدونيا فقط بل تتطال الى مقاطعتي البوسنة وسلافونيا فعادت الحال

الى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٧٦ واصبحت الدولة العثمانية وسلطة امبراطورية النمسا والمجر في خطر من جديد

النسر ذو الرأسين هو الرمز الحقيقي لروسيا فانها ليست ذات سياستين احداهما رسمية والاخرى سرية بل ان لهذه السياسة الاخيرة غرضين : الغرب والشرق . عندما تقف في وجه روسيا عقبات مهمة في الغرب تنقلب الى آسيا ومتى صادفت هنا مشاكل تعود فتبحث عما تعوضه في اوربا . فروسيا لا تعرف توقفاً ولا راحة . لما اخذت روسيا بعد حرب القريم تجمع شملها كما قال السياسي غورتشاكوف استولت على اقليم الآمور منتزعة اياه من يد الصين ثم افتتحت بلاد خانات آسيا الوسطى مثل بخارى وخوقند وخيوه وكان من امر وفاق سنة ١٨٩٧ الذي وقعت عليه وحظر عليها العمل في البلقان علناً لما فيه مصلحة سياستها ان وجهت وجهتها نحو الصين الآخذة بالانحلال فاحتلت بلاد منشوريا والقت نظرها الى كوريا طامعة ان تكون دولة بحرية في المحيط الباسيفيكي اذ لم تستطع ان تكون كذلك في اوربا ولكن هذه الاحلام جرتها الى عراك مع اليابان وهذه كانت قد تجددت حياتها الداخلية فزادت قوتها وكان من حربها مع الصين وخروج يابان ظافرة سنة ١٨٩٤ ان تنبه في هذه الدولة الغالبة الشعور الوطني فخرجت يابان منصورة في البر والبحر في حرب سنة ١٩٠٤–٥ وفقدت روسيا بوورثور وكان من امر كوريا ان احتلتها يابان بعد فاضطرت روسيا ان تتخلى موقتاً عن امانيها في آسيا الصغرى وحالت الثورات التي نجمت بشدة سنة ١٩٠٥–٦ دونها ودون السياسة الاوربية ولو كان للمحالفة الثلاثية خلق اعتداء واطماع في فتح بلاد ولتيسر لها في ذاك الحين ان تغتنم الفرصة لاضعاف مملكة القياصرة زمناً طويلاً . وكانت يابان في هذه الحرب نصيرة انكلترا التي كانت مربوطة معها على ما علم بمعاهدة لا يزال حكمها جارياً وبتحريض الامبراطور غليوم الثاني دخلت روسيا في الحرب لتقضي على الخطر الاصفر فان المانيا كانت تحاذر ابداً من جارتها في الشرق ومن اتحادها مع فرنسا فراقها اشتغال روسيا في الشرق ونظرت اليه بعين الرضا وهذا مما ينافي مصلحة انكلترا

وكانت مشاكل هذه المصالح الحيوية منذ عهد نابوليون تتقاذف القرن التاسع عشر بجملته ويرجع الفضل الى فمبري العالم المجري المشهور في انارة الرأي العام الانكليزي في معنى النتائج المضرة على انكلترا التي تحدث من التقدم الروسي وقد ادركت انكلترا

منذ ذاك العهد بان اتساع مستعمراتها وتباين افكارها وامتداد تجارتها والمحافظة على مصارف صناعتها وطرق مواصلاتها تقتضيها مشاق تزيد اليوم عن الآخر . وصرح المركيز سلسبوري الوزير الانكليزي في احدى خطبه بما يجب على بريطانيا العظمى من الاستسلام للقضاء بلسان الحزن امام ما يعترضها من الصعاب التي تكاد لا تذلل لحل هذا الاشكال . فمن ثم رأت انكلترا بعين الرضا المحالفة الثلاثية تقيد الاطماع الروسية عن الانبعاث في اوربا وكذلك تفعل يابان في آسيا . وبديهي ان الاملاك البريطانية في آسيا هي اثمن في نظرها من الدولة العثمانية والمضايق وهي ترجح ايضاً ان تشفي روسيا اطماعها التي لا تنتهي في اوربا بدلاً من ان تعبث بامبراطورية الهند ومصارف الصين . عرف هذا الخطر لرجال السياسة الانكليزية ان يشغلوا روسيا في اوربا ليخلو لهم الجو ويمتعوا بنعمة السلام في آسيا

ومن القى نظره على التاريخ يرى ان السياسة الانكليزية ذات وجهين تشبه السياسة الروسية تقريباً فان اختلاف الاحزاب في بريطانيا في مسائل السياسة الخارجية تحدث بينهم اختلافاً كثيراً كالانحراف المشاهد في بطرسبرج بين روسيا الرسمية وغير الرسمية فحزب المحافظين من الانكليز الذي تشبع بما دار من العراك القديم مع فرنسا يبحث احياناً ان يكون من حزب الحكومات الالمانية ومن قواعدهم اجمالاً ان يكونوا على صلات حسنة مع بلاط فينا ويحافظوا على الدولة العلية وفي بعض الاحوال عندما كانت الاستانة تهدد والقوى الروسية تقترب من الهند كان الاحرار يعضدون سياسة الاستعمار ولكن تقاليدهم السياسية تختلف اختلافاً محسوساً . وقد ورد في كتاب مفاوضات هوراس والبول ان كاترينا الثانية اوصت في سنة ١٧٩٢ على تمثال فوكس زعيم حزب الاحرار المعارض الانكليزي في عهده لانه قاوم نشوب الحرب بين الشعبين العظيمين روسيا وانكلترا فكانت القيصرة تحارب اذ ذاك الدولة العثمانية التي كان يدافع عنها پيت الانكليزي وطلبت كاترينا حصن اوتشاكوف والصقع الواقع بين نهري بوج ودنيستر اعدت الحكومة الانكليزية عدتها لتبعث الى بحر روسيا باسطول من قبلها ولكن المعارضين صرخوا باعلى اصواتهم ان هذه السهول لا توازي المبالغ التي تقتضيها الحرب وتكلم المعارضون بلسان الصناعة والتجارة الانكليزية وما ينالهما من الفتور بحيث اضطر پيت ان يتخلى عن دعواه اما كاترينا فظلت تفتح فتوحها بتؤدة . ومثل ذلك حدث في الحروب الروسية العثمانية ١٨٧٦ — ٧٨ وكانت وزارة ديزرائيلي

اذ ذاك تميل الى العثمانيين وتقترح عقد محالفة مع بلاط فينا وعلى العكس في وزارة غلادستون التي كانت بسبب المذابح البلغاريه تحمل الحملات المنكرة على العثمانية وتطالب باخلاء الهرسك والبوسنة ولما استلم ازمة السياسة في بلاده لم يلق العثمانية بالاً وكان من عمله احتلال مصر وقد ابانت تقاليد حزب الاحرار كيف ان هذا السياسي العظيم قد استغوته عقيلة نوفيكوف بلطفها على ايسر وجه بيد ان تقاليد حزب الاحرار لم تمكن انكلترا من تجاوز حدها والانضمام الى المحالفة الثنائية ولولا ان حدث تبدل كثير في اوربا ما استطاعت انكلترا ان تلوي وجهها عن حليفاتها القديمات وتضع يدها في يد عدوتيها منذ الزمن الاطول : فرنسا وروسيا

وما دعت الى هذا التبدل حوادث تاريخية بل كوائن النشوء والارتقاء وهو ارتقاء المانيا الخارق للعادة فان المانيا بعد حرب فرنسا ظهرت في مظهر لا مثيل له في التاريخ اذ اعتبرت مملكة قوية الشكيمة في داخليتها ومعروفة بانها اول دولة حربية في القارة الاوربية تنصرف الى عمل سلمي ولا تسيء استعمال قوتها لتخضع اليها شعوباً اخرى ولم يكن بسمارك يعني بغير تنظيم داخلية المانيا وما كان يعقده من المحالفات لا غاية له الا تمكن بلاده من ان تعمل في ظل السلام في تنظيم داخليتها وكان هذا العمل مضاعفاً وذلك لانه يقتضي له من جهة ان يسكن ما امكن الجدالات المذهبية والاجتماعية ومن جهة اخرى ان ينشط الاعمال الالمانية ويثمرها وهذه الاعمال نتيجه العلم العملي . فسكنت الجدالات المذهبية بعد ما ثار ثائر الجهاد على الكثلكة واستطاع الكاثوليك في المانيا ان يشاركوا في العموميات مع البروتستانت جنباً الى جنب . واقتضت الحال لارضاء العملة ان توضع نقطة من الزيت الاجتماعي في آلات الحكومة (١٨٨١) وبمعاونة حزب السوسياليست الديمقراطي احدثت على التدريج طريقة تامة لضمانة احوال العملة وكان من نتائج الاقتصاد الالماني والعمل الالماني جمع رؤوس الاموال الكبرى . فالعلم الالماني مطبقاً على الصناعة رفع البلاد فوق درجة منافسيها من حيث انشاء الاسلحة وجعل العالم اجمع عالة على معاملها الكيماوية وعلى تلك النسبة ارتقت التجارة الالمانية فشركات الملاحة في بريم وهمبورغ كانت تنافس الشركات الانكليزية والافرنسية في الصين واميركا الجنوبية بل وفي الهند ايضاً وهذه الشركات كانت تطمح الى امتلاك المستعمرات فامتلكت اراضي اهملت الدول الاوربية احتلالها مثل مستعمرات افريقية الشرقية والغربية وغينة الجديدة (١٨٨٤) وقد استلمت الحكومة الالمانية

بعد هذه الاملاك . من اقوال اللورد بيكونسفيلد المشهورة وهو مانقله عن المؤرخ تاسيت الروماني ان عظمة انكلترا تقوم في الجميع بين النقيضين : الامبراطورية والحرية اما نحن فنرى ان الصفات الرئيسة في المانيا الحديثة قائمة ايضاً في احكام العرى بين نقيضين : بين السلطة ونظام الجيش والادارة وبين الحرية في الفكر والحرية في العلم . كان من بسمارك ان دخل في اعتدال زائد بل بشيء من الخوف في ميدان السياسة الاستعمارية وانشاء اسطول حربي لانه كان في عدة مسائل يذهب مذهب تقاليد بروسيا القديمة فكان الالمان يحافظون من حقد الفرنسيس وعداوة الروس ولا يريدون ان ينبهوا حسد انكلترا بيد ان الجيل الذي نشأ منذ الحرب الكبرى اصبحت له اطماع اعلى من ذلك لانه ايقن ان فرنسا قد سحقت وروسيا ما برحت غامرة بحيث ان انكلترا هي الخصم الممكن للامة الالمانية التي دعيت لتكون دولة العالم بغناها وقوتها المعنوية وكان رأي الامبراطور غيليوم كذلك منذ سنة ١٨٨٨ وعلى عهده وبمساعيه بدأت المانيا تصبح دولة بحرية عظمى وارتقاء البحرية الحربية هو عمله بالذات

عقدت عقدة الاتفاق الاولى مع انكلترا فبعد مفاوضات مع سلسبوري وقع الاتفاق في حزيران ١٨٩٠ ان تكون لانكلترا السلطة على زنجبار وتترك لقاء ذلك لالمانيا جزيرة هليكولاند وبهذه الصورة انتقل الى المملكة الالمانية هذا الحصن الطبيعي في بحر الشمال . وكانت انكلترا استولت عليها خلال حروب نابوليون وخلص الاسطول الالماني من مراقبة خطرة في جواره مباشرة وقد اثبتت الحرب الحالية مكانة تخلي انكلترا عن هذه الجزيرة لالمانيا وتبين لماذا لا يغفر الانكليز هذا العمل لرجال سياستهم

ولم تنشأ العداوة الحقيقية بين الالمان والانكليز الا في حرب البوير فان الامبراطور غيليوم ارسل الى الرئيس كروجر برقية تهنئة بعد ان غلب الانكليز في فرضة جامسون فاحدث ذلك سخطاً شديداً في انكلترا لان الامبراطور هو حفيد الملكة فيكتوريا وكان ولاة الامر في المانيا والرأي العام الالماني منحازين خلال حرب البوير الى هذا الشعب الصغير الذي كان مستبسلاً في سبيل الدفاع عن استقلاله

انعزلت انكلترا عن السياسة الاوربية منذ سنة ١٨٧٨ فلم تعد في جملة محالفة من محالفاتها وكان سلسبوري يدعو هذه الحالة العزلة الرائقة بيد ان حرب البوير وعواطف الكراهة التي نالتها السياسة الانكليزية في كل صقع وناد عدا النمسا — ابانت لها ان هذه العزلة ليس فيها مايشوق ويروق . وكان اسطول المانيا الحربي يزيد على الدوام

حتى فاق اسطول فرنسا وكان يعد اسطول هذه بعد الاسطول الانكليزي بعدده وعدده والتجارة الالمانية تفتح لها مصارف جديدة في العالم و بينا كان يقال سنة ١٨٧٦ ان المصنوعات الالمانية غالية ورديئة ولكنها بالنسبة للمصنوعات الانكليزية رخيصة وجيدة اصبحت تنافس الصنائع الانكليزية حتى في انكلترا منافسة شديدة ولم تر المانيا ان تكتم امانيها وصرح رئيس النظار البرنس بولوف في مجلس النواب ان المانيا تطالب ايضاً بان تحيا على هذه الارض

ولقد كتبنا سنة ١٩٠٤ ما يأتي : « تجري المانيا على سياسة التحرز الاولية بين الدول فالى اين تستطيع ان تسير بدون ان تحدث لها مشاكل مع المسيطرين على العالم وهم اليوم خصومها هذا سر من اسرار المستقبل » فاقتضى لالمانيا ان تنزع من فكر انكلترا فقط انها الحاكمة المتحكمة في البحار وفي الاستعمار والعالم واستحال عقد اتفاق بين المملكتين . وكانت روسيا مرتبكة انواع الارتباك فلا تجسر ان تباشر عملاً في آسيا . وفرنسا تحالف الشيطان على شرط ان تكون المحالفة ضد المانيا بل تحالف انكلترا التي اورثتها سنة ١٨٩٨ عار الطرد من فاشودة . هكذا كانت الحال عند ما تولى ادوارد السابع زمام الملك في انكلترا فرأى بعين البصيرة في الحال ما يجب مداواته وايقن ان من الواجب تحويل انظار روسيا عن الشرق الاقصى حيث يرجى ان يكون خطراً على السياسة الانكليزية وان يجذب بضبع روسيا الى الغرب يجعلها مناصبة لالمانيا وحليفتيها ولا شك ان مصلحة فرنسا كانت كذلك . ولهذه الغاية ذهب ملك انكلترا الى ريفال في حزيران ١٩٠٨ فلم تلبث ايران وكانت منذ زمن طويل موضع الشقاق بين روسيا وانكلترا ان تقاسمتاها فجعلت منطقتين روسية وانكليزية واصبحت الاولية بذلك لروسيا في بلاد فارس . واهم من ذلك التقرب الذي وقع بين اليابان ومملكة القيصر من حيث النتائج . وعلى ذلك حدث تبدل تام في السياسة الانكليزية عقيب استلام الاحرار ازمة الاحكام في انكلترا واصبحت المحالفة الثنائية وفاقاً بدون ان تتقيد انكلترا بمحالفة عسكرية مثل شر يكتيها

حدث في خلال سنة ١٩٠٨ الانقلاب العثماني واستولى فتيان العثمانية على زمام الحكم في البلاد وضمت عقيب ذلك البوسنة والهرسك الى النمسا والمجر وكانت روسيا اظهرت ارتياحها الى هذا العمل باديء بدء ثم دفعتها سياسة السير ادوارد غراي فانشأت تدافع عن حقوق الدولة العلية ثم عن مزاعم الصرب فلم تنشب الحرب لان المانيا عقدت

العزم على الاخذ بيد النمسا وفرنسا منهمكة في فتنها الداخلية يتعذر عليها ان تعاون معاونة فعلية بحيث اصبحت روسيا وحيدة فوات منهزمة . ومع هذا تخلت النمسا عن لواء بكي بازار على مكانته الحربية لاطماع الصرب والجبل الاسود وهذه كانت جعلت مملكة

واخذ شبح الحرب العامة منذ ذاك العهد يبدو سنة عن سنة وحصنت هولاندة اوائل سنة ١٩١١ مرفأ فليسنج ففهم من ذلك ان النية عقدت لاقفال مجرى نهر الاسكوت الذي يجري الى انفرس ولم يصعب علينا ان نستنتج من ذلك انه عقد تحالف فرنساوي انكليزي من مضمونه ان تحتل انكلترا احتلالاً عسكرياً هذه القلعة المهمة ومرفأها حين نشوب حرب بين فرنسا والمانيا . فانقلب الوفاق الودي الى محالفة عسكرية

وفي صيف تلك السنة دهش العالم اجمع لارسال المانيا احدى بوارجها الحربية الى اغادير على الشاطئ الجنوبي الغربي من مراكش وذلك للدفاع عن المصالح الالمانية من احتلال فرنسا الذي بدأ فلم تهدد فرنسا باشهار الحرب بل هددت انكلترا ومع هذا وقع اتفاق هذه المرة ايضاً فاخذت المانيا جزءاً من الكونغو الفرنساوية تعويضاً عن مطالبها —

بيد ان الهمة انصرفت الى اتخاذ الاسباب لفصل المانيا عن حليفتها حتى اذا تخلى عنها الكافة يتعذر عليها ان تقاوم ضغط اعدائها فاتفقت هذه الاعمال على المبارة المبذولة لدى حكومة النمسا والمجر ومعلوم ما اعقب ذلك من ضم طرابلس وبرقة الى ايطاليا ثم حرب البلقان التي انتجت فقد الدولة العثمانية لولاياتها في اوربا ثم ضعف بلغاريا وتوسع صربيا كل ذلك جعل الدعوة الى تأسيس دولة صربيا الكبرى مهيأة الاسباب وحرأ قاتل ولي عهد النمسا على ارتكاب جنايته في سراجيفو يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤

ومن جهة اخرى كان الاعداء يعتمدون على المنازعات الداخلية في النمسا والمجر ويظهر لهم ان اختلاف الاحزاب السياسية في المجر والقومية في النمسا تسهل طريق تجزئة هذه الامبراطورية المثنوية ولكن دلت النتيجة ان هذا الرأي مغلط فقد يتنازع اخوان فاذا جاءهما ثالث غريب عنهما يتدخل في شؤونهما ينقلبان في الحال يداً واحدة عليه ولولم يكن اعداؤنا من هذا الرأي لكانوا احجموا عن مداهمتنا في عقر دارنا

تبين مما تقدم ان سلام العالم كان ضعيف الاركان منذ سنة ١٩٠٨ لتضارب المصالح الكثيرة والاهواء المتنوعة بحيث يتعذر وصف علاج يقطع شأفة المرض الذي ابتليت به اوربا . وعبثاً جرى القول في الصلح وفي وضع طريقة السلاح النسبي وكان جثام الحرب العامة يضغط على الارواح وبهذا المؤثر وافقت المجالس النيابية

على تجنيد الملايين من الجند وصرف المليارات من النفقات وهي اعداد ما كان الانسان لطولها ليصدقها الى ذاك العهد ونرجو ان تكون كذلك في المستقبل

و بعد فلماذا فادت الممالك مفاداة عظمى بالرجال والمال لو لم تكن في صدد حرب عالمي هائل ؟ ذلك ان فرنسا تريد ان تستعيد ولايتين كانت فقدتهما وان تعود الى المركز الذي كان لها قديماً وان روسيا تريد ان تكون الحاكمة على المضايق وتخضع لصولجان القياصرة الشعوب السلافية الذين يدينون بالمذهب الارثوذكسي وان يابان تريد التوسع في املاكها وتزيد ثروتها لانشاء اسطول حربي اما نحن النمسا و بين والمجر بين والالمانيين والعثمانيين فقد دفعنا الى الحرب لنـدافع عن كياننا فاضطررنا لنفادي بامور ثم الى اعلان الحرب . وربما قيل ان المسلمين باجمعهم يقفون في مصاف الدولة العلية لتقاوم عدواتها القديمة روسيا وانكلترا وفرنسا وهاتان الاخيرتان اصبحتا عدوتيها وكانتا صديقتيها اما انكلترا فان الداعي لها الى اعلان الحرب هو الخوف من تخطي المانيا لها في مضمار الارتقاء فهي لا تريد ان ترتفع بل ان تخفض خصيمتها

ان هذه الحرب هي حرب شعوب لا حرب امراء ومع هذا فان مقتل ولي عهد النمسا وقرينته كان شرارة اتقدت بها النار بمواد غير ملتهبة كانت منبعثة من العالم اجمع . لا جرم ان نارودنا اودرانا La Narodna Odbrana هي منذ عهد الباطنيين (القرن الثاني عشر) الشيعة السياسية التي كثيراً ما كانت تعمد الى القتل لبلوغ غايتها وكان الباطنية مسلمين متعصبين يسقيهم زعماؤهم حشيشاً ليبعثوا بهم يسكفون الدماء وقد حار بهم غير ما مرة سلاطين السلجوقيين وفرسان الهيكل فابادهم مؤخراً ابناء دينهم مماليك مصر . ومن العبث ان يبحث في اوربا في القرن العشرين عن عواطف في التضامن وخشية من هول الجريمة

وما من رابطة تجمع خصومنا ومن العجب ان روسيا التي ابادت امماً كثيرة تقف الآن موقف المخلص للشعوب الصغيرة بفعالها التسليح العام في جنب انكلترا وفرنسا . ولا وجه للبحث هنا عن الاتحاد السلافي والاتحاد الروماني . فان الاتحاد السلافي الادبي قد فسد بالروسية الوحشية و بانتحال المذهب الارثوذكسي بالقوة وما من احد يفكر بتاتاً ان يحقق احلام الثورة الافرنسية من حيث السياسة والاجتماع او اماني المحالفة المقدسة الخيالية . ولا يعمل هناك غير القوة الوحشية ليس الا . ونلاحظ فقط ان التطرف الغربي قد مالأ الحكم الروسي المطلق لابادة ام اوربا المركزية البعيدة عن الاستبداد والفوضى وما شعارها الا الترقي والاصلاح الاجتماعي الرصين اه .

الشيخ ابراهيم الحوراني

« تتمة ما في الجزء السابع »

« ٤ نثره »

ارهف المترجم به يراعه منذ الصبا فاجاد في الموضوعات التي دبجها به ولم يبق بحثاً لم يتناوله باسلاته فتفنن في مقالاته تفنناً لا يجيد فيه الا من كان مثله كثير الاطلاع متضلعاً من العلوم والآداب · منقباً للمعقول والمنقول · فتراه يذهب بعقل المطالع لكتاباته الوضيحة البليغة كل مذهب و ينحو به كل منحى فيمر على المدن والدساكر و يريه الشوارع والمنعطفات و يسدد خطواته في مناهج الحقيقة · و يطير به في عالم الخيال ولكنه لا يتيه بالقارئ ولا يضله سبيلاً بل يملأ مخادع حافظته صور تعابير بليغة · و يملأ فكره موضوعات مختلفة مفيدة · و يرشده الى الصراط المستقيم · و يطبع في مخيلته اصح الآراء واسد الافكار العلمية الادبية · فيعود مطالع ابحاثه مستفيداً كل الاستفادة محرزاً ما يريد من الابحاث والالفاظ والمعاني مع تفنن في التعبير وخلوص من التعقيد و بساطة في التركيب · ومن قرأ ماجادت به قريحته من المقالات الرنانة في المجلات والجرائد والكتب شهد بصحة قولنا ولم يحمله على الاطراء والتزلف فاننا وان كنا من اصدقائه المخلصين فلسنا من مريديه الكاذبين

ولذلك احيل المطالع المنتقد على ماله من المقالات والخطب والمباحث وافوض اليه امر الحكم على المترجم بما يوحيه اليه ضميره الصادق وبصيرته النقادة المنصفة فطالع مقالات (عالم الحس والخيال) و (الكيمياء) و(العين) و (الشعر) و (القلب والعين) و(الظل) و (الشعر العربي والشعر الاوربي) · و (العالم المادي والعالم الادبي) و (حكمة الاولين) و (فلكياته) و (البلاغة) و(الكفاية) و (آراء جديدة في اجزاء المادة) و (الخمير والاختمار) و (غرائب الكيمياء) و (تاريخ الكرة الارضية الطبيعي) و (الرسالات التي عنوانها الرقيم) و (شرح سجعات اساس البلاغة للزمخشري) و (الاختلاف في الآراء والعقائد) او (الجهل والهوى) و (الطبيعيات والادبيات)

و (ضرر العلم القليل) و (مساعدات الذاكرة) و (الصدى الطبيعي والصدى الادبي) و (الفينيقيون) و (اصل اللغات) و (قدرة العلم وعجزه) و (اختلاف تأثير العلة الواحدة باختلاف طبيعة المعلول) و (المام القدماء بظلال ما كشفه المحدثون) و (الكهربائية ، وكرات النار الجوية) و (الوضوع) و (استقر واستدل واحكم) و (مقاومة تنازع البقاء) و (الانسان) وما شاكل ذلك من المباحث المختلفة والنفثات الرائقة

واذا تعذر على المطالع الوقوف على هذه الآثار الادبية الرائقة فانني اسهل له ذلك بانتخاب بعض فقرات من كلامه :

فمن ذلك قوله في خطبة (عالم الحس وعالم الخيال) :

« ومن فوائد (الخيال) انه نزهة المعتزل ففيه يرى الحدائق الغناء توقع عليها قيان الوُرق اطيب الالحان وتجري تحتها جداول زلال الذ من بنت الحان وتحيط بنابتها بواسم الازهار كما يحيط بالمعاصم السوار . وترى مدافع الشواهق تقذف بلجين الماء على در الحصباء في الاودية الخضراء فترده اماة المهى وظماء الظبي فتصبو الى الورد ولا تطفئ أُواما فتئن وجداً وتنشد هياماً :

ألا قل لسكان وادي الحمى هنيئاً لكم في الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضاً فنحن عطاش وانتم ورود

ثم اذا مللت مشاهد النهار توجهت الى مشاهد الليل و بدلت طلعة الشمس بمحيا سهيل فترى هنالك النجوم درراً في باطن الخيمة الزرقاء والمجرة نهراً عظيماً تدفق في حديقة نرجس وفروعها جداول البطحاء . وترى هنالك تباين المؤتلفات وائتلاف المتباينات فتشاهد الطائر والواقع والذاهب والراجع والخفي والظاهر والثابت والسائر والاسد بين السرطان والعذراء والسرطان بين الاسد والجوزاء والابراج والمنازل والطوالع والاوافل فترى العالمين على العالم الاصغر وتنسى انك العالم الاكبر ثم تنتبه الى المعتزل واليه تبوء فتعلم صحة قولهم : (الوحدة خير من جليس السوء) اه .

ثم قال في الخيال قولاً فلسفياً هو :

« ومن فوائده انه معمل المتصرفة ومخترعها اما المتصرفة فعرفوها بانها قوة من قوى العقل الباطنة شأنها تركيب الصور والمعاني وتفصيلها والتصرف فيها واختراع اشياء لاحقيقة لها . ومن اهم اعمالها التجريد وهو ماتكتسب به الكليات من الجزئيات ولولاه كانت الصور العقلية هويات متفرقة لا علاقة بينها وقد تكلمت عليه بالتفصيل

في المقالة الثالثة من كتاب (الحق اليقين) فليطالعها من اراد . ومنها ان التركيب جمع المراد مما علم بالتحليل والتعميم في صورة واحدة وهو (اما حقيقي) وهو ان يجمع في الذات الحقيقية ما لها من الصفات المختلفة في الواقع كأن تجمع الحمرة والاستدارة وانتساق الاوراق وطيب الرائحة وسائر ما لا بد منه من المشخصات في هذه الذات لتصور هذه الوردة . (واما تخيلي) وهو جمع مختلفات لتصور ما لا حقيقة له كأن تجمع حمرة الورد ورائحة القرنفل في زهرة الاقحوان على نبت الزنبق فتصور نباتاً لم يخلق » اه

ومن قوله في مقالة (البلاغة) : « الكلام البليغ ما وضح معناه ووجز لفظه وسهل وطاب للسمع . ومن اهم ما يستلزمه وضوح معناه معرفة المخاطب معاني مفرداته . والمعنى هو الصورة الذهنية المراد بيانها . فالبليغ يرسم في ذهن المخاطب مثل الصورة التي في ذهنه . فاذا اراد ان يصف اليك الابل مثلاً صوره في خيالك بوجيز كلامه كما يصوره البارع من المصورين على قرطاسه ومثله فيه كما يمثله الماهر من نحاتي التماثيل : اما غير البليغ فربما اراد ان يرسم في خيال سامعه ظبياً فصوره قرداً او شيئاً لم يخلق بالعبارات المطولة المشوشة . ولا بد في البلاغة من مراعاة حال المخاطب فابلغ الكلام في خطاب النبيه غير بليغ في خطاب غيره .... ومن هذا يعلم ان الايجاز في البلاغة نسبي وان البلاغة في خطاب الخاصة ايسر منها في خطاب العامة ولهذا سموا ما يفهمه العامة ويرضى به الخاصة بالسهل الممتنع » اه

ومن قوله في صدر مقالة (ابسط مبادئ الرياضيات) : « المسائل الرياضية عبء الاذهان وغول الزمان ولذة ادراكها خير اللذات مع انها نتاج الآلام والانات واني ممن قسم لي ان اولع بابكارها واسجن دهراً في دارها وشغلت وقتاً طويلاً بتدبر يسها والفت وحشها وانيسها فوجدتها من خير مميزات الاذهان . والحاملات على بغض التقليد وحب البرهان واقوى المعينات على علم الميزان (علم المنطق) . ولكن رأيتها تصعب على اكثر الطلاب . وتدق عن ادراك اقوى الالباب . وتضل فيها عن الابواب . لتشعب العقاب . وكثرة الشعاب . فبذلت الجهد في البحث عن اصولها ودقائقها . الى ان يسر الله الوصول الى حقائقها

ان كل المسائل الرياضية في المقادير الصحيحة المنطقة مبنية على ثلاث سلاسل . (الاولى) سلسلة الاعداد الطبيعية ١ ٢ ٣ الخ (والثانية) سلسلة الاعداد الوترية

٧٥٣١ الخ والثالثة سلسلة المثلثات ١٠٦٣١ الخ وهي تنشأ عن جمع حلقات السلسلة الطبيعية على هذه الصورة ٠ + ١ و ١ + ٢ و ١ + ٢ + ٣ الخ ولهذه السلاسل خواص كثيرة لا محل لها في مثل هذه المقالة الوجيزة فاقتصر على ذكر ما الحاجة اليه في بيان المراد » اه الى غير ذلك مما لا يمكن استقراؤه الآن

« ٥ مؤلفاته ومعرباته ومصححاته »

كلف المترجم منذ صباه بالتأليف واول مؤلفاته (الشهب الثواقب) في الجدل و (جلاء الدياجي في الالغاز والمعميات والاحاجي) وهي رسالة لطيفة فيها كثير من منظومه و « مناهج الحكماء في مذهب النشوء والارتقاء » و « الحق اليقين في الرد على مذهب دروين » و « الآيات البينات في عجائب الارض والسماوات » و « ضوء المشرق في علم المنطق » وهذا آخر مؤلفاته المطبوعة . اما مؤلفاته التي لم تطبع فكثيرة منها « ديوانه الشعري » وقد لاحظ جمعه وتنقيحه ومراجعته قبل وفاته بقليل و « الاعراب في نهج الأعراب » و « شمس البرهان في علم الميزان » وهو في المنطق اختصر منه « ضوء المشرق » المذكور الذي طبع و « الكوكب المنير في علم التفسير » . وعنده فذالك كثير من المؤلفات في البيان والفلسفة الطبيعية والفلسفة العقلية والرياضيات لم يحكم ترتيبها لانشغاله بخدمة غيره سحابة العمر . عدا خطبه ومقالاته التي تناقلتها الصحف وبعضها لا يزال مخطوطاً

ونشر بعض الروايات الادبية مثل « اسفار ذات السوار » في مجلة الرئيس ومختصر بعض روايات شكسبير الشاعر وغيرها

اما معرباته فكثيرة وبعضها لم يذكر فيها اسمه ومنها : « المواعظ الميلادية » لسبرجن و « مواعظ مودي » . و « تفسير التوراة » اي الاسفار الخمسة بزيادة تفسيح له على الاصل و « سكان وادي النيل » و « رجال التلغراف » و « سيرة القديس اوغسطينوس » و « الطريق السلطانية »

واما مصححاته فليست بقليلة ولكنه لم يذكر اسمه فيها ايضاً فمنها تصحيح « النهج القويم في التاريخ القديم » للاستاذ پورتر و « قاموس الكتاب المقدس » للدكتور جورج پوست وساعد الدكتور ادي في جمع تفسير الانجيل

واشتهر في جميع ما كتبه بتحقيقه ورقة اوضاعه العربية وصحة تعابيره اللغوية مع بساطة العبارة ووضوحها حتى يسهل بحسن اسلوبه ما صعب من المباحث فتراها مفهومة

« ٦ منزلته العلمية »

صرف حياته منذ صبوته بالتدريس والبحث والجمع وتوسيع مداركه بالمطالعة وانتظم في سلك الجمعيات العلمية والادبية وانتدب مدعواً لبعض المؤتمرات العلمية في اوربا وعرفه الاوربيون والاميركانيون بسمو المدارك اما في البلاد العثمانية فكان طائر الشهرة وكثيراً ما ترجمت الصحف العثمانية « التركية » مقالاته واطرته وتناقلت الصحف العربية آثار اقلامه من جرائد ومجلات . وقد سافر الى مصر سنة ١٩٠٨ م ولم يلبث فيها اكثر من سنتين ترأس في اثنائها تحرير جريدة المحروسة ثم عاد الى عمله في بيروت ولقد رصد الكواكب في بيته وقرر كثيراً من شؤونها بعدما رافق استاذه الدكتور ڤانديك برصدها في مرصد الكلية في بيروت . وتخرج على يده كثير من ادباء وادبيات سورية ومصر . كتب كثيراً في الصحف مثل « النجاح » و « الجنان » و « المشكاة » و « المقتطف » و « النشرة الاسبوعية » و « الصفا » و « الطبيب » و « المباحث » و « لسان الحال » و « المحروسة » . وقلما خلت جريدة من كتاباته ولو نقلاً عن غيرها لما فيها من الطلاوة واللذة والفائدة

وكثيراً ما دعته الحفلات لالقاء الخطب فيها فطربت له اعواد المنابر وافاد بما يلقيه من منثور ومنظوم

ومن مكتشفاته معادلة الجيوب ومعادلة معرفة اضلاع الاشكال القياسية الوترية من المسبع والمتسع وذي الاحدي عشرة وما فوق ذلك الى غير النهاية . وعبارات لجمع الاسرار المعينة . وبعض التقارير الفلكية التي انتبه اليها بالرصد : ومن آرائه التي تيقنها الرأي الدوري وصدقه كثير من علماء العصر . واشكال اجزاء المادة وهذا لم يفهمه الا الخاصة . وكثيراً ما برهن المنطق بالجبر . واجاب على اسئلة في جميع الموضوعات بسداد رأي ودقة نظر . وعرف مؤخراً طريق رسم الاشكال القياسية كلها وقيمتها العددية بلا تكعيب

اما معارفه اللغوية فلم تكن باقل من معارفه العلمية فاذا اورد لفظة ثبت فيها واشار الى اول من استعملها مثل شبه جزيرة ملمقة « ملقة » كاقال الشيخ داود البصير الانطاكي في تذكرته . وهكذا استخرج من بطون الكتب المصطلحات القديمة وحقق آراء

العصر فيها . ومن اوضاعه المشهورة المرقب والمجهر والحوصلة « الكبسول » والمضلع « القباجور » والبخيري « المدخنة » والفوارة « النوفرة » وامثالها

ومن تعابيره المصرية قوله : مهيع الاختلاق اوسع من فلك نبتن واطول من قطر المجرة

هذه صورة الحوراني المعنوية مثلناها للقراء الكرام ليعلموا خسارة الوطن بفقده اثابه الله عداد حسناته واعاض الادب عنه خيراً منه وكرمه

« ٧ اقواله وحكمه وآراؤه »

للفقيد كثير من الآراء الادبية والعلمية والاقوال الرائعة والحكم الناجمة انتخب منها الآن نبذة تدل على مكانته وربما كان بعضها معرباً او مقتبساً : فمن ذلك قوله :

المرأة المبتسمة اجمل من اجمل النساء المقهقهات . ريشة الاوزة اشد خطراً من برثن الاسد . الحكم على البعض لا يستلزم الحكم على الكل ولا نفيه عنه . ان اعظم الناس حرية اقواهم واكثرهم خداعاً اضعفهم . كل شيء من انواع الخير وافراده فرضنا انه الخير الاعظم او السعادة لا يصح ما لم يكن الفضيلة وان لم يسلم بذلك بعض الفلاسفة الاقدمين . ان الشرائع الطبيعية كلها نفع وعلة التأذي بها الجهل . ان الكبرياء قد تؤدي الى الجنون . ان القوة الطبيعية مقسورة ابداً والفضيلة متوقفة على الاختيار . كثيراً ما يقع الناس في الخطأ لاطلاقهم الحكم على الشيء في كل الاحوال والاعتبارات . فليتوقع الراغب في كثرة العلم قلة المال او الفقر المدقع . انه قد يجهل العالم ما يعلمه الجاهل . من آفات الانتباه توجيه الفكر الى امر واحد وقتاً طويلاً ومثله الاقتصار عَلَى فن واحد او الولوع به اكثر من سواه . متى ثار غضبك فلا تقل ولا تفعل . لا يقاس على الآراء القوية التي لم تبلغ اليقين الا على سبيل الظن . ولا يقاس على الآراء الضعيفة الا عَلَى سبيل الامكان . قليل الطعام المغذي ونقي الهواء ومعتدل الرياضة من امنع الحصون دون جيوش الامراض والاوباء . ان العلل لا تفعل بالمعلولات الا بالمباشرة . ان من اللذات آلاماً . من الناس من يخسر كل شجاعته وايمانه في ساعة الاضطراب . ان الذي لا يؤثر فيه الشعر البليغ خشن الطبع سقيم الذوق . من العجب غرائب هذه الارض كثرة المرائين مع كره الناس عامة للرياء . ومما ينتج من الرياء طبعاً ان صاحبه لا يصدق ولا يركن اليه وان تكلم بالحق وكفى ذلك عذاباً للمرائين .

ان نظرك في اساءتك الى غيرك يخمد نار غيظك من اساءة غيرك اليك · القول الصالح حسن ولكن العمل الصالح احسن منه فالقول الصالح الجسد والعمل الصالح الروح · المرأة اجمالاً تعادل الرجل فهماً لكنها تجري اعمالها على سنن التصور اكثر مما تجريها على مقتضى المنطق · المرأة الفاضلة مهذبة الزوج والاولاد والاقرباء والاصدقاء بالقول والفعل ولها في ذلك من التأثير ما لا تستطيعه كل فلاسفة الارض · اللطف رشوة من لا رشوة له · من افسد بين اثنين فعلى ايديهما هلاكه اذا اصطلحا · الصدق أس الاصلاح الادبي · انه يستحيل على المترجم الشعر من لغة الى اخرى ان يأتي بكل محسناته الاصلية مع المحافظة على تمام المعنى الاصلي الا نادراً · الاختبار اثبت قبول الانسان التهذيب والتحلي بالفضائل ولكن اكثر الناس يجهلون السبيل · استقرِ واستدل واحكم · الشعر ضرب من الوحي · ان القوة على نظم الشعر موهبة الهية يشرفها الانسان او يحقرها بالموضوعات التي يستعملها فيها · ان للشعر البليغ تأثيراً في النفوس عظيماً حتى شبهه كثير من المشارقة والمغاربة بالسحر · نعم انهُ سحر حلال يحمد به الساحر و ينعم به المسحور · العلم القليل اضر من الجهل · اياك وخداع الخيال فانه مصدر كثير من صنوف الضلال والخرافات الثقال · واخزن فيه صور الهاويات الى الخلاق والحاملات على مكارم الاخلاق · ان شرف نفس الانسان يحفظ شرف نسبه لا شرف نسبه يحفظ شرف نفسه · ما اقدرنا على الكلام وما اعجزنا عن العمل · اذا مالت نفسك الى كتابة ما لا تريد ان يعلن بخطك فاعلم ان ذلك الميل خطر هائل لانك بذلك تضر نفسك اكثر مما تضر غيرك · ان اصل المادة بامرها اجزاء صغيرة لا تدركها الحواس تتجزأ في بعض الاحوال دون بعض · ان الصداقة تنتهي حيث يبتدئ الحذر · انا خلقنا نشعر بالألم لنحذر من ان نؤلم سوانا · احسن وقاية من النميمة ان تسد الآذان عنها وان يكتب تجاهك ابداً قول بعضهم : (لا تصدق كل ما تسمع) · الوعظ من اسباب الحياة الجسدية والحياة الروحية لمن يؤثر فيه

الى ما يضارع هذه الروائع و يشا كل هذه النواجع

« ٨ مجونه وازجاله »

كان رحمه الله ينزع الى المجون والاحماض في الاحاديث تفكهاً او اجماماً للخاطر ليس الا على حد قول الشاعر :

اروّح القلب ببعض الهزل تجاهلاً مني بغير جهل
امزح فيه مزح اهل الفضل والمزح احياناً جلاء العقل

ولذلك كثرت نوادره وازجاله واشعاره الدالة على بداهته وسرعة خاطره فكان اذا آنس من السامعين انقباضاً او مللاً ولا سيما في العلميات البحتة ونحوها بادرهم بنكتة رائعة تستجم خواطرهم وتلفت اسماعهم وتتلاعب بعواطفهم فيثيب اليهم نشاطهم ويتجدد ارتياحهم كما قال الرشيد : « النوادر تشحذ الاذهان وتفتق الآذان » . واذا استقرينا اخلاقه منذ صغره رأيناه مولعاً بهذا الاسلوب الفكاهي وهذه الرقائق المستحبة حتى انه لما كان يدرس في (عبيه) في صبوته سمع احدهم يفاخر بقول الشيخ ناصيف اليازجي من قصيدة رقيقة :

كلفت حمل تحيتي ريح الصبا فكأنني حملتها بعض الربى
لا تحمل الريح الجبال وليتني كلفتها حملي فاني كالهبا

فقال المترجم له : « واين يروح الشيخ بعمامته وكبرها » ثم لما غادر المدرسة وجاء بيروت اجتمع باليازجي سنة ١٨٧١ قبل وفاته فقال له الشيخ : « وماذا ثقلت عليك عمامتي » فاجابه الحوراني : « والله لو عرفت انه سيبلغك حديث العمامة . لما رأيتك الى يوم القيامة »

ومن نكاته انه لما كتب في (اشكال اجزاء المادة) لم يفهم كلامه الا القليلون فقال عنه بعضهم : « انه كتب في امر لم يدركه حق الادراك حتى ابهم قوله » فاجابه الحوراني : « وانا اثني عليه اصاب ام لم يصب » . وله كثير من امثال هذه الرقائق التي تدل على ظرفه و بديهته ودماثة اخلاقه

اما نكاته الشعرية المجونية فمنها انه كان مرة يروح النفس على شاطئ نهر العاصي في حمص فعثر وسقط على فتاة كانت قريبة منه فشكته الى ابيها فاغلظ له الكلام وكان لا يزال صبياً فقال مورياً واجاد :

ياسيد الحلم يا من نور حكمته يهدى به الناس من دان ومن قاصي
زللت في شاطئ العاصي الى رشاء عن غير عمد فاضحى الظبي قناصي
وقد شكاني اليكم فاغفروا زللي حتى يقولوا غفرتم زلة (العاصي)

وقال في فتاة جميلة تقية متعصبة في الدين كانت تعنفه على مزاحه وتبكيه عند ضحكه .

غراء شمس نهارنا من وجهها وهلال ليلتنا مثال جبينها
ما كان اطر بني لطيب حديثها لو ان رقة خصرها في دينها

ودعي مرة الى صيداء ليخطب في حفلة مدرسية فافتتح بابيات غزلية وتمحل لشيخوخته عذراً بقوله :

قدم الزمان وصبوتي تتجدد فكأنني في كل عصر اولد
شيخاً أرى بين الشيوخ وامرداً في المرد مما شاب منه الاصرد
قالت غواني الرقمتين وقد رأت ثلج المشيب اظن نارك تخمد
فاجبتها ما الشيب بل لهب الهوى في الرأس مما في الحشى يتوقد
قالت مشيبك اسود في ناظري قلت الحقيقة ان لحظك اسود

وكان مرة مجتازاً من طرابلس الى بيروت ورفيقه الخواجه مومى مخايل الطرف الطرابلسي ومعهما فتاتان جميلتان عيسوية اسمها مريم وموسوية اسمها سارة فلما نزلا في القارب جلست مريم على مقربة من مومي وسارة قرب ابراهيم فقال المترجم :

شمسان في القارب شفت على وجهيهما شمس العلى الغاره
فظلَّ مومى رد عن مريم وظل ابراهيم عن ساره

وارخ زفاف حسناء اسمها لمى الى رجل ذميم بليد سنة ١٨٦٢ م :

زفاف كالحمام لكل نفس به شمط الرزايا قد تجلت
واشد في الحداد مؤرخوه لمى شمس ببرج الثور حلت

وقال في شيخ كثير المعاصي خضب شعره :

ياخاضب المبيض من فرعه بالخزي لايحسن هذا السواد
ان كنت ذا لب ورمت الهدى فاصبغه قبل الردى بالرماد

وقال في امرأة تركت مهذباً لفقره وتزوجت خشناً لغناه فعذبها :

لقد هجرت اخا فهم قليلاً ماله يعلم
وودت بعده وحشاً كثير المال لا يفهم
فنالت من مخالبه جراحاً ما لها بلسم
وذاك جزاء تاجرة تبيع الحب بالدرهم

وقال في غانية دمشقية :

سقت اجفان صبك كل صدر من العواد ايام الفراق

ففرخ في قلوبهم التصابي وجن النبت من تلك السواقي

وارتجل للائم مضمناً قول العامة (من غير شر) لما يؤذي :

ليس لي عن صبوتي يا لائمي ماتجلي وجه سلمي من مفر
وملام الصب شر في الهوى فانصرف ياعاذلي (من غير شر)

وقال في متنزه في دمشق اسمه الجزيرة مور يا :

رأتني عند شط النهر اجري اليها كالعبيد الى الاميره
فقالت ما اتى بك قلت القى عبيدك بحر حبك في (الجزيره)

وقال لعاشق يبكي و يشكو :

كثيراً ما ارى العشاق تلهو وانت تظل تذكر ام عمرو
وتبكي للنوى ما جن ليـل كأنك في الصبابة (يوم قبر)

الى كثير مما يساوي هذا الاسلوب من المجون الادبي والنكات واللطائف والاحماضات (اما زجلياته) فلطيفة التصرف بديعة المعاني والالفاظ ابتكر فيها اوزاناً رائقة وابتدع اناشيد رائعة ننتخب منها الآن ما يدل على براعته بها فمن ارتجالياته من قرادية مثل فيها السكران قوله :

اعتبروا من حسي ياناس اوعوا تجوا صوب الكاس
اصل الضنا والافلاس خمره في كاس الساقي
في كاس الساقي خمره وفي قلب الشارب جمره
لا تشرب منها بمره لتصبح بالدنيا راقي

ومن تفنناته قوله من قصيد طويل موجهاً بالغناء والفقه ومور يا :

يبكي (صبا) في حين يتغني (نوي) يلي شفافك تمر خالي من النوى
احرقت قلبي بالتجافي والتوى ما كان ظني فيك تحرق منزلك
ماسمعت في محبوب احرق مسكنه واللي عطاه اياه واللي سكنه
مين عاد من اهل الصبابة يضمنه اذا عرف انك احرقته وهو إلك

ومن مخترعاته الترصيع في المطلع المخمس المردوف من قصيد طويل :

يلي بلحظك بابل الاسحار وبصحن خدك كوكب الاسحار
سرك مصون بمهجة المفتون مايتدركو الالباب والافكار

* * *

سرك مصون بمهجة المفتون   لو لا دموعي والعيون عيون

ياظبي . عينك سيفها مسنون

تقطع اكباد الغزلان   وتجندل آساد الفرسان

واستعبد مي وغيلان   وليلى وعاشقها المجنون

ولحظك صاب . اسود الغاب . برشق حراب . وشق كبود

وهز العطف . رماح الحتف . وسل الطرف . سيوف هنود

ودار الراح . بغير اقداح . وبلبل صاح . بلحن العود

ومال البان . وسري بان . وكان الكان . بكاف ونون

سر الهوى مدفوق   مع دمعة العاشق

يا فتنة المخلوق   يا آية الخالق

قلب الفتي مسروق   من لحظك السارق

سر العيون بيسرق الارواح   و بيظهر الاخفى من الاسرار

وهكذا الى آخر هذه الانشودة البليغة الجامعة لتفننات تأخذ بمجامع القلوب ومن ذلك قوله في مطلع آخر ليس باقل بلاغة من غيره :

حنوا على المحبوس في حبس الهوى   ضاقت علي الارض من اربع قطار

سهرت عيوني وطال ليلي بالنوى   من طول ليلي نسيت شو شكل النهار

* * *

سهرت عيوني وطال ليلي بالنوى   بلي شفافك تمر خالي من النوى (١)

غنيت لحن حجاز وعراق ونوى   حتى بكوا طيور السما ولانوا الحجار

* * *

حتى بكوا طيور السما ولان الصفا   وزاد نهر الدمع عا نهر الصفا (٢)

ياحسرتي حل الكدر بعد الصفا   وصار الني وصاحبي وحش القفار

* * *

وصار الني الوحش في قفر اللوى   ومال سالب مهجتي عني ولوى

بلي رفعتو للظبي اعلى لوا   دلوا غريب الدار عا ظبي النفار

(١) وقد مر هذا المعنى في المطلع السابق   (٢) النهر المجاور لعين زحلة والمجرور الى بيت الدين

وقوله في مطلع آخر وفيه تلميح وتفنن :

آمنت انا برهان ما بيلزم انك نبي الزهر و بدر التم
من طور خدك ماقرب موسى ومنين جبت الن للمبسم

* * *

من طور خدك ماقرب موسى وناره اشترت منها الـما شموسا
تخمين قبل مبـ ـمك عيسى وحول رضابك خمر حلو الطعم

* * *

حول رضابك بالعـ ـل خمره بكاس العقيق الزابده حمره
من برقها في وجنتك جمره قلبي مجاهرها وصبري الفحم

* * *

خمرة شفافك طعمها سكر ممزوج بالاطياب والعنبر
خمارها خمـارته سـ ـكر والوف عند ابوابها تلثم

الى ان ختمها بقوله :

اياك تطمع بعـدها لمرة في الطيف كاسات الظمع مره
ما كل مرة بتسـلم الجره خايف انا بعد الطمع بتندم

وله مع بعض الزجليين (القوالين) نوادر ومحاضرات ولا سيما الياس الفران وغيره الى كثير مما يماثل هذه النوادر والنكات اللطيفة الجامعة لكثير من الانواع البديعة كالجناس والتورية والتلميح والتوجيه والانسجام والتفـنن وغيرها من ملح الكلام ولطائف النظام وكثيراً مايساعد الزجل على سرد القصص والاقوال طبيعية بدون تكلف لعلة القيود مثل الاعراب والوزن الخاص ونحو ذلك فيجيء كله من السهل الممتنع والمعنى المبتكر عيسى اسكندر المعلوف

309

مشاهد برلين

وعلى ذكر البحث في الاخلاق والآداب اذكر اني كنت اتجول في بعض الغابات حول قرية تبعد عن برلين نحو ساعة في القطار تسمى (فيزدورف) فخطرت على قلبي الموازنة بين المعارف والاخلاق و بدا لي وقتئذ ان كفة الاخلاق الانسانية نظراً الى وزنها بترقياته العلمية لم تزل خفيفة فقلت تحت عنوان ايها الانسان :

اما كفاك ظباء او مهاً بربى حتى تقنصت آساد الشرى بزبي
وما اقتنعت بما يطفو على لجج فغصت تلقط دراً تحتها رسبا
ولم تقف عند تنسيق المقال الى ان ماج حسناً وصار الثغر والشنبا
فبعد ارساله دهراً اقمت له وزناً — اكان حصاً ثم انثني ذهبا ؟
قلبت وجهك بعد الارض في فلك فظلت ترصد منهُ السبعة الشهبا
اما تفقهت عنها في حقائق ما وراءها فنصحت الشك والريبا
سار اليراع رويداً فانتهضت لما يحدو الصحائف في شوط او الكتبا
صفت الحديد مطايا اذ تلبثت الـ جياد او القيت في سيرها نصبا
وضاقت الارض ذرعاً عن خطاك فما لبثت ان سرت في جو مسير جدا
واشتقت لهجة الف فاهتديت لان تمتع السمع منها حيثما ذهبا
حكى الصدى صيحة زجت نجئت بما يحكي القصائد انى شئت والخطبا
حب الحياة استثار العزم منك الى طب وحرب فكنت البرء والوصبا
فما الطبيب بمستشفاه ارغب في الـ بقاء ممن يلاقي البيض والشهبا
ارسلت في كل واد رائداً فدرى من حكمة البحث كنه الامر والسببا
لكنني ما دريت اليوم انك قد افرغت في نفسك الاخلاق والادبا

كنت اسيح في تلك الغابات ترويحاً للخاطر وايثاراً لها في بعض الاحيان على مشاهد الحضارة وزخارفها ولا سيما في ايام رمضان حتى قلت خلال السياحة في سياق الاعجاب بالبداوة والارتياح الى بساطتها ابياتاً صورت فيها حالة راعي الغنم تحت عنوان (الملك الطبيعي) وهي :

نقلد الملك بين الضال والسلم — وهب يفتح من غور الى علم
فعرشه ربوة حاكت طنافسها — انامل الغيث اذ جادت بمنسجم
والشمس تاج تجلى فوق هامته — فلا تساوره اضغان محتدم
ماالبدر والنجم الا الكهرباء سرت — من حوله فاماطت برقع الظلم
وآلة الطرب الجلان ترتع في — خصب فيسمع منها اطيب النغم
والظبي يرتع في طرس الفلاة خطاً — احلى لناظره من جولة القلم
والرعد يوجز في انذاره خطباً — يكفيه رائعها عن مطنب الحكم
والبرق (برق) بلا سلك يبلغه — بشرى تلقنها من مصدر الديم
صفت مناظر غدران فكان له — فيها مرايا جلاها ساقل النسم
عيناه ذي سارقت جفن المها نظراً — وتلك ناظرة شزراً الى الاجم
لم يتخذ سمراً توحي اليه بما — شاءت وتخضب بعض الحق بالكتم
وما توارى بحجاب تذود اخا — قضية قد اسالت قلبه بدم
لم يثنه الغوص في مجري السياسة ان — تهزه رقية النفاث في الكلم
الم تقف تلكم الورقاء تنشده — من شعرها موقف المثني على هرم
وما امتطى مركباً كي لا يضايق في — مطافه انفس العجفاء والهرم
ومن تولى زمام الامر في ملا — لم يقل ان ساسهم سعياً على قدم

واذكر اني كنت ذات يوم في مقعد من احد المنازه العامة وفي يدي صحيفة اكتب بها بعض مايسنح من الخواطر فوقف علي احد الاساتيذ فسألني عما اكتب فقرأت عليه من حديث تلك الصحيفة الجمل الآتية :

يقولون تفرق الامة يفضي الى موتها · واقول التفرق اثر الموت فان الجسم يموت فتتفرق اجزاؤه

اربط نفسك باعتقاداتك تعمل لمن يشب او ينشأ بعد موتك حتى لا يكون في صدرك حرج اذ تكون بضاعتك بين اهل عصرك كاسدة

يتلذذ المستقيم بعفته كما يتلذذ الفاسق ببلوغ شهوته ولكن امام لذة الاستقامة عقبة لا يقتحمها الا قوي الارادة

لا تثق في نفسك فيما تدعي من الاخلاص لامتك حتى يلذ لك ان تصلح الخلل في نظامهم وهم لا يشعرون

310

اذا وثقت بعرى التوكل على الله لم تحتج ان تمر الى الحق على جسر من الباطل

ان الرجل ليعجب مما يصنع الساحرون افلا يعجب من لذة تمر على قلبه مر السحاب ثم تنقلب مخازي تلبث في صحيفة حياته احقاباً

يكفيك فيما تجتني من ثمرة العلم الصحيح ان يرفع همتك عما فتن به الجاهلون من زهرة هذه الحياة

اذا اغلق المحيط اعين رقبائك وختم على افواه عذالك ثم راودك على ان تنزع حلية ادبك فقل ليس للفضيلة وطن كيف تسترسل مع الاصحاب الى ان تحيد عن جانب الفضيلة وهم لا يرقبون ذمتك فيقفوا لك عند مانقف في دائرتها

اسير مع الرجل على قدر ماادرك من قيمته فان نظرت اليه على حسب وجاهته او كساد سمعته عند الناس فقد القيت بنفسي في حمأة من التقليد

اذا احببت الذي يجاملك وهو يحارب الله لم يكن بغضك لمن حارب الله وامسك عن مصانعتك من قبيل الغيرة على حرم الشريعة

لا يدرك قصير النظر من الحدائق المتناسقة غير اشجار ذات افنان وثمار ذات الوان وانما ينقب عن منابتها واطوار نشأتها ذو فكرة متيقظة

لا تحمل نفسك مالا تطيق من منة وضيع او نخوة مخور فاذا احسست في صدرك بالحاجة اليه فاصنع ماذا تصنع لو بقي في مونته الاولى او ادركته مونته الثانية

لا تعجب لذوق ينكر ما الفته او يألف ماانكرته حتى ينقلب في التجارب والمشاهدات التي تقلب فيها ذوقك اطواراً

قد يقف لك الاجنبي على طرف المساواة حتى اذا حل في وطنك غالباً دفعك الى درك اسفل واتخذ من عنقك موطئاً

في الناس من لا يلاقيك بثغر باسم الا اذا دخلت عليه من باب الغباوة او خرجت له عن قصد السبيل فاحتفظ بألمعيتك واستقامتك فانما يأسف على طلاقة وجوه قوم لا يفقهون ·

ان من الجهال من يرمي على مقام وجيه فعلمه بسيرتك القيمة ان الجهالة لا ترجح على العلم وزناً وان وضع بازائها السلطة الغالبة او الثروة الطائلة

يكفي الذي يسير في سبيل مصلحة الامة وهو يلاحظ من ورائها منفعة لنفسه ان يكون في حل من وخزات اقلامها اما اطواق الشكر الصادق فانما يتقلدها المخلصون

الا ترى الماء الذي تلقى في مجاريه الاقذار كيف يتجهم منظره ويخبث طعمه فاطرد عن قلبك خواطر السوء فانه المنبع الذي تصدر عنه اعمالك الظاهرة

لا تنقل حديث الذي يفضي به اليك عن ثقة امنك وحسن عقيدة في امانتك ويمكنك متى كان يرمي الى غاية سيئة ان تجعل مساعيك عرضة في سبيله فتحفظ للمروءة عهدها وتقضي للمصلحة العامة حقها

لو فكرت في لسانك حين يعرض لاطراء نفسك لم تميزه عن الالسنة تقع في ذمها الا بانه يلصق بك نقيصة لا يحتاج في اثباتها الى بينة

اذا ركبت في السياسة مركب الشعر فقلت مالا تفعل او همت في واد لا تعرج فيه على حق فانفض ثوبك من غبارها فانه ليس بالغبار الذي يصيبك في سبيل الله

اصغى ذلك الاستاذ الى هذه الخاطرات فابتسم لها ابتسام المستحسن ولكنه ناقشني في الخاطرة الاخيرة منها قائلاً (ان مجال السياسة اوسع من دائرة الحقيقة) فلم يسعني في الجواب عن هذا النقد سوى ان قلت ان الوقائع النادرة لاتمنع من سبك المقالات الموجزة وصياغتها في اساليبها المطلقة

« نقودهم »

تحتوي الليرة على ٢٠ ماركاً وتتركب من ٩٠٠ قسم من الذهب و ١٠٠ قسم من النحاس ، ويحتوي المارك على ١٠٠ فينيش ، ويتركب كالقطعة ذات ثلاثة او خمسة ماركات من ٩٠٠ قسم من الفضة و ١٠٠ قسم من النحاس ، ويتركب الفنيش من ٩٥ قسماً من النحاس و ٤ اقسام من القصدير وقسم من الزنك ، وهناك قطع من النيكل ذات خمسة فينيشات و ١٠ فينيشات وتتركب من ٢٥ قسماً من النيكل و ٧٥ قسماً من النحاس

ولا فرق في المعاملة عندهم ما بين الاوراق النقدية والمسكوكات الذهبية والفضية ، وكثيراً ماتعطى الورقة ذات الخمس الليرات لمن يستحق مقدار عشرة متليكات كصاحب القهوة فيمسكها من غير ان يشمئز منها قلبه ولا يعز عليه ان يصرفها باوراق صغيرة وكثير من المسكوكات الفضية

« كلمة في الموسيقى »

اقتبسوا انغامهم الموسيقية وتلاحينهم من الاوضاع الانكليزية وقد هموا هذه الآونة ان يهجروها ويستبدلوا غيرها بها قطعاً لآثار الانكليز من بينهم ، واكبر

موسيقي ظهر فيهم الشاعر (فكنر) — المتوفى سنة ١٨٨٣ وله روايات شعرية تستعمل في الملاهي التي تجري فيها الروايات مقارنة لانغام موسيقية

وتستعمل عندهم روايات شاكسبير الانكليزي من شعراء المائة السادسة عشرة وقد احب بعضهم طرحها والاستغناء عنها بالروايات التي هي من اوضاعهم ورأى آخرون ابقاءها لان شاكسبير لم يقل في الامة الالمانية سوءاً

« اللغة ونبذة من آدابها »

تنقسم اللغة الجرمانية الى قسمين ، شمالية وتندرج فيها الدانيماركية والنرويجية والسويدية ، وجنوبية وتدخل فيها الانكليزية والهولاندية والالمانية

واندمج في اللسان الالماني مفردات كثيرة من اللسان الفرنسوي والانكليزي ، وكان فيما ولد عن هذه الحرب ان اخذوا في الغائها والاستغناء عنها بما يقوم مقامها من الاوضاع الالمانية ولا يعز عليهم ذلك مادامت لهم جمعية لغوية قائمة باصلاح اللغة وتكميل نواقصها :

بني اللسان الالماني على وضع الاعراب مثل اللغة العربية و ينقسم الاسم فيه الى مذكر ومؤنث وواسطة يسمى بالمجرد ، وعلامات الاعراب في الانواع الثلاثة مختلفة ومن خواص هذا اللسان ان يضع المتكلم اداة التعريف و يذكر عقبها اوصاف المعرف مفردات وجملاً ثم يأتي بالاسم المعرف من بعدها وربما اشتملت تلك الجمل المتوسطة على ادوات تعريف ومعرفاتها ، و يماثل هذا ان لهم افعالاً كثيرة تتركب مع كلمتين وتدل على معنى واحد فيأتي شطر الفعل في صدر الجملة وتلقى القطعة الثانية في آخرها ، وقد يفصل بين القطعتين بما ينوف على عشر كلمات

وهذه الوجوه هي التي يلاحظها من يرى في تعلم هذا اللسان صعوبة تستدعي مدة اوسع من اوقات تعلم كثير من الالسنة ، ولكنها من جهة الكتابة سهلة المأخذ جداً لان الاحرف المرسومة هي المنطوق بها من غير تفاوت . و يلتزمون التعبير عن المفرد المخاطب بضمير الجمع الا ان يكون من صغار اقاربه او يكون الخطاب في شعر ، وايراد ضمير الجمع للمفرد المخاطب تعظيماً له لم يكن معتاداً للعرب قبل هذه العصور ، وانما يعرف منهم هذا الاسلوب في حال المتكلم فيستعمل المتكلم ضمير الجمع مكان

ضمير المفرد تعظيماً لنفسه ، وورد عنهم ضمير الجمع المخاطب في الواحد بقلة ومن شواهده قوله تعالى (رب ارجعون) الآية حيث وقع خطاب الله تعالى بواو الجماعة اجلالاً وادباً

وفقت لهم فيما يستعملون من محاسن البديع على مثل الجناس والتورية ، وكانوا يعتبرون في طريقة شعرهم اتفاق الكلمات في احرفها الاولى واصبحت اليوم مراعاتهم لهذا الشرط نادرة

اما صناعة الخطابة فاني كنت شهدت محاضرات وخطباً كان اصحابها ينظرون عند القائها الى اوراق نصب اعينهم فوقع في خاطري ان هذه الصناعة لم تبلغ عندهم اشدها ولكنني حضرت مسامرة موضوعها (الاسلام في عالم الحرب) فقام بعد المسامر ثلاثة خطباء من غير اوراق والقوا خطباً مسهبة بترسل في القول وتؤدة ، ولا يشير الخطباء بايديهم كثيراً حال الخطبة بل سمعت منهم من ينكر ذلك الصنيع ولا سيما حركة لا يكون وضعها مناسباً للمعنى الذي يقترن بها ، وهذا ما كان العرب ينقدونه على خطبائهم ايضاً ، قال الحجاج لاعرابي اخطيب انا قال نعم لولا انك تشير باليد وتقول اما بعد

و يعدون بسمرك من ابلغ خطبائهم الذين يخاطبون بلهجة شديدة ، ولبلاغته في لسانهم يستشهد مؤلفو الكتب اللغوية ببعض عباراته

يوجد في ادبائهم من يقول الشعر ارتجالاً ، كنت حضرت لشاعر يقف في مشهد عظيم فيلقي عليه طوائف من الحاضرين جملاً منثورة في معان متباينة وهو يكتبها في اوراق بيده جملة بعد اخرى ، وبأثر الفراغ من الكتابة ينطق بكل جملة منها شعراً يؤديه في صوت جهوري ولهجة قوية

« ضبط اداري »

يوجد مع كل شرطي سفر في ضمنه اسماء الشوارع والحارات والمحلات الشهيرة مثل دوائر الحكومة والمعاهد العلمية فيستعين به في اداء وظيفته ويهدي به من عمي عليه السبيل من السائلين ، و يحمل ميزان المائعات (اريوميتر) فيزن مايجده عند الباعة من حليب ونحوه فاذا عرف فيه خلطاً اراقه ، و يراقب الشرطي الغرباء وغيرهم و يتتبعهم بالملاحظة حيثما تقلبوا ، كنت ذات يوم ماراً في جادة من العاصمة فلقيني شرطي وناولني مكتوباً أرسل الي من طرف احدى الجمعيات وانصرف من غير ان يسألني عن اسمي

ومن تراتيب ادارة الشرطة ان اصحاب البيوت او الخانات اذا نزل عندهم احد قدموا

اليها ورقة تحتوي على اسمه و بلاده وعمره وحرفته ثم ان الدائرة تطلب الشخص نفسه لتنظر في حاله وتطلع على رخصة سفره ان كان من بلاد اجنبية

ومن شواهد اعتناء ادارة السكة الحديدية بالشوءون المتعلقة بها واخذها فيها بطريق الحزم ان ضاعت مني ورقة القطار الشهرية بين برلين وقرية فنزدورف فبقيت ثلاثة ايام اسافر بورقات يومية ولما جئت في اليوم الرابع الى مقطع الاوراق اقبل علي احد العاملين في الادارة وقال لي ضاعت منك ورقة شهرية وقد عثرنا عليها ثم صعد الى محل الادارة وناولني اياها وكان وجه العجب اني لم القي اليهم خبرها من قبل ولم اضع عليها اسمي ذهولاً عما جرت به عادتهم ·

« العقوبة البدنية »

لا يجيزون العقوبة البدنية الا لمن سجن في جناية تنزع شرفه ويخاطب عند ذلك بضمير المفرد المخاطب · ومن امثلة الجنايات التي ينسلخ بها الشرف عندهم ان يفسد الرجل عرض من لم يتجاوز عمرها الرابعة عشرة من سنها · ويجري الاعدام قصاصاً عندهم بآلة مثل الساطور تضرب في عنقه من خلف ولا يقع علناً بل يشهده افراد خاصة مثل الحاكم به والمدعي العام

« مسجد الاسرى »

انشأت الدولة الالمانية للاسرى المسلمين جامعاً للصلاة وحماماً ومحلات للوضوء ومنارة شامخة للاذان ، واقامت غرة رمضان سنة ١٣٣٣ حفلة افتتاحية فحضرها سفير دولتنا العلية محمود مختار باشا وفريق من اعيان العسكرية والنظارة الخارجية الالمانية وجمع كبير من الشرقيين والمستشرقين فالقى نائب النظارة الحربية خطاباً ترجم الى العربية بمنطق فصيح القبطان منس ثم القى سفيرنا خطاباً باللسان الالماني ثم تلا امام الاسارى وهو من اعيانهم الجزائريين خطاباً شكر فيه رفق الدولة الالمانية ومجاملتها لهم ثم القى كاتب هذه المقالة خطاباً عربياً

« عنايتهم باحوال الشرق »

لم يكن للالمان على ما عهدوا به من اشباع البحث في احوال الامم عناية بمعرفة الشوءون الشرقية تشابه العناية التي اخذتهم لعهد هذه الحرب فقد اصبحوا يوسعون البحث في

احوال الشرق و ينقطون دقائق اخباره السياسية او العلمية او الاجتماعية بملء آذانهم ومجامع قلوبهم

ومن اثر هذه العناية ان انشأوا منذ ابتداء الحرب دائرة ترتبط بنظارة الخارجية تسمى ادارة الاخبار الشرقية واستخدموا فيها فريقاً من العارفين بالالسنة الشرقية فترى بين العاملين فيها الكاتب العراقي والمصري والجزائري والفارسي والحجازي والقفقاسي والهندي ، وتجلب اليها الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية والهندية وغيرها و يترجمون منها الى الالمانية مايهم الاطلاع عليه ، ولا سيما المقالات والآراء التي لها مساس بحالة الاسلام او المانيا . ومن اعمال هذه الادارة نشر الرسائل والمحاضرات التي لها علاقة بالحرب الحاضرة بالسنة مختلفة

والقى بعض الالمانيين ايام كنت هناك محاضرات كثيرة في الكشف عن احوال الشرق الاسلامي ، منها محاضرة تبحث عن الاقتصاد في العثمانية واخرى في حال الفرس ومحاضرة موضوعها الاسلام في عالم الحرب ، ومن عاداتهم في المحاضرة ان ينصب المحاضر عن يساره او يمينه خريطة البلاد التي يقصد البحث في حالتها وربما عرضها في التمثيل السيموتغرافي و يشير في اثناء تقريراته باصبعه او بقضيب في يده الى الاماكن التي جرته المناسبة الى الحديث عنها

ومن بين صحفهم مجلة تسمى (العالم الاسلامي) تنشر الانباء الواردة عن عالم الاسلام وتبحث عما يجري فيه من شؤون اجتماعية او علمية ، وكنت اهديت الى مدير الاخبار الشرقية نسخاً من تآليفنا الحرية في الاسلام . حياة اللغة العربية . الدعوة الى الاصلاح . مدارك الشريعة الاسلامية . مناهج الشرف . فعرضها على الاستاذ (مرتين هرتمان) مدرس اللغة العربية بمدرسة الالسنة الشرقية واخبرني هذا الاستاذ انه كتب في التعريف بها كتابة يريد نشرها في عالم الصحافة

دمشق محمد بن الخضر

مخطوطات ومطبوعات

الاسرار الكونية

في الكرة الارضية

الجزء الاول والثاني تأليف محمد علي افندي الجابري

طبع بمطبعة روضة الشام بدمشق سنة ١٣٣٣

هو مختصر في اقسام الارض الطبيعية والسياسية واقسام المخلوقات مع فروعها وهو نافع لتلامذة المدارس الاحداث وقد توسع المؤلف قليلاً في جغرافية بلاد الشام وعساه يعتمد في الطبعة الثانية على احدث المعلومات عنها فان منها ما قدم وتغير ولكن ذلك لا يضر بفائدة هذه الرسالة

دروس الزراعة

تأليف فوزي بك العظم طبع على نفقة المكتبة الهاشمية بمطبعة الترقي

هو مختصر يحتوي على ابحاث زراعية مقتبسة من احدث الكتب العصرية والمؤلف سبق له ان نشر رسائل في بعض العلوم الحديثة واعتاد التأليف والتدريس وعرف حاجة الطلبة ولا غرو اذا كانت رسائله وكتبه نافعة في بابها لمن يقصد به نفعهم من عشاق العلم والمعارف

كنز النجاة في علم الاوقات

الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي طبع بمطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣٤ هـ

هو مختصر في الفلك القديم ذكر فيه عدد المنازل وتقسيمها الى الجنوب والشمال وتقسيمها على فصول السنة ومعرفة ميزان الشمس وعدد البروج وتقسيمها على المنازل وعدد الشهور الرومية واسمائها ومعرفة العمل بجدول السنين العربية وجدول الاوقات ومعرفة القمر في اي منزلة ومعرفة الساعات بالنجوم ونجوم الزيادة والنقصان والاستواء

ومعرفة الفجر الصادق والكاذب والكوكب الليلي والنهاري ومعرفة ساعات الظهر والعصر ووقت العشاء ووقت الفجر الى غير ذلك من الفوائد

تاريخ بيروت

تأليف ف . فارجابيد

V. Varjabed :Histoire de Beyrouth

هو مختصر في تاريخ بيروت نشره بالافرنسية في جورنال بيروت ثم طبع على حدة وقد اعتمد فيه المؤلف على مصادر كثيرة واوجز بقدر ما تساعد عليه حالة جريدة يومية ومع هذا فهو غاص بالفوائد

السنة الاولى للحرب

La première année de la guerre centrale par V.V·

هو مختصر الحوادث في الحرب وكيف نشبت الحرب بين الدول المركزية وسائر دول اوربا نشرتها جريدة بيروت الافرنسية باللغة الافرنسية بعبارات موجزة اخصر من عبارات البرقيات كل يوم بيومه بحيث يرجع اليها فيما بعد ويأخذمنها محل الاشكال من ايسر سبيل فلهذه الجريدة الشكر على هذه العناية

حق اليقين

في التأليف بين المسلمين للسيد محسن الامين

نشرت اولاً في مجلة العرفان في صيدا سنة ١٣٣٢

غرض المؤلف ان يفهم الفريقين اهل السنة والشيعة ان منافرة كل فريق للفريق الآخر لا تعود عليه بنفع وانما تجلب له الضرر وانه يجب على الفريقين تحكيم العقل والدين لاجل التقرب من الفريق الآخر ومعاملته بالحسنى واورد على ذلك الحجج

رسالة الخط

للشيخ احمد رضا نشرت تباعاً في مجلة العرفان

سنة ١٣٣٢ في ٤٨ صفحة

المؤلف مشهود له بالفضل وسعة المدارك والبحث العلمي عرف ذلك له مما كتب في المجلات ولا سيما في العرفان والمقتطف وهذه الرسالة في الخط هي مما خطته انامله من حاضر المواد التي عثر عليها ووصلت اليه فاشبع الموضوع وضوحاً ببحثه من اطرافه

كتاب المسح على الجوربين

تأليف المرحوم الشيخ جمال القاسمي و يليه كتاب الاستئناس

لتصحيح انكحة الناس له ايضاً

طبعا في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٣٢

هاتان الرسالتان لفقيد الاسلام المشار اليه وهو كسائر ماكتبه من التحقيق و بعد النظر وفهم اسرار الشريعة وتقريب الناشزين منها الى ارجاعهم الى حظيرتها وقد عني بتصحيحهما شقيق المؤلف الشيخ قاسم خير الدين القاسمي

المردانيات

لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية

طبع على نفقة الشيخ نايف سليمان الصالح شبلي

في مطبعة الفيحاء بدمشق سنة ١٣٣٣ (ص ١٢٢)

ابدع شيخ الاسلام ابن تيمية المصلح الاعظم في القرون الوسطى في كل ماكتبه وهذه الرسالة هي في حل مسائل يكثر وقوعها و يحصل الابتلاء بها و يحصل الضيق والحرج بالعمل بها على رأي امام بعينه وكلها معقولة مشفوعة بالنقول الصحيحة

الجغرافية العمومية والعثمانية

الحلقة الثالثة تحتوي على ٤٤ شكلاً

و ٨ خرائط تأليف احمد جودت افندي الماردبني

طبعت بمطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٣٢ (ص ٣٠٤)

هو مختصر مفيد في هذا الفن الجليل جعله المؤلف بحيث تتناوله اذهان الطلبة على اسهل مايكون ورتبه على طريقة جميلة في اجمال مافصل والسؤال عما اورد في كل فصل واعتمد فيه على احدث كتب هذا الفن

مبادئ الجغرافيا العمومية والعثمانية

تأليف احمد جودت افندي الماردبني

طبع بمطبعة الترقي بدمشق

هذا مختصر من الكتاب الاول يحتوي على ٣١ شكلاً و ٨ خرائط بنفع احدث

الطلاب واصغرهم سناً وعسى المؤلف ان يكمل هذه السلسلة البديعة فيجعل عدة كتب بحيث يستغني بها الطالب عن تطلب المزيد في علم تقويم البلدان

ولاة مصر وقضاتها

لابي عمر محمد بن يوسف الكندي نشره المستر رفن غست طبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٠٨

طبع هذا الكتاب الاوصياء على تركة المستر جيب المستشرق ذكرى لاثره واتماماً للخدمة التي كان بدأ بها من احياء آثار العرب والفرس والترك وقد اضاف اليه طابعه ذيلاً لاحمد بن عبد الرحمن بن برد في اخبار القضاة الذين ولوا مصر سنة ٢٣٧ و ٤١٩ منقولاً عن كتاب رفع الاصر في قضاة مصر للحافظ بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ ومن كتاب النجوم الزاهرة بتلخيص اخبار قضاة مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن شاهين سبط بن حجر ومن كتاب تاريخ الاسلام للحافظ شمس الدين الذهبي الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٨ فجاء الاصل والفرع في ٦١٤ صفحة عدا فهرس الاعلام الذي يبلغ نحو ٧٠ صفحة وعدا المقدمة الانكليزية التي قدمها الناشر وهي تبلغ مع الفهارس نحو ٦٠ صفحة وعدا الخريطتين الانكليزيتين اللتين شفع بهما الكتاب وهما خريطة مملكة الدولة العباسية وخريطة مصر وقد اتى بنموذج من الخط المنقول عنه الاصل طبعه بالطبع الحجري ٠

وقد كان كتاب القضاة الذين ولوا قضاء مصر للكندي هذا مع ذيله لابن برد طبعا في رومية سنة ١٩٠٨ على يد الاستاذ كوتهيل استاذ جامعة نيو يورك والحقه ببعض الفهارس فجاء في ١٦٧ صفحة ماعدا الفهارس الا ان هذه الطبعة التي وضعها المستر غست مع الزيادات اتم واهم (المقتبس م ٦ ص ٧٧٣) وفي المقدمة الانكليزية تاريخ القطر المصري وما تقلب عليه من الحوادث وكلام على المؤلف طويل والنسخة المنقول عنها كتبت له ايام كان قائداً لجيوش الملك المعظم عيسى الذي حكم دمشق من سنة ٦١٥ الى سنة ٦٢٤

وطريقة المؤلف في الرواية طريقة المحدثين ٠ وفي الكتاب مادة لمعرفة تاريخ مصر والشام ولا سيما مصر ومن قام فيها من الرجال وما حدث فيها من الاحداث وهاك نموذجاً منه : قدوم امير المؤمنين الفسطاط ٠ قدم لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة

315

ومائتين فسخط على عيسى بن منصور وامر بحل لوائه وامره بلباس البياض وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد وضم اصحابه الى ابن عمه موسى بن ابراهيم وولى المأمون على شرط الفسطاط احمد بن بسطام الازدي من اهل بخارا وركب امير المؤمنين فنظر الى المقياس وامر باقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالفسطاط اليوم وترك القديم وعقد لابي مغيث موسى بن ابراهيم على جيش بعثه الى الصعيد في طلب ابن عبيدس الفهري ومعه رشيد التركي فظفروا بالفهري بطحا وارتحل المأمون الى سخا سلخ المحرم سنة سبع عشرة ثم سار الى البشرود والافشين قد اوقع القبط بها فنزلوا على حكم امير المؤمنين فحكم بقتل الرجال و بيع النساء والاطفال فبيعوا وسبي اكثرهم واتى بالفهري الى سخا فقتله وتتبع كل من يومي اليه بخلاف فقتله فقتل ناساً كثيراً . ورجع الى الفسطاط يوم السبت لست عشرة من صفر سنة سبع عشرة ومضى الى حلوان فنظر اليها واقام بها ثلاثاً ورجع الى الفسطاط فخرج على مقدمته اشناس وارتحل المأمون يوم الخميس لثاني عشرة من صفر فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة واربعين يوماً .

هذا مثال من العمل الاداري في مصر لعهد المأمون والعبرة في هذه القصة بقول المأمون رضي الله عنه لعامله « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتوني الخبر » وكانت الناس في تلك العصور على شيء من الاباء وعزة النفس ومن ذلك امثلة كثيرة في هذا الكتاب منها ما ورد في الذيل نقلاً عن رفع الاصر في ترجمة عبد الله بن احمد بن زبر احد القضاة الذين تولوا دمشق ومصر قال المؤرخ انه كان قوي النفس كثير الجهد واسع الحيلة وكان الوزير علي بن عيسى منحرفاً عنه ولما سعى في قضاء مصر دافع بولايته وكان السبب في انحرافه عنه انه كان يولى قضاء دمشق فاتفق ان الوزير دخل دمشق في مهم من المهمات فخرج اهلها الى لقيه ومنهم القاضي فسايره فصاح به اهل البلد ونسبوا القاضي الى كل سوء من الرشا والظلم وغيرهما من الفواحش والوزير يلتفت اليه فيقول له ما يقولوا هؤلاء فقال يشكون الى الوزير غلو الاسعار وضيق الاحوال و يسألون حسن النظر اليهم والعطف عليهم فلما عاد الى بغداد صرفه عن الحكم بدمشق اقبح صرف . قال الحافظ الذهبي في حوادث سنة ٣٢٩ قال ابو عمر الكندي اخبرني علي بن محمد المصري

انه رأى القاضي ابن زبر بدمشق اجتاز بسوق الاساكفة فشغبوا عليه ودقوا بشفارهم نحوتهم قائلين كلاماً قبيحاً وهو يسلم عليهم و يتطارش و يظهر انهم يدعون له

وهاك نموذجاً آخر من الكتاب قال ابن ميسر: لما مات ابن الخطيب سعى ابن وليد في القضاء و بذل لكافور مالاً فقام الناس في وجهه فرفعوا عليه فعزل عنه الى ابي طاهر الذهلي ولما ولي عبد الله بن وليد قضاء دمشق ارسل ولده محمد نائباً عنه وكان اهل دمشق اختاروا حكم بن محمد المالكي قاضياً عليهم لما شعر القضاة بموت قاضيهم الخصيبي واعزال خليفته محمد بن اسمعيل الزيدي وذلك في امرة فاتك الاخشيدي على دمشق فوصل محمد الى دمشق في شعبان سنة ٤٨ وهو شاب ثم وقع من اهل دمشق منازعة في اختيار من ينوب في القضاء فتعصب قوم لمحمد ولد ابن وليد وقوم ليوسف الميانجي وكان الاعيان مع الميانجي والاوباش مع ابن وليد وذلك في رجب سنة ٤٩ فاجتمع الشيوخ وانضم اكثر اهل البلد فاجتمعوا بفاتك ورفقته الغلمان الاخشيدية وشكوا لهم مالقوا من الاساءة فانصفوهم فانصرفوا من عنده احسن انصراف وصرف ابن وليد اه

رواية وفود النعمان

هي عربية تاريخية تمثيلية تمثل وفود العرب على كسرى انوشروان ذات خمسة فصول لمؤلفها محمد عزت افندي دروزة من ادباء نابلس جاءت في ٥٤ صفحة

في زوايا القصور

طبع بمطبعة جدعون في بيروت سنة ١٩١٣

هو سفر اخبار ونوادر غريبة عن ملوك هذا العصر و امرائه وحياتهم البيتية مأخوذة عن اوثق المصادر مكتوبة بعبارة سهلة حالية بقلم امين افندي الغريب ومطالعة هذا السفر تسلي القارئ وتزيد معلوماته عن الغربيين وعاداتهم وما حواه مبعثر في بطون الكتب والصحف فجمعه المؤلف على هذا المثال بعد نشره في جريدة الحارس

تاريخ آداب اللغة العربية

تأليف جرجي بك زيدان صاحب الهلال الجزء الثالث ص ٣٤٨ طبع بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٣١٣

يحتوي هذا الجزء على تاريخ آداب اللغة العربية من دخول السلاجقة بغداد سنة

٤٤٧ والى دخول الفرنساو يين مصر سنة ١٢١٣ هـ وفيه كلام على ما انتجته العقول في العصر العباسي الرابع والعصر المغولي والعصر العثماني وهي عصور الاكثار من المصنفات وتأليف امهات كتبنا منسقاً احسن تنسيق على عادة المؤلف فقيد الآداب بحيث يقرأ المرء كل فصل في محله و يلتقط كل فائدة من مكانها وكتابه زبدة عشرات من كتب العلم والتاريخ والسير المعروفة ومنها المخطوط الذي تيسر للمؤلف العثور عليه في بعض المكاتب العامة والخاصة ولو كانت طبعت جميع تركة السلف من الاسفار لجاء هذا الجزء ضعفي ماهو عليه من الحجم وتكون الفائدة على تلك النسبة ولكن لاجود الا من موجود ومن تلا هذا الجزء والجزئين السالفين يتبين له اقدار علماء السلف واكثارهم من التأليف في كل فن ومطلب ايام كانت اللغة زاهرة وسوق العلم نافقة غير بائرة

ارشاد الامة

الى التبر المدفون

القسم الاول تعريب احمد مختار بك الحسني

طبع بمطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٣٣ هـ (ص ١٧٦)

هو كتاب في الزراعة عربه معربه عن الافرنسية ومزجه ببعض الافكار من عنده ولا سيما في المقدمة وصف فيها حالة الزراعة وتسامح الفلاح السوري والملاك السوري وقد حلاه ببعض الصور فجاء نافعاً في بابه لقلة ما في الايدي من الكتب الزراعية الحديثة ومن اهم ماقرأناه فيه الادارة الزراعية في الغرب والادارة الزراعية في سورية الا انه التي جميع التبعة في تساهلنا على عاتق الاهلين وحدهم فنحث كل من تهمه الزراعة على مقتناه تنشيطاً لمؤلفه واخذاً من فوائده المقتبسة عن الغربيين

التصريف الملوكي

صنعة ابي الفتح عثمان بن عبد الله بن جني عني بتصحيحه وفهرسة مطالبه وشواهده واشارات جمله الشيخ محمد سعيد النعسان طبع بمطبعة شركة التمدن المصرية سنة ١٣٣١ و ١٩١٣

المؤلف من ائمة العربية والناشر الشارح من اساتذة حماة لعهدنا وقد جود طبعه بالشكل الكامل وعلق عليه تعليقات لطيفة فجاء وافياً بالمراد جديراً باقبال طلاب العربية عليه الذين يشكرون له هذه الخدمة ويتمنون اطرادها باحياء الاسفار النافعة للسلف وخدمتها بالتعليق عليها خدمة تقر بها من اذهان الطالبين والمتأدبين

جواهر الادب

من خزائن العرب

طبع في المطبعة العمومية في بيروت

هو مجموع آداب وحكم واشعار ولطائف مختارة من اهم كتب المحاضرات والادب ودواوين البلغاء عني بنشره سليم افندي ابراهيم صادر صاحب المكتبة العمومية في بيروت وقد ظهر منه الى الآن خمس مجلدات لطيفة وكلها بالشكل الكامل طبعت بالمطبعة العلمية فنثني الثناء المستطاب على جامعها وناشرها ونحث المدارس على الاعتماد على مثل هذه الكتب القليلة الجرم الغزيرة الفائدة التي تقوي ملكة البيان في الشبان وتجعل منهم عبارات البلغاء والحكماء على طرف الثمام

كتاب الياس جرجس طراد

جمع جرجي افندي نقولا باز طبع بمطبعة جدعون في بيروت

سنة ١٩١٤ (ص ٣٩٨)

اجاد صديقنا جامع هذا الكتاب في جمع سيرة سليل بني طراد المشهور ببانه ظهر بينهم عدة فضلاء ونوابغ ادباء وهذا هو في جملتهم وقد الم باصل أسرة طراد البيروتية وقال انها عادت كمعظم الأسر المهمة في لبنان في القرن الرابع عشر من حوران الى الكورة و بعد مائتي سنة تفرقت في البلاد وذكر تراجم المشاهير من هذه الأسرة وتوسع في ترجمة من الف له الكتاب وذكر شيئاً من خطبه ومقالاته وكتبه وشعره فاستحق صديقنا المؤلف ثناء الادباء لعنايته باخبارهم وآثارهم وغيرته على الفضل والفضيلة

التحفة السنية

في المشايخ السنوسية

لعلي افندي الجميل الموصلي طبعت بمطبعة مرسم في الموصل سنة ١٣٣١

هي رسالة نافعة جميلة الانشاء عرب بعضها عن رسالة تركية لاحمد حلمي افندي القلبه لي ضم اليها معربها ماقالته بعض الصحف العربية في الشيخ السنوسي ونسبه وأسرته وعمله في الحرب الطرابلسية وما صدر عنه فيما قيل من الرسائل الى قائد العساكر الطليانية والرسالة مفيدة في بابها لو تجردت من المبالغة

317

اخبار وافكار

الخط البغدادي

سيكون اهم الخطوط الحديدية في السلطنة خط الاستانة – بغداد وطوله ٢٤٢٥ كيلومتراً تم منها الآن ١٨٠٢ وجرى استثمارها بالفعل اما الـ ٤٢ كيلومتراً المارة من سلسلة جبال طوروس والـ ١١ كيلومتراً الواقعة في النفق العظيم هناك فلا يتأتى انجازها قبل سنتين لعسر الطريق وقد انشئ الآن طريق موقت ربط الخط به الذي انتهى الى رأس العين على نحو ثلثمائة كيلومتر من حلب

قرانا وقراهم

كتب رصيفنا صاحب اقدام في جريدته مقالتين وصف بهما قرية فلدكيرخ في النمسا على عشرين دقيقة من الحدود السويسرية وسكانها خمسة آلاف يعيشون من غاباتهم وبقولهم وذكر فيها من انواع الرفاهية والراحة والجمال واللطف ما لا يقصر عن اجمل العواصم هذا الى تلك الغابات التي اصبحت بها الجبال والاودية خضراء غضراء والمياه تنبعث من كل مكان فكثرت بها المروج السندسية وعدلت برد الشتاء وحر الصيف ولم تصبح عرضة للسيول وتطهرت الاودية من الحصى الذي تجرفه الامطار وكثرت الالبان وجادت اللحوم والثمار واصبح السكان مظهراً للحياة المدنية

وذكر عناية الاهلين بهندام بيوتهم وغرس الزهور والاشجار حواليها ولكل بيت حديقة تكفيه ارضها لانبات البقول اللازمة له وما يغالون به من تنظيم الكنائس والمدارس ولكل قرية مهما صغر حجمها كنيسة ومدرسة في اجمل مكان وامتن صورة من البنيان وان الحكومة انشأت لهذه القرية كل مرافق الحياة من طرق معبدة وجادات وطرق وجسور وسكك حديد وتلفونات وانارتها بالكهرباء والغاز وجملت فيها بريداً ومدارس وملاعب ومدارس عالية للبنات وداراً للمعلمين

وقال ان مثل هذه البلاد يحق لاهلها ان يدافعوا عنها من فتيانها الى ابن الستين ولولا الحرب لقلت انها اسعد بلد يسكنها انسان لجمال ابنيتها وما زينت به من

البدائع الصناعية الطبيعية وانه يرى ان الاهالي اذا رفتهم الحكومة اولاً يعملون بعد اعمالاً مهمة كما فعل اهل اليسار من سكان هذه القرية فانهم اقاموا من اموالهم مقاعد في الجبال والاودية للسياح الذين يزورون بلدهم ليستريحوا عليها ولم يقولوا ان ذلك امر لا يعنيهم وقال ان الوالي والمتصرف والقائمقام اذا كان لهم ذوق ومعرفة ينهضون بالبلاد نهوضاً غريباً وان عمالنا في الولايات لا يعنون بترقية من يتولون امرهم وقال لو كان لي من الامر شيء لنظرت في احوال العامل قبل ان اعينه لارى اذا كان يحسن تدبير بيته او أسرته فاذا كان كذلك وسدت اليه امر الامة وايقنت انه يحسن الادارة

قال ان هذه القرية ليس فيها كما في مملكتنا فرد واحد اصابته الحاجة وان نواب النمسا والمجر صرفوا فضل معارفهم المدنية والاجتماعية في انهاض امتهم واسعادها اكثر مما فكروا في املاء جيوبهم وانه رأى دكان مزين في هذه القرية ليس مثل نظافتها ولطفها في جميع جادة الباب العالي في دار السعادة وبهذا يتبين الفرق بيننا و بين جيراننا ولم ير في الاستانة شبيهاً للبلاط الذي رصفت به شوارع هذه القرية بل ولا متراً واحداً

هذا ماقاله صاحب اقدام وهو يعود باللائمة على المحكوم وعلى الحكام ايضاً . والناس كلهم هنا الا قليلاً كسالى لولا مايحفزهم دافع الجوع في القرى ما رأيتهم زرعوا ارضاً اما الكماليات التي نعدها نحن كذلك وهي عند الاوربيين حاجيات بل من متممات الحياة كهندسة البيوت وتنظيمها واستجادة فرشها وتحسين الموائد وهندام الثياب والشعر وقص الشاربين واللحية وتعليم الاولاد وحضور الصلوات الى غير ذلك مما امرت به القوانين الدينية والمدنية فهذا مما لا يكاد يكون له اثر في اكثر قرانا ولذلك كانت قرية فلدكيرخ ارقى من حاضرة ولاية من ولاياتنا بمراحل وليس غنى الامم بكثرة عديدها بل بنسبة الوطنيين العاملين فيها

يقول رصيفنا ان النمساويين متدينون لا متعصبون وهذا التدين نفعهم في جامعتهم وتكوين وطنيتهم وليس في الدين ماينفر من اتخاذ اسباب الراحة والتعامل بالحسنى ولا فيه ماينكر اللطف والذوق و ينافي العمل للرقي . ان قرية كالتي ذكرها يحيط اهلها بكل مافي العالم من موجبات الترقي والتعالي لا يكونون غرباء عما تعمله حكومتهم بل يقدرونه حق قدره و يبادرون الى اجابة سؤلها من تلقاء انفسهم في يوم الشدائد

لو عمل الاهلون الواجب عليهم هنا على القدر الذي تعمله الحكومة لما انحط لنا عمران ولا شكا الفقر انسان . واذا كانت النمسا بل قرية فلدكيرخ احدى قراها تعيش

عيش سعادة ورخاء فذلك للاثر الناتج عن تعلم اهلها تعليماً عملياً ولان اهل اليسار من اهلها ما ضنوا يوماً بوفرهم في سبيل الاخاء بايدي اهل الطبقة الدنيا من جيرانهم . الغني عندهم لم يقل ليس هذا من شأني بل كان يفكر في جيرانه كما يفكر في اهل بيته و بذلك قامت مدنيتهم وخافهم عدوهم وغبطهم صديقهم وكانت قراهم ارقى من قرانا ومدنهم لا تقبل القياس مع مدننا

خسائر الاتفاق

يفهم من التقارير التي نشرتها دول الاتفاق ان خسائرها كانت الى آخر سنة ١٩١٥ ثمانية ملايين وثلث مليون رجل منها ٢١٠٠٠٠٠ رجل من فرنسا و ٤٦٥٠٠٠٠ من روسيا و ٣٥٠٠٠٠ من انكلترا و ٣٠٠٠٠٠ من بلجيكا (لم يبق سوى ٥٠ الف من جيش بلجيكا المؤلف من ٣٥٠ الف) و ٥٠٠٠٠٠ من صربيا (دعت لحمل السلاح رجالها الى سن الـ ٧٠ فبلغ عدد الجيش ٦٠٠ الف لم يبق منه سوى ١٠٠ الف) و ٥٠٠٠٠ من الجبل الاسود و ٢٥٠٠٠٠ من ايطاليا و ٨٣٠٠٠٠٠ المجموع

معامل السكر في الشام

الغالب ان مؤلفي العرب لم يكونوا يعنون عناية اهل هذه الايام بذكر الصادرات والواردات من البلاد ولذلك عميت علينا كثير من احوالها الاقتصادية فلا نعرف اكثر الصناعات التي كانت لعهد ارتقاء هذا القطر مثلاً الا من سطور قليلة لا تكاد تبل الصدى . من كان يظن انه كان يصدر في القرن الرابع عشر للهجرة من بيت المقدس المرايا وقدور القناديل والابر ومن طبرية ودمشق الكاغد اي الورق ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط لو لم يشر الى ذلك المقدسي في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » اشارة خفيفة . ومعلوم ان هذه الصناعات معدومة بتاتاً في هذا القرن الرابع عشر من بلاد الشام وقد كتب الامير شكيب ارسلان بمناسبة قلة الوارد من السكر وارتفاع اسعاره في القطر الشامي جملة في جريدة الشرق قال فيها :

من اكبر دواعي الاسف ان يكون عندنا نهر كنهر الشريعة ماراً باخصب اراضي الدنيا من بانياس الى البحر الميت مسيرة خمسة ايام على الفارس طولاً و يوم واحد عرضاً وان لا نستفيد منه الا سداداً من عوز . واشد داعياً للاسف من ذلك ان

تكون هذه البلاد شابكة العمارة في الغابر دارة الحلوب فائضة الخير والمير متصلة المدن والقرى وان تبقى الآن عاجزة عن ميرة من فيها من بادية العرب ورحل الغوارنة

قال ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة عند ذكر الاردن في معجمه : هي احد اجناد الشام الخمسة وهي كورة واحدة منها الغور وطبريا وصور وعكا وما بين ذلك قال احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف هما اردنان : الاردن الكبير والاردن الصغير . فاما الكبير فهو نهر يصب الى بحيرة طبرية لمن عبر البحيرة في زورق اثنا عشر ميلاً يجتمع فيها المياه من جبال وعيون فتجري في هذا النهر فتسقي اكثر ضياع جند الاردن مما يلي ساحل الشام (اين نحن اليوم من هذه الحال) وطريق صور ثم تنصب تلك المياه الى البحيرة التي عند طبرية وطبرية على طرف جبل يشرف على هذه البحيرة فهذا النهر اعني الاردن الكبير بينه و بين طبرية البحيرة

واما الاردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية و يمر نحو الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياع الغور (وهذا ايضاً لا اثر له اليوم والاراضي التي تسقى في الغور فانما تشرب من مياه اخر) واكثر مستغلهم السكر ومنها يحمل الى سائر بلاد الشرق وعليه قرى كثيرة ومنها بيسان وقراوة واريحا والعوجا وغير ذلك وعلى هذا النهر قرب بحيرة طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كبيرة تزيد على عشرين (ينبغي ان يكون جسر المجامع ولكن غير الموجود اليوم اذ هذا ليس فيه عشرون طاقة)

و يجتمع هذا النهر ونهر اليرموك (و يقال له اليوم شريعة حوران) فيصيران نهراً واحداً فيسقي ضياع الغور وضياع البثنية ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة في طرف الغور الغربي

وذكر ياقوت عند كلامه على الغور : والغور غور الاردن بالشام بين البيت المقدس ودمشق وهو منخفض عن ارض دمشق وارض البيت المقدس ولذلك سمي الغور طوله مسيرة ثلاثة ايام وعرضه نحو يوم فيه نهر الاردن و بلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبريا و بحيرتها ومنها مأخذ مياهها واشهر بلاده بيسان بعد طبرية واكثر ما يزرع فيه قصب السكر ومن قراه اريحا مدينة الجبارين وفي طرفه الغربي البحيرة المنتنة وفي طرفه الشرقي بحيرة طبرية . وقال عند ذكر بحيرة طبرية : و ينفصل منها نهر عظيم فيسقي ارض الاردن الاصغر وهو بلاد الغور و يصب في البحيرة المنتنة قرب اريحا .

فلننظر الآن الى ماتحول من الاحوال في تلك الاصقاع فنقول : اولاً ان كلاً

3/9

من الاردن الكبير والاردن الصغير يجري في الغور الاعلى والادنى من دون فائدة تذكر ور بما ماتت زرائع كثيرة في الغيران عطشاً والماء جار في جانبها · ثانياً ان الاراضي التي لها حظ من الشرب في هذه الغيران انما تسقى من اودية جارية من الجبال مثل سيل الزرقا السائل من جهة عجلون الى الغرب ومثل مياه بيسان المنحدرة من صوب مرج بني عامر الى الشرق ومثل ماء الفارغة النازل من الغرب الى الشرق ومثل عين السلطان التي تسقي جنان اريحا ومثل ماء غور نمرين المنحدر من وادي شعيب اسفل الصلت الى الغرب وماء حسبان وغيرها من المياه وهذه الجداول كلها لو اجتمعت ما ساوت معشار الاردن الذي اصبح عاطلاً من كل عمل · ثالثاً اذا وقف السائح على المعالم والآثار ودقق في بقايا القنوات والحنايا تحقق صحة ما هو وارد في كلام ياقوت وغيره من ان الاردن كان يسقي ضياع الغور · رابعاً ان زراعة قصب السكر اصبحت اليوم مفقودة من كل هاتيك الارض مع انه قد عرف بالتجربة انه لا يوجد ارض صالحة لهذه الزراعة نظير الغور وقد صادف في هذه المدة ان بعض النابلسيين زرع نصيباً من قصب السكر فجاء منه غلة مدهشة ونوع من القصب هو من الحلاوة والمائية بحيث لا يوجد له نظير في الدنيا ومن هنا يعرف سبب اختيار الاولين هذه الاراضي لزراعة القصب وقد جاء في كلام ياقوت قوله : واكثر مستغلهم السكر ومنها يحمل الى سائر بلاد الشرق · فيظهر منه انه كان هناك معامل للسكر كما هي الآن في صعيد مصر · وفي جنوبي الغور الى يومنا هذا مكان معروف بمطاحن السكر

ومما يدل على وجود السكر قديماً في عكا ماورد في تاريخ الروضتين عند ذكر فتح صلاح الدين عكا وهو قول العماد الاصفهاني

وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فافنى قنودها[1] واستوعب موجودها ونقل قدورها وانقاضها وحوى جواهرها واعراضها

ولعمري عار على البلاد ان تكون فيها معامل السكر في القرن السادس والسابع وان لا يوجد فيها معمل واحد اليوم حتى يبلغ ثمن رطل السكر مائة قرش فاكثر ويلتجئ الناس الى دبس الخروب الذي كان يباع الرطل منه بقرشين ونصف قرش فصار اليوم بثلاثين قرشاً · فاذا أعيد الاردن الى مجاريه الاولى او انشقت منه جداول

(١) جمع قند كسعد وهو عسل قصب السكر اذا جمد

من عند بحيرة طبرية ذاهبة جنوباً ركبت الغيران باجمعها بسبب التحدر الذي في الارض واصبحت تلك الاراضي كلها سقياً بعد ان كانت عذياً تشرب من ماء المطر

الغذاء غير المألوف

ان قلة الاغذية التي أحس بها في كل مكان من الكرة بداعي الحرب قد لفتت الانظار الى غذاء الشعوب المتوحشة ولا سيما من لم تساعدهم الطبيعة وقضى عليهم مركزهم الجغرافي وما في ارضهم من النبات والحيوان ان يتناولوا اطعمة يظهر انها غير مألوفة لا تؤكل ونحن لا نطعمها للعادة ولو غذاء موقتاً

من المآكل ما ألفه الشرقي دون الغربي وعلى العكس وما يطعمه الناس في اوربا وقد لا يتناولونه في آسيا وما يحبونه في اميركا واوستراليا لا يرغبون فيه في افريقية وجزائر المحيطين واذا اعملنا النظر نجد ان غذاءنا قليل الالوان فلا نألف الا بعض الحيوانات من ذوات الضرع والطيور والاسماك اما الحيوانات ذوات الاصداف وذوات القشر والهوام وغيرها مما تطعمه بعض الاقاليم فان فيها ما حرم الاسلام اكله ومنها ما اباحه

لم يجوز الفقهاء اكل كل ذي ناب وذي مخلب من السباع اي سباع البهائم والطيور والسباع يتناول سباع الطيور والبهائم لان كل ماله ناب او مخلب سبع والسبع مختطف منتهب جارح عاد عادة فالمختطف ما يختطف بمخلبه من الهواء كالبازي والعقاب والمنتهب ما ينتهب بنابه من الارض كالاسد والذئب وسباع الطيور كالبازي والصقر والنسر والعقاب والشاهين وسباع البهائم كالاسد والنمر والذئب والفهد والثعلب والضبع والكلب والسنور البحري والبري والاهلي ويكره الفيل لانه ذو ناب واليربوع وابن عرس من السباع الهوام وكرهوا اكل الرخم والبغل ولا يحل اكل السلحفاة والغراب الابقع والضب والغداف واليربوع وحيوان الماء ماعدا السمك وحل الارنب والعقق وغراب الزرع

كان قدماء اليونان يأكلون الزيزان المطنة ويفضلون منها اناثها ويأكلون الديدان قبل ان تنسل وكان الرومان يحبون الديدان حتى ان الشاعر كاتول قبل المسيح وجد طعم الجراد الاصفر قريباً من فطيرة رجل الدجاجة المعمولة بالزبدة . وقل جداً في عهدنا من يطعم الديدان من الاوربيين ولكن ملايين من البشر يتناولونها في اقطار الارض الاخرى . ويؤثر سكان افريقية الوسطى تناول السرفة والارضة فيأكلونها نيئة ومطبوخة ومشوية ويأكلون في جازة السرف ويعدونها منعشة للقوى الضعيفة

من الشيخوخة و يفضل الشيوخ في الهند تناول النمل المجنح · والنمل المجفف المعمل بالسمن في براز يل مشهور موصوف · واهل المكسيك يحبون بيض البق (الفسفس) من جنس كور يزا يجعل منه حلواء فيغالي الناس في تناوله · والجراد غذاء شائع في بلاد العرب فهو مصيبة يأكل المزروعات و يؤكل ايضاً وقد ذاقه كثير من الناس مع الارز او مملحاً او مع الفلفل الاحمر او الخل او مشو ياً فقالوا انه جيد مريء · والجراد يحضر بحسب اذواق البلاد التي يظهر فيها ففي الجزائر يغلونه في ماء مملح كما يفعلون به في الصين وفي مدغسكر يأكلونه مطبوخاً في الفرن او مجففاً و يجعلونه مع الارز او يغمسونه في الدهن الغالي وفي هذه الاقطار يعدونه من الاطعمة اللذيذة

ولقد ذاق بعض السياح الاور بيين جميع اصناف الديدان فرأى ان التي تعيش في جذوع الاكاسيا اطيب طعماً من العجة على شرط ان تشوى في رماد حام · و يؤثر وحوش اوستراليا كل الايثار دبابة الالف رجل وام الاربعة والاربعين اما اهالي التونكين فانهم يغذون الديدان من الانجاص والموز والخوخ ليعطروا بها لحمه · وجميع هذه الاطعمة تفضل عَلَى قطائف ذباب البقر والحمير التي يتنافس في اكلها الزنوج على ضفاف نيازا وعلى البراغيث وغيرها من الهوام الدقيقة التي يأكلها اهل غرونلاندا يتناولونها من شعورهم فيلقونها في افواههم · و يقول اليابانيون ان حلويات النحل مطبوخة في الشراب لا تقل في لذاذتها عن اطيب عصير الفاكهة و يتناول الوطنيون من سكان جاوة وصومطرة وانام كعكهم من الطين محلولاً بماء مطبوخاً في قدر معتقدين انه خير غذاء · والحاصل فان البشر احتالوا على الطبيعة والطبيعة اعطت البلاد المعتدلة كل مايقوم بحاجة سكانها والمسألة في الاغذية ترجع الى العادة والذوق

معادن السلطنة

قالت مجلة المانية : في البلاد العثمانية كثير من الخزائن الطبيعية الكبرى منها ما يزيد على عشرين معدناً من اهم المعادن وقد اعطي الى الآن في ولاية آيدين وحدها ما ينوف عن تسعين امتيازاً لتعدين المناجم ، وللمانيا في هذه البلاد كثير من معدن حجر الصفار (قروم) (١) وقد منحت الحكومة العثمانية الى الآن نحو ستين امتيازاً لاستخراج هذا المعدن وقد ابتاعت مصانع كروب الى الآن معدنين من حجر الصفار واستأجرت اثنين منه استئجاراً

(١) حجر اسود يخرج منه صباغ اصفر

معدن الرصاص موجود بكثرة ايضاً في البلاد العثمانية فاذا كانت هـذه المعادن الرصاصية تسد من عوز المانيا للرصاص واحداً من عشرة فقط فيها ونعمت وقـد زاد الوارد من العثمانية الى المانيا من معدن الشبه (النحاس الاصفر) في السنوات العشر الاخيرة ثلاثة اضعاف الوارد منه اولاً ، ولو ان المانيا كانت مهيأة له رؤوس الاموال اللازمة لاستثمار معادن الشبه فلا شبهة في ان الوارد منه الى المانيا يزيد زيادة كبرى ولما كان لا يتيسر للحكومة العثمانية تدارك رؤوس اموال لاستثمار هـذه المعادن فهي لا تستفيد من كثير من المعادن المانحة امتيازات بها ، و يمكننا ان نذكر من بين هذه المعادن المستثمرة معدن الرصاص في ناحية (باليا) فانه في الدرجة الاولى من حيث سعته واوضاعه ، وقد بلغ الحاصل منه عام ١٩١٣ ثلاثة ملايين ونصف مليون مارك

وفي جبال طوروس معدن رصاصي فضي يستثمر بيد الحكومة يبلغ ايراده السنوي نحو المائة الف فرنك ، و بين (خربوط) و (دبار بكر) تعدن الحكومة ايضاً معدن شبه نحاسي بلغ دخله عام ١٩١٤ قريباً من نصف مليون مارك ، وفي شمـالي البلاد العثمانية معادن شبه نحاسية غنية ذات قيمة كبرى

يعد البترول من الحاجات المدنية المهمة لكل مملكة ، ومن المعلوم في كل الدنيا ان المملكة العثمانية غنية جداً بمنابع البترول ، واليك ما قاله الاستـاذ (شيفر) المشهور ببحثه العميق عن منابع البترول في العراق نقلاً عن مجلة اقتصادية : « اذا علمنا ان منابع البترول في العراق الممتدة في الارض والبالغ طولها ٤٠ كيلومتراً ينبع زيت الغاز في بعضها من على سطح الارض مما لم يعرف له نظير ابداً في علم طبقات البترول لا يبقى عندنا ادنى ريب في ان هذا المنبع من اغنى منابع البترول في العالم واغزره وانه يمكن باسباب فنية تعدين هذه المعادن باقل كلفة واشد سرعة من عامة المشاريع الصناعية المراد انشاؤها في البلاد العثمانية . واذا استنبطت منابع البترول في البلاد العثمانية فانها تساعد على تقدم الوسائط النقلية في البلاد وان استخدام البترول في القاطرات ليس بالامر الصعب وماعدا هذا فانه يمكن استخدام البترول بدلاً عن الفحم في السفن الماخرة في الرافدين (دجلة والفرات) وان اصطناع سفن تقطع في الساعة ٤٥ كيلومتراً بواسطة استعمال البترول لا يعد امراً عسراً وهذه السفن تقوم بخدم كبرى للمسافرين ولنقل الامتعـة والبريد و بهذه الواسطة تصير التجارة حوالي دجلة والفرات اكثر سرعة وتستبحر تجارة هاتيك البلاد وتعظم ثروتها

الجزء التاسع 	المجلد ٨

المقتبس

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دلتنا الحرب الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الامم الغربية وكانت فاشية في القديم عند اجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطـابة وهي من اجل العوامل في تربية النفوس ايام الحرب والسلم او في بث دعوة او سفارة بين متخاصمين او متحابين واقناع يوم الحفل ، واستمالة الافكار الى رأي او حزب في المجالس والمؤتمرات والمجامع والجوامع ، لا تستغني عنها امة دستورية يحكمها مجلس نوابها اذ ان التنفير من مسألة والتذكير باخرى لا يتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسـان ، وفصاحة الحجة ، وظهور المحجة

والسبب في قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسسنا بنقص في عامة مكونات الامم ، وكان خطباؤنا المصاقع يعدون على الاصابع في جميع ادوار مجلسنا النيابي والمبرز منهم من كتب له ان كان استاذاً في مدرسة او مدرساً في جامع ففتقت السن اهل هذه الطبقة وقليل ما هي على ايسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، اما اكثر النواب فكانوا بمعزل عما ينبغي لهم من ادوات الفهم والكلام ، والحرية فضاحة ففضحتنا بقلة المتكلمين والمفكرين منا مع ان الخطابة مما اوجبته علينا الشريعة الاسلامية ، كما ظهر امرنا ، وتبين عجزنا ، واستبان افلاسنا في مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهي قائمـة بكم الالسن وحجز

الاقلام هي التي تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث علمهم ونشر ابحاثهم ودروسهم وظهور اثر فضلهم ، وادبهم وتحقيقهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم وانهم لا يتوقعون الا دور انطلاق ، حتى يظهروا ما اكننته صدورهم من العلوم والفنون وها نحن نعيش في ظل الحكومة الدستورية منذ ثماني سنين ولم نشهد اثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وجل ما اتصل بنا انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد امة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز في الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء الى درجة حسنة في الجملة وفي العادة ان يكون النوابغ قلائل في كل فن فاذا عد في الامة عشرة منهم في كل شأن وخطاب تعد غنية بعلمها وعقلها . ولانحطاط الخطابة الدينية في هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لا يسمعوا خطباً لاقتها الآذان منذ قرون وليس فيها شيء من النفع ولقلة المجيدين بل المتوسطين في هذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلاً عامياً ، بل أمياً غبياً ، وعلى العكس رأينا في بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين في الجملة بقولهم ماله معنى في الوعظ والارشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لا يعرفونها و بتأثير الاخلاص والاجادة والكلام بحسب طبائع القوم ، وحاضر المصر كثر العاملون باحكام الدين القائمون بتكاليفه .

و بلغت حال الانحطاط في ضعف البيان . وفسولة الرأي والحجة باكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لايكادون يقرأون الكتاب ان اصبحت نصف خطبهم زهداً في الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بادعية مردودة في الشرع شأنهم في بيان فضائل الشهور والايام والبلدان والجوامع حتى خطب بعضهم وكان حشوياً جلجلوتياً في اعظم جامع في هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين الف صلاة واورد لذلك احاديث لا تعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التي لم تأت بها شريعة الرسول وقد انكرها ائمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولاسيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧

ولو كان الخطباء على جانب من فهم اسرار الشريعة ، ومعرفة طرق البلاغة ، وما يصلح الناس ، ماعالجوا من الموضوعات مايرجع بالناس القهقرى ، هذا في الخطب الدينية اما الخطب المدنية فهي ايضاً تنصرف على ذاك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتذارات وسخافات واستطرادات منوعات ، ولو محصت لما بقي منها الا التافه اليسير من المعاني اما تأثيراتها في الافكار فضعيف جداً ولعل هذا النقص البين بتلافاه اساتذة المدارس الابتدائية والوسطى والعليا بتمرين طلبتهم ابداً على الالقاء وممارسة الكلام الفحل يوم الحفل وفي النوازل والامور العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد في طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا و يمرن الجميع على كتابة مايريدون الخوض فيه ، وعلى استظهاره او القائه على نحو ما سارت الامم الحديثة والامم القديمة الراقية ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم باساليب القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع

وها نحن نخط لطلاب هذا الفن الطريق الذي سلكته العرب في تقوية ملكة البيان ، معتمدين في النقل على ائمة هذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ، والمجودين فيها من اهل هذا اللسان ، قبل الاسلام و بعده ، موردين من الشواهد ما يصح تحديه والنسج على اسلوبه ، وذلك بقدر مايتسع صدر المصادر التي نقتبس منها ، وتسمح صحف هذه المجلة ، ولعل غيرنا ينهض الى التوسع اكثر من توسعنا في هذا الموضوع الواسع الاطراف تلقيحاً للعقول واهابة بها الى مايصلحها و يزكيها بالبلاغة فنقول :

(٢) حد الخطابة واقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكلف الاقناع الممكن في كل مقولة من المقولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية والوظائف الشرعية وقال ابو البقاء : الخطابة هي الكلام النفسي الموجه به نحو الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه الأمنية ان يتبحر في العلم و يتفنن في ضروب الفهم حتى كان سيسرون خطيب الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الادبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقى وغير ذلك ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة في الخطيب

وهناك يقتضي له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان مايستميل به الجمهور اليه في موضوع و يصرف اذهانهم عن امر و يوجه انظارهم الى آخر و يحرضهم و يقنعهم ولذلك ادخل الحكماء الخطابة والشعر في اقسام المنطق كما نقل عن ارسطو لان المقصود منه ان يوصل الى التصديق واصولها عندهم ثلاثة الاول ايجاد المعاني الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثاني تنسيق المعاني اي سرد اجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطة وارتباط اقسامها بحيث تكون ابين غرضاً واحسن في النفوس وقعاً والثالث التعبير الذي يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعاني في الفاظ تنتشر بها نفسه وتمتزج باجزاء فهمه · و يمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدنية يتصرف تحتها كل ما فيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل ما يرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدنية فاضلة في الدنيا وسعادة شاملة في الاخرى

الخطابة نوع من منثور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وابلاغها النفوس من دون اتعاب ذهن ولا تكلف في الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره في النفس وقد كانت العرب في جاهليتها تقدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذي يقيد مآثرها و يفخم شأنها و يهول على عدوها ومن غزاها و يهيب من فرسانها و يخوف من كثرة عددها و يهابها شاعر غيرها · قال ابو عمرو بن العلاء : فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر · وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب · الخطب والوصايا متقاربة يقصد بالاولى قوم لا على سبيل التعيين والتخصيص فتكون في المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر وامام العظماء والملوك والامراء والوفود وفي الصلح واشهار الحرب وفي الخطوب والنوازل اما الوصايا فتكون لقوم بعينهم في زمن مخصوص على شيء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته او سيد لقبيلته عند حلول مرض او اجل او هجرة في الارض

(٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب في جاهليتها اكثر من عنايتها بها في الاسلام ولم يظهر لنا سر هذا لانا رأينا هدي النبيين والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول

صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغي له وكان سيد الخطباء بلا مراء وكلامه خطب وحكم و بسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعر اكثر من الخطب لان الشعر اقرب الى تقييد المآثر والتأثير ولانه يحتمل من الخيال والمحال ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريعان) : ان ما تكلمت به العرب من اهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام اكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولاضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهته الملوك او الحالات او الاصلاح بين العشائر او خطبة النكاح فاذا انقضي المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد قال ولولا ان خطبة قس بن ساعدة كان عندها مما يتنافسه الانام وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فاطار ذكرها ما تميزت عما سواها ·

قال « القلقشندي » بعد ايراد ماتقدم : وليس ما اشار اليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم و باديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل وسبق الى ذرى المجد و يخصون ذلك بالمواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والجامع الحفيلة فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله و يثني عليه ثم يذكر ماسنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر او فخر او اصلاح او نكاح او غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله و يكلفون بارشاد الخلق وهذا يقتضي البلاغة والبيان المتناهي لذلك قال موسى : رب اشرح لي صدري و يسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وذلك لانه كان به لثغة فخشي ان يعدها قومه عيباً و يلووا بوجوههم عن دعوته اما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد في الكتاب العزيز من اسلوبه البديع في البيان وتلطفه في ابلاغ دعوته الى اهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : « والى مدين اخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا

تنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط و يا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ . الى ان قال : يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب . و يا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها في تطهير النفوس اوجبها الشارع وسنها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج اي في عرفة واوجب على الحضور التزام الادب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث : اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة انصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية او خطب الجوامع والمواسم موضوعاً خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية و يورد للحضور من هدي الشارع مايهذب به ارواحهم و يهيب بهم الى بارئهم و يغرس فيهم مكارم الاخلاق و يطبعهم بطابع الفضائل و يحذرهم البغي والظلم و يستل بلطيف اسلوبه سخائمهم واحقادهم و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يزين لهم العمل الصالح و يربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

وفي البيان والتبيين كلام طويل على الخطابة واقوال الشعوبية اي غير العرب فيها وقد رد الجاحظ عليهم بقوله :

قالوا والخطابة شيء في جميع الامم و بكل الاجيال اليه اعظم الحاجة حتى ان الزنج مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج لتطيل الخطب وتفوق في ذلك جميع العجم وان كانت معانيها اجفى واغلظ والفاظها اخطأ واجهل . وقد علمنا ان اخطب الناس الفرس واخطب الفرس اهل فارس واعذبهم كلاماً واسهلهم مخرجاً واحسنهم ولاء واشدهم فيه تحككاً اهل مرو وافصحهم بالفارسية الدرية و باللغة الفهلوية اهل قصبة الاهواز فاما نغمة الهزبذة ونغمة الموبذان فلصاحب تفسير الزمزمة .

قال الجاحظ : « وجملة القول انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس واما الهند فانما لهم معان مدونة وكتب مخلدة لا تضاف الى رجل معروف ولا الى عالم موصوف وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه بخصائصه وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة وفي الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة ولا استعانة وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين ان يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة والمناقلة او عند صراع او في حرب فما هو الا ان يصرف همه الى جملة المذاهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالاً وتنثال عليه الالفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه احداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر . وهم عليه اقدر واقهر ، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه من البيان ارفع ، وخطباؤهم اوجز ، والكلام عليهم اسهل ، وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ ، او يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذي في ايدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من احاط بقطر السحاب وعدد التراب وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن ابقاك الله اذا ادعينا للعرب اصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنا العلم على ان ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع اشعر الناس اليوم ولا ارفعهم في البيان ان يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنبذ القليل ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في ايدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة

وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وابي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل و يصنعوا مثل تلك السير . واخرى انك متى اخذت بيد الشعوبي (راجع المقتبس م ٤) فادخلته بلاد الاعراب الخلص . ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق او خطيب مصقع علم ان الذي قلت هو الحق وابصر الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا و بينهم فتفهم عني فهمك الله ما انا قائل »

هذه حجة الجاحظ في ان العرب افصح الامم وقال ايضاً : « ان جميع خطب العرب من اهل المدر والوبر والبدو والحضر على حز بين منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضوع يحسن به ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ومشاكلاً في استواء الصنعة ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ وانما حفظها التخليد في بطون الصحف . قال ومتى شاكل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه واعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقاً ولذلك القدر لفقاً وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع واجدر ان يأمن جانبه من تناول الطاعنين و يحمي عرضه من اعتراض العايبين ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة ومن كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه متخيراً في جنسه وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حبب الى النفوس واتصل بالاذهان والتحم بالعقول وهشت اليه الاسماع وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الريض .

فان اراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان ممن يعم ولا يخص و ينصح ولا يغش وكان مشغوفاً باهل الجماعة شنفاً لاهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من اقطارها وسيقت اليه القلوب بازمتها وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته وجبلت على تصويب ارادته ومن اعاره الله من معرفته نصيباً وافرغ عليه من محبته ذنوباً حنت اليه المعاني وسلس له نظام اللفظ وكان قد اغنى المستمع من كد التكلف واراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ولم اجد في خطب السلف الطيب والاعراب الاقحاح الفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً ردياً ولا قولاً مستكرهاً واكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين

325

ومن اهل الصنعة المتأدبين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب او كان من نتاج التخير والتفكر

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

نقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذي وضعه عمرو بن بحر الجاحظ في صفحة وتدارسه يغني طالب الخطابة عن كتاب ورب مقالة خير من سفر · ولقد عرفت العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفائقة في البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق اليها الا افراد ولذلك كانت تكرم الخطيب اكثر من اكرام الشاعر وقد ضربت المثل بالخطيب في قولها ، (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو المكان الذي تعرض فيه الدواب · وقالوا « عقل المرء من فوق بلسانه » وكانت تتعاير بالفهاهة وقلة الاجادة في البيان وتقول نعوذ بالله من الاهمال ومن كلال الغرب في المقال ومن خطيب دائم السعال قال بشر بن معمر في مثل ذلك

ومن الكبائر مقول متعتع جم التنحنح متعب مبهور

وقال شاعرهم يعيب بعض خطبائهم :

مليءٌ ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الاصابع

وضربوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما ضربوا المثل بالعي في الكلام بباقل فقالوا فلان اعيي من باقل · وقد جمع الجاحظ في البيان والتبيين كثيراً من اخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء والاعيياء ومما قال :

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة باعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة وعن الحصر من فوق درك الحاجة والناس لا يعيرون الخرس ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي ، فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطيا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذم ، وترادف عليهما التأنيب ، ومماتنة (مماطلة) العي الحصر البليغ المصقع في سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق واحدهما الوم من صاحبه ، والالسنة اليه اسرع · وليس اللجلاج « المتردد في كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى حنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء والميم » والالثغ « الذي يحول لسانه من السين الى الثاء او من الراء الى الغين » والفأفاء « مردد الفاء » وذو الحبسة « الذي لا يسمع

قوله » والحكلة « الذي لا يسمع صوته » والرتة « العجمة » وذو اللقف « عي بطي‎ء الكلام اذا تكلم ملا لسانه فمه » والعجلة في سبيل الحصر في خطبته والعي في مناضلته خصومه كما ان سبيل المفحم عند الشعراء والبكي‎ء عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار ، والخطل المكثار

ثم اعلم ابقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة » والتقعير « التكلم باقصى الفم » والتقعيب « تقصير الكلام » من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف ، وشنعة التزيد ، اعذر من عي يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد والدربة ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، و بياناً يمازجه التزيد . الا ان تعاطي الحصر المنقوض مقام الدرب التام ، اقبح من تعاطي البليغ الخطيب ، ومن تشادق الاعرابي القح ، وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والالفاظ وفي التحبير والارتجال انه البحر الذي لا ينزح ، والغمر لا يسبر ايسر من انتحال الحصر المنخوب « الجبان » انه في مسلاخ « صفة » التام الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلي الله عليه وسلم قد قال : اياي والتشادق . وقال : ابغضكم الي الثرثارون المتفيهقون . وقال : من بدا جفا . وعاب الفدادين والمتزيدين في جهارة الصوت ، وانتحال سعة الاشداق ، ورحب الغلاصم ، وهدل الشفاه ، « ارسالها الى اسفل » واعلمنا ان ذلك في اهل الوبر اكثر وفي اهل المدر اقل فاذا عاب المدري باكثر مما عاب به الوبري ، فما ظنك بالمولد القروي ، والمتكلف البلدي

فالحصر المتكلف والعي المتزيد الوم من البليغ المتكلف لاكثر ما عنده وهو اعذر لان الشبهة الداخلة عليه اقوى فمن اسوأ حالاً ابقاك الله ممن يكون الوم من المتشادقين ومن الثرثارين المتفيهقين ومن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصاً ، وجعل النهي عن مذهبه مفسراً وذكر مقته له و بغضه اياه

قال : ولما علم واصل بن عطاء انه الثغ فاحش اللثغ وان مخرج ذلك شنع اذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة وانه يريد الاحتجاج على ارباب النحل وزعماء الملل وانه لابد له من مقارعة الابطال من الخطب الطوال وان البيان يحتاج الى تمييز وسياسة ، والى ترتيب ورياضة ، والى تمام الآلة ، واحكام الصنعة ، والى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، واقامة الوزن ، وان حاجة المنطق الى الطلاوة والحلاوة ، كحاجته الى الجلالة والفخامة ، وان ذلك من اكبر ما تستمال به القلوب ، وتنثني اليه

الاعناق ، وتزين به المعاني ، وعلم واصل انه ليس معه ماينوب عن البيان التام، واللسان المتمكن ، والقوة المتصرفة ، كنحو مااعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى ، وطابع النبوة ، ومع المحبة والاتساع في المعرفة ، ومع هدي النبيين ، وسمت المرسلين ، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبي صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ما اعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة ، ومن العلامات الظاهرة ، والبرهانات الواضحة ، الى ان حل تلك العقدة ، ورفع تلك الحبسة ، واسقط تلك المحنة ، ومن اجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام ابو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك و يغالبه ، و يناضله و يساجله ، و يتأتى لستره ، والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما تأمل حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً . ولولا استفاضة هذا الجنس ، وظهور هذه الحال ، لما استجزنا الاقرار به ، والتأكيد له ، ولست اعني خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لان ذلك يحتمل الصنعة ، وانما عنيت محاجة الخصوم ، ومناقلة الاكفاء ، ومفاوضة الاخوان ، واللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء والغين اقلها قبحاً ، واوجدها في كبار الناس و بلغائهم واشرافهم وعلمائهم

الشيعة في بر الشام

المسلمون اليوم ينقسمون الى فرقتين كبيرتين اهل السنة وهي الاكثر عدداً والشيعة وهي التي تتلوها في الكثرة . ولا يقل عدد الفرقة الاولى عن مائة وخمسين مليوناً من النفوس كما لا يقل عدد الثانية عن تسعين مليوناً (١)

و ينطوي تحت هاتين الفرقتين فرق اخرى تابعة لاحدى الطائفتين وتفترق الشيعة فرقاً متعددة اكبرها واشهرها والمتبادر معناها عند اطلاق اسم الشيعة والتي عليها المعظم في كافة الاقطار هي فرقة الشيعة الامامية الاثنا عشرية . فمنها اكثر شيعة ايران وشيعة بلاد القفقاس وسائر البلاد الروسية وشيعة الصين ومعظم شيعة الهند والتركستان و بلاد التتر المستقلة وشيعة الشام وشيعة الحجاز والعراق وشيعة جبل عامل المعروفون بالمتاولة اما شيعة جبل عامل (المتاولة) فقد كانوا ولم يزالوا معروفين عند عامة الشيعة في الاقطار بالصلاح والتقوى وان لجبل عامل اسماً مقروناً بالتكريم عند عامة الشيعة في اكثر البلاد النائية لما انتج من العلماء العاملين الذين ضربوا آباط الابل في نشر مذهبهم وافنوا الوقت بحثاً وتدريساً حتى اصبح الكثير من كتب الحديث والفقه واصول الفقه مما يدرس في مدارس الشيعة في جماع الاقطار من مؤلفات علماء جبل عامل (المتاولة) وحسبك بالرحالة العلامة الشيخ بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول والخلاصة الحسابية وغيرهما الذي تولى وزارة ايران مدة من الزمن ثم هجرها حباً بالافادة والاستفادة . و بالشيخ علي بن عبد العالي الكركي العاملي المعروف بين مؤلفي الشيعة بالمحقق الكركي الذي تولى مشيخة الاسلام في ايران زمن الدولة الصفوية وكان الركن الاقوى في نشر مذهب الشيعة في بلاد فارس . و بالشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي المعروف بالشيخ الحر صاحب كتاب الوسائل في الحديث والهداية وغيرهما حسبك بمن ذكرنا فخراً لجبل عامل . واما الشهيدان فقد كان لهما القدح المعلى في التأليف

(١) المقتبس : الذي نعلمه ان الشيعة لا يزيدون عن عشرين مليوناً وفي هذا العدد مبالغة لا محالة فليتأمل

والتصنيف والمنزلة العظمى بين علماء الشيعة على الاطلاق وكذلك من خلف من بعدهم كصاحب المدارك وصاحب المعالم وامثالهما

بدء عهد الشيعة في الشام

مذهب الشيعة في بلاد الشام قديم يرجع الى زمن الخلفاء الراشدين بل هو في سوريا اقدم منه في سائر البلاد حاشا الحجاز والمعروف بينهم ان الذي دلهم عليه هو ابو ذر الغفاري (رضي الله عنه) لما سيره الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الى الشام وكان ابو ذر (رحمه الله) معروفاً بالتشيع لعلي واهل البيت عليهم السلام بلا خلاف بل هو احد الاربعة الذين عرفوا بالتشيع واطلق عليهم اسم الشيعة في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما اخرجه ابو حاتم في كتاب الزينة في الالفاظ المتداولة . ولا يزال في بعض قرى جبل عامل آثار معروفة لابي ذر منها مقام معروف بقرية الصرفند بين صيدا وصور يعرف بمقام ابي ذر ومثله في قرية ميس الجبل على مشارف الحولة في اعالي جبل هونين

الا انه لم يرد في كتب التاريخ المعتمدة مما بين ايدينا مايدل على خروج ابي ذر من دمشق الى جبل عامل فليس فيها اثبات هذا الامر ولا نفيه والشهرة المتواترة لدى العامليين خلفاً عن سلف الناطقة باثباته ربما تكون دعامة للصحة ولا تبعد صلاحيتها للاستدلال على خروجه الى هذه الديار

نعم ذكر الطبري وابن الاثير ان الذي خرج من دمشق الى الساحل هو عامر بن عبدالقيس وهو احد الزهاد الثمانية معروف بالتشيع نص عليه الكشي في رجاله ولم يذكرا اي جهة من الساحل سكنها عامر هذا الا انه لا يصلح ان يكون مستنداً لما نحن فيه لاسيما وانه لم يعرف اسم عامر كما عرف اسم ابي ذر في هذه البلاد

وذكر الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي المشغري من علماء عامل في القرن الحادي عشر في كتابه امل الآمل مايدل على خروج ابي ذر الى جبل عامل فقد قال مانصه : « روي انه لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن من شيعة علي الا اربعة مخلصون سلمان . والمقداد . وابو ذر . وعمار . ثم تبعهم قليلون اثنا عشر وكانوا يزيدون ويكثرون بالتدريج حتى بلغوا الفاً واكثر ثم في زمان عثمان لما اخرج ابا ذر الى الشام بقي اياماً فتشيع فيها جماعة كثيرة ثم اخرجه معاوية الى القرى فوقع في جبل عامل

فتشيعوا من ذلك اليوم . . . . فظهر انه لم يكن يسبق اهل جبل عامل الى التشيع الا جماعة محصورون من اهل المدينة وقد كان في مكة والطائف واليمن والعراق والعجم شيعة قليلون وكان اكثر الشيعة في ذلك الوقت في جبل عامل » انتهى

ثم ذكر بعد ذلك رواية مرسلة عن الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن اعمال الشقيف فقال : ارنون و بيوت ور بوع تعرف بسواحل البحار واوطئة الجبال قيل يا ابن رسول الله (ص) هؤلاء شيعتكم قال هؤلاء شيعتنا حقاً وهم انصارنا واخواننا . ولا يخفى ان الامام ابا عبد الله الصادق (ع) كان في النصف الاول من المائة الثانية للهجرة

وذكر صاحب الدمعة الساكبة المطبوع في ايران عن كتاب البحار للعلامة المجلسي رحمه الله عن كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمي بالاسناد الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم (رضي الله عنهما) انهما كانا بين يدي امير المؤمنين علي ابن ابي طالب عليه السلام بالكوفة يوم الاثنين لسبع خلت من صفر اذ ورد عليه رجال ذوو عدة وعدد ثم ساق قصة طويلة خلاصتها ان جماعة جاءت تستفتي امير المؤمنين عليه السلام في بعض امورها وهي من قرية اسعار من اعمال دمشق عند جبل الثلج والظاهر من الرواية ان هذه الجماعة من الشيعة وانها رجعت مقضية الحاجة

اما قرية اسعار هذه فموقعها في سفح جبل الثلج بين قريتي مجدل شمس وجباتا الزيت ولا تزال خربة تعرف بهذا الاسم ومن دونها نهر يعرف بنهر اسعار وهي على طريق القادم من دمشق الى جبل عامل واهل ذلك الصقع من الطائفة الدرزية الذين انشقوا من الشيعة في القرن الرابع

غمض تاريخ وجود الشيعة في هذه الديار على كثير من المؤرخين فلم يذكروه حيث كان شيعة هذه البلاد منذ عهدهم بالتشيع تحت سلط اعدائهم من الامويين . ومن زمن ابي ذر الى ان انقضى زمن الدولة الاموية لم يخرجوا عن سيطرة معاوية وابنائه ورهطه وهم ماهم في مناهضة العلويين ومطاردتهم في كل صقع ومصر فكان الشيعة متمسكين بحبال التقية لا يقدرون على اظهار انفسهم فاستولى الغموض على مبدأ اخبارهم ومنتهاه في هذه البلاد ولم يكونوا كما كان اخوانهم في البلاد النائية عن مركز السلطة الاموية

لماذا لقبوا بالمتاولة دون غيرهم من الشيعة

ما زالت الشيعة منذ وجدوا في بلاد الشام مستضعفين عند ولاة الامر وعند العامة التي امتازت في بر الشام بكرهها الشديد للشيعة و برميهم بكل تهمة شنعاء تؤلب عليهم الغوغاء

وكان مجرد لفظة الشيعة داعياً لاثارة التعصب لما تأصل من كرههم في اخلاق الاكثر نقل الجاحظ مخبراً عن بعض التجار خبر ذلك الشيخ السيء الاخلاق الطويل الاطراق الذي كان اذا سمع اسم الشيعة غضب واربد وجهه وزوى من حاجبيه اخرجه صاحب العقد الفريد

في ذلك العصر كان احب الى الرجل ان ينبز بكل نبز قبيح ولا يقال له شيعي لما استحكم من بغضهم في نفوس العامة بفعل السيادة والساسة

وانك لتجد مثل ابن حزم من العلماء المشهورين صاحب كتاب الفصل في الملل والنحل يرمي الشيعة بكل وصمة و يلصق بهم كل غريبة وهم هم الى اليوم لم يغيروا ولم يبدلوا وهذه كتبهم منشورة مشهورة لم يخالف قديمها حديثها فليقابل بينها المنصفون ولينظروا في كثير من كلام ابن حزم ليعلموا ما نسبه اليهم هذا العلامة المشهور .

وترى ابن تيمية الملقب بشيخ الاسلام وحافظ الانام لا يذكرهم الا مع التشنيع دون برهان يستند اليه او دليل يعتمد عليه اللهم الا عصبية غير صالحة استحكمت في الاخلاق بحكم البيئة والمعاشرة واتباعاً للتقاليد ولعل المثير لها مناظرته مع العلامة الحسن ابن المطهر الحلي وان لم يسلك هذا مسلك ذاك من السباب والشتم

في مثل تلك الحال كان شيعة بر الشام مستمسكين بحبال التقية مما كان حولهم من العصبية التي سنها الامويون في هذه الديار وكان اصلح ارض لنموها ارض الشام فدعوا بالعلويين تفادياً من لفظة الشيعة المكروهة وكان هذا الاسم لهم الى ان بدلوه بلفظة (المتاولة) كما سيأتي

قال الامير حيدر الشهابي في تاريخه في حوادث سنة ٥٨٤ هـ ما نصه : « وكان حاكم القرايا (كذا) التي بالقرب من صور رجلاً علوياً منشأه العجم ! ! وكان يحكم على ستين الفاً من العلويين وكان حين تملك الافرنج تلك الجهات هادنوهم على جزية تدفع لصاحب صور .... و ينسبون الى العلويين القاطنين بعلبك »

كان شيعة بلاد الشام كما قال عنهم واحد منهم وهو الشيخ علي بن يونس النبطي

من علماء المائة الحادية عشرة في مقدمة تفسيره مختصر مجمع البيان « علماؤهم تحت الخمول فلا نفع لانفسهم ولا ضر يتظاهرون بغير مااعتقدوا فلا قوة لهم ولا ظهر رماهم بانواع الاذيات الظالمون يريدون ليطفؤوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره المشركون»

كانوا كلما نبغ فيهم عالم اختار احدى ثلاث اما الهجرة الى بلاد الشيعة في سائر الاقطار كبلاد ايران حيث ينال المهاجر منهم الكرامة وكبلاد الهند والحجاز والعراق حتى بلاد اليمن لم تخل منهم و بلاد الروم وغيرها [1]

واما السكون الى التقية والتكتم في موطن غلب عليه الفقر واستحكمت فيه المسكنة وامتد فيه الاضطهاد

(١) ذكر صاحب امل الآمل في علماء جبل عامل اكثر من خمسين عالماً هجروا بلادهم هرباً من الضغط والاستبداد بعضهم الى بلاد فارس حيث اصبح الكثير منهم شيوخ اسلام وقضاة فيها و بعضهم الى بلاد الهند و بعضهم الى بلاد الحجاز في مكة والمدينة المنورة و بعضهم الى القسطنطينية و بعضهم الى ارض اليمن و بعضهم الى العراق — فكان من نصيب بلاد ايران في المائة الحادية عشرة الشيخ بهاء الدين العاملي والشيخ ابراهيم البازوري والسيد بدر الدين الانصاري والشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي شيخ الاسلام والسيد محمد بن علي نجيب الدين القاضي بطوس والسيد محمد ابن مهدي والسيد ميرزا محمد معصوم والشيخ محمد ابن علي الحرفوشي والسيد علي رضا شيخ الاسلام باصفهان والسيد حيدر بن نور الدين وكثير امثالهم .

ومن نصيب البلاد الهندية الشيخ احمد بن مكي الجزيني والسيد جمال الدين بن نور الدين والشيخ حسين المشغري والشيخ حسين بن شهاب الدين والسيد رضي الدين والسيد محمد بن احمد العاملي والشيخ محمد بن خانوت والسيد محمد بن علي الحبشي وامثالهم وهؤلاء بعضهم في كشمير و بعضهم في حيدر اباد و بعضهم في جيلان

ومن نصيب القسطنطينية الشيخ الشهيد زين الدين بن علي الجبعي والشيخ ابراهيم ابن الحسن الحر

ومن نصيب الحجاز السيد حيدر بن نور الدين والسيد نور الدين بن علي العاملي والشيخ زين الدين محمد بن الحسن

ومن نصيب اليمن الشيخ زين العابدين الحر بصنعاء وفي العراق كثيرون في النجف والحلة و بغداد والبصرة

واما ان يغلب فضله عزلته في بلده فيعرف امره وربما كانت عقباه القتل او التشريد وكأني بالشهيد شمس الدين محمد بن مكي الجزيني المقتول سنة ٧٨٦ وقد طبق ذكره الآفاق حتى استدعاه اليه صاحب خراسان لذلك العهد ليتولى مشيخة الاسلام بها كأني به يساق الى السجن في دمشق مهاناً ثم يفتى بقتله بعد حبس سنة فيقتل ثم يصلب ثم يحرق وليس له ذنب سوى فضله وشهرته والتعصب الذميم في ذلك العصر الوخيم

ولم يكن حظ الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني باحسن من حظ زميله الشهيد الاول فقد شرد عن وطنه يطارده قاضي صيدا المعروف باسم معروف الى ان استصدر امراً سلطانياً بالقبض عليه وارساله الى القسطنطينية فادركه الطالب بمكة زمن الحج ولم يمهله ان يؤدي حجه الا بعد الالتماس والتضرع ثم اخذه اخذ عزيز مقتدر وجعجع به الى بلاد الروم ثم قتله الموكلون بقتله قبل بلوغه القسطنطينية [1] ثم شمل القتل غيرهما مثل الشيخ ابن سودون العاملي من علماء القرن الحادي عشر وغيره

كانوا في ذلك الضغط وتلك الحال يعرفون في بلاد الشام باسم العلويين وفي غيرها باسم الشيعة هذا عند العامة واما الخاصة واهل العلم فكانوا تارة يسمونهم شيعة وتارة رافضة وتارة امامية الا ان اسم العلويين لم يكن ثقيلاً على اسماع العامة الذين كرهوا اسم الشيعة ونفروا منه وانما اختص به من سكن منهم ارض الشام لانهم كانوا ابعد الناس عمن يناصرهم لما احتف بهم من الغوغاء الذين رباهم الأمويون على كره اتباع آل البيت الكرام

حقيقة لفظة متوالي

ان هذه اللفظة (متوالي) من والى اذا احب ومنه ماورد في الحديث اللهم والِ من والاه قال في لسان العرب والى فلان فلاناً اذا احبه ولكن اسم الفاعل منها موالي والفعل من متوالي توالي وفي اللغة توالى الشيء اذا تبع بعضه بعضاً وقد استرسل هؤلاء القوم في محبة آل البيت استرسالاً تبع الخلف فيه سنة السلف

ولكن جمعه هل يكن على متاولة او على متوالية ؟ القياس يقتضي الثاني وصحح السماع الاول كما جمع غساني على غساسنة

(١) وقد أخذ له بثاره صديقه السيد عبد الرحيم العباسي مفتي القسطنطينية لذلك العهد فقتل قاتليه بعد ان اقروا بفعلتهم

و يمكن ان يكون اصل اللفظة متولي من تولى اي اتخذ وليا ومتبوعاً وتولى بمعنى اتبع نص عليه صاحب مجمع البحرين ومطلع النيرين وجعل منه قوله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم وقال صاحب لسان العرب وروي ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من تولاني فليتول علياً معناه من نصرني فلينصره ثم حرفت فصارت متوالي وجمعت على متاولة واما ما قيل من ان متوالي محرفة عن متولي المركبة من كلمتين (مت ولي) واصلها ان الشيعة كانوا زمن اضطهادهم يحرض بعضهم بعضاً على الثبات في حب علي عليه السلام فيقول بعضهم لبعض (مت وليا لعلي) ثم اقتصر على مت ولي وركب منها متولي — فهو بعيد والا فكيف اختص به شيعة جبل عامل ولبنان دون غيرهم ولم اختصت به العصور المتأخرة دون ما تقدمها مع ان زمان الاضطهاد ومكانه لم يكونا محصورين في جبل عامل ان لم نقل ان ما نال العامليين منه كان اقل مما نال غيرهم لشدة تمسكهم بالتقية التي الفوها منذ نشأتهم لان سلطة الأمو بين اعدائهم لم تتزعزع عنهم زمناً من الازمان فشبوا ودرجوا على التخفي والتقية والتجنب عن الوقوع في التهلكة مهما امكن .

والغريب من المذاهب في هذه اللفظة ماذهب اليه بعض المعاصرين من ان لفظ متاولة مسهل عن متأولة واحدها متأول لان الشيعة من اهل التأويل !! والظاهر ان صاحب هذا القول لا يعرف من مذهب الشيعة شيئاً والا لما جعلهم من اهل التأويل وهم ليسوا منهم كما لا يخفى على كل من عرف مذهبهم

ولعل صاحب هذا القول وهم في مانقله صاحب العقد الفريد عن الشعبي من قوله ماشبهت تأويل الروافض في القرآن الا بتأويل رجل مضعوف من بني مخزوم ..... الخ ولكن يظهر ان مراد الشعبي بالروافض (كما يدل عليه كلامه في الخبر الذي بمده) انهم هم الذين احرقهم علي عليه السلام ونفاهم الى البلدان ومنهم عبد الله بن سبا الذاهب الى الغلو في علي عليه السلام وتأليهه وقد خرجوا عن ربقة الاسلام والشيعة منهم براء [1] وكيف كان فالشعبي مع شدة تعصبه على الشيعة لا يكون كلامه حجة عليهم اذا صح انهم هم المراد في قوله

---

(١) كل من اطلع على كتب الرجال عند الشيعة عرف منزلة عبدالله بن سبا عندهم وعلم انهم يعتقدون انه خارج عن ربقة الاسلام لا يصح الاخذ بروايته ولا الاعتماد عليه لغلوه في علي عليه السلام فكيف يذهب بعض اهل التاريخ و بعض اهل العلم اليوم انه كان الاساس لنشر مذهب التشيع وانه هو الداعي اليه مع ان الشيعه منه وممن قال بقوله براء

وربما حمل صاحب هذا القول عليه المشابهة بالحروف بين متاولة ومتأولة وان كان لا يساعد عليها المعنى ومع ذلك فلو صح ذلك في الجمع فكيف يصح في المفرد وبين لفظي متأول ومتوالي فرق واضح

زمن اطلاقه عليهم

بحث الكتاب في زمن تحديد اطلاق هذا اللقب (متاولة) على شيعة جبل عامل وجبل لبنان و بعلبك فذهب بار ينوس على مارواه الامير حيدر الشهابي في تاريخه انه كان في سنة ٦٣٥ هجرية لما اتوا من بلاد العجم وسكنوا عشر مدن باذن اجناد الهيكليين المتسلطين يومئذ على تلك الجهات . . . . . يومئذ اطلق عليهم اسم متاولة وفي قوله هذا بعد لانه ان اراد ظهور مذهبهم يومئذ فمذهبهم معروف من صدر الاسلام . وان اراد اطلاق الاسم فقط فهم لم يعرفوا به الا في القرن الثاني عشر الهجري بدليل ان كل المؤرخين واصحاب السير السابقين على القرن الثاني عشر الذين ذكروا بلادهم لم يكونوا يعرفون هذا اللقب ولو عرفوه لاطلقوه عليهم كما فعل صاحب سلك الدرر المتأخر زمنه فانه لا يذكرهم الا نبزهم به . وصاحب خلاصة الاثر عند ذكره الامير فخر الدين المعني قال انه كان درزياً ولكنه عند ذكره رجال الشيعة من جبل عامل مثل بهاء الدين العاملي ومحمد بن محمود العاملي الحشري (وصحته المشغري) والشيخ حسن زين الدين العاملي وكثير امثالهم لم ينبزهم بالمتاولة مع انهم من لباب الشيعة (المتاولة) ولما ذكر شقيف ارنون (قلعة الشقيف) قال ان هذا العمل رافضة وفي ترجمة الامير موسى الحرفوش البعلبكي قال ان البعلبكيين من الغلاة في الرفض وفي كل ذلك بل في كل تاريخه لم يذكر لفظة متاولة ولو عرفها لاطلقها

وقبل خلاصة الاثر مر ابن بطوطة الرحالة بصور وهي خربة في سنة ٧٢٦ و بخارجها قرية معمورة سكانها من الارفاض وصاحب نخبة الدهر قال عند ذكر جبل عامل واهله رافضة امامية وصاحب صبح الاعشى قال مثل قوله

ولم يذكروا لفظ متاولة وكلهم متأخرون عن سنة ٦٣٥ التي ذكرها بار ينوس . وعلى الجملة ان هذا اللقب لم يعرف عند مؤرخي العصور السابقة على القرن الثاني عشر ولو عرفوه لذكروه كما فعلوا بغيره ومؤرخو القرن الثاني عشر عرفوه فذكروه فيكون حدوثه في هذا القرن دون ماسبقه

ورأيت في بعض التقاويم التركية (سالنامه) في جدولها التاريخي ان ابتداء ظهور المتاولة سنة ١١٠٠ هجرية ولا شك ان هـذا تقريبي والمراد انهم عرفوا حوالي تلك الايام وذلك يؤيد برهاننا السابق

على ان رواية بار ينوس باطلة لبطلان جميع ما اورد فيها فقد جعل المتاولة قادمين من بلاد العجم في تلك السنة مهاجرين حيث سكنوا عشر مدن باذن اجنـاد الهيكليين وظاهر ذلك انه كان في جبل عامل فيما فوق مدينة صور التي كانت في حوزة فرسان الهيكل يومئذ ولم يخرجوا منها الى نهاية القرن السابع الهجري

ومهاجرة جمع يربو على الستين الفاً كما قال من بلاد العجم الى بلاد الشام لاتخفى على احد ولا تكون سراً مكنوناً فكيف لم يتنبه لها احد سوى بار ينوس من المؤرخين

على ان بلاد العجم يومئذ كانت خاضعة لسلطة المغول ولم يكن مذهب الشيعة قد اخذ بالانتشار فيها واول من نصره ونشره في تلك البلاد هو السلطان اولجايتو محمد خدابنده المغولي وتبعه من كان بعده الى زمن الدولة الصفوية فعم المذهب يومئـذ اقاصي البلاد .

وقد خبط ايضاً بروايته فقال : ان الشيعة يدعون انهم من نسل علي بن طالب وان الخلافة بعد عمر ابن الخطاب كانت لهم . فرجل هـذا مبلغ علمه بالشيعة كيف يعتمد على روايته في شيء من امورهم

والحق ان هذا اللقب انما صح اطلاقه عليهم لما اظهروا وجودهم السياسي وخلعوا طاعة امراء لبنان واعلنوا استقلالهم عنه [1] واجتمعوا جملة واحدة ثم ظاهرهم ظاهر العمر الصفدي هنالك كانوا يتحمسون في حروبهم و ينتدبون باسم (بني متوال) ومن تتبع ازجال شعرائهم يومئذ ظهر له حقيقة مقالنا

وهذا اللقب لم يعرف لاحد من الشيعة الا للذين اطلقوه على انفسهم يوم خاضـوا غمار الفتن في المائة الثانية عشرة وهم شيعة جبل عامل الذين ظهروا يومئذ بزعامة الشيخ

(١) ذكر الامير حيدر الشهابي في تاريخه انه في سنة ١١٢٠ هـ ركب الامـير حيدر لغزو المتاولة لان المشايخ بني علي الصغير بعـد وفاة الامير بشير الذي توفي في صفد كانوا قد تولوا بلاد بشارة من يد بشير باشا و يدل هذا على ان انفصالهم عن لبنان سنة ١١٢٠ ولكن في ما نعلمه ان لهم قبل ذلك بخمسين عاماً وقائع اظهروا بها وجودهم السياسي و كيفما كان الحال فظهورهم السياسي لم يتجاوز حوالي عام ١١٠٠ هـ

ناصيف النصار والشيخ علي الفارس وعشـيرتيهما وشيعة بعلبك الذين قادهم امراء آل حرفوش وشيعة شمالي لبنان الذين كانوا تحت لواء المشائخ آل حماده

وما عدا من ذكرنا من الشيعة في سورية كشيعة الديار الحلبية وكشيعة بـلاد حماه وحمص وكشيعة نفس دمشق وكلهم لا يعرفون بهذا اللقب الى اليوم ومن الغريب ان شيعة دمشق الشام الاصليين ينبزون باسم الرافضة عند ما لا يريد تكريمهم ومهاجرة بعلبك وجبل عامل في نفس دمشق يعرفون باسم المتاولة وما ذاك الا اتباعاً للقبهم في ديارهم فقط ويتوهم كثير من العامة ان بين الفريقين اختلافاً في المعتقد وليس الامر كذلك

ديار الشيعة في سورية

معظم الشيعة الامامية في سورية في جبل عامل وهو البلاد الواقعة ما بين مصب نهر الاولي شمالاً الى وادي نهر القرن (شمالي صفد) جنوباً ومن غور الحولة شـرقاً الى البحر المتوسط غرباً ويربو عددهم في هذا الجبل على المائة الف نسمة وقـد تقدم الكلام على اول عهدهم بالتشيع . وفي مدينة دمشق بضعة آلاف منهم وعهدهم بمذهبهم قديم وربما سبقوا العامليين في ذلك مدة قليلة . وفي ضاحية حلب قرى اهلها من الشيعة مثل الفوعا وكفريا ونبل والنغاولة ومعرة مصرين وفي نواحي حمـاة قرى اخرى كالشيخ علي كيدون والبويضة وسمنة وتليل وفي نفس حمص وبالقرى التي في شرقيها ام العمد ، البويضة ، تل الاغر ، ام دالي ، ام تويني وفي غربيها الغور سمعليل دلابوس ، ام حارتين وعهد هؤلاء اجمع بالتشيع لا يتأخر عن زمن الدولة الحمـدانية التي ملكت حلب وكانت عريقة في التشيع وكانت مدينة حلب في عهدهم زاهرة بفقهاء الشيعة وفي كتب الفقه الامامي اقوال مشهورة تعزى الى فقهاء حلب وكان نقباء الاشراف آل زهرة الحسينيون الذين منهم السيد ابو المكارم بني زهرة من جلة علماء الشيعة . يومئذ كان المؤذنون يؤذنون بحي على خير العمل في كل المآذن الحلبية ولما اراد سليمان بن ارتق بناء اول مدرسة شافعية في حلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك اذ كان الغالب عليهم التشيع وكانت نار التعصب يومئذ مسجورة بين الطائفتين

ومن ديار الشيعة في سورية قرى في مقاطعات كسروان والمتن والشوف والبترون والهرمل وشمسار وجزين وجبل الريحان (الجرمق) فهما داخلان في حدود جبـل عامل وجزين كانت ذات مدرسة دينية فقهية للشيعة الامامية وازدهت بعلمائهـا

المشهور بن واشهرهم الشهيد محمد بن مكي من اشهر علماء الشيعة في القرون الوسطى وهو صاحب المؤلفات المشهورة المعروفة في مدارس الشيعة والذي طلبه اليه صاحب خراسان ليتولى مشيخة الاسلام بها فلم يجبه الى ذلك وكانت داره تحتوي على خمسة من العلماء والعالمات فكان اولاده الاثنان من خيرة العلماء وابنته ام الحسن وزوجته اليهما مرجع النساء في العلوم الشرعية وفاقت ابنته في العلوم العربية ولا تزال سلالته في جبل عامل لا تخلو من عالم فاضل منذ القرن الثامن الى اليوم

والشيعة في لبنان لا يقل عددهم عن الخمسة والعشرين الفاً

ومن ديار الشيعة في سورية مدينة بعلبك وما اليها واكثر سكان تلك الجهة من الشيعة ولم يظهر لنا بدء عهد البعلبكيين بالتشيع ولكنه كان منذ القرن العاشر الهجري معروفاً بينهم ولم يخبرنا التاريخ بتقدمه على ذلك العصر كما لم يقف لنا وجوده قبله واول ما اشتد ازر الشيعة فيها في عهد الامراء الحرافشة الذين ملكوا بعلبك بعد دخول السلطان سليم اليها

وعهد الشيعة اللبنانيين بالتشيع اما في الجهات الشمالية فكان من مهاجرة بعلبك حوالي القرن الثاني عشر واما في الجهات الجنوبية فعهدهم به كعهد العامليين او قريب منه اى انه قديم جداً

وفي حوران في بصرى فريق من الشيعة من مهاجرة جبل عامل استوطنوا ذلك البلد و يقارب عدد الشيعة الامامية في جهات سوريه المائتي الف وربما يزيدون ولنجعل للبحث صلة في احوالهم الاقتصادية وشؤونهم الاجتماعية و بالله التوفيق

النبطية (جبل عامل) : احمد رضا

الخرافات والاوهام

« في تأثير الافلاك والايام »

لا ترقب النجم في امر تحاوله   فالله يفعل لا جدي ولا حمل
مع السعادة ما للنجم من اثر   ولا يضرك مريخ ولا زحل

(البهاء زهير)

ان الاوهام والخرافات في الظواهر الجوية قديمة في العمران تترامى الى العصور الاولى واهم مسبباتها عبادة الاجرام الفلكية وحب استكشاف الغيبات ومعرفة المستقبل والاستسعاد والاستشقاء ولا سيما في الاقاليم الشرقية التي يصفو جوها معظم ايام السنة وتتجلى فيها الظواهر الجوية بابهى اشكالها فنزعت نفوس سكانها منذ فطرتهم الى استطلاع المؤثرات واستنطاق النيرات والكواكب التي رأوها من مقومات الحياة الاولية . فكان تلون اشكالها واختلاف مظاهرها وتبدل مواقعها وتغير الوانها وما شاكل داعياً الى عبادتها ثم استرشادها لما في نفوس تلك العصور من البساطة وهم في مهد الحضارة وفي سرير النشأة فاشتهر بذلك المصريون والفينيقيون والكلدانيون والاشوريون والبابليون والفرس واليونان والرومان الى ان دالت دولتهم وقامت دولة العرب ثم الدول التي تلتها فظلت الاعتقادات الوهمية سائدة بينهم الى مدة قرنين

ولذلك كثر اشتغال الخاصة عند القدماء بعلوم التنجيم كالكهانة والقيافة والعيافة والزجر والخط في الرمل وتعبير الرؤيا . ووضعوا اقاصيص للمعبودات والكواكب فوجد عندهم علم الاساطير Mythologie الذي كثرت فيه تخرصات الاوهام وتفشت الخرافات والاقاصيص . ومنه نشأت العلوم التنجيمية والسحرية بانواعها وامتلأت كتب القدماء باخبارهم واحاديثهم القصصية في العصر الخرافي فألفت فيها الكتب الكثيرة من اهمها السندهند عند الهنود ، وقد امر الخليفة ابو جعفر المنصور بتعريبه فعربه الفزاري وقرب الخلفاء المنجمين واعتمدوا على اوهامهم فتفشى ذلك بينهم حتى لم يستطع اقتلاعه علماء الشرع الصادعون بتخطئته . ونبغ من العرب الخوارزمي فألف على مثال السندهند زيجه المشهور جامعاً فيه بين مذاهب الهند والفرس

والروم وهو جداول حركات الكواكب التي ترشد الى التقويم والتوقيت ٠ ثم اشتهر بعد ذلك ابو معشر البلخي الفلكي فألف كتابه المملوء بالخرافات والاوهام ثم البتاني والبيروني والطوسي وامثالهم ٠ وقد نحوا في مؤلفاتهم نحو الاختبار والتحقيق اكثر من غيرهم ٠

وسموا علم البحث في احكام كل وقت وزمان من الخير والشر وما يندمج في سلك ذلك من السعد والنحس الخ علم (الاختيارات) وفي مفتاح السعادة لطاش كبري وكشف الظنون لحاج خليفة اسماء مؤلفات كثيرة بهذا الفن ٠ وسموا علم الرصد وما بني عليه من النافع والضار وما شاكل علم الزيج والزايرجة ولهم از باج كثيرة عددوا اسماءها في كشف الظنون وغيره

ولذلك ترى مؤلفاتهم كثيرة في احداث الجو وعللها والآثار العلوية واحكام النجوم والتأثيرات العلوية والزجر والفال واستخراج الخبء والضمير والتوفيق بين الطب والنجوم والاستدلال بالكسوفات على الحوادث وفي المذنبات وايام العجوز وليعقوب ابن اسحق الكندي رسائل كثيرة في هذه الموضوعات كما نرى لغيره بعضها مثل ارسطو وابن الخمار البغدادي والفارابي وابن سيناء وابن خطيب الري والفضل بن حاتم النيريزي وامثالهم

فتحولت هذه العلوم من النجامة الى الرمل وحساب النسيم والزايرجة ٠ وقيل لها في ايامنا التبريج والتنجيم

وهكذا بقي الانسان سحابة عصور طويلة واحقاب مستفضية منهمكاً بمراقبة النجوم ورصد الطوالع والمنازل بوفق بين سعودها واعماله و يحذر من نحوسها ومستقبله فينقاد بازمة الاوهام و يسكن بمسكنات الانذار بالويلات ولله در القائل يخاطب امثال هؤلاء الضالين :

باراصد الخنس الجواري	مافعلت هذه السماء
مظلتمونا وقد زعمتم	انكم اليوم امليـاء
ولا نرى غير زور قول	اذاك جهل ام ازدراء
انا الى الله قد علمنا	ان ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي الهاً	حسبكم البدر او ذكاء
ماهذه الا نجم السواري	الا عباد يد او اماء

يقضي عليها وليس تقضي وما لها في الورى اقتضاء

فمن هذه الاعتقادات ما هو مبني على قواعد علمية ومشاهدات اختبارية مثل علاقة القمر بالمد والجزر وتقلبات الهواء وحدوث العواصف حتى ثبت عند بعض الراصدين بعد مراقبة سنوات طويلة : ان الزوابع والعواصف تكون اكثر عدداً اذا كان القمر هلالاً وتقل اذا ابدر

وكذلك معرفة الكسوف والخسوف باوقاتهما ومواعيد رجوع المذنبات وقياس ابعاد الكواكب ومعرفة قطر الارض ومحيطها وكرويتها ودورانها حول الشمس . وعلاقة السفع الشمسية (اي سواد الشمس) باضطراب حالة الارض الجوية والداخلية فثوران البراكين والزلازل وشدة حرارة الصيف وبرد الشتاء والزوابع تكون اذا كانت السفع في معظمها او اقلها لما يحدث من الاضطراب المغناطيسي . ومن مفاعيل حرارة الشمس انها تسبب الرياح والغيوم والامطار واختلاف الدورتين الهوائية والمائية فهي بحصر الكلام حياة الحيوان والنبات والجماد . وعرف المراقبون ان اكثر ايام الشهر مطراً يكون في اليوم التاسع من الهلال واكثر ساعات النهار مطراً يكون في الساعة الرابعة بعد الظهر . كل هذه الاستقراآت والمشاهدات حملت الناس على تأليه الشمس والقمر وعدهما سبب حياة العالم

ومن هذه الاعتقادات مالم يقم على صحته دليل قاطع حتى الآن وان كان بعضها من الممكنات مثل اصطدام الارض بالمذنبات او بحلقة الشهب والنيازك التي تلتقي بمعظمها كل ثلاثين سنة مرة وميعاد رجوعها سنة ١٩٢٩ م . اما ملتقى الارض بالمذنبات فيكون بموعد رجوع كل منها بحسب مدته وهي كثيرة الانواع مختلفة المدات . على ان الرصد افادنا ان اصطدام المذنبات بالارض لا يضر هذه لان مذنب بيالا سنة ١٨٥٢ انقسم بصدمته شطرين ثم تفتت وكان آخر العهد به . فلذلك كان تكهن بعض العلماء من هذا القبيل لا يريب العقلاء والمفكرين وان كان قد اقلق العامة في ازمان مختلفة

عَلَى ان مخاطر الارض كثيرة فقد يمكن ان يكون تفانيها بجفاف البحار والانهار وانقطاع الامطار ونضوب المياه وتوسيع نطاق الرمضاء كما هو الحال في المريخ الآن او يكون بفقدها هواءها وزوال بخارها المائي فلا تنعقد السحب في جوها ولا يجد المتنفس اوكسجيناً يدخل رئتيه فتموت الناس اختناقاً كما هو الحال في القمر الآن

او يكون موت الناس غرقاً بمياه البحار التي تدفعها البراكين المنفجرة في قلبها فترفعها من اماكنها وترسلها على البر فتجعل النجاد سهولاً وتصير الكرة ملساء بلا تضاريس وتغير سطحها فتغمرها المياه . وكذلك اذا تراكمت الثلوج وقطع الجمد في القطبين الجنوبي والشمالي فتجتمع وتزيد مساحتها الى ان تصل الى المحيطين فتملأهما وتندفق مياههما على الارض فتغرقها وتغطيها بالجمد . ومثل هذا ايضاً اذا كثر سحل المياه للشواطئ وجرف السيول للاتربة ووضعها في البحار فقد تزول اليابسة متوارية تحت اعماق المياه

فمثل هذه الاسباب ممكنة منتظرة ولكن لا يعلم وقت حدوثها الا خالق العالم الذي تسمح ارادته العالية بفناء العالم كما سمحت ببقائه لاسباب يريدها هو ونحن لا نعرف لها وجهاً ولا يمكن التذرع الى استطلاعها بوسيلة

فبعد ان عرفنا من هذه المقدمات هذه النتائج نقول ان اول من سلك البحار بدلالة النجوم الفينيقيون سكان شواطئ آسيا وجزر بحر اليونان منذ حرب طروادة سنة ١٢٠٠ ق م والعرب ايضاً في ابان مجدهم ومعرفتهم الملاحة . فكان نجم القطب وغيره من الصور الثابتة قائداً لهم ودليلاً في اسفارهم حتى اذا توارث هذه الادلة بالغيوم عمدوا الى الاستدلال بالابرة المغنطيسية . ولكن بقي المقام الاول للملاحة معتمداً على النجوم ومطالعها

ولما كانت النيرات والكواكب اساساً لتقسيم الوقت كان القدماء من مثل السريان والعبران والعرب والهنود والصينيين قد قسموا السنة الى اثني عشر شهراً والشهر الى اربعة اسابيع والاسبوع الى سبعة ايام فجعلوا لكل يوم من الاسبوع كوكباً من السيارات السبع لعهدهم وهي الشمس والقمر والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد وزحل ولا تزال تسمية الايام عند الفرنج مبنية على هذه العلاقة . ونسبوا الى ذلك كثيراً من التأثيرات الغريبة في طبائع الكائنات مع انهم كانوا يجهلون شؤونهم الخاصة على حد قول شاعر العرب :

وماذا الذي تدريه في فلك العلى اذا كنت في احوال دارك جاهلاً

اما العرب فقد قسموا الافلاك الى تسعة منها سبعة للكواكب السيارة والثامن الكرسي وهو فلك النجوم الثوابت او الفلك المكوكب والتاسع وهو العرش ويعرف بالاطلس لخلوه من الكواكب . ولهذه الكواكب في الافلاك ابراج عددها اثنا عشر .

فبعضها له منها برج والبعض له برجان وهذه البروج تنقسم الى نارية ومائية وهوائية وترابية والى صيفية وخريفية وشتوية وربيعية والى شمالية وجنوبية ومرتفعة وهابطة وسعيدة ونحسة . ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة يحل كل يوم من الشهر منزلة منها ويستتر

والكواكب السيارة منقسمة الى سعد ونحس وممتزج . ولكل نجم شرف في المنازل فشرف زحل في احدى وعشرين درجة من الميزان . وشرف المريخ في ثمان وعشرين من الجدي . والشمس في تسع عشرة من الحمل . وعطارد في عشرين من السنبلة . والزهرة في سبع وعشرين من الحوت . والمشتري في اربع عشرة من السرطان . والقمر في الدرجة الثالثة من الثور . الى غير ذلك من امثال هذه الاختيارات .

ومن كلفهم في ذلك العأثير ان الخليل بن احمد الفراهيدي مخترع العروض قد وجد اتفاق الحروف مع النجم فقال ان عدد الحروف العربية عدد منازل القمر (٢٨) وغاية ما يبلغ اليه الكلام مع الزيادة (٧) احرف كعدد السيارات . وصور الزوائد (١٢) كعدد البروج . وما يدغم من الحروف مع لام التعريف عدده (١٤) و يعرف بالشمسي وهو مثل منازل القمر التي يسيرها تحت الارض و (١٤) فوقها . فتأمل

ولم ينحصر ذلك في اللغة بل تجاوزها الى صناعة الطب فانهم اعتمدوا في كثير من العلاجات على مثل هذه الموافقات والظواهر الفلكية فهذا ابن ابي اصيبعة قد روى في كتاب (طبقات الاطباء) : « انه نقل من بعض الكتب ان بختيشوع (الطبيب المشهور) كان يأمر بالحقن والقمر متصل بالذنب ليحل القولنج من ساعته . ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة الزهرة فيصلح العليل من يومه »

ولا بأس ان نلم بمعتقدات القدماء في مثل هذه المظاهر الفلكية فقد ذهب ارسطو وتبعه العرب واهل القرون الوسطى : ان المذنب ليس الا ابخرة تتصاعد عن الارض حتى تبلغ طبقة الهواء المجاورة لكرة النار فتتحرك بحركة تلك الطبقة على الاستدارة ثم تستطيل وتتكاثف الى ان تحترق فتتوقد وتتألف حتى تنطفئ نارها فتتوارى وهو من اعقم المذاهب وادناها في نظر المحققين من العلماء

ومن مزاعم هذا الفيلسوف ايضاً ان كرة الهواء تنقسم الى ثلاث طبقات فالسفلى تعيش فيها الحيوانات والنباتات وهي غير متحركة كالارض التي تحتها والوسطى عليها

وهي بغاية البرودة غير متحركة ايضاً · والعليا مجاورة لكرة النار تتحرك بحركة الفلك الاعظم اليومية · وان الابخرة التي تتصعد من الارض تسخن في طبقة الهواء التي تجاور كرة النار فتحمى وتتألف ثم تستطيل بدورانها

و يروى ان ديموقريطس زعم ان بعض المذنبات ليست الا ارواح المشاهير حتى تابعه بودين من فلاسفة القرن السادس عشر · ومن اقواله في هذا الوهم : « انني اعتقد اعتقاد ديموقريطس ان الكواكب هي ارواح المشاهير تصعد الى السماء ظافرة مزدهية ولذلك كانت الحروب والاوبئة والمجاعات وامثال هذه النكبات الجائحة تدمر الارض عند ظهورها اذ تفقد عظماءها ونوابغها فلا يبقى فيها من يدبر شؤونها » ·

وعلى هذا الزعم الباطل توهموا ان مذنب هلي الذي ظهر سنة ٤٣ق م هو روح جوليوس قيصر امبراطور رومية الذي قتل بعد ظهوره بقليل · واشاعوا بينهم هذه الرواية وهي ان قيصر هذا تحول كوكباً وهاجاً · وانتظم في سلك الآلهة العلوية · وايد قولهم شدة تألقه حتى كان يرى في الهاجرة

ومن اغرب هذه المعتقدات ان تبقى راسخة في الاذهان حتى اوائل القرن الماضي فان الفرنسيين مع مدنيتهم العصرية تفاءلوا يوم ولادة نابليون بونابرت بظهور مذنب في ٨ آب سنة ١٧٦٩ م وذلك قبل ولادته باسبوع · وتشاءموا بظهور مذنب في ٢١ كانون الثاني سنة ١٨٢١ م واشتداد تألقه في اوائل ايار ولا سيما في ٥ منه يوم مات نابليون فجمعوا بهذا بين المعتقدين

ومن مزاعم القدماء في كسوف الشمس وخسوف القمر اضطرابهم جميعاً حتى الملوك والعظماء فكان هؤلاء كثيراً ما يوصدون ابواب القصور و يحلقون شعور اولادهم حزناً وحداداً و يقدمون القرابين للآلهة وللكواكب دفعاً لغضبها وتمويهاً على الشعب بالقاء الرعب في قلوبهم · ولا سيما عند اليونان والرومان

واما الهنود والصينيون فينشدون الاهازيج و يطلقون البنادق و يقرعون النحاس لاعادة نظام النيرين ومثل ذلك يجري عندنا حتى اليوم في بعض الاماكن

و كثير من الافرنج ينسبون للقمر ايام نحس وسعد فمنهم من يتفاءل بالزواج في ليالي نموه وابداره ومنهم من يتفاءل بمحاقه فيفضل اهل اثينة ليلة الهلال · واهل اسكتلندة اليوم الاخير من السنة · و يعتقد الدانمركيون ان المولود والقمر في الزيادة يولد بعده طفل من جنسه و بالعكس اذا كان القمر في النقصان · واذا ولد والقمر

في الحضيض مات قبل سن الرشد · واذا ولد في سنة كبيسة مات هو وامه في سنة واحدة · وعند بعضهم ان دلك اليدين في ضوء القمر يذهب الثآليل والدمامل · وعندنا ان عد النجوم يولد الثآليل

ومن مزاعم الافرنج في الاشهر ان مولودة كانون الثاني مدبرة للمنزل مائلة الى السويداء والكآبة لكنها كريمة الاخلاق ... وشهر تشرين الثاني عند الفرنسيين شهر الاموات وعند الهولنديين شهر السرور والفرح فيكثر فيه الزواج · و يعتقدون ان شهر آب هو تحت حكم الاسد والعذراء فمن اوله الى ٢١ منه يحكم برج الاسد ومن ٢٢ الى نهايته يحكم برج العذراء فمن ولد في الايام التي يحكم فيها برج الاسد ينال الثروة والمجد و يكون من ارباب الترف واللهو ولكنه يصاب بالخصام في أسرته والحزن عليها وقد ينال ربحاً من ارث او نصيب · ومن ولد في الايام التي يحكم فيها برج العذراء كانت حياته معرضة لخطر عظيم في صغره · ولا امل له بغير الارث · وكل ما يرثه يكون موضوع النزاع والرومانيون واليونان والفرنسيون والانكليز يتشاءمون بشهر ايار ولا يتزوجون فيه · والزواج في حزيران وتشرين الاول ميمون الى غير ذلك

واما الاعتقاد في ايام الاسبوع فالاميركان يقولون ان مولود يوم الاثنين يكون جميل الوجه والثلثاء ممتلئاً من نعمة الله والاربعاء مسروراً و بشوش الوجه والخميس تعساً شقياً والجمعة هبة الهية والسبت منهمكاً في تحصيل معاشه والاحد مستغنياً لا يحتاج الى شيء

والعطاس يوم الاثنين ينذر بالخطر والثلثاء يدل على قبلة من اجنبي والاربعاء للحصول على رسالة والخميس للتيمن والجمعة للحزن والسبت لمقابلة حبيبة والاحد للعياذ من الشيطان

و يوم الاربعاء احسن الايام والخميس آلام والجمعة خسارة والسبت خطر على العروس والاحد الندم على ما فعلت · واما بالنظر الى الاشغال فالاربعاء عندهم اقبح الايام والسبت احسنها

وتقليم الاظفر يوم الاثنين للاخبار والثلثاء لزوج احذية جديد والاربعاء للصحة والخميس للثروة والجمعة للحزن والسبت للسفر والاحد لمصيبة

والزواج يوم الاثنين للثروة والثلثاء للصحة والاربعاء افضل يوم والخميس للبلايا والجمعة للخسران والسبت لحرمان الحظ ونيل التعاسة

ورأيت في تعاليق بعض المخطوطات التي احرزها في مكتبتي ولاسيما (شرح السبط

الماردبني لفرائض السخاوي) وهو من نوادر المخطوطات ما يوافق هذه النظرات عند العرب فما ينسب الى الامام الشافعي قوله في ايام الاسبوع وتنسب الى الامام علي ايضاً :

لنعم اليوم يوم السبت حقاً اصيد ان اردت بلا امتراء
وفي الاحد البناء لان فيه ابان الله اطباق السماء
وفي الاثنين ان سافرت فيه فترجع بالمليح و بالثناء
وان رمت الحجامة في الثلاثا ففي ساعاته هرق الدماء
وان شرب امرؤ منكم دواء فنعم اليوم يوم الاربعاء
وفي يوم الخميس قضاء حاج لان الله يأذن بالقضاء
وفي الجمعات تزويج وعرس فتجتمع الرجال مع النساء

ولابن حجر العسقلاني :

قص الاظافر يوم السبت آكلة تبدو وفيما يليه يذهب البركه
وعالم فاضل يبدو بتلوهما وان يكن في الثلاثا فاحذر الهلكه
ويورث السوء في الاخلاق رابعها وفي الخميس الغنى يأتي لمن سلكه
والقسم والعلم زده في عروبتها عن النبي روينا فاقتفوا نسكه (١)

وسعود الايام ونحوسها هو بحسب ماورد في كتاب (جامع الفنون وسلوة المحزون (٢)) لابن شبيب الحراني المتوفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) من اوادر مخطوطات مكتبتي ونسخه عزيزة الوجود . ان يوم الجمعة افضل الايام يحمد فيه الزواج والراحة وتقليم الاظفار والسبت يوم راحة لا يجوز فيه صرم النخل . والاحد اول يوم للخليقة يصلح فيه البناء وابتداء كل عمل . والاثنين مبارك ترفع فيه الاعمال . والثلثاء للحجامة والعقود واصلاح حال النفس . والاربعاء قليل الخير ولا سيما آخر اربعاء الشهر فهو يوم نحس مستمر يشرب فيه الدواء و يحمد فيه دخول الحمام وترك الشغل . والخميس مبارك للابتداء بالسفر ولطلب الحوائج . وفي المأثور عن الرسول بورك لامتي في بكورسبتها وخميسها و يكره فيه الحجامة والفصد

وشهر محرم اوله معظم عند ملوك العرب يجلسون فيه للهناء كالاعياد . وصفر

(١) الله نسخة شرح الفرائض هذه قديمة كتبت سنة ٨٥٣ هـ بخط علي بن عبد الرحيم بن احمد الصرخدي وهذه الابيات تقرأ بصعوبة وقد ذهبت اوائل حروفها فصححتها على قدر الطاقة (٢) هذا الكتاب اشبه بدائرة معارف

336

القعود فيه اولى من الحركة . وربيع الاول شهر مبارك . وجمادى الاولى مبعث الحوادث العجيبة حتى قالوا العجب كل العجب بين جمادى ورجب . ورجب الاصم يمتنع فيه الحرب والاستئثار عند عرب الجاهلية . ورمضان شهر مبارك للصوم والاستغفار الى غير ذلك مما اقتطفته من صفحات كثيرة للاستدلال على اعتقاد العرب

ومن نوادر المنجمين عندهم ان هارون الرشيد مرض فأتى بمنجم فاخذ المنجم له تقويماً فتغير وجهه . فقال له هارون الرشيد اصدقني ماسبب تغير وجهك وما ظهر لك وانت في امان فاجابه انه لم يبق لامير المؤمنين الا ايام قليلة . و بينما هارون الرشيد مضطرب لهذا النبأ اذا بجعفر البرمكي وزيره قادم عليه فاعلمه بالقصة فاستدعاه اليه وقال له : كم عمرك ؟ . فقال ثلاثون سنة . فقال له جعفر : خذ تقويمك لترى كم تعيش فقال : ثلاثاً وثلاثين سنة . فقال له هرون : مر بقتله . فقتل فقال له : لو كان صادقاً لصدق بنفسه . وعاش بعد ذلك هارون اعواماً

ولما اراد الخليفة المعتصم العباسي فتح عمورية سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) جمع المنجمين ليختاروا له الطالع السعيد للهجوم عليها لحذروه من ذلك لان مذنب هلي كان قد ظهر قبل ذلك اي سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) وقد وصفه المؤرخون مثل ابن الاثير وابن ابي اسامة وغيرهما . ولكنه اضطر الى فتحها فظفر بها واكتسحها فقال ابو تمام قصيدته البائية المشهورة ساخراً بالمنجمين وهي من مشهورات القصائد الواقعية جاء فيها :

السيف اصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل اين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً واحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلة ... عنهن في صفر الاصفار او رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الابرج العليا مرتبة ... ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالامر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب

الى آخر ماهنالك من التهكم ووصف بسالة المعتصم واقدامه وتنكيله باعدائه

ومن لطيف ذلك ان عبد الملك بن مازة البخاري دخل عليه مملوك وفي يده قوس فقال : مشيراً الى ان حلول الشمس بالقوس سعد وحلولها بالعقرب نحس :

نهاني لما بدا عقرب على خده ان اروم السفر
فقلت وفي يده قوسه أسير فني القوس حل القمر

ومثل ماعند العرب كان عند الاعاجم فالتاريخ يروي لنا : انه بينما كان اسطول اليونان على اهبة السفر لمحاربة السبرطيين في ٣ آب سنة ٤٣١ قام وكان بيركليس على ظهر السفينة حدث كسوف تام فتشاءم البحارة من ذلك الظلام القاتم وكادوا يتقهقرون جزعاً فاسرع بيركليس ووضع رداءه على وجه احد القواد قائلاً له : « الست في ظلمة وهل في هذا ما يخيفك ؟ واي فرق بين هذا الظلام وذاك القتام سوى ان الاول ناتج عن شيء اعظم من ردائي » وهكذا استبقى قوامهم واستعاد نشاطهم . الى غير ذلك من الامثلة الكثيرة

هذا ما احتمله المقام من النظر في اوهام الناس في الافلاك والمواقيت ونحوها مما يتعلق بالجو وظواهره وفي فرصة اخرى ان شاء الله نعود الى الكلام في تأثير النجم من سيار وثابت على البسطاء عند الامم قديمها وحديثها

زحلة (لبنان) : عيسى اسكندر المعلوف

في فن الادب

حدث رواة الاخبار ان حميدة بنت النعمان بن بشير الانصاري تزوجت الحرث بن خالد بن العاصي بن هشام وكان شيخاً هرماً فلم تطب لها الاقامة معه وكانت تسكن دمشق فقالت في ذلك :

(فقدت الشيوخ واشياعهم وذلك من بعض اقواليه)

قولها (فقدت) انشاء وليس بخبر : فهي تدعو على الشيوخ المسنين بان تفقدهم عن آخرهم وتفقد كل من يتشيع لهم · ولعـل مرادها بالمتشيعين لهم سماسرة السوء الذين يسعون لدى الامر في تزويج فتياتهم من اولئك الشيوخ الطـاعنين في السن فيقعن من عشرتهم في جحيم ومن العيش معهم في بلاء مقيم · ثم قالت حميدة ان دعاءها على الشيوخ هو من بعض اقوالها فيهم اي هو اقل ما يجب ان تقوله في حقهم وفي اظهـار النفرة منهم والزراية عليهم ·

(ترى زوجة الشيخ مغمومة وتمسـى لصحبته قاليه)

(قاليه) مبغضة كارهة · والشيخ هنا لم ترد به حميدة الواحد من شيوخ العلم الديني ولو كان شاباً حسبما اصطلح عليه المتأخرون وانما ارادت به المعنى اللغوي وهو الرجل الذي شاخ وطعن في السن و بلغ من الكبر عتياً عالماً كان او جاهلاً · وللشيخ سـبعة جموع استوفاها بعضهم في هذين البيتين فقال :

(مشايخ مشيوخاء مشيخة كذا شيوخ واشياخ وشيخان فاعلما)

(ومع شيخة جمع لشيخ وصغرا بضم وكسر في شييخ لتفهما)

قوله (شيخة) على وزان عنبة لكنه سكن الياء لضرورة الشعر وقوله (بضم وكسر) يريد انك اذا صغرت كلمة (شيخ) فقلت (شييخ) جاز لك اذ ذاك ان تضم الشين وهو الاصل في الاسم المصغر — وان تكسرها مراعاة للياءين التي بعدها ليسهل النطق باللفظ ويخف على السمع

(نكحت الهشامي اذ جاءني فيالك من نكحة غاوية)

تلوم نفسها على تسرعها بزواج ذلك الرجل : فهي لم تتريث ان رضيت به مذ

جاءها خاطباً . ثم اظهرت الدهشة والعجب من هذا الزواج الذي كلفها ثمناً غالياً : عمراً خسرته . وشباباً ابلته . وجمالاً ابتذلته . ومستقبلاً اضاعته

(له ذفر كصنان التيوس اعيا على المسك والغالية)

(الذفر) بفتحتين كل رائحة شديدة سواء كانت طيبة او خبيثة : يقال مسك اذفر . ورجل ذفر بكسر الفاء له صنان وخبث ريح . والصنان بضم الصاد الرائحة الكريهة تنبعث من تحت الابط واستعملتها الشاعرة هنا في رائحة التيوس بطريق التجوز . و (الغالية) ضرب من الطيب مركب من جملة اجزاء . نقول ان لزوجها ريحاً خبيثة اعياها الامر في ازالتها وتخفيف شرها وقد استعانت على ذلك وعالجته بانواع الطيوب فلم تفلح

(وان دمشق وفتيانها احب الي من الجاليه)

الجلاء بفتح الجيم الخروج من بلد الى آخر . و يقال جلا القوم عن الموضع الفلاني اذا تفرقوا عنه . والقوم الذين يخرجون هذا الخروج يسمون جالية . ويسمى اهل الذمة جالية لان عمر رضي الله عنه اجلاهم عن جزيرة العرب . ومراد الشاعرة بالجالية هنا اولئك الذين كانوا يجلون عن ديارهم في الحجاز و يسكنون دمشق لذلك العهد و يظهر ان لدمشق في نفوس القوم اذ ذاك مكانة عالية فكانوا يتنافسون بالعيش فيها و يضربون المثل بحسن عشرة اهلها . ولم يزل هذا دأبها الى اليوم فهم اذا ارادوا ان يصفوا انساناً بالذوق وطيب العشرة و كرم الطباع قالوا انه (مدمشق) على وزان اسم المفعول . اي انه كأهل دمشق ذوقاً وادباً كما يقولون في مصر فلان (ابن بلد) يعنون به ما نعنيه نحن بكلمة (مدمشق) . و يستعمل الاوربيون في هذا المعنى كلمة (جنتلمان) الانكليزية . وقد ذكر سليم افندي سركيس في بعض اعداد مجلته : ان جريدة التيمس رأت ان تضع لكلمة (جنتلمان) الافرنجية لفظة عربية او معربة فقالت في وصف احد سلاطين آل عثمان القدماء انه كان يسمى (محمود الشلبي) وفسرتها لقرائها بقولها ان معنى الشلبي هو (الجنتلمان) ثم قال سليم افندي : وما دمنا اليوم لم نقع على كلمة ترادف (الجنتلمان) في لغتنا العربية فلنرض بما رضيته لنا التيمس اي من استعمال كلمة (الشلبي) بمقام (الجنتلمان) اه اقول وكلمة (شلبي) بالشين العربية محرفة عن (چلبي) بالجيم الفارسية ذات النقط الثلاث . وهي كلمة تركية معناها الشريف والظريف واللطيف . وقد غاب عن سليم افندي ان يذكر في معاني (الجنتلمان)

كلمة (مدمشق) كما غاب عنه ان يذكر ايضاً كلمة (عابق) التي يستعملونها في ذلك المعنى نفسه . ولا اذكر ماهو اصل اشتقاق (عابق) وكيف استعملت في هذا المعنى في لغتنا العربية .

وان كانت حميدة ذكرت دمشق في اثناء التهكم بزوجها والزراية عليه فان شاعراً آخر ذكر (دمشق) في غضون عتابه لزوجته وتهديده لها فقال :

(دمشق خذيها واعلمي ان ليلةً   تمر بعودي نعشها ليلة القدر)

(اكلت دماً ان لم أرعك بضرةٍ   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر)

دمشق منادى : يقول خذي يادمشق زوجتي التي هربت من بيتي اليك واعلمي ان الليلة التي تموت فيها تلك الزوجة الغادرة واراها فيها محمولة عليّ اعواد نعشها هي عندي بمنزلة ليلة القدر . ثم رأى ان توقع الخلاص منها بانتظار موتها امر يطول شرحه فالتفت الى زوجته الناشزة واستحضرها في ذهنه وجعل يتهددها ويتوعدها فدعا على نفسه بان يموت احد الاعزاء عليه و يأكل ديته ان كان لا يتزوج و يدخل عليها الذعر و يضرم في قلبها نار الغيرة بانتقاء ضرة لها تكون اجمل منها . واجمع لصفات الحسن . وفي البيت الثاني كنايتان من أشهر الكنايات التي يتمثل بها البيانيون في كتبهم وهما (اكلت دماً) و (بعيدة مهوى القرط)

من اخلاق العرب انهم يأنفون من ترك الاخذ بالثار اكتفاء بأخذ الدية من جمال وانعام و يكنون عن هذه الدية الحيوانية بالدم و يعير بعضهم بعضاً بأكلها والرضا بها فشاعرنا يقول انه ان لم يتزوج على اسرأته تلك التي هربت الى جلق فالله يبتليه بهذه الضعة والخزاية والعار الذي لا يمحى وهو ان يأكل دية قريبه بدل ان يأخذ بثاره فيقتل من قتله اما الكناية الثانية فهي قوله في صفة الضرة انها بعيدة مهوى القرط فهو يصفها بالطول : اما طول العنق او طول القامة . اذ ان مهوى القرط موضع هويه وسقوطه وهو اما الكتف فالطول للعنق . او الارض فالطول للقامة . وقوله في صفتها (طيبة النشر) اي طيبة الرائحة . وقوله مخاطباً لدمشق « دمشق خذيها » يشعر بان لهذه البلدة مزية او معنى يجتذب القلوب اليها و ينزل بالرحال لديها

وانما هدد ذلك الشاعر زوجته الناشزة بما هددها به لكونه يعلم مبلغ غيرة النساء وجزعهن من الضرة . وابلغ ما قيل في ذلك قول الآخر :

(خبروها بانني قد تزوجـ   ـت فظلت تكاتم الغيظ سراً)

(ثم قالت لاختها ولاخرى   جزعاً ليته تزوج عشرا)

يقول انها عزمت اولاً على الصبر وكتم الغيظ واسرار الغيرة في نفسها ثم غلبتها نفسها فباحت ببعض الشيء لكنها مع هـذا ظلت متجلدة متماسكة متظـاهرة بقلة المبالاة فقالت لاختها ولصاحبة لها اخرى ليت زوجي بدل الزوجة الواحدة تزوج عشر زوجات فاني كارهة له غير راغبة في القرب منه

(واشارت الى نساء لديها   لاترى دونهن للسر سترا)

يقول ثم ارتقى الحال بها . واستولت الغيرة عليها فلم يعد يمكنها اخفاء الخبر الذي اضناها . واطار الرقاد عن عينيها : فقالت الى نساء كن في مجلسها تأمن جانبهن بحيث لاترى ضرورة لستر هذا السر عنهن وخاطبتهن مشيرة الى قلبها تقول :

(ياقلبي كأنه ليس مني   وعظامي كأن فيهن فترا)

(من حديث نما الي فظيع   خلت في القلب من تلظيه جمرا)

تريد بكون قلبها ليس منها انه اصبح كتلة نار من شدة الغيظ والكمد فهو ليس منها : لانها هي لحم ودم لاجهنم ولا اتون . وفي عظامها فتر اي ضعف ووهن وانكسار

ومعنى البيتين واضح لا يحتاج الى بيان وتفسير . على اننا نشرح في الاحايين ابياتاً تكون جلية المعنى لا غموض فيها حباً في تنبيه الطالب او الناشيء الى حل الشعر ونحو بل معناه الى نثر و بسط الفاظه ومعانيه بسطاً يقوي في نفس الطـالب ملكة المقـدرة على تأليف الـكلام وحسن التصرف فيه وتأدية المعـنى الواحد بالطرق المختلفـة والاساليب المتعددة . وهذه الطريقة اي ان تعمد الى منظوم فتحله الى كلام منثور من احسن الطرق في تحصيل فن الانشاء وتقوية ملكة الكتابة في النفس . وقد وضع ابن الاثير صاحب (المثل السائر) كتاباً لطيف الحجم سماه (حل المنظوم) شرح فيه هذه الطريقة وابان وجه الفائدة منها لطلاب ذلك الفن

هذا الذي تزوج على امرأته رجل يحب الانتقام و يريد لنفسه شفاء غيظها وتبريد غلتها . اما زوج انيسة فقد رأى ان قطع علاقته مع انيسة بالمرة خير له ولها من تحمل مشاكل الضرة فطلقها وقال :

(رحلت انيسة بالطلاق   وعتقت من رق الوثاق)

انيسة بهيئة التصغير . يقول انها رحلت هي الى دار ابيهـا وتخلصت انا من الرق والاسار لها . ومن ثم قالوا في المرأة سيئة الاخلاق انها (غل قمـل وجرح لايندمل)

339

الغل واحد الاغلال وهو طرق من حديد او جلد يجعل في اليد او في العنق · وقمل بكسر الميم ذو قمل اي فيه قمل · واصله ان الغل من الجلد يطول مكثه على جسد الاسير فيعلوه الدرن والعفن ثم يعشش فيه القمل فيؤذي الاسير و يحرمه لذيذ الوسن فالمرأة السوء في ارهاقها زوجها مثل هذا الغل :

(بانت فلم يألم لها قلبي ولم تبك المآقي)
(ودواء ما لا تشتهيه النفس تعجيل الفراق)

ارسل هذا البيت مثلاً سائراً وحكمة بالغة فهو ينصح لكل من ابتلي بما لا تشتهيه نفسه ان يعجل فيفارقه و يقصيه عنه · وقد يقال ان هذا ان كان منه لمجرد هوى النفس ونزاع الشهوة فهو لؤم وخسة وان كان لضرورة قاضية وليكون في بيته ذا عيشة راضية فلا عتب ولا لوم

(لو لم أُرح بفراقها لارحت نفسي بالاباق)
(وصبرت نفسي لا اريد حليلة حتى التلاقي)

(أُرح) مبني للمجهول من الراحة · واصل الاباق فرار العبد من بيت سيده واستعمله هنا في مطلق الهروب · ومراده بالتلاقي اليوم الذي يموت فيه فيلاقي فيه اجله او يلاقي وجه ربه · يقول : لو لم تتيسر لي اسباب طلاق انيسة و بقيت جاثمة في وجهي جثوم الافعى · لكنت فررت منها فرار الآبق · وفارقتها فراق غير الوامق · وكنت بذلك استريح من شرها · ثم احرم النساء من بعدها · لكن قد اسعدني الحظ بتسهيل اسباب طلاقها بالطوع والرضا · فشكراً لتدبير القضا · وعفا الله عما مضى

دمشق : « المغربي »

الحمّى

« طبياً »

عرف العرب مرض الحمي مثل غيرهم من الامم القديمة وعالجوه بالماء وغيره من الملطفات ووصفه اطباؤهم . والفوا فيها رسائل ومقالات ضافية من اهمها كتاب (الحميات) خمس مقالات لم يوجد اجود منه . وعلاجاته مجربة الفه اسحق بن سليمان الاسرائيلي الذي عمر فوق المائة ولم يتزوج ولا اعقب فسيئل عن ذلك فقال : ان لي اربعة كتب تحيي ذكري اكثر من الولد وهي كتاب الحميات و (الاغذية والادوية) و (البول) و (الاسطقسات) وتوفي هذا المؤلف سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) ومن الرسائل في (الحميات) رسالة لمحمد بن ابرهيم ورسالة لجلال الدين السيوطي ولغيرهما رسائل وكتب اخرى . ضمنت انواع الحمى ومعالجاتها وكل ما يتعلق فيها مما هو مفيد اليوم

« شعرياً »

ولقد وصفها الشعراء بقصائد ومقاطيع كثيرة يحضرنا منها الآن قول المتنبي يصف حماه الليلية التي ظنها بعضهم حمي الدق (السل) :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها و باتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بانواع السقام
اذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها باربعة سجام
اراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
وتصدق وعدها والصدق شر اذا القاك في الكرب العظام
فان امرض فما مرض اصطباري وان احمم فما حم اعتزامي
وان اسلم فما ابقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وقال ابن شبيرويه فيها :

وزائرة تزور بلا رقيب وتنزل بالفتى من غير حبه
وما احد يحب القرب منها ولا تحلو زيارتها بقلبه

تبيت بباطن الاحشاء منه فيطلب بعدها من عظم كربه
وتمنعه لذيذ العيش حتى تنغصه بمأكله وشربه
اتت لزيارتي من غير وعد وكم من زائر لا مرحباً به

وقال ابو بكر الخوارزمي امير الكتاب يشير الى ترك الغذاء فيها :

ولي من ام ملدم كل يوم ضجيج لا يلذ له شمام
مقبلة وليس لها ثنايا معانقة وليس لها التزام
كأن لها ضرائر من غذائي فيغضبها شرابي والطعام
اذا ما صافحت صفحات وجهي غدا الفا وامسى وهو لام

وقال الامير ناصر الدين بن النقيب في نوبة الحمى موريًا :

اقول لنوبة الحمى اتركيني ولا يك منك لي ما عشت اوبه
فقالت كيف يمكن ترك هذا وهل يبقى الامير بغير نوبه

وقال ابو الحجاج القهري الغرناطي في الوزير ابن الحكم وقد اصابته حمى تركت على شفته عقابيل (بثوراً) :

حاشاك ان تمرض حاشاكا قد اشتكى قلبي لشكواكا
ان كنت محموماً ضعيف القوى فانني احسد حماكا
ما رضيت حماك اذ باشرت جسمك حتى قبلت فاكا

وقال المتنبيء مشيراً الى توقيف الحمى في اصطلاح الاطباء وهو من التعليل الحسن المبني على الشك :

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا ما عذرها في تركها خيراتها
اعجبتها شرفاً فطال وقوفها لتأمل الاعضاء لا لأذاتها

ولم يخرج عنه ابو الفتح كشاجم الرملي فقال في سبب الحمى :

ولقد اخطأ قوم زعموا انها من فضل برد في العصب
هو ذاك الذهن اذكى ناره والمزاج المفرط الحر التهب

ومن الطف ما قيل في حمى الاولاد قول احمد بن بدر المعروف بالبلاط في ولد له حم :

أعزز علي بني ما تلقى سدت علي شكاتك الطرقا
قد كنت بالحمى احق فليتني القى من الحمى الذي تلقى

وقال ابو نوءاس يخاطب عناناً جارية الناطفي مشيراً الى امكان عدواها وقد حما وشفيا ولم يعلم هو بمرضها الى بعد برئه :

اني حممت ولم اشعر بحماك حتى تحدث عوادي بشكواك
فقلت ما كانت الحمى لتطرقني من غيرما سبب الا بحماك
وخصلة كنت فيها غير متهم عافاني الله منها حين عافاك
حتى اذا اتفقت نفسي ونفسك في هذا وذاك وفي هذا وفي ذاك

وقال الياس صالح كنعان البيروتي لما ثقلت عليه وطأة الحمى وهو آخر نظمه مشيراً الى تأثير الحمى في الاحشاء والراس :

اذا جن الظلام وغاب صبحي وفارقني احبائي وناسي
اتت تسعى الي وليس ترضى مقاماً غير احشائي وراسي

هذه طرف مختلفة من اوصاف الحمى الشعرية · فبقي علينا ان نذكر ما اعرفه اللغويون عنها مما لم نره مجموعاً في رسالة او كتاب بل استخرجناه بالبحث والاستقراء

« لغوياً »

من الغريب ان الكلمات العربية المبدوءة بالحاء تدل على الحرارة والتوقد ونحوهما ولهذا فنحن نستقري هذه السلسلة لنتصل الى اسم (الحمى) وصحة اختياره لهذا الداء الفتاك الذي يذيب الدماغ والحشى بل يحرق الجسم ويهلك صاحبه

فاذا تتبعنا سلسلة الحاء وما يتركب معها من الحروف المضاعفة نجد : ان « حب » بمعنى عشق و « حث » الشيء حكه ليسقط و « حثه » على الشيء احماه عليه و « حج » غلب بالحجة وفيه حدة و « حد » غضب و « حذ » قطع ومثلها جذ وجز · و « حر » ضد برد · و « حز » قطع وفيه احتكاك وحرارة و « حس » البرد العشب احرقه وحس اللحم جعله على الجمر و « حش » النار اوقدها والمحش ما تحرك به النار · و « حص » الشعر حلقه واذهبه و « حضه » عليّ الامر احماه عليه · و « حط وجهه » خرج به الحطاط وهو نوع من البثور اي الحبوب يعرف بحب الصبا · و « الحظ » التوفيق و « حف » الشيء كشطه و « حقت » الحاجة نزلت واشتدت وحقه غلبه على الحق و « حكه » دلكه وكشطه و « حل » الحرير استل خيوطه منه بالحرارة و « حم » التنور سجره اي اوقده واحماه و « حن » اليه اشتاق وانعطف و « حي » ضد مات

فاذا راجعنا هذه المادة نجد انها من اشد المواد العربية دلالة على الحرارة والاشتعال ولذلك اخذ منها اسم الحمى التي هي من اشد الامراض فتكاً بالاجسام اشتعالاً

ومما يزيد قولنا هذا برهاناً اننا اذا اخذنا حروف هذه المادة الثنائية واضفنا اليها حروفاً اخرى كان لنا من معنى المادة الفاظ كثيرة تدل على الحرارة والاتقاد مثلاً حجحجت النار اتقدت . والحباحب سراج الليل المتألق . وحبك شد وقطع . والحبوكرى الداهية . وحبت السفينة جرت وتحركت . وحثحث اذا ضاعف الحث . وحجن عطف وجذب . وحدر الجلد ورم من الضرب . وحدس في السير اسرع . وحسم قطع الى آخر المادة

ومن الكلمات التي تتعلق بالحمى من مادتها قولهم ارض و بلاد محمة ومحمة ذات حمى او كثيرة الحمى . وحم الرجل فهو محموم اذا اصيب بها واحمته البلد . الى غير ذلك من الاصطلاحات .

واما حمى التيفوئيد فهي من كلمتين يونانيتين الاولى (تيفوس) اي السبات من الحمى والثانية بمعنى شكل فمجموع معناها شكل السبات او شبه التيفوس . والتيفوس يونانية كما مر بمعنى سبات الدماغ ونحوه . اما كلمة الحمى في اللغات الافرنجية فهي من كلمة Fervere اللاتينية بمعنى ليسخن وليحم فهي مثل الكلمة العربية ومنها اشتقت كلمة Fièvre الفرنسية وكلمة Fever الانكليزية و Fiebre الاسبانية و Febbre الايطالية واشباهها

واما انواع الحمى التي عرفها العرب فهي حمى مردم من اردمت عليه اذا لم تفارقه اياماً وحمى نائبة تنوبه كل يوم . والبرحاء شدة الحمى . وحمى الرس اول الحمى قبل ان تأخذه وتظهر . فاذا كان مع الحمى قرة وجد مسها فهي العرواء (البردية في اصطلاح العامة) وعري اذا اصيب بها وعك الرجل اذا وجد عرواء الحمى . فاذا عرق منها فهي الرحضاء وهو مرحوض . وتقول اخذته رحضاء ورحض . والصالب الصداع من الحمى وحمى صالب تسيل العرق من الصليب اي الورك وقد صلبت عليه الحمى . واخذته النفضة اي الرعدة . واخذته حمى نافض ونفضته الحمى . والوعك الحمى التي معها حر خالص تقول وعكته الحمى فهو وعك . والورد يوم الحمى وقد وردته الحمى . وحمى ربع التي تأتي في اليوم الرابع وقيل التي تدع يومين وتأخذ يوماً وربع الرجل وأربع وأربعته الحمى وأربعت عليه وربعت . والقلد يوم تأتيه الربع والغب ان تأخذه يوماً وتدعه آخر وقد اغبته الحمى واغبت عليه وغبت فهو مغب . واذا اقلعت الحمى فذلك الحين هو القلع وخمدت الحمى سكن فوارها .

وصارت الحمى تتعهده وتتعاهده وتحاوده بمعنى تداومه وتنقطع عنه · والعقابيل ما يظهر على الشفتين من غب الحمى · وهو يتضور من الحمى اي يتلوى و يضج و يتقلب ظهراً لبطن · والمسبوت العليل الملقي كالنائم يغمض عينيه في اكثر احواله وهي من اعراض الحمي · وحمى قبس اقتبسها من غيره بالعدوى وحمى عرض تعرض له من تلقاء نفسه · والمليلة حرارة الحمى وتوهجها · والحمي الدائرة التي تأخذ وقتاً وتدع وقتاً · وافرق المحموم اذا تركته الحمى

الى كثير من اشباه هذه الاصطلاحات الكثيرة والله يعلم وانتم لا تعلمون

زحلة (لبنان) : عيسى اسكندر معلوف

القصران العجيبان

« البديع وساورية »

ما اشبه الليلة بالبارحة · العالم متشابه في اعماله عَلَى اختلاف العصور والاصقاع لا تكاد تجد فروقاً يعتد بها والانسان حيث كان يوشك ان يكون واحداً في الشرق والغرب في تصوراته ومناحيه · ذكر الحازمي ان البديع اسم بناء عظيم للمتوكل بسر من رأى وقال اليعقوبي بني المتوكل قصوراً انفق عليها اموالاً عظاماً منها الشاه والعروس والشبدار والبديع والغريب والبرج وانفق على البرج الف الف وسبعمائة الف دينار وذكر الاصفهاني (١) انه شغب الفرسان على السلطان في بغداد سنة ٣١٥ فاحرقوا القصر المعروف بالثريا وانتهبوا ما فيه من الخزائن وخربوا القبة والقصر المعروف بالاترجة والكوكب وسلبوا ما كان فيه من الآلة والمتاع والوحش والطير ثم بكروا من

(١) تاريخ ملوك الارض لحمزة بن الحسن الاصفهاني طبع في كلكته سنة ١٨٦٦ ونزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الوفراني النجار المراكشي الوجار طبع بمدينة انجي (فرنسا) سنة (١٨٨٨)

الغد الى الحلبة فاحرقوا ابوابها وقصدوا القصر المعروف بالحسني الذي ينزل فيه المقتدر فبقوا الى المساء يشغبون ثم بكروا من الغد الى القصر المعروف بالبديع

و بهذا ظهر ان اسم البديع اطلق على قصرين في العراق الاول في سرَّ من رأى والثاني في بغداد وكان هذان القصران موجودين الى تاريخ المئة الرابعة . وانشئ في المئة العاشرة قصر اسمه البديع في مراكش حاضرة الغرب الاقصى انشأه المنصور عام ستة وثمانين وتسعمائة من خلافته وانفق جلائل الاموال ونفائس الذخائر وذلك انه اراد كما في مناهل الصفا ان تكون لاهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البربر وغيرهم من المرابطين والموحدين ومن بعدهم من بني مرين فكان كل من اهل تلك الدول ابتنى بناء يحيا به ذكره ولم يكن لاهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع انهم احق الناس بالجد الاصيل والسؤدد الاثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف اهل البيت لان البناء كما قيل في فوائده :

هم الملوك اذا ارادوا ذكرها　　من بعدهم فبالسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه　　اضحى يدل على عظيم الشان

اتصل العمل في هذا البناء من سنة ٩٨٦ الى ١٠٠٢ ولم يتخلل ذلك فترة وحشر له الصناع حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كل يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن وكان المنصور قد اتخذ معاصير للسكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما واما جبسه وجيره و باقي انقاضه فانها جمعت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها ان فلاناً دفع صاعاً من جير حمله لهمن تينبكت وظف عليه في عمار الناس وكان المنصور مع ذلك يحسن للاجراء غاية الاحسان و يجزل صله المعلمين بالبناء و يوسع عليهم في العطاء و يقوم بمؤنة اولادهم كي لا تشوق نفوسهم وتتشعب انظارهم

وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائعة الهيئة واحتف بها مصانع اخر من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك ان هذا البديع احسن المباني واعظم المصانع يقصر عنه شعب بوان ، و ينسي ذكره غمدان ، و يبخس الزهراء والزاهرة ، و يزري بقباب الشام واهرام القاهرة ، وفيه من الرخام المجزع ، والمرمر الابيض المفضض والاسود ، وكل رخامة على رأسها بالذهب الذائب

ومويه بالنضار الصافي ، وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة ، وجعل في اضعاف ذلك الزلاج المتنوع التلوين ، حتى كأنه خمائل الزهر ، او برد موش ، واما سقوفه فتجسم فيها الذهب ، وطليت الجدارات به مع بريق نقشه ، ورائق الرقم ، بمخالص الجبس فتكاملت فيه المحاسن ، واجرى بين قبابه ماء غير آسن ، وبالجملة فان هذا البديع من المباني المتناهية البهاء والاشراق المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف وفي ذلك قيل:

كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب الجني وفيه يشم
منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصر اشم
ان مراكشاً به قد تناهت مفخراً فهي للعلا الدهر تسمو

وبه من الاشعار المرقومة في الاستار ، والايات المنقوشة في الجهات ، على الخشب والزليج والجبص ، مايسر الناظر ، ويروق المتأمل ويبهر العقول ، وعلى كل قبة ما يناسبها ، وفي بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها ، فمن ذلك مانقش خارج القبة الخمسينية لان فيها خمسين ذراعاً بالعمل من انشاء ابي فارس عبد العزيز الفشتالي على لسان القبة المذكورة :

سموت فخر البدر دوني وانحطا واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وصغت من الاكليل تاجاً لمفرقي ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت باطوافي الثريا كأنها نثير جمان قد تتبعته لقطا
وعديت عن زهر النجوم لانني جعلت على كيوان رحلي منحطا
واجريت من فيض السماحة والندى خليجاً على نهر المجرة قد غطا

وهي طويلة وكلها من هذا النمط وقال ايضاً قصيدة كتبت بداخل القبة المذكورة وله اخرى كتبت في بهوها برمر اسود في ابيض قال في مطلعها :

لله بهو عز منه نظير لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد قد نضدتها في النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها وشي وفضة تربها كافور
وكأن ارض قراره ديباجة قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصاعد نده نوأ ففي انماطه نور به ممطور
شأ والقصور قصورها عن وصفه سيان فيه خورنق وسدير

فاذا اجلت اللحظ في جنباته   يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين امامه   حركات سحب صافحته دبور
صمت بضفتها تماثل فضة   ملك النفوس بحسنها تصوير
فغدير من صفو الزلال معللاً   يسري الى الارواح منه سرور
مابين آساد يهيج زئيرها   واساود يعلو لهن صفير

وقال ايضاً وكتب في بعض المباني البديعية :

معاني الحسن تظهر في المباني   ظهور السحر في حدق الحسان

وختمها بقوله :

قصور مالها في الارض شبه   وما في المجد للمنصور ثان

وكان الفراغ من بناء البديع عام اثنين والف وفي تاريخه يقول الوزير علي الشياظمي وهو مما نقش في باب الرخام احد ابواب البديع

الحسن لفظ وهذا القصر معناه   يا ما اميلح مرآه وابهاه
فهو البديع الذي راقت بدائعه   وطابق اسم له فيه مسماه
صرح اقيمت على التقوى قوائمه   ودل فيه على التاريخ معناه

قال في نفح الطيب اخترع المنصور من الصنائع ثلاثة اشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهي البديع والمسرة والمشتهى ومما قال المنصور في ذلك مؤرخاً :

بستان حسنك ابدعت زهرانه   ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينثني   ياحسن رمان به للمشتهي

والذي ذكره صاحب البيان المعرب عن اخبار المغرب (١) وهو الشيخ ابو عبدالله ابن عذارى الاندلسي ان اول من انشأ المسرة التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن ابن علي كبير الموحدين قال وهو بستان عظيم طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من اغمات واستنبط له عيوناً كثيرة قال ابن اليسع : وما خرجت انا من مراكش في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذي غرسه يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مؤمنية بحسب رخص الفاكهة

(١) طبع دوزي المستشرق في مدينة ليدن سنة ١٨٤٨ كتاب البيان المعرب عن اخبار المغرب لابن عذارى المراكشي وقد اختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطان وجاء الجميع في جزئين

بمراكش ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها وافاض سجال الحياة على ميت اغراسها . وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيراً و بنوه بعده كذلك وفي ذلك يقول ابو فارس الفشتالي :

هذا البديع يعز شبه بدائع ابدعتهن به فجاء غريبا
اضحى الغزالة حسنه حسداً له ابدي عليه للاصيل شحوبا
شيدتهن مصانعاً وصنائعاً انجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت في كل الفخار لغاية ادركتهن وما مسسن لغوبا
فانعم بملكك فيه دام موقراً تجني به فنن النعيم رطيبا

ولما اكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطويق حلته صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الاعيان والاكابر فقدم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وافرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز مالم يعهد من قبل ولكن دالت الايام وامر السلطان اسماعيل ابن الشريف بهدم البديع عام تسعة عشر ومائة والف فهدمت معالمه و بدلت مراسمه وغيرت محاسنه وفرق جموع حسنه وعاد حصيداً كأن لم يغن بالامس حتى صار مرعى للمواشي ومقيلاً للكلاب ووكراً للبوم وحق على الله مارفع شيئاً من الدنيا الا وضعه ومن العجائب انه لم تبق بلد بالمغرب الا ودخلها شيء من انقاض البديع

٭٭٭

اما قصر ساروية فان القليل الذي ظفرنا به من وصفه لا يشفي غلة قال الاصفهاني انه في سنة خمسين وثلثمائة تهدم من البنية المسماة ساروية في داخل مدينة جي جانب منه وظهر عنه بيت فيه نحو خمسين عدلاً من جلود مكتوبة بخط لم ير الناس قبله مثله فلا يدرى متى اخرز ذلك في هذه البنية وسئلت عما اعرفه من خبر هذه الصنعة العجيبة البناء فاخرجت الى حضرة الناس كتاباً لابي معشر المنجم البلخي مترجماً بكتاب اختلاف الزيجة و يقول فيه : ان الملوك بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر واشفاقهم عليها من احداث الجو وآفات الارض ان اختاروا لها من المكاتب اصبرها على الاحداث وابقاها على الدهر وابعدها من التعفن والدروس لحاء شجرة الخدنك ولحاؤه يسمى التوز و بهم اقتدى اهل الهند والصين ومن يليهم من الامم في ذلك واختاروها ايضاً لقسيهم التي يرمون عليها لصلابتها وملاستها و بقائها على القسي غابر الايام فلما حصلوا لمستودع علومهم وجود ماوجدوه في العالم من المكاتب طلبوا لها

من بقاء الارض و بلدان الاقاليم اصحها تربة واقلها عفونة وابعدها من الزلازل والخسوف واعلكها طيناً وابقاها على الدهر بناء فانتفضوا بلاد المملكة و بقاعها فلم يجدوا تحت اديم السماء بلداً اجمع لهذه الاوصاف من اصبهان ثم فتشوا عن بقاعها فلم يجدوا فيها افضل من رستاق جي ولا وجدوا في رستاق جي اجمع لما راموه من المواضع التي اختط من بعد فيه بدهر داهر مدينة جي فجاؤوا الى قهندز (قصر) وهو في داخل مدينة جي فاودعوه علومهم وقد بقي الى زماننا هذا وهو يسمى سارو يه ومن جهة هذه البنية درى الناس من كان يأتيها وذلك انه لما كان قبل زماننا هذا سنين كثيرة تهدمت من هذه المصنعة ناحية فظهروا فيها على ازج معقود من طين الشقيق فوجدوا فيه كتباً كثيرة من كتب الاوائل مكتوبة كلها على لحاء التوز مودعة اصناف علوم الاوائل بالكتابة الفارسية القديمة فوقع بعض تلك الكتب الى من عني به فقرأ فوجد فيه كتاباً لبعض ملوك الفرس المتقدمين يذكر فيه ان طمهورث الملك المحب للعلوم واهلها كان انتهى اليه قبل الحادث المغربي الذي كان من جهة الجو خبره في تتابع الامطار هناك وافراطها في الدوام والغزارة وخروجها عن الحد والعادة وانه كان من اول يوم من سني ملكه الى اول يوم من بدو هذا الحادث المغربي مائتان واحدي وثلثون سنة وثلثمائة يوم وان المنجمين كانوا يخوفونه من اول ابتداء ملكه تعدي هذا الحادث من جانب المغرب الى مايليه من جوانب المشرق فامر المهندسين بايقاع الاختيار على اصح بقاعه تربة وهواء فاختاروا له موضع البنية المعروفة بسارو يه وهي قائمة الساعة داخل مدينة جي فامر ببناء هذه البنية الوثيقة فلما فرغ له منها نقل اليها من خزانته علوماً كثيرة مختلفة الاجناس فحولت الى لحاء التوز فجعلها في جانب من تلك البنية لتبقى للناس بعد احتباس هذا الحادث وانه كان فيها كتاب منسوب الى بعض الحكماء المتقدمين فيه سنون وادوار معلومة لاستخراج اوساط الكواكب وعلل حركاتها وان اهل زمان طهمورث وسائر من تقدمهم من الفرس كانوا يسمونها سني وادوار الهزارات وان اكثر علماء الهند وملوكها الذين كانوا على وجه الدهر وملوك الفرس الاولين وقدماء الكلدانيين وهم سكان احوية من اهل بابل في الزمان الاول انما كانوا يستخرجون اوسط الكواكب من هذه السنين والادوار وانه لما اذخره من بين الزيجات التي كانت في زمانه لانه وسائر من كان في ذلك الزمان وجدوه اصوبها كلها عند الامتحان واشدها اختصاراً وكان المنجمون الذين كانوا مع رؤساء الملوك في ذلك الزمان واستخرجوا منها زيجاً وسموه زيج

شهر يار ومعناه بالعربية ملك الزيجات ورئيسها فكانوا يستعملون هـذا الزيج دون زيجاتهم كلها فيما كان الملوك يريدونه من معرفة الاشياء التي تحدث في هذا العالم فبقي هذا الاسم لزيج اهل فارس في قديم الدهر وحديثه وصارت حاله عند كثير من الامم في ذلك الزمان الى زماننا هذا ان الاحكام انما يصح على الكواكب المقدمة منه والى ههنا حكاية الفاظ ابي معشر في وصف البنية القائمة الاثر باصبهان وابو معشر انما وصف آزجاً من آزاج هذه البنية انهار منذ الف سنة اقل او اكثر فعبر منه الى زيج شهر يار فاما الذي انهار في سنة خمس (خمسين ؟) وثلثمائة من سنة الهجرة فازج آخر لم يعرف مكانه لانه قدر في سطحه انه مصمت الى انهار فانكشف عن هذه الكتب الكبيرة المكتوبة التي لا يهتدي الى قراءتها ولا خطها يشبه شيئاً من خطوط الامم وفي الجملة ان هـذه البنية احدى الآيات القائمة ببلاد المشرق كما ان بنية مصر المسماة الهرم احدى الآيات القائمة ببلاد المغرب اه

345

بعض معامل الدولة (١)

شاهدنا في دار صنع المدافع (الطوبخانة) في الاستانة صنع المدافع الجبلية من عيار ٧،٥ السريع المرمى على الاصول الالمانية الحديثة وهذا النوع هو اقوى من النوع الفرنسوي · وشاهدنا صنع مدافع الصحراء وهي من عيار ٧،٥ ايضاً اقوى من المدافع الجبلية واسرع منها تطلق في الدقيقة ٣٠ قنبلة ترمي الى مسافة ٨٠٠٠ متر · وشاهدنا صنع (مدفع او بس) وهو من عيار ١٢ واثقل من المدافع الجبلية ومدافع الصحراء وهذا من الاختراعات الحديثة الطراز وهذا المدفع يدار لكل جهة من الجهات وهو خاص بالتخريب · وشاهدنا مدفع البومبه او القذائف وهو من اختراع رجالنا اخترعوه جديداً لاطلاق القنابل المفرقعة وهو يرمي الى مسافات بعيدة تنفجر قنبلته وتدمر كل ما تجده بطريقها وكان لهذا الاختراع اعظم تأثير في حربنا الحاضرة · وشاهدنا مسدساً من اختراع رجالنا ايضاً وهذا المسدس يطلق رصاصة تخينة تضيء ضوءاً كهربائياً لاجل رؤية العدو عن مسافة بعيدة وكان لهذا الاختراع ايضاً نفع كبير في حربنا الحاضرة وهو من المخترعات المدهشة · وشاهدنا مصانع القنابل (الـكلل) وصبها من جميع العيارات حتى من عيار ٣٠،٥ التي ثقل قنبلتها ٧١٢ اقة · ورأينا مصانع المارتين الحديث الطراز بقطر ٥٦ مع التعديل التام ومسافة مرماه كمسافة الموزر الالماني

وشاهدنا الغنائم التي غنمتها دولتنا العلية من (الانكليز والفرنسيس) وهي مدافع المترائيوز تحول الى طراز تكون به صالحة لاستعمال الرصاص العثماني · ومنها البنادق (ليئن فيلد) وهو من غنائم الانكليز وبنادق (لوبل) وهو من غنائم الفرنسيس فقد كانت هذه الغنائم تتحول الى اسلحة عثمانية وتعاد الى دار الحرب ، ليقاتل جيشنا الاعداء بنفس اسلحتهم · ثم شاهدنا دوائر خاصة لصنع الاخشاب وما يلزم الاسلحة من هذا النوع وكل هذه المصانع تدار بالكهرباء

يحتوي معمل الاسلحة والقذائف والقنابل في زيتون بورني على عدة مصانع ودوائر أول دائرة دخلها وفدنا هي دائرة عمل الرصاص (الخرطوش) الخاص بالمارتين والموزر

(١) من محاضرة لصاحب الاقبال القاها في مسرح زهرة سورية في بيروت

فشاهد محلات صنع الظروف النحاسية وصب الرصاص وصقلها وملئها بارودا وتركيبها ثم صقلها ثانياً ثم طبعها بالمكنات الحديدية وارسالها الى الموازين الخاصة توضع في محل تمر على ميزانين فاذا كان عيارها تاماً او ناقصاً تسقط كل منها في المحل المعد له وهكذا يوضع صحيح الوزن في علب خاصة وترتب ترتيباً للارسال الى دار الحرب . يصنع المعمل يومياً زهاء نصف مليون رصاصة اذا اشتغل نهاراً واذا اشتغل ليلاً تتضاعف الكمية . وشاهدنا ايضاً معمل صب المدافع الرشاشة (شرابنل) وهذه اشهر المدافع الحديثة المدمرة التي لها التأثير العظيم في الحرب

وشاهدنا تذويب الفولاذ لصب القنابل المتنوعة العيار وقد صب امامنا في قوالبها الخاصة من عيار ١٥ و ٢١ و ٢٤ ثم اخرجت من قوالبها وارسلت الى الصقال كما اننا شاهدنا محل الصقال واملاء هذه القنابل والقفل عليها بصورة تدهش الرائين وشهدنا صنع البارود وصنع الكبسول وما يلزم ذلك لتركيب الاشياء المدمرة يشتغل في هذا المعمل زهاء خمسة آلاف عامل بينهم ٥٠٠ بنت تشتغل في عمل الرصاص . و يصرف على العمال يومياً ما يقارب الفاً وخمسمائة ليرة كما ان معمل الطوبخانة العامرة يحتوي على هذا المقدار تقريباً و يصرف مثل هذه النفقة

أنشئت الاحواض في دار الترسانة (دار الصناعة) العامرة في زمن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان وزادت انتظاماً و بهجة تدريجاً حتى وصلت الى الدرجة المطلوبة التي تستوعب اكبر باخرة او بارجة للانشاء او التصليح . وتملأ هذه الاحواض وتفرغ ٦٠ طناً في الدقيقة بالآلات الكهربائية . وشاهدنا تصليح الحديد مهما كان ثخيناً فانه كان يقطع و يثقب بقليل من الزمن بواسطة الآلات الكهربائية . وشاهدنا آلة من صنع ضباطنا البحريين وهي من اعجب الآلات الحديثة صنعت لرمي القذائف الديناميتية لمحو الاعداء . وشهدنا مصنعاً لعمل القوالب الترابية الخاصة لتذويب اصناف المعادن الحديدية والفولاذية ومعملاً لصنع المرميات ومحلاً لتوليد الكهرباء على احدث الطرق العصرية . وشهدنا معمل طوربيد وهو عبارة عن هيئة محكمة من نحاس بطول مترين وسماكة ٥٠ سنتيمتراً محشواً من القذائف المهلكة يرسل بالآلات الكهربائية تحت الماء فحين وصوله الى دارعة مهما كانت ضخامتها ينفجر وتهوي تلك الدارعة الى اسفل الماء . شاهدنا هذا الاختراع العجيب يعمل في معامل الترسانة العامرة كما اننا شاهدنا ايضاً معملاً جسيم البناء مفرزاً على حدة وهو للاعمال الخشبية

الحديثة الاختراع ومحلاً لعمل قوالب خشبية لاجل تعليم العساكر الفنون البحرية ومحلاً لعمل قوالب مختلفة يدوية وغيرها لاجل التخريب مملوءة بالديناميت غير المؤذي لان هذه القوالب مصنوعة لتمرين الجنود على الفنون الحربية البحرية

انشئ معمل الثياب في زمن الحرب على طراز جديد وهو يشتمل على طابقين فيهما عدة غرف مستطيلة الشكل خاصة بخياطة الاثواب العسكرية . شاهد فيه الوفد الآلات الحديثة التي تدار بواسطة الكهرباء وفيه زهاء الف ومائتي عاملة من سن ١٢ الى سن ٥٠ ينجزن يومياً ثلاثة آلاف بدلة عسكرية مع مايلزمها . ورأى في معمل الطربوش القديم (فسخانه) الذي اسسه ساكن الجنان السلطان عبد الحميد خان في محلة ابي ايوب الانصاري (رضي الله عنه) وهو يحتوي على الابنية العظيمة الجسيمة معامل لصنع المنسوجات اللازمة للجيش المظفر وشاهد فيه الصوف يوضع في ماكنات الغسيل فيغسل و ينظف ، ثم ينشف بالآلات الخاصة ، ثم يندف وينعم ، وكل ماكنة تصنع يومياً ٢٠٠ اقة ومنها يوصل الى ماكنات الفتل فيفتل خيوطاً فيحاك اقمشة من الجوخ .

وتصنع هذه الماكنات يومياً من ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ متر من الجوخ حسب جنس الصوف ونعومته . وقد شاهد فيه عدة اصناف من الاجواخ الجميلة وبه نوع من الجوخ الجيد لا يميز عن الحرير لنعومته ولطافة حياكته . وشاهدنا تفصيل الالبسة العسكرية بوضع مثلاً عشرة طاقات من الجوخ و بقطع بمقراض الكهرباء فيخرج عشر تفصيلات وقد تجلى لنا حينما شاهدنا هذا المقراض سر سرعة الرخص الذي تقوم به معامل اوروبا . وشاهد صنع الحرامات والبطانيات فيصنع يومياً ٥٠٠ حرام للجيش و ٧٠ بطانية للمستشفيات

وشاهد صنع الجوارب فيصنع يومياً ٢٠٠٠ زوج الى الجيش ، وهناك محل خاص لصبغ الصوف والاقمشة وكل ما يلزم لتلوينه من الانواع الاخرى . وجميع الماكنات الموجودة تدار على البخار والكهرباء بسرعة تفوق الحد

وانشئ معمل الدباغة والاحذية في زمن ساكن الجنان السلطان محمود خان ثم احترق وجدد في زمن ساكن الجنان السلطان عبدالعزيز خان ووسعت دوائره واستحضر له عدة آلات حديثة في زمن مولانا السلطان الغازي محمد رشاد خان نصره الله

وشاهد الوفد في هذا المعمل المهم ادخال جلود الجاموس والبقر والغنم الى مكان

القشط بحيث ينزع منها الصوف فتغسل وتنظف وترسل الى مكان الدباغة فيوضع لها مايلزم من اجزاء الدباغة وتترك ساعات ثم ترسل الى ماكنات التجفيف على البخار فتجف حالاً ومنها تدخل في مكنات ترقيق الجلد وتسويته ثم الى ادوات الصقال ثم الى غرف الدهن والصباغ فتصبغ من الالوان كافة وتصبغ هذه المكنات في كل يوم ٥٠٠ من جلد البقر والجاموس و٥٠٠ من جلد الغنم ثم تدفع الى دوائر التفصيل وعمل الاحذية فتفصل هذه الجلود بالآلات القاطعة الكهربائية

وهناك دوائر الاحذية (الجزمات والكنادر) فقسم من العملة تجمع الجلود المفصلة وقسم تجمع الجلد والنعل وقسم تصنع المسامير وكل منها يوضع في المكنات التي تتحرك بالكهرباء بغاية الدقة والضبط و باسرع ما يمكن من الزمن يتحول الى جزمات واحذية حسب اللزوم . هذا الى دائرة خاصة لعمل الاحذية ذات نعال من الخشب وهذه الاحذية تصنع خاصة لاجل الجيش في زمن الحرب وايام البرد للمحافظة عَلَى الصحة . وفي المعمل من العملة زهاء ١٨٠٠ عامل من افراد العساكر فينجز يومياً (١٠٠٠) قطعة من الجزمات والاحذية

وأنشئت دار اللوازم العسكرية في (آخور قبو) في استانبول في زمن ساكن الجنان السلطان محمود خان وكانت اذ ذاك تكنة عسكرية وجعلت بعد الانقلاب معملاً عظيماً للخياطة وفيها مصنع لتوليد الكهرباء على البخار ومصنع على الماء ومحل خاص (كالمدرسة) لتعلم بعض افراد الجند فن الخياطة . وفيها يجري تفصيل صنف اللباس والقميص الخام ، وصنف الكبوت والمعاطف (الجوكتة) والسراويل (البنطلونات) فينجز يومياً من خمسة آلاف الى ستة آلاف قطعة . وهناك الغرف التي تخاط فيها الخيام على انواعها وقماش هذه المضارب الخام والكتان هو من حياكة ومعمولات معملي ازميت وطرسوس هذا الى غرف خاصة لتصليح الاتوموبيل يوجد بها كل الماكنات الحديثة للتصليح وتصب ايضاً الادوات الحديدية والفولاذية الخاصة بآلات الاتوموبيل في نفس هذا المعهد الذي يحوي ٥٦٠ ماكنة تدار بالقوى الكهربائية ومن العملة على ١٢٠٠ عامل من افراد الجند و ٦٠٠ امرأة تشتغل في المعمل ، كما ان هذا المعمل يشغل مئات من حريم الفقراء في بيوتهم

اما معمل الاجواخ في ازميت فهو من مؤسسات ساكن الجنان السلطان عبدالمجيد خان اهمل زمناً طويلاً ثم اعيد فتحه في عهد مولانا السلطان الغازي محمد رشاد خان ،

347

وجعل من اعظم المؤسسات الصناعية وفيه خمسة احواض حديدية على احدث طراز لاجل غسل الصوف ثم ماكنات التجفيف والتنظيف من الاوساخ والتراب ثم يندف الصوف و يعمل خيوطاً فيحاك اقمشة فاخرة ثم يرسل الى ماكنات تنظيف الاقمشة من الزوائد وغسلها وتنظيفها من الزيوت وغير ذلك ثم تجفف وتجمع فترسل الى ماكنة مخصوصة لازالة الغبار من المنسوج ثم الى الطي والكبس فيخرج حينئذ جوخاً لطيفاً و يوجد فيه ماكنات للصباغ من جميع الالوان ، واداة خاصة لاجل مزج الصوف الابيض بالاسود ليكون بهيئة واحدة وماكنات حديثة لاصلاح الادوات الحديدية والخشبية اذا احتاج المعمل لاصلاحها . وفيه من العملة ٥٠٠ عامل من افراد الجند

ومعامل هركه من مؤسسات ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان وكان يزاد في نطاق توسيعها وانتظام ادارتها في كل دور من الادوار حتى اصبحت تضاهي المصانع العظيمة . وهذا المصنع مشهور بعمل السجاد الفاخر على اختلاف انواعه وفي غرف السجاد الموجود فيها مئة وعشرون نولاً للصوف والحرير يشتغل عليها العاملات بكل جد ونشاط وهناك مكنات خشبية لصنع الشريط الحريري المختص بانواع الاوسمة التي تحسن بها الدولة العلية . وماكنات لصنع الاقمشة الحريرية الفاخرة من جميع اصنافها وهذه الاقمشة على غاية من الدقة بل تضاهي اقمشة اوربا وتفوقها حسناً ورونقاً . ومصانع لعمل قمصان الفانلا والجوارب والزنانير ودائرة خاصة لاجل صباغ الاصواف والحرير من كل انواعه ومعمل الطربوش بكل اصنافه . وقد حاز هذا المعمل ٩ مداليات من معارض عديدة في اوربا تقديراً لما فاق به غيره من الابداع في العمل والاتقان في الاشغال .

أسست دار الضرب العامرة في زمن ساكن الجنان السلطان احمد الثالث واضيف عليها دوائر عديدة في زمن ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان واخذت بالتنسيق حتى اصبحت على ما هي عليه الآن من السرعة والانتظام . فاول ماشاهد الوفد فيها غرف التحليل والتركيب بحيث تكون العيارات الذهبية والفضية طبق التعديل المطلوب . ثم تذويب الذهب في الافران وفي القوالب الخاصة المركبة من دقيق العظام ومعدانه وبان يصب في قوالب حديدية فتخرج سبائك بطول نصف ذراع وعرض ٥ سنتيمترات ثم ترسل الى ماكنة تمدها زهاء ثلاثة امتار فالى اخرى تصقلها وتمدها زهاء خمسة امتار حتى تصبح بسماكة الليرة وتسلم هذه السبائك بعد ذلك الى ماكنة تقطعها ليرات بدون نقش فتقطع كل سبيكة ما يعدل ٥٠٠ ليرة . ثم توضع هذه الليرات في محل خاص

فتسير على الموازين المعدة لها فالموزونة تسقط في محل والناقصة في محل والزائدة في محل آخر . ثم يؤتى بالموزونة تماماً فتوضع في آلة النقش فتنقش ليرة عثمانية وتسقط في محل خاص وهكذا في كل ١٥ دقيقة تنقش كل ماكنة ٥٠٠ ليرة عثمانية وهكذا الحال في النصف والربع ليرة ومثلها باقي النقود الفضية كالريال المجيدي والنصف والربع والعملة البيضاء (النيكل) كالقرش والنصف والربع . ولكل صنف من العملة ماكنة خاصة . وعامة هذه الادوات تدار بالقوة الكهربائية بغاية من السرعة

تصنع دار الضرب وتذوب كل يوم ٦٠٠ اقة من الذهب وقد صنعت في هذه السنة ثلاثة ملايين من الليرات . ويوجد في دار الضرب العامرة من المديرين والمعاونين ورؤساء العملة زهاء ١٢٠ عاملاً اه

هذه بعض احصائيات ساعد الوقت على التقاطها من الافواه اثناء زيارة الوفد العلمي ولعل فيها ماترتاح له النفوس ويخلد في سجل التاريخ ليرى الاولاد والاحفاد كم كان مبلغ الآباء والاجداد من المعالي والامجاد والحرص على سعادة البلاد والعباد . وهناك امور كثيرة يعد افشاؤها من الاسرار الحربية لايتسع لها كتاب وانما اجتزأنا بما يمكن الاشارة اليه واللبيب تكفيه الاشارة .

نبذة في وصف الاناضول(١)

عظمة بلادنا واتساعها

ينبغي لمن يريد ان يصف الاناضول او آسيا الصغرى ومساحتها السطحية خمسمائة الف وثلاثة آلاف كيلومتر مربع او نحو مساحة فرنسا ان يطوفها على الاقل كما طفنا جزءاً صغيراً منها في السكة الحديدية والمركبات وهذا لا يتيسر في اقل من بضعة اشهر على اقل تعديل ولا يرى الانسان مع ذلك الا الطرق العامة الموصلة بين الولايات . ولقد سألت كثيرين ممن طافوا ولايات كثيرة من كبار المأمورين عن مجموعة ما رأى

(١) من محاضرة لصاحب المقتبس القاها في نادي الاتحاد والترقي في دمشق

من ارض السلطنة فلم اسقط حتى الآن على رجل رأى الاناضول الشرقي والغربي كله مثلاً ولا على رجل جمع في ذهنه معرفة الشام والحجاز واليمن ونجد والعراق والجزيرة وذلك لترامي اطراف هذه المملكة المحروسة وقلة سككها الحديدية وطرقها المعبدة بالنسبة لمساحتها السطحية

كل ولاية من ولايات السلطنة تبلغ بمساحتها السطحية مساحة مملكتين صغيرتين من ممالك اوربا فمساحة ولاية اطنة قبل ان يفصل عنها لواء ايچ ايل (سلفكه) ٣٩٦٩٠٠ كيلومتر مربع وسكانها اقل من اربعمائة الف في حين تجد مساحة الدانيمارك ٣٨٦٨٠٢ كيلومتر وسكانها مليونان ونصف ومساحة هولاندا ٣٣ الف كيلومتر مربع وسكانها نحو خمسة ملايين ونصف ومساحة بلجيكا ٢٩٦١٥٦ كيلومتراً وسكانها زهاء سبعة ملايين . و بينا تجد مساحة ولاية قونية ١٠٢٦١٠٠ كيلومتر مربع وسكانها ١٦١٠٠٦٠٠٠ تجد مساحة جمهورية البرتقال ٩٢٦٣٤٦ كيلومتراً وسكانها خمسة ملايين ونصف ومساحة سويسرا ٤١٩٣٤٦ كيلومتراً وسكانها نحو اربعة ملايين فالمملكة العثمانية ينقصها والحالة هذه السكان العاملون والخطوط الحديدية والطرق السالكة .

آسيا الصغرى

يجتاز القطار بعد مدينة حلب قضاء كليس وهو المتاخم لولاية اطنة فيسير فيه نحو خمس ساعات علي ماقدرت فتأمل قضاء يقطعه قطار البخار بمثل هذا الزمن . اراضي كليس تشبه سهول مصر تربتها جيدة واشجارها مثمرة ولا سيما الزيتون الذي يزيد في بركتها .

متى اتيت على آخر عمل حلب واشرفت على سهل الاصلاحية من عمل اطنة يتجلى امامك جبل اللكام الذي يسمى اليوم جزء منه باسم جبل بركت او كاور طاغ وهو جبل شاهق كأنه حاجز طبيعي بين ارض الشام وآسيا الصغرى او حد بين بلاد العرب والثغور كما كانت العرب تطلق عليها هذا الاسم والثغور هي طرسوس واذنة وملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة (مسيس) او اكثر عمل ولاية اطنة اليوم وربما ادخلوا المصيصة وطرسوس في العواصم والعواصم هي حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية وقصبتها انطاكية كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الاعداء واكثرها في الجبال فسميت بذلك

بين فروق والشام

في هذا الجبل خرق القائمون بتمديد الخط البغدادي اكبر نفق في المملكة العثمانية وثامن نفق بطوله في العالم وهو نفق انتيللي طوله خمسة كيلو مترات وطول اكبر نفق في العالم وهو السمپلون ٢٠ كيلو متراً ويجيء بعده نفق سان غوتار وطوله اقل من ذلك وقد كتب لي الحظ بان ركبت في خط الديكوفيل اي السكة الحديدية الضيقة المرقتة ومررنا من هذا النفق في الليل مع رئيس وفدنا العلمي الاستاذ الشيخ اسعد الشقيري وثلاثة من رصفائي ارباب الصحف فقط فشاهدنا هناك عالماً يعمل كأنه الجن وقد جهزوه بآخر ما وصل اليه العلم الحديث في فتح الانفاق ونقريب الابعاد فنجده منارا بالكهرباء وفيه آلات لتجديد الهواء وانابيب لجر المياه وهم الآن يهذبون من حواشيه و يعقدونه بالحجارة

وهذه الشعبة من الخط البغدادي تنتهي بعد عشرة اشهر كما كان اخبرني المهندسون فيه فلا تبقى غير شعبة طوروس التي يعمل فيها الآن وتنتهي بعد سنة ونصف وعندئذ يتصل الخط البغدادي العريض المتقن من حيدر باشا من ضواحي الاستانة الى حلب فرأس العين والمسافة بين الشهباء ورأس العين ٣٢٨ كيلو متراً نجزت مؤخراً بمعنى ان الخط البغدادي من دار الخلافة الى بغداد يكون طوله قريباً من طول الخط الحديدي بين باريز والاستانة اي نحو ثلاثة آلاف كيلو متر والراكب يسير بين هاتين العاصمتين ثنتين وسبعين ساعة فيطوف قسماً من ارض فرنسا و بلاد سويسرا او المانيا وارض النمسا والمجر بطولها و بلاد البلقان والروم ايلي

فما اسعد اليوم الذي يركب فيه ابن ادرنة مثلاً و يصل الى بغداد او الى المدينة المنورة او مكة المكرمة ان لم نقل الى صنعاء في القطار الحديدي مرتاحاً مرفهاً

كان اجدادنا يجتازون المسافة بين دمشق والاستانة في ثلاثين مرحلة وسنجتازها قريباً في ثلاثة ايام او اقل فنقطع شطراً من ولاية سورية وولاية حلب وولاية اطنة وولاية قونية وشطراً من ولاية خداوندكار (بورصة) ولواءي اسكيشهر وازميد المستقلين ولكم يفتح هذا الخط للبلاد من ابواب السعادة والرزق و يقرب بين ابعادها و يعرف سكانها بعضهم الى بعض فنخلص من نقل حاصلاتنا على الجمال والبغال والحمير ومن ركوب العجلات المستطيلة المعروفة في الاناضول باسم يايلي وهي من صنع مدينة آماسية المعروفة في القديم بخرشنة او عجلات (تخته عربة) التي لا تبقي لراكبها عضواً لا تزعجه مهما كانت الطريق معبدة ٠

349

سألت صديقاً لي كان نصب قائمقاماً على قاش من اعمال انطالية من الوية ولاية قونية مدة حولين كاملين هل زرت مدينة قونية قال: كيف ازورها والمسافة على الراكب من قضائي وهو على ساحل البحر المتوسط الى قونية عشرون يوماً. وهكذا المسافات في الاناضول فان العشرين والثلاثين بل الاربعين والخمسين يوماً بين ولاية وولاية ولواء وآخر هي من الامور الغير المستهجنة والولاية السعيدة هي التي ارتبطت مع الولايات المتاخمة لها بطرق عجلات.

المملكة العثمانية تحتاج لمائتي مليون ليرة تنشأ فيها خطوط حديدية وطرق عجلات وتجفف البطائح والمستنقعات وتقام لها الخزنات وتطهر الانهار وتعدن المناجم وتغرس الغابات وعند ذلك لا تشكو ولاية اطنة من الغرق ولا ولاية قونية من الشرق ولا غيرها من غير ذلك وتكون بعمرانها ووفرة سكانها كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك وسويسرا والبرتقال.

قيلقية او مملكة ذو القدرية (١)

ولاية اطنة او قيلقية كما عرفها القدماء ذات شأن بموقعها الطبيعي والاقتصادي قدروا ماتخرجه من القطن فقط بمليونين ونصف مليون من الليرات وان قرية درت يول وحدها وسكانها ارمن بلغوا نحو خمسة آلاف نسمة باعت لاوربا في العام الذي قبل

(١) قال شمس الدين سامي في قاموس الاعلام: ذو القدرية دولة تركمانية صغرى ارتفع سلطانها في مرعش وحواليها منذ اواخر القرن الثامن للهجرة الى اواخر القرن العاشر مؤسسها ذو القدر زين الدين قرجه وكان احد رؤساء قبائل التركمان فاستولى سنة ٧٨٠ على مرعش ثم على البستان وافتتح ابنه خليل بك ملاطيه وخربوت وبهسني فوسع سلطان بيته وقد زوج اخوه وخلفه سولي بك احدى بناته من بايزيد احد ابناء السلطان محمد چلبي وزوج الاخرى من حاكم سيواس القاضي برهان الدين فاستحكمت العلائق بين هذه البيوت. ولقد استولى ايضاً على مملكة صاحب حماة وبعد ذلك حارب السلطان برقوق احد ملوك الجراكسة في مصر فخلع وقتل. وفي خلال ذلك كان تيمورطاش باشا مهتماً بفتح الاناضول فاستولى على مرعش وملاطيه وضمها الى الممالك العثمانية. مضى زمن ونصيرالدين محمد نسيب سولي بك وخلفه يقاتل جيش الملك المؤيد صاحب مصر ثم عقد معه معاهدة هجومية دفاعية وبفضل معاونة العسكر المصري له غلب حاكم قرهمان محمد بك واسره وقيده في قيد من حديد وبعث به الى

هذا ستين مليون برتقالة هذا الى ما فيها من الحبوب الوفيرة والحيوانات التي تنمو في سهل (چقوراوه) كما تجود الحيوانات في سهول المجر · والغابات فيها الكثيرة من الصنوبر والسنديان والزان وولاية من عملها جبل اللكام او طوروس وفيها من السهول التي دونها سهول حوران والكرك تحسدها الممالك وتغبطها على خيراتها كل امة عاقلة ولذلك طمع فيها الفاتحون منذ القديم ففتحها الفرس فالاسكندر فالرومان واصبحت ساحة حرب بين البيزنطيين والفرس ثم بين البيزنطيين والخلفاء العباسيين الذين فتحوها اوائل حكمهم وكانوا يختلفون اليها و يعنون باعمارها فاذنة بناها صالح بن علي العباسي والهارونية بناها هارون الرشيد العباسي وطرسوس اعمر مدن قيلقية في القديم والحديث غلب عليها الافرنج زمن بني امية الى ان اخذها منهم امير المؤمنين المأمون العباسي و بها مات وهو مدفون فيها كما دفن ابوه في طوس بخراسان ثم خرب ولاية اطنة جنكيز خان وتيمورلنك في القرون الوسطى ·

مصر ثم امده السلطان مراد خان الثاني فغلب حاكم قرەمان ابراهيم بك · واستولى على قيصرية وزار بعد ذلك مصر ونال انواع الرعاية · وخلفه ابنه سليمان وانتدب السلطان مراد خان الثاني سفراء من قبله وقد خطب اجمل بناته الخمس واسمها سيتي لابنه الشهزاده السلطان محمد خان · حكم بعد سليمان اولاده الاربعة على الولاء وهم ارسلان وشهسوار وشاه بوداق وعلاء الدولة · وتدخلت حكومة مصر لاسناد الامارة الى شاه بوداق فراجع بكوات البلاد ابا الفتح السلطان محمد خان فطردت العساكر العثمانية الشاه بوداق واجلسوا مكانه اخاه شهسوار وفر شاه بوداق الى مصر ثم عاد في العساكر المصرية وحارب اخاه شهسوار زمناً طويلاً ثم اقترح ملك مصر قيتباي على السلطان محمد خان ان يتخلى عن معاضدة شهسوار وتعهد بانه متى انتقم منه يترك بلاده للدولة العثمانية فغلب شهسوار بك واخذ الى مصر وصلب فيها وفي خلال ذلك كان السلطان محمد المشار اليه مشتغلاً في الروم ايلي فاغتنم اخو الامير المخلوع بوداق بك وهو من صنائع السلطان العثماني الفرصة واجلسه السلطان مكان اخيه ولم ينتدب السلطان محمد خان جنداً من قبله الا بعد عشر سنين فطرد شاه بوداق واقام مكانه اخاه علاء الدولة وقد بقي علاء الدولة حياً الى دور السلطان سليم ياوز خان ولما جاء الشاه اسماعيل الى تلك الاصقاع اسر ابنه وحفيده وطبخهما واكلهما (؟) وكان السلطان سليم خان خلال حملته على الشاه اسماعيل طلب من سليمان بك حاكم بوزوق واحد بكوات

مناظر ولاية اطنة كلها جميلة لانها سهلية جبلية ساحلية داخلية فيها من الانهار سيجان وجيحان وكوكصو ونهر البردان ومن الجبال سلسلة جبال طوروس الجسمية وشعبانه الجنوبية وجبال قوزان و بيك بوغا وآلا طاغ و بوغا طاغ وصوماق وكوسه وكلها تأخذ بمجامع القلوب لما حوته من البدائع الطبيعية ومن طرسوس الى بوزانتي نحو عشر ساعات في العربة ·

جبال طوروس

وهنا مضيق يسمونه اليوم (كولك بوغازي) ومعناه مضيق الكيلة كيلة الحبوب وكانت العرب تسميه الدرب او الدروب ذكره امرؤ القيس ملك الشعر في الجاهلية في شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو بن قميئة فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاجز بين بلاد العرب و بلاد العجم بكى جزعاً لفراقه بلاد العرب ودخوله بلاد العجم ففي ذلك قال امرؤ القيس :

ذو القدرية مقداراً من الجند الفرسان فامتنع عن تقديمها واخذ يضع العقبات في سبيل الجيش العثماني و يفيم المشاكل امامه ولما رجع السلطان سليم خان من حرب چالديران سنة ٩٢ ساعد سنان باشا على علاء الدولة فقتله وقتل اولاده واخاه واستولى على بلاده وعين علي بك بن شهسوار بك من سلالة ذو القدرية وكان في خدمته والياً وعلى هذا فان حكومة ذو القدرية قد امتدت من سنة ٧٨٠ الى ٩٢١ اي ١٤١ سنة وقوامها تسعة امراء واقيال وهاك تاريخ جلوسهم :

١	زين الدين قرجه	٧٨٠
٢	خليل بك بن زين الدين	٧٨٧
٣	سولي بك بن زين الدين	٧٨٨
٤	نصير الدين محمد بك بن خليل	٨٠٠
٥	سليمان بك بن نصير الدين	٨٤٦
٦	آرسلان بك بن سليمان	٨٥٨
٧	شاه بوداق بك بن سليمان	٨٧٠
٨	شهسوار بك بن سليمان	٨٧٢
	ثانياً شاه بوداق	٨٧٥
٩	علاء الدولة بن سليمان	٨٨٥

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

اما نحن فابتهجت انفسنا وايم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب وعلمنا اننا نركب بعده القطار ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لنبلغ دار الخلافة بهجة الدنيا وعاصمة الاسلام وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللطف و بلد الشعر والخيال · ان الدرب او مضيق (كولك بوغازي) هو كما قلنا واد تتخلله الانهار والجداول و يكسو شجر الارز نجاده ووهاده على صورة نظنها من هندسة اعظم مهندسي الزراعة لعهدنا وما هو في الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه انت لا تنفك منذ تطأ عتبة جبال طوروس تشم اريج شجرها ورندها وعرارها ولا تسأم من مناظرها لانها منوعة في نقاطيعها وجمال هندستها بحيث لا تمل العين النظر ولا الانف الشم ولا الاذن السماع لحفيف اشجاره وتمايل اغصانه وثغاء حملانه وخرير مياهه واصوات عندليبه وعصفوره

ان من يسمع من بعد وصف (كولك بوغازي) يقول في نفسه ما ذا عسى يكون في هذا المضيق وجبال الدنيا كثيرة متشابهة صخور وتلعات واكات ومنفرجات و بطون وشيح وقيصوم وسنديان وزان ولكن جبلنا هذا لا يشبه الاجبل بجالي لان مدبر الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال ولوّن صخوره واحسن قطعها فمنها الكبير الهائل ومنها الصغير الحقير وتربته حمراء وسوداء و بيضاء ترى تارة في الهضاب طرقاً معبدة من الصم الصلاب او مرصوفة بالتربة الذكية غرست فيها يد القدرة اشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بينها ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها واختلال هندستها وترامي ابعادها وهناك الاشكال الهندسية برمتها فمن تلعة مستطيلة الى اخرى هرمية و بجانبها ذروة ذات شكل بيضوي وآخر محدودب او مربع او قائم الزوايا او منفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة وكلها مزينة بالاشجار · انت هنا تجتاز وادياً ولا كالاودية بحيث تعطي الحق لمن قال في القديم ماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك ولو رأى القائل الدرب لقال مضيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هذه العظمة في الخلق التي تراها ماثلة على اتمها في جبال طوروس التي اعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين فكانت كالحاجز الطبيعي الذي لا يرام بين الثغور و بين بلاد الروم عامرة بطبيعتها هندسها الفاطر وحفها بانواع البهجة والزينة بحيث لا قلمها

نفس مهما اكتأبت وتود لو تقضي فيها شطراً من العمر بعيدة عن ضجة العالم واوهام الخلق وترهات المتمدنين والمتبربرين

جبال طوروس البديعة لقد اعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايقك كما اعجزت الشعراء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك فما هذا الابداع الذي عز نظيره في الاصقاع والبقاع . ايه يامنطقة البكم بالشعر ومعجزة المتكلمين في ذكرى فضائلك وفواضلك .

ان جبال الالب التي اسنبت الالباب ببدائعها وجبال الكاربات التي اشتهرت بصياصيها الطبيعية . وجبال حملايا المعروفة بسموها هي دونك في جمع كل هذه المعاني ولو هيأ لك ماتهيأ لتلك من يد صناع تحسن حواشيك وتهذب من اطرافك وتتعهد ازهارك واشجارك بآخر ما اهتدى اليه العقل البشري من ضروب الصناعة لكنت لعمر الحق مهد اجتماع المصطافين والمرتبعين ومسرح انس طلاب اللذائذ الطبيعية والصناعية وخزانة ثروة لاهلك لا ينضب معينها او تنضب مياه الرافدين دجلة والفرات ولكنه تعالى لايمنح بلداً كل ما يحتاجه ولا يجمع في شخص كل الصفات والمزايا فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

مصنوعات الاناضول

في ولاية اطنة صنائع لطيفة من الاقمشة والخام والالاجة والبسط وغيرها ولا سيما في مدينة طرسوس التي فيها معمل للخام انشأه رجل مصري اسمه محمد راسم بك فيه ١٢٠٠ عامل كما ان في ولاية قونية يصنع مثل هذه الصنائع وفيها يعمل السجاد وهاتان الولايتان تخرجان انواع الحبوب والثمار الطيبة ولا سيما الزيتون ومن ولاية قونية يصدر الافيون ايضاً والقنب ولكن معظم حاصلاتها من الحبوب فان سهولها واسعة جداً تشبه سهول بلاد العرب والجبال بعيدة عنها وحاضرتها قونية عاصمة ابن قرمان والسلاجقة ثم عاصمة ابن عثمان الاولى هي سرة الاناضول وعش التركية وما اظن نفوسها تتجاوز الخمسين الفاً قال القرماني : انها مدينة ذات خيرات كثيرة و بساتين وافرة ولها جبل ينزل منه نهر و يدخل البلد من غربيها و بها قبر جلال الدين الرومي الشهير بملا خنكار وقبر صدر الدين القونوي احد المشايخ الصوفية اه

و بينا تجد الابنية في صميم بلاد الاناضول من الطين واللبن تجدها في ولاية بروصة وما والاها من سواحل البحرين الابيض والاسود القريبة من الاستانة معمولة من

الخشب شأن اكثر بيوت دار الخلافة القديمة ولذلك ترى الحريق يسرع اليها ووصفها لا يوازي سرعة عطبها · ولكن القوم انتبهوا في العهد الاخير فاصبحت الدور التي تجدد وتعمر بالحجر والقرميد والحجر المطبوخ والآجر وغيره من المواد المتينة الجميلة على احدث طرز · يكثر العمران في الاناضول وتزيد مدنية السكان على نسبة قرب البلاد من البحر وقربها من دار الملك فكلما سهل الطريق الى الاستانة تزيد السعة ويتوفر التعليم فاهل ولايتي خداوندكار وآيدين ارقى بمراحل من اهل قونية وانقرة كما ان اهل سيواس وارضروم احط من اهل اطنة وطرابزون ولسرعة المواصلات اليد الطولى في ذلك فالولاية التي كتب لها ان تصدر حاصلاتها الى الخارج يأتيها النقد وتتكاثر همم سكانها وتتوفر على الربح فيتعلم بعض افرادها في المدارس الوسطى والعليا فيكونون رسل المدنية الحديثة · ومتعلم واحد في اسرة كبيرة كلها من الاميين يؤثر فيهم وينشلهم من جاهليتهم الجهلاء · والولاية المرتبطة بالساحل بخطوط حديدية تكثر السياحة في اهلها والسياحة مدرسة الكبار كما ان المدرسة للصغار

تحس النفس بانبساط عند ما تنتهي من ولاية قونية وتدخل في ولاية خداوندكار ولواءي اسكيشهر وازميت فان العمران هنا يبدو في السهل والجبل وتكثر الانهار والبحيرات والغابات ولا تقل فيما احسب جبال بروصة وازميد في عمرانها عن ارقى جبال الارض عمراناً والصنائع على هذه النسبة حتى ان مصنوعات بروصة الحريرية من اجمل ما حاكه نساج والطف ما طرزته يد صناع يجمع الى الرخص متانة وجمالاً فحبذا اليوم الذي نتعلم فيه درساً في الوطنية ونقتصر على مصنوعاتنا الخاصة ونزهد كل الزهد باقمشة اوربا ولا نلبس منها ولو اعطيناها مجاناً · بلادنا تخرج الصوف والقطن والحرير والقنب والكتان وغيرها من لوازم الاقمشة للدفء والزينة ومع هذا لا نزال متعلقين بما تصنعه لنا المعامل الغربية الغريبة ونزهد فيما تخرجه مصانع دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس الخ ان الثوب من الاقمشة الوطنية يكتسي به احدنا يكون عوناً لاسرة صانعه الذي تعيش بربحه اليوم واليومين فمن لي بان ارى كبراءنا وخاصتنا يبدأون اولاً ليكونوا قدوة فيلبسون وعيالهم من اقمشتنا الوطنية في الصيف والشتاء · ان جوخ ازميت وحرائر بروصة وقماش انقرة تكفي الآن لحاجياتنا وكمالياتنا فتبقى اموالنا في بلادنا وتنشط صناعنا فتكثر اليد العاملة من نسائنا ورجالنا ونخلص من البطالة فان رأس البطال معمل الشيطان ·

التقليد والاقتصاد

بعد الحرب ستزيد الدولة ولا شك الرسوم على البضائع الاجنبية فتحمي الصناعات الوطنية حماية حقيقية خصوصاً وقد خلصنا من شر الامتيازات الاجنبية واصبح الاجنبي يدفع من الرسوم مثل مايدفع الوطني ولا يحميه في الحقوق قنصله ولا ترجمانه فليت جمعية الاتحاد والترقي التي حمت الدستور حتى الآن بتضامن افرادها تصح عزيمتها منذ اليوم فتعاون الحكومة في هذا الشأن كما هو برنامجها وتبين للاهلين بالعمل مقدار الفوائد التي تنجم عن اقتصارهم على لبس الاقمشة الوطنية مهما كان نوعها كأن يشرع اعضاؤها وكل من ينتمي اليها وعامة المأمورين ونساؤهم واولادهم بلبس الخام والديما والالاجة والقطنية والحبر التي تعمل في المصانع العثمانية في ولايات الاناضول وسورية والعراق واليمن

والناس مفطورون على تقليد من يعتقدون فيهم العقل والذوق من رؤسائهم ومشايخهم وعمالهم كما ان المغلوب مولع بشعار الغالب في زيه ولباسه وسائر حالاته ونشاهد بيننا ان نلوي بوجوهنا عما يبعث لنا به الافرنج مهما ارخصوا بضائعهم ونستعيض عما يجلبونه لنا بما نصنعه بانفسنا وعندها نكثر المعامل بالادوات الحديثة في ارضنا ونكون بعد عشر او عشرين سنة كالفرنسيين امة زراعية صناعية فقد نخرت السلع الاوربية عظامنا وعرقت لحمنا وما ذلك الا من ضعف مداركنا في المسائل الاقتصادية التي بها حياة الامم اليوم ·

مسألة اللغة

رأيت في طرسوس واذنة امراً سرني وهو ان معظم اهلها يتكلمون باللغتين التركية والعربية مع ان بلادهم تركية على ماهو عرفنا فحبذا يوم نرى اهل العنصرين الكبيرين في هذه السلطنة يسيران على طريقة اهل طرسوس واطنة فيتعلم العربي التركية كما يتعلم العربية والتركي العربية على نحو مايتعلم التركية · قال احد كبار عمال السلطنة ممن تولى الولايات في بلاد الترك و بلاد العرب ان احسن حل لمسألة اللسان الاجتماعية ان يتترك العرب و يتعرب الاتراك اي ان يتعلم اهل كل عنصر لسان العنصر الآخر اذ لا مناص لكل منهما من هذا الامر فالعربية لسان دين الاسلام وتاريخ المسلمين والتركية لغة السياسة والادارة فاذا وفقت جمعية الاتحاد الى انفاذ هذه الخطة في الولايات جمعاء فتعلم العربي بعد اتقانه لغته التركية كما تعلم التركي بعد اتقان لغته العربية

تكون قد عملت عملاً معقولاً في باب سياسة العناصر العثمانية كما ان الواجب علينا اذا اردنا ان ننافس الغربي في صناعاته ومتاجره وعلومه ان يتعلم كل فرد منا لغة او اثنين من لغات العلم والمدنية وبعبارة اخرى الالمانية او الافرنسية او الانكليزية لغات الحضارة الحديثة لهذا العهد واكثر السن الامم انتشاراً

انا لم ار في الاناضول شيئاً يقال له عرب وترك بل رأيت اخواني الترك يقدسون ابن العرب و يتبركون به رأيتهم مثل قومي يقرون الضيفان و يحبون مكارم الاخلاق و يغلب عليهم التدين والتمسك بالفضائل والمناغاة بذكرى الآباء والاجداد رأيتهم لا يفرقون بين اهل الدين الواحد والعلم الواحد والتاريخ الواحد ولواضيفت الى هذه الحسنات معرفة اللسان العربي كما اضيفت الينا معرفة اللسان التركي لذهب كل مانتوهمه من فرق بين اكبر عناصر هذه السلطنة المحبوبة . ولعل رجال الحل والعقد يجعلون هذه القضية نصب اعينهم بعد الحرب فيوسدون امر المعارف الى اناس جبلت عليها نفوسهم وهضموا ماتعلموا وعرفوا من اين تؤكل الكتف لئلا يسيروا على قاعدة من جهل شيئاً عاداه . فاعظم بلايانا جهلنا واعظم انواع جهلنا ان يجهل احدنا من هو اخوه وما هو محيطه وزمانه اه

حرب القرن العشرين

دم صبغ الثري ام ارجوان　　وسد الافق سحب ام دخان
وشهب في الفضا انتشرت تهاوي　　كما انتثرت من العقد الجمان
وعرس ما تهادى الناس فيه ا　　لمسرة والهنا ام مهرجان
وحرب في السما والارض قامت　　لها سوق بها نفذ الطعان
اجل يوم تداعى الناس فيه　　لملحمة بها افتقد الجنان
فليس يرى بها الا دماء　　واعناق تقطع او بنان
واشلاء يفصلها حسام　　واكباد يخيط بها سنان

* * *

ارانا الهول لم يشبهه هول　　زمان ليس يشبهه زمان
فللحرب الزبون به اعتزاز　　ولكن فيه للسلم امتهان
به جبن الكمي كما تسامى　　على البطل الكمي به الجبان
وافحم خطبه البلغاء حتى　　جفا اللسن البليغ به البيان
وعدن به الاوانس من قواف　　اوابد لا يراض لها حران
وكم هجر الصهيل به حصان　　ومزقت الحجاب به حصان
وفي الغبراء قامت معمعان　　وفي الخضراء قامت معمعان
وجن الناس في طعن وضرب　　كأن الناس ليس لهم جنان
وقد الفوا لظى الهيجاء حتى　　كأن لظى معاركها جنان
ونصل السيف تصقله قيون　　لهم كالعود تجلوه القيان
كأن الحرب معبود فنسز　　له الخطي والعضب المدان
كأن معارك الهيجاء مصلي　　وهمهمة الرجال بها اذان

* * *

ولاذ المالكون بسفن جو　　وماء تستسر وتستبان
وفيها الانس قد برزت لانس　　وفيها قد سطا بالجان جان

وفي رهج الكفاح الشمس غابت ... وفي البارود غاب الزبرقان

* * *

نلاعب في كلٍّ ونهىً وهام ... قناً وظبيٍ والحان وحان
كأن نفوسنا اكر دحاها ... لعبث في الفضاء الصولجان
زمان كل ما فيه هزال ... خلا ان الخطوب به سمان
هوان كل عيش فيه حتى ... هوانا والهواء به هوان
كأن له ديوناً ليس تقضى ... وانفسنا عليَّ الدين الرهان
نقاد لحكمه طوعاً وكرهاً ... وما غير الهوان لنا عنان
وللعقل الذكي به اعتقال ... وللمال الصفي به احتجان
ويخطئ قصده ذو اللب فيه ... ويدرك ما يحاوله الهدان (١)

* * *

وبكر للحوادث جاء فيها ... لها بنفوسنا حرب عوان
فلم تر قط عين الدهر حرباً ... تماثلها ولا بصر الزمان
عجائبها تطيش بها عقول ... وهن بكل حادثة رزان
فدع اثراً يكذبه عيان ... وخذ خبراً يصدقه العيان
اذا خاض الوغى ذب وحوت ... ونسر قل متى يلفى الامان
تفاني الناس ارهاقاً وقتلاً ... ومن هذين لم يخل مكان
وكم عطف (الهلال) على البرايا ... وما اجدى التعطف والحنان
بدا بدراً ومذ ساموه نقصاً ... تعطف مثل ما انعطف السنان

* * *

تألبت الملوك على مليك ... تدين له الملوك ولا يدان
وان تعاون الاملاك جهل ... على ملك بخالقه يعان (٢)
سرت بفيالق (الحلفاء) روح ... بها ضعف العدو وما استكانوا
ذروا (للاتفاق) هشيم جمع ... كما يذري على الريح الدخان
تبدد شملهم تبديد عقد ... تبدده الولائد والحسان
اذا جهلوا لسان الحرب يوماً ... فما غير البنادق ترجمان

(١) الجاهل (٢) البيت لابي العلاء المعري

وللالمان فيها معجزات بحكم ايها الدنيا تزان
لهم فيها كما في العلم نجم له في كل محمدة قران
مشوا فيها بكل قريع حرب يخف اذا مشى فيها ابان
لقد رضعوا ثدي الحرب حتى كأن دم الكماة لهم لبان
اذا خفقت بنود في الثريا فنسرهم هناك له معان
فسل فالكاربات تجبك عنهم بانهم الجحاجحة الرزان
وفي فرسوفيا نبأ عظيم لهم تروي به آلس والقان
وهل انفرس كانت في الصياصي من الالمان حوزتها تصان
اذا نزل القضاء فلا حصون مشيدة تفيد ولا حصان
ولولا بأسهم لم يرو راو عجائبها ولم ينطق لسان
واصدق ما روى عنها لسان المدافع والمثقفة اللدان
كأن حصونها كانت كعاباً محجبة ففارقها الصيان
مشوا والموت في حلف وثيق وتدمير الحصون له ضمان
اسلمهم علوم واقتصاد وحربهم فتوح واضطغان
ام التمسوا الامان من المنايا وشتان المنايا والامان
فخاضوا الحرب وهي لهم سلام وشبوا النار وهي لهم جنان

* * *

اعصر (الكهرباء) حفظت عهداً ولكن فيه اهل العصر خانوا
اضأت لهم طريق العز عفواً فهانوا اذ بغايته استهانوا
اتلك نتائج (العشرين قرناً) فنون للفناء بها افتنان
اذا ترضي به توراة موسى وانجيل ابن مريم والقران

* * *

وكم بسياسة الغربي اضحى لاهل الشرق في الغرب افتتان
وما هي لو وعوا الا خداع وكذب او رياء او دهان
اذا لان السياسيون قولاً فما لان الفعال ولا استلانوا
روى التاريخ اهوالاً ولكن كهذي الحرب لم يرو الزمان

النبطية (جبل عامل) : سليمان ظاهر

مخطوطات ومطبوعات

الرحيق المختوم
في المنثور والمنظوم
تأليف السيد محسن الحسيني العاملي
طبع في المطبعة الوطنية بدمشق سنة ١٣٣٢
ص ٤٢٦

هو كتاب حوى شعر هذا المؤلف ونثره قدم له مقدمة في منافع الشعر قال فيها: انه صيقل الاذهان وزينة الانسان وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشعر واستنشده وارتاح له واجاز عليه وعفا عن المجرمين بسببه ونظم امير المؤمنين عليه السلام من الاشعار ماهو مشهور معلوم في كتب السير والآثار وان كان الديوان المنسوب اليه لم يصح كونه من نظمه بل علم كون بعضه ليس من نظمه عليه السلام ونظم غيره من الصحابة ايضاً كما نظم العلماء والفضلاء وحسبك بالسيدين المرتضى والرضي رضي الله عنهما وما لهما من جلالة القدر والمكانة العظمى في العلم وديوان الرضي مشهور وديوان المرتضى في عدة مجلدات ... وورد في اخبار اهل البيت عليهم السلام من الحث والثواب على رثائهم ومدحهم بالاشعار ماهو مشهور الى غير ذلك مما يدل على ان الشعر معدود في الفضائل ..

ومن شعر المؤلف الشاعر في القطار الحديدي:

مرت بنا تقطع الغيطان والاكما   تسابق الريح مهما هب او نسما
بزلاء ليس لها رحل ولا قتب   ولا زمام ولا شدوا لها حزما
من السوابق في المضمار ما حملت   سرجاً ولا مضغت في دهرها اللجما
تخب طوراً وطوراً سيرها رمل   وتارة تسبق السيل الذي دهما
ذلولة المتن تسري طوع سائقها   بلا شعور ولم تفهم له كلما
يغدو القريب بعيداً اذ تفارقه   واذ تؤم بعيداً يغتدي امما

355

تغدو بقطر وتمشي في سواه وفي ... سواها لمراسيها الصباح رمى

عجماء ناطقة صماء سامعة ... فاعجب لعجماء تحوي السمع والصمما

من الجماد غدت لكن سرعتها ... نظيرها في ذوات الروح ما علما

ومن حديد لقد امست محجتها ... وجسمها من حديد عاد ملتثما

تطير مسرعة من غير اجنحة ... تمشي وما استعملت في سيرها قدما

تمشي على عجل مشياً على عجل ... كأنها السيل من فوق الزبى هجما

تظن غضبى وما ان مسها غضب ... وذات داء وما ان صادفت الما

تطبق الارض من اصواتها زجلاً ... ولم تكن حركت عند الصراخ فما

والماء في جوفها تغلي مراجله ... والنار قد الهبت من تحته ضرما

وللبخار غدا في جوفها زجل ... وجوفها ابداً منه اقد فعما

تظل تزفر ان جد المسير بها ... وقلبها يقذف النيران والحمما

كأنها ملئت غيظاً او احتملت ... غماً وما عرفت غيظاً ولا غمما

تنساب كالافعوان الصل صادفه ... من يختشيه فولى عنه منهزما

ما ان رأينا جبالاً قبلها قطعت ... كالبرق عرض الفلا تستصغر الهمما

ان فارقت منزلاً او قاربته غدت ... تصيح معلمة من لم يكن علما

وقال في الحكم والمواعظ :

لعمرك ليس العلم بالفرو والقبا ... وبالكم في عرض السموات والارض

وبالعذب المسدول تحت عمامة ... تسد فضاء الجو بالطول والعرض

ولا باشارات الاكف كأنما ... يدير بها الافلاك في البسط والقبض

ولكنه قلب حفيظ ومسمع ... سميع وطرف قد جفا طيب الغمض

اذا لم يزن علم الفتى بتواضع ... وعقل وحفظ للنوافل والفرض

فللجهل خير للفتى من علومه ... اذا لم تكن يوماً الى عمل تفضي

وهذا الديوان يدور كسائر الدواوين او اكثرها على المديح والتقريظ والغزل والنسيب وعلى الشيب والتهاني والمراسلات والعتاب والرثاء والحماسة والحكم والمواعظ والآداب والمناجاة وشكوى الزمان والهجاء والصفات والمعميات والالغاز والملح والتاريخ والحنين الى الاهل والاوطان · ومنثوره مسجوع كنثر اهل القرن الحادي عشر والثاني عشر ينظر فيه الى الالفاظ اكثر من المعاني · وقد ختم ديوانه بترجمة حاله بنفسه ترجمة مطولة

ذكر فيها عائلته ومنشأه واساتذته واجازاته وما مدح به من القصائد فجاءت وحدها في ٦٦ صفحة . ومعظم الديوان يدور في الحقيقة على مدح الرسول وآل البيت وائمة الشيعة كأنه قصد المؤلف الثواب على ذلك

البعثة العلمية
الى دار الخلافة الاسلامية
تأليف محمد كردعلي صاحب المقتبس ومحمد الباقر صاحب
البلاغ وعبد الباسط الانسي صاحب الاقبال
وحسين الحبال صاحب ابابيل
طبع في المطبعة العلمية في بيروت سنة ١٣٣٤
— ١٩١٦ ص ٢٩٦

ارتأت الحكومة في السنة الماضية ارسال وفد من علماء سورية وفلسطين ووجهائها الى دار الخلافة ليزوروا جناق قلعة و يشاهدوا ماأتاه ابطال العثمانيين من الخوارق في الدفاع عن شبه جزيرة كليبولي الذي هو في الحقيقة دفاع عن الاستانة نفسها فسافر الوفد مؤلفاً من ٣١ رجلاً وفيهم كثير من المفاتي والفقهاء والشعراء وارباب الصحافة اختار بعضهم احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع المخيم في ربوع الشام وناظر البحرية و بعضهم انتخبته الولايات ووقع الاختيار على الشيخ اسعد الشقيري رئيساً للوفد لكفاءته العلمية وتفرده بالخطابة في اللغتين العربية والتركية فقضى الوفد شهرين في الذهاب والاياب والمقام في دار السلطنة ودار الحرب وقرر ارباب الصحف المومأ اليهم برئاسة رئيس الوفد ان يؤلفوا رحلة يذكرون فيها ما لقيه الوفد من العناية وما شاهد من عظمة الدولة وقوتها وقوة الدفاع في جناق قلعة وما تأثرت به نفوس الخطباء والشعراء من افراده وفاض على السنتهم نثراً ونظماً وما اقيم لهم من المآدب ودار فيها من الخطب . وقد عهد ارباب الصحف الى صاحب المقتبس ان يؤلف هذه الرحلة فنسجها ونشرت وقد اوردنا في هذا الجزء نموذجاً منها مقالة بعض معامل الدولة ونبذة في وصف الاناضول وسنورد نموذجاً من شعرها . وقد صدر الكتاب برسم احمد جمال باشا وفيه صورة الوفد في نظارة البحرية وصورة الرئيس والهيئة التحريرية

الرحلة الانورية

الى الاصقاع الحجازية والشامية

تأليف محمد كردعلي صاحب المقتبس

طبع في المطبعة العلمية في بيروت سنة ١٣٣٤ — ١٩١٦

ص ٣٠٢

زار انور باشا وكيل القائد الاعظم وناظر الحربية ربوع الشام والحجاز منذ اشهر ولم يسبق لناظر في مثل مركزه العظيم ان يزور البلاد و يتفقد احوال الجيش والرعية فضممنا ما تفرق من اخبار رحلته وما قيل من التنو يه بافضاله على الدولة والملة فجاءت الرحلة كتاب ادب ومحاضرة وخطب حوى نموذجاً من شعر الشعراء وخطب الخطباء في هذا العصر وهذا الدور تاركين « لاقلام من كتبوا وخطبوا في هذا المجال حريتهم فان نقل الشيء على حقيقته ادعى الى تصور كل قائل بقوله فتتمثل للانسال القادمة حالة عصرنا ومبلغ اهله من الافكار والآداب » وقد اوردنا ما قالته الصحف على اختلاف لغاتها بحرفه واشفعناه بترجمته الى اللسان العربي والكتاب مصدر بصورة صاحب الرحلة انور باشا وفيه عدة رسوم تمثله وتمثل زميله احمد جمال باشا في القدس الشريف تحت قوس النصر وفي الكلية الصلاحية في القدس وفي المسجد الاقصى والحرم القدسي وفي استعراض الجند في بئر السبع

السنة الثانية للحرب المركزية

La deizième année de la guerre centrale

هي كراسة نشرتها ادارة جورنال بيروت سنة ١٩١٦ وفيها خلاصة ما نقله البرق من الحوادث عن ساحات الحرب المختلفة مما يدخل في سجلات التاريخ وقد قدم لها حليم بك حرفوش احد محرري تلك الجريدة الفرنساوية بلغتها مقدمة لطيفة ختمها بلفظ الصلح في السنة الثالثة

الرسائل العصرية

تأليف الخوري بطرس البستاني

طبع في المطبعة العلمية في بيروت سنة ١٩١٠ ص ٣٤٤

اجاد صديقنا مؤلف هذا الكتاب في مجموعته هذه التي حوت بين مطاويها

رسائل في عامة الموضوعات المألوفة في فن التراسل وقد اجاد كل الاجادة في تعريف المراسلة واقسامها واحوالها وطرقها مما لم يترك بعده مقالاً لقائل بعبارات من السهل الممتنع خالية من الحشو والتعقيد حالية بالسلاسة والرشاقة وقد اختار نموذجات من الرسائل منوعة ليتخرج بها الطالب فجاء كتابه من اوعى ما أُلف في موضوعه دليل الخبرة في احوال الطلاب وما ينبغي لهم للنبوغ في الانشاء فنشكر المؤلف على كتابه الممتع ونرجو ان يوفق الى نشر امثاله مما يفيد الطلاب والآداب

آداب المراسلة

تأليف الخوري بطرس البستاني

طبع في المطبعة العلمية في بيروت سنة ١٩١٣ ص ١٤٧

كتاب التلميذ

هو مختصر في فن الانشاء على طريقة السؤال والجواب ليتأتى للاحداث استظهارها وفيه نموذجات من الرسائل يصح للمبتدئ الاخذ بها والتطريس على منوالها

الفلسفة النظرية

او علم الحكمة البشرية

تأليف الكردينال مرسيه رئيس اساقفة مالين في بلجيكا . عني بنقله الى العربية وتعليق حواشيه الخوري اسقف نعمة الله ابي كرم الماروني رئيس المدرسة المارونية في رومية

طبع في المطبعة العلمية في بيروت سنة ١٩١٠

وهو في ستة اجزاء لا تقل عن ١٥٠٠ صفحة

اهدتنا ادارة المطبعة العلمية هذا الكتاب وهو في الفلسفة المنطبقة مع روح الكثلكة وفيه ردود كثيرة على اصحاب الفلسفة الحسية من الماديين وغيرهم وقد تصفحنا جانباً منه فرأينا بعض الغموض في بعض صفحاته وما ندري ان كان ناشئاً من الترجمة او من الاصل الذي فيه لبس واشكال ومعان لم يحسن مؤلفها الاول تأديتها بالفاظ مفهومة

وتقر بها من عقول القراء وقد قدم المترجم مقدمة نحو ٩٥ صفحة قال في آخرها « واني اصطلحت على بعض الفاظ نقلتها عن اصل وضعها للدلالة على معان علمية حديثة او مذاهب جديدة لم اجد لها دلالة في لغتنا العربية لمسوغ ملابسة بين المعنى الوضعي والاصطلاحي كما هو شأن المؤلفين والمترجمين في كل اللغات . وليس فوات مثل هذه الدلالة الجديدة نقصاً منحصراً في لغتنا وانما هو شامل لكل الالسنة المستعملة بين الناس لان واضعي اللغات تقصر بهم المدارك عن استغراق كل المعاني الموجودة والممكنة ويمتنع عليهم ضبطها في دلالات اللفظ على ان العقل وان كان محدوداً بالفعل فلا يحبس قوته حد بدليل توسع نطاق الذهن بالممارسة ودوام تقدم العلوم تقدماً يزيد مع الايام والاعصر حتى دهش العقل نفسه من سمو ترقيه وهو لا يزال يرغب فيه ويرتاده يوماً فيوماً بدافع نزعته الفطرية . ولعل هذا النقص في الوضع كان هو السبب في تسويغ التجوز والاستعارة في الكلام ثم في الاصطلاحات التي يسمونها الاصطلاحات الخاصة الرائج استعمالها في كل الالسن بيد ان هذا ايضاً لم يكن كافياً لسد الثلمة وقضاء اللبانة فكم من المعاني تبقى شاردة عن مصادر الالفاظ الوضعية والمجازية والاستعارية والاصطلاحية بالاصطلاح الخاص المستعمل فهذا الاختبار اليومي يشهد بشدة ما يقاسيه المؤلف والمترجم من عناء تقليب المعاجم وتصفح صحائف اهل اللغة وفرك جبهة الذاكرة فلا ينشد ضالته بل يعود خابط الجد والقلب شيق متطلع الى مايرى من بدائع المعاني لامعة في فضاء الفكر يشرئب عبثاً الى اصطيادها بشراك اللفظ الواهية . وعليه فانك ترى علماء الغرب والمصنفين قد لجأوا الى حيل النحت في الالفاظ واكثر ما يكون هذا النحت عندهم من اللغة الاغريقية لتأصلها من اصل وضعها الى بناء الكلمة الواحدة من الفاظ كثيرة دالة وعدم حصر الاسماء في اوزان قياسية لا تتجاوزها فكأنما هذه الحلقة قد خلقت ينبوعاً للالفاظ العلمية في كل عصر يستقي من فيضه المؤلف والمترجم هذا وما كان اجدر بواضعي قواعد اللغات وخصوصاً بائمة لغتنا العربية ان يصطلحوا على طريقة يتهيأ لهم بها سد خلل الوضع والقيام بما لا يفي به المجاز والاستعارة والكناية وذلك مثلاً بان يسوغوا ماتسوغه اليونانية من النحت والتركيب رابطين قاعدة عامة يكون النحت بها قياساً مصطلحاً عليه فيستعمله المصنف او المترجم بلا حرج ويفهمه المطالع اللبيب بقليل من الاشارة ويعلق بمحافظته لانه مركب من الفاظ يأنسها هي من لغته . وليس النحت بدعة في العربية ولا منكراً منه وله اسم عربي وورد عليه امثلة

الا انهم حصروا شمول فوائده في حيز ضيق ومثل مسماة لعل ذلك لانهم لم يكن لهم حاجة ماسة الى اكثر كما هي الحال في عصرنا فما بال ائمة لغتنا اليوم لا ينشطون الى تلافي هذا الخلل وتدارك هذا النقص متخذين مثال الاجداد في النحت مع زيادة قوانين يترتب عليها وشروط يتقيد بها فهم اذا فعلوا يكفون ابناء جلدتهم المؤلفين والمترجمين مؤونة الكد وعناء الطلب العقيم في ايجاد الفاظ جديدة قد لا تكون في محلها في مزج خالص كلامهم العربي بغريب الاعجمي افعار علينا وحط من مقام لغتنا الشريفة ومن قدر الاجداد الذين برزوا في ايامهم ان نبقى ساهين عن هذا الامر الجليل مغضين الطرف عن قصور في لساننا مع توقد الذكاء في فؤادنا مما لا ينكره علينا عليم وحولنا من كل جانب قوم يفصحون عن المعاني الجديدة والعلوم الحديثة بالفاظ مخزونة يفهمها خاصتهم وعامتهم وهي وان كانت ليست من اوضاع لغاتهم مأنوسة عندهم وغير اجنبية عنهم لمزاولتهم عموماً لغة الاغريق ثم للالفتها لالسنتهم اه »

معالم الكتابة ومغانم الاصابة

انشاه عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي عني بنشره وتعليق حواشيه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي وطبع في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩١٣

هذا كتاب جليل تشكر الآداب العربية ناشره الفاضل على احيائه بالطبع وتعليق حواش على بعض متونه . اما المؤلف فقد استدل الناشر انه كان في القرن السادس من الهجرة في زمان الملك الناصر صلاح الدين الايوبي واخيه الملك العادل وذكر له انه كان مصري المولد استوطن القدس وكان كاتباً في ديوان الانشاء كما يظهر من نفس كتابه الذي اخذه ناشره عن اصل مخطوط محفوظ في مكتبة دير المخلص في لبنان في مجموعة خطية تشتمل ايضاً على كتابين ناقصين وهو في صدرها لم يذكر ناسخه اسمه ولا تاريخ اسمه لكن الغالب فيما يرى من خطه انه كتب في آخر القرن السادس او السابع من الهجرة وربما كان بخط المؤلف وقد تقلبت هذه النسخة بين ايدي كثيرين وعلق عليها غير واحد

وقد وقع هذا المختصر في ١٩٢ صفحة وهو فيما يجب تقديمه و يتعين على الكاتب لزومه في آداب كتاب الملوك واركان الدولة وفي طبقات التراجم واوائل الكتب وما يكون به التخاطب بين المتكاتبين على مقدارهما وذكر وضع الخط وحروفه و بري القلم وامساكه

وفي البلاغة وما يتصل بها وفي الفاظ يقوم بعضها مقام بعض . وفي الامثال التي يدمجها الكاتب في كلامه و يستشهد بها وفيما لا بد للكاتب من النظر فيه والتحرز منه وكثيراً ما يسقط فيه الكتاب . وهنا نحث كل متأدب على اقتناء هذا الاثر النفيس للاخذ من مضامينه والنسج على طريقته في الانشاء العربي المتين والايجاز اللطيف المرغوب فيه

اخبار وافكار

السكر يحلو

جاءنا من الامير شكيب ارسلان ما يأتي : قد نقلتم عن (الشرق) مقالتي في صناعة السكر في الشرق واشتهار بلاد فلسطين بها وما ذكره ياقوت الحموي عن زراعة قصب السكر في غور بيسان وصناعته في تلك الارجاء الى غير ذلك

واز بدكم الآن برهاناً آخر وهو انه وجدت في طرف اريحا الغربي آثار ثلاث معاصر للسكر مما يعزز هذه الحقيقة و يقوم الحجة على اهل زماننا هذا في اهمالهم زراعة السكر وعمله في بلاد كانت منذ مئات من السنين معدنه ومخزنه

واز يدكم ايضاً برهاناً آخر على عناية المسلمين بهذه الزراعة وتلك الصناعة وان كان في جهة المغرب فالاسلام عالم واحد فاقول ورد في كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى عند ذكر المنصور السعدي واسطة عقد الملوك السعديين اصحاب فاس ومراكش انه بنى قصر البديع المشهور في حاضرة مراكش وابتدأ ببنائه في شوال سنة ست وثمانين وتسعمائة واتصل العمل فيه الى سنة ١٠٠٢ ولم يتخلل ذلك فترة قال :

« وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كل يوم فيه من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشترى به منهم السكر وزناً بوزن على ما قيل وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله في المناهل انتهى

هذا وقد ادرك اهل سورية الآن مافرطوا فيه من امر عمل السكر وقصروا به عن اسلافهم وعرفوا مافاتهم من الارباح الطائلة بعدم وجود معمل واحد او معملين للسكر في بلادهم في هذا العصر الحاضر الذي نشأ عن الحرب فضلاً عما اضر بالاجسام من فقد السكر وغلاء الحلواء لانه من المقرر ان الامزجة تلتاث بانقطاعها عن الحلويات ولا شك ان الامراض التي فشت في هذين العامين كان من جملة اسبابها قلة السكر واجدر بهذه البلاد ان تنبهها الحرب العامة الى استدراك فرطات كثيرة من جملتها هذه

الحرب ومنسوب المياه

كتب احد مهندسي برلين في عام ١٨٩٧ كتاباً سماه ادوار الحرب والاجتهاد العقلي في حياة الشعوب تنبأ فيه ان هذا الدور الذي نحن الآن فيه يكون فيه ادهش الحروب مستنداً في دعواه على منسوب مياه الارض وانها تختلف بموجب قانون لا يتغير بين طرفين متباينين : الفيضانات الكثيرة واليبوسة والجفاف . والوصول من طرف الى آخر يقتضي من الزمن ١١٠ سنوات اي نصف الزمن اللازم وهو ٢٢٠ سنة التي تتم فيها حركات بعد الابرة من خط نصف النهار وتتبدل الحرارة في الاقاليم الشمالية وهذا الدور من ١١٠ سنين ينقسم الى اربعة ادوار مختلفة كل دور ٢٨ سنة اثنان منها تمثل الاكثرية واثنان الاقلية فادوار الجفاف على رأي المهندس المومأ اليه تولد الحرب وادوار ادرار المياه تبشر الانسانية بدور ارتقاء في المدنية والدور بحد ذاته يختلف طولاً وقصراً في الحرب والمدنية على معدل حدود الدور المقابل لها فقد حدث دور جفاف عظيم من سنة ١٧٣٢ الى ١٧٦٥ وكان ذلك عهد حروب فردريك الكبير وتبع ذلك دور من سنة ١٧٦٥ — الى ١٧٩٣ وقد علا منسوب الماء كثيراً فكان فيه العصر الذهبي في الآداب والارتقاء العام لراحة الانسانية . وعلى العكس في الدور التالي بين ١٦٩٣ — ١٨٢١ وقد بلغ الجفاف حده فيه فجرت في خلاله الحرب العامة على عهد نابوليون ومن سنة ١٨٢١ — ١٨٤٨ وهو عهد رطوبة كان ارتقاء الحضارة على قدم النشاط يسير في ظل السلام وتبع هذا الدور عهد الجفاف فوقعت فيه حروب ١٨٤٨ - ١٨٧٦ ثم جاء دور رطوبة من سنة ١٨٧٦ — ١٩٠٤ وفيه تمت مدهشات الارتقاء الذي نعرفه . وقد تنبأ المهندس المومأ اليه سنة ١٨٩٧ ان عهد الجفاف من سنة ١٩٠٤ — ١٩٣٢ سيكون

طافحاً بالحوادث ولكنها تأتي على شدتها بين سنتي ١٩١٠ – ١٩٢٠ . فحرب روسيا واليابان وحرب البلقان والحرب العامة الحالية تؤيد كلام هذا المتنبي . ومن رأيه ان عهد الرطوبة يبدأ سنة ١٩٣٢ وينتهي سنة ١٩٦٠ فيكون دور علم وحضارة ولكنه لا يفوق ماوقع من امثاله بين سنتي ١٨٧٦ – ١٩٠٤ . ومن سنة ١٩٦٠ الى ١٩٨٨ يبدأ ايضاً دور الحروب وتبقى مع ذلك في حد معين وسط فتأمل

مدارسنا ومدارسهم

كتب خالد ضيا بك الكاتب العثماني الشهير مقالة في احدى صحف الاستانة قال فيها : ان امور المعارف في المانيا معدودة من الشؤون الداخلية وعليه فان هذه الامبراطورية العظيمة المؤلفة من ولايات مختلفة تختلف ادارة مدارسها باختلاف ولاياتها فلكل منها تنسيق وترتيب يخالف تنسيق المدارس في ولاية اخرى ولكننا بقطع النظر عن الامور الفرعية نجد ان المدارس كلها في هذه الامبراطورية ترجع الى غرض واحد وتتبع غاية فذة ولا ينتظر من مملكة مؤلفة من ولايات مختلفة تساوت من حيث العلم والمدنية واتحدت افكارها الحيوية والقومية غير هذه النتيجة

ان درجات المدارس في المانيا لا تختلف عن درجاتها عندنا الا اختلافاً طفيفاً . المدارس الابتدائية فالاعدادية فالعالية . ومتى جاز التلميذ هذه الثلاث سلاسل الكبيرة (وهو عندنا في درجة المتخرج من المدارس السلطانية) فاما ان يبرز الى ميدان الحياة توا واما (ان كان قصده دوام التحصيل) ان يقصد الى مدارس الاختصاص حيث يجد امامه المدارس العليا للامور التطبيقية وشعبات دور الفنون المختلفة مفتحة الابواب

دققت كثيراً في مجتازي هذه السلاسل المدرسية الثلاث وبحثت عن السبب الاولي في الفائدة العظيمة المتأتية عن هذه المدارس فتبين لي ان السبب في ذلك لا كتب التدريس ولا الاساتذة ولا التلاميذ وانما هو اصول التدريس وان المذكورين آنفاً من حيث المكانة هم في الدرجة الثانية

وبعد ان بحث في كتب التدريس الالمانية المكملة المنقحة الخالية من الحشو والاطناب والمتبعة كلها في سلسلة التدريس غاية واحدة قال : ان اول ما يلفت النظر في هذه المدارس هو الارتباط والمحبة بين التلامذة والمعلمين اول ما يتبادر الى الذهن عندنا من لفظة المعلم انه (يأتي ساعة كذا ويذهب ساعة كذا ويأخذ اجرة

هذا وقد ادرك اهل سورية الآن مافرطوا فيه من امر عمل السكر وقصروا به عن اسلافهم وعرفوا مافاتهم من الارباح الطائلة بعدم وجود معمل واحد او معملين للسكر في بلادهم في هذا العصر الحاضر الذي نشأ عن الحرب فضلاً عما اضر بالاجسام من فقد السكر وغلاء الحلواء لانه من المقرر ان الامزجة تلتاث بانقطاعها عن الحلويات ولا شك ان الامراض التي فشت في هذين العامين كان من جملة اسبابها قلة السكر واجدر بهذه البلاد ان تنبهها الحرب العامة الى استدراك فرطات كثيرة من جملتها هذه

الحرب ومنسوب المياه

كتب احد مهندسي برلين في عام ١٨٩٧ كتاباً سماه ادوار الحرب والاجتهاد العقلي في حياة الشعوب تنبأ فيه ان هذا الدور الذي نحن الآن فيه يكون فيه ادهش الحروب مستنداً في دعواه على منسوب مياه الارض وانها تختلف بموجب قانون لا يتغير بين طرفين متباينين : الفيضانات الكثيرة واليبوسة والجفاف · والوصول من طرف الى آخر يقتضي من الزمن ١١٠ سنوات اي نصف الزمن اللازم وهو ٢٢٠ سنة التي تتم فيها حركات بعد الابرة من خط نصف النهار وتتبدل الحرارة في الاقاليم الشمالية وهذا الدور من ١١٠ سنين ينقسم الى اربعة ادوار مختلفة كل دور ٢٨ سنة اثنان منها تمثل الاكثرية واثنان الاقلية فادوار الجفاف على رأي المهندس المومأ اليه تولد الحرب وادوار ادرار المياه تبشر الانسانية بدور ارتقاء في المدنية والدور بحد ذاته يختلف طولاً وقصراً في الحرب والمدنية على معدل حدود الدور المقابل لها فقد حدث دور جفاف عظيم من سنة ١٧٣٢ الى ١٧٦٥ وكان ذلك عهد حروب فردريك الكبير وتبع ذلك دور من سنة ١٧٦٥ — الى ١٧٩٣ وقد علا منسوب الماء كثيراً فكان فيه العصر الذهبي في الآداب والارتقاء العام لراحة الانسانية · وعلى العكس في الدور التالي بين ١٦٩٣ — ١٨٢١ وقد بلغ الجفاف حده فيه فجرت في خلاله الحرب العامة على عهد نابوليون ومن سنة ١٨٢١ — ١٨٤٨ وهو عهد رطوبة كان ارتقاء الحضارة على قدم النشاط يسير في ظل السلام وتبع هذا الدور عهد الجفاف فوقعت فيه حروب ١٨٤٨ - ١٨٧٦ ثم جاء دور رطوبة من سنة ١٨٧٦ — ١٩٠٤ وفيه تمت مدهشات الارتقاء الذي نعرفه · وقد تنبأ المهندس المومأ اليه سنة ١٨٩٧ ان عهد الجفاف من سنة ١٩٠٤ — ١٩٣٢ سيكون

359

طالحاً بالحوادث ولكنها تأتي على شدتها بين سنتي ١٩١٠ — ١٩٢٠ · فحرب روسيا واليابان وحرب البلقان والحرب العامة الحالية تؤيد كلام هذا المتنبي · ومن رأيه ان عهد الرطوبة يبدأ سنة ١٩٣٢ وينتهي سنة ١٩٦٠ فيكون دور علم وحضارة ولكنه لا يفوق ماوقع من امثاله بين سنتي ١٨٧٦ — ١٩٠٤ · ومن سنة ١٩٦٠ الى ١٩٨٨ يبدأ ايضاً دور الحروب ونبقى مع ذلك في حد معين وسط فتأمل

مدارسنا ومدارسهم

كتب خالد ضيا بك الكاتب العثماني الشهير مقالة في احدى صحف الاستانة قال فيها : ان امور المعارف في المانيا معدودة من الشؤون الداخلية وعليه فان هذه الامبراطورية العظيمة المؤلفة من ولايات مختلفة تختلف ادارة مدارسها باختلاف ولاياتها فلكل منها تنسيق وترتيب يخالف تنسيق المدارس في ولاية اخرى ولكننا بقطع النظر عن الامور الفرعية نجد ان المدارس كلها في هذه الامبراطورية ترجع الى غرض واحد وتتبع غاية فذة ولا ينتظر من مملكة مؤلفة من ولايات مختلفة تساوت من حيث العلم والمدنية واتحدت افكارها الحيوية والقومية غير هذه النتيجة

ان درجات المدارس في المانيا لا تختلف عن درجاتها عندنا الا اختلافاً خفيفاً · المدارس الابتدائية فالاعدادية فالعالية · ومتى جاز التلميذ هذه الثلاث سلاسل الكبيرة (وهو عندنا في درجة المتخرج من المدارس السلطانية) فاما ان يبرز الى ميدان الحياة تواً واما (ان كان قصده دوام التحصيل) ان يقصد الى مدارس الاخصاء حيث يجد امامه المدارس العليا للامور التطبيقية وشعبات دور الفنون المختلفة مفتحة الابواب

دققت كثيراً في مجتازي هذه السلاسل المدرسية الثلاث وبحثت عن السبب الاولي في الفائدة العظيمة المتأتية عن هذه المدارس فتبين لي ان السبب في ذلك لا كتب التدريس ولا الاساتذة ولا التلاميذ وانما هو اصول التدريس وان المذكورين آنفاً من حيث المكانة هم في الدرجة الثانية

وبعد ان بحث في كتب التدريس الالمانية المكملة المنقحة الخالية من الحشو والاطناب والمتبعة كلها في سلسلة التدريس غاية واحدة قال : ان اول ما يلفت النظر في هذه المدارس هو الارتباط والمحبة بين التلامذة والمعلمين اول ما يتبادر الى الذهن عندنا من لفظة المعلم انه (يأتي ساعة كذا ويذهب ساعة كذا ويأخذ اجرة

كذا) اما عند الالمان فالمعلم مع تلميذه كالاب مع ابنه والمعلم عندهم لا يعرف اسم التلميذ فقط بل يعرف مزاياه ونقائصه وخاصيات مزاجه وقابلية ذكائه و يعرف ايضاً النقط المحتاجة الى الاصلاح والتمريض في التلميذ فيوجه نحوها عنايته و يبذل وسعه في تقويمها

فالتلميذ عندهم بين يدي المعلم اشبه بالمريض تمضي عليه مدة طويلة تحت مراقبة الطبيب وتدقيقه واليك اصول التدريس عندنا :

بعد ان يصعد المعلم منصة التدريس يشير الى احد التلامذة بالقيام فيقول مثلاً مخاطباً التلميذ برقمه ١٦٦ دور سلطنة السلطان سليم الاول فاما ان يأخذ التلميذ يسرد صحيفة او صحيفتين مما بقي في ذهنه من الحفظ متلجلجاً متلعثماً يطلب مساعدة حافظته له ومداخلتها في الامر واما ان ينقطع من اول الامر فيشير اليه المعلم بالجلوس و ينهض غيره قائلاً ٢٧٥ وهكذا تمضي مدة الدرس بين مختلف الارقام اما التلامذة غير المعرضين للاسئلة فاما ان يشتغلوا بحفظ ما اهملوه من هذا الدرس وعندها لا نرى الا اعيناً مغمضة وشفاهاً تهتز وتضطرب واما ان يخط هذا رسماً و يبري ذاك قلماً و يكتب ذاك مكتوباً

اما الحال في المانيا فليس على هذا المنوال وقد زار الكاتب ودخل الى احد الصفوف اثناء درس التاريخ فقال :

ان التلامذة بعد ان سلموا علينا للجلوس على مقاعدهم واعينهم محدقة في معلمهم فقط ينتظرون ولم يكن امامهم كتاب ولا ورق . ذكر المعلم موضوع درسه في جملة واحدة والموضوع هو هذا « تبسط دولة بروسيا والأسرة المالكة (هوهنزولرن)

و بعد ان مكث ثانية اورد سؤالاً في هذا الموضوع فرفع التلامذة ايديهم وكان هذا الصنف باجمعه مستعداً لاعطاء الجواب ولكن المعلم اشار الى احدهم باسمه فنهض التلميذ حالاً واجاب عن السؤال بنحو صحيفة مما كان حفظه وتعلمه ولكن لم يكن مااورده تكراراً لعبارة كتاب معين ربما ينسى اليوم او غداً وربما يحفظها دون ان يعرف معناها بل كان الجواب الذي اورده بلسانه نفسه حسب فهمه . وهكذا تسلسلت الاسئلة وتوالت وارتفعت الايدي ثم انحطت ومضت نصف ساعة على هذا الموضوع او المباحثة وكان المعلم بلا شبهة قد تعب اكثر من كل التلامذة

وكانت هذه المباحثة اشبه بامتحان عمومي منها بدرس لان الاجوبة كانت ترد علناً

والاسئلة تثب من هنا الى هنالك والايدي تعلو ثم تنزل وبهذا الاسلوب لم يبق نقطة مجهولة في هذا الموضوع · وكان المعلم في الدرس الذي قبل هذا الدرس قد كتب تقريراً في (تبسط دولة بروسيا والاسرة المالكة هوهنزولون) فقرأه التلامذة واضافوا الذي بقي في ذهنهم من هذا التقرير الى ماقرأوه في الكتاب الذي بايديهم واليوم في هذه المباحثة او المحاورة العلنية فان الذين كان فهمهم ناقصاً او اهملوا الدرس اونسوه اصبحوا كأنهم درسوه من جديد

وقال الكاتب ان الالمان قد طبقوا هذا الاسلوب في التدريس ليس على درس واحد فقط بل على دروس الحساب والجغرافية والكيمياء والحكمة الطبيعية والتاريخ الطبيعي حتى على الالسن والادبيات وختم مقاله بقوله : ليست المدارس الالمانية الابتدائية باحسن من المدارس العثمانية ولكن التلميذ الالماني متعلم اكثر من التلميذ العثماني وفضلاً عن ذلك فان الاول يمكنه ان يستعمل علمه في ما يفيده في حياته وهذه على ما اظن الغاية المهمة التي يجب ان نسعى اليها

رومانيا وجيوش التحالف

شهرت رومانيا الحرب على النمسا والمجر هذا الشهر لتفتح ترانسلفانيا وتضم من فيها من الرومانيين ابناء عنصرها فشهرت المانيا والعثمانية وبلغاريا الحرب الحرب عليها والحرب الآن في دوبريجة قائمة بين جيوش الرومان وقد اطلعنا على احصاء اخير نشره احد اساتذة كلية غراز قال فيه ان مساحة رومانيا السطحية تبلغ ١٣٩٠٧٩ كيلومتراً مربعاً عدا ما دخل في ملكها من ارض بلغاريا سنة ١٩١٣ وهو ٧٧٢٦ كيلومتراً وهو اكثر من ربع مساحة المانيا وسكانها نحو سبعة ملايين ونصف اي انه يسكنها ٥٤ نسمة في كل كيلومتر وبحسب احصاء سنة ١٨٩٩ يوزع هذا الشعب على النحو الآتي خمسة ملايين ونصف روماني و ١٠٨٠٠٠ نمساوي ومجري و ٢٤٠٠٠ عثماني و ٣٢٠٠٠ من رعايا مختلفين من الممالك البلقانية و ٨٠٠٠ الماني و ٢٦٧٠٠٠ اسرائيلي وخمسة ملايين ونصف من سكانها يدينون بالمذهب الارثوذكسي و ١٥٠ الفاً كاثوليك و٢٣ الفاً من البروتستان و ١٨ في المئة من السكان هم من اهل المدن و ٨١ وكسر من سكان الحقول وسكان العاصمة بكرش ٣٤١ الفاً وفيها كلية كان عدد طلبتها سنة ٩٠٨ — ٤٢٨٠ طالباً وميزانيتها مليون ونصف مارك وفي رومانيا كلية بياسي وهذه

هي ثاني مدينة في رومانيا وكانت ميزانية حكومة رومانيا سنة ١٩١٥ — ٤٨٦ مليون مارك وكسور من الدخل والخرج يصرف منها ٤٧ مليون مارك على التعليم و ٧٩ مليوناً على الحربية وكان الدين الذي عليها ١٦٨ مليار مارك و ٧ في المئة من صادرات رومانيا تصدر الى المانيا و ١٤ في المئة تصدر الى النمسا والمجر و يرد اليها من المانيا ٤٠ في المئة من الواردات و ٢٣ في المئة من النمسا والمجر

العلماء لايجار بون

ذكرت جريدة الديلي نيوز الانكليزية انه جرى موءخراً في فلندرا توقيع الحان من تأليف واكنر الالماني المتوفى سنة ١٨٨٣ وانه هذه هي المرة الاولى منذ اعلان الحرب لحنت فيها اغان لهذا الموسيقي بحضور جمهور كبير من الاهلين ومنهم ضباط بالبستهم الرسمية وانه ربما عد بعضهم تلحين موءلف الماني انحطاطاً في الوطنية وعده آخرون علامة جيدة على تقرب الشعبين وقد ذكرت احدى الصحف الالمانية ان القوم في المانيا لم يفتأوا يتلون و يلحنون اقوال الموءلفين الذين هم من امم معادية لالمانيا اليوم . فلم ينل موليير الفرنساوي ولا شكسبير الانكليزي شيء من الحرب والحرب ليس مع الافراد النوابغ وهم لكل امة شرع

وهكذا الحال في بلاد النمسا والمجر فان نوابغ الموءلفين من الفرنسيس والانكليز والروس تقرأ مصنفاتهم وتمثل رواياتهم كما كان في السابق واللغة الافرنسية واللغة الانكليزية تدرس في مدارس المجر كما كانت قبل الحرب وقد احتفلت المانيا منذ اشهر في مدينة فيمار بمرور ثلاثمائة سنة على وفاة شكسبير الشاعر الانكليزي احتفالاً يليق بتكريم امة عاملة للعلماء والادباء من اي عنصر ولسان كانوا وناب عن المجر رئيس مجمعها العلمي ولم يكدر صفو هذا الاجتماع مكدر ولم يذكر شكسبير الا بالتجلة كأنه من شعراء المانيا نفسها فتأمل هذا التسامح في اكرام العلماء حتى زمن الفتن والحروب

اصلاح سهو

ورد في صفحة ٤٩٢ ج ٧ ان الوقعة الحربية التي وقعت في مضيق سكاجراك بين الاسطولين الانكليزي والالماني كان الفوز فيها للانكليز والصحيح ان الفوز فيها كان للالمان بشهادتهم انفسهم

المقتبس

الالمانية والافرنسية

شعر العامة والخاصة في العهد الاخير بالحاجة الشديدة الى معرفة اللغة الالمانية في هذه الديار وفي غيرها من البلاد التي حالفت جرمانيا وكانت هذه الحرب التي ادهش فيها الالمان بعلومهم وتفننهم في المسائل الحربية والاجتماعية والاقتصادية من اكبر الدواعي الى ذلك وكان الخاصة من قبل يشعرون هذا الشعور ولكن قلة اطماع المانيا في امتلاك بلاد الشرق الاقرب لم يحملها كما حمل فرنسا منذ القديم على ان تبذل همتها لنشر لغتها فيه وتركت المسائل لطبيعتها خصوصاً ومن سياسة المانيا ان لا تميل الى تجزئة قوتها فتفضل نشر علمها على قطعة صغيرة وراء حدودها على ان تستعمر مملكة واسعة في افريقية وآسيا كما هو حال فرنسا . وحال المانيا في نشر لغتها تبع لسياستها بالطبيعة

ولم نفتأ بالمناسبات منذ خمس عشرة سنة نشير على ناشئتنا بتلقف هذا اللسان ونحسن لاصحاب الشأن في الامر ودعاة العلم الصحيح نشره في مصر والشام خاصة ولقد قلنا في رحلتنا « غرائب الغرب » التي نشرت سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ مانصه : « ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية في الاكثر هو من الاحتكار الضار فيجب ان نعرف كلنا او بعضنا لغة امة كبرى تريد ان تحارب العالم حرباً اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الالمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فخسروا في مادياتهم ومعنوياتهم .

« نعم نتوفر على الاخذ من اوربا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا

بعد الآن الى جرمانيا نتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم البحرية وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الالمانية والايطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة ان نعامل الدول كلها بوئام يجب ان نأخذ عن كل دولة راقية احسن ما عندها حتى لانكون من الجامدين على امة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع اه »

ولما رحلنا الى الغرب في رحلتنا الثانية نبحث عن مواد قديمة وحديثة لكتابنا « خطط الشام » الذي اخذنا منذ زمن نعني بتأليفه اجتمعنا بالعلامة كويدي المستشرق الايطالي فكان مما سألنا اياه فيما اذا كنا نعرف اللغة الالمانية فأسف كثيرا على هذا القصور وقال لنا لوكنتم تعرفون هذه اللغة كما تعرفون الافرنسية لسهل عليكم اقتباس المواد التي تحتاجونها الى كتابكم وكشف حقائق عن تاريخ عمران بلادكم . ثم انقلبنا بعد شهرين الى بلاد المجر واجتمعنا بالعلامة غولدصهير المستشرق المجري وهو كالسنيور كويدي من ائمة الاشرقيات في الغرب المشار اليهم بالبنان فسألنا في خلال الحديث ونحن نسترشده لايجاد مواد لكتابنا اذا كنا نعرف الالمانية فقال لنا مثل مقال صاحبه الايطالي وزاد تلهفنا كثيرا قوله ان معظم ما نريده في هذا الموضوع مكتوب محضر بهذه اللغة لا يحتاج الا الى ترجمة ونشر

ولا عجب ان اصبح اللسان الالماني مصدرا لنا في تاريخ امتنا ونحن امة متأخرة في مضمار العلم فالالمان لكثرة الاخصائيين في كل شيء عندهم اصبحوا حجة في العلوم والآداب في الغرب كله ويكفي ان اهم كتب الطب في اللغة الانكليزية منقولة من مؤلفي الالمان واهم كتب الفلسفة عند الفرنسيس مترجمة عن علماء المانيا وفلاسفتها وان زهاء نصف ما نشر باللغة العربية من اداب قومنا وتاريخهم وعمرانهم ولسانهم نشره الالمان وعلقوا عليه الشروح والحواشي والتحقيقات الممتعة والفهارس النافعة والباقي نشره الاميركان والانكليز والفرنسيس والروس والطليان والاسبان والسويسريون والنمساويون والمجريون والهولانديون والسويديون وغيرهم من امم الحضارة وكان علينا بعد ان انتشرت تجارة المانيا في العالم ونازعت التجارة الانكليزية الاميركية وغيرها ان نسعى الى ان نحذق هذا اللسان كما حذقنا الافرنسية والانكليزية

حديثاً وحذقنا الايطالية قديماً وتعلم بعضنا الروسية واليونانية والى اليوم لا يوجد سوى افراد قلائل تحققوا باجزاء هذه اللغة من رجال الجيش العثماني او من سكان فلسطين وسورية ممن درسوا في مدارس القدس ويافا وحيفا وحلب وكلها معاهد في التعليم جديدة نشأت وارتقت بعد استحكام صلات التقرب بين المانيا والعثمانية وبعد انشاء الخط البغدادي ومسيس الحاجة الى موظفين من ابناء هذه البلاد يعرفون الالمانية كما يعرفون العربية او التركية . فقصر الالمان وقصرنا نحن ايضاً في هذا السبيل .

ومن الاسباب التي قعدت حقيقة باللغة الالمانية عن الانتشار في هذه الديار ايضاً ان بروسيا كانت كالمانيا اليوم تحب ان ترقي نفسها وجيرانها اولا والاقربون اولى بالمعروف وكانت من الدول الثانوية في الغرب فلما اصبحت المانيا بالوحدة الالمانية دولة كثيرة الحصا كبيرة الرقعة وغلبت فرنسا في حرب السبعين اخذت لغتها تنتشر في الغرب بطبيعة الحال . اما الآن فاذا كتب النصر الاخير للالمان على خصومهم تصبح لغتهم او تكاد تكون عامة بين الامم كما اصبحت اللغة الافرنسية من قبل وانتشرت بالقوى التي بذلها لويز الرابع عشر ونابوليون

جاء في تاريخ جودت ان المعارف الفرنساوية انتشرت بكثرة على عهد لويز الرابع عشر حتى حصل للامم جمعاء انسة بها وانتشرت آداب الفرنسيس في كل امة واصبح هذا الملك يتدخل في شؤون الممالك الاوربية فعم تعليم اللسان الفرنساوي منذ ذاك العهد واصبحت الامور السياسية تكتب بالافرنسية . وذكر ايضاً ان معاهدة قينارجة (١) بين العثمانيين والروسيين كتبت من جهتنا بالتركية والايطالية ومن جهة روسيا بالروسية والايطالية وفي ذلك دليل بان اللغة الايطالية كانت الى ذاك الوقت معتمداً عليها اكثر من الافرنسية في الغرب

وذكر سنيوبوس (٢) ان الآداب الفرنسوية انتشرت في القرن الرابع عشر حتى عمت الغرب واصبح اللسان الفرنساوي لغة جميع المجتمعات الراقية بل اللسان الرسمي

(١) هي قصبة صغيرة على ٧٠ كيلو مترا من جنوب سلستره في بلغاريا اشتهرت بانها كانت محل عقد المعاهدة بين العثمانية وروسيا على عهد السلطان عبد الحميد الاول وكاترينا الثانية سنة ١٧٧٤ م (قاموس الاعلام)

(٢) تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس
S. Cheignobos : Histoire de la civilisation

يتخاطب به رجال السياسة في الحكومات وبه ينشئون المعاهدات واصبح من المألوف في كل مكان تعليم ابناء الأسر الشريفة اللغة الافرنسية وان تمثل القصص الافرنسية ويتحدث الناس في القاعات باللسان الافرنسي وبالغ الالمان في هذا السبيل كثيراً حتى ان الامراء ورجال البلاط الملوكي امسوا ولا يعرفون حتى اللغة الالمانية وينظرون الى هذه بانها لهجة تصلح للقرويين والعملة وألف ملك بروسيا كتبه باللغة الافرنسية واخذت ماري تيريز تراسل وزراءها بالافرنسية واقترح المجمع العلمي في برلين اواخر القرن الثامن عشر ان يكون موضوع المسابقة في بيان شرف اللغة الافرنسية اهـ .

والغالب ان اللغة الافرنسية لم تحز كل هذا القبول في قلوب الامم لمزية فيها ليست لغيرها بل لأن السياسة قضت بانتشارها ولأن اهلها توفروا على نشرها بان نشأ لهم ادباء وفلاسفة وعلماء استفاضت بين العالمين شهرتهم واللغات في الدول تابعة في النباهة والخمول لحالة الدولة التي تحمي حماها والا فليست الايطالية مثلًا دون الافرنسية بجمالها ورنتها بل ربما كانت اسهل منها ومع هذا نازعتها الافرنسية من عهد لويز الرابع عشر الذي طالت ايامه واشتهرت بكثرة نوابغها في الشعر والادب والنقد الاخلاقي والفلسفة والتاريخ والفنون

قالت مدام دي ستايل في كتابها «المانيا» (١) الذي ألفته في سنة ١٨١٠ « منذ عهد لويز الرابع عشر اخذت جميع المجتمعات الجميلة في القارة الاورية تحصر وكدها في تقليد الفرنساويين ما عدا اسبانيا وايطاليا وقد اعتقد القوم في فينا (وكانت اذ ذاك مهد الالمانية) وافرطوا في اعتقادهم ان من امارة الظرف ان لا يتكلم المرء بغير الافرنسية على حين ليس المجد ولا الظرف في كل بلد الا عبارة عن الفكر الوطني والصفات الوطنية وقد ادهش الفرنسويون اوربا ولا سيما المانيا ببراعتهم في الرقائق والاضاحيك ولقد كان البولونيون والروسيون وهم بهجة المجتمع في فينا لا يتكلمون بغير اللغة الافرنسية ويحاولون ان يبعدوا عن تلك العاصمة روح الالمانية . وللبولونات اساليب تأخذ بمجامع القلوب في مزجهن التصورات الشرقية الى مرونة الفكر الفرنساوي وحدته — انتهى المقصود منه .

قلنا وقد كان للروس غرام بالافرنسية بدأ ذلك على عهد بطرس الاكبر مصلح روسيا الحديثة وواضع اساس نهضتها الذي خلع ربقة القديم ولقنها المدنية الغربية

(١) *Madame de Staël. De l'Allemagne*

بدون قيد ولا شرط وكان في روسيا من حيث حب التجدد كالسلطان سليم الثالث العثماني ولكن المحيط ساعد الاول اكثر من هذا الثاني فقبس المدنية الهولاندية والمدنية الفرنسوية وأسس الكليات العظمى ونظم الاساطيل ودرب الجيوش ومن عهده شاعت اللغة الافرنسية بين طبقات الشعب الراقية وكادت تكون لغة التخاطب في القصور والمجامع العامة وعمت قواعد البلاد الروسية ولا يزال اثر ذلك ظاهراً للعيان في مملكة القياصرة حتى اليوم

وكل دول الغرب تعني بتعليم اللغة الافرنسية عناية فائقة في كلياتها وجامعاتها بل في مدارسها الوسطى وقلَّ في خاصة الامم الاوربية والاميركية من لم يحاول ان يتكلم بلغة راسين وڤولتير كما يتكلم بها الباريزي نفسه لمسيس حاجته اليها في العلم والسياسة والتجارة والصناعات بحيث اصبحت على طول الزمن لغة عامة حقيقة ولها شيء من المرونة واللطف وهذا على ما نظن ما حدا بعلماء هذه اللغة واهل الادب منها ان يتوفروا على تحسينها وترويجها الكتب المنوعة والمجلات وجميع اساليب النشر

اما في هذا الشرق الاقرب ونعني به البلاد العثمانيــة والمصرية والايرانية فقد انتشرت في اواخر القرن الثامن عشر وزاد انتشارها اكثر بعد عهد نابوليون بونابرت فان الحكومة العثمانية بعثت بعثات علمية كثيرة الى مدارس فرنسا يتعلمون فيهـا العلوم ويتخرجون في هذه اللغة وكذلك محمد علي الكبير فانه اقتصر في ارسال التلامذة الى مدارس فرنسا ليعودوا منها فينظموا شؤُون بلاده على احدث الطرق الغربية وكان مستشاروه جماعة من اكابر علماء فرنسا وهم الذين اكتشفوا الآثار المصرية باكتشاف الخط الهيروغليفي وانشأوا المتاحف والحدائق العامة والقناطر والسدود واقاموا عمران مصر الحديثة وكان منهم بقايا جماعة نابوليون ومنهم الذين جاءوها بعدُ وبواسطة المدارس والبعثات التي اسسها محمد علي انتشرت اللغة الافرنسية في وادي النيل

وكلما كانت المطامع السياسية في هذه البلاد تزداد كانت المدارس تشاد وتنفق عليها فرنسا عن سعة · قال صاحب كتاب المسألة الشرقية (١) لما صح العزم على

(١) كتاب المسألة الشرقية لادوارد دريول

[Dr]iault : La question d' Orient.

تخريج طبقة من الناس في المملكة العثمانية يتولون اعمالها ويستلمون زعامتها بدون ان يكون للتعاليم الدينية تأثير فيهم انشأت الدولة العثمانية في الاستانة تحت حماية كل من فؤاد باشا ناظر الخارجية وسفير فرنسا اذ ذاك بحسب الخطة التي رسمها فيكتور دروي (وزير المعارف في فرنسا) مدرسة غلطة سراي وهي مدرسة وسطى فتحت ابوابها لقبول عامة الرعايا العثمانيين وادار شؤونها اساتذة اوربيون يعلمون باللغة الافرنسية وكان ذلك رمزاً لعمل فرنسا الحريصة على تعليم الشعوب الشرقية بلغتها مبادئ المدنية الغربية فافتتحت هذه المدرسة يوم ١ ايلول ١٨٦٨ واشتد الاعتراض على هذا العمل وثارت خصوصاً ثورة المتعصبين الجامدين وأنشأ الروسيون يهزأون من هذا البابل في اختلاط الالسنة في هذه المدرسة وبلغ تلامذتها في السنة القابلة ستمائة تلميذ وكان ذلك اسعد دور في التنظيمات الخيرية .

وقال رينه پينون (١) يعجب السائح الفرنساوي ويداخله السرور عند مايدخل الشرق اذ يسمع حيثما ينقلب نغمة لغته يرن صداها ويجد حتى في صميم بلاد آسيا الصغرى مدارس فرنساوية غاصة بالاطفال من جميع العناصر والاديان يتعلمون تهجئة حروف لغتنا ويستعدون لمعرفة بلادنا تحت ادارة راهبة او اخت فرنساوية صالحة يختلف اكثر من مئة الف تلميذ الى المدارس التي معظمها لرهبان خصتها الحكومة الفرنساوية بشيء من المال مساعدة او حمتها حماية فقط ويزيد عدد هذه المدارس سنة عن اخرى وهؤلاء الاطفال ينبثون في اطراف المملكة وفي البيوت التجارية والسكك الحديدية والمصارف يحسنون سمعة فرنسا وينشرون لغتها وآدابها ومدنيتها .

قال ومن كلية بيروت الزاهرة التي يديرها الآباء اليسوعيون والتي كتب في حقها غوستاف لوردميه ان ليس في فرنسا مدينة كبرى تكون معاهد تعليمها العالي اكثر استعداداً من كلية بيروت حتى تصل الى المدارس الحقيرة في المدن الصغرى في ارمينية ومكدونية تجد الخوات الناديس منصور يوزعن بدون نظر الى مذهب وقومية تلاميذهن المعلومات ويقمن بالاسعافات الطبية ويعملن كثيراً من الاحسان . قال وهذا سر حماية فرنسا لرجال الدين في الشرق يطردونهم من بلادهم

(١) اوربا والمملكة العثمانية تأليف رينه پينون

René Pinon : L'Europe et l'Empire Ottoman.

364

ويحمونهم في غيرها لانهم هنا يتوفرون على نشر لسانهم ومناحيهم وما نخال يرجع ذلك لهم بعد الحرب بعد ان نزعت امتيازات الاجانب وشعرت الامة العثمانية بالحاجة الى تعليم وطني تكون صبغته حب البلاد ومعرفة ما ينعشها .

نعم غمرت فرنسا (المقتبس م ٧ ص ١٦٢) بلادنا بالمعاهد الخيرية والتهذيبية بهمة جمعية اخوة المدارس المسيحية وجمعية راهبات المحبة وكان مبشروها ينزلون ربوع سورية بالرغم مما قام في سبيلهم من المصاعب وكانت فرنسا ابلغت مخصصاتها لمدارس سورية وفلسطين الى زهاء مليوني فرنك منها ٤٥٠،٠٠٠ لمدارس الرهبنات و ٣٨٣،٠٠٠ للمدارس المدنية و ٤٥،٠٠٠ لمدارس مختلفة و ١٢٢،٠٠٠ للمعاهد الطبية هذا هو الظاهر في ميزانيتها عن سنة ١٩١١ وهناك جمعيات تعمل على نشر التربية الفرنساوية مثل جمعية اعمال مدارس الشرق التي أسست سنة ١٨٥٦ وجمعت اموالا طائلة وزعتها على المعاهد الخيرية ومدارس الرهبنات في الشرق تبلغ قيمتها ٣٠٠،٠٠٠ فرنك ومثل مدارس الاتحاد الاسرائيلي ومثل مدارس الجمعية العلمانية وكلما كانت فرنسا ترى المانيا وايطاليا وانكلترا واميركا تعني بفتح المدارس في هذه الربوع كانت فرنسا تزيد المال المبذول في هذا السبيل وتنوع الاساليب لبلوغ الغاية

ونمت في السنين الاخيرة اعمال المانيا نمواً غريباً اذ اسست كثيراً من المدارس لابتدائية وعدة مدارس عالية ومدرسة اكليريكية في القدس وغيرها من صناعية ومستشفيات معتمدة في كل ذلك على الجمعيات الكاثوليكية والانجيلية الالمانية وعلى اللجان الجنسية التي تستمد قوتها من الاتحاد النمساوي العام وقد فتحت في ميزانيتها اعتماداً قدره ٨٥٠ الف مارك ينفق على معاهدها في سوريا وفلسطين . هذا الى المدارس التي أنشئت منذ القديم في بيروت وحيفا ثم في حلب والاستانة

وجميع ما تقدم من منافسة الالمانية للافرنسية قليل جداً لاننا لم نسمع برجل منا نبغ حتى الآن في اللغة الجرمانية ونرى النابغين في الافرنسية اكثر من ان يعدوا ولا سيما في قواعد البلاد مثل مصر والاسكندرية والاستانة وازمير وسلانيك وبيروت حتى ان بعض الأسر تركت لغتها الاصلية واصبحت تتخاطب وتتكاتب باللغة الافرنسية وكثيراً ما يشمئز الوطني وهو لا يسمع غير نغمة هذه اللغة ويرى المبرزين فيها اكثر من لغتهم ومن كل لغة مما عمت به البلوى

لا يقل المتكلمون باللغة الالمانية اليوم عن مئة مليون وهذا العدد موطنها

المتكلمين بالافرنسية ولكن عدد الذين تعلموا الافرنسية من غير الفرنساويين يربو كثيراً عن عدد من تعلموا الالمانية من غير الالمانيين واللغة الالمانية هي لغة يعرفها الخاصة في المجر وروسيا وايطاليا وفرنسا وانكلترا والبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج واميركا وتعلم لغة غير اللغة الوطنية في اكثر هذه الممالك اجباري في المدارس واكثر اللغات رواجاً اللغة الافرنسية في غير البلاد الفرنساوية واللغتان الانكليزية والالمانية في غير بريطانيا وجرمانيا

كانت اللغة الايطالية رائجة كثيراً في مصر والشام في القرن الثامن عشر فنازعتها اللغة الافرنسية في القرن التاسع عشر حتى قلّ عدد العارفين بها فهل تصبح اللغة الالمانية في هذه الديار في القرن العشرين لغة العلم والتجارة والسياسة ياترى ويكثر العارفون بها على مستوى العارفين باللغة الانكليزية على الاقل ام تظلُّ للافرنسية تلك الرغبة وتحافظ بعد الحرب على تلك الشهرة ؟ سؤال ليس غير الايام كفيلة بالجواب عنه .

جرمانيا الكبرى

يدعو الدعاة الآن الى ضم شمل ممالك اوربا الوسطى تحت لواء واحد تكون برلين العاملة الوحيدة فيها على نحو ما ضمت بروسيا اليها شمل الحكومات الالمانية منذ ست واربعين سنة . فتنشأ الآن مملكة جرمانية كبرى كما نشأت مملكة المانيا الكبرى وبذلك يستحيل على سائر دول اوربا ان تنال منالاً من هذه المملكة الضخمة التي تصدر عن رأي واحد مركزه برلين وقادته رجال الالمان وتكون حدود هذه المملكة الجديدة من نهر المارن الى التخوم الجنوبية من بولونيا ومن همبورغ الى الاستانة وما وراءها الى الشرق

ولقد كتبت مجلة المجر في هذا الشأن فصلاً قالت فيه ان تبلور الممالك الوسطى حول الاصل الجرماني قد بدأ واذا كان خصومنا من الدول قد شهروا علينا الحرب ليقضوا القضاء الاخير على تعالي المانيا في جنديتها وميل جرمانيا الى ابتلاع كل من يخالفها فهل يستطيعون ان يحولوا يا ترى دون تأليف اوربا المركزية الجرمانية ؟

أيستطيعون ان يمنعوا هذا بالقوة — قوة الجيوش والاساطيل والمجالس الحربية والقحط والخطب والشكايات ؟

فاذا كانت النتائج السابية التي نالها خصومنا منذ سنتين لم تكف لانارة افكارهم في هذا الشأن فان القاء نظرة على الماضي تكفي لان تزعزع ثقتهم . وذلك ان حرب السبع السنين مثلاً قد هيئت اسبابها وعقدت المحالفة الكبرى من النمسا وروسيا وفرنسا والسويد لتلك الغاية نفسها وهي نزع ما امتلكته بروسيا من الاملاك الجديدة وتصغيرها بحيث تكون امارة صغيرة ووضع حد لافراطها في التجنيد مما كان يقلق اعداء فريدريك الثاني كما يقلق له اليوم اعداء غليوم الثاني

ما ذا نشأ من ذلك ؟ نشأ منه ان سيلزيا لم تنفصل فقط عن بروسيا بل ان هذه خرجت اكبر واقوى مما كانت مع انها حاربت اوربا تقريباً . نعم اثرت في بروسيا تلك الحرب كما اثرت في خصومها ولكنها خرجت منها وقد جعلت لها مركزاً بين الدول العظمى فجذب جاذب القوة حول اعلامها الشعوب التي هي من عنصر الماني فاصبحت برلين منافسة لفينا في التفوق في المانيا وانحلت مسألة هذا الامتزاج الالماني حلاً قطعياً لا في موقعة (كونيكراتز) بل في (سيدان) وحاول نابوليون الثالث ان لا تنعقد اواخي الوحدة الالمانية وكانت امارات المانيا متخالفة بينها على امور تافهة وبعمله سارعت الى تناسي اختلافاتها فدفع الالمان الخطر اولاً ثم الحماسة والمجد الباهر الذي احرزوه بانتصاراتهم اذ ذاك الى تنبه عواطف لم يكونوا يعرفونها من قبل ونعني بها عواطف التضامن العنصري وستكون الحال كذلك اليوم فان اعداءنا يعزون الفضل في نجاحنا الى الفكر العسكري الشديد والى روح الجندية الوحشية المنبعثة من التوتونيين اي الجرمانيين فيرون في ذلك الخطر على حرية الشعوب وسعادة العالم وحقوق الانسان ! ولكن بلغ بهم الضعف في التقدير وقلة المنطق في السرد انهم يريدون ان يحاربوا هذا الشر بشر مثله كبعث روح الجندية في كل شيء وذلك بتحدي المانيا واحتذاء مثالها وان كان على شيء من الضعف

وكيفما كانت الحال فان « خلافة برلين » كما سماها وزير خارجية روسيا او هذا الاتحاد الجديد بين الممالك الوسطى آخذ بالتأليف وبرلين مقره لان لهذه من قوتها وغناها ما تصبح به اقوى مما كانت في حرب السبع السنين واقوى مما كانت في حرب

السبعين واعظمها كانت بمحالفتها مع النمسا والمجر بفضل بسمرك واندراسي واكثر استمساكاً وبقاء من التضامن الوقتي بين الشعوب المتحالفة على الحرب الآن ·
لا جرم ان وحدة المصالح التجارية والاقتصادية وضرورة الدفاع عن الحوزة ستؤدي بالطبيعة الى التوفيق بين قوانين كل مملكة من هذه الممالك فتصبح عما قريب متحدين اتحاداً سياسياً يشبه اتحاد الولايات المتحدة الاميركية التي تحكمها ارادة واحدة

هذه لمحة من مسألة اتحاد دول اوربا المركزية ومنه يستدل جلياً ان المانيا ايقنت على ما احرزته من الغلبة في هذه الحرب ان لا مناص من ان تقوي نفسها وحلفاءها للمستقبل وان برلين كما قالت المجلة المجرية ترقت من كونها عاصمة بروسيا الى كونها عاصمة المانيا الى كونها عاصمة التحالف الثلاثي الى كونها عاصمة تحالف ممالك اوربا الوسطى باجمعها ولكن لم يجر الدولة العلية ذكر صريح في هذا الفصل هل تدخل في جملة التحالف الجرماني هي وبلغاريا ايضاً ام لا ؟ ونظن ان هناك بعض عقبات تحول بيننا وبين الدخول في هذه المعاهدة الا الى حد محدود كما هي محالفتنا اليوم مع المانيا والنمسا والمجر ·

ومن جملة الاسباب التي تحول دون دخولنا بحسب ما نرى في اتحاد اوربا الوسطى ما اوردته المجلة المجرية من الاسباب التي تربأ ببلاد المجر عن الدخول في هذه الوحدة قالت : المانيا عرفت مبلغ المجر من حسن البلاء وما امتازوا به من الصفات العالية وكانت لا تعرف منها الا ذروا قليلاً وليس في برلين من يريد ان يعبث باستقلال هنغاريا ولا باوضاعها الوطنية ولولا ذلك لا يوجد في المجر انسان يود الاقتراب من المملكة الجرمانية · اننا نحرص على لغتنا واخلاقنا ودستورنا الوطني اكثر من حرصنا على كل مغنم سياسي او اقتصادي ونعلم ان هنغاريا لا تتمكن من القيام بمهمتها التاريخية اي ان تكون واسطة بين الغرب والشرق والان تكون سوراً قوياً لاوربا الا اذا احتفظت باخلاقها الوطنية المجرية وبحريتها السياسية وآدابها المستقلة · ومصلحة المانيا لا تنافي بتاتاً استقلال الامة المجرية وعلى العكس فان حلفاءنا يعترفون بمشروعية هذه الاميال وكلما عرفوا اخلاق عنصرنا والاحوال الخاصة التي عينت لنا خطتنا السياسية يفهمون مرامينا اكثر

وبعد ان تساءلت تلك الصحيفة عن كيفية تكوين هذا الاتحاد الحديد وقالت ان عدد العنصر الجرماني في اتحاد ممالك اوربا الوسطى يربو على سبعة او ثمانية

اضعاف العنصر المجري فيخشى حينئذ من ان يمتزج المجر بطول الزمن بالعنصر الجرماني ويندمج فيه كما يندمج كل عنصر اجنبي في الولايات المتحدة الاميركية بالعنصر الانكليزي السكسوني قالت عبثاً يقول الالمان انهم لا يريدون ان يكرهونا على تعلم لغتهم ولا آدابهم ولا طرق تفكيرهم ولا طرز حياتهم العقلية والادبية بقطع النظر عن التمثيل ببولونيا فان هنغاريا « تتجرمن » بطبيعة الحال وتندمج في الاكثرية فتفقد جزءا من اخلاقها القومية واذ خير للشعوب الصغيرة ان تظل على استقلالها وان اورثتها الحرب ضعفاً فتخرج رافعة رأسها وتتنافس الدول الكبرى في صداقتها من ان تكون تبعاً تخسر نفسها ومقوماتها ومشخصاتها .

هذا ما تحاذر منه الصحيفة المجرية . تحاذر ان يندمج المجريون في غيرهم ويفقدوا مشخصاتهم وقوميتهم والعنصر المجري في مملكة النمسا والمجر هم اقل من العنصر الجرماني ومن العنصر السلافي . ومعلوم ان امبراطورية النمسا والمجر مزيج من عناصر مختلفة في طبائعها محتفظة بلغاتها ومشخصاتها لم يثبت الاحصاء ان عنصراً ربح من العنصر الآخر كثيراً في هذا الشأن بل هم في هذا المزيج كالفسيفساء البديعة في رقعة شطرنج فالالمان في غربي المملكة وشمالها الغربي والسلافيون في الشمال والشمال الشرقي والجنوب الغربي والمجر في الشرق والى جانب السلافيين في بوهيميا ومورافيا وسيلزيا يجيء التشك وسلافيو غاليسيا والبولونيون والروتينيون وتجد السولفانيين في شمالي المجر والسولفيين في كارنتيا وفي صقع آخر الخرواتيين والصربيين كما تجد الطليان في ترانتين وفريول وايستريا والرومانيين في ترانسلفانيا وبوكوفينا .

لا جرم ان سكان هذه المملكة النمساوية المجرية اذا تمّ تأليف الاتحاد الجرماني يندمجون مع الزمن على اختلاف اجناسهم في سكان المانيا الذين يجمعهم لسان واحد وعنصر واحد وتربية واحدة ومن العادة ان يتمثل الصغير في الكبير كما يبتلع الكبير الصغير ومها حاولت بولونيا وهنغاريا والدانيمرك وهولاندة ان تحتفظ بلغتها وقوميتها فان مدنية جرمانيا التي تفيض على الاطراف تتناول كل ما يقف امامها وتضمه اليها بالطبيعة والسيل يجرف ما في المنحدرات امامه كما انه حرب للمكان العالي

هذا الاندماج امر طبيعي في الامم يتم في اجيال ولكن الاكثار من خشيته واتخاذ الاساليب غير المشروعة من تعليم وتربية مضر في الامم المؤلفة من شعوب

وقبائل واجناس . قال بلوك (١) : ان من الناس من يتجرون باسم الوطنية والقومية كما ان منهم من يتجر باسم الدين . ومن يتجرون بنغمة القومية في مملكة ضخمة وقوميتهم عبارة عن خمسين او مئة الف عائلة لا تستطيع ان تؤلف على حدتها حكومة خاصة يضرون بالانسانية لان من مصلحة المجتمع ان تقوم فيه مراكز كبرى تنبعث منها انوار المدنية واصحاب هذه القومية بلغتهم التي لا يفهمها غيرهم وتغاليهم بالتغني بها لا يكون لهم مدنيــة خاصة ويبقون على اعتزالهم مؤلفين من حثالات ورغبتهم في ان يكونوا مجتمعاً منفرداً عن غيرهم يضعف المجتمع الكبير الذي تضمهم جامعته ولا يتيسر لهم مجال وينطفئ نورهم المضيء ونارهم التي تقذف بالحرارة ومن يستحسنون عمل من يذهب هذا المذهب في استقلالهم بقوميتهم هم اعداء البلاد في الداخل والخارج وابناء الوطن الواحد اذا شجر بينهم مثل هذه الدعوة تجرّ عليهم شرّاً اكثر من الخير

مثال ذلك . ببلاد النمسا والمجر المنقسمة الى قسمين غير متساويين فاقل من نصف النمسا يتكلم بالالمانية ومنهم اهل لغــة التشك ومشتقات اللغة البولونية والروتينية والسلافنية والصربية او الخرواتية والايطالية والرومانية والنصف الآخر بلاد المجر ونحو ثلثها يتكلمون بالمجرية والباقون بالرومانية والالمانية والاسكلافونية والصربية والروتينية وغيرها من اللغات ففي بلاد النمسا والمجر نشأت من مسألة الوطنية مشاكل للحكومة فعبث ذلك بنجاحها السياسي والادبي والمادي ونفوذها السياسي(؟) قال : اما في سويسرا فليس في مسألة اللغات ما يهدد كيان هذه الجمهورية . وسويسرا احسن مثال للشعوب المختلفة بلغاتها تعيش في بلد واحد حول جبال واحدة وبحيرات واحدة تتكلم الاكثرية فيها الالمانية والالمان ثلاثة ارباعها والربع الآخر يتكلم الافرنسية والايطالية والرومانشية وغيرها من اللغات والبلجيك تشبه سويسرا من بعض الوجوه نصف اهلها يتكلمون بالافرنسية والآخر بالفلامندية ومنهم من يتكلم بهاتين اللغتين معاً وغيرهم يتكلم بالالمانية وغيرها من اللغات قال : واما بقية بلاد اوربا ماعدا الدولة العثمانية وفرنسا والمانيا والدانيمرك (اسلاندة) والسويد والنرويج (لابون) فليس فيها سوى شعوب قليلة تتكلم لغة خاصة بها وقد كان من الحوادث المؤلمة ان انفذت

(١) كتاب اوربا السياسية والاجتماعية تأليف موريس بلوك

Maurice Block : L'Europe politique et sociale

البلاد العثمانية من عدة قوميات غريبة عن العنصر الحاكم (يعني بذلك البلغار والصرب واليونان والرومان) وليس في هذا الباب احصاء يعتمد عليه .

لا جرم ان حب الانسان للغته غريزية في البشر ويزداد شعوراً بذلك وتفانياً فيه كلما تقدم خطوات في طريق الحضارة . ومن كتبت له الرحلة الى بلاد النمسا والمجر وبلاد سويسرا وبلاد البلجيك وغيرها من البلاد المختلفة السكان يشهد غرائب من ذلك قال صاحب كتاب بلجيكا الحديثة (١) : لقد صرفت العناية بعد سنة ١٨٣٠ « لفرنسة » الفلاندر (من اقاليم البلجيك) فشقت عصا الطاعة وعصت على كل ما أريدت عليه وظل تركيبها العقلي ثابتاً كصفاتها التشريحية ولم يطرأ ادنى تبدل على افكارها وتقاليدها وشعورها وطرقها في التفكير والتدبير وما اللغة الا عنوان لامة وما من امة بدون لغة ولهذا ينهض سكان فنلندة لدفع الغارات عن لغتهم وكذلك اهل بولونيا والنمسا والمجر وسويسرا واسبانيا وغيرهم في كل صقع وناد . ويجب الاعتراف بان الوطنيين الفلامنديين يصدرون عن صواب في رأيهم اذا رأوا لغتهم القوة الموجدة التي وحدها يمكن ان تؤثر فيهم

وذكر المؤلف ايضاً ان دعاة الاتحاد الجرماني عفوا اثر حدود مملكة المانيا بل تخطوها الى غيرها فنشرت بطاقات بريد مصورة ممالك اوربا في سنة ١٩٥٠ وقد توارت منها البلجيك وهولاندا والدانيمرك والنمسا وقسم من روسيا ورومانيا قد اندمجت في الامة الجرمانية . ويرى اليوم دعاة الجرمنية اكثر من نصف بلجيكا المانياً بلسانه وان لهجة هولاندة وليمبورج المستعملة في عدة ولايات من تلك البلاد ليست الا المانية محرفة دارجة في شمالي المانيا فالحدود الالمانية قد التقت بخمسة ملايين من البشر في هولاندة وجوارها وثلاثة ملايين ونصف في بلجيكا وتوسع بعضهم فقال ان فلاندرا الشرقية والغربية هما ايضاً المانيتان جنساً . كما ان هولاندا وشمالي فرنسا هما ايضاً من هذا الطراز .

هذا ما قاله المؤلف قبل الحرب باعوام قليلة اما الآن وقد افتتحت المانيا بالسيف بلاد البلجيك وبضع ولايات في شمالي فرنسا فهذا يكون مصيرها من « الجرمنة » لا ريب ان الفاتح يهوى نشر لغته ولا يكلفه ذلك الا صدور الامر ومرور الزمن

(١) كتاب بلجيكا الحديثة لهنري شاريو
Henri Charriaut : *La Belgique moderne*

وبذلك تتحقق اماني دعاة الجرمنة فتكبر رقعة مملكة جرمانيا المتحدة ولا يمضي على سكانها جيل وجيلان الا وتصبح كلها المانية المنحى والنزع . وربما دعت حالة اوربا واميركا الى تأليف الامم بحسب العناصر فيكون العنصر الجرماني او الاتحاد الجرماني شقاً والعنصر السلافي شقاً آخر وكلًا من العنصر اللّاتيني والعنصر الانكلتري السكسوني شقاً كما يكون الجنس الاصفر في الشرق الاقصى شقاً برأسه فسبحان مفرق اللغات واللهجات وماون العور والسحنات

الخطابة عند العرب (١)

الخطابة ملكة كسبية وفطرية (٦)

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية اذا صاحبت فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب كل قول عجيب ، وقد كان دموستينوس وهو اخطب خطيب عند اليونان كما ان شيشرون اخطب خطيب عند الرومان — خطب في الجمهور اول مرة ولم يحسن الالقاء لانه كان الثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصوت فحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة في فمه وانشاد ابيات وهو يركض على شاطيء البحر ويرتقي الروابي والآكام

قال الجاحظ : اخبرني محمد بن عباد بن كاسب كاتب زهير مولى بجيلة وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال : سمعت ابا داود ابن جرير يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام واهواله فقال : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير اهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بني عليه اول الكلام اسهاب ، قال : وسمعته يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه

(١) راجع الجزء التاسع

وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض اهله فقال : اني لأكره ن يكون مقدار اسانه فاضلّا ع مقدار علمه كما اكره ان يكون مقدار علمه فاضلّا على مقدار عقله ، قال ابو عثمان الجاحظ : هذا الكلام شريف نافع ، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه ، ثم اعلموا ان المعنى الحقير الفا د ، والدني الساقط ، يعشش في القلوب ، ثم يبيض ثم يفرخ فاذا ضرب بجرانه ، ومكن بعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى داؤه ، ويمتنع دواؤه ، ولان اللفظ الهجين لردي ، والمستكره الغبي ، اعلق باللسان ، وآلف للسمع ، واشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النبيه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ، ولو جالست الجهال والنوكى ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من اوضار كلامهم ، وخبال معانيهم ، بمجالسة اهل البيان والعقل دهراً ، ولان الفساد اسرع الى الناس ، واشد التحاماً بالطبع ، واللسان يتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ، ومدارسة كتب الحكمة ، يجود لفظه ، ويحسن ادبه ، وهو لايحتاج في الجهل الى اكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى اكثر من ترك التخير .

قال معاوية بن ابي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة التي فيكم قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا امير المؤمنين هؤلاء بالبسر والرطب ، أبصر منهم بالخطب ، فقال له صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنفحه ، وان البرد ليعقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجهُ

قال ابوعثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، واهل البيان وحب التبيين ، انما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابي المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لايستجيزه اهل الادب من خطباء اهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو اعيب ، والذم له ألزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة امثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافق والانتفاع ، ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العامة الى معرفة خطأ القول ، اسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت في صمته ، اخفى من معنى القائل في قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، في معنى النطق بالباطل . ولعمري ان

الناس الى الكلام لاسرع ، لان في اصل التركيب ان الحاجة الى القول والعمل ، اكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله افضل من الكلام كله ، ولا الكلام كله افضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، افضل من عامة السكوت ، وقد قال الله عز وجل : سماعون للكذب اكالون للسحت . فجعل سمعه وكذبه سواء . وقال الشاعر :

بني عدي ألا ينهى سفيهكم   ان السفيه اذا لم ينه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم آمر ولم أنه عنكما   ضحكت له حتى يلج ويستشري

وكيف يكون الصمت انفع ، والايثار له افضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كما رووا كلام الناطقين ، وبالكلام ارسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصمت المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان . وقال ابو بكر ابن عبد الله المزني : طول الصمت حبسة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبلدت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروّون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت ، وتحقيق الاعراب ، لان ذلك يفتق اللهاة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا اكثرت تحريكه رقّ ولان ، واذا اقللت تقليبه وأطلت اسكاته جسا وغلظ ، وقال عباية الجعفي : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا ان يماري بعضهم بعضاً ، واية جارحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال ، اصابها من التعقد على حسب ذلك المنع

(٧) نصائح لمن يتطال للخطابة

مرّ بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انهُ انما وقف ليستفيد او ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنهُ كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان اول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة اكرم جوهراً ، واشرف حسباً ،

369

واحسن في الاسماع ، واحلى في الصدر ، واسلم من فاحش الخطاء ، واجلب لكل عين ، وغرة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، واعلم ان ذلك اجدى عليك ، مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ، ومهما اخطاك لم يخطئك ان يكون مقبولاً قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ، ومن اراغ معنى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من اجله الى ان يكون اسوأ حالاً منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل ، فان اولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، اما عن الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عن العامة ان كنت للعامة اردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معاني العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لي : انا احوج الى هذا من هؤلاء الفتيان . قال ابو عثمان : اما انا فلم ار قوماً قط امثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً واذا سمعتموني اذكر العوام ، فاني لست اعني الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، ولست اعني الاكراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار ، ولست اعني من لام مثل الببر والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وامثال الزنج ، وانما الامم المذكورون من جميع الناس اربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج واشباه الهمج واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وادبنا واخلاقنا فالطبقة التي عقولها واخلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاضل في الطبقات ايضاً .

ثم رجع بنا القول الى بقية كلام بشر بن المعتمر والى ما ذكر من الاقسام . قال بشر : فان كانت المنزلة الاولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند اول نظرك وفي اول تكلفك ، وتجد اللفظة التي لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها ، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول في غير اوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك احد ، وان انت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك ، بصيراً بما عليك او ما لك ، عابك من انت اقل عيباً منهُ ، ورأى من هو دونك انهُ فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في اول وهلة ، وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعهُ بياض يومك او سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، او جريت من الصناعة على عرق ، فان تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك واخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب والشيء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة

(٨) ما يجب على الخطيب وما لا يجب

قالوا : وينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات فان كان الخطيب متكلماً تجنب الفاظ المتكلمين كما انهُ ان عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً او مجيباً او سائلًا كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين اذا كانوا لتلك العبارات افهم والى تلك الالفاظ اميل والبها احن وبها اشغف ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق

اكثر الخطباء وابلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبح بالخطيب ان يقوم بخطبة العيد او يوم السماطين او على المنبر او في سدة دار الخلافة او في يوم جمع وحفل اما في اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان: ثم ان الله عز وجل بعد ان انشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا ولولا ان المتكلم افتقر الى ان يلفظ بالتلاشي لكان ينبغي ان يؤخذ فوق يده . وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته : وأخرجهُ الله من باب الليسية فأدخلهُ في باب الايسية الخ . قال : وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي ان يكون غريباً وحشياً الا ان يكون المتكلم بدوياً اعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمهُ الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميج والخفيف والثقيل وكلهُ عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا

فان زعم زاعم انهُ لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العي والبكي والحصر والمفحم والخطل والمسهب والمتشدق والتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والهماز ولم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط وقالوا رجل تلقاعة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدق) وفلان يتلهيع في خطبته وقالوا فلان يخطئ في جوابهِ ويحيل في كلامهِ ويناقض في خبره ولو ان هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء.

وانا اقول انهُ ليس في الارض كلام هو امتع ولا انفع ولا آنق ولا الذ في الاسماع ولا اشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا اجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء العلماء البلغاء

يروى ان مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهيه . ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود : حدث الناس ما حدجوك باسماعهم ولحظوك بابصارهم فاذا رأيت منهم فترة فأمسك

قال : وحدّث ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامي قالت : ما احسنهُ لولا انك تكثر ترداده فقال : اردده حتى يفهمهُ من لم يفهمهُ قالت : الى ان يفهمهُ من لم يفهمهُ يكون قد ملّهُ من فهمهُ قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب في التوراة لا يعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهري قال : اعادة الحديث اشد من نقل الصخر وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك فارفع عنهُ موؤنة الاستماع منك وجملة القول في الترداد انهُ ليس فيهِ حد يحصره من العوام والخواص

قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى انطق الناس قد جمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة وافهاماً يغنيهِ عن الاعادة ولو كان في الارض ناطق يستغني بمنطقهِ عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعادة وقال مرة : ما رأيت احداً كان لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليهِ طلبه اشد اقتداراً ولا اقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجهُ من الشركة ولا تستعين عليهِ بالفكرة والذي لابد منهُ ان يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل

قال ابو عثمان : اعيب عندهم من دقة الصوت وضيق مخرجهِ وضعف قوتهِ ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال ابو الحسن قال سفيان بن عيينة : تكلم صعصعة عند معاوية فعرق فقال معاوية : بهرك القول فقال صعصعة : ان الجياد نضاحة بالماء . والفرس اذا كان سريع العرق وكان هشاً (كثير العرق) كان ذلك عيباً وكذلك هو في الكثرة واذا ابطأ ذلك وكان قليلاً قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يعب ايضاً

نصائح لطالب الاجادة في خطبه

رأيت بما مضى بعض العيوب التي يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها مما ذكره ابو عثمان الجاحظ وهاك الآن قطعة اخرى له قال : قال بعض الربانيين من الادباء واهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ويبغض الاغراق في القول

371

والتكلف والاجتلاب ويعرف اكثر ادواء الكلام ودواءه وما يعتري المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول ويعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث الاقتدار من التهكم والتسلط والذي يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعاني والخلابة وحسن المنطق . قال في بعض مواعظه : انذركم حسن الالفاظ وحلاوة مخارج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظاً حسناً واعاره البليغ مخرجاً سهلًا ومنحهُ المتكلم قولاً متقناً صار في قلبك احلى ولصدرك املا والمعاني اذا كسيت الالفاظ الكريمة والبست الاوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها واربت على حقائق اقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت فقد صارت الالفاظ في معنى المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوي ومدخل خدع الشيطان خفي فاذكر هذا الباب ولا تنسه وتأملهُ ولا تفرط فيه فان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهُ لم يقل للاحنف بعد ان احتبسهُ حولاً مجرَّماً (تاماً) ليستكثر منهُ وليبالغ في تصفح حاله والتنقير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قد كان خوَّفنا كل منافق عليم وقد خفت ان تكون منهم الا لما كان راعه من حسن منطقه ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه قال الجاحظ : فالقصد في ذلك ان تجتنب السوقي والوحشي ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التخلص الى غرائب المعاني وفي الاختصار بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسهُ

وقال احد العلماء وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام : تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص والنظر في عيون الناس عي ومس اللحية هلك والخروج مما بني عليه الكلام اسهاب . وكان يقول : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الاعراب وبهاؤها تحبير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وانشد في خطبة اياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقد رد الجاحظ على من زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل وجعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب كله سواء وكله بياناً قال : وكيف يكون ذلك كلهُ بياناً ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعهُ للفاسد من الكلام لما عرفهُ ونحن لم نفهم عنهُ الا للنقص الذي فينا واهل هذه اللغة وارباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هولاء بكلامهم ... كما

لا يعرفون ركاكة الرومي والصقلبي وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بانا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاتهِ ونفهم بضغاء السنور كثيراً من ارادتهِ وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع

قال : وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة اللسنة وظهور الحجة وثبات الجهاد وكثرة الريق والعلو على الخصم ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والاسهاب والاكثار لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة والسلاطة تدعو الى البذاء وكل مراء في الارض فانما هو من نتاج الفضول ومن حصل كلامه وميزه وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم اشفق من الغرارة وسوء العادة وخاف ثمرة العجب وهجنة القبح وما في حب السمعة من الفتنة وما في الرياء من مجانبة الاخلاص

قال : وكانوا يأمرون بالتبين والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام ومن زلل الرأي ومن الرأي الدَّبريّ والرأي الدبري هو الذي يعرض منهُ الصواب بعد مضي الرأي الاول وفوت استدراكه وكانوا يأمرون بالتحلم والتعلم وبالتقدم في ذلك اشد التقدم . قال : وانا اوصيك ان لا تدع التماس البيان والتبيين ان ظننت ان لك فيهما طبيعة وانهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولي الاهمال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل فلا تقصر في التماس اعلاها سورة وارفعها في البيان منزلة ولا يقطعنك تهيب الجهلاء وتخويف الجبناء ولا تصرفنك الروايات المعدولة عن وجوهها والاحاديث المتناولة على اقبح مخارجها فان اردت ان تتكلف هذه الصناعة وتنسب الى هذا الادب فقرضت قصيدة او حبرت خطبة او ألّفت رسالة فاياك ان تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك الى ان تنتحلهُ وتدعيه ولكن اعرضهُ على العلماء في عرض رسائل او اشعار او خطب فان رأيت الاسماع تصغي لهُ والعيون تحدج اليهِ ورأيت من يطلبهُ ويستحسنهُ فانتحلهُ فان كان ذلك في ابتداء امرك وفي اول تكلفك فلم ترَ طالباً ولا مستحسناً فلعلهُ ان يكون ما دام ريضاً قضيباً ان يحل عندهم محل المتروك فاذا عاودت امثال

ذلك مرارًا فوجدت الاسماع عنهُ منصرفة والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليهِ او زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل لهُ طبيعة في الحساب وليس لهُ طبيعة في الكلام ويكون لهُ طبيعة في التجارة وليس لهُ طبيعة في الفلاحة ويكون لهُ طبيعة في الحداء او في التعبيرات في القراءة بالالحان وليس لهُ طبيعة في الغناء وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحون ويكون لهُ طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السرناي ويكون لهُ طبيعة في قصبة الراعي ولا يكون لهُ طبيعة في القصبتين المضمومتين ويكون لهُ طبع في صناعة اللحون ولا يكون لهُ طبع في غيرها ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع ولا يكون لهُ طبع في قرض بيت شعر ومثل هذا كثير جدًا

وقال : ليس في الارض كلام هو امتع ولا انفع ولا آنق ولا ألذّ في الاسماع ولا اشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا اجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد اصاب القوم في عامة ما وصفوا الا اني ازعم ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعاني كما ان النادرة الباردة جدًا قد تكون اطيب من النادرة الحارة جدًا وانما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن في الحار جدًا والبارد جدًا وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : والله لفلان اثقل من مغن وسط وابغض من ظريف وسط . قلنا وهذا يشبهُ ما قالهُ لابروير في كتابهِ الاخلاق : من الاشياء مالا يطاق فيـهِ التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن فوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد . سئل ما البلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في امور كثيرة منها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الاشارة ومنها مايكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداء ومنها مايكون شعرا ومنها مايكون سجعًا وخطبًا ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين فالاكثار في غير خطل والاطالة

في غير املال وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما ان خير ابيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته كأنهُ يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المواهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانهُ لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير الى مغزاك والى العمود الذي اليهِ قصدت والغرض الذي اليه نزعت قال فقيل لهُ فان ملَّ المستمع الاطالة التي ذكرت انها حق ذلك الموقف . قال : اذا اعطيت لكل مقام حقهُ وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وارضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانهُ لا يرضيهما شيء . واما الجاهل فلست منهُ وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا ينال .

علم المباني

رأينا في العهد الاخير حركة مباركة نحو العمران في هذه الديار فقد فتحت في دمشق وبيروت وحلب والقدس ويافا وحمص وحماة وطرابلس وغيرها شوارع وجادات واستجدت الهمة لتغيير صورة المدن القبيحة بصور جميلة من الطرز الجديد في البناء وشعر القوم وولاة امرهم بان الطرز العتيق في الابنية ينبو عنه النظر ولا يسد الحاجة المطلوبة في البناء ولا ينمُّ عن ذوق بحيث اصبحت مدننا بعد ضياع فن الهندسة منها عبارة عن قرى حقيرة ولكنها كبيرة واستعيض عن الحجر والآجر مع توفرهما بالطين واللبن مما يسرع اليهِ البلى والحريق

والشر الاعظم في تراجع العمران في هذه البلدان عدم الاحتفال بفن هندسة البناء او علم المباني *Architecture* فاصبح كل امريء وما يختار من البناء يبني على ذوقهِ بحيث لا تكاد تجد في اكثر مدن الداخلية ابنية من القرن الثاني عشر والثالث عشر هجرية الا كثيبة ينفر منها الذوق وتتجافى عنها العين ولا تقوم بما تقوم بهِ المباني في البلاد المدنة من الاقتصاد في النفقة والراحة للساكن وجمال الداخل والخارج ولا ينافي ذلك كون بعض الدور القديمة داخل البلاد ولا سيما في دمشق جميلة مزخرفة تتوسطها احواض الماء الدافق وتعرش على حوائطها النباتات والزهور

وقد جعلت طابقين طابق اسفل للصيف واعلى للشتاء فان هذه الدور قليلة العــدد لا تكاد تجد في الحي الواحد دارًا او دارين منها اما الحوانيت والمخازن فالجيــد منها اقل من القليل

علم البناء هو علم انشاء المباني على نسبة معينة وبحسب قواعد مقررة يجب ان يكون كل بناء نافعاً من وجوه فان الحاجات المادية والالهامات الروحية وطمأنينــة المرء تملي على المهندس مجموع الخطة او التصميم الذي يطلب منهُ وتقسيم داخل البناء واتساعه وغناه او فقره ومن اجل ذلك انقسمت المصانع والمعاهد كما قال الافرنج منذ القدم حتى زماننا الى ثلاثة تقسيمات كبرى وهي الهندسة الدينية والهندسة المدنية والهندسة الحربية

كانت مصر وآسيا مهد علم المباني واجمع الباحثون ان أهرام منفيس اقدم المصانع التي عرفناها وابا الهول المنحوت في الصخر في الجيزة القائم تحت رجليهِ معبد من الصوان والرخام الابيض لا يتأتى فصله عن الاهرام ولم تعرف المظلات في مصر الا على عهد الدولة الثانية عشرة من دول الفراعنة وارتقت الهندسة المصرية زيادة عن ذي قبل على عهد الدولة التاسعة عشرة والدولة العشرين .

ظهرت الهندسة في بابل ونينوى في بناء السدود والاسوار اولا وحازت حدائق سميراميس ومعبد بعل شهرة مستفيضة وبحق ما اشتهرت ولم يقض على بنيانها ويدخل البلى الى تضاعيفها الا ما جعل فيها من القرميد . وكان للمعادن المعمولة شأن عظيم في معاهد الفينيقيين واليهود وكانت الهندسة الهندية تتمثل في معابد الهند ومدافنها وبيوت اصنامها . وعرفت آثينة بانها مهد الانقلاب الهندسي في العالم فبلغت فيها الهندسة في عهد بركليس وفيدياس ارقى درجاتها وتمثل الذوق اليوناني في المعابد اكثر من كل شيء. وأثر في هندسة الغرب حق التأثير .

وتفنن الرومان في البناء وخلفوا في كل مكان امتد سلطانهم عليهِ من آثار الهندسة في الطرق والمجاري والاسوار والمسارح والحمامات ماشهد لهم باتساع الفكر والهندسة العملية والمتانة في العمل . ولما انتشر الدين المسيحي واعتبر ديناً لامبراطورية الرومان على عهد قسطنطين اخذ المسيحيون يبنون معابدهم على مثال معابد الوثنيين مع تزيين ظواهر البناء وتضاف اليها ابراج وقباب للاجراس . وتفنن البيزنطيون بالنقوش في البناء ويدخل فيها الرخام والمعادن والفسيفساء وكنيسة اياصوفيا في الاستانة وهي اجمل

مثال من هندسة الكنائس في القرن السادس .

قال العارفون من الفرنجة : لم يخترع العرب ابنية خاصة بهم بل تجلى في هندستهم حبهم للزخرف واللطف واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمفرشات من الاشجار والازهار مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ودلت كل الدلالة على ايغالهم في النقوش والزينة كأن ابنيتهم ومصانعهم هي قماش من اقمشة الشرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها .

جاء القرن الثاني عشر في اوربا وهندسة البناء تنتقل من طور الى طور حتى اذا كان القرن الخامس عشر كانت ايطاليا بفضل نهضتها صاحبة المقام الاول في الهندسة وعن هندستها ومعاهدها ودورها نقل الفرنسيس والاسبان والانكليز والالمان والسويسريون . ومن امم اوربا من اضاعت اصولها القديمة في البناء واتخذت من اصول الطليان نموذجاً حسناً سارت عليه كما لا تزال الامم تتخذ من طرز الهندسة العربية الاندلسية نموذجات الى هذا العهد ومنها محطة السكة الحجازية الحديثة في دمشق وهي ابدع بناية حديثة في هذه الحاضرة ولو سار الناس على نموذج معين في البناء لكانت مصانعنا ودورنا جميلة كمصانع الافرنج وبيوتهم ولم يوفق في ذلك بعض الشيء الا اصحاب البيوت المحدثة في بيروت ولبنان والقاهرة والاسكندرية والاستانة وسلانيك وغيرها من الساحل . ولو تطلعنا الى الصين لرأيناها منحطة في هندستها ومثلها اليابان تأثرت في هندستها القديمة بجوارها للصين ولكن بناياتها الحديثة حسنة كالهندسة الاوربية

قال مهندس مصري : ان ما تفهمهُ العامة في المدن الصغرى من انهُ لافرق بين المهندس المعاري والبناء وكثير من البنائين الذين عندهم بعض الذكاء والمعرفة يقومون بكثير من الاعمال ليس على حقيقتهِ . فالمباني ليست بهذه السهولة التي اختبروها . نعم ان كل انسان يقدر ان يفصل منزله الذي يرغب في سكناه ويتخيله ولكنهُ لا يدري كيف يجعل شكل واجهته جميلًا فمنهم من يفتكر ان حسن المباني بكثرة الزخرف فيملؤها بهِ فتظهر كشكولاً قبيحاً من الاشكال المتنافرة تدل على خفة واضعها . ومنهم من لا يفكر في ذلك مطلقاً الا بعد تمام بنائهِ فلا يدري كيف يفعل اذ يظهر لهُ كثير من العيوب والمطلع ان يردد طرفه في شوارع القاهرة فيرى ما يدهشه من مثل هذه المباني

فاذا زار مدينة القاهرة احد المهندسين الغرباء لاول مرة فانهُ يدهش كثيرًا اذ كان يتخيل قبل رؤيتها مدينة شرقية جميلة على الطراز العربي والتركي والفرعوني فاذا به

374

يرى خليطاً مدهشاً من المباني لا يدري كيف يعبر عنهُ فاذا دقق النظر في كل بناء على حدته وجد اختلافاً عظيماً بينها فبعضها مصنوع على اتم ما يكون وهو القليل وبعضها مضحك بل منفر لا يقدر محب الفنون الجميلة ان يطيل النظر اليهِ الى غير ذلك من مختلف الاشكال والالوان فاذا فحصها لا يرى في ترتيبها ونظامها مشابهة مطلقاً فيعرف بذلك ان لا قومية لهذه البلاد ولا ارتباط في اذواق اهلها

وقد يلاحظ ايضاً في بعض العمارات ان اصحابها ليست فيهم القدرة على بنائها فلذلك حذفوا كثيراً مما كان متمماً لها ابتغاء الاقتصاد ولا يهمهم الا ان تكون لهم عمارات كبيرة من غير ان يلتفتوا الى جودة ادواتها ودقة صنعهـا ومنهم من يريد ان يجعل مبانيه في غاية المتانة والاتقان فيكثر في الانفاق عليها دون فائدة وفي كلتا الحالتين تظهر مبانيهم في غاية القبح

يظهر ان كثيراً منهم ينقصهم المنطق والانتقاد بل ويزيد فيهم الاهمال والتهاون والجهل فان بعضهم يأخذ عمله عن رسوم افرنجية ويريد ان يعمل على شكلها ويحب ان يتفلسف فيها فيحذف المهم ويضيف ما يرى انهُ حسن فيظهر عمله مشوهاً وهو يظن انهُ جاء بما لم يأتِ بهِ الاولون

علم المباني فن من الفنون الجميلة بل هو احسنها فاذا قارنّا بينهُ وبين الموسيقى نجد ان كليهما مطرب للانسان فالاول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الاوقات والثاني مكوّن من تراكيب واوضاع غير متنافرة الاجزاء

يظهر الاول مذبذبات العدد والاوتار يحملها الهواء الى الآذان فيطرب بهِ الانسان ويظهر الثاني الظل والضوء والالوان فتراها العين في اتم ما يكون موضوعة بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحه فتشتاق اليها النفس فكلا الفنين جميل غير ان الاول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل

لا يحتاج الموسيقار في تركيب دور الموسيقى الا لمعرفتهِ النغمات والازمان وانطباقها على معنى ما يلحنهُ من فرح وطرب ولوعة وحزن ولكن في عمل البناء صعوبات جمة من بين فحص الادوات المختلفة ووضعها وعمل حساب اثقالها ومقاومتها وجمعها وعلى ذلك فان فن البناء هو صعب الفنون الجميلة وأحسنها وهو في الحقيقة اول شيء يبحث عنهُ في كل فن وهو جواب لهذا السؤال الخطير (اوجد لي محلاً جميلاً يليق بشي او

عملي وانت ترى تقدمي) فيجب والحالة هذه ان لا يعهد في الاعمال الا الى المهندسين الفنيين الاكفاء لا الى المعلمين والصناع (كما هو شأن معظم من يبنى في هذا القرن الرابع عشر في بلاد الشام ويا للاسف)

ومما يجب ان يلاحظ في هذه المباني حين عملها جودة ادواتها وتحكيم ترتيباتها ودقة زخرفها ومجانسة وكمال تركيبها العمومي وطرازها وملاءمتها لما يحيطبها ووجود كل ما يحتاج لهُ في محتوياتها وتخطيطها وتناسب كل ذلك بعضه مع بعض

وليس في كل ذلك من بأس على المهندسين فانهم معذورون بل المسؤول في ذلك هم اصحاب هذه المباني فانهم يضنون بالقليل اجرة اتعاب المهندس الذي يضع لهم تصميماً تاماً عن مبانيهم ويفكرون ان ذلك شيء لاضرورة لهُ ومن ذلك ظهرت هذه النتيجة المعيبة في الابنية

ان الذين يحكمون على الامة ليس لهم الا الظاهر منها وان اول شيء يظهر لهم هو حالتها الاجتماعية وكيفية معيشتها ومبلغ مدنيتها وذلك لا يظهر الا في مبانيها فاذا كانت مستكملة الشروط حكموا لها بالرقي والا فيحكمون عليها بالجهل والانحطاط وربما يعترض بعض المطلعين بقولهم انا عهدنا لبعض المهندسين باعمالنا فقدموا لنا رسوماً لمبانينا ولكنا بعد ان اتممنا بناءها وجدنا شكلها ليس كما يرام فيجاب على ذلك بجوابين : الاول انهم ضنوا على مهندسيهم بجميع قيمة اتعابهم . ثانياً : ان الرسوم المقدمة اليهم كانت بنسبة تلك الاتعاب ونتيجة ذلك ان الرسم المقدم اليهم كان الشكل التخطيطي فقط وليس ذلك بالكفاية خصوصاً وانهم لم يفهموه في الغالب وهم في ذلك معذورون والمهندسون لا يمكنهم تقديم رسوم مستكملة الشروط بهذه الاتعاب القليلة

والنتيجة انهُ يجب عمل الرسوم اللازمة لاي بناء قبل الشروع فيهِ ويجب ان تكون الرسوم المقدمة من المهندس اربعة على الاقل اولها المسقط الافقي ثانيها شكل اهم واجهة في البناء ثالثها قطاع رأسي عن جميع البناء مبين فيهِ الارتفاعات وغير ذلك رابعها رسم تفصيلي عن اهم ما يراه المهندس في البناء

وبعد فان المانع في فلسفة الفنون الجميلة من ان نقول ان هذا البناء بلغ حد الكمال لم يزل الى الآن ولا ندري ان كنا بلغنا درجة محسوسة في الرقي تظهر آثارها ان يأتي بعدنا او لا . فانا لم ننس الزمن الماضي ومبانيه وقد بقي منهُ كثير من القصور

الكبيرة الى الآن فاذا نظرنا واجهة احداها التي كانت في زمانها آية الآيات في الزخرف والرواء عند صانعيها نقابلها الآن بابتسامة فهل ما نصنعهُ اليوم ونظنه جميلًا سيقابل من رجال المستقبل بهذه الابتسامة ايضاً ؟ لا ندري : ولكن الذي يجب علينا هو ان نصنع اعمالنا على قواعد اساسية يقررها العلم ويستحسنها العقل وترتاح لها النفس حتى اذا جاء الذي بعدنا ونظر عملنا يعتقد اننا كنا نشتغل بفكر وعلى قواعد ويكون ملزماً باحترام اعمالنا كما نحترم نحن الآن الآثار الجميلة التي تركها الفراعنة والعرب والتي هي موضع الاعجاب لعهدنا عندنا وعند غيرنا

ان الحكم على شيء او المقارنة بينهُ وبين شيء آخر هو فرع عن تصوره وذلك لا يكون الا نتيجة مبلغ رقي المقارن في الهيئة الاجتماعية ومبلغ علمه فيما سيحكم فيهِ فما علينا الا ان نجتهد ونرتقي ونعرف وبعد ذلك نحكم فيكون حكمنا على اساس متين يقبلهُ العقلاء وتطأطئ لهُ الرؤوس

المنزل مأوى الانسان مع اهله بل هو المملكة الصغيرة التي تدبرها مدبرته وهو ذلك الحريم الشرقي الذي تعيش فيهِ المرأة الشرقية مع اولادها بل المدرسة الاولى لافراد الامة المستقبلة وهو المكان الذي يأوي اليهِ ربه بعد تعبه من اشغاله فيجد فيهِ الراحة والهناء . فيجب والحالة هذه ان يكون محتوياً على جميع اسباب الراحة مستوفياً جميع الشروط الصحية سواء كان ذلك في البيوت داخل المدن او في المنازل الخلوية او في طباق العمارات الكبيرة

ان رقي الامة او وجوب رقيها يضطرنا الى تغيير النظام الذي سارت عليهِ في القرن الماضي لايجاد المحال الكافية من كل وجهة لمعيشة عائلة شرقية اسلامية اخذت ترجع الى المعيشة الديموقراطيَّة ثم سهولة الاعمال العظيمة بواسطة العدد والاختراعات الحديثة تساعدنا على انشاء هذه المحال باشكال جميلة ونظام تام حتى يجد الافراد فيها راحتهم وسرورهم . يلاحظ المهندس المعماري قبل وضع تصميمه شيئين : **الاول** ملاحظة عمومية . والثاني تفصيلية وكلتا الملحوظتين تنقسم الى عدة اقسام

فالاولى يجب على المهندس ان يضع نصب عينيه — نقطة البناء وشكلها — منظر واجهته وتلافيها بالنظر — استقلال محلاته — الاقتصاد الممكن في البناء وكذلك مراعاته السكان — ما يقي السكان عند حدوث الخطر — ملاحظة المفروشات ونظامها — وحفظ الصحة ومراعاتها . والثانية تفصيل المحال من غرفة

استقبال الرجال او المطالعة وغرفة النوم والملابس والحمام وما يتبعه وغرفة اشغال ربة المنزل واخرى لاستقبال السيدات وغرفة الاطفال والمطبخ والانبار وغرفة الاكل الخ

ولا يوجد قانون لجمع هاتين الملحوظتين وفروعهما وانما يأتي ذلك بقوة ومهارة المهندس الذي يضع التصميم ومبلغ ذكائه وخبرته وعليهِ ان ينظر لكل نقطة من هاتين الملحوظتين وغيرهما ويهيّئ لها جميع الافكار التي تناسبها في خاطره ثم ينتقي احسنها وعليها يبرز تصميمه

وبعد فلا تدخل المدن الشامية في طور العمران الحقيقي الا اذا جعل مصوّر عام لكل مدينة لا يسمح لاحد ان يبني الا بحسب ما تقرر . وان يشتغل المعول زمناً في هدم الحلل والاحياء والازقة الضيقة والدور الكثيبة مع ملاحظة غنى السكان وحالة البلاد واتباع سنة التدريج وان لا يبني الباني داره ولا حانوته ولا مصنعه الا بحسب الطراز الذي ترسمهُ البلديات والابعاد التي تعينها للجادات

ومن الغريب ان جميع مدن سورية ليس لها خريطة سوى مدينة حلب وماعداها فيبني البانون فيها بحسب رغائبهم يختارون الطراز الذي يروقهم ويلتئم مع مصلحتهم الموقتة ويبعدون عن الشارع او لا ينحرفون عنهُ بحسب ذممهم وقلَّ ان شاهدنا بلداً من بلادنا احس بسلطة مهندسي المجالس البلدية عليهِ وكثيراً ما يعينه المهندس على ضلالتهِ لقاء عرض قليل يبتاع بهِ ذمته . فاذا وفق رجال الادارة الى تتميم ما بدأوا بهِ من هذا القبيل لا يمضي نصف قرن على الاكثر حتى تصبح مدن الشام بل قصباتها الصغرى عامرة مستوفاة شروط الذوق والراحة وافية بالمراد من حيث الصحة والغناء

ونشير على كل من تحدثهُ نفسهُ باقامة دار او حانوت او مصنع او قهوة او مسرح او فرن او معمل ان لا يشرع بعمله قبل ان يفزع الى مهندس ماهر ولا يتطلب من ارباب هذا الفن الذي يرتضي بالقليل بل يؤثر الذي يتناول اجرة جيدة ويعمل عملاً يماثلهُ وبذلك يتوفر عليهِ ماله وتبقى بنايته القرون قائمة تتوارثها اعقابه من بعده وكلما طال عليها العهد حلت واصبحت لها قيمة والا فيكون كمن استرخص طبيباً وطب الارواح كطب الاشباح متلازمان ولولاهما لما عاش انسان ولا حيوان ولخرب العمران وابذعر السكان . ان بيوت مهاجرة الاسرائيليين في يافا وجالية الالمانيين في حيفا اعظم معلم لمهندسينا واهل الاملاك فينا ينظرون كيف انشأ بانوها من الفقر غنى ومن العدم راحة وجمالاً وزخرفاً ورفاهية

اعلام المدن والبلدان

لا خفاء ان كثيراً من الدواعي القديمة والحديثة والآتية تتخذ اسباباً لاسماء البلدان والمدن والاماكن على اختلافها واختلاف اللغات والقبائل والزمان والمكان ونحو ذلك من المؤثرات التي تعمل في الاعلام عمل المؤثرات الطبيعية من حرارة وبرودة ونحوهما في سيارنا الارضي فتقلب الجبال سهولاً والسهول تلالاً واليابسة بحاراً والبحار يابسة حتى انك اذا درست طبقات الارض وانعمت فيها النظر توصلت بالبحث الى استطلاع تلك الفواعل وتعاقبها وما سببتهُ البراكين والزلازل والمؤثرات الأخرى مهما كانت . فتقف حائراً عندها مسبحاً الخالق الذي اعطاك عقلاً مدققاً وارشدك الى معرفة العلل والاسباب لتقتنع وتلتذ بما تكتشفهُ من مبهمات الشؤون وغرائب الحوادث

ومن الثابت ان تأثير العبادات وتيار الاديان وتعاقب الفاتحين وتداخل اللغات او تزاحمها هي من اهم هذه الفواعل في اعلام الاماكن فترى الامة التي تقف على علم مكان كان قد وضعهُ من قبلها اماً ان تحوّلهُ الى لغتها او لغة جيرانها او تتمحل لهُ سبباً لغوياً آخر لتمييزه ومعرفة معناه اوداعي تسميته . ثم تأتي امة اخرى بعدها تطوّس على آثارها فتنقض رأيها وتؤيد رأياً جديداً لها فيه نظر آخر او تقتفي اثرها بنقل سبب تلك التسمية على علّاتها فيقع الاشكال في ردّ الاعلام الى نصابها وإرجاع الالفاظ الى مظانّها ومعرفة اللغة التي وضع فيها العلَم وما كان القصد من وضعهِ الى مايساوق مثل هذه التعليلات ويدخل في حيز اللغات الميتة او الحية ويرشد الباحث الى الوقوف على ما هو الارجح والاثبت . ولا سيما اذا كان قد درس علم الآثار القديمة (الاركيولوجي) والاساطير (مثولوجيه) وعلم الازمنة والاعداد التاريخيّة (الكرونولوجيه) وعلم مقابلة اللغات وعلم الديانات ونحو ذلك من العلوم التي لها اكبر علاقة في معرفة الامم وعباداتها ولغاتها وتعاقبها

ولقد وضعت تواريخ كثيرة مطولة لسورية وبعض مدنها وبلدانها مثل (تاريخ زحلة) الذي طُبع و (تاريخ سورية المجوّفة) اي سهل بعلبك والبقاعين و (تاريخ قضاء المتن) وغيرها مما لم يطبع وحللت فيها اسماء القرى والاماكن تحليلاً تاريخياً

اثرياً لغوياً يبين شؤون القدماء وعاداتهم ومن هذه المؤلفات اقتطفت هذه المقالة الآن

فاذا بحثنا في اسماء القارات العظيمة نجد ان اسم قارة (اسية) اما من كلمة شرقية قديمة بمعنى (النور) او من كلمة (إوس) اليونانية بمعنى الفجر . واما باسم (اسية) في الاساطير وهي ابنة اوقيانوس وكل من هذه الآراء هو ممكن لما في اشتراك التسمية كما لا يخفى . والاسم اليوناني فيها ارجح لسكنى اليونان فيها قديماً

واسم قارة « افريقية » (١) ربما كان فينيقياً بمعنى (الفرق) او (المهجر) لان القرطجنيين منهم اول من اطلق عليها هذا الاسم اما لافتراقها عن قرطجنة مستعمرتهم واما لان فرقة من القرطجنيين نزلتها وتديّرتها او لمهاجرتهم اليها

وكل من اسمي (آسية) و (افريقية) وغيرها كما لا يخفى اطلق على القسم الذي نزلته امة اليونان في آسية الصغرى او بر الاناضول والقسم الذي نزلته الامة الفينيقية وهو شمالي افريقية حيث تونس والجزائر وطرابلس الغرب . فسمي الكل باسم البعض مجازاً وهذا كثير في التسميات المكانية وغيرها

واسم قارة (اوربة) اما نسبةً الى اوربة ابنة اجنور ملك فينيقية لان المشتري (جوبيتر) حملها الى هناك في زعمهم . واما من كلمة فينيقية بمعني البياض لبياض لون سكانها او محرف (عروب) او (اربة) الفينيقية ايضاً بمعنى الغروب والظلمة لوقوعها غربي اسية

واسم قارة (اميركة) نسبة الى اميريكوس ڤسپوستيوس التاجر الفلورنسي المتوفى سنة ١٥١٢ م لانهُ اول من وصفها بعد اكتشاف كريستوفورس كولمبوس لها وكان حقها ان تسمى باسم مكتشفها ولكن تأثير اسم الثاني كان اعم فغلبت التسمية به (٢) وسميت اقسام فقط منها باسم المكتشف مثل (كولومبيه) فتأمل : وتسمى (العالم الجديد) لجهل القدماء لها و (جزائر الهند الغربية) لانهم ظنوها من الهند في اول الامر

(١) وقيل ان الرومان سموها بذلك من كلمة Aprica اللاتينية بمعنى (الشمسيّ) او من كلمة A.phriké اليونانية بمعنى (بدون بَرْد) . وسماها اليونان ليبية اما من لِبس في لغتهم بمعنى ريح الجنوب او من اسم (لوبيم) الشعب الذي سكنها ولم يطلق اسم افريقية على كل القارة الا في زمن الرومانيين

(٢) وقيل انها لفظة بيروية بمعنى بلاد الريح (امارّاكا)

واسم قارة (اوسترالية) لاتيني من اوسترالس بمعنى الجنوب او ريح الجنوب

واسم قارة (اوقيانية) نسبة الى الاوقيانوس المحيط لانها واقعة فيه والاوقيانوس في الاساطير القديمة نهر عظيم كانوا يعتقدون انه يحيط باليابسة

هذا هو المشهور في تسمية القارّات الست وهناك اقوال اخرى وآراء متلونة تراها بعيدة عن الصحة نافرة عن مضاجع التحقيق · ولعل الآتين بعدنا يتوصلون في ابحاثهم وتنقيبهم الى ما هو اقرب الى الصحة وادنى الى الحقيقة

وبما ان القدماء مثل الفينيقيين واليونان والرومان كثرت مخالطتهم للامم ودخلوا معظم القارات تركوا آثار لغاتهم في اسماء البلدان والمدن وشاعت بين الامم الاخرى من طريق لغاتهم ومؤلفاتهم واساطيرهم ونحو ذلك فكثرت هذه التسميات ومازجتها امم الكلدان والمصريين والاشوريين والبابليين والحثيين والفرس والعبران والعرب والترك والافرنج فبقيت آثار تسمياتهم ايضاً ومن كان من هذه الامم اشد حرصاً على حفظ لغته واتساع نطاقها واستبقاء اسمها ظفر بامنيته وابقى للآتين تأثير فتوحه او امتزاجه او عباداته ونحو ذلك مما هو جدير بالاعتبار وحري بالاستقراء

فمن (الاعلام الفينيقية) (بيروت) وهي جمع بئر او اسم الاله الفينيقي (بيروت) ولا صحة لما يتمحله كثير من مؤرخي الامم وبينهم العرب من الاسباب الاخرى والمزاعم الاشتقاقية التي لا وجه لها من الصواب في ما مر وما يأتي من مثل هذه التسميات الاجنبية * ومن ذلك البيرة بمعنى القصر والحصن * والمجدل بهذا المعنى ومشتقاتها كمجدليا ومجيدل ومجدلون (١) * ونهر المُوت بضم الميم وهو اله الجحيم المسمى بلوتون * والفرزل بمعنى الحديد * ومالطه بمعنى المأوى * وقرطاجنة بمعنى البلد الجديد * ونهر ادونيس اي تموز وهو نهر ابرهيم وربما كان اسم بدادون من بيت ادون ثم حذفوه بالابدال والحذف او انهُ مركب من بيت وداد الاله السامي وأُلحق بأون تبعاً للغة السريانية فكان معناها بيت داد · ومنها بغداد · ومثلها دده في الكورة وبادوره في الصلت ولعلها من الاله الفينيقي ديده ومنها اسم (ددَن) في بلاد العرب * والبعل ومنهُ تركبت اسماء كثيرة مثل بعلبك اي بعل البقاع وبعل

(١) ومنها تركبت اسماء كثيرة مثل مجدل بَعنا ومجدل معوش ومجدل عنجر ومجدل ترشيش

فاغور وبعل تامار (١) * وجدّ من آلهتهم ومنه اسم جدّايل (اي الاله جدّ) وربما كان اله الحظ وهو اسمه عندنا * ومنها اسم ميّوميه وهي بلدة ذات ينابيع فاسمها من المياه * وقبراشمون قرب عيناب على طريق بيت الدين من بيروت وقرية بشامون من بيت اشمون واشمون احد مثلثات الالهة الفينيقية في صيداء . وهيكل اشمون في صيداء اكتشف في بستان الشيخ فوق وادي نهر الاولي . واخربة اشمونيت في بطرام الكورة (لبنان) وهو اسكولاب اله الطب عند اليونانيين . واشمونين في مصر . واشمونيت عين في ظاهر حلب في جنوبيها قال فيها ابن ابي الخرجين :

وهل عين اشمونيت تجري كمقلتي   عليها وهل ظل الجنان مديدُ

و (علين) تحريف عليون اي زُحل في جوار زحلة ويترجح ان اسم المدينة من هـذا المعبود * وحمّانا من حمون بمعنى المحرق وهو من معبودات القرطجنيين

ومن (الاعلام الكلدانية والآرامية والسريانية) الاله قمَر ومنها دير القمر * والمعرّة بمعنى المغـارة مثل معرة النعمان ومعرة مصرين ومعرة صيدنايا ومعرة باش * والكفر بمعنى القرية والحقل ومنهـا مركبات اسماء قرى كثيرة مثل كفرعاقب وكفرعقاب (٢) * وبيت مري (والاصل موري) بمعنى بيت بعل مرقد اله الرقص * ورشعين وريشمينا ورشمياً بمعنى رأس العين ورأس الماء * ودير احويشا اي الحبيس في سعرت (ديار بكر) ومجوشا فوق زحلة اي بيت احويشا بمعنى بيت الحبس * ودمشق بمعنى المزهرة * ورامون اله سرياني تركبت منهُ اعلام كثيرة مثل برمّانا اي بيت الاله رامون . وعين الرمانة وعرمّان في حوران وتعرف اليوم باسم عرَمـان * وبيت لهيا بمعنى بيت الالهة * والكرك والكرخ بمعنى الحصن والمعقل * ونيحه اي المستريحة * واليمُّونة تصغير يمّ بمعنى البحيرة * ويونين من (يو) الالـه الكلداني بمعني نور و (اونين) اي البعل

ومن (الاعلام المصرية) اسم الاله فتاح وارجّح ان اسم فتوح كسروان نسبة

---

(١) واشتق من البعل الفاظ كثيرة وركبت اسماء مثل بعلول في البقاع ودير بعليه قرب حمص . وبعل شميه في لبنان

(٢) ومشتقاتها مثل الكفور والكفير وكفرة . وتركبت هذه مع غيرها مثل كفور العربة وكفور قزحيا وكفير حاصبيه وبقاع كفره

الى فتاح (١) لا الى فتوحها كما يذكر المؤرخون والله اعلم * وباب مارع قرية في البقاع مركبة من (ما) الهة مصرية ربة العدل والحق اخت (رع) بمعنى الشمس عندهم او اله الضوء . او انها محرف امون رع بمعنى الشمس الخفية * وأَنحُور عند المصريين هو مارس عند اليونانيين . وحور الـه مصري ايضاً يسميهِ اليونان ابلون . ومنهُ اسم عين حور على طريق دمشق * وأمون اله مصري ربما كانت بلدة اميون في الكورة باسمهِ * وماث نحاسي (عين الجر) بمعنى مدينة النحاس * وجب جنين من (جينون) معبود

ومن (الاعلام الاشورية) مكة بمعنى بيت ومنها اسم مكة المكرمة وتسمى ايضاً بكّة بالابدال من (بَكَا) الدالة على قلة المــاء او على اسم نبات بالعبرانية (بكا) ومنهُ وادي بكّه على طريق الشام * ويثرب اصلها (أثر) بلد و (رب) عظيم فحرفت يثرب * ومارب فما (ماء) و (رب) عظيم اي السيل العظيم * وأَدَد اسم اله عندهم ولعل الحدَث محرَّف عنها ولاسيا حدَث بعلبك لان فيه هيكلاً قديماً ربما كان لهذا الاله * وبنو عطارد ومنهُ اسم قصر نبا في البقاع وكفرنبو في نواحي حلب وحصن نبو في بلاد العرب * وكيوان بمعنى زُحل ومنها مراح كيوان في لبنان * وعيتنيت من (عنت) و (تنيت) وهما اسم واحد لآلهة اشورية عرفت باسم سميرام وربما كانت عيثا محرف عنث وعينانا ايضاً وكلتاهما في سورية المجوفة

ومن (الاعلام البابلية) (سين) بمعنى القمر ومنها درب السين او دير بسين او دير بسيم شرقي صيداء . وكان لهُ في حرَّان هيكل مشهور واتصلت عبادتهُ بسورية وكفرباسين في جبل سمعان غربي حلب والمعنى قرية بيت سين . وطورسينا كانت العرب يعبدونهُ في الجاهلية ولعل الايطوريين اي الجبليين العرب حملوا هذه العبادة الى لبنان * ومردوخ المشتري ولعل قرية مدوخة في البقاع محرفة عنهُ

ومن (الاعلام الحثية) الحثّ وهي قرية تابعة لقرية شهباء في حوران * وكش الـه حثي فكلمة كرك كميش بمعنى حصن كميش وهي على الفرات . ولعل منها عرجموش قرب زحلة وهي المحلة المعروفــة اليوم بالغيضة فهي تحريف كركوش مثل

(١) ومما يؤيد هذا الرأي وجود كتابة هيروغليفية على درج نهر الكلب قرب الفتوح تدل على تقدمة للاله فتاح اوبتاح هذا

كركميش وكموش اله موآبي ادخلهُ الاشوريون في جملة معبوداتهم كما عرف ذلك من الآثار * ومنها الشاغور ومشغرة وجسر الشغَر قرب حلب

ومن (الاعلام الفارسية) على ما يُروى اسم الكعبة من كه به وقيل ان مكة تحريف مهكه اي معبد القمر * وقبلة تحريف كابلّا اليونانية بمعنى المعبد * والفريديس ومنها فريديس حلب قرب قنسرين وفريديس الباروك في لبنان وفريديس دمشق * ويرجح ان الاشبانية فارسية بمعنى الاحمر جدًّا من شبانه اي الخمر المشروبة ليلًا * والايوان ومنها ايوان كسرى * والبرذون تحريف بَردن بمعنى الاشتداد في العدو ولعل اسم نهر البردوني في زحلة منها . او انهُ تصغير برَدَى بمعنى البارد * والجمهور بمعنى الجماعة وهو اسم قرية بظاهر بيروت فيها موقف القطار الحديدي * والجورَة الحفرة او القبر ومنها جورة البلوط اسم قرية * والقوقاز بمعنى الابيض

ومن (الاعلام العبرانية) حيفا بمعنى الفرضة والمرفاء وعمُيق بمعنى العمق * ومكسه بمعنى الضريبة على البضائع * والبقاع بمعنى السهل * وحوران بمعنى المغاور ومنها قرية كفرحورة في الزاوية بمعنى قرية المغارة وكفرحوار قرب دمشق * وارجح ان عنجر عبرانية بمعنى عين الغريب

ومن (الاعلام اليونانية) طرابلس بمعنى المدن الثلاث لانها كانت في العصر الفارسي مقرًّا للمجلس المتحد المؤلف من مندوبي صيدا وصور وارواد وكلٌّ يقيم في قسم من المدينة فسماها اليونان تريبولي بمعنى المدن الثلاث وحرّفت طرابلس وهي اثنتان في الشام وفي بلاد المغرب ومنها تربل قربها في البقاع * وقنوبين تحريف كنوبيون اي المجتمع والمنتدى * والفيجة تحريف بيجه بمعنى الينبوع ولعل كلمة بجه في لبنان وبجة في حوران تحريفها ايضًا * وقب الياس من قَب اليُوس بمعني مركز الشمس . وبر الياس ابن الشمس وانطلياس بمعنى مقابل الشمس وبرجليوس (جبل النصيرية) بمعنى برج الشمس * وبوسفور ممر البقرة * وبرجا وطبرجا بمعنى قصبة العاملة والديماس بمعنى الغرفة * ومن اسماء الهتهم بكركي وكركي اسم الهة يونانية ساحرة * وطاميش الاله ارطاميس . وبلونه ابلون وبوذيس حُرّف بوذيه في بلاد بعلبك * وذورس احدى بنات البحر دورس فيها * وصفيّه ابنة البحر ومنها حوش تل صفيّه * ووادي القرن (كرونوس) اي زحل . وقرنايل الاله زُحل * وصربا سيرابيس * ومنها ما سمي باسماء الملوك مثل سلوقية (السويدية) نسبة الى بانيها سلوقوس نيقاطور

وفيلاذلفية (عمان) نسبة الى بطلمايوس فيلوذلفوس* وطبرية الى طيباريوس وغوسطه الى اوغسطوس و اوغسطه * فضلًا عن تسميات مختلفة مثل هليوبوليس (بعلبك) اي مدينة الشمس * وهيرابوليس (منبج) وكريسرواس اي مجرى الذهب لنهر بردى * وكاشيس او خلقيس (عين الجر) بمعنى مدينة النحاس * والقلمون بمعنى الاقليم والمناخ * وانتيلبنان بمعنى مقابل لبنان * وكيلوسيري بمعنى سورية المجوفة ويراد بها السهل بين جبلي لبنان الشرقي والغربي*والاناضول بمعنى الشرق* وموناستير بمعنى دير * وايبيروس ارض متسعة * واسطنبول بمعنى الى المدينة * وكاليبولي المدينة الجديدة * والارخبيل رأس البحر * ونابلس نيابوليس بمعنى المدينة الجديدة

ومن (الاعلام اللاتينية) ما هو من هذا القبيل ولعل غريفة تحريف اغريب صهر اوغسطوس قيصر او اغريب الاول * وتيرون من تيرو بمعنى الجندي وهي اسم (شقيف تيرون) احد الحصون القديمة * والفسطاط تحريف Fossatum بمعنى خندق وعسقلان من اسكلانيا اي البصل لجودة بصلها * واللجون (مرج ابن عامر) وهناك قرية لجون حيث كانت تقيم فرقة رومانية باسم Legion * وبرقطه في لبنان بمعنى شلّالة * وقيصرية نسبة الى قيصر مثل قيصرية فيلبس وهي بانياس وقيصرية فلسطين ويقال ان اسم كساره قرب زحلة هو تحريف قيصرية

ومن (الاعلام العربية) النبك وهي اصغر تلة ارتفعت عن سطح الارض والجديدة والمحيدثة وأنفة وجون وقارة وهي الجبل الصغير المنقطع والمرج والمريجات وزحلة والمعلقة والمشرع والوادي والبرج والبريج وسوق الغرب وسوق وادي بردى . وجبل الشيخ وفم الميزاب .والمشيرفة والاشرفية والمشرفة . والكلمات المركبة من دار ودير وقصر واشباهها مثل دار بعشتار اي دار عشتروت ودير الغزال وقصر نبا اي قصر عطارد فتؤلف من لغتين فاكثر وهذه الاعلام الممتزجة اللغات كثيرة عندنا

ومن (الاعلام التركية) الزوق في لبنان وعكار بمعنى المنزل ادخلها التركمان الذين حكموا تلك الجهات * وآستانة عتبة * واسكي شام اي الشام القديمة وهو اسم بصرى في حوران * ومرسين بمعنى آس*وقرق كليسه اربعون كنيسة *وجركس كوي قرية الشركس * وقللي برغاس برج برغاس * والجفتلك بمعنى المزرعة وتطلق على الارض التي هي بادارة الحكومة خاصة مثل الجفتلك السلطاني * ونوفي بازار من نوفي اليونانية بمعنى جديد وبازار بمعنى السوق ويقال لها يكي بازار * ونهر قره صو

(النهر الاسود) * ونهر سودلي (نهر اللبن)

ومن (الاعلام المؤلفة من لغات مختلفة) حملايا فهو من لفظتين سنسكريتين بمعنى موطن الثلج * وامازون هندية بمعنى محطم القوارب *وبومبي بالبرتغالية المرفأ الحسن ولاصا عاصمة تبّت معناهـا في لغتهم (ارض الالهة) وفي لبنان قرية باسم لاصاً * وداجون معبود فلسطين سُميت باسمهِ قرى مثل (مين الدوق) في زحلة . وفلسطين* ومُتنا كلمة سومرية اكادية لبعل عشترت اي الزهرة فارجح ان اسم (المتن) في قضاء لبنان والمتين منها وكذلك المتن في قضاء المرقب . والأ فكان هذا الاسم اولى بالجبال العالية كجبل الشيخ وصنين*وقوس اله ادومي عرفهُ العرب باسم قيس ومنهُ اسم قوسايا في سورية المجوفة . . . . الخ

الى اعلام أُخر ممتزجة من اكثر من لغة واحدة وما اشبهها وهذه آراء حديثة في التسمية قابلة للتمحيص والتحقيق فلعل مؤرخينا المدققين يعيرونها اهتمامهم فيفيدون الباحثين والدارسين فوائد جمة . والله الموفق الى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل

زحلة عيسى اسكندر المعلوف

الشعر التهذيبي

الولد والمدرسة

بقلم عيسى افندي اسكندر المعلوف صاحب مجلة (الآثار)

اری الشبان قد ملؤوا المدارس ليكتسبوا معارفهـا النفائس
ولكني اراهم باحتياجٍ الى الاخلاق في ادب المجالس
فلا يجني العلوم فتىً تربى بجر دلاله كالغصن مائس
ولا يجني العلوم فتىً تربى على حسن المآكل والملابس
ولا يجني العلوم فتىً تربى وقد شمخت بهِ كبرًا معاطس
ولا يجني العلوم فتىً تربى على اوهامهِ والعقل طامس
فمن طلب العلوم فقد جناهـا باحيا الليل مجتهدًا ودارس
يرى النَّصب الكثير لهُ هناء ولست تراه في الابحاث يائس

فيلقى في مكاتبه ارتياحاً وتلقاه بها نعم الممارس
فبين الكد والاهمال فرقٌ كفرق بين راجلنا وفارس
وسبحان الذي خلق البرايا صنوفاً غيرت اصل المغارس
فنهم من غدا ملك الاعالي ومنهم من تسفل كالابالس
ومنهم من يحب الدهر سلماً ومنهم من يثير حروب داحس
ومنهم من يسكنهُ لجامٌ ومنهم من تحركهُ منافس
ومنهم عاقلٌ قولاً وفعلاً ومنهم فاجر للحق دائس
ومنهم مشبه الزنبور لسعاً ومنهم مشبه النحل الجوارس
ومنهم جاهل للكذب راوٍ ومنهم عالمٌ بالصدق نابس
وبعض عقلهُ كالصبح نوراً وبعض عقلهُ كالليل دامس
فكن لفضائل الاخلاق مرأى وكن لمحاسن الآداب قابس
وكن للطافة الارواح مغنىً. وكن لطهارة الاجسام حارس

مصنوعات الجيش (١)

الصنائع الدمشقية

كانت هذه الحاضرة في جميع ادوار تاريخها محط رحال ارباب الصنائع المختلفة لانها ام هذا القطر والاقطار التي تليهِ والام مصدر كل خير في العائلة . ولقد أُصيبت مصنوعاتها كما تصاب البلاد عادة بانواع الاضمحلال وخصوصاً في عهد تيمورلنك الذي خرّب كل بلد عصا عليهِ واستصحب معه الى سمرقند ارباب الصنائع قال ابن عربشاه « اخذ تيمور من دمشق ارباب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون بارع من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والاقباعية والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وفي الجملة اهل اي فن كان»
فتراجعت الصنائع بعد ذلك العهد في قاعدة البلاد ولم يبقَ منها الا ما لا غنية

(١) نشرناها اولاً في جريدة الشرق وادرجت هنا لتكون مرجعاً في تاريخ الصناعة

عنه لاهل كل بلد مهما انحط عمرانه وتفرق سكانه . وكانت الصناعات تبعاً للحالة العمومية ان راقت السياسة وصفا جو السلام تكثر حاجيات الناس فيوجد لها العملة وصناع الايدي بطبيعة الحال وان كان على ضعف احياناً والعكس بالعكس . وكانت الصناعات الدمشقية تجد في القرن الماضي رواجاً اكثر واتقاناً اوفر لو لم تنازعها مصنوعات اوربا بلطافتها ورخصها ومنشأ الرخص استمتاع الاجنبي اذ ذاك بامتيازاته فكانت الكمارك التي يؤديها على بضائعه قليلة والضرائب معفى منها جملة وحقوقه رعية في الاحكام ولوكان هو على باطل وخصمه العثماني على حق وقد يحكم له لاعليه احياناً وبهذا قضي او كاد على صناعاتنا الوطنية ووقفت مصانعنا العثمانية

ولما نشبت الحرب العامة انتبه رجال الدولة للامر وعرفوا الدقيق والجليل من نواقصنا فكانت مسألة مصنوعاتنا من اوليات المسائل التي نظروا فيها فألغوا الامتيازات الاجنبية وهناك اخذت تعود الى مصانعنا بعض حياتها وستقوى اكثر بعد الحرب ثم كان منهم ان جمعوا شمل الصناع في كل مركز من مراكز السلطنة كما فعلوا في دار الخلافة وضواحيها مثلاً فاخرجوا لوازم الجيش العامة من سلاح ومدافع وقنابر وقذائف واجواخ وغيرها وجاء حظ هذه المدينة بعد حظ الاستانة فجمع الجيش الرابع فيها شمل الصناعات بعد تشتتها واستفاد من كل قوة كانت كالنار مخزونة تحت الرماد لا تحتاج الا الى يد صادقة حتى تهتدي اليها وترفع عن وجهها ما يغشاها لينتفع بنورها وحرارتها .

محا الجيش الرابع عن البلاد عار العوز والكسل اذ رأى المواد الاولية كلها موفورة فيها تنال على ايسر وجه وبقليل من العناية والمعرفة وشاهد في ابناء البلاد بقايا من اهل المهن والصناعات لا يقف بهم عن المضي في مضمار الرقي الا شيء من العناية والتنشيط . ذكر جودت في تاريخه ان جمهورية البنادقة كانت ساعدت بانشاء السفن عدونا علينا فاصطنع في دور صناعتها ما يستعين به على حرب الدولة العلية فآخذت الحكومة اذ ذاك جمهورية البندقية على عملها المنكر فاجابت هذه ليس للدولة العثمانية ان تؤاخذنا على انشائنا السفن في معاملنا وبيعها ممن نحب فان عندها جميع مواد السفن وهي تستطيع ان تخرج مثل سفننا ولا تحتاجنا ولا غيرنا . وكان هذا الجواب عبرة للدولة فشمرت عن ساعد الجد واخذت تنشيء في ذاك الدور سفنها في معاملها وموادها من حديد وخشب ورصاص وزجاج وحبال كلها من الارض العثمانية

كانت الحرب الاخيرة اعظم واعظ لنا في هذا السبيل فانتبهت الحكومة اولاً للوازم الجيش فرأت من الصناعات ما لا اثر له عندنا ومنه الموجود ولكن على ضعف يحتاج الى اصلاح وتعديل ومن الصناعات التي احياها الجيش الرابع صناعة القطن المعقم للجرحى والاغذية المربية المحفوظة من بقول وثمار وصنع القذائف والبيطرة وما يلزمها من الادوات على الاصول الحديثة ومن الصناعات الموجودة على قلة نسج الاكياس للتحميل من القطن وقشر القنب وصنع الحداجات للجمال والشقادف لنقل المرضى والجرحى والسرج للجمال والخيام واللجم والهمايين من الجلد والقرب والمطرات والاقمشة لالبسة الجنود والضباط من نوع العبا وحياكة الطنافس والبسط والجوارب والخيام وخياطة الثياب وصنع الاحذية وغيرها

وسنتكلم على معاهد هذه الصناعات في دمشق معهداً معهداً حسب الترتيب الذي وقع لنا في زيارتها ونتوسع في الكلام ما وسعنا المقام تنبيهاً للعاقل وبشرى للمستبشر وتحدثاً بالنعمة وطلباً للمزيد وحثاً للهمم وتبصرة للمستقبل

النجارة والحدادة والفخار والقذائف

اعتمد الجيش الرابع في الاعمال الصناعية على الوف من الجند السوريين على الاغلب ومنهم من سبقت له معاناة صناعة من الصناعات وآخرون لا عهد لهم بشيء منها بل تعلموها منذ دخلوا في سلك الجندية المقدس يوم اعلان النفير العام. وقد استعمل منهم اولاداً من سن التاسعة الى الخامسة عشرة بصفة خريجين في تلك الصناعات وعددهم ثلاثمائة وخمسون خريجاً علموا منها ما يناسب صحتهم ويلتئم مع اعمارهم.

وبالنظر لذكاء ابناء هذه الديار ولنظام المصانع التي عدوا في جملتها والاعمال المرتبة التي عهد اليهم امرها وتنظيم اساليب عيشهم وعملهم برعوا او اكثرهم في مدة قليلة ومنهم من اقلعوا عن عادات كانوا الفوها من مثل التدخين وغيره ومرنوا على العمل حتى قل الثرثارون فيهم فانت اذا دخلت مصانعهم اي وقت كان من اوقات العمل المحددة لا تسمع لغواً ولا صوتاً وكل عامل او ماهن يصرف ذهنه الى ما يعمل فيه مخافة ان يضيع عليه الوقت ولا يكمل حصته من العمل ولهذه الاخلاق دخل كبير في نجاح الاعمال والعمال فان العامل الذي يكثر الكلام على غير نظام تقل عمالته ومياومته اما الذي يصرف وكده لعمله جملة واحدة فيرجح عليه في

الصناعات حتى قالوا ان الصانع الانكليزي يأخذ ضعفي اجرة الصانع الطلياني لان هذا ثرثار لا يحصر ذهنه في عمله ويلتهي بغيره بالضرورة فعمله نصف عمل

هذا ما لحظناه من اساليب الرقي الحقيقي الماثلة في مصانع الجيش في دمشق فقد رأينا الحديد يذاب ويطرق على ايسر صورة وتعمل منه ادوات العجلات والمحفات . والاخشاب تقطع وتنجر وتصقل . واكثر الآلات التي تستعمل في هذا السبيل جلبت من حلب وعينتاب وطرسوس ولبنان وبيروت وكانت مبعثرة لا تستفاد منها الفائدة المطلوبة فلما ضم الجيش شملها وعرف كيف يستخدمها اخرجت اجمل المصنوعات في اسرع وقت ووفرت على العاملين عناء ووقتاً لولاهما لاقتضى العمل ايدياً كثيرة عاملة ووقتاً اطول

كنا عاجزين فيما مضى عن اصطناع عجلات النقل والركوب ومحفات الجرحى والمرضى في مصانعنا الوطنية وقد اختار الجيش اسهل انواعها وامتنها والطفها على آخر طرز وصنع منها الوفاً بحيث تظنها اذا رأيتها من صنع معامل اوربا في حين تجد حديدها وخشبها من سورية واليد التي اشتغلتها سورية وهي تستعمل في خدمة سورية وهذا ما يقل في جانبه كل شكر للحكومة الساهرة على انجاح الوطن والذب عنه والاخذ بايدي ابنائه العاملين

تقوم مصانع الحديد باعمال نفيسة من حاجيات الجيش كالقدوم والمنشار والكلاب واللوالب والفؤوس والرفوش والقدور والمراكن والمراجل والدلاء والبراميل وغيرها وكل ذلك اذا رأيتهُ تظنهُ من صنع الغربيين ورد على هذه البلاد في علب مزينة وصناديق مقفلة واوراق ملفوفة وطوى المراحل الطويلة وتعاورتهُ الايدي الكثيرة حتى جعل رهن امر جيشنا والحال انهُ من بلادنا وصنع ابنائها صنعوه ليدفعوا فيه عن حياضها ومن صنع ابرة لخدمة الجيش بحسب طاقته ومعرفته فحكمهُ حكم من صنع مدفعاً ومن مشى خطوة في طريق الخير فاجره اجر من مشى خطوات والتكليف على قدر الاستطاعة

اما ملء الخرطوش وصنع القذائف واستجادة احسنها طرازاً وافعلها وقت الحاجة فهذا ليس من شأننا البحث فيه وانما يقال على وجه الاجمال ان هذا النوع من انواع قوة الجيش يعمل منهُ هنا القدر اللازم مما يوفر عناء النقل من جنسه المصنوع في معامل دار الخلافة العلية على ما هو معروف

السروج والخيام

ربما كان من قليلي الخبرة من اذا سمع ان الحكومة متوفرة الليل والنهار على اصطناع السروج للخيل والمحفات والحداجات للجمال وما يلزم المسافر في البوادي من الخيام والقرب والروايا والمطرات وخرائط الخرطوش وغيره ان يقول وهل هـذا من المكانة بالموضع الذي تضعونهُ فيه فكل منّا يرى ويسمع ان هـذه الصناعات موجودة في البلاد لم تفقد ولا في زمن من الازمان ومصنوعاتها مبذولة باهون الاسعار لكل طالب ·

ولكن من عرف ان جيشنا يحتاج الى عشرات الالوف من السروج والحداجات للخيل والجمال ومن هذه المصنوعات الجلدية الى مئات الالوف ليستخدمهـا في حله ومرتحله يدرك ما يقتضي لصنع هذا العدد الكبير من المواد والرجال العاملين ولتهيئة مصنوعاتهم على صورة مقبولة متينة رخيصة ، من الفكر والقياس والبحث والحساب

كل منا يعرف ان قطارات السكك الحديدية نازعت قطارات الجمال حتى في الفيافي والبوادي وان سفن البحر وسفن البر قضت او كادت على الجمال والبغال والحمير والبقر والفيل في معظم اقطار الارض ولكن من الاقطار ما لا مندوحة لها عن الاستغناء عن هذه الحيوانات في مهماتها زمن الحرب وزمن السلم ومهما كثرت آلات البخار في الاقطار لم تكف لان تطوق البلاد كلها بطوق من قطاراتها وتغدو وتروح في نقل الانسان وحاجاته .

وقد كانت بعض هذه الصناعات في بر الشام أصيبت بفترة بعـد ان امتدت الخطوط الحديدية من بيروت الى دمشق فحوران ومن رياق الى حلب فالاصلاحية ومن حلب فرأس العين ومن حمص الى طرابلس ومن يافا فالقدس ومن حيفا فدرعا ومن دمشق الى المدينة المنورة وانتقل بعض السروجيين والخيميين الى صناعات اخرى ولكن هذه الحرب عادت فاحيت صناعاتهم وتبين نفعها في داخلية البلاد وان الجيش المرابط والمجاهد في كل مصر وعصر لا يستغني عنها بحال من الاحوال

زرنا هذه المصانع على حين فجأة فرأينا الصناع على اختلاف درجاتهم مكبين على عملهم لا يلتفتون الى شيء يجري امامهم ومنهم قدمـاء ارباب الصناعات يرزق الواحد في اليوم العشرين والثلاثين قرشاً واكثرهم الجنود ومنهم طبقة الخريجين من

صغار العملة الذي يُعلّم في اربعة اشهر فيأتي منهُ ماهن ماهر كالذي تعلم هذه الصناعة السنين الطويلة واستعمال الآلات اللازمة للعمل ليس ببعيد العهد ومنهُ ما يرد تاريخه الى ستة اشهر ومع هذا ترى الصناع يعماون عليها كالعملة الممرنين في معامل الغرب .

صناعة السجاد والنساجون والخياطون والاساكفة

راقنا جدًا ما شهدناه في مصانع النسيج والاقمشة وقد تمثلت امامنا آلات القرون القديمة من النسيج وآلات القرون الوسطى وآلات القرن الحديث وفي كل واحدة من هذه الآلات يعمل النساجون اقمشة نفيسة لكسوة الضباط والجند فكأن لسان هذه المصانع يقول : لا جديد لمن لا قديم له . وهنا يستفاد من كل قوة

نعم استفاد الجيش الرابع من كل قوة وجدها امامه في هذه الديار واستعمل علمه ونشاط من عهد اليهم العمل من اصغر عامل يكنس الارض الى المديرين ورؤساء الادوات وبذلك صح فيه انه اوجد شيئاً من لا شيء. وليست المهارة في ان يتجر التاجر برأس مال قدره مئة الف ليرة فيربح معاشه ولكن المهارة في ان يربح ذو رأس المال الصغير معاشه على نسبة ذاك التاجر الغني باموالهِ

لو توفرت هنا جميع المعدات الكافية للنسيج والخياطة وعمل الاحذية لما استغربنا شيئاً يعمله الجيش لان الآلة بقليل من النظر يتيسر للقائم عليها ان يستفيد منها . ولكن اكثر العمل بالادوات البسيطة التي تخرج مقداراً كافياً من المصنوعات بل اكثر من المأمول من مثلها وهذا وجه الغرابة وداعية الحمد والثناء

يخيط الخياطون اقمشة واجراخاً وطنية في الاغلب على صورة سريعة مقبولة . والحذاءون يعملون احذية متينة وجلودها وخيوطها من محصول هذه الديار

رأينا مصنوعات البسط والسجاد المعمول في هذه المعامل ليجعل في خدمة الهلال الاحمر بل والجند عامة مما يسرك خبره ومخبره لمتانته وثبات الوانه . وتمنينا لو زادت مصنوعاته على المطلوب لاقترحنا على كل بيت في سورية ان يقتني سجادة منها عنوان العامل الوطني ودليل تنشيط كل صاحب دار للصناعات الوطنية

وفي هذه المعامل فرع لعمل الجوارب التي كانت تصنع في حلب وعينتاب واطنه فقط وما زال لها معامل هناك . ونوع هذه الجوارب واف بحاجة الجندي بالطبع ينفع

في الدفء والستر وهو متين لا بأس به . اما نوع جوارب الترف كجوارب الحرير البراق الشفاف وغيرها فهي ليست من شأن هذا المعمل وانما ينظر في الاقمشة وخياطتها والجوارب والاعبئة والاحذية الى متانتها اولاً والفائدة التي يتوقعها منها الجندي ولو احبت هذه المعامل بعد حين ان تخرج بما لديها من الادوات جوارب وانسجة للمترفين لما عسر عليها ذلك .

ولم نلاحظ في هذه المعامل الا تفرقهـا وعدم اجتماعها في صعيد واحد ليكون ادعى الى حضور الذهن واجدر عناية بالعمل ولا ينظر الآن الا الى حالة المحل الصحية اما صغره وترصيفهُ وتبييضه فامر ثانوي لم يتسع الوقت للتفكر فيه

والنية معقودة ان تجعل هذه المصانع بعد الحرب في القدم جنوبي دمشق قرب معامل السكة الحجازية فيختار لها ارض مساحتها كيلومتران ونصف كيلو متر وتجعل المعامل كلها في بقعة واحدة فيسهل التفتيش على هـذا المقر العسكري quartier militaire وتحسن ادارته ويكون منعزلاً عن المدينة مستقلًا في عمله . وهذا مقصد حسن لان العادة جرت في المعامل الكبرى في الغرب ان تكون منعزلة عن المدن والقرى بعيدة عن العمران .

معامل المحفوظات والمربيات والخبز

هذه الصناعة من الصناعات التي لم تعرف في دمشق قبل الحرب فادخلت اليها بطرقها الكيماوية وادواتها المستحدثة وتعلمها العملة من الجند والنساء فتجد في محلها فرعاً لعمل الحساء (الشوربا) ذروراً ثم يذاب في ماء حار وقت الاستعمال فيأتي منه حساء لطيف كأنهُ طبخ الساعة . ويستخرج اشربة كثيرة مثل ماء الزهر وماء الورد وشراب قشر الليمون وشراب قشر البرتقال فتجعل روحهُ في زجاجات تكفي القطرة منهُ لكأس ماء حتى تكون حلوة ذات نكهة طيبة كأنهُ عمل لساعته . وهذه الاشربة تنفع الجيش كثيراً ولا سيما في مستشفيات البادية .

وفي هذا المعمل فرع لاستخراج مرق اللحم من العظام وتعقيمه بحيث لا تذهب العظام التي تخرج من مسالخ الجيش في هـذه الحاضرة من دون فائدة وللنساء العاملات هنا دخل كبير في هذا الصنف فتراهن لابسات المآزر الكحلية يعملن على

الدوام على نظام تام وترزق الواحدة منهن ثلاثة قروش وثلاثة ارغفة في اليوم ويتناولن طعام الظهر في المعمل بالاشتراك بينهن وقد نصبت لهن موائد وامام كل واحدة منهن صحفتها وكأسها وكذلك الرجال في محل آخر . واهم ما يستخرجهُ معمل المحفوظات والمربيات حفظ الثمار والبقول على طريقة لا تنقص من تغذيتها وتكون عند الاستعمال كأنها طرية حديثة عهد بالقطف من الشجرة او المسكبة ويبلغ عدد البقول المربية عشرة انوع يتناولها الجندي في كل وقت كأنما يتناولها في إبانها ناضجة طرية . وفي هذا المعمل فرع لعمل الخل للجيش ويعمل كل ذلك على طريقة صحية اقتصادية بحيث لا ترى جزءًا لا ينتفع بهِ حق الانتفاع على النحو الذي جرى عليه الغرب في معامله .

ومن الصناعات المستحدثة التي كانت هنا موجودة في حكم المفقودة صناعة عجن الخبز وخبزه بآلات تدار بالكهرباء بسيطة في ذاتها ولكنها تغني الغناء المطلوب فقد كان يعجن خبز الجند في افران الجيش بالايدي واحياناً بالارجل فارتأى القائد العام احداث هذه الطريقة الجديدة فوفر من عمل الايدي وخلص الخبز مما كان يدخلهُ من عرق الخبازين واوساخهم وصار معمل دمشق وحده يخرج في اليوم العشرين والثلاثين الف رغيف على ايسر وجه واسرع طريقة وانظف واسطة ويوزع خبز اليوم من الغد رعاية للصحة .

وقد كان معمل الخبز في هذه الحاضرة منذ اشهر احترق فاعيد على هذه الصورة البديعة التي سداها ولحمتها مراعاة النظافة بل المبالغة فيها حرصاً على صحة الضباط والجند واصبح معمل خبزنا على مثال المعامل الغربية وحبذا يوم تصح عزيمة جمهور من ارباب الافران فيعمدون الى تأليف نقابات لعمل الخبز على هذه الصورة يراعون في صنعه جانب الاقتصاد والجودة والنظافة

ان معامل التعقيم والسوائل واستخراج الاشربة الصحية وتجفيف الثمار والبقول وخبز الخبز بهذه الطريقة كل ذلك يدل على براعة زائدة ويسجل عناية الجيش بما يدخل معد افراده من الاطعمة والاشربة على وجه يجمع بين الاقتصاد والصحة وسرعة التحضير بحسب ما وصل اليهِ العلم في هذا العصر

الصنائع المحدثة

من الموجود من الصناعات وكان في حكم المفقود صناعة البيطرة او علم البيطرة والبيزره (١) او طب الحيوان كالخيل والجمال والبقر . وهذه الصناعة قديمة في البشر ولكن هذا القرن ادخل فيها من اسباب الرقي حتى اصبحت تدرس في الغرب كما يدرس الطب . والبيطار لا يقل في منزلته عن الطبيب وكلاهما يطبُّ . هذا للانسان وذاك للحيوان . بيد ان الجيش الرابع رأى ان يعمد الى طريقة عملية في تعليم البيطرة فاخذ يعلمهـا في اربعة اشهر فيخرج التلميذ وفي الغالب ان يكون من الطبقة التي لم يسعدها الحظ بتعلم القراءة والكتابة بيطاراً من الدرجة الاولى جمع بين النظريات والعمليات .

يقرأ الطالب في المدرسة وهو جندي او معاون لهُ من ابناء الفقراء مستخدم باجرة معينة درسهُ ويجيء الى تطبيقه في الحيوانات على مقربة منهُ ويشرح المعلم للطلبة باللسان العربي طب الحيوان والمعلم ايضاً ممن تخرجوا على هذه الصورة فاصبح معلماً بعد اربعة اشهر من تعاطي هذه المهنة ولكنهُ يقرأ ويكتب بالطبع . وقد جعل الطلبة هناك فرقاً فرقاً وكلهم يلبسون قفطاناً ازرق حاسرين رؤوسهم ويتعلمون بلسان يفهمونهُ اي لسان العامة .

وبجانب هذا المعمل معمل لصنع النعال للخيل على مثال النعال الاوربية وكذلك معمل لصنع مساميرها وفي هذا المعمل ايضاً زمرة من الاطفال الذين يتعلمون هذه الصناعة وينافسون فيها الشبان والكهول . والادوات المستعملة لتطريق النعال ومساميرها بسيطة للغاية ولكنها متقنة تدل على روح تجدد .

وينشئ الجيش الآن معملين مما تشتد الحاجــة الى مصنوعاتهما وسيتمان قريباً

(١) علم البيزرة علم يبحث فيهِ عن احوال الجوارح من حيث حفظ صحتها وقوتها وضعفها وهو مأخوذ من بيزار وهو في الاصل صاحب الباز ثم اطلق على صاحب اي جارح كان . والبيازرة جمع بيزار وهو معرب بازيار واستعمل المحدثون بازدار بمعنى بيزار وهو فارسي الاصل ايضاً ثم تصرفوا فيهِ ايضاً فسموا هذه الصناعة باسم البزدرة وبهذا تعلم ان هذا الفن يسمى بالبيزرة والبزدرة وان لفظ البيزرة اقرب الى الاصل الاول

مضافين الى المعامل والمصانع الكثيرة التي احيا بها القديم من الصناعات واوجد بها المفقود منها هنا . وقديماً قالوا ان الصناعات اذا فقدت من مكان يتعذر ارجاعها اليه على صورة سريعة ولكن الجيش الرابع كذب هذه القضية فاصلح الموجود واوجد المفقود في اشهر قليلة وعلم كتائب من ابناء الوطن وبناته صنائع شريفة والصنعة في اليد امان من الفقر

قطن الجرحى والمرضى

من اهم الصناعات التي لم يكن لهذه الديار بل ولا للمملكة العثمانية عهد بصنعها قطن الرباطات واللفافات للجرحى فاتخذ الجيش لصنعه ابنية حسنة بالقرب من مستشفى الغرباء في البرامكة وقسّمهُ اقساماً قسم الرجال وهو لحلج القطن وندفه وقسم النساء وهو لتنظيفه وغسله وصنعه حتى يخرج كأحسن ما يصنع من نوعه

والنظافة في كل هذه الاقسام مما يدهش لهُ الناظر وربما لا نغالي اذا قلنا انها كادت تبلغ حد الافراط ولا نذكر اننا رأينا معهدًا صناعياً في المملكة العثمانية بلغ بتأنقه ومراعاة شروط الصحة فيهِ مبلغ معمل قطن الجرحى هنا

تتمثل لعينيك روح الاسلام العاملة الاقتصادية عند ما ترى نساء شابات وكهلات يتسابقن للعمل في هذا المصنع على اسلوب جديد وقد لبست كل واحدة منهن قفطاناً ابيض غاية في النظافة يغطي قامتها ووضعت على رأسها طاقية سترت شعرها ولم يعد يبدو غير وجهها اي ان المرأة هنا احتجبت بالحجاب الشرعي وعملت عملًا يليق بها تنفع بهِ نفسها وذويها ووطنها

وقد نصب القيم عليهن ضابطاً كوسجاً قزماً دفعاً لكل ريبة وجُعل لهن مخدعان واسعان يحفظن فيهما ثيابهن ويستخدمن في المساء مـا هناك من مغاسل للتنظيف والوضوء وما يصلحهن ليعدن الى سابق حالهن

وهذه هي الارستقراطية الاسلامية ممزوجة بروح الديمقراطية اي أن العاملات هنا جمعن بين الاجتماع على العمل الحر ولم تفتهن الرفاهية ولم يمنعهن حجابهن من الاحتراف بل عدن بهِ الى سذاجتهِ الاولى وانشأن يخدمن امتهن من طريق الصناعة كما كان في العصور الاولى ويكون الآن منهن الممرضات في المستشفيات النقالة والثابتة ايام الحرب

385

وقد اثمر هذا المعمل فوائد كبيرة جداً فلم تقتصر مصنوعاته على مستشفيات الجيش الرابع بل ارسل منذ انشائهِ الى جميع الساحات الحربية قطنهُ ولفائفهُ وعصاباتهُ ارسل الى چناق قلعة والى ققفاسيا والى العراق جميع ما يلزم الجيوش العثمانية هناك بحيث استغنى الجيش العثماني عن جلب هذا الصنف من الغرب وهيهات ان يحصل عليهِ زمن الحرب وهو محظور اصداره من كل مملكة محاربة او غير محاربة يعد من المواد الحربية كالبارود والسلاح فيصادر حيث كان

دل هذا المعمل على روح عالية في التجدد واننا اخذنا نحسن الانتفاع بقوانا الطبيعية وان المسلمات كالمسلمين ليس في كتابهن مـا يمنعهن عن مشاركة الرجال في الاعمال واذا كان القطن يجود كل الجودة في سهول اطنة واغوار الشام وعندنا مايلزمنا من الادوات فلا تقتصر عقولنا عن القيام بالنافع ومراعاة المصلحة حرصاً على الوطن وسلامة اصحة المجاهدين في الذب عن حياضهِ نعم قرأنا في تصفح شؤون معـامل القطن ان العثمانيات لم يقعد بهن الحال عن احتذاء مثال العثمانيين في العمل لمصلحـة الوطن فحبذا العمل وحبذا اطراده زمن الحرب وزمن السلم

***

من يزر مصانع الجيش الرابع يحكم حكماً قطعيًا ان الدولة التي تنظم مثلهـا وتخرج مثالاً من المصنوعات التي سبق لنا وصفها صناعة صناعة تحـارب اربعين سنة وهي تكاد تكون في استغناء عن الغرب الذي كان بالامس يعيرنا بفقدان كل شيء عندنا وانسلاخنا من كل استعداد حتى كنا عيالاً عليهِ في الخيط والابرة

رعى الله احمد جمال باشا قائد هذا الجيش كم لهُ على بلاد الشام من اياد بيضاء فهو لم يكتف بدفع عادية العدو عنها بل جمّلهـا جمل الله احواله بالطرق والجسور والمدارس والمشاريع الاقتصادية والعلمية ومن احسن آثار عمله هذه الصناعات التي استفاد منها الجيش اليوم وغداً يستفيد منها الجيش والامة التي يتألف منهاهذا الجيش المحبوب

نعم غداً تنتهي الحرب ويخرج من تحت السلاح مئات الالوف من ابناء هذا الوطن العزيز ومنهم من اسعده الطالع بتعلم صناعة من هذه الصناعات فبعد ان كان قبل الحرب متشرداً او في حكم المتشرد يستطيع غداً ان يكسب معاشهُ من صناعتهِ ويعتمد على كده وعملهِ وقريحته

غداً يكون من ابنائنا بفضل الجيش الرابع امهر النساجين والخيميين والخياطين

والحاكة والحدادين والنجارين والسروجيين والبياطرة وعملة المربيات والمحفوظات من البقول والثمار وغيرها مما لم تعهده ديارنا من قبل ويخرج خريج هذه المعامل وقد تعلم قدر الوقت والعمل وانتظامهِ وما نظن من يدخل صناعة على قوم يتعلمون بهـا ما ينعشهم من هوة الحاجة باقل في حسن الاثر والاحدوثة ممن يفتح بلداً او يستعمر قطراً ولذلك يحمد الوطن صنيع قائد الجيش الذى عرف كيف ينتفع من كل قوة في البلاد وامتاز بانهُ كان من الرجال الذين يحسنون انتخاب عمالهم والمباشرين لجميع فروع ادارة الجيش فقد كان الصالح للعمل في الادارات الكبرى قبله عشرة في المئة وباقيهم خشب مسندة او كالسوس في الخشب وها قد اصبح بفضلهِ وفضل انصاره عدد الصالحين للعمل يربو على التسعين في المئة وذلك لانهُ موفق في حسن الاختيار وطرح المرذول والاتيان بالمحمود واختيار المرء قطعة من عقله ولذلك ترى فروع اعمال الجيش هنا يحلّق عليها على الدوام طير اليمن والبركة

ان الروح التى بثها في الجيش العثماني اجمع صاحب الدولة انور باشا وكيل القائد الاعظم وناظر الحربية قد كان اثرها عظيماً جداً في هذا الجيش الرابع ايضاً اذ وجد لها مثل احمد جمال باشا عالماً عاملاً يطبقها ويزيد ما يرى الحاجة المحلية ماسة اليهِ من الاعمال الخطيرة ومن اهم دواعي النجاح ان جمال هذا الجيش لم يتقيد بحرفية القانون بل اهتم بجوهره واذ كان مفطوراً على حب العمران جاءت على يديه مثل هذه الصناعات ونفذ رغائبهُ في ذلك اناس اكفاء اختارهم للعمل فبرزوا فيه وادركوا اسراره وخوافيه

يعد الجيش اليوم المدرسة العادلية اكبر مدارس الشافعية في القرون الوسطى بدمشق ليأوي اليها ثلاثمائة وخمسون طالباً من طلاب الصناعات في الجيش يصرف في هذا السبيل الفاً وخمسمائة ليرة لتكون صالحة لسكناهم ويعيشون فيها عيشاً منتظما تجود بهِ صحتهم وتتفتح قرائحهم وتصير ايديهم مرنة حاذقة وعقولهم مفكرة مدبرة . وهذا العدد من الطلاب اذا أضيف اليهِ الوف الصناع الذين يعملون في مصانع الجيش اليوم يغنون ولا شك البلاد بمصنوعاتهم في كل فرع من فروع الصناعة ويكون ذلك من بعض حسنات القائد العام احمد جمال باشا ومضاء رجال الادارة مثل مفتش المنزل كاظم بك الذي لهُ فضل عظيم في تنظيم هذه الصناعات وغرام شديد بتخريج ابناء الوطن على حبها

أنا والشلال (١)

قالت : عهدتك لا تَهاب مُلمةً مالي اراك جزعت من شلالِ
وليت عنهُ وكنت تعشق قربه ولربما ولى المحبُّ السالي
يا نفس حسبكِ ان تلومي والهاً بهوى الطبيعة دائم البلبالِ
اني لأعشق كل غصن يلتوي واحنُّ من طرب الى السلسال
يهتاجني العصفور وهو مصوتٌ يدعو ذويه الى ارتشاف زلال
ويروقني الجبل الرفيع كأنما هو طامع من جوّه بنوال
إني ليشغفني هوىً وصبابةً نبتٌ بجانب جدول سيَّال
عبثت بهِ ايدي النسيم فأوَدتْ اعطافهُ فاهتز غير مبال
ويروقني الشلَّال منحدرًا هوى نحو البسيطة من أشمَّ عال
يغلي كأن النار بين ضلوعهِ ويثور مندفعاً الى الأَدغال
شابت غدائره فارسلها على وجه الرمال وهمَّ بالإعوال
ولقد دنوتُ مقبلًا قطراتهِ فرُميتُ من قطراتهِ بنبال
شلال ويحك انت مثلي في الهوى أوَ لم تُشبك قوارع الاهوال
وعلامَ تدفعني وانت معربدٌ خفف عليك فانت من امثالي
اشكو وتشكو الحادثات وانما هي علة الإدبار والاقبال
تابعت في القمم المسيرَ فلم يرق للنائبات سراك في الاجبال
واليت خطوك هادئاً فتمثلت لك في السبيل فعدت غير موال
صدتك عن حيثُ ابتغيتَ عوائقٌ حاولنَ بي صدًا عن الآمال
فهويتَ من علٍ هائجاً ، ولبثتُ لا متململًا ، والكارثات حيالي
هلَّا صبرتَ كما صبرتُ فانهُ بالصبر يدفع فاجيء الاوجال

« الزركلي »

(١) الشلال بمعنى الماء المتدفق من مكان مرتفع كرابية او صخرة او سفح جبل — لم يرد في اللغة . وانما المسموع : شلت العين دمعها اي ارسلتهُ . وعلى هذا يجوز قياساً ان يقال : شلَّ السيل او النهر ماءه فهو شلَّال

الوافي بالوفيات

صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي احـد رجال القرن الثامن ولد في صفد سنة ٦٩٦ (١٢٩٦م) وتوفي سنة ٧٦٤ (١٣٦٣م) وهو امام في اللغة والشعر والتاريخ والفقه تخرج على علماء دمشق في عصره فاخذ الشعر عن جمال الدين بن نباتة واللغة عن ابي حيان والفقه الشافعي عن الحافظ المزي وابن جماعة والتاريخ عن الذهبي والمغازي والسير عن الحافظ ابن سيد الناس وتولى عدة مناصب ادارية ومالية في صفد والقاهرة وحلب ودمشق وقبره الى اليوم معروف في صفد وهو في حي الاسرائيليين هناك وقد كان من المؤلفين المجيدين ذكر لهُ بروكلمان في تاريخ آداب اللغة العربية ثلاثين مصنفاً تحتوي على نحو مئة مجلد وكانت لهُ عناية خاصة بالشعر والنثر ومما طبع لهُ في الاستانة سنة ١٢٩٩ كتاب جنان الجناس في علم البديع وطبع لهُ في مصر سنة ١٣٢٩ كتاب نكت الهميان في نكت العميان ويكاد يكون اخصائياً في التراجم واهم كتبه الوافي بالوفيات يدخل في بضع مجلدات كبرى تحتوي على زهاء عشرة آلاف ترجمة من اول الاسلام الى عهـد المؤلف وفيه ما في وفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الادباء لياقوت مع زيادات كثيرة فاتت هذين المؤلفين او حدثت بعدهما

ولقد كان يظن ان كتاب الوافي فقد في جملة مـا فقد من كتب العرب لكن تبين بعد ان اجزاءه مبعثرة في خزائن الكتب في ديار الغرب ولا سيما خزائن اكسفورد وباريز وفينا وفي الخزانة التيمورية والخزانة الزكية في القاهرة ودار الكتب الخديوية عدة اجزاء منهُ اذا جمعت الاجزاء من مصر واوربا كان من مجموعها نسخة تامة فيما نظن . واذا صحت نية احدى المطابع او الجمعيات العلمية في البلاد المصريـة او الالمانية او الانكليزية او الهولاندية على طبعه جـاء منهُ كتاب لا يقل في النفاسة والفائدة عن تاريخ الطبري وطبقات ابن سعـد والمكتبة الاندلسية العربية والمكتبة الجغرافية العربية ومعجم البلدان ومعجم الادباء لياقوت والمخصص لابن سيده وصبح الاعشى وغيرها من الاسفار المهمة التي احيتها مصر واوربا

افتتح المؤلف كتابهُ فيمن اسمهُ محمد فبدأ باسم صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وثنى بمن اسمهُ محمد من الرجال ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم

وكلامهُ يشف عن تحقيق اذ تهيأت لهُ مواد من التاريخ مفقود بعضها اليوم بحكم الضرورة وعبارتهُ من السهل الممتنع فيها الادب الغض مع السلاسة الساحرة فكان ما صدر عفو القريحة من قلم الصلاح الصفدي اقرب الى مناحي الفصحاء من عبارات المتكلفين المتنطعين

ذكر في مقدمته البديعة (١) اعاظم رجال الملة الذين قال فيهم ان علماءها كانبياء بني اسرائيل وامراءها كملوك فارس في التنويه والتنويل ذاكرًا فيهِ الخلفاء والصحابة والتابعين والامراء والقضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء والشيوخ والاتقياء والاولياء والنحاة والادباء والكتاب والشعراء والاطباء والعلماء واهل العقل والذكاء وارباب المقالات ورؤساء المذاهب والمتفلسفين وكل من اشتهروا بعلم او شأن

وقد جعل المقدمة على فصول الاول في مصطلحات الامم ولا سيما العرب والفرس واليهود وغيرهم على حساب السنين والتاريخ . الثاني بحث فيهِ بحثاً نحوياً . الثالث في كيفية كتابة التاريخ . الرابع في الانساب الخامس في الكنى والالقاب والعلم السادس في الهجاء والاملاء والاختصار . السابع فيمن كتب في التاريخ الثامن فيما يراد بالوفاة والوفيات التاسع في فائدة التاريخ العاشر في صفات المؤرخ الحادي عشر ذكر فيهِ تواريخ الشرق

قال في الفصل الثالث : تقول للعشرة وما دونها خلون لان المميز جمع والجمع مؤنث وقالوا لما فوق العشرة خلت ومضت لانهم يريدون ان مميزه واحد وتقول من بعد العشرين لتسع ان بَقَيْن وثمان ان بقين تأتي بلفظ الشك لاحتمال ان يكون الشهر ناقصاً او كاملًا وقد منع ابو علي الفارسي رحمهُ الله تعالى ان يكتب لليلة خلت كما منع من صبيحتها ان يقال المستهل لان الاستهلال قد مضى ونص على ان يؤرخ باول الشهر في اليوم او بليلة خلت منهُ وقال الحريري في درة الغواص : والعرب تختار ان تجعل النون للقليل والتاء للكثير فيقولون لاربع خلون ولاربع عشرة ليلة خلت قال : ولهم اختيار آخر وهو ان يجعل ضمير الجمع الكثير الهاء والالف وضمير الجمع القليل الهاء والنون المشددة كما نطق بهِ القرآن «ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر

(١) نشر المستشرق اميل امار في المجلة الآسياوية في باريز مقدمة كتاب الوافي بالوفيات مع ترجمتها بالافرنسية وعلق عليها حواشي في اربعة اجزاء من سنة ١٩١١

شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم » فجعل ضمير الاشهر الحرم بالهاء والنون لقلتهن وضمير شهور السنة الهاء والالف لكثرتها وكذلك اختاروا ايضاً ان الحقوا بصفة الجمع القليل الالف والتاء فقالوا اقمتُ اياماً معدودات وكسوتهُ اثواباً رفيعات وعلى هـذا جاء في سورة البقرة « وقالوا لم تمسنا النار الا اياماً معدودة » وفي سورة آل عمران « الا اياماً معدودات » كأنهم قالوا اولاً بطول المدة ثم انهم رجعوا عنهُ فقصروا المدة انتهى والواجب ان تقول في اول الشهر لليلة خلت منهُ او لغرته او لمستهله فاذا تحققت آخره قلت انسلاخه او سلخه او آخره . قال ابن عصفور : والاحسن ان تؤرخ بالاقل فيما مضى وما بقي فاذا استويا ارخت بايهما شئت قلت بل ان كان في خامس عشر قلت منتصف او خامس عشر وهو اكثر تحقيقاً لاحتمال ان يكون الشهر ناقصاً وان كان في الرابع عشر ذكرتهُ او السادس عشر ذكرتهُ

فائدة : ورأيت الفضلاء قد كتبوا بعض الشهور بشهر كذا وبعضهم لم يذكروا بعدها شهراً وطلبت الخاصة في ذلك فلم اجدهم اتوا بشهر الا مع شهر يكون اولهُ حرف راء مثل شهري ربيع وشهري رجب ورمضان ولم ادرِ العلة في ذالك ما هي ولا وجه المناسبة لانهُ كان ينبغي ان يحذف لفظ شهر من هذه المواضع لانهُ يجتمع في ذلك رآءان وهم قـد فروا من ذلك وكتبوا داود وناوس وطاوس بواو واحدة كراهة الجمع بين المثلين وجرت العادة بان يقولوا في الشهر المحرم شهر الله وفي شهر رجب شهر رجب الفرد او الاصم او الاصب وفي شعبان شعبان المكرم وفي رمضان رمضان المعظم وفي شوال شوال المبارك ويؤرخوا اول شوال بعيد الفطر وثامن ذي الحجة بيوم التروية وتاسعهُ بيوم عرفة وعاشره بعيد النحر وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء وعاشره بيوم عاشوراء فلا يحتاجون ان يذكروا الشهر ولكن لابدمن ذكر السنة

ومما قالهُ في الفصل الخامس : اذا عرفت العلم والكنية واللقب فسردها يكون على الترتيب تقدم اللقب على الكنية والكنية على العلم ثم النسبة الى البلد ثم الى الاصل ثم الى المذهب في الفروع ثم الى المذهب في الاعتقاد ثم الى العلم او الصناعة او الخلافة او السلطنة او الوزارة او القضاء او الامرة او المشيخة او الحج او الحرفـة كلها مقدم على الجميع فتقول في الخلافة امير المؤمنين الناصر لدين الله ابو العباس احمد السامري ان كان ولد بسر من رأى البغدادي فرقاً بينهُ وبين الناصر الاموي صاحب

الاندلس الشافعي الاشعري ان كان يتمذهب في الفروع بفقه الشافعي ويميل في الاعتقاد الى ابي الحسن الاشعري ثم تقول القرشي الهاشمي العباسي وتقول في السلطنة السلطان الملك الظاهر ركن الدين ابو الفتح بيبرس الصالحي نسبة الى استاذه الملك الصالح التركي الحنفي البندقدار او السلاح دار وتقول في الوزراء الوزير فلان الدين ابو كذا فلان وتسرد الجميع كما تقدم ثم تقول وزير فلان وتقول في القضاة كذلك القاضي فلان الدين وتسرد الباقي الى ان يجعل الآخر وظيفته التي كان يعرف بها قبل الامرة مثل الجاشنكير او الساقي وغيرهما وتقول في اشياخ العلم العلّامة او الحافظ او المُسند فيمن عُمّر واكثر الروايـة او الامام او الشيخ او الفقيه وتسرد الباقي الى ان تختم الجميع بالاصولي او المنطقي او النحوي وتقول في اصحاب الحرف فلان الدين وتسرد الجميع الى ان تقول الحرفة اما البزاز او العطار او الخياط فان كان النسب الى ابي بكر الصديق رضي الله عنهُ قلت القرشي التيمي البكري لان قرشياً اعم من ان يكون تيمياً والتيمي اعم من ان يكون من ولد ابي بكر رضي الله عنه وان كان النسب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلت القرشي العدوي العمري وان كان النسب الى عثمان بن عفان رضي الله عنه قلت القرشي الاموي العثماني وان كان النسب الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه قلت القرشي الهاشمي العلوي وان كان النسب الى طلحة رضي الله عنه قلت القرشي التيمي الطلحي وان كان النسب الى الزبير رضي الله عنه قلت القرشي الاسدي الزبيري وان كان النسب الى سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قلت القرشي الزهري السعدي وان كان النسب الى سعد رضي الله عنه قلت القرشي العدوي السعدي الا انهُ ما نسب اليهِ فيما علم وان كان النسب الى عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قلت القرشي الزهري العوفي من ولد عبد الرحمن بن عوف وان كان الى ابي عبيدة بن الجراح قلت القرشي من ولد ابي عبيدة

وقال في ادب المؤرخ : نقلت من خط الامام العلامة شيخ الاسلام قاضي القضاة تقي الدين ابي الحسن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي ما صورتهُ : يشترط في المؤرخ الصدق واذا نقل يعتمد اللفظ والمعنى وان لا يكون ذلك الذي نقلهُ اخذه في الذاكرة وكتبهُ بعد ذلك وان يسمي المنقول عنهُ فهذه شروط اربعة فيما ينقله ويشترط ايضاً لما يترجمهُ من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من القول او يقصر ان يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات وهذا عزيز جداً وان يكون

حسن العبارة عارفًا بمدلولات الالفاظ وان يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ويعبر عنهُ بعبارة لا تزيد عليهِ ولا تنقص عنهُ وان لا يغلبهُ الهوى فيخيل اليهِ هواه الاطناب في مدح من يحبهُ والتقصير في غيره بل اما ان يكون مجردًا عن الهوى وهو عزيز واما ان يكون عنده من العدل ما يقهر بهِ هواه ويسلك طريق الانصاف فهذه اربعة شروط اخرى ولك ان تجعلها خمسة لان حسن تصوره وعلمهُ قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف فيجعل حضور التصور زائدًا على حسن التصور والعلم فهي تسعة شروط في المؤرخ واصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم فانهُ يحتاج الى المشاركة في علمهِ والقرب منهُ حتى يعرف مرتبته وما ذكرت هذا الكلام الا بالنسبة الى تواريخ المتأخرين فانهُ قل فيهم اجتماع هذه الشروط واما المتقدمون فانا اتأدب معهم . . .

وذكر في الفصل الحادي عشر اسماء كتب التواريخ المؤلفة لمن تقدم من ارباب هذا الفن فساق اسم ٢٨٢ تاريخًا من تواريخ المشرق وبلاده وتاريخ المغرب وبلاده والتواريخ الجامعة وتواريخ الملوك والوزراء والعمال والقضاة والقراء والعلماء والشعراء وتواريخ مختلفة وقال في آخره : وكتب الجرح والتعديل والانساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواة فانها شيء لا يحصره حد ولا يقصره عـد ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنيه ربط لانها كاثرت الامواج افواجًا وكابرت الادراج اندراجاً . قلنا واسماء هذه الكتب تنعي على الخلف قصوره عن اللحاق بالسلف ومن الغريب انهُ لم يطبع حتى الآن سوى جزء قليل من تلك التواريخ وقد فقد بعضها على مـا يظهر من فهارس خزائن الكتب الغنية في اوربا

وهذه المقدمة وحدها كتاب علم برأسه تنم عن فضل كاتبها وان تاريخهُ جمة الفوائد والاوابد فهي اشبه بمقدمة ابن خلدون لتاريخه ومقدمة الصلاح الصفدي تعلي منزلة تاريخه الوافي الشافي وهاك الآن نموذجات قليلة منه تعرف بها اسلوبهُ في ترجمة المشهورين ونمطهُ في انشائـه في تصوير الرجال وذكر المهمات من اخلاقهم وعلومهم واحوالهم نقلناها عن نسخة الامير كايتاني في رومية التي اخذت لهُ بالتصوير الشمسي نقلًا عن الاجزاء المبعثرة في خزائن كتب اوربا

قال الصفدي في سنة ٧٠٢ : كان المصاف بين التتار والمسلمين في مرج الصفر فانهزم فَأُهم في الزواريق واجتازوا الفرات من دير يسير ... قال ... شمس الدين

السيطي في هذه الوقعة :

جاؤا وكل مقام ظل مضطرباً ... منهم وكل مقام بات يرتجف
فشاهدوا عام الاسلام مرتفعاً ... بالعدل فاستيقنوا ان ليس ينصرف
لاقاهم الفيلق الجرار فانكسروا ... خوف العوامل بالتأنيث فانصرفوا
يا مرج صفر بيضت الوجوه كما ... فعلت من قبل والاسلام يؤتنف
أزهر روضك ازهى عند نفحته ... ام يانعات رؤوس فيك تقتطف
غدران ارضك قد اضحت لواردها ... ممزوجة بدماء المغل تغترف
زلت على كتف المصري ارجلهم ... فليس يدرون أنى تؤكل الكتف
آووا الى جبل لو كان يعصمهم ... من هوج فرخ المنايا حين يختطف
دارت عليهم من الشجعان دائرة ... فما نجا سالم منهم وقد زحفوا
ونكسوا منهم الاعلام فانهزموا ... ونكصوهم على الاعلام فانقصفوا
ففي جماجمهم بيض الظبا زبر ... وفي كلاكلهم سمر القنا قصف
فروا من السيف ملعونين حيث سروا ... وقتلوا في البراري حيثما ثقفوا
فما استقام لهم في اعوج(١) نهج ... ولا اجارهم من مانع كنف

قال الصفدي : ما اعرف في كتب الادب شيئاً الا وقد اختصره جمال الدين بن مكرم فمما اختصره كتاب الاغاني ورتبه على الحروف وزهر الآداب وكتاب الحيوان فيما اظن واليتيمة والذخيرة ونشوار المحاضرة وغير ذلك حتى مفردات ابن البيطار وكان يختصر ويكتب في ديوان الانشاء واختصر تاريخ ابن عساكر وتاريخ الخطيب وذيل ابن النجار وجمع بين كتاب الصحاح للجوهري والمحكم لابن سيده وكتاب الازهري فجاء ذلك في سبعة وعشرين مجلداً ومات وترك بخطه خمس مائة مجلد

وقال في ترجمة حبيب بن محمد بن صمصامة امير دمشق القائد ابو الفتح ولي دمشق مرات من قبل خاله ابي محمود الكتامي وكان جباراً ظالماً سفاكاً للدماء اخاذاً للاموال كثر دعاء اهل دمشق عليه وابتهالهم الى الله تعالى فيه فهلك بالجذام سنة تسعين وثلاثمائة

---

(١) الاعوج هو نهر من انهار دمشق يدعى فرفر في القديم . والمانع جبل من جبالها في الجهة الجنوبية . ومرج الصفر (بضم الصاد وتشديد الفاء المفتوحة) الذي وقعت فيه الوقعة هو بدمشق

وقال في ترجمة الحرث بن عبد الرحمن بن الفار بن ربيعة الجرشي من وجوه اهل دمشق وفصحائهم وكان قد سود بالغوطة قبل وصول مروان الى مصر وكتبوا اليه بولاية دمشق وكان بداريا يأتيه الاشراف يسلمون عليه الى ان اقبل عبدالله بن علي فنزل دمشق وقدم الحرث وافداً على المنصور مستعطفاً لاهل الشام فقام وقال : اصلح الله امير المؤمنين انّا لسنا وفد مباهاة ولكنا وفد توبة وقد ابتلينا بفتنة استفزت كرمنا واستخفت حلمنا فنحن بما قدمنا معترفون ومما سلف منا معتذرون فان تعاقبنا فبما اجرمنا وان تعف عنا فبفضلك علينا فاصفح عنا اذا ملكت وامنن اذا قدرت واحسن فطالما احسنت فقال المنصور : قد فعلت

وقال : محمد ابن احمد بن عبدالله ابو علي المعتزلي شيخ المعتزلة الداعية الى مذهبهم كان يدرس الاعتزال والحكمة فاضطره اهل السنة الى ان لزم بيتهُ قال صاحب المرآة خمسين سنة لا يتجاسر على الظهور

وقال : ناصر الدين ابن المقدسي ولي سنة ٦٧٨ وكالة بيت المال ونظر جميع الاوقاف بدمشق وفتح ابواب الظلم وخلع عليه بطرحة غير مرة وخافهُ الناس وظلم وعسف وعدا طوره وتحامق حتى تبرم به النائب ومن دونهُ وكاتبوا فيه فجاء الجواب بالكشف عما اكل من الاوقاف ومن اموال السلطان والبرطيل فرسموا عليه بالعذراوية وضربوه بالمقارع فباع ما يقدر عليه وحمل جملة وذاق الهوان واشتفى منهُ الاعادي وكان قد اخذ من الناصري الزنبقية وكان يباشر شهادة جامع العقيبة فحصل بينه وبين قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي نفرة فتوجه الى مصر ودخل على الشجاعي فادخلهُ على السلطان واخبره باشياء منها امر بنت الملك الاشرف موسى بن العادل وانها باعت املاكها وهي سفيهة تساوي اضعاف ما باعتهُ فوكلهُ السلطان وكالة خاصة وعامة فرجع الى دمشق وطلب مشترى املاكها بعد ان اثبت سفهها فابطل بيعها واسترجع الاملاك من السيف السامري وغيره واخذ منهم تفاوت المغل واخذ الخان الذي بناه الملك الناصر قريب الزنجيلية وبساتين بالنيرب ونصف حزرما ودار السعادة وغير ذلك الخ ثم طُلب الى مصر فوجد مشنوقاً بعمامته

وقال : مؤيد الدين المهندس الدمشقي كان استاذاً في نجارة الدف ثم برع في علم اقليدس ثم ترك نقش الرخام وضرب الخيط واقبل على الاشتغال وبرع في الطب والرياضي وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع توفي سنة ٥٩٩

390

وقال الصفدي في ترجمة رجار صاحب صقلية : رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان واربعين وخمسمائة ويقال فيهِ اجار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الالف راء كان فيهِ محبة لاهل العلوم الفلسفية وهو الذي استقدم اليهِ الشريف الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق من العدوة ليصنع لهُ شيئاً في شكل صورة العالم فلما وصل اليهِ اكرم نزله وبالغ في تعظيمه فطلب منهُ شيئاً من المعادن ليصنع منهُ ما يريد فحمل اليهِ من الفضة الحجر وزن اربعمائة الف درهم فصنع منها دوائر كهيئة الافلاك وركب بعضاً على بعض ثم شكلها لهُ على الوضع المخصوص فاعجب بها رجار ودخل في ذلك ثلث الفضة وارجح بقليل وفضل لهُ ما يقارب الثلثين فتركه لهُ اجازة واضاف لذلك مائة الف درهم ومركباً موسقاً كان قد جاء اليهِ من برشلونة بانواع الاجلاب الرومية التي تجاب للملوك وسألهُ المقام عنده ومتى كنت بين المسلمين على ملوكهم على فلك (كذا) ومتى كنت عندي امنت على نفسك فاجابهُ الى ذلك ورتب لهُ كفاية لايكون الا للملوك وكان يجيء اليهِ راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى لهُ عن مجلسه فيأتي فيجلسان معاً وقال لهُ : اريد تحقيق اخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوقع اختياره على اناس الباء فطناء اذكياء وجهزهم رجار الى اقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً وسفر معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونهُ عياناً وامرهم بالتقصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته وكان اذا حضر احد منهم بشكل اثبتهُ الشريف الادريسي حتى تكامل مـا اراد وجعلهُ مصنفاً وهو كتاب نزهة المشتاق الذي للشريف الادريسي وكان رجار المذكور قد اخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة احدى واربعين وخمسمائة وقتل اهلها وسبي الحريم والاطفال واخذ الاموال ثم انهُ شرع في تحصينها بالرجال والعدد ثم انهُ اخذ المهدية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة لان صاحبها الحسين بن علي بن يحيي ابن تميم بن المعز الصنهاجي عجز عن مقاومته فخرج من المهدية هارباً بما خف من النفائس وخرج من قدر على الخروج . ولما هلك رجار ملك بعده ولده غليلم بضم الغين وبعده الميم المعجمة بين اللامين الساكنين ياء وبعده اللام وعليهِ قدم ابن قلاقس الاسكندري سنة ثلاث عشرة وستين وخمسمائة وامتدحهُ بقصيدة الى آخر ما قال

هذه نموذجات من الوافي وهو من اجدر ما يجب الاهتمام بطبعه تتميماً لسلسلة تواريخنا

الحقيقة في الخيال

متى تنجاب هاتيك الدجونُ وعنا تنجلي تلك الظنونُ
متى يعلو على الشك اليقين متى يصبو الى الحلم الرزين

. . .

أنبقى هكذا بيد الفجائع ضرائب للبنادق والمدافع
لنا في كل شارقـة مصارع تصيد نفوسنا فيهـا المنون

. . .

تقاضينا الى حد الحسام على ما ليس يؤبه من خصام
وتقذفنا لتزور الحطـام لجارية القضاء نوى شطون

. . .

يهيب بنا اللموع من السراب لورد الحتف في خمس الضراب
ويخدعنا الجهام من السحاب فنحسب انهُ الغيث الهتون

. . .

يُرينا المرء في سكنى الاطام خلال المرء في سكنى الخيام
الذ مدامه كاس الحمام واهنأ عيشة الحرب الزبون

. . .

لـهُ دانت مواليد الطبيعه فاضحت وهي صماء سميعه
اطاعتهُ ومـا برحت مطيعه تبوح بسرها وهو المصون

. . .

فكم كشفت معارفهُ حجابا وكم راضت مواهبهُ صعابا
وكم دكت عزائمهُ هضابا وكم خضعت لهُ بكر وعون

. . .

فنونٌ كم لهُ منها جنون وان جنونهُ ابداً فنون
وكل حديثهُ معهـا شجون وكل شجونه فيها فتون

. . .

تضاحكهُ فيطرب لا يبالي   بما منهـا لهُ تلد الليالي
وينسى ما جنتهُ على الأوالي   وما خبأت لهُ منها القرون

. . .

يُطيع نداء ناقضة الذمام   ويعصي كل طيعة الزمام
هجيراه مجانبة الوئـام   وبين ضلوعه الداء الدفين

. . .

سواءٌ عنده ركب الفضاء   بتطلاب العلى ام خاض ماءً
ودأماء تَوسَّطُ ام دماءً   لهُ في كل حادثة سفين

. . .

أجال بغامض الاكوان فكرا   فأوضح مبهماً وابان سرا
وكم اوحت لهُ آياً وسفرا   وسر كتابها فيهِ مبين

. . .

جلا سنن الطبيعة فاجتلاها   كواكب كم ابان لـهُ ضياها
خفايا ليس يدرك منتهاها   ولا ترقى لايسرها الظنون

. . .

رقى سيارة فوق الهـواء   تحاك بُروقها زُهر السماء
وراح بها يدل على ذكاء   وودت انها منها تكون

. . .

براها العلم معجزة العصور   ومشكاةً جلاها للدهور
واطلقها هوازيء بالبدور   تقيّدُ في محاسنهـا العيون

. . .

تراها وهي ناشرة الجناح   كدلاح تلفـع بالرياح
فما حملت سوى اجل متاح   وبين ضلوعها حتف مهين

. . .

فكم عنها تمخضت السنينُ   وما نشرت وكم طويت قرون
وما سمحت بمولدها البطون   ولا بلغ الظهور لها جنين

. . .

تخط ببهرق الآفاق سطرا فتقرأ منهُ للاعجاز شعرا
وللتدمير والتفريق نثرا وحاصل معنييهِ اذىً وهون

. . .

يثور بصدرها غاز فتغلي مراجلها على حقدٍ وغل
وان تنظر فليس لغير ذل وضيمٍ ذلك النظر الشفون

. . .

طوى خبر البساط لها عيانُ بــهِ لبصائر الدنيا افتتان
وان يسلس لراكبهــا عنان فكم منها يعاصيهِ حرون

. . .

تغرد في الفضا تغريد شادي فيطرب شدوها سمع الجماد
وان هامت بها في كل واد عقول فهي واديها الامين

. . .

تُريك على جمام الكد مزحا فتشرح طبعك المكدود شرحا
وان محضتك بعد الغش نصحا فكم جد يوّلده المجون

. . .

تطير وهل تباريها النسور ودون محلها الشعرى العبور
ولن يرقى لمرقاهــا الاثير وهل تُرقى الخواطر والظنون

. . .

لمسترق النجي غــدت شهابا تلهب في اضالعه التهابا
وتقصيه ومــا بلغ اقترابا لخافيها المراصــد والعيون

. . .

تُرى بدراً وآونةً هــلالا اذا في الافق اسرعت انتقالا
وان لاحت بوجه الكون خالا فما غير الفضاء لهــا جبين

. . .

اذا جاشت بها قدرٌ تفورُ تدور كما يصرفها المدير
وان زفرت يطير بها الزفير وان غضبت يجن لها جنون

. . .

كأنَّ البرق اصدقها الودادا فملَّكها بجنبيهِ الفؤادا
وصيَّرها لناظره سوادا ولكنَّ الخفوق لها جفون

. . .

بجانحة الزمان غدت ضميرا وطرفاً في محاجره قريرا
وعضباً في سواعده طريرا ولكن غير ما صنع القيون

. . .

أيا عصر البخار اليك شكوى يغص بها فم الايام شجوا
ابن ان كنت تنطق لي بنجوى لها باضالعي وجدٌ كمين

. . .

أينطق في معاجزك الجماد وفيك تفجر الصم الصلاد
وتمطر اهلها السنة الجماد ولم يطرهم رفق ولين

. . .

أتجريها جواري منشئات مواثل كالجبال الراسيات
وتوقرها صنوف المزعجات تراع بها المعاقل والحصون

. . .

تخادعنا ببراق لموع كذلك شيمة الختل الخدوع
وكم لك في البرية من صنيع تشيب لهُ الذوائب والقرون

. . .

فنونك لم تدع ارضاً خلاء ولم تجر بها عسلاً وماء
وكم فيها افاضت كهرباء بساطعها اهتدى ضب ونون

. . .

لئن نصبت بنوك لها دلائل فلم تك للورى الا حبائل
وان اهلت بآنسها المجاهل فما هي للنهى الا حزون

. . .

وكم لبنيك من آي اختراع طوائلها تقصر كل باع
وتذهب بالمذانب والتلاع اذا يوماً لها فاضت عيون

. . .

لئن خلبت بوارقها العقولا فلم يك ومضها الا نصولا
وكم فينا جلت عضباً صقيلا مواقع حدّه منا الوتين

. . .

الى مَ حياتنا تفنى جهادا واذنسنا نقطعها جلادا
ونحمل في الدنا نوباً شدادا تنوء بحملها الأجدُ الامون

. . .

أعصر النور لم نرَ فيك نورا ولا منك البخار غدا مطيرا
ولكن من دم اجرى بحورا واشلاء الانام بها سفين

. . .

ابن ان كنت تفصح عن خفي يضيق بسره صدر الابيّ
اتخترع النكال لكل حي وللانسان فيك اذًى وهون

. . .

كأنَّ نفوسنا اضحت متاعا يساومنا المنون لها ابتياعا
وان طارت على سوم شعاعا فما غير الفناء لها وكون

. . .

أنسقط من جهين على خبير ليصدقنا الحديث عن الدهور
فقدماً قيل غير مقال زور (وعند جهينة الخبر اليقين)

. . .

شكونا داءنا حيناً لحينا واعضل داؤنا منا وفينا
وكل رزية صبت علينا فأدوى دائها فينا كمين

. . .

شغفنا بالتمدن وهو داء عضال لا يرام لهُ دواء
وليس لدائهِ ابدًا شفاء وهل تشفى الحقائد والضغون

. . .

هل التمدين غير مثار حربٍ ومدعاة لكل اذًى وكرب
ومنذر فرقة ورسول رعب وداعية بكل ردىً قمين

. . .

متى الانسان يصبو التصافي ويخلع عنهُ اردية التجافي
ويهجر ورد رنقٍ غير صافي اذا لذَّت اشاربها الاجون

. . .

يُرى حملًا وفي برديه ذئب هجيراه مخادعةٌ ووثب
وان طمعٌ اهاب بهِ وكسب يُريك الليث اظهره العرين

. . .

غرائز فيه شتى لا تحد وجم خلائق ليست تعد
وكم منها له خصمٌ الدُّ عريكتهُ لخطبٍ لا تلين

. . .

وظل وما رعى دنيا ودينا يسوق لنوعه حتفاً مهينا
ولم يقض الى طمع ديونا وقد قضيت واغلقت الرهون

. . .

عزا للدين تفريقاً وظلما وكم قد راح ينثر منهُ نظما
ولم يلف بغير الدين ضما وهل يدعو الى التفريق دين

. . .

متى للسلم يجنح والتآخي ويحكم للمؤاخاة الاواخي
يرق لكل معولة الصراخ ويعطف من حشاشته الحنين

. . .

متى يغدو على طرف الثام تودد كل مصري لشامي
وينزع معرق للقا تهامي ونجدي لمن ضم الحجون

. . .

ويعطف كل غربي لشرقي حشاشتهُ ويرثي كل فتق
ويطلق ذاك هذا بعد رق وقسوة قلب ذاك لذا تلين

النبطية سليمان ظاهر

اخبار وافكار

البسيكومتر

اخترع عالمان من علماء النفس الاستاذ جونغ من جامعة زوريخ والاستاذ بترسن من جامعة نيويورك آلة دعواها البسيكومتر الكهربائي ان لم يمكن بها قراءة افكار من يخضعون للتجربة برضاهم او بغير رضاهم فلا اقل من الوقوف على حقيقة اقوالهم والآلة مؤلفة من كالفانومتر ومن آلة تقيد تنوع الفكر وظهوره في الكلام وذلك على الوجه الآتي : ان الكالفانومتر متصل مع مصباح ينزل لهيبهُ او يصعد بحسب قوة المجرى الكهربائي ويقاس علو هذا اللهيب بمرآة ذات درجات تنعكس عليها فلاجل فحص انسان توضع يده الواحدة على قطب من الزنك والاخرى على قطب من الفحم ومن ذلك ينشأ مجرى كهربائي تختلف قوتهُ بحسب شدة الحواس النفسية او الطبيعية التي تجري في خاطر الانسان الذي يراد اختباره فاذا كذب هذا الرجل كان من اضطراب حركة الدماغ الحادثة من التناقض بين الفكر والارادة التي تظهر العكس ان يحدث منهُ مجرى كهربائي يختلف ضعفاً وقوة ويمكن قياس قوته بعلو اللهيب المار ذكره . وقد اثبتت التجارب الكثيرة صحة هذا الاختراع الذي هو من اغرب ما سمع

المانيا الاقتصادية

الظاهر ان ليس في العالم امة كالالمان عرفت طرق الاقتصاد وادخرت وفرها للايام الشداد وعالجت كل الاسباب في هذا الباب حتى اعجب بها الاعداء قبل الاحباب . ولقد قدر العارفون ثروة الشعب الالماني قبل الحرب من ٣٣٠ الى ٣٩٠ مليار مارك وثروة بريطانيا من ٣٠٠ الى ٣٦٠ وثروة فرنسا من ٢٦٠ الى ٢٩٠ ودلت كثرة الوارد على صناديق التوفير خلال الحرب ايضاً ان ثروة المانيا ما برحت في نمو مع ان اصحاب هذه الاموال اشتركوا في اقراض حكومتهم اربعة قروض كبيرة وكانت قيمة القرض الاخير عشرة مليارات وسبعمائة مليون مارك اشترك فيه ٥٢٧٩٦٤٥ المانياً ومع ذلك زاد ما وضعوه في صناديق التوفير عن ٦٦٠ مليون مارك خلال سنة

واحدة آخرها سلخ سنة ١٩١٥

كانت المانيا قبل الحرب تملك ٤٥ مليون رأس من الماشية وفرنسا تملك ٢٠ مليوناً وانكلترا ١٣ مليوناً وبلغ محصول القمح والجاودار في المانيا ١٦،٨ مليون طن في حين لم يبلغ محصول فرنسا من ذلك اكثر من ١٠ ومحصول انكلترا ١،٤ مليون وبلغ محصول المانيا من البطاطا ٥٤ مليون طن ومحصول فرنسا ١٢ مليوناً وانكلترا ٦ ملايين

كان في بنك المانيا في اواخر السنة الفائتة ما قيمتهُ ٥٥ مليون من السندات المستهلكة في حين كان في بنك فرنسا ٢،٩١٠ ملايين وفي بنك انكلترا ٢،١٩٣ ويفهم من ذلك ان المانيا قضت الاسابيع الاولى من الحرب دون ان تعمد الى تأجيل دفع الديون (موراتوريوم) . ويستفاد من الارباح التي اعطتها الشركات الالمانية لمساهميها مدة هاتين السنتين في الحرب العامة ان ٣٠٠٠ شركة دفعت لمساهميها ٦،٤٨ في المئة سنة ١٩١٤ ودفعت ٨،٣٧ في المئة في السنة التالية هذا مع انقطاع المانيا عن اقطار العالم الاخرى

وكان الدين الذي على امبراطورية المانيا والامارات المتحدة الالمانية قبل الحرب ٢١ ملياراً وديون بريطانيا العظمى ١٤ مليار مارك ومعظم الدين الذي على حكومة المانيا هو ثمن سككها الحديدية التي ابتاعتها من الشركات بعشرين مليار مارك فالديون الالمانية يقابلها ما لالمانيا من الخطوط الحديدية ويضاف الى هذه ما تملكهُ من المناجم والاملاك والغابات التي تساوي اربعة مليارات فلالمانيا ملك يساوي ٢٤ ملياراً لقاء ٢١ ملياراً من الديون على حين ليس لحكومة انكلترا من الملك سوى ٧٨٠ مليون مارك وباقي ما عليها اي ١٣ ملياراً و ٦٠٠ مليون مارك يبقى ديناً لامقابل لهُ ومثل ذلك يقال عن فرنسا التي يقل ما تملكهُ اكثر من ذلك ويصيب الفرد من دين الحكومة في المانيا ٣١٢ ماركاً وفي انكلترا ٣١٣ وفي فرنسا ٦٦٤. وقد انفقت حكومات اواسط اوربا على تسليحها من سنة ١٩٠٥ الى ١٩١٤ ٨١ ملياراً وكانت نفقات حكومات الوفاق ٤٢ مليار مارك ويصيب من هذه النفقات كل فرد في المانيا ٢٠٢ مارك وفي النمسا ١١١ وفي انكلترا ٣٠٥ وفي فرنسا ٢٥٩ وعلى هذه النسبة كانت نفقات الحرب ويؤخذ من المجلة الاقتصادية الانكليزية ان حكومات اوربا الوسطى يصيبها ٣٥ في المئة من نفقات الحرب ويصيب حكومات الاتفاق ٦١ في

المئة فتنفق كل يوم حكومات اوربا الوسطى ١٢ مليون مارك وينفق خصومها ٢٤٥ مليوناً

وقد زاد سعر القطع في الاقتراض في جميع الممالك وهو في المانيا اقل منهُ في غيرها فارتفع فيها من ٣٫٩٠ في المئة الى ٥٫٠٥ في المئة وفي فرنسا من ٣٫٦٠ الى ٥٫٧٥ وفي انكلترا من ٣٫٣٣ الى ٥٫٢١ فالزيادة في المانيا ٣٠ في المئة وفي فرنسا ٦٠ وفي انكلترا ٥٧ وزاد تداول اوراق المصارف فكان في اواخر سنة ١٩١٥ في المانيا نحو ستة مليارات ورقة في حين كان لفرنسا منها ١١ مليار ورقة واكبر دليل على قوة الحياة الاقتصادية في المانيا ان المودعات في المصارف الالمانية زادت عشرة في المئة على حين نقصت في فرنسا ٢٨ في المئة . وسعر القطع كان في المانيا قبل الحرب ارقى من غيرها فاصبح الآن خمسة مثل سائر الممالك اما سعر القطع الخاص فهو الآن اقل مما في انكلترا مما لم يعهد الى هذا اليوم . واكبر دليل على وفرة المال في المانيا ان المصارف لا تعطي من الفائض عن المال المودع عندها اكثر من ١٫٥ في المئة وتدفع مصارف انكلترا ٣٫٥ في المئة

وهذا من الادلة الناصعة على ارتقاء القوة الصناعية في المانيا ويدل انها ارقى من خصومها في الاقتصاد والمالية فقد ابانت الحرب الحاضرة ان المانيا اول دولة في العالم واخذ علماؤُها يعنون ببيان ان المدنية الالمانية ارقى من كل وجه من خصومها وقد نشر احدهم مؤخرًا في كتاب لهُ ارقاماً هي اصدق شاهد على تقدم المانيا على فرنسا وانكلترا فتبين منهُ ان المانيا اصدرت سنة ١٩١٣ـ٣٤ الف كتاب وانكلترا اصدرت تلك السنة ٢١ الفاً وفرنسا ٩ آلاف وان المانيا تنفق على مدارسها ٨٧٨ مليون مارك وانكلترا ٣٨٤ مليوناً وفرنسا ٢٠١ مليون وان الالمان احرزوا من جوائز نوبل مكافأة لابحاثهم العلمية ١٤ جائزة وانكلترا ٣ وفرنسا ٣ وان نفوس المانيا زادت في تلك السنة ٨٢٠ الفاً وانكلترا ١٣٤ وفرنسا ٢٠ الفاً وان محصول المانيا من الحنطة ٢٥ مليون طن وانكلترا ٦ وفرنسا ١٦ وان لالمانيا ٥١ الف مركز بريد ولانكلترا ٢٤ ولفرنسا ١٤ ولها ١٣١٥ مركز تلفون ولانكلترا ٧٣٣ ولفرنسا ٣٠٤ وتجارتها الخارجية عدا المستعمرات ١٠ مليارات مارك ولانكلترا ٦ ولفرنسا ٤ وثروة الشعب الالماني ٣٧٥ مليار مارك والانكليزي ٣٤٥ والفرنساوي ٢٤٥ فالمانيا ارقى في معظم ما تقدم ضعفين من انكلترا وفرنسا معاً

واليك ايضاً ارقاماً اخرى تدل على ارتقائها في سلم الحضارة اكثر من خصيمتيها

395

في كل ١٠٠٠٠ جندي الماني أُصيبَ اثنان وفي كل ١٠٠٠٠ انكليزي ١٠٠ وفي كل ١٠٠٠٠ فرنساوي ٣٢٠ ويصيب الفرد في المانيا من ديون الحكومة ٣١٠ ماركات وفي انكلترا ٣٢٣ وفي فرنسا ٦٥٧ ويدفع الفرد من الضرائب في الاولى ٤٠ ماركاً وفي الثانية ٧٣ وفي الثالثة ٨٠ ونفقة الاولى على الجيش والاسطول ٢١٫٨٦ والثانية ٣٣٫٠٥ والثالثة ٢٩٫٦٧

ومن الغريب ان المانيا لم تؤثر الحرب فيها كما أثرت في غيرها وان ما انفقتهُ حكومتها على اعداد الاساطيل والجيوش تسرب الى خزائن رعاياها فقد قال الدكتور هلفريش الاخصائي المشهور ان اكثر من نصف ما انفقتهُ تلك الدولة تحول الى ريع للملتزمين والمتعهدين في حين ترى سائر الدول المحاربة لم يكد يبقى لها ولرعاياها مما انفقت سوى الربع على اكثر تعديل فانفقت المانيا في آخر السنتين في الحرب نحو ٢٠—٢٥ مليار مارك والنمسا والمجر ١٠—١٢ ملياراً وانكلترا ٤٠ وفرنسا ٢٥ وروسيا ٣٠. ففقدت المانيا من مجموع ثروتها نحو ٦ في المئة وانكلترا اكثر من الضعف وقد قدر احد رجال المانيا ان امتهُ يقتضي لها ثلاث او اربع سنين بعد الحرب لتستعيد مكانتها الاقتصادية على شرط ان لا يحسب في باب النفقات الا ما انفقتهُ مباشرة على الحرب . وقال ان ثروتها تزيد عشرة مليارات في العادة كل سنة منها ثمانية مليارات الى ثمانية ونصف قيمة عمل واذا قلت الزيادة بعد الحرب قليلاً فثلاث او اربع سنين تكفي وان ما يبهظ العواتق في المانيا من الضرائب مدة الحرب ينزل بعدها فتتعادل الحالة الاقتصادية

هذه حقائق تشهد شهادة صادقة بارتقاء حليفتنا ومن اعد للمستقبل مثل هذه العدة المالية يستحيل على جيوشهُ ان تغلب وعلى خزانته ان تنضب ومثل هذه القوى المادية اذا وقفت الى ابجادها امة لا تحارب حولين فقط بل عشرات من السنين·

الجرائم والحرب

كتب الغريبون كثيراً في الدواعي الى الجرائم والبواعث على الاخلال بالامن والقتل والانتحار وقام اناس يدعون في العهد الاخير ان الحرب من العوامل التي تساعد على كثرة الجرائم بالواسطة لانها تحسن حالة الاستكثار من التسليح وهو على ما يزعمون سبب معظم الشرور التي يقاسي منها المجتمع وخصوصاً في كثرة الجرائم وزعموا

ان التسليح العام سبب عظيم من اسباب الانحلال الطبيعي والادبي . وهـذا القول يصح على اطلاقه بالنظر للفرنسيس والطليان مثلاً حيث يضعف الوازع الديني وتطلق للنفوس حريتها المطلقة ولا يصح على النمسا والمجر والمانيا حيث تجد للآداب الدينية والمدنية شأناً ذلك لان ضباط هاتين الامتين الاخيرتين يتعلمون تعلماً يتمكنون بهِ من احسان الخدمة زمن السلم وزمن الحرب وهم للمجتمع هناك مادة قوة لا سبب ضعف اما الجنود فان التدقيق في نظامهم وتدريبهم في الثكن يوثر فيهم تأثيراً اخلاقياً مهماً . وكثير من اهل الدعارة قضوا خدمتهم الجندية فلما عادوا الى قراهم كانوا مثال حسن السلوك وذلك لانهم اعتادوا النظام وهذا اكبر اعداء الجرائم . ولذا فان قوانين بعض البلاد تقضي بان لا يجعل المجرم الصغير في دار الاصلاح الى مـا بعد الحادية والعشرين من عمره فينتقل اذ ذاك الى الثكنة لان الملحوظ انها تطهره بنظامها وتوفي ما عجزت عنه الحبوس ودور الاصلاح للنفوس فالجندية اذاً هي من العوامل التي توثر تأثيراً حسناً في تقليل الجرائم وليست عاملاً من عواملها ولا سبيل الى الدفاع عن دولة والاحتفاظ بمصالح الجماعة الا بقوة السلاح

منذ قرون بل على عهد نابوليون كانت الجيوش مؤلفة من حثالة من اللصوص ومن اناس لا خلاق لهم بحيث لا يستغرب ان الناس يخشونهم كما يخشون قطاع الطريق وارباب الشقاوة وكانت فرنسا الى القرن السابع عشر تتخذ حتى الحامية الملوكية من الدعار بحيث كان الجند مصيبة على الامة كما قال بعض مؤرخيهم

واذا نظرنا الى حرب النمسا وبروسيا سنة ١٨٦٦ وحرب المانيا وفرنسا سنة ١٨٧٠—١٨٧١ نجد كما قال بعضهم ان عدد الجرائم والجنايات في المجر كان سنة ١٨٦٦ ٣٦٦٣ وعدد الجنح ٩٥٨٣ اي اقل مما كان في السنين التي سلفت . فارتكبت سنة ١٨٦٥—٢٨٦٤ اعتداء على الآداب وفي سنة ١٨٦٦ كان عدد هـذا النوع ٢٥٨٨ وسنة ١٨٦٧ — ٢٧٣٢ وارتكبت سنة ١٨٦٥ — ٥٩٦ جناية قتل وسنة ١٨٦٥ — ٥٣٩ وسنة ١٨٦٧ — ٦١٨ وارتكبت سنة ١٨٦٥ — ٤٤،١٦٢ سرقة وسنة ١٨٦٦ ٤٣،٥٧٥ سرقة وسنة ١٨٦٧ = ٥١،٧١٧ وجميع الجرائم والجنح تقل زمن الحرب ولكن تزيد زمن الحرب جرائم اخرى مثل جرائم تناول الملوك بسوء او تفوهات رديئة كما تزيد جرائم سك النقود وزادت جرائم الجنح في السنة التالية لسنة حرب المانيا = فرنسا زيادة مهمة . واهم الاسباب المؤثرة مباشرة في تقليل الجرائم مـدة

396

الحرب هو ان عناصر الشعب التي تجترح الجرائم تكون في ساحة الحرب مشغولة فقد جيشت المانيا في حرب السبعين مليوناً ومائتي الف جندي فخف بذلك عدد المجرمين ولكن زاد عدد المجرمات وذلك لان النساء بقين بدون معين خلال الحرب ودفعتهن الفاقة الى ارتكاب المحظورات

الحرب تؤثر في اخلاق الشعب المحارب وعقل سكانه المدنيين فتحدث فيهم حماسة من شأنها ان تحمي الفرد من العوامل الدافعة الى الجرائم ويقل ارتكاب الشر في الانسان . ومتى زاد الفحش في امة تشتد الحاجة الى عاصفة مطهرة تشتد الى حرب تخلص النفوس من شقوتها وقد اثبت علماء الاحصاء في المانيا ان هذا الانقلاب في الاخلاق مع الفكر المتحد والحماسة الوطنية التي ولدتها حروب الالمان هي ايضاً من اسباب قلة الجرائم

وهناك سبب ثالث غير هذين العاملين الطبيعي والازلي وهو ان الافراد قد لا يشتكون زمن الحرب في المسائل الطفيفة والحكومات تكون اوسع صدراً في هذا الشأن فلا تؤاخذ على الصغائر فيقل الضرب على ايدي المجرمين حتى يظن الناس ان الجرائم قلت اكثر مما هي في الحقيقة . والجرائم ايام الحرب تختلف باختلاف طبيعتها ومهما كان الشعب راغباً في اشهار الحرب فان من الناس من يحملون تبعة ذلك على ملك البلاد فيطيلون فيه السنتهم ولذلك يحكم عليهم باحكام اهانة الملوك وجرائم الافلاس تزيد زمن الحرب لاشتداد الازمة المالية . والجنايات بعد الحرب وان لم تطل ايامها تكون اكثر لوقوف دولاب الصناعة بقلة المال وقلة اليد العاملة واذ يهلك كثير في الحرب ومنهم من تقعد بهِ جراحاته عن العمل فيزيد شقاء العائلات ويختل نظام البيوت وبذلك تزيد جنايات الانتحار كما قال ستارك . ويزيد عقبى الحرب الاعتداء على الافراد لان عدداً كبيراً من الجند يعودون الى الحياة المدنية وقد فقدوا شعور احترام الحياة الانسانية والملكية او قل فيهم هذا الشعور وهذا ما يحق بهِ قول من يقول ان فكرة الحرب لا تشبع بغير الذهب والدم . ومما لا ينكر ان الدور الذي يعقب الحرب يحمل في مطاويه القوم الى السفك والتخريب لا المتسامح فيه بل المحرض عليه من الرؤساء . وهذه الاهواء التي تعمل عملها بالاغواء والقدوة ويحاول المجتمع والممالك المتحاربة ان يؤججوا نيرانها بكل ما لديهم من الذرائع تغرس في النفوس اصولاً يصعب اقتلاعها في الحال وتظل تنمو حتى اذا مد السلام رواقهُ لم تعد حاجة

اليها فوجب استئصالها او منعها من النماء

وهنا واجبات سياسية اجتماعية يجب علينا زمن الحرب وبعده ان نأخذ بحظ منها وهو انه يجب على الحكومة والمجتمع ان يجتهدا في القضاء على الشقاء والامراض التي احدثتها الحرب وان يقوي في غضون الحرب في جميع طبقات الشعب الاعتقاد بالظفر النهائي واننا على حق فيما نحارب لاجله وان تتلقم من النفوس بعد الحرب وحشيتها وقسوتها وذلك بواسطة الصحافة والتمثيل والمحاضرات العامة

الالعاب الرياضية

كتب الدكتور ماكس نوردو العالم الاسرائيلي الالماني الكبير مقالة في احدى المجلات الافرنسية في الرياضات او الالعاب الرياضية Sports قال ما تعريبهُ :

لقد دعي عصرنا حتى الآن بجميع الاسماء الممكنة فسمي عصر الطفل وعصر المرأة وعصر الطيران وعصر السرعة . واذا قلنا عصر الرياضات كانت هذه التسمية من اصح التسميات . كانت الالعاب الرياضية قديماً خاصة بالانكليز جسمها واسمها اما اليوم فقد اصبحت المسألة الكبرى بل هذه جميع الشعوب المتمدنة ولها المقام الاول في خطط تهذيب الشبيبة والمرأة فهي في نظر الجيل الراقي تنوب مناب جميع الكماليات التقليدية والاخلاقية والجمالية والاجتماعية تهتم لها الحكومات فتبذل لها من العناية الادارية مثل ما تبذل لمسائل الخراج والجيش . لا جرم ان الوقت قد كاد يحين لتنشيء فيه كل حكومة منظمة وزارة للرياضات فان الاستعداد للقيام بالالعاب الاولمبية الدولية يجري على انه في كل مكان كما يجري الاستعداد لحملة . وكل ظفر يحرز في هذه الالعاب يصبح علامة مجد وطني وكل انكسار يتحول الى ذلة ينال شرها شعباً برأسه . ويضطر الجمهور اهم الصحف واكبرها ان تكبر عناوينها الخاصة بالالعاب الرياضية من يوم الى آخر وقد لا تشبعهُ هذه الحال فيميل الى الحصول على صحف لا تبحث في الامور التافهة كالسياسة الداخلية والخارجية والاقتصاد السياسي والآداب والفنون والتمثيل وان لا تنشرهُ الا ما ينفعهُ حقيقة واعني بذلك الرياضات وان الصحف المستقلة التي تعنى خاصة بالبحث في الالعاب الرياضية قد كثرت في كل مكان وكثرة المطبوع منها يدل على مبلغ الحاجة العامة التي تسدها

لممارسة الالعاب الرياضية تاريخ قديم في انكلترا فهو احد المظاهر المهمة يتبع

الطبقات الاجتماعية في الشعب الانكليزي فقد اخذ الفاتحون من النورمانديين على انفسهم حكم جمهور السلتيين والانكليز السكسونيين ممن غلبوا على امرهم وحرموا من حقوقهم فألفوا طبقة خاصة يدخل فيها غيرهم اذا كان يستحق ان يعد في جملتهم وهذه الطبقة معينة والالعاب الرياضية خاصية وعلامة مميزة لاهل تلك الطبقة . الالعاب الرياضية تستلزم صرف الوقت والمال والقوة والخدمة والعناء والصبر وتستدعي فراغاً وسعة مادية وقوة طبيعية وصفات من الاخلاق في قوة الارادة والثبات ومجموع هذه الصفات العالية يتألف منها تعريف الارستقراطية . وقد اكتفت بعض طبقات من الفاتحين بتملك الثروة ونيل الامتيازات السياسية والاجتماعية . فالبذخ والنعيم هما اللذان تأنثت بهما امة الويزغوت في اسبانيا ففسدت وكذلك كان شأن اللومبارديين في ايطاليا الشمالية والمغول والتتار في روسيا والمنشو في الصين . وذلك الى اليوم الذي تضى فيهِ عليهم انحلالهم وقلة مضائهم وكان ذلك من دواعي حمل العامة عليهم لاخراجهم من مراكزهم الممتازة ودوسهم في الارض . وكان الدانيمركيون والنروجيون الذين اصبحوا نورمانديين ممن يؤلفون الارستقراطية الفاتحة في انكلترا على جانب من المكانة والذكاء وبعد النظر فارادوا ان يبقوا شجعاناً بحسب الطبيعة وان يكونوا اشد قوة لا من حيث القانون فقط بل كانوا يرغبون بان يكون كل واحد منهم في كل مكان وفي كل ساعة قادرًا ان يظهر بقوة زنده حقيقة استعلائه وتقدمه على كل من يجرأ على ان يشك فيهِ او ينكر عليهِ فضل تقدمه ولذا كانوا يذهبون الى ان هناك واسطتين لحفظ القوة العضلية وزيادتها فهم اما ان يقوموا على الدوام باعمال جسدية عظيمة او ان يعمدوا الى الالعاب الاولمبية الحاوية على المشاهد والملاهي والدقة ولم يكونوا يعملون اعمالاً هي من شأن العامة وعمدوا الى استخدام الالعاب الرياضية التي كانت علامة مميزة لطبقتهم . وقد جرى في هذا الباب كما يجري في كل مكان للمجتمعات الاولية التي تضع بصنعها خطة تتبعها الطبقات الاخرى في الامة فان الرياضات كانت بادىء بدء امتيازاً بل علامة الاشراف فغدت من اكثر ما تعنى بهِ الامة . وبديهي ان الرجل المنور يقوم على احسن ما يكون بنوع من الالعاب الرياضية على الاقل . وانك لترى في الكتاب الذي وضع للتعريف بكل انسان ذي مكانة في المجتمع واسم مشتهر بين الناس في جملة التفصيلات المعتادة عنهُ اشارة الى نوع الرياضة الذي يميل اليهِ والمترجم لهُ يرى ان ذكر المرء وما يرتاض بهِ هو من

الجوهريات مثل مكان الولادة وتاريخها وايراد سلسلة نسبه وحالة اسرته ودروسه المدرسية ومركزه والقاب تشريفه واعماله التي رفعته . ولما سئلت للمرة الاولى ان اجيب على امور تسجل في هـذا الكتاب ليرجع اليه عراني الخجل ان اترك عنوان « الملذ له من الرياضيات » فكتبت بجسارة : المسايفة (لعب السيف والترس) والعوم وان لم ابلغ مبلغاً من المهارة فيهما يصح ان يذكر وان كنت منذ سنين ممتنعاً عن هاتين الرياضتين ويا للاسف ولم استطع ان اصرف فيهما سوى وقت قصير جدًا وانك لترى القصص الانكليزية التي تؤلفها النساء وغيرها من انواع الاقاصيص يوصف ابطـال رجالها بقوة لطماتهم وملاكماتهم وثباتهم وصبرهم في هذه الالعاب وحذقهم في التجديف

ولقد ضحك السياح الذين اتوا من اقطـار اوربا الى انكلترا من طريقة التعليم العالي في هذه الديار وظهر لهم وهم يهزون اكتافهم ان تربية العضلات هناك مقدمة على التربية العقلية وان صفوف الدروس كانت فارغة على حين تغص ساحات اللعب بالطلبة وقد امتازت كليتا كمبردج واكسفورد قبل كل شيء عن المدارس العليا بلعبة الفوتبول والرياضات المائية كالعوم وان الشبان الذين ينالون القاب الاكاديميات كانوا يجعلون لقوة الجسم ميزة على تعلم العلوم

لا جرم ان انكلترا تعجب بمن قام فيها من الرجال امثال داروين وماكسويل واللورد كالفن ورامسي ولكن هؤلاء العظماء لا يعزونها عن رؤيتها ان يكون رجلها في الملاكمة الثقيل الجسم « بومبارديه ولس » يسحق مؤخرًا في ساحة اللعب في ٧١ ثانية على يد شاب فرنساوي فظ اسمهُ كاربانتيه وعمره تسع عشرة سنة . لا جرم ان انكلترا كانت تؤثر التخلي برضاها عن اكتشاف علمي نسب اليها لقاء تغلب مبارزها الذي كانت غلبته مصيبة وطنية عامة سجلتها كبريات صحف لندرا بمداد الحداد واشارت الى ان ذلك الانكسار دليل انحطاط الشعب الانكليزي

ومع ذلك فان الرياضات تكاد لا تكون الآن خاصية من خواص انكلترا فقد اجتازت الخلجان والبحار وهي الحاكمـة المحكمة اليوم في العالمين وقد اتفق على استحسانها مؤرخو المدنية ورجال الاخلاق والنقادون واللغويون في هذا العصر ليدلوا على ما في الالعاب الرياضية من الفرح والبهجة فهي تصفي الاخلاق لانها تستدعي نظاماً قاسياً وتضطر صاحبها الى القناعة والعفة وحيث انتشر الولوع بها تراجعت ربتا الخمر والجمال (باخوس وفينوس) وبتأثيرها يضمحل ما يضر بالخَلق والخُلق فهي

تربي النوع على السرعة والشجاعة والجمال والانسانية مدينة لها بجيل من الابطال .
هذا الرأي الشائع ولا يجرأ على مناقضته الا بعض علماء التربية ممن يصرحون بافكارهم ولا يحاذرون ان يطردوا من حظيرة الحظوة وان يوصموا بالارتجاع والجمود

ليس للرياضات من الفضائل ما ينسبونه اليها بل هي تستفيد من الخطاء الشائع الذي به يخلطون بين الالعاب الطبيعية والالعاب في الهواء الطلق ولا يراد بلفظ الرياضة البراز ولا الجمناستيك بل للرياضة البدنية غايات اخرى ومقدمات طبيعية فهي تقوم بمؤثرات اخرى وفي مطاويه عدة فروق في العواطف بل ان الرياضة مع الجمناستيك على طرفي نقيض فان المتعصبين للرياضة ينظرون الى الجمناستيك نظر ازدراء ويرون انفسهم في العابهم مجددين وانهم صورة الارتقاء والتنوير ويعبرون عن مرامي العصر اما المنصرفون الى الالعاب الجمناستيكية فيجيبون على ذلك ان جميع النتائج الميمونة التي يدعى انها تحويها الرياضة يحدثها الجمناستيك على حين ليس في هذا ما في ذاك من العوائق

فالرياضة الجسمية او الجمناستيك يبحث عن نظام الجسم وعن الكمال العام في قواه وعن قمع مجموع العضلات وعن تربية الارادة وتنمية الثقة بالنفس والمصارع المدرب تدريباً حسناً ينال بدون تعمل من اعماله كل ما فيها من النتائج فيبلغ هادئاً آمناً مطمئناً الى اقصى الحدود التي تستطيع بلوغها قواه الجسدية . والرياضة لاتعمد الى تربية جميع القوى الطبيعية تربية واحدة وغايتها التفريق والتخصيص ولا تستلزم من الجسم الا حالة واحدة ولكن يجب ان تكون في ارقى مظاهر الكمال . والسرعة هي التي تطلب في جميع الرياضات ولا يعد من اهل الارتياض في شيء من لا يعجل ويقطف ثمار الظفر في رياضاته . والمرتاض يحمل طاقته فوق قوتها ولا يسوغ له ان يضعف ثانية لا لاجل نفسه بل ضد غيره . وقد قال شيلر : ان المصارع يتعلم في طي السكوت والمرتاض بين جلبة العالم . وتقاس قوة المرتاض ضد خصومه ويقاوم ابداً مع منافسين يحاول ان يتفوق عليهم ولا يشعر بادنى سرور من حالة حسنة في ذاتها الا اذا كانت احط من غيرها فاذا بلغت به الحال ان يصل بتكرار العمل ان يكون الاول يجب عليه ان يدافع عن مركزه من التالين له او ان يترك العراك ويعترف بارجحية غيره عليه ويرضى صاغراً بالتصريح بانهُ تجاوز اقصى درجات قوته وان الخط المستدير من حياته آخذ بالهبوط . يتألم ان يكون المرء مصارعاً الى سن متقدمة ولا

يكون مرتاضاً Sportsman الا في اوائل سن الشباب وقوته على اتمها لم تصب بما ينقصها . ومن النادر ان يكمل المرء في الصراع بعد الثلاثين من عمره ولا اعلم احداً في الاربعين وفق الى تعلم السرعة . البراز هو الواسطة التي يبقى بها المرء فتياً زمناً طويلًا اما المرتاض فان صحته تعجل عليه فتنحيه عن عمله . البراز يمكن ان يكون مشغلة ومسلاة لوضع الموازنة بين النشاط الطبيعي والعمل العقلي والارتياض حاكم حسود لا يسمح لغيره بان يقف معه . ولكي ينال المرء ما في التبريز في الارتياض من الشرف يقتضي عليه ان ينصرف اليه كل الانصراف وانك لتطلب من محترف بحرفة اكثر مما تطلب من مولع بها . والرياضة تستلزم ان تشغل حياة من يطمع في التبريز فيها باسرها . الارتياض يضر بالجمال ويقضي على تناسب الاعضاء باحداثه خللًا في نظام القوة وانبساط قلب مفرط الى جانب هزال مضني . فليس هو بمناسب للصحة بل يؤدي بها الى الخطر . والمتنافسون في الارتياض معرضون لامراض القلب ولداء الاعصاب وقلما يعمرون طويلًا . الارتياض لا ينشيء جنساً قوياً والمرتاض الحقيقي لا يعد شيئاً اذا خرج عن اختصاصه فهو اذا قفز لا يحسن الجري واذا رمى بالاطار (الطارة) لا يطلب منهُ عمل آخر . ولا عمل له في تحسين الجنس وبكثرة انهاكه لقواه العصبية وافراطه في عمله يكون متوسطاً فيما يتم على يديه او يكون عمله رديئاً فالرياضة لا تنفع الا في اعجاب المرء بنفسه وكثيراً ما تأتي صاحبها بالمجد والغنى وقد احتفل بالفائزين في سباق الرياضات اكثر مما احتفل بالعلماء الاعلام ولا فائدة منه الا انه يدل ان المرء يستطيع ان يسير ابرع من حصان السباق وانه يجري شوطاً اوسع من شوط الذئب ويقفز اكثر من النمر

القضاء والعلم

دعا ناظر مدرسة حقوق تلامذة الصف الآخر من مدرسته وخاطبهم فقال :

انني مسرور لرؤيتكم مرة اخرى مجتمعين قبل حصولكم على شهادتكم النهائية ومفارقتكم للمدرسة . لا تتصوروا بعد حصولكم على الشهادة ان باب الدرس اقفل فالانسان لا يستغني ابداً عن المطالعة والدرس وعليه فانا اميل كثيراً الى ان تكوّنوا نادياً او جمعية يكون القصد منها ايجاد مكتبة فيها تطالعون وترجعون اليها في ابحاثكم في المستقبل وبداعي قرب الامتحان الفت نظركم الى مسألة كثيراً ما

تنسونها وتعتقدون ان فيها ضياعاً للوقت تلك المسألة هي الراحة والفسحة فاعطوا انفسكم نصيبها من ذلك اذا اردتم نجاحاً

يهمني كثيراً قبل مفارقتكم لنا ان املي عليكم بعض الصفات التى يجب ان تتحلوا بها في مستقبلكم والتي عليها تتوقف علو منزلتكم واعتباركم بين زملائكم ان اول ما اذكركم به عزة النفس واعتماد الانسان على نفسه تلك امور كثيرًا ما تدور على الالسن وينصح بها كل انسان غيره ولكن قلَّ من يطبقها على نفسه . ان ذل النفس امر مرذول جدًا . فاذا احاطت بالانسان احوال احتياج فعليه ان يسعى بقدر الامكان في كتمانها وان يتظاهر امام الناس بانه في غنىً وانهُ لا يريد المزيد . تلك صفات تجعل صاحبها مهيباً موقرًا في اعين اقرانه فـان كثيرين من الناس يبثون الشكوى لغيرهم من سوء حالتهم ويذكرون لهم امورًا متعلقة باشخاصهم وقد لا يميل المشكو اليه الى سماعها مثال ذلك يقول شخص لغيره اني فقير ومحتاج واريد تنمية ثروتي . فهذا كلام لا لزوم لهُ ولا محصل

يجب على الانسان ان لا يصرح بكل ما في ضميره خصوصاً مما لا يهم الغير . فاذا كان احدكم في وظيفة فلا يلزمه ان يشكو ويقول ان فلاناً كان معي وكان اقل مني في المرتبة وهو الآن رئيسي . فان افشاء مثل هذه الامور ينقص اعتبار قائلها . الانسان يسعى ليرتقي ولكن بدون ان يشكو ويبكي

تجول في خاطري مسألة اخرى كثيرًا ما يقع فيها معظم الناس واعني بها التسرع في الغضب وعدم مقدرة الانسان على كتمان فزعه . حقيقة ان هذه امور قد يصعب في بعض الاحيان تجنبها ولكن اذا تجنبها الانسان تجعله مهيباً مسموع الكلمة يلفت انظار الناس خصوصاً عند ما يرون من هدوه وسكونه اذا حل به امر يوجب القلق . ان اللين يفعل ما لا تفعله الشدة . خذوا مثالاً بسيطاً . افرض ان عندك خادماً اتى امرًا اوجب سخطك فانهلت عليه بالشتائم فقل ان يفعل زجرك في خادمك فعلاً حسناً وقل ان يهابك ولكن وبخه بطريقة لينة مذكرًا اياه ان لـه حقوقاً وعليه واجبات فان ذلك يفعل فيه ما لم تفعله جلبتك فضلًا عن انك تصون نفسك . هـذه الصفة العالية شديدة اللزوم في حرفتكم سواء كنتم قضاة او محامين فيجب على القاضي او المحامي ان يسعى بقدر الامكان في كتمان احساسه ولا يتأثر بسرعة ولا يأخذه انزعاج ولا دهشة حتى يكون حكمه مبنياً على عقله لا على وجدانه . فاذا كان احدكم محامياً

وعامله القاضي بغلظة وبشدة فلا يجب ان يفزع ويشكو من اول الامر بل عليه ان يصبر مرة واخرى ويدافع عن حقه بدم ساكن وبذلك يؤثر في نفس القاضي ويزداد هيبة ووقاراً ·

الفت انظاركم الى مسألة تتعلق بمعلوماتكم العلمية اني لا اشك في ان مهمة القاضي والمحامي من اشرف الاعمال واشقها · فكل منهما ليس مختصاً فقط بمعرفة القانون وعندي انه لو درسه في اوسع موسوعاته لما عد قاضياً خطيراً او محامياً نحريراً · ان اجادة درس القضايا والحكم فيها لا يحتاج فقط الى معلومات قانونية بل الى معلومات طبية وزراعية وهندسية وحسابية · ان القاضي يفصل في نقط قانونية بعد تقدير الموضوع ولكن هذا الاخير يحتاج الى معلومات كثيراً ما تكون غير قانونية

انا لا اطلب ان يكون بيد رجل القانون شهادة في العلوم الاخرى فذلك امر مستحيل وانما اطلب منه ان يكون ذلك الرجل الذي يمكنه ان يبدي رأياً في كل شيء ولو الى درجة محدودة · اطلب منه ان يكون عمومياً فكثيراً ما اهمل القضاة والمحامون ذلك الامر وعند عرض نقط طبية او هندسية ينفضون ايديهم ويقولون نحن لسنا اطباء او مهندسين لنأخذ تقرير الاختصاصي · فذلك ما انهاكم عنه قد يستعين رجل القانون بتقرير الاختصاصي ولكن لا يجب عليه ان يهمل المسألة ففي يده ارواح الناس واموالهم واعراضهم وهو المسئول عن حكمه لا الخبير · فيجب عليه ان يبحث بنفسه ويناقش الاختصاصي في رأيه ويطلب منه بيان الاسباب التي ادته الى تكوين اعتقاده حتى يرتاح ضميره · لا جرم انه لا يمكنه القيام بذلك الا اذا كان عنده بعض معلومات بالطب او الهندسة او غير ذلك

يجب على المحامي ان يكون كذلك حتى يصون حقوق موكله ويقوم بالدفاع خير قيام · استشهد بقضايا كثيرة تحتاج الى تلك المعلومات العلمية مثل قضايا التنويم المغناطيسي والتسميم واشير ايضاً الى قضية حدثت في بلاد الانكليز كان لها رنة بين رجال القانون · قضية تضمنت حيثياتها منشأ التلغراف اللاسلكي وتاريخه وتركيبه وكل ما يتعلق به حتى قال بعضهم لما قرأ الحكم: ان القاضي الذي اصدر هذا الحكم كان بلا شك مرافقاً لمخترع هذا الاختراع في جميع ابحاثه · فهذا يبين لكم باجلى بيان المعلومات التي يجب على القاضي ان يعرفها فلا تحرموا اذاً مكاتبكم من كتب متعلقة بتلك الموضوعات حتى تقوموا بحرفتكم احسن قيام · وكونوا في كل اطواركم مهذبين من الرقة والادب على جانب اي ليكن كل منكم جنتلمان gentelman اه

400

مرض المسكرات

القى الطبيب « مظهر عثمان بك » احد الاخصائيين في الامراض العقلية والعصبية محاضرة في « مرض المسكر » احببت ان اعربها قال :

كان يحظر على طبقة النبلاء في الهند قديماً تناول المسكر ومن اقدم على تناوله منهم فانه يسقط عن مكانته الاولى ولا يحسب في عداد النبلاء اما الصين اليوم فانها ذاهبة قرباناً للمسكر وان اكبر عامل في انحطاط هذه الامة المؤلفة من مئات الملايين من النفوس هو المسكر وانه هو الذي جعلها تصل الى هذه الدركة من التدني وافقدها روحها وتركها بها يائسة ومما يؤثر عن احد امبراطرة الصين انه قال : اذا دام فتك مرض المسكر بهذه الصورة فانى في شك من بقائنا على تخت السلطنة في المستقبل وقد اتخذوا تدابير كثيرة لوضع حد لتفشي هذا المرض واثر عن فلاسفتهم مثل قوا وكنفوشيوس كثير من القول في هذا الصدد ولكن هذه المملكة الهرمة القاطنة في الشرق الاقصى لا تزال سكرى ثملة ولا يزال اهلوها قاطبة يتناولون اقراص « الافيون » في منازلهم المنزوية بين ثنايا تلك الازقة الضيقة ويقضون كل يوم ساعات كثيرة سكارى لا يعقلون

تعاطي المسكر لم ينحصر في الهند والصين فقط بل تفشي عند الاتراك والعرب والعجم وبين كل الامم الشرقية غير انه في دور مبعث صاحب الرسالة عليه السلام أعلنت اكبر حرب على المسكر ونزل كثير من آيات القرآن الكريم المعجزة ورويت احاديث نبوية جمة باسلوبها اللطيف الوقور ومتانتها وكلها تحظر على من دانوا بالاسلام تعاطي هذا السم القاتل وبسبب هذه الحرب التي اعلنها الدين الاسلامي على المسكرات دخل المسلمون الى حظيرة من السعادة ولم يجد المسكر بين ظهرانيهم محيطاً ملائماً ولا مناخاً سهلاً وان هذه الشدة التي جاء بها الدين الاسلامي ازاء تعاطي المسكر يؤيدها الفن اليوم ويسعى للقيام بها بكل ما اوتي من قوة

المسكر احد الامراض الانسانية الواجب معالجتها وهو انواع جمة متعددة ولكنا نستطيع ان نقول بصورة مطلقة انها كلها مضرة وانها تهدم البنية وتنخر الدماغ والاعصاب ولها تأثير كبير في الانسال فان اكثر المرتطمين في حمأة المسكر لا يلدون واذا انسلوا ولا بد فيكون ولدهم شخت الخلقة سيء التركيب ضعيف البنية .

المسكر ليس بغذاء يربي الجسم او يزيد الدم او يبعث القوة ولا يصدق هذا على الانسان وحده فقط بل على الحيوان ايضاً والتجارب التي اجراها العلماء تؤيد هذه الحقيقة

ان الفراشة التي تعيش متطايرة في حدائق الورد لتسكرها تلك القطرات المترقرقة على اوراق الازهار الملوثة المفتحة في فصل الربيع ، وان القردة لتشرب المسكر من يد سقاتها بكل لذة وشوق ولا تزال تعوي وراء اولئك السقاة تستعطفهم ليزيدوها من هذا المسكر حتى تصل الى جدران المدينة ، والخيل اذا سقيت المسكر يقوى بها الشبق (الشهوة) وتعدو كثيراً ولهذا ترى فرسانهـا يحرصون كل الحرص على سقيها المسكرات قبيل السباق ، ولكن هذا الحيوان المسكين لا يلبث ان يسقط فيما بعد مريضاً ، حتى ان الحمر ليمرضها تناول الجرعة الواحدة منه

يوجد في بلادنا اعتقاد غريب وهو ان المسكر يصلح ان يكون دواء لبعض الامراض وهذا بناء على بعض روايات باطلة يعزونها الى اطباء اليونان ، لا ، ان هذا الاعتقاد من الامراض السارية فالمسكر لم يكن في وقت من الاوقات نافعاً للحياة

واعود فاكرر القول بان المسكر سم قاتل لانهُ يبيد الحجيرات الدماغية وانهُ يأتي الى العروق والى ادق الاعضاء والطفها فينخرها . يبحث بعضهم عن فائدة تعاطي المسكر بكمية قليلة . وهذا يصلح ان يكون نموذجاً لاغلاط الفكر الانساني . نعم . ان كل القرابين التي قدمت من بني الانسان لهذا السم بدأت اولاً تتعاطاه قليلاً قليلاً ثم تمكن منهم وعدوا فيما بعد من صرعاه . وان كل الجنايات والفضائح في العالم كله اثر من آثار المسكر

في الغرب لا يتناول المسكر الا الطبقات السفلى من البشر اما عندنا فان كبار الأسرات تضعه على موائدها بين الاطعمة المغذية وبين مختلف النقول . وان هذا الخائن الذي يطرد اليوم من كل الممالك وجد له بين ظهرانينا مباءة صالحة . واهم ما يجب عمله على الحكومة بلا شبهة ان تمنع تعاطي المسكر بين مرظفيها بصورة قطعية

المسكر لم يكن منذ زمن قريب معروفاً عند الاهلين وانما تسرب اليهم من بعض الاروام المهاجرين من بلاد اليونان للاتجار في بلادنا فان هؤلاء كانوا السبب في تفشيه بين شباننا في عامة الانحاء فتراه اليوم يباع في الاناضول في كل مدينة وقصبة وقرية ومزرعة ومن المحقق انه بعد مدة يصبح دواء هذا الخطر من اعقد المسائل وعليه فينبغي اتخاذ الاسباب اللازمة من الآن والتحيل لرد عادية هذا العدو الازرق الذي يسمم النسل ويضربهُ ضربة قاضية لا يقوم منها ابداً

رشدي الحكيم

الجزء الحادي عشر والثاني عشر المجلد ٨

المقتبس

ري اطنة

اقليم اطنة او اذنـــة او كيليكيا هو اليوم عبارة عن لواءي اطنة وايج ايل وكانت العرب تقول لها الثغور واسم الثغر كما قال جغرافيوهم يشمل بلاداً كثيرة وهي البلاد التي كانت معروفة في القرن السابع للهجرة ببلاد ابن لاون ولا قصبة لها لان اكثر بلادها متساوية وكل بلد منها كان اهله يرون انهُ احق باسم القصبة فمن مدنها بياس ومنها الى الاسكندرونة مرحلة ومن بياس الى المصيصة مرحلتان ومن المصيصة الى عين زربة مرحلة ومن المصيصة الى اذنة مرحلة ومن اذنة الى طرسوس يوم ومن طرسوس الى الجوزات يومان ومن طرسوس الى اولاس على بحر الروم يومان ومن بياس الى الكنيسة السوداء وهي مدينة اقل من يوم ومن بياس الى الهارونية مثله ومن الهارونية الى مرعش وهي من ثغور الجزيرة اقل من يوم وهـذه الثغور الشامية تدعى بالعواصم

وقال جغرافيو الافرنج في تحديد كيليكيا يحدها شمالاً ليكاونيا Lycaonie وكبادوكية Cappadoce وشرقاً سورية وغرباً بامفيليا Pamphylie وبيسديا Pisidie وجنوباً البحر الرومي وهي سهول خصبة منبسطة يسقيها سيحان Sarus وجيحان Pyramus والبردان Cydnus وكانت كيليكيا تقسم الى قسمين شرقي وهو سهل كيليكيا وهو عبارة عن لواء اطنه اليوم وغربي وهو الجبل وهو عبارة عن لواء ايج ايل ومركز الشرقي منه طرسوس ومن مدنه سولس وماله وايسوس (اياش) وعين زربة واهم مدن القسم الثاني سلفكه سيلنونته (سلندي) كلندريس (كلندره)

اصل سكان هذه البلاد من السريان وكان يطلق عليهم اسم لوقو كيليكيان اي السريان البيض تمييزاً لهم عن اهل سورية وقد اعمر مهاجرة اليونان بعض سواحل هذه البلاد وجعلوها مدناً وفتحها كيخسرو وضمها الى مملكة فارس وجاء الاسكندر فاتحاً ثم ضبطها بطالسة مصر وافتتحها بومبوس وضمها الى المملكة الرومانية وكانت اصبحت ملجأ لقرصان البحر ووقعت من سهم المملكة الشرقية كما انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية عاصمتها القسطنطينية وغربية عاصمتها رومة وقد فتح الامويون هذا الاقليم وكان يحكمه على عهد الصليبيين بنو ليون الارمن وافتتحها السلجوقيون بالتدريج ولما انقرضوا انقسمت بين اولاد قره مان ورمضان وحكومة ذو القدرية ثم اضيفت الى المملكة العثمانية في عهد السلطان محمد خان الثاني وبايزيد الثاني وياوز السلطان سليم

هذه نبذة من جغرافية كيليكيا وتاريخها اما الانهار التي تجري فيها ويراد اليوم اصلاح ريها فهي سيحان وجيحان وبردان تسقي سهول اذنه البالغة على اقل تعديل مائتي الف هكتار والهكتار (عشرة آلاف متر مربع) وينبع سيحان (١) من قضاء عزيزية في ولاية سيواس ويجري الى الجنوب الغربي ماراً بجبل قوزان وجبل بيك بوغاز في واد بديع ثم يمر باواء قوزان فيضم اليه بعض الاودية المنسالة من تلك الجبال حتى يصل الى لواء اطنة ثم ينضم اليه نهر آخر ينبع من قضاء عزيزية على اليمين ماراً من وراء جبال قوزان ويسمى هناك نهر زمنتي ثم قزيل ايرماق ثم قورشون صو ثم چكيدي فيجري الى اطنة في سهول « چقوراوه » حتى يصل الى البحر الرومي وطول مجراه ٤٥٠ كيلومتراً وهو يصلح لسير السفن في مصبه ولكن الرمال هناك تمنع من سير السفن الكبرى فلا يتيسر غير سير السفن الصغرى اما جيحان فينبع من لواء ملاطية ويجري الى البستان ويسمى هناك « سكودلي صو » ويتألف من نهر « خوماچاى » الجاري من جبال قوزان فيمر في اودية وجبال كثيرة حتى اذا بلغ مرعش يضم اليه نهر « آق صو » فيدخل ولاية اطنة ثم يأتي الى سهل اطنة ويجري على موازاة نهر سيحان

اما بردان او « طرسوس چاى » فينبع من حدود ولاية قونية ويتألف من عدة اودية تنساب من سفوح جبل « بوغاطاغ » ماراً بوادي جهنم ويضم اليه نهر كولك الآتي من مضيق كولك فيجري الى السهل ويمر بالقرب من طرسوس وبعد ان يروي

(١) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي

حدائقها تتألف منه بحيرة ويصب في البحر الرومي غربي مصب نهر سيحان وطول مجراه ١٠٠ كيلومتر على التقريب . وهـذا هو النهر الذي اغتسل فيه الاسكندر المقدوني وهو قاصد الى الشرق فمرض وكاد يقضي عليه كما حُمَّ المأمون العباسي لاغتساله بنهر قرب البذندون وحمَّ ومات هناك . وعدَّ المقدسي انهار سيحان وجيحان وبردان من الانهار الفائضة في المملكة وقرنهـا الى دجلة والفرات والنيل وجيحون ونهر الشاش ومهران ونهر الرس ونهر الملك ونهر الاهواز وقال انه تجري فيهـا السفن قال : واما سيحان وجيحان وبردان فانهن انهار طرسوس واذنة والمصيصة(١) يخرجن من بلد الروم ثم يفضن في البحر وكذلك سائر انهـار الشام الا نهر بردى والاردن . وقال ابن حوقل : كانت المصيصة مدينتين احداهما تسمى المصيصة والاخرى تسمى كفربَيّاً على جانبي جيحان وانه يخرج من بلد الروم حتى ينتهي الى المصيصة ثم الى رستاق يعرف بالملون فيقع في بحر الروم وكان كثير الضياع غزير الكراع اي ان فيه خيلاً كثيراً وذلك لان جقوراوه مشهور بمراعيه وكانت اذنة مدينة كاحد جانبي المصيصة على نهر سيحان في غربي النهر وسيحان دون جيحان في الكبر عليه قنطرة عجيبة البناء طويلة جداً ويخرج هذا النهر من بلد الروم ايضاً . وقال ياقوت ان سيحان نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة وهو نهر اذنة بين انطاكية والروم يمر باذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة اميال فيصب في بحر الروم واياه اراد المتنبي في مدح سيف الدولة

اخو غزوات ما تغب سيوفه   رقابهم الا وسيحان جامد

يريد انه لا يترك الغزو الا في شدة البرد اذا جمد سيحان

وقال في جيحان انه نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيّاً بازاء المصيصة وعليه عند المصيصة قنطرة من حجارة

---

(١) هي مدينة شرقي اذنة على ثلاثين كيلومتراً منها على الساحل الغربي من نهر جيحـان كانت في القرون الوسطى مدينة مهمة وهي اليوم مركز ناحية ويقول لها الافرنج Mopsueste وهذا اسمها القديم اما اسمها في القرون الوسطى فكان ماليمسترا وكانت مركز حكومة بني ليون ثم انتقلت الى حكم السلجوقيين وذو القدرية وفيها آثار قديمة من عهد بني ليون وغيرهم ولها جسر روماني قديم على نهر جيحان ويقال لها اليوم مسيس

رومية عجيبة قديمة عريضة فيدخل منها الى المصيصة وينفذ منها فيمتد اربعة اميال ثم يصب في بحر الشام قال ابو الطيب

سريت الى جيحان من ارض آمِد ثلاثاً لقد ادناك ركض وابعدا

وقال عدي بن الرقاع العاملي

فبت أُلهى في المنام كما ارى وفي الشيب عن بعض البطالة زاجر
بساجية العينين خود تلذُّها اذا طرق الليل الصحيح المباشر
كأن ثناياها نبات سحابة سقاهن شؤبوب من الليل باكر
فهن معاً او أقحواناً بروضة تعاوره صنوان طلٌ وماطر
فقلت لها كيف اهتديت ودوننا دُلوك واشراف الجبال القواهر
وجيحان جيحان الملوك وآلس وحزن خزازى والشعوب القواسر

وقال ياقوت في البردان انه نهر بثغر طرسوس مجيئه من بلاد الروم ويصب في البحر على ستة اميال من طرسوس وهو الذي عناه الزمخشري بقوله

الا ان قلبي في جوى لا يبله قوَيق ولا العاصي ولا البردان

هذه هي البلاد التي تريد الدولة اليوم ان تعمرها باصلاح طرق ريها والانتفاع من انهارها الكبار التى تذهب جزافاً دون ان ينتفع بها حق الانتفاع فتصلح سهول هذا الاقليم الواسع وهي لا تقل عن مائتي الف هكتار ما عدا « چقوراوه » المشهور بمراعيه . ويقتضي ذلك اربعة ملايين ليرة عثمانية وينتهي العمل منه على الاكثر في عشر سنين الا ان بعض فروعه تستثمر عقيب نجازها فيكون الفرع الاول من هذا العمل معداً للانتفاع به بعد ثمانية عشر شهراً بمعنى ان كل فرع متى نجز ينتفع منه برأسه اما الانهار التي يصلح مجراها فهي سيحان وجيحان والبردان

واراضي ذاك الاقليم صالحة جداً لزراعة القطن الجيد وقصب السكر فتخرج سهول اذنة اذ ذاك ٥٠٠ الف طن الذي يفوق ما تخرج الآن كمية وكيفية والمملكة العثمانية كلها لا تخرج اليوم اكثر من ١٤٠ الف بالة قطن دع ما يزرع بتلك المياه من البرتقال والليمون والزيتون

ومعلوم ان الخط الحديدي البغدادي يشق هذا الاقليم طولاً ومرسين متصلة باذنة بسكة حديدية ثم ان ولاية اطنة اليوم اكثر الولايات العثمانية استعمالاً للادوات الزراعية المستحدثة من حراثة وزراعة وحصادة ودراسة فاذا اضيف الى تلك الاسباب

403

تعليم الفلاح طرق استثمار ارضه بالطرق الحديثة وتسميدها بحسب طبائعهـا بالسماد الكيماوي والطبيعي وكثرت السكان هناك بمن يتزلها من المهاجرين الذين تأتي بهم الحكومة من بلاد الروم ايلي وتكون قد جفت المستنقعات وامنت تلك البلاد من وطأة الحميات المهلكات تصبح اطنة مصراً ثانية واخت العراق

لا جرم ان اغوار الشام وسهول كيليكيا والعراق تخرج اجود الاقطان التي تفوق قطن مصر والهند فاذا تم هذا العمل نحمل معامل الغرب على ان تبتاع من حاصلاتنا لمعاملها بعد ان نعمل من قطننا ما يلزم للحياكة والنسج · بلاد كلها خيرات لا تحتاج الا الى اليد العاملة والعقول المدبرة وبقليل من المال يتيسر اصلاح زراعتها بحيث تكفي ملايين من البشر حتى يعيشوا براحـة وهناء وكانت في القرون الحديثة بؤرة الفتن والخلل تتنازعها العوامل المنوعة فهل تكون في هذا القرن الحديث دار سلام ومعهد خصب ورفاغة عيش وهذا ما نرجوه بفضل الناهضين للاصلاح من رجال الدولة العلية

احياء الغابات في فلسطين (١)

قال مارسيل بريكو من اعضاء المجمع العلمي في فرنسا : اعترف حتى الاسبان بان مـا جعل عاصمة اسبانيا اقليماً شتاؤه ثلاثة اشهر وصيفه كنار جهنم تسعة اشهر هو منبعث من قطعهم اشجارهم من ضواحي تلك العاصمة الى مئات من الكيلومترات

....

وقال الدوج سوللي (١٥٥٩—١٦٤١) مستشار هنري الرابع وصاحبه ووزيره ان فرنسا ستنقرض من قلة غاباتها · وكان كثيراً ما يقول الزراعة وتربية الحيوانات هما الثديان اللذان ترتضع منهما فرنسا افاويق الغنى وفيهما كنوز بزو ومناجمها الحقيقية

(١) عربناه عن تقرير هارون افندي هارونسهون من الاخصائيين في الزراعة قدمه لولاية بيروت

غرائب زراعة ارض فلسطين

توفرت منذ ست عشرة سنة على التجارب الزراعية والابحاث الطبيعية فظهر لي ان ما تحصل معي من البحث قابل للتطبيق في ولايتي سورية وبيروت فان هذه الولايات لا تتخالف حدودها الطبيعية كما تتخالف حدودها الادارية

من القى نظره في حال اراضي فلسطين الزراعية يرى ان السماد والمراعي والحطب قليل جداً فيها ويرى مع هذا ان فلسطين مع حاجتها الى هذه الاصناف تصدر الى البلاد الاخرى خشباً وتبناً وسماداً (فتخرج الحطب بعد ان تحرقه فحماً الى مصر وتصدر التبن الى جزائر البحر الابيض والسماد الى مصر)

وان اصدار هذه الاصناف الثلاثة الى خارج البلاد لما يساعد على انقراض الغابات وخرابها لان الربح من اصدارها لا يوازي خراب الغابات وقلة غذاء الحيوانات وبوار الارض بقلة السماد والسباخ . وهذا ويا للاسف برهان ناصع على تقهقر زراعتنا وعلى ما آلت اليه حال فلاحنا من الجهل المطبق ومن الفاقة الحافزة على حين نرى كل حكومة تود ضمانة منافع بلادها وترفيه حال تبعتها ان تنزع الشر من اساسه وهي مضطرة الى استعمال انجع الادوية السريعة لكل مرض في الامة

ماذا يحدث من التأثير بتخريب الغابات ؟

بدأ خراب الغابات في فلسطين منذ الازمنة التاريخية فكان من اهم التأثيرات المدهشة الاساسية ان عريت الجبال وتراكمت كثبان الرمال في الساحل وكثرت البطائح والمستنقعات . ومن المحقق ان حرمان الاراضي المائلة المسطحة من الاشجار والمراعي وتعرضها للاحداث الجوية وتأثيراتها وانهيارها دعا الى بقاء الجبال عريانة . ومن المشاهد ان الامطار التي تسقط في شتاء كل سنة تؤلف مياهها شلالات صغرى وتنتقل من صخرة الى اخرى وتحمل معها الحصا والحجارة مدة سنة الى السهول الصالحة للزراعة ولذا اصبحت مملكتنا بتجرد جبالنا كلها اشبه بهيكل عظمي وما كان يروى من ان هذه البلاد كانت في القديم تفيض لبناً وعسلاً لا يتأتى تحققه لتعود اليها قوتها الانباتية القديمة كما كانت الا بصرف الهمم الكثيرة والاعتصام بالصبر والمتانة وبالسير في نور حكمة يشفعها تعمل وانكماش . ولا يجب ان ننسى ان جميع بلاد فلسطين جبلية وبتجريد هذه الجبال من غاباتها تخريب زهاء ثلثي الاراضي الصالحة للزراعة في هذه الديار

كثبان الرمال دعا تخريب الغابات وبعبارة اصح تخريب الاشجار الى تأليف صحار من الرمال متحركة بتحرك الاهوية والعواصف والتاريخ يؤيد ذلك فقد مدح العارفون باخبار الناس الظلال التي كانت تمتد شرقي قيسارية على ستة او ثمانية كيلومترات . ويروى ان نساء الرومان كن يَقِلْنَ في الهاجرة بعد الظهر في ظل تلك الغابات اما اليوم فترى جميع هذه الارض وهي عبارة عن ستة او ثمانية كيلومترات غاصة بكثبان من الرمال ولم يبق بعد مـا شوهد من التهافت اليوم بعد الآخر على تخريب الحراج الا اشجار من الدلب صينت من الاحتطاب لتبقى نموذجاً صالحاً ولم يبق عليها سوى ان بعض القائلين بالاساطير القديمة نظروا اليها نظر تقديس

ويؤخذ من التاريخ ان مـا يشاهد من الرمال المتراكمة على عرض ستة الى ثمانية كيلومترات في ساحل فلسطين هو نتيجة عمل الفي سنة ومن المحقق ان مساحة هـذه الكثبان السيارة في سواحل فلسطين تبلغ مليون دونم وتمتد كل سنة الى مـا كان صالحاً من الاراضي الزراعية خمسة آلاف دونم على اقل تقدير وعلى هذا فان قطـع الاشجار في سواحل فلسطين كما افقدنا حتى الآن مليون دونم من الاراضي يفقد كل سنة من زراعة فلسطين خمسة آلاف دونم فاقتضى من ثم ان تحصر الحكومة كدها في احياء الغابات وغرس الجديد منها لتقوم حاجزاً دون انهيال هذه الرمال . وهذا مما لا يصعب على الحكومة فان مدينة بوردو في فرنسا كادت تهلك بانهيال الرمال عليها وتجد اليوم في ضاحيتها غابة كثيفة من السنديان الذي يسمونه شجر الذهب واذ قد غرست هذه الغابة على الاصول العلمية جاءت منها هذه المنافع في خمسين سنة

تأليف البطائح

ان نسبة تأليف البطائح والمستنقعات لقطع الاشجار تُرى لاول وهلة غريبة وقد بلغت هذه النظرية اليوم درجة الثبوت واليك البيان : عند مـا تمطر السماء الجبال المغشاة بالغابات تتقدم مياههـا بين الاوراق والاغصان وتبطيء بسقوطها الى الارض وتمتص هذه المياه على غاية من السهولة تلك الطبقة القابلة للنفوذ المؤلفة من حثالات الاوراق والاغصان المتساقطة وهكذا تترشح المياه تدريجاً وتنفـذ الى باطن الارض وتحفظ في جذور الاشجار وما يتألف حواليهـا من شبكة الجزيرات وتسيل رويداً رويداً من السطوح المائلة تحت الارض فتنبع في السهول صافية براقة تحمل المغانم السكان ثم تسيل بصفائهـا تمد الانهـار والاودية وتسيل الى الاقاصي والامطار

التي تهطل على جبالنا بكثرة تكون على غاية من الانهمار ولا يقف في سبيلها حاجز فتسيل المياه فوق الصخور العريانة والسطوح غير القابلة للنفوذ متبددة

وعند ما تسيل مياه الامطار الى المروج تنشأ منها تيارات ومسايل كبيرة ويكون من هذه المسايل مدة بضع ساعات — وقد رويت تربة السهول من مياه الامطار — طين مانع كبير ويتألف من هذا الطين صلصال مفيد يخرب زروع الحقول ويوسع مجاري المياه ويطمها وتتألف في السهول في مدة قليلة مستنقعات وبطائح كبيرة تكون مضرتها زمناً طويلاً واذا وقع الضرر منها في مكان مرة واحدة تأخذ على الدوام في الزيادة ويتفاقم شرها ولذلك قال اصحاب الغابات : حافظوا على سلامة الجبال لانقاذ السهول. ان هذه الانهار التي تتبدل مجاريها وتسيل ببطء عندما تفيض باوحال الجبال وتجري الى البحار تصادف قرب مصابها رمالاً منتقلة تحول دون انبعاثها فمن اجل هذا ترى تلك السيول في الاراضي ذات اليمين وذات الشمال ويتألف منها بطائح

سبق ان قدرنا مساحة كثبان الرمال في فلسطين بمليون دونم والآن نقدر المستنقعات الواقعة على الساحل بعشرة آلاف دونم ولئن كانت مساحة المستنقعات اقل عشرة اضعاف من مساحة الكثبان فانها من حيث الضرر اضر على البلاد مئة ضعف ومن المحقق ان المستنقعات هي السبب الرئيسي القديم في انتشار الحميات وهذا على رأي الاطباء كافة هو اعظم حائل يحول دون نمو السكان لان الحمى بانتشارها يصاب بها الاطفال خاصة فتودي بالقسم المهم منهم

ليس لدينا احصاء عام نعرف منه زيادة الولادات على الوفيات في الولاية بيد ان ما جرى من البحث في بعض القصبات قد اثبت ان عدد السكان يزيد ببطء كثير على الرغم من وفرة الولادات ويقع هذا البطء وان كان الزراع على شيء من الرفاهة يتبلغون بميسور العيش ومعلوم ان ازدياد السكان هو العنصر الاساسي الذي تقوم عليه عظمة الامة وقوتها الاقتصادية

اليد العاملة في فلسطين

يكفي الكيلومتر الواحد في فلسطين لاعاشة اربعين او خمسين نسمة ويدخل في ذلك سكان المدن وعلى كثرة الولادات وتيسر اسباب العيش وقيام اعمال عمرانية نافعة لماذا لم يترق عدد السكان في الكيلومتر المربع عن خمس وعشرين نسمة منذ ثلاثين سنة ؟ الجواب ان كثرة الوفيات مانعة من نمو السكان النمو المطلوب واهم ما

يكثر به الوتان الحميات وهي منتشرة بكثرة بين الزراع · ان بقاء الجبال عريانة وتوسع اكثبة الرمال السيارة حتى احدثت مستنقعات هما اعظم آفة على زراعة فلسطين

الاسباب الثانوية في خراب الغابات

ترجع هـــذه الاسباب الى ثلاثة الاول الاقليم والثاني فقدان الاشجار الثمينة والثالث ندرة الطيور النافعة في الزراعة · وبعد فقد مضى الزمن الذي كان يعتقد فيه الناس ان الغابات تجلب الامطار فان العلم الحديث ابطل هذه النظرية من اساسهـــا ولنا عدة ادلة على ان القطر الفلسطيني لم يتبدل مدة الفي سنة تبدلاً محسوساً اكثر من كل الاقطار ذات المدنيات القديمة · وما يهطل الآن هنا من الامطار لا يختلف كثرة وقلة عما كان عليه على عهد بني اسرائيل

اذا تقررت هذه الحقيقة تنتج لنا فائدة عظيمة عملية وهي اننا نستنتج ان قطع الغابات لم ينشأ منه خراب البلاد خراباً لا يتأتى اصلاحه وتلافي امره وليس من الصواب ان نعتقد ان جبالنا التي حرمناها من نضرة الخضرة يتعذر ان نعيد اليها خضرتها

لا جرم ان الاشجار تساعد على خزن المياه في الارض وتؤلف مستودعات كثيرة لها ومن هذه المخازن يحدث الفيضان الشديد وفي ايام الجفاف وانقطاع الامطار تمدّ الينابيع بما يرشح منها فتكون بهذا النظام كافية للغاية وتكاثف الاشجار يعدل من قوة الرياح ويعدل قوة التبخر في المياه المخزونة فتجد النباتات من التربة طراوة ثم ان الاشجار بمحافظتها على طراوة الارض وظلها تساعد على تأليف طبقة ترابية غنية من المواد العضوية ومن الاوراق المتساقطة وتحولها البطيء · وقصارى القول فان انشاء الغابات لا يؤثر تأثيرًا محسوساً بوجه من الوجوه في كثرة الامطار ولا في كيفية نزولها ولكنها تحدث ظلالاً وتخفف من شدة الرياح وتدعو الى اسالة المياه ببطء

جئنا الى الكلام على قطع الاشجار الثمينة فان لدي عدة براهـــين على كثرة الاشجار في القديم ومنها ما فقد تماماً او اصبح نادرًا للغاية او وجد الآن وليس فيه الغناء المطلوب بالنسبة لحاجة العصر ومن هذه الاشجار شجر الدلب والدردار والعرعر الخ ومن اراد زيادة بيان فليرجع الى مجلة جمعية النباتات الفرنساوية ففيهـــا معلومات مختصرة عن الجغرافيا الزراعية في فلسطين غاية في الفائدة

اما ندرة الطيور النافعة للزراعة فانها لما كانت الطيور الجارحة كثيرة العدد في فلسطين والطيور النافعة قليلة اصبحت الخسائر الناشئة للزراعة من الحشرات المضرة

على غاية من الكثرة فالجوارح تختار من الاراضي الاعالي والصخور والحواجز لتجد ما تفترسه وعلى العكس في الطيور الآكلة للحشرات فانها تنزل الظلال وفي الغابات التي يسهل بها اختباؤها وتعيش بما هناك من الطراوة وما يتفسخ فيها ويتحول من المواد العضوية ولذلك توسلت الحكومات المتمدنة بتكثير طيور الزراعة وسنت للقوانين النافعة لبقائها وغنائها اما نحن فيقتضي لنا في بادىء الرأي ان نحيي غاباتنا

اداؤنا الجزية الفاحشة الى غيرنا في حين استحواذ الخراب على غاباتنا

لقد صرفت الهمة لقطع غابات فلسطين على صورة واسعة جداً حتى لم يبق في بعض المحال حطب للدفء والحرق · ذكرنا فيما سلف ما جرَّ على زراعتنا من الضرر اخراج السماد من البلاد ولا ندري ما نقول الآن وقد استعظمنا الامر هناك في انقراض مادة السماد النافع في المحروقات · وقد قيل ان بلاد الجنوب كانت فقيرة بغاباتها منذ الفي سنة ايضاً ونعني بها بلاد يهوذا ولكن البلاد المشهورة بغاباتها وهي بلاد الجليل وجبل الشيخ قد اصابها ما اصاب غيرها على نسبة واحدة

فالبلاد التي ليس فيها حطب للوقود لا يكون عندها بالطبع خشب ولا الواح للبناء واذ كانت الاناضول تصدر قليلاً من الخشب اضطررنا للتجارة ان نستبضع ما يلزمنا من هذا الصنف من البلاد الخارجية واذ ليس لدينا احصاء يظهر منهُ مقدار ما نصرفه كل سنة من المال في هذا السبيل لا نكون الى المبالغة اذا فرضنا ان مايصل ثغور بيروت وحيفا ويافا كل سنة من الخشب لا يقل عن اربعمائةالف ليرة عثمانيةوالمثال الذي نأتي عليه الآن يدل دلالة قطعية على حالتنا المعيبة واننا ندفع الجزية الى الخارج

كان ما تصدره هذه البلاد من صناديق البرتقال الى الخارج قبل ثلاثين سنة بضعة الوف وما يصدر اليوم من يافا وحدها يربو على مليون صندوق وبعد خمس سنين سيكون ثلاثة ملايين والصناديق التي يحفظ فيها البرتقال يؤتى بها من روسيا والنمسا يبتاع الواحد منها بثلاثة قروش وبعبارة ثانية اننا نؤدي خراجاً معيناً عن كل صندوق نصدره وهذا الخراج يزيد على ما تستوفيه الحكومة ثلاثة او اربعة اضعاف

دعا جهل حكامنا السابقين واهمالهم الى انحاء منابع الثروة وكان من الشعوب المختلفة التي احسنت الاحتفاظ بمنابعها الطبيعية وثروتها من غاباتها باتخاذ الاساليب المعقولة ان اصبحنا نؤدي اليها الجزية الباهظة وحولنا وجوهنا عما منحتنا الطبيعة اياه من الامتيازات فاخذت الآن تنتقم منا على هذه الصورة

اهم الآفات التي ابتليت بها الغابات

اهم هذه الآفات ثلاث الرعي المتبادل وحق المرعى في الاراضي الخالية والحيوانات الصغيرة ولا سيما الماعز وفأس المرأة الفلاحة . ونعني بالرعي المتبادل حق رعي قطعان اهل ناحيتين او اكثر في ارض لهم . ويطلق حق المرعى في الاراضي الخالية على ارسال اهالي ناحية مواشيهم الى ما يدخل في ناحيتهم من المراعي وما لهم من الحق برعيتها . ولئن استبان ان الرعي المتبادل وحق الرعي في الاراضي الخالية شيئان متخالفان ولكنهما شيء واحد في الحقيقة فان اصول المرعى في الاراضي الخالية اذا لم توجد لا يوجد رعي متبادل . وكانت هذه الطريقة في الرعي المتبادل والرعية في الاراضي الخالية شائعة في اوربا خلال القرون الوسطى فتبينت مضارها للزراعة وفي تربية البهائم فابطلتها الممالك المتوفرة على تربية الحيوانات وبقيت اصول الرعي المتبادل في سويسرا وانكلترا وهولندة الى القرن الثامن عشر حتى ابطل منها بتة . وترى اليوم كل انسان يقبح باسم ترقي الزراعة طريقة الرعي المتبادل وحق المرعى في الاراضي الخالية لان ذلك مما دعا الى هلاك قطعاننا وساعد على انتشار الامراض السارية فيها وهذه العادة ضربة قاضية على حقوق اصحاب الاراضي تدعو الى الاسف ولها دخل كبير في تخريب الغابات وانقراضها

تأصلت عادة الرعي المتبادل في نفوس الاهلين هنا فنزعها او تجديدها يدعو الى هلاك العشائر السيارة المعروفة بشن الغارة وتضطرهم الى الرجوع ادراجهم او ان يعودوا فيرجحوا العيش الثابت ويؤثروا حياة الفلاح والتوطن ويطلقوا تقاليدهم القديمة منذ قرون من عيش الخيام ورعية الانعام كما هي حال عشائر يوركلر في الاناضول وحال عشائر البدو الصغرى المختلفة في هذه الولاية . ولما كانت هذه العشائر تعتقد ان طريقة الرعي المتبادل من الحقوق السماوية اصبح من الصعب ان يرجعوا عن تلك العادة حتى ان الاهالي الساكنين اذا اصابهم ضرر من هذا القبيل وجب على الحكومة ان تتداخل في الامر بقوة السلاح فكما ان تراجان وكورنيليوس ويالما من قواد الرومان حموا على عهد حكومتهم الاراضي الزراعية بين صرخد وبصرى والساكنين في حوران والجولان من الاهلين وردوا عنهم غارة المغيرين من اهل البادية هكذا يعهد الى الحكومة العسكرية اليوم ان تحمي حمانا في تلك المحال

ايضاً من ابناء تلك العشائر القديمة وهم الرولة وولد علي وبني صخر

وبعد فان الحكومة لم تمد يد المساعدة لمن اراد ان يقوم من الاهلين بنفسه يحمي المراعي من التخريب ليأمن على ارضه حتى ان مهاجري الجراكسة لما نزلوا القنيطرة وارادوا الانتفاع من مروج الجولان يقطعون منه قصيلاً للشتاء اغمضت الحكومة عينها عنهم فاضطر الجراكسة ان يقتتلوا مع اهل البادية دفعاً لرد عادية هؤلاء عنهم واصبحوا يحصلون لمواشيهم على قصيل زيادة عما يلزمهم

اوردت هذه الحادثة لاشير بها الى ان عادة الرعي المتبادل مهما كانت متأصلة في طبيعة الاهالي ففي الوسع نزعها ومتى تم ذلك في ارض استفاد الاهلون والحكومة معاً . ان تخريب المراعي هو العامل الرئيسي في تخريب الغابات وقد اثبتت التجارب هذه الحقيقة على صورة لا تقبل الاعتراض وليس القطع او الحريق من اعظم الحوائل في نمو الاشجار على اختلاف ضروبها وايصال الاذى اليها من جذورها او رأسها بل الضرر كل الضرر في ايصال الاذى الى رأسها فتحول اسنان المواشي دون نموها فتتصلب سطوح الاراضي الثابتة وتتقسم الكثبان وبذلك يصعب ان تعود الى الاشجار حياتها

تخريب الحيوانات الصغرى ولا سيما الماعز

الماعز اعظم الآفات على غاباتنا واذا اجتمعت على تخريب الغابة النار والفأس فلا يفعلان فيها كما تفعل اسنان الماعز . عرفت فيها هذه المضرة منذ القديم حتى جاء في قوانين بني اسرائيل صريحاً خطر تربية الحيوانات الصغيرة في فلسطين . وكان المنورون منهم يهتمون جدَّ الاهتمام للمحافظة على هذا القانون ووضع القيود لتنفيذه . جاء في التلمود ان احد حاخامي بني اسرائيل أُصيب بسعال شديد فاوصاه الاطباء ان يشرب لبن عنز سائغاً حديثاً فجاءه بحسب العادة المتبعة بعض رفاقه من الحاخامين يعودونه في مرضه فرأوا في فناء الدار تلك العنزة التي جعلت هناك للانتفاع بلبنها ولم يلبثوا ان رجعوا ادراجهم قائلين والغضب آخذ منهم ان في باب الحاخام المذكور اشقياء مسلحين . لا جرم ان العنزة كانت تعيش بما تخضمه وتقضمه من هنا وهناك

وقد جرت الولايات المتحدة في تربية الحيوانات على قاعدة ان تجعل لكل مئة رأس بقعة من الارض مساحتها ١٥٠ دونماً تروح الماشية فيها وتغدو سنتين على ان يقطع المرج من اساسه ولا شك ان ماشية ولاية بيروت لا تقل عن مليون رأس تخرب كل سنتين من الغابات ١٥٠٠،٠٠٠ دونم وبعبارة اخرى ان تخريبها لا يقل مسانهة عن

٧٥٠،٠٠٠ دونم الى ١ مليون . فالرعي المتبادل وحق الرعي في الاراضي الحالية لا يحول فقط دون حفظ الغابات ويقرضها بل يمنعنا من تربية الماعز ويسوقنا الى هذه النتيجة سوقاً

تخريبات المرأة الفلاحة

تجيء المرأة القروية بعد الماعز في باب تخريب الغاب لان من شأن المرأة في هذه الاصقاع ان تتدارك الحطب اللازم للدار والحطب المقتضي بيعه في السوق ويضيف هؤلاء النساء الى ضعفهن الطبيعي انهن يتسلحن بفؤوس رديئة يضربن بها الاشجار الفتية ويحولن وجوههن عن الاشجار الكبرى ذات الاغصان المستطيلة والجذوع المتأصلة . وان في دخول البنات والنساء الى قراهن وقد احتطبن وجعلن حطبهن على رؤوسهن باسمات شاديات من المناظر الغريبة ولم ينحصر هذا العمل في النساء وحدهن بل يشاركهن فيه الرجال في ضواحي القرى ليحرقوا من احطابها كلساً . ومن المشاهد ان اكمة او جبلاً يعرى في بضعة اسابيع من مراعيه واحطابه ليجعل من حطبه وقود لفرن او فرنين من افران الكلس الفقيرة او بضعة احمال صغيرة من الفحم : وهذا ولا شك من الجنايات التي لا ينظر اليها قانون من قوانين مملكة نظر تسامح واغضاء .

ما قام به الافراد لاحياء الغابات

مما يؤلم النفس ان الحكومة لم تقم حتى الآن بعمل يذكر في باب احياء الغابات وتنميتها في اطراف المملكة على اختلاف اصقاعها ولا سيما في هذه الولاية ولم تنشط من ارادوا التشبث بذلك وقد قام فريقان من النازلين في هذه الديار واتوا بعمل وان كان صغير الجرم ولكنه كبير القدر في مسألة الغابات . فالفريق الاول اهل المستعمرة الالمانية قام بالتحريج على صورة محدودة ولكنها عاقلة والفريق الثاني اهل الاستعمار الاسرائيلي تذرعوا بمثل هذا العمل على صورة اوسع واشجع ولما وضع المان حيفا ايديهم على الاقسام المهمة من جبل الكرمل رأوا ان يتذرعوا الى الاستفادة من هذا الجبل بعض الشيء فغرسوا فيه اشجار الصنوبر وغرسوا اثمن انواعه فاتت منها نموذجات نادرة وهو صنوبر حلب وغرسوا ايضاً من صنوبر الحبّ والصنوبر المشاهد نموذجات منه في لبنان وبيروت ولا تزال هذه البقعة من الغابات تتوسع فتدخل البهجة الى قلوب من نزلوا في جوارها وعلى مقربة منها من الالمان

ولئن كان هذا التوفيق درس عبرة لنا فانا لستمع هذا من القائلين بغرس اشجار

الصنوبر في ساحات واسعة وقولي هذا مستند على اسباب مهمة معروفة في فن الغابات وذلك لان عامة اشجار الفصيلة الصمغية سريعة الاحتراق واذا احترقت فلايعزب عن بالنا ان نوعها ليس من الانواع التي تعود فتنمو وكثيرًا مـا يقع حريق الغابات في موسم الصيف ولياليه الحارة واذا كان ولا بد من غرس الاشجار من الفصيلة الصمغية فيجب ان تحاط باشجار الاوكاليبتوس المعروفة بشدة مقاومتها للحريق

والخوف من الحريق ليس من الامور النادرة بل وقع كثيراً في تونس والجزائر وكثرت الحوادث المكدرة بسببه فوجب علينا ان نعتبر فان اهل الاخصاء في هذا الفن فن التحريج لا يكتفون بمـا رسمه العلم من النظريات بل يراعون حال المحيط وروح الاهلين فان هناك بعد المصاعب الفنية موانع معنوية وروحية

ما تذرع به الاسرائيليون لاحياء الغابات

حصدت الحميات منذ عشرين سنة الاسرائيليين واذ كان شجر الاوكاليبتوس من موانع الحمى لم يكتفوا بالذي ذكرناه من الحرج الضعيف بل توسعوا في الغاية وغرسوا من الاوكاليبتوس كثيرًا فكثر عديدها حتى بلغت بحسب الجهات المئات والالوف فمنذ سنة ١٢–١٣ كانت هذه الساحات خالية بالكلية من الاشجارفاصبحت بحرمانها من فأس الحطاب غابات غبياء واراضي شجراء . والعمل جارٍ الآن في كيفية استحصال طريقة اربح من غيرها من خشب الاوكاليبتوس وهذه القضية صعبة في الحل بعض الصعوبة .

وهنا مجـال لان اقول انني في رحلاتي الى تونس والجزائر للبحث في احوال الغابات رأيت اشجارًا واردت اختبار اكثرها ملائمة لهذه الديار وقد بلغت انواعهـا مئة نوع ولكن ما جربناه هنا لجاد بلغ اثني عشر نوعاً . وقد جربنا الاشجار المعتمد عليها في البلاد الحارة وشبه الحارة مثل اميركا واوقيانوسيا فلم نجدهاصالحة للغرس والنمو

وسائط لمنع تخريب الغابات

سبق لنا في الفصول السابقة وصف النتائج التي آلت اليها الغابات بتخريبها واينا ان الحالة من ناحيتها مخوفة داعية الى القلق . ان انقراض الغابات آخذ بالارتقاء ويزيد فيه جهالة الاهلين نعم قامت بدل الغابات مروج وهـذه تدعو الحاجة الى الاحتفاظ بها فكما ان من اللازم اللازب قبل استرجـاع ثروة فقدت بالتبذير والاسراف ان

408

يحافظ على البقية الباقية منها فمن الواجب قبل التذرع بوسائط لاحياء الغابات ان يفكر في عدم انقراضها وتوقيف تيار الاضرار بها . والواجب في هذا الباب وضع قوانين والعناية بتطبيق مفاصلها لان الاضرار بالغابات لم ينشأ من القوانين الخاصة بها بل من اهمالها وعدم العناية بتنفيذها ولذا بات مستقبل البلاد مهدداً وتظهر فيه انفع القوانين من الخطة التي تجري عليها في الانفاذ فان انفع قانون يعهد في تنفيذه الى مأمور جاهل لا يكون الا ذريعة لتشديد الحكم الكيفي ويزيد في الشدة على الاهلين ويبالغ في تضعيف اضرار خزانة الحكومة بواسطة بعض اهل المنافع من ارباب الافكار الخسيسة ولذا نقترب من هذا البحث والرهبة والاحتراز آخذان منا

لئن قل في الحكومات من وقف امام تلك الحالة التي آضت الى انقراض الغابات في فلسطين فليست حكومتنا فقط اشتغلت باحياء الغابات وحل قضيتها المغمضة ولكن هذه القضية المذكورة مع سهولتها على الحكومات المومأ اليها فقد شوهد ان حلها ليس من السهولة بالمكان الذي تصوروه وادركت الحكومات التي عُنيت بالاحتفاظ بالغابات وباحياء الجديد منها بفضل ما قامت به من التجارب الخاصة أن حل هذه القضية المعقدة بطيء يحتاج الى نفقات طائلة واذا حالف التوفيق من يعنى باتخاذ الطرق اليها فيكون بتنفيذ القوانين بشأنها حق التنفيذ بالحرف وتوزيع المخصصات على صورة رشيدة واسعة وان يعهد في العمل لطبقة مختارة من الموظفين ويبالغ في البحث والاستقراء العلمي

وهب ان الحال ساعدت على وضع قوانين لا تكلف نفقة وعهد الى موظفين بالاشراف عليها وتطبيق مفاصلها فان تنظيم خطط هذا التجديد واخراجه الى الفعل يحتاج الى موظفين اخصوا في هذا العلم وهناك ايضاً صعوبة في جلبهم وجمهم . لان التبريز في صناعة الغابات يقتضي لمن يديره ان يقضي دور الاستعداد في دائرة نظريات العلم ويعقبه دور طويل يقضيه في العمل وليس في البلاد حتى الآن علماء بالغابات على هذه الصورة واذا صرفنا النظر عن الصعوبات الكثيرة التي تعترضنا في جلب علماء بالغابات من الخارج فهناك صعوبة واحدة يكتفى بايرادها وهو انهم يكونون ولا شك غرباء بعيدين عن معرفة ما يلزم لانشاء الغابات في مثل هذا المحيط غير ملمين باحوال القطر ولا بحالته الاقتصادية

ارى هنا ان اورد بعض التجارب التي عمدوا الى تطبيقها في بعض الممالك التي

تشبهنا واهم الاقطار التي يجب على رجال حكومتنا ان يبالغوا في البحث فيها : الجزائر وتونس وقبرص فان بلادنا هذه تشبه تلك الاقطار من وجوه كثيرة فالمناخ فيها عينه عندنا وما يشاهد من الاسراف في قرض الغابات في فلسطين قد شوهد مثله في تلك الاصقاع ايضاً واذ كان سكان هذه البلاد وسكان تلك من المسلمين فلهم نفس التقاليد والتواريخ ثم انه استعملت في تلك الاقطار نفس الاشجار التي توافق بلادنا

والواجب قبل كل شيء تحديد المقطوع من الخشب والحطب وتعيين شروط اصدار حاصلات الغابات ولئن كنا لا ننكر ان عندنا كثيراً من القوانين في هذا الشأن فاننا نقول بانه لم يجر تنفيذها بتة على ان الواجب ايضاً تعديل هذه القوانين ببعض لوائح حسب محيط كل بلد وطبيعة كل اقليم وعادته فوضع القوانين واستعمال الجد في انفاذها يجب ان يكونا توأمين متلازمين

حراس الغابات

يجب ان يعهد الى حراس يشرفون على الغابات على شرط ان لا يراعى في تطبيق القوانين والنظامات المذكورة الاصول القديمة وان يختاروا من الذين تعلموا تعليماً ابتدائياً صناعياً حسناً في الجملة فان الاصول التي اتبعت فيما مضى فدعت الى ان يعهد الى الجهال بمثل هذه الوظائف قد الحق الضرر الكثير بالاهلين وان احداث وظائف المكسالى لا يكون الا ذريعة لتشديد الضرر الذي يراد توقيفه . وكنا نرجي ان يكون الفرق بين الحراس القدماء والحراس المحدثين في الغابات كالفرق بين افراد الدرك اليوم وافراد الدرك امس على الاقل وما اشبه الليلة بالبارحة

تنظيم قطع الغابات

اشرنا فيما سلف من الفصول الى ما تحدثه المرأة القروية من الاضرار بالغابات عند احتطابها منها ولاجل توقيف هذا التخريب يجب توقيف الاحتطاب بتاتاً ايام نمو الاشجار والاحتطاب يبدأ في ايام الحر من ١٥ تموز الى ١٥ ايلول فلا يسمح للمرأة الفلاحة ان تحتطب الا في هذا الموسم ومن الممكن ان يمتد هذا التوقيف عن الاحتطاب الى كانون الثاني . وهذه حقائق ثابتة وفوائدها ظاهرة المحسنات فلا تحتاج الى تفصيل .

قلع الجذور جرم

ابنا فيما سلف عند البحث على عمل الكلس والفحم الاضرار الناشئة من الطريقة

التي يعمد اليها واهم هذه الخسائر قطع جذور الاشجار مما لا يحول فقط دون نموها بل يقرضهـا ابديًا فالواجب عمل الكلس والفحم على الاصول النظامية وفي الزمن الذي لا يمنع من نمو الاشجار وربما رأى الناس شدة في هذه الطرق والاساليب ولكنها في الحقيقة ليست مهمة فبدلاً من ان يقوم فلاحونا ويربحوا قليلًا من عمل الفحم بقرض الغابات توصيهم بان يعمدوا الى طرق اخرى فانهم يضمنون لانفسهم ارباحاً اكثر وما يكسبونه قليلًا من اصدار السماد والتبن يتأتى لهم استحصاله من طريق آخر ليعدلوا ميزانيتهم وان ما تعلّمه الوطنيون من مستعمرة الالمان والاسرائيليين في الثلاثين سنة الاخيرة من طريقة استعمال الاسمدة للاراضي اصبح في حكم قانون ثبتت فوائده في ارباض القرى وما يفعله في نمو البقول والاثمـار ليس مفيدًا فقط بل ضروري للغاية اما التبن فانه يساعد الفلاح على علف ابقاره وثيرانه على صورة احسن فيكون من العوامل في تربيتها . وسنذكر في الفصول التالية عند الكلام على صورة تنظيم اصول الرعي في الاراضي الخالية ان من المفيد جدًا للحكومة تحديد عدد الماعز ومعاونة الاهلين على تربية البقر

هذا ولا يتردد الرعاة بتة في قطع اغصان الاشجار ليطعموا بهـا قطعانهم فان تجريد الاشجار الكبرى من بعض اغصانها يكون داعية انقراضها

تنظيم المراعي

رأينا فيما سلف مقدار الضرر من الرعي المتبادل في الاراضي الخالية وحق الرعية فيها فعلى الحكومة اذا صحت عزيمتها على توقيف الضرر ان تبادر الى تنظيم مراعيها . قد يشاهد في الظاهر تناقض بين مسألة تنظيم المراعي لما فيه مصلحة اصحاب المواشي وبين الزراع الذين ليس لهم ما يعلفون به دوابهم فيجب للتأليف بين هذين الفريقين الظاهر تخالفهما كل التخالف بان لا يشرع في العمل لذلك قبل امعان الروية واطالة النظر في المدخل والمخرج فينظر في اختلاف الحالة الاقتصادية في كل ناحية وفي سد حاجة الاهلين على غاية من التدقيق والعناية ثم يشرع في حل هذه المباينة وقد ظهر مما سبق ان تنظيم اصول المراعي يحتاج الى تدقيق عميق طويل فان كل الناس اليوم يقولون بان بين المراعي والاشجار علاقة اشتراك ولذا فان تخريب الغابات في الاماكن العالية يدعو الى تغيير منابع المياه وجفاف المراعي فينشأ من ذلك تدني عدد الحيوانات من قلة المياه والمراعي فيكون الضرر لاحقاً في الاكثر باصحاب المواشي . ولا جرم ان

عدد الحيوانات آخذ بالتناقص ولا تنمو الا باحداث الغابات ونموها فهذه مقدمة لهـا فالواجب البداءة بهذا التحسين قبل كل شيء

منع طريقة الرعي المتبادل

لاصلاح حق المرعى في الاراضي الخالية ولئلا يجري التزاحم على المراعي يجب ان يعين ما يلزم لكل قرية وناحية من المراعي وهنا نقسم المسألة الى شقين فنجعل في الاول الكمية اللازمة للاستعمال في الفلاحة والحمولة ومـا ماثل ذلك ليسد مجموعها حاجة القرية او الناحية وفي الشق الثاني عدد الحيوانات التي تزيد في محصول هذا المجموع ورأس ماله بمعنى اننـا اذا قلنا بان نفادي بشيء لاجل حيوانات الطبقة الاولى فاننا لا نوافق على ذلك لحيوانات الطبقة الثانية اي اننا لا نفادي في هـذا السبيل بقرض الحراج والغابات ونسوق البلاد الى الخراب

تحديد المراعي الخارجة عن الغابات

ان كثرة هذه المراعي في الاراضي السهلية يكون سبباً لعدم ادخـال قطعان المواشي الى الاراضي الجبلية ومع هذا فالواجب يقضي بمنع القطعـان من دخول الغابات في الربيع لكثرة العشب فيه فان ذلك مما يساعد الغابات على الراحة والتجدد وعلى تأصيل اصول الاشجـار الصغيرة في الارض وقت نشوءها الاول فيدخل في الامكان اذ ذاك تجدد الغابات

لا شبهة ان التزاحم من العناصر المضرة في تخريب المراعي وان تنقيص عـدد الحيوانات في بلاد يكون عدد اغنامها وماعزها متناسبا مع ثروتها ولها منهـا منافع كثيرة وعادات هو من الامور الصعبة بل البطيئة وليس هذا خاصاً بنا وحدنا بل هو مشاهد في اعظم الممالك تمدناً . وقد عارضت اهالي الجبال في فرنسا فاضطرت الحكومة هناك الى نشر قانون سنة ١٨٨٢ بشأن المراعي طبقت ،فاصله كل التطبيق فعلى الرغم من شدته لم تنشأ منه النتائج المنتظرة كما قال مدير الغابات العام في تقريره سنة ١٩١١ آسفاً متلهفاً . ولم تقوَ النصائح والتنشيط الذي وقع على رفع الموانع العظيمة الحائلة دون تجدد المراعي واحيائها

الوسائل القانونية في التشجيع

ابنا سالفاً مقدار التخريب العظيم الذي يحدثه الماعز للغابات ولذلك وجب التذرع

4/0

بكل الاسباب التي من شأنها تنقيص عدد الماعز وتحديده والابقار ليست من الضرر بدرجة الماعز ولذلك ارى ان تراعى البقر في وضع رسوم قليلة عليها ويؤخذ عن الماعز رسوم تامة وان يلغى الرسم عن الغنم ويبقى الرسم على الماعز وان يطرد الجمال والماعز من الغابات طرداً كلياً وهذا من اوفق وسائط التشجيع بالواسطة لغرس الاراضي القابلة لزراعة الغابات . الا ان الاربح للحكومة والواجب عليها ان تعمد الى اسباب من التشويق بلا واسطة وهو ان تعفي من الخراج مدة ثلاثين سنة كل قطعة ارض جبلية جعلها صاحبها من اطرافها الاربعة بعيدة عن تخريب حق المرعى والرعي المتبادل في الاراضي الحالية

ان هذه الاصول التي يجب اتباعها لتسهيل تجديد الغابات يتأتى ان يكون لها تأثير اسرع . ولذلك جاءت النوبة لاتخاذ وسيلة قانونية يكون لها التأثير العظيم بالنظر لارتقاء المملكة وسيرها نحو التكامل

ولا يخفى انه لم يبق اثر للغابات في البلاد ولا سبيل لزراعتنا ان يتوقع منها شيء في هذا السبيل وان من نتائج ذلك اصبحت جبالنا وآكامنا معرضة للانتكال ولذلك تدعو الضرورة الشديدة الى غرس الاشجار التي تجنى منها هذه الثمرة بعض الشيء وتحيا بها البلاد قليلاً فقد اشتهرت فلسطين بحاصيلها من الحبوب ومع هذا فهي من الاقاليم التي تلائم كل التلاؤم زراعة الاشجار التي تثمر هذه الثمرات بالنظر لاحوال هذا القطر وشؤونه الزمنية ووضعه الجغرافي ولنا عدة ابواب كبرى نصرف فيها هذا المحصول وان مصر التي ليس فيها اراض صالحة لهذا الصنف من الزراعة قد اقامتنا الطبيعة لان ندعي باننا متعهدون لها بتقديم ما يلزمها من ارضنا من هذا القبيل ولذا اصبح من اللازم اللازب على الحكومة ان تعمد الى اتخاذ جميع اسباب التشجيع لزراعة الغابات وتنميتها

لئن نشر قانون يقضي بان كل ارض جبلية غرست زيتوناً تعفى من الضرائب من ثلاث الى عشر سنين فقد قل الافراد الذين استفادوا من هذا الاعفاء على ان الحد الاعظم في هذا العفو وهو عشر سنين قليل بالنسبة لما ينبغي من وسائل التنشيط والواجب ان تعفى من الضرائب جميع الاراضي الجبلية التي تغرس زيتوناً مدة خمس عشرة سنة وهذا الاعفاء يشمل اشجار الخرنوب . والخرنوب اذا طعم يعطي من السكر ٤٠ ـ ٥٠ ٪ وقشره صالح لرعية الماعز وانك لترى في جزيرة قبرص الوفاً من الدونمات

مستورة باشجار الخرنوب . والاولى ان يسن قانون لحفظ الاشجار البرية وتجديدها وتطعيمها ويحمل الناس على اتباعه ويعهد الى حراس الغابات بالاشراف عليه ويجب ان تعفى من الضرائب مدة خمس عشرة سنة بعض الاصقاع التي يجود فيها التفاح والكمثرى على انواعهما وان يطعم التفاح البري ان امكن كما يعفى شجر الزعرور

اعفاء الكروم في الاراضي الجبلية من الخراج عشر سنين وتنشيط الغابات لاحيائها واحداثها

لا بأس من ان يشمل العفو عن الخراج عشر سنين في الكروم ليسارع الفلاح الى غرسها فيتقف تجريد الغابات من كسوتها وتزيد محاصيل البلاد وان كان ذلك لا يقوم مقام الغابات بحال بيد ان هذا الاعفاء الذي منح لمدة عشر سنين هو لمقاومة دودة الكرمة فاذا شمل العفو الكروم نفع ايضاً في بابه

لم تتشبث الحكومة بادنى تشبث من شأنه ان يحيي الغابات ويكثر عددها ولكن الافراد تذرعوا في هذا السبيل بامور وما تذرعوا به من هذا القبيل حري بمعاونة الحكومة من كل وجه واهله جديرون بان يميزوا بامتيازات خاصة وللوصول الى هذا الغرض ارى من المناسب قبول القانونين اللذين سنتهما فرنسا ونتجت منهما لها فوائد اثيرة فقد جاء في المادة ٢٢٨ من قانون الغابات عندهم : تعفى من الخراج مدة ثلاثين سنة كل انواع الاشجار التي تغرس على اكمة او سطح مائل في الجبال وكل كثيب من الرمال . ولكن حكومة فرنسا ارادت ان تستفيد من هذا الحق جميع الاراضي الزراعية البائرة الفقيرة فوضعت المادة الآتية وهي مادة ١١٦ من قانونها وايدتها سنة ١٩٠٧ بالبند الثالث من ميزانيتها ومعناها ان تقدر الاراضي التي تزرع اشجاراً بربع قيمتها فقط وتعفى من الخراج من اول غرسها الى مرور ثلاثين سنة عليها فنشط لذلك اصحاب الاراضي واستفادوا من هذه القوانين واحيوا قسماً منها

وعلى الحكومة علاوة على ذلك ان تحدث شركات احياء الغابات تشوق الناس لاتخاذ الاصول الجديدة وتمنحها بعض الامتيازات وتخص بهذه الامتيازات تلك الشركات ليعم نفعها في اي نوع من الاراضي مملوكة كانت او مستأجرة لمدة طويلة ومثل هذه الشركات كثير في الممالك المختلفة نتجت منها اعظم الفوائد ومنها شركة انشاء الغابات واحيائها في الجزائر وشركة محبي الاشجار الدولية في تونس وشركة اشجار

مدريد الوطنية . ولكن جميع هـذه التشبثات لا تحل في وقت من الاوقات قضية احداث الغابات واحيائهـا فان ذلك متوقف على احياء الجبال وتثبيت الاكثبة وتجفيف البطائح ويحتاج ذلك الى نفقات طائلة واناس عارفين بالعلم وتحتاج الحكومة الى سلوك القصد في عملها بيد ان الحكومة لم تقم بعمل شيء وتغييرهـا لكبار مأموريها على طريقة تبادل الوظائف مما يحول دونهم ودون معرفـة البلاد واقرب الطرق الآن ان تكتفي الحكومة بتنشيط الشركات وانشائها لهذا الغرض وتبذل المعاونة الفعلية والمعنوية لانتشار فن الغابات ولئن كانت الامتيازات في مثل هذه الاحوال غير معتبرة فنحن نعترف بذلك ولكن بلاداً ليس لها شركات ذات اموال كثيرة وليس عندها موظفون عالمون لا سبيل لهـا لان تعمل غير ذلك ولذلك تجلب اناساً من متخصصي الاجانب يشرفون على الشروط التي نالها اصحاب الامتياز ويهيمنون على العمل حتى ينتهي باحسن النتائج . والقيام بعمل على خلاف هذه الصورة لا يكون منه الا الفشل .

وبعد فقد ظهر بما تقدم ما تمس اليه الحاجة من الذرائع العظيمة لانشاء الغابات في الجبال والمبالغة بالقيام على تعهدها ولتثبيت الاكثبة وتطهير البطائح وتجفيفها والقيام بادارة ذلك ينبغي ايجاد شركات ذات رؤوس اموال تكون مختلطة او خاصة لتشرف على هذه الاعمال وتديرها وتنيل الربح لمساهميها على طريقة معقولة وهذا ممـا يحفظ حقوق بيت المال والاهلين معاً ويصونهـا من الاعتداء ولا يجب بالنسبة للاحوال الحاضرة في البلاد ان يطوى شيء من هذه الايضاحات التي هي عملية ونتيجة تجارب طويلة بل على العكس نرى في الامكان ان يضاف اليهـا امور كثيرة ولا نطالب الحكومة في حل هذه المسألة بالقيام بكل عمل فذلك خارج عن طاقتها ولكننا نطالب برفع الموانع والحوائل وتشجيع احباب الغابات على انشاء الجديد منها والاحتفاظ بالقديم

الخطابة عند العرب

تابع لما في الجزأين التاسع والعاشر

(١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ : كان التدبير في اسماء الخطباء وحالاتهم واوصافهم ان نذكر اسماء الجاهلية على مراتبهم . واسماء اهل الاسلام على منازلهم ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم امورهم باباً باباً على حدته ونقدم من قدمه الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في النسب وفضله في الحسب ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم في الجملة .

في الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث او وصف او احتج بليغاً مفوهاً بيناً وربما كان خطيباً فقط وشاعراً فقط وبين اللسان فقط ومن الشعراء الخطباء الابيناء الحكماء قس بن ساعدة الايادي والخطباء كثير والشعراء اكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل ومنهم عمرو بن الاهتم المنقري وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعي واسمه خداش بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكميت بن زيد الاسدي وكنيته ابو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائي وكنيته ابو نفر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته ابو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار احد بني ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادي وعجلان بن سحبان الباهلي وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء اعشى همدان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرني ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار بن برد وكنيته ابو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ورواية كثيرة وحسن دل واشارة عيسى بن يزيد بن دأب احد بني ليث بن بكر وكنيته ابو الوليد . ومن

الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمر والعتابي وكنيته ابو عمرو . وممن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والاخبار المدونة سهل بن هرون بن راهيبوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهذلية وغير ذلك من الكتب ومن الخطباء الشعراء علي بن ابراهيم بن جبلة بن مخرمة ولا اعلمه يكنى الا ابا الحسن

ذكر الجاحظ ثمامة بن اشرس فقال : ما علمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن اشارته . ومعناه في طبقة لفظه . ولم يكن لفظه الى سمعك باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمامة الظاهرة في الفاظه الواضحة في مخارج كلامه . كما وصف الخريمي شعر نفسه في مديح ابي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من اخطب الناس وكان متكلماً وكان قاضياً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسام وابان بن ابي عباس وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن ابان عم الفضل بن عيسى بن ابان الرقاشي من اصحاب انس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلاً وكان خطيباً وكان قاضياً مجيداً . قال ابو عبيدة : وكان ابوهم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الاكاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في اهل هذه اللغة كمقامهم في اهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى اصهر الغرباء اليهم ففسد ذلك العرق . ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن عالي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر . وكان شاعراً بيناً . وخطيباً لسناً . ومن اهل الدهاء والنكراء . ومن اهل اللسن واللقن . والجواب العجيب والكلام الصحيح . والامثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الحسن وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومي من قريش · وابو ماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء · ومن خطباء بني اسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس · ومن اهل اللسن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد·

ومن الخطباء سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن امية قيل لسعيد بن المسيب من ابلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : ليس عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة · فمن العجب ان ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاماً وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصي وابنه من الكلام الا ما له بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الاشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان ناسباً خطيباً واعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب · ومن الخطباء سهيل بن عمرو الاعلم احد بني حسل بن معيص · ومن الخطباء عبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وما علمت انه كان في الخطباء احد اجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذي يحفظ الناس ويدور على السنتهم من كلامهما وما علمنا ان احداً ولد لهما حرفاً واحداً

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان من ذوي الرأي والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة في الشرف وكان هو الساعي بين الازد وتميم في الصلح · ومن بني الحرقوس شعبة بن القلعم · وكان ذا لسان وجواب عارضة وكان وصافاً فصيحاً وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا في هذه الصنعة غير ان خالداً كان قد جمع بين بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لا يصبر عنه

ومن بني اسيد بن عمرو بن تميم ابو بكر بن الحكم كان ناسبة راوية شاعراً وكان احلى الناس لساناً واحسنهم منطقاً واكثرهم تصرفاً ومنهم معلل بن خالد احد بني انمار بن الهجيم وكان نسابة علامة راوية صدوقاً مقلداً ومنهم من بني العنبر ثم من بني عمرو بن جندب ابو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة وراوية نسابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمرو بن خولة كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذي اتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب ومن خزاعة بن مازن ابو عمرو بن العلاء واخوه ابو سفيان ومنهم ابو نوفل بن

413

ابي عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة احد بني عريج ومن بني كنانة ثم من بني ليث ثم من بني الشداخ يزيد بن بكر بن داب وكان يزيد عالماً ناسباً وراوية شاعراً . وولد يزيد بن يحيى وعيسى وهو الذي يعرف في العامة بابن داب وكان من احسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . وكان ابو الاسود الديلي واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل · وصواب الرأي · وجودة اللسان · وقول الشعر والظرف ومنهم زياد بن ظبيان التيمي العايشي وكذلك ابنه عبيد الله كان افتك الناس واخطب الناس · ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيدالله بن زياد ويضرب به المثل · وكان عثمان بن عروة اخطب الناس · وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأي كثير الادب ، وكان اول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قريش خالد بن مسلمة المخزومي وهو ذو الشفة . ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب بن زرارة وهو كان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود بن ابي سبرة ويكنى ابا نوفل من ابين الناس واحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مفلقاً . ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبدالله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال

اذا قال لم يترك مقالاً لقائل بملتقطات لا ترى بينها فضلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي أربة في القول جداً ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ومن خطباء بني هاشم ايضاً داود بن علي وكان يكنى ابا سليمان . وكان انطق الناس واجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قط وله كلام كثير معروف محفوظ . ومنهم عبدالله بن الحسن . ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والي مكة قال المكي : سمعت مشايخنا من اهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم امير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان ابين منه قاعداً واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب اسحنفر (مضى مسرعاً فلم يرده شي . وكان في لسانه شبيه بالرتة وكان ايوب فوق داود في الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود في

الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من ادق الناس لساناً ، واحسنهم بياناً

ومن خطباء بني هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن علي وكان احد من ينازع زيدًا في الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوبتهما فقط وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في اصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق اصحاب الاخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الاسماء ، الا ان يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبدالله بن صالح والعباس بن محمد واسحق بن عيسى واسحق بن سليمان وايوب بن جعفر هؤلاء كانوا اعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبدالله بن علي وداود بن علي يعدلان بامة من الامم . ومن مواليهم ابراهيم ونصر ابنا السندي فاما نصر فكان صاحب اخبار واحاديث وكان لا يعد ، وحديث ابن الكلبي والهيثم . واما ابراهيم فانه كان رجلًا لا نظير له وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الالفاظ ، شريف المعاني

ومن خطباء تميم جحدب وكان خطيباً راوية ومن ولد المنذر عبدالله بن شبرمة بن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيهاً عالمًا قاضياً ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيباً ناسباً ، وكان حاضر الجواب مفوهاً ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي وكان يكنى ابا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان الاهتمي . ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضرار وقد ادرك الاسلام وطال عمره حتى ادرك وقعة الجمل ومن خطباء بني ضبة وعلمائهم منجور ابن غيلان ابن خرشة وكان مقدماً في المنطق

ومن خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة وله خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ . ومن خطباء الخوارج ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة وكان صفرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج شبيل بن عزرة الضبعي صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعرًا ناسباً . ومن الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . ومن خطباء الخوارج وعلمائهم عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدرة الهلالي . ومنهم المقعطل قاضي عسكر الازارقة ايام قطري

ومنهم عبيدة بن هلال اليشكري ومنهم الضحاك بن قيس ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري . ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن رقبة ابن مصقلة وكرب بن رقبة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان ابو عمار الطائي خطيب مذحج كلها . ومن الخطباء ايوب القرية . ومن خطباء غطفان في الجاهلية خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمي بن مازن بن فزارة وخويلد خطيب يوم الفجار . ومن الخطباء الوضاح بن خيثمة ومن اصحاب الاخبار والنسب والخطب والحكام عند اصحاب النفورات بنو الكوّاء . ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي وكان يخطب العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البر فلما مات اكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل

ومن الخطباء الابيناء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب بن شيبة . قال ابو الحسن : كان ابو بكر خطيباً . وكان عمر خطيباً . وكان عثمان خطيباً . وكان علي خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز . ومن خطباء بني هاشم زيد بن علي وعبدالله بن حسن وعبدالله بن معاوية خطباء لا يجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن ابي الحسن البصري . ومطرف ابن عبدالله الحرشي . ومورق العجلي . وبكر بن عبدالله المزني . ومحمد بن واسع الازدي . ويزيد بن ابان الرقاشي . ومالك بن دينار السامي . وليس الامر كما قال في هؤلاء القاص المجيد والواعظ البليغ وذو المنطق الوجيز فاما الخطب فانًا لا نعلم احدًا يتقدم الحسن البصرى فيها وهولاء وان لم يسموا خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بني عبدالله بن غطفان ابو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم هاشم بن عبد الاعلى الفزاري . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابي . ومن بني هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من اخطب الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي . ومن خطباء بني تميم عمرو ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن في بادية العرب في زمانه اخطب منه ومن بني منقر عبدالله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم صفوان بن عبدالله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم عبدالله بن عبدالله بن الاهتم وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك

ومن ولده شبيب بن شيبة بن عبدالله بن عبدالله بن عبدالله بن الاهتم وعبدالله بن عبدالله بن عبد الله ابن الاهتم وخاقان بن لاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان وكان اخطب بني تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل بن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بني منقر الحكم بن النصر وهو ابوالعلاء المنقري . ومن خطباء بني صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى . ومن خطباء بني تميم ثم من مقاعس عمارة بن ابي سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعباس ابنا رؤبة . وكان العباس علّامة عالماً ناسباً راوية وكان عبدالله ارجز الناس وافصحهم وكان يكنى ابا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل ابو المليح الهزلي أسامة بن عمير . ومنهم ابو بكر الهزلي كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً وعالماً بالاخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة بن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن ابي صفرة . ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شتي الحميري كان اخطب العرب . ومنهم ثم من الانصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبي . ومنهم روح بن زنباع . ومن خطبائهم الاسود بن الكذاب كعب العنسي . وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاعاً كاهناً وناسباً . ومن خطباء الانصار سعد بن الربيع . ومن القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شرية الجرهمي واسقف نجران واكيدر صاحب دومة الجندل وافيعى نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب وعمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو مزيقياء وجذيمة بن مالك الابرش . ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع سموه بذلك لسلاطة لسانه ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء اكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة

ومن النساك والزهاد من اهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن اشيم وعثمان ابن ادهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة بن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلي وبكر بن عبدالله بن الشخير الحرشي ومالك ابن دينار وحبيب ابو محمد ويزيد الرقاشي وصالح المزي وابو حازم الاعرج وزياد مولى عياش بن ابي ربيعة وعبد الواحد بن زيد وحيان ابو الاسود ودهثم ابو العلاء

ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن اشيم وام الدرداء ومن نساء الخوارج البلجاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ومن نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوق وهند . وابو الوليد الحكم الكندي ومحمد بن محمد الحمراني وكلاب وكليب وهاشم الاوقص وابو هاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل والخطفي وهو جد جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلمة

ومن القصاص ابو بكر الهزلي وهو عبدالله بن ابي سليمان كان خطيباً بيناً صاحب اخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبدالله بن الشخير في مكان ابيه . ومن كبار القصاص ثم من هذيل مسلم بن جندب وعبدالله بن عرادة بن عبدالله بن الوضين . ومن القصاص موسى الاسواري وكان من اعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى باي لسان هو ابين واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد ادخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها الا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الاسواري

قال ابو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر قبيلة في العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة بن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحار بن عياش وصحار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة علي ومنهم مصقلة بن رقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقبة

نقل ابن النديم من خط ابن مقلة اسماء الخطباء فاذا هم : امير المؤمنين علي عليه السلام طلحة بن عبيدالله، خالد واسمعيل ابنا عبدالله القسري، عبدالله بن العباس ابن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبدالله بن خالد ، خالد بن صفوان ، عبدالله بن الاهتم ، صعصعة بن صوحان، ابن القرية . محمد بن قيس الخطيب زياد بن ابي سفيان ، قطري بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، ابو جعفر المنصور ، المأمون ، شبيب بن شيبة ، العباس بن الحسن العلوي ، محمد بن خالد بن عبدالله القسري وعبدالله ابنه ، شبة بن عقال

(١١) من خطب البلغاء

قال ابو جعفر النحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن في اساليب الخطباء من آكد ما يحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدهم وبهـا نطقت الخلفاء الامراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتّاب. قال ابو هلال العسكري : الرسائل والخطب متشاكلتان في انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان ايضاً من جهة الالفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه الفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما ان الخطبة يشافه بهـا بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في ايسر كلفة اه

وعلى هذا رأينا ان ننقل هنا نموذجاً من خطب الرسول واصحابه وبلغاء الخطباء جاهليـةً واسلاماً ونحن نوصي القاريء ان لا يغفل خصوصاً عن خطب علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه فان نهج البلاغة اكبر كنز للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل وعلم وادب وبلاغة وسياسة وادارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلاً على شرح ابن ابي الحديد المطول وتمرن في اساليب الخطابة على مناحي البلغاء والعرب المستعربة والعاربة والعرباء يوشك ان يكون من ائمة هذا الشأن في هذا العصر ايضاً فان كلام امير المؤمنين رضي الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كرر حلا ، ومهما تأملته هلا ، ففي كلامه عبقة من النور الالهي ، ونفحـة من الروح النبوي ، ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه ، وان يجر على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

ان الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ٥ اوصيكم عباد الله بتقوى الله

واحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير . اما بعد ايها الناس اسمعوا مني ابين لكم فاني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا في موقفي هـذا . ايها الناس ان دماءكم واموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الا هل بلغت اللهم اشهد فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى الذي ائتمنه عليها . وان ربا الجاهلية موضوع وان اول ربا ابدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة وان اول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من اهل الجاهلية . ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد في ارضكم هذه ولكنه قد رضي ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم . ايها الناس انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض منها اربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان الا هل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس ان لنسائكم عليكم حقاً وان لكم عليهن حقاً لكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن احداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله قد اذن لكم تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فـان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عون (١) لا يملكن لانفسهم شيئاً اخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً الا هل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس انما المؤمنون اخوة فلا يحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفس منه الا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله واهـل بيتي (٢) الا هل بلغت اللهم اشهد . ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحـد

(١) في رواية اخرى عوان وهي ما كان لها زوج (٢) في رواية الجاحظ ليس فيها « واهل بيتي »

كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى الا هل بلغت قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ايها الناس ان الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من دعي الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً (٣) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نموذج من خطب الوفود

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفدت وفود العرب على حضرته الشريفة فقدم وفد بني تميم في جملة من وفد مع حاجب بن زرارة بن عدس وفيهم الاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وقيس بن عاصم والحتات ومعتمر بن زيد في وفد عظيم ومعهم عيينة بن حصن الفزاري فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اخرج الينا يا محمد فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج اليهم فقالوا جئنا نفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا فاذن لهم فقام عطارد فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا اموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف وجعلنا اعز اهل المشرق واكثرهم عدداً فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس : اجب الرجل فقام ثابت فقال . الحمد لله الذي له السموات والارض خلقة قضى فيهن بما امره ووسع كرسيه علمه ولم يكن شيء قط الا من فضله ثم كان من قدرته ان جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً اكرمهم نسباً واصدقهم حديثاً وافضلهم حسباً فانزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله تعالى من العالمين ثم دعا الناس الى الايمان فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه اكرم الناس نسباً واحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعالاً ثم كان اول الخلق استجابة لله حين دعاه نحن فنحن انصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله ابداً وكان قتله علينا يسيراً والسلام عليكم . فقالوا يا رسول الله ائذن لشاعرنا فاذن له فقام الزبرقان بن بدر فقال :

---

(١) رواية البيان والتبيين : لا يقبل منه صرف ولا عدل

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
وكم قسرنا من الاحياء كلهم عند النهاب وفضل العرب يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا من الشواء اذا لم يؤنس القرع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل ارض هوياً ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطاً في ارومتنا للنازلين اذا ما انزلوا شبعوا
فلا ترانا الى حيٍّ نفاخرهم الا استقادوا وكان الرأس يقتطع
انا ابينا ولم يأب لنا احد انا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يفاخرنا في ذاك يعرفنا فيرجع القول والاخبار تستمع

قال وكان حسان بن ثابت غائباً فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجيب شاعرهم قال حسان فلما سمعت قوله قلت على نحوه

ان الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم او حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وكل البر يصطنع
سجية تلك منهم غير محدثة ان الخلائق فاعلم شرها البدع
ان كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لادنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما اوهت اكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
ان سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم او وازنوا اهل مجد بالندى متعوا
اعفة ذكرت في الحي عفتهم لا يطمعون ولا يزري بهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع
اذا نصبنا لحي لم ندبَّ لهم كما يدبُّ الى الوحشية الذرع
كأنهم في الوغى والموت مكتنع اسد ببيشة في ارساغها فدع
اكرم بقوم رسول الله شيعتهم اذا تفرقت الاهواء والشيع
فانهم افضل الاحياء كلهم ان جدَّ بالناس جد القول اوسمعوا

فلما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس ان هذا الرجل لمؤتى له خطيبهم اخطب من خطيبنا وشاعرهم اشعر من شاعرنا ثم اسلموا واجارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم انزل الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون— انتهى عن الكامل لابن الاثير

قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه وقد اختلف الانصار والمهاجرون في يوم السقيفة :

(ان الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على امته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة اذى قومهم وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم اول من عبد الله في هذه الارض وآمن بالله وبالرسول وهم اولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الامر من بعده لا ينازعهم الا ظالم وانتم يا معشر الانصار من لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الاسلام رضيكم الله انصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد الاولين المهاجرين عندنا بمنزلتكم نحن الامراء وانتم الوزراء لا تفاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور)

فرد عليه حباب بن المنذر قائلًا : يا معشر الانصار املكوا عليكم امركم فان الناس في ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولا يصدروا الا عن رأيكم انتم اهل العز واولو العدد والمنعة وذوو البأس وانما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم امركم ابى هؤلاء الا ما سمعتم فمنا امير ومنكم امير

فاجابه عمر رضي الله عنه قائلًا : هيهات لا يجتمع اثنان والله لا ترضى العرب ان تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن اولياؤه وعشيرته

فاجابه حباب قائلًا : يا معشر الانصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر فان ابوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الامور فانتم والله احق بهذا الامر منهم فانه باسيافكم دان الناس لهذا الدين انا جُذيلها المحكك وعذيقها المرجب انا ابو شبل في عرينة الاسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة

وقال ابو بكر في هذا الموقف ايضاً من رواية اخرى

يا معشر الانصار لو شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في اموالنا لقلتم فنحن وانتم كما قال طفيل الغنوي

جزى الله عنا جعفراً حين ازلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت

ابوا ان يملونا ولو ان امنا تلاقي الذي لاقوه منا لملت

هم اسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت ادفأت واظلت

يا معشر الانصار ان العرب لا تدين الا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله

الى آخر ما ورد في هذا المقام على اختلاف الروايات فيه عند المؤرخين وكذلك لا ينسى الاسلام للخطابة صنيعها يوم اليرموك اذ خرج المسلمون متساندين فخطبهم خالد بن الوليد رضي الله عنه قائلاً : هذا يوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر والبغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم لهُ ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وانتم متساندون فامروه عليهم ونبذوا التساند ظهرياً فانزل الله عليهم نصره وايدهم بروح منه وهو ولي المؤمنين

من خطب اكثم بن صيفي في بني تميم :

« يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي ان فاتكم الدهر بنفسي ان بين حيزومي وصدري لكلاماً لا اجد له مواقع الا سماعكم ولا مقارّ الا قلوبكم فتلقوه باسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقةوالحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ولم يعدم المشاور مرشداً والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ومن سَمَّع سُمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع من سلك الجد أمن العثار ولن يعدم الحسود ان يتعب قلبه ويشغل فكره ولا تجاوز مضرتهُ نفسه يا بني تميم الصبر على جرع الحلم اعذب من جنى ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان انكى من كلم البنان والكلمة مرهونة ما لم تخرج من الفم فاذا نجمت فهي اسد مِحرَب او نار تاهب ورأي الناصح دليل لا يجوز ونفاذ الرأي في الحرب اجدى من الطعن والضرب »

ولما دعا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة الى الاسلام ارسل اكثم ابنهُ حبشيا فاتاه بخبره فجمع بني تميم وقال :

يا بني تميم لا تحضروني سفيهاً فان من يسمع يخل ان السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه لا خير فيمن لا عقل لهُ كبرت سني ودخلتني زلة فاذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه وان رأيتم مني غير ذلك فقوموني استقم ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة واتاني بخبره وكتابهُ يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق ويدعو الى توحيد الله تعالى وخلع الاوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأي منكم ان

الفضل فيما يدعو اليه وان الرأي ترك ما ينهى عنه ان أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على امره انتم فان يكن الذي يدعو اليه حقاً فهو لكم دون الناس وان يكن باطلًا كنتم احق الناس بالكف عنه والستر عليه وقد كان اسقف نجران يحدث بصفته وسفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسمّى ابنهُ محمداً فكونوا في امره اولاً ولا تكونوا آخراً ائتوا طائعين قبل ان تأتوا كارهين ان الذي يدعو اليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في اخلاق الناس حسناً اطيعوني واتبعوا امري اسأل لكم اشياء لا تنزع عنكم ابداً واصبحتم اعز شيء في العرب واكثرهم عدداً فاني ارى امراً لا يجتنبه عزيز الا ذل ولا يلزمهُ ذليل الا عز ان الاول لم يدع للآخر شيئاً وهذا امر لهُ ما بعده

فقال مالك بن نويرة قد خرف شيخكم فقال اكثم ويل للشجي من الخلي ولهفي على امر لم اشهده ولم يسبقني . ومن امثاله السائرة ما قاله في وصيته لبنيه

تباروا فان البر يبقي عليه العدد، وكفوا ألسنتكم فان مقتل الرجل بين فكيه، ان قول الحق لم يدع لي صديقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوقي مما هو واقع ، وفي طلب المعالي يكون العناء ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه ، التقدم قبل التندم ، اصبح عند رأس الامر احب اليَّ من ان اصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ، ويل لعالم امر من جاهله ، يتشابه الامر اذا اقبل واذا ادبر عرفه الكيّس والاحمق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أفن . ومنها : تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة ، لا تغضبوا من اليسير فانهُ يجني الكثير ، لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنهُ ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، نعم لهو الحرة المغزل ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، المكثار كحاطب ليل ، من اكثر اسقط ، لا تجعلوا سراً الى امة .

ومن هذا النوع خطبته امام كسرى وهي :

ان افضل الاشياء اعاليها واعلى الرجال ملوكها وافضل الملوك اعمها نفعاً وخير الازمنة اخصبها وافضل الخطباء اصدقها الصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة والحزم مركب صعب والعجز مركب وطيء آفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير الامور الصبر حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء شر البلاد بلاد لا امير بها شر الملوك من خافه البريء المرء يعجز لا المحالة (الحيلة) افضل الاولاد البررة خير الاعوان من لم يراء بالنصيحة احق الجنود بالنصر من حسنت سريرته يكفيك من

الزاد ما بلغك المحل حسبك من شر سماعه الصمت حكم وقليل فاعله البلاغة الايجاز من شدّد نفَّر ومن تراخى تألف

خطبة لقس بن ساعدة الايادي اسقف نجران

لما قدم وفد اياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ايكم يعرف قس بن ساعدة الايادي قالوا كلنا نعرفهُ قال فما فعل قالوا هلك قال يرحم الله قساً اني لارجو ان يأتي يوم القيامة امة وحده اني لا انساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل لهُ احمر وهو يخطب الناس ويقول :

اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل مـا هو آت آت ان في السماء لخبرا وان في الارض لعبرا سماء تمور ونجوم تغور في فلك يدور ويقسم قس قسما ان لله ديناً هو ارضى من دينكم هذا مالي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ارضوا بالاقامة فاقاموا ام تركوا فناموا . ايكم يروي من شعره . فانشد بعضهم

في الذاهبين الاولـين م من القرون لنا بصائر
لمـا رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الاكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقـين عابر
ايقنت اني لا محـا لة حيث صار القوم صائر

وكان قس يفد على قيصر ويزوره في قصره فسألهُ يوماً ما افضل العقل قال : معرفة المرء نفسه قال : فما افضل العلم قال : وقوف المرء عند علمه قال : فما افضل المروءة قال : استبقاء الرجل ماء وجهه قال : فما افضل المال قال : ما قضي به الحقوق

ومن خطبه في اياد قولهُ : تبّاً لارباب الغفلة والامم الخالية والقرون الماضية يا معشر اياد اين الآباء والاجداد واين المريض والعواد واين الفراعنة الشداد اين من بنى وشيد وزخرف ونجَّد اين المال والولد اين من بغى وطغى وجمع فاوعى وقال انا ربكم الاعلى الم يكونوا اكثر منكم اموالاً واطول آجالاً طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بتطوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله المعبود ليس بوالد ولا مولود

الشعر المنثور[(١)]

وداع غوطة دمشق

وداعاً غوطة الفيحاء ، مجلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط التجليات ، سلام زكي كتربتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر كانوار ادواحك الجنية ، وتحية طيبة تتساقط على عمرانك تساقط الوابل والطل على جناتك الغيباء وجراجك الغلباء ، واشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء

سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفزع الى ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب في اجوائها عشاق الطرب وارباب المجون ، فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ في الافضال على الارضين ، وتبدو همة الخلق اذا صحت عزائمهم ان يكونوا عاملين لا خاملين ، فليس في الاقاليم ما يفوقك باعتدال المواسم وافترار المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات والازاهر ، وتلوي الجداول والانهار ، وتجلي الطبيعة في العشايا والاسحار

سلام على وادي دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويحلو العيش في ظل افيائه على سذاجته مهما كان مرّاً ، وتطمئن النفس الى التنقل في رباعه برداً كان او حرّاً ، إيه غوطة جلق لم يؤثر عنك ان امسكت خيراتك عاماً عن ابنائك فلا تفتأين على الدهر تخرجين لساكنيك افلاذ اكبادك على تعاقب الامم والدول ، وتصدقين الود لكل من يطلب قربك فيعيش معك في رخاء وصفاء

سلام على سكونك في الليالي الظلماء والقمراء ، ربيعاً كان او صيفاً او خريفاً او شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ، ويتعهدونك بالحرث والكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم حمارة القيظ وصبارة

---

(١) في العام الماضي كتبنا في جريدة المقتبس سلسلة من المقالات في رحلتنا الى الاستانة عن طريق الاناضول مع الوفد العلمي الذي زار عاصمة السلطنة وجناق قلعة وهاك نموذجاً منها يصح ان تسمى الشعر المنثور

القر ، وظلمة الليل وشمس النهار ، سلام عليهم انهم مثال النشاط في المزارعين ، لا يضنون على ارضهم باوقاتهم واتعابهم وهي تجودهم ضروب الخير والبر كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات كلما رعوها فاحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتهـــا ، بيض الوجوه شم الانوف ، لان رزقهم مناط ايديهم العاملة ، لا يعتمدون في تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكلون الا على من ينزل الغيث ويمرع الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيهـــا نزع الفضول ، من العقول ، وانيرت بانوار علوم المدنية على الاصول ، فتعهد ابناؤهـــا بالتربية كما تربى عندهم الرياض والحقول ، وتوقى مما يؤذي الزروع والثمار والبقول ، لكانت خير بقعة يسكنها ساكن في الحياة ، واصح عليها قول من قال طوبى لمن كان له في ارضها مربض شاة

سلام غوطة دمشق كلما غردت اطيارك فلك على المشاعر سجع الحمام واليمام ، وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشحرور ، كيف لا تستهوين النفس ونعيق الغربان ونقيق الضفادع اذا رددهما الصدى في لياليكِ يفسرهما القلب بمعان لا تفهم منهما في الكور الاخرى، كما يفسر في النهـــار ثغاء الماعز والحملان ، وجؤار البقر وخوار الثيران

فسلام والف سلام عليكِ يا كريمة الطبع ، وبديعة الصنع ، وعريقة المجـــد ، ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار ، والمحسنة للاهل والجار ، ففي مغانيك تصفو النفس من كدورات هـــذه الحضارة الملفقة ، وتنجو من سماع فظائع الانسانية المعذبـــة ، وبقليلك — وان كان قليلك لا يقال له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطـــام الدنيا تكالب الضاري من الحيوان ، وبتطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك توحي الى الخيال روحاً من عندها فتفيض القرائح وترق العواطف ، وفي منبسط صعيدك الطيب يسلو الخاطر همومه وتطرب الحواس ، من دون ما كاس ولا نغمة اوتار واجراس

في هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهي في تقسيم الارزاق فلا فقر مدقع ، ولا غنى مفرط ، ويعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلًا ، يغتني افراد منهم بذكائهم واقتصادهم ، فـــلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع ارباب النهم ، ولا في اغنيائهم قسوة قلوب اهل الرفاهية النعم ، فسبحان من وفر للغوطة قسطهـــ من

الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، واجزل لها عناصرها الحيوية فزادها كر الجديدين نماء الى نماء . . .

وداع الشام

عنيت بشرق الارض قدماً وغربها أُجوّب في آفاقهـا واسيرها
فلم ارَ مثل الشام دار اقامة لراح أُغاديهـا وكأس أُديرها
مصحة ابدان ونزهـة اعين ولهـو نفوس دائم وسرورهـا
مقدسة جاد الربيع بلادهـا ففي كل ارض روضة وغديرهـا

هذا ما وصف به البحتري القطر الشامي منذ نحو الف سنة وهو يصدق عليه الى اليوم والى ما بعد اليوم فقد منح الفاطر تعالى هذا القطر من ضروب الجمال والاعتدال ما هو قرة العيون وبهجة النفوس فقضى ان تأخذ فيه الفصول الاربعة حكمهـا وان تتم في قيعانه وجباله اسباب النعيم في الحياة : اهويته معتدلة ، وامطاره وثلوجه متهاطلة ، وتربته مخصبة ، وغاباته ومعادنه ليست بقليلة ، وانهاره جارية ، وبحيراته غريبة ، واجواؤه بهجة ، ورباعه منبسطة

تعشق الشام لانها رأت طلعة موسى وعيسى واحمد صلوات الله عليهم من النبيين وامثال الاسكندر وابن الخطاب وابن الوليد ونور الدين وصلاح الدين وسليم وابرهيم ونابوليون من الفاتحين وعمر بن عبد العزيز والمأمون من الخلفاء العادلين ، فقل في المالك كما قال كورتيوس المؤرخ الالماني ما اندمج فيه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه .

يضم الشام بين جوانحه معظم المعتقدات والمذاهب ولذلك كثر بالامس الطامعون به فكان من حسنات هـذه الحرب ان قضي على مطامعهم آخر الدهر ان شاء الله وعرف من لم يكن يعرف ان الجامعة العثمانية اشرف الجامعات واقواها وان التفكر في غيرها مثلبة مهلكة

وداعاً بلاد الشام فقد اخذتِ بمجامع القلوب بخصائصك الطبيعية فكل تعب يهون في خدمتك وكل مفاداة يستهان بهـا في سبيل مرضاتكِ فارضك معشوقة الانفس ، وتربتك عليهـا درجنا وفيها ندرج ولن نتخذ عنك بديلًا مهما تحملنا من المشاق وما عناؤنا الا ابتغاء المبالغة في العناية بامرك

سلام عليك بلاد الشام معدن الخيرات والبركات مهوى الهوى ومغاني الخرد العين .

سلام على مناظر حرمون وصنين والصبر وقاسيون ويوشع والارز والهرمل والكرمل ، سلام على اغوارك وانجادك وعلى بحيراتك وانهارك ، سلام على الاردن واليرموك والعاصي والفرات وبردى والساجور والليطاني والزرقا والعوجا والاعوج والاولي وقاديشا والموجب وغيرها من انهارك وجداولك التي تفيض البركات على ابنائك

سلام على جبال الشراة والخليل وعامل وسنير وحوران وعجلون وحرمون ولبنان وعكار واللكام وانطاكية والقصير وريحا ، سلام على سهول حوران والجولان والجيدور والغوطة والبقاع والبقيعة وحمص ومرج ابن عامر وشارون والبلقاء ، سلام على آثارك وعادياتك قديمها وحديثها ، ولا سيما جرشك وبترائك وبعلبكك وتدمرك

احبت القلوب هذا القطر السعيد لانهُ حوى على ضيق مضطربه ما لا تحويه الاقطار بل القارات من الحسنات وفيه من الغرائب الطبيعية والصناعية ما دعا الامم الى شد الرحال اليه والحج الى مزاراته وزيارة مصانعه ومعاهده . يعرف ذلك كل من فارقهُ مدة وقابل بينهُ وبين غيره في عمرانه وطبيعته

إيه سورية مجموعة غرائب العالم نستودعك قلوبنا فان بك حيث كنا قد شغلت عقولنا اننا نودعك على امل اللقاء القريب ونحن نحمل اليك من انباء جاراتك التى يظلها علم الهلال المنصور ما ينفس الكربة ويزيل الغمة ويفيض النعمة بحول الله ولا قوة الاَّ به .

في شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمناظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوي اليوم ويحق له ان يهوي فؤاد كل عثماني يحب هذا الوطن المحبوب ويتفانى في التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادي المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الغربيين

جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما اذكر من ستة كيلومترات الى ثلاثين وطولها ٨٠ كيلومتراً تتقاذفها القنابل والقذائف والمدمرات والمنفجرات وطيارات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة اشهر وهي لا تزال صابرة على الاذى باسمة الوجه للقاء العدى

في هذه الشبه الجزيرة تجلى العقل العثماني وتمَّ آخر ما وصلت اليه مدارك ابناء هذا الوطن في استكمال اسباب الدفاع والاخذ بحظ اوفر من اساليب الكر والفر

والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز في سبيل الذود عن حمى هذه الشبه الجزيرة لتبدلت وجه الحرب الاوربية ولنالنا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من اكثر اطرافها عرّفت دول الاتفاق المربع ولاسيما انكلترا وفرنسا منهن ان هناك قوة اسمى من قوة البشر وهي القوة الالهية التي استند اليها العثمانيون قبل كل شيء ودونهـا قوى الاساطيل والغواصات والطيارات والمقذوفات والمفرقعات يضاف اليها يقين مازج الافئدة والارواح من الانتصار وكراهة ليس بعدها غاية لحكم الاجنبي والتشبع بمعاني الوطنية والجنسية

وقفت على جبهات الحرب في مواقع « اري بروني » و« انافورطه » و« جناق قلعه » واشرفت على انحاء « سد البحر » وهي المواقع الاربعة التي دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال فعظم في عيني غناء جيشنا وفاخرت نفسي بقوادنا وضباطنا وجندنا وايقنت اننا اذا ضممنا شملنا في كل نازلة وكل شأن وتدرعنا بعامة الاسباب التي يتذرع بها البشر الممدن نضاهي اعظم الدول منعة ومضاء وها قد قضينا باعتصامنا بحبل الله على مطامع الطامعين من الانكليز والفرنسيس وهم ما هم بقواهم البرية والبحرية

سبعة اشهر مضت على دفاع جناق قلعة والعدو يمخر العباب بدوارعه وطراداته ورعاداته ومدمراته ويخرج الى البر الكتائب اثر الكتائب ويستجلب السلاح ويتذرع باقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن في ارهـاق الخصم واقتحام السبل فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذي نزله اول يوم ولا يزال جيشه تحت حمـاية اساطيله لا ذرى له ولا اكمات وجيشنا يطل عليه اطلالاً يذيقه كل يوم مرارة الهزائم الواناً واشكالاً ويفحش القتل في رجاله حتى قدر الهالك منه بنحو مئة الف فقدها وفقد معها جانباً من اسطوله وانفق مئات الملايين من الدنانير وهو في مكانه لم ينل ولن ينال بحول الله ما تطمع به نفسه من استباحة حمانا

هذا المضيق هو في الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بان عملهم سهل يحتاج الى بضعة اسابيع ولكن خيب المولى ظنونهم ونعى عليهم اعتدادهم بقوتهم والقى عليهم امثولة مما ينال الظلمة من سوء المغبة وان التمويه للعبث بعقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان جاز يوماً فلا يجوز على الامم في آخر وان الله لا يضيع عمل عامل

ان دفاعنا عن حمانا في جناق قلعه قطع آخر عرق من الآمال للمتفقين وقضى على مطامعهم فينا ابد الدهر. ان شاء الله ومن رأى مـا رأيناه هنا من ابداعنا في طرق القتال وشاهد استعدادنا في حصوننا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام جيشنا ومـا ينبغي لهُ من المؤنة والذخيرة والتمريض يجهر بصوته قائلًا هذا عمل لا يتهيأ الا لامة تحب ان تبقى ولا يتيسر ذلك الا لمن كتبت لهُ السعادة

غابات شبه جزيرة كليبولي ونجادها ووهادها وسواحلها وسهولها لقد طلت في ربوعك دماء ذكية من دماء العثمانيين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية الاريج عطرة الثناء تنم عن معرفة من استشهدوا في سبيل الفرض الوطني وذاقوا معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذي اريق على تربتك جعل لهـا ريحاً من ريح الجنة وسيكون لمن فادوا بها من الذكر الجميل ما كان لابطال المسلمين في وقائع الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل افراد قتلوا ليحيوا امة وفادوا بنفوسهم في سبيل الله ليحموا ذمار الخلافة المعظمة ويربأوا بهذا الوطن عن ان يستباح حمـاه ويحافظوا بارواحهم على آخر دولـة اسلاميـة مستقلة جمعت شمل الاسلام والمسلمين وحمت حمى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على ارجاء شبه جزيرة كليبولي وطلعت عليهـا الشمس وغربت واقمرت السماء وامطرت واثلجت وارعدت وابرقت يردد لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بـين اعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربي والتركي والكردي واللازي وغيرهم لاعلاء كلمة الحق واتقاء عادية الدخيل الثقيل . هنا نظم العثمانيون ارقى جيش انتظم لهم منذ عهد الفاتح وسليم وسليمان وتشبع اهله بروح الوطنية وغنم غزاتهم احياءً وامواتاً سعادة الدارين

ارض شبه جزيرة كليبولي ستبقين مقدسة في نظر كل عثماني خاصة وكل مسلم عامة كما قدس الله الارض المقدسة وستذكرك الاجيال عقيب الاجيال والدهور اثر الدهور بالاعظام والاحترام كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . انت كذبت البشر في ادعائهم ان « كل محصور مأخوذ » واكدت لهم عكس القضية في ان « كل محصور محفوظ » فسلام عليك محاربة ومسالمة . والف الف رحمة ورضى على عظام شهداء ضمتها تربتك الطيبة ومروجك السندسية وتلعاتك الزمردية

بلاد العرب

البلاد العربية على التحقيق هي كل شبه الجزيرة التي يحيط بهـا الفرات وخليج فارس وخليج عمـان شمالاً وشرقاً وجبال طوروس والبحر المتوسط والبحر الاحمر شمالاً وغرباً والبحر الهندي فيما سوى ذلك بل ينبغي ان يضاف اليهـا معظم البلاد الواقعة بين نهري الفرات والدجلة من عرض ماردين وديار بكر شمالاً الى القرنة جنوباً فان كل هذه البقعة كانت من اول فجر التاريخ الى هـذه الغاية يسكنها اقوام من الجنس السامي هم اقرب ما يكون الى العرب والعاديَّة العدنانية في اخلاقهم وعوائدهم ولغتهم فضلاً عن بنيتهم الجسمانية . وتشير التقاليد العربية على ما ذكر اشهر المؤرخين الى ان العاديين في اقدم دولهم التي نزلت الاحقاف وحضرموت وبعدهم ثمود هاجروا الى الجنوب من العراق وما يجاوره

والآثار دلَّت دلالة لا يختلف فيها احد من العلماء الباحثين في العصر الحاضر على ان حمورابي الشهير كان عربياً والمتحقق ايضاً ان لغة بابل القديمة ولغة الاشوريين الذين شادوا فيما بين النهرين دولة من اعظم الدول القديمة كانت لغتهم عربية او اقرب ما يكون الى اللغة العربية العادية او العدنانية المضرية . واشباع البحث الآن في هـذا الموضوع خارج عن مقصدنا وربما عدنا اليه في مقالة على حدة

موضوع مقالتي الحاضرة هو بلاد العرب الاصلية الواقعة جنوبي خط موهوم يمتدّ من رأس خليج السويس الى رأس خليج العجم بين البحر الاحمر غرباً والبحر الهندي جنوباً وشرقاً وخليج عمان وخليج فارس شرقاً وشمالاً . وحدودهـا واضحة كل الوضوح ليس في بلدان الدنيا ما هو اوضح منها الا في جهتها الشمالية حيث يحدهـا الخط الموهوم كما اشرنا

مساحة هذه البلاد

مساحة هذه البلاد بين مليونٍ ومليونٍ ومئتي الف من الاميال المربعة ثلثها رمال دهناوية ونفودية (نسبة الى دهناء ونفود) ومعظم هذه الرمال في الدهناء الكبيرة المعروفة بالربع الخالي بين اليمن وحضرموت وعمان وبلاد نجران الى مـا يصاقب

قلعة بيشة غرباً وجنوباً وشرقاً وجنوبي شبه جزيرة قطر مما يلي عمان الى واحة يبرين الى الدواسر شمالاً ثم النفود الشمالي الكبير الذي يفصل بين صحراء سوريا شمالاً وبلاد شمر وخيبر ومدائن صالح جنوباً

وهناك رمال اخرى تفصل بين الحسا وهي كل البلاد الواقعة على الخليج الفارسي من فاو تقريباً الى شبه جزيرة قطر وبين نجد ثم الرمال التى تفصل شمر ونجداً عن العراق من مشد علي شمالاً الى فاو جنوباً وهذا الثلث من الارضين لا عمارة فيه اصلاً انما ينزلهُ الاعراب او ينزلون اطرافهُ في الشتاء والربيع لرعاية انعامهم وفي بعض هذا الثلث احسن مراعي العربية في الزمن الذي اشرنا اليه

والثلث الثاني صحارٍ وحزون هي مراعٍ للسائمة من الابل والشاء وليس فيها عمران حضريّ الا ما ندر حيث ثَمَّ بعض اعداد المياه . واعداد المياه جمع عِدّ وهو الماء الجاري لا ينقطع والقديم من الركايا

واما الثلث الثالث فارض زرع وضرع لا ينقص في خصبه عن اخصب الارضين في العراق وضفاف النيل في مصر والصعيد وفي هذا الثلث اغلب اليمن ومتصرفية عسير وقسم كبير من عمان ومعظم اودية حضرموت ونجد ولا سيا الفلج واعراض اليامة وواحات الحسا

عدد السكان

يختلف الكتاب في تقدير عدد سكان هذه البلاد وحقهم ان يختلفوا لاتساع مساحتها وانفصال بعض اقسامها عن بعض وصعوبة الوصول الى كل قسم من اقسامها ايًّا كان اما للحوائل الطبيعية او لتنكر اهلها من غريب عنهم يجوس خلال ديارهم والذي رأيناه في مطالعاتنا كلها لكتاب من الانكليز . وهؤلاء لا يؤتمنون على الحقيقة في كل ما يتعلق بالبلاد العثمانية فانهم منذ زمن بعيد لا يرَون ولا يكتبون الا ما يوافق سياستهم ومقاصدهم الخصوصية الخفية حتى في امر كالذي نحن في صدده اي عدد السكان فانهم يزيدون فيه او ينقصون على ما يكون امام غايتهم وقد رأيت لكاتب ورحالة منهم مشهور يعرف باسم « كين » مؤلفاً جغرافياً في مجلدين وفيه ما يقضي بالعجب فانه يذكر في موضع من كتابه ان سكان هذه البلاد لا يزيدون عن خمسة ملايين في الاكثر ثم يذكر في موضع آخر انهم يبلغون اثني عشر مليوناً

وبين العددين تفاوت كبير . ولا اتصدى الآن لبيان الداعي الذي دعاه لذكر هذين العددين المختلفين اختلافاً بيّناً من غير ان يظهر في كتابته او في اشارة الى انه فطن الى ما بينهما من التفاوت العظيم ولكني اذكر ما ذكره عن المستر ولفرد بلنط الكاتب والسياسي الايرلندي المشهور وهذا الرجل زار حائلًا مدينة ابن الرشيد وعاصمة بلاد شمر فقال كين عنه انه (اي بلنط) تحقق ان موقع حائل بالنسبة الى جبل اجأ هو غير ما ذكره الجغرافيون واهل العلم بتخطيط البلدان ومع علمه هذا لم يصلح الخطأ مخافة ان ينتفع العثمانيون من اصلاحه فيما اذا عرضت واقعة مهمة في المستقبل تقتضي معرفة موقعها الحقيقي . والظاهر من كتابته انه لم ينكر على بلنط ولا رأى فيما اتاه من اخفاء هذه الحقيقة لهذا الغرض ما يؤاخذ عليه . واقوام هـذه حالتهم وهكذا مقاصدهم ومتجه افكارهم لا نلام فيما اذا كنا نشك في كل ما كتبوه ويكتبونه عن الحكومة العثمانية والبلاد العثمانية حتى عن عدد سكان الاجناس المختلفة فيهـا ولا اظن ان « كين » يختلف عن بلنط من هذا القبيل فانهما انكليزيان وكل انكليزي من غير طبقة الغوغاء يسابق صاحبه في خدمة مقاصد دولته وترويج سياسة الحكومة العليا في الخارج يكـاد يفعل ذلك سليقة وبالبديهة وقائدهم في ذلك صحافتهم الداهية الخلّابة والصخابة عند الاقتضاء

والذي ارجحه في عدد سكان العربية انهم يزيدون عن الاثني عشر مليوناً فان عمان بلاد واسعة خصبة جيدة الهواء قليلة الوبالة واهلهـا يحسنون الزراعة ويشدون شيئاً من الصناعة الخاصة بهم والرائجة عندهم وفوق ذلك هم اهل تجارة واستعمار وقد كان معظم شرقي افريقية لهم بل امتدت سلطتهم وتجارتهم الى قلب الكنغو واواسط جنوبي افريقية وما زالت كل بلاد زنجبار لهم الى ان خالطوا البريطانيين فعمل هؤلاء على التخفيف عنهم من ثقل مسؤليتهم في افريقية ففصلوا هذه اولاً عن مركز السلطة في عمان ثم ما زالوا يخففون من مشاق العمانيين وسلطان زنجبار في تلك الاصقاع ويتحملون هم تلك الاعباء الشاقة عنهم حتى لم يبقوا عليهم شيئاً من التبعة يستحق الذكر فجزاهم الله عن اتعابهم جزاء يستحقونه !

بلاد كبلاد عمان بلاد زراعة وصناعة وتجارة واستعمار وتكاد تكون الا في سواحلها احسن بلاد في الدنيا طيب هواء وجمال مناظر وفوق ذلك لا تقل مساحتها عن خمسة وثمانـين الف ميل مربع اي مضاعف مساحة سورية من رأس خليج

اسكندرون الى العريش ولها بادية ايضاً هي ضعف بادية سورية مساحة على الاقل . بلاد هذه صفتها ما اظن ينقص عدد سكانها عن عدد سكان سورية وفي الراجح عندي انهم لا يقلون عن اربعة ملايين

ومن الغريب ان كين يقدر عدد سكان عمان في كتابه المطبوع سنة ١٨٩٦ بمليون ونصف من النفوس ويقدر عدد سكان شمر والبحرين ونجد بثلاثة ملايين ونصف على ان بولغريف قدر في سنة ١٨٦٢ امارة ابن الرشيد وكل بلاد نجد بدواً وحضراً بمليون وسبعمئة الف نفس وقدر سكان عمان بمليونين ومئتين وثمانين الف نفس على التفصيل الآتي

عدد نفوس امارة ابن الرشيد الحضر

اسم البلاد	عدد القرى	عدد السكان
جبال شمر	٤٠	١٦٢٫٠٠٠
الجوف	١٢	٤٠٫٠٠٠
خيبر	٨	٢٥٫٠٠٠
القصيم العليا	٢٠	٣٥٫٠٠٠
تيماء	٦	١٢٫٠٠٠

عدد البدو

شمر	〃	〃	٨٠٫٠٠٠
الشرارات	〃	〃	٤٠٫٠٠٠
الحويطات	〃	〃	٢٠٫٠٠٠
بنو عطية	〃	〃	٦٫٠٠٠
معاز	〃	〃	٤٫٠٠٠
طيّ	〃	〃	٨٫٠٠٠
وحيدية	〃	〃	٨٫٠٠٠

المجموع بدواً وحضراً اربع مئة واربعون الفاً تقريباً

عدد سكان امارة نجد الوهابيين من الحضر

اسم البلاد	عدد القرى	عدد النفوس
العارض	١٥	١١٠٫٠٠٠
اليمامة	٣٢	١٤٠٫٠٠٠

اسم البلاد	عدد القرى	عدد النفوس
الحريق	١٦	٤٥٫٠٠٠
أَفلاج	١٢	١٢٫٠٠٠
وادي دواسر	٥٠	١٠٠٫٠٠٠
سُلَيّل	١٤	٣٠٫٠٠٠
الوشم	٢٠	٨٠٫٠٠٠
سدير	٢٥	١٤٠٫٠٠٠
القصيم (السفلى)	٦٠	٣٠٠٫٠٠٠
الحسا	٥٠	١٦٠٫٠٠٠
القطيف	٢٢	١٠٠٫٠٠٠
المجموع	٣١٦	١٫٢١٩٫٠٠٠

عدد البدو او الاعراب

اسم القبيلة	عدد الانفس
العجمان	٦٫٠٠٠
بنو هاجر	٤٫٥٠٠
بنو خالد	٣٫٠٠٠
بنو مطير	٦٫٠٠٠
بنو عطيبة	١٢٫٠٠٠
الدواسر	٥٫٠٠٠
السباعة	٣٫٠٠٠
قحطان	٦٫٠٠٠
حرب	١٤٫٠٠٠
عنيزة	٣٫٠٠٠
آل مرة	٤٫٠٠٠
بطون متفرقة	١٠٫٠٠٠
المجموع	٧٦٫٥٠٠
ومجموع البدو والحضر	١٫٢٨٥٫٥٠٠

فاذا اضفنا الى هذا العدد نفوس امارة ابن الرشيد اي اربعمئة واربعين الف نفس كان مجموع عدد السكان في شمر ونجد اي في امارة ابن الرشيد وامارة ابن سعود نحواً من مليون وسبعمئة وخمسة وخمسين الفاً

فلينظر ناظر الى مقدار التفاوت بين تقدير الرجلين والذي اعتقده ايضاً ان بولغريف زاد في عدد امارة ابن الرشيد بعض الزيادة ونقص من عدد ابن السعود لميله الى الاول وكرهه الثاني

واما امارة عمان فارجح ايضاً ان بولغريف قدّر عدد سكانها باقل مما هو حقيقة واعتمد في ذلك على بعضهم ممن كانوا يعرفون مقاصد الحكومة الانكليزية في تلك البلاد او على معرفته هو بالسليقة او بالبداهة . ثم جاء كين بعد ثلاثين سنة من ايام بولغريف وكانت المنازعة على عمان بدأت في شدتها بين الانكليز والفرنساويين فقدر عدد تلك الامارة بما قدره تهزيناً من امرها على الفرنساويين فيما ارجح والا فلا يعقل ان تتراجع هذه البلاد على خصبها واستتباب الامن فيها الى الوراء فيقل سكانها بعد مرور ثلاثين سنة نحواً من سبع مئة الف اي ما يزيد عن خمسة وثلاثين في المئة على حين كان يجب ان يكون العكس اي ان يزيد عدد سكانها في هذه المدة اربعين في المئة عما كان عليه في اقل تقدير

لنرجع الى موضوعنا فنقول : قدر كين ولاية الحجاز بثلاثة ملايين من النفوس وولاية اليمن بمليونين ونصف مليون ولم يجرِ ذكراً لحضرموت ولا لمهرة ولا للقارة بين حضرموت وعمان وكذلك لم يشر ادنى اشارة الى منطقة عدن وما حواليها مما هو داخل تحت نفوذ دولته . وكذلك لم يذكر شيئاً عن بلاد سبا التي عاصمتها مأرب ولا عن الجوف ولا عن نجران ولا ما يحوم حول هذه البلدان او يتبعها تبعاً سياسياً او تجارياً او جواراً .

اما الحجاز ويراد به كل متصرفية عسير فضلًا عن ارض الحرمين فتقديره لا يبعد كثيراً عن الصواب فيما ارى . وكذلك تقديره اليمن فان الداخل منه في ولايتنا العثمانية كما هي ولاية سورية لا يزيد فيما اظن عن المليونين ونصف . الا ان هناك ما هو عثماني الا انه تحت حكم امرائه وشيوخه اليمانيين لا اثر فيه لنفوذ اجنبي وذلك كقبائل حاشد وبكيل وهمدان وخيوان في الجبال التي الى الشمال والشرق من صنعاء والحكم فيه لامام الزيدية ومقره الآن في صعدة على ما ارجح فكل هذا القسم من

اليمن وفيه معظم ممالك حاصور القديمة وصميم الدولة الحميرية ممن عرفوا بالاذواء في آخر عهدهم ويلحق به بلاد مأرب والجوف ونجران لا ينقص عدد اهليه فيما ارجح عن المليون ونصف من السكان وهو غير بعيد فاذا قدرنا سكان حضرموت ومهرة بثلاثة ارباع المليون ويُقدرون عادة بين مئتي الف وثلاثمئة الف في اعلى تقدير واضفنا ذلك الى الاعداد المذكورة سابقاً بلغ سكان العربية نحواً من اربعة عشر مليوناً ونصف مليون من النفوس وان شئت فقل خمسة عشر مليوناً على ما يأتي

اسماء الولايات والامارات	عدد السكان بالملايين على سبيل التقريب
امارتا ابن السعود وابن الرشيد	٣،٠٠٠،٠٠٠
ويتبعهما الحسا والقطيف	٣،٥٠٠،٠٠٠
سلطنة عمان	٤،٠٠٠،٠٠٠
ولاية الحجاز (عسير وارض الحرمين وما جاورها)	٣،٠٠٠،٠٠٠
ولاية اليمن	٢،٥٠٠،٠٠٠
يافع ومأرب والجوف وبلاد حاشد وبكيل ونجران	١،٥٠٠،٠٠٠
حضرموت ومهرة والقرى	٥٠٠،٠٠٠
المجموع	١٤،٥٠٠،٠٠٠

نسبة هذه الولايات والامارات الينا عسكريًا

اما عمان فمنفصلة عنا كل الانفصال لما يحيط بها من بحور الرمال من كل الجهات مما ادّى الى انقطاع طريق الحاج البرية بينهـا وبين مكة منذ مئات من السنين بل الطريق التجارية البرية بينها وبين الحسا والقطيف قلما يسلكها احد الآن ومثل ذلك الطريق الى نجد واليمامة . والقوم لا يحملون حقداً على العثمانيين وكثيرون منهم غير اهل السواحل لم يسمعوا شيئاً مما يفتريه البريطانيون علينا لان هؤلاء القوم (الحملان) يتحرّجون اخلاصاً وتأثماً من التشنيع علينا عند العمانيين في داخلية بلادهم بل لان العمانيين يخافون ما يخافون منهم ولذلك لا يأذنون لهم ان ينسابوا في بلادهم او يجوسوا خلال ديارهم . على انهم اذا مر مارٌ منهم زائراً اكرموه واحسنوا ضيافته كل الاحسان ثم يصرفونه من حيث اتى راجعاً ادراجه

واما في الساحل فالقوم يعلمون عن البريطانيين وعن مقاصدهم اكثر مما يعلمه

العالمون منا نحن . وقد اختبروا امرَّ اختبار ما انتجته مداخلتهم التجارية والسياسية منذ اواسط القرن الماضي الى اليوم من القاء بذور الفتنة ثم تحيزهم الى الفاتنين بما اوجب شق السلطنة وانتزاع كل شرقي افريقية منهم اخيراً . على ان العمانيين يخافون قوة القوم البحرية ويدارونهم غاية المداراة ولكنهم على حذر منهم وتيقظ وذلك مما جعلهم حتى الساعة يستغنون عن مساعداتهم الخيرية ومعاهدهم التهذيبية وشركاتهم التجارية وطرقاتهم الحديدية والفضل في كل ذلك عائد الى اهل الجبال من الداخلية فانهم مستقلون في داخليتهم عن حكومة مسقط استغناء كل ولاية من الولايات المتحدة عن حكومة واشنطون على اقل تقدير

ان بولغريف الانكليزي اليسوعي الشهير استطاع ان ياتي بعض المفاسد في حائل والرياض وكثيراً منها في الحسا والقطيف اما في عمان فلم يستطع شيئاً من ذلك . وقد ذكر عن حسن معاملة القوم للغرباء وكرم اخلاقهم وحسن ضيافتهم ما لو استطاع اخفاءه لاخفاه او قوي على انكاره لانكره ويقول ايضاً ان العمانيين على الساحل يخافون طمع الانكليز ويرقبونهم بعين الحذر واما في الداخلية وضمن جبالهم وهم هناك اهل النجدة والبأس فلا يبالون بالبريطان والى الآن لم يجسر احد منهم على اختراق بلادهم ولو عابر سبيل .

واشد من العمانيين تجنباً للانكليز ولكل اجنبي اهل مهرة وحضرموت ساحلهم وداخليتهم اما في الداخلية فلا وصول للانكليز اليهم بوجه من الوجوه والمطلع على سياحة ثيودور بنت المترجمة الى المقتطف سنة ٩٨ على ما اظن يرى ان هذا الرجل الغني وفي حاشيته الامام بهادور شريف وغيره من المسلمين لاقى من مقاومة السكان ما لاقى مع انه كان معتمداً في سياحته على مساعدة سلطان مكلا وهي اكبر فرضة على ساحل حضرموت ولسلطانها معاملات كثيرة مع الهند وعدن سياسياً وتجارياً . ومع ذلك لم يكد هذا الرجل يطأ داخلية حضرموت حتى اضطر ان يرجع ادراجه على غاية من الخوف والسرعة كما كان نصيب ليوهرش المستشرق النمساوي الشهير من قبله

هذا في حضرموت واما عدن وما حولها حيث منطقة النفوذ الانكليزي فان معظم ما يطمع به حاكم عدن من رؤساء القبائل الذين تنقدهم الحكومة الهندية راتباً معلوماً في كل سنة ان يؤمنوا طريق التجارة فلا يعارضون القادمين الى عدن بمحصولات الداخلية ولا الراجعين منها بالبضائع الانكليزية والهندية لا يطمعون منهم باكثر من

ذلك . واما اهل نجد فقل عنهم اضعاف ما قلناه عن اهل حضرموت وعدن واليمن فانهم يكرهون كل تداخل اجنبي ترى ذلك واضحاً في اجماع خاصتهم وعامتهم على البعد عن دهاة لجنة الخليج الفارسي . ولطالما اجتهدت هذه اللجنة ومركزها في ابو شير في ان تقوي النجديين وتدخلهم في معاهدة او رابطة معها فلم تفلح . وفي سنة ١٨٦٤ على اثر انصراف بولغريف من الرياض خائباً ناقماً على الامير فيصل الوهابي وعلى الوهابيين وكان جاء الرياض متنكرًا على نفقة امبراطور فرنسا ومرّ بحائل ايضاً فعلى اثر انصرافه برغث صدر الكولونيل لوس پلي مدير سياسة الخليج الفارسي فكتب رسالة خاصة الى الامير فيصل يستأذنه في زيارة الى مقره في الرياض فاغفل الامير جوابه فكتب ثانياً يسأل خفارة وادلاّء . ولما طال الوقت ولم يرد جواب الامير عبر الى الكويت ومن هناك ارسل ثالثة يسأل ما كان سأله من الخفارة والادلاء وانتظر عدة اسابيع وبعد ان طال انتظاره وكاد يفرغ صبره ورد عليه جواب الامير باوجز عبارة لا يزيد عن صريح الاذن بقبول زيارته ولكن لا دليل ولا خفراء فسافر هذا الرجل هو وحاشيته في بزّة اهل نجد لم يجسر ان يظهر بزّيه الافرنجي ولما بلغ الرياض انزل في مقصف لابن الامير خارج المدينة ولم يؤذن له بمواجهة الامير فيصل الا في اليوم الثاني وبه تردد مدة ثم بعد ان اقام ثلاثاً لم يرَ له افضل من سرعة الرجوع فزمّ جماله واعتمد دليلاً من قناصة الصُلَيب فقاده هذا في طريق غير مطروق نفذ به شمالي الهفوف . ومما يذكر في هذه الزيارة ان الكولونيل وحاشيته لم يجسروا ان يستعملوا شيئاً من سياحاتهم العلمية الجغرافية في اخذ عرض مكان او طوله او رسم خارطة للطريق الذي مروا فيه او شيئاً آخر مما يحرص عليه اصحاب الرحلات من علماء الاوربيين . ومنذ عهده الى هذا العهد لم يدخل نجداً بريطانيٌّ لا سائحاً ولا جاسوساً فيما نعلم ويعلمه ايضاً جورج هوغرث صاحب الكتاب المشهور المسمى « اختراق البلاد العربية » المطبوع سنة ١٩٠٤

والخلاصة فان اهل نجد هم من ابعد اهل العربية عن الاسترسال الى الانكليز بوجه من الوجوه مهما بلغ من دهاء سياستهم وخلابة مواعيدهم

والشمريون لا ينقصون مثقال ذرة عن اخوانهم النجديين ولا يحتاج الى اطالة الكلام في شأنهم فانهم الآن جنباً الى جنب مع العثمانيين يدفعون في صدر الانكليز لم تؤثر فيهم رقاهم ولا خلبتهم مواعيدهم الغرّارة التي هي كما نعلم ويعلمون

ولا يطعن فيما اوردناه من نفور عرب البادية من دهاة البريطانيين ورجال السياسة وذوي الوعود البرّاقة فيهم ، عصيان امير مكة السابق الشريف حسين عون وما تواتر عنه من انه استهواه الذهب الانكليزي لجوابنا لمن اراد نقض ما بنيناه بمثل هذا القول ان عمل الامير حسين من الاعمال الخارقة للعادة التي لا تنجلي حقيقتها ولاتتضح اسبابها الا بعد خمود نارها وحينذاك يصح للمعترض ان يؤسس ما يقوله على فكرة ثابتة واما وانباء حسين واعوانه غامضة وراء ستار وهو وجمعه يأتون ما يأتونه من خلف اجبال وكهوف تحجب عنا امرهم وتستر سرهم فلا يمكن للمؤرخ الباحث الاعتماد على نبأ غير مسبور الغور ولا واضح الحقيقة

هذا ما اتفق لنا ايراده الآن في البحث عن الاقطار العربية . والايغال في ذكره يعوزنا الى المجلدات . وفوق كل ذي علم عليم

بيروت ج . ض

العلم في المانيا

لم تحرز المانيا التفوق الباهر على الشعوب المتمدنة في فروع العلم والصناعة الا بفضل انتظام جامعاتها وارتقاء كلياتها فهي تتجدد على مرور الزمان وتتطور باطوار العصور والدهور وتراقب الاختراعات والاكتشافات في جامعات اوربا واميركا الكبرى فتناظرها وتنافسها فهي تبعث كل عام في العطلة المدرسية بوفود علمية مؤلفة من فحول العلماء والاساتذة ومعهم فريق من نوابغ التلامذة ونخبة اذكيائهم للطواف في عواصم العالم المتمدن والتفتيش عن نظامات دور العلم والصناعة والمجامع الادبية والفلسفية والطبية والمحافل المالية والاقتصادية وذلك لاقتباس ما يناسب الروح الالمانية فتعود البعثة مزودة باجد الافكار واحدث الاطوار وتطبق حينئذٍ العلم على العمل وعلى هذه الطريقة ترسخ اقدام التجدد في تلك الكليات التي اصبح لها الفضل العظيم في تكوين الوحدة الالمانية وتشييد اركان هذه الامبراطورية الواسعة التي ارهبت العالم بقوتها وصولتها وامتداد سلطانها في قلب القارة الاوربية بعد ان كانت شعوباً متفرقة وامارات متشتتة ومعرضة لاطماع الفاتحين والغزاة من القياصرة والملوك

قال بسمارك في حديث له مع احد المكاتبين الحربيين في حرب السبعين ان المانيا لم تنتصر على فرنسا في ميادين النزال والقتال الا بفضل انتظام ناشئتها ورجاحة عقول شبيبتها التي ادركت المنافع الوطنية من طريق المدرسة وعرفت ان حياة الافتراق والانشقاق لا تفرق كثيرًا عن الموت الحقيقي والانقراض الطبيعي فليست مهارة القواد الالمانيين وكثرة الجيوش وقوة السلاح هي التي نصرت المانيا على عدوتها بل المدرسة الالمانية والعقل المدني هو الذي عقد الوية النصر والفوز على رؤوس الالمانيين فالحروب الحديثة لا تأثير للسلاح والكراع فيها وانما العامل الوحيد للانتصار فيها هو العقل والتربية والنظام ونمو الروح الوطنية وفي الحقيقة ان المانيا لم تكن على جانب كبير من العلم والتمدين يوم اكتسحها نابليون واخضعها لسيادته وجبروته فقد كانت حينئذٍ ميدانًا للفتن والاحن وكان الخصام والنزاع والبغضاء سائدة مستحكمة في قلوب امرائها وملوكها فلما انشئت المدارس في ارجائها وشيدت المدارس في امصارها واقطارها واشرقت شمس العلم والعرفان في البلاد اصبح من الخزي والعار ان يخضع الالمان لاجنبي فاتح فكان من آثار تلك النهضة العلمية نهضة سياسية اثمرت الوحدة الالمانية واعقبها انقلاب عجيب في العلم والصناعة والتجارة والزراعة

للجامعات الالمانية بما تكتشفه وتخترعه فيما ينفع الحضارة والعمران المقام الرفيع بين كليات العالم المدني ولها الامتياز على غيرها من الكليات باتباعها خطة بث الاستقلال الفكري والاعتماد على النفس وحب العمل والتجرد الى ما ينفع الوطن والعنصر وقد فضلها بعض العلماء الباحثين على جامعات الفرنسيس والانكليز والاميركيين من هذه الوجهة، ومما اذاع شهرة الكليات الالمانية وجود دور المساعي والمباحث العلمية التي انشئت كفروع لها يطبق فيها التلميذ النظريات على العمليات بعد نيله الشهادة بالامتحان ففي احدى كليات المانيا نحو خمسين فرعًا لها من دور البحث والتنقيب في المسائل العلمية وهي تشتمل على عدد كبير من المكتبات والمتاحف والمصانع لاجراء التجارب الفنية في الطب والكيمياء والهندسة وعلم طبقات الارض والفلك وغيرها من فروع العلم والصناعة التي توسع مادة الدماغ الالماني وتعده اهلًا للاكتشاف والاختراع

في المانيا اليوم دور خطيرة للمباحث العلمية غير ما تقدم من المصانع الخاصة بالجامعات وهي اوسع نطاقًا واعظم دائرة منها انفق على تجهيزها بالادوات العلمية

وتوفير اسباب البحث والتنقيب فيها مئات الملايين من الماركات فكان لهـا النتائج الحسنة والفوائد الغزيرة في الحرب العامة فقد توفق العاملون فيها وهم من خيرة علماء الالمان الى اختراع اشياء كثيرة افادت السلاح الالماني في ميادين القتال فاكتشفوا مادة كيموية اطلقوا عليها لفظ — بروغليسيرين— فاستعملوها مقام مادة —الغليسرين— الذي كانت تجلبه المانيا من الديار الاجنبية قبل الحرب فانقطع وروده بسبب احتشاد اساطيل الاعداء في البحار وقد انتج هذا الاختراع اثرًا حسناً في اظهار مقام المدنية الالمانية ولما استعمل الاعداء المواد الخانقة في مقاومة الجيش الالماني بعد ان اعيتهم الحيل والمكائد الحربية وفشلت خططهم واختلت نظاماتهم اخترع علماء الالمان الباحثون في تلك المعاهد والمصانع مادة كيموية ابطلت تأثير الغازات الخانقة التي حرمت القوانين الدولية استعمالها رأفة بالعنصر الانساني والجامعة البشرية وعلى اثر امتداد الحرب نفدت بعض المواد الابتدائية في المانيا فاكتشف الكيمويون وعلماء النبات مواداً نابت منابها وقامت مقامها فلم يعد الالمان يد العوز والافتقار الى غيرهم من الشعوب المتحايدة واستغنوا عن سواهم بعقولهم واعمالهم

من حسنات دور الفنون الالمانية اجراء التدريس في دائرة الاستقلال والحريـة لانماء الفكر وتربية العقل ، فالاستاذ في الجامعة غـير مضطر الى توفيق محاضراته وخطبه مع مستوى عقل التلميذ واقتداره فهو قانع ان طلابه مستعدون لقبول مـا يلقيه عليهم من الدروس العالية ومختلف الافكار والآراء . اما التلميذ في الكلية فهو حر مستقل كأستاذه يطلب العلم الذي يراه لائقاً بنفسه ويصبو الى الاستاذ الذي يعتقد فيه النفع والفائدة لعقله ويشتغل بدروسه على مقدار ما تميل اليه الروح والنفس وما يفوته من شوارد خطب استاذه يستطيع ان يجـده في مكتبات الكلية الغاصة بمئات الالوف من المجلدات في علوم مختلفة فان احط جامعة في المانيا لا تخـلو من مكتبة واسعة تسد حاجة التلميذ وتوسع مادة علومه ومعارفه

اما التدريس في المدارس التالية وهي التي تعد الناشئة للدخول الى الجامعـات الكبرى— وتقابلها عندنا المدارس السلطانية — فهو جار على اصول المجانسة فالاستاذ فيها يراعي قاعدة مراقبة التلامذة واطوارهم وطباعهم وقياس عقولهم واقتدارهم فهو يتفنن في تلقين دروسه الطلاب وحثهم على استماعها والميل بعقولهم اليهـا ، والمراد باصول المجانسة في المدارس الالمانية هو التزام الجد والاعتناء في اجراء الامتحانات

سواء في قبول التلامذة الجدد او في الامتحانات السنوية بحيث لا يستطع احد ان يجد فرقاً في العلم والعقل والاقتدار والكفاءة بين تلامذة صف من الصفوف بخلاف مدارسنا التى يجلس على مقاعد صفوفها الذكي الفاضل الى جانب الغبي الخامل وهو ناجم فينا عن مراعاة العواطف والالتماس في الفحص السنوي مما اخل بنظام مدارسنا خللاً بليغاً وللمدارس التالية الالمانية عناية خاصة باطوار التلامذة فهي تنتخب لهم مشاهير الاطباء في الاجسام والعقول لاجراء الكشف الطبي فالتلامذة المصابون بامراض وعلل مختلفة والمبتلون بالخمول والجمود او الحماقة وخفة العقل بطريق الوراثة لا تجوز لهم مخالطة غيرهم في المدرسة بل ينقلون الى مدارس خاصة بهم تتوفر فيها اسباب معالجاتهم ومداواتهم مع اعطائهم قليلاً من العلوم والفنون على ما يناسب اقتدارهم وتكون غالباً تلك المدارس قائمة بين الغابات والاحراج او على ضفاف الانهار حول المروج وغيرها من المواقع الطبيعية

ومما هو جدير باطالة النظر وامعان الفكر قلة المدارس الليلية في المانيا بالنسبة الى ما في بلاد الشعوب الاوربية والاميركية . فالالمانيون لا يقبلون عليها ولا يميلون اليها وهي تكون على الاغلب ملجأ للمنقطعين وابناء السبيل وغيرهم من الفقراء والمتعبين الذين يتعذر عليهم اعاشة نفوسهم مع الاختلاف الى المدرسة وطلب العلم اما الاغنياء والمتوسطون وبعبارة اخرى كل من يستطيع ان يقوم بنفقة ابنه وقريبه في داره فهم يفضلون المدارس النهارية على الليلية ، ومنشأ هذا الميل اعتناؤهم بحياة العائلة وتربيتها فالوالد يرغب من صميم فؤاده ان يكون طفله قريباً من حياة اسرته مشاركاً لها في معائشها كي لا يتطرق الخلل الى تربيته واخلاقه الموروثة عن آبائه واجداده فهو يود ان يشرف دائماً على اطواره وعاداته واخلاقه وتربيته ويرجح ان يمضي ولده سواد الليل في داره وبين اركان عائلته على ان يكون نائياً عنها في مدرسة ليلية

ولا تقل مدارس الاناث في المانيا رقياً وانتظاماً عن مدارس الذكور وقد فاقت المانيا غيرها من امم العالم المتمدن في هذا الشأن وبرزت عليها جميعها فالمرأة الالمانية — حسب شهادة بعض العلماء — اعلى كعباً في العلم وارقى اخلاقاً واشرف نفساً من المرأة في فرنسا وانكلترا واميركا وايطاليا والنمسا فهي خلقت لتربية اطفالها ومشاركة زوجها في اعماله وتخفيف كروبه وخطوبه ولها عناية كبرى في تدبير منزلها لا يسابقها احد في هذا المضمار وهي اقل نفقة من النساء الفرنساويات والاميركيات والانكليزيات

ولا تميل الى البهرجة والفخفخة بل تقنع بالالبسة المتينة البسيطة وتجتهد في اجتناب ما ينافي اطوارها الاجتماعية ويمس تربيتها واخلاقها ، والفضل في ارتقاء المراة الالمانية عائد بالطبع الى انتظام مدارس الاناث واحكام اصول التدريس فيها وهي تنقسم الى ثلاثة فروع او اقسام فالاول هو اعداد الفتيات للدخول الى الجامعات الكبرى والاخصاء في علم من العلوم كالطب والهندسة والفلسفة والتربية والتعليم والاجتماع والآداب والثاني هو اللحوق بـــدور المعلمات لتخريج معلمات من الجنس اللطيف اخصائيات في التربية والتعليم وادارة المعاهد العلمية والثالث من اهم فروع مدارس الاناث هو المدارس الخاصة بالنساء الراغبات في علم تدبير المنزل وتأليف الاسر وانشاء العائلات ويشترط على اللاحقات بهذا الفرع ان يكنّ من حاملات شهادة البكالوريا وقد اصبح لهذه المدارس اثر خالد في ارتقاء الحياة الاجتماعية والانتظام السائد في المدارس الالمانية فهي تنشئ الفتيات على اساليب علمية واصول راقية بحيث تكون الخريجة منها صالحة لادارة منزلها وتربية اطفالها ومعاشرة زوجها فالمرأة هي الحاكمة والاميرة المطلقة في دارها فاذا لم تكن عالمة بشؤون الاقتصـاد واصول التربية والاخلاق والمعاشرة تصبح وباء على اسرتها وزوجها فشقاء الامة بشقاء المرأة وسعادتها قائمة بتربيتها وتعليمها .

وبالاجمال فان المانيا لم تهمل فرعاً من الفروع العلمية سواء في التربية والعلم والاخلاق والصناعة والتجارة والاقتصاد وجميع الماديات والمعنويات الا وادخلته الى كلياتها ومدارسها التي لم تألُ جهداً في انماء الروح الوطنية في قلوب الناشئة اذ تنتخب لهذا الامر الخطير اساليب بديعة وطرائق متنوعة بحيث يخرج التلميذ على جانب من العلم والفضل مع الوطنية الصحيحة والمبادئ العالية فيكون المانياً صادقاً يميل لهو افكاره وطبائعه لا يحب غير المانيا ولا يميل الى غير وطنه وعنصره ، ورجلاً مستقلاً بنفسه مستعداً لركوب الاخطار والمهالك في كسب الرزق وانماء الثروة وهذا هو الذي رفع شأن المانيا بين الممالك والاقوام فاصبح لها المقام الرفيع في عالم الحرب والسياســة والاقتصاد ، وفي حياة الشعب الالماني وما تقلب عليه من حوادث العسر واليسر والتشتت والاجتماع والانحطاط والارتقاء عظـات بليغة ودروس نافعة للامم الخاملة والشعوب الجاهلة .

ابراهيم حلمي العمر

شعر الرحلتين

تداولت ايدي المطالعين في الشهر الاخير كتابين شغلا جانباً عظيماً من ساعات فراغهم وحلا محلاً حسناً من قلوبهم واكثرت الصحف من ذكرهما والحث على اقتنائهما حتى شعر بنفسه بالتوق اليهما كل من لم يكتب لـه العثور عليهما وليس في امرهما مجال لغرابة فان كتابين احدهما يضم بين دفتيه ما اتفق لادباء الشام وفلسطين من الشعر والخطب في استقبال احد عظماء الدولة وكبار رجالها انور باشا والثاني يستوعب انباء رحلة وفد علمي سيّر بامر القائد الكبير احمد جمال باشا من ربوع الشام الى عاصمة خلافة الاسلام ، لهما كتابان جديران بما لقياه من اقبال القراء والباحثين حقيقان بان يكون لهما الوقع الحسن والتأثير الادبي لدى عامة افرادالامة اديبهاوعالمها واخصائيها وجغرافيها وسائر طبقاتها من مؤرخ يحفظ بهما حديث رحلتين أفردلهما مكان رحيب في صدر التاريخ ، وشاعر تتمثل له فيهما صورة مجسمة عما بلغ اليه الشعر في دور صولة السيف وجفاف اليراع ، وكاتب يلذه ما حوياه من ضروب التفنن في الانشاء ، وخطيب يروقه سماع ما فاه به خطباء قطره في المواقف المختلفة فهو يصفق للمجيد ويتحسر على البليد ، وهكذا فلكل مفكر في خلال الرحلتين نظرة يلمحهما بها وكلمة يقولها بهما ، اما أنا فمن اولئك الذين استهوى حب الاجادة في المنظوم افئدتهم واستولى الولوع بالشعر على قلوبهم فان اردت الكلام فنكتة ادبية امليها او ملاحظة شعرية ارويهــا تاركاً ما عــدا ذلك من مباحث الكتابين الى المشتغلين بــه وها انا ذا اشرع ببيان ما عثرت عليه فيهما من الحسن الجيّد او المنتقد الذي لم اجد بدًا من اظهار ما خالج الضمير من البوح به على انني لا ابخس الناس اشياءهم ومعاذالله ان افعل وفي شعراء الرحلتين عدد من ائمة الادب وجهابذته وذوي المكانة الرفيعة والمنزلة السامقة من ناظمي قلائده وناثري فرائده قد يحرجهم الموقف ويضطرهم الحث على الاسراع الى تجاوز بعض الحدود في التراكيب والقواعد او التصور والخيال ولا اراهم بملومين اللهم ولا اراني ملوماً اذا اشرت الى الشيء اليسير من هذا النوع خدمة للادب واللغة والعاملين على الرفع من شأنها ..

اول ما يبدهك من الشعر في « الرحلة الانورية » قصيدة غراء اعجبني منها قول ناظمها (ص ٣١) :

فليعلم القوم الذين تجبروا   أنا القضاء على الذين تجبروا

واما القساطل في قوله (ص ٣٢) :

والنيل قد مدت اليه قساطل   وجرى امام الفاتحين الكوثر

يعني الاوعية التي يجري فيها الماء من الحديد او غيره فلا احسبه مما عرفته اللغة فكان ينبغي الاشارة الى انه من محدثات المتأخرين وانما القسطل الغبار .. ولا سبيل الى منع صرف السبع الا بتكلف في قوله :

وببئر سبع جرى الحديد كأنما   بخطوطه للنصر نكتب اسطر

والقصيدة الثانية في الكتاب تعد من غرره ودرره اليك منها (ص ٣٣) :

يوم يتيه به الزمان ويفخرُ   متألق بالبشر الملج ازهرُ
مشت الكتائب فيه يتبع بعضها   بعضاً تخب بها العتاق الضمَّرُ
والبيض في ايدي الكماة لوامع   كالبرق تخفى في العجاج وتظهرُ
ومواكب في اثرهنّ مواكب   من فوقهـا خفق اللواء الاحمرُ
هتفت فرددت البلاد هتافها   لما بدا سيف الخلافة انورُ
بطل له في الخافقين كليهما   تاريخ مجد بالسيوف مسطر

وما كان لينبغي لصاحب هذه القصيدة ان يمنع من الصرف اسم علم الجمال في قوله (ص ٣٦) :

وجمال منه لديك خير معاضد   في بأسه ذكرى لمن يتذكر

ومن المطالع الجميلة في الكتاب ما ورد (ص ٤٠) :

زها الشرق لما لاح انورنا الفردُ   فمن وفده نور ومن وجهه سعدُ

وفي هذه القصيدة ابيات منتخبات وكان يحسن بصاحبها ان يبتعد عن لغة الاشغال الرديئة في قوله (ص ٢٤٢) :

وحرب ضروس اشغلت حركاتها   ممالك اوروبا وضاع بها الودُّ

وعن تعدية اغار باللام في قوله :

اغار العدى للدردنيل ومادروا   بان بجوف الدردنيل هو اللحد

وله ان يقول : « في الدردنيل » . وفي الشطر الثاني ركة ظاهرة تشفع بها

اجادته بعد ابيات بقوله :

فآبوا لسدّ البحر يبغون منفذاً فعادوا وقتلاهم وراءهم سدُّ

وراقني من المطالع قول الآخر (ص ٤٤) :

ملك الجمال اطلت فيك تحيّري فاذا عجزت عن امتداحك فاعذر

وقول غيره (ص ٤٩) :

يا امة لبني عثمان تنتسبُ لانتِ في عزة تحنى لها الركَب

ولم ار من يجمع الخطب على خُطُب وقد جاء في قوله (ص ٥٠) :

او من يضاهي جمالاً في حماسته فرداً به تتقي الازمات والخطُبُ

وفي هذه القصيدة ابيات عامرات يعجبني منها قوله (ص ٥١) :

هلا ذكرنا حبال الدردنيل قوى من الحديد بها الامواج تضطربُ

تضيق منها فجاج البحر عابسة تسعى الى الموت في انيابها العطب

تبغي اقتحام عرين الاسد معلنة أن الاعادي على تذليلنا اعتصبوا

فقابلتهـا غداة الروع صابرة صبرَ الكرام اسود هزها الغضبُ

الى ان يقول :

ردوا الاساطيل تهوي في مذلتها يقودها للنجاة الخوف والهرب

واكثر النحاة على كراهية ادخال «أل» على «كل» وان اجازهـا فريق منهم جاءت في قول آخر (ص ٦٥) :

وعلى العراق بدت طلائع فوزنا والكل اضحى بالمنى مستبشرا

وما ارشق قوله بعده :

فوز بـه طاف السرور بطيبة وتهللت فرحاً بـه ام القرى

ومن عيوب الشعر الشائعة في هـذه البلاد الاختلاس وهو زيادة حرف على الوزن يسرق في الانشاد كقول الثاني (ص ٦٧) :

لاسيافخري باشا من به افتخرت بين البريـة ابرار وأحرارُ

وما احسن قول الآخر من قصيدة يخاطب رجلي الدولة الكويتين (ص ١٢٦) :

منكما هزت الشريعة سيفاً صقلته من السماء يدانِ

سيف حق يسيل ناراً ونوراً ما عهدنا الضدين يجتمعانِ

وفي قول الآخر إشباع معيب (ص ١٣١) :

ولم تكتف منها بره حياتها وما فقدته من مفاخرها الغر
وفي البيت الآتي قطع همزة الوصل مما لا يجوز للشاعر المجيد وان تسامح بــه العروضيون

لك إسم اصوغ منه بمدحي عقد در من الثناء مجوهر ..

ولا ارى مثل هذا الاكتفــاء من البديع وان عدوه في البديع في قول القــائل (ص ١٣٧) ولا تنسَ «الكلّ» :

يتمرنون على القتــال يديرهم عرفاؤهم والكل في طرب وفي

وكأنه هان على ناظم هذه القلادة فقال بعد اربعة ابيات :

يا رب فانصره وأيد عرشه فيدوم في ظفر وفي عز وفي

ولعله اراد في الثانية معنى الوفاء فكان عليه ان يقول : وفيّ بالتشديد ولا يخلو من ضعف في معناه .. وأين الادب مع الله في نهيه اياه عن التأفف بقوله :

فلأنت موئلنا ومنك غياثنا واليك مرجعنا ، فلا تتأفف (!)

فهل يخاطب غير السوقة بهذا القول .. واستعاض الآخر عن المهيب بالمهاب وهو مما انتقده الباحثون قال (ص ١٤٠) :

سلام على جند ابن عثمان انه لجند مهاب لم يرعه التكاثر

وما ادري ما دفع الشاعر الآخر الى وصف القائد المقدام بلقب الشهم وهو مما ابتذلته الطبقات المنحطة واصبح ينعت به الكثيرون من العامة ، قــال يخاطب انور باشا (ص ١٤٥) :

كذاك اخوك الشهم (؟) احمد عصرنا (؟)

جمــال لدى الهيجاء ليث غضنفر ..

وكان الأجدر بهذا الشاعر أن يتفطن لما فطن له الشاعر الاندلسي محمد بن القوزراني (المترجم في بغية المتلمس) بقوله :

ظلمناك ان قلنا الاجلُّ ولم نقل هو الواحد المفضال والاوحد البرُّ

وشاعرنا القائل في قصيدته (ص ١٤٤) :

فيا فارس الاسلام في كل معرك ويا منْ عزمه قد ذل كسرى وقيصرُ

اراد : ويا منَ مِن عزمه الخ واما كسرى فلا اعلم ما جاء به اليوم؟ .. وهو القائل بعد ابيات :

وكن لجمال العصر عوناً معضداً ولا سيا في فتح مصر مبشر ..

اراد : مبشراً فغلبته القافية .. ويخطئ الكثيرون بوضع إذ مكان إن كقول الآخر (ص ١٤٧) :

سل عن بسالتـه وشدة بأسه اذ كنت تجهل سر انور في الورى

اراد : ان كنت .. وعجيب من الآخر تشبيهه انور باشا بابن مقلة وحسان قال (ص ١٤٨) :

اين ابن مقلة اين حسان اذا خطت يداه من البلاغة اسطرا

وابن مقلة خطاط وحسان شاعر فاين شاعرنا من تشبيه القائـد الكبير بالفاتحين المغاوير كابن الخطاب والخراساني والفاتح وابن الوليد وامثال هؤلاء .. ولم اجد «الظميئة» فيما بين يديّ من كتب اللغة والادب قال آخر (ص ١٧٧) :

وكيف تطيب النفس عن ورد فضله وموردهـا وهي الظميئة كوثرُ

وفي القاموس : ظمئ كفرح وهي ظمآنة . وفي الصحاح : وبابه طرب وهي ظمأى . ومثله في لسان العرب واساس البلاغة . وفي التاج : قال شيخنا : وظمئة كفرحة زاده ابن مالك وهي متروكة عند الاكثر . فاين الظميئة .. ولعله اراد تصغير ظمئة وهو ركيك وفي هذه القصيدة مفردات تمتاز بالجودة ومتانة السبك كقوله (ص ١٧٧) :

وجاهدتَ حتى عاد للدين عزه وباء عدوُّ الله بالخـزي يعثرُ

برزت اليـه والاسنة شرَّع وخطب الرزايا (؟) للمنايا مشمرُ

فأوقع فيه سيفك العضب محنةً ستذكر حتى يحشر الناس محشرُ

وهناك تجوّز ضعيف ارتكبه الثاني بقوله (ص ١٨٠) :

اهلاً باكرم معشر حيّوا فاحيُوا الاربعا

يريد فاحيَوا ، بفتح الياء ، فلم يسعفه الوزن . وفي هذه الابيات بيت يذكر في الفرائد وهو :

النصر من أنصاره يسعى له أنى سعى

واخطأ صاحب هذه الابيات في قطعة ثانية قال فيها (ص ١٨١) :

قمر السعادة انور والبدر أحمدنا المجد

والفرقد الوضاء عزمي داموا بتوفيق مخلد

فالبيت الثاني غير مستقيم .. ومن بديع ما في الكتاب قصيدة جاء فيها (ص ٢٣٠) :

جيش تألف والاسلام رايتـه من خيرة العنصرين الترك والعربِ

سارت بجحفله الاقدار تقدمها ملائك الله فوق الخيل والنجبِ
تسربلت بدروع الوحي واعتقلت من نبعة النور أطراف القنا السُلُبِ

وبعد ابيات وصف بها جنود الاعداء (ص ٢٣١) :

قالت : سأرحل عن مصر وما رحلت قالت : اثوب الى عدل ولم تثُب

وفي ابتداء القصيدة (ص ٢٢٩) :

مذ قيل انور روح الشعب في حلبٍ قد ماجت القدس من صفو ومن طربِ

ولو قال : ماجت له القدس ، لكان ارشق

ترى النفوس على طول القطار له من شدة الشوق ملقاة على القُضب
بها انتظارًا الى ميمون طلعته ما بالقطار من التضرام واللهب

ولو قال : بهنَّ شوقاً ، لكان احسن من الانتظار . . وما دريت الفرق بين النجب والنجب في قول الآخر (ص ٢٣٧) :

لله انوره المقدام من شهدت بجزمه الخلق من نجب ومن نجب

وقال آخر (ص ٢٧٢) :

لا غرو ان أمَّ هذا القبر مبتهلاً يستمنح النصر حتى يأته (؟) الظفرُ

يريد : حتى يأتيَ الظفر . وهو القائل (ص ٢٧٤) :

هذا الوزير الذي جلت مآثره أن يحصها العد أو أن تحوها الفكرُ

يريد أن يحصيها وان تحويها . ومن احاسن هذه القصيدة :

هشت لمقدمك المحبوب تربتها كانما انت في احيائها مطرُ
اذكرتها زمن الصديق منحقب او يوم يحكم في ارجائها عمرُ

اراد : يوم كان يحكم . واحسن منه : او يوم حُكّم .

يسعى وغايته الاخلاص مجتهداً ودأبه الجد والتفكير والسهَر

والافضل لو قال : وغايته العلياء او ما بمعناه واما الاخلاص فعنوانه وقائده ومسيّره . .

تلك المزايا التي خص الاله بها قوماًهم الناس ان عُدوا وان ذكروا

واستعمل الآخر حيث للتعليل ولم تعرفه العرب بل هو من مستحدثات المولدين قال (ص ٢٧٩) :

ياحمص تيهي حيث زارك انور رده الخليفة سيفه البتار

وهو القائل :

عم البسيطة والبرية عدله   فالخلق شخص والبسيطة دار

والشطر الثاني مما لا يتحصل منه معنى . وقال :

ياواحد الدنيا الذي بشبيهكم   عقم الزمان وضنت الادوار

اراد : بشبيهه . وهو ادرى بالادوار ! . وعجبت من قوله :

ايدت دين الهاشمي فلم يضع   لبني الشريعة عند سيفك ثارُ

فكأنه يقول . ان بني الشريعة (يريد المسلمين) قد ادركوا ما لهم عند سيفك من الثأر القديم ، وفيه ما ترى ! وهو يقصد « عند وجود سيفك »

واعجبني من قصيدة اخرى قول منشئها (ص ٢٨٦) :

لك المنزل المعمور فينا وانما   غدا في قلوب المؤمنين يُعمَّرُ

نظمت من الاسلام اسنى قلادة   وكادت وايم الحق لولاك تنثرُ

وما ابدع قوله بعده :

وكيف ترى الايام محو سطوره   وفي كل صدر مؤمن منه اسطرُ

ثم يقول :

ومُدَّ على الاسلام منه سرادق   يصان بها دين الحنفي وينصرُ

والسرادق مفرد مذكر فحقه ان يقول : يصان به . والحنيف الصحيح الميل الى الاسلام الثابت عليه . والاولى ان يقال : دين الحنيف كما قال لسان الدين بن الخطيب : يا ناصر الدين الحنيف وأهله . . البيت . . ثم قال وخطأه النحوي ظاهر (ص ٢٨٨) :

وعما قريب يحبط الله سعيهم   وتربح مصراً اوالعراق ويخسروا (؟)

ومن جيدها :

ايا واحداً صحت جموع صفاته   واعداؤه جمع ولكن مكسَّرُ !

وفي القسم الاخير من الكتاب قصيدة هي من خير ما فيه مطلعها (ص ٢٨٩) :

كسعيكما فليسعَ مَن يطلب المجدا   فمن حاد عن نهجيكما اخطأ القصدا

اعزماً الى حزم ورأياً الى هدىً   لقد جزتما من طاقة البشر الحدَّا

الى ان يقول :

أأنور لا ننسى مواقفك التي   تُشيب على اهوالها الاسد الوردا

مواقف اعشى كلَّ رأي ظلامها   فكنت برأي الفرد نورها الفردا

والكهرباء والصحيح من علمي الطبيعة والكيمياء وجاء علم الانسان وعلم الحياة وجاء قول كانت ولابلاس في تكون الكون وقول لافزيه في بقاء المادة وقول روبرت مايو في استمرار القوة ورأي لامرك ودروين وولس في امر التحول والنشوء والانتخاب الطبيعي وقول كوبرنيك من قبل في مركز الارض وقول ليل في طبقاتها فاضاءت هذه الاقوال من امور الوجود ما كان مظلماً وايقظت من كان نائماً وداوت من العقول ما كان مريضاً وجاء رونتجن وجاءت اشعته وجاء المجهر والمرقب فلمحنا الجن وناغينا الكوكب وجاء اديسون وجاءت عجائبه وجاء الاستاذ ارنست هيكل الذي ادرك ما لم يدرك وعلم ما لم يعلم والذي نشر مذهب النشوء في المانيا وصارع خصومه فصرعهم والذي قال بالوحدة وكان رسول هذه النحلة الى الناس وجاءت مباحث هذا البحر القذاف بجواهر الحكم التي ربط بها الحلقات وحل المعضلات وهتك الاستار عن الاسرار وكاد يطلعنا على الغيب فلو كشف الغطاء ما ازددنا يقيناً وجاءت علوم ومذاهب وآراء لا يحصيها الاحصاء ولا يستقصيها الاستقصاء ومشت جماعة الفكر مع شيمة الاختبار والتحقيق وآخى النظر البحث فآنس الانسان من الآيات العلمية ما لم يؤنسه قدماً ورأى بعين يقظان ما لم يحلم به انسان وجاء العيان بما يجل به السماع فطلع الاقليم الافرنجي بذلك مجلياً في ميدان الحياة وسابقاً في حلبة العلم ومغبراً في وجه كل اقليم وتبذخ قطينه بما ابدعه وحق له ان يتبذخ وصغرت في عينيه الدنيا واحر بها ان تصغر وطمع في سكنى النجوم ولا نستبدع ظفره بمتمناه وقد ارانا منه ما رأيناه

لا اروم الآن ان ابين في ما تلوت مزايا الغرب الدثرة الكثيرة وخصائصه الجمة الاثيرة فان ذلك يحتاج الى حين ممتد وصحائف من الكاغد لا تعد وما ذكرت ما ذكرت الا لانبيء بان العلم قد عدن في الاقليم الافرنجي ورئم ولم يتزعج عنه ولم يرم فمن نعاه فليول وجهه شطر المغرب وليتناوله من معدنه او مما ينجم من معدنه ولا يتفائل ويستنكف من اخذه عن الافرنج فان ذلك لا يقبحه ولا يعيبه عند احد من الناس كما لم يضع من الافرنج انهم تلمذوا للعرب واليونان ورضوا بحكمائهم ائمة يأتمون بهم ويعشون الى ضوئهم ومرشدين يسترشدون برشدهم ولكن الذي يقلقل من مكانة الشرقي ويضحك منه خصمه وخليله ان يجد المنهل العذب وهو ملتهب الكبد فلا يرد ويتنور مقتبس الانوار وقد دجا ليله واحلولك فلا يقتبس ٠٠١٠هـ ×

مطبوعات ومخطوطات

كلمة موجزة

في سير العلم وسيرتنا معه لاسعاف افندي النشاشيبي

هي كراسة كان حاضر بها صاحبهـا بعض فضلاء القدس وطبعها على حدة في مطبعة دار الايتام السورية ألمَّ فيها بتاريخ العلم في العالم وذكر ما كان لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم من الاثر الذي تغيرت به الارض وبعد ان ذكر ما كان لائمة العلم في الاسلام من الآثار الخالدة قال ما ننقله انموذجاً من انشائه العذب ايضاً : « والعلم الحق ان يلقاه في هذا العصر ناشده ولن يجده رائده الا في الاقليم الافرنجي فان اهل هذا الاقليم قد هجروا الكرى منذ قرون والمشارقة هاجدون وانشأوا يفكرون ويحققون ويقتبسون من فطنة كل علم ومئنة كل ادب ما يقدرون على اقتباسه ويقاومون كل من ثناهم عن معرفة او قدعهم عن طلب حكمة ولم يقعدهم عن مواصلة السير في نشدان الخير امير قاهر او كردينال جائر او ديوان تفتيشي او منشور باباوي او نار ظلم موقدة او اخدود ذو جاحم مستعر يقذف فيه كل من تفكر واعتبر وبحث ونظر وابى ان يسم نفسه بسمة الجاهلين ولم يبرح القوم مشيحين دائبين ومشمرين منكمشين حتى جاءت هذه العصور المتأخرة فجاء الحق وزهق الباطل وجاء باكون رب الطريقة الاختبارية في الفلسفة ونيوتن الذي هدى العلماء بجاذبيته الى ما هداهم اليه وعبَّد لهم من الطرق ما عبَّد وديكارت الذي شاد في العلم اصولاً وهدم اصولاً وسبينوزه الذي كسا مقالة وحدة الوجود رداء علمياً قشيباً وليبنز العالم الفيلسوف الكبير صاحب فلسفة التفاؤل وكانت الذي سلك في الفلسفة طريقاً عذراء وقال بالآداب ما لم يقل به سواه وغوت النابغة في الشعر والعلم الذي شهد له سبنسر باحتياز هاتين الفضيلتين والتحلي بالمنقبتين وكونت صاحب الفلسفة الثبوتية والشريعة الانسانية وشوبنهور الفيلسوف المدهش وصاحب فلسفة التشاؤم وجان مولر واضع علم منافع الاعضاء ومبدعه وسبنسر البحاثة الاجتماعي وواضع فلسفة النشوء والمنعوت عقله بجبار العقول ودروين صاحب المذهب الذي ورد على كل ناد وولج كل بيت وشرّق وغرّب وعرّف الانسان مكانه وجاء البخار

434

ومن الدمآء لبانهم والمرهفات لهم ضروع
اغرى العداوة بينهم ان ليس بينهم قنوع
واضلهم طرق الهدايـة والنهى الحسد الشنيع
واذا بـدا طمعٌ يهيب بهم له برق خدوع
حسدوا النجوم مكانها ومكانها عنهم رفيع
ولكم وراها من (منا طيد) جرى لهم تبيع
دفعت وليس لها سوى غاز يخفرهـا دفوع
فكأنهـا راعٍ ومـا غير النجوم لهـا قطيع
تعصي الرياح عواصفاً ولتزر غازهم تطيع
فكأنهـا سفنٌ وما غير الرياح لهـا قلوع
وكأنما هي طـائرٌ وجناحه البرق اللموع
او مثقلات حملهـا ا — لاهوال والقتل الذريع
ان راق منظرها العيو — ن فان مخبرها فظيع
هي للردى سببٌ وكم في وصله سبب قطيع

النبطية سليمان ظاهر

فقرأت اسطره وما غير الدراري لي شموع
كم قد تردى بردةً من نسج ظلمته جزوع
واذا نضى عنه هزيعاً لفه منه هزيع
يشكو الولوع لنجمه من قد اضرَّ به الولوع
ما الهم الا طائرٌ وله بداجيه وقوعُ
والنجم قلبٌ فيه يخفق ليس تحضنه ضلوعُ
يشكو كما اشكو جوىً ويذيع منه ما اذيع
وخفوقه عن وجده والدمع عن وجدي مذيع
والفكر يدنيه وان ينأ به الامد الشسوع
ناجيته لو كان لي منه على النجوى سميع

ألرهبة ابعدت عن ارض تقلبها سريع
ترنو الى ابنائها شزرًا وكلهم مروع
وهم ضرائب للقوا ضب والرماح لهم شروع
احرارهم ما انفك فيها يسترقهم الخضوع
الفوا الحمامَ كأنما هو طائر لهم سجوع
وفشا الخداع بهم فما يلفى بهم الا الخدوع
درسوا الفنون وانما لهم الفنون فناً مريع
مرعى الفضيلة مجدبٌ والنقص مرعاه مريع
لهم البدائع في الزما ن وكل صنعهم بديع
لولا التجاذب بينكم ما كان منك لهم طلوع
الجهل فرّقهم فهم شتى وجهلهم جميع
قطعوا به ارحامهم ولكم به رحمٌ قطيع
رهج الكفاح لبوسهم ودخانه لهم دروع
وصدا الدروع عبيرهم ومن النجيع لهم ردوع
يتجرعون بدهرهم غصصاً هي السم النقيع

رزايا الحروب ومزايا البشر

ونتائج الفنون

عفت الربوع فلا ربوع   وخلا الجميع فلا جميعُ
اين الغواني بالمغاني   لا يروعها مريعُ
الساحبات مطارفاً   عنها الشذا الداري يضوعُ
المالكات وما لها   الا الابا التاج الرفيعُ
والمرسلات لواحظاً   كم بين اسهمها صريعُ
في شعرها عبس الدجى   وبثغرها ضحك الصديعُ
فبدت وما طويت على   غير الجوى منها الضلوعُ
ما ان لها الا الصدى   ان تدع معشرها سميعُ
تستنجد العبرات اذ   لا منجدٌ الا الدموعُ
صدعوا لها شملاً به   لفؤآدها منه صدوعُ
بالراح تدفع وثبةً   ليست تفلّ لها جموعُ
وتخال ان زفيرها   لعدآء اعداها دموعُ
ترنو لمبغوم واحشا   ها يقطّعها النزوعُ
لم يدر ما معنى الحيا   ة وكيف يفهمها رضيعُ
ويكاد يسلم نفسه   للحتف والده الجزوعُ
فله مدامعه تذا   ل جوىً وللحرب النجيعُ
وفؤاده كلوائه الخفاق خفاق مروع
تدعو الوغى فيجيبها   ويجيب اذ تدعو الربوعُ

ولرُبَّ ليل لم يزر   طرفي بجنحيه هجوعُ
قلبت صفحة افقه   ولكم به مرأىً بديع

ومن الطراز الاول في الكتاب قصيدة في مديح احمدجمال باشا جاء فيها (ص٢٨٦):

تبيت رعاياه بعين قريرة ويقضي سواد الليل يقظانَ ساهدا
ومن طلب العلياء والمجد لم يكن اذا رقد الغرّ المفرّط راقدا
فلو أن مجد المرء اخلد ربه بقيت على الايام في الدهر خالدا

ومنها في وصف الاعداء:

اقاموا على شط «القنال» معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصائدا
ويذهل فيهم والدعن وليده ويخطىء وجهَ الرشد من كان راشدا

الى ان يقول في خطاب الممدوح (ص ٢٨٨):

ومن نيط يوماً في علاك رجاؤه تناول بالكف المجرة قاعدا

وفي القصيدة بيت يقول فيه (ص ٢٨٦):

رمى الله منك الانكليز بصارم صقيل يقد الهند واني غامدا

يريد: مغمداً او مغموداً ولعله ألحقه بباب عيشة راضية ولم يسمع في هذا الفعل.

واخالني قد اطلت على القراء ولو اردت البحث في كل ما وقع عليه النظر من مليح وقبيح لملأت الصحائف الكثيرة وحسب الواقف على هذين المؤلفين ان تجتمع له آثار فريق كبير من شعراء هذا العصر كامين بك ناصر الدين والسيد حبيب العبيدي وشبلي بك ملاط والشيخ مصطفى الغلاييني والشيخ علي الريماوي والسيد بدر الدين النعساني والشيخ عبد الكريم عويضة والشيخ سليم اليعقوبي وغيرهم من رجال الشعر والادب. وفيها عدد من القصائد التركية وخطب ومحاضرات مفيدة منها للخطيب الكبير الشيخ اسعد الشقيري رئيس الوفد ومنها لمصنفها المفضال ولغيره من الصحافيين والادباء والفضلاء. وبالجملة فالكتابان روضتا شعر وأدب يحسن بالمتأدب اجتناء ثمارهما كما يحسن بي ان اتقدم بالشكر لمؤلفهما الاستاذ صاحب هذه المجلة الزهراء الذي وقف حياته على خدمة العلم والاجتماع والتاريخ والادب ولا أنسى الاشارة الى انني لم اكن انظر في هذا النقد الى الاسماء والالقاب فاثني واطري وانتقد وانتقم شأن بعض المتصدين لمثل هذه الابحاث بل نظرت الى الشعر دون الشاعر والقول دون القائل ولعلها تسلم لي الاصابة في جل ما ذهبت اليه خدمةً لهذه اللغة وآدابها والله المستعان في كل آن

دمشق احد القراء

436

وهو القائل قبلهما يخاطب رجال فروق (ص ٢١٠):

فكنتم نجاد الملك والعرب سيفه　　وكنتم يمين الملك والعرب اليسرى
وكان على بعد البلادين بينكم　　هدى الدين سلك الكهرباءة والمجرى

وما احسن استدراكه في قوله (ص ٢٠٨):

سلام على الدستور حلواً مذاقه　　وان كان بعض الناس قد ذاقه مرّاً!

وجل ابياتها من الغرر لولا المسألة الاخرى في قوله (ص ٢١٠):

اما انتم بالحزم كنتم رجالها　　وقد كنتم اعلى بمسألة اخرى (؟)

وادخال ال على غير قبيح وان جوّزه بعض الباحثين، قال آخر يمدح الاستانة (ص ٢٢٠):

لئن طال مدح الغير فيها تكلفاً　　فان قصور المدح بالشعر أجمل...

وفي عجز البيت ما فيه .. ولم ادر ما الترجم في قوله (ص ٢٢١):

ويطرف طرف مُد بالسوء نحوها　　وعقل رماها بالترجم يُعقل

وفي البيت الآتي خرق لا يرتق:

وان رام يوماً شاعر وصف ما حوت　　ولو أنه الضليل راح مضلل ...

يريد: راح مضللا، ولكن القافية لم تعنه. واعجبني من هذه القصيدة قوله (ص ٢٢٢):

ورب امريء في حبهم عاد عاذراً　　وقد كان لي بالامس يلحى ويعذل

ومن خيرة قصائد الكتاب قول الشاعر يخاطب دولة احمد جمال باشا بعد عودة الوفد من عاصمة الملك (ص ٢٦٠):

سرى وفدك الغازي ومثلك يوفدُ　　وعاد بملء البشر والعود أحمدُ
سرى منك مضمون النجاح مسيرهُ　　وطالعه يا كوكب السعد «أسعد»

يعني رئيس الوفد الاستاذ الشقيري

سرى لمقر الملك والدين قاصداً　　كما يقصد البيتَ العتيق الموحدُ

وما ارق قوله يصف زيارتهم لدار الحرب (ص ٢٦٣):

فكدنا نضم الرمح قدّاً مهفهفاً　　ونلثم خد السيف وهو موردّ

وحرّف المثل الذي هو «اعقد من ذنب الضب» بقوله (ص ٢٦٤):

اذا ادبروا فالخزيُ او أقبلوا الردى　　فموقعهم من ملمس الضب أعقد

فهل لك نفس غير نفسك هذه   فأرخصتَ فيها اليوم اذ نشتري الحمدا
فاي يد تحصى اياديك جمة   لقد ضل من احصى النجوم ومن عدّا
رأيتك في اجيال برقة قائماً   يزين لك الاقدامَ خطب بها اشتدا
جمت قلوباً فرّق الجهل بينها   وانفت منها في مجاهلها جندا

ثم قال :

ولو كنت يوماً بالتناسخ قائلًا   لقلت ابن سرح في صحابته رُدّا

هذا بعض ما اردت ايراده من شعر الرحلة الانورية واما كتاب «البعثة العلمية» فالشعر فيه اقل من النثر على كثرة ما فيه من المنتقد قال احد شعرائه (ص ١٩٥) :

شرف التمثل بين ايدي اعاظم   يبنى عليه تراحم الادباء

فلا اعلم ما يصنع بياء ايدي المختلسة وهو يمر عليها عند تلاوة البيت مرور الكرام !

يا موسى يا مفتي الانام وشيخهم   يا مرجع الاحبار والعلماء

وهو يمر بالحرف الاخير من موسى مروره بالياء الاخرة من ايدي السابقة ولعله يريد : يا موسَ ، على الترخيم فيكون الخطأ في الطبع

يا عادل في نشر شرع محمد   يا قائم برياسة النقباء

والاحسن : يا عادلاً ، ويا قائماً .

يا منقذي الاسلام والبلد الحرام وحافظي فاروق (؟) من اعداء

يريد : فروق ، وهذا من تحريف الاعلام ، وقد اورده الشاعر نفسه في قوله من ابيات أخر (ص ٢٠٨) :

سنشكركم سكان فاروق .. كلما   دخلنا بيوتاً للتهجد والنسك ..

وما ادري الباعث على اختصاص بيوت العبادة للشكر .. واما تنكير اعداء في البيت السابق فقبيح . ومن رقائق الكتاب ابيات تلاها الآخر في مأدبة (ص ١٩٦) :

هذه ليلة السعود وإني   انا اهوى ليالئَ الاسعادِ
ليلة اشرقت بنور عليّ   ورجال الحكومة الامجادِ
هي مني مكان قلبي من الصدر   ومن ناظري مكان السوادِ

ولآخر قصيدة تذكر في خيار ما في الكتاب ، اعجبني منها قوله (ص ٢٠٩) :

ولم ار كالاخلاص في حب دولة   فكم ارحب الاخلاص من رجُل صدرا
ولم ار كالانصاف في جمع امة   فكم وحّد الانصاف من امة فكرا

ارتقاء المانيا الوطني

تأليف الدكتور كارل هلفريخ وتعريب فليكس افندي فارس

طبع في المطبعة المارونية بحلب سنة ١٩١٦

(ص ١٤٢)

هذه رسالة في ثروة المانيا الوطنية وارتقائها في مدة الخمس والعشرين سنة الاخيرة او التقدم الاجتماعي وارتقاء المانيا الوطني مدة الـ ٢٥ سنة الاولى لحكم الامبراطور غليوم الثاني وفيها حقائق كثيرة عن العوامل الاقتصادية في الامبراطورية الالمانية والطرق التي سلكتها حتى بزت خصومها في هذا الباب وبعض الاحصائيات في هذا الكتاب مملة مطولة وكان على المعرب ان يختصرها ويورد منها ما يكتفي بمعرفته القاريء العربي عن المانيا والا فان التفاصيل والارقام الطويلة قد تدخل الملل حتى على نفوس من كتب الكتاب لهم

. . .

رسائل وكتب مختلفة

الشرق المصور — مجلة اصدرتها ادارة الشرق في دمشق وفيها كثير من صور المشاهير والوقائع الاخيرة وبعض مقالات وقصائد بالعربية والتركية وهي في ١٦ صفحة

الحجاز — جريدة سياسية تصدر ثلاث مرات في الاسبوع في المدينة المنورة مدبجة بيراع رئيس تحريرها محمد بدر الدين افندي النعساني من اساتذة حلب وصاحب كتاب التعليم والارشاد وغيره من الرسائل والمقالات

فتاة الوطن = مؤلفها م. عادل ومعربها محمد علي افندي حشيشو طبعت بمطبعة العرفان مع اصلها التركي سنة ١٣٣٤

رسالة الجهاد على فتوى خليفتنا الاعظم السلطان الغازي محمد رشاد لاديب افندي الجراح طبعت في مطبعة نينوى في الموصل سنة ١٣٣٣ في ٨٨ صفحة

احاديث الاربعين القدسية من الصحف الابراهيمية والموسوية — لمؤلفها اديب افندي الجراح طبعت بمطبعة سرسم في الموصل سنة ١٣٣٢ في ١٧١ صفحة

عظة الناشئين — للشيخ مصطفى الغلاييني وهو كتاب اخلاق وآداب واجتماع طبع في مطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣١ = ١٩١٣ في ١٩٨ صفحة

مفكرة صادر لعام ١٩١٧ وفيها فوائد زمانية وعمرانية

مجلة العالم الاسلامي الالمانية — صدر العدد الاول منها وهو مصدر برسم مولانا السلطان الاعظم وجلالة امبراطور المانيا ومحلى برسوم كثيرة وهو في ٦١ صفحة

« مصور چول » او الصحراء المصورة — هي مجلة تصدر في بئر السبع من اقصى فلسطين بالتركية والعربية مرتين في الشهر يحررها مفتش منزل البادية وفيها رسوم المشاهير وقد صدر العدد الاول منها برسم حضرة الخليفة ورسم انور باشا واحمد جمال باشا

ايقاظ ذوي الالباب في ذم التبرج وكشف النقاب — للشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي طبعت بمطبعة الفيحاء سنة ١٣٣٤

ورسالة هذه الصحيفة وتسمى مسند الامام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد بن الحسين السبط بن امير المؤمنين وامام المتقين علي بن ابي طالب سلام الله عليهم اجمعين طبعت بمطبعة الترقي في دمشق سنة ١٣٣٤

تعزية الخاطئين في اعترافات مار اغوسطين — عربها المونسنيور يوسف العلم طبعت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٩ في ٦٣٨ صفحة صغيرة

اخبار وافكار

نفقات القتل

اقتبست الصحف الالمانية عن احدى المجلات الباريزية جملة في تقدير المال الذي يستدعيه قتل الجنود في ساحات القتال فقالت : معلوم ان كل قتال يبدأ باطلاق نار المدفعيات فلا يلبث المعسكران المتحاربان ان يمطر كل منهما الآخر عدداً كثيراً من القذائف والقنابر من جميع العيارات فما هو الا ان تفرغ عجلات الذخائر وتعود فتملأ بقنابر تؤخذ من المستودعات وهذه تمدها القطارات الواصلة الى اقرب محطة بما تحمله اليها من المهمات والادوات المهلكات . وفي مكان بعيد عن ساحة القتال يعمل عشرات الالوف من الناس في معامل لصنع الذخائر التي تصرف في بضع دقائق في ساحات الحرب . اما نفقات هذه العملية فهي كما يلي :

خذ بطارية مؤلفة من اربعة مدافع من عيار ٧٥ مليمتراً مع اثنتي عشرة عربة للذخائر ترى ان لكل مدفع ولكل عربة قطاراً من الذخائر ولكل بطارية ١٦ قطاراً من مثل ذلك يحتوي كل واحد منها على ٢٤ قنبرة وفي كل عربة ٧٢ فيكون مجموع ما للبطارية من القنابر ١٢٤٨ اي ٣١٢ لكل واحدة فيطلق كل مدفع في الاربع والعشرين ساعة ٤٠٠ قنبرة اي ٢٠ في الساعة على اكثر تعديل وثمن كل قذيفة ٣٠ فرنكاً . ويقدرون ان المدفع لا يعود صالحاً للاستعمال بعد ان يطلق ستة آلاف طلقة . يكلف كل مدفع ١٨٠٠٠ فرنك اي انه يخسر في كل طلقة ثلاثة فرنكات ويبلغ ثمن القنابر التي يطلقها المدفع الواحد في اربع وعشرين ساعة من عيار ٧٥ مليمتراً ١٣٥ الف فرنك وذلك عن ٤٠٠ طلقة فالمئة والعشرون مدفعاً الموجودة مع فيلق من الفيالق تنفق في يوم قتال واحد ١٦٠٠٠٠٠٠ فرنك . وتستدعي المدفعية الضخمة نفقة ابهظ من هذه فقد قدروا ان كل طلقة من مدفع فرنساوي من عيار ٣٢ سنتمتراً تكلف ٦٤١٠ فرنكات . وقد تبين بعد عمل كل حساب مدة المئة يوم التي دامت فيها الحرب على فردون ان كل قتيل أنفق على قتله ٧٥ الف فرنك وقد انفق الانكليز اكثر من هذا القدر في حرب البوير فكان القتيل الواحد يكلفهم مائتي الف فرنك على اقل تعديل وقد كانت نفقات القتيل في حرب البلقان رخيصة

فهل لك نفس غير نفسك هذه فأرخصت فيها السوم اذ نشتري الحمدا
فاي يد تحصى اياديك جمة لقد ضل من احصى النجوم ومن عدا
رأيتك في اجيال برقة قائماً يزين لك الاقدامَ خطب بها اشتدا
جمت قلوباً فرّق الجهل بينها وانفت منها في مجاهلها جندا

ثم قال :

ولو كنت يوماً بالتناسخ قائلًا لقلت ابن سرح في صحابته رُدّا

هذا بعض ما اردت ايراده من شعر الرحلة الانورية واما كتاب «البعثة العلمية» فالشعر فيه اقل من النثر على كثرة ما فيه من المنتقد قال احد شعرائه (ص ١٩٠) :

شرف التمثل بين ايدي اعاظم يبنى عليه تزاحم الادباء

فلا اعلم ما يصنع بياء ايدي المختلسة وهو يمر عليها عند تلاوة البيت مرور الكرام !

يا موسى يا مفتي الانام وشيخهم يا مرجع الاحبار والعلماء

وهو يمر بالحرف الاخير من موسى مروره بالياء الاخيرة من ايدي السابقة ولعله يريد : يا موسَ ، على الترخيم فيكون الخطأ في الطبع

يا عادل في نشر شرع محمد يا قائم برياسة النقباء

والاحسن : يا عادلاً ، ويا قائماً .

يا منقذي الاسلام والبلد الحرام وحافظي فاروق (؟) من اعداء

يريد : فروق ، وهذا من تحريف الاعلام ، وقد اورده الشاعر نفسه في قوله من ابيات أخر (ص ٢٠٨) :

سنشكركم سكان فاروق . . كلما دخلنا بيوتاً للتهجد والنسك . .

وما ادري الباعث على اختصاص بيوت العبادة للشكر . . واما تنكير اعداء في البيت السابق فقبيح . . ومن رقائق الكتاب ابيات تلاها الآخر في مأدبة (ص ١٩٦) :

هذه ليلة السعود وإني انا اهوى ليالىَ الاسعادِ
ليلة اشرقت بنور عليٍّ ورجال الحكومة الامجادِ
هي مني مكان قلبي من الصدر ومن ناظري مكان السوادِ

ولآخر قصيدة تذكر في خيار ما في الكتاب ، اعجبني منها قوله (ص ٢٠٩) :

ولم ار كالاخلاص في حب دولة فكم ارحب الاخلاص من رجُل صدرا
ولم ار كالانصاف في جمع امة فكم وحّد الانصاف من امة فكرا

ارتقاء المانيا الوطني
تأليف الدكتور كارل هلفريخ وتعريب فليكس افندي فارس
طبع في المطبعة المارونية بحلب سنة ١٩١٦
(ص ١٤٢)

هذه رسالة في ثروة المانيا الوطنية وارتقائها في مدة الخمس والعشرين سنة الاخيرة او التقدم الاجتماعي وارتقاء المانيا الوطني مدة الـ ٢٥ سنة الاولى لحكم الامبراطور غليوم الثاني وفيها حقائق كثيرة من العوامل الاقتصادية في الامبراطورية الالمانية والطرق التي سلكتها حتى بزت خصومها في هذا الباب وبعض الاحصائيات في هذا الكتاب مملة مطولة وكان على المعرب ان يختصرها ويورد منها ما يكتفي بمعرفته القارىء العربي من المانيا والا فان التفاصيل والارقام الطويلة قد تدخل الملل حتى على نفوس من كتب الكتاب لهم

. . .

رسائل وكتب مختلفة

الشرق المصور — مجلة اصدرتها ادارة الشرق في دمشق وفيها كثير من صور المشاهير والوقائع الاخيرة وبعض مقالات وقصائد بالعربية والتركية وهي في ١٦ صفحة

الحجاز — جريدة سياسية تصدر ثلاث مرات في الاسبوع في المدينة المنورة مدبجة بيراع رئيس تحريرها محمد بدر الدين افندي النعساني من اساتذة حلب وصاحب كتاب التعليم والارشاد وغيره من الرسائل والمقالات

فتاة الوطن — مؤلفها م· عادل ومعربها محمد علي افندي حشيشو طبعت بمطبعة العرفان مع اصلها التركي سنة ١٣٣٤

رسالة الجهاد على فتوى خليفتنا الاعظم السلطان الغازي محمد رشاد لاديب افندي الجراح طبعت في مطبعة نينوى في الموصل سنة ١٣٣٣ في ٨٨ صفحة

احاديث الاربعين القدسية من الصحف الابراهيمية والموسوية — لمؤلفها اديب افندي الجراح طبعت بمطبعة سرسم في الموصل سنة ١٣٣٢ في ١٧١ صفحة

عظة الناشئين — للشيخ مصطفى الغلاييني وهو كتاب اخلاق وآداب واجتماع طبع في مطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣١ = ١٩١٣ في ١٩٨ صفحة

مفكرة صادر لعام ١٩١٧ وفيها فوائد زمانية وعمرانية

مجلة العالم الاسلامي الالمانية — صدر العدد الاول منها وهو مصدر برسم مولانا السلطان الاعظم وجلالة امبراطور المانيا ومحلى برسوم كثيرة وهو في ٦١ صفحة

« مصور چول » او الصحراء المصورة — هي مجلة تصدر في بئر السبع من اقصى فلسطين بالتركية والعربية مرتين في الشهر يحررها مفتش منزل البادية وفيها رسوم المشاهير وقد صدر العدد الاول منها برسم حضرة الخليفة ورسم انور باشا واحمد جمال باشا

ايقاظ ذوي الالباب في ذم التبرج وكشف النقاب — للشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي طبعت بمطبعة الفيحاء سنة ١٣٣٤

ورسالة هذه الصحيفة وتسمى مسند الامام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد بن الحسين السبط بن امير المؤمنين وامام المتقين علي بن ابي طالب سلام الله عليهم اجمعين طبعت بمطبعة الترقي في دمشق سنة ١٣٣٤

تعزية الخاطئين في اعترافات مار اغوسطين — عربها المونسنيور يوسف العلم طبعت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٩ في ٦٣٨ صفحة صغيرة

اخبار وافكار

نفقات القتل

اقتبست الصحف الالمانية عن احدى المجلات الباريزية جملة في تقدير المال الذي يستدعيه قتل الجنود في ساحات القتال فقالت : معلوم ان كل قتال يبدأ باطلاق نار المدفعيات فلا يلبث المعسكران المتحاربان ان يمطر كل منهما الآخر عدداً كثيراً من القذائف والقنابر من جميع العيارات فما هو الا ان تفرغ عجلات الذخائر وتعود متملئة بقنابر تؤخذ من المستودعات وهذه تمدها القطارات الواصلة الى اقرب محطة بما تحمله اليها من المهمات والادوات المهلكات . وفي مكان بعيد عن ساحة القتال يعمل عشرات الالوف من الناس في معامل لصنع الذخائر التي تصرف في بضع دقائق في ساحات الحرب . اما نفقات هذه العملية فهي كما يلي :

خذ بطارية مؤلفة من اربعة مدافع من عيار ٧٥ مليمتراً مع اثنتي عشرة عربة للذخائر ترى ان لكل مدفع ولكل عربة قطاراً من الذخائر ولكل بطارية ١٦ قطاراً من مثل ذلك يحتوي كل واحد منها على ٢٤ قنبرة وفي كل عربة ٧٢ فيكون مجموع ما للبطارية من القنابر ١٢٤٨ اي ٣١٢ لكل واحدة فيطلق كل مدفع في الاربع والعشرين ساعة ٤٠٠ قنبرة اي ٢٠ في الساعة على اكثر تعديل وثمن كل قذيفة ٣٠ فرنكاً . ويقدرون ان المدفع لا يعود صالحاً للاستعمال بعد ان يطلق ستة آلاف طلقة . يكلف كل مدفع ١٨٠٠٠ فرنك اي انه يخسر في كل طلقة ثلاثة فرنكات ويبلغ ثمن القنابر التي يطلقها المدفع الواحد في اربع وعشرين ساعة من عيار ٧٥ مليمتراً ١٣٥ الف فرنك وذلك عن ٤٠٠ طلقة فالمئة والعشرون مدفعاً الموجودة مع فيلق من الفيالق تنفق في يوم قتال واحد ١٦٠٠٠٠٠٠ فرنك . وتستدعي المدفعية الضخمة نفقة ابهظ من هذه فقد قدروا ان كل طلقة من مدفع فرنساوي من عيار ٣٢ سنتمتراً تكلف ٦٤١٠ فرنكات . وقد تبين بعد عمل كل حساب مدة المئة يوم التي دامت فيها الحرب على فردون ان كل قتيل أُنفق على قتله ٧٥ الف فرنك وقد انفق الانكليز اكثر من هذا القدر في حرب البوير فكان القتيل الواحد يكلفهم مائتي الف فرنك على اقل تعديل وقد كانت نفقات القتيل في حرب البلقان رخيصة

اكثر من ذلك فلم يكلف قتل الجندي الواحد اكثر من خمسين الف فرنك . وقد قالوا ان الذهب الذي انفق في حرب فردون مئة يوم لو جمع ليرات في صعيد واحد لبلغ حجمه ثمانين متراً مكعباً . هذا ما كلفته وقعة واحدة من وقائع الحرب العامة فكم تنفق فيها الامم من اولها الى آخرها يا ترى ؟

التجارة الخارجية

ذكرت جريدة غرفة التجارة العثمانية ان الانكليز كانوا مستأثرين بخمسين في المئة من تجارة الصادرات في المملكة العثمانية والخمسون الاخرى تتقاسمها الامم المختلفة من الاجانب وليس للعثماني حظ فيها سوى خمسة في المئة. كانت تجارتنا من الصادرات ٤٠ مليون ليرة عثمانية في السنة فاذا افترضنا ان الاجانب يربحون عشرة في المئة كان معدل ربحهم من بلادنا اربعة ملايين ليرة في السنة ولا يعود من الربح على الرعايا العثمانيين سوى نصف مليون ليرة . وقد ذكرت الجريدة ان السر في ان العثمانيين ما استطاعوا حتى الآن منافسة الاجانب في التجارة هو ان التاجر الاجنبي متعلم وعنده معارف عامة تؤهله لدخول كل سوق من اسواق الاتجار ولان للتاجر الاجنبي رأس مال كبير وثقة مالية يهبه اياها بنو قومه ويعتمدون عليه دون غيره فقالت لاسبيل الى استيلائنا على زمام التجارة الا اذا تعلمنا التعليم التجاري اللازم على مستوى المتعلمين في هذا الشأن من الاجانب ودخلنا نتمرن في البيوت التجارية المعتبرة اما رؤوس الاموال فيمكن تأليف شركات كوبراتيف للمحاصيل ونقابات كنقابة التين في ازمير التي كان منها رواج هذا الصنف بعد ان كاد يقضي عليه بسبب الحرب فربحت منهُ النقابة ارباحاً طائلة

احصاء مهم

نشر احد الاحصائيين الاميركيين احصاء مهماً اثبت فيه ان الوفيات في الحروب آخذة بالتناقص منذ القرن السابع عشر الى يومنا هذا . قال ان عدد القتلى في الحروب التي وقعت منذ سنة ١٦٣١ الى ١٦٣٤ وهو عهد ادخال الاسلحة النارية واستعمال الحراب كان ٢٥،٥ في المئة ونزل معدلهم في الحروب التي وقعت بين سنتي ١٧٤٥ و١٨١٣ الى ٢٠،٧ في المئة وهبط ايضاً في احدى عشرة حرباً وقعت بين عامي ١٨٥٤

١٨٦٣ الى ٥،٥ في المئة وبين سنة ١٨٦١ و ١٨٧٠ وهو عهد اوائل استعمال المدفع الذي يملأ من مؤخره وذلك في ست حروب من حرب كنكراتز الى سيدان نزل معدل الهلكى في الحرب الى ١١ في المئة ونزل ايضاً الى ١٠ في المئة في سبع حروب من حرب سان جوان الى موكدن اي من سنة ١٨٩٨ الى ١٩٠٥ اما هذه الحرب التى طالت وعرفت بشدتها بحيث لم يسبق لها مثيل في التاريخ فانه يصعب تشبيهها بالحروب التى سبقت وكانت اساساً في وضع هذا الاحصاء

بواكير الشعراء (١)

نريد (ببواكير الشعراء) اوائل اقوالهم الشعرية التي فتحت بها قرائحهم واقتطفت منها ثمار افكارهم وهاك الآن بعض هذه البواكير التي نظمها قدماء الشعراء :

قال الاصمعي : ان اول بيت قالهُ النابغة الذبياني هو :

قذاها ان صاحبهـا بخيلٌ   يحاسب نفسهُ بكم اشتراها

واول كلام نطق به هكطور في الياذة هوميروس اليوناني قوله من ابيات (راجع الالياذة صفحة ٣١٧) :

فأجاب اخوهُ ذو المـدَدِ   بالحـق نطقتَ ولم تزدِ
لك قلب كالصخر الأجدِ   وبصدرك نفسٌ لم تَمـدِ
جهدًا تزداد على جُهـدِ
كالأفؤس تنفذ في الخشب   بذراعي قطـّاع الحطب
وشأَّر الفلكِ المقتضبِ   لقواه تضيق قوى القضبِ
بجامع مصقول الحدِّ — الخ

(١) مقتطفة من مقالة مطولة في (بواكير الشعراء) جامعة لما عُرف من اوائل اقوالهم من اقدمهم الى احدثهم . وقد خصصنا هذه المقالة بشعراء الجاهلية الآن وربما عدنا الى بواكير الشعراء في عصرنا الحاضر

وقيل ان اول ما تكلم بهِ عبد بني الحسحاس من الشعر انهم ارسلوه رائداً فجاء وهو يقول :

انعتُ غيثاً حسناً نباتهُ كالحبشيّ حولهُ بناتهُ

فقالوا : شاعر والله . ثم نطق بالشعر بعد ذلك

واول شعر قالهُ عديّ بن زيد العبادي وكان اول من كتب بالعربية في ديوان كسرى انو شروان :

ربَّ دارٍ باسفل الجزع من دومةٍ اشهى اليَّ من جيرونِ

وندامى لا يفرحون بما نالوا ولا يرهبون صرف المنونِ

وقد سقيت الشمولَ في دار بشرٍ قهوةً مرَّةً بماء سخينِ

واول شعر لامرئ القيس وهو ابن عشر سنوات قوله :

اذود القوافي عني ذيادا كذود غلامٍ غويّ جوادا

فلما كثرن وعنينهُ تخيَّر منها جواداً جوادا

فاعزل مرجانها جانباً وآخذ من درها المستجادا

واول ما فتحت به قريحة طرفة بن العبد البكري قوله لما خرج مع عمه في سفر فنصب فخاً حتى اذا اراد الرحيل ارتجز :

يا لك من قُبَّرةٍ بمعمرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري

ونقري ما شئتِ ان تنقري قد رحل الصياد عنكِ فابشري

لا بدَّ يوماً ان تصادي فاصبري

وروى ابن الاثير : ان اول شعر قاله المهلهل بن ربيعة التغلبي قوله من قصيدة اصلها ١٨ بيتاً :

كنا نغار على العواتق ان تُرى بالامس خارجةً عن الاوطانِ

فخرجن حين ثوى كليبٌ حُسَّرًا مستيقنات بعده بهوانِ

فترى الكواعب كالظباء عواطلًا اذ حان مصرعهُ من الاكفانِ

واول ما تمثل لخاطر عبيد بن الابرص قوله :

يا بني الزَّنية ما غرَّكم لكمُ الويلُ بسربالِ حُجرْ

عيسى اسكندر المعلوف

عدد الشيعة

قرأت في الجزء التاسع من المقتبس مبحث «الشيعة في برّ الشام» للفاضل العاملي الشيخ احمد رضا فاستوقفني قوله ان عدد اهل السنة من المسلمين ١٥٠مليوناً والشيعة ٩٠ مليوناً وتعليقكم عليه بان عدد الشيعة لا يزيد عن ٢٠ مليوناً مع ان الاحصائيات الاخيرة تدل على ان الشيعة لا تزيد عن ١٢ مليوناً كما يتضح من الارقام الآتية

اهل السنة ٢٢٨ مليوناً الشيعة ١٢ المجموع ٢٤٠ مليوناً

اهل السنة بحسب مذاهبهم — احناف ١٤٠ مليوناً شوافعة ٦٤ «

موالكة ١٦ « حنابلة ٧ المجموع ٢٢٨ مليوناً

فيتضح مما مرّ بك ان عدد المسلمين هو ٢٤٠ مليوناً كما قال الاستاذ العاملي والفرق الفارق هو بين تقديره عدد الشيعة باكثر من حقيقتها اضعاف الاضعاف. وعلى ذكر الاسلام والمسلمين نورد هنا بعض الاحصائيات عن المسلمين باعتبار عناصرهم وقاراتهم وتابعياتهم ولغاتهم وغير ذلك مما تفيد معرفته :

المسلمون باعتبار عناصرهم ولغاتهم

(١) الهنود «على اختلافهم»	٦٤ مليوناً	(٢) العرب «على اختلافهم»	٤٥ مليوناً
(٣) الافريقيون والسودانيون	٣٢ «	(٤) الترك	١٥ «
(٥) جزائر ملقة	٣٦ «	(٦) الصينيون	٣١ «
(٧) الايرانيون	٩ «	(٨) البوماق والبشناق	٨ «

المجموع ٢٤٠ مليوناً

المسلمون باعتبار قاراتهم التي يسكنونها — آسيا ١٦٦ مليوناً اوروبا ١٤ ونصف افريقية ٥٩ ونصف المجموع ٢٤٠ مليوناً

المسلمون بحسب تابعياتهم السياسية — رعايا الدولة العثمانية ١٤ مليوناً رعايا الدول الاسلامية الاخرى ١٧ مليوناً رعايا حكومة الصين الوثنية ٣٤ « رعايا الدول المسيحية ١٧٥ « المجموع ٢٤٠ مليوناً

واليك بياناً مسهباً عن عدد المسلمين الخاضعين للدول المسيحية على اختلافها والقارات التي يقيم فيها هؤلاء المحكومون

الدول الحاكمة	المجموع مليون	في افريقية	في اوروبا	في آسيا
انكلترا	٨١	١٨	٠٠	٦٣
فرنسا	٣٥	٣٤	٠٠	١
المانيا	٠٢	٠٢	٠٠	٠٠
ايطاليا والبرتغال واسبانيا	٠٣	٠٣	٠٠	٠٠
هولاندا	٣٦	٠٠	٠٠	٣٦
روسية	١٦	٠٠	١٣	٠٣
النمسا والبلغار والرومان والجبل الاسود	١ ونصف	٠٠	١ ونصف	٠٠
المجموع	١٧٤ ونصف	٥٧	١٤ 〃	١٠٣

اضف الى ذلك ٣٠٠ الف مسلم في جزائر الفيلبين من آسيا و٦٨ الف مسلم في اوقيانوسيا واميركا تحكمهم الولايات المتحدة فيكون المجموع ١٧٥ مليوناً وزيادة في الايضاح خذ لك بياناً عن المسلمين التابعين للحكومات الاسلامية والوثنية على ما يأتي

التابعون للحكومة العثمانية دولة الخلافة العظمى ايدها الله بروح منه

في اوربا ٢ مليون في آسيا ١٢ مليوناً المجموع ١٤ مليوناً

التابعون للحكومات الاسلامية الاخرى وجميعها بآسيا

٣ ملايين ونصف مسقط ونجد وما اليهما من الامارات الصغرى

٤ 〃 〃 الافغان ٩ ملايين ايران المجموع ١٧ مليوناً

والبقية وهي ٣٤ مليوناً بآسيا تحكمها حكومة الصين الوثنية . ويوجد ايضاً ثلاثون الف مسلم في جزيرة سيام ومليون واحد في جزيرة فورموز

هذا ما اوصلنا اليه البحث ولعل الفضلاء من اخواننا المسلمين الضاربين في عرض الارض ينقبون عن هذه الاحصائيات ويعملون على نشرها لتتم الغاية المبتغاة من تعارف المسلمين وتآلفهم وبالتالي اتحادهم وتآخيهم حتى يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وعلى الله قصد السبيل

حيفا «جبل الكرمل» عبد الله مخلص

«المقتبس» ان ما اورده صاحب هذه النبذة في عدد المسلمين عامة والشيعة خاصة هو تقريبي على ما يظهر اذلم يستند فيه الى مرجع تطمئن اليه النفس ولعل بعض المدققين يعيدون النظر في ذلك ويجمعون احصاء اقرب الى الاقناع

441

مجلد الثامن من المقتبس

(ر)

(ز)

(س)

(ش)